

ليو شيانغ

سياسات الدول المتحاربة

ترجمة محسن فرجاني

سياسات الدول المتحاربة

تأليف
ليو شيانغ

ترجمة
محسن فرجاني



سياسات الدول المتحاربة

战国策

ليو شيانغ

刘 向

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩ ٣٦٩١ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الصينية ٢٠٦ق.م–٢٣م.
صدرت هذه الترجمة عام ٢٠٠٨.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

المحتويات

كلمة المؤلِّف

بمناسبة صدور الطبعة الإلكترونية من ترجمة الكلاسيكيات الصينية إلى العربية، يُسعدني ويُشرِّفني أن تَصدر الطبعة الإلكترونية من عيون التراث الصيني، التي ترجمتُها إلى العربية، عن مؤسسة هنداوي للنشر؛ لأسبابٍ كثيرة، منها أن اللغة العربية كانت وسيطًا للتعريف بالصين على مستوًى عالمي، في فترةٍ مهمة من تاريخ الحضارة العربية، إبَّان عصورٍ مضَتْ، وقد جاء الوقت المناسب لمُواصلة هذا الدور في عصرٍ حاضر، خصوصًا عن طريقِ مؤسسةٍ تُتيح تقديم النصوص المُترجَمة إلى القارئ باللغة العربية عَبْر وسيلة إلكترونية أكثر حداثةً وانتشارًا؛ ومنها أيضًا أن المطبعة العربية الورقية، على مدى تاريخها، كانت مُخلِصة لجهود الكتابة عن الصين، في مدوَّنات الرحَّالة والجغرافيين، لكنها تأخَّرت طويلًا في الترجمة عن الصين، وقد حانت فرصةُ تَدارُك ما فاتها، عَبْر وسيلتَين متوازيتَين، هما: تلبية حاجة المكتبة العربية إلى هذه الترجمة التي تركَّزت على مصادر الفكر والإبداع الصيني القديم، وتجاوُز حدود النشر الورقي بالتطوُّر إلى آفاقٍ إلكترونية، وصولًا إلى ساحةِ اطِّلاعٍ أكبر، وتعويضًا عمَّا فات المكتبةَ العربيةَ ترجمتُه من الكلاسيكيات الصينية. وفي تقديري أن قراءة مصادر الفكر الصيني في مدارسه الأساسية؛ الكونفوشية والطاوية والموهية والتشريعية ... إلخ، يمكن أن تُفيد، على نحوٍ ما، في التعريف بالشخصية الثقافية والحضارية للصين، وفي دَعْم جسور الاتصال التاريخي معها، فضلًا عن شيءٍ آخَر أظنُّه من ضِمن واجبات أو مسئوليات النشاط الترجمي في الحضارات العريقة، ومنها مصر، وهو الحفاظ على الذاكرة الثقافية للحضارات الإنسانية الكبرى، وهو مجهود يتجاوز حدودَ أيِّ فردٍ مهما حاول، ومهما ادَّعى من إجادةٍ أو إتقانٍ في أدوات النقل بواسطة الترجمة. وبالمناسبة، فربما يلزم هنا التنويه، أو الاعتراف، بأن ما قمتُ به من ترجمةٍ لأهم كتب التراث الصيني، مثل:

كتاب الحوار، والطاو، وسياسات الدول المتحاربة، وكتاب الأغاني (أو الشِّعر القديم)، وفن الحرب، وغيرها؛ كان يهدف إلى تعريف القارئ العام بمحتوى هذه النصوص، وذلك حين تَبنَّت صحيفة «أخبار الأدب» (دار أخبار اليوم) هذا المشروعَ ودعمَته، منذ اللحظة الأولى؛ ومن هنا فقد رُوعي في مستوى الترجمة البساطةُ والوضوح والسهولة، قَدْر الإمكان، دونَ الغوص فيما تستوجبه ضروراتُ النقل الأكاديمي المتخصِّص، أو التحقيق العلمي الدقيق لنصوصٍ شكَّلت الخصائصَ الذهنية لمنطقةٍ ممتدة في شرق آسيا، أوسعَ كثيرًا من حدود الصين الجغرافية، لتشمل اليابان وكوريا وفيتنام، بل ربما ما هو أبعد من ذلك. ولعلَّ هذا هو الدافع الأساسي الذي شجَّعني على التعاون مع مؤسسة هنداوي؛ ذلك أن مساحة النشر الإلكتروني بمداها الواسع وآفاقها الرحيبة، يُمكِن أن تُسهِم في تحقيق الهدف الأصلي لترجمة هذه النصوص. مع تحياتي وتقديري للقارئ وللمؤسسة، معًا!

محسن فرجاني
القاهرة، في يناير ٢٠٢٢م

الجزء الأول

المقدمة

كان الزمان أواخر عصر دولة خان الغربية (٢٠٦ق.م–٢٣م)، وكان المكان بقعة مظلمة في أحد مخازن القصر الملكي الحاكم، حيث تراكمت ملفات قديمة باقية من زمن «الدول المتحاربة» (٤٧٥–٢٢١ق.م). ولم يكن أحد يدري أن مثل ذلك الكنز يقبع هناك في ذاك الموضع البعيد مَنسيًّا مهملًا، وبرغم قيمة تلك الأوراق التي سُلِّطت فوقها الأضواء فجأة، فقد اتضح أن النصوص مبعثرة وحروف الكلمات مُتآكلة، والصفحات مهترئة؛ كل النُّسَخ تقريبًا كانت مصفرَّة تعاني الأعراض نفسها التي تُصيب الأوراق الراكدة في زوايا النسيان على مدى حِقَب طويلة. وعلى الفور أصدر القصر قرارًا بفحص ومراجعة تلك الملفات، مع الحرص على ضبط وتصحيح المتون، وأُوكِلت هذه المهمة إلى أشهر وأقدَر باحثٍ في التاريخ القديم، وأبرز مُحقق لكتُب التراث، الأديب الشاب «ليو شيانغ». كانت النُّسَخ الموضوعة أمام ذلك المُحقق تشتمل على عناوين مختلفة منها مثلًا: «الملفات الرسمية»، و«الشئون الملكية»، و«المزايا والمساوئ»، و«حديث الشئون العامة»، و«الكتاب الكبير»، بالإضافة إلى عناوين أخرى متفرقة للمجموعة نفسها من الأوراق، وقد استطاع «ليو شيانغ» بصبرٍ ودأب أن يرتبها ويجمعها بين دفتي كتاب واحدٍ تناول في فصوله أحداثًا ووقائع تنتسِب إلى اثنتي عشرة دولة وإقليمًا من عصر «الدول المتحاربة». ولَمَّا كانت معظم المدونات عبارة عن مناظرات وخطط لمُفكرين ورجال دولة ومُخططين سياسيِّين ذاعت شُهرتهم في ذلك الزمان البعيد، فقد وجد «ليو شيانغ» أن أنسب عنوان يُمكن اختياره للكتاب هو: «سياسات الدول المتحاربة»؛ فتناول ريشتَه وخطَّ هذه الكلمات الثلاث برموزٍ عريضة واضحة فوق صفحة الغلاف، وقسَّم محتوى الكتاب إلى ثلاثةٍ وثلاثين جزءًا ترصُد أحداث مائتَين وخمسٍ وأربعين سنةً من تاريخ الصين. كانت بداياتها قد شهدت بزوغ نجم دولتي

«تشين»، و«هان»، وجاء ترتيب تلك الأجزاء تابعًا للسجلات الرئيسية التي حملت أسماء الدول الصينية الكبرى (الدول المتحاربة) كما يلي:

(١) سجل دولة «جو الغربية»، جزء واحد في سبعة عشر فصلًا.
(٢) سجل دولة «جو الشرقية»، جزء واحد في اثنين وعشرين فصلًا.
(٣) سجل دولة «تشين»، خمسة أجزاء في أربعة وستِّين فصلًا.
(٤) سجل دولة «تشي»، ستة أجزاء في سبعة وخمسين فصلًا.
(٥) سجل دولة «تشو»، أربعة أجزاء في اثنين وخمسين فصلًا.
(٦) سجل دولة «جاو»، أربعة أجزاء في ستة وستين فصلًا.
(٧) سجل دولة «وي»، أربعة أجزاء في واحد وثمانين فصلًا.
(٨) سجل دولة «هان»، ثلاثة أجزاء في تسعة وستين فصلًا.
(٩) سجل دولة «يان»، ثلاثة أجزاء في أربعة وثلاثين فصلًا.
(١٠) سجل دولة «سونغ ويه»، جزء واحد في عشرة فصول.
(١١) سجل دولة «جونشان»، جزء واحد في عشرة فصول.

وجملتها ثلاثة وثلاثون جزءًا تشتمل على أربعمائة وستة وثمانين فصلًا، ومع ذلك وبرغم دقة التصنيف، ووضوح الترتيب، وتمام وشمول أجزائه وفصوله لكلِّ ما اتصل من قريب أو بعيد بوقائع الصراع بين الدول الصينية المتحاربة، فقد لاقت نسخة الكتاب المصير نفسَه الذي آلت إليه معظم كتب التراث الصيني القديم — على نحو ما ذكرت في مقدمة كتاب «الطاو» (المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة) — من أن طريقة تدوين الكتب القديمة في الصين، لم تكن تُعنى كثيرًا بضبط المتون ودقة التصنيف؛ إذ كانت توضع لفائف الأوراق متجاورة ومتراصة دون فواصل واضحة، ممَّا أدى إلى خلطٍ هائل بين المؤلفات المختلفة؛ فتجد عدة فصول مثلًا من كتاب «المحاورات» قد اندسَّت وسط أحد نصوص كتاب «فن الحرب»، أو العكس، فلم يكن غريبًا إذن أن يتعرض نص «سياسات الدول» لشيءٍ من التشويه، فتضيع فصوله وسط متاهة تقاليد حفظ المصادر والمدونات القديمة، بل قد أُحيطت نسبة الكتاب إلى مؤلفه — أو بالأحرى — مُوثقه، بظلالٍ قاتمة من الشك. ففيما يتعلق بالنص الأصلي، لم يسلَم الكتاب، في أماكن متفرقة من نسخته القديمة، من تصرُّف النُّسَّاخ بالحذف والتعديل، إذ امتدت أقلام كثيرة تحذف هنا وتزيد هناك باعتبار أن الحذف واجب مَذهبي وقومي، من وجهة نظر كونفوشية

رأت في نصوص الكتاب دعوةً صريحة للتفوُّق الأناني، وإشادة بطرائق الحِيَل السياسية الماكرة، والدسائس الدبلوماسية الخبيثة، وهو ما يُخالف صحيح مذهبها الذي كان وقتَ توثيق الكتاب وتجميعِه رقيبًا صارمًا. وفي أواخر عصر أسرة خان الشرقية (٢٥–٢٢٠م) قام أحد المؤرخين بإضافة الشروح الكونفوشية إلى المتن وحواشيه، فلمَّا كان عصر أسرة سونغ (القرن الخامس الميلادي) تصادف أن كان أحد أشهر أدباء ذلك الزمان اسمه «سن فان» يُطالع أوراقًا قديمة، فاكتشف — بالصدفة — الأجزاء المفقودة من النُّسخة المتداولة لـ «سياسات الدول»، فراجع النص، وأثبت الأجزاء والفصول بعد أن ضمَّ إليها المُتفرِّق. لكن، ولأسبابٍ يطول ذكرُها دون داعٍ، ولأننا لسنا بصدَد المراجعة الدقيقة في تاريخ الوثائق والمُدوَّنات التاريخية الصينية، أقول لعدة أسباب، فقد اختلفت النُّسخة التي أعدها «سن فان» عن سابقتها التي وثَّقها «ليو شيانغ»؛ فقد نقصت بعض الفصول هنا وزادت هناك، لكن الذي بقِيَ في آخِر المطاف أن أمست محفوظات التراث القديم تحتوي على نُسختَين مختلفتَين لكتابٍ واحد، واعتُبِرت النسخة التي حقَّقها «ليو شيانغ» هي الأقدم.

وقد تم اكتشاف إحدى النسخ الأثرية من الكتاب في أواخر عام ١٩٧٣م بمنطقة «تشانغشا» (الصين الشعبية) بإحدى المقابر الملَكية التابعة لعصر أسرة خان الغربية (٢٠٦ق.م–٢٣م) وهي نسخة مطبوعة على الحرير، قام علماء الآثار بفحصها، فظهر أن ترتيب فصولها مُماثل لترتيب النص الأصلي «الأقدم»، ولكن مجموع أجزائها لم يتجاوز سبعةً وعشرين جزءًا فقط. وَوُجِد أن أحد عشر فصلًا منها مطابقة للنصوص الأصلية الواردة في أشهر مدوَّنة تاريخية قديمة، وأعرق المصادر الكبرى لتاريخ الصين القديم على الإطلاق وهي المعروفة بعنوان «سجلَّات تاريخية» بينما فُقِدَت تمامًا الأجزاء الستَّة عشر الباقية. وكانت هذه النسخة تحمِل عنوانًا مختلفًا بعض الشيء «كتاب مناورات الدول المُتحاربة». وهنا ينبغي توضيح مسألة مهمة جدًّا بخصوص عناوين الكتب التراثية الصينية، التي يلاحظ كثيرٌ من الباحِثين المُتخصِّصين وجمهور القراء عمومًا؛ أنها لا تثبت على حال، فتتغير مع العصور وتتبدَّل حتى في العصر التاريخي الواحد، من دون أي تبريرٍ أو سببٍ مفهوم، وبيان ذلك يتَّضح فيما درجت عليه تقاليد توثيق الكتُب القديمة التي تُنسَب إلى آحاد المؤلِّفين، من عدم الاعتداد بالتزام عنوانٍ واحد ثابت، بل كثيرًا ما جرى تغيير العناوين مع اختلاف ظروف النَّسخ وملابسات التدوين، ودواعي المُراجعات التاريخية للتراث، على ضوء المذاهب الفكرية والفلسفات السائدة، فمثلًا، كتاب «حوارات كونفوشيوس» عمدة التراث الكونفوشي، لم يحمل هذا العنوان على نحوٍ دائم إلا في بداية

عصر أسرة خان (٢٠٦ق.م–٢٣م)، وكذلك فإن أشهر نص تراثي في التاريخ الصيني «سجلات تاريخية» لأعظم المؤرِّخين الصينِيِّين قاطبة «صما تشيان»، قل «هيرودوت» الصين، أو «أبو التاريخ الصيني القديم» من غير مُبالغة، كان يُطلَق عليه في القرن الأول لميلاد السيد المسيح «سجلَّات تايشي كون»، وأحيانًا «تايشي كون»؛ ومن ثَم كان مفهومًا أن يأتي تعديل المتن الأصلي تحت عنوانٍ آخر مختلف. وعمومًا فما إن جاء زمن أسرة سونغ الشمالية (٩٦٠–١١٢٧م) حتى كانت النسخة القديمة الكاملة من الكتاب قد فُقِدت تمامًا، ولم يَعُد من الممكن الحصول على نسخةٍ جديدة إلا بتجميع عدد من المخطوطات المتناثرة، حيث تَشكَّل منها جميعًا النص التام لكتاب «سياسات الدول المتحاربة» على النحو المتداول به الآن، علمًا بأن المتن قد تعرَّض لمراجعات مُتتالية وعمليات ضبط وتصحيح أهمها ما جرى له من تحقيق في عصر أسرة «يوان» الملكية (١٣٢٥م)، حيث تم الأخذ ببعض ما قام به الأديب الشاب «سن فان» من تصويبٍ في بعض المخطوطات المُتناثرة الباقية من العصر القديم. هذا فيما أحاط بتدوين النص الأصلي من اضطراب، أمَّا فيما أثير من جدلٍ حول نسبة الكتاب إلى مؤلِّفه «ليو شيانغ»، فقد أثيرت الشكوك وتضاربت الأقوال؛ ذلك أن النسخة الأصلية المُثبتة ليست سوى محصلة متون مُتعددة تُعزى إلى مصادر مختلفة. ثم إن أقلامًا أضافت وأخرى عدَّلت، وبين التغيير والحذف والإضافة ضاعت ملامح القلَم الأصلي الذي قام على التحقيق الأول. عمومًا فقد خرجت نتائج بحوثٍ مُستفيضة حول هذه النقطة، بالتقديرات التالية: أولًا: لا بدَّ أن يكون المؤلف الأول واحدًا ممَّن عاصروا فترة الدول المُتحاربة (٤٧٥–٢٢١ق.م.)؛ ثانيًا: ربما كان هذا الكاتب الأول مُقيَّمًا بإحدى الدولتَين «جو» أو «هان»، ثالثًا: إن جزءًا من محتوى الكتاب قد قام على جمعه أحد الأقلام المجهولة إبَّان عصر أسرة خان الغربية (٢٠٦ق.م–٢٣م) ومن هنا جاء استنتاج كثير من المُتخصِّصين في مبحث التراث الصيني القديم بأن «قدرًا كبيرًا» من المادة التي استفاد منها ليو شيانغ في إعداد نص كتاب سياسات الدول المتحاربة لا يعدو كونه مقاطع مُطولة ممَّا تم تسجيلُه على يد الكتَّاب والمُحققين في عصر أسرة خان الغربية، بل ذهبت بعض التقديرات — في شطحاتها — لتزعُم أن هذا الكتاب بالتحديد، ليس سوى سطوٍ جريءٍ قام به «ليو شيانغ» على كتابٍ آخر بعنوان «جوانيون» يعني «كنز المعاني» حرفيًّا، وهو لِمؤلفٍ مغمور اسمه «كواي تونغ»، وقيل إن هذا المؤلف واحد من المؤلِّفين المُحتمَلين لكتاب «سياسات الدول» لولا اعتراض معظم المُتخصِّصين على هذا الزعم الذي لا يستنِد إلى شواهد قوية، وبراهين قاطعة، ولعلَّ الباعث على إثارة المزاعم حول نسبة الكتاب إلى«ليو شيانغ»

يتمثل فيما هو مقطوع به من أنه — حسب اعترافه هو نفسه في مقدمة كتابه — لم يزد عن أن جمع وثائق مدرسة المناورات السياسية وأقوال المُخطِّطين السياسِيِّين ليضمَّها في كتابٍ واحد، أما إضافته الوحيدة فلم تكن سوى اختياره لعنوان الكتاب، على هذا النحو «سياسات الدول المتحاربة» فقط لاغير!

وزعم بعض الباحثين أن مؤلف الكتاب الحقيقي هو ابن ليو شيانغ، المُلقب ﺑ «ليوشين»، وأنه — أي الابن — صاحب الفضل الأول والأخير في ترتيب وضبط النص، واختيار العنوان أيضًا، بالإضافة إلى مزاعم أخرى تجِد صدًى عند عددٍ من الباحثين المُعاصرين في وثائق التاريخ الصيني. تردَّد أن المؤلِّف الأصلي للكتاب هو«كواي تونغ» — المشار إليه سابقًا، صاحب كتاب «كنز المعاني» — وكان هذا الرجل أحد أشهر رجال التخطيط السياسي في عصر الدول المتحاربة، وقد شارك بنفسه في جهود مدرسة المناورات السياسية؛ لترويج أفكارها. ومدرسة المناورات عبارة عن مذهبٍ فكري شائع في ذلك الزمان، وذلك بإصدار التوصيات واقتراح السياسات والخُطط للملوك ورجال الدول المختلفة، وقد عمل لفترة مُستشارًا سياسيًّا لعددٍ من قصور الحكم، وكان قد وضع، من قبلُ كتاب «كنز المعاني» — المشار إليه سابقًا — ليُضمِّنه الأفكار السياسية الرائجة في ذلك العصر فيما لم يتجاوز واحدًا وثمانين فصلًا، ثم قيل — ردًّا على هذا الزعم وضبطًا لما جمحت به التقديرات: إن كواي تونغ هذا، كان قد بدأ في كتابه «سياسات الدول»، لكنه لم يُكمِله، فجاء ليو شيانغ، من بعدِه، ليستكمل رصد الوقائع التي بدأت بتسجيل عصر «الربيع والخريف (٧٧٠–٤٧٦ق.م.) وينجز التدوين فيُتمُّه عند أحداث توحيد الصين تحت راية دولة تشين (٢٢١–٢٠٦ق.م.).

وربما كان من بين الأسباب التي دعت إلى رواج مختلف المزاعم التي نالت من دقَّة المتن وصحَّة إسناد الكتاب إلى مؤلِّفه أو مُوثِّقه أومُحققه أن طبيعة ذلك العصر — عصر الدول المتحاربة — كانت تحتمل، بل تشجع على تنوع المصادر بما يسمح للوقائع والأحداث التاريخية بأن تُروى بأكثر مِن طريقة وعلى ضوء أكثر من وجهة نظر. وقد كان في ذلك العصر أيضًا، بما شهِده من نشاط فكري هائل، وجدل محموم للآراء، كل الأسباب التي تُبرز نسبة وضع الكتاب إلى دستةٍ من المؤلفين، فلم يكن زمن الدول المتحاربة بالذات زمنًا عاديًّا، بل كان الزمن الذي اشتدَّت فيه الصراعات بين الملوك وحكام الأقاليم، في وقتٍ لم تكن قد تأسَّست فيه — بعد — سلطة حاكمة مركزية تتمتع بدرجةٍ من النفوذ والقوة مثلما تحقق — فيما بعد — على يد «تشين»، ولا كانت «الكونفوشية» أو «الطاوية» أو غيرها

من المذاهب الفكرية والفلسفية القديمة قد تمتَّعت بالاعتراف الرسمي والرواج الشعبي؛ وبالتالي فقد تهيأت بيئة اجتماعية وسياسية وفكرية مُتفتحة، نشطة، وحيوية استصفت من لهب النزاعات مشاعل وأنوارًا للفكر، واستقْطرت نيران المعارك وحرابها معدنًا أصيلًا انصهر في تركيبة آلتها الحضارية الجبارة. كان ذلك هو العصر الذي أُقيمت فيه معجزة البناء العتيد «سور الصين العظيم» كأقوى وأقدم حاجز دفاعي أقامته يد الإنسان على مرِّ التاريخ، وكان ذلك أيضًا هو العصر الذهبي لحضارة تفرَّدت بخصائص ثقافية وحضارية، واستضاءت بهَدْي تجربتها الفريدة.

كان ذلك عصر الجدل الكبير، جدل الآراء والأفكار والتصوُّرات والاتجاهات، مِثلما كان عصر المُساجلات بين قادة الدويلات والحكماء والأبطال والشعراء والفنانين، حيث تشكَّلت ملامح الشخصية الصينية في جوانبها الفكرية والفنية، فظهرتِ الفلسفات والمذاهب الكبرى: «الكونفوشية»، و«الطاوية»، و«القانونية»، و«الموهية»، و«المذهب الأسمى»، و«اليين يانغ»، و«المذهب المختلط»، و«المذهب الريفي»، وغير ذلك من المذاهب الفرعية. ومن بين هذه الاتجاهات ظهرت مدرسة، أو بعبارةٍ أخرى، المذهب الفكري المعروف كمُصطلَح تاريخي باسم: «تسون هنغ»، أي «المناورات السياسية». وقد ظهر هذا المذهب في أجواء المواجهات القتالية الدامية والمعارك التي عمَّت أرجاء الدويلات الصينية في نهاية عصر الربيع والخريف، وظل الناس إبان تلك الفترة يرتدون دروع الحرب، ويحملون الرماح، وينضمُّون تحت رايات الفرق المحاربة؛ إما للعمل ضمن تشكيلات القوات بهدف القتال مع الأطراف المتصارعة، أو للانخراط في صفوف المقاومة الأهلية ضد محاولات الاختراق أو الضم أو الاحتلال. وأصبحت الموضوعات العسكرية القتالية ومسائل العلاقات السياسية تلقى رواجًا بين الناس ووسط دوائر العمل الرسمي، مثلما شغلت أذهان رجال البلاط الحاكم في كل دولة، وبطبيعةِ الصراع الدائر على المُستوَيين العسكري والسياسي، فقد تشعَّبت الأفكار في اتجاهين، ودائمًا أبدًا تتشعب أفكار الصين في اتجاهَين متقابلين أو متناقضَين، وليس بالضرورة متضادَّين؛ فدائمًا ما كان الجدل بين أطراف متنازعة سمةً كامنة في حركة الفكر والحياة في الصين، حتى قبل أن تأتي إليها المادية الجدلية والماركسية بقواعد المنطق الجدلي، بزمان طويل، وتقريبًا منذ أن اهتدت بتأمُّلاتها الفلسفية إلى المقابلة بين الأرض والسماء، ثم بين السماء والإنسان، وبعد ذلك استطاعت بَنظرية «اليين يانغ» أن تؤصِّل رؤية المُتناقضات وتعزو أسرار البقاء إلى التنازُع الدائم بين طرفَين يتجاذبان قُطبَي الصراع لتدور وتتجدَّد دورة الحياة.

الاتجاه الأول: رأى في الموضوعات العسكرية مادةً خصبة للدراسة والتأمُّل، فمن ثم بدأت مدرسة الفكر العسكري تصبُّ جهودها في التأليف ووضع الكتب وعمل المناظرات حول أربعة أقسام محددة، هي: «المناورات»، و«الطبوغرافيا»، و«اليين يانغ»، و«الفنون القتالية»، وكان أهم قسمٍ فيها جميعًا هو «المناورات»، وأشهر روَّاد هذه المدرسة اثنان؛ «سون تزي» صاحب كتاب «فن الحرب» و«سون بين» تلميذُه النجيب الذي أكمل رسالته الرائدة في نظرية الحرب.

الاتجاه الثاني: اتخذ من الدسائس والمؤامرات والخطط السياسية موضوعًا للمناظرات الفكرية وتحقيق أغراض التفوُّق والمطامع التوسعية لدى الأقاليم والدول في نزاعاتها المتبادلة خلال ذلك الزمان الذي يُسمَّى بطبيعة وقائعه بـ «زمن الدول المتحاربة»، وأهم قادة الرأي في هذا الاتجاه الفكري، ثلاثة هم: «سوتشين»، و«تشانغي»، و«كويكو تزي»، فأولئك هم أرباب فنون التخطيط السياسي، ومن مجموع اجتهاداتهم تشكَّلت مدرسة الفكر السياسي القديمة، التي اشتُهرت باسم مدرسة أو مذهب «المناورات السياسية» وهي المدرسة الفكرية التي راجت مقولاتها بين قادة الدول وحكام الأقاليم في صراعهم لتحقيق أطماعهم التوسُّعية. ولئن كان الجميع يعتمِد على القوة العسكرية بصورةٍ أساسية في ميادين القتال فإنهم قد أعطوا أهمية كبرى لآراء رجال التخطيط السياسي، وشاعت في ذلك العصر مقولة «إن النصر أو الهزيمة لا يتحدَّدان في نهاية الأمر بالقوة العسكرية وحدَها، بل بالاستخدام الجيد للوسائل السياسية.» شيء قريب ربما من مقولة «كلاوزفيتز» في العصر الحديث من أن «السياسة هي السلاح بوسائل أخرى.» لكن بمداخل وتفاصيل مختلفة. ولم تكن مهمة رجال السياسة هنالك سهلة؛ لأن تكلفة ما أقدموا عليه كانت تساوي نسف قواعد الأخلاق التي تم إرساء دعائمها في زمن الربيع والخريف — الزمن السابق مباشرة لاندلاع الحرب بين الدول القديمة — وتأسيس مفاهيم جديدة قادرة على استيعاب فنون الدهاء وألوان الدسائس والمُؤمرات؛ مما أفسح المجال لطُرق براغماتية في إدارة الصراع أن تحتلَّ موقعًا محترمًا وسط مذاهب فكرية لمعت بسبب ما أرسَتْ من قواعد للفضائل والأخلاق وأصول المعاملات. وكان طبيعيًّا أن يحدُث الصدام مع الكونفوشية أساسًا، لكن في مرحلةٍ متأخِّرة لأن المذهب الكونفوشي لم يكن قد تغلغل في نسيج الحياة الفكرية الصينية. وبالمناسبة، فلا يمكن في هذا السياق عقد مقارنةٍ بين أفكار مدرسة الخطط السياسية والآراء «الميكيافيللية» من ناحية؛ لأن رجال السياسة الصينِيِّين كانوا حريصين على التواصُل مع الإطار العام للمبادئ الإنسانية

والأخلاقية، فليست هناك غاية يمكن أن تُبرر أي وسيلة، بل قد قيل أحيانًا إن مدرسة المناورات واءمت بين مبادئها ومقولات الفكر الطاوي، ومن ناحية أخرى، فقد كان «ميكافيللي» يملك رؤية، لكنه يحلم بشخصيةٍ أو بطل تاريخي يُجسد رؤاه وأفكاره، في حين كان فلاسفة المناورات في الصين يتجادلون حول أفكارٍ مُتعارِضة في ظلِّ صراع بين أبطال «جاهزين» لهم أدوارٌ واضحة، كل ما يُهمهم البحث عن نظرية واضحة تساعد على بلوغ قمة السيادة والتفوُّق، ولو أن فكرة البطل الرمزي (المُخلِّص الأسطوري) كانت تُراوِد أذهان الجميع.

لكن حتى الصدام مع المبادئ الأخلاقية لم يكن يُقارن بما كان يُؤمَل تحقيقه من مصالح لعروشٍ سعت سعيًا محمومًا لتكوين إمبراطورية عظمى، ولرجال سياسة ومُنظِّرين وجدوا الفرصة سانحة لعرض وجهاتِ نظرهم حول الصراع الدائر بين الدول والأقاليم، والترويج — مِن ثَم — لأفكارهم ونظرياتهم التي تباينَت في محتوها، لكنها كانت تؤلِّف اتجاهًا فكريًّا واحدًا يتزعَّمه قطبان اثنان بلغت شُهرتُهما درجة استحقَّا معها أن ينالا موقعًا فريدًا على ساحة الفكر، جنبًا إلى جنب «لاوتسي» فيلسوف الطاوية، و«سون تزي» المذكور آنفًا، بل يتقاسمون مع «كونفوشيوس» و«منشيوس» أكاليل الشهرة والمجد، وهما: «تشانغي»، و«سوتشين»، وقد اشتُقَّ اسم مدرسة المناورات من مواقفهما السياسية؛ ذلك أن المصطلح الصيني لذلك المذهب — كما سبق أن أوضحت — يُطلَق عليه «تسون هنغ» وهما كلمتان، أولاهما: بمعنى الخط الرأسي، والثانية: المحور الأفقي، فما علاقة ذلك بالصراع الدائر بين الدويلات؟ ولكي نفهم المسألة بوضوحٍ فلنعد إلى مشاهد الصراع التي شدت عصرًا بأسره إلى التناحُر الذي دام قرابة مائتَين وسبعين عامًا بين بضعٍ وعشرين دولة لم تزد أكبرُها قوة ومكانة عن سبع دولٍ كبرى، هي: «تشين»، و«تشو»، و«تشي»، و«يان»، و«هان»، و«جاو»، و«وي» (انظر الخريطة المُلحقة بالمقدمة). وكانت أطماع دولة تشين التوسُّعية تذهب إلى أبعد مما يتخيل أحد، ولم تكن باقي الدول تسمح لها حتى بأن تزعم لنفسها مكانة الدولة المُستقلة؛ لأنها — على حدِّ زعمهم — كانت مُتاخمة حدوديًّا لعددٍ من القبائل الهمجية، وتُئْوي داخل حدودها قدرًا هائلًا من الغرباء والبرابرة، وبالكاد تستحقُّ أن تكون دولة صينية خالصة. المُفارقة أن كلمة «تشين» ستُصبح الاسم المتداول للإشارة إلى الأمة الصينية كلها، بعد التحوُّر اللفظي من تشين إلى «تشاينا» ثم «تشين». وحسب ظاهرة التبادُل بين الأصوات المهموسة، ستتحول في اللسان العربي إلى الـ «تسين» ثم الـ «صين» كما هو مفهوم، وقد نشأت أسباب تدعو إلى الوحدة بين ستِّ دول تكتَّلت في وجه أطماع

تشين المتزايدة، وهو الموقف الذي سانده فريق من قادة مدرسة المناورات بريادة المُفكر الشهير «سوتشين» وتشكلت على هذا الأساس مجموعة المحور الرأسي (تسون) باعتبار أن الوحدة المقترحة هنا كانت تتعلَّق بالدول الواقعة على خطٍّ رأسي — من الشمال إلى الجنوب — أما الفريق الثاني من المُخططين السياسيين فكان ينصح الدول جميعًا بالتحالُف مع تشين في جبهةٍ واحدة مترابطة، وهو الفريق الذي أُطلِق عليه مصطلح «هنغ» أي الخط الأفقي؛ لأن دعوته كانت موجهة أساسًا إلى الدول الواقعة على خطٍّ أفقي من الشرق إلى الغرب حيث دولة تشين تقبع وحدَها هناك تحلم بجبهة عريضة «بحجم الدول والأقاليم التي تحت السماء»، وكان يُمثل هذا الفريق الخبير والمُفكر الاستراتيجي الداهية «تشانغي» وبين هذَين الرائدَين تلخَّصت كل وجهات النظر التي خرجت عن مدرسة الفكر السياسي الصيني في زمانها، وسُمِّيت بذلك الاصطلاح السابق ذكره.

أما المعلم الأول الفيلسوف الأكبر صاحب أول مدرسة سياسية في الصين فهو المفكر «كويكوزي» — الذي يحمل اسمه أحد كُتب التراث الصيني في الفكر السياسي القديم، وهو عبارة عن مجموعة مبادئ نظرية في أصول الفكر الاستراتيجي — وهو الأستاذ الذي تخرَّج على يدَيه رائدا التخطيط المشار إليهما سابقًا.

والحق يُقال إن آراء رجال التخطيط في ذلك العصر لم تكن حلولًا عبقرية أو مجموعة قواعد أو قوانين للفكر السياسي، وإنما كانت مجرد آراء عامة ووجهات نظر مرِنة للتعامُل مع وقائع محددة في مسيرة الصراع بين الدول، وبالتالي فلم تكن قواعد عامة ذات تأصيلٍ منهجي (مثلما نجد في كتاب «فن الحرب» عند «سونزي»، أو «قواعد التخطيط» عند «كويكوزي»، بل كانت هناك سياقات ونماذج مُطولة من أحداث وسرد تفصيلي لوقائع أقرب بخصائصها لشواهد التاريخ منها لمبادئ النظريات أو مناهج الفكر؛ وهو الأمر الذي جعل من النص التاريخي أنسب محتوًى يمكن أن يضم بين جنباته تفاصيل الوقائع والظروف على هذا النحو أو ذاك، ولنُطالع بإيجازٍ صورةً للسياق التاريخي الذي انبثقت منه أفكار مدرسة المناورات، ومن البداية الأولى.

ففي بداية عصر الدول المُتحاربة، كانت دولة «وي» هي الأقوى، ولكن بمرور الأيام راحت دولة «تشين» تُجري إصلاحات داخلية، فتعاظمت قوتها مما أثار انتباه «وي» فسارعت إلى الاستيلاء على دُويلات الشرق، وهاجمت دولة «جاو»، فاستنجد حاكمها بدولة «تشي» التي خفت فورًا لنجدتها ووجهت قواتها تجاه «وي»، وكانت هذه قد ارتبكت أوضاعها الداخلية، فاضطرت لسحب قواتها من «جاو» بهدف إعادة ترتيب أحوالها، لكن

القوات اشتبكت في طريق عودتها بجيش «تشي» الذي قطع عليها الطريق وكبَّدها خسائر فادحة، وراحت «تشي» تطبق سياسة أسمتها «حصار «وي» لإنقاذ جاو» واستعادت «وي» قوتها وقامت في ٣٤٢ق.م بغزو دولة «هان» التي استنجدت فورًا بدولة تشي، فلم تلبث هذه أن أعدت قواتها وقامت في العام التالي باقتحام مدينة «داليان» — أهم مدن «وي» — مما اضطر قائد قوات «وي» أن يسحب جيشه من هان ويعود إلى البلاد في الحال، لكن جيش «تشي» نجح في حصار قوات «وي» مما تسبب في إرباكها ووقوع الفوضى بين جنودها ومُنيت بهزيمة ساحقة. ولم تكد تمر مدة حتى فوجئت «وي» المهزومة بقوات «تشين» تدق عليها الباب وتُدمر البقية الباقية من قوتها وتستعيد منها أرضها المُحتلة، وظلَّت «تشين» منذ ذلك الوقت، تمثل تهديدًا خطيرًا لأمن «وي» مما دعا هذه الأخيرة إلى نقل عاصمتها من آني إلى داليان وإجراء مفاوضات سلمية مع دويلات الشرق بهدف إقامة علاقات ودِّية معها وكانت تلك الدويلات قد تلبَّسها الرعب مما رأت من تعاظم قوة تشين وتطلعاتها لضمِّ أراضي دول الشرق، فتحالفت جميعها وتكتَّلت في جبهة واحدة مناوئة لـ «تشين»، وأقامت دول الشرق جيشًا موحدًا لمقاومة أطماع «تشين»، وأطلقت على سياستها هذه اسم التكتُّل الرأسي؛ فلم تسكت تشين بل عملت بدورها على ضرب سياسة التحالف المناوئة لها، تمهيدًا للزحف نحو الشرق، باستخدام التهديد العسكري والتآمُر السياسي لتفتيت التكتُّل الشرقي، وهو التخطيط الذي عرف تاريخيًّا باسم التحالُف الأفقي. وحسبما تذكُر الوثائق فقد كان أهم رجل يُعبر عن الاتجاه الأول هو رئيس الوزراء والمفكر السياسي «سوتشين»، بينما كان مُمثل الاتجاه الثاني (التحالف مع تشين) رجل الدولة، السياسي الداهية «تشانغي»، ولاقت خطة سوتشين دعم وتأييد الملك «أون» — حاكم دولة يان — ثم لحقت به دولة «جاو» وجاءت في إثرهما كل من: (هان، وتشي، وتشو) على التوالي لتُشكل جميعها التحالف الرأسي أو (التحالف الشمالي الجنوبي، بصيغة جغرافية صحيحة)، وهو التكتُّل الذي وقف حجر عثرة في طريق تقدُّم قوات «تشين» ومعرفة أحوال التكتل الشرقي، ثم دبَّت الفتن بين مجموعة ذلك التحالف، وراحت كل دولة فيه تنظر نحو جاراتها بعين الريبة، وتراكمت التناقُضات بينها، وراحت كل منها تعيد النظر في مواقفها على حدة، وفجأة وسط تلك الأحداث، مات سوتشين رجل التحالف الشرقي القوي، وانهار التكتل دفعة واحدة، وجاء تشانغي — كبير وزراء تشين — يدعو لإقامة التحالف الأفقي أيضًا، وبتعبير جغرافي طبيعي، التحالف الشرقي الغربي، وأساسًا فقد كان هدف تشين عقد التحالف مع دولتي «وي»، و«هان»؛ وذهب تشانغي أولًا إلى «وي» لإقناعها بالخروج عن

التكتل الرأسي والانضمام إلى «تشين» فلمَّا لم يُنصت ملك «وي» إلى تلك الدعوة الواضحة، قامت تشين بغزو «هان» وأنزلت بها تدميرًا مهولًا، مما بسط رُقعة الحذر والخوف في أرجاء الدويلات؛ فأذعنت وي لنصيحة «تشين» وانسحبت من التكتُّل الشرقي لتتحالَف مع الدولة الصاعدة نحو القوة والنفوذ. وعليه، فقد قامت دول الشرق بتوحيد صفوفها، وأعلنت حاكِم دولة تشو رائدًا لتكتُّلها. وهكذا خرجت قوات الحرب المُشتركة والمؤلَّفة من جيش كل من (وي، وتشو، ويان، وهان، وجاو)، وانطلقت لغزو تشين التي صمدت لها وفرَّقت حشودها ومزَّقَتْها بددًا، وترنح التكتل الشرقي، وراحت وي، وهان ترضخان لنفوذ تشين بعدما كانتا قد تمرَّدتا عليها، وتشكَّل من ثلاثتها التحالف الأفقي (تشين، وي، هان) مقابل دولتي (تشو، وتشي) اللتَين صمدتا وحدهما في التكتل المناوئ شوكة في جنب تشين وحليفتَيها الجديدتَين، ولم تتوانَ تشين عن أن تُرسِل رجلها القوي تشانغي إلى الملك «هواي» — حاكم تشو — تدعوه إلى التحلل من مواثيقه مع تشي لينضم إلى التحالف الأفقي، وراحت تُرغِّبه في ذلك بشتى الوسائل حتى إنها عرضت عليه هديةً سخية مقدارها مساحات شاسعة من الأراضي، وعندما ظهرت علامات تشير إلى موافقة الملك على مناقشة الدعوة، وراح يتكلم في تفاصيل الفوز بالهدية، فوجئ بأنه يتعرض لخديعة مُدبرة بعناية فائقة؛ ذلك أن الأراضي الهدية التي قيل إنها عرض سخي لا مثيل له حيث تبلُغ مساحتها ستمائة لي مربع (حوالي ستمائة ميل) فإذا بها لا تكاد تتجاوز ستة أمتار — راجع التفاصيل في سجل دولة تشو «سياسات الدول» — وعلى الفور قامت دولة تشو على قدمٍ لتثأر لكرامتها، وهاجمت تشين في عقر دارها، لكن كان للحيلة ألف قناع، وللدهاء مائة ألف ذراع ماكرة، وكان أن امتدت إحداها بدعوة كريمة لجلالة الملك «شاو» الأعظم — حاكم تشو — ترجوه الحضور بنفسه للقاءٍ عاجل مع أخيه «ملك تشين» الذي يتطلع إلى هذا اللقاء الودي ببالِغ الشوق، وما إن وطئت أقدام الملك أرض تشين حتى أُلقِيَ القبض عليه وأُودع السجن حيث مات غريبًا ذليلًا، وتعقدت الأمور كثيرًا على الجبهة المعارضة لتشين، لكنها بقِيَت على كل حال صامدة وراء أسوارها. وما إن تغلَّبت تشين بالدهاء والحيلة على موقف تشو المُتزمِّت تجاهها، حتى راحت تتبع خطةً سياسية أساسها مصادقة الدويلات البعيدة وضرب دول الجوار بهدف ضم الدول البعيدة بوسائل ودية، مقابل استخدام العنف والتهديد في وجه الدول المجاورة، بل الاعتداء عليها واحتلال أراضيها بالقوة، هكذا توجهت قوات تشين وضربت دولتي (وي، وهان) واستولت على خمس مدن كبرى وأعلن ملك تشين نفسه إمبراطورًا على الأراضي الغربية في مواجهة الإمبراطورية الشرقية التي تقع

تحت سلطان الملك «مين» — حاكم تشي — ثم سقطت تلك الألقاب بعد فترة وجيزة عندما اكتشف كلا الطرفَين أن التوسع المطلوب الذي يليق بمكانة ومساحة إمبرطورية هائلة ما زال أمامه شوط بعيد. وبات من المؤكد حينئذٍ أن كتلة التحالُف الشرقي قد فنِيَت عن آخرها، وكانت التناقُضات بين دُولها قد تفاقمت حِدتها ودبَّ الشك بينهم، فاتجهت الأنظار نحو دولة سونغ ذات الموقع الأوسط بين الدول (تشي، وجاو، ووي) مما أكسب موقعها أهمية استراتيجية. فلمَّا كان العام ٢٨٦ق.م، قامت دولة تشي بغزو دولة سونغ واحتلتها، ثم ضمتها بالكامل إلى أراضيها، وهو ما أثار القلق وسط الدول كافة، فقامت تشين على رأس مجموعة الدول الخمس (تشو، وهان، وجاو، ووي، ويان) بغزو تشي، حيث أنزلت بقواتها هزيمةً منكرة، لولا حدوث بعض الاضطرابات الداخلية في تشين، لما توقف القتال على الجبهة ولا اضطرت الدول الست أن تسحب قواتها تباعًا.

فلمَّا كانت دولة يان قد تعرَّضت لاحتلالٍ غاشم من جانب تشي، ارتكبت فيه فظائع وحشية، فقد ردَّت على العدوان بمثلِه وقامت بغزو تشي والتوغل في عاصمتها «لينزي» مما اضطر حاكم الأخيرة إلى الهرب والوقوع، من ثَمَّ، في قبضة أحد ضباط دولة تشو، فأجهز عليه بسيفِه، وظلَّت دولة يان تعيث فسادًا في أرض تشي مدة خمس سنوات، قامت أثناءها باحتلال أكثر من خمسين مدينة حتى لم يبقَ لتشي سوى مدينتَين اثنتَين فقط، صمدتا في وجه القوات المُعتدية، فلما مات ملك يان وخلفه حاكم آخر قام بتغيير الوزراء وقيادات الجيش، وأقام مكانهم من تهاونوا في شئون البلاد حتى دبَّ الانحلال وانتشر السلب والنهب بين الأهالي وعمَّت الفوضى، فخرج أهالي تشي للمقاومة وقد سنحت لهم فرصة الانقضاض على قوات يان فأوسعوهم قتلًا وتنكيلًا حتى تفكك الجيش وتبدَّدت القوات واستعاد الأهالي بلدهم من براثن الاحتلال، وكانت الأوضاع الاقتصادية تشهد تطورًا طيبًا في زمن الدول المتحاربة، لكن مطالب الأداء الاقتصادي الجيد لم تتوفَّر في ظلِّ أجواء القتال والفوضى السائدة في كل مكان، وبدت آثار ذلك ونتائجه السيئة على حياة الناس ومستوى معيشتهم، وشاعت حالة استياء عامة ونفور من الحرب الدائرة بين الدول، وفي تلك المرحلة التاريخية، ومع تطوُّر الظروف، وفي سياق الأحداث نضجت مطالب عامة تدعو إلى ضرورة الوحدة الشاملة بين الدول والأقاليم، وكانت مجموعة دول الكتلة الشرقية متأخرة نسبيًّا عما حقَّقته تشين من إصلاحات جذرية على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والفني والثقافي في ظل حركة إصلاحية اشتهرت في التاريخ باسم «حركة شانبيان» يعني الإصلاح الشامل، وهو ما هيأ لها المقدرة خلال قرنٍ كامل من الزمان على تأسيس نظام حكمٍ مركزي ذي

طابع (أوتوقراطي) استبدادي ساعد على رفع مستوى الإنتاج وتحقيق استقرار اجتماعي وتقوية قبضة السلطة المركزية الحاكمة، فانطلقت طاقة التطوُّر من عِقالها، وبالطبع فقد حدثت طفرة في القوة العسكرية ظهرت في أداءٍ قتالي مُتميز وتقنية عالية أنتجت أسلحةً متطورة ووضعتها في أيدٍ مؤهَّلة وقادرة على استخدام السلاح. ولم تقف أغراض تشين التوسُّعية عند حدود جاراتها المتاخِمة، بل امتدَّت لتبتلِع كل مساحة أراضي دول التكتُّل الشرقي مجتمعة؛ ذلك أنها كانت قد شنَّت هجومًا كاسحًا في ٢٧٨ق.م على دول الشرق الست، وأسقطت عاصمة دولة تشو، وفي العام التالي واصلَت زحفها لتبسط سيطرتها على مدنٍ وأقاليم ذات أهمية، ثم تقدَّمت وهاجمت دولة هان، وتغلَّبت على قوات جاو بعد أن ذبحت قائدها العسكري أمام جنوده. وكانت معركة «تشانبين» هي التي أرست قاعدة انطلاق تشين نحو تحقيق حلم الوحدة لكلِّ أرض الصين فيما سُمِّي بالمرحلة الأولى لمشروعها التوسُّعي. أما المرحلة الثانية، فقد تقدمت فيها جحافل تشين تحت قيادة جلالة الملك بنفسه، بعد أن أقال رئيس الوزراء عن منصبه وأقام نفسه مكانة، وواصل تقدُّمه بالقوات ناحية الشرق، واكتسح في طريقه دولة هان، وبعدها وي، ثم تشو، وفي ٢٢٢ق.م أسقط عرش دولتي يان، جاو، وفي العام التالي عصف بدولة تشي فجعلها أثرًا بعد عين، وأعلن الملك «وانغ جن» توحيد الصين، وأنها دولة مركزية كبرى، ونصَّب نفسه إمبراطورًا وتلقَّب بـ «تشين شيهوانغ»؛ أي أول إمبراطور لـ «تشين».

وتتَّضح قيمة كتاب «سياسات الدول» في أنه المصدر التاريخي الوحيد، بالقطع، الذي حفظ للإنسانية أهم أحداث ووقائع الفترة الزمنية المُمتدة من عام ٤٩٠ق.م، وحتى ٢٢١ق.م. من تاريخ الصين القديم، وهي الفترة التي شهدت بداية وانتهاء ما سُمِّي بعصر الدول المتحاربة، وقد عرض أساسًا للدور الذي قام به المُخططون السياسيون في معالجة مختلف جوانب الصراع الدائر بين الدول والأقاليم في ذلك الوقت. يكاد الكتاب أيضًا أن يكون هو السجل الوحيد الذي رصد نشاط تلك المدرسة الفكرية، ولو أن مساحة العرض فيه قد شملت كذلك تصوير بعض ملامح المجتمع الصيني، بما يُعظم من قيمته كأحد أهم المدونات التاريخية التي سجلت شكل الحياة الاجتماعية والسياسية وعكست أهم الجوانب الفكرية في حياة المُفكرين والمُثقفين في ذلك الزمان البعيد من تاريخ الصين. وتبرز قيمته أكثر في صياغته الصياغات الشائعة وقتئذ، بل كانت المدوَّنات السابقة مثل كتاب «كوايو»، و«تسوجوان»، و«سجلات تسو» مقيدة بالالتزام الصارم بمبادئ الكونفوشية، وهو ما يُبرز خصائص «سياسات الدول ...» بوصفه كتابة متطوِّرة سمحت بعرض وجهات نظر جريئة

جدًّا، أظهرت — في جانب منها — تحديًا للأصول الأخلاقية المُقررة ومبادئها التي رأت فيما قدَّمته نصوص السياسات من سِيَر ووقائع وأدوارٍ قام بها المُخططون السياسيون من أصحاب وأتباع مدرسة المناورات السياسية في القرارات السياسية وبحثًا عن المنفعة الذاتية بأي ثمن، وإطاحة بكل القيم والمبادئ الإنسانية وأصول المعاملات، وربما كان السخط الكونفوشي على الكتاب، وهو السبب فيما ثار من تشكيكٍ في قيمته الفكرية، ومع ذلك فلم يكن لكلِّ اعتراضاتِ النقَّاد الكونفوشيين أن ينال من المكانة التاريخية للكتاب سوى ما تردَّد من أنه لم يكن ينبغي له كسجلٍّ تاريخي موضوعي ومحترم، وأن يُبرز دور المُخطِّطين السياسيين والمناظرين الفكريين على نحوٍ مُبالَغ فيه، وهو ما نال من مصداقيته كمصدر تاريخي بالغ في إعلاء قيمة دور الفرد على حساب الوقائع التاريخية.

وهنا، فلا بد من توضيح عدة نقاط حول قيمة كتاب السياسات بوصفه مصدرًا تاريخيًّا دون إغفال لما أثارته المآخِذ والانتقادات الكثيرة حول طريقته في التدوين؛ فالكتاب يجري تصنيفه ضمن المصادر التاريخية القديمة باعتباره سجلًّا لمادة تدوين تاريخي رصدت وقائع وأحداث عصر الدول المتحاربة، وهو بهذا المعنى امتداد لتقاليد راسخة سبقته بزمان، ويلحظ الدارسون أنه قد جاء متأثرًا بالصياغات الأسلوبية السابقة عليه في المؤلَّفات الكبرى، مثل: «كتاب التاريخ»، و«سجلَّات الربيع والخريف»، و«تسواجوان»، و«سجلَّات تشو»، ولمَّا كان عصر الدول المتحاربة، بطبيعته، عصر حروب ونزاعات وأجواء مليئة بالقلق؛ إذ رأى الناس بلادهم تسقط تحت الغزو، وأسوارًا كبرى تُقام على رءوس الجبال، فانكفأت النفوس على دفائن وساوسها وأشباح ظنونها، وانفتحت خلال أسوار العزلة طاقات من الخيال المُحتشد بفرسان امتشقت سيوفًا ورماحًا بلون الأساطير، وتنزلت من الرؤى والحكايا أسرار الحكمة تنطق بها ألسنة الفصحاء والمفكرين، ولم يكن رجال الخطط السياسية يحملون أسلحة قتال، بل آراءً وحججًا ذات منطق وبراهين، فكانوا أقرب لصورة الحكماء القدامى منهم لمظهر الموظفين ورجال البلاط الطامعين في المجد والشهرة، بل كثيرًا ما دفعوا أرواحهم ثمنًا لآرائهم، لدرجة أن واحدًا مثل «هان فيتس» وهو المفكر القدير والسياسي العظيم، قُتل غدرًا بسبب وشاية لا أساس لها من الصحة.

وبالتأكيد، فقد كانت ظروف العصر تُملي على المؤرِّخ طرقًا مغايرة في التدوين، وقد كان ليو شيانغ في الأصل أديبًا مشدودًا للمجال الذي يتعاظم فيه دور الشخصية وأثرها في الحياة بأكثر مما يمكن أن يحمِله المكان أو الزمان أو حتى الحدث من دلالات، وقد لمَس بنفسه من خلال الوثائق ذلك الدور العظيم الذي قام به رجال الخُطط السياسية في

زمن الصراع وتأثيرهم في مجريات الأحداث، وظهر أمامه الرمز أوسع أفقًا ومجالًا للتأثير، وربما كانت مُشكلته أن الحدود في تصوُّره تقاطعَت بين المُمكن للبطل في الأسطورة، والمتاح للسياسي في التاريخ؛ ومن ثم تداخلت في طريقة سرده للأحداث تفاصيل الوقائع وملابساتها مع أطياف من المرويات الشعبية والأساطير، وهو الأمر الذي أكسب الصياغة لونًا إنسانيًّا ساهم في إضافة مذاقٍ أدبي للنص — بشكل عام — ولئن اختلف النقاد حول تقدير القيمة التاريخية للكتاب، فإنهم لم يتَّفقوا حول شيءٍ اتفاقَهم على القيمة الأدبية لأجزائه وفصوله. وللإنصاف، فالخصائص الأدبية والتاريخية للكتاب يكمل بعضها بعضًا، باعتبار أن طريقة التدوين جاءت بالفعل طفرةً هائلة، نقلت أسلوب الكتابة التاريخية من تقاليد «التدوين الزمني» بالأيام والسنين، مما كان شائعًا فيما سبقه من نصوص، إلى الكتابة وفق نظام «السِيَر والتراجِم الشخصية» الذي ازدهر فيما تلاه من مؤلَّفات، حتى قيل إن أبا التاريخ الصيني «صما تشيان»، تأثر بأسلوبه فنقل عنه أجزاءً مطولة وهو يضع مدونته الشهيرة «سجلَّات تاريخية».

وفي الجانب الأدبي، فهو أرقى صياغة بلَغَتْها الكتابة الصينية في الزمان القديم والحديث والمعاصر أيضًا بما خطَّ من سِماتٍ أثرت في النصوص الإبداعية المختلفة وخصوصًا الرواية الأدبية من القرن السابع إلى الثالث عشر الميلادي، ويُعزى إلى هذا الكتاب أيضًا إحداث نقلةٍ في طرق الكتابة والتعبيرات والأساليب الإنشائية للغة الصينية في تلك الفترة على نحو ما نجد من تأثير لكتاب «الألفاظ» للهمذاني، أو «فقة اللغة» للثعالبي في تُراثنا العربي. وبكل تأكيد، فكتاب «سياسات الدول …» قطعة من النثر الأدبي التاريخي الجميل، لا يُدانيه كتاب آخر بلغ مبلغَه في جاذبية الوصف وروعة السرد.

هذا، ولا يمكن أن يُؤخَذ على سجل تاريخي قديم أن يحتفي بالدلالات الأسطورية، ولا يمكن لثقافة شعب، أيًّا كان، أن تُرسِّخ قيمة وجودها في جذور التاريخ بغير رموز أسطورية.

ومثلًا، فلم يكن مُمكنًا للرايخ الثالث، في ألمانيا، أن يؤسِّس مشروعية البحث عن مجالٍ حيوي لوجوده في غياب الزعم بالتفوُّق العرقي مستندًا إلى الميثولوجيا الجرمانية. وليغفر لي القارئ استدعاء مثل مَشوب بفظائع ومَحارق ضد الإنسانية، ثم إن أمةً كبيرة بحجم الولايات المتحدة الأمريكية نشأت تحت أضواء العصر الحديث وتشكَّلت في إطار وقائع ملموسة وجدت مَن أدخلَ الأساطير الجرمانية والأنجلوساكسونية في مسرد تاريخها الشعبي.

وعلى أية حال، فالأسطورة، وبمعيار البحث العلمي، تحمل دلالة تفسير لخبايا الضمير الإنساني والأنماط الإنسانية لمختلف المجتمعات الحضارية والثقافية.

ومن زاوية شخصية، فقد كان ذلك العنصر الأدبي الذي أضاف للخصائص التاريخية والفكرية للكتاب مذاقًا جماليًّا فريدًا من بين أكثر الجوانب إمتاعًا في ترجمة الكتاب.

وهذه بالمناسبة، أول ترجمةٍ للكتاب من الصينية مباشرة إلى اللغة العربية — إن لم أكن مُخطئًا — ولا أعرف ما إذا كانت هناك ترجمات له في الإنجليزية أو اللغات الأوروبية الأكثر تداولًا. وكنتُ فيما سبق من ترجمات لكتب التراث الصيني، أُطالِع ما هو متاح من ترجمة في الإنجليزية، متأثرًا بطريقة البحث الأكاديمي في توصياتها بمراجعة المصادر السابقة المنشورة، ذات الصِّلة بموضوع الدراسة، ولا أريد أن أخوض فيما نصحَني به بعض المترجِمين من أعضاء هيئة التدريس من ذِكر تفاصيل متعلقة بالترجمة قد لا تُهم القارئ في قليلٍ أو كثير؛ فما فائدة أن أغرق القارئ في تفاصيل نظريات الترجمة وقضية «المكافئ الترجمي» وآراء شليرماخر، وبارخوتاروف، ورومان ياكوبسون. وبالإضافة إليهم نذكُر يانفو (من الصين)، وهل رأيت مناهج الترجمة الأدبية هي الأنسب، أم تصرفت بمزاج المبدع الفنان، أم وجدت ذلك مستحيلًا لاستحالة الترجمة أصلًا على ما كانت تقول به بعض مدارس الترجمة الألمانية؟

فإذا تجاوزنا عن السؤال بكيف تمَّت الترجمة، فلنحاول الإجابة عن السؤال بلماذا ترجمت هذا الكتاب بالذات؟ والإجابة ببساطة؛ لأنه يقدم جانبًا جديدًا ومختلفًا عما نُطالعه في المؤلفات الصينية القديمة؛ لأنه يسد فجوة معرفية في مبحث المصادر التاريخية المتعلقة بتلك الفترة من تاريخ آسيا وتاريخ الصين، وتاريخ الإنسانية. ولئن كانت الترجمات الأوربية للتراث الصيني تُحدد للقارئ تفضيلات أو أولويات مُعينة في اختيار الكتب والموضوعات المترجمة، فهي من الناحية الأخرى، كانت متأثرة بتقاليد المدارس الصينية واتجاهات تفضيلاتها. ولَمَّا كانت هذه قد ورثت تقاليد عريقة في الفكر موسومة بطابعٍ كونفوشي، فقد استحسنت ما رأته الكونفوشية حسنًا وخسفت الأرض بما لم ترَه كذلك، ولم يكن كتاب «سياسات الدول …» مما يروق أولئك السلفيِّين المتزمِّتين، لكنه يروق لي تمامًا أن أُضيف إلى المكتبة العربية هذا المصدر التاريخي الفريد والنصَّ الأدبي العريق، والوثيقة الوحيدة التي تضمُّ أفكار مذهب المناورات السياسية كما تبدَّت عبر وقائع عصر الدول المتحاربة، وأتمنَّى أن يكون الكتاب ذا قيمة لجمهور القراء وللدارس المتخصص في مادة المصادر التاريخية وللأنثروبولوجي والباحث في الفكر السياسي الصيني القديم وكذلك لمؤرخي الأدب.

وقد حرصتُ في الترجمة أن أنقل عن نسخةٍ صينية مُحققة ومزوَّدة بشروح وافية وقد وضعتُ بين قوسين مُربعين ما يساعد على توضيح المتن من شروح وتعليقات جمعتُها بتصرُّف من كلمات المُحقِّقين والمُعلِّقين والدارسين في غير نسخة من الكتاب علمًا بأن هناك أكثر من نسخةٍ مجانية منشورة باللغة الصينية على شبكة الإنترنت العالمية، وقد وضعتُ قوسَين هلاليين للشروح المصاحبة للنص في النسخة المترجَم عنها، ولم أشأ أن أُحيل القارئ إلى هوامش بعيدة عن المتن حفاظًا على تواصُل السرد، وتوفيرًا لوقت وجهد القارئ، ودفعًا لأسباب المَلل والسأم قدْر الإمكان. على أن معظم الشروح تركَّزت على مقابلة مواقع المدن والعواصم والأقاليم القديمة بما يناظرها على الخريطة الطبيعية والسياسية الحالية للصين، مما يثقل على القارئ ولا يفيد كثيرًا في توضيح مضمون الكتاب، ثم رأيت من الأوفق أن أُلحق به خريطة توضِّح موضع أهم الدول والعواصم والأقاليم في عصر الدول المتحاربة، بالإضافة إلى مسرد زمني للعصور التاريخية الصينية، بحيث يتيسر للقارئ التعرُّف على ملامح المكان والزمان منذ البداية الأولى علمًا بأن طبيعة تدوين الكتاب تسمح بقراءته دون ترتيب، حيث عنوان كل فصل هو الجملة الأولى منه، كأنه قصة أو حكاية منفصلة بذاتها عن سابقتها أو لاحقتها من مدونات الفصول.

وبالطبع — وكما تدرك سيدي القارئ — فالنصوص القديمة تُقرأ في سياق زمنها وعلى ضوء الظروف التي أتاحت للعقل تصوُّرات إنتاجها، وبهذه المناسبة أرجو ألا يُفسَّر اهتمامي بترجمة التراث بأني مُنحاز أو مؤيِّد أو حتى مُتحمس على أي نحو، لإضفاء قداسة أو مُبررات للخشوع والخضوع لكتابات تداوَلَها القدماء، كل القدماء، أو للتسليم بصحة وجلال ما سطرته الأقلام في الصحف القديمة، أي صحف قديمة، وبالعكس، فلم أكن لأتصور أبدًا أي قيمة للتراث في ذاته.

وقيمة التراث الصيني تتضح فيما يمكن أن نُطالِع به، ومن خلاله جانبًا من مسيرة العقل الإنساني في تطوُّره، لعلَّنا نستطيع أن نُسلط أنوار الفهم على فجوات من ظلامٍ دامس تعترض طرق الوعي بالحضارة الصينية، والثقافة الشرق آسيوية عموما؛ ذلك أن أمَّةً عاشت طوال هذه القرون خلف أسوار العزلة اكتسبت مقدرة على التخفي خلف أقنعة رمزية مُسرفة في الغموض، وثقتي بأن شيئًا قريبًا من مفاهيم التحليل النفسي تقوم به الترجمة، أو على الأقل تملك الوعي به، وهي تقوم على ترجمة النصوص القديمة، حيث يمكن الوقوف على طبيعة أنماط أساسية في الشخصية الثقافية الصينية وملاحظة مسارات تطوُّرها وجوانب تفوُّقها وإخفاقاتها الغائرة في أعماق التاريخ. وربما استطاعت عملية

الترجمة أن تُسلط الضوء على تلك الرموز المختزنة وراء النصوص أملًا في تحرير كل طاقات الوعي بالآخر — كما يقولون — ومن ثم تتَّسع دائرة الوعي وتتقدم مسيرة العقل الإنساني، ولا أتصور، من ناحيتي، لأي تراث قديمٍ قيمةً سوى ما يمكن أن يُحققه بهذا المعنى، وأعتذر إن كنتُ قد أقحمت آرائي، لكن التوضيح ضروري، في زمن استدعاء المواريث وتقديس الماضي والأسلاف والارتماء في أحضان الأضرحة وهياكل القبور.

أتمنَّى أن تكون هذه الترجمة إضافة ذات قيمة للمكتبة العربية، ولقد كانت الحضارة العربية، دائمًا تحرص على مدِّ جسورها إلى الصين، وقد جاء حين من الدهر كان فيه البحارة اليمنيُّون وتجَّار العراق ووفود قصور الخلافة في بغداد ورحَّالة المغرب هم أقدر من يعرف طرُق الوصول وخبايا الترحال إلى الصين.

وبعدُ، فإني أُهدي هذه الترجمة إلى رائد الفكر الاستراتيجي العربي، الكاتب والمفكر الأستاذ محمد حسنين هيكل، ويشرفني كل الشرف، أن أقدِّم إليه ترجمة «سياسات الدول …» وقد كنتُ طوال الفترة التي قضيتُها في نقل الكتاب إلى العربية أستشعِر حضوره مهيبًا جليلًا، وتقدير الألفاظ هنا ليس من باب المبالغة أو المجاز، بل — بالفعل — كان حضور الأستاذ هيكل يفرض نفسه منذ أول صفحة في هذه الترجمة بل قبل ذلك بكثير، منذ أن التقيت في الصين بمترجِمين قدامى ومُثقَّفين لم يذكروا من عالم السياسة العربية سوى أسماء قليلة، كان اسم الأستاذ هيكل يلمع من بينها على وجهٍ خاص، فقد كان الرجل الذي التقى بنجوم السياسة الصينية وقادةٍ وضعوا أساس انطلاق الأمة الصينية نحو المستقبل وأمضى في لقائه بهم ساعات طوالًا، حتى بَدَا كأنه واحد من أولئك المُخططين القدامى، أو عبقري ممن أسهموا في صنع التاريخ، كنتُ أتطلَّع في العيون الآسيوية حين تتَّسِع دهشة وتلمع في إعجاب، وشعرت بمنتهى الفخر وأنا أنقل البصر إلى صفحة سماء عريضة مُرصعة بثُريَّات بعيدة من النجوم، آثرت أن تتوارى في شموخ فوق سحاباتٍ قاتمة لتومِض ألقًا هائمًا في عيون ليالٍ مُسهَّدة ترقُب فجر نهار جديد.

وبكل العرفان أشكر الكثيرين ممن بذلوا جهدًا دءوبًا للمعاونة في إعداد المسودة الأولى في هذه الترجمة، سواء بمراجعة المخطوطة ثم تدقيق النص المطبوع، أو تقديم الآراء والمقترحات، مع تحية خاصة للأستاذ جمال الغيطاني، لكلِّ ما قدَّمه ويُقدمه من توصيات في هذه الترجمة وغيرها، فهو صاحب فكرة ترجمة التراث الصيني للعربية بالأساس، ويتفضل مشكورًا — برغم مشاغله — بإبداء توجيهاته وملاحظاته السديدة وكثير مما لا يتناهى ذكره.

وكذلك أتوجَّه بالشكر للمجموعة التي شاركت مباشرة في إنجاز هذا الكتاب وهم — مع حفظ الألقاب للجميع: (الزميل) ماجد الصعيدي، لما بذله من جُهد في المراجعة اللغوية، و(الصديق) سيد محمد قطب؛ فقد كانت آراؤه وأفكاره خير مُعين على مراجعة جهود الترجمة، فكرًا وممارسةً، ولا يفوتني أن أذكر بكل تقدير وامتنان ما قدمته (الزوجة) حنان أحمد مرزوق من جهدٍ كبير في مراجعة النص الكامل للترجمة، بالإضافة إلى مراجعة مصادر الأبحاث المختلفة والمتعلقة بموضوع الكتاب وكان لُملاحظاتها الكثيرة ومشاركتها الإيجابية في تعديل الصياغة أعظم الأثر في إنجاز النسخة التامة لهذا الجزء من الكتاب.

وختامًا، فلا أظن أنَّ تَرجمتي هنا، هي الترجمة المُثلى، بل تبقى الفرصة قائمة — لا بد — لترجمات أخرى يقوم بها زملاء أكثر وعيًا ومقدرة، سواء من العرب أو الصينيين، عن اللغة الأصلية أو غيرها، على نحوٍ أشدَّ دقَّةً وأعظم نجاحًا واقتدارًا.

محسن فرجاني
القاهرة، يوليو ٢٠٠٧

سجل جو الشرقية

لَمَّا قامت دولة تشين بحملة عسكرية

لَمَّا قامت دولة تشين بإعداد حملة عسكرية لغزو جو الشرقية، وأعدت لذلك كل العدة وتهيأت للقتال، رغبةً منها في استعادة الأواني التِّسع (الأواني ثلاثية الأرجل التي اخترعها الإمبراطور «يو» وصارت تتوارثها الممالك، رمزًا للسلطة والمَهابة والجلال) تحيَّر ملك جو وأصابه قلق عظيم، وراح يُفضي بأفكار قلبه للوزير يانشواي، فقال له الوزير: «هدِّئ من روعك يا مولاي، ودعني أُدبر لك مخرجًا، وأستأذنك في الذهاب إلى مملكة تشي الشرقية أطلب منها الدعم العسكري في مواجهة هذا الأمر.» وذهب يانشواي إلى مملكة تشي وقابل جلالة الملك تشي شوان وقال له: «تعرف جلالتكم أن دولة تشين تتصرف في كثير من الأمور بحماقةٍ لا حدود لها؛ لدرجة أنها تستعد الآن لغزو جو الشرقية وذلك في محاولةٍ منها لاستعادة الجيودينغ (الأواني التسع)، وقد غادرت البلاد، وكل رجال البلاط فيها، من جلالة الملك إلى آخر وزير جالسون في القصر لا يغادرونه ليل نهار، يُقلِّبون الأفكار علي كل وجه، وقد أجمعوا رأيهم على أمر واحد وهو أنه من الأفضل أن نعطيكم أنتم الجيودينغ بدلًا من تسليمه لدولة تشين، ولا شك أن في حماية بلدٍ من هلاك وشيك، تعزيزًا للكرامة، والسمعة الحسنة وحفظ ماء الوجه، ثم إن الحصول على تلك الأواني التِّسع يُساوي حيازة أثمن جواهر الأرض جميعًا، فعساك يا مولاي تتدبَّر هذا الأمر مليًّا».

وما كان من الملك تشي شيوان إلا أن رحَّب بهذا الاقتراح، بل فرح جدًّا وراقت له الفكرة، ثم إنه أرسل جيشًا قوامه خمسون ألف مقاتل، وأصدر أمرًا بتعيين «شنسي» قائدًا عامًّا لذلك الجيش مع تكليفه بالدفاع عن دولة جو الشرقية، وعندئذ، توقفت شين عن استعدادات الغزو العسكري.

وتوالت الحوادث، وكان أن أعربت دولة تشي عن رغبتِها في الحصول على الجيودينغ، وعاد ملك جو سيرته الأولى مع القلق والهموم، ومعه في ذلك رجال البلاط جميعًا، فقال له الوزير يانشواي: «على رِسلك يا مولاي، دعني أيضًا هذه المرة أذهب إلى دولة تشي علَّني أجد مخرجًا من هذا المأزق.» وذهب إلى تشي، وقال لجلاله الملك تشي شيوان: «إننا في دوله جو الشرقية، من جلالة الملك إلى الوزراء ورجال البلاط وكل رجل وامرأة ووالد ومولود، نعتمِد على مآثركم الطيبة، وجميل صنيعكم معنا، فبذلك وحدَه تقرُّ عيوننا أمنًا وسلامًا يا مولاي، أما بخصوص الجيودينغ لجلالتكم، فلا ندري ما هي أكثر الطرق ملاءمة للمرور عبر أراضيكم، كي تسلك بها قوافل البعثة الآتيه إليكم؟» فأجابه الملك تشي شيوان، قائلًا ما نصه: «أرى من المُمكن أن نستأذن دولة وي في استخدام أحد ممراتها» فرد عليه يانشواي قائلًا: «لكن ملك وي يرغب في اقتنائها، وقد سبق له السعي في ذلك حتى إنه حشد رجاله وتدبر الخطط التي تُوصِّله إلى الحصول عليها، فلو دخلت الجيودينغ إلى بلاده، فلن تخرج منها بعد ذلك أبدًا» فعاد الملك تشي شيوان يقول: «إذن فلنستأذن دولة تشو في السماح لنا بالمرور عبر أراضيها!» فأجابه يانشواي وقال: «مستحيل يا مولاي، لأن ملك تشو يتطلَّع هو أيضًا للحصول على الجيودينغ، وقد وضع الكثير من الخطط لتحقيق هذا الغرض، وقد مضى عليه وقت وهو يتحيَّن الفرصة منذ زمانٍ بعيد، فما إن تعبر الأواني التسع إلى بلاده حتى تتوارى عن الأنظار وتختفي إلى الأبد.» وهنا قال له الملك تشي شيوان: «فمن أي طريقٍ إذن نستطيع أن نسلك بها إلى مملكتنا؟» فأجابه يانشواى: «لا أخفي على جلالتك أننا في دولة جو نشعر بمدى القلق والحيرة التي تُحيط بكم إزاء هذه المسألة، فالجيودينغ ليس مجرد قنينة خلٍّ ولا علبة مُخللات أو أي شيءٍ يمكن إخفاؤه في طيَّات الملابس لدى السفر إلى بلادكم، ولا هو حتى كالطيور المُحلقة بأجنحتها، أو الداجن حبيس الأقفاص، أو الخيل الراكضة، مما يمكن إطلاقه في رحب الفضاء أو في منبسط الخلاء، فينفُذ إليكم بغير عوائق، لقد كانت الأواني المقدسة أعظم شيءٍ غنِمَتْه مملكتنا في الزمان، عندما خرج ملوك جو الشرقية في حملات لتأديب العصاة في دولة «يين»، فوقعت الأواني التسع في أيدينا، وكانت أثمن ما فُزنا به من غنائم الحروب جميعًا، وكان منظرًا مَهيبًا يوم أن رأيناها محمولة على الأعناق، يتهادى بها الجنود في حشود بلغ عدد الرجال السائرين فيها بالآنية الواحدة تسعين ألفًا، فإذا عددنا المعاونين، بلغ الإجمالي ثمانمائة ألف فرد، ثم إننا نحتاج إلى عددٍ مُماثل من الجنود والعمال والخدم لصُنع الآلات وإعداد الملابس والأدوات اللازمة للنقل، ولا شك أن جلالتك تملكون كل الأدوات الضرورية ولديكم الأعداد المطلوبة من

الرجال وزيادة، لكن المشكلة في آخِر الأمر تكمُن في كيفية السير بكل هذا العدد وهذه العدة عبر طريق مُتاح ومأمون؟ لا أخفي على جلالتك يا مولاي أني أُشارككم مزيد القلق والحيرة والظنون!» وهنا قال له الملك تشي شيوان: «لكن وبرغم كل تلك المحاولات من جانبك فلا أرى أنك تريد حقًّا تسليم الجيودينغ إلينا!» فأجابه يانشواي: «أبدًا يا مولاي بل أصدُقك القول في كلِّ ما حدثتُك به، فقط عَيِّنْ لنا الطريق الملائم للمرور وستجِدنا جميعًا في دولة جو رهن إشارتك، ولن نتخلَّف عن نقلها إليك، ثم إن الملك تشي شيوان توقف في نهاية الأمر عن اتخاذ أية تدابير للمطالبة بالجيودينغ وطرح الفكرة كلها جانبًا».

لمَّا أغارت قوات تشين

لمَّا أغارت قوات دولة تشين على بلدة إيانغ التابعة لدولة هان، استدعى الملك جشونان (ملك دولة جو) مُستشاره «جاولي» وسأله: «كيف ترى عاقبة الأمور؟» فأجابه: «ستتدمَّر المدينة على يد قوات تشين»، فقال الملك: «صحيح أن المساحة الكلية للمدينة لا تتجاوز ثمانية أميال مربعة، لكن عدد العسكريين المُدرَّبين الأكفاء المُقيمين بها يتجاوز العشرة آلاف مقاتل، كلهم في غاية الجسارة والبطولة، بالإضافة إلى مئونة كافية من الحبوب تستطيع أن تعيش عليها المدينة لسنواتٍ طويلة قادمة، ثم إن هناك قوات نظامية تابعة لدولة هان تحت قيادة كونجون، تعدادها عشرون ألف مقاتل، وبجانب هذا، فهناك القوات التابعة لدولة تشو تحت قيادة «جين سوي» وقد تحصنت بمحاذاة السفح الجبلي في حالة تأهُّب قصوى، فمن ذلك كله أرى استحالة وجود أية فرصة نجاح أمام قوات تشين.» فأجابه جاولي قائلًا: «تعرف جلالتكم أن دولة تشين تتصرَّف مع قائد جيوشها جانمو بوصفه مستشارًا عسكريًا تحت الطلب، فهو مجرد ضيف مُقيم يعمل عندهم بغير أجر، فإذا أُتيح له أن يُحرز نجاحًا في الهجوم على «إيانغ» فسيترقى ليُصبح واحدًا من أعظم النبلاء في مملكة تشي بأسرها، أما إذا أخفق فسيفقد كلَّ فُرَص الترقي، حتى الوظيفة الاستثنائية التي يشغلها حاليًّا فسيفقدها أيضًا ويعيش مُشردًا، هذا بالإضافة إلى أن ملك دولة تشين نفسه قد قام بالهجوم على إيانغ مُتحديًا في ذلك آراء من حوله من رجال البلاط والحاشية؛ ولذلك فإن عجزه عن مهاجمة المدينة واحتلالها سيضعه في موقفٍ مهين للغاية، فمن ثَم أميل إلى الرأي القائل بأن المدينة مَقضي عليها، لا مفر، تحت ذلك الهجوم.» وبناء على هذا التقدير، قال له الملك جشونان: «ضع لي إذن خطة للتصرُّف على ضوء تلك الظروف.» فأجابه جاولي: «أرى يا مولاي أن تقول «لجين سوي» إن مكانته الاجتماعية ارتقت إلى

أرفع المراتب، فهو الآن يحمل رُتبة أعظم النبلاء، وإن وظيفته الرسمية الآن أرقى المناصب، فإذا أبلى بلاءً حسنًا وانتصر، فلن يترقى اجتماعيًّا أو وظيفيًّا إلى ما هو أرفع من ذلك ما دام قد بلغ أسمى منزلة، أما في حالة عدم فوزه بالنصر، فسيلقى حكمًا بالإعدام، فمن الأفضل له أن يؤجل المواجهة مع دولة تشين الآن، ويلتفت إلى دعم الموقف الدفاعي في إيانغ على أن تبقى قواته جاهزة للتحرك، فإذا صدر لها الأمر بالاشتباك فسوف يعني ذلك أنها تتحرك لتشغل حالة الضعف والإنهاك في قوات تشين، مما سيُوقع الرعب والارتباك بين صفوفها، وستحاول دولة تشين وقتئذٍ أن تُرسِل إليك أثمن الهدايا (هكذا)، وسيزيد قدرك في عين القائد كونجون، ويتيه بك إعجابًا وفخرًا لأنك عرفتَ كيف تستغل نقطة الضعف في خصمك فانتصرتَ ورفعت الحصار عن إيانغ، وربما بالغ في إكرامك وأرسل إليك بأثمن الهدايا».

ثم إن قوات دولة تشين أغارت على مدينة إيانغ، فتصدَّت لها كتائب الدفاع التي يقودها جين سوي، فدخلت الرهبة في نفوس قادة تشين، وبلغ بهم الخوف مداه، وراحوا يُفكرون في طريقة يسترضون بها جين سوي، حتى اهتدوا إلى أن أعطوه مساحاتٍ شاسعة من مزارع النخيل، كما أن دولة هان راحت تُمطره بأثمن العطايا والهبات تقديرًا وعرفانًا، وهكذا اجتمع له النفع من جهتَين، فقد حاز أرضًا تُتاخِم حدود دولة تشين، ونال جزيل العطاء من حلفائه بدولة هان، وفوق ذلك كله، فقد لقي مزيد الامتنان من قِبل البلاط الحاكم لدولة جو الشرقية.

لمَّا قامت الحرب بين جو الشرقية وجو الغربية

لمَّا قامت الحرب بين جو الشرقية وجو الغربية، أخذت دولة هان تُعد العدة لإرسال قوات عسكرية معاونة لدولة جو الغربية دعمًا لدفاعاتها، فأرسل ملك جو الشرقية رسولًا إلى حاكم دولة هان الملك هان تشي يانغ، يقول له: «إن جو الغربية كانت فيما مضى إمبراطورية مُترامية الأطراف، فاجتمع لها ما يجتمِع للممالك السماوية من الكنوز والثروات مما يعزُّ على الوصف، ولئن قامت دولتكم بتجميد تحركات قواتها، وأوقفت إرسال أية معونة عسكرية إلى الأطراف الأخرى، فسيكون ذلك من أسباب تقدير دولة جو الشرقية لتصرُّفكم والنظر إلى الأمر بعين الامتنان، وفي الوقت نفسه، فسيصبح بإمكان دولتكم الحصول على جميع الثروات والكنوز والنفائس الموجودة بدولة جو الغربية وضمها لملكيتها العامة».

لمَّا قام النزاع بين دولتي جو الشرقية والغربية

لمَّا قام النزاع بين دولتي جو الشرقية والغربية، أرادت جو الغربية عقد التحالُف والوحدة مع دولتي تشو، وهان، ثم إن الوزير «تشي منغ» قال لملك جو الشرقية: «إن أكثر ما نخشاه يا مولاي، هو أن تقوم جو الغربية باستمالة دولتي تشو وهان إلى جانبها، وذلك بتقديم شتَّى الإغراءات، وربما أوعزت إليهما بأن يقوما بدلًا منهما بالاستيلاء على أراضٍ تقع تحت سيادة مملكتنا، ولا أرى إلا أن نُوفِد لهما رسلنا إلى كل من هان وتشو فنُبلغهما أن وعود جو الغربية لهما بإقطاعهما أراضيَ أو بمنحهما هباتٍ أو ثروات لا يعدو مجرد كونه احتمالًا يتأرجح بين كفتَي الشك واليقين، والتردُّد فيه يغلب الرجحان، افترضا، مثلًا، أن قوات جو الشرقية قررت فجأة سحب قواتها والتراجع عن التهديد بغزو أراضي جو الغربية، حينئذٍ لن تمنحكم دينارًا ولا درهمًا، وتخرجان من الصفقة دون أن تعمر لكما خزانة، أما إذا أردتما حقًّا الحصول على ما تُغريكما به من كنوز وثروات على نحو ملموس، فينبغي أن تدفعانا دفعًا لغزو أراضي جو الغربية، ووقتئذ تغمركما بأثمن ما تملك ويصير لنا الفضل فيما تنعمان به من وافر الرخاء، فبقدر ما يزيد لكما النفع، تنقص مقدرات جو الغربية وتتدهور أحوالها بمرور الوقت».

لمَّا حان موسم زراعة الأرز

لمَّا حان موسم زراعة محصول الأرز في دولة جو الشرقية، قامت جو الغربية بقطع مجاري الأنهار عنها، فاغتمَّ الناس لذلك وأصبحوا في همٍّ وقلق، فذهب الوزير سوتزي إلى ملك جو الشرقية، وقال له: «هلَّا سمحتَ لي جلالتك، بالذهاب إلى جو الغربية علَّني أقنعهم بفتح قنوات الترع والأنهار؟»

فلمَّا ذهب وقابَل ملك جو الغربية، وتكلَّم معه قائلًا: «تلك يا مولاي خطة غير ناجحة، وتصرُّف يُجانبه الصواب! ولعلك لا تدري أن قرارك بإغلاق مجاري الأنهار وحبس المياه عن جو الشرقية كان سببًا رئيسيًّا في فتح ينابيع الخير كلِّه على الناس هناك، أما دريتَ أنهم الآن قد تركوا بيوتهم وبقوا في المزارع يُواصلون الليل بالنهار في زرع القمح، فهم الآن لا يزرعون شيئًا سواه، فلئن أردتَ يا مولاي أن تضاعف لهم المحنة وتُعسِّر عليهم الأرزاق، فما كان أجدر بك أن تفتح كل قنوات الري، فتغمر أرضهم بالماء فيغرق القمح في الحقول، وبهذه الزيادة الهائلة في منسوب الري ستُضطر دولة جو إلى العدول عن زراعة القمح

وغرس شتلات الأرز، فإذا ما صارت زراعة الأرز هي عماد المحاصيل المزروعة في البلاد، استطعت أن تتمتع بقدْرٍ من النفوذ والغلبة على هذا النحو، فسيشعر أهالي جو الشرقية أن أقدارَهم مُعلقة بأيديكم، ويُصبح أمرك مطاعًا، وحكمك فيهم ماضيًا». فعندئذ، تأمَّل الملك تلك الفكرة، فراقت له وتحمس لها، ثم أصدر أمره بفتح المياه عن آخرها، وحصل الوزير سوتزي على أثمن الهدايا من كلتا الدولتَين.

لمَّا حضر مستشار دولة تشو إلى يانغ تشاي

لمَّا حضر مستشار دولة تشو (الوزير جاو شان) إلى مدينة يانغ تشاي، فكر ملك جو الشرقية في أن يُرسل مستشاره الشخصي ليكون في استقبال ذلك الضيف، إلا أن مستشار الملك كان مُترددًا، لا يرغب في أداء تلك المهمة، ثم إن سولي تفهَّم ذلك الموقف وراح يقول لجلالة الملك: «في الماضي القريب، عندما التقى ملك دولة تشو مع ملك دولة «وي» قامت الدولة المُضيفة بإرسال الوزير «تشن فنغ» إلى دولة تشو ليكون في صحبة الملك حتى قبل أن تبدأ الزيارة الرسمية، وعندما تقابل ملك تشو مع ملك دولة هان، قامت الدولة المُضيفة بإرسال الوزير شوكون إلى دولة تشو ليرافق الملك خطوة بخطوة طوال مدة زيارته، وبالتناظر، تم إرسال الوزير شيان كونغ إلى دولة هان ليصحب الملك قبيل بدء الزيارة، أما الآن وقد علمت أن جاوشيان هذا ليس هو الملك الحاكم للدولة المُضيفة فإن جلالتك تصر على إرسال مستشارك الشخصي ليصحبه في أول مراسم الزيارة، فمَن ستُرسل إذن يا مولاي إذا قدم عليك ملك دولة تشو بنفسه؟» وفكر ملك جو الشرقية برهة، وفهم القصد الذي وراء الكلمات، وقال: «نعم، والحق معك»، وقام على الفور بإلغاء قراره السابق.

لمَّا تقدمت دولة تشين بطلب رسمي

لمَّا تقدمت دولة تشين بطلب رسمي إلى جو تُعبر فيه عن رغبتها في تأجير أحد الطرق المارة بأرض المملكة لاستخدامه في نقل قوات الحملة العسكرية التي تعتزم إرسالها لشن هجمات تأديبية على دولة هان، تردَّدت تشين في الموافقة خشية أن يتسبَّب ذلك في إفساد العلاقات مع هان، لكنها أيضًا رأت أن رفض الطلب يُمكن أن يُغضب دولة تشين ويمسَّ هيبتها، ثم إن «شيان» أحد كبار رجال البلاط بدولة هان ذهب إلى جو الشرقية، وقابل جلالة الملك، وقال له: «ما الذي يمنعك يا مولاي من أن تُرسل رسولًا إلى رئيس وزراء

دولة هان (السيد كونشو) تقول له: «لئن كانت مملكة تشين تُقدم على خطة لنقل قوات الحملة التأديبية عبر أراضي دولتنا (جو)، فإنما يدل ذلك على أنها تولينا قدْرًا من الارتياح والثقة، ولا أدري ما الذي يَمنعكم من أن تمنحونا مساحاتٍ خالية من الأرض مثلًا، وما الذي يمنعكم أيضًا من إرسال وفود دبلوماسية إلى دولة تشو على أن يترأس تلك الوفود كبار رجال القصر؟» إن الإحجام عن مثل تلك المُجاملات كفيل بإثارة الشك والريبة لدى دولة تشين مما يدفعها للتوجُّس منا، وبالتالي تتفادى دولة هان أخطار الهجوم الوشيك، وتتوقف حملات التأديب المُزمعة ضدَّها، وعقب ذلك مباشرة، تقوم جلالتكم بإيفاد رسول إلى دولة تشين ليقول: «لقد عرضَتْ دولة هان علينا عروضًا بالغة السخاء تتمثل في التنازل عن مساحات من أراضيها، والسبب في ذلك واضح بأنهم يريدون إثارة شكوك دولتكم في موقفنا، وهو الأمر الذي يرفضه ملِكنا جملةً وتفصيلًا، مثلما يترفع عن قبول تلك الإغراءات، وبالطبع فان مملكة تشين سترى أنه من غير المناسب، بل غير المنطقي أن تطلب دولتكم التخلي عن قبول ضم مساحات إضافية إليها، وبالتالي فستكسب جو الجولتين مرة واحدة؛ فمن ناحية ستضمُّ أرضًا جديدة من أراضي دولة هان، ومن ناحيةٍ أخرى تُلبي طلب دولة تشين بكل ودٍّ واحترام».»

لمَّا حاصرت قوات تشو مدينة يونغ

لمَّا حاصرت دولة تشو مدينة يونغ التابعة لدولة هان، قامت دولة جو الشرقية بإمداد كلٍّ من الدولتَين بالمواد الغذائية وهو الأمر الذي أثار غضب واستياء حاكم تشو، وأصبحت الأجواء مثقلةً بالقلق والتوتر في أروقة البلاط الحاكم في تشو، وجو الشرقية، وذهب رسول من هذه الأخيرة إلى حاكم دولة تشو وقال له: «إن الغضب الذي تجيش به صدوركم يا مولاي يُثير مزيدًا من القلق والتوجُّس لدى جو الشرقية والنتيجة الضرورية المُترتبة على هذا الأمر، هو أن تتحالف جو مع الدُّوَل التي تتلقَّى منها الدعم الغذائي، وهو ما سينجم عنه زيادة صلابة الجبهة المناوئة لكم، فمن ثم، يُصبح التصرف الأنسب في مثل هذه الظروف هو أن تبادر جلالتكم وبأقصى سرعة إلى إزالة أسباب القلق لدى دولة جو، ولئن كانت قد اتخذَتْ إجراءاتٍ تضر بمصالح جلالتكم، فلا بد أنها في قادم الأيام، وبعد أن تلمس منكم الصبر والفهم وتقدير الظروف، ستضاعف من حجم خدماتها ورعايتها لمصالحكم».

لَمَّا التقى جو تسوي بالوزير الهارب ليو لي

لَمَّا التقى جو تسوي (ولد أحد وزراء دولة جو) بالوزير ليو لي [أحد مواطني دولة تشي، وكان أحد وزراء دولة «إيجو» يدبر لاغتياله، ففر هاربًا ونزل ضيفًا في طريقه على دوله جو]، وتحدث معه وكان من جملة حديثه أنه قال له: «لماذا لا تحث دولة تشن على غزو دولة تشي، ثم تُحاول أن تجعل هذا الإجراء خادمًا لغايتك؟ أو على الأقل ائذن لي أن أتحدث مع جلاله الملك بدولة تشي علَّني أستطيع إقناعه بتعيينك وزيرًا في مملكته، وبالتالي يُمكنك أن تقدم خدمات عديدة لدولة تشين من خلال هذا الموقع الرسمي، وأنا واثق تمام الثقة من أنك لن تتعرض لأية متاعب مستقبلية، ثم إنك تستطيع إذا ما تقلدتَ تلك الوظيفة أن تُكلفني بمهام وظيفية عُليا في دولة وي، بحيث أقوم بالتنسيق لخدمة مصالح تشين، وبهذه الطريقة يَصير كل النبلاء ورجال البلاط في قبضة يدك؛ ففي الشرق تدين لك دولة تشين فتسمو منزلتك، ويلمع نجمك وتبلغ ما لم يبلغه أحد قبلك من الرفعة والعزة فإذا ما اتحدتِ الدولتان «تشين»، و«تشي» أصبح الكل يلهج باسمك امتنانًا وعرفانًا على طول المدى».

لَمَّا قدَّم مستشار الدولة ضيفه الكريم

لَمَّا قام مستشار دولة جو الشرقية (السيد لو سانغ) بتقديم أحد ضيوفه إلى البلاط الحاكم، كان المُستشار السابق كون شيجي يشعر ببالغ القلق خشية أن يصدُر عن هذا الضيف في حضرة البلاط افتراءات أو وشايات كاذبة تُسيء إلى سمعته وتضر بشخصِه وكرامته أمام الناس، فأرسل مبعوثًا ليُبلغ القصر بما مفاده: «إن هذا الضيف فصيح اللسان، قوي الحجة والبيان، خطيب مُفوَّه لا مثيل له بين الناس، إلا أنه — برغم هذا — ليس محلَّ ثقة، ولا أهلًا لصون العهود وحفظ المواثيق، بما عُرف عنه من الميل إلى الدسِّ والوشاية والسعي إلى بذْر الكراهية والبغضاء بين الناس.»

لَمَّا قام البلاط الحاكم بسحب الثقة

لَمَّا صدر عن البلاط الحاكم بدولة جو الشرقية فرمان بسحب الثقة من مستشار الدولة (كون تشيجي) وإقالته من منصبه وتعيين المستشار (لو سانغ) بدلًا منه سادت مشاعر الاستياء في أروقة الحكم بين رجال البلاط، بل إن جلالة الحاكم نفسه لازمَه شعور جارف بالحيرة والقلق.

ثم إن الضيف الذي قدَّمه لو سانغ إلى البلاط، ذهب لمقابلة جلالة الحاكم وكان من جملة ما قاله لجلالته: «إن أمور الحكم لا تخلو من أن تشتمل على النافع والضار جميعًا والمسئول المُخلص هو الذي ينسب جوانب التقصير إلى نفسه ويعزو النجاح والحكمة لجلالة الملك، ومِن المأثور في ذلك أن حاكم دولة سونغ لَمَّا أجبر عُمَّاله على الاشتغال ببناء القصور الملكية وكانوا من المزارعين الذين تركوا وراءهم أرضًا عطشى وحقولًا تكاد تبور، استهجنت الناس تصرُّفه وتناولته الألسن بالنقد والتجريح، وما كان ذلك مُمكنًا إلا لعدم وجود الوزير المخلص الذي يأتي في الوقت المناسب ليحمل عن جلالته أوزاره فيلتئم به الصدع، وتتوارى به سوءة الأخطاء، فإنه لَمَّا حدث أن الوزير الأعظم في دولة سونغ (السيد تسيهان) أقيل من منصبه وخفضت درجته الوظيفية حتى عُيِّن مشرفًا على الحرفيين والعمال، صارت الناس تنحي باللائمة على تسيهان نفسه، وتستقبح مسلكه الذي أوصله إلى تلك الحال، بينما كانت في الوقت ذاته تمتدح هيبة وحكمة وحزم جلالة الإمبراطور، وقيل إن الملك «تشيهوان كو»، كان يُبالغ في الاحتفاء بأبهة العرش وفخامة الجاه الإمبراطوري، فزيَّنت له نفسه أن يبتني القاعات الفسيحة داخل المقر الملكي الكبير حتى بلغ عددها سبع قاعات لا مثيل لها على وجه الأرض.

ثم إنه شيد صالات الملاهي وبيوت الرقص والبغاء، فبلغت جملتها سبعمائة صالة، لكن سرعان ما عمَّ السخط بين الأهالي، وضجَّت الناس بالشكوى، حتى لم يبقَ في الدولة فرد واحد غير ساخط على تصرفات البلاط الحاكم، وهنالك بادر المستشار الأكبر كوان شونغ إلى تشييد ثلاثة قصور شامخة فوق ثلاث إقطاعيات هائلة، كان أهداه إيَّاها جلالة الملك وصار يُبالغ في فخامة البناء وزخرف التشييد حتى تناقلت الناس أخباره وصار مَضرب المثل في البذخ والإسراف، وكان قصده من وراء ذلك كله أن ينشغل الناس بسيرته هو ويلهون عن نقائص البيت الحاكم.

إن من يُطالع السجلات التاريخية لفترة «الربيع والخريف» يجد صفحات مطولة تتحدَّث عن مؤامرات لا حصر لها قام بها الوزراء لاغتيال الملوك والأباطرة، وإذا تقصيتَ الأسباب وجدتَ أن معظم هؤلاء الوزراء هم من الذين نالوا عظيم المدح والثناء من مواطنيهم، لذلك يُقال إن ما يعود على الوزراء ورجال الدولة من جميل الثناء يجلب على البلاد أهوالًا وكوارث. وبناءً على ذلك، لم يُقدِم البلاط الحاكم على تنحية لو سانغ عن منصبه.»

لمَّا ذهب رجل من بلدة ون

لمَّا ذهب رجل من بلدة «ون» بمملكة «وي» قاصدًا دويلة جو الشرقية، ووقف عند البوابة طالبًا الإذن بالدخول فوجئ باعتراض أحد الموظفين على طلبه، فأنبأه بأنه من مواطني دولة جو، وهنا سأله الموظف عن محل إقامته، غير أن الرجل لم يُحِر جوابًا، فأُلقي القبض عليه وأُودِع الحبس، فبعث إليه حاكم دولة جو بمن راح يسأله عن سر ادعائه بأنه من مواطني الدولة دون الإقرار بحقيقة أنه وافد غريب عن البلاد، فأجاب الرجل بقوله: «كنتُ قد قرأت في مُقتبل عمري كتاب الشعر القديم، وكان مما ورد في هذا السفر الجليل ما مفاده أن كل ما تحت السماء من الممالك إنما هي إرث لوارث العزة والجلال سيدي فخامة الحاكم الأعظم ملك الملوك، وكل من سعى على قدمَين فوق تلك الممالك فهو — بالتبعية — أحد رعايا جلالته، وما دام حاكم جو هو المشار إليه بوصفه سلطان الممالك وعظيم الملوك، فلا بد أن ها هنا واحدًا من رعاياه الذين يستظلُّون بجلال عِزته وسطوة ملكوته، فلماذا يُنظَر إليَّ بوصفي ضيفًا على البلاد مع أني، كما قلتُ آنفًا، واحد من بين الرعايا المُخلصين؟» وعند ذلك أصدر جلالة الحاكم أمره إلى موظفي الحدود بإطلاق سراح الرجل والسماح له بدخول البلاد من أوسع الأبواب.

لمَّا ذهب رسول من جوتسوي إلى رئيس الوزراء

لمَّا ذهب رسول من جوتسوي يحمل رسالة من جلالة الملك إلى رئيس وزراء دولة جاو يقول فيها: «إن مملكة تشين قد قرَّرت إيفاد جوتسوي إلى دولة «تشي» بهدف إشاعة الذعر في قلوب ملوك وأمراء باقي الممالك كلها، مما قد ينجم عن اتحاد المملكتين المشار إليهما، ثم إن مملكة تشين كانت تعلم عِلم اليقين استحالة قيام الحرب بين كلٍّ من دولة جاو ومملكة تشين، وذلك لخشية جاو من أن تُبادر كلٌّ من دولتي تشي وهان إلى الاتحاد مع مملكة تشين وإلى تطبيع العلاقات بينهما، فإذا ما قامت الوحدة بين تشين وتشي، تحوَّلت مملكتكم (مملكة جاو) إلى أنقاض وخرائب، فالأفضل لكم أن تهُبُّوا لنُصرة دولة تشي، وأن تتحالفوا مع مملكة تشين وتدعموها بالمشاركة معها في إرسال قواتٍ تأديبية إلى كلٍّ من دولة هان ووي، ومن ثم يمكن لدولة جاو أن تضم إلى أراضيها جزءًا لا بأس به من أرض دولة هان. وهكذا تحصل بلادكم من جهة الشرق على هدايا ونفائس مملكة تشي، ومن جهة الجنوب تضم أراضي متاخمةً لها من دولة هان، مما يضع دولة وي في مأزق صعب،

هذا ولا يخفى على جنابكم الكريم أن مملكتكم سيتوجب عليها مسالمة دولة تشي، إذا ما بدا لكم توسيع حدودكم جهة الشرق».

لمَّا تحدَّث جوتسوي إلى رئيس وزراء دولة جاو

تحدث جوتسوي إلى رئيس وزراء دولة جاو، فقال له: «إن سندكم الأساسي في حربكم مع دولة جاو الكبرى التي يعرف الجميع مقدار قوتها يتمثل في تحالُفكم مع مملكة تشين، فإذا ما تم لكم النصر، فلسوف تمد مملكة تشين سلطانها إلى أجزاء من أراضي دولة جاو، وبخاصة المناطق المحاصرة فيها، وهكذا فسترغم دولة جاو على التنازل عن تلك المناطق إلى أطراف أخرى، وهو الأمر الذي سينجم عنه وقوع الأمراء والحكام في الممالك والدويلات المختلفة في مناوشات وحروب متبادلة، أما إن لم يكن النصر حليفكم، فستكون عاقبة ذلك تدهور أحوالكم وذهاب قوتكم وهيبتكم. ومعنى ذلك أنكم سترضخون آخر الأمر لسطوة مملكة تشين وتمتثلون لما تمليه عليكم، ثم إنها تخطط لاحتلال مناطق ذات أهمية سياسية في كل من دولتي هان وجاو، مما سيجعل من مملكة تشين إمبرطورية ذات سيادة على نصف الأرض التي تحت الشمس، ويبسط لها مديد السطوة فوق الدويلات الآتية: تشي – جو– هان– وي، ثم إنها ستصبح في موقع يسمح لها بتهديد الأوضاع القائمة في دولة جاو وعندئذٍ ستجدون أنفسكم عاجزين عن توفير أسباب الاستقرار في بلدكم وهو وضع لا يفي بمتطلبات التخطيط السديد.»

لمَّا تكلَّم شيشين مع أحد قادة مملكة تشين

التقى شيشين مع أحد كبار القادة العسكريين في مملكة تشين، وقال له ما نصه: «إن كنت تسعى حقًّا لبلوغ مرتبة أمير الجيوش، فأنصحك بالتلطُّف والكياسة في معاملة الاستراتيجيين والنابهين في دولتي جاو الشرقية والغربية»، ثم إن شيشين استطرد قائلًا: «والأفضل من ذلك أن تطلب إلى أولئك المُخطِّطين السياسيين والنابهين أن يسعوا لتدبير وظيفة مرموقة لك في مملكة تشين».

لمَّا التقى الناس بالسيد شوكون

التقى رجل بالسيد شوكون تيان ون، وقال له: «برغم كل المآثر الكريمة والأيادي البيضاء التي كانت لـ «جو تسوي» على تشي مين وانغ (حاكم دولة تشي) فإنه أُقصِي عن البلاد وذلك بجريرة أنه أخذ بنصيحة جوفو وقام بتعيين ليولي رئيسًا للوزراء آمِلًا بذلك أن يَحظى بنُصرة وتأييد مملكة تشين، مُتصورًا أنه لو قامت الوحدة بين دولتي «تشين» و«تشي» فسيُنظَر بعَين الاعتبار لكلٍّ من ليو لي وجوفو، ولو حدث أن حظي ليو لي بدعم وتأييد كلٍّ من الدولتَين جو وتشي، فسوف تسقط هيبتك من عين دولة تشين، ولا أرى لك سوى أن تزحف بجيشك ناحية الشمال، ممَّا سينجم عنه تقارُب كلٍّ من دولة وي وتحالف تشين وجاو ثم تقوم بتعيين جوتسوي مساعدًا لك ليشتدَّ به أزرك، وبهذه الطريقة وحدها، تسترد هيبتك وسمعتك وتضع حدًّا لتبدُّل الأوضاع السياسية السائدة. واعلم أنه إذا فقدت دولة تشي مساندة تشين لها، فسوف تتَّجِه كل رءوس الحراب ناحية دولة تشي، وهو ما سيدعو جوفو للفرار ناجيًا بنفسه، وبذلك يخسر حاكم تشي أكفأ رجلٍ يمكن أن يضبط أحوال بلاده».

لمَّا سمع تشي مين وانغ كلام جوفو

لمَّا سمع تشي مين وانغ كلام جوفو واقتنع بمنطقه وقام بإقصاء جوتسوي عن منصبه، جاء إليه من قال له: «الآن وبعد أن أقصيتَ جوتسوي عن منصبه، وقد وجدت كلمات جوفو لديك آذانًا صاغية، عينتَ ليولي رئيسًا للوزراء وتبين أنَّ غرضَكَ من هذا استمالة دولة تشين لضمان مُساندتها لك، وبعد أن خطبتَ ودَّ دولة تشين وتقربتَ إليها — على هذا النحو — فسوف يزيد وزن وأهمية تلك الأخيرة ويعلو قدرُها بين الممالك، مما يمكن أن يمَسَّ مكانة بلادكم ويضر بمصالحها، أضف إلى ذلك أنه لو قامت الوحدة بين بلادكم ودولة تشين، فسوف يُثير ذلك فزَع دولة جاو وخشيتها من أن تُصبح عرضةً للغزو من قبل تشين، وهو ما سوف يدعوها لتعبئة قواتها وشنِّ هجومٍ مُباغت على أراضيكم كتحذيرٍ ضمني لدولة تشين. ولئن كانت هذه الأخيرة تُحاول أن تستغل دولة جاو لضرب تشي، بينما تقوم باستفزاز الثانية ضد الأولى، فإنما هي تهدف من وراء ذلك كله إلى غرضٍ واحد وهو زعزعة استقرار دولة تشي، لذلك رأيتَ أن تعيين جوفو في هذا المنصب ينسجم مع المنطق السائد بين الممالك الذي يولي اعتبارًا ظاهرًا لمكانة ونفوذ دولة تشين.»

لمَّا تحدَّث سو لي إلى سوتشين

تحدث سو لي إلى سو تشين بشأن جوتسوي، فقال له: «أرى أن تأخذ بنصيحتي وتُقنع حاكم دولة تشي بأن يُصغي جيدًا لما يراه جوتسوي، وذلك بأن يتنازل عن قطعةٍ من أرض بلاده لدولة وي، إذا كان ذلك هو ثمن إقامة الوحدة معها، وهو ما سيدفع دولة جاو إلى الخوف من أن تجد نفسها معزولة، ومن ثم تطلب هي الأخرى الانضمام إلى صفِّ الوحدة مع تشي، وهكذا تسعى هذه الدويلات الموحدة إلى التحالُف مع دولة تشو مما سيعود بالخير على مواطني الدول الثلاث وأبنائهم جيلًا بعد جيلٍ فينهض الحرث ويتزايد النسل في الدول الثلاث من الجد إلى الحفيد، وإذا بَدَا لجنابكم الكريم أن تأخذوا برأي جوتسوي فلَكُم أن تُعلنوا أن اقتراح إقامة الوحدة والتحالف بين الدول الثلاث صادر عن سيادتكم، ثم إن اقتراح التنازل عن الأراضي لصالح الدولة المجاورة صادر عن جوتسوي نفسه.»

لمَّا جاء رجل إلى جوتسوي

جاء رجل إلى جوتسوي، وقال له: «إن السبب وراء قبول تشو هي لمنصب رئيس الوزراء هو عزمه على مراقبة الكيفية التي تنوي بها دولة تشين تلبية دعوة كلٍّ من دولتي «جاو» و«تسونغ» لدَحر التحالف الثلاثي القائم بين تشين، وي، هان. فإذا صمدت هذه الدول الثلاث ولم تنجح معها محاولات فك أواصر الوحدة القائمة بينهم فسوف يحاول — أي تشو هي — أن يدفع كلًّا من دولتي جاو وسونغ للتحالُف مع الدول الثلاث: تشي، وي، هان، المتاخمة لها من جهة الشرق، وذلك لعزل دولة تشين وحدَها، ثم يقوم بعد ذلك بالإشراف على العلاقات بين كلٍّ من هان، ووي، فإذا لم تثبت أواصر الود بينهما، فسوف يعمل على استشارة دولة تشين للتحالف مع سونغ لضرب الدول الثلاث: تشي، وي، هان، ثم يتآمَر على جاو وسونغ، ويكشف خططهما للدول الثلاث، فلماذا لا تُرسل رسولًا إلى حكام كلٍّ من هان ووي ليُبلغهما بأنه: إذا كنتما تدبِّران للوقيعة بين تشين وجاو بحيث تغدر كلٌّ منهما بالأخرى فإني أقترح عليكما قبول تعييني مساعدًا لرئيس وزرائكما، حتى يتأكد الجميع من مبلغ الودِّ ومتانة العلاقات بين دولتي وي وهان، وهكذا فسوف تنفصم عُرى الثقة بين تشين وجاو ولا تلبث أن تتخلى كلٌّ منهما عن الأخرى، وتلجآن إلى التحالف مع جلالة الملك المُعظم».

لمَّا ذهب رجل إلى الملك ويشانغ وتحدث إليه

ذهب رجل إلى جلالة الملك ويشانغ وتحدث إليه بشأن دولة جاو التي تخشى من اندلاع الحرب بينهما، وهو ما سيعني ضرورة قيام تشين في السر بدعم ومساندة جاو، وبما أن جاو تُدرك من الأصل عجزها عن الاشتباك في حربٍ قتالية، وتخشى كذلك من تقاعس تشين عن مساندتها فهي لا بد ستلجأ أولًا، إلى الوحدة مع تشي، وهنا سيتبدى واضحًا ما تُحاوله كل من تشين وجاو للتقرُّب من تشي ومخاطبة ودِّها، فإذا ما أقدم جلالة الملك على عزل جوتسوي عن منصبه، فلن يبقى هناك من يسعى بجدٍّ واهتمام لإقامة الوحدة مع تشي، وهو ما أراه بعيدًا عن الصواب، وما لم يسرع جلالة الملك بإيفاد جوتسوي لكسب تشي إلى جانبه، فسيأتيه بغتة خبر قيام تشين بالإغارة على تشي، وساعتئذ يخسر الملك أهم سند له وتفوت الفرصة، ولات ساعة مندم.

لمَّا ذهب رجل إلى جوتسوي وقال

ذهب رجل إلى جوتسوي وقال له: «إن جلالة الملك ويجاو يُنهي إلى سيادتكم تزكيته لكم بإدارة الشئون العُليا للبلاد في وقتٍ يريد فيه مساعدتكم له على إقامة تحالُف مع دولة تشين تمهيدًا لإرسال حملةٍ تأديبية إلى دولة تشي، ثم إن الوالي «تيان ون» أمير إقليم شيون غدر بمليكه (ملك تشي) بعد أن هانت عليه كل الاعتبارت بما في ذلك الولاء والشرف والمكانة وحتى الإقطاعات التي كان يملكها، وقبل ذلك كله تاريخه وتاريخ أجداده الأقدمين، وها أنت ذا — برغم ذلك — تركب رأسك وتتقاعس عن التحالف مع دولة تشي والاشتراك معها في حملةٍ هجومية ضد تشي غافلًا عما سيسطره التاريخ لك من مآثر لو قمتَ وما يُمليه عليك الواجب والنبل والعرفان للقادة والأمراء والأماجد الأقدَمِين من بني قومك، ثم إن تقاعُسك عن الخروج مع تشين في حملتها ضد تشي سيثير عليك غضب المملكة العظمى وهو أمر أنت في غِنًى عنه، فاحذر الغيَّ وارجع إلى صوابك، ولتقُم من فورك وتذهب إلى ملك وي والوالي شوكون وقل لهما ما يلي: «ألتمس موافقتكما لي بالذهاب إلى تشي نيابة عن جلالة الملك، وهو ما سيُجنب تشي الكثير من المتاعب التي يمكن أن تتعرَّض لها على يد أمراء الممالك، فإذا ما نجم الأمر عن أية أحداث طارئه فائذن لي جلالتك بالدفاع عن تشي بوصفي مندوبًا عن جلالة ملك وي، أما إذا بقِيَت الأحوال على ما هي عليه، فلننتظر حتى تحكم العزلة سوارها حول دولة تشين، وعندئذٍ تسنح الفرصة لشن حملةٍ هجومية كاسحة

عليها، ثم إني وبرغم كوني توليتُ منصب رئيس وزراء دولة تشي فيما مضى فإني لا أقبل لنفسي أن أكون عقبةً في طريق الخطة التي انتهجها جلالة الملك الإمبراطور للتصالح مع الممالك جميعًا وهو أقل ما أستطيع أن أفعله تعبيرًا عن امتناني لأفضاله الكثيرة عليَّ، وهكذا فإن ذهابي إلى تشي يزيح عن كاهل جلالته كثيرًا من القلق الذي ينتابه إزاء ما تُمثله تشي من عقبةٍ كئودٍ في طريقه».»

لمَّا استولت دولة جاو على الساحة المقدسة

لمَّا استولت دولة جاو على الساحة المقدسة تكدَّر خاطر حاكم دولة جو، وراح يبثُّ شكوكه وهمومه لرئيس وزرائه (السيد جنشاو) الذي أنصت إليه جيدًا، ثم قال له: «لا عليك يا سيدي، لا تدَعْ هذا الأمر يشغل بالك، فأنا أستطيع أن أردَّ إليك الساحة المقدسة إذا أعطيتني من الخزانة العامة خمسة عشر كيلو جرامًا من الذهب (النحاس في حقيقة الأمر).» فأجابه الحاكم إلى طلبه، فتوجَّه رئيس الوزراء بالذهب وتسلَّل خفيةً طلبًا للقاء كبير العرافين لدولة جاو، وتحدث إليه بشأن ساحة القرابين، ثم حدث أن أُصيب ملك جاو بمرض عضال، وطلب إلى العرَّاف الأكبر أن يُطالع له أسرار البروج بشأن ما أصابه من مرض مُبرح، فعاد إليه العراف وراح يلومُه ويُحذره من مغبَّة استيلائه على الساحة المقدسة، قائلًا له: «ما كان يصحُّ الإبقاء على الساحة المُقدسة التي تم ضمُّها والخاصة بدولة جو، ذلك لأن شيطانًا رجيمًا يتلبَّسها ويعيث فسادًا في الأجواء ولعلَّه هو الذي مسَّ جسد جلالة الملك بأذًى خطير». فما كان من الملك إلا أن أصدر أوامره بالانسحاب من الساحة المقدسة وإعادتها إلى دولة جو.

لمَّا أوصى دوها بتعيين جين تسوي

لمَّا فكر دوها في أن يطلُب إلى دولة تونجو أن تقوم بتعيين «جين تسوي» في وظيفة مرموقة، فقد ذهب إلى حاكم تونجو وقال له: «إن بلادكم يا جلالة الملك ليست فسيحة الأرجاء واسعة الامتداد، فليس مرغوبًا، والأمر كذلك، أن تهَبَ للأمراء والحاشية ما منحته البلاد إيَّاك من أثمن الحُلِي والجواهر دون أن تتساهل في توزيع ما منحته إياك من حُلي وجواهر وأحجارٍ كريمة على الأفراد والحاشية، بل ينبغي التروِّي والتدبر، ولأضرب لك مثلًا من عالَم القنص وصيد الطيور، الذي يَنصب شِباكه بعيدًا عن أسراب الطير، سيعود في انقضاء اليوم خالي

الوفاض، وحتى إذا نصب الشَّرَك على مرأًى من جماعات الطير المُحتشدة، فستحلق عاليًا في السماء دون أن تسلم إليه رقابها، فينبغي إذن على الصيَّاد الماهر أن يضع أشراكه في الموضعَين معًا، عساه يعود بصيد وفير.

أما وإن جلالتك تُريد أن تتكرم بالعطايا على كبار رجال الحاشية فربما استصغروا قيمتها إزاء ما يملِكون من مغانم وثروات، ثم إنك إذا أهديتَها إلى العامة والبسطاء فلن ينفعوك بشيءٍ وقتَ الحاجة، أليس في ذلك إهدار للكنوز الثمينة في غير طائل؟ فمِن ثم أرى أن ما ينبغي على الحاكم أن يفعله هو أن يهَب عطاياه لمن هلكت حظوظهم بسبب الفقر والفاقة، أولئك الذين ينتظِرهم مع سوء حظهم مستقبلٌ باهر يرفعهم فوق الناس درجات، ويتحقق بهم الأمل المنشود.»

لمَّا تُوفِّي وليُّ العهد لحاكم دولة جو

لمَّا تُوفِّي ولي العهد «كونغ» ابن حاكم دولة جو (جلالة الملك أوكونغ) وكان هو الوحيد من بين أبناء الحاكم الذي وضعته له إحدى الأميرات ذات النَّسَب الملكي الأصيل، أما أبناؤه الخمسة الآخرون فكانوا من أبناء المَحظيات وخليلات العرش، وبرغم أن الأمير كان يُحبهم جميعًا ولا يُفاضل بينهم في شيء، فإنه لم يتوصَّل إلى قرار نهائي بشأن ترشيح أحدِهم ليُصبح وليَّ العهد الجديد، ثم إن رئيس الوزراء صاجيان ذهب إلى حاكم دولة تشو وقال له: «لماذا لا تُسارع يا مولاي بمنح ولدك كونزي إقطاعاتٍ وعطايا ملَكية عامرة، ثم تتكرم عليه بالترشيح لمنصب ولي العهد خلفًا للفقيد في دولة جو؟» وعندئذ، تدخَّل الوزير الأعظم تزوشينغ، رئيس وزراء دولة تشو، ليقول لرئيس الوزراء: «فماذا إذن لو رفض جلالة الملك مثل هذا الترشيح؟ ألا تُحبط خطتك عندئذٍ وتجد نفسك في موقفٍ مشين؟ ألا يمكن أن تكون نتيجة مثل هذا الرأي أن تتوتَّر العلاقات بين دولتي تشو وجو الشرقية؟ خذ برأيي واسمع نصيحتي، واذهب إلى جلالة الملك الأعظم حاكم جو واسأله عمَّن يُفضل أن يرشح لمنصب ولي العهد، على أن يهمس بذلك سرًّا في أُذنَيك، ثم تنقل إليَّ رغبة جلالته كي أُبلغها إلى حاكم تشو، أما إذا بلغك أن حاكم جو يرغب في تعيين الأمير كونزرو وليًّا للعهد، فما عليك إلاَّ أن تُرسِل رسولًا بهذا الخبر لرجال بلاط تشو ليقول لهم: «إن حاكم تشو يبدو وكأنه يُفضل من جانبه أن يكون ولي العهد الجديد هو كونزرو غير أنه من المؤسِف أن هذا الأمير بالذات هو أكثر الأمراء عنادًا وجموحًا، ولعلَّه إذا ما بلغ سُدة الحكم واعتلى العرش

الملكي أن يضرَّ بالعلاقات بين البلدين».» ثم إن حاكم تشو تمكن بهذه الطريقة، من أن يحُول دون تنصيب كونزرو وليًّا للعهد.

لمَّا أغلقت الدول الثلاث الطريق

قامت الدول الثلاث: هان - جاو - وي بإغلاق الطريق العام بينها وبين دولة تشين، وكان حاكم جو ينوي إرسال رئيس وزرائه في مهمةٍ رسمية إلى تشين، ثم إنه خشِي ألا تَلقى هذه الزيارة الرسمية الحماس اللائق من جانب تشين، مما يُعَد إهانةً واستصغارًا لشأنه، فأصدر قرارَه بإلغائها.

وجاء لرئيس الوزراء من قال له: «من الصعب يا سيدي التكهُّن بما إذا كانت دولة تشين ستلقى زيارتكم بالتوقير أو بالتحقير، وعلى أية حالٍ فالأمر الشائك والمُهم بالنسبة لـ «تشين» في هذه الأيام هو معرفة الصورة الحقيقية للأوضاع في الدول الثلاث، وهكذا فإذا أسرعتَ من فورك للقاء حاكم تشين وألمحتَ إليه أن بإمكانك مراقبة أحوال غُرَمائه واستطلاع دخائلهم لتفتح عينَيه على ما خَفِي عنه من خباياهم، فلا بد أنه سيُولي زيارتك كل تقدير، وهو ما سيجد صداه من اهتمامٍ بالغ بدولة جو الشرقية، مما يفتح لها الطريق لأن تكسب تشين في صفِّها، وأنت تعرف أن دولة تشي تُولي جو الشرقية كل احترامٍ وتقدير، وهو ما يُعطي تشي حجمًا هائلًا من الثقة بين الدول وهو الأمر الذي يجعل جو الشرقية قادرة باستمرار على الحفاظ على علاقات متينة مع الدول الكبرى».

لمَّا هرب تشانغ تو من دولة جو الغربية

لمَّا هرب «تشانغ تو» من دولة جو الغربية إلى جو الشرقية وقام بإبلاغ الشرقيين بدقائق وتفاصيل الأحوال والأسرار في جو الغربية، اغتبط كثيرًا حاكم الدولة الشرقية، بينما وقعت الهموم والأحزان في نفس الحاكم الغربي، ثم إن الوزير الأعظم فنغ تشي (وزير دولة جو الغربية) ذهب إلى جلالة الحاكم، وقال له: «أستطيع يا مولاي أن أُخلِّصك من «تشانغ تو» بتصفيته جسديًّا»، فوافق الحاكم وأعطاه ثلاثين أوقية من الذهب الخالص (النحاس في ذلك الوقت)، وكانت حيلة الوزير تتمثل في بذر الشقاق بين تشانغ تو وحلفائه الجُدد، ومن ثم فقد أرسل رسولًا يحمل في طيِّ الخفاء خطابًا قصيرًا مُرفقًا بالثلاثين أوقية المشار إليها آنفًا، وذلك لإرسالها لـ «تشانغ تو»، وكان الخطاب يحوي هذه السطور: «حضرة المحترم/تشانغ

تو، تحياتنا المخلصة، نود إبلاغكم بأن مهمتكم في سبيلها إلى التنفيذ حسب الخطة المرسومة بدقة، فقط نريد منكم الالتزام الحرفي بأدق التفاصيل، فإذا وجدتم الظروف غير مواتية، فالرجاء الإفلات سريعًا والهرب بكل وسيلة ممكنة، وإلا حدث ما لا تُحمد عقباه، وأصبحتم عرضة للخطر الداهم والمُحقق». ثم إنه أرسل من توجه سريعًا إلى رجال الاستخبارات بدولة جو الشرقية ليُبلغهم القول إنه قد عبر إلى حدودكم اليوم أحد أخطر العملاء على الإطلاق وهو ما يعني سرعة القبض على تشانغ تو والتحفظ عليه لحين الحُكم بإعدامه.

لمَّا ساءت العلاقات بين دولة جو والوزير

حدث أن ساءت العلاقات بين دولة جو الشرقية وبين الوزير جاوجيان من دولة تشو، فذهب رجل وقال لـ «جاوجيان»: «أريد أن أضع لك خطة سرية»، فسأله جاوجيان: «بخصوص أي موضوع تضع تلك الخطة؟» فأجابه الرجل: «قد بلغت الكراهية مبلغها بين دولتي جو الشرقية والغربية، وهكذا فقد دأبت الدولة الغربية على زرع بذور الشقاق بين الدولة الشرقية ودولة تشو لإيقاع الفتنة بينهما، ولا بد أن الدولة الغربية ستُرسل مَن يقوم باغتيالك غدرًا وغيلة، وذلك للنَّيل من سمعة جو الشرقية، ثم يشتعِل لهيب الفتنة بين الدولة الشرقية وحاكم تشو»، وهنا ردَّ عليه جاوجيان بقوله: «نعم، إني أخشى حقًّا أن تَطولني يدُ الغدر من جو الشرقية».

لمَّا قام يانجون بالتحريض على الاغتيال

حدث أن قام يانجون بتحريض هوتشين على اغتيال رئيس وزراء دولة هان، وكان من بين المشاركين يانغ شو (نائب هوتشين)، فلمَّا كان الرجلان مارَّيْن بدولة جو الشرقية، قام الحاكم بالتحفُّظ عليهما لمدة أربعة عشر يومًا، وبعد انقضاء هذه المدة، أطلق سراحهما وأركبهما عربةً تقودها أربعة خيول، وأرسلت دولة هان إلى جو الشرقية احتجاجًا رسميًّا على هذا التصرُّف، مما أثار شعورًا بالقلق لدى البلاط الحاكم، وعندئذٍ تقدَّم أحد ضيوف الدولة الرسمِيِّين إلى حاكم جو الشرقية باقتراحه قائلًا: «أرى يا مولاي أن تذهب مباشرة للقاء رسول دولة هان، وتقول له بنفسك: إن جلالتك تعلم علم اليقين أمر خطة الاغتيال التي أعدها يانجون بالاشتراك مع يانغ شو، وهو ما دفعك إلى إصدار الأوامر بالتحفظ عليهما طوال الأربعة عشر يومًا انتظارًا لما يفد إلينا من جانبكم بشأن التصرُّف معهما، أما

وأننا دولة ضئيلة المساحة ضعيفة الشأن بين الممالك، فلم نكن نملك أن نُبقي طرفنا قتلةً مأجورين، فأنتم تعرفون جيدًا مدى ما يمكن أن يصل إليه ذلك من عواقب وخيمة، أضف إلى ذلك أن بلادكم تلكَّأت كثيرًا في إرسال مبعوث في هذا الشأن، فما كان منَّا إلا أن قُمنا بترحيلهم خارج البلاد.»

سجل جو الغربية

لما قام شوكون بقيادة قوات دولة تشي

قام شوكون بقيادة قوات دولة تشي في غزو دولة تشو وذلك دفاعًا عن دولتي هان ووي، ثم إنه قام فيما بعد بعقد ميثاق الوحدة مع كلتا الدولتَين وشنَّ هجومًا كاسحًا على دولة تشين الكبرى، فلمَّا تم له ذلك، توجَّه إلى دولة جو الغربية وطلب منها مددًا من القوات والمؤن والحبوب، وذهب إليه «هان تشين» أحد وزراء دولة جو الغربية، ليقول له باسم البلاط الحاكم: «ها أنت ذا قد استخدمتَ قوات دولة تشي في غزو تشو دفاعًا عن كلٍّ من دولتي وي وهان، وبلغني أنك قضيت تسع سنوات كاملة في محاولة ضم الأراضي الواقعة شمال مدينتي وان ويه، مما كان من أثره ازدهار قوة وي وهان، وهذا بالإضافة إلى أنك ستضاعف من حجم قوتهما عندما تكسر لهما عدوتهما اللدود تشين، وهكذا ستصبح كل من وي وهان غدًا وقد صفا لهما الجو في الجنوب، وإذ قد تخلَّصا من الخطر الداهم الذي كانت تُمثله دولة تشو واستراحا من الكارثة المُحدقة بهما في الغرب والتي كانت تتمثَّل في دولة تشين. وخلاصة ذلك كله، أنهما ستغدُوان وقد امتدَّت حدودهما إلى آفاقٍ بعيدة، وتضخَّمت هيبتهما بين الممالك، مما سيعود على تشي بالوبال؛ إذ تفقد ما كان لها من سطوة معهودة، أما علمتَ أن لكل أمرٍ بدءًا ومُنتهًى، وازدهارًا وانحسارًا، وأن الأدوار بينهما مُتعاقبة، وأن لكلِّ نجم سطوعًا وأفولًا، ولكلٍّ منهما أوانًا معلومًا؟ وأشعر في قرارة نفسي بالقلق لأجلك، ولا أرى لك إلا أن تعقد الوحدة بينك وبين تشين وتتخلَّى عن فكرة مهاجمتها، ولا داعي أن تُذيع على الملأ حاجتك إلى المؤن والحبوب، فيعرف الناس نقطة ضعفك، ويكفيك أن تنزل بجنودك على مضيق «هانيو» دون اقتحام حدود الدولة، واترك لنا مهمة الذهاب إلى حاكم تشين بالإنابة عنك، لنقول له ما يلي نصًّا: «إن شوكون يملك القدرة على سحق تشين، وأنه

يستطيع أن يجعل عاليها سافلها إظهارًا للمقدرة الفائقة التي تحوزها كل من هان ووي وليس له غرض من ذلك كله سوى أن يطلب من جلالتك التنازل لدولة تشي عن قطعة أرض تقع شرق البلاد. ولا بد أن جلالته سيُفرج عن ملك تشو المعتقل لدَيه في الحبس ويُكلمه بشأن تسوية هذا الموضوع. فقط أرجو منك أن تدعنا نتصرف على هذا النحو كي نحفظ لـ «تشين» كرامتها، بحيث تبادر هي إلى تسوية مسألة الأراضي الشرقية مع دولة تشو تفاديًا للوقوع في أهوال لا حصر لها، فإذا أطلق سراح حاكم تشو فلا بد أنه سيشعر ببالِغ الامتنان نحو دولة تشي. أما هذه الأخيرة، فإنها عندما تحصل على الأراضي الشرقية فستهدأ كل الاضطرابات ولسنواتٍ طويلة قادمة. وبالطبع فإن دولة تشين ليست بالبلد الضعيف، ولا يمكن الاستهانة بقدراتها، فهي تقع إلى الغرب من الدول الثلاث: جاو، وي، هان، وهم جميعًا حريصون على إبداء كل احترام وتقدير نحو دولة تشي».» وهنا أجاب شوكون قائلًا في عبارة قصيرة واضحة: «إذن، فليكن الأمر على هذا النحو.» ثم إنه أصدر أمرًا إلى قوات الدول الثلاث: جاو، وي، هان بالامتناع عن مهاجمة دولة تشين والتوقف الفوري عن مناشدة دولة جو الغربية تقديم أية معونة سواء بالجند أو بالإمداد أو التموين.

لمَّا قهرت دولة تشين جيش القائد

بعد أن تغلَّبت قوات تشين على جيش القائد شيوو قائد قوات دولة وي في موقعة «إيجيو» تقدمت في طريقها للهجوم على دولة جو الغربية، وفي تلك الأثناء ذهب رجل من طرف حاكم جو لمقابلة ليشوي (دولة جاو)، وقال له: «أرى أن الأفضل لكم أن تحولُوا بين تشين وهجومها على جو الغربية، ذلك أن الخطة المرسومة بدقة في دولة جاو تقوم على فكرة واضحة ألا وهي دفع كل من تشين ووي للاشتباك في حروب متصلة بينهما، فإذا قامت تشين الآن بالهجوم على جو الغربية فسيكلفها ذلك التضحية بجنودها الذين سيسقطون بالمئات بين جريح وقتيل وحتى إذا تم لها النصر، فلن تتمكَّن من معاودة المناوشات مع وي مرة أخرى، أما إذا لم تظفر بالانتصار فستجد أمامها طريقًا واعدًا بالفوز على وي، بينما تقبع خلفها دروب موحلة بالخزي والعار على إثر الهزيمة في جو الغربية، ولكثرة ما غاصت أقدامها في حمأة الهوان، فلن تجد الطاقة على مواصلة الهجوم على وي، فإذا حاولت الآن أن تحول دون قيام تشين بالهجوم على جو الغربية فإن التوقيت يساعدك كثيرًا، خاصة أنه لم تجرِ أية مفاوضات للمصالحة بين وي وتشين، أما إذا قامت دولة جاو بإقناع تشين بالتراجُع عن مهاجمة جو الغربية فلن تملك إلا أن تستجيب لها، وهكذا

تقوم تشين بسحب قواتها ويهدأ الاضطراب في أرجاء جو، وعندئذٍ فلا بد أن قوات تشين المُنسحبة ستتَّجه فورًا لضرب وي، التي لن تملك وقتها القوة الكافية لدرء العدوان، ومن ثم ستلجأ إليك أنت لإجراء مفاوضات الصلح وهكذا تتأكد أهمية دورك ويسطع نجمك لامعًا في الأجواء، أما إذا لم تركن وي للصلح وآثرت المقاومة بكل طاقتها، فلا بأس إذن، لأنك ستكون قد جنَّبت جو الغربية الخطر الداهم، وبذرت الطمأنينة في أرجائها بما أشعلت من فتيل للحرب بين وي وتشين، وهو ما يعني أن دولة جاو ستحوز في قبضتها كل مقاليد السطوة والسيادة بين الممالك.»

لمَّا أوفدت دولة تشين الأمير شوليجي

أوفدت دولة تشين الأمير شوليجي لقيادة موكب رسمي يتكون من مائة عربة عسكرية في زيارة إلى جو الغربية، فخرج إليه حاكم «جو» على رأس مائة جندي لاستقباله بترحاب واحترام وتقدير، وما إن وصلت هذه الأنباء إلى الملك «هواي وانغ» حاكم تشو حتى تملَّكه الغضب الشديد وراح يُندِّد بدولة جو الغربية تحت دعوى المُبالغة في إظهار الحفاوة لضيوفها من دولة تشين، ثم إن الوزير الأعظم بدولة جو الغربية ذهب للقاء حاكم تشو، وقال له: «أتعرف يا مولاي أن الملك جيبو حاكم إحدى الممالك القديمة لمَّا أراد أن يُجرد حملةً تأديبية ضد إحدى مقاطعات الشمال التي تُدعى «شودي» فإنه قام ذات يومٍ بإرسال عربة حربية كبيرة إليهم، ووضع بداخل العربة ناقوسًا نحاسيًّا كبيرًا، وأمر بخروج الموكب بصحبة كتيبة الشرف التي اصطفَّ أفرادها جميعًا وساروا في احتفال مَهيب خلف العربة، وحدث أنه عندما وصلت العربة إلى غاية الطريق انفجرت وتطايرَت معها أشلاء قبائل الشمال، وكان السبب في ذلك قلَّة الاحتراس والحذر، هذه واحدة. وواحدة أخرى عندما أراد حاكم تشي أن يُجرد حملة لتأديب دويلة «تساي» فقد كان السبب المُعلَن وقتها هو مجرد غارة تأديبية لا غير، ثم اتضح أن الغاية الحقيقية كانت تتمثل في عملية اجتياح شامل لأراضي تساي. وقد صارت تشين في وقتنا الحالي تتلمَّظ كالأفعى، وتفترس كالسبع، تتطلَّع إلى اليوم الذي تلتهِم فيه المجد الإمبراطوري لدولة جو. وهكذا، فإن ذهاب موكب المائة عربة، تحت قيادة الأمير شوليجي إلى دولة جو قد أثار فزع الحاكم، وأراد أن يأخذ عبرةً من الدرس المَاثل في تجربة تساي وقبائل الشمال، لذلك فقد أرسل من جانبه موكبًا يتقدمه حملة الحِراب يتبعه حملة السهام، حيث يبدو الأمر ظاهريًّا وكأنه موكب حرس تشريفي يليق بزيارة كريمة، لكنه في حقيقته إجراء وقائي، يتحسب للخطر ويترقب بعيون الحذر

والحيطة كل ما يمكن أن تأتي به المفاجآت، وذلك هو التصرف اللائق برجلٍ يحب بلاده ويخشى على قومه من خطر الغزو والاستلاب، وهو الأمر الذي كان يعمل له ألف حساب». وكان لهذا الكلام أثر طيب في نفس ملك تشو.

لمَّا قامت دولة تشو بتطويق يونغ سى

أثناء الحصار الذي ضربته دولة تشو حول مدينة يونغ سي بدولة هان، قامت هذه الأخيرة بتجنيد الأفراد وإرسالهم إلى دولة جو الغربية لسرعة نقل الحبوب المطلوبة، وهنا وقع الاضطراب في نفس حاكم جو وتحدث بهموم قلبه إلى سوداي الذي قال له: «فيمَ القلق يا مولاي؟ دع لي الأمر، وأنا أستطيع أن أقنع دولة هان بالإقلاع عن إرسال جنودهم لنقل الحبوب، بل أستطيع أن أحصل لك على مدينة كاودو بدولة هان» فاغتبط ملك جو بهذا الكلام جدًّا وقال: «أعدك لو استطعتُ تنفيذ ذلك، أن تكون أمور الدولة الكبرى تحت إشرافك». وذهب سوداي للقاء كونجون، رئيس وزراء دولة هان ليقول له: «ألم تسمع بخطة دولة تشو؟ أما عرفت أن جاويين قائد جيوش دولة تشو قد التقى بجلالة الملك وقال له: «إن هان قد أنهكتها الحرب وفرغت من صوامعها الغلال، ولم تعُد تستطيع الدفاع عن مدائنها، ونستطيع الآن أن ننتهِز فرصة تفشي المجاعات فيها لنستولي على مدينة «يونغ سى»، وإني لعلى يقينٍ من أنها لن تصمد أكثر من شهرٍ واحد فقط أمام هجومنا.» وها قد مضت الآن خمسة أشهر ولم تسقط المدينة، مما يعني أن دولة تشو قد أصبحت في موقفٍ صعب للغاية، حتى إن جلالة الملك لم يعد يثق في خطة كبير قادته، وهكذا فإن تجنيدك للأفراد وذهابك إلى جو الغربية لنقل الغلال معناه أنك تريد أن تقول لملك تشو إنك نصيره وقت الشدة، فإذا بلغ هذا الخبر إلى مسامع القائد جاويين فلا بد أنه سينصح لحاكم تشو بتعزيز قوات الهجوم للاستيلاء على يونغ سى.» فأجابه كونجون: «نعم، هذا صحيح، لكن المشكلة أن الرسول الذي أوفدته إليه قد انطلق مبكرًا، ولا بد أنه قد أوشك على المثول بين يدَيه». فعاد سوداي يقول له: «ولماذا لا تتنازل عن كاودو لدولة جو الغربية؟» وهنا ظهر الغضب على وجه كونجون وهو يجيب: «ألا يكفي أن أمتنع عن إرسال جنودي وأن أتراجع عن طلب الغلال، فلماذا ينبغي أن أُعطيهم مدينة كاودو؟» فقال له سوداي: «لأنك إذا أعطيتهم كاودو، فلن يتأخَّر ملك جو عن إظهار أسمى آيات الولاء لـ «هان»، وإذا وصل هذا الخبر إلى دولة تشين فستقوم الدنيا ولا تقعد، ويستشيط البلاط الحاكم غضبًا، بل يعمد إلى الاتفاقية الموقعة بينه وبين جو، ويطرد السفراء والرسل، ولن تكون قد فعلتَ أكثر من

التنازل عن مدينة مُتهالكة مقابل حاضرة مزدهرة بالعمران، فما الذي يمنعك أن تبادر إلى هذا التصرف؟» فأجابه كونجون: «نِعم الرأي ما قلت»، ثم إنه تراجع عن فكرة إرسال حملة عسكرية لنقل الغلال من جو الغربية، بل سلَّم إليها مدينة كاودو، وهكذا لم تستطع قوات دولة تشو آخر الأمر أن تستولي على يونغ سى، فوضعت السلاح وانسحبت عائدة من حيث جاءت.

لما أراد حاكم جو أن يقوم بزيارة

أراد حاكم جو أن يقوم بزيارة إلى دولة تشين، فذهب إلى رئيس وزرائه جوتسوي الذي قال له: «أرى يا سيدي أن الأفضل من الزيارة هو أن تُقنع جلالة الملك بأن يرسل إلى حاكم تشين قصيدة يمتدح فيها خصاله الكريمة وعظيم امتنانه ووفائه (حرفيًّا: طاعته لوالدَيه)، ثم يقوم بإهداء قطعة أرض واسعة من إقطاع «إيندي» إلى السيدة حرمه، فهذا من شأنه إدخال السرور على قلب الحاكم وزوجه، وهو الأمر الذي يفتح له عقل وقلب حاكم تشين، ويشيع في نفسه الرضا والعرفان والتقدير، فتتوطَّد أواصر الصداقة بين البلدَين، ولا بد أن جلالة الملك سيعزو إليك الفضل في هذا الشأن، أما إذا ساءت العلاقات، فسيذكر الملك أنك كنتَ أول من رفض في أول الأمر قيامه.»

لمَّا ذهب سولي إلى حاكم جو

ذهب سولي إلى حاكم جو، وقال له: «كان القائد العسكري المحنك لدولة تشين، ذلك المدعو «باي تشي» هو الذي دحر كلًّا من دولتي هان ووي، وأجهز على قائد قوات هان، واقتحم أسوار دولة جاو، واستولى على المدن الثلاث: لين، ليشي، تشي، فهو بحق قائد محنك عركته التجارب وألهمتْه المقادير، ولئن كان يستعد اليوم للهجوم على وي، فلا بد أنه مقتحمها ومحطم أنفها، فإذا ما سقطت وي، صارت جو الغربية في خطر داهم، فليت جلالتكم تقنعه بالعدول عما هو مقبل عليه، فابعثوا إليه بمن يقصُّ عليه الحكاية التي تقول: «كان في قديم الزمان رجل بدولة تشو يدعى «يانيوجي»، اشتهر بالبراعة في الرماية، بحيث يُصيب وريقة الشجرة وهي على بُعد مائة متر أو يزيد، فلم تخطئ له رمية قط، حتى كانت الناس من حوله تتعجَّب من دقة التصويب والرمي، وذات يوم مرَّ به رجل غريب ابن طريق، فقال له: «أراك ماهرًا في الرماية حقًّا، فلا بأس من أن أعلمك بعض الأشياء

المُفيدة في الرماية» فتعجَّب يانيوجي من هذا الكلام؛ إذ كيف يراه هذا الرجل مجرد تلميذ ذي مؤهلات طيبة في الرماية، بينما هو في الواقع أبرع الرماة جميعًا؟ وتقدم من الرجل وأعطاه القوس والسهم وطلب إليه أن يُعلِّمه شيئًا من فنونه، فرد عليه بقوله إنه لا يجد فائدة من تعليمه، جذب السهم بالذراع اليُمنى والصمود بالذراع اليسرى كالمعتاد في فنون الرماية؛ لأن الرامي يتعلم كيف يُصوب سهامه نحو الهدف مائة مرة، لكنه لا يتعلم مرة واحدة كيف يتوقَّف عن الرماية، حتى إذا كلَّت ذراعاه عن الضرب طاشت كل سهامه هباءً، وضاعت محاولاته سدًى.» وهكذا فإن سحق هان، ووي، وذبح القائد شيوو، والزحف نحو الشمال للهجوم على دولة جاو والاستيلاء على المدن الثلاث: لين، ليشي، تشي، كل ذلك كان من مآثرك التي بلغت حدًّا لا مزيد عليه، وها أنت الآن تقود جيش تشين في حملة هجومية هائلة تخترق فيها حدود كلٍّ من جو الغربية والشرقية؛ كي تتقدَّم صوب هان وتشين غارات على داليان، فماذا لو اقتحمت كل تلك الأهوال دون أن تحقق نصرًا واحدًا؟! أليس ذلك من سوء التصويب والتقدير؟! لذلك أرى أن تتعلَّل بالمرض وتعتذِر عن قيادة الجيش في حملة الهجوم على وي.»

لمَّا رابطَت قوات دولة تشو

رابطت قوات دولة تشو جنوب إيجيو، وفكر القائد العام للقوات (أودا) في أن يقوم بتصرُّفات استفزازية بقصد إغاظة حاكم جو. وذهب إلى الحاكم من قال له: «أرى يا مولاي أن أفضل إجراء في هذه الظروف هو أن تُصدِر قرارًا بتكليف أحد الأمراء بالذهاب مع القائد العام إلى منطقة الحدود المُتاخمة لجبل إيجيو، وذلك لمقابلة قائد قوات تشو «أودا» كما أقترح أن تذهب جلالتك بنفسك إلى ضاحية المدينة لمُلاقاته، كي يرى الناس جميعًا ويشهدوا بعيونهم مدى التقدير الذي قوبل به «أودا» من قِبل جلالة الحاكم، وإمعانًا في إظهار هذا المعنى، أرى أن تُصرح جلالتك بما يفيد بأن كلَّ ما ستتكرمون به من عطايا للقائد «أودا» ستكون له قيمة الكنوز الثمينة، ولا بدَّ أن حاكم تشو سيفكر في الحصول على تلك العطايا، وسيعمل بكل جهده على تسلُّمِها من قائد جيوشه، إلا أنه سيُفاجأ بأن هذا الأخير لم يحصل على شيءٍ ذي قيمة، وبالتالي فلن يجد معه سوى صناديق خالية، وعندئذٍ سيصبُّ جام غضبه عليه ويلومه على غفلته وقلة فطنته.»

لمَّا تقدمت دولة تشو بطلب رسمي

تقدمت قوات دولة تشو بطلب رسمي إلى كلٍّ من جو الغربية والشرقية، ترجو فيه السماح لجيشها بالمرور عبر الطريق الوحيد الذي يتخلَّل أراضيها، وذلك بغرَض التوجُّه لشن حملة هجومية على كلٍّ من وي وهان. وأُسقط في يد حاكم جو واعتصرت قلبه الهموم، بينما هو على تلك الحال، إذ دخل عليه سوتشين، وقال له: «لا شك أن دولتَي وي وهان لن تقبلا منك إعارة الطريق لقوات الغزو، وسيقع في روع كل من تشي وتشين أن قوات تشو إنما تريد أن تستولي على الكنز الإمبراطوري المقدَّس والكائن ببلاط أُسرة جو الحاكمة، ولا بد أنهما ستتحدان لدعم وي وهان في صد اعتداء قوات تشو عليها. والحقيقة أن قوات تشو لن تستطيع حماية المناطق الجبلية الشمالية، أضف إلى ذلك خطورة أخرى تتمثل في إقدامها على العبور بقواتها من طريقٍ يتوسط بلدَين، وأرى أنه ما لم تتآزر الدول الأربع: هان، وي، تشي، تشين وتتَّحد أياديها في قبضة ضاربة تتوجَّه بكل قوة لتضرب في قلب تشو، وما لم يحدُث ذلك، فإن جلالتك مُضطر إلى تسليم الكنز الإمبراطوري الأقدس إلى قوات تشو، وإلا جاءتك هي بنفسها لتنتزِعه منك انتزاعًا.»

لمَّا ذهب رئيس وزراء جو للقاء الملك

ذهب «سيكوانبو» (رئيس وزراء دولة جو) للقاء جلالة الحاكم ليُبلغه عن جوتسوي مقالة نصُّها: «إن جلالتك قد أبلغت حاكم تشي باعتذار جوتسوي عن تولِّي منصب «أمير الدولة» ورأيي يا مولاي أن مثل هذا التصرف قد حاد عن جادة الصواب، وقد قيل إن أحد خبراء المعادن القدماء قد اشترى سيفًا للأمير «تايكون» أمير دولة تشي، إلا أن هذا الأخير لم يُقدِّر هذا السيف حق قدره، وكان ذا جودة فائقة يكاد يندُر مثيلُه في الممالك، فأعاده إلى الرجل واسترد نقوده. وتصادف أن مرَّ بهما أحد عابري السبيل، فأراد أن يشتريَ السيف، وعرض لذلك ألف عمله ذهبية، إلا أن خبير المعادن رفض البيع بحجة أن المبلغ المعروض أقل كثيرًا من المطلوب، فلمَّا كانت سنو حياته الأخيرة ودنَتْ منه المنيَّة، أشار الخبير إلى ابنه بالاقتراب منه، ثم مال على أذنه وقال له: «لا أريد أن أموت دون أن يعرف الناس قيمة هذا السيف». ولئن كنت اليوم يا مولاي تريد أن تنصِّب جوتسوي أميرًا، فلا أحد غيرك يعرف هذا الاتفاق، وليس من أي مخلوق آخر على وجه الأرض يمكن أن يُصدق مثل هذا القول، وأكثر ما أخشاه أن يظن ملك تشي أن جلالتك لا تبغي حقًّا إلا أن تُنصب كونزي

أميرًا، وأنكم تلجئون إلى هذا القول فقط لترويع جوتسوي، ومن ثم إلى خداع وتضليل دولة تشي، وحتى إذا قيل إن جلالتكم إنما تُخططون لأمرٍ ما في طي الخفاء، أو أن جوتسوي يملك هو الآخر ترتيبات وحسابات غير مُعلنة، فلماذا يا مولاي لا تدع الناس يرَون جانب الحق ووجه الصدق في الموضوع كله؟ إذ إنه لم يكن أحد غير جوتسوي هو الأكثر رعاية وإخلاصًا لأبيه الملك، فلماذا لا تذيع على الناس الحقيقة بوضوح تام؟»

لمَّا أرسل ملك تشين في استدعاء الحاكم

أرسل ملك تشين في استدعاء حاكم جو الغربية فتلكَّأ هذا وماطلَه دون أن يُلبي دعوته، فذهب إلى حاكم وي من تحدث إليه على لسان حاكم جو الغربية قائلًا: «إن الغرض من استدعاء ملك تشين لحاكم جو الغربية يتمثل في محاولة دفع هذا الأخير لمهاجمة منطقة نانيانغ في وي، فلماذا لا ترسل جلالتكم حملةً عسكرية إلى هنان؟ ويَقيني أن حاكم جو الغربية ما إن يسمع بخروج حملة من وي إلى هنان حتى يجد العُذر المناسب لرفضه الذهاب إلى دولة تشين، وهو الأمر الذي يرد تشين عن عبور المجرى المائي للنهر الأصفر لمهاجمة نانيانغ».

لمَّا انتصر قائد تشين

انتصر «باي تشي» قائد قوات تشين على «شيوو» القائد الأعلى بدولة وي، ثم ما لبث أن اقتحم أسوار جو الغربية، فذهب حاكمها إلى دولة وي يطلب النجدة، فتعلَّل حاكم وي بحساسية الموقف في مقاطعة شاندانغ، فلما كان حاكم جو في طريق العودة إلى بلاده شاهد مدينة «ليانغيو» فوقعت في قلبه موقعًا حسنًا، وهنا قال له الوزير الأعظم «تشيمو هوي»: «أراك مُعجبًا بالمدينة يا مولاي، لكن دعني أقول لك إن مدينة «ونيو» لا تقل روعةً عن هذه، ثم إنها أقرب كثيرًا إلى حدودنا، وأستطيع أن أضمَّها إلى أراضينا إذا وافق مولاي» وعاد الوزير الأعظم وذهب للقاء ملك وي، الذي ابتدره قائلًا: «أنتم قوم تكرهونني، وملككم يَبغضني كثيرًا ولا أدري لماذا؟» فأجابه الوزير: «هذه مجرد ظنون يا مولاي، والحق أن مَليكنا لا يحمل لك أية ضغائن، بل العكس، فنحن جميعًا نهتم بأمورك وتنشغِل أفكار قلوبنا بأحولك، ومثلًا فإن أمير البلاد وهو واحد من دهاة الحرب كما تعرف، قد بذل كل ما في وسعه لصد اعتداءٍ وشيك كانت تشين تُزمع أن تقوم به ضد بلدكم، هذا دون أن

تظهر من ملك جو أية إشارة أو رغبة في مقاومة العدوان، ولا أرى إلا أنه يريد أن يُسلم البلد جميعه إلى دولة تشين، وهكذا فإذا حشدت تشين جنود كتائب الحراسة (حراسة سور الصين)، وألَّبت عليك فلولًا من شعب جو واقتحموا جميعًا مدينة «نانيانغ» فسينغلق الطريق بين كل من وي وهان».

وهنا سأله ملك وي: «فما العمل إذن؟» فأجابه الوزير: «إن الظروف المحيطة بحاكم جو دقيقة للغاية، فهو يجد نفسه في مأزق لا يجد مخرجًا منه إلا أن يصانع دولة تشين، فإذا وافقت يا مولاي على إمداده بثلاثين ألف مقاتل لحراسة الحدود وأهديته مدينة «ونيو» فستمنحه أسبابًا كافية لدعم آرائه أمام رجال البلاط والحاشية جميعًا، وستنزل عليهم فرحة غامرة بحصولهم على «ونيو»، ثم إنهم سيتراجعون عن فكرة الاتحاد مع دولة تشين. وكنت سمعت بأن دخل «ونيو» يبلغ في العام ثمانين وزنة ذهب، فاذا تسلَّمها منكم حاكم جو فلا بأس من أن يمنح ملك الممالك كل عامٍ مائة وعشرين وزنة مقابل الحصول عليها، وهكذا تزول أسباب الكدَر وتحصل يا مولاي في كل عامٍ على أربعين وزنة ذهب». وهنالك أصدر حاكم وي أمرًا لوزيره منغ ماو بتسليم «ونيو» إلى حاكم جو، مع الموافقة على إمداده بقوات للمعاونة في تأمين الحدود.

لمَّا تشاورت الدولتان وي وهان

تشاورت الدولتان وي وهان بشأن تبادل الأراضي بينهما، واتضح أن مثل هذا التبادل لو تم، فلن يكون في صالح جو الغربية، وعلى الفور توجَّه «فانيو» الوزير الأعظم لدولة جو، لمقابلة حاكم تشو، وقال له: «لا أرى فيما يحدث إلا الهلاك المُحقق لـ «جو»، ذلك أن تبادل الأراضي بين وي وهان سيسمح للأخيرة بالحصول على مقاطعتَين، بينما تخسر وي اثنتَين أُخريَين مقابلهما، أما السر في موافقتها على مثل هذا التبادل رغم خسارتها الواضحة لجزء من أراضيها، فهو أنها ستتمكن تمامًا بعد التبادل من أن تكون في موقفٍ يسمح لها بتطويق كلٍّ من جو الشرقية والغربية، وهكذا فإن ما ستحصل عليه وي مستقبلًا يُعد أكبر مساحة وأكثر أهمية من المقاطعتَين، أضف إلى ذلك أن الإرث الإمبراطوري المُقدس سيُصبح على مرمى حجر من أراضيها. هذا طبعًا بجانب ميزة تتوافر لها بامتدادها في مناطق «نانيانغ»، و«جن دي» و«سانشوان»، وهو ما يمكنها من تطويق دولتي جو، وعلى هذا تُصبح المناطق شمالي مدينة فانغ بدولة تشو في خطرٍ داهم، ومن ناحية أخرى فإن حصول هان على منطقتي شاندانغ يجعلها في موقع مُطل على دولة جاو، وهو ما يعني تعرُّض

مناطق الجبل الحصينة بدولة جاو لأشأم النُذُر والعواقب، لذا فإن نجاح الدولتَين في إتمام التبادل سيعود بأسوأ النتائج على كلٍّ من جاو وتشو حيث يفقدان وزنهما وأهميتهما بين الممالك.» وهنا أُسقِط في يد حاكم تشو، ثم كانت دولة جاو هي التي حسمت الموقف بعرقلة كل الجهود الرامية لإتمام صفقة تبادل الأراضي.

لمَّا أرادت دولة تشين مهاجمة جو الغربية

أرادت دولة تشين مهاجمة جو الغربية، فقد ذهب جوتسوي للقاء الملك شاوانغ حاكم تشين، وقال له: «قد تأمَّلتُ كثيرًا يا مولاي في مسألة الهجوم على جو الغربية، وانتهيت إلى رأيٍ لو أذن لي جلالة الملك أن أُبديه، هو أن مثل هذا الهجوم يبدو مستحيلًا، ذلك أن الاعتداء على بلدٍ صغير مثل جو لن يعود على تشين بكثيرِ نفع، بل الأسوأ من ذلك أنه ربما يمس هيبة بلادكم بين الممالك، ولعله يُثير أصداءً غير طيبة لدى أمراء الأقاليم وحكام الدويلات المُختلفة فيجدون أنفسهم مُضطرين إلى إقامة تحالُفات مع دولة تشي الواقعة شرقي جو، وهو مما سيعود على تشين بأوخم العواقب، إذ تجد نفسها معزولة تقريبًا عن باقي الممالك، وتسقط مكانتها، ويصير تاجها الملكي اسمًا على غير مُسمى، ولا بدَّ أن هناك من الأمراء من يتمنَّى في قرارة نفسه أن تنشغل تشين بما يُنهك قواها ويوهِن صلابتها فيستحثوها على التعجيل بالإغارة على جو الغربية. وهكذا فإن استنزاف قوة بلادكم وأمرائها في مثل هذه الحملة خليق بأن يدرأ التهلكة عن آلاف ممن يتلمسون الحياة تحت السماء.»

لمَّا ذهب رئيس وزراء جو الغربية

ذهب «كونتو» رئيس وزراء جو الغربية للقاء جلالة الملك، وقال له في أثناء المقابلة: «كانت دويلة «وان» دويلةً تتبع هان فيما مضى، تُقلل من شأن دويلة «جين» اعتمادًا على صِلتها الوثيقة بدولة تشين فلما اجتاحت المجاعة هذة الأخيرة، واشتد القحط بها تداعت أركان دويلة «وان» وزالت فلم يبقَ لها أثر. وحدث الشيء نفسه مع دولة «جنغ» التي لم تكن تقيم وزنًا لدولة هان مُستندة في ذلك على علاقتها بدولة وي، فلما لاقت هذه الأخيرة هزيمة نكراء إبان غزوها لدولة تساي، دبَّ الانحلال والضعف في دويلة «جنغ». وهكذا يتكرَّر المثال نفسه في حالة كلٍّ من دولتي «جو» و«وييينغ» اللتَين لاقتا نفس المصير على يد «تشي» وينطبق كذلك على كل من «تشين» و«تساي» اللتين اندكَّت حصونهما تحت غزو دولة تشو

لهما، ويتضح هنا الطابع العام لهذه الأحداث، الذي يتمثل في ارتكان دويلاتٍ صغيرة على مساندة دولٍ كبرى لها في التقليل من شأن وأهمية جاراتها، مما كان له أوخم النتائج وأسوأ العواقب. أما وإنَّ جلالتكم تسلكون الآن مسلكًا يقوم على الاستهانة بقدرات دولة تشين اعتمادًا على دعم ومساندة كل من «وي» و«هان» لبلادنا فإني أرى في ذلك عين الهلاك وذروة الخطر، ولا سبيل إلى تلافي ذلك إلا بأن تقوم جلالتكم بإيفاد جوتسوي سرًّا إلى دولة جاو للتحالُف معها، كي يتسنى لنا مُجابهة تشين، إذا لزم الأمر، ونحمي بلادنا من شر التشرذم والضياع».

لمَّا جاء رجل إلى الملك تشي

قدم رجل على ملك تشي وقال له: «إني لأعجَب كيف يتغاضى جلالة الملك عن التكرُّم بالعطايا والهِبات الملكية على جوتسوي، ترقيةً له ودعمًا لترشيحه لمنصب أمير عرش أسرة جو الملكية.» فما كان من الملك إلا أن أصدر قرارًا بإيفاد الوزير الأعظم «سيماهان»، إلى دولة جو الغربية حاملًا عرضًا بالتكرُّم على جوتسوي بالهبات والإقطاعات الملكية، تزكيةً لترشيحه أميرًا لـ آل «جو». فالتقى «سيماهان» بمن يُدعى «زوشانغ»، وهو أحد وزراء دولة تشي، وكان أن قال له الوزير: «أتدري أنك لو فشلت في إقناع حاكم جو الغربية بقبول العرض الكريم من جانب بلادكم، فلن يقتصر الأمر على إحباط مسعاك وذهاب حنكتك سُدى، بل سينفصم الاتحاد القائم بين الدولتَين، ولا أرى لك إلا أن تُبادر إلى سؤال حاكم جو عند لقائك إيَّاه، بما يلي «أرجو من جلالتكم إبلاغي، ولو عن طريق وسيط بيننا، غير مُسمَّى، عمن تودون ترشيحه أميرًا للعرش، كما أستأذن جنابكم الكريم في أن أُفاتح ملك تشي بشأن التكرم بالعطايا والهبات على الأمير المنتظر».» ولمَّا كان هذا الرأي دليلًا على براعة وفطنة الوزير «زوشانغ» فقد تمت ترقيته إلى أرفع المناصب.

لمَّا قامت حرب دول الاتحاد الثلاثي ضد تشين

لمَّا انتهت معركة دول الاتحاد الثلاثي: هانكو، وي، تشي ضد تشين، تحركت قوات الجيش عائدة إلى بلادها، فاستولى الخوف على جو الغربية، عندما بلغها نبأ مرور القوات المنتصرة عبر أراضيها، وهنا ذهب حلفاؤها للقاء ملك وي وقالوا له: «إن دولتَي تشو، وسونغ تنظران إلى ما قامت به تشين من تنازلٍ عن أجزاء من أراضيها الوطنية لدول التحالف الثلاثي

سعيًا لتسوياتٍ سِلمية، بوصفه تصرفًا غير ذي نفع، ذلك لأن دول التحالف تريد في الواقع أن تستولي على الدعم المُقدَّم لهذه الأراضي لمساعدة دولة تشين»، فأُسقِط في يد حاكم وي، وأصدر أوامره إلى قواته العسكرية بسرعة العودة إلى البلاد بعد المبيت ليلةً واحدة فقط خارج الحدود.

لمَّا هُزم القائد شيو في معركة إيجيو

لمَّا هُزم القائد شيو في معركة إيجيو، قررتْ دولة جو الغربية إيفاد رئيس وزرائها «جوتزو» في مهمةٍ رسمية إلى دولة تشين وقدم إلى جوتزو مَن نصحه بِأن يبلغ الملك بصراحة ووضوح ما نصُّه: «إنَّ إيفادي في بعثةٍ رسمية إلى تشين يُمكن أن يضرَّ بالعلاقات الدبلوماسية بين البلدَين ذلك أن مِن بين وزرائك يا مولاي من يضع مصالح تشين نصب عينَيه بأكثر حتى مما يُراعي مصالح وطنه، بل يتطلَّع كذلك إلى أن يتولَّى منصب الوزير الأعظم، وأشعر بأن ذلك الشخص سوف يعمل على إيذائي بكل وسيلةٍ مُمكنة أمام حاكم تشين، لذلك لا أرى من المناسِب إيفادي إلى تشين، بل أرجو أن تتفضل بإعفائي من أية زيارات رسمية إلى تشين في ظلِّ منصبي كرئيسٍ للوزراء، ثم إنكم يا مولاي تستطيع أن تقوم بتعيين ذلك الشخص المشار إليه في وظيفة الوزير الأعظم، فتلك هي الطريقة المُثلى التي تحول بينه وبين الإساءة إلى بلاده جو الغربية. هذا، ومن المعروف أن حاكم جو يهتم كثيرًا بعلاقاته الدبلوماسية مع تشين، بحيث إنه يحرص على إيفاد رئيس وزرائه نفسه في الزيارات المتبادلة بينهما، وبالتالي فلن يستقيم أن يقوم بإعفاء رئيس وزرائه من منصبه قُبَيل الزيارة مباشرة، وإلا عُدَّ ذلك إهانةً موجهة لدولة تشين، لذلك، فمن المؤكد أنه لن يُعفيك من منصبك بأية حال، ثم عندما تذهب إلى تشين بعد مقالتك هذه مع الملك، فمِن المُمكن أن تتوثَّق العلاقات الودية مع تشين بأكثر من ذي قبل، بل ويُصبح في مقدورك أن تُحقق المزيد من تطلُّعاتك وتضيف الكثير إلى نقاطك الإيجابية، أما إذا فاتك أن تنتبِهَ إلى هذه المسألة فلربما ساءت العلاقات بين البلدين، وساعتئذٍ، فقد تأتيك رياح بما لا تشتهي سفنك، ومن يدري، فربما وصلت الأمور إلى حد النيل منك شخصيًّا، فتطير رقبتك وتذهب روحك هباءً.»

سجل تشين الأول

لمَّا هرب وزير دولة وي

هرب الوزير الأعظم لدولة وي إلى تشين فتكرم عليه الحاكم بتعيينه رئيسًا للوزراء، وأقطعه أراضي ومتاجر، فحصَّل من ذلك رزقًا وفيرًا، ونُصِّب شيخًا للتجار، فكان مثالًا للتاجر الأمين ورجل الدولة الذكي، ففرض سلطة القانون وجعل النزاهة والشرف والاستقامة طريقًا لا يَحيد عنه إلى نفعٍ ذاتي أو مغنمٍ خاص. وجعل الناس سواسية أمام أحكام القوانين دون مُحاباة لسليل عزٍّ أو صاحب جاه أو نفوذ أو سلطان، وكافأ كل ذي فضلٍ ومأثرة، فلم يُحابِ صديقًا أو ذا صلةٍ من رحم أو مصاهرة، وجعل سلطة التشريع نافذة حتى فوق ذي الرياسة والنفوذ، ولم يستنكف أن يضرب على يدِ مؤدِّب الأمير دون هوادة، فما إن مرَّ عليه الحول في منصبه، حتى عمَّ الانضباط والاستقامة كلَّ أنحاء تشين، وصار الناس يتحاكَون بأن المفقودات الثمينة كانت تظلُّ مُلقاة على قارعة الطريق حتى يعود إليها أصحابها يلتقِطونها بأيديهم ولو بعد أيامٍ من فقدها، دون أن تمتدَّ إليها يدٌ أو تطمع فيها نفس، بالغةً ما بلغت من القيمة.

وكان من جملة المآثر الجليلة أيضًا أن الجيش صار قوةً ضاربة، ارتعدت من هولها الممالك. غير أن الجدية والصرامة التي اتَّسمت بها سياسات شيخ التجار الوزير الأعظم كانت تتوسَّل في تنفيذ خططها بأشد الأساليب قهرًا وتجبرًا، لم يملك الناس معها إلا الانصياع والرضوخ، فلمَّا انقضت ثمانية أعوام لشيخ التجار الوزير الأعظم في هذا المنصب الذي رقَّاه إليه جلالة الحاكم، صارت الأمور مُستقرة في كل أنحاء تشين، وفكر حاكم البلاد أن يُوصي بتعيين الشيخ الوزير الأعظم خلفًا له على العرش الملكي، إلا أن الرجل استعفى واعتذر شاكرًا للملك حُسن الظن به إلى هذا الحد، ثم إن الأيام مرَّت، ومات الحاكم، وجاء

من بعده ابنه «هوي» ملكًا للبلاد، وهنا خشي الشيخ الوزير أن يَلقى على يد القادم الجديد التنكيلَ والهوان، وفكر في العودة إلى وي.

وذهب رجل إلى الملك «هوي» وقال له: «إن نفوذ الشيخ الوزير يا مولاي قد بلغ حدًّا لا يمكن إغفاله ممَّا يمكن أن يُعرِّض البلاد لخطرٍ لا يعلم أحد مداه، ثم إنه أصبح مُحاطًا بشخصيات بارزة متنفذة، وكلهم من أشياعه المخلصين، ربما كان لهم من التأثير ما يمكن أن ينال من سلامتكم الشخصية، أما تجد الإعجاب بما استنَّه من قوانين وتشريعات مضرِب الأمثال بين الجميع؟! بل إنك لواجد مثل هذا الإعجاب بين أفراد الحاشية أنفسهم، هذا في الوقت الذي لا يتحدث فيه الناس بمآثركم الجليلة، وكأن الأمور انقلبت رأسًا على عقب، وصار الوزير يلمع بضوءِ الملوك، بينما يخفُت تاج العرش وينحدِر إلى ما هو أقل من منصبٍ وزاري عادي، ثم لا ينبغي أن ننسى يا مولاي أن هذا الرجل في الأساس، لا يزيد عن كونه مجرد عدوٍّ لبلادنا، وإني لأرجو أن يتَّخذ جلالة الملك بشأنه التصرُّف اللائق على ضوء هذه الاعتبارات.»

وحدث أن فشلت محاولة تسلُّل الشيخ الوزير إلى وي، وأُجبر على العودة إلى تشين، حيث أمر الملك بإعدامه.

لمَّا عمل سوتشين بنصيحة قائد القطاع الغربي

لمَّا رأى سوتشين من دولة جو الغربية أن يعمل بنصبحه «ليان هن» قائد القطاع الغربي من دولة تشين التي تتمثَّل في التحريض على اتخاذ سياسات مُعينة، فقد ذهب بنفسه إلى جلالة الملك «هوي» حاكم دولة تشين وقال له: «إن المرء ليُطالع في كل ركنٍ من بلادكم أعظم المزايا وأبهى الصفات، ففي الغرب تترامى مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة في الدويلات الثلاث التابعة لكم: يان، شو، هان، وفي الشمال تتوافر أفضل أنواع الجلود وأرقى سلالات الخيول، أمَّا في الجنوب فترتفع سلاسل جبال «أوشان» بموقعها الجغرافي الدفاعي المنيع، مثلما يُوجَد في الشرق أيضًا وادي «هانجو» وتلال «شياو» التي تقف كحاجزٍ صلب ضد أية محاولات للتسلل الهجومي إلى الداخل، هذا بالإضافة إلى وفرة المحاصيل وكثرة الأيدي العاملة وتوافر القوات المُدربة والمعدات الحربية، ومصادر الثروة والتطور والعمران، وطبيعة الأرض بحسب صلاحيتها للظروف الدفاعية والهجومية، الأمر الذي يمنح البلاد ميزةً سياسية هائلة؛ ومن ثم فإن جلالتكم تملكون فرصًا مواتية لضمِّ أراضي الممالك المجاورة خصوصًا أنك تحكم شعبًا مُطيعًا وقادة نُجباء، وبقلوبكم أوعية الحكمة وبواطن

الفطنة والكياسة، مما يرفع تاجَكم فوق الأمم جميعًا سيدًا للممالك. ولتأذن لي جلالتكم في تحليل مزايا الموقع الجغرافي وأحوال الاستعداد القتالي لجيشكم.» وهنا قاطعه الملك قائلًا: «لكني أنا الذي أستأذنك في أن أخبرك بما سمعته ذات مرة من حكمة سائرة تقول: إنه لا يطير الطير إلا بأجنحة مشرعة، وأنه لا عدل مع قانون جائر، ولا طاعة لحاكم في بلدٍ ذهبت عنه الأخلاق الكريمة، وأنه لا تنصيب بغَير تهذيب، لا مجال للتكليف بمسئولية عامة دون إعداد وتدريب. والآن، وبما أنك تطرح موضوعًا غير ذي مناسبة، فلنؤجِّل الحديث فيه إلى وقتٍ لاحِق.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

ثم واصل سوتشين كلامه قائلًا: «كنت أشك كثيرًا منذ البداية أن تقبل جلالتكم نصيحتي، وأن تأخذوا باقتراحي، مع أن مُطالعة التاريخ تُظهر لنا أمثلةً بارزة تثبت وجهة نظري الأصلية، فالتاريخ حروب متصلة على طول الزمان، منذ حروب الملك «شنونغ» ضد دويلة «بو» القديمة، وحرب الإمبراطور «هوانداي» ضد قبائل «تشيو»، ومعارك «تانياو» ضد «هوانجو»، وحرب «جو وانغ» — مؤسس دولة جو — ضد الملك شانجو — أحد الحكام الطغاة بأسرة «يين شانغ» — وكذلك المعارك التي شنَّها «تشي هوانكون» ضد الممالك حتى اشتهر بأنه أحد جبابرة التاريخ القديم، فهل كانت هناك وسيلة أخرى لضمِّ الممالك والدويلات سوى الحرب؟! صحيح أن هناك فترات من الزمن كانت فيها الطرق بين الممالك تعجُّ بالرسل والوفود والمكاتبات المتبادلة بين العروش والتيجان، وجرت الأقلام فوق الصحف بمعاهدات وتسويات سال مدادها ببليغ الكلام ومعسول الصياغات، وقامت ذات يوم الوحدة الكبرى والْتأم شمل إمبراطورية مترامية تحت السماء، ثم لم يمضِ وقتٌ طويل حتى امتدت بالطول والعرض خطوط مُتقاطعة بين الجميع، تعمقت بحدة الصراعات واتضح أن وراء رايات الوئام أسلحة ما زالت مشرعة النصال، ثم اعتلى خطباء السلام منابر الجدل واحتدم الشقاق وافترقت اتجاهات الطرق تحت أقدام الرسل، وأطلت رءوس التناقضات وتردَّدت أصداء الفتن، فاضطربت كل الأجواء، وتزعزع الاستقرار. وبرغم القوانين واللوائح التي صِيغت لدرء الفوضى، فقد كانت الظنون تطيح بكل مصداقية، وتُبودلت بين الأمراء الضغائن، والمشاحنات، فسقطوا في عين رعاياهم، وبرغم بلاغة الفصحاء فقد تدهورت الأحوال، بل كلما تألق سجع الألفاظ، ازدادت نيران الحرب اشتعالًا، وفيما انطلقت ألسنة الرسل والوسطاء بمعسول الألفاظ، توهَّج أوار الغضب،

واتسعت دوائر القلاقل والاضطرابات. وكم تفاصحت الأفواه وامتلأت الآذان بما لم يُجْدِ نفعًا! بل راحت صفوف المُحاربين تتدفق إلى الميادين، في صلابةٍ وقوةٍ وبأس أشدَّ من متانة دروعها، فحاربَت وقاتلَت وانتصرت. أمَّا المكث في أروقة الأماني الجميلة انتظارًا لشروق شمس المجد والاستقرار، فهو التصوُّر الذي لم يكُن له على مرِّ التاريخ أية نتائج إيجابية، بل حتى الأباطرة الأقدَمِين، والملوك الثلاثة والجبابرة الخمسة، ما كانوا يستطيعون، في ظلِّ هذا التصوُّر، أن يُسجلوا مآثرهم في صفحة التاريخ، فلا مَعدى عن ارتداء درع الحرب ونزع قميص الحكمة والكياسة، فتلك هي الطريقة التي يَبني بها الملوك صروح أمجادهم.

إن شرف الجندي لا يتحقق إلا في ساحات القتال صونًا لحدود الأوطان، وشرف الملك في إقامة العدل أمنٌ وأمان للممالك والبلدان، أما الشعب الناطق بمائة لسان — ذو القوميَّات والقبائل والعشائر المُختلفة — فإنه يجتمع على كلمةٍ واحدة تحت التاج، طاعةً وولاءً، ولئن كان مُبتغَى خططكم الآن هو ضم أراضي الدويلات والإمارات وإخضاع القوات المُعادية تمهيدًا للسيطرة على زمام الأمور، وإقرار سياسات عادلة ورحيمة نحو أهل الممالك المُترامِية تحت السماء، فإن كل ذلك لا يمكن تحقيقُه دون قوة السلاح، وإن كثيرًا من أمراء العروش الحاكمة يغضُّون الطرف عن هذه المسألة المهمة بعد أن أضلَّتهم المواعظ الأخلاقية، وخلبَت ألبابَهم الكلمات المعسولة، حتي أوغلوا في ساحة اللجاج حول تصوُّرات واهمة. وهكذا، يبدو لي أن ما أطرَحُه على جلالتكم، يا مولاي، لن يلقى الاقتناع والقبول، فضلًا عن التطبيق.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وقد حاول «سوتشين» كثيرًا أن يذهب إلى القصر الملكي ويسجل في دفتر التشريفات طلبَه للقاء الملك، أملًا في إقناعه بخطته، إلا أن مُحاولاته في هذا الشأن لم يُكتب لها النجاح، وتردَّت أحواله كثيرًا، حتى نفد منه المال، وتهرَّأت منه الثياب، وكان قبل ذلك مُنعمًا مترفًا ينفق عن سَعة، فما كان منه إلا أن غادر دولة تشين عائدًا إلى مسقط رأسه، وكان منظره على طريق الرحيل مثيرًا للشفقة، إذ بلِيَت جُبته، وتعرَّت لتكشف عن ساقَين ملفوفتَين بأعشابٍ جافة، وعلى ظهره جوال مملوءٌ كتبًا ذابلة الأوراق. لم يكن رجل في الدنيا كلها تبدو في وجهه علامات اليأس مثلما كانت تبدو على مُحيًّا «سوتشين»، إذ غارت عيناه وعلت الصفرة جبهته، ثم إنه وصل بلدتَه ودخل بيته، فلم تكترِث بعودته زوجته، ولا أقبلت عليه امرأة أخيه الأصغر بابتسامتها المعهودة، بل عبست وانزوت في ركن، دون أن تُعِد له الطعام، وتباعَد عنه أبوه، فحزن وقال في نفسه إن مكانته وسط أهله كزوج، وأخ،

وابن قد تأثرت كثيرًا بفشله في مهمته بشأن إقناع الملك بالسياسات المقترحة، وراح يدرس ويتأمَّل ويُفكر، وانكب على كتب الخطط السياسية الكبرى يُطالعها في نهَم بالِغ ويُحلل تفاصيلها بعُمق، والطريف أنه كان يضع إلى جانب الكتب على الطاولة إبرةً طويلة مُدببة، حتى إذا غالبه النعاس تناولها وغرسَها في فخذه كي يُفيق ويواصل القراءة، ويُقال إن الدماء كانت تسيل خيوطًا طويلة وتسقط تحت قدمَيه لكثرة ما انغرست الإبر في لحمه، وكان يلوم نفسه قائلًا: «أمعقول أن تذهب إلى البلاط الحاكم بدولة تشين دون أن تعود محملًا بأصنافٍ من الهدايا الثمينة والعطايا الملكية الفاخرة، ولا حتى الألقاب الفخرية؟» ولم يكد يمرُّ عام حتى كان قد أتم دراسته في فنون الحرب، وقرَّر أن يُعاود محاولته في الترويج للفلسفات الفكرية الحربية مع القادة والحُكام الجدد، واتجه على الفور إلى دولة «يان» والبلاط الحاكم لدولتَي «جي» و«جاو» حيث التقى برجال القصر في كلتا الدولتَين، فلما التقى بحاكم «جاو»، في قصره المهيب، وتحدث إليه بقلب مفتوح، وكان اللقاء بينهما تسودُه روح الود، واغتبط ملك جاو كثيرًا بالحديث إليه، حتى إنه تكرَّم عليه بمنحِهِ لقب أمير مقاطعة «ووآن»، وأهداه مائة عربة عسكرية وألف قطعةٍ من المشغولات الذهبية ومائة زوج من اليشب وعشرة آلاف جرام من الذهب الخالص، وصار يتنقَّل بين الدول، وهدايا الملك بين يدَيه، ثم إنه عمل جاهدًا فيما بين الممالك لنسف أية خُطط يمكن أن تربط دولة تشين بباقي الدول، وذلك بهدف احتواء القوة المُتعاظِمة لتلك الدولة الجبارة.

وكان سعيه الحثيث لتحقيق هذه الغاية هو الذي أوصله إلى أن يحتل منصبه كرئيس وزراء لدولة «جاو» واستطاع من خلال موقعِه أن يقطع الصِّلات بين تشين وباقي الممالك، وهكذا فقد امتنعت ستُّ دولٍ مثلًا من السماح لـ «تشين» بالمرور بالقُرب من حصونها السياسية.

ويمكن القول إن الفضل في حشد هذا العدد من الممالك بما اكتمل لها من نفوذٍ وما تميزت به من رقعةٍ جغرافية واسعة وعددٍ هائل من السكَّان والقصور الحاكمة والأمراء والقادة، وكل ذلك يرجع إلى حنكة ودهاء سوتشين وما وضعه من خُططٍ طموحة وذكية كان من شأنها أن تجمع شمل الأمراء والحكام والقادة وتُوحِّد كلمتهم، دون إراقة نقطة دم واحدة أو حتى صرف[جراية] زائدة لجندي يتأهَّب لقتال، بل لم يُنادِ منادٍ للحرب، ولا خرجت في الساحات صفوف مُقاتلين ولا شُرعت رماح أو انتصبت في الأقواس سهام، ذلك لَمَّا صار الحُكم لذوي الحكمة والفهم فقد عمَّت الثقة وانتشر الاستقرار في كل الأرجاء، فلذلك قيل: «إن الإدارة الناجحة داخل القصر تجب أنشط التحركات عند حدود الإمبراطورية».

وهكذا، فلما تأكدت براعة سوتشين، وتألق مجدُه، أنعم عليه جلالة الملك بخمسة آلاف كيلو جرام من الذهب الخالص، فصار من أكثر الناس ثروةً وعزةً وبأسًا، فكانت ترمح خيوله وتدور عجلات دورانه في فلك الحظ السعيد، والكل يخضع تحت بهاء نفوذه، حتى الدويلات الواقعة شرقي جبل «هواشان»، كانت بأمرائها وفرسانها وشعوبها تتجاوب مع أصداء توجيهاته مثلما تميل أعناق النبات حسب دوران الريح، وهو الأمر الذي استفادت منه دولة «جاو» إذ برزت هيبتُها ومكانتها للجميع.

ولم يكن سوتشين، في مبتدأ الأمر، سوى طالب علمٍ فقير ينكب على كتُبه في فناء بيت مُتهالك، ثم إذا به الآن يركب أفخر العربات، تقودها الجياد المُطهَّمة، وهو ينتقِل مسافرًا بين قصور الحكم يعرض أفكاره ووجهات نظره على رجال البلاط، فهو إذ يتكلم تصمت كل الأفواه، ولا يُوجَد من بين الناس من يستطيع أن يفوقه أو يُجاريه. وبينما كان سوتشين في طريقه ذات مرة ذاهبًا للقاء ملك تشو، مرَّ ببلدته ومسقط رأسه «لويانغ»، ووصل الخبر إلى أهله، فتهيئوا لاستقباله، وأقاموا الزينة فوق الجدران، وأحضروا المعازف لتصدح بالموسيقى والغناء، وبسطوا الفُرش والولائم، وركبوا طريقًا يبعُد مسافة ثلاثين ميلًا لاستقباله، وصاروا عند لقائه يتأمَّلونه بعيونٍ ملؤها الإعجاب، وسجدت له زوجة أخيه على قارعة الطريق تحية إكبارٍ وإجلال، فأخذ بيدِها وسألها مُتعجبًا عما دعاها إلى هذا الصنيع، وقد كانت فيما مضى تزوَرُّ عنه نفورًا وضيقًا، فأجابته بقولها إنها إنما تصرفت على هذا النحو، لأنه أصبح الآن في مكانة جديرة بالتقدير والاحترام ثم ابتسمت وأضافت إنه صار الآن أيضًا واحدًا من أكثر الناس ثراءً، وهذا أيضًا كفيل بإثارة الاستحسان والإكبار في النفوس. وعندئذٍ أجابها سوتشين قائلًا: «عندما كنتُ فقيرًا، كان أهلي يُنكرونني، أما وقد أثريت فقد أكبروني، وبالَغوا في تقديري، فكيف يمكن للمرء أن يتجاهل قيمة الثروة والنفوذ والهيبة والمكانة؟»

لمَّا التقى ملك تشين مع رئيس الديوان

التقى الملك هوي حاكم تشين برئيس الديوان الملكي، وقال له: «لا أرى إلا أن سوتشين يخدعني، ويؤلِّب عليَّ حُكام الدول الستِّ الواقعة شرقي جبل «هواشان» بما هداه ذكاؤه وفطنته البارعة إلى عقد تحالفٍ بين تلك الدول هدفه الإيقاع بـ «تشين» ولا بد أن دولة «جاو»، بما تملِكه من ثرواتٍ هائلة، وعدة وعتاد، سوف تسارع إلى استمالة الدويلات والإمارات الأخرى لمهاجمتنا، وسيكون رسولها المُقتدِر في تنفيذ هذه المهمة هو «سوتشين»،

ولو أني أعرف أنه من المستحيل إلغاء الفروق الدقيقة في التوجُّهات والأفكار فيما بين الدويلات بعضها بعضًا، ويصعب بالتالي الانتهاء إلى فكرةٍ واحدة تتجمَّع حولها كل الآراء، مثلما يتعذَّر ربط كل الدجاجات بخيطٍ واحد دون أن يتسبب ذلك في فوضى هائلة. وإني ما بغضت أحدًا في حياتي قطُّ قدْر بُغضي لـ «سوتشين»، وكم طال كمدي بسببه، لذلك أفكر في إيفاد القائد العظيم «باتشي» إلى شرقي «هواشان» لتوضيح الأمور وتصحيح المفاهيم لدى الأمراء ورجال البلاط.» فقال له «هانشيوان» أحد وزرائه ما نصه: «لا أحبذ التصرف على هذا النحو يا مولاي، ولا أرى لك أن توفد قائد جيوشك في هذه المهمة إذا كنتَ قد نويت القتال، أما إذا كنت تبغي توضيح الأمور، وتسوية الخلافات وضبط النفس مع كل الأطراف فابعث إليهم برئيس وزرائك الفيلسوف الداهية «شانغي» (حيث هو الذي ساعد على تنصيبك ملكًا، وهو أيضًا فيلسوف ومفكر، ويستطيع استمالة الدول والممالك في صفك)». ووافقه الملك قائلًا: «نِعم الرأي إذن، وسآخُذ بما اقترحتَ عليَّ».

لمَّا التقى الوزير لينغ بحاكم تشين

التقى الوزير «لينغ» بجلالة الملك «شاوشيانغ» حاكم تشين وقال له: «إن خطتي يا مولاي تنحصر في أن أعمل على أن تأتي كل تصرفات وسلوكيات دولة «تشي» على النحو الذي يخدم أغراض جلالتك، ذلك أني باتجاه الهجوم على دولة «سونغ» التي سوف تعاني هزيمةً نكراء، وحينئذٍ وبعد سقوط «سونغ»، دولة «جين» في خطر شديد يتهدَّدها، مما سيجعل بعض المدن التابعة لـ «وي» والغربية من حدودنا تسقط في أيدينا بمُنتهى السهولة، وبالطبع فإن كلًّا من دولتَي «يان» و«جاو» سوف تتأثران بما ترَيانه من إنجازات للاتحاد القائم بيننا وبين «تشي»، وبالتالي فلن تتردَّدا في أن تتنازلا عن أجزاءٍ من أراضيهما لجلالتك، ولمَّا كانت حليفتنا «تشي» تخشى بأس مولاي، فلا بد أنها ستُضاعف مظاهر الاحترام لجلالتك، ولا بدَّ أن شعورها بنفوذكم وإذعانها لمشيئتكم سيزداد بعد الهجوم على دولة «سونغ»، فلماذا تتردَّد جلالتكم في القبول بوجهة نظري القائلة بوجوب شن الهجوم فورًا على «سونغ»؟! وفي الحق يا مولاي، فإنه ما من سبب دعاني للإفاضة في شرح اقتراحي هذا على نحو مُفصل، إلا أني ظننتُ أن الأمر واضح لجلالتكم على النحو الذي أبديتُه آنفًا.»

لمَّا ذهب «شانغي» لمناظرة ملك تشين

أقدم شانغي على الملك «هوي» حاكم تشين، وقال له: «كنت قد سمعت أحدهم يقول يا مولاي إنه ليس من الفطنة أن يتكلَّم المرء بما لا يفهم، كما إنه ليس من الوفاء والإخلاص أن يدع المرء التكلُّم بما يفقَه من الأمور، أما إنه لا خير في وزيرٍ خائن لسيده ملك الملوك، ولا حياة لمن كتم عن مليكه خبايا الحقائق، وعلى هذا الأساس، فسوف أُفضي لجلالتك بكلِّ ما وعَيت. قد بلغني يا مولاي أن كل ما يقع بين البحور الأربعة سواء من الشمال أو من الجنوب، أي من دولة «يان» إلى دولة «وي» بما في ذلك دولتي «تشو» و«تشي» يقومون بتكتيل عناصر من قوى مُتفرقة في دولة «هانكو» لتوليف حشدٍ يتحرك إلى الغرب لتهديد تشين.

والحق يا مولاي أني عندما علمت بهذه الأنباء ضحكت في نفسي من غفلة أولئك الحمقى الذين لا يُقدِّرون حقائق قوتهم على نحو صحيح.

ومن المقرر أنه لا مفر لأية دولة في العالم كله من التفكك والانهيار في ثلاثة أحوال معلومة بدقَّة، والمؤسف أن الدول والممالك التي ترتِّب للهجوم على تشين، قد وقعت جميعها في تلك الأخطاء الثلاثة القاتلة، ولعلِّي لا أُبالِغ إذا قلت إن تلك قد صارت طبيعة قرارات الدول في زماننا. وقد بلغني يا مولاي أنه إذا هاجمت قوات غير منظمة تنظيمًا عاليًا قوات دولة أخرى شديدة الانضباط، حسنة القيادة، فإنها تُخاطر مخاطرة جسيمة، وإذا أقدمت قوات ذات نوايا عدوانية على الاشتباك بقواتٍ تتحلَّى بأهدافٍ خلقية وصادقة ومشروعة، فهي تعرض نفسها للفناء، وحين لا يكون في عتاد القوات المهاجمة سوى الظلم والبطش والعدوان بمواجهة جيش سلاحه الإيمان بقضية وطنه، فالمُعتدي عندئذٍ هالك لا محالة. والآن، فإني أنظر إلى الإمارات والدول التي تتحداكم بالقتال، فأجد أنها تعاني نقصًا في الادخارات المالية واختلالًا رهيبًا في مخزونها من الحبوب والغلال، وهكذا فإن أي محاولة سواء كانت لإعداد قوات هجومية وفيرة العدد، أو لتعبئة الجماهير، ستجد أمامها عددًا قد انتضى رماحَه، ثم إذا بها لا تملك في أيديها إلا الفئوس والمعاول، وهو ما يعني أنها على موعدٍ مع الفرار والتشتُّت عند أول شرارة للحرب، وساعتئذٍ، لن يملك أحد أن يلوم الشعب على التقاعس عن القتال، ما دام القادة أنفسهم قد عجزوا عن المبادأة الناجحة للقتال. إن أحدًا من الناس لن يرضى بأن تُزهَق روحه عبثًا وهو يرى بعينَيه عجز القيادات عن الاحتفاظ حتى بسلطة الثواب والعقاب، فلا هي كافأت المجتهد ولا عاقبت المقصِّر، وعندما

تصدر دولة تشين إعلانًا عن رصد مكافآت سخية للمتطوعِين فيجب أن تراجع جدارة الاستحقاق بدقة، ويمكن القول — بعامة — إن الإنسان العادي الذي لم يشارك في أي قتالٍ منذ نعومة أظفاره لن يتردَّد أمام نداءٍ يطلب منه الدفاع عن أهله وقتال أعدائه إلا أن يُلبي نداء الزحف بغير تردُّد، وقد تبلغ به الجرأة حدَّ الاستهانه برماح العدو المشرعة فيقتحمها بكفَّين مجردتَين، أو يقفز فوق براكين اللهب بقدمَين عاريتَين. والنماذج التي تثبت قولي أكثر من أن تُحصى، أما مدى إصرار المُقاتل على الموت أو على الحياة، فتلك مسألة تتبايَن من فردٍ لآخر، وإن كنت أعرف أن أهل تشين مجبولون على الجرأة أمام المخاطر، وهذا واحد من الأسباب التي تدعو الناس ههنا على الاعتداد بالاندفاع الجريء واعتباره من الخصال النبيلة، وهكذا فإن جنديًّا واحدًا يستطيع أن يهزم عشرة جنود من أعدائه، وعشرة مقاتلين يقدرون على أن يهزموا مائة، ومائة يدحرون ألفًا، وألف يقدرون على عشرة آلاف، وعشرة آلاف يملكون المقدرة على إنزال الهزيمة بعدة جيوش مجتمعة. والآن، إذا نظرنا إلى الظروف الطبيعية لدولة تشين نجد أن أرضها تتميز بالتوازُن بين المرتفعات والمنخفضات، وأن مساحتها كبيرة لا بأس بها، وجيشها من أفضل الجيوش عدة وعتادًا، وأضف إلى كل ذلك ما أصدرته الدولة من إعلان عن المكافآت الكريمة لمن أحسن البلاء في القتال. والخاصية المنيعة لجغرافيتها، فإن كل ذلك يرد العدو عن التفكير في الهجوم، فإذا وضعنا تلك النتيجة بالموازنة مع تطلعات باقي الدول للهيمنة، نجد أن مقدرة تشين على ضمٍّ وابتلاع أراضٍ كثيرة للغير، هي التي تمنح فرصًا هائلة لجيش تشين بالهجوم وإنزال الهزيمة الفادحة بالآخرين، وهو ما يعني في وجهة نظرٍ ما، إمكانية السيطرة على مساحاتٍ هائلة من الأراضي واستصلاحها بما يُحقق فوائد جمة، ويدخل ضمن دائرة الإنجازات التاريخية في سجل دولة تشين. أما إذا أُصيبت القوات بالإعياء والتفكُّك وعسرت أمور الحياة على الشعب، ونضب الادخار، وتصحَّرت الأراضي، وأوشك مخزون الغلال على النفاد، وتعنَّتت الدول المجاورة من الجهات الأربع، وذبُلت أصداء المهابة والجاه، فلن يكون هناك سوى سببٍ واحد وراء كل ذلك، ألا وهو تقاعُس المُخطط السياسي عن الوفاء التام لقضية بلاده.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وواصل «شانغي» كلامه قائلًا: «دعني أقص عليك يا مولاي شيئًا من الحوادث الغابرة، ذلك أن التاريخ يُحدثنا عما أحدثته دولة تشي من تخريبٍ هائل للدول الواقعة على حدودها

الجنوبية والشرقية والغربية والشمالية، وهي على التوالي: تشو، وسونغ، وتشين، ويان، وبينما كانت تقوم بشن الغارات على هذه الدول، فقد كانت من جانبٍ آخر تقوم بتحريض حُكام كلٍّ من وي وهان بإرسال حملات تأديبية إلى تشو وتشين، فلمَّا اتسعت مساحتها وزادت قوتها العسكرية، استطاعت أن تُحرز سلسلة من الانتصارات والغزوات الناجحة، وذلك بما أصدرَتْه من أوامر قيادية عُليا تُطالب الدويلات التابعة لها بالاشتراك في المجهود القتالي. وكان ذلك ضروريًّا لتجاوز عقباتٍ جغرافية وعوائق طبيعية كان يُمكن لها أن تقف في طريق الزحف العسكري لو أنها كانت تُحارب بمفردها. وهكذا دخلت دولة تشي خمس معارك كبرى وانتصرت فيها جميعًا. وفي الحق، فقد كان ذلك هو السبب في احتفاظها بهيبتها ونفوذها بين الدول، لأنه كان يَكفيها أن تُصاب بالهزيمة مرةً واحدة فقط حتى تتفكك وتنهار، فمِن ثم، أرى يا مولاي أن الحرب تتصل اتصالًا وثيقًا ببقاء ووجود بلدٍ كبير وقوي مثل بلدكم، ثم إني قد سمعتُ أيضًا قولًا أعجبني مفادُه أن من أراد أن يجتنب الكوارث العاتية، فينبغي عليه اجتثاث المصائب من مَنبتِ جذورها، وقد سجل لنا التاريخ ما قامت به دولة تشين من غزوٍ لدولة تشو في سالف الزمن، وبلغ من بأس قوات تشين أنها تقدَّمت حتى استولت على «إينغ دو» عاصمة تشو، ثم احتلَّت مناطق ذات أهمية سياسية أخرى حتى أرغمت حاكم البلاد على الفرار ناحية الحدود الشرقية والاختفاء في مجاهل مدينة «تشندي»، وكانت الظروف القائمة في ذلك الوقت تُشير إلى أن استمرار توغل القوات في أراضي تشو كان يعني سقوط الدولة بالكامل تحت سيطرة قوات الاحتلال، باكتمال السيطرة على أرضها يتوفر مورِد مُهم من موارد الدولة لتلبية حاجات الناس، وبذلك فإن مجموع المحاصيل الزراعية التي تُنتجها يمكن أن يكفي أكثر المطالب الشعبية إلحاحًا، هذا بالإضافة، طبعًا، إلى أن تشين في ظلِّ هذا الوضع كانت تستطيع أن تعمل على استنزاف طاقة دولتي «تشي» و«يان» إضافة إلى إضعاف النفوذ الأدبي للدول الثلاث: هان، جاو، وي، فإذا ما تمَّت هذه الخطوة، تحقَّقت لدولة تشين الزعامة فوق الممالك، واتجهت إليها الوفود الرسمية لجاراتها من الجهات الأربع، تحمل صكوك الولاء والطاعة، إلا أن شيوخ السياسة والتخطيط عندنا لا يضعون هذه التصوُّرات في حساباتهم، وبالتالي لا يتصرَّفون على النحو الذي ذكرتُه لجلالتكم، بل على العكس تمامًا، يُخططون لسحب القوات وعقد تسوياتٍ سِلمية مع «تشو» وهو ما يعطي الفرصة لهذه الأخيرة، كي تلتقِط أنفاسها، وتُعيد ترتيب أوضاعها الداخلية التي أشرفت على الانهيار، فتستعيد إليها الشاردين والهاربين وراء الحدود، وتستعين بالجميع في تشييد مؤسسات الوطن (الدولة)

والسماء (المعابد)، ومن ثم تقوم — من جديد — بإخضاع الممالك المجاورة تحت نفوذها، وهو ما يُعطيها فرصة ذهبية تتمكَّن بها من تهديد تشين التي ستجد نفسها قد صحَتْ فجأة من نومٍ عميق، وقد ضاعت منها مقاليد الزعامة.

ولا بد من الإشارة إلى الميول الواضحة التي تبديها الممالك المختلفة للتحالُف فيما بينها والتي تمخَّضت عن توطين جيشٍ مشترك في منطقة «هوايانغ»، ومع ذلك فإن جلالتكم تستطيع أن تقوم بالقضاء على هذا الجيش المُتمركز هناك باستخدام الحيلة والدهاء، وهو ما يتطلَّب منكم دفع قوات باتجاه مدينة «واليان» لمُحاصرتها عدة أيام، وبعدَها تسقط في أيديكم ثمرةً يانعة، فإذا حدث ذلك، لا بد أن تسقط دولتا وي وجاو، بما يترتَّب على ذلك من آثارٍ وخيمة، أهمُّها وأبرزها وقوع دولة جاو تحت مخاطر هائلة تتهدَّدُها، وعندما يتسلَّط الخطر على عنق جاو تتوارى دولة تشين وراء حِجابٍ من عزلة، وتفقد كلَّ سند، والنتيجة الحتمية لذلك هي إمكانية الوثوب على الجبهة الشمالية والاستيلاء على الدويلتَين «تشي» و«يان»، ثم التحرُّك بعد ذلك إلى المنطقة الوسطى لإعاقة فرَص تطوُّر وازدهار الدول الثلاث: (هان، جاو، وي)، وتلك هي الخطوة التي لو تحقَّقت، لأصبح في يدِكم النفوذ والسلطان والقوة فوق الممالك جميعًا، ومن ثم تأتيكم الوفود من كلِّ صوبٍ لتقديم أسمى آيات الولاء والتبجيل، لكن المُشكلة تكمُن في أن رجال التخطيط لم يأخذوا بهذه الاعتبارات، بل قاموا بسحب القوات وعقدوا الصُّلح مع دولة وي التي استطاعت أن تستغلَّ الفرصة لتنهض ثانيةً من كبوتها فتُشيد معابدها ومؤسساتها بعد أن كانت على وشك الانهيار التام، وهكذا ضاعت — للمرة الثانية — فرصة الترقِّي إلى ذُرا المجد والوثوب إلى مكانة الدولة العظمى، وحتى عندما تولَّى «رانغ هو» رئاسة الوزراء منذ وقت غير بعيد، وأراد القيام بإصلاحات شاملة، فقد نجم عن ذلك أنه تورط في خطأ بالغ الخطورة وهو أنه استخدم قوات جيش واحد لخدمة أغراض بلدين مختلفين (دولة تشين، ودويلة تابعة)، فكانت النتيجة إنهاك القوات تحت ظروف مناخية بالغة الصعوبة خارج الحدود واستهلاك طاقة الجماهير في الداخل بغير جدوى، وهكذا أيضًا ضاعت — للمرة الثالثة — الفرصة في تحقيق مكانة سيادية متميزة لدولة تشين.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

لمَّا كانت دولة جاو تقع وسط دولٍ ثلاثٍ هي: تشي، هان، وي، على مساحةٍ من الأرض يشغلهاعدد وافر من السكان غير المتجانسين، إذ إنهم أخلاط من شعوب وقبائل شتى،

فقد تميزت الحياة الاجتماعية للأهالي هناك بنوع من البساطة والتلقائية وشيء من نزق الطباع الذي يستعصي على الانقياد لسُلطة حاكمة، هذا بالإضافة إلى كثرة تبديل وتغيير اللوائح القانونية، وفقدان الثقة والمصداقية في عدالة الثواب والعقاب. ومن ناحية أخرى، فقد كانت الظروف الجغرافية تحُول دون قيام نظامٍ دفاعي قوي. أما الطبقة الحاكمة فقد عجزت عن أن تُعبئ طاقات الشعب بكاملِه، فلا هي استطاعت أن تُجنِّب البلاد ويلات الانهيار، ولا هي حثَّتِ الناس على توقِّي الخطر، بل قامت باستدعاء أعداد هائلة من الجنود وحشدتهم في مدينة «تشانغ بين»، وذلك تمهيدًا للاستيلاء على قطاع «شانغ وان» — التابع لدولة هان — وهنا يستطيع جلالة الملك أن يستعمل الحيلة والدهاء في تدمير هذا القطاع وإزالته من الوجود تمامًا، بحيث يتمكن من الوثوب إلى مدينة «ووآن» والاستيلاء عليها. وعندئذٍ، يتبدل ما كان بين حاكم جاو ورجاله من وئام، ويدب النزاع بين الأهالي والجنود والإدارة الحكومية. وهو ما سيجعل أهم مدينة عندهم (هان وان) في مهب الريح، دون دفاع متماسك، فإذا ما اقتحمتها جيوش تشين، وقامت بعد ذلك بإعادة تجميع وتعبئة قواتها ثم واصلت الزحف إلى الغرب مُتجاوزة بذلك الحصون المنيعة في «يانغ شانغ»، فسيُمكنها أن تُخضع مقاطعتي «داي» و«شانغ داي» وتتكون داي من ستة وثلاثين إقليمًا، أما شانغ داي فيتبعها سبعة عشر إقليمًا، وهو ما يعني أن تشين ستحصل على غنيمة ثمينة دون أن يرفع جندي سلاحه أو أن يُشمِّر مدني عن ساعده. وهكذا تسقط كلتا المقاطعتين في يد تشين بغير قتال، وتقع كل من مقاطعتي «دونيانغ» — من أرض جاو — و«خوي» في حوزة دولة تشي، وكذلك تئول المناطق الواقعة شمال بحيرة «شونهو» لملكية دولة «يان». وحسبما هو حاصل فإنه إذا تم الهجوم على جاو، فسوف تتعرَّض دولة هان للمخاطر، ونتيجة لذلك تُصبح كلٌّ من وي وتشو في وضع يُعرِّض استقلالهما للمخاطر، وهكذا فإن خطوةً واحدة يقوم بها الملك ستؤدي إلى القضاء على هان، وإيذاء وي، وإخضاع وإضعاف هيبة ونفوذ تشو، وشي، ويان، فإذا أمكن تدمير خزان «بايما» فإن فيضانًا هائلًا سينطلق من عقاله ويُغرق دولة وي عن أسرها، بل يمكن لِمثل تلك الخطة أن تسحق الممالك الثلاث وتحالف قوى الدول الست، وليس على مولاي بعد ذلك سوى أن يجني قطوف المجد، فيعظُم سلطانه فوق الممالك، لكن العقبة تكمُن في عجز خبراء التخطيط عن تصور تلك الترتيبات، بل كما أشرت آنفًا، سارعوا إلى سحب القوات وعقد الصلح مع دولة جاو، مما ضيَّع على الجميع فرصة تحقيق المجد والمكانة العظمى لدولة تشين ومِلكِها بين الدول، حتى اهتزَّت صورة بلادكم في عين الجميع وصارت دولةٌ على وشك التفكك والانهيار مثل

دولةِ جاو تُوقِع بكم في أحابيلها ودهاليز مكرِها وخداعها، فما كان ممكنًا لكل ذلك أن يتم لولا غفلة المُخطِّطين وجهلهم، هذا من جهة، أما من جهةٍ أخرى، فقد تجلَّت الآن حقيقة على مرأى من الجميع ألا وهي أن دولة جاو التي كان ينبغي لها أن تسقط وتندحِر، قُدِّر لها أن تبقى وتنهض من كبوَتِها، ودولة تشين التي كان من المأمول لها أن تعتلي ذُرا المجد والسطوة، تراجعت وتقهقرت كثيرًا عما كان ينبغي لها أن تبلُغه، فالحاصل أن الجميع أصبح يُدرك مستوى التخطيط المُتدنِّي في تشين. هذه واحدة، ثم إنه لمَّا حدث استنفار للحشود العسكرية للهجوم على مدينة «هان وان»، اتضح عجز القوات عن تحقيق هذا الهدف، ففشل الهجوم، ودبَّت الفوضى وسط الجنود، حتى إن بعضهم نزع دروعه وألقى سلاحه وفرَّ هاربًا من الميدان تحت سمع وبصر الجميع، مما أعطى انطباعًا سيئًا عن مدى الإعداد القتالي لقوات تشين. تلك هي المسألة الثانية، أما المسألة الثالثة فتتمثَّل في أنه بعد أن تقرَّر أن تتمركز القوات المنسحِبة بالقرب من مدينة «لي تشنغ» أصدر جلالة الملك أمره بحشد القوات ثانيةً للقتال وهو ما لم يكن مُمكنًا معه تحقيق أية مكاسب أو انتصارات على أي نحوٍ من الأنحاء، ولَمَّا كان الجيشان المُتعاركان قد بلغ بهما الإنهاك مداه، فقد آثر كلاهما الانسحاب. وهكذا برزت أمام الجميع حقائق موقف تعكس الحالة المُزرية التي بلغتها قوة دولة في حجم تشين. إذن ففي الداخل، أدرك الناس جهل الخبراء السياسيين، مِثلما لمسوا في الخارج ضعف المستوى القتالي للجيش؛ فمن ثم أرى أنه ليس بالإمكان مواجهة قوات مُتحالفة تضم عددًا كبيرًا من الممالك، وذلك طبعًا يرجع إلى ما أصاب القوات من ضعفٍ وإنهاك بالإضافة إلى شظَف العيش الذي يُحيط بالأهالي من كل صوب، ونُدرة الادخار، وجفاف الحقول، ونضوب المحاصيل الغذائية. أمَّا على المستوى الخارجي، فقد بلغت عزيمة قوات التحالف حدًّا لا مثيل له من الثبات والصلابة، وهو الأمر الذي يتطلب من جلالة الحاكم إدامة النظر وإمعان الفكر والروية، ثم إني قد سمعتُ يا مولاي بأن توخِّي الحذر مَدعاة لحُسن التصرف، فإذا قرنت الحذر والانضباط دانت لك الممالك، وخضعت تحت سلطانك، ولئن كنتَ في شكٍّ مما أقول فإني أسوق لك شيئًا من وقائع التاريخ القديم؛ ذلك أنه لَمَّا كان الملك «دوجوانغ» (حاكم دولة شانغ) وكان طاغية مُستبدًّا، ما زال بعدُ أميرًا حدثًا في السن، لم تعركه الحوادث، فقد خرج قائدًا لجيشٍ جرَّار قوامه ألف ألف مقاتل، وحدث أنَّ قوات المَيسرة ذهبت لتسقي الجياد عند وادي تشي، أمَّا قوات الميمنة فقد قصدت صوب هوان لتروي ظمأها بعد أن أجهدها المَسير، إلا أن المؤسف في ذلك كله أن بئر الوادي قد جفَّت وانقطع مجرى النهر، فلمَّا أقبلت ساعة القتال والتحم الجيشان: جيش الأمير،

وقوات الملك «أوو» التي لم يتجاوز عددها الثلاثة آلاف مقاتل يرتدون حللًا عسكرية بيضاء حدادًا على وفاة أحد رجال الدولة، ثم إن القوات صمدت في المعركة التي دامت يومًا واحدًا فقط، واستطاعت أن تقهر جيش الأمير «جوانغ»، بل دخلت أرضه واحتلَّت عاصمة البلاد وألقت القبض عليه شخصيًّا بعد أن احتلَّت بلدَه واستعبدت شعبه، فكانت حالة مُثيرة للرثاء والشفقة بحق، وحدث أيضًا أن «جيبو» (أحد كبار قادة دولة جين) قاد جيوش ثلاث دويلات مُجتمعة ذاهبًا لقتال «جاو شيانزي» (أحد القادة الهاربين من دولة جين)، وقام جيبو بهدم جزءٍ من جدار سدِّ النهر، يريد إغراق طريده، فلمَّا انقضت ثلاث سنوات كاملة، وأصبحت المدينة على وشك السقوط تحت ضربات الهجوم العنيف، وذهب «جاو شيانزي» إلى العرَّافين والكهَّان وكان له اعتقاد شديد بحسابات الحظ ومعادلات الأبراج الفلكية، ثم إذا به يتخيَّر أكثر الأيام والساعات حظًّا في اتخاذ قراراته، وأوفد مُستشاره الشخصي في مهمة سرية خارج أسوار المدينة، فقام هذا الأخير بمهمته على خير وجه، إذ تسلل خفيةً دون أن يشعر به أحد، ولجأ إلى أسلوب الخداع الشهير ب «فانجيان» أي زرع الأوهام والشكوك في قلوب الأعداء، وذلك لتخريب الاتحاد القائم بين هان ووي من ناحية، و«جيبو» من ناحية أخرى واستمال إلى صفِّه أهالي تلك الدولتَين، ليستخدمهم في صد قوات جيبو، بل القبض على جيبو شخصيًّا واعتقاله، مُظهرًا بذلك أعظم آيات الولاء والعرفان لـ «جاو شيانزي». وإذا تأمَّلنا حال تشين اليوم، ألفَينا التوازن الرائع في توزيع مساحتها، هذا مع الاتساع الهائل الضارب في آفاق الأرض ووفرة الجنود والمُقاتلين، ومزايا موقعها الجغرافي التي تتمتع بها دون سواها من الممالك والدول، بالإضافة إلى سيادة القانون وعدالة الأحكام والشرائع، فإذا قام التنافُس بين تشين وغيرها من الدول سعيًا للمكانة العُظمى والهيبة والهيمنة، صارت اليد العليا لـ «تشين»، ومدَّت سلطانها فوق باقي الدول والأقاليم والممالك. أما وإني قد غامرتُ بحياتي ووضعت رقبتي تحت حد السيف لا لشيء إلَّا رغبةً في لقاء وجهك يا مولاي كي أعرض عليك كيفية نص التحالُف القائم بين الممالك، وضرب دولة جاو، وتدمير هان، وحث كلٍّ من وي وتشو على التسليم والاعتراف بمكانتكم، وأخيرًا، كي أعمل على التقريب بين «تشي» و«يان» لإتمام آخر بندٍ في مشروع إقامة مملكة تشين الكبرى، التي يخضع لنفوذها كل جيرانها من الدول والممالك، وإني لأرجو أن يتفضل مولاي بأن يتَّخذ مما قلتُه آنفًا منهاجًا وخطةً للعمل، وإني على استعداد، إذا ما فشلت هذه الخطة في أن تؤتي ثمارها على النحو الذي أوضحته، بأن يُقطَع رأسي عقابًا رادعًا لجهلي وقلة فطنتي، وما قد أجلُبه من متاعب لجلالتكم بسبب الرعونة والطيش وسوء التدبير.»

لَّما فكر تشانغي أن يطلب إمدادات عسكرية

لَّما فكر تشانغي أن يطلب قوات عسكرية من دولة تشين، وذلك للدفاع عن وي، فقد ذهب «زوشنغ» إلى كانماو (أحد القادة العسكريين بدولة تشين)، وقال له: «خذ بنصيحتي، وابذل له العدد الوافر من القوات، فإذا ما حدثت إصابات أو خسائر جسيمة في الأرواح، فستبدو دولة وي بهيئة الذي فرَّط في أمانةٍ من أغلى الأمانات، وعندئذٍ، فلن تستطيع أن تُعيد حتى القوة السالمة المُتبقية من الجنود إلى تشين، وبالطبع فلن يجسُر «تشانغي» أن يعود بصحبة أكفان الموتى، ولن يتحمَّل شعوره بأنه السبب في تعاسة أهالي الضحايا، وربما تعرض لأشد العقوبات قسوةً وشراسة، أمَّا إذا كان النصر حليفَه، فستعود القوات بكامل أفرادها إلى أوطانها، بينما سيظلُّ تشانغي هناك، وقد تملَّكه الزهو والفخر، وسكر رأسُه من نشوة الانتصار، ولربما شعر مع ذلك بالقلق من أن تظنَّ دولة تشين به الظنون، حيث يُقال إنه أكثر إخلاصًا وتفانيًا لـ «وي»، على حساب أية اعتباراتٍ أخرى، وبالتالي يتردَّد في العودة إلى تشين ولا بد أن تتذكَّر جيدًا أنه إذا بقِيَ ها هنا، فسوف يترقَّى بفضل مواهبه إلى مكانةٍ أرفع بكثير مما تظن، على الأقل، فسيتفوق عليك في نواحٍ شتَّى ويعلو علوًّا كبيرًا.»

لَّما تجادل تشانغي مع الجنرال صماتسو

اشتعل أوار الجدل بين «تشانغي» و«صما» (أحد كبار القادة العسكريين) أمام الملك «هوي» حاكم تشين، وكان «صما» يريد مهاجمة دولة «شو»، وكان أن قال له «تشانغي»: «أما كان يجدُر بك أن تفكر أولًا في مهاجمة دولة هان؟» وهنا أشار إليه الملك بقوله: «فليطرح كلٌّ منكما حُجته، وها أنا ذا أنصت وأتأمل!» فبادر «تشانغي» إلى القول: «أرى أن نتقرَّب إلى دولة وي أولًا، ونُعمِّق صِلاتنا الودية بدولة تشو، ثم نقوم بتجريد حملةٍ عسكرية إلى منطقة سانشوان، ثم ندفع بقواتنا لسدِّ مَضيق جبل «هوانيوان» و«كوشي»، وإغلاق الطريق الرئيسي المار بمنطقة «شونليو»، ولندع وي تقوم بعزل إقليم «نانيانغ»، وكذلك نسمح لدولة تشو بالاقتراب من «نانجين»، وهنا تتقدَّم قواتنا (جيش تشين) لمهاجمة «شين شنغ» و«إيانغ»، ونتوغل حتى نبلغ أطراف دولة جو الشرقية، ونتوقف ريثما نقوم بحرب نفسية تهدف إلى فضح مساوئ البيت الحاكم في جو، ثم نواصل الزحف لاحتلال أراضي كلٍّ من يوي وتشو، فإذا ما أدرك حاكم جو أنه هالك لا محالة، فسوف يُفكر جديًّا

في التنازل عن الإرث الإمبراطوري المُقدس؛ وبحصولنا على هذه القطعة المقدسة المأثورة عن أسلافنا الأباطرة العظام، نستطيع أن نضبط النظم القانونية والتشريعات التي يعمل بموجبها أمراء الأقاليم، وأن نضع إحصاءاتٍ دقيقةً للسكان والخرائط المَسحية التي تمهد السبيل لإجراء ذلك الضبط، فنمُد سلطانها فوق كل الممالك، ويسجل التاريخ لنا أعظم مأثرةٍ يمكن أن نُحققها للبلاد جميعًا ألا وهي الوحدة الكبرى. أما بخصوص دولة تشو، فالأمر لا يستحقُّ أدنى اهتمامٍ؛ نظرًا لأن هذا البلد يقع في أقصى الغرب من الممالك جميعًا، بل هو موطن البرابرة والقبائل الهمجية، ولن يُجدينا نفعًا شنُّ الغارة عليها، بل نكون قد حمَّلنا الجيش والشعب والناس جميعًا ما لا يُطيقون دون فائدة، سواء غنِمنا أرض تشو أو حالت دونَنا وتلك الغاية أية عقبات. وقد قيل قديمًا يا مولاي: «إن طريق المجد يبدأ من بوابات قصور الحكم، أما طريق الربح فيمر من بين أسواق التجارة».

ولا ينطبق هذا القول على شيءٍ قدْر انطباقه على «سانشوان» ودولة جو، ذلك أنهما يُمثلان رمز المجد وسوق التجارة معًا، وكان من الأجدى بجلالتكم الانتباه بقدْر كافٍ لِما يُمثلانه من أهمية، بدلًا من استنفار كل قوَّتكم لأجل قبائل نائية عن العمران والتحضر، يقوِّض من أركان الطموح الإمبراطوري العظيم بما يُباعد من فرَص تحقيق المجد المأمول.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

ثم تحدث «صماتسو» قائلًا: «الأمر على غير هذا النحو يا مولاي، واسمح لي بأن أَذكُر لجلالتكم، في هذا الصدد مقولة سمعتها منذ زمنٍ مفادها أن عماد ثروة الوطن، سعة مساحته وانفساح حدود أرضه، أمَّا مَكمن قوَّته الضاربة فيتمثل في سد حاجات الشعب، ولا يبلُغ البلد ذرا المجد والسؤدد إلا بإنفاذ السياسات العادلة، فإذا ما توافرت تلك الشروط الثلاثة، تحقَّقت للأوطان عزَّتها، وامتدَّ سلطانها فوق الممالك، أما وإن بلادك ضئيلة المساحة يا مولاي، وشعبك فقير، فلا أرى لكم إلا أن تُبادر إلى بلدٍ يسهل التعامُل معه، وأقترح أن يكون هذا البلد هو «تشو»، تلك الدويلة الواقعة في أقصى غرب الأرض، والتي تُمثل القبيلة الجامعة للبرابرة والهمج الساكنين في الأحراش، وهذا بالإضافة إلى ما حلَّ بها من تخريب على يد الطاغيتَين «جيه» (آخر ملوك أسرة شيا)، و«تجو» (آخر حكام أسرة شانغ)، فإن جلالتك إنما تُسيِّر إليها جيشًا يصرعها ويطرح رأسها تحت أقدامِه كما يطرح الذئب الشاة، فتستولِيَ على أرضها وتَضمُّها إلى أملاك دولة تشين الكبرى وتوسِّع حدودك إلى الآفاق البعيدة وتغنم منها ثرواتها، ثم تفيء على شعبك بالخير العميم، ولن يُكلفك الأمر

سوى حُسن التنظيم والإعداد القتالي الكفء، دون أن تُحمِّل الناس ما لا يُطيقون، ثم إنك باقتحامك دويلةً ضئيلة بحجم تشو، ستُخرج بطلًا مُظفرًا في وقتٍ قصير نسبيًّا، دون اللجوء إلى أساليب وحشية تُسيء إلى سمعتك، وبرغم ما يمكن أن يقع في يدك من مغانم مهولة، فلن يراك الملوك ناهبًا ثروات الغير، فتلك فرصة نادرة للحصول على نفعٍ مادي ومعنوي دون واسطة التحرك القتالي، بل وربما تَجني من وراء ذلك أيضًا صيتًا وشهرةً، يُطيِّبان ذكرك وسط الممالك بمقولة إنك البطل الفاتح الذي لا يتهاون مع الطغاة والجبارين، ولا يسكت عن الاضطراب والفوضى، لكنك يا مولاي، إذا ذهبت اليوم لقتال هان، وجرَتْ عليها سيوفك، وأسرْتَ المزيد من رجالها وأمرائها، فلن يعود عليك ذلك إلا بالهوان والخسران وسط الممالك، هذا بالإضافة إلى أن القاعدة العامة في القتال تُقرر بأنَّ الهجوم على بلدٍ ليس محلًّا للتنازُع، مسألة خطيرة جدًّا. ولكي أوضح لك هذه النقطة الأخيرة، فلا بد أن أُذكرك بأن البيت الحاكم في جو يُعَد بيت ملوك وأباطرة منذ الأزل، وهناك علاقات صداقة بينهم وبين كلٍّ من دولتي تشي وهان، فإذا ما أدرك حاكم جو بأنه خاسر الإرث الإمبراطوري الأقدس، وكذلك شعرت دولة هان بأن نهر «سانشوان» مسلوب منها لا محالة، فسيتعاون البلدان معًا، ويتحالفان مع دولتي «تشي» و«جاو»، ثم يطلبان العون والدعم من وي وتشو، فإذا ما قررت جو أن تتنازل عن الإرث الإمبراطوري المُقدس لدولة تشو، أو أرادت هان أن تهدي النهر إلى يو، فلن يملك مولاي أن يفعل شيئًا إزاء هذا الأمر، فذلك هو ما أراه عين الخطر، نظرًا لأن مهاجمة دويلة مثل شو يختلف عن مهاجمة هان». عندئذٍ أجابه ملك تشين بقوله: «نِعم الرأي إذن، ذلك هو ما سآخُذ به».

ثم إن دولة تشين جرَّدت حملة عسكرية إلى تشو، فاحتلت أراضيها جميعًا في بضعة أيام، وما لبثت أن قامت بترتيب الأوضاع وفق هواها، وأجرت التعديلات المُلائمة، فغيرت لقب «ملك تشو» إلى «أمير الإقطاع»، ثم عيَّنت «شين جوان» في منصب رئيس الوزراء، وهكذا صارت تشو إمارةً تابعة لدولة تشين الكبرى التي لمع نجم بهائها، وقَوِيَت وعلت في الأرض علوًّا كبيرًا حتى خافت بأسَها كل الممالك.

لمَّا راح تشانغي يكيد للوزير شوليجي

بلغ كيد تشانغي للوزير «شوليجي» أنه تظاهر بالتبجيل والاحترام البالِغ لمكانة الوزير، حتى إنه قام بترشيحه للذهاب إلى دولة تشو لمهمةٍ رسمية، بل سعى بكل جهده لدى حاكم تشو كي يتقدَّم بطلب رسمي لحاكم تشين للسماح له بتعيين شوليجي في منصب رئيس

الوزراء، وكان من جُملة ما قال تشانغي لملك تشين: «إن الغرَض من إيفاد «شوليجي» مبعوثًا رسميًّا لدولة تشو؛ توطيد دعائم الصداقة بين البلدَين، فما بال جلالتك وقد استقرَّ به المقام هناك وحاز رضا حاكم تشو الذي طلب تعيينَه رئيسًا للوزراء، بل بلغَني أنه قال للحاكم هناك ما نصُّه: «إن كنتَ تُفكر جلالتك في الإيقاع بـ «تشانغي» في ورطة، أو أن تُسيء إليه أمام البلاط الحاكم في تشين، فدَعْني أُقدم لجلالتكم يدَ العون في هذا السبيل.» فلمَّا تأكد ملك تشو من صدق مقالته، سعى لدى جلالتكم للموافقة على تعيين شوليجي رئيسًا لوزرائكم في بلاط تشين، فإذا استجبتُم لهذا الطلب، فسوف تسمحون له بالتجسُّس لصالح تشو.» ثم إن ملك تشين اقتنع بهذا القول، وراح يُعِد للتنكيل بـ «شوليجي»، إلا أن الأخير فرَّ هاربًا من تشين.

لمَّا فكر تشانغي في التنازل عن هانجون

لمَّا فكر تشانغي في التنازل عن هانجون لدولة تشو، فقد توجَّه من فوره إلى الملك «هوي» حاكم تشين وقال له: «لا أرى يا مولاي إلا أن منطقة هانجون هذه هي مصدر كل المتاعب وأُس البلاء، فكأنها شجرة خبيثة غُرِست في أرضٍ طيِّبة، فلا الشجرة اقتلعت ولا المصائب أدبرت، أو كأنها ثروة يتنازعها أشقياء، الكلُّ يريدها لنفسه. ولئن تأمَّلنا الوضع الآن، وجدْنا أن القطاع الجنوبي من منطقة هانجون يقع ملاصقًا لدولة تشو، وهي تَعُدُّ هذا الجزء حيويًّا ومهمًّا بالنسبة لها، وهو الأمر الذي يُسبب بالِغ القلق لدولة «تشين».» وهنا تدخَّل «كانماو» ليقول لجلالة الملك ما نصُّه «إن حجم القلق يتناسب دائمًا مع مساحة الأرض محلِّ النزاع، وإني أرى يا مولاي أنه إذا ما تسبَّبت هذه الأرض في مشاحنات أو أدَّت إلى اضطراباتٍ في العلاقات بين الممالك، فلا بأس من التنازل عنها لصالح اتفاقات الصُّلح المتبادلة وإقامة علاقات طيبة بين الدول بعضها ببعض، ومع ذلك فلا أشك لحظةً في أن تشو لن تلتزم بمبادئ الود والصداقة، وأنها سرعان ما ستنقُضُ الصلح وتعود سيرتها الأولى، ولئن كان في مقدور جلالتكم اليوم التنازُل عن أرضٍ بهدف إقامة علاقات ودية مع تشو، فماذا لو تفاقَمَ التنازع والشقاق بين الممالك؟! هل ستجدون عندئذٍ ما تُقدمونه عربونًا للصداقة مع تشو؟!»

لَّما قامت دولة تشو بالهجوم على وي

لَّما أعدت دولة تشو العُدة لمهاجمة وي، ذهب تشانغي إلى دولة تشين، وقال ما نصه: «أرى يا مولاي أن أفضل موقفٍ يمكن أن تتَّخِذه جلالتك في هذه الأثناء هو أن تقوم بمساعدة «وي» بكلِّ طريقةٍ مُمكنة، حتى تبلغ غاية القوة، وتتمكن من إحراز النصر على عدوتها، فتظل تذكُر سابغ فضلك، وتنزل دائمًا على رأيك، وتعمل بنصيحتك، ثم إنك تستطيع أيضًا أن تحصل منها على مدينة «شيها» الواقعة بالقُرب من حدودك، أما إذا خانَتْها المقادير ووقعت في إسار الهزيمة، فسيكون استعدادها القتالي، عندئذٍ، في أسوأ أوضاعه، وهو أيضًا ما يُمكِّنكم من الحصول على المدينة بأيسر مُحاولة.» وبالفعل فقد أخذ جلالة الملك «هوي» حاكم تشين بنصيحة تشانغي، وقام بتجهيز جيشٍ من أفضل جنوده، بلغ عدد أفراده عشرة آلاف مقاتل، وجهَّزهم بمعدات القتال، بالإضافة إلى مائة عربةٍ عسكرية، وذلك لمساعدة دولة وي، وتقدَّمت القوات تحت قيادة شيشو (رئيس وزراء وي الأسبق)، وأحرزت النصر على قوات تشو، لكن جيش وي كان قد بذل جهدًا خارقًا أثناء القتال مما استنفد طاقته الضاربة، فاستولى عليه الإنهاك ودبَّت بين صفوفه الفوضى، وهنالك أدركت وي حساسية الموقف الذي وجدت نفسها فيه خاصة أمام قوة وتعاظم ونفوذ تشين الكبرى، فأقدمت على التنازُل عن مدينة «شيها» لدولة تشين.

لَّما ذهب تيان شين بديلًا عن الخطيب المُفوَّه

ذهب «تيان شين» بديلًا عن الخطيب المُفوَّه ورجل الدعاية «تشين جين» وذلك في محاولةٍ منه لإقناع ملك تشين بإحدى السياسات المُقترحة، وكان أن قال للملك ما نصُّه: «أخشى أن يقع الملك في المحظور الذي وقع فيه قائد قبيلة «قو» ذلك أنه لَّما أراد أمير دولة «جين» مهاجمة أرض «قو»، فقد أعدَّ العدة لكل شيء، ولم يمنعه عن تنفيذ خطته إلا وجود طبيب القبيلة «جو جيشاو»، ومن المأثور في كتاب (أخبار جو) عبارة ذات مَغزًى كبير، نصُّها كالتالي: «إن امرأةً بارعة الجمال، تملك من النفوذ ما لا يملكه وزير ذو دهاء وحنكة ودراية، ومن ثم فقد استعان الأمير بواحدةٍ من جنس النساء ذات حُسن ورقَّة وأنوثة لا مزيد عليها، فتمكن بواسطتها من إيقاع الفتنة والاضطراب بالخُطط السياسية لأعدائه. وكان طبيب القبيلة «جو جيشاو» قد أخلص النصح لرئيسه، إلا أن أحدًا لم يعبأ بما قال، فما كان منه إلا أن خرج من البلاد هائمًا على وجهه، فما لبث بعدها أن هجم أمير «جين» بقوَّاته على

القبيلة فأوسعها تنكيلًا وبطشًا، فاستسلمت له سريعًا، ثم إن الأمير راح يُفكر في غزو دولة «ويو»، لكنه كان يخشى أيضًا من وجود رجلٍ داهية يقطن بين جنبَيها، ألا وهو الطبيب الرسمي الخاص بالبلاط الحاكم «كون جيشي»، وكان الطبيب الرسمي الشهير «شونسي» الذي عمل قديمًا ببلاط دولة «جين» يُكرر دائمًا مقولةً وردت في كتاب (أخبار جو) مفادها: «إن فتًى صغير السن قد يغلِب شيخًا مُحنكًا بدهائه وفطنته.» وهكذا فقد قرَّر الأمير إيفاد أحد الفتيان من موظفي القصر للإيقاع بـ «كون جيشي» (الطبيب الرسمي للبلاط الحاكم بدولة يو)، ولم يختلف مصير هذا الأخير عما لاقاه «جوجيشاو»، حيث وجد نفسه معزولًا عن البلاط الذي أصمَّ أذنَيه عن نصائحه، فرحل عن البلاد يهيم في الطرقات البعيدة، ولم يلبث الأمير أن وجد الفرصة سانحةً لشن غاراته على دولة يو، فلم يتوانَ عن ذلك حتى بلغ غايته، ودك الحصون، واستولى على البلاد بكاملها.» أما وقد أصدرت جلالتكم فرمانًا يُعلن للدنيا تنصيبكم إمبراطورًا لدولة تشين الكبرى، فإن دولة تشو ستقف لكم بالمرصاد، وتبذل كل جهدٍ للنيل من جلالتكم، ثم إنهم في تشو يعرفون الكثير عن أهم رجالِكم، فهم يُدركون مدى الجرأة والذكاء والنبوغ الذي يتحلَّى به «هوانمجون» أهم وأكفأ قادتكم العسكريين، ويُدركون أيضًا ما يتَّسِم به «تشين جين» من سعة الحيلة والدهاء، ومن ثَم فقد قاموا بتكليف «تشانغي» بالسفر إلى كلٍّ من الدول الآتية: وي، وهان، وجاو، ويان، وتشي، ومن المؤكد تمامًا أن مجيء «تشانغي» إلى تشين لم يكن الهدف منه سوى النيل من سُمعة وكفاءة «هوانمجون» و«تشين جين»، لذلك، أرجو من جلالة الإمبراطور عدم الإفراط في الثقة بذلك الرجل.» وبالفعل، فلم تكد تمضي عدة أيام حتى قدَّم «تشانغي» إلى جلالة الملك «هوي» حاكم تشين، الإمبراطور كتابًا يتضمن هجومًا على «تشين جين»، وتسفيهًا لخصاله، وهو الأمر الذي أثار غضب جلالة الملك، وأوقع في نفسه الشك في نوايا «تشانغي».

لمَّا قدم تشانغي إلى جلالة الملك هوي

لمَّا قدم «تشانغي» إلى جلالة الملك «هوي» حاكم تشين، راح يُعدد المثالب التي وقع فيها «تشين جين» قائلًا ما نصُّه: «أما ترى جلالتك أن «تشين جين» يروح ويجيء بين بلادكم ودولة تشو، فهو دائم التنقل بين اللذَين لم يُفلحا حتى الآن في توطيد علاقات الصداقة بينهما، هذا بينما يحافظ هو نفسه على عهود الودِّ بينه وبين تشو، أليس في ذلك تضييع للمصلحة العامة سعيًا لمطمعٍ أناني؟! ثم ما بالك لو علمتَ أنه ينوي الرحيل من بلادكم قاصدًا الإقامة الكاملة في تشو؟! تلك أمور يا مولاي تستحقُّ من جلالتكم مزيد التقصي

والمُراقبة لأحواله.» وهنا توجَّه جلالة الملك بالكلام إلى «تشين جين» ليقول له ما نصه: «أصحيح ما سمعتُه من ذهابك إلى تشو؟» فأجابه «تشين جين» بقوله: «لا أُنكر أن هذا صحيح تمامًا يا مولاي.» فقال له الملك ما نصُّه: «إذن، فقد صدَقَنا «تشانغي» القول في هذا الشأن!» فردَّ عليه تشين قائلًا: «الحق يا مولاي أن كلَّ الناس تعرف بأمر ذهابي إلى تشو، حتى عابرو السبيل في الطرقات يعرفون ذلك، ولا يقتصر الأمر على «تشانغي» وحده.»

ثم واصل ليقول: «كانت الناس فيما مضى تتخذ من سيرة الأمير «شياوجي» مضرب المثل في البر بالوالدين، حتى كانت كل الآباء والأمهات يتمنَّون أن يتَّخذوه ولدًا لهم، وكذلك قيل في «أوزدان» ما لا يزيد عليه من معاني الإخلاص والتفاني للوطن، حتى كانت كل القصور الحاكمة تحلم باستقدامه وتعيينه في أرفع المناصب. إن العبد الذي يبيعه مولاه وهو راضٍ عنه، لهو أعزُّ العبيد شأنًا، وإن الجارية التي إذا تنازل عنها سيدُها اشتراها جارُها لهي أحسن من كل الجواري، وكذلك فإن المرأة التي ما هجرها زوجها، إلَّا وجدت من يطلُب ودَّها من بين أهل نفس الدار المُقيمة بها، لهي أكرم الزوجات جميعًا، ولا يخفى عنكم يا مولاي أني أنوي الذهاب إلى تشو، لكن ما ظنُّكم برجلٍ يخون سيده، أيمكن أن يطمئن إليه وإلى إخلاصه ووفائه السادة الآخرون؟! أما وقد شاع أن جلالتكم تُريدون إبعادي عن القصر، فتُرى أين يمكن لي أن أذهب يا مولاي وليس أمامي سوى دولة تشو، وهي أقرب الجيران؟» وهنا تفكَّر الملك قليلًا ثم قال: «تريَّث وابقَ معنا، فأنت آمِن تحت سُلطاننا.» وأصدر جلالته فرمانًا بإبطال كل الإجراءات المُتعلقة بإبعاد «تشين جين» عن القصر.

لمَّا غادر تشين جين دولة تشو إلى تشين

وحدث أن غادر «تشين جين» دولة تشو عائدًا إلى تشين، وهنالك، تحدث تشانغي إلى الملك «هوي» حاكم تشين، قائلًا ما نصه: «لا أدري يا مولاي كيف يَصِحُّ أن يكون «تشين جين» هو وزيرك وموضع ثقة جلالتك، ثم إذا به يخون هذه الثقة وينقل أدقَّ أسرار بلاطك الحاكم إلى تشو؟ اسمح لي يا مولاي أن أقول لجلالتك إني لا أستطيع التعامل مع هذا الرجل بأي صفة وتحت أي وضع، بل أتقدم لجلالتكم راجيًا طردَه من القصر، وإذا بَدَا لجلالتك أنه يُزمع الرحيل إلى تشو، فلا مَعدى عن أن تأمُروا بالتخلص منه.» فأجابه الملك بقوله: «وكيف يجسُر تشين جين على الفرار إلى تشو؟» وقام الملك باستدعاء «تشين جين» فمثل بين يدَيه، فكلَّمه الملك، قال: «اصدُقنى القول، تفكر حقًّا في الرحيل إلى تشو؟ وكيف

تحجب عنِّي قرارك هذا وأنا مليكك؟ أما كان يجدُر بنا أن نزودك بمئونة السفر، ونبذل لك ما تريد، ونجهز موكبًا يليق بمقامك عندنا!» فأجابه «تشين جين» بقوله: «الحق أني أفكر في الذهاب فعلًا إلى تشو» فقال له الملك: «هكذا كان تشانغي يقدر أنك على وشك الرحيل، فهذا أمر لم يغب عن حدسِنا على أية حال، وذلك أني أعرف تمامًا أنك لن تذهب إلى أي بلدٍ آخر.» عندئذٍ رد عليه «تشين جين» قائلًا: «الحق يا مولاي أني إذا خرجتُ من هذا البلد، فسأقصد عامدًا إلى تشو، لا لشيء، إلا لكي يصدُق عليَّ حدس جلالتك، وظنون «تشانغي» بي، فأنا في قرارة نفسي لا أنوي الذهاب إلى هناك أصلًا، لكني سأمر بذاك البلد كيلا أكذِّب تصوُّرك، احترامًا وتقديرًا لحدس أفكارك، لكن دعني أقصُّ على جلالتك حكاية رجلٍ كان يعيش في دولة تشو منذ زمان بعيد، وكان لهذا الرجل زوجتان، فذهب من وراء ظهره من راود زوجته الكبرى عن نفسها، فزجرته المرأة وطردَتْه شرَّ طردة، فلمَّا قصد ذلك الصاحب الخائن إلى الزوجة الصغرى، وجدَها طوع بنانه، وحدث أن تُوفِّي الزوج، وانتقل إلى رحاب السماء، فذهب رجل طيب ونصح للَّذي راود الزوجتَين، أن يتزوَّج بأيهما يريد لنفسه، فأجابه بأنه يريد أن يتقدَّم للزوجة الكبرى، فاستغرب الرجل الطيب وقال له: «كيف تطلُب امرأةً أهانتك وزجرتك عندما تقرَّبْت منها، بينما ترفُض الأخرى التي أحبَّتك ووافقت أغراضك؟» فأجابه المُراوِد: «بالطبع كنت أرجو أن أجد القبول لدَيها عندما راودتُها، لكني الآن وبعد أن أقترِن بها، فلا بد أني سأجِد عندها الإخلاص نفسه الذي تتدرَّع به لصدِّ الغوايات الخبيثة.» ثم إنك تعلم يا مولاي مدى الذكاء الذي يتمتَّع به حاكم تشو بالإضافة إلى ما تميَّز به رئيس وزرائه «جاويان» هو الآخر من فطنة ونجابة، ولا بدَّ أنهما سيرفضان بكل شدة أن يُبقياني بأرضهما أو يُقرباني من مجلسهما إذا ما علِما بأني أُذيع أسرار الممالك التي عملت بها، وأُفشي خبايا القصور بحُكم ما توفر لدي من معلومات إبَّان وظيفتي بالبلاط الحاكم، أفتظن جلالتكم أني أستطيع بعد كل هذا أن أذهب حقًّا إلى تشو؟!»

فلمَّا ذهب «تشين جين» إلى حال سبيله، وجاء «تشانغي» إلى الملك وسأله بما نصُّه: «ما زلنا لم نتحقَّق بعدُ من احتمال ذهاب «تشين جين» إلى تشو من عدمه؟!» فأجابه الملك بقوله: «الحق أني ما وجدتُ بين الناس جميعًا من هو أكثر دهاءً من هذا الـ «تشين جين»؛ ذلك أني باغتُّه بالسؤال عن موضوع ذهابه إلى تشو، حتى نظر إليَّ وتأمَّلني برهةً وأجاب بما مفاده أنه لا بدَّ ذاهب إلى هناك، فلم أدرِ بم أُجيبه، لكني قلتُ له على الفور إنه ما دام الأمر كذلك، فقد كان تشانغي على حقٍّ فيما رواه بهذا الآن، فردَّ عليَّ قائلًا إن كلَّ الناس

تعرف أنه مسافر إلى تشو، وليس تشانغي فقط هو الذي تفتَّق ذهنه عن كشف المستور، ثم ذكَر لي شيئًا من أمثلةٍ شهيرة حول الوفاء الذي أظهره الأمير «أوزدان» نحو ملك دولة «أو»، ومدى تعلق الأمراء به وحُب الناس له، وإشادة الملوك بخصاله الجليلة، ورغبتهم في تقريبه إلى بلاطهم، وكذلك ضرب لي مثلًا حول وفاء «شياوجي» وبرِّه بوالديه، بالدرجة التي جعلت الآباء جميعًا يرجون أن يكون لديهم ولد مثله، وذكر شيئًا معناه أن الجارية التي يشتريها جارها من سيدها الذي باعها بالأمس، لهِيَ أفضل الجواري جميعًا، وأن المرأة التي طلقها زوجها، فوجدت من يطلب يدَها في الحال، تُعَد من أحسن النساء، وأضاف أنه ما لم يكن وفيًّا مخلصًا لي، فكيف يمكن لحاكِم تشو أن يُقرِّبه منه ويَجتبيه؟» وهكذا، فقد أُعجِب جلالة الملك «هوي» حاكم تشين بما قاله «تشين جين» واستحسن منطقه، فأقال عثرته، وتلطَّف معه، وعامله بالحُسنى.

سجل تشين الثاني

لَّما ساندت دولة تشي دولة تشو

ساندت تشي دولة تشو في الهجوم على تشين، واستطاعت كلتا الدولتَين انتزاع إقليم «تشيوو» من الدولة المهزومة، ثم إن تشين راحت تُعِد العدة لشنِّ حملةٍ تأديبية على «تشي» للثأر من الهزيمة التي مُنِيَت بها ولخسارتها بفقد الإقليم المشار إليه، إلا أن حاكم تشين — الملك هواي — راح يتأمل الأمور وقد استولى على قلبه القلق، وذلك لِما بين تشي وتشو من علاقات ودية، ولم يلبث أن استدعى تشانغي ليُفضي إليه بأفكار قلبه، وقال له ما نصُّه: «ها أنا ذا أفكر جديًّا في معاودة القتال مع تشي، ولكن أكثر ما يُقلقني هو ما بينها وبين تشو من تحالُفٍ وعلاقات ودية، فانظر كيف يمكن أن أجد خطةً جيدة للتعامُل مع هذا الموقف؟» فأجابه تشانغي قائلًا: «فائذن لي يا جلالة الملك بالحصول على عددٍ وافر من العربات الحربية والجياد والهدايا، ودعني أذهب أستطلِع دخائل الأمور بنفسي.» وحدث أن ذهب تشانغي إلى الحدود الجنوبية، فعبرها، وطلب لقاء حاكم تشو — الملك هواي — وكلَّمه قائلًا: «أريد أن أؤكد لجلالتكم يا مولاي مدى الحب والود والإعجاب الذي يُكنُّه مليكنا لشخصكم الكريم، هذا بالإضافة إلى أني، بالأصالة عن نفسي، ما أحببتُ في حياتي قط أن أعمل مستشارًا لدى أي حاكمٍ آخر سوى جلالتكم، لكني أودُّ أيضًا أن أذكر لفخامتكم أن مليكنا الكريم لم يبغض في حياته قط أحدًا من الملوك قدر بُغضه للملك «وي» حاكم تشي، وأضيف لذلك أنني أيضًا أشارك ملكنا نفس المواقف والمشاعر، والآن، فنحن نرى أن أحدًا في الدنيا لم يرتكب جريمةً في حق بلادنا مثل ملك تشي، وهكذا فقد قرَّرنا معاودة القتال معه، لكننا للأسف لا نملك في الواقع أن نُشاوركم في هذا الأمر، نظرًا لما يربطكم بـ «تشي» من علاقات ودِّية، ولا أنا أيضًا أستطيع أن أكون مُستشاركم في هذا

الشأن، لكني أؤكد لجلالتكم أنكم إذا أغلقتم نقاط الحدود الرئيسية بينكم وبين دولة تشي، فيُمكنني أن أطلب من ملك تشين أن يتنازل لكم عن إقليم «شانغيو»، وهو الوضع الذي يبلغ مُحيطه ستمائة كيلو مترًا، فإذا ما وقع في حوزتكم هذا الإقليم تبدَّلت عناصر الأهمية الجغرافية، وبالتالي تعرَّضت دولة تشي لخطر بالِغ وفقدت المزايا الدفاعية الفريدة التي كانت تتحلَّى بها، وعندئذٍ، ستجد نفسها رهن مشيئتك، أي إن الوضع سيُصبح كالتالي: في الحدود الشمالية، تفقد تشي الكثير من قوَّتها، وهو ما يَضمنه لك ملكنا المفدَّى، وفي الحدود الغربية، تستطيع جلالتكم أن تحصلوا على إقليم شانغيو من دولة تشين، إذا ما أبديتُم قدرًا من النوايا الطيبة، وهكذا تستطيعون أن تحصلوا على ثلاث مزايا وفق الخطة التي أعرضها على جلالتكم».

الجزء الثاني من الفصل نفسه

فما إن سمع الملك «هواي» — حاكم تشو — هذا الرأي حتى طابت نفسه وتهلل فرحًا، فأصدر في الحال فرمانًا يقول فيه ما نصه: «نُعلن للدولة خبر حصولنا، نحن ملك تشو، على إقليم شانغيو ذي المساحة الهائلة المشهورة، وهو من أهم الأقاليم التي ستئول إلى ملكيتنا، وتقع تحت نفوذنا.» وعندئذٍ، قدِم جميع الوزراء على الملك لتهنئته بهذا الخبر، وكان آخِر من تقدَّم إلى الملك الوزير «تشين جين» وفوجئ كلُّ الحاضرين بأنه الوحيد الذى لم يُعرِب عن سعادته وتهنئته، فاستغرب الملك، وقال له ما نصُّه: «أما ترى أني أحصل على إقليمٍ بهذا الاتساع وعلى قدْر من الأهمية الجغرافية دون أن أدفع لذلك ثمنًا أو أن أُريق دم جنديٍّ واحد في معركة، أليس ذلك تصرفًا ذكيًّا وفطنة أريبة، فكيف بك تتقاعس دون الجميع عن تهنئتي بهذا الفوز؟» فأجابه بما نصُّه: «حسب ما يبدو لي يا مولاي، لا أرى أن بإمكننا الحصول حقًّا على هذا الإقليم، وبالتالي، فالخطر يظلُّ كامنًا ومعلقًا فوق الرءوس، وهكذا لا أجد مبررًا يدعوني للمشاركة في حفل التهاني.» فدهش الملك وسأله أن يوضح الأسباب على نحوٍ أكثر تفصيلًا، فأجابه «تشين جين» بقوله: «لا شك في أن السبب وراء اهتمام ملك تشين بموقف جلالتك إنما يرجع إلى ما يربطكم بدولة تشي من علاقات طيبة، والآن، فإن جلالتك على وشك أن تقطع هذه العلاقات دون أن تحصل على الإقليم المشار إليه، وهو ما سيضعنا في موقف العزلة، وبالتالي تضيع منا الميزة التي تجعل لنا وزنًا عند تشين، ذلك أن هذه الأخيرة لن تهتم بدولة معزولة مثلنا، أما إذا طلبنا من تشين تسليم الأرض، قبل أن نبدأ في إجراءات قطع العلاقات مع تشي، فلا أظن أنهم

سيجيبوننا إلى ذلك حسب ما يتضح من خطتهم، ومن ناحية أخرى، فإذا بادرنا إلى قطع العلاقات مع تشي، ثم ذهبنا إلى تشين نطلب منها الأرض التي وعدتنا إياها، فلا بد أننا سنتعرض لخديعة يتفتق عنها ذهن الداهية تشانغي، فنعود خاسرين نعض بنان الندم، ولكن الأسوأ من هذا كله هو ما سينجم بعد ذلك من خطر حقيقي يتهدَّدنا على الحدود الغربية من قبل تشين، وخطر آخر أسوأ منه يُواجهنا على الحدود الشمالية، بعد أن نكون قد قطعنا علاقتنا بدولة تشي، وهو ما يعني أننا سنجد أنفسنا مُواجهين بزحف جيشين ضدنا من جانب تشين وتشي.» وهنا عبس الملك بوجهِه وأصمَّ أذنَيه عن سماع المزيد من كلام مُحدثه وقال: «دعك من هذه الأباطيل والأوهام وأطبِق فمك على لسانك ولا تنبس بكلمة أخرى، فقد رأيت الرأي الصحيح، وستعرف فيما بعدُ أني كنت أبعد بصرًا وأنفذ بصيرة، وسأتصرَّف على النحو الذي ارتأيته، ولن أضيع الفرصة.» وبالفعل، فقد سارع الملك بإرسال مبعوث عاجل للتباحُث بشأن تجميد العلاقات مع تشي، وقبل عودة المبعوث، كان قد بادر بإرسال وفدٍ لإتمام إجراءات قطع العلاقات تمامًا ونهائيًّا، وفي تلك الأثناء كان تشانغي قد عاد إلى تشين، وفي غضون أيامٍ توجَّه وفد رسمي إلى تشي، وذلك للعمل على إقامة علاقات رسمية طبيعية بين البلدَين، على أن يتم ذلك في أجواء مُحاطة بالتعتيم، ورغم ذلك فقد كانت دولة تشو تثِق في وعود تشانغي لها، فأوفدت قائد قواتها المسلحة لتسلُّم الإقليم الذي قيل إنه سيُهدى إليها، إلا أن تشانغي اعتذر عن عدم مُقابلة القائد العسكري الكبير مُتعللًا بإصابته بوعكةٍ صحية، ووقع في ظنِّ الملك هواي — حاكم تشو — أن تشين مُتشكِّكة في مقدرته على قطع العلاقات مع تشي، فأرسل جماعات من عتاة المجرمين إلى الحدود بينه وبين تشي ليسبُّوا مَلِكها بأفظع السباب، ويُثيروا الفوضى والقلاقل، فلمَّا تيقَّن تشانغي من قطع العلاقات بين تشي وتشو، تحامل وذهب مُتثاقلًا إلى مبعوث تشو، وقال له: «تعال نقيس قطعةً من الأرض، ستة أميال بالطول، ومثلها بالعرض، وأنا أُقطِعك إيَّاها عن طيب خاطرٍ من جانبنا.» فأجابه المبعوث الكبير بأن الأرض المُتَّفق على تسلُّمِها يبلغ مُحيطها ستمائة ميل وليس ستة أميال طولًا في عرض، فأجابه تشانغي بقوله: «لكنَّنا في الواقع لا نملك سعةً من الأرض تسمح لنا بالتنازُل عن رقعةٍ كبيرة بهذا الحجم.» وهنالك عاد المبعوث إلى تشو وأبلغ البلاط الحاكم بما سمِعه، فاستشاط الملك غضبًا، وفكَّر في شن حملةٍ تأديبية على تشين، فتقدَّم «تشين جين» من الملك واستأذنه في أن يتحدَّث إليه، فسمح له الملك، فتكلَّم قائلًا: «ليس من الصواب مهاجمة تشين، والأفضل من ذلك أن تنتهز جلالتكم هذه الفرصة لتقوم بعرضٍ سخي إلى تشين، وذلك بأن تتنازل عن قطعةٍ كبيرة من

الأرض، مقابل أن تتعاون معها في إعلان الحرب على تشي، وعلى أية حال، فإن الأرض التي سنُعطيها لـ «تشين» سوف نَقطعها من تشي، وبذلك (تتوازن الكفتان) يكتمِل لنا ما نقص منَّا. أما وقد قمتم جلالتكم بقطع العلاقات مع تشي وفوجئت بخديعة تشين، واستنكرت فعلتها المشينة، فلن تملك إلا أن تستيقظ غدًا لتجد تشين قد اتَّحدت مع تشي، ونكون نحن الخاسرين في كلِّ الأحوال.» ولم يأتِ هذا القول بما يشتهي أن يسمع الملك، فجهز الجيش وأعدَّ العدة لمهاجمة تشين، وحدث في تلك الأثناء أن اتَّحدت فعلًا تشين مع تشي، ثم لحقت بهم هان، أما تشو فقد تكبَّدت قواتها خسائر فادحة في إقليم «دولينغ» حتى كادت قوات الجيش والمَدنيين تهلك عن آخرها، وكان ذلك كله راجعًا لسببَين: أولهما: تجاهل الخطة الذكية التي تصورها «تشين جين»، وثانيهما: الثقة الزائدة فيما تفوَّه به تشانغي من وعود معسولة وأمانٍ جميلة.

لمَّا قُطعت العلاقات بين تشي وتشين وتشو

لمَّا قُطعت العلاقات بين تشو وتشي، وقامت قوات الدول المُتحدة بشن غاراتها على تشو، وعندئذٍ ذهب «تشين جين» إلى الملك هواي — حاكم تشو — وقال له: «الرأي يا مولاي أن تبادر إلى التنازل عن قطعة أرض عند الحدود الشرقية لدولة تشي على سبيل التصالُح معها وإعادة العلاقات الودية، ثم تسعى لإقامة علاقاتٍ سلمية مع دولة تشين عند الحدود الغربية.» وقام الملك بإيفاد: «تشين جين» إلى دولة تشين، حيث استقبله الملك هوي وقال له: «قد عرفنا أنك أصلًا من مواطني دولتنا «تشين العظمى» هذا بالإضافة إلى ما بيني وبينك من ودٍّ قديم وصداقة وطيدة، وأنت تعرف مقدار طيبة قلبي، وتعرف كذلك أني لا أملك من الذكاء وتوقُّد القريحة ما يجعلني قائدًا فذًّا، لذلك فقد آثرتَ أنت أن تبتعِد وتذهب إلى بلاط دولة تشو، وها قد جاءت الأيام بمشاكلها المُعقدة، وصارت المعارك الطويلة على وشك أن تدبَّ بين كلٍّ من تشي وتشو، والبعض يرى أن الخير إيقاف مسلسل التوتُّر القائم بينهما، وهناك من يرَون بأن الخير كله في أن تندلِع شرارة القتال، ولا أدري أيُّ الرأيين أفضل، ألا تستطيع أن تجِد وقتًا بعد فراغك من المشورة على تشو أن تُشير عليَّ بآرائك السديدة؟» فأجابه «تشين جين» بقوله: «أما سمعتَ يا مولاي بحكاية الرجل الذي ذهب من دولة «أو» إلى تشو للعمل بوظيفة رسمية في القصر الملكي، وكان الملك يعطف عليه كثيرًا، فلمَّا مرض الرجل، أرسل إليه الملك رسولًا يعوده، وسأل عن أحواله وحقيقة مرضه، وعما إذا كان الرجل مُعتلًّا حقًّا أم هو مُشتاق إلى وطنه، فأجابه الرسول قائلًا: «لا أدري يا مولاي

إن كان الرجل مُشتاقًا إلى وطنه أم لا؟ لكني أظن أنه لو كان يُكابد البعاد، لتكلَّم إليَّ على الأقل بلغة البلاد المحلية.» أما سمعتَ يا مولاي بالتعليقات الشهيرة لـ «كوانيو»؟ (شخصية لا تتوافر لها ترجمة ذاتية لدى تحقيق النص) على أية حال دعني أقصُّ عليك شيئًا من تلك التعليقات، فقد قيل قديمًا إن نمرَين هجما على أحد الأشخاص، وأراد كل منهما أن يفترسه وحدَه، فتعاركا، وطال بينهما العراك، حتى لمحهما البطل الشهير «بيانجوانز» فأراد مواجهتهما وقتلهما، فوقف في طريقه كوانيو، وقال له: «إن النمور حيوانات شديدة الافتراس، وليس على الأرض شيء أشهى عندها من لحم البشر، وهذا هو السبب في أن النمرَين يتقاتلان؛ ليفوز أحدهما بالغنيمة كاملة، ولا بدَّ أن الأمر سينتهي بأن الكبير منهما يتغلَّب على الصغير فيقتله، لكنه سيكون قد نزف كثيرًا هو الآخر، ولكثرة العراك، فما عليك إلا أن تتريَّث برهةً من الزمن حتى تُنهكه جراحه، فتُجهز عليه، فتصيد نمرَين معًا بضربةٍ واحدة، فتذيع شهرتك في الآفاق ويتكلَّم الناس عنك بكل فخرٍ وإعجاب.» والآن، فقد وقعت الحرب بين كل من تشي وتشو، وسينتهي الأمر باندحار أحدهما لا محالة، وعندئذ، تستطيع يا مولاي أن تُرسل نجدتك للفريق المهزوم، وإنه لمن الخير لك أن تفوز بشرف مساعدة تشي، من أن يُصيبك عار الهجوم على تشو. إن المقدرة على المناورة والتخطيط والحسم، وبالإضافة إلى التنبؤ بكيفية تطور الأحداث، من الخصال المعهودة في جلالتك. والتخطيط يا مولاي هو أساس كلِّ عمل، أما الحسم فهو مفتاح الوجود، ثم إن أي عيب يعتور التخطيط السياسي أو القرارات الحاسمة، لن يعود على البلاد إلا بأوخم العواقب، لذلك فقد قيل: «إن الدأب على التخطيط والحسم الواعي بالمبادئ يصدُّ عن الاضطراب والفوضى».»

لمَّا تُوفي الملك هواي — حاكم تشين —

لمَّا تُوفي الملك هواي — حاكم تشين — أراد «كونسونيان» أن يُضيِّق الخناق على تشانغي، وهنا تقدم «ليتشو» (لا تتوافر ترجمة ذاتية عنه لدى مُحقق النص الأصلي)، وقال لـ «كونسونيان» ما نصُّه: «أرى يا سيدي أن تستدعي كانماو من دولة وي، ثم تستدعي «كونسونيان» من هان، وتعيد تنصيب تشوليز في موقعه الوظيفي في تشين، فهؤلاء الثلاثة الذين عددتُهم لك هم أبغض أعداء تشانغي، فإذا ما قرَّبتهم إليك، أدرك الجميع فقدان تشانغي لمكانته ولنفوذه في بلاط تشين الحاكم.»

لمَّا ذهب حاكم دويلة إيتشو إلى دولة وي

ذهب حاكم دويلة «إيتشو» إلى وي، واستقبله «كونسونيان»، وقال له ما نصُّه: «إن الطريق بين بلدَينا طويل جدًّا، ولعلِّي لا أراك بعد هذه المرة، فدعني أقص عليك حقيقة الأمور.» ورحَّب حاكم إيتشو بهذا الكلام مؤكدًا رغبته في أن يُنصت إليه باهتمام، فواصل كونسونيان قائلًا: «أريد أن أقول لفخامتكم، إنه لو لم تقُم الدول الست بحملةٍ تأديبية على تشين، فستقوم هذه الأخيرة بغزوكم وتحطيم بلادكم عن آخرها، أما إذا شنَّت هذه الدول الست الحرب على تشين، فسوف تُبادر هذه بطلب مؤازرتكم لها باذلةً في ذلك كل رخيصٍ وغالٍ، ولعلها تمنحكم أثمن الهدايا والعطايا.» فتقدم حاكم إيتشو شاكرًا لُمحدثه توعيته بهذه التفاصيل. ولم تكد تمرُّ أيام، حتى قامت جيوش البلاد الخمس: تشي، وسونغ، وهان، ووي، وجاو مُجتمعة بالهجوم على تشين، فذهب تشين جين إلى حاكم تشين، وقال له: «إن حاكم إيتشو واحد من أذكى وأنبل حكام القبائل البعيدة، وأرى أن تقوم يا مولاي بإهدائه أنفس الهدايا حتى تجد قلبه ونفسه مودة وإخلاصًا.» وبالفعل، قام ملك تشين بإرسال ألف فرسٍ مُحمَّلة بأثواب الحرير، ومائة جارية من أجمل الجواري إلى حاكم إيتشو، فلمَّا وصلت الهدايا إلى إيتشو قام الحاكم وجمع إليه الوزراء، ليشاورهم، وقال لهم ما نصه: «ترَون جميعًا أن إرسال الهدايا من قِبل تشين لهو دليل على صدق ما بلغنا من كونسونيان.» ثم جهز جيشًا وتقدَّم به غازيًا تشين، وتكبَّدت هذه الأخيرة خسائر فادحة في إقليم «لي بو».

لمَّا ذهب الطبيب الشهير بيان تشو للقاء الملك

ذهب الطبيب الشهير «بيان تشو» للقاء الملك «أو» حاكم تشين، فاشتكى إليه الملك أعراض مرضه، وأراد الطبيب فحص الملك بدقة ليعرف موطن الداء، فبادره أفراد الحاشية الُمحيطين بالملك بقولهم: «إن المرض يتركز في المنطقة الأمامية من الأذن، تحت الجانب الأيمن من العين اليُمنى، ولن يكون العلاج حاسمًا بحيث يستأصل المرض من جذوره، وربما تأثرت قوَّتا السمع والإبصار من جراء ذلك.» ثم إن الملك راح يُردِّد للطبيب نفس هذا التشخيص الذي قالته الحاشية، فاستشاط الرجل غضبًا وألقى على الأرض بأدواته الجراحية وهو يقول ما نصُّه: «أرى أن جلالة الملك يُشاور أهل الطب في شئون التخطيط السياسي، بينما يُحاور أهل السياسة في شئون الطب والعلاج، وهو ما يُمكن أن يودي بحياته، ولئن كانت هذه هي الطريقة التي تُدار بها شئون الدولة، فسينتهي الأمر بضياع البلاد.»

لمَّا استقبل الملك «أو» حاكم تشين

لمَّا استقبل الملك «أو» حاكم تشين الوزير كانماو، قال له: «أُفكر جيدًّا في استخدام القوات لعمل نفقٍ سري تحت نهر سانشوان، وذلك لكي أتمكن من استطلاع الموقف على جبهة دولتي جو، حتى إذا وافاني الموت، تركتُ مأثرة يذكُرني الناس بها على الدهر.» وهنا أجابه كانماو بقوله: «دعني أذهب إلى وي كي أتفق معهم على شنِّ حملة تأديبية مشتركة على«هانكو».» ووافق الملك، وأرسل برفقتِه نائبًا له هو«شيان شو»، فلما وصلا إلى وي، وتكلم كانماو مع «شيان شو»، قال له: «ارجع إلى الملك وقل له: إن دولة وي على استعدادٍ لأن تسمع منَّا ما نعرضه عليها، لكنا نرجو منك يا مولاي ألا تُبادر إلى شن الحملة التأديبية، فإذا ما أتممت تلك المهمة على خير وجه، فسأذكُر الفضل في أي إنجازٍ لاحق لجهودك أنت وذكائك.» وبالفعل فقد رجع شيان شو إلى الملك وأخبره على النحو الذي كان، وذهب الملك إلى إقليم «شيرانغ» ليكون في استقبال كانماو، فلمَّا مثَل هذا بين يدَيه، سأله الملك عن السبب فيما أخبره به، فأجابه بما نصه: «إن إقليم إيانغ واحد من أكبر المناطق مساحة، فهو الموضع الذي تجمَّعت، بل تراكمت فيه على مدى السنين، ثرواتٌ من منطقتي شاندانغ، ونانيانغ، ولضخامة ما اكتنز فيه من الموارد، فلا يصح أن نُسميه إقليمًا، بل هو ولاية زاخرة بالخير يا مولاي، ولا أخفي عن جلالتك سرًّا بأن أي جهدٍ عسكري لاقتحام المواقع أو تسلُّق الجبال الوعرة لضرب وي، تكتنِفُه مصاعب لا حصر لها، وقد بلغني أن تشانغي قد ضمَّ أراضي من دولتي «با» و«شو»، وقد حصل على منطقة «شيها» في الشمال، أما في الجنوب فقد استولى على «شيانيون»، وليس على وجه الأرض جميعًا أحد الآن يمتدح فعال تشانغي، بل يرى الجميع أن الملك «شيان» هو الأكثر كياسةً وذكاءً وحكمة، ولَمَّا قرر الملك «ونهو» حاكم وي مهاجمة دولة «جونشان»، فقد جعل على رأس الجيش القائد المُحنك «يويانغ»، واستطاع هذا الرجل بمقدرته الفذة أن يُحقق النصر التام على أعدائه بعد ثلاث سنوات، فلمَّا عاد إلى بلاده ليتلقَّى التهاني على ما حقَّقه من مآثر طيبة لبلده، قابلَه الملك وسلَّمه كتابًا يحوي تقييمًا طيبًا واعترافًا بما حقَّقه من إنجازٍ عظيم، فانحنى «يويانغ» وركع على الأرض أمام الملك، وقال له ما نصه: «الفضل كله يا مولاي للقيادة العليا وليس لشخصي الضعيف، ثم إني مجرد واحد من رجالك يا مولاي، ولديك هنا في القصر آخرون مثل تشولنجي، وكونسونيان، يقبضون بيدٍ محكمة على دولة هانكو، فإذا ما جرى تقييم جهودي، فلا بد أن جلالتك سوف تميل إلى تصديقهم، وهو ما يعني أن جلالتكم ستوقعون بدولة وي في إسار الخديعة، وهذا ما سيُعرضني لتأنيب ولوم القائد العسكري الكبير

«كونجون شي» — أشهر قادة هان — إليك هذه القصة يا مولاي: كان فيما مضى، رجل طيب يُدعى سنزي (شقيق الفيلسوف الحكيم كونفوشيوس) وكان يُقيم ببلدة «فاني»، وتصادف أن رجلًا آخر بذات الاسم كان يُقيم بنفس البلدة، وحدث أن اعتدى هذا الأخير على غريم له فقتله، وذهب مَن يقول لوالدة الرجل الطيب إن ابنها ارتكب جريمة قتل، فأنكرت الأم أن يأتي ولدها بمثل هذه الفعلة النكراء، وظلَّت جالسةً مكانها تغزل الثوب دون أن يطرف لها جفن، وبعد برهةٍ جاءها من يُردد للمرة الثانية أن ابنها ارتكب جريمة قتل، فبقِيَت ساكنةً مكانها وهي تغزل الثوب، وجاء للمرة الثالثة من يُخبرها بذات الخبر، وهنا استولى الخوف على الأم، فذُعرت وألقت ما بيدِها من خيوط ومغازل، وركضت خارج البيت في هلع. وهكذا يا مولاي، فإن رجلًا طيبًا مثل سنزي بكل ما يعرف الناس عنه من صفات، وبرغم ما تعرف والدته عنه من خصال كريمة، لم تلبث بعد ثالث مرة من اتهامه بالقتل أن ارتبكت وداخَلها الظن والشك في سلوك ولدها وهي أكثر الناس إلمامًا بطباعه وشخصيته، أما وإن خصالي لا تفوق ما يتَّسم به سنزي من مزايا، فلا أظن أن تصديق مولاي لما يُمكن أن يُثار عنِّي من أقاويل سيكون أرسخ وأعمق من تصديق والدة سنزي عما يتَّصف به ولدها من صفات، كما لا أظن أيضًا أن من يتهمونني بأبشع التُّهم يقتصرون على ثلاثٍ فقط، وبالتالي فليس بعيدًا أن ينفض جلالة الملك ما بيده من أثواب ومغازل بعد المرة الثالثة تمامًا.» وهنا أجابه الملك بقوله: «لن أستمع إلى وشاية ضدك، وليكن بيني وبينك عهد وميثاق».» وهكذا، فقد تم عقد ميثاق بين الملك وكانماو في إقليم شيرانغ.

لمَّا تحدَّث فنجانغ مع ملك تشين

لمَّا تحدث فنجانغ مع ملك تشين حول معركة إيانغ قال ما نصُّه: «اعلم يا مولاي أنك إن لم تستولِ على إيانغ فستتَّحد الدولتان تشو وهان معًا، وتنتهِزان فرصة ضعف الأحوال الذي أصاب قواتنا فتُهاجماننا، وتتعرَّض البلاد لمخاطر شديدة، والأفضل أن نتنازل عن إقليم هان جزن لدولة تشو، فنكسب ودَّها، ونتجنب غزوها لأراضينا، وهنالك تجد هان نفسها معزولة عن زميلتها، ثم إني لا أجد أمامنا بديلًا معقولًا عن هذا التصرُّف، فلا مفرَّ لنا من أن نُقدِم على مثل هذه الخطوة.»

وهنا استحسن الملك الفكرة ووافق عليها، بل إنه أعد العدة للتنفيذ، وبالفعل أوفد فنجانغ لتسليم إقليم هانجون لـ «تشو» ليفرض عليها عزلةً قسرية، وهو ما يعني أن دولة تشين قد أصابت أهدافها بشأن إقليم إيانغ الواقع في دولة هان.

وحدث أن ذهب ملك تشو بنفسه إلى دولة تشين ليُطالب بتسليم إقليم هانجون حسب الوعد الذي قطعه له فنجانغ، وهنالك تكلم هذا الأخير مع ملك تشين قائلًا له ما نصُّه: «تستطيع يا جلالة الملك أن تُعلن على الملأ خبر هروبي من البلاد سرًّا، وأن جلالتك لا توافق على التنازُل عن الإقليم لـ «تشو» لأنكم لا تُوافقون فنجانغ على وعده الذي أعطاه بصفته الشخصية أساسًا، وبما أن هذا المشار إليه لا يُعثَر له على محل إقامة باعتباره هاربًا، فلا تجوز المطالبة بتنفيذ الوعد الذي أعطاه عن نفسه شخص هارب.»

لمَّا قاد كوانمو الجيش لاحتلال إقليم إيانغ

لمَّا قاد «كوانمو» الجيش لاحتلال إقليم «إيانغ»، حدث أن أصدر أمرًا بالهجوم ثلاث مراتٍ دون أن تفلح القوات في التقدُّم للأمام حسب الخطة الموضوعة، وهنالك أسرع إليه قائد الميمنة ليُبلِغه بأن الإخلال بالقواعد العسكرية المعهودة في قيادة الجيوش يمكن أن يضع القائد الأعلى في مأزقٍ شديد وأن يُعرِّضه لأسوأ العواقب، فردَّ عليه كوانمو قائلًا ما نصُّه: «برغم أني لستُ من مواطني دولة تشين الأصليين، فإني أحد الرعايا الذين أثبتوا إخلاصًا وجدارة حتى بلغوا حد الترقي إلى منصب رئيس الوزراء، وما كان لي أن أقوم بقيادة الجيش لاحتلال «إيانغ» إلا بعد أن علمتُ أن ذلك سيُدخل السرور إلى قلب الملك، وأكثر ما أخشاه الآن هو أن أعجز عن اقتحام الإقليم، فيجد كلٌّ من كونسونيان وتشوليزي الفرصة المُواتية للإيقاع بي، والنيْل من شخصي، ومن الناحية الأخرى فلا بد أن رئيس وزراء هان (كونجون) سيعمل على إذلالي في حال طردي خارج البلاد، فإذا لم أتمكن في الغد من اقتحام أسوار «إيانغ»، فستكون مقبرتي قبالة تلك الأسوار شاهدًا على فشلي الذريع.» ثم إنه رصد أمواله كلها للإنفاق على المكافآت والجوائز لمن يُبلي بلاءً حسنًا في القتال، فما إن طلع نهار اليوم التالي حتى أغارت القوات على الإقليم واشتد أُوار المعارك.

لمَّا صمد إقليم إيانغ تحت المعارك

لمَّا صمد إقليم إيانغ تحت المعارك، وتكبَّدت قوات تشين خسائر فادحة في الأرواح، ذهب «زوشنغ» إلى كوانمو وقال له: «أرى أن موقفك في غاية الصعوبة، فأنت تواجِه في الداخل تحرُّش تشوليجي، وكونسونيان، بينما تتعرض في الخارج لانتقام رئيس وزراء هان منك،

فإذا لم تتمكن من إحراز تقدُّم على الجبهة العسكرية، فسوف تتعرَّض للمذلة والهوان، فحاوِل أن تعاود المحاولة بالهجوم مرةً تلو الأخرى، ذلك أن احتلالك لهذا الإقليم، سيُعَد أحد أعظم إنجازاتك الناجحة، وهنالك، لن يجد مبغضوك سببًا للحطِّ من قدرك، فتمتلئ النفوس منهم نفورًا، ويصغر شأنهم في عين الناس.»

لمَّا خانت دولة تشو ميثاقها مع تشين

لمَّا خانت دولة تشو ميثاقها مع تشين، وأعلنت الوحدة مع هان، وأُسقِط في يد حاكم تشين، فلقِيَه كانماو وقال له: «برغم ما يبدو لي من شكل الوحدة بينها وبين هان فإنها لن تُبادر بإطلاق الحشود وشنِّ الغارة ضد تشين، وتخشى هان إن هي هاجمت تشين وأبلت على جبهة القتال بلاءً حسنًا أن تثور الفتن من ورائها على يد تشو، وهكذا فستبقى كلتاهُما تَرقُب تحركات الأخرى، ولئن زعمت تشو أنها ترتبط بعلاقات وحدة رسمية مع دولة هان، إلا أنها لم تُصرِّح بأية نوايا طموحة مع تشين، وهكذا فإني أظن أن العلاقات بين تشو وهان تضع قيودًا عليهما وتحدُّ مِن تحركاتهما.»

لمَّا تكلَّم حاكم تشين مع كانماو

تكلم حاكم تشين مع كانماو فقال له: «قد لاحظت أن أعضاء الوفود الدبلوماسية الذين يأتون إلينا من تشو يُتقنون فنون القول والفصاحة والبيان حتى إني في كثيرٍ من المرات أجد نفسي عاجزًا عن مُجاراتهم، بل قد تتغلَّب حُجتهم ويسود منطقهم فلا أقوى على إقناعهم، فما السبيل إلى إتقان فنون الجدل وإيراد الحُجج واستيفاء البرهان مع مثل هؤلاء؟» فأجابه الوزير بما نصُّه: «لا عليك يا مولاي، فالأمر أيسر مما تظن، وذلك أنه إذا جاءك أولئك المُجادلون فلا يغرنَّك ما يقولون وما يَسوقون من فصيح القول وعذب الحديث، بل اصمم آذانك عما يتحدَّثون به، أما إذا حضر إليك المبعوثون الذين تطرف عيونهم لرؤياك وتتلجلج ألسنتهم في حلوقهم عند الحديث معك، فلا بأس من أن تُصيخ إليهم السمع، وهكذا، فإذا أُغلِق بابُك دون كُلِّ متفاصح، وصار المُتلجلجون هم أكثر الناس حظوةً عندك، وتلك هي الوسيلة التي تستطيع بها أن تُروِّضهم أيما ترويض.»

لمَّا تكلَّم كانماو أمام الملك

تكلَّم كانماو أمام الملك بما يسيء إلى كلٍّ من تشو وكونسونيان، وحدثه قلبه بأنهما ربما يفتكان به، فولَّى هاربًا من تشي، فبينا هو على الطريق قبالة ممرٍّ «هانكوكوان» إذ التقى بـ «سوادي» (مبعوث دولة تشي إلى تشين)، وقال له ما نصُّه: «أما سمعتَ بحكاية الفتيات اللاتي كنَّ يُقِمن ببلدة «جيانغ»؟» فلمَّا بَدَا سوداي أنه لم يسمع بها من قبل، أجابه: «كانت تُقيم عدة فتيات، منذ زمنٍ بعيد، ببلدة «جيانغ»، وكانت إحداهن فقيرةً لا تجد ما تشتري به عودًا من الشمع، فتحادثت باقي الفتيات بشأنها، ورأين أنه من الأفضل لها أن ترحل بعيدًا عنهنَّ ما دامت تعيش في تلك الحال المُزرية، فلمَّا تجهزت البنت الفقيرة للرحيل، التفتت إليهنَّ قائلة: «أما دَريتنَّ أني لولا انسدال الظلمة في داري ما كنتُ أتيتُ في أول شروق النهار كي أُنظف الفُرُش وأرتِّبها، وأكنس الباحة والفناء، فما الذي يَضيركن من نُدرة الشمع في غرفتي، وما ضركنَّ لو تفضلتنَّ بإهدائي بضعةَ عيدان من الشمع، أما أني لستُ عديمة النفع، فلِمَ تُردنَ إقصائي بعيدًا؟»

وهنالك أخذت الفتيات يتشاورنَ بشأنها وقد تأثرنَ بما قالت، وقررنَ إبقاءها بينهن؛ فها أنا ذا الآن بغير حول ولا قوة، وقد طردَتْني دولة تشين حتى صرتُ أهيمُ على وجهي في الخلاء مع أني كنتُ قانعًا بما رأيتُ من فرش وأكنس من أفنية، فهلَّا رضيتُم بي وأبقيتموني وسطكم؟» فأجابه سوداي قائلًا: «لا عليك، سأتدبر لك طريقةً مناسبة للعيش الكريم في تشي.»

وعلى الفور توجَّه سوداي إلى ملك تشين، حيث قابله وراح يُجادله بشأن كانماو قائلًا له ما نصُّه: «تعرف يا مولاي إن كانماو رجل فاضل كريم، وله مكانته التي يعرفها الجميع، بعد أن بقي طويلًا في بلاط آل تشين بكلِّ تفانٍ حتى احترمَتْه وأجلَّتْه الملوك والأمراء، وما من موضع في طول البلاد وعرضها إلا ويعرف قدرَه وقيمته، وأخشى أن تضعه دولة تشي على رأس جيوشها فيتحالف مع قوات وي وهان ويأتي لضرب تشين، وهو ما يمكن أن تنجم عنه عواقب وخيمة لا قِبل لكم بها.» فسأله ملك تشين عما يراه مناسبًا في هذا الشأن، فأجابه سوداي: «ليس أقل من أن تفتح له صدرك وتستقبله بالتحية اللائقة والهدية الثمينة، فإذا أقام بين أظهركم أقطعتموه أرضًا من أحسن بلادكم، فلا يجد نعمةً عند أحدٍ غيركم، فيبقى حتى آخر عمره مُقيمًا بينكم، فيُمنع عنه الأمراء الطامعون في التخطيط لغزو تشين.» وهنالك، تهلَّل الملك بعد إذ أعجبته الفكرة، وأصدر فرمانًا بالإنعام على كانماو بالمرتبة الاجتماعية الرفيعة (واليًا على إقطاعية)، وتنصيبه مستشارًا كبيرًا،

وجهز نفسه لاستقباله بكل حفاوةٍ وترحاب. إلا أن كانماو تردَّد في المجيء وقبول كل ذلك التكريم، وحدث أن عاد سوداي إلى تشي، فذهب لمقابلة الحاكم، وتظاهر بأنه لا يدري عن أمر كانماو شيئًا، فكلَّم الملك قائلًا له ما نصُّه: «تعلَم يا مولاي أن كانماو رجل عظيم القدْر والمكانة، حتى إن دولة تشين قررت الإنعام عليه بمرتبة (الوالي) وتنصيبه مستشارًا عظيمًا، وبرغم كل ذلك فقد آثر أن يبقى ببلدك إكرامًا وتعظيمًا لشأنك، راضيًا بأن يعمل لدى جلالتكم وزيرًا عاديًّا في البلاط الملكي، فانظر ماذا تصنع معه، فأنت إذا أقصيته عنك بقي عمره كله حانقًا عليك، وقد تستغل دولة تشين هذا الموقف، فتضعه على رأس جيشها كي يُعِد العدة لضرب تشي، وبالطبع فسيتفانى هو في ذلك من باب التشفِّي ورد الضربة بمثلها».

فاستحسن ملك تشي كلام سوداي وأصدر قرارًا بالإنعام على كانماو بالدرجة الاجتماعية الرفيعة، مع السماح له بالإقامة في أرض تشي كيفما شاء.

لمَّا تولَّى كانماو منصب رئيس وزراء

تولَّى كانماو منصب رئيس وزراء دولة تشين، إلا أن حاكم تشين كان يميل بقلبه إلى كونسونيان، وراح يتحيَّن فرصة حصول كانماو على إجازة للراحة من العمل كي يُنصِّب كونسونيان مكانه، وراح يكلِّم هذا الأخير بما ينتويه من تنصيبه هو رئيسًا للوزراء بدلًا من كانماو، وحدث أنَّ أحد صغار موظفي القصر قد أبلغ هذا الخبر لـ «كانماو» بعد أن تسرَّب إلى آذانه الحوار الهامس بين الملك وكونسونيان، ثم إن كانماو ذهب والتقى بجلالة الملك، وقال له: «ليسمح لي جلالة الملك أن أُقدِّم له بالِغ التهنئة وخالص الاحترام والأمنيات الطيبة، إذ كشفت له الظروف عن المعدن الأصيل لرئيس وزرائه المقترح.» فاندهش الملك قائلًا: «ما الذي تقصده بعبارة «رئيس الوزراء المُقترح»، ألستَ أنت الذي تتولَّى هذا المنصب دون منازعة؟» فرد عليه: «ألا يُريد جلالة الملك أن يُعين كونسونيان لهذا المنصب؟» فاستغرب الملك جدًّا وسأله عن مصدر هذه المعلومة، فأجابه قائلًا بأن كونسونيان نفسه هو الذي سرَّب هذا الخبر إلى الجميع، فحملها الملك في نفسه، وقد حنق على كونسونيان، ثم أصدر قرارًا بإبعاده عن القصر لإفشائه الأسرار.

لَمَّا قاد كانماو تحالف وي وتشين

قاد كانماو تحالف قوات وي وتشين لمهاجمة تشو، وهنا تدخل رئيس الوزراء تشيوكاي للمصالحة بين تشو وتشين (كان تشيوكاي أصلًا من مواطني تشو الذين استوطنوا دولة تشين، وترقَّى فيها حتى صار رئيسًا للوزراء)، فلما قامت تشين بفتح البوابات بينها وبين تشو لاستقبال مبعوث السلام القادم من تشو، وهنالك ذهب كانماو للقاء ملك تشين ليقول له ما نصُّه: «أرى يا مولاي أننا نتعرَّض لغوايةٍ من قِبل تشو الهدف منها أن تُشرف هي على مباحثات الصلح، بحيث تجري معنا مُحادثات، ثم تستدير ناحية وي لتقول لها ما معناه إن تشين قد تخلَّت تمامًا عنها وغدرت بها، وهو ما يعني أنهما ستتحالفان معًا مما يُعرِّض تشين للخطر من جراء هذا التحالف، والأفضل يا مولاي، أن تدعو وي لتترأس هي مباحثات المصالحة، وهو ما سيبعث المزيد من السرور لدَيها ويُصفي كدر الخاطر بينها وبين جلالتك، بل ويمكن أن يزيد من مساحة الأرض التي سنحصل عليها منهم.»

لَمَّا قامت معركة شينغ شان

لَمَّا قامت معركة شينغ شان، تحالفت كلٌّ من جاو وتشين لمهاجمة تشي، وهو ما أفزع هذه الأخيرة وأوقع في قلبها الرُّعب، فأوفدت أكبر قادتها العسكريين «تيانجانغ» لتعرض الصلح مقابل التنازُل عن إقليم يانغو، وتسليم أحد أمراء تشي لدول التحالف لإبقائه أسيرًا لديهم كضمان للصلح، وهو الأمر الذي أثار السرور في نفس حاكم جاو (الحاكم هوي ون)، فأمر بإيقاف كل التحركات القتالية قائلًا لحاكم تشين: «إننا لا نجد مبررًا لمواصلة الحملة ضد تشي بعد إذ عرضت التنازل عن إقليم يانغو، وسلمت لنا أحد أمرائها رهينةً لإثبات حُسن النوايا، وسوف نذيع موقفنا هذا للجميع مع اتخاذ الإجراءات المطلوبة.»

وعلى الفور قام حاكم تشين الملك «شاو» بإيفاد ولده الأمير «كونزتا» إلى دولة جاو، فوصل إليها على عجل وقابل الملك، وقال له: «أما تذكرون أن حاكم تشي قد اتفق مع جلالتكم على نُصرة وتأييد «وي»، إلا أنه نكص عن اتفاقه وأظهر الغدر، وهو ما دعا جلالتكم إلى طلب دعمنا لكم في حملتكم ضدها، بل إنكم خصصتم أرضًا مُحيطها عشرون كيلو مترًا لبناء معابد مقدسة وهياكل لتقديم القرابين (لاسترضاء الآلهة واستنزال رضاها وتأييدها)، ثم إذا بكم توقفون كل نشاط قتالي، بل تَقبلون عرض تشي بالمصالحة، وهو ما لا أستطيع أن أُدرك كُنهه؟ لذلك أرجو منكم، في هذا السياق، التوقف عن إرسال عدد الأربعين ألف جندي المطلوبين لنا، لتقوية دفاعنا، واعتبار طلبنا بهذا الشأن لاغيًا.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وأرسل سوداي خطابًا باسم دولة تشي إلى رانخو رئيس وزراء تشين يقول له فيه ما نصه:

«لطالما كنتُ أسمع المارة في الشوارع يقولون إن دولة تشين ستدعم دولة جاو بأربعين ألف جندي لمهاجمة تشي، ومن ثم فقد رأيت أن أؤكد لمليكنا على نحو سري بما مفاده أن ملك تشين بكل ما هو معروفٌ عنه من حنكة وذكاء في وضع الخطط السياسية، لا يمكن له أن يقوم بدعم جاو بأربعين ألف جندي في هجومها على تشي، وذلك لأن أي تصرف من شأنه أن يُقيم عُرى التحالف بين جاو، ووي، وهان خليقٌ بأن يلقى استنكار تشين بل كراهيتها، فقد طالما غدروا بدولة تشين وتصرَّفوا على نحوٍ مخادع لها، وهكذا، فلا بد أن تشين ستَّتخذ كل الحيطة ووسائل التدبُّر، والآن، فإن ضرب تشي لتقوية جاو لن يُفيد تشين في شيءٍ ما دامت جاو هي ألد أعدائها، هذا أولًا، وثانيًا: فإن المُخططين العباقرة لدولة تشين لا بد سيقولون: «إن ضرب تشي سيُصيب التحالف الثلاثي بالإنهاك؛ جاو- وي- هان، وهو ما سيؤدي إلى إخضاعه بما فيه دولة تشي.» فهذا يُشبه تمامًا القناص الذي يصوِّب ألف سهم نحو ثمرة عفنة أوشكت على السقوط، فهي هالكة بغير رمي، فكيف لملك تشين أن يقوم بإخضاع التحالُف الثلاثي، بالإضافة إلى تشي، أما من الناحية الثالثة، فإن قلة عدد القوات التي عبأتها تشين لحملتها العسكرية يُفقد المصداقية في جدية تحركاتها، فلا بدَّ من أن يتمَّ حشد أكبر عددٍ مُمكن من القوات كي تتأكَّد تشي مع التحالُف الثلاثي من أن تشين جادة في حملتها المزمعة لإخضاعهم جميعًا، ثم إن تشي ستُلقي بنفسها وقد استولى عليها الفزع من حملة تشين في دائرة التحالف الثلاثي وتشو، ولا بدَّ أنها ستقتطع من أرضها لتدعم كلًّا من تشو والتحالف الثلاثي، وهو ما سينتج عنه إحساس بالاستقرار لديهم جميعًا. من الناحية الرابعة، فإنه إذا قامت تشي بتعبئة كامل قواتها فسوف يتسبَّب ذلك في إضافة أعباءٍ عسكرية باهظة على تشين، وهو ما سيحاول التحالُف الثلاثي أن يستغله على أحسن وجه باعتبار أن قوة تشين سوف تُناطح تشي التي ستردُّ لها الضربة بمثلها، وهو ما سيُرضي التحالف وتشو الذين سيدبرون أمرهم بذكاء شديد بينما يصير الغباء الشديد من نصيب تشين وتشي، وتلك هي المسألة الخامسة.

أما أن تشين إذا حصلت على بلدة «أني» فسوف تعمل على تهدئة خاطر تشي، وهو ما يعني تجنب شبح الكوارث، بل إنها بحصولها على هذه البلدة سوف تخسر كلًّا من وي وهان إقليم شانتانغ. والآن أتوقَّف لأسألكم أيهما أكثر نفعًا؛ الحصول على منطقةٍ ذات أهمية سياسية من التحالُف الثلاثي، أم التقدُّم بجيشٍ نحو كارثةٍ مُحققة؟ لذلك، فإني أهمس في أُذن مليكنا قائلًا: «إن حاكم تشين بعبقريته الفذة في التخطيط السياسي، ورانخو بذكائه المعهود وحنكته ونفاذ بصيرته، لن يُقدِما أبدًا على دعم جاو بأربعين ألف مقاتل لمساندتها في الهجوم على تشي».»

لمَّا وقعت الملكة في غرام أحد كبار موظفي البلاط

وقعت ملكة تشين (زوجة الملك هوي) في غرام «ويتشوفو»، أحد موظفي القصر، وحدث أن اعتلَّت صحتها للغاية وأشرفت على الموت، فطلبت وهي على فراش المرض أن يُسجلوا عنها وصيتها لأنها تشعر بدنوِّ الأجل، فلمَّا جاءوا بالقرطاس والقلم، أملت عليهم ما نصه: «أُوصي بأن يدفن جثماني في جنازة ملكية على أن يدفن في قبري أيضًا الرجل الذي أحببتُه، والمدعو«ويتشوفو» حتى لو كان على قيد الحياة.» ولمَّا علم هذا الأخير بتلك الوصية ارتعدت فرائصه، وقد داخله الرعب والفزع من أن يُدفَن حيًّا، فأشفق عليه الوزير يونغ من هذا المصير وراح ليُكلم الملكة في هذا الشأن، وبادرها بسؤالها عما كانت تظن أن الميت يشعُر بما يشعر به الأحياء، فأجابته بالنفي، فجادلها بما نصُّه: «ما دام الأمر كذلك، فلماذا تطلُبين دفن الرجل الذي تُحبينه حيًّا دون أن ينفعك ذلك بشيء؟ فإذا كنتِ تعتقدين بأن الموتى يشعرون بالأحياء، فمن المؤكد أن دفن الرجل بجوارك سيُثير مشاعر الغضب والحزن لدى زوجك الراحل (الملك هوي)، ولا أرى أنك تملكين من الوقت ما يكفي لتصحيح أية أخطاء أو للتمادي في حالة الحُب خاصة مع هذا الـ «ويتشوفو».» فاقتنعت الملكة بهذا الكلام، وأبطلت في وصيتها الفقرة الخاصة بدفن الحي.

سجل تشين الثالث

لَمَّا تحدث شوكون بشأن دولة وي

تحدث شوكون بشأن دولة وي مع الوزير الأعظم لدولة تشين المدعو وي ران، فقال له: «قد بلغني أن ملك تشين يسعى في التقرب إلى تشي بوساطة القائد العسكرى الشهير لولي، وذلك لنصرِه، وتأييد ذلك البلد حاكمًا ومحكومًا، ولا بد أن نجاح القائد العسكري المشار إليه في مهمته، سيبرز دوره كثيرًا مما قد ينال من شهرتك ومكانتك أنت، فإذا ما اتحدت تشي مع تشين لقتال التحالف الثلاثي، فمن المتوقع أن يشغل «لولي» منصب رئيس الوزراء المشترك للدولتَين المُتحدتَين، وهكذا، فإن المصالحة مع تشي ستُعلي من مكانة «لولي»، وعندما تتخلص تشي من التهديد العسكري لباقي الدول، فسوف تصب جام غضبها عليك أنت، ولا أرى لك سوى أن تنصح ملك تشين بأن يُصدر أمرًا للقوات المرابطة في منطقة «شودي» بالهجوم على تشي، ولئن تمَّ النصر على هذه الأخيرة، فسوف أُقطِعك مساحات هائلة من أراضيها، ثم إن هزيمة تشي تعني تعاظم قوة التحالف الثلاثي، وهو ما سيثير حفيظة ملك تشين مما ستملكه وي من قوة هائلة، وبالتالي سيلجأ إليك لتقوم بالوساطة بينه وبين وي فيعلو شأنك ويلمع نجمك، وفي تلك الأثناء تكون دولة تشي قد تنازلت لدولة وي عن منطقة «شواي» لأنها لا تملك أن تقاوم تشين، وهنالك تعتمد عليك وي للمصالحة بينها وبين تشين، وهكذا تكون قد هزمت تشي وبنيت مجدك وفخرك الذاتي، بينما تكون قد قويت مكانتك اعتمادًا على علاقتك بدولة وي، وبالتالي، وفي المحصلة الأخيرة، تكون هزيمتك لـ «تشي» هي السبب في تقوية وزيادة حجم نفوذك وثرواتك الشخصية فترتفع قيمتك وأهميتك في نظر كل من تشين ووي، أما إذا لم تلقَ تشي هزيمة نكراء، فسوف تزداد أهمية «لولي» ويكون سوء الحظ من نصيبك أنت.»

لمَّا تكلم النبيل المُقيم بدولة تشين

تكلم أحد النبلاء المُقيمين بدولة تشين، يُلقب بـ «تساو» إلى رانخو، فقال له ما نصه: «لئن كانت دولة تشين قد أقطعتك إقليم «تاوي»، فما كان ذلك إلا لكي تقوم بإخضاع الأمراء والممالك لها طوال كل تلك الفترة الماضية، فاعلم أنك إذا نجحت في تحقيق النصر على تشي، فسوف يصبح إقليم «تاوي» بلدًا آهلًا بالثكنات والجنود والعتاد، بل يمكن أن يتحوَّل إلى عاصمة إقليمية لكل الدويلات الصغيرة، ويصير بإمكانك عندئذٍ أن تقود الجنود في مواكب تشريفية إلى القصر الحاكم لتأكيد الولاء والطاعة لفخامة الأمير، وتكون كلمتك نافذة فوق مواليك وأتباعك في الدويلات الصغيرة، أما إذا فشلت محاولتك في هزيمة تشي، فسوف يبقى هذا الإقليم شوكة في جنبك تقلق راحتك، وتفقد الظهير السند، لذلك أقول لك: إن التغلب على تشي هو المفتاح الذي يمهد لك البقاء أو الهلاك في إقليم «تاوي»، فإذا أردت أن يُحالفك التوفيق في هزيمة تشي، فكيف بك إذا أرسلت إلى رئيس وزراء دولة يان من يقول له بالنص: «ليس الحكيم من يُهيئ الظروف المواتية، بل من يثق في أنه يستطيع ألا يضيع الفرصة السانحة من يده، فبالرغم من ذكاء وحكمة الفيلسوف «شوي» فإنه ما كان يستطيع أن يُصبح قديسًا إلا بفضل إدراكه لأهمية لقائه بالكاهن الأعظم «ياو»، وبالرغم أيضًا من كون «تانغ وو» من أذكى وأبرع القديسين، فإنهما ما كان ليستطيعا أن يصلا إلى سدة العرش الإمبراطوري إلا بفضل مواجهتهما للطاغيتين «شياجي» و«شانغ جو»، لذلك يُقال بأن الحكمة والبصيرة التي اشتُهر بها كلٌّ من: شوي، دي، يانغ وو، أوانغ، ما كان يمكن أن تصل بهم إلى مراتب القداسة (في تاريخ الصين) أو أن ترتقي بهم المراتب الشريفة، إلا بما استطاعوا أن يرصدوا من فُرَص واتتهم لإنجاز مآثرهم الجليلة فلم يُضيعوها. إن الاستغلال الأمثل لما تحت يديك من قوات عسكرية لشنِّ حملة تأديبية على اللعينة تشي، والثأر للملك هوي حاكم يان، وجلب السعادة إلى قلبه بتحقيق النصر على أعدائه وكسر شوكتهم التي طالت على مدى سنوات طويلة، وكل ذلك سيعود بالنفع العميم على البلاد، وبالشرف والفخار لشخصكم الكريم، وقد جاء في كتاب حوليات التاريخ الشهير بعنوان «شانغ شو» ما نصُّه: «إنما تُشيَّد الأخلاق بما يُعلي من بنائها ويزيد في قوة جدرانها، ولا تجتث الخبائث إلا من منبت جذورها.» فاعلم أنه ما لم تتغلب دولة «أو» على دولة «يو» فسوف تغلبها هذه الأخيرة، وما لم تقهر تشي عدوتها اللدود «يان» فسوف تدحرها هذه الثانية، وحتى إذا تغلبت يان على تشي، وانتصرت «يو» على «أو»، فلن يُعَد هذا اجتثاثًا للجذور من منابتها الدفينة، فإذا لم تُسرع حينئذٍ في تحقيق مجدك الكبير، فتزيل

المصائب من مكانها، فسوف تتبدل الأمور وتجد دولة تشين قد اتحدت مع دولة تشي التي ستعقد ميثاق الوحدة هي الأخرى مع دولة جاو، وسينظر إليك كل هؤلاء بعين البغضاء، ولن تجد الفرصة مواتية لك عندئذٍ لكي ترغم دولة تشي على القيام بمحاولات هجومية على «يان»، ولن يجديك الندم شيئًا، أما إذا عبأت كل طاقات يان العسكرية لشن هجوم عاجل وكاسح للانتقام من تشي، فسيتبعك كل الأمراء وحكام الدويلات الصغيرة، وعندما تكسر شوكة تشي، وتؤسس دولتك الكبرى جنوبي النهر الأصفر، وتضع أسس العلاقات بينها وبين جاراتها، وتفتح البوابات بينها بغير عوائق، فسوف يعم الأمن والسلام جيلًا بعد جيل، فكل رجائي أن تُقرر الهجوم على تشي بغير تردُّد».»

لمَّا ذهب رجل ليتكلم مع ويرانغ

ذهب رجل ليتكلم مع «ويرانغ» (أصلًا من دولة تشو، لكنه ذهب إلى تشين وعمل بها رئيسًا للوزراء) بشأن دولة وي، وقال له ما نصه: «أسمعتَ ما يُردده النبلاء في إقليم «دونشان»؟» فاندهش ويرانغ مُستنكرًا سماعه بأي شيءٍ من طرفهم، فأجابه الرجل قائلًا ما نصه: «قد بلغني أن كلًّا من «شين» (من دولة هان)، وتشانغي (كان وقتئذٍ رئيسًا لوزراء وي)، و«أوتزي» (من دولة تشي)، كانوا قد ذهبوا جميعهم في حملةٍ والتقوا بحاكم وي وشوكون وكونشو، وكان من جُملة ما قالوه:

> «إذا قامت الحرب بيننا وبين تشو، فلسوف نُسيِّر العربات أرتالًا تحمل شواهد القبور ونقصد ديارك لنتحالف معك حتى نأمن شر العواقب، فإذا ما دارت علينا الدائرة وانكسرنا، فائذن لنا أن نأتيك برءوسٍ مرفوعة، وعلى أية حال، وبرغم كل شيء، فلا يُثير مخاوفنا شيء قدر ما يُثيره فينا تحالف تشين مع تشو، ثم إن ملكها قد سبق له أن وضع بلاده وعرشه تحت إمرة ويرانغ، وأتى إلينا زاحفًا في حملة تأديبية، وانقض علينا ونحن ثلاث دول هان-وي- تشي، فذلك هو أكثر ما يُقلقنا ويقضُّ مضاجعنا. ولئن كنت اليوم تُفكر في أن تذهب صوب الشرق لتتصالح مع تشو، فكأنك تجعل نبوءة تشانغي أكثر النبوءات صدقًا، ثم إنك بهذا الصنيع تؤلِّب علينا الدول الثلاث التي ستبادر إلى إفساد خطة تحالفك معها. فلا أرى لك إلا أن تعود إلى تشين لتجعل تشو تشعر بالامتنان لصنيعك، وفي نفس الوقت عليك بمراقبة أحوال شوكون وطريقة معاملاته إياك،

ولا بد لك أن تتمعَّن جيدًا فيما تأمُله الدول الثلاث من ملك تشين بينما لا تجد وسيلة للحصول عليه، فاسلك بهذه الوسيلة حتى تستنفر هذه الدول الثلاث وتفوز بثقتها فيك، وأخيرًا، فعليك بملاحظة مطالب تشانغي من شوكون، وهي المطالب التي أخفق هذا الأخير في تلبيتها بينما حققْتَها أنت له، فتلك هي الوسيلة الوحيدة التي تضمن لك تقدير الناس واحترامهم».»

لمَّا ذهب رجل إلى ويرانغ

ذهب إلى ويرانغ من قال له ما نصه: «أرى أنه إذا لم تنجح مساعي السلام بين كلٍّ من تشين وجاو فسوف تقوم الأولى بتعبئة قواتها استعدادًا للقتال، وعندئذ، ستُصبح قيادة القوات بيد الجنرال الشهير «باي تشي»، فإذا كان النصر حليف تشين، فسوف تجد نفسك وجهًا لوجهٍ مع متاعب جمَّة، أما إذا باءت بالفشل، فسوف يبعث بك حاكم تشين إلى جاو للتفاوض بشأن المصالحة بين البلدين، وهنالك تسقط مهابتك من كل عين، فتلقى الذلة والهوان، وهكذا لا أرى لك إلا أن تبذل جهدك سعيًا لتحقيق السلام بين البلدين، وهو ما سوف يؤدي لاحقًا إلى إخضاع دولة جاو لنفوذ تشين بالكامل.»

لمَّا جاء رجل إلى رانخو

جاء رجل إلى رانخو، وقال له ما نصه: «ها أنا ذا جئت إليك بما تطيب له نفسك من تحديد الإقطاعيات بيني وبينك، وأفكر بأننا لو أسقطنا عن أنفسنا الجريمة التي اتَّهمنا بها حاكم دولة سونغ، فسوف تثور ضدنا كل النفوس والمشاعر في دولة تشي، أما إذا انتهزنا فرصة الفوضى الماثلة في سونغ وقُمنا بعملياتٍ تخريبية هناك، فسوف نجد الرضا والتشجيع من دولة تشي القوية الجبارة، وهو ما سوف يُمكننا من الحصول على مكانة اجتماعية لائقة ومزيد من الإقطاعيات، وتلك فرصة لا يجود بها الدهر في العمر كله إلا مرة واحدة.»

لمَّا ذهب رجل إلى ويرانغ

ذهب رجل إلى ويرانغ وقال له: «اعلم أنه إذا استطاعت تشو أن تهزم تشين، فلن تستطيع هذه الأخيرة أن تُحافظ على ميزان القوة فيما بعدُ مع غريمتها، أضف إلى ذلك أن هناك ثلاثة ملوك مُتعاقبين في تشين، قد رسخوا شعورًا بالمرارة في قلب كلٍّ من دولتي وي،

وهان، في الوقت الذي قامت فيه تشي بتقديم فُرَص هائلة لهاتين الدولتَين، وهكذا فإذا ما اندلع القتال يومًا بين تشين وتشي، فسوف تجد هذه الأخيرة بجانبها كلًّا من هان ووي وسيهبان لنجدتها، وهو ما يعني القيام بحملة تأديبية نشيطة ضد تشين، ثم إن دولة تشي تملك أرضًا هائلة على حدودها الشرقية يبلغ مُحيطها ألف ميل، وكذلك تشتمل دولة تشو على أرضٍ يبلغ مُحيطها ألف «لي» في إقليم «جيوي»، بل إنها تملك أيضًا منطقة ذات أهمية سياسية في إقليم «فولي» الواقع في الجنوب، بالإضافة إلى مضيق «كانيو» عند حدودها الشمالية، فإذا ما قسنا قوة دولة سونغ بالمقارنة مع دولة «ويه» فسنجد أن قوتهما مُجتمعتَين تكاد تساوي مساحة إقليمين في دولة تشي، إقليمَي (ها – جين)، فإذا ما استولت تشي على أراضي تشو فكأنها حصلت على ألفَي ميل بالإضاقة إلى ما تحت حيازتها هي والعبيد الذين يقطنونها، وهكذا فلا يمكن عقد مقارنة بين قوة تشين وحدَها مقابل كلٍّ من: وي، هان، تشي. وإذا فرضت الظروف على جيش تشي أن يتوغَّل بأقدامه في إقليم فانغ تشينغ الخصب محاولًا الاقتراب من هان، فلن يكون جيش هذه الأخيرة بالإضافة إلى قوات دولة وي في حاجة إلى شنِّ غارات هجومية؛ لأنهم سيملكون عندئذٍ من القوة ما يستطيعون به تثبيط عزيمة تشين وردعها عن مجرد التفكير في أن تُحرك دولة تشي ساكنًا.»

لمَّا نزعت الدول الخمس فتيل الحرب

بعد أن أعلنت الدول الخمس (تشو – جاو – هان – وي – يان) في مدينة شنكاو — قرية من أعمال هان — التوقُّف عن القتال، فقد انتهز حاكم تشين هذه الفرصة وسعى لدى دولتي وي وهان في محاولة منه لتعيين يان في منصب رئيس الوزراء، إلا أنهما لم تستجيبا لمساعي الملك، وهنالك ذهبت الملكة لتتكلم مع زوجها حاكم تشين (بلسان ويرانغ في الحقيقة)، وقالت له ما نصه: «أتعرف يا مولاي، إن النبيل شنغ يان قد عاش في دولة تشي حياة بائسة مريرة بسببك أنت، فإذا رأيتَ جلالتك أن الوقت قد حان لترقيته في مكانة لائقة بحيث تضمن ولاءه وخضوعه لك، فهل تظن أنك بهذه الوسيلة تجذب قلبه إليك وتأسِره بجميلك؟» فرد عليها الملك بما مفاده أنه بالطبع لا يضمن مثل هذا التصرف من قبل المذكور، فأجابته الملكة بقولها: «إن من أهملتَ شأنه وهو فقير بائس، لن ينفعك بشيءٍ يا مولاي وهو تحت وهج الشهرة والمجد والنفوذ، ثم إنك بما تُحاوله من إسناد دور لامع له لشراء ولائه الآن، فإنك تقوم بما سيؤدي إلى قطيعة مع كلٍّ من وي وهان.»

لمَّا تم استدعاء فان سوي إلى تشين

تم استدعاء فان سوي إلى بلاط تشين الحاكم بسبب ما تقرَّر من إيفاد رئيس التشريفات الملكية «وانغ جي» إلى دولة وي، فلما وصل إلى القصر، قدم من فوره خطابًا رسميًّا إلى جلالة الملك ورد فيه ما نصه: «بلغني أن المبدأ الذي يلتزم به النبيل الأجلُّ «يين وانغ» هو أنه لا بد من مكافأة ذي الفضل، ولا بد من تعيين ذي المهارة في المنصب الملائم، وينبغي أن تزيد المكافأة بحسب ما يؤدِّيه الفرد من خدمة، مثلما يجب أن يترقَّى في منصبه من يزيد مقدار ذكائه ومهارته، ومن ثم يُحجم المُقصِّرون عن التقدم للوظائف الرسمية، فيتقدَّم الأكفاء صعدًا دونما عوائق، أقول ذلك لجلالتكم آملًا أنكم إذا وجدتم فيما أعرِضُه من اقتراحات أية فائدة عملية؛ فإن لي الشرف أن يؤخَذ بآرائي عند وضع الخطط العامة للدولة، أما إذا لم تجدوا فيما أعرضه أية فائدة، فلا أرى داعيًا لإبقائي بالقصر، والحكمة السائرة تقول: «لئن كان النبيل الأكرم يهب العطايا لمن يُحب ويُنزل العقاب على من يبغض، فإن السيد الكريم «يين مينغ» لا يتصرف على هذا النحو، ذلك أنه يتكرم على ذوي الفضل والأيادي الكريمة، بينما يسلط غضبه وعقابه على المُفسدين.» أما بعد، فإني لا أقوى على أن تُدمي أصابعي شفرة سكين، فهل أجسر على أن أضع رقبتي تحت مقصلة الملك لمجرد أن أختبر مدى صبر جلالته على إيقاع العذاب بي، ولئن كنتم لا ترَون في شخصي ما يستحق الاحترام والتقدير، فهل يشفع لي ما يراه فيَّ أوفياؤكم المخلصون؟»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

«أما إنه قد بلغني أن في دولة جو حجرًا كريمًا اسمه «دييه»، وفي دولة سونغ جوهرًا نادرًا اسمه «جيلو»، وفي دولة ليانغ يشب ثمين يُقال له: «شوان لي»، أما في دولة تشو فهناك حجر نادر من الماس يطلق عليه «خبو»، لئن كانت تلك النفائس الأربع مما صنعت أيدي أمهر الصناع، فلقد خرجت من تحت أيديهم لتدخل خزائن القصور ليحتفظ بها الملوك ضمن مقتنياتهم، أما والأمر كذلك، فلربما كان للحكماء الذين تلفظهم أبواب القصور فائدة وقيمة لبلادهم.

وقد بلغني أيضًا أن الماجد الذي يستطيع أن يجلب لأهله الثراء والشرف، لقادر على أن يجلب إلى بلده الفخر والمجد، وأن الحاكم الذي يحقق لبلده المنعة ويصعد بها إلى ذُرا السطوة والجاه، لقادر أيضًا على أن يمد نفوذه فوق كل الدويلات والممالك، وأن أميرًا

فطنًا عاقلًا كريمًا سيمنع رحله ورحاله ويقف درعًا ضد الجشع واستغلال النفوذ وطمع أصحاب الإقطاعيات.

إن الماجد يعرف الفرق بين السؤدد والهوان، والحاكم العاقل يُدرك ما تتقوم به الأمور وما تتداعى به دعائمها، فهو يُشير ويستشار ويأخذ بالرأي السليم ويدع ما لا نفع فيه، ويختبر ما أحاطت به الظنون، فذلك هو المبدأ الذي سار عليه الحكماء والأولون بغير تبديل، فإذا بُعث الآن القديسون القدماء (ياو – شون – تانغ – شوي) من أجداثهم، فسيُقرُّون بكل تأكيد، ألا وإني إذ أكتب لجلالتكم هذا الكتاب مولاي الملك، فقد رددتُ القلم عن أن يغوص في أعماق المعاني فيبلغ حدَّ الإبهام، وقد أعفيته أيضًا من أن يدنو فيبتذل، ويمجُّه سمعك الكريم، ومع ذلك فلا أدري إن كنتم جلالتكم قد أعرضتم عن الاستماع لي لأنكم لا تجدون فيما أقول ما يقدح الذهن ويقوي العزم، أم لأني تقدمتُ إلى جلالتكم بواسطة رجل بسيط غير مكين، فإن كنت مُخطئًا في ظنِّي، فأرجو جلالتكم أن تتكرَّم عليَّ بأن تمنحني فرصة النظر إلى مُحيَّاك الكريم لأُطالع جليل المهابة، وأجثو على قدمي أمامك تعظيمًا وإجلالًا.»

هذا وقد اغتبط جلالة الملك بهذا الخطاب، وطلب تدوينه في السجلات الملكية، وأصدر أمرًا شفويًّا إلى «وانغ جي» بسرعة إرسال عربة خاصة لاستقدام فان سوي.

لمَّا ذهب فان سوي إلى دولة تشين

ذهب فان سوي إلى تشين، فاستقبله الحاكم بحفاوة بالغة عند عتبات القصر، وبادر فان سوي بقوله ما نصه: «لا أنكر أنه كان جديرًا بي أن آخُذ بنصيحتك منذ فترة طويلة مضت، وعامة، فقد زُج بي في القتال مع دولة «إيتشيو» تحت إلحاح ظروف قاهرة، ولطالما كنت أذهب إلى الملكة وأشاورها في أمر تلك الحرب مُعبرًا عن رأيي في ضرورة إنهائها دون سفك مزيدٍ من الدم [كانت قد نشأت علاقة آثمة بين الملكة (زوجة حاكم تشين) وملك «إيتشيو»، وأثمرت العلاقة عن حمل سفاح، فاضطربت الأمور بينهما وتعمق الخلاف، فانتقمت الملكة لنفسها وقتلت حاكم إيتشيو غدرًا، فنشبت الحرب بين الدولتَين من جراء ذلك]، والآن وقد انتهت الحرب، فلا أملك إلا أن أُقدم لك الشكر، على أني أدرك بيني وبين نفسي أني تصرفتُ طوال الوقت دون تبصُّر أو حكمة، وعلى أية حال، فقد أمرت بأن يتم استقبالك حسب البروتوكول المعمول به لاستقبال أعظم ضيوف الدولة.» فرد عليه فان سوي بمجاملة لائقة، مُعتذرًا للملك في أدبٍ جمٍّ عن قبول تواضع الملك له بمثل تلك العبارات.

ثم إنه في ذلك اليوم الذي التقى به الملك مع فان سوي كانت جمهرة من المشاهدين تقف غير بعيد والعيون في دهشة ووجوم لما يجري خارج باحة القصر، ثم انحنى وركع بين يدي فان سوي قائلًا له ما نصه: «أرجوك ألا تبخل عليَّ بالنصح أيها السيد الكريم.» وراح يكرر هذه العبارة عدة مرات، بينما يتقدم نحوه فان سوي مرتبكًا راجيًا إياه أن ينهض واقفًا حتى سأله الملك وهو راكع: «اصدُقني القول، هل ستبخل عليَّ بالنصيحة المُخلصة؟» فأجابه فان سوي بكل تواضع: «قد أخجلتني يا مولاي، أما قد علمت بقصة لقاء الملك أون مع الوالي «جيانغ تاي» الذي لم يكن يزيد في ذلك الوقت عن كونه مجرد صياد للأسماك، ولم يكن هنالك ما يمكن أن يجمع بينهما من حوار أو تفاهم، ولكن ما إن تم اللقاء بين الرجلَين حتى أصدر الملك قرارًا بتعيينه بوظيفة كبير مُعلمي القصر الملكي، وخصص له سيارة تُقلُّه في كل تنقلاته وذلك أن جسور الود امتدَّت بين الطرفين أثناء لقاء عرضي بينهما، وأثبتت الأيام أن «جيانغ تاي» أسدى إلى الملك خدمات جليلة، لولاها لما استطاع جلالته أن يفرض سلطانه فوق الممالك جميعًا، ويقبض على صولجان إمبراطوية عظمى، ولا كانت قد نشأت عادة تعيين أكثر الناس إخلاصًا للإمبراطور في منصب «أمير الدولة»، وهو المنصب الذي استطاع كلٌّ من «أون وانغ» و«أوانغ» أن يعتليا سدة العرش الملكي من خلاله.

أما وإني لست إلا مجرد ضيف مُقيم بين أظهركم، شاءت ظروفه أن يعمل في وظيفة رسمية، دون أن تتوطد العلاقة بينه وبين سيد البلاد والملوك جميعًا، ومع ذلك فلم أمسك لساني عن أن يقول كلمة شأنها شد أزركم ودعم موقفكم، ومع أن اللسان في فمي ليس سوى قطعة ضئيلة من الجسد إلا أني عاهدتُ نفسي أن تنطق هذه القطعة بجوهر الإخلاص والصدق، ولكني لمَّا كنت لا أقف على الغرض الذي دعا جلالتك إلى توجيه الأسئلة لي ثلاث مراتٍ متتالية، فلم أجد جوابًا ملائمًا، فأُرتِجَ عليَّ ولزمت الصمت، ليس عن خشية قول ما أعرفه من الحق، ذلك أني لا أخشى أن أقول الحقيقة ثم أجد نفسي في اليوم التالي مسوقًا إلى ساحة الإعدام، فقصارى ما أتمنَّاه أن أقول ما يقع لدى جلالتكم موقع الصدق، وليكن بعدها ما يكون، سواء تعرضتُ للموت أو للنفي أو للتشريد، فلا هوان العيش يُشقيني، ولا مذلة الموت أو الجنون تؤرقني، فقد ذاق الموت الأباطرة الخمسة العظام، والملوك الثلاثة العادلون، بل حتى الطغاة الخمسة تجرعوا كأس المنون، والطاغية الشهير بلقب «أوهوا» (عاش في زمن الدول المتحاربة) مثله كمثل أشجع جنود المعارك، أشهرهم

(منغ بن، شيايو)، ذلك أن الموت مصير كل حي، ولن تثنيني الظروف الطارئة عن أن أكون نافعًا للبلاد، فليس لي سوى ذلك أمل، فمن ثم تمتلئ نفسي بالجسارة، ولقد اضطر الوزير أوزدان (هارب من بلاده بعد غزوها) أن يندس في جوال حقير، فرارًا من بلاده، ثم لما عبر الحدود راح يسير ليلًا ويختبئ نهارًا، وما كاد يبلغ بُحيرة لينغ، حتى كان الزاد قد فرغ من جعبته، فتقدم زاحفًا على الجبال صوب مدينة «أو» حيث نزل شوارعها وصار يشحذ من المارة، ثم شاء القدَر أن يكون هذا الرجل هو السبب في نهضة دولة «أو»، وهو الذي استطاع أن يُمهد الطريق لأحد النبلاء المغمورين كي يعتلي عرش البلاد ويصبح ملكًا متوجًا لدولة «أو» (يقصد بذلك الملك هيلو)، ليت لي مثل دهاء التخطيط السياسي الذي كان يتمتَّع به من قديم «أوزدان» بحيث أستطيع أن أعرض خططًا سليمة توضع موضع التطبيق، حتى لو كان ثمن ذلك أن يشي بي الواشون، ويُلقَى بي في غياهب السجون، وقد قيل إن اثنَين من أشهر السياسيين في ماضي الزمان، ألا وهما: «جيتز» و«جيلون» تعرضا للتشريد والمرض والجنون بسبب آرائهما، ومع ذلك فقد غادرا القصر دون أن ينفعا بلدهما بشيء، وأقول لك بصدقٍ يا مولاي: إني لا أخشى أن أجد نفس المصير بشرط أن يكون قولي ذا فائدة للبلاد ولجلالتكم، فذلك هو الشيء الوحيد الذي يجعلني أتحمل أية نتائج وأعدُّها شرفًا عظيمًا يهون معه أي شقاء، وتذوي دونه ألوان الذل والمرارة.

أما الشيء الوحيد الذي أخشاه بحق، فهو أن يظن الناس بعد موتي أني لقيتُ حتفي بسبب ما أخلصتُ من النية وأسلمت للملك من طويَّة للهلاك، فيخرس كل لسانٍ ناطقٍ بالنصح، وتتقهقر كل قدم ساعية في طريق الحق، ويقعد عن المجيء إليك خلصاؤك، ويُقال عن دولة تشين في هذا الشأن كل ما يمكن أن يُقال. ألا ترى، يا مولاي أنك كالمحاصَر داخل قلعة مظلمة، لايملك فرارًا، ولا يلتمس للنور طريقًا؛ فمن أمامك جلالة الملكة تُضيِّق عليك السبل، ومن ورائك ومن حولك أسوار مُشيَّدة من أمراء ووصيفات وأقارب وبلاط وحاشية يُحيطون بك ويَدورون برأسك دوران السوار بالمعصم، وليس ثمة من يرشدك إلى الصواب أو يزيح الستار عن المؤثرات والخدع والمكائد التي إن عظمت أطاحت بالعرش والبلاد جميعًا، وإن هانت حكمت بالهوان عليك؟ فاسمع قولي، وصدِّقني إذ أقول لك إني أستشعر من جراء ذلك عظيم الخطر، وليس الخطر الذي أخشاه هو خطر الذل أو الموت أو الهوان، كما قلت آنفا، ذلك أن حياتي كلها تهون لأجل أن تُبنَى سياسات دولة تشين على أسسٍ قويمة ومبادئ واضحة.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

هنالك ركع الملك أمام فان سوي، ثم اعتدل، وقال ما نصه: «على رسلك يا سيدي، فقد أرسلتك المشيئة السماوية لي برغم طول الطريق ووعثاء السفر، فهذا من حسن حظي لأني لا أفقه الأمر على النحو الصحيح، وقد أراد القدر أن يحفظ لي ميراث أجدادي من الملوك الأقدمين، فلا بد من أن أحفظ وصاياك أيها النابِه الكريم، فتلك إرادة السماء التي أسبغت محبَّتها، وتفضلت عليَّ بمزيدٍ الرعاية، وما كنت أرى أي داع لكل ما حدثتني به توًّا أيها السيد الفاضل، وكل ما أريد أن أقوله لك هو أنه مهما عظمت الأمور أو تضاءلت (هكذا بتعبير النص)، وسواء أكان هنالك جوارٍ أو قيان أو ملكات أو أخدان، فكل ما أرجوه منك هو أن توافيني بالنصح والإرشاد دون كلل، وأن تمنحني ثقتك.» وهنا ركع فان سوي للملك احترامًا وتعظيمًا، ورد عليه الملك بِمثلها، وتكلم فان سوي، فقال لجلالته ما نصُّه: «إذا تأمَّلنا موقع البلاد يا مولاي، وجدْنا أنه في الشمال يقبع جبل كانشيوان ومضيق «جوكو»، وفي الجنوب كلٌّ من نهري «جين»، و«وي»، وفي الشرق أرض «لونغدي» الوعرة ومضيق «شو»، أما الغرب، فممر «خانكو» و«لونغيان»، ولديك أكثر من ألف عربة عسكرية، وما يربو على المليون مقاتل، فإذا ما سرتَ بجحافل جيشك تقصد مهاجمة الإمارت والممالك المجاورة، فكأنك تفعل مثلما ورد في الأمثولة الشهيرة التي كانت تحكي عن الصقر الجارح الذي أطلق جناحَيه يريد اقتناص كتكوتٍ أعرج. بالطبع، فإن تحقيق النصر مُمكن ومؤكد تمامًا، ومع ذلك، فلا تتحرك جلالتك في هذا الاتجاه، بل تقعد منطويًا على نفسك، ولا تفكر حتى في التقدُّم صوب الشرق، باتجاه منطقة تايشينغ، ولا أرى لذلك سببًا سوى أن رانخو لا يضع خططًا ناجحة ولا يبذل كل إخلاصه لجلالتكم، بل إن بعض الخطط التي وضعها لسيادتكم تحتوي على أخطاء مهولة، فسأله الملك عن هذه الأخطاء راجيًا إيَّاه أن يوضحها له، فأجابه فان سوي: «إن ما يلفت انتباهي من سوء التقدير الذي يعتور هذه الخطة يتمثل في أن جلالتكم تريدون التقدُّم بقواتكم مخترقًا كلًّا من دولتَي وي وهان لملاقاة دولة تشي بجيشها الجرار وقوتها المعهودة، والحق هو أن جيشنا قليل العدد لن يكفي لمجرد إرهاق قوات تشي، لكن جيشًا هائل العدد والعدة والعتاد على هذا النحو لن يكون مفيدًا أيضًا لدولة تشين، وهنا فلربَّما يخطر لجلالتكم أن تجري الاستعانة بأي صورةٍ ممكنة بقواتٍ من وي وهان لملاقاة تشي، غير أني أجد مثل هذا الحل أيضًا غير مناسب، خاصة بعدما اتضح أن حلفاءك لا يمكن الاعتماد عليهم، ثم كيف يمكن أن نعقل إمكانية مهاجمة دولة بعيدة مثل تشي عبر اختراق أراضي دولةٍ أخرى؟ مثل هذا التصور ينطوي

على مخاطرة جسيمة. كانت دولة تشي بنفسها فيما مضى قد شنَّت هجومًا كاسحًا على تشو واستطاعت أن تدحر قواتها، وتُبدد جيشها، فتفرقت صفوفه، واعتُقل أمير الجيوش وقُتل، واحتلت تشي من الأرض ما يزيد على الألف كيلو متر، ومع ذلك فقد ضاع منها كل ما احتلته ولم تستطع الحفاظ على شبرٍ واحد من الأرض، فهل كان ذلك راجعًا إلى تنازلها عن احتلال أراضي الغير؟! كلَّا، بل كان السبب هو طبيعة الأرض نفسها، ثم إن الأمراء والنبلاء لَمَّا رأوا انكسار جيش تشي واضطراب قادتها حشدوا قواتهم، وأقبلوا على ما بقي منها، فلم يتركوا قائمًا إلا نكَّسوه، حتى فرَّ الملك «مين وانغ» تتبعه لعنات الناس وسخريتهم. أما السبب في حدوث كل ذلك فيرجع في حقيقته إلى أن هجوم تشي على تشو كان مفيدًا جدًّا لكلٍّ من وي وهان، مما ألقى بكلِّ النتائج المثمرة جاهزة في أيديهم، فكانت تشي هنا تتصرَّف بالطريقة التي حكت عنها الأمثال قديمًا، من أنها تُعطي اللص سكينًا، وتهب للناهِب حقلًا مثمرًا، والأفضل يا مولاي، هو أن تستعين بعلاقاتك مع البعيد النائي على مهاجمة القريب الداني، وحينئذٍ، فإن كل شبر تحوزه في قتالٍ يصير مِلكًا لك، أما إذا لجأت إلى خطة معاكسة، فذلك هو الخطأ بعينه.

أما علمت بما حدث قديمًا من غزو دولة جاو لدولة «جونشان» واحتلالها لأراضيها البالغ مُحيطها خمسمائة كيلو متر، مما حقق لها أغراضها كاملة، وحقق لها شهرة ذائعة الصيت بين الممالك، وصد عنها نزعات الصدام المتكرر بين الدول في تلك الفترة؟ وأريد من جلالتك أن تتأمل الأمر الماثل أمام عينَيك جيدًا، أما ترى وي وهان تقعان في المنطقة السهلية الوسطى بين البلاد جميعًا، فكأنها المحور الذي تتعامد عليه كل الممالك التي فوق الأرض جميعًا، فإذا أردتَ أن تخضع لك كل العروش والتيجان تحت ظلال إمبراطوريةٍ كبرى، فلا بد أن تجعل الوصول إلى تلك المنطقة السهلية الوسطى نصب عينَيك، لأنك بذلك تستطيع أيضًا أن تفرض نفوذك على كلٍّ من دولتي تشو وجاو، ذلك أنه إذا تعاظمَت قوة جاو، خضعت لك تشو، والعكس صحيح كذلك، وعندما تأتيانك كلتاهما طواعية، تقبلان بسلطانك، فسوف يدبُّ الخوف في قلب تشي، ومن ثم تتواضع كثيرًا في لهجتها مع جلالتك، وتزاحم الآخرين في الحصول على رضاك، وإذا ما حدث ذلك حقًّا، فيمكن سحق كلٍّ من وي وهان.»

وهنا قال الملك ما نصه: «كنت قد نويت أن أقيم علاقة ودية مع وي، لكنني تراجعت نظرًا لكثرة تقلباتها السياسية واضطراب خططها، فهل ترى لي طريقةً لإقامة علاقات طيبة

معها؟» فأجابه فان سوي بقوله: «يمكنك ذلك إذا استخدمت في خطابك معها العبارات الودية والهدايا الثمينة أو بإقطاعها الأراضي والأقاليم، فإذا لم تنجح تلك المساعي، فلك أن تغزوها بالحملات التأديبية.» [ثم إن تشين قامت حقًّا بغزو إقليم «شينغ تشيو»، وهنالك خضعت وي لإملاءات تشين] وحينئذ، عاد فان سوي يقول: «إن أراضي تشين وهان تبدو متداخلة فيما بينها، كما تتداخل اللُّحمة بالسَّداة، وهكذا فإن الاحتفاظ بـ «هانكو» يُشبه الاحتفاظ بأفعى غادرة، فما إن تنفلت الأمور حتى تلدغك، فاحتفظ بـ هان إذا أردت ذلك يا مولاي.» فقال له الملك: «أريد الاحتفاظ بـ «هان»، لكن المشكلة كلها تكمُن في أنها لا تخضع لي ولا تسير حسب خطواتي، فما العمل إذن؟» وهنا أجابه فان سوي بقوله: «أرى أن جلالتك إذا هاجمت بلدة «شينغ يان» على أطراف هان، فسوف ينسد الطريق الرئيسي الواصل إلى الإقليم الواقع هنالك، وهو الطريق المُسمى بـ «تشنكاو»، وفي الشمال يمكنك قطع طريق «تايشين شان» وهو ما سيمنع القوات المعادية المُحتشدة في شاندانغ من النزول إليك، وهكذا فإنك، بضربةٍ واحدة، تُقسِّم هان إلى ثلاثة أقسام، فإذا ما شعر القادة هناك بخطورة الموقف فلن يتردَّدوا عن النزول على رأيك والخضوع لما تُمليه من سياسات، وعندئذ، تنجح خُطتك وينفتح أمامك الطريق نحو المجد والرفعة والعرش الإمبراطوري.» فاستحسن الملك هذا الكلام للغاية، وواصل فان سوي كلامه قائلًا: «عندما كنتُ مقيمًا في بلدة شاندونغ، لم أكن أشعر أن هناك ملكًا يحكم في دولة تشي، بقدْر ما كنتُ أدرك أن هناك إقطاعيِّين يملكون صكوك حيازة للأراضي، ولم يكن الناس يشعرون أيضًا بأن هناك ملكًا يحكم في تشين، لكنهم كانوا يسمعون بآخرين موجودين وتأثيرهم طاغٍ، مثل جلالة الملك رانخو والأخوين (جين يانغ جون، وهوا يانغ جون)، والحق يا مولاي أن الملك الحقيقي هو الذي يُمسك بيده زمام الأمور في بلده، وهو الوحيد الذي يملك سلطة الثواب والعقاب، أما إني أجد الملكة تتصرَّف وفق مصالح ذاتية ضيِّقة لا تستوعب مصلحة البلاد والبشر، وبالنسبة لـ «رانخو»، فقد أُوفد في بعثة رسمية ثم عاد منها دون أن يُقدم تقريرًا رسميًّا وافيًا عن الزيارة مثلما هو معهود بالنسبة للأخوين هوا يانغ جون، وجين يانغ جون اللذَين لا يعبآن بالمصلحة العامة قدر اهتمامهما بأمور هامشية تافهة، فكيف يمكن أن يُوجَد في بلد مثل هؤلاء الأربعة دون أن تتبدَّى الهواجس ويحلَّ الخطر، ولعمري فهذا شيءٌ مُستحيل! وأظن أن السبب في ذلك يكمُن في أن أولئك الأربعة يحتلُّون مناصب سياسية رفيعة لا يستطيع أحد إنكار أهميتها، لكن الناس تقول إن صوت الملك غير مسموع، فكأنه غير موجود، ومع كل ذلك، تظلُّ هيبة الدولة ملء كلِّ العيون والأسماع دونما أثر للإحساس

بغياب الملك، فما السبب يا تُرى في ذلك؟! ولماذا لا تُصدر القرارات واللوائح الملكية عن جلالتكم وبصوتكم كي يسمع الناس ويرَوا؟ وقد بلغني أن الحاكم النابِه هو من يرسخ قواعد مهابته في نفوس رعيته، هذا بالنسبة للشئون الداخلية، أما في الشئون الخارجية فهو يظلُّ مهيب الجانب، حاضر النفوذ، دون إخلال بالقواعد والأصول. لقد خرج رانخو مبعوثًا إلى الدول الخارجية، ومفوضًا من جانبكم بسلطاتٍ غير عادية، مما شجَّعه على منح الإقطاعات والإنعام على الكثيرين بالألقاب، بل وصل به الأمر إلى تجريد الحملات العسكرية دون أن يجسر أحد على الاعتراض عليه، فإذا ما تمَّ له النصر، عاد بالغنائم إلى ضيعته وإقطاعاته العديدة وترك خزانة الدولة فارغة، وترك أمرها للأمراء والمُتعهدين، أما إذا وقعت عليه الهزيمة، فهو ينحي باللائمة على الغوغاء وينسب إليهم كل رذيلة، ويكون الوطن هو الخاسر الأكبر، وقد جاء في أحد نصوص كتاب الشعر القديم، وهو الفصل المُسمَّى بـ «إيشى»، ما نصه:

«إذا ما ثقلت الأثمار،
مالت الغصون حتى انثنت،
وهوت بعيدًا عن الأصول التي منها أورقت.
فإذا ما انفصل غصن بعد غصن،
لم يبقَ هناك جذع ولا فرع ولا شجر،
وهكذا إذا ما تفرقت الإقطاعات بين النبلاء،
وتقلصت مساحة الوطن،
وكلما تعاظمت سلطات المديرين،
تدنَّت مكانة الملوك والأمراء ...»

وكان القائد العسكري الشهير في دولة تشي، والمُلقب بـ «ناوش» قد تقلد سلطةً عظمى في الدولة فأمر بتقليل كميات الطعام المُخصصة للقصر، حتى أصيب الملك بالإنهاك وتوفِّي بعد مائة يوم بسبب الضعف والهزال، وهكذا فالسلطة في تشين الآن موزَّعة بين جلالة الملكة والمنصب الرسمي الذي يشغله رانخو وإلى جانبه الطغمة التي تُسانده، مثل: كاولين، وجين يانغ جون، وهو ما يَعني سحب كلِّ الصلاحيات والنفوذ من يد جلالة الإمبراطور، فهؤلاء الأشخاص يُشبهون في خطرهم ومكائدهم أمثال «ناوش»، و«لي روي»، وكأني بك اليوم يا مولاي، عندما رأيتك تجلس في ركن من القصر وحيدًا، ستقضي أيامك هكذا، دون

أن تورث العرش والمجد لأبنائك وأحفادك!» فأُسقط في يد الملك، وقرَّر أن يهجر الملكة، ثم أمر بإقصاء رانخو عن البلاد، ونقل كاولين من منصبه، وأبعد جين يانغ جون إلى الأطراف النائية من البلاد، وكان أن تحدَّث الملك إلى فان سوي قائلًا: «كان الملك هوانكون قد التقى بالحكيم كوانشوان الذي مهد له الطريق للعرش الإمبراطوري الأكبر، فأجلَّه الملك وتكرم عليه بأن أجلسه مجلس والده، فها أنا ذا أعظمك وأجلسك مجلس الوالد الكريم.»

لمَّا الْتقى يين خو بالملك وقال له

الْتقى «يين خو» (اسم آخر لـ «فان سوي») بالملك شاوانغ — حاكم تشين — وقال له: «أما سمعت يا مولاي بالمعبد الكائن وسط الغابات بمنطقة هنس؟ فقد بلغني أن شابًّا أرعن يسكن الخرائب، كان قد ذهب ذات مرة إلى المعبد وطلب إلى الكاهن أن يلعب معه النرد، قائلًا: «لو غلبتُك فلا بد أن تتنازل عن منصب الكاهن مدة ثلاثة أيام، أما إذا غلبتني أنت فيمكنك أن تُنزل بي ما تشاء من عقاب.» ثم ألقى النرد ثلاث مرات بيده اليُمنى، وثلاثًا أخرى بيده اليسرى، وكسب الجولة، فما كان من الكاهن إلا أن تنازل له عن منصبه ثلاثة أيام، فلمَّا انقضت المدة بعث الكاهن بمن يطلُب من الشابِّ الشريد استرداد كرسي الكهنوتية، لكنه باء بالفشل، إذ تشبَّث الفتى بمكانه، وبعد أيامٍ صارت الغابة ذابلةً تتساقط حتى تعرَّت الجذوع والأفرع، أصابها الجفاف تمامًا بعد سبعة أيام، وهكذا فالوطن يُشبه هنا الغابة، والسلطة تُماثل كرسي الكهنوتية، فهل تبقى في أمانٍ إذا تنازلت عنه لأي فردٍ آخر؟! إني لم أسمع في حياتي بأن يكون الإصبع أضخم من الذراع، ولا شهدتُ بأمِّ عيني ذراعًا أعظم من ساق، فإذا ما تحقَّق في إنسانٍ شيء من ذلك، فهو دليل على المرض والسقام. وماذا يا مولاي لو رأيت مائة رجل يتسابقون جريًا وعلى ظهر كلٍّ منهم آنية فخَّارية، أما تظن أن الآنية تقع وتتحطم؟! أما إن السلطة في دولة تشين تتفرَّق الآن في أيدي كل من هوايانغ جون، ورانخو، وجلالة الملكة، والجزء الباقي بيد جلالتك، ثم إني إذا شبَّهت الوطن بالأواني الفخارية فلا بد أن أتوقَّع أن تتحطَّم إحدى تلك الأواني ويتفرق بين أربعة أشخاص، وكما قلتُ لك آنفًا يا مولاي فإن الثمرة الناضجة تميل بالفرع الواهن وتقصِمه وتهوِي به بعيدًا عن السيقان، وتظل الأفرع ينفصل أحدها عن الآخر حتى يفسد قلب الشجرة. إن النبلاء من ذوي الإقطاعات الكبيرة يُمكن أن يلتهِموا أوطانهم حتى تذوب بين أيديهم، وكذلك الوزراء والمُديرون من ذوي البأس، يمكن لنفوذهم وسلطانهم أن يُهدد

سلطة الملك نفسه. وأقول لجلالتك بصراحة: إن كل موظفٍ في البلاط، من أصغر منصبٍ إلى أكبر مرتبة، يُشبهون رانخو في معظم الصفات، فكأنهم أقرباؤه أو إخوته، ولأن الأحوال الآن غير مُضطربة، فلا تبدو هناك أية مخاطر، أما إذا وقعت الواقعة، وانفلتت الأمور أو ثارت الحروب والفتن، فلا بد أني سأجد جلالتك جالسًا وحدك في ركن من أركان القصر، ولا أُخفي عن جلالتك أن الهواجس كثيرًا ما تنتابني فيما يتعلق ببقائكم على العرش، وربما شهدت السنوات القادمة صعود ملوك آخرين من غير أبنائك أو أحفادك. وقد بلغني أن الملوك والحكماء النابِهين في أمور السياسة وإدارة شئون البلاد، كانوا يُمسكون زمام الأمور بأيديهم، وكان كل رعاياهم من تابعِيهم المُخلصين، كلٌّ في موقعه، سواء داخل القصر أو خارجه، ومن ثم تحقق الأمن والاستقرار، فسارت سياستهم على النحو المرسوم لها، أما الآن فإن المبعوثين الذين أوفدتهم جلالة الملكة قاموا بتوزيع الإقطاعات كيفما اتفق ووزعوا شارات القتال وأوامر الحرب على كل من هبَّ ودبَّ، واستغلوا سلطة الملك في تأليب الفتن وشن الغارات، فكلَّما تحقق نصر في معركة، جلبت الغنائم إلى البيوت والإقطاعات الخاصة، أما خزانة الدولة فقد تم نزحها لتصبَّ في خزانة جلالة الملكة وشركائها، وقد قِيل قديمًا إن هذا بالضبط هو الطريق المؤدي إلى (هلاك البلاد، وضياع العروش والممالك)، ولطالما راح هؤلاء الثلاثة: الملكة، رانخو، هوايانغ جون ينهبون ثروات البلاد سعيًا لتحقيق مآربهم الخاصة، فقد كان طبيعيًّا أن يتدخلوا في قرارات القصر وأن يتنازعوا السلطة فيما بينهم وهو ما أدَّى إلى الوضع الذي تجد نفسك فيه الآن يا مولاي مُحاطًا بفوضى لا حدود لها.»

لمَّا أرادت تشين مهاجمة هانكو

أعدت تشين العدة لمهاجمة هان، وبالفعل قامت قواتها بحصار منطقة «شينغ وي» التابعة لأرض غريمتها، وهنالك التقى فان سوي بحاكم تشين وقال له: «في الحرب، تجد من يُخططون لاحتلال الأراضي، مثلما تجد أيضًا من يبذلون كل جهدٍ لاستلاب المشاعر وأَسْر النفوس، ولقد قام رانخو بمهاجمة وي عشر مرات دون أن ينجح في إخضاعها ولم يكن ذلك يعني ضعف تشين مقابل قوة ومنعة وي، وإنما لأن المطلوب هنا كان الأرض فقط، والأرض هي أكثر ما يُحبه الأمراء والملوك، وهناك دائمًا وراء كل أمير وحاكم من لديهم الاستعداد لبذل أرواحهم في سبيل الحفاظ على الأرض التي يُريدها السادة الأمراء، لذلك فقد فشلت عشرُ حملاتٍ متعاقبة في إثنائهم عن الدفاع عن أرضهم، والآن وجلالتك بصدد الاستعداد لمهاجمة هان، فلست أريد لك أن تركز اهتمامك على الاستيلاء على الأرض فقط،

بل الاستيلاء على قلوب الناس الذين يعيشون فوق الأرض، ثم إني أرجو من جلالتك أن تُجري مباحثات مع «جانغ بين» مستشار هان، أثناء حصارك لمنطقة شينغ، وأتصوَّر أن لو كان الرجل على قدْرٍ من الفطنة والكياسة، فلا بدَّ أنه سيُسارع إلى التنازل عن بعض الأراضي لك، ثم يُحاولُ مليكه أن يدافع عن اقتراحه بمقولة إن التضحية ببعض الأراضي أفضل من ضياع الأرض جميعًا، أما إذا لم يكن الرجل على تلك الدرجة من الوعي وحُسن التصرُّف، فسوف يطرُده الملك ويستبدله بآخَر أقل مرونةً في المباحثات وشروط التسليم، وهو ما سيعني، في آخِر المطاف، توقُّف المباحثات لكي تقوم جلالتك بالحصول على الأراضي كلها بالقوة المسلحة.»

لمَّا حكى يين خو الحكاية

حكى «يين خو» ذات مرة حكاية، فقال: «إن أهل دولة جنغ يُطلقون على حجر الماس الخام اسم (بو)، والغريب أن سكان دولة جو يُطلقون نفس التسمية بأصواتها (بو) على لحم الفئران الذي لم يُجفف. وذات مرةٍ كان أحد موظفي دولة جو يمرُّ أمام محل أحد تجار دولة «جنغ» وهو يحمل في صديريته لحم فئران غير مُجفَّف، فتوجَّه إلى التاجر وسأله إن كان يريد شراء (بو) [الماس الخام]، فما إن أخرج الرجل يدَه من صديريته وأخرج ما فيها حتى فطن التاجر أنه إنما يقصد لحم الفئران، فأعرض عنه.

أما وقد صار الأمير «بينغ يوان» (ولد حاكم جاو) يظن نفسه واحدًا من حكماء الزمان، بعد أن ذاع صيتُه بين الممالك، فقد راح يفاخر الجميع بذلك حتى سقطت في عينَيه المهابة لباقي الملوك بما فيهم أبوه الملك «أولينغ» نفسه، بل الأدهى من ذلك أنه قرر طرد أبيه، وحدَّد إقامته في منطقة نائية تُسمَّى شاتشيو، وخفض مكانته الاجتماعية بعد تجريده من ألقاب الشرف الملكي، فعاش كواحدٍ من الرعايا العاديين وسط الناس، ورغم ذلك فقد بقي كثيرٌ من الملوك يحفظون للملك العجوز مكانته واحترامه، فهؤلاء الحكام لا يملكون ذكاء وبصيرة التاجر المشار إليه آنفا، ذلك أن بقيةً من وميض العز والوجاهة أزاغت بصائرهم فلم يفطنوا إلى ضياع قيمته التي هي رأس ماله الأساسي.»

لمَّا قرَّر المخططون السياسيون عقْد اجتماع

قرر المخططون السياسيون لكل الممالك التآزُر معًا والاجتماع في جلسة موحدة بعاصمة دولة جاو، وذلك لترتيب خطة يتم بمُقتضاها الهجوم على تشين، وهنالك توجَّه رئيس

وزراء تشين «يين خو» إلى الحاكم وقال له ما نصه: «لا يشغلن بالك شيء من ذلك يا مولاي، ودعني أفض جمعهم هذا، ذلك أن دولة تشين لا تحمل لأي من هؤلاء المُجتمِعين أية ضغائن، والحق أنهم إنما يُدبرون خطة هجومية ضدَّنا سعيًا لمغانم شخصية، وانظر يا مولاي إلى كلاب حراستك الهائمة حولك تجد منها النائم واليقظان والمُتسكع والمُتعلق بأذيالك يلعق ثوبك، فماذا لو ألقيتَ إليها عظام ذبيحة طازجة، أما تجد الكلَّ قد اجتمع في دائرة واحدة وأفواههم تنبح في وقتٍ واحد؟ فما اجتمع صياحهم إلا تلبية لنداء الجوع.» وهنالك أوفد ملك تشين أحد مَبعوثيه (يُدعى تانجيو، ولا تُوجَد له ترجمة وافية) وبصحبته إحدى الفرق الموسيقية، وصندوق مليء بآلاف الدنانير الذهبية، وطلب إليه الإقامة بمدينة «ووآن» الكائنة بدولة جاو، بحيث يدعو إليه أخلاطًا من الناس ممَّن تباينت أمزجتهم وبيئاتُهم إلى مأدبة عامرة، بحيث يُفاجِئ المدعوين بالهدايا الثمينة التي في جعبته، ويُنادي بأعلى صوته قائلًا: «يا أهل مدينة هاندان (عاصمة جاو) هلمُّوا إلى الذهب ها أنا ذا أنثره عليكم، فخذوا حظكم منه كيفما شئتم.» فيأخذ الناس جميعًا ويُحرَم منه المُخططون، وبذلك يذكر الناس دولة تشين بالخير والفضل العميم.»

وقد حرص يين خو على لقاء تانجيو قبل ذهابه، وقال له ما نصُّه: «لئن كنت تريد أن تُسدي خدمة جليلة إلى دولة تشين فاذهب إلى هناك وانثر الدنانير الذهبية، ولا تسألن في يد مَن وقعت تلك الثروة، وليس عليك إلا أن تنفض كل ما في جعبتك، وسأرسل معك من يساعدك في حمل خمسة آلاف دينار.» وبالفعل ذهب الرجل في مهمته، ولم يكد ينثر ثلاثة آلاف دينار، حتى دبَّ الشجار بين المُخططين هناك، وتنازعوا فيما بينهم.

لمَّا ذهب أحدهم إلى يين خو وتكلم معه

ذهب إلى «يين خو» من قال له: «أصحيح أنك ألقيت القبض على «مافوجون»؟» فلما رد عليه بالإيجاب راح الرجل يسأله ثانية: «بلغني أنك على وشك الهجوم على مدينة هاندان، فهل هذا صحيح أيضًا؟» ورد عليه بالإيجاب كذلك في هذه المرة، لم يلبث الرجل أن قال له: «اعلم أنه إذا ما بادت دولة جاو فسوف يعلو نجم الملك «شاوانغ» حاكم تشين وبالتالي فسوف يترقَّى القائد الأعلى للجيش، وهذا طبيعي بالنسبة لقائدٍ حارب في مواقع عديدة لأجل دولة تشين؛ فقد شارك في القتال على الجبهات الشمالية والجنوبية، واقتحم الكثير من الأسوار والخنادق، واحتل أهم المدن في القطاع الجنوبي من بلاده وهما مدينتا «أوتشنغ»، و«يين تشنغ» وقطاع هانشون بأكمله، بل أباد جيشًا بكامل عدته وعتاده، وهو جيش مافوجون،

دون أن يفقد جنديًّا أو يتلف سلاحًا، وقد بلغ في ذلك مرتبةً لا يُدانيها الرجال الثلاثة: جوكون، شاوكون، لوانغ، الذين اشتهروا بإسداء الفضل لملك جو، حيث يقول التاريخ إنهم قاموا بإبادة أسرة «يين» الملكية من الوجود، وساعدوه في تأسيس إمبراطورية جو الكبرى مكانها، أما إنه إذا بادت دولة جاو، وتربع على عرش إمبراطورية عُظمى، وترقَّى «باي تشي» إلى المراتب الثلاث العُليا، أو ربما فاز بها مجتمعة فصار قائدًا أعلى، وكبير حكماء، ووزيرًا أعظم، فهل ستقبل أن تعمل تحت إمرته كواحدٍ من مرءوسيه؟ وحتى لو كنت في أعماق قلبك لا تقبل أن توضع في هذا الموضع، إلا أن الظروف لن تُعطيك ترف الاختيار.

ومن المعلوم أن قوات تشين سبق لها أن حاصرت هان ومدينة شينغ، ولقِيَت متاعب جمة في إقليم شاندانغ، حتى إن كل سكان الإقليم عادوا إلى دولة جاو؛ لأن أحدًا منهم لم يكن يرغب في أن يصير واحدًا من رعايا دولة تشين، وهذا أمر معروف وذائع، فإذا غامرت تشين الآن بغزو دولة جاو، فلا بد أن يكون معلومًا لكم أن الجزء الشمالي من جاو سيئول قطعًا إلى دولة «يان» والجزء الشرقي سيتبع دولة تشي، أما الجنوبي فسيعود بطبيعة الحال إلى كلٍّ من وي، وتشو، وهو ما يعني أن مساحة الأرض المُتبقية لدولة تشين التي تُمكِّنها من أن تفرض عليها سلطانها ستكون ضئيلةً جدًّا، لذلك أقترح عليك أن تنتهز الفرصة كي تدعو دولة جاو إلى التنازُل عن جزءٍ من أراضيها طلبًا للمصالحة، وهو ما يعني ضمنًا أنك تعطي الفرصة لرئيسك ليفخر بتحقيق مأثرة كبرى.»

لمَّا قامت دولة هان بمصادرة إقطاعات يين خو

قامت دولة هان بمصادرة إقطاعات يين خو بإقليم رونان، وهنالك تكلم الملك شاوانغ حاكم تشين معه في هذا الشأن، فقال له ما نصه: «أتُراك قد حزنت لذهاب ثروتك وإقطاعاتك؟» فأجابه الرجل مُستنكرًا شعوره بالحزن، نافيًا عن نفسه أي إحساس بالسخط أو الضيق مما أصابه، فتعجَّب الملك، وسأله عن السبب في هذه الطمأنينة التي حلَّت به، فأجابه الرجل قائلًا: «كان في دولة وي قديمًا رجل يُدعى «دونمين»، وحدث أن تُوفي ابن الرجل، وكان فتًى في ريعان الصبا، فلم يحزن الرجل، فسأله أحدهم قال: «كنت تُحب ولدك حبًّا لا مثيل له على وجه الأرض، أما الآن وقد مات فإني أراك غير حزينٍ عليه، فكيف ذلك؟» فرد عليه دونمين قائلًا: «كنت فيما مضى بغير ولد، ولم يكن يؤرِّق قلبي شيء، ثم إني رُزقت بولدٍ وعشت معه زمنًا وها هو ذا الآن قد مات، فعدتُ إلى زمني الأول الذي كنتُ فيه بغير أولاد، فذهب عني الحزن.» وهكذا، يا مولاي، فقد كنتُ أنا أيضًا فيما مضى مجرد رجلٍ عادي

أعيش بين عامة الناس حياة سعيدة هانئة، لكني ترقيتُ وتمجدت وصارت لي إقطاعات وثروات، ثم إني فقدتُ كل ممتلكاتي الآن وصرتُ كواحدٍ من بين الناس، أعيش أيامي في صفوٍ دائم بغير كدر، تمامًا مثل صاحبنا الذي فقد ولده.» وفكر الملك مليًّا في هذا الرد، لكنه لم يقنع بأنه يُعبر عن مشاعر «يين خو» الحقيقية، وتكلم مع وزيره منغاو (من دولة تشي، خدم الملك وانغ؛ فرقَّاه في رتبة القائد الأعلى للجيش) في ذلك الشأن قائلًا: «قد مضت عليَّ أيام وأنا أكاد لا أذوق للأكل طعمًا، ولا أضع على فراش جنبًا، وقد استولى عليَّ الضيق والغم والحزن، لمجرد أن إحدى القرى الواقعة ضمن ممتلكاتي تقع تحت الحصار معرضةً للضياع، هذا بينما تُسلَب من يين خو إقطاعيته الوحيدة دون أن يتكدَّر خاطرُه من جراء ذلك، فهل تُصدق شيئًا مثل هذا؟» فأجابه منغاو قائلًا: «أمهِلني يا مولاي عدة أيام حتى أقف لك على حقيقة أخباره.»

وذهب منغاو للقاء يين خو وقال له: «أريد أن أخبرك بأني قد نويت أن أقتل نفسي.»

فذُعِر يين خو وقد صدمه الكلام وسأل محدِّثه عن سبب مثل هذا القول فرد عليه قائلًا: «أما علمت أن الملك شاوانغ يفضلك على كثيرٍ من الناس، ويختصك بِحُبه واحترامه حتى جعلك كبير المُعلمين بالقصر، وهو أمر معلوم للكافة، داخل وخارج تشين، والآن فإني أقسم لك، بصفتي القائد الأعلى للجيش، بأني لن أسمح لنفسي أن أعيش يومًا واحدًا دون أن أقود الكتائب وأقصد نحو هان، ذلك البلد الحقير الذي ما كنتُ أظنه يتصرَّف على نحوٍ غير ودي تجاه تشين الكبرى ويقوم بالاستيلاء على إقطاعيتك، ففيمَ شرف الحياة إذا كنت غير قادر على رد الاعتبار لك؟!» وهنالك انحنى يين خو أمام منغاو احترامًا وتبجيلًا قائلًا: «بل إني أنا الذي أرجوك يا سيدي أن تتولَّى بنفسك مهمة رد الاعتبار لي.»، ثم إن منغاو لم يلبث أن أبلغ الملك بما دار بينه وبين يين خو. فمنذ ذلك الحين، صار يين خو كلما طرح موضوع هان للنقاش تشكك الملك في كلامه ظانًّا أنه إنما يريد إقطاعيته المسلوبة في إقليم «رونان».

لمَّا هاجمت دولة تشين مدينة هاندان

لما هاجمت دولة تشين مدينة هاندان، استمر القتال بينهما سبعة أشهر دون أن ترفع المدينة رايات الاستسلام، وهنالك ذهب إيجوان للقاء الأمير «وانغ جي» وقال له: «لماذا لا تتكرم على صغار الضباط بالمنح والمكافآت؟» فأجابه بأنه لا يُحب أن يتدخل الآخرون فيما بينه وبين أبيه الملك، وعاد إيجوان يقول له: «مولاي الأمير، هناك أمور بين الآباء وأبنائهم

لا تحتمل سوى الطاعة من قبل الأبناء، لكن هناك من الموضوعات ما يعجز الأبناء فيها عن طاعة آبائهم، فمثلًا إذا زجر الأب ولده طالبًا منه تطليق امرأته أو طرد محظيته، فالطاعة عندئذٍ سهلة مُمكنة، أما إذا طلب إليه نسيان صاحبته أو كراهيتها، فهذا تكليف بمُستحيل وأمر بما لا يُستطاع الإتيان به، ثم هبْ مثلًا أن إحدى السيدات المُكلفات بحراسة مجموعة من البيوت القروية المُتلاصقة قامت ذات صباح لتقول للناس إن إحداهن قد دعت بالأمس رجلًا غريبًا إلى منزلها؟ فبالنسبة للموضوع الأول، فلربما استطاع الابن أن يُطيع أباه في تطليق امرأته وهجر مَحظيته أو بيعها، لكن المُستحيل بعينِه هو أن يطلب رجل من ولده أن ينسى حبيبة قلبه أو أن يمتنع عن التفكير فيها، وفيما يتصل بالموضوع الثاني، فلن تُفلح في أن تمنع المرأة من أن تتجنَّب لقاء الغرباء بمجرد أن تفضحها على الملأ، لأنها حتى لو امتنعت عن البغاء فسيظل الناس جميعًا يحتفظون في صدورهم بفكرة سيئة عن سلوكها.

أقول يا سيدي إن ما يربط بينك وبين والدك من مشاعر حُب وودٍّ لا تعدو أن تكون مشاعر طبيعية بين أبٍ وولده، ولئن كانت رُتبة صغار الضباط تُعَد من المناصب المتواضعة، فهي ليست أكثر اتضاعًا من مهنة السيدة حارسة البيوت الريفية، ثم إن قيامك على بعض شئون القصر الكبرى، وظهورك أمام كبار القادة بأنف شامخ ورأس مُتعالٍ، لن يدوم طويلًا، وأودُّ بهذه المناسبة أن أُذكرك بثلاثةٍ من الأمثال السائرة، لعلك قد سمعت بها من قبل، وهي على الترتيب: «إن ثلاثة كذَّابين يستطيعون أن يُوهموك بأن النمر يسير على قدمٍ واحدة، وعشرة أشخاص يقدرون على طيٍّ سيقان شجرة صُلبة الجذع قوية الفروع والأغصان، وجمهرة من الناس تقدر على إقناعك بالمُستحيل نفسه كأن يُقنعوك بأن الجمل يطير في الفضاء محلقًا بجناحَين، لذلك أقول من الأفضل تكريم صغار الضباط، على أن تُعاملهم بالاحترام اللائق والمروءة الواجبة».» وبرغم ذلك فلم يأخذ الأمير بنصيحة إيجوان، هكذا، فلمَّا ضاقت الأمور على صغار الضباط ووجدوا أنفسهم في مأزق، فقد غادر معظمهم الميدان عائدِين إلى تشين، والأدهى من ذلك أن هؤلاء الفارِّين ادَّعوا أن كلًّا من الأمير «وانغ جي» و«إيجوان» كانا يُدبران مؤامرة للإطاحة بجلالة الملك نفسه. وما إن وصلت هذه الأنباء إلى القصر حتى طار لبُّ الملك واحمرَّ وجهه من الغيظ والغضب، وأصدر فرمانًا بالقبض على المُتآمِرين وإعدامهم بما في ذلك إعدام فان سوي أيضًا فبُهت هذا الأخير، ودافع عن نفسه قائلًا: «تعرف جلالتك أني لم أكن إلا واحدًا من الدهماء الذين كانوا يعيشون على الكفاف في البلاد الشرقية، وبأني قد أغضبت حاكم وي فأقسم أن ينال منِّي، ففررتُ بذَيلي

إلى تشين ناجيًا بحياتي، وليست لي في هذا البلد من سندٍ سوى جلالتكم، فلا أنا قريب من النبلاء ولا حليف للأمراء، فقد كنت أنت يا مولاي من رفعني من المذلَّة إلى مرتبة الوجاهة والشرف والمقام الكريم، وقد عهدت إليَّ بإدارة شئون البلاد، فما من أحدٍ من رعاياك إلا يعرف تمامًا مكانتي عندك وتقديرك العظيم لجهدي المُتواضع بين يدي جلالتك، لكني لم أسلَم من الوشاية، وها أنا ذا أقف أمامك مُتهمًا بالضلوع مع وانغ جي وآخرين في مؤامرة دنيئة، فلئن كنت يا مولاي قد حكمت بإزهاق روحي، فليس ذلك من الحكمة؛ لأن جلالتك ستبدو أمام الناس كمن لا يُحسن اختيار الأشخاص للمهام المناسبة، أو كمن لا يفقَه طباع البشر، وهو ما سيُعطي الأمراء الفرصة للنيل من مكانتك وتأليب النبلاء عليك، وهكذا، فإني أقترح على جلالتك أن تدعني أتجرع السمَّ بيدي ثم تركلني بقدمِك احتقارًا لي وذمًّا لشخصي الحقير، فإذا متُّ فلتُقِم لي جنازة باسم رئيس الوزراء السابق، وهي الطريقة التي تضمن لجلالتك تنفيذ حُكم الإعدام فيَّ، وتُعفيك من التلويح بسوء اختيارك لمن يَثبُت أنه لم يكن أهلًا لثِقتك من أمثالي، ويمكنك أن تذكر للناس، فيما بعد، أنك لا تُخطئ اختيار الأشخاص، حسب ما هو واضح من خصالهم الظاهرة، وإنما كوامن النفوس وأغوارها الدفينة هي التي تستعصي على الإدراك.» وهنالك أُعجِب الملك بحُسن مقالته وتراجع عن الحكم بإعدامه، بل أقام على سابق علاقته الودية به كعهده معه منذُ أن عرفه.

لمَّا طُرد السيد تسايزي من دولة جاو

لمَّا قامت دولة جاو بطرد «تسايزي» من أراضيها، فقد ذهب الرجل إلى وي وهان، فبينما هو على الطريق، احتال عليه اللصوص وسرقوا آنيته ومتاعه، وكان قد سمع أن بعضًا ممن اتخذهم فان سوي وزراء ومُديرين، مثل «جنغ آن بينغ» و«وانغ جي»، قد وجهت إليهم تهمة الخيانة العظمى، وهو الأمر الذي وضع فان سوي في حرجٍ بالِغ، فعوَّل على الخروج غربًا إلى تشين، ولمَّا كان تسايزي في طريقه لمقابلة ملك تشين، فقد حث بعض الناس على التنديد بـ «فان سوي» وذلك لإغاظته بمقولة «إن «تسايزي»، ذلك الضيف العابر، ذو المكر والدهاء واللسان الذرب والحكمة الفياضة قد صار على وشك الالتقاء بجلالة الملك الذي سوف يُسارع بتعيينه رئيسًا للوزراء، ومن ثم تجد نفسك خارج القصر.» فما إن بلغ هذا الكلام فان سوي حتى أرسل في طلب تسايزي، فلما مثَل هذا بين يدَيه نظر حوله، فلم يعبأ بمن حضر وإنما اتجه مباشرة نحو فان سوي واكتفى بأن رفع يدَيه بالتحية العادية دون أن ينحني له على سبيل التبجيل اللائق بمكانته الرسمية وهو الأمر الذي أغضب فان

سوي كثيرًا، وخصوصًا عندما اقترب منه وشاهد على مُحياه علامات الأنفة والكبر، فاشتدَّ عليه فان سوي في القول بما نصُّه: «اصدقني القول، هل صحيح أنك توعدت علنًا بالسعي لدى الملك لإقالتي من منصبي والحلول مكاني رئيسًا للوزراء؟» فلما رد عليه تسايزي بالإيجاب، عاد فسأله عن حُجته فيما قال، فأجابه تسايزي بما نصه: «أعجب لقلة تبصُّرك بطبائع الأمور، أما تعلمتَ من تناوب الفصول الأربعة تجربة البدء والنضج والاكتمال، ذلك أن في الاكتمال تمام النضج الذي يَعقُبه تطور لاحق يسعى بدوره لمنتهى الاكتمال وهكذا دواليك، ألا يتمنَّى كل رجل فاضل أن يسعد بصحبة طيبة وبصيرة نافذة وحياة سعيدة؟!» ثم إن فان سوي وافقه على رأيه، فواصل تسايزي كلامه قائلًا: «ألا يتمنَّى كل ذكي نابهٍ ذرب اللسان، فقيه البيان أن يتعامل مع الناس بالعدل والخلُق الكريم؟» ولم يعترض فان سوي على هذا القول أيضًا، فراح يواصل كلامه بقوله: «تأمَّل يا رجل فيما يمكن أن يهب الواحد منَّا للآخرين من حياة هانئة وشرف ومجد، وفيما يُمكن أن يعود بالنفع والصلاح على الأمور كلها، فتتحقق الآمال وتنصلِح الأحوال وتطول الحياة بالخير والسعادة ويرث كل وارث خير ما خلَّفه له سابقوه، وينطبق الاسم على المُسمى، والمعنى على الجوهر، ويبقى الخير على وجه الأرض جيلًا بعد جيل، وتلهج الألسن بالشكر لكل ذي فضل من السابقين وبالتشجيع على مكارم الأخلاق لكل ذي مروءة من اللاحقين، أفليس كل ذلك موافقًا لناموس الطبيعة وقانون الطبائع الذي قال الحكماء عنه إن من أدركه فقد أدرك الخير والحظ السعيد؟» وأجاب فان سوي بكلمة واحدة، قائلًا: «بلى»، فواصل الرجل كلامه قائلًا: «إن رجالًا من أمثال «شانجون» في دولة تشين، و«أوتشي» في دولة «أوكو»، و«تايفوجون» في دولة «يو»، تشير سيرة حياة كلٍّ منهم إلى ما يُمكن أن يمتلكه المرء من إرادة وقدرة تحقيق الآمال الكبرى.» عندئذٍ أدرك فان سوي أن تسايزي يريد أن ينال منه بالمناظرة البليغة والجدل اللفظي النابِه، ومن ثم فقد راح يقول: «نعم، كانوا يستطيعون تحقيق آمالهم بالتأكيد، فقد قدم «كوسونيانج» لدولة تشين خدمات جليلة، بذل فيها كل عبقريته وذكائه بكل إيثار، واتخذ العدل منهاجًا في الثواب والعقاب، فاستقر العدل في ربوع البلاد دون أن يبخل بطاقته ولا عبقريته على البلاد، بل تفانى في سبيل الخير بكل إخلاص، ولم يسلَم من الوشاية والمتاعب برغم أنه قدم للوطن خدمات جليلة، أبرزها أنه استطاع القبض على قائد دولة وي، وتمكن من أن يقهر أعداء تشين ويسلُب أرضًا هائلة المساحة ليضمها إلى أراضي تشين وكذلك أيضًا فقد بذل «أوتشي» كل الإخلاص والتفاني لدولة تشو، حتى إنه استطاع أن يحافظ على المصالح العامة للبلاد ويُجنبها ويلات الجشع والأنانية، حتى توارى الفساد في زمانه وتجلى النقاء والتفاني في أحسن صوره، فاحتجبت

الرذيلة وبرزت الفضيلة. وقد كان رجلًا فاضلًا مُهذبًا جادًّا في أقواله وأفعاله، ولم يكن يخشى لوم اللائم ولا يأبه بتقريظ المادح ما دام يمشي على الطريق القويم، مما دفع بدولة تشو إلى اعتلاء مكانة سامية بين الممالك والإمبراطوريات، ومع ذلك، فلم يسلم الرجل من الأذى، وقد فعل تايفوجون الكثير لأجل حاكم دولة يو؛ من ذلك — مثلًا — وقوفه إلى جانبه في وقت المحنة، دون تردُّد أو تكاسل، وبرغم مآثره الكثيرة، فلم يحدث أبدًا أن رآه إنسان وهو يُصعِّر خدَّه تيهًا واختيالًا واستكبارًا، فكلٌّ من هؤلاء الثلاثة قد بلغ ذروة الإخلاص والعرفان والتفاني، حتى صارت التضحية بالشهرة والإنجازات الكبرى أمرًا مُسلَّمًا به ما دام الحق هو الهدف الأسمى، بل قد صار الموت في سبيل هذا المبدأ تضحيةً شريفة وغالية، ثم إن تسايزي أجابه بما نصُّه: «لئن كان الحاكم جليلًا، والحاشية عاقلة فاضلة، فذلك من أثمن الخصال التي تحت السماء، فإذا كان الحاكم عاقلًا مُتبصرًا، والوزراء مُخلصين شرفاء، فذلك من حُسن حظ البلاد ويُمن طالع أهلها، ثم إذا كان الأب في بيته رحيمًا والأبناء مطيعين بررة وكان الزوج وفيًّا لامرأته، والزوجة عفيفة كريمة، فهذا من أثمن كنوز السعادة الأسرية، وبرغم ذلك، فهناك أمثلة تمتلئ بها كتب التاريخ عن شخصيات اشتهرت بالإخلاص الشديد، إلا أنها لم تُحقق الخير المأمول منها، وهذا ينطبق على الوزير بيكان، الذي لم يستطع أن يحمي بلاده من الانهيار وقت المحنة، بل إن واحدًا في ذكاء أوزاشيو، لم يتمكن من أن يصد عن وطنه (دولة أو) خطر التفكك والضياع، ثم إن أكثر الشخصيات في التاريخ تمسكًا بأسس المعاملات والتواضع والأدب الجم — وهو الوزير «شن شنغ» — لم يستطع أن يصد تيار الفوضى والانقلابات العاتية عن بلاده (دولة جين).»

فالغرض من سردي لكل هذه الأمثلة، توضيح مسألة مُهمة جدًّا تتمثل في أن وجود رجل دولة أو ولدٍ بارٍّ بوالدَيه لا يضمن بالضرورة حماية الوطن من الهلاك ولا الأسرة من الضياع والتفكك، والسبب في ذلك سهل جدًّا، ذلك أنه لا فائدة من وجود رجل دولةٍ مُخلص بغير حاكِم ذكي فطن، ولا خير يُرجى من ابنٍ مطيع ما دام الأب نفسه طائشًا أرعن، عاجزًا عن تقدير الخصال الطيبة التي يتحلى بها أبناؤه، فمن ثم ينظر الناس جميعًا بعين الازدراء للأب الأحمق، ثم إنه لو كانت المآثر والصفات الجليلة لا تتبدَّى إلا بعد وفاة أصحابها، لما استحق واحد في حكمة ويتزي أن يتصف بالحكمة، ولا سُمي كوانجون بالرجل القدير.»

وأخيرًا لم يملك فان سوي إلا أن يعترف ببراعة اللسان وفصاحة البيان اللتَين يتحلى بهما تسايزي.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وما كاد الحوار يتوقف برهة قصيرة أثناء المباراة الجدلية بين الرجُلَين، حتى تراءى لـ «تسايزي» أن يلتقِط طرف الخيط، ليقول لمُحدِّثه فان سوي: «لا جدال في أن كلًّا من شانجون، وأوتشي، وتايفوجون قد أسسوا دعائم شهرتهم على المآثر والإنجازات الجليلة المُخلصة، وهو أمر يُحمد لهم على كل حال، ولكن ما رأيك في آخرين مثل هونياو — بأيادِيه المعروفة على حاكم جو — وشوكون — بخدماته المعهودة للملك شنغ — ألا تعُدُّهم من الطراز المُخلص الوفي أيضًا؟ وفيما يتَّصل بالعلاقة التي تربط الحاكم بالوزير، فأي أولئك أفضل، الثلاثة السابقون أم الاثنان الآخران؟»

فأجابه فان سوي بما نصُّه: «أرى أن هذَين الاثنين أفضل من سابقِيهم.» فرد تسايزي قائلًا: «فما قولك في مليكك من حيث الصفات الجليلة كالعدل والرحمة والثقة والإخلاص وحفظ العهد والود مع الصديق، أهوَ أفضل أم الملوك الآخرين مثل «شياكون»(حاكم تشين)، و«دياو»(حاكم تشو) و«جوشيان» (حاكم يو)؟»

فعقَّب فان سوي بما مفاده أنه لا يقدر على تعيين الفرق بينهم جميعًا، فعندئذٍ قال له مُحدِّثه: «صحيح أن حاكم بلدك يتميز بالإخلاص والثقة إلا أنه لا يفوق في ذلك ملوك كلٍّ من تشين، يو، تشو، بل إنك أنت نفسك بكل ما تبذله من جهدٍ لإقرار الأمن في البلاد ومحاربة الفساد، وتسوية المنازعات والاضطربات، واستصلاح الأراضي وزيادة مساحة المعمورة واستزراع المحاصيل، وذلك للنهضة بالبلاد وتقوية مكانتها ورفعة شأنها بين الممالك، لا تكاد مآثرك في هذا المجال، برغم ذلك، تصل إلى ربع أو نصف ما بذلَه العظماء الثلاثة: شانجون، وأوتشي، وتايفجون من جهد، وما حقَّقوه من إنجازات. وها أنت ذا في منصبك تجني الخير العميم والرزق الوفير والمكانة الرفيعة، بأكثر مما كان يمكن أن يحصل عليه أحد هؤلاء الثلاثة أو كلهم مُجتمِعين، وما زلت حريصًا على البقاء في مكانك لا تبرحُه طمعًا في زيادة، حتى لقد ظننتُ بك الظنون، وأراك لن تدع بُغيتك حتى تضطرك الأسباب إلى ما تكره، والمثل السائر يقول: «ما بلغت الأمور الذروة إلا انحطَّت إلى الحضيض، فما استدار القمر بدرًا إلا اعتراه النقص طورًا بعد طور، وما ارتفعت الشمس في كبد السماء، إلا لتهوي إلى حافة الغروب.» وذلك أن انحطاط الأمور بعد بلوغ قمة ارتفاعها، هو القانون الطبيعي للوجود، كذلك التطور والتأخُّر، والتمدُّد والانكماش، كلها مظاهر التغير التابعة لتطور الزمن في أحواله الطبيعية، وهو ما أدركه واستقر عليه فكر الحكماء من الأزل.

وتذكر كتب التاريخ أن «تشي هوانكون» قد ترأس اتحاد الإمارات والدويلات تسع مرات، استطاع خلالها أن يضع سياساتٍ ناجحة أفادت في إجراء إصلاحات شاملة للدويلات المختلفة، وظلَّ على ذلك طيلة فترة من الزمن إلى أن جاء اجتماع كويتشو، وتصرف أثناء الاجتماع بصلف وغطرسة وتكبُّر، مما نتج عنه تمرُّدُ تسع دول عليه ومُروقها عن التحالف.

وهناك حكاية أخرى حول الملك «أوفو» حاكم دولة «أو» الذي لم يكن يُعاديه أحد على وجه الأرض، غير أن ازدراءه للنبلاء، ومُعاملته المُهينة لكلٍّ من دولتي تشي وجين، كانا السبب في هلاكه وضياع البلاد، وكذلك كان البطَلان الصنديدان: «شيابو»، و«تايشي تشي» يملكان المقدرة على مصارعة العُصبة من المُقاتلين بلكمةٍ واحدة، وبرغم ما اشتهر عنهما من قوة جبارة، فقد لقِيا حتفهما على يد الدهماء البسطاء ذوي الأيدي الواهنة غير المُدربة على القتال، ففي تلك الأمثلة تجد الاعتداد بالقوة وحدَها دون التحلِّي بالحكمة والمنطق والعقل.

ثم أذكر لك وقائع أخرى، منها مثلًا أن «شانغ جون» كان قد قدم خدمة جليلة لحاكم تشين، وذلك بتوحيد الموازين والمكاييل، وتوزيع الأجهزة المُوحدة المقاييس على الناس، ولم يكتفِ بذلك بل قام بتعديل القوائم الضريبية؛ ليقضي على نظام تقسيم الأراضي حسب طريقة «المُربعات التسع»، فعمل خرائط مساحية جديدة، وعلَّم المزارعين طرقًا مُستحدثة في فِلاحة الأرض ومبادئ أساسية في فنِّ الحرب والقتال، فلذلك انتصرت جيوشه في المعارك، وزادت مساحة البلاد بما أُضيف إليها من أراضٍ جديدة غنِمتها في الحروب، بل تمكَّنت في وقت السلم كذلك من تشييد قواعد التقدُّم والرفاهية، فخضع الجميع تحت سلطان تشين أمِّ الممالك جميعًا، التي ذاعت شهرتها في كل زمانٍ ومكان، فما إن أتم الرجل صنيعه بالخير حتى تنكَّرت له حظوظه، فقتل غدرًا وغيلة تحت سنابك الخيل.

وكانت تشو، فيما مضى، تملك حشودًا هائلة من المُحاربين المدرَّبين الذين فاق عددهم المليون مقاتل، وقد جاء القائد المحنك «باى تشي» على رأس جيوشه ليُقاتل دولة تشو، فما إن وقع الصدام بينهما حتى سقطت كلٌّ من مدينتي «يان» و«بينغ» في قبضة المظفر «باى تشي»، ثم لم تلبث أن سقطت قِلاع إيلين بعد ذلك بقليل، ثم تقدَّمت قوات تشين نحو الجنوب تحت إمرة هذا البطل لتلتهِم كلًّا من دولتي شو وهان، ثم عبرت حدود هان ووي، لتلتقي في قتالٍ ضارٍ بدولة جاو، وتوغلت في الشمال لتلتقي بجيش جاو تحت قيادة «مافوجون» حيث لقي هذا الأخير شرَّ هزيمة على يد قوات تشين التي تقدَّمت لتفتك بأكثر من نصف المليون من قوات جاو، حتى صارت الدماء أنهارًا والصياح رعودًا، والدمدمة

زلزلة مهولة، فكانت تلك هي الواقعة التي استتبَّ بها سلطان تشين فوق الدول، فتربَّعت على عرش الممالك، وصارت إمبراطورية الزمان، فمنذ ذلك الحين خضعت جاو وتشو تحت إمرة تشين بعد أن دوَّخهما القائد المِغوار الذي استسلمت له وحدَه أكثر من سبعين مدينة بغير قتال، فما إن لمعت أنوار مجدِه في الآفاق واستتبَّ له المقام الفريد بين القادة والمُحاربين العظماء حتى نكَّل به الملك «شاو» حاكم تشين، وقتله شر مقتلة في مدينة دويو.

أما الوزير الأعظم «أوتشي» فقد فعل الكثير لأجل حاكم تشو(الملك دياو) فمن ذلك مثلًا أنه أخلى الدواوين من الموظفين الكسالى والخامِلين وغير المؤهَّلين من الفنيِّين والعمَّال، وأقال من الوظائف العامة كلَّ من لم تثبت جدارته، وأغلق الباب في وجه كلِّ منافقٍ ومداهن وأفَّاق، ووحَّد العادات والمُعاملات في كل أرجاء الوطن، واستطاع أن يقهر بلاد الشمال وأن يهدم قلاع مدينة «يانغ يو»، وأن يخرس ألسنة المُحرضين، والمُجادلين وأدعياء فنون الحرب وأساطين السياسة، فما إن كملت أفضالُه على بلاده حتى كان جزاؤه تقطيع أوصاله بعد قتلِه بغير ذنبٍ جناه، ويُقال إن الوزير الأعظم لدولة يو، المُلقب بـ «تايفوجون» كانت له أيادٍ بيضاء على الملك «كوشيان»، حيث استصلح له الأراضي البور، وخطَّط له المدن وأسَّس الحواضر العظيمة، وشقَّ الترع والمصارف، واستزرع أجود أنواع النباتات والأشجار، ثم قاد الرجال وأيقظ الهِمم، وقصد نحو يو، فحطَّم حصونها وأزال مِنعتها وهيبتها وأسَّس للبلاد قواعد الرفعة والجلال، ولم يأمَن مكر مليكه به، فلقِي على يدَيه حتفه في آخِر المطاف.

فهؤلاء الأربعة قدَّموا أرواحهم في سبيل مجد أوطانهم وقادة بلادهم، فلم يندَّ عنهم تقصير أو إهمال، مع ذلك فقد ساءت أقدارهم وباءوا بشرِّ المجازاة، فأولئك هم الذين يُقال عنهم بأنهم: «مندفعون للأمام بغير رجوع، مُنطلقون بغير تريُّث.» وذلك بطبيعة شخصياتهم وتكوينهم.

أما «فان لي» — رئيس وزراء دولة تشو — فقد كان يُدرك بوضوح المنطق الذي يدعو الرجل الذكي لأن ينسحب تمامًا من الساحة عندما يتوفَّر لدَيه رصيد هائل من النجاح، وهكذا فقد بقِي طوال فترة تولِّيه منصبه بعيدًا عن الانغماس الشديد في دنيا الدوائر الوظيفية، بل اختار لنفسه أن ينشغل بعالَم التجارة والمال تحت اسمٍ مُستعار هو (تاوجوكون)، وأظنك تعرف المُقامرين أو على الأقل سمعت عنهم، وهم صنفان: الصنف الأول: يريد أن يكسب الرهان كله وأن يستحوذ على المنضدة وما عليها لا يدع شيئًا دون أن يستولي عليه، والصنف الآخر: يكتفي بشقٍّ من الربح؛ لينهض، ويمضي بعيدًا، فهذا أمر معهود في دُنيا القمار.

فانظر لنفسك الآن وأنت الوزير الأعظم بدولة تشين، تستغل كل ذكائك من أجل البقاء على كرسي السلطة، وينحصِر طموحك كله داخل أسوار القصر الملكي، تمدُّ سلطانك فوق الدويلات والإمارات الخاضعة للقصر بينما لا تجني فائدةً من شيء بل تجنيها المقاطعات والولايات التابعة، وأعرف تمامًا أنك ساهمتَ في تقوية الجيش وزيادة المعدات والقوات العاملة فيه، وأنك مهَّدت الأراضي الوعرة (تمهيدًا لنشر القوات فوقها) وأغلقت منافذ التسلُّل عبر الحدود بمنطقة جبال تاي شين شان، وقطعت الطريق الواصل بين تشين والدول الثلاث المعادية، وأنشأت ممرًّا كبيرًا يصل بين بلادك وكل من دولتي هان وشو، وجعلت تشين دولة مرهوبة الجانب، فلما تحقَّقت لها المكانة، وتكلَّل سعيك في هذا السبيل بالنجاح، وبلغت ذروة التفوق الباهر، جاءك من كل صوب من يريد أن يقاسمك نصيبك في هذا النجاح، فإذا لم تنسحب عن مكانك وتتوارى بذكاء، كنت تسلك في نفس الطريق الذي سلكه قبلك أولئك الذين حدثتك عنهم آنفا، مثل: شانجون، وبايكون، وأوتشي، وتايفوجون، ولا أدري ما الذي يمنعك من أن تستقيل وتدع غيرك يحمل أختام الوزارة فتعظم في كل عينٍ مثلما فعل قبلك الحكيم «بوييي» الذي خلد ذكره بشرف وإجلال، أو أن يذكرك الناس مثلما يذكرون «يين خو» بكل خير، ولربما طال بك الأجل فيطيب بك ولك العيش مثلما عاش طويلًا «وان زيشياو»، و«تشي سونزي»، فتأمن زوابع الشر التي تقصف الأجل قبل الأوان، فانظر ماذا تُقرر لنفسك، وأي مصير تختار؟»

وهنالك أومأ فان سوي برأسه علامة الموافقة التامَّة على كل ما قيل أمامه بل قام وأخذ بذراع مُحدِّثه وقرَّبه وأجلسه بجواره وعاملَه بكل احترام كما يليق بمُضيف نحو ضيفه الجليل.

فما كادت تمر عدة أيام حتى كان فان سوي يقول لجلالة الملك أثناء إحدى الجلسات معه: «قد التقيتُ يا مولاي برجلٍ قادم من شاندونغ اسمه «تسايزي»، لم أرَ أحدًا في مثل فصاحته ولا قُدرته على طرح الحجج البارعة، بل إني لا أجد في نفسي القدرة على منافسته فيما تميز به من مواهب.» وعندئذٍ أمر الملك بإحضاره ليمثُل بين يدَيه، فلمَّا حضر وتكلَّم معه أعجبَه قوله جدًّا، وانشرح له صدره وأحبَّه حبًّا لا مزيد عليه، أمر بتعيينه في وظيفة كبير المُستشارين الأجانب بالقصر الملكي، ثم إن فان سوي تقدَّم بطلب الاستقالة من منصبه بسبب المرض الذي أنهك جسده، فرفض الملك طلبه، وأشار عليه بالبقاء في منصبه، فتعلَّل بشدة مرضه، وتدهوُرِ حالته الصحية مما يعرقل شفاءه المأمول، وقام وتنحَّى عن كرسي الوزير الأعظم. ولَّما كان الملك مُعجبًا بأفكار الضيف الذكي، ومُقتنعًا بقُدرته على

تولي شئون البلاد، فقد عيَّنه رئيسًا للوزراء، ولم تكد تمضي فترة من الزمن حتى زال عرش دولة جو من الوجود، تلك الدولة التي كانت ذات يومٍ تقع على الحدود الشرقية للبلاد. وما كاد تسايزي يُمضي في عمله الجديد بضعة أشهر حتى حاصرته الأحقاد والضغائن، فخاف على نفسه أن تُطيح برقبته ضربة سيف غادرة أو أن يطعنه رمح الاغتيال، فقدم استقالته بزعم عدم لياقته الصحية لإدارة مهام منصبه، وتلقَّب باسم مُستعار (سمَّى نفسه: جانشن جون) وبقي في دولة تشين بعدها لسنواتٍ عديدة، وعمل في خدمة كثير من ملوكها، منهم: شاوانغ، شياوون، وجوان ران، بل عاش حتى أدرك زمن العاهل الصيني العظيم «تشين شي هوانغ» [أول إمبراطور للصين الموحدة في تاريخها الطويل] وعمل لفترة في خدمته وقضى ثلاث سنوات موفدًا من قبل تشين إلى دولة يان، وفي نهايتها أرسلت هذه الأخيرة مبعوثًا من طرفها، هو الأمير «تازي تان» الذي ما إن وصل تشين حتى أُلقِي القبض عليه وأُخِذ رهينة.

سجل تشين الرابع

لمَّا استولت تشين على مقاطعة هانشون

ما كادت دولة تشين تستولي على منطقة هانشون التابعة لتشو، حتى قامت بينهما حرب شعواء دارت رحاها في منطقة «لانتيان» وهي المَوقعة التي مُنيت فيها تشو بهزيمةٍ منكرة، وما إن سمعت كلٌّ من «هان» و«وي» باندحار دولة تشو حتى هجمتا على حدودها الجنوبية، ودخلتا مدينة «تنغ» وعاد ملك تشو يجر أذيال الخيبة والهوان، ثم إن الدول الثلاث: (تشي، هان، وي) دبَّرت جميعها خطة للهجوم المُشترك على تشو، غير أن الشيء الوحيد الذي وقف في طريقِهم هو خشيتهم من أن تهب تشين لنجدة تشو، وهنالك ذهب إلى شوكون من أشار عليه قائلًا له: «يُمكنك أن توفد رسولًا إلى ملك تشو ليقول له ما مفاده: إن تحالُف الدول الثلاث يعتزم الرحيل عن أرضكم، ولو شئتم لتحالفنا معكم لمهاجمة تشين، التي لا نظن أنها ستقنع من أرضكم بالاستيلاء على لانتيان وحدها، بل هناك الكثير جدًّا مما تتطلَّع إليه بعيون نهِمة. ولمَّا كانت تشو، في الأصل، تساورها الظنون في جدية موقف تشين من مُساندتها ودعمها، خاصة في غياب ما يستدعي مثل هذا الدعم في ظلِّ ما يتردَّد على سمعها من اعتزام الدول الثلاث الرحيل عن أرضها، فسوف تجد نفسها مُقبلة على تبنِّي فكرة التحالف مع الدول الثلاث لضرب تشين، وهو الأمر الذي إذا ما بلغ أسماع تلك الأخيرة فستقلع بالفعل عن مساندتها، وحينئذٍ، تشتدُّ قبضة الدول الثلاث على المناطق التي احتلتها وتغرس أنيابها في جسد تشو، دون تحفظ، وبالطبع فسوف تُهرع تشو إلى تشين لطلب النجدة، لكنها لن تجد حينئذٍ آذانًا صاغية، فتلك هي الخطة الناجحة التي إذا ما استطعنا بواسطتها أن نبذُر الشقاق بين تشو وتشين، لقرَّبنا فرصة الهجوم الساحق، وزادت احتمالات نجاح هذا الهجوم.

وهنالك استحسن شوكون الفكرة وأوفد مبعوثًا خاصًّا إلى تشو التي ردَّت على الفور بالإيجاب، ثم لم يلبث الهجوم الكاسح أن انطلق باتجاه تشو التي لجأت بالفعل إلى تشين لنُصرتها، فخذلتها جارتها هذه، وتحقق النصر لدول التحالف الثلاثي، وجنت من حربها المجد والتفوُّق والسيادة.

لمَّا ذهب شوكون إلى وي

سافر شوكون إلى دولة وي، وأثناء فترة إقامته هناك أصدر حاكم البلاد قرارًا بطرد المَحظية الملَكية من القصر (يُقال إن السبب في ذلك تذمُّر شوكون من سوء مُعاملتها له؛ هكذا تُشير الشروح الواردة بهامش المتن!) ووصلت هذه الأنباء إلى مسامع هانشون — رئيس وزراء دولة تشين — فذهب من فوره للقاء حاكم البلاد، وقال له: «أرى يا مولاي أن تقبل منِّي النصيحة لجلالتك بالزواج من مَحظية حاكم وي وهو ما سينجم عنه الاتحاد بين تشي وتشين ومثل هذا الأمر لو حدث فسوف يُمثل تهديدًا لدولة وي، ويُمكنني القول إنه التهديد الذي سيتطور إلى هجومٍ شامل تقوم به تشين حيث تنتزع لنفسها إقليم «شاندانغ» وبعد ذلك تقف الدولتان المُتحدتان تشي وتشين إلى جانب أمير دولة وي «الأمير فوتشو» باعتبار أن والدة هذا الأمير (المَحظية الأم) تُقيم في بلاط تشين زوجة شرعية لحاكم البلاد، ومن ثم تتحول وي من مملكةٍ مستقلة إلى مجرد ولاية تابعة لعرش آل تشين، وقد كان هانون — رئيس وزراء تشي الأسبق — يعمل بكل جهده لاستغلال قوة الاتحاد الثنائي بين تشي وتشين لتهديد وي، والإيقاع بـ «شوكون» في أسوأ مصير يمكن أن يقع لرجل دولةٍ في مثل حجمه وأهميته، وقد بلغني كذلك أنَّ هناك أخًا شقيقًا لـ «فوتشو» يُدعى تسوه وأنه يُعِد العدة لأخيه الأصغر كي يتسنَّم ذُرا القوة باعتلائه سدة السلطة والنفوذ، فاسمح لي جلالتك بأن أحاول الضغط على دولة وي بمساعدة كلٍّ من هانون، وتسوه لضرب شوكون، وهو الأمر الذي من شأنه أن يوقع الرعب في قلب ملك وي، فيُصدر قرارًا يسمح فيه للمَحظية الطريدة أن تعود للبلاد. ولا بد أن فوتشو سيُوصي حاكم وي بالعمل على إرضاء تشين بكل وسيلة، وعلى طول الزمن. فإذا رجعت المَحظية إلى وي، فستصبُّ جام غضبها على شوكون، وعلى إثر ذلك سيسعى هذا الأخير بكل جهده لكي تعمل «تشي» فيما من شأنه أن يحوز رضاكم وارتياحكم.»

لمَّا قامت دول التحالف الثلاثي بمهاجمة تشين

لمَّا قامت الدول الثلاث: تشي، هان، وي بالهجوم على تشين، واحتلوا مضيق «هان»، وحدث أن اجتمع ملك تشين إلى رئيس وزرائه وقال له: «إن الدول الثلاث تملك قوة عسكرية هائلة (= لا أستطيع معها مواصلة القتال) وبالتالي فقد رأيتُ أن أتنازل عن إقليم هيدونغ طلبًا للمُصالحة.» وأجابه رئيس الوزراء بقوله: «الحق يا جلالة الملك أن التنازل عن هذا المكان خسارة كبيرة، غير أن تجنُّب الويلات والمخاطر يعد كذلك أساس المصلحة العُليا للبلاد، فتلك هي مسئوليتنا أمام آل «تشين» على مرِّ الزمان، ولهذا أرى أن تتشاور جلالتك مع بقية الأمراء في هذا الشأن.»

وبالفعل، فقد أرسل الملك إلى الأمراء، فاجتمعوا لدَيه وكان أن بادرَه أخوه: (من محظية والده) قائلًا: «أرى يا مولاي أنك نادم في كل الأحوال، سواء تنازلت أو لم تتنازل عن شيءٍ سعيًا للمصالحة مع الأطراف المُتحاربة.» فاستغرب الملك هذا القول واستفسر منه عن السبب في استنتاجه هذا، فأجابه: «إذا سلَّمنا جدلًا، أنك تنازلت عن هيدونغ للدول الثلاث، فلا بد أنك ستتأمل الأمر بعد انسحاب القوات المتحالفة، قائلًا في قرارة نفسك: «يا ويلتي، قد فرطت في أرضي هكذا، لا، لن أترك لهم إلا ثلاث بقاع ضئيلة من إقليم هيدونغ، خصوصًا أن قواتهم قد أزمعت الرحيل.» فذاك هو ندمك على التنازل لو تنازلتَ، فإذا رفضت التفريط في أرضك، وأصررتَ على موقفك هذا في عناد، فستظلُّ أيضًا تلوم نفسك مما قد يَحيق ببلادك من خطرٍ جسيم فيما لو تقدَّمت القوات المعتدية على طريق زحفها صوب ممر «هانجو»، مما يُعرض عاصمة البلاد للخطر الوشيك، هذا بينما كان في مقدورك تفادي مثل هذا المأزق بشيءٍ من المرونة.» ثم إن الملك ردَّ عليه بقوله: «ما دام المَوقفان يتساويان في إثارة مشاعر الندم على ذلك النحو، فلعلَّ من الأفضل أن أندم على التسليم بالإقليم البعيد دون أن أعرض العاصمة «شيان يانغ» لأي خطر، وذلك هو قراري الأخير.»

وبالفعل فقد أوفد ملك تشين أخاه الأمير للتفاوُض مع دول التحالُف الثلاثي في شأن المصالحة مقابل التنازُل عن الإقليم المُقترح، وهنالك انسحبت القوات المُعتدية وزال كل وجه للخطر.

لمَّا تشاور ملك تشين مع رجال البلاط

تحدث الملك «شاو» — حاكم تشين — إلى رجال البلاط من حوله، فقال: «تُرى في أي الفترات تجلَّت قوة كلٍّ من دولتَي وي وهان على نحوٍ شديد الوضوح، أفي بداية ظهورها

على مسرح التاريخ كدولتَين بازغتَين أم الآن؟» وأجابه الحاضرون جميعًا بغير استثناء مؤكِّدين أن الزمن الأول كان هو الذي شهد تفجُّر طاقتهما الجبارة، فعاد الملك يسأل: «تُرى لو أردنا تخصيص اثنَين فقط من بين قادة ووزراء دولة وي يتمتَّعان بالحظ الأوفر من الذكاء والنجابة، فهل يُمكننا أن نشير إلى كلٍّ من الحكيم «روآر» والوزير «ويتشي» — من رجال الوقت الحاضر — أم الوزير «منغ شانغ» والقائد المظفر «مانغ ماو» من قادة الحقبة التأسيسية الأولى؟» فأجاب المُجتمعون قائلِين: إن هذين الأخيرَين هما الأفضل بالتأكيد، وعندئذٍ، قال الملك: «فما ظنُّكم إذن وقد عرفتم أن ذكاء وفطنة وخطر الاثنَين السابقَين لم تمكن وي من دحر بلادنا عندما زحفت جيوشها، بالاشتراك مع هان في حملةٍ عسكرية كبرى فيما مضى، أما اليوم وقد أصبحت مقاليد الأمور في يد الذين ضعفت شوكتهم وتضعضع سُلطانهم، فلَكُم أن تتخيَّلوا ما الذي يمكن أن تُسفر عنه المحاولات الهجومية من جانب وي وهان على بلادنا؟»

واتفقت آراء الحاضرين مع وجهة نظر الملك، إلا أن الوزير «جو تسي» الذي اشتُهر بقوة المنطق والفصاحة وحُسن البيان، قد نهض واقفًا بعد أن نحَّى قيثارته — وكان عازفًا يهوى المُوسيقى والألحان — وتحدث بما نصه: «اسمح لي يا مولاي أن أصف تقييم الوضع الراهن بأنه خاطئ من كل جوانبه، ودعني أُذكرك بأن واحدًا من أمهر وأحذق المُخطِّطين السياسيين والقادة من رجال دولة جين في زمانها المنصرم، والذي كان من بين أكفأ ستة رجال في الدولة كلها (الوزير المُلقب بـ «جي») استطاع أن يتغلَّب على اثنين من أولئك الرجال الأفذاذ، بل قاد جيشًا كان تحت قيادة اثنَين منهما أيضًا، وقام بمحاصرة قوات الوزير «جاو شيانغ» بمنطقة جين يانغ، ثم إنه قام بتحويل مَجرى أحد الأنهار القريبة، فانحدرت المياه وأغرقت تلك المنطقة وغمرت أسوارها العالية التي بقِيَت أجزاء منها طافيةً فوق سطح بركة المياه المُمتدة في كل الأرجاء، فلمَّا خرج «جيسن» ينظر إلى مياه النهر الجاري وهي تتقلَّب وتفور، التقى في طريقه بكلٍّ من «هانسن»، و«ويشن» (رؤساء القبائل من هان ووي) فبادرهما بقوله: «ما كنت أعرف من قبل أن المياه يمكن أن تُستخدَم سلاحًا لإغراق الأراضي على هذا النحو، وقد عرفت اليوم أنه ما مِن أمر سهل على وجه الأرض مثل استخدام مياه نهر «فن» لإغراق العاصمة «آني» واستغلال البخر والرذاذ المُتطاير من هذا النهر نفسه؛ لإغراق مدينة «يين يانغ».» وفي تلك اللحظة نظر كلٌّ من «هانشن» و«ويشن» إلى بعضهما البعض بنظرة ذات مغزى، والغريب أيضًا أنه في تلك اللحظة نفسها كانت أراضي «جيسن» تنقسِم إلى إقطاعات متفرقة سرعان ما توزَّعت

بين الممالك. وانتهى «جيسن» نفسه نهاية مأساوية جدًّا بعد أن أهلك البلاد وشتَّت الأهالي وصار أضحوكة الزمان بعد أن خاب مسعاه وتحطمت آماله.

والآن، وبِرغم أن تشين قد بلغت درجة تفوق ما بلغه «جيسن» ودولته في زمانه، ومهما كان مبلغ الضعف الذي أصاب كتائب «هانشن» و«تشين»، فقد برزت شجاعتهما الكامنة بعد أن ضُرب عليهما الحصار في «يين يانغ»، فنحن الآن نعيش لحظة مهمة جدًّا، وقد تلاقت نظرات التصميم والإرادة في عيوننا، فلتحذر يا مولاي التقليل من خطر أعدائنا.»

لمَّا نشب القتال بين قوات تشو ووي

لمَّا نشب القتال بين قوات دولتي تشو، ووي عند مضيق «شين شان» تقدَّمت وي بوعدٍ رسمي لدولة تشين بأن تتنازل لها عن منطقة «شا نلو»، وذلك لتقطع أي محاولة اقتراب مُمكنة بين تشين وعدوتها اللدود تشو، وكان أن تمَّ النصر لـ «وي» بعد أن دحرت جيش تشو وهزمته شر هزيمة في موقعة «نان يانغ»، لكن تشين لم تَلبث أن طالبت وي بتسليمها الأرض التي وعدتها إياها غير أن الواعد نكث بوعده، وهنالك تحدث الوزير الأعظم «إين جيان» إلى مليكه حاكم تشين قائلًا: «لا أرى مانعًا يا مولاي من أن تُخاطب حاكم تشو بهذا الشأن ذاكرًا له تراجع وي عن تنفيذ وعدها الرسمي لجلالتك، وخيانتها للعهود الموثقة بين الممالك، وتطلب منه إتمام ميثاق الوحدة بين بلدَينا، وهو الأمر الذي تخشاه وي وتعمل له ألف حساب، فلعلها — حينئذٍ — تسارع بتنفيذ ما وعدت به، مع أن هذا يعني فقدانها لثمرات النصر على تشو، فكأن ما أحرزته باليمين تُعطيه لنا بالشمال، وكأن تشو في واقع الأمر هي التي تفضلت علينا بمثل هذه الثمرة الدانية، وهو ما يوجب علينا الرد بكرم أبلغ وهدايا أثمن ومال أوفر، ثم إن وي قد نزلت بها المُلمات التي أوهنت قواها وأضعفت شوكتها، وأقسم بأنها إذا لم تُسلمني الأرض المُتفق عليها، لأرفعن سيفي، ولأقطعن عنها إقليمها الغربي، مما سيربكها للغاية، وتتاح لجلالتكم الفرصة للتوغُّل في أراضيها الجنوبية واقتطاع أثمن ما تَجنيه منها يداك.» وقد راقت الفكرة لحاكم تشين الذي أرسل من فوره إلى تشو من نقل إليها هذا الاقتراح، ثم جاءت الأخبار بموافقة ملك تشو على مشروع الوحدة بين البلدين، وهنالك انغرست نصال الفزع في قلب وي، فأسرعت بإعلان مبادرة من جانبها لتسليم «شانلو» إلى تشين في أسرع وقت ممكن.

لمَّا قام مبعوث تشو المقيم بدولة تشين

كان «جين لي» مبعوث تشو، المقيم لدى تشين يتابع عن كثَبٍ مناقشات حاكمي البلدَين: تشين، وي حول موضوع الوحدة، إلا أن ملك تشو أبدى غضبه من استدعاء مبعوثه لحضور مفاوضات وحدة لا شأن لبلاده بها، فلما علمت تشين بذلك أوفدت «جو تسوي» إلى حاكم تشو لإبلاغه بما نصه: «قد طلبت إلينا وي أن نُقيم معها الوحدة وليس مع تشو؛ فلذلك طلبنا إلى مبعوثكم أن يناقش موضوع هذه الوحدة بحضور الجميع، أما بالنسبة لقيام اتحاد بين آل جو، وتشين، وي بما في ذلك دولتكم المَهيبة، فنحن نشعر ببالِغ السرور والارتياح لهذا الخبر، وربما كان ذلك هو السبب في أن دولة تشي قد خالَجَها الشك في موقفكم فتراجعت عن مباحثات الوحدة معكم.» وهنالك زال غضب حاكم تشو، وأثنى على موقف البيت الحاكم في كلٍّ من دولتي جو، وتشين.

لمَّا أوفد حاكم تشو مبعوثه إلى تشين

لما أوفد حاكم تشو الملك هواي مبعوثه، الوزير الأعظم (جين لي) إلى دولة تشين، ذهب إلى حاكم هذه الأخيرة من قال: «اعلم يا مولاي أن «جين» هذا صاحب منزلة عظيمة بين قومه؛ إذ هو أحب كبار الوزراء جميعًا إلى قلب حاكم تشو، وأرى أن يتم الإبقاء عليه في تشين ولا يسمح له بالعودة إلى بلاده إلا إذا تنازلت تشو عن بعض أراضيها المتاخمة لكم، فإذا وافق الملك على هذه المُقايضة كفانا شرَّ القتال وعبء الحرب، أما إذا اعترض، قتلْنا مبعوثه الأثير إلى قلبه، ولن يُهمَّ إذا ما أُوذي مبعوثنا لديه (الوزير تساي خه) فهو على أية حال لا يُضارع «جين لي» ذكاءً واقتدارًا.»

واقتنع الملك بهذا القول وأصدر أمرًا باحتجاز «جين لي» فما كان من هذا المبعوث الذكي — جين لي — نفسه إلا أن أرسل إلى الملك من أناب عنه في قوله: «قد علمت يا مولاي أن قدرًا هائلًا من هيبتك ومكانتك المعهودة وسط الممالك ستتأثر كثيرًا في أعين الناس جميعًا، فخسارتك مُضاعفة، لأنك ستفقد الجاه العريض والأرض التي كانت ستئول إليك، وأريد أن أُسِرَّ إليك بشيء، وهو أني عندما كنتُ في أول طريق السفر إلى بلادك، بلغَني أن كلًّا من دولتي وي وتشي كانتا تتدراسان فكرة التنازل عن بعض أراضيهما سعيًا للمصالحة مع جلالتكم، ولا أظن أن مثل هذا التصوُّر كان يمكن أن يكون محل تقدير،

لولا أن الجميع يعرف روابط الأخوة والصداقة التي تجمعكم بدولة تشو، فإذا احتجزت لديكم، فسوف يدور بخلد الناس أن بلادكم قد تخلَّت عما يربطها بـ «تشو» من علاقاتٍ حميمة، ولا أدري كيف يمكن لدول مثل وي، وتشي أن تشعرا نحو بلدٍ قد فقدَ كل روابط ممكنة مع صديقه الكريم، وأصبح يقف وسط الساحة بغير سند أو نصير، بل الأدهى من ذلك أن تشو عندما تدرك أن بلادكم قد أصبحت منبوذة على هذا النحو بين البلدان والممالك، فلن تكتفي بالامتناع عن تسليم الأراضي المُتفق عليها، بل ستتواطأ مع باقي الدويلات وتحيك المؤامرات الكفيلة بإسقاط هيبتكم؛ مما يُمثل خطرًا جسيمًا على بلادكم، وهكذا أرى أن تُطلقوا سراحي يا مولاي، وتفسحوا أمامي الطريق لي.» وهنا أصدر الملك قراره بفكِّ الحصار المفروض حول «جين لي» في أسرع وقت.

لمَّا أراد الملك أن يلتقي بواحدٍ من عامة الناس

أراد ملك تشين أن يلتقي بالرجل المُسمَّى «دونرو»، فأرسل له هذا الأخير من يُبلغ الملك بما نصه: «ليس في الإمكان أيها الملك العظيم، أن أؤدي لجلالتكم طقوس الانحناء والركوع لعرشكم الكريم، عند لقائي بكم، فاسمحوا لي بتجاوز هذا التكليف أو أن تتفضلوا بإعفائي من الحضور إليكم.» وردَّ الملك بالموافقة، فجاء الرجل للقائه، وقال له أثناء المقابلة: «اعلم يا مولاي أن الناس ثلاثة: أولهم آخِذ بالقلب دون القناع، وثانيهم آخِذ بالقناع دون القلب، وثالثهم لا قلب ولا قناع، فهل يعرف الملك دلالة هذا الرمز؟» فلما أنكر الملك فهم تلك الدلالة الغامضة، أجابه الرجل، قائلًا:

«إن الآخِذ بالقلب دون القناع، هو التاجر، ذلك أنه يجني المحصول الوفير ويملأ به المخازن دون أن يُعاني مشقة الزرع والحصاد، فهو الأوفر ربحًا بأقل جهد، والآخِذ بالقناع دون القلب، فذلك هو المزارع المسكين، الذي يكتوي بنار القيظ وبرد الزمهرير، ولا يملك سوى الفأس والمحراث، وربما لا يجِد ما يكفي من قوت يومه، أما الذي لا قلب له ولا قناع، فهو الملك ذو العرش والصولجان، الذي بيدِه تصريف شئون الناس والممالك دون أن تربطه بالمحكومين صلة ودٍّ حقيقية، وربما تكرَّم بالعطايا على مَحظياته، وأقطعهنَّ الإقطاعات الهائلة من الأراضي دون أن يعود عليه شيء من ذلك بالبر أو التراحُم أو السيرة العطرة والذكرى الطيبة.» واستشاط الملك غضبًا، ولاحظ الرجل ذلك، ولكنه راح يواصل كلامه بما نصه: «تعرف يا مولاي أن هناك ست دويلات تقع شرق جبال «شياو» ولا أظن

أن في مقدور جلالتكم تهديد تلك الدويلات الست مُجتمعة، لكنكم مع ذلك تُمارسون قدرًا لا بأس به من التهديد ضدَّ نساء القصر، وهو الموقف الذي لا أجِده في رأيي الشخصي مقبولًا.» وعندئذٍ سأله الملك: «وهل ترى أني قادر على ضم تلك الدويلات الست؟» فأجابه: «إذا تأمَّلنا حال دولة هان، وجدنا أنها تحتل موقعًا ذا قيمةٍ سياسية عالية، أما وي فهي واسطة العقد وصدْر الأرض (ذات موقع مركزي)، فليتَك يا مولاي تبذل لي قدرًا معلومًا من المال، وترسِل بي إلى هان ووي حتى أُناظر القوم هناك وأُقنعهم بالمجيء إلى تشين واللجوء إلى جنابك الأفخم، فلعلهم يستمعون إلى قولك ويتبعون خططك، فإذا تم هذا الأمر دانت لك كل الممالك وخضعت لسطانك.»، ورد عليه الملك قائلًا: «لكن خزانتي فقيرة، ولن تجد فيها المال الذي تظنُّه يكفيك.» فقال «دونرو»: «إن الحرب قدَر مقدور فوق الدول يا مولاي، فإذا ما قامت الحرب واتسع نطاقها، وامتدَّت فوق الآفاق قوات جيشك وفرسانك، كانت لك الغلبة، وصرتَ واحدًا من أباطرة الزمان، فعظُمتَ في كل عين، ودار بمدحك كل مادح، وجُلِبت لخزانتك القناطير المُقنطرة من الذهب والفضة.» وراقت الفكرة للملك، وأوفد دونرو إلى كلٍّ من وي، وهان، حيث دعا وزراءهما إلى زيارة تشين، ولم يكتفِ دونرو بهذا بل سافر شمالًا إلى دولتي (يان وجاو) للتناظُر مع وزرائها ومُجادلتهم وإقناعهم باتخاذ تشين حليفًا وسندًا متينًا، بل الأدهى من ذلك أنه راح يتحيَّل المكائد حتى استطاع أن يبذر الشقاق بين وزراء جاو، مما أدى في النهاية إلى اغتيال «ليمو» أحد أهم القادة العسكريين هناك، أما أعظم إنجاز له فكان ذهابه إلى حاكم تشي وإقناعه بالسفر إلى تشين في زيارة ودية يعلن بها عن ولائه وطاعته للعرش الحاكم، وهو الأمر الذي أقنع قادة وملوك كلٍّ من: يان، جاو، هان، وي، بالذهاب إلى تشين على إثر تلك الزيارة وكان ذلك كله دليلًا على ذكاء «دونرو» وقوة حجته وحُسن بيانه.

لمَّا كان العام العشرون من حكم الملك

لما كان العام العشرون من حكم الملك شينغ (حاكم تشو) قام القائد المظفر «باي تشي» بمهاجمة منطقة «شيلين»، بينما قامت فرقة أخرى من الجيش بغزو المناطق الثلاث التابعة لدولة تشو، وهي على التوالي: يان، تشنغ، إيلين، وقد تهدَّمت قبور أسلاف حاكم تشو أثناء الهجوم على تلك المناطق، وهنالك قام الملك «شينغ شيان» حاكم تشو بنقل عاصمة البلاد إلى موقع آخر ناحية الشمال الشرقي ثم أقام خطًّا دفاعيًّا قويًّا بمنطقة «تشن» ومع ذلك،

فقد ظهر جليًّا أن الضعف بدأ يسري في أوصال دولة تشو، وهو ما استنتجته تشين، وانتهزت الفرصة جيدًا حيث راح قائدها المُظفر «باي تشي» يدفع قواته لغزو تلك الدولة المُتهالكة القوى. وكان في دولة تشو، إبَّان ذلك العهد، رجل مُشتغل بالجدل والمناظرات الكلامية، شديد الفصاحة، قوي الحُجة والبيان، غزير المعرفة، كثير الأسفار خارج البلاد لكثرة ما يحتاج الملوك إلى قوة منطقه وحُججه في إقامة المناظرات. وعُرف هذا الرجل باسم «هوانشيه»، ومن ثم فلم يغِب عن بال ملك تشو تكليف الرجل بالعمل لصالح البلاد في تلك الأثناء. وبالفعل فقد أوفده على وجه السرعة إلى تشين، وهكذا فقد وجد الرجل نفسه وجهًا لوجهٍ مع حاكم تلك الدولة الكبرى، فشحذ قريحته واستلهم المعاني الجليلة، وراح يقول للحاكم ما نصُّه: «تعرف يا جلالة الملك أنه ليس بين الممالك جميعًا من يَحظى بالقوة والجاه والسلطان سوى دولتي تشين وتشو، وقد ذاع بين الناس الآن أن تشين تنوي مهاجمة تشو، بعد أن اتخذت العدة لذلك، فكأني باثنَين من أقوى النمور، يتقاتلان ولا يبرحان الساحة، وقد أنهكهما القتال فخارت قوتهما واستأسدت عليهما الكلاب والسباع الضالة، وصارت تُنازعهما القوة والمكانة، ولا أرى يا مولاي سوى أن يتصالح البلدان الكبيران، واسمح لي جلالتك بأن أشرح المعنى الكامن وراء هذا الاقتراح، ذلك بأني أرى أن الأمور إذا زادت عن حدِّها انقلبت ضدها، فتلك هي الحكمة في تَعاقُب الفصول، كما أن الأشياء إذا بلغت الذروة، وانحدرت ثانية إلى الوهاد، وكذلك الكومة المُتراصَّة من الأحجار، كلما ازدادت ارتفاعًا، وصارت على وشك الانهيار. وقد بلغني يا جلالة الملك أن مساحة بلدكم تكاد تبلغ وحدَها النصف من مجموع مساحات المَمالك التي فوق الأرض جميعًا، فإذا أُضيفت مساحة المناطق النائية في شمال غرب البلاد، وهي أكبر مساحة يُمكن أن يَحظى بها بلد من البلاد منذ أول العالم، صارت مَملكتك أعظم الممالك التي على ظهر الأرض، ومع ذلك فلم تستطع تشين، وعلى مدى ثلاثة عهود — أي منذ عهد الملك «دي وانغ» والملك «جوانغ»، بل وجلالتك شخصيًا — التوسع في رقعة الأراضي حتى تخوم دولة تشي، كما كنتم تأملون دائمًا، وهو ما جعلكم تنفضون أيديكم من ميثاق التحالف الرباعي، ثم إنكم يا مولاي أوفدتم وزيركم «شنغ تشياو» ثلاث مرات إلى هان لمساعدة تلك الدولة في الشئون الدفاعية، وهو ما جعل مُهمته في إخضاع دولة «يان» تحت سلطانكم أمرًا ميسورًا، بل إنكم حصلتم على مئات الأميال من أراضي دولتي يان وهان دون ممارسة أدنى قدْر من التهديد أو إشعال أضأل فتيلٍ للحرب، وهكذا أبديتم نموذجًا بديعًا في عبقرية القيادة الناجحة، وبعد ذلك قُمتم، جلالتكم، بإرسال حملات لضرب وي، واستطعتُم الاستيلاء

على عاصمة البلاد واحتلال منطقة «خني» وغزوتم مناطق: «يان»، «سون زونغ»،«شيو»، «تاورن»، وكان أن تساقطت أمامكم فلول قوات دولتي يان وهان كما تتساقط الأوراق الذابلة، وصارت تلك واحدة من مآثركم الكثيرة التي يذكرها التاريخ بالفخر والإعجاب، وبعد ذلك قُمتم بإصلاحاتٍ واسعة في الجيش، وأَعَدْتم بناء الكثير من الفرق والألوية، لكي تقوم بعد ذلك بالتحرك السريع، حيث استطعتم ضم عديد من المناطق، منها «بو»، «يان»، «شويوان»، ثم قامت قواتكم بحصار مدينتي «شياهوان»، و«جيانغ»، وهو ما أرغم دولة وي على الاستسلام والإذعان لكم، ثم إن جلالتكم قمتم بإقطاع الأراضي الواقعة شمال بوشوي ومنطقة «مو» إلى دولة يان، فكأنكم بهذا الصنيع قد أحنيتُم ظهر دولتي تشي وتشين، وقطعتم أوصال كلٍّ من وي وتشو، وهكذا فإن الدول والممالك الستة التي فوق الأرض لم تستطع أن تعيش في وئامٍ برغم أنها ارتبطت بأحلاف ومعاهدات مشتركة خمس مرات. واعلم يا مولاي، أنك مُهاب وسط الممالك، وأن الكل يخشى غضبتك، ويعمل ألف حساب لمكانتك ووزنك وقدرك العظيم بين الأمم، ويكفيك فخرًا أنك ملك الملوك وتاج الأباطرة، وأن رقاب الناس تخضع لك، فماذا لو اكتفيتَ بذلك، وكففتَ يد الحرب عن الممالك، ونزعت الخوف من القلوب، واتبعت سبيل العدل والرحمة بين المَحكومين، وأزلتَ من صدور الناس رعبًا جاثمًا، وسطرت في صفحات التاريخ اسمًا رابعًا يخلد بجوار أسماء الحكماء الثلاثة (المشهورين بالعدل والحكمة في تاريخ الصين القديم) وأرسيتَ في سجل المجد قاعدةً خامسة يتأسَّس عليها سلطانك، ويدوم طويلًا مثلما دامت قبلك عهود الأباطرة الأربعة الذين خلَّد ذكراهم التاريخ.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

«فإذا ما صمَّمت على تمزيق أوصال دولة وي، على هذا النحو الذي يمسُّ هيبتها أمام الجميع، مُستخدمًا في ذلك كل ما تحت يدَيك من قدرات عسكرية ودعمٍ شعبي واسع، فلتسمح لي بأن أقول: إن النتائج المُتوقعة تحمل في طياتها الكثير من أسباب القلق، وقد جاء في كتاب الشعر القديم ما نصُّه:

«كل الخطوات الأولى،
تمضي للأمام في ثقة،

لكنها ... دومًا،
الخطوات الأخيرة،
هي التي،
قبيل خاتمة المطاف،
تتعثر ...»
وجاء في كتاب «التغيُّرات» أيضًا ما نصه:
«لئن كانت الثعالب تمرق عبر النهر برءوس
مرفوعة طافية، فهي تخرج إلى الشطآن
بذيول مُتدلِّية مُنكسة، وقد بللتْها
المياه وقصفت أهدابها دوَّامات النهر العابثة».»

وذلك يا جلالة الملك، لأن بدايات الأمور دائمًا ما تكون سهلة يسيرة، أما خواتمها فهي التي تشوبها الصعوبات، والشاهد على ذلك أن التاريخ يحكي لنا أن الملك «جيبو» كان مدفوعًا في حربه ضد دولة «جاو» بالدوافع الواعدة بالفوز، دون أن يعمل حسابًا للمخاطر التي كانت تكمُن له في منعرجات الطريق، وكذلك، لم يكن يشغل بال الملك «فوتشاي» (حاكم دولة «أو») سوى النتائج الإيجابية التي يمكن أن يحصل عليها عند غزوه لدولة تشي، وكانت النتيجة أنه لقِي هزيمة نكراء في موقعة «كانسوي»، ومع أن هاتَين الدولتَين كانتا من الممالك ذات المكانة المرموقة التي تأسَّست على رصيد هائل من الانتصارات الباهرة، إلا أنهما مُنِيتا في آخر المطاف بهزائم وانكساراتٍ مشينة. وبسبب الثقة الزائدة التي أولاها حاكم «أو» لدولة «يو» فقد تشجع وقام بحملة تأديبية ضد دولة تشي، وبالفعل تحقَّق له النصر على قوات تلك الأخيرة في موقعة «إيلنغ» إلا أنه وقع في مكيدة نصبها له حاكم يو فسقط في أحابيل هذا الماكر وهو في طريق عودته مارًّا بشاطئ سانجيان، فقبض عليه وقتله شر قتلة.

وكذلك فقد حدث يومًا أن الملك «جي بو ياو» قد ذهب في حملة عسكرية كبرى ضد دولة جاو مُعتمدًا على دعم ومساندة كلٍّ من وي وهان، ثم إن الدول الثلاث تكاتفت وقامت بضرب مدينة «جين يانغ» وصار النصر قاب قوسين أو أدنى، إلا أن الملك «جى بو ياو» لم يكن يعلم ما يُضمره له حلفاؤه الذين انقلبوا عليه، وقلبوا له ظهر المجن، وقتلوه غدرًا في منطقة «تزوتاي»، ولئن تحركت في نفسك اليوم نوازع الكراهية ضد تشو التي كنت تأمُل في إفنائها فها هي باقية على الدهر؛ لأنه قد غاب عنك أن في هلاك تشو قوة مضاعفة

لـ «وي»، ومن ثم لا أرى داعيًا أن تثقل قلبك بأية كراهية أو ضغينة نحو تلك المملكة، ودعني أذكرك بما ورد في «كتاب الشعر القديم» في هذا الشأن حيث قيل:

«لا تدرك الخطوات
مُنتهى الطريق
بوثبة قدمٍ واحدة.
لا تُدرك الخطوات آخر الطريق،
مهما اتسعت الهمم،
وانطوت تحت الخطو
آفاق المدى البعيد …»

والإشارة واضحة في هذا السياق تتمثَّل فيما أود أن ألفت نظر جلالتك إليه من أن تشو ليست إلا مجرد الساعد الأيمن لجارتك اللدود، وأنتم تعرفون قصدي من هذا، وقد ورد في كتاب الشعر القديم أيضًا ما نصُّه:

«ستتجلَّى لأبصارنا
خبائث النوايا،
وخفايا الصدور.
مِثلما تقع الطريدة الماكرة
في حبائل الفخ المُتربص …»

أقول هذا، وأراك قد أصبحت، يا جلالة الملك، أكثر ميلًا لتصديق فكرة قيام علاقات ودِّية بينك وبين دولتي هان ووي، وهو ما يبدو خياليًّا تمامًا وبعيدًا عن التحقيق، كفكرة قيام علاقات ودِّية بين كلٍّ من حاكم دولة «أو» وملك «يو».

وقد قيل قديمًا في الأمثال: «إنه ليس من الحكمة التهوين من شأن الأعداء، كما أنه ليس من المُستصوَب إهدار الفرصة السانحة.» وأخشى أن يكون وراء مسوح الطيبة والتواضع الذي تُبديه كلٌّ من وي وهان، شيطان رجيم يتحيَّل المكائد للإيقاع بدولة تشين، والسبب في ذلك — بالطبع — هو ذلك التاريخ الطويل من المشاحنات المتبادلة بين جلالتكم وهذين البلدَين، حتى لم يبقَ بيت واحد في يو وهان إلا وقد صَبَّت عليه تشين لعنة كراهيتها، وقد طال العهد بينكما على هذه الحال، وامتدَّت الثارات عشرات السنين، حتى حلَّ الخراب

بالبلاد ووقعت بالناس صنوف البلاء، فتهدَّمت المعابد وتساقطت الأجساد بين قتيلٍ وجريح وانتثرت العظام والجماجم في البراري والقِفار، وسيق العجائز والأطفال في طوابير الأسرى وأيديهم مُكبلة بالأغلال، وصارت بطون الإنس والوحش خالية، تبيت على الطوى، وتَفرَّق شمل الأسر والعشائر، إذ تشرد أبناؤها في الآفاق، بين طريدٍ يتلمس المأوى أو بائس قد وقع في الرق، وبعد أن تكدَّرت الأحوال وانقلبت إلى أسوأ مآل. ومن هذا كله نخلص إلى نتيجة مؤدَّاها أنه لا خلاص لدولة تشين إلا بالقضاء التام على كلٍّ من وي، وهان، ففي بقاء هاتَين الدولتَين خطر يتهدد، وشقاء لا يتبدَّد، وأرى كذلك أن من خطل الرأي الإقدام على مهاجمة تشو الآن، فتلك سياسة خرقاء؛ لأن قواتكم المهاجمة لن تجد طريقًا تتقدَّم عليه لملاقاة العدو إلا إذا استأذنت جارتَيها اللدودتَين — وي، وهان — في السماح بالمرور من أراضيهما، فهل ستتقدَّم جلالتكم بمثل هذا الطلب إليهما؟ وهبْ أن جلالتكم أصدرتم أوامركم للقوات بالتقدُّم للهجوم، ثم تعذَّر إيجاد مخرج ملائم أو طريق مناسب لعودة القوات في حال انسحابها، أما تكون بذلك قد أوقعتَ بجيشك في براثن عدوتَيك المذكورتَين وأهديتَهما صيدًا ثمينًا ما كانتا تحلُمان بالحصول عليه بكل سهولة؟ وحتى إذا تراجعتَ عن فكرة استئذان وي، وهان، خصمَيك اللدودَين، في السماح لقواتك بالعبور خلال أراضيهما، فلن تجد بديلًا سوى احتلال كلٍّ من بلدتي «سويانغ» و«يوارنغ» (بدولة تشو)، ولما كانت تضاريس تِلكما البلدتَين لا تزيد عن مجرد تكوينات نهرية وأخاديد عميقة بين أوديةٍ ترتفع فوقها غابات كثيفة متلاصقة، فإن احتلالهما لن يعود عليك بنفع كبير، ثم إن مثل هذه الخطوة ستُضيف لمساتٍ إيجابية ومقبولة لوجه تشو القبيح وتحسن من ملامحه كثيرًا، في حين أنها لن تضيف مكاسب ذات قيمة لجلالتك، أضف إلى ذلك أن قيامكم بمهاجمة تشو سيُعجل بتكتيل الدول الأربع: هان، جاو، وي، تشي، ضدكم مما يعني قيامهم بمباغتتكم، وعندئذٍ ستتحالف كلٌّ من تشين وتشو في حلفٍ لا تنفصِم عُراه، وفي الوقت نفسه، ستقوم وي بمهاجمة المناطق التالية: ليوي، وفانغ يو، ودجي، هولين، داندي، شياودي، (كلها تقع بدولة سونغ)، وهو ما سينجم عنه ضياع كل ما غنمته سابقًا من أراضٍ في دولة سونغ، هذا بينما تتقدم قوات تشي ناحية الجنوب؛ لتحتل المنطقة الواقعة شمالي نهر «سيشوي» حيث يتميز الموقع هناك بتوسطه بين طُرق مواصلات وانبساط رقعة أرضه وخصوبة تُربته، وهكذا، فإن مدَّ سيطرتكم على تشو، سيؤدي بالطبع وعلى غير ما تشتهي، إلى دفع الدماء في شرايين دولتَي وي وهان، ودعم قدرات دولة تشي، حتى إذا توفرت أسباب القوة لكلٍّ من وي وهان، صارت كلتاهما تناوئان تشين القوة والنفوذ والمكانة، أما دولة تشي، وقد

صارت حدودهما تمتد جنوبًا حتى شاطئ نهر سيشوي، وتتحصَّن شرقًا بشاطئ البحر، وشمالًا إلى النهر الأصفر، فستنظر إلى المستقبل بعين الثقة والطمأنينة، ولا سيما بعد أن أصبحت أقوى دولة بين الممالك.

ثم إن دولتي وي وتشي، وبعد استيلائهما على مساحات هائلة من أراضي الغير قد صارتا تضعان أيديهما على مكاسب ملموسة، ولن تُبديا لـ «تشين» سوى مظاهر ودٍّ مزعومة، فما إن يمر عام واحد حتى تملكا القدرة على منازعة حاكم تشين مكانته وزعامته ولقبه الإمبراطوري، وربما لن تبلُغا حدَّ تنصيب ملكيهما على عرش إمبراطورية كبرى، لكنهما ستسعيان لمزاحمة تشين سيادتها ومجدها. ومن السهل على جلالتكم — بالطبع — أن تقوموا بدفع قواتكم المُحاربة للقتال، اعتمادًا على عناصر القوة المتمثلة في ضخامة مساحة البلاد، ووفرة السكان، واللياقة العسكرية والاستعداد القتالي الجيد، ولكن أمرًا كهذا سيؤجج العداوة والبغضاء بينكم وبين تشو، وهو ما لن تسكت عليه كلٌّ من وي وهان، بل ستعملان بكل جهدهما لإعادة اللقب الإمبراطوري إلى تشي، وينصبانها مملكة فوق الممالك، وإمبراطورية ذات عروش وتيجان، سيكون ذلك كله، لو حدث، دليلًا على فشل خططكم وسياساتكم، وقد تأمَّلت تلك الأمور مليًّا، ورأيت من الأفضل أن تقيم علاقات ودية مع دولة تشو، ثم تقيم من هذه العلاقة الودية جسرًا تقترب به حثيثًا من دولة هان التي ستجدها عندئذٍ، طوع بنانك، ولمَّا كنتَ تقبض بيدِك القوية على أهم أرض (ذات قيمة وأهمية حيوية) في ولاية شاندونغ، وتضع اليد الأخرى على (شبكة) من القنوات والأنهار، فستُرهف هان آذانها وتتلصَّص بعيونها صوب منطقة السهول الوسطى، وساعتئذٍ ستقوم جلالتك بدفع حامية قوامها مائة ألف جندي لتتمركز في مدينة «شنغدي»»، ثم إن دولة وي ستقع في إسار الفزع والرعب (بتأثير الظروف المُحيطة)، بل ستتراجع الكثير من الدويلات والمُقاطعات مثل: شيو، ويان لين، وإينغ شانساني، وجاولين عن سابق علاقاتها ومبادلاتها معها، مما سيفرض عليها مراقبة الأوضاع في المناطق الداخلية باهتمامٍ بالغ، والشيء المؤكد هو أن توطيد العلاقات الطيبة بينك وبين تشو سيدفع أمراء الدويلات في المناطق الداخلية إلى التسليم لك والإذعان لسلطاتك، ولمَّا كانت حدود تشين ستقترب لتتماسَّ مباشرة مع تخوم دولة تشي فستصير منطقة «يورانغ» الواقعة غرب تشي أقرب ما تكون من حدود بلادك، مما يؤذن بسقوطها في يدك، وهذا معناه أنه سيطلع عليك نهار تجد فيه مملكتك سيدة الممالك، وقد امتدَّت أرضك من البحر الغربي إلى البحر الشرقي، بكل ما تتخلَّله تلك المسافة من الدويلات وولايات وإمارات، وتبعًا لهذا فستنقطع كل صلة كانت قائمة بين كلٍّ

من دولتي: يان، وجاو، وهو ما يعني فقدان هيمنتها على تشو، وتشي، بل ستنكصان على عقبيهما وتصيران إلى الخضوع والمذلة، بعد أن تجد كلًّا من تشو وتشي قد بلغتا مزيد القوة والنفوذ بفضل دعمك ومساندتك لهما، وفي نهاية المطاف فستجد أولئك الأربعة جميعهم قد خضعوا تحت راية مجدك، وقد تحققوا من قُدرتك على سحقِهم بحشودك الزاحفة.

لمَّا ذهب مبعوث إلى ملك تشين

ذهب رجل إلى ملك تشين ليتكلَّم معه فيما يتعلق بالدول الستِّ قائلًا لجلالته: «قد تتسع مساحة البلاد دون أن يتحقَّق لها الأمن المنشود، ولربما زاد عدد السكان أضعافًا مضاعفة، دون أن تُزاد، بالمقابلة، مساحة ومكانة الأوطان، فإذا قُلنا إن زيادة المساحة تضمن الأمن، وكثرة السكان تكفل القوة والزعامة فيَجِب أن نُسلم بأنه كان من اللازم أن يظلَّ أحفاد الطغاة الجبابرة، من أمثال «جيه» (آخِر أباطرة أُسرة «شيا»)، «تشو» (أسرة «شانغ» الملكية القديمة) قائمين على الحكم حتى آخِر الزمان.

ولقد قامت، فيما سلف من الزمان، أمم قوية، منها على سبيل المثال، دولة جاو التي بلغت في القوة مبلغًا لا مزيد عليه، وإن سألتني إلى أي حدٍّ بلغَتْ في هذا المضمار، فسأقول لك إنها كانت لتكاد تدفع بقواتها صوبَ الشرق، فتدك دولة تشي وتجعل عالِيَها سافلها، أما إذا تحركت ناحية الغرب، فما كانت تضع السلاح حتى تكون قد أسكتت كل ناطقٍ في دولة وي، وهكذا كانت تملك جاو أن تُخضع دولتَين كبيرتَين ذواتَي عدة وعتاد (عشرة آلاف عربة — حرفيًّا! —) بل تحتل أيضًا دولة أخرى ليست أقل قوة، مثل دولة تسونغ، وتلا ذلك من الأحداث أن أنشئت مدينة «كانبين»، ثم لم يكد يمرُّ زمان بعد ذلك حتى فقدت دولة «ويه» قطاعًا كاملًا من أراضيها الشرقية، وتعذَّر على الأهالي الرعي وجمع الحطب في تلك المنطقة وما جاورها، وصاروا يَحذرون حتى مجرد التطلُّع بعيونهم إليها، وتأزَّمت الأحوال في دولة «ويه» حتى صارت الأمور تبدو وكأنها تتدافع نحو كارثة، أو كما يقول القائل إنه: «قد تراكم البيض في كومة كبيرة على رأس دولة ويه حتى أوشك الرأس أن يتحطم وينهار بما تكدَّس فوقَه.» وصار المخططون السياسيون يضعون الخطط ويتشاورون فيما بينهم، ويقول قائلهم إنه: «يجب عمل الترتيبات اللازمة للاستنجاد بملك جاو، والإسراع بحمل الهدايا إليه والركوع عند أعتاب قصره القائم بمدينة «هاندان».» وفي تلك الأثناء كان كل الأمراء الذين اجتمعوا على الكيد لقصر هاندان قد أصدروا أوامرهم في المساء بالبدء فورًا فيما عقدوا عليه عزمَهم، فما إن أصبح الصباح حتى بادروا إلى التحرُّك حسب خُطتهم

المرسومة، إلا أن دولة وي هي التي استطاعت آخر الأمر أن تنقضَّ على «هاندان» وتفعل بها الأفاعيل، فلمَّا تم لها ما أرادت من تلك الغزوة، وانسحبت عائدة بقواتها، ومرَّت في طريقها ببلدة «فنزي» فاجتمع هنالك ملك وي مع رجاله، ثم قام وركب عربة حربية، وأعلن نفسه حاكمًا للمنطقة الوسطى من البلاد، وأمر بالنداء على الأمراء فاجتمع لديه اثنا عشر أميرًا من أمراء الإقطاعيات والدويلات، فذهب على رأسهم لإعلان الولاء والطاعة للإمبراطور الأعظم «ابن السماء» وهم خلفه، يتبعونه كظلِّه. فلمَّا بلغ ذلك الخبر أسماع حاكم تشي، ثار وتوعَّد، وأصدر أمرًا إلى قواته بمهاجمة وي، فما لبث حتى زحفت إليها وأوقعت بها هزيمة نكراء ومزقت أوصالها شر ممزق، وباتت وي على شفا جرف، تكاد تُودِي بها المخاطر، وما لبث ملك وي أن بادر إلى السلم، وقام وسار بنفسه على رأس موكبٍ كبير يحمل النفائس والمجوهرات الكريمة قاصدًا بلاط ملك تشي، فما إن بلغ أعتاب القصر الكبير، حتى ركع هناك في ذلٍّ وخضوع راجيًا الملك أن يجعله من حاشيته ويتَّخِذه مساعدًا للبلاط الملكي في منصب وزير، وساعتئذٍ انفض الناس من حول وي وازورَّت عنها العيون، ووصلت الأنباء إلى حاكم تشو بأن دولة تشي قد نابذت وي الحرب وكسرت هيبتها، فما إن سمع جلالته بذلك حتى وجم وأصابه الكرب العظيم فهجر النومُ مُقلتَيه، وتكدَّرت أحواله، فقام على رأس كتائب من مواطنيه الذين جندوا أنفسهم وبذلوا جهدهم لخدمته، فصحبهم وذهب لملاقاة قائدِ قوات تشي المُلقب بـ «شن فو» وكانت الموقعة بينهما في منطقة تسمَّى «شيسوي»، وحاقت الهزيمة بالقائد شن فو، فلمَّا وصلت أنباء نشوب المعارك بين تشي، وتشو إلى دولة جاو، سارعت هذه على الفور بإرسال قواتها إلى منطقة «جيسانغ»، وكذلك أيضًا لمَّا سمعت دولة «يان» بتلك الأنباء، فقد دفعت حشودها على الفور تجاه منطقة «كيدوا». وبوصول الحشود إلى تلك المنطقة تحولت إلى قلعةٍ حصينة في وجه أية قوات تُفكر في مواجهتها، وصارت أشبه بطريقٍ مسدود أمام أية محاولة للعبور، واتفقت الدول الثلاث: تشو، جاو، يان جميعًا، على قطع العلاقات مع دولة تشي، وهو ما أوقع تلك الأخيرة في عددٍ من الانكسارات العسكرية، فتحطَّمت قوتها الضاربة وفشلت خططها القتالية، فلم تجد سوى أن ترسل مبعوثًا برسالةٍ سرية إلى قواتها على الجبهة تطلُب إليها التوقف عن القتال والانسحاب في أسرع وقتٍ ممكن، ثم إنها أرسلت إلى دولة تشو الواقعة جنوبي حدودها بما يُفيد الاعتذار الرسمي للبلاط الحاكم وللشعب كذلك، ثم أرسلت إلى دولة جاو الواقعة إلى الغرب تستميلها وتتودَّد إليها، وكذلك فعلت مع دولة يان في الجهة الشمالية، بل صارحت مواطنيها أيضًا بمَساعيها السلمية تلك، وأذاعت ما يتَّصل بهذه النقطة من أنباء، وحينئذٍ

تَوارى السيف الذي سلَّطته الدول فوق رأسها، وعادت النصال المشرعة إلى إخمادها، إذ قررت باقي الدول والإمارات أن تفكَّ الحصار الذي ضربته حول تشي. وكان مجرى الزمان الواسع الكبير يشهد تلاحُق الأحداث وتدافُع الوقائع، حتى تراكمت حصوات الرمل الضئيلة تِلالًا هائلة من أحجار، وصارت الخيوط الدقيقة حِبالًا وثيقة تشد موكب الأحداث، ذلك أنه لم يمضِ وقت طويل حتى كانت الدويلات تستخدِم نفس الأساليب القديمة، لكنها — هذه المرة — كانت تستخدِمُها من وراء الجدران، بواسطة المَحظيات والجواري، وجرى التخطيط لألوانٍ من الحيل والمكائد ضد حاكم تشو، فهل كان ذلك معناه أن السياسة التي اتبعها جلالة ملك تشو اتسمت بالميل تجاه الجوانب السلبية الفاسدة، أو أن الأوضاع التي أحاطت بتصوراته وخططه السياسية كانت مليئة بالفوضى والعبث مما أوحى للدويلات والإمارات أن تنقلب عليه وتسلط السلاح على رقبته؟! كلَّا، بل كانت دولة تشو من القوة بحيث صارت تُمثل تهديدًا ملموسًا لباقي الدويلات، وهكذا فلم تدَّخر تلك الأخيرة وسعًا في إعداد العدة للانقضاض عليها.»

سجل تشين الخامس

لمَّا ذهب مبعوث إلى ملك تشين

ذهب مبعوث إلى جلالة الملك «أو» حاكم تشين، وقال له: «لا أدري يا مولاي لماذا تُسيطر عليَّ الظنون بأن جلالتكم تُبطنون ازدراءً خفيًّا لكلٍّ من تشي وتشو، وتنظرون إلى دولة هان نظرتكم إلى الدواب الجاهلة التي لا تكاد تفقَه شيئًا. أما عرفتَ أن الحكيم من لا يغترُّ بالنصر، وأن القوي من لا يجزع إذا أعوزته الوسيلة، فالتواضُع مع النصر يستطيع أن يملك بالحجة أعناق الناس جميعًا، والثبات مع فقدان الوسيلة يمنح المرء طاقةً هائلة على أن يُخضع تحت سلطانه كل ممالك الأرض، ولئن كنتَ جلالتكم قد توخَّيتم سياسةً ودِّية كريمة مع كلٍّ من وي وجاو، فإنكم ما أبقيتم للودِّ طريقًا مع تشي ووقع الجفاء بينكما على إثر ما شمخت به أنوفكم من عزة وفخار بالنصر على أيديكم في موقعة «إيانغ» حتى أهملت ما كان قائمًا من علاقات طيبة مع دولة تشو. وقد جاشت نفوسكم منها بُغضًا وكراهية، ولطالما كان الغرور خسرانًا، والبغضاء قعودًا عن بلوغ أشرف الغايات في مسيرة الدول والممالك العظمى، ولتسمح لي جلالتكم بالقول بأن مثل هذا المسلك لا يليق بفخامتكم، وقد جاء في «كتاب الشعر القديم» ما معناه:

«الكل يعرف كيف يبدأ
بدايات طيبة،
لكنَّ قلِيلِين جدًّا هم الذين
يسلكون طريق الخير،
من البدء إلى المُنتهى ...»

فمن ثم كان الملوك الأقدمون يَعُدون هذا المبدأ من أهم الأسس التي ينبغي اتباعها في حكم الممالك، وكانوا هم أنفسهم خير مثال للحِرص على النجاح والسداد في مُفتتح أعمالهم وخواتيمها، ولكي نُدرك مغزى هذا المبدأ، فلا بد أن نتناول جانبًا من الأمثلة التاريخية (التي تؤكد صحة ما ذهبت إليه)، ذلك أن «جيبو ياو» كان قد قام، فيما سلف من الزمان، بالقضاء على خصمَيه، «فان جيسن»، و«جونشين»، وتقدم بقواته لحصار بلدة جين يانغ، لكنه مُنِي بهزيمة مخزية، مما جعله موضع سخرية واستهزاء الدول الثلاث: هان، جاو، وي؛ وكاد حاكم دولة «أو» — أثناء زحفه الكبير على تشي — أن يُرغم حاكم «يو» على الابتعاد عن طريقه والفرار إلى تلال «جيشان»، وكان قد انتصر على تشي في موقعة «آيلين»، لكن الأمر المؤسِف هو أنه أصدر تصريحاتٍ عدائية ضد دولة سونغ، أثناء تجميع حشوده في منطقة «هوانشي»، مما أوقع به في أسوأ عاقبة، حتى أنه سقط أسيرًا في يد حاكم «يو» فقتله شر قتلةٍ بمدينة «كانسوي». (وفي مثالٍ آخر) قام الملك «ليانغ هوي» باقتحام أراضي دولة تشو فأوقعها تحت سيطرته ونفذ منها إلى دولة تشي، فقاتل قتالًا شديدًا انتهى بانتصاره، بل تمكن من هزيمة قوات «جاو»، و«هان»، فلما استتب له الأمر، لم يتوانَ عن أن يقود أمراء الدويلات الاثنتي عشرة إلى القصر الإمبراطوري، حيث قاموا بتقديم فروض الولاء للإمبراطور الأعظم ابن السماء (ثم إن كل ما قام به من إنجازات لم تشفع له عندما دبروا له مكيدة) وكان أن اغتِيل ولده غدرًا، بل قد شهد نهايته هو نفسه بعينَي رأسه، عندما اقتادوه وعلى رأسه عمامة (طرطور) إلى محبسه الذي اعتُقل فيه بدولة تشين فهؤلاء الثلاثة: جيبو — فوتشاي — ليانغ هوي — وبرغم ما بذلوا من تفانٍ أو قدموا من تضحيات ومآثر جليلة — لم يسلموا من الوقوع في حبائل ذلك القدر المأساوي والتقدير المعيب الذي قادهم من بدايات طيبة إلى نهايات دامية ومؤسِفة.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

«وها أنت اليوم جلالة الملك، وقد ضربت قلاع مدينة «إيانغ» وخربت حصونها، واستوليتَ على منطقة سانشوان، فأسقطت عرش دولتي جو الغربية والشرقية (وكانت سياستك في هذه الأمور كلها مُوفقة، على درجة من العبقرية والذكاء!) ولم يختلف على نبوغك في هذا الأمر اثنان، (ولم يجد الحكماء النابهون ما يأخذونه عليك)، والآن فقد أصبحت مقاليد السلطة والسطوة على الدويلات جميعها تقع في يدِ دولة تشين التي سارعت إلى تغيير المَعالم الحدودية لكلٍّ من جو الشرقية والغربية، وصارت باقي الإمارات والدويلات تخشى

مجرد الاقتراب من السور الذي يفصل بين حدودها وتلكم الدولتَين، ولم تكتفِ تشين بذلك، بل مدَّت نفوذها وسلطانها فوق منطقة «هوانجي» مما عرقل تقدُّم قوات كلٍّ من تشو، وهان، وهكذا (وفي ظل الأوضاع الحالية) فإني أرى أنك لو واصلت خطتك إلى النهاية، يا مولاي، فستُضيف مأساة رابعة جديدة إلى المآسي الثلاث السابقة (فتضع — بذلك — رقمًا جديدًا في خانة الملوك الثلاثة التعساء، واسمًا جديدًا في قائمة الجبابرة الخمسة)، أما إذا بدا لجلالتك الوقوف عند هذا الحد، لتعذَّر إكمال الشوط إلى مُنتهاه، فستجلب على نفسك وعلى بلادك مخاطر وويلاتٍ لا يعلم أحد مداها، ولشدَّ ما أخشى أن ينظر إليك فقهاء الدويلات (الدارسون المُتخصصون في الشئون السياسية) نظرتهم إلى جيبو وفوتشاي (حاكم دولة «أو») أو يظن الناس أنك تترسم خُطى أولئك الحكام الذين اشتُهروا عبر التاريخ بعاجل الانتصار وآجل الهزيمة والانكسار، مما يودي بالأوطان والمواطنين ويُورِد مصائرهم موارد الهلاك. وقد جاء في كتاب «الشعر القديم» ما معناه:

«إن أشق الخطوات جميعًا،
هي التي يقطعها السائر،
في الميل الأخير من مسيرة المائة ميل …»

[حرفيًّا: ما قضيت — حين قضيتَ تسعين ميلًا من طريق المائة ميل — سوى نصف الطريق!]

والمعنى هنا يُشير بوضوح إلى أن آخر الشوط هو أصعب الأشواط جميعًا، ومع ذلك فإن جلالتك تسلك طريقًا وعرًا وها أنت تزهو وتمتلئ ثقة، ولمَّا تكَدْ تمشي سوى خطواتٍ قليلة. ولو سألتني عما أشعر به الآن وأتوقَّعه لقلتُ لجلالتكم إني أميل إلى تصوُّر الأوضاع القائمة بين الممالك والدويلات على النحو التالي: إن كل الدويلات تسيطر عليها فكرة واحدة مؤداها أن كارثة حربية لا بد ستُصيب واحدة من اثنتَين: إما دولة تشو، أو دولة تشين، أما المنطق الذي يكمن خلف هذا التصوُّر فبيانه أن ظواهر الموقف الحالي تُشير إلى أن دولة تشين تقوم بدعم لدولة هان في صراعها مع تشين، ولمَّا كانت القوة العسكرية لدى الدول الأربع هذه تشين، وي، وتشو، وهان متساوية ومتكافئة، فمن الصعب بل المُستحيل أن يتغلب أحد هذه الأطراف على الطرف الآخر، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن دولتي سونغ، وتشي، كانتا تقفان بعيدًا عن مساحات القتال وقد أظهرنا مؤخرًا استعدادهما للمشاركة في خوض هذا الصراع، ومن ثم، نصل إلى استنتاج بأن أول من يحصل على دعم

كلٍّ من سونغ وتشي، سيبادر إلى غزو تشين. وإذا افترضنا — مثلًا — إن كانت تشين هي أول من يحصل على دعم ومساندة سونغ وتشي؛ فستضعف كفة هان، وعندئذٍ يتهالك الجدار الذي كانت تستند إليه تشو، فتترنح وتسقط وتنهار قوتها الضاربة، أما إذا حدث العكس، وكانت تشو هي الطرف الفائز بدعم دولة تشي، فسيدب الضعف سريعًا في أوصال وي، وهو ما سيؤدي — بالتالي — إلى أن تقف تشين وحدَها مكتوفة الأيدي وعاجزة عن صد الهجوم المُحتمل، فتتحقق هزيمتها من دون شك. وهكذا، فالسير على هذا المنوال — وكما ذكرت لجلالتكم آنفًا — سيصِل بإحدى الدولتَين تشين أو تشو إلى حالٍ تُثير ازدراء وسخرية الأمم والممالك قاطبة.»

لمَّا احتدم الجدل بين ملك تشين وأحد المنظرين

احتدم الجدل بين ملك تشين و«جونشي» (أحد المنظرين المشهود لهم بالكفاءة في المناظرات السياسية) حول الكثير من المسائل المهمة، فلمَّا لم يستطع الملك أن يغلب الرجل بقوة الحُجة وساطع البرهان، استولى عليه الضيق وجاشت نفسه بالغضب بينما قام جونشي من مجلسه وخرج من أبواب القصر عائدًا إلى بيته، ولكنه أوفد إلى الملك من راح يُطيب خاطره ويُهدي ثائرته قائلًا: «لا عليك يا مولاي، فإنما كنتَ تجادل رجلًا عنيدَ الرأى، شكِس المزاج، لكنه طيِّب الحظ، إذ كان يُجادل العاقل الفطن، ويُحاور النابِه الذكي العقل والفؤاد، أما لو كان القدَر ساقه لمناظرة الجبابرة الطغاة من أمثال «شياجي» (آخِر حكام أسرة «شيا») أو «شانجو» (آخر حُكام أسرة «شانغ»)، لكان من الهالكين!» وبالفعل فقد تأثر الملك بهذا التقدير، ولم يؤاخِذ جونشي بشيء.

لمَّا تحدث شيان تسي إلى الوزير الأعظم

تحدث «شيان تسي» إلى «كونسون» (الوزير الأعظم بدولة تشين) فقال: «أراك الآن قد نلت احترام وتقدير الجميع، وقد تفردت في ذلك دون سائر الوزراء ورجال الدولة، لما سطرته من فعالٍ جليلة وما أحرزته من تقدُّم ورفعة ونجاح، (فما من حربٍ خضتها إلا وأحرزتَ النصر المجيد) ومع ذلك، فلم تترقَّ إلى منصب رئيس الوزراء، ولعمري إنك لأفضل من يتولَّى مثل هذا المنصب، ولا أرى سببًا في حجب الترقية عنك سوى شيءٍ في نفس جلالة الملكة شياون (والدة ملك تشين)، إما لضغينةٍ تُضمرها لك أو بسبب نفور يجعلها تُعرض عن

التكرم بالفضل اللائق لمكانتك، ثم إنك أيضًا يجب أن تعرف أن «شين رونغ» — ذلك الرجل الهارب من دولة تشو، والمُقيم في جو الشرقية — قد صار الآن المُقرَّب من جلالتها، ولا أدري ما الذي يمنعك من أن تسعى لدى كلٍّ من دولتَي تشين وتشو أيضًا كي تُرتب له مؤهلات الترقِّي في منصب رئيس وزراء جو الشرقية، وهو الجميل الذي ستردُّه لك تشو بأحسن منه، وستظل تذكر لك هذا الصنيع بكل خير (إذ إنك ستكون قد أوصلت أحد مواطنيها — برغم أي شيءٍ يمكن أن يؤخَذ عليه — إلى هذا المنصب الرفيع) وعندما يُصبح «شين رونغ» رئيسًا لوزراء جو الشرقية بدعم ومساندة الدولتَين القويتَين، فإن جلالة الملكة الأم ستفتح لك ما كان مُغلقًا من أبواب رضاها عليك ومَحبتها لك، وهو الأمر الذي سيؤدي بك لبلوغ منصب رئيس وزراء تشين في المستقبل القريب.»

لمَّا عُقد التحالف بين تشين ووي

تم عقد التحالُف بين تشين ووي، وكان الفضل في ذلك يرجع للمساعي والجهود الطيبة التي بذلها السياسي المُحنك «لوه»، وفكر ملك وي في أن يثبت لدولة تشين حسن نواياه، فقرر أن يرسل إليها ولي عهده، بحيث يبقى مُقيمًا لدى بلاطها الحاكم، بوصفه (رهينة) أو وديعة لضمان استمرار العلاقات الطبيعية بين البلدَين، لكن الوزير الداهية «فنشيانغ» أراد أن يحُول دون تنفيذ هذه الفكرة، فذهب إلى الملكة الأم وقال لها: «تعلَمين أن العلاقات بين البلدَين ليست مُستقرة على النحو الكافي، بل قد يزول السلام وتقع بينهما الضغائن، لمجرد أن ترى إحداهما أن مصلحتها تتطلَّب العمل بمعزل عن الأخرى، وعندئذٍ تتحلَّل تشين من مواثيقها، وتُسقط مكانة ولي عهدنا المُقيم لديها، ويُصبح في نظرها أرذل من روث البهائم.» وهنالك أرسلت الملكة الأم في طلب جلالة الملك وأجلسته بين يدَيها وراحت تبكي بدموعٍ تفجرت في مقلتَيها جزعًا وإشفاقًا، ووقع الملك في حيرة من أمره حيال هذا الموضوع وداخَلَه الشك بخصوص إرسال ولده ضمانًا للسِّلم بين البلدَين المُحالفين.

وتصادف في تلك الأثناء أن كان «جاويان» موفدًا من قبل بلاط جو، في جولةٍ رسمية استطلاعية يزور خلالها عدة عواصم، فلمَّا نزل ضيفًا على ملك وي في عاصمة بلاده «داليان» والتقى بالسياسي الكبير «لوه» الذي أخبره بتردُّد الملك في إرسال ولي عهده إلى وي ... إلخ، وذهب المبعوث للقاء الملك، فابتدره بالسؤال عما وصل إلى عِلمه من أخبار وما يراه من تقديرات وتحليلات للأوضاع السائدة، فأجابه «جاويان» قائلًا: «بلغني أن دولة تشين تعتزم مهاجمة وي.» فقال له الملك: «لكني كنتُ قد حددتُ مع ملك تشين موعدًا لإرسال

ولي عهدنا للإقامة الدائمة لدَيه، ضمانًا لاستقرار الأوضاع بين بلدَينا!» فأجابه بقوله: «إن ملك تشين تُساوره الشكوك حول وفاء جلالتكم بالمواثيق والاتفاقات المُبرمة معه، وذلك بسبب ما بَدَا من تردُّدكم في إرسال ولي العهد للإقامة في تشين، وقد بلغَني ممَّن يعرفون خفايا الأمور هناك أن الملك — حاكم تشين — راح يتدبر أمره ويفكر بصوتٍ عالٍ وهو يقول: «إن وي لن تفي بعهدها معي، ولا بد أنها تستعد للهجوم علينا، فهل سأجلس هكذا مكتوف اليدين؟ كلَّا، بل سأُبادر إلى شن الهجوم عليها قبل أن تسعى هي لُملاقاتي.» أما الآن وقد استخدمت تشين نفوذها في إجراء مفاوضات التحالف على عكس ما تذهب إليه النوايا الأصلية، فأخشى أنها تُفكر في تحقيق أهدافها، لكن بطرق جانبية تبدأ بالالتفاف حول جو الشرقية.»

لمَّا كان التاجر ليو بوي يتجول

كان التاجر «ليو بوي» — أحد مواطني مدينة «بويانغ» — عاصمة دولة «ويه» يتجول في أنحاء «هاندان» عاصمة دولة جاو لأغراضٍ تتعلق بنشاطه في تجارة البضائع، ثم إنه التقى مصادفة بالأمير «إيرين» المُوفَد من قِبَل تشين إلى جاو بوصفه رهينةً لضمان استقرار السلام بين البلدَين، فلمَّا عاد ليو بوي من سفره، ذهب على الفور إلى والده وسأله: «كم ضعفًا تُغل الأرض المزروعة في موسم الحصاد؟» فأجابه: «عشرة أضعاف»، وسأله ليو بوي ثانية: «وكم ضِعفًا تربح التجارة في المجوهرات؟» أجابه: «مائة ضعف ويزيد.» وسأل الرجل أباه للمرة الثالثة: «وكم ضعفًا يربح التاجر الذي يستثمر رأس ماله في القيام على تنشئة سيد البلاد وحاكم الممالك؟» فرد عليه قائلًا: «يربح ما لا يُعَد ولا يُحصى.» فقال الرجل: «قد نظرتُ ورأيت الناس تزرع الأرض ثم لا تجد ما يسدُّ رمقَها، وتشقى شقاء السخرة، فتتعرى الأبدان وتحفى الأقدام وليس من خلاص، فظننتُ أني لو قمتُ على رعاية وتنشئة رجل فاضل، يؤسس لنا وطنًا كريمًا وبلدًا طيبًا، لربحتُ نعيمًا وسؤددًا وشرفًا تتوارثه الأجيال أبد الآبدين، بل إني عزمت على ذلك وسأشرع منذ اللحظة في التنفيذ.» وكان الأمير إيرين قد تحددت إقامته بوصفه رهينة لضمان الاستقرار — كما سبق ذكره — وتقرر أن يقيم بمدينة «لياو» من أعمال دولة جاو، فأما التاجر ليو بوي فإنه توجَّه إلى مقر إقامة الأمير وفي ذهنه خطة يريد لها النجاح، ومن ثم قال لسموِّه عندما التقى به: «أما عرفت أن أخاك الأمير «زيشي» (أخوه من الأم) قد تهيأت له أسباب القيام بأعباء الحكم بما توفَّر له من دربة وخبرة، وما حظي به من دعم الملكة الأم (أي جدة الإمبراطور) دون أن

يكون لك شيء من ذلك، بل لا تجد حولك سوى عدوٍّ يستريب أمرك، ذلك أنه لا تسلم العاقبة من اشتعال الفتنة بين تشين وجاو، فيسقط ميثاق السلام ويسقط معه كيانك واعتبارك كله، فاسمع مني واتبع قولي، لأني قد أعددتُ لك خطة سديدة وليس عليك إلا أن تطلب العودة إلى وطنك، وسأتولى أنا بنفسي تمكينك من السيطرة على زمام الحكم هناك، ولسوف أبدأ الآن في ترتيب الأمور التي تفي بنجاح هذا المسعى، وإني لذاهب فورًا إلى تشين، كي أقنع جلالة الملك بالعمل على إعادتك في أسرع وقت ممكن.»

وتوجَّه ليو بوي للقاء الأخ الأصغر للملكة الأم (النبيل «يانغ شوانجون») وتحدث معه بأمل إقناعة بخطته المرسومة قائلًا: «لقد أخطأت يا سيدي خطأ جسيمًا إذ آثرت نفسك بعددٍ هائل من المُساعدين الذين لا تقل مرتبة أدنى واحدٍ منهم عن أرفع درجة وظيفية، هذا بينما لا يجد أمير البلاد مثل هذه الميزة، فلا أعوان له ولا نصير، وليس له مثل خزائنك المُترعة بأثمن المجوهرات واللآلئ، ولا له ساحة قصرك المليئة بالجياد المُطهمة، ولا تملك يَمينه مثلك عشرات الجواري، وأنت تعرف تمام المعرفة أن جلالة الملك قد بلغ الآن من العمر عتيًّا، وقد تَحِينُ مَنيَّته في أي ساعة، وعندئذٍ سيتولى الأمير زمام الحكم وينهار حصنك الحصين مثلما تنهار أكوام البَيض المُتراكِم إذا ثقلت واختل كيانها، ويزول بهاؤك كما تزول سحابة عابرة، ولديَّ خطة لعلك توافِقني عليها، إذ تُبقي عليك مكانتك وتحفظ عزك ومجدك إلى آخر الدهر، وهي خطة ثابتة الأركان راسخة رسوخ الجبال الرواسي آمنة، تجلو عن صفحة آمالك كل شقاء وكدَر.» وعند هذا الحد من كلام ليو بوي، قام واقفًا يانغ شوانجون واتَّجه ناحيته ثم انحنى أمامه طالبًا إليه مزيد النصح والإرشاد، فواصَلَ الرجل كلامَه قائلًا: «لعلك تُلاحظ أن جلالة الملك قد شاخ وأزِفَت ساعة رحيله عن دُنيانا، وليس للملكة الأم أولاد ذكور يرِثون العرش الحاكم، وها هو ذا «زيشي» قد سيطر على كل سلطةٍ نافذة في البلاد يؤازِره في ذلك الوزير «سيشانغ» على أساس أن يجلس «زيشي» على العرش فور وفاة الملك، ويتولى «سيشانغ» إدارة الحكم، وهذا معناه أن يسقط كل اعتبار وهيبة لجناح الملكة الأم، وأن تغلق دونها الأبواب وتتحوَّل عنها الأعتاب، في حين تلقِي بالأمير إيرين — وهو الكريم الشريف — في غياهب دولة جاو رهينة لضمان سلام ضائع، يجلس هناك بين أربعة جدران، فلا مؤنس لوحشته، ولا مُفرِّج لكربه، لا يملك سوى أملِه في العودة إلى بلاده، ولئن صدقت الملكة الأم في زعمها بأنها كانت تتمنَّى أن يقوم جلالة الملك بتنصيب الأمير إيرين خلفًا له على عرش البلاد، فقد جاءتها الفرصة كي تردَّ البيت إلى صاحبه وتكسب — بالتبنِّي — ولدًا، تَقَرُّ به عينُها وتدفع به عنها عثرات المقادير.»

وهتف يانغ شانجون من فوره قائلًا: «صدقت، فهذا هو الرأي الصائب!» وذهب إلى غرفة الملكة حيث أشار عليها بما سمِعه، فأخذت بالمشورة وأسرعت تطلب من دولة جاو السماح للأمير إيرين بالعودة إلى وطنه.

وظل ليو بوي يسعى في إتمام خطته، فذهب إلى ملك جاو، والتقى به في قصره وراح يحثه على الإسراع بإعادة إيرين إلى بلاده قائلًا: «تعلم، جلالتك أن الأمير إيرين هو أحب الأبناء إلى قلب ملك تشين، وبرغم أنه يتيم الأم إلا أن جلالة الملكة — والدة حاكم تشين — تعدُّه كابنها، بل إنها تفكر الآن في استعادته كي تتبنَّاه رسميًّا، ولا بد أن جلالتك تعي جيدًا أن وجود الأمير على أرضك لن يمنع تشين من إعلان الحرب عليك إذا ما بدا لها ذلك، وساعتئذٍ لن يُجديك نفعًا وجود الأمير الرهينة بين يدَيك، لأنه سيُصبح رهانًا خاسرًا، أما إذا سمحت الآن بالعودة إلى بلاده مُعززًا مكرمًا، وأرسلت في إثره سفارة تحمل الهدايا الكريمة فستقرُّ عين الأمير ويترسخ في نفسه الشعور بالامتنان لدولة جاو، وربما يرد على الفضل في قادم الأيام بما هو أعظم وأكرم، وبما أن الملك قد تقدَّمت به السن كثيرًا واعتلَّت صحته، وأوشك على الاحتضار، فإن بقاء الأمير إيرين في دولة جاو لن يُفيد في شيء.»

وهكذا اقتنع حاكم جاو بهذا التصوُّر وأصدر أوامره بإعادة الأمير إلى بلاده.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

فلمَّا عاد إيرين إلى تشين (موطنه ومسقط رأسه)، استقبله «ليو بوي» بترحاب بالغ، وطلب إليه أن يرتدي الزي التقليدي الذي يرتديه مواطنو دولة تشو ثم يقصد إلى مقابلة جلالة الملكة الأم وهو في ردائه هذا، فما إن رأته الملكة حتى تهلَّلت أساريرها وغمرتها السعادة، وأدركت مدى ما يتمتع به الأمير من ذكاء ولياقة وحُسن تقدير وأدبٍ جم، فابتدرته قائلة: «لم أكن أدري أنك تعرف أن تشو هي مسقط رأسي وموطني الأول!» وأصدرت جلالتها قرارًا بأن تتم معاملة الأمير كواحدٍ من أبنائها، ومنحته بهذا الاعتبار اسمًا جديدًا هو «تشو»، فلمَّا مثلَ بين يدي جلالة الملك الأعظم، حاكم تشين، أراد أن يختبر سعة اطلاعه، فطلب إليه أن يقرأ له شيئًا من الكتب المقدسة القديمة، فتردَّد الأمير قليلًا وأجابه: «قد قضيتُ صباي مرتحلًا شريدًا في الآفاق، دون أن يقرَّ لي قرار، فلم أتمكن من المواظبة على الدرس والتعلُّم، ولم يكن لي من أتلقَّى على يدَيه العلم، فلم تتهيَّأ لي فرصة مُطالعة الكُتب المقدسة.» وهنالك تحول عنه الملك وانصرف إلى باقي شئونه، لكن الأمير ظلَّ واقفًا مكانه، لا يبرحه، وبعد فترة من الوقت تحدث ثانية إلى الملك قائلًا: «لم أكن أنا وحدي الذي قضى

شطرًا من حياته في بلاد جاو، بل إنك أنت يا مولاي كنت قد مررتَ في طريق ترحالك بتلك البلاد، وتعرفتَ فيها على أحسن الرجال ممن لا يزالون يعرفون قدْرك ومكانتك، وبرغم أنك عدتَ إلى موطنك، فإنهم ما زالوا يذكرونك هناك، بل يتطلَّعون إلى أن تشملهم بعنايتك، لكنك أغضيتَ عنهم ولم تشأ أن تُرسل إليهم سفارة من ذوي ثقتك يُكلمونهم ويُوطِّدون صِلتهم بك، وهكذا، نشطت مكامن القلق والوساوس في أعماق نفوسهم، وإن شئتَ أن أقترح عليك شيئًا في هذا الصدد، فإني أرى أن تقوم بتشديد المُراقَبة على نقاط التفتيش بين البلدَين وزيادة الانتباه والحذَر.» وتأمَّل الملك كلام الأمير، فوجده مُتسقًا مع منطق الأمور، فأعجب برجاحة عقله، وسلامة استنتاجه، ودقَّة ملاحظته، وراحت الملكة الأم تُحاول أن تقنع الملك بتنصيب الأمير خلفًا له في الحكم، وبالفعل فقد أمر الملك بعقد اجتماعٍ طارئ لكل رجال الدولة، حيث أصدر أمام الجميع قرارًا جاء فيه: «لما كان ولَدُنا الشرعي لا يملك ما يتفوق به على الأمير إيرين من جدارةٍ واستحقاق مواريث الحُكم الملكي، فقد قرَّرنا تنصيب إيرين الأمير خلفًا لنا على عرش البلاد.»

وقد تحقق فيما بعد أن تولى الأمير «تشو» الحكم في تشين، وأصبح ليو بوي وزيرًا أعظم في حكومة جلالة الملك ومُنح لقبًا رفيعًا باسم «شين أونهو»، وأقطعه الملك منطقة «لانتيان» بالإضافة إلى اثنتي عشرة محلة أخرى، كما تكرم جلالته على الملكة الأم بمنحها اللقب الإمبراطوري الرفيع «هوايانغ» (= شمس الممالك الساطعة)، وأقبلت الدويلات التابعة للبلاط الحاكم، تؤكِّد ولاءها وتتبرَّع للملك بمساحاتٍ هائلة من الأراضي تعبيرًا عن الولاء الكامل وحُسن النوايا.

لمَّا وضع شين أونهو خطة الهجوم على جاو

كان شين أونهو يدبر خطة للهجوم على جاو بهدف ضم المزيد من الأراضي وتوسيع مساحة الرقعة المُحيطة بمنطقة «هاجيان»، ومن ثم فقد أوفد تسايزي (الذي نال فيما بعد أعظم الألقاب الفخرية) إلى دولة يان، ليضع نفسه تحت تصرُّف المسئولين هناك مدة ثلاث سنوات، تأكيدًا لمعنى الصداقة بين البلدَين، وأرسلت دولة يان إلى دولة تشين الأمير «دان» رهينةً لضمان السلام، مقابل أن يرسل إليها أونهو وزيره الأعظم «جانتان»؛ ليعمل في أحد المناصب الوزارية هناك، وذلك كله تمهيدًا للاتفاق مع «يان» على التحالف مع تشين للهجوم على دولة جاو، إلا أن جانتان تقدَّم بالاعتذار عن تنفيذ المهمة الموكولة إليه قائلًا: «إن طريق السفر إلى دولة يان سيمر حتمًا بدولة جاو، فماذا لو أُلقي القبض عليَّ أثناء

الطريق وأُودِعتُ السجن هناك، ألا يصير مدعاة لأن تطالب يان بفدية مقدارها مائة ميل مربع من الأراضي، ويتم التنازل عنها طواعيةً للإفراج عني؟» وعندما انتهى اللقاء بين الرجُلَين، وعاد أونهو إلى شئونه اليومية، وقد بلغ به الاستياء أقصاه، فالتقى في بعض الطريق بكل من «شاوشوس» (مسئول عظيم، مساعد أونهو) وكانلو (وزير تربطه صلة قرابة بـ «أونهو») فابتدراه بالسؤال عما يُغضبه على هذا النحو، فأجابهما بقوله: «كنتُ أوفدت «تسايزي» إلى دولة يان رمزًا للصداقة بين بلدَينا، فمكث هناك ثلاث سنوات، ثم جاءنا الأمير دان ليُقيم عندنا رهينةً لضمان السلام، واليوم التقيتُ بالوزير جانتان، وطلبتُ إليه بنفسي أن يذهب إلى يان للقيام بالخدمات الوزارية الودية، فإذا به يعتذِر عن القيام بالمهمة.» فرد عليه كانلو قائلًا: «اترك لي هذا الموضوع إذن، وسأقوم أنا بإقناع «جانتان» بالذهاب إلى هناك.» فزاد استياء أونهو، واكفهر وجهه، واحمرَّت عيناه من الغضب وهو يزجُر مُحدثه قائلًا: «قد رجوتُه مرارًا، فلم يستجِب لي، فكيف تستطيع أنت إقناعه؟!» فأجابه هذا بقوله: «(أما سمعت ما تقوله الحكايات من) أن «شيانتو» كان يستطيع وهو دون الثامنة من عمره أن يكون مُعلمًا لكونفوشيوس نفسه، فما بالك وقد بلغت سنِّي اثنَي عشر عامًا! دع عنك هذا الأمر، وسأحاول إثناءه عن قراره، فلا داعي بعد الآن أن تصرخ في وجهي هكذا.»

وحدث أن التقى كانلو بـ «جانتيان»، فبادره بسؤاله: «تُرى أيكما أكثر مجدًا وأعم فضلًا ومأثرة؛ أنت أم «بايتشي»؟ فأجابه جانتيان بقوله: «إن مآثر بايتشي البطولية وانتصاراته الباهرة في المعارك لا تُعَد ولا تُحصى، وليس في صفحة إنجازاتي ما يؤهِّلني أن أُحاذيه مجدًا وعبقرية، فأنا دونه بدرجات، فسأله كانلو: «فهل ذلك أنك تقرُّ صراحة بأنك لستَ ندًّا له؟» فأومأ جانتيان بالإيجاب، وعاد كانلو يسأله ثانية: «تُرى أي الرجلَين أكثر قدرةً على إدارة شئون البلاد؛ «إينخو» (اللقب الشهير للوزير فان سوي) عندما كان يتولَّى السلطة في دولة تشين أم أونهو؟» فأجابه قائلًا: «أونهو أقدَر منه كثيرًا.» فرد كانلو بقوله: «حاول فان سوي منذ زمان غير بعيدٍ أن يُهاجم دولة جاو فعارَضه بايتشي في هذا القرار، وعلى مبعدةٍ من بلدة «شين يانغ» (مسافة سبعة أميال)، قام فان سوي بالقبض على بايتشي وقتله شنقًا، واليوم يطلب أونهو منك، بل يرجوك أن تسافر إلى دولة يان لتتولَّى المهام الوزارية (ضمن المبادلات السلمية بين البلدَين)، ومع ذلك فأنت ترفض تحقيق هذا الطلب، وبالتالي فأنت مقتول لا محالة، إلا أن أحدًا لا يدري في أي أرضٍ تموت!» وعندئذٍ قال جانتان: «فأعنِّي إذن على الذهاب إلى دولة «يان»!» فما كان من كانلو إلا أن أصدر أوامره بإعداد

العربات الحربية وإسراج الخيول وصرف النفقات اللازمة من خزينة الدولة وكان جانتان، في تلك الأثناء، قد انطلق في طريق ترحاله، وذهب كانلو إلى أونهو، وقال له: «أعِرْني عربتَين حربيتَين، واسمح لي بالسفر إلى جاو، على أن أسبقه إلى هناك وأقوم بإعداد الترتيبات اللازمة، وأُهيِّئ له الظروف المناسبة لاستقباله.»

وسافر كانلو للقاء ملك جاو الذي استقبله على مشارف العاصمة، وكان أن قال لصاحب الجلالة: «هل بلغك يا مولاي أن الأمير دان — ابن حاكم دولة يان — قد انتقل للإقامة في تشين؟» فلما ردَّ عليه الملك بالإيجاب، وعاد يسأله «هل صحيح أن جانتان سيتولَّى أحد المناصب الوزارية المُهمة في دولة يان؟» فأجابه الملك: «بلغني شيءٌ من هذا القبيل.» فقال كانلو: «إذا ثبت أن أمير دولة يان ذاهب إلى تشين ليُقيم بها رهينة لضمان السلام، فمعنى هذا أنه ليس في نيَّة يان الغدر بتشين، وكذلك إيفاد جانتيان للقيام بإحدى المهام الوزارية في يان، فيدل على أن تشين لا تفكر أبدًا في التأليب عليها، فإذا ما اجتمع البلدان حول اتفاق مُتبادل يقوم على تجنُّب ما مِن شأنه تعكير صفو العلاقات بينهما، صار المُستفاد من هذا كله أن دولة جاو قد أضحت عرضةً للخطر الداهم باعتبار أن الدافع الأساسي وراء قيام الاتفاق الودي بين يان وتشين هو القيام بضربة مُشتركة ضدَّ دولة جاو، بهدف ضم المزيد من الأراضي بمنطقة «هاجيان»، والآن فإني أقترح على جلالتكم إعطائي خمس محلَّات كبرى لتوسيع نطاق هاجيان، وسأتولى بنفسي إقناع حاكم تشين بإعادة الأمير دان إلى بلاده (دولة يان) على أن يتحالف معكم وأنتم الدولة القوية لضرب دولة يان (الضعيفة المنهارة، أصلًا!)» وعلى الفور أصدر الملك أوامره باقتطاع خمسة البنادر المحيطة بمنطقة هاجيان من مساحة جاو، وذلك لتوسيع نطاق الإقليم المشار إليه وفي إثر ذلك قامت دولة تشين بإعادة الأمير دان إلى وطنه مما مهَّد لقيام جاو بغزو دولة يان واقتطاع إقليم «شانكو» من أراضيها واقتسامه مع تشين (حيث حصلت تشين على ما مِقداره عشر مساحة الإقليم البالغ عدد أقسامه ستة وثلاثين قطاعًا!)

لمَّا طُرِد أونهو من دولة تشين

لمَّا أُقصِي أونهو عن دولة تشين، قام صاحبه «صيكون» وركب فرسه هاربًا الى دولة جاو؛ حيث صُرِّح له بالإقامة والعمل في وظيفةٍ حكومية عادية، بغير نفوذ قوي أو مرتبة رفيعة، وفي تلك الأثناء كانت تشين تُصدر الأوامر لقواتها بالاستعداد لمهاجمة دولة جاو.

وذهب صيكون للقاء حاكم جاو، وقال له: «كنتُ أعمل مساعدًا لـ «أونهو» عندما كان رئيسًا لوزراء تشين، وبحكم عملي، فقد أحطتُ علمًا بأحوال وقضايا ودخائل الأمور هناك، ورغم أني أتقلَّد وظيفةً شرَفية في بلادكم دون سلطةٍ أو مكانة تُتيح لي الاطلاع الكافي على التفاصيل الدقيقة للأوضاع من حولي، إلا أني استطعتُ أن أستشفَّ الكثير من طبيعة ما هو قائم، لذلك أرجو من جلالتكم السماح لي بتقييم أحوال الحرب بين تشين وبلدكم على نحوٍ مقارن، وسأترك لكم في النهاية تقدير احتمالات النصر أو الهزيمة، على كِلا الجانبَين، واسمح لي يا جلالة الملك، أولًا، أن أسألك عمَّن تظنُّه الأكثر قوةً بشكل عام؛ تشين أم جاو؟» فأجاب حاكم جاو: «ليست بلدنا في قوة تشين.» فسأله صيكون: «فأي البلدَين أكثر عددًا وعتادًا؟» فأجابه: «إن جاو لا تكاد تُقارَن (في هذا المجال) بدولة تشين ذات العدد الوفير من السكان.» وراح صيكون يُلاحقه بسؤاله: «فإذا عقدنا مقارنةً بين البلدَين من ناحية الوفرة المالية والزراعية، فأي البلدَين يحظى بالقدر الأوفى فيهما؟» فأجاب الملك: «أعرف أن جاو ليست من ذلك في شيءٍ يستحق المقارنة.» فسأله: «فأي البلدين — إذن — أكثر استقرارًا ورخاءً؟» فأجابه: «ليس من يفوق تشين في ذلك.»، «وأي رجال الحكم في البلدَين أرجح حكمةً وأوفر ذكاءً واقتدارًا؟» «لا أحد يعدِل رجال تشين حكمةً ونجابة.» «فأي رجال البلدَين أشد صبرًا على القتال، وأدهى وأشجع في المعارك؟» «يؤسِفني أن جاو لا تكسب كثيرًا في هذه النقطة.» «وأي البلدَين أكثر التزامًا بالتشريعات، وأشدُّ ضبطًا وصرامة فيما يتصل بالقوانين واللوائح؟» «إن جاو دون تشين كثيرًا في هذه الناحية.» وهنالك قال صيكون للملك: «ما دام الأمر على هذا النحو، فلا مَعدى عن الإقرار بأن بلدكم يُقصِّر في كثيرٍ من الأمور عن اللحاق بمستوى تشين، وهو ما يشير إلى أن جاو ستَبيد عن آخرها [في حال الاقتتال مع تشين].» فردَّ عليه الملك بقوله: «لئن كنتَ قد وجدتَ بلدنا قريبًا إليك حتى قدمتَ إليه، فلا أظنُّك تبخل علينا باتخاذ ما هو لازم من سياسات وتوصيات مُفيدة، وسنبذل من جانبنا كل جهدٍ ممكن للأخذ بما تراه من خططٍ وتقديرات.» فأسرع صيكون يقول له: «تستطيع يا جلالتك أن تمنح دولة تشين قطاعًا هائلًا من أراضي جاو، تتقرَّب بها إلى ملك تشين؛ فيُغمد عنك سيفه ويُعفيك من ويلات حربه، ولا بدَّ أنه سيسعد بذلك كثيرًا، لأنه لا يُريد أن يجد نفسه في مواجهةٍ مع قوات حرس الحدود لديكم والتي يَخشى بأسُها، مثلما يَخشى احتمال قيام الدويلات والإمارات بإمدادكم بالرجال والعتاد؛ ولذلك فسوف يُسارع بسحب قواته فور استلامه الأرض المُتنازل عنها، وبالطبع ستستطيع دولة جاو أن تبقى، وأن تحفظ وجودها وكيانها فوق الباقي من أراضيها، بينما يتعاظم شعور تشين بالقوة

بعد استلامها مساحة الأرض الهائلة من جانبكم، وعلى إثر ذلك يقع الفزع والرُّعب في قلب الدويلات والممالك الواقعة بمنطقة شاندونغ، وكذلك باقي الممالك الصغيرة التي سيَنتابها الفزع من أن تفقد أراضيها على النحو الذي تعرَّضت له جاو على يد تشين، وعندئذٍ يُصبح الخوف هو القاعدة المشتركة التي يجتمع فوقها مَطلب الدول للأمان والاحتماء من الخطر، ومن ثم تتساند جميعًا، وتتحقق فكرة التحالُف بين الدويلات التي تقع إلى الشرق من تشين [حسبَ تصوُّرٍ سياسيٍّ قديم يُسمَّى بالتحالف الأفقي/الرأسي بين الدويلات؛ وهو التحالف بين مجموعتَين من الدول، إحداهما في صف تشين والأخرى ضدَّها] وهكذا، فإني أنتهز هذه الفرصة كي أقترح على جلالتكم، بل أرجو جنابكم الأفخم، أن تدخلوا في تحالف الدويلات الست [وهي تلك الدويلات الواقعة على المحور الأفقي] فإذا تم مثل هذا التحالف، صار في مقدوركم الصمود في وجه تهديدات تشين بفضل ما يتوفر لكم من دعم ومساندة الدويلات الستِّ بمنطقة شاندونغ، وهو ما يُمثل تعويضًا عادلًا للأراضي التي تنازلتُم عنها لـ «تشين»؛ لأنكم بهذا تكونون قد خسرتم — في ظاهر الأمر — نصف أرض، وكسبتم — في الحقيقة — ما هو أكثر من الدعم والعون والمؤازرة، مما يُمكِّنكم من الوقوف بقوة في وجهِ تشين التي لن تملك أن تصمد طويلًا في وجه قوى مُتعدِّدة.» وهنا قال له الملك: «لمَّا كنا قد تعرَّضنا منذ عدة أيام لغزوٍ عسكري من جانب تشين، فقد تنازلنا لها عما مقداره اثنتا عشرة مدينةً صغيرة، أملًا في إثنائها عن مشروعاتها التوسُّعية، وكان من جرَّاء ذلك أن خسِرنا الأراضي، ووهنت قوتنا العسكرية، وبرغم ذلك؛ بقِيَ خطر تشين يَتهدَّدنا في كل حين، واليوم نجد أنفسنا مُطالَبين بالتنازل عن نصف أراضي البلاد لصالِح توسُّعات تشين وزيادة مساحتها؛ مما سيؤدي إلى زيادة نفوذها وتقوية مركزها السياسي، وسط الممالك، وبعدئذٍ فلن يبقى لنا وجود؛ بل يجتاحنا العدم، ويَطوينا الهلاك؛ فلذلك لا أستطيع أن أقبل اقتراحاتك هذه، بل أطلب منك تقديم تصوُّرات أخرى مختلفة؛ للخروج من كبوتنا.» فردَّ عليه صيكون قائلًا: «كنت وأنا في صدر شبابي قد تقلَّدت وظيفة كبير المُستشارين في بلاط آل «تشين»، وكانت لي سلطة نافذة تُعادل أقوى السلطات في الإدارات الملكية الكبرى، وهذا ما يُشجعني على أن أتقدَّم لجلالتكم راجيًا السماح لي بالعمل مُستشارًا حربيًّا باسمِكم؛ على أن تصير من سُلطتي الإدارة الكاملة للعمليات الحربية وسير المعارك بين جاو وتشين.»

لكن الملك لم يُوافق على تقليده زمام القيادة، فاضطر صيكون آخِر الأمر أن يقول لجلالته: «بما أني لم أجد لدى جلالتكم قبولًا لخطَّتي المُتواضعة، فلن يُمكنني تقديم ما هو أفضل لرفعة شأن سلطانكم وسط الممالك، فليس إلا أن أطلب السماح لي بمغادرة البلاد.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وغادر صيكون دولة جاو، ومضى في طريقه، عبر منطقة «بينوان» وعلم بقدومه محافظ الإقليم «كوي» فخفَّ لاستقباله، فلمَّا التقى به حيَّاه وكلَّمه بما يشرح فؤاده ويُزيل عنه كدَر خاطره، ثم سأله قائلًا: «كنتُ قد علمتُ أن تشين قامت بغزو جاو، ثم قيل لي إن هناك ضيفًا كبيرًا قادمًا إلينا من جاو، لم أكن أعرف أنك أنت ذاك الضيف، فهلمَّ إليَّ وقصَّ عليَّ أخبار تلك الحرب.» فحكى له صيكون عن خطورة الأحوال ودقة الظروف التي تمرُّ بها جاو وخطورة الموقف، واحتمال سقوط البلاد الوشيك، خصوصًا بعد اعتراض الملك على الأخذ بخطَّته لردِّ العدوان. فسأله المُحافظ: «ومتى سيدي الكريم، يمكن أن يحدث هذا السقوط، في تقديركم؟» فأجابه: «لو تولَّى القيادة العامة، القائد العسكري المُحنَّك «ليمو» فسيستغرق الأمر عامًا كاملًا حتى تسقط البلاد، أما إذا اغتيل هذا القائد فلن يمرَّ نصف العام حتى ينهار كل شيءٍ في جاو؛ وقد لاحظتُ أن هناك واحدًا من الوزراء اسمه «هانسانغ» يُجيد التزلُّف إلى الملك ويُحاول التقرُّب إليه مستخدمًا أخسَّ الوسائل؛ فهو يُثير الشك في نفسه حول رجاله المُخلصين، ويزيح من طريقه الأكفاء والنابهين، فاذا أصغي جلالته إلى مزاعم وافتراءات هذا الـ «هانسانغ»، في ظرفٍ عصيب تمرُّ به البلاد، فلا بد أن القائد العسكري مُلاقٍ حتفَه.»

وبالفعل، فقد راح هانسانغ يوغِر صدر الملك ضد قائد جيوشه «ليمو» بما يُشيعه عنه من افتراءات وادعاءات كاذبة، حتى عزله الملك عن القيادة، فلمَّا ذهب إلى القصر ومثل بين يدي الملك، قام هانسانغ واقفًا وتلا عليه الأمر الملكي بمُعاقبته لارتكاربه جريمة شنعاء؛ ذلك أنه:

«… لما كان حاضرًا بالقصر الملكي أثناء أحد الاحتفالات الملكية، قدَّم إليه جلالة الملك كأسًا من الخمر على سبيل التحية، فلما جثا على ركبتَيه امتنانًا وشكرًا للذات الملكية، إذا به يُشير ناحية الملك وهو مُمسك بخنجرٍ في قبضة يده؛ مما يُعَد جريمة يُعاقب عليها بتوقيع أقصى العقوبة، وهي الإعدام.» وهنالك أجابه القائد: «كنتُ مُصابًا بإعاقة في ذراعي الأيمن، وتعذَّر عليَّ أن أبسطه بصورة طبيعية؛ وبسبب ضخامة جسمي وطول قامتي فإن إعاقة ذراعي تبدو واضحةً للعيان؛ مما يُسبب لي حرجًا بالغًا، خاصة عندما أجثو ساجدًا لتحية الملك؛ حيث لا أستطيع أن ألمس الأرض بكلتا يديَّ فأتحرَّج أن يظنَّ جلالته بي سوء الأدب؛ فلهذا طلبت أن تُصنع لي قطعة من الخشب على هيئة كفٍّ مضمومة أُلصقها بساعدي وأتكئ عليها ساجدًا للملك، فإذا لم يُصدِّقني جلالته فها أنا ذا أخلعها كي تحملها إليه

ليفحصها بنفسه.» ثم إنه فكَّ الرباط عن الكف الخشبي، وخلعها من مكانها، وأراها لـ «هانسانغ»؛ فتطلَّع إليها فإذا هي تُشبه مزلاجًا خشبيًّا مُزودًا بمفاصل حديدية وخيوط مدلَّاة مرتبطة بالذراع القصيرة، وعاد مُحدِّثه يقول له: «أرجوك أن تذهب بهذه الأشياء إلى القصر لتُطلع جلالة الملك على حقيقة الموضوع بنفسك.» فأجابه هانسانغ: «بل قد صدر لي الأمر من جلالته بإنفاذ حكم الإعدام، وليس لي العدول عن تنفيذ ما أُمِرت به ولا أجرؤ أن أنقل عنك إلى الملك أي شيءٍ مما تقول!» فما كان من ليمو، وقد شعر أن منيَّته قد أزفت، إلا أن نظر تجاه الجانب الشمالي (حيث موقع العرش الملكي!) وركع مرتَين إجلالًا لمليكه وخضوعًا لإرادته، واستلَّ سيفه ليقتُل نفسه بيدِه، ثم استدرك قائلًا: «لا يصحُّ لمن تولى منصبًا وزاريًّا أن يقتل نفسه داخل أروقة القصر.» ثم إنه خرج من دهليزٍ قريب وأسرع الخُطى ناحية باب الغابة، ورفع السيف بيدِه اليُمنى ليهوي به على رقبته، فلمَّا لم تُطاوعه يده بسبب الإعاقة المذكورة، أمسك المِقبض بيده السليمة، وأدخل طرف السيف في فمه ثم اندفع بثقل جسده ليرتطم طرف السيف بأحد الأعمدة الحجرية القريبة، فاندفعت ذبابة السيف إلى حلقه وخرجت من قفاه فسقط ميتًا في الحال، ولم تكد تمضي على ذلك خمسة أشهر حتى بادت دولة جاو، وسقط ذِكرها بين الذاكرين.

وصار محافظ إقليم بينوان — من بعد ذلك — يذكر تلك الوقائع أمام ضيوفه، ويتكلَّم عن صيكون بنبرةٍ ملؤها الحسرة والأسى لما أصاب ذلك الرجل الفاضل الحكيم، وكان يرى أن هروبه من تشين لم يكن عن سوء تقدير، ولا خروجه من دولة جاو خذلانًا للحق أو نكرانًا للجميل، ولئن كان ملك جاو قد سمح له بالرحيل؛ فقد كان ذلك وبالًا على البلاد، ولم يكن ضياع الملك فيها وسقوط عرشها وهلاك أهلها بسبب ندرة الأماجد الكرماء النابهين من أبنائها، بل بسبب تجاهُلهم وإغفال أهميتهم والتنكُّر لدورهم.

لمَّا تحالفت الدول الأربع للهجوم على تشين

تحالفت الدول الأربع (تشو، أو، يان، داي) واستعدَّت لغزو تشين، فدعا ملكها الوزراء جميعًا بالإضافة إلى ستِّين من الشخصيات العامة لحضور اجتماعٍ عام، وقال للجميع أثناء لقائه بهم: «تعلمون جميعًا أن الدول الأربع قد اتَّحدت تحت راية التآمُر والحرب ضدَّنا، وسط ظروفٍ بالغة الدقة والخطورة، إذ ينقصنا الكثير من الموارد المالية والبشرية، خاصة، بعد أن نزحت كثير من العائلات إلى خارج الحدود، وأريد منكم أن تُشاركوني في وضع تصوُّر لمواجهة خطر هذا الغزو الرباعي.» ولم يُجِب أحد بشيء، بل ظلوا واجِمين

مُعتصمين بالصمت، إلا واحدًا من بينهم وهو الوزير «ياوجيا» [من مواطني وي، تنقَّل في البلاد واستقر في تشين] تحدث إلى الملك بقوله: «أنا على استعدادٍ أن أقوم بدورٍ فعَّال لإحباط سعي التحالف الرباعي إذا سمح جلالة الملك بإيفادي مبعوثًا رسميًّا إليهم، وسأبذل كل جهدي للحيلولة دون أي زحفٍ عسكري ضد تشين.»

وهنالك أمر الملك بتجهيز سفارة إلى التحالُف الرباعي بقيادة هذا الوزير، وزوَّده بمائة عربة عسكرية وألف وزنةٍ من الذهب، وخلع عليه خلعةً ملكية، بل قام ووضع التاج الملكيَّ بين يدَيه، وقلَّده سيفه ومنطقته الذهبية. ولمَّا حان السفر قام بتوديعه في أُبَّهة زائدة، وتجول الوزير «ياوجيا» بين البلاد وبذل مساعيه التي تكلَّلت بالنجاح في نزْع فتيل الحرب وصدِّ مؤامرة التحالف الرباعي ضد تشين، ووقف زحف القوات المُعتدية إليها، بل استطاع أن يُقيم جسور صلاتٍ دبلوماسية مع الدول المعنية، وعاد من سفرته ليُقدم تقاريره إلى الملك، يشرح فيها ما توصَّل إليه من نتائج وغمرت السعادة قلب جلالته، وأهدى «ياوجيا» واحدة من أحسن المقاطعات في البلاد وأنعم عليه برُتبة «الوزير الإمبراطوري» الشرفية.

وبلغت هذه الأخبار مسامع «هان فيتس» [الفيلسوف السياسي الشهير ٢٦٠–٢٣٣ق.م] فذهب والتقى بالملك وقال له: «كنت قد أرسلت ياوجيا في مهمة رسمية فسافر وهو يحمِل كمياتٍ هائلة من الذهب والهدايا الثمينة، فقصد جنوبًا إلى دولتي: «تشو»، و«أو» وسافر شمالًا إلى دولتي: «يان» و«داي»، وكمل له من الزمن في ذلك كله ثلاث سنوات. هذا بينما لم يكن التحالف المزعوم بين الدول الأربع مُحققًا أن يصل بها جميعًا إلى أية نتائج إيجابية، ففيمَ هذا الإسراف في توزيع الجواهر والذهب والنفائس الثمينة يمينًا ويسارًا؟!

والحقيقية أن «ياوجيا» استطاع أن يُقيم العديد من الصلات الشخصية مع أمراء الممالك والدويلات مُستغلًّا ثرواتك، وسلطاتك بغير حدود، فأرجو من جلالتكم التحقُّق من ذلك الأمر بنفسك واسمح لي بأن أذكركم بأن «ياوجيا» ليس إلا واحدًا من أبناء دولة وي وكان أبوه يعمل حارسًا في القصور الملكية، وأنه اتُّهم ذات مرةٍ في جريمة سرقة بمدينة «واليانغ»، وأنه مطرود من أحد المناصب الوزارية بدولة جاو، ولا أدري كيف يمكن لجلالتكم أن تتوقعوا أي إصلاح لشئون الدولة على يدِ لصٍّ قديم من وي، ومطرود من جاو، ولا أظن أن مثل هذه الطريقة في إدارة الحُكم يمكن أن تُشجع الوزراء على الإخلاص والتفاني.»

وأسرع ملك تشين باستدعاء ياوجيان، فلما مثل بين يدَيه ابتدره قائلًا: «بلغني أنك أقمت علاقات شخصية ودِّية مع أمراء الدويلات والممالك مُستغلًّا في ذلك ما منحتك إيَّاه من أموال ونفائس، فهل هذا صحيح؟» فلمَّا رد عليه بالإيجاب، دُهِش الملك وسأله: «وهل بلغت بك الصفاقة أن تتجاسَر على المُجاهرة بما اقترفتَ في حضوري هكذا، ودون أن يطرف لك جفن؟» فأجابه ياوجيان قائلًا: «على رسلك يا مولاي، ألا إن الابن البار بأبيه وأمِّه قدوة طيبة، ومثل رائع في باب الولاء والعرفان، والخادم المُطيع لسيده، نموذج يتمنَّاه كل أمير أو صاحب ولاية، والفتاة الحائكة الماهرة في فنِّ التطريز، صورة حلوة في خيال كل شابٍّ يحلم بشريكة حياة، وقد صارحتك بكل إخلاص فوق عرفاني وولائي لجلالتك، وقد سافرتُ لأجلك يا سيدي وأقنعت الأمراء بالنزول على مشيئتك، ولمن تظنُّني أدعوهم بالخضوع وتقديم أَسمَى آيات الولاء والتقدير إن لم يكن لأجل مجدك وعزيز مقامك؟ وكيف تظنُّهم يأمنون لي ويمنحونني ثِقتهم إن كنت خائنًا لك منكرًا لفضلك، وأنا أُحدثك عن أربع دول كبرى مُتحالفة وليست مجرد دويلةٍ صغيرة، وقد قيل قديمًا إن الإمبراطور شياجي (آخِر أباطرة أسرة شيا) قد نكَّل بوزيره وقتله بسبب وشاية كاذبة، ففتح بذلك الباب لكل واشٍ وساعٍ بالبهتان وانتهى الأمر بمقتله هو نفسه وزوال ملكه، وأخشى إن أصغيتَ يا مولاي لمثل هاتيك الافتراءات ألَّا يبقى لك خادم مُخلص أو بطانة وفية.»، وكلَّمه الملك قائلًا: «وبلغَني أنك في الأصل ابن أحد الحراس وأنك مُتهم بجريمة سرقة في وي، بالإضافة إلى أنك مطرود من وظيفة رسمية بدولة جاو، (فما قولك في هذا كله)؟» فأجابه: «إن شخصية تاريخية مرموقة مثل الحكيم الفاضل «لي وانغ» — وكان في الأصل زوجًا فاشلًا فطردته امرأتُه — حاول أن يعمل قصَّابًا فلم يفلح، فسافر إلى بلدة جييجن للعمل أجيرًا، فلم يُحالفه التوفيق، وأخيرًا، كان الملك أون حاكم «تجو» هو الذي صنع منه رجل دولة من الطراز الأول، واستطاع أن يُوحِّد به الممالك في دولة كبرى، بل كان «كانشون» (أحد أشهر وزراء العصر القديم) يعمل في الأساس بائعًا متجولًا في وي، ثم انتقل للإقامة في «نانيانغ» حيث عاش حياةً مُزرية بائسة، فلمَّا ضاقت به الحال سافر إلى «لو»، ولم يكن حظه هناك بأفضل مما سبق، إذ تورَّط في مِحَن ألقت به في غياهب السجون زمنًا طويلًا، وبرغم كل ذلك، فقد استطاع ملك تشي أن يستغلَّ مواهب هذا الرجل، فضمَّه إلى سدة الهيمنة الإمبراطورية التي أخضعت تحت سُلطانها أُممًا ودولًا وإمارات.

وكان المدعو «بيليشي» يجوب الشوارع يستجدي لقمة العيش من مارة دولة «يو»، وقيل إنه وقع في العبودية وبيع بثمنٍ بخس (خمس رقائق من جلد الضأن)، وغير أن

الملك موكون (حاكم تشين، وأحد أعظم أباطرة العصر التاريخي المُسمَّى بـ عصر الدول المتحاربة) تولَّى أمره حتى بلغ في عهده منصب الوزير الأعظم، فكان هو الذي استطاع أن يقهر الدويلات المُتمرِّدة في أقصى غرب البلاد وأن يأتي بها صاغرةً عند أعتاب القصر الإمبراطوري لدولة تشين. وليس سرًّا أن حاكم دولة جين، بسط رعايته لواحدٍ من أعتى مجرمي زمانه، أشهر لصٍّ في تاريخ دويلة جونشان، وللعجب، فقد كان هذا الشقي قاطع الطريق هو الذي قاد جيش دولة جين إلى موكب النصر التاريخي على دولة تشين في موقعة بوشينغ.

إذن، فهؤلاء الأربعة لم يكونوا من ذوي السمعة الحسنة، ولا المَنبت الشريف، بل دُمغت سيرتهم الأولى بخصالٍ يندى لها الجبين، برغم ذلك كله، فلم يأنف الملوك الحكماء الأربعة من تقريبهم إلى مساحات القصور الحاكمة، بل قد استعانوا بهم في تحقيق الإنجازات الكبرى التي سجَّلها لهم التاريخ بفخر وشرف، ولئن كان أولئك الرجال — برغم وصمة نشأتهم الأولى — قد حققوا المآثر العظيمة، فإنهم قد تفوقوا بذلك على آخرين ممن كانوا في مواقع مرموقة، لكن أصحاب الجلالة لم يجدوا لديهم بُغيتهم، ففضلوا عليهم أصحابنا المشار إليهم آنفًا، فأقالوا عثراتهم، وتغاضوا عما اقترفوه في سابق الحال، فلفظوا ما خبث منهم، واستصفوا ما طاب من حميد سجاياهم لبلوغ أسمى الأهداف وأعظم الغايات، فلهذا درج رجال الحكم على أن يتَّخذوا مُساعديهم ممَّن ينبغون في رفعة شأن الأوطان وتحقيق أمنها واستقرارها، حتى لو كانوا موضع التندُّر أو الاستخفاف من الآخرين ذلك أن الوضيع الذي يبلغ بك إلى حضيض الكارثة، ومن ثم يبذل الوزراء أقصى جهدهم لاستحقاق الجدارة.»

أما المَلك، فقد أُعجب بمقالته، واستصوب رأيه، وأصدر قراره بتجديد الثقة فيه واستمراره في منصبه، ثم إنه قضى بإعدام [الفيلسوف] هان فيتس.

سجل تشي الأول

لمَّا تحقَّق النصر لقوات دولة تشو

تحقق النصر لقوات دولة تشو في موقعة «شوجو» (إحدى مدن دولة تشي) وأراد الملك أن يتَّخِذ من هذا النصر وسيلةً للضغط على دولة تشي كي تقوم بإبعاد ولده الأمير تيانين المُقيم لدَيها (مما يسهل للأمير العودة إلى بلاده بشروط تقبلها تشي) فلمَّا علم هذا الأخير بذلك الأمر، تولَّاه الفزع والرعب، وهنالك ذهب «جانغ شو» — رئيس وزراء تشي — لمقابلةَ حاكم تشو، وقال له: «إن من بين الأسباب التي عجَّلت بانتصاركم في موقعة شوجو، أن دولة تشي أهملت شأن قائدها العسكري المُحنك «تيانيان» ولم تمنحه التقدير اللائق ولا المنصب الرفيع — شأن باقي رجال الدولة — هذا بالرغم من أفضاله ومآثره الجليلة في خدمة وطنه والتي بلغت حدًّا كبيرًا مما ألهج ألسنة الناس بالثناء عليه، ومَكَّن له الاحترام والحُب في قلوبهم حتى تمنَّوا له الترقي وتولِّي زمام القيادة العُليا، ولكن وللأسف الشديد فإن الأمير تيانين (نجلكم المفدى!) لم يكن يحمل مثل هذا التقدير لهذا الرجل العظيم (المحبوب جماهيريًّا) بل كان يفضل عليه قائدًا عسكريًّا آخر هو «شن فو»، والذي لم يحظَ — لسوء حظه — بتقدير وإعجاب باقي رجال الدولة وكل الناس في تشي؛ فبسبب هذا التمزق في الولاءات حدث ما حدث، وكان لكم النصر كما سلف، أما إذا وقع الآن ما ترغبون فيه من إبعاد الأمير تيانين، فستكون النتيجة لذلك صعود نجم تيانيان، وارتقاءه سُلم السلطة العسكرية هناك، وهو ما سيعني قيامه بإصلاحات عسكرية شاملة للقوات بما يُمكنها من منازلتكم بصمودٍ واقتدار وشجاعة، وهو ما لن يكون في صالح بلادكم بكل تأكيد.» وبالفعل فقد تراجع حاكم تشو عن محاولته التي تستهدف إعادة الأمير تيانين.

لمَّا قرَّرت دولة تشي منح إقطاع شودي للأمير

كانت دولة تشي قد قرَّرت منح إقطاع «شودي» للأمير تيانين، فلما سمع حاكم تشو بهذا القرار استشاط غضبًا، وجهز قواته للقيام بحملةٍ تأديبية ضد تشي، وهنالك بدأ حاكم هذه الأخيرة يُفكر في التراجُع عن فكرة منح الإقطاعات المذكورة للأمير، وحدث أن الْتقى حاكم تشي برئيس وزرائه «كونسون هان» الذي قال له: «إن إتمام موضوع منح الإقطاعات للأمير تيانين لن يكون بيد تشي وحدَها، بل سيتقرر وفقًا لما تراه تشو أيضًا، ولعلِّي أذهب للقاء حاكمها كي أنصح له بأن يُطالع مسألة منح الإقطاعات من منظورٍ مختلف، حيث إن هذا الأمر يُمثل لجلالتكم، على المستوى الشخصي، أهمية نفسية ووجدانية أكثر مما يُهم تشي نفسها.» وهنا ردَّ عليه الأمير تيانين قائلًا: «وأنا من جانبي أوافق تمامًا أن تتولَّى أنت تسوية هذا الأمر بنفسك.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

ذهب «كونسون» هان للقاء حاكم تشو، وتحدث إليه بشأن منْح الإقطاع للأمير تيانين، وقال لجلالته: «إن السبب فيما تحرص عليه دولتي «لو» «وسونغ» من تقديم فروض الولاء لـ «تشي» وليس لدولة تشو يكمُن في أن هذه الأخيرة دولة قوية يُخشى بأسُها، فهل يعقل يا مولاي أن ترى في مُوالاة هاتَين الدولتَين نصرةً ودعمًا لك، بينما تقعد عن اقتحام حصون تشي التي تُمثل بؤرة التهديد وعين الخطر؟ ثم إن إقدام تشي على منح الأمير تيانين مساحات كبيرة من الإقطاعيات سيُضعف من مركزها ويُقلل من عناصر تفوُّقها، وهكذا، فمِن الأصوب ألا نعترض يا مولاي على هذا الإجراء.»

وهنالك وافقه حاكم تشو على وجهة نظره، فلم يحاول الاعتراض على قرارٍ بمنح الأمير تيانين إقطاع «شودي».

لمَّا قرَّر الأمير تيانين بناء سور حول الإقطاعية

لما قرَّر الأمير تيانين بناء سور كبير حول إقطاعية شودي، فوجئ بعدد من أصحابه وتابعِيه ينصحون له بالتراجع عن هذه الفكرة، ولكنه مضى في مشروعه ولم يأبه لهم، بل أصدر أمرًا إلى ضابط الاستعلامات بحظر أخبار إنشاء السور عن النشر لتظلَّ في طي الكتمان دون أن يعلم بها أحد من الناس وخصوصًا التابعين والمُقربين من الأصدقاء. وجاء من دولة تشي

رجل يريد أن يُقابل سموَّه في أمرٍ مُهم للغاية قائلًا: «أريد فقط أن ألتقي بالأمير لأقول له ثلاث كلمات لا أكثر، فإن زدتُ كلمة رابعة اقتلوني قتلًا.» فلمَّا أشار الأمير بالموافقة دخل الرجل إليه وقال كلماتٍ ثلاثًا هي: «أسماك ضخمة بالبحر.» فما كاد يتفوه بذلك حتى استدار يريد أن ينطلِق خارج القصر، فأمره الأمير بالبقاء مكانه، فقال له الرجل: «الموت أشقُّ مصير يا مولاي، ولا أريد أن ألقى حتفي عبثًا!» (= بسبب كلماتٍ قلائل) فطمأنه الأمير وأعطاه الأمان على حياته إذا هو استمرَّ في كلامه كي يُفسر ما يُحيط به من ألغاز، فقال الرجل: «أما عرفتَ يا مولاي أن أسماك البحر الضخمة لا تعلق بسنارة صيد ولا تستقر في جوف الشباك، فيتعذَّر اصطيادها إلا إذا غامرت هي نفسها بالقفز خارج الماء فحينئذٍ تموت على اليابسة وتصير طعامًا لأحقر حشرات الأرض؟ (ومقصدي من هذا أن أقول): إن تشي هي مياه بحرك العريض، فإذا كنتَ تسكن في لجة هذا الخضمِّ بأمانٍ، فما حاجتك للاحتماء داخل أسوار «شودي»؟ ذلك أنك خسرتَ ما تمنحك إيَّاه تشي من حماية وأمان، فلن تُجديك أسوار شودي نفعًا وإن طالت بك الأسوار إلى عنان السماء.»

وبالفعل، فقد تراجع الأمير تيانين عن إنشاء السور المشار إليه.

لمَّا تكلم الأمير مع ملك تشي

تحدث الأمير تيانين مع ملك تشي فقال له: «من الضروري جدًّا يا جلالة الملك أن تقوم يوميًّا بمراجعة ملفات الوظائف الحكومية الخمس الكبرى بالإضافة إلى المُراقبة الدورية لها من آن لآخر.» فأجابه الملك قائلًا: «لكني لا أكاد أتابع وظيفة واحدة في اليوم الواحد حتى أشعر في باقي الأيام بالملل والفتور.» فمن ثم آلت مُهمة متابعة الملفات الوظيفية الكبرى إلى الأمير تيانين كي يفحصها بنفسه.

لمَّا كانت العلاقة بين الأمير تيانين وتشيماو

كانت العلاقة بين الأمير تيانين وتشيماو بيان (أحد مواطني تشي) مُستقرة على الود والتفاهم فلمَّا كان هذا الأخير — تشيماو بيان — يشتمل على كثيرٍ من الخصال السيئة والطباع المَمقوتة، فقد كرهته الناس وأبغضه الندماء والتابعون، وذهب أحدهم (شيوي: أحد خلصاء الأمير تيانين) إلى تيانين ونصح له بالحذَر من صديقه، إلا أن الأمير لم يحفل بالنصيحة، فاستقال التابع من وظيفته وآثر الابتعاد عن الأمير، ثم راح تيانون (ولد الأمير

تيانين) ينصح لأبيه — فيما هما يتناجَيان — باتخاذ الحيطة والحذَر من تشيماو بيان، فإذا بالأب ينفجر في وجهه قائلًا في غضب: «ينبغي أن تعلموا أني راضٍ عن ذاك الرجل (تشيماو بيان) رغم أنفكم جميعًا، ولتغضبوا أو ترحلوا فلن أكترث إلا لما يُرضيه هو.» ثم إن الأمير رتَّب له الإقامة في أفخم جناحٍ بالقصر الرسمي وأوصى ولده الأكبر بالعمل على رعايته وتلبية أوامره، وتزويده بألْيَنِ الفرش وأطيب الطعام.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

لم يبقَ حاكم تشي — الملك وي — على عرش البلاد سنوات طويلة، إذ لم تكد تمر عدة أعوام حتى تُوفِّيَ وانتقل الحُكم من بعده إلى الملك شيوان. ولم تكن العلاقة بين الأمير تيانين وهذا الملك طيبةً بأي حال، فمن ثم تأهب الأمير للرحيل إلى إقطاعيته الكائنة بمنطقة شودي، واستأذن جلالة الملك في ذلك وأراد أن يصطحب معه صاحبه تشيماو بيان ليُقيم معه في إقطاعيته المذكورة، وما كاد يستقر بهما المقام هناك طويلًا حتى قام تشيماو بيان يعتذِر عن البقاء مع صاحبه ويستأذنه في العودة منفردًا إلى عاصمة البلاد يريد مقابلة جلالة الملك شيوان، فقال له تيان: «لا يخفى عليك ما يحمله الملك لي من ضغينة، وأخشى أن يكيد لك ليقتلك.» فأجابه: «لا عليك، فما ظننتُ قط أني أريد العودة إليك حيًّا، وإني لذاهب حتمًا!» ولم يستطع الأمير تيانين أن يثني عزم صاحبه عن الرحيل.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وبالطبع فقد ترامت إلى أسماع الملك شيوان أخبار عن وصول المدعو «تشيماو بيان» إلى العاصمة، فراح ينتظر قدومَه وصدرُه يغلي بالغضب، فلمَّا مثل بين يدَيه، ابتدره قائلًا: «بلغَني أنك أحظى الناس بحب تيانين، وأنك لا تُنكر له فضلًا ولا تكذب له كلمة.» فأجابه: «فأما الفضل فلا أنكره، لكني لستُ بالذي ينقاد لهوى صاحبه، وكنت قد تحدثتُ مع تيانين وأنتم بعدُ في ريعان الصبا قبل توليتك عرش الملك فقلت له: «يبدو لي أن الأمير شيوان فظٌّ مُتحجر القلب، يحمل لك بين جنبَيه أخبث النوايا، ولا بد أنه كائد لك كيدًا لن تفلت منه، فاسمع قولي واجعلها بي، وانهض معي نُثير سخط الملك عليه فلا يقرب سدة العرش أبدًا ونجعل مكانه أخيه (من جهة الأب) الأمير شياوس.» وعندئذٍ لم يتمالك تيانين أن فاضت عيناه بالدموع وهو يقول لي: «مُستحيل، هذا لن يكون أبدًا.» فليته قد سمع

كلامي وأراح نفسه مما هو فيه من شقاء تجاهُلِكم له وتنكُّركم لمكانته. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فقد حدث عندما وصلنا إلى إقطاعيته شودي أن عرض عليه جاويان (وزير بدولة تشو) مبادلة الإقطاعية الممنوحة له من والدكم الملك السابق بضعف مساحتها من أراضي تشو، وعندما علمت بهذا الأمر رجوته أن يوافق على الفور دون تردد، فقال لي: «قد قبلت، بكل فخر هذه الإقطاعية منحةً كريمة من الملك السابق ولن أفرط أبدًا فيما أهدانيه الملوك برغم القطيعة التي مُنيت بها من قبل العرش الحاكم في الوقت الحالي، ثم إني لا أستطيع (أخلاقيًّا!) أن أُبدِّد أرضًا تحمل فوقها المعبد الإمبراطوري الخاص بالملك الذي أكرمني بعطاياه السخية.» وعلى هذا النحو فقد صم أُذُنَيه عن نصيحتي وأنا أقرب الناس إليه.» وما كاد ينتهي الرجل من كلامه حتى نفث الملك زفرةً جاش بها صدرُه طويلًا، وقد تغيرت تعبيراتُ وجهه وقال: «أمعقول أن يكون تيانين على هذا النحو من النُّبل والولاء والعرفان؟! تبًّا لي إذ كنت أجهله وأنا فتى صغير، والآن يمكنك أن تنقل إليه، على لساني، دعوة للعودة إلى العاصمة.» وبالطبع فقد أسرع تشيماو بيان بالإيجاب.

الجزء الرابع من الفصل نفسه

قام تيانين وارتدى الحلة الرسمية والقُبعة المُهداة إليه من جلالة الملك السابق، وتقلَّد السيف الذهبي، واستعد للقاء الملك شيوان الذي حضر إلى مشارف العاصمة ليكون في استقباله، ثم إن الملك لمح في عينيه الدموع وهو يدلف بجانبه من بوابة القصر الملكي المنيف، وكان أن قرَّبه إليه وعيَّنه رئيسًا للوزراء، فحاول تيانين الاعتذار عن قبول المنصب، لكنه اضطرَّ إلى الموافقة، ثم لم ينقضِ أسبوع واحد حتى استقال مُتعللًا بسوء حالته الصحية، واعتمد القصر استقالته بعد مرور ثلاثة أيام.

الجزء الخامس من الفصل نفسه

في خِضم تلك الأحداث، استطاع الأمير تيانين أن يقول بملء فِمه إنه عاش تجربة أضاءت له سبيل فَهم وإدراك طبيعة النفوس من حوله، وكان من نتيجة ذلك أنه صار أكثر اقتناعًا بما يراه من خصالٍ شريفة يتميز بها النُّبلاء الأماجد، رغم أنف ما يتقوَّل به وما يطعن به عليهم الآخرون، ذلك أن الماجد الأشرف تشيماو بيان قد ضرب مثلًا ضحَّى فيه بحياته، إذ هان عليه الموت في سبيل تفريج كَرْب صاحبه وحل ما ضاق على عنقه من وثاق الخوف والتهديد.

لمَّا تهدَّدت المخاطر العاصمة هاندان

لمَّا أحاطت المخاطر بالعاصمة «هاندان»، وتقدَّمت دولة جاو إلى دولة تشي بطلب النجدة العاجلة، واجتمع الملك وي (حاكم تشي) مع الوزراء ورجال التخطيط السياسي وصارح الجميع بتردُّده وحيرته إزاء مسألة تقديم المساعدة العسكرية العاجلة لدولة جاو، وسألهم عما إذا كانوا يُوافقون على هذا الأمر من عدمه، ورد عليه رئيس وزرائه تسوجي قائلًا: «الأفضل يا مولاي هو أن نمتنع عن تقديم المساعدة، وهذا رأيي»، لكن الوزير «توانكان لون» تدخل قائلًا: «ليس في مصلحتنا الامتناع عن تقديم العون الفوري لدولة جاو»، ولمَّا سأله الملك عن السبب في ذلك، أجابه بقوله: «لأننا سنخسر كثيرًا فيما إذا تغلَّبت وي على تشي ودخلت بقواتها إلى العاصمة هاندان وضمَّتها تحت سيادتها.» وعلى إثر ذلك أبدى الملك موافقته على تقديم العون المطلوب، وتحركت قواته نحو هذه الغاية وقد أوصى جلالته بأن ترابط القوات على مشارف العاصمة هاندان، فقال الوزير «توانكان لون»: «ليس المهم الآن يا مولاي تقدير الدعم العسكري من زاوية ما هو مُفيد أو ضار بمصالحنا، ذلك أن الدفاع عن هاندان بالمُرابطة على مشارفها سيحُول دون احتلال جاو، لكنه أيضًا سيضمن لـ «وي» ميزة الاحتفاظ بقواتها الضاربة، وأرى من الأفضل أن نتقدَّم صوب الجنوب، حيث نقتحِم بلدة «شيانلين» (تابعة لـ «وي») لإنهاك وي، حتى إذا وقعت العاصمة هاندان في يدِها تقدَّمنا على إثرها حتى بسطْنا سيطرتنا الكاملة على أرض وي نفسها، وبذلك يتحقَّق لنا كسر شوكة جاو من ناحية، واستنزاف وي من ناحيةٍ أخرى (... فما هو في مصلحة تشي ... بالتأكيد!).»

وبالفعل فقد دفع الملك قواته صوب الجنوب لاحتلال بلدة شيانلين، وفي الشهر السابع وقعت العاصمة هاندان في يد قوات وي، وانتهزت تشي الفرصة على إثر الإنهاك الذي أصاب وي وقامت بهجومٍ كاسح على هذه الأخيرة حيث مزَّقتها وهزمتها شرَّ هزيمة في موقعة «كويلين».

لمَّا أحدقت المخاطر ببلدة نانليانغ

لمَّا أحدقت المخاطر ببلدة نانليانغ (التابعة لدولة هان) [إشارة إلى الخراب الذي لحق بهذه البلدة على إثر هجوم وي عليها في عام ٣٤٢ق.م] تقدمت هان إلى تشي بطلب دعمٍ عسكري عاجل، وعلى الفور دعا الملك «وي» — حاكم تشي — الوزراء وكبار رجال التخطيط

السياسي وسألهم: «أي الأمرَين أصوب وأنفع لبلادنا، الإسراع بإرسال الدعم العسكري إلى هان أم تأخيره إلى أجلٍ لاحق؟» فرد عليه جانكاي — أحد وزرائه — قائلًا: «أرى أن تأخير إرسال الدعم المطلوب سيمكن هان من الالتفاف المفاجئ، وضرب وي، واحتلال جزء من أراضيها.» وهنا تكلم الوزير يتانجي قائلًا: «لا أوافق على هذا الرأي، بل أرى أننا في الوقت الذي لم تصل فيه بعد قوات الدولتَين المتحاربتَين هان ووي إلى مرحلة الإنهاك التام، نُقرر أن نُرسل دعمًا عسكريًّا لدولة هان (هذا خطأ لأنه) مما يمكن أن يُعرِّض قواتنا لتلقِّي ضربة الهجوم ضد هان، وتضطر كذلك إلى طاعة الأوامر التي يُمليها عليها قادة هان، فإذا وضعنا في الحسبان عزم وتصميم وي على ضرب هان، فلا بد أن نتوقَّع أن هذه الأخيرة سوف تُهرع إلى الشرق من أراضيها، أي إلينا نحن، تطلب المساندة في وقت المحنة الذي تتعرَّض فيه لخطر الإبادة على يد عدوتها اللدود، وحينئذٍ فقط سننتهز الفرصة لعقد تحالف سري مع هان، يُمكِّنُ كلَينا — نحن وهان — من صد هجوم وي في وقتٍ تكون قد بلغت فيه شدة الإنهاك والتعب، ساعتئذٍ نتمكن من حماية الأرض والعرض واغتنام الفرص والحفاظ على الهيبة والمكانة وسط الممالك.»

ولم يلبث الملك أن وافق على هذه الخطة، وراح يُرتب لتنفيذها سرًّا مع رسول دولة هان وكلَّفه بالعودة إلى بلاده لإتمام المطلوب.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

ودخلت دولة هان المعارك وفي ذهنها أن تشي ستمدُّها بالعَون والدعم العسكريين وقت اللزوم، وحدث أنها اشتبكت مع عدوَّتها في خمس معارك، هزمت فيها جميعًا، فهُرعت صوب الشرق تستنجِد بجارتها تشي التي أرسلت إليها القوات اللازمة لمواصلة القتال، وقد استطاعت هذه القوات — بالفعل — أن تُكبد وي خسائر فادحة وتنزل بها الهزيمة في موقعة مالين، وهكذا، سقط الطرفان صريعَين، هذا مُثخن بالهزيمة، وذاك منهك على إثر القتال، ولم يجد حاكمَا البلدَين وي وهان سوى أن يتفقا معًا على إيفاد مندوبهما الأمير تيانين إلى بلاط آل تشي؛ كي يمهد الطريق الذي سيتبعانه صوب الشمال (دولة تشي) حيث سيمضيان معًا إلى هناك، ويركعان لدى الأعتاب الملكية علامة على الإذعان والولاء لسيد الممالك جلالة الملك ويه.

لَمَّا تولى تسوجي رئاسة وزراء دولة تشي

تولى «تسوجي» رئاسة وزراء دولة تشي، وكذلك تولَّى «تيانجي» منصب القائد العسكري الأعلى، ولم تكن العلاقة بينهما على ما يُرام، وقيل في الحوادث إن «كونسون هان» ذهب إلى تسوجي وقال له: «لماذا لم تبادر إلى تقديم خطةٍ عاجلة لجلالة الملك بخصوص الهجوم على وي، فإذا ما كان النصر حليفك، وسطع نجمك، وأشرق بالعز بهاؤك، أضفتَ إلى مآثرك ما لن تُغفله الأيام، أما إذا وقعت الهزيمة، فهي فرصتك كي تعزو ذلك إلى إحجام تيانجي عن المبادأة لنقص كفاءته وقلة صبره على الصمود أمام أهوال القتال ممَّا يجعله مسئولًا عن اندحار القوات ووقوع الكارثة الجسيمة بالبلاد، ولعلَّه يدفع حياته ثمنًا لذلك، فيذهب الذهاب الذي لا رجوع منه.»

وبالفعل فقد اقتنع تسوجي بهذا الرأي وطلب إلى جلالة الملك — حاكم تشي — تكليف تيانجي بقيادة معارك الهجوم على وي.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

واقتحم القائد المُحنك تيانجي ساحات المعارك، وحقق انتصارات باهرة، فما من راية في سماء قتال، إلا وتبعتها راية في سماء المجد تشهد له بالتفوق والمهارة والنبوغ العسكري، وراح الوزير تسوجي يقص تلك الأخبار على مسامع كونسون هان، ويسأله عما يجب فعلُه إزاء هذا الأمر، فما كان من هذا الأخير إلا أن أرسل أحدهم بكمياتٍ وافرة من المال إلى السوق الكبير قاصدًا محلَّ التنجيم والطوالع حيث راح يسأل العرَّافين قائلًا: «أتيتكم موفدًا من قبل القائد العسكري الكبير تيانجي صاحب الانتصارات المعهودة التي ذاع صِيتُها في الآفاق طالبًا إليكم استقصاء أنباء الغيب فيما إذا قرَّر سيادته أن يُدير بنفسه الشئون العُليا للدولة، فهل يُزكيه في ذلك يُمن الطالع أو يردُّه عنه شؤم النذير؟» ولم يلبث الوزير تسوجي أن أصدر أمرًا بالقبض على العرَّاف الذي قام بمُطالعة البروج، وجمع حشدًا من المسئولين وذهبوا جميعًا ومعهم الفلكي المقبوض عليه إلى القصر حيث طلبوا مقابلة الملك وأحضروا أمامه العرَّاف ليذكر أمام جلالته وقائع ما حدث، وليشهدوا عليه بما قال، ولَمَّا علم القائد تيانجي بذلك فرَّ هاربًا من البلاد.

كان تيانجي أثناء شغله منصب القائد

كان تيانجي أثناء تولِّيه منصب القائد الأعلى لقوات تشي قد تمكن من أَسْر أمير دولة وي «الأمير شن» وقائدها العسكري العظيم «بانشيوان»، ثم إن «سون تزو» (المُفكر العسكري الشهير صاحب كتاب «فن الحرب» ومستشار «تيانجي» في الشئون الحربية) سأله قائلًا: «هل بإمكانك أن تقوم بمهمةٍ جسيمة أدلُّك عليها؟» فأجابه: «هات ما عندك، وقل ماذا يُمكنني أن أفعل.» وراح سون تزو يشرح له الأمر قائلًا: «أرى أن تكرَّ عائدًا بقواتك وهى ما زالت بعدُ في لباس الحرب إلى الوطن (دولة تشي) وأن تستبقيَ عند مضيق «رندي» [ذي الأهمية الاستراتيجية]، كبار السنِّ والمُنهكين من جنودك؛ ليقوموا بمهام الدفاع في هذه المنطقة التي يتميز الطريق الرئيسي المار وسطها بوعورة مسلكه، حيث لا يكاد يسمح إلا بمرور عربة عسكرية واحدة في اتجاهٍ واحد، فلا تستطيع عربتان متجاورتان جنبًا إلى جنب أن تعبرا منه بأي حال، ولا بد أن تختار الرجال القائمين على حراسة مدخل المضيق بحيث يكون الفرد منهم بمثابة عشرة أفراد، وأن يكون العشرة بمثابة مائة، والمائةُ ألفًا، ثم تَعبر برجالك جبل «تاي» فتسير بهم يسارًا حتى تخوض نهر «جيشوي»، وتمضي يمينًا فتعبر منطقة «كاوطان» على أن تجعل من هذا الإقليم مركزًا للمؤن والذخيرة، ثم تدفع بالعربات الخفيفة ونخبة من أمهر الفرسان على صهوات جيادهم باتجاه «يونمن» (المدخل الغربي لعاصمة تشي)، وبهذه الطريقة تُحقق غرضَين: الأول، أن تُهدئ من روع الملك وتشيع في نفسه الشعور بالأمان والطمأنينة، والثاني أن تتخلَّص من الوزير تسوجي الذي سيفرُّ هاربًا من البلاد على الفور، وإلا فلا أظنُّك تستطيع أن تدخل تشي أبدًا بعد ذلك.» غير أن القائد تيانجي لم يأخذ بهذه الخطة، وبالتالي لم يتمكن من العودة إلى تشي.

لمَّا فرَّ تيانجي هاربًا من دولة تشي

لمَّا فرَّ القائد تيانجى هاربًا من تشي إلى دولة تشو، فقد حل الوزير تسوجي محله في القيادة العسكرية وصار بذلك يُمارس السلطتَين: المدنية والعسكرية، ولما كان يخشى في قرارة نفسه أن يعود إليه تيانجي — خصمه اللدود — منافسًا في سلطاته ومزاحمًا لمكانته ونفوذه مُستندًا في ذلك على دعم ومؤازرة دولة تشو له (فقد ذهب الوزير دوها — المهاجر من موطنه الأصلي: «تشو»؛ ليعمل في بلاط تشي — وسأله أن يُعينه في هذا الأمر، فقال له دوها:) قال: «دع لي هذا الأمر، وسأعمل على أن يبقى «تيانجي» في تشو مدى الحياة.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

[سافر دوها إلى تشو] والْتقى بجلالة الملك وقال له: «إن السبب في عدم توطيد أواصر الصداقة والمودة بين جلالتكم وتسوجي يكمُن في أن هذا يخشى من أن يتَّخذ القائد الهارب تيانجي من قوة تشو عونًا له للعودة إلى تشي، وأرى أن تتكرَّم جلالتكم بالإنعام على تيانجي بمنحه إقطاع أرض «جيانان» مما يُلمِّح بوضوح إلى مسعاكم لتوفير الأسباب الداعية له بالبقاء في تشو مدى حياته، [وهو ما سيُقابل بالتقدير البالغ من جانب تسوجي الذي سيرد الجميل مضاعفًا و...] ستحمل الرسل إليكم أثمن الهدايا من تشي، ولا بد أن تيانجي بوصفه وصِفته هاربًا من مسقط رأسه، سيلقي تفضلكم عليه بالمنحة الملكية ببالِغ الامتنان والعرفان، فإذا أتيح له مستقبلًا أن يعود إلى وطنه تشي، فلن يتأخر عن أن يُسدي إليكم خدماته على النحو الذي يرضيكم ويُحقق مصالحكم، فتلك — إذن — هي الوسيلة التي يُمكنكم بواسطتها استغلال كلٍ من تسوجي تيانجي معًا بطرق مختلفة، لكن لمصلحة غرض واحد.» وقد تفضَّل ملك تشو بمنح الإقطاعات المذكورة للقائد الهارب تيانجي.

لمَّا تفانى الوزير تسوجي

تفانى الوزير تسوجي في خدمة ملك تشي، وقام بترشيح العديد من المؤهَّلين للعمل في البلاط الملكي، لكن جلالته لم يرضَ عنهم وبَدَا عليه الاستياء البالغ، أما الوزير «يانشو»، فبرغم مكانته المرموقة ونفوذه المهيب، لم يرشح للعمل في القصر سوى قليل جدًّا من الأفراد، [... ومع ذلك فلم يجد اعتراضًا من الملك، بل ...] كان جلالته يُبجله ويُحبه كثيرًا. وذهب تسوجي إلى الملك وقال له: «بلغني أن الناس تقول إن ولدًا بارًّا بأبويه لا بأس به، لكن خمسة أولاد بررة أفضل كثيرًا، فماذا لو زاد عدد من يُرشحهم الوزير يانشو للعمل في البلاط العتيد، أما ترى إلى قلة عدد من يختارهم للعمل يا مولاي؟» فمن ثم وقع في ظن الملك أن يانشو يحُول بين ذوي الكفاءة والمؤهَّلين وبين العمل في القصر.

لمَّا كان الوزير تسوجي ذا وسامةٍ وملاحة

كان الوزير الأكبر تسوجي جميل الطلعة، وسيمًا، حلو الملامح، ذا طول فارع بلغ ثمانية أذرع (= حوالي مائة وتسعين سنتيمترًا)، وكان يرتدي في الصباح أجمل ثيابه، ويتلفَّع بالشيلان المُزركشة الجذابة، ويضع على رأسه قُبعته فينظر طويلًا في المرايا، وكان قد قال

ذات مرة لزوجته: «أيُّنا الأجمل أنا أم «شيوكون» المُقيم ببلدة «تشيني»؟» فأجابته: «بل أنت الأكثر ملاحةً ووسامة، فأين هو مما فُزتَ به من جمال ورشاقة.» أما شيوكون المُشار إليه والمُقيم ببلدة تشيني، فهو من مواطني دولة تشي، وذاعت شهرته بين الممالك لما تميز به من وسامةٍ وجمال ملامح ورشاقة قدٍّ وتناسق بنيان، ولم يكن تسوجي يُصدق أنه أجمل من شيوكون هذا، فراح يسأل محظيته الأثيرة لديه قائلًا: «أينا أحسن وجهًا وأتم حسنًا أنا أم شيوكون؟» فردَّت عليه: «وكيف يُمكن لشيوكون أن يكون في تمام بهائك وجميل ملامحك؟!» وفي اليوم التالي نزل عليه ضيف من سفر بعيد، فبينما هما يتسامران سأل ضيفه قائلًا: «أقسمتُ عليك إلَّا صدَقْتَني القول، أيُّنا أشدُّ جمالًا وجاذبية؛ أنا أم شيوكون؟» فأجابه: «شيوكون لا يُدانيك في الجمال شيئًا.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

ومرَّ يوم آخر، وتصادف أن نزل شيوكون نفسه على الوزير تسوجي، فراح هذا يتفحَّصه مليًّا، غير مُصدق أنه يمكن أن يكون أجمل من كل هذا البهاء والحُسن الفائق المجسَّد في ذلك الفتى الرائع الأنور المُسمَّى شيوكون، وأخذ يتطلَّع في المرآة، وهو يشعر أنه أقل جمالًا من الرجل الآخر، وحلَّ المساء وهو مُتكئ على فراشه يُفكر في هذا الموضوع، ثم تمدَّد راقدًا وقد اقتنع بأنه أحقر حظًّا من الحُسن والوسامة، وراح يفكر في نفسه قائلًا: «كذب من قال إني جميل، تلك كلمة باطلة، لم تقُلها الزوجة إلا مودة، ولا المحظية إلا خوفًا، ولا الضيف إلا نفاقًا.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وذهب تسوجي إلى الملك فركع عند الأعتاب الملكية، وقال لجلالته: «إن خادمك المُطيع يا مولاي يعلم أنه أقل جمالًا من شيوكون، ومع ذلك فقد زعمتِ الزوجة أنه الأجمل مرضاةً له، وكذلك زعمت المَحظية خوفًا، والضيف نفاقًا وطمَعًا، واليوم أتطلَّع — أنا خادمك — حولي وأتأمَّل الأحوال، فأجد أننا في بلد مُحيطه ألف لي (= حوالي ألف ميل) تشتمل على مائة وعشرين مدينة، وليس بين القصر ولا وزرائه المُقربين واحدًا لا يُجامل الملك ترضيةً لخاطره، وليس بين رجال البلاط فرد لا يخافك يا مولاي، وليس في أركان الدنيا الأربعة التي حولنا مخلوقًا واحدًا لا يُنافق سيد العرش طمعًا ورياء، ومن ثم فما أثقلها من غلالة

تحجب عن ناظريك مرأى الحقيقة.» ولم يلبث الملك بعدئذٍ أن أصدر بيانًا ملكيًا هذا نصه: «(السادة) جمهور الوزراء ورجال الدولة، عموم الموظفين الرئيسيين المواطنين، قرَّرنا (نحن ملك تشي) منح جائزة التفوق الأول لكلِّ من صرَّح إلى الملك شخصيًّا (حرفيًّا: وجهًا لوجه) بما يراه من عيوبٍ وأخطاء، أما جائزة التفوق من الدرجة الثانية فستُمنح لكل من كتب إلينا بانتقاداته ونصائحه، وستكون جائزة الجدارة من الدرجة الثالثة والأخيرة لكل من ناقش علنًا في مراكز المدن الرئيسية مثالب الحكم، وقدمَّ رؤاه وانتقاداته.»

الجزء الرابع من الفصل نفسه

فما إن نُشر البيان علنًا حتى أقبلت وفود الوزراء بنصائحهم واقتراحاتهم وقد غصَّت بهم ردهات القصر وممرَّاته حتى بدت مثل الأسواق التجارية المُكتظة بالباعة والجائلين، فلمَّا انقضَت بضعة أشهر، كان يتوافد على القصر بين الفينة والفينة بعض أفرادٍ قلائل يُقدِّمون توصياتهم وانتقادتهم، وبعد عامٍ كامل، كان لا يزال هناك البعض ممَّن يأتون ويحملون في طيَّات صدورهم آراء مختلفة، لكنها كانت تعليقات لا انتقادات ولا نصائح، فلمَّا ترامت تلك الأنباء إلى كلٍّ من دولة جاو، ويان، وهان، ووي، فقد بادرت جميعها إلى القدوم لدى الأعتاب الملكية لدولة تشي حيث قدمت مواثيق الولاء لجلالة الملك وأذعنت لسلطانه، فكان ذلك إيذانًا لما سُمِّي فيما بعد بـ «الانتصار على العدو من داخل فناء القصر.»

لمَّا تقدمت دولة تشين بطلب

تقدمت دولة تشين إلى كل من وي وهان بطلب السماح لها بالمرور عبر أراضيها في طريقها للهجوم على دولة تشي (وفي تلك الأثناء) اجتمع الملك شيوان حاكم تشي إلى واحدٍ من أعظم القادة العسكريين في جيشه، القائد «جانزي»، وأمره بقيادة الجيش والاستعداد لملاقاة الهجوم القادم من دولة تشين، (وفي الموقع المُحدد للعمليات) كان الجيشان يتخذان مواقعهما على خطوط متقابلة والمُراسلات تترى بين البلاد، هذا بينما كان القائد جانزي يُجري تعديلًا على الرايات وملابس القوات، ويتسلل بجنوده إلى داخل صفوف قوات تشين (المُعادية)، وأسرعت (وحدات) الاستخبارات العسكرية لتُبلغ ملك تشي بأن قائده قد تقدَّم بقواته بين صفوف جيش تشين، فلم ينبس جلالته بكلمة، وظل هادئًا دون مكانه لا ينفعل ولا يرد بشيء، وظل هكذا حتى بعد أن انهالت عليه التقارير من الجبهة بنفس هذا المعنى،

لدرجة أن واحدًا من كبار الموظفين الرسميِّين دخل على الملك وسأله مُندهشًا: «جاءتنا التقارير يا مولاي، بما يُفيد أن جانزي قد خسر المعركة من أولها، وهو النبأ الذي أجمعت عليه كل المصادر، رغم تنوُّعها واختلاف مواقعها، فلماذا لا تُسرع جلالتك بإرسال قوات الاحتياطي تحت إمرة أحد القادة الكبار لضرب جانزي الخائن وقواته العميلة؟»

وأجاب الملك بكل هدوء وثقة: «ليست هناك خيانة ولا عمالة، ولا داعي لضربه، والموضوع كله يبدو لي مفهومًا تمامًا.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

ولم يمضِ وقتٌ طويل، حتى تردَّدت أنباء عن هزيمة قوات تشين أمام جيش تشي بقيادة «جانزي»، وأعقب ذلك حدثٌ مُدوٍّ إذ تقدَّم حاكم تشين باعتذارٍ رسمي إلى دولة تشي عما اقترفته بلاده من أخطاء في حقِّ جارتها، وراح الأمراء يتوافدون على بلاط تشي، ويُهنئون جلالة الملك شيوان، ويسألون في دهشة عما جعل الملك يثِق في ولاء أمير الحرب جانزي بالدرجة التي أوحت إليه — برغم ما شاع أثناء القتال — بعدم خيانته لبلاده وللعرش الحاكم؟ فأجاب جلالته قائلًا: «كانت السيدة «شيه» أم هذا القائد البطل قد أتت فعلةً لم يستطع زوجُها والد جانزي أن يغفرها لها، فلم يتمالك إلا قتْلها ودفْن جُثتها في إحدى الزرائب المهجورة، ولمَّا كبر ابنها جانزي وصار قائدًا مغوارًا وعيَّنته في منصب أمير الجيوش فقد حاولت أن أحثه على الإقدام والبلاء الحسن في القتال، ووعدته إذا عاد بالنصر المُبين أن أنقل رفات والدته إلى أكرم مدفنٍ يليق بأمٍّ واحدٍ من أنبل الأبطال، وأشجع الرجال، فإذا به يردُّ عليَّ قائلًا: «لستُ يا مولاي عاجزًا عن أن أُهيِّئ لها مقبرة لائقة، لكنها كانت في حياتها قد ارتكبت ما استحقَّت عليه عقاب والدي، ثم إنه لم يترك لي وصيةً إبان وفاته يذكر فيها ما ينبغي عمله إزاء رفات أُمِّي وما إذا كان الواجب أن أنقلها إلى مدفنٍ آخر، ولست بالولد الذي يعقُّ أباه حيًّا أو يعصاه ميتًا، ولذلك فلن أحاول ما حييت نقلَ رُفاتها إلى مكانٍ آخر.» فهل لِمثل هذا أن يعصي سيده الحي (وهو الذي يشقُّ عليه خذلان ولي أمره الميت؟)

لمَّا استعدَّت دولة تشو لمهاجمة تشي

لمَّا أعدَّت دولة تشو العدة لمهاجمة تشي، وراحت دولة «لو» توطِّد علاقاتها بدولة تشو، مما أثار قلق تشي، وهنالك ذهب (الوزير) «جانكاي» وقال للملك: «ابعث بي يا مولاي إلى

دولة «لو» وسأسعى بكل جهدي أن أُقنعها باتخاذ سياسةٍ مُحايدة.» وهكذا أوفدته دولة تشي إلى دولة لو، حيث الْتقى بحاكِمها جلالة الملك «كانغ» الذي ابتدره قائلًا: «أحقًّا أنكم في تشي قد أصابكم الذُّعر والهلع لِما بلغكم من أنباء؟» فأجابه جانكاي: «لا أدري عن أي شيءٍ تتحدث جلالتكم، لكني موفد إليكم لمُواساتكم.» فاستغرب الملك قائلًا: «ولماذا، وفيمَ تُواسينا؟» فأجابه: «فيما سيحيق بكم من هلاك، إذ تفشل خُطتكم بعد أن تتحالفوا مع المهزوم وتهملوا المُنتصر الفائز دون مُبرر معقول.» فقال له كانغ: «ففي ظنِّك أي الفريقين غالب: تشو أم لو؟» فأجابه: «لا أنا ولا الشيطان يستطيع أن يتكهَّن بذلك.» فقال الملك: «فعلامَ إذن تُواسيني؟ على شيءٍ يحدث لاحقًا في قادم الأيام؟» فقال: «تعلم يا مولاي أن تشو وتشي متكافئتان في القوة عدةً وعتادًا، ومن ثمَّ فهُما لا تكترثان بتحالُفك مع أيهما تحالفت أثناء المعارك، فإذا ما توثَّقت عرى صداقتك مع المُنتصر منهما بعد انتهاء القتال، فلن تتمكَّن من أن تحافظ على موقفك الحيادي بطبيعة الحال، فإذا انتصرت تشو فستبقى لدَيها قوات تتمكن من صدِّ أي محاولة لاحتلالها، برغم ما سيكون قد أصاب تلك القوات من خسائر أثناء العمليات، أما إذا كانت تشي — على العكس من ذلك — هي الظاهرة على عدوتها، فلن تكون بحاجةٍ إلى دعمٍ من أي طرف خارجي، وهكذا فإن ذهابك إليها على رأس جيشك لتهنئتها وعقد التحالُف معها سيُصبح بمثابة كرم بالِغ وفضل عميم من جانبكم.» وتأمل الملك هذا الرأي فاستصوبه وقام على رأس قواته بنفسه وكرَّ راجعًا.

لمَّا قامت دولة تشين بمهاجمة وي

لمَّا قامت تشين بمهاجمة وي، قامت الوحدة على الفور بين كلٍّ من هان، جاو، وي، وعندئذٍ ذهب «شنجن» (أحد أبرز المُناظرين السياسيين في دولة تشي سابقًا، وهو وقتئذٍ موظف كبير ببلاط دولة وي) إلى الجانب الشرقي، فتوجَّه إلى دولة تشي والتقى بجلالة الملك «مين»، وقال له: «كان الحكماء والنبلاء فيما مضى يشنُّون الغارات يقودون الحملات بهدف إصلاح شئون الممالك والقيام على شئونها بما يضمن لهم اكتساب الألقاب الشريفة وتحصيل المآثر الطيبة والذكرى الباقية بعدَهم يتوارثها الأحفاد عن الأجداد، أما ما يدور اليوم من قتالٍ مرير بين الدول الست: تشي، تشو، يان، جاو، وي، ليانغ، فلا يدع مجالًا لتحصيل أي شرف، إذ استهلكت الدول طاقاتها فيما يضعف قوتها ويدعم بالمقابل من نفوذ ومكانة

وسيطرة تشين فوق الجميع، ولم تكن هي المصلحة العُليا للدول الواقعة شرقي جبل هواشان، ذلك لأن الدولة الوحيدة التي يُمكنها تهديد استقرار الدول الشرقية هي بالطبع «تشين الكبرى» ومع ذلك فلم تكلف الدويلات نفسها عناء التفكير فيما تُمثله تشين لهم من تهديد، بل انخرطوا جميعًا في منازعات ومواجهات قتالية أنهكتهم وكانت الخسارة من نصيب الجميع، بينما الفائز الوحيد هو تشين نفسها التي فتحت فمها الواسع لتلتهِم الكل دفعةً واحدة، فهذا هو ما يدفعني للقلق على أحوال الدول الست الشرقية، فها هي ذي الدويلات تزج نفسها بسكينٍ دون أن تنحر تشين لها رقبة، وهاؤم المُتسافكون يتقلبون في إناء يَغلي بالمشاحنات ويفور بالنزاعات من دون أن تُشعل تشين في ذلك لهبًا، فيا لها من داهية صناع! ويا لهم من غُفل مناكيد. ليتك يا مولاي تعي وتبصر.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وقد قيل قديمًا إن الأباطرة الخمسة والملوك الثلاثة، والطغاة الخمسة جميعهم قد جيَّشوا الجيوش وحاربوا الحروب (على تنوع واختلاف طبائعهم ونظمهم وأهدافهم)، لكنها كانت حروبًا ضد الظلم والطغيان، أما الحرب التي تشنُّها تشين على الدويلات الآن، فهي تسلك طرقًا وتُعلن أهدافًا مغايرة تمامًا، وهكذا تهلك (الشعوب) تحت نِير الأسر والاحتلال، ويسقط الملوك في حمأة الهوان، ولئن كانت دموع الأهالي في وي وهان لم تجفَّ بعد، فقد أعفت الأقدار مواطني دولة تشي من مُلاقاة نفس المصير لا بسبب تقرُّب تشي ونفورها من وي وهان، بل بسبب ابتعاد تشي عن تشين وقرب الأُخريَين منها، واليوم فها هي ذي تشي توشك على الاقتراب من الدول الكبرى، بينما تسعى هذه الأخيرة لغزو بلدتَي «جيانغ» «وآن» التابعتَين لدولة وي، فإذا ما تمَّ لها ذلك — إذن — لصارت تمد حدودها بمُحاذاة النهر الأصفر، وتسيل مع مجراه جهة الشرق حتى تبسط نفوذها على جانبي النهر وتُهدد تشي، فإذا بسطت نفوذها فوق كامل أراضي تشي، وتَحقَّق سلطانها فوق الأرض الفسيحة، المُمتدة من شاطئ النهر إلى شاطئ البحر الكبير [وتصير تشين «تسين، أو الصين» تحريفًا، إمبراطورية واسعة الأرجاء [فتطل جنوبيها على ثلاث دول معزولة هي: تشو، هانكو، وي، وترنو شماليها إلى اثنتَين متباعدتَين هما: يان وجاو، وهو الوضع الذي لن تجد معه تشي مَخرجًا من عُزلتها المحتومة، وكل ما أرجوه من جلالتكم هو أن تتأمَّلوا الأحوال جيدًا.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

بالنظر الى الوضع القائم الآن، نجد أن الدول الثلاث: هانكو، جاو، وي، قد اتحدت ثلاثتها فيما يُشبه الرباط العائلي الوثيق، وقد جمعت بينها مشاعر الإخاء ومعاني التكافل، وقد اتفقت فيما بينها على إرسال أكفأ القوات المزوَّدة بأمضى الأسلحة لحماية منطقتي آن، وجيانغ بدولة وي، وأري أنه إذا لم تُسارع تشي بالانضمام إلى تلك الوحدة الثلاثية، وبإرسال خيرة قواتها لتشارك في المجهود الحربي الجماعي، فسوف تتعرَّض لعواقب وخيمة، ومن المعلوم أن تشين لم تعُد تستطيع مهاجمة وي بعد حصول الاتحاد الثلاثي المشار إليه، وهكذا فسوف توجِّه تهديدها ناحية الجنوب إلى دولة تشو، وعندما يقع القتال بين تشين وتشو ستنظر دول الوحدة إلى موقف تشي السلبي نظرة ملؤها الغيظ والارتياب، ولا بد أن ثلاثتهم سيدفعون بقواتهم صوب الشرق لُمهاجمتها؛ فلذلك أشرت آنفًا إلى احتمال تعرض تشي لمتاعب جمَّة في المستقبل، إذا لم تبادر — وعلى الفور — إلى الانضمام لدول الوحدة الثلاثية والمشاركة بقواتها في التشكيلات القتالية الموحَّدة.» وبالفعل فقد وافق جلالة ملك تشي على هذا الاقتراح وشارك بقواته تحت قيادة دول الوحدة التي أعلن انضمامه رسميًّا إليها.

لمَّا ذهب سوتشين إلى دولة تشين

لمَّا أخذ «سوتشين» على عاتقه دعم ومساعدة انضمام جاو إلى دول المحور الشمالي/الجنوبي، توجَّه على الفور للقاء الملك «شيوان» — حاكم تشي — لمناظرته ومحاولة إقناعه بهذا الأمر، فلمَّا التقى بالملك قال له: «فلتتأمل يا مولاي حدود مملكتك، ففي الجنوب تحدُّها جبال «تار»، وفي الشرق جبال «لان شان» وإلى الشرق يُوجَد نهر «جي» وفي الشمال بحر «بوهاي»؛ فالحدود في الجهات الأربع تتميَّز بما يُطلق عليه «الموانع الدفاعية الطبيعية»، فأما المساحة الإجمالية فيبلُغ مُحيطها ألفي لي، وعدد الجنود لابسي الدروع يزيد على المائة ألف مقاتل، والرصيد الحالي من الحبوب يملأ المخازن والغلال، كما أن العتاد العسكري من العربات والمَركبات [في أتم استعداد] بحالةٍ ممتازة، بالإضافة إلى ما تحظى به تشي من دعمٍ عسكري من الدول الخمس، وهو ما يجعل انطلاق قواتكم العسكرية [في حالة نشوب القتال] أمضى من مُروق السهم إلى المرمى، فهي في الكرِّ أشد من هدير الرعود، وفي الفرِّ أسرع من الريح وأخف من زخَّات المطر، ولا يفزعها دخول

العدو إلى أراضيها، لأنه لن يقدِر على التمركز مستندًا إلى جبالٍ منيعة وراء ظهره، أو يعبر نهر «جي» بسهولة، أو يتجاوز بحر «بوهاي» [بغير خسائر فادحة، فإذا أخذنا في اعتبارنا أن] مدينة «لين تزي» — العاصمة — يسكنها نحو سبعين ألف أسرة، وقد أجريت تقديرًا مبدئيًّا، بحساب ثلاثة ذكور على الأقل في كل أسرة، وهو ما يعني أن العاصمة وحدها يمكن أن تُهيئ للخدمة العسكرية مائتي وعشرة آلاف مقاتل، بخلاف الحراس والمدافِعين عن الأماكن النائية، مع ملاحظة أننا نتحدَّث عن واحدة من أكثر عواصم الدول ثراءً ورفاهية، حيث الحياة الرغدة، الهانئة التي تُنعِّم الأُسر وسط مظاهر الترف التي ترفل في ثياب ناعمة، بينما تتهادى في الأسماع أصوات المعازف، وصدح القيثارة ورنة العيدان، وفي كل ركن تجد الناس موفورة النشاط، تملأ الحياة صخبًا في الطرقات والأسواق حتى لكأني إذا حللتُ المآزر والقمصان من فوق الأبدان استطعت أن أصنع بها خيمة تحجب نور الشمس فوق الكون كله، أو أصنع منديلًا أُجفف به العرق السائل فوق الجباه وأيادي العاملين، لكثرة ما احتشد في النفوس من طاقة وطموح، ولشدة ما عمرت به الحياة من كدٍّ وعمل. هذا وقد استقر العُرف بين الممالك والدويلات [المجاورة] أنكم بما تتصفون به من حكمةٍ وسؤدد وشرف، أقدَرُ من يُجار به، ويُستند عليه في المِحَن والشدائد، فالكل يعيش في كنف مجدك مُستظلًّا بفيء عزتك وجلالك، ولهذا أكاد لا أُصدق أنكم تُفكرون في الذهاب إلى تشين تعظيمًا لشأنها بين الأمم، وخدمة لمصالحها، ولا أُخفي على جلالتكم مدى شعوري بالخزي لو قُدِّر لي أن أقف اليوم موقفكم.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

«واسمح لي يا مولاي، أن أوضح لجلالتكم أن سبب خشية هان، ووي من تشين يرجع إلى أنهما تقعان على حدودها، فتتلاصق جميعها بحكم الجوار، فإذا ما حدث صدام عسكري مُسلح بينهم، فسوف تُحسَم احتمالات النصر أو الهزيمة خلال بضعة أيام فإذا تمكنت كلٌّ من وي وهان من النصر على تشين، فستكونان كلتاهما قد خسرتا نصف قوتهما الضاربة، بينما تنكشف حدودهما؛ لضعف دفاعاتها، حتى إذا عجزتا عن تحقيق النصر فستُضطرَّان إلى مواصلة الشوط القتالي إلى آخِره وتسقطان مع آخر ضربة سيفٍ في المعركة؛ فلذلك تتردَّدان في الاشتباك مع تشين خشية أن ينتهي بها الحال إلى السقوط تحت جحافلها، والخضوع لسطوتها.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

«أمَّا إذا قامت تشين اليوم بمهاجمة تشي، فالأمر يختلف تمامًا؛ لأنها [تشين يعني] ستتقدَّم ووراءها أرض وي وهان، وأمامها منطقة «يانجين» (التابعة لدولة ويه) التي سيتحتَّم عليها عبورها كي تمر عبر المانع الطبيعي المُتمثل في ممر «كانفو» حيث تسير العربات فُرادى في موكب تتبع إحداها الأخرى، وكذلك تركض الخيول واحدًا في إثر الآخر، لأنه يصعب أن يمرَّ منه فَرسَان متجاوران، ويُصبح أقل عددًا من جنود الحراسة المُكلفين بالدفاع عن تلك الموانع الطبيعية يُشكل تهديدًا هائلًا لأكبر الجماعات المُتقدمة من جيش تشين الذي سيقع في براثن الخوف وتستولي عليه الهواجس في كل خطوة للأمام، ويصير مثل ذئب مسعور يخشى أن تنقضَّ عليه وي وهان من خلفه، وينظر أمامه عاجزًا عن التقدُّم؛ وهكذا لا يمكن لـ «تشين» أن تُهدد تشي بأي حال، وهذا واضح ومفهوم [على النحو الذي بينتُه] غير أني لا أستطيع أن أتكهَّن بدقة حول ما تعجز تشين أن تفعله بنا، وقصارى ما يمكن التأكُّد منه الآن هو القول إن خطة رجالك القائمة على الذهاب إلى الغرب لتقديم الولاء لدولة تشين، تُعد من قبيل الخطأ الفادح، ولئن كانت خطتي المقترحة على جلالتكم تخلو من هذا البريق اللامع الذي يسطع بأنوار التحالُف مع تشين، إلا أنها تشتمل على احتمالات مُثمرة لتحقيق أهداف البلاد في الازدهار والقوة والمجد، وكل ما أرجوه من جلالتكم هو توخِّي الدقة والانتباه عند وضع الخطط السياسية.»

الجزء الرابع من الفصل نفسه

ثم إن الملك شيوان — حاكم تشي — تكلم قائلًا: «ما أشدَّ غفلتي وقلَّة تبصُّري! إنني بعد إذ وعيتُ نصحك لي اليوم يا سيدي، سأقبل باسمي وباسم شعبي ومملكتي ما ترَونه من خطط وتوجيهات.»

لمَّا ذهب تشانغي إلى الملك شيوان

ذهب «تشانغي» إلى الملك «شيوان»، حاكم تشي، لمناظرته (ومحاولة إقناعه) بشأن تصوُّرات تشين للانضمام إلى المحور الرأسي (الشمالي الجنوبي)، فقال لجلالته: «لا يُوجَد بين الممالك مَن تُطاول تشي عزةً ومجدًا ومكانة، وليس بين رجال الدول في الممالك المختلفة ولا بين المواطنين ولا القبائل كلها أو العشائر، مَن ينعم بالرخاء والاستقرار مثلما يتمتع وينعم

أهل تشي، ومع ذلك يأتي إلى بلاطكم الأفخم من لا يفقهون شيئًا في أمور التخطيط السياسي، ويخبطون خبط عشواء في مجاهل لا يُجيدون مسالكها، وبالتالي يعجزون عن تقدير المصالح على نحوٍ سليم، خاصة على المدى البعيد، ولا بد أن المُخططين الذين اقترحوا فكرة الانضمام إلى المحور الشمالي الجنوبي قد ذكروا — لجلالتكم — (تدعيمًا لوجهة نظرهم) أن الحدود الغربية لبلادكم تقع بمحاذاة الدولة القوية جاو، وفي الجنوب تتماسُّ مع وي وهان، وأنها تستند إلى موانع طبيعية أهمها بحر «بوهاي»، بالإضافة إلى اتساع المساحة ووفرة السكان وشجاعة وكفاءة المقاتلين، وأن مائة دولة في حجم تشين لا تقدِر أن تمسسكم بشيء، هذا وقد أخذتم في اعتباركم بهذه التصوُّرات وصدقتم عليها دون المراجعة الدقيقة لنتائجها الحتمية وآثارها الفعلية.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

«إنَّ الذين يقترحون فكرة الانضمام تحت لواء المحور، يتكتَّلون حول الاقتناع بإمكانية قيام التحالُف المحوري، وقد بلغني، فيما بلغني من أنباء الزمان يا مولاي، أن القتال قد نشِب ثلاث مراتٍ بين دولتي تشي ولو، وكانت هذه الأخيرة هي المنتصرة في المرات الثلاث، إلا أنها — في نهاية المطاف — وقعت في دائرة المخاطر حيث ساءت أحوالها ثم هلكت وبادت تمامًا، وهكذا نجد أنها حصلت من النصر على قناعه الزائف، بينما أخذت من الهزيمة جوهرها الدفين، فهل تعرف السبب في ذلك يا مولاي؟ السبب أن تشي كانت تحوز القوة الفعلية، بينما كانت «لو» أضعف منها كثيرًا، فإذا ما قارنَّا بين جاو وتشين [وجدنا الحال] مثل ما بين تشي ولو؛ إذ قامت الحرب بينهما في موقعة نهر «جانغ» وانتصرت جاو على تشين مرتَين، ثم تجدد القتال بينهما مرة أخرى في موقعة «بوهو» [مدينة بدولة جاو]، وانتصرت جاو على تشين مرتين أيضًا؛ وبعد هذه المواجهات الأربع، كانت حصيلة القتلى من جنود جاو قد جاوزت عشرات الألوف، وقد احتفظت هذه بالعاصمة هاندان، بشقِّ الأنفس، وبرغم انتصارها البادي على تشين، إلا أنها تخرَّبت وانهارت بصورة مفزعة، فما السبب في ذلك يا تُرى؟ السبب بوضوح أن تشين دولة كبرى، قادرة وقوية، بينما جاو أصغر وأضعف [ثم دعك من هذا كله وتعالَ نتأمَّل الحال] اليوم حيث تم عقد قران أميرة من «آل تشين» على حاكم تشو؛ وبهذه المُصاهرة تُصبح الدولتان أختَين شقيقتَين، [أضف إلى ذلك أن] هان قدمت مدينة «إيانغ» هديةً لعرش تشين الكبرى، تقربًا ومودة بينما أهدت إليها دولة وي جزءًا من الأرض الواقعة جنوب النهر الأصفر، أما مواطنو جاو فقد توافدوا

إلى مدينة «ميان شي» تحيةً وإجلالًا لدولة تشين، بينما أهدى البلاط الحاكم مساحات من الجزر النهرية إلى حاكم تشين، فإذا لم تظهر لدى جلالتكم أية نوايا لتعظيم شأن تشين وإبداء الولاء والطاعة لها، فسوف تلجأ إلى الوسائل الكفيلة بدفع كلٍّ من وي وهان لمهاجمة الحدود الجنوبية لبلادكم وتُطلق قوات جاو لعبور نهر «تشينغهاي» بحيث تقتطع من سلطانكم المدن الثلاث: بوكان، لين تسي، جيمو؛ فإذا ما قُدِّر لبلدكم أن يسقط تحت هجوم الغزاة، فلن يستطيع حينئذ، حتى لو أراد في طواعيةٍ أن يسعى بأي وسيلة لاستمالة تشين إلى صفِّه؛ ولذلك فإني أرجو من جلالتكم أن تأخذوا بعين الاعتبار المراجعة الدقيقة لمجمل هذه الأمور.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

قال الملك شيوان: «إن بلادنا، تشي، تقبع في قطعة نائية من الأرض بمحاذاة البحر الشرقي «دونهاي»، وقد بقِيَت هكذا دهورًا طويلة، ولم نسمع في حياتنا عن شيءٍ اسمه خطة سياسية «لتحقيق المصالح على المدى البعيد» ولئن كان من المصادفات السعيدة أن تُوافينا بما جئتَ به اليوم من نصح وتدبير — إكرامًا لمكانتك ضيفًا جليلًا علينا — فإني أتقدم ببلادي كلها لبلاط تشين الأفخم.» ثم إن الملك أهدى تشين ما مساحته ثلاثمائة لي من أغنى الأراضي بالأملاح والمزارع السمكية.

سجل تشي الثاني

لمَّا تحالفت دولتا تشي وهان

لمَّا تم التحالف بين تشي وهان، قام «تشانغي» على رأس قوات تشين ووي لغزو هان، وعندئذٍ قال الملك شيوان حاكم تشي: «لن أتأخر عن دعم ومساندة هان حليفتنا أمام الهجوم الذي تتعرَّض له من تشين.» وتحدَّث رئيس الوزراء «تيان شنس» (لقب تيانجي الرسمي) قائلًا: «ليس هذا بالتدبير السديد يا مولاي، وكان أجدر بجلالتك أن تترك الأمور تسير وفق مجراها، وقد كان الأمير «تيسيكواي» — أمير دولة يان — (في بدء الحال) تنازل عن العرش لرئيس وزرائه «تسيجي» ثم إن الناس فوجئوا بهذا الوضع الجديد على غير رضا، وبالتالي فقد تراجعت عن مساندته [وأعرف كذلك] أن الأمراء غير متحمِّسين لتوثيق العلاقات معه. وهكذا، فإذا ما قامت تشين بمهاجمة هان، فسوف تلقى هذه دعمًا من دولتَي جاو وتشو، وهو ما يعني أن دولة يان ستسقط في أيدينا ثمرةً يانعة (هدية من السماء) دانية القطف.» وهنالك وافقه الملك شيوان على رأيه وراح يتظاهر أمام مبعوث دولة هان باستعداده للقيام بالمساندة المطلوبة، ثم ودَّعه عائدًا إلى بلاده.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

أخذت دولة هان في حسبانها جدِّية ما بينها وبين دولة تشي من علاقات دبلوماسية، واطمأنَّت إلى هذا الاعتبار، ودخلت في سجال قتالي مع دولة تشين، فأسرعت تشو وجاو إلى تقديم العون لها، أما دولة تشي فقد انتهزت فرصة القتال الدائر بين تشين وهان وقامت بمهاجمة دولة يان، فما انقضى شهر واحد حتى كانت قد استولت عليها بالكامل.

لَمَّا مات جلالة الملك هوي حاكم تشين

مات جلالة الملك هوي حاكم تشين، فخلفه على العرش الملك «أو» [كما تُنطق في المسئولية] وكان تشانغي مستشارًا ورئيسًا لوزراء الملك الراحل، وظل يعمل في منصبه إبَّان ولاية الملك الجديد، وكان كبار الوزراء والمُقربين إلى العرش يبغضون تشانغي فراحوا يُوغرون عليه صدر الملك «أو» بزعم أنه لم يكن جديرًا بثقة الملك الراحل فيه لخيانته وغدرِه، فما زالوا يحثون الملك على عزله حتى جاءت إلى القصر رسالة من حاكم تشي يعترض فيها على بقاء تشانغي في منصبه، وينتقِد الملك الجديد لتقاعُسِه عن اتخاذ الإجراء اللازم.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

فلمَّا بلغت تلك الأنباء مسمع تشانغي ذهب إلى الملك «أو» وقال له: «قد هداني تفكيري إلى خطةٍ متواضعة يا مولاي، أرجو أن تتكرم عليَّ بمُناقشتها معي.» فلمَّا أجابه الملك إلى ما أراد، قال له تشانغي: «لَمَّا كان من المُتوقع أن تحدث تغيرات هائلة في الأحوال العامة للدول الست الشرقية، فقد فكرتُ في أن المصلحة العُليا للبلاد تقتضي انتهاز فرصة حدوث تلك التغيُّرات لاقتطاع المزيد من الأراضي وضمِّها تحت (السيادة الوطنية) لبلدنا، وبما أن الملك «مين» حاكم دولة تشي يُبغضني ويُناصبني العداء، فلن يتورَّع عن أن يُلاحقني أينما حللت، ولن يتوانى عن أن يُصوِّب نيران حربه على البلد الذي أقطن به، لذلك فإني أفكر في الذهاب إلى دولة وي بصفتي وزيرًا سابقًا بغير سلطات، مما سيدفع تشي إلى الهجوم على وي وإعلان الحرب عليها، فإذا ما احتدم القتال بين البلدين ووصل إلى مشارف العاصمة «داليان»، أصبح السجال ضرورة حتمية بدرجة تفرض على الطرفَين المُتصارعَين الاستمرار في نزيف الدم المتبادل، وعندئذٍ تسنح الفرصة أمامكم للهجوم على هان، والاستيلاء على منطقة «سانشوان» ثم الخروج من مضيق «هان» بغير التورُّط في أية عمليات قتالية، فإذا ما تم ذلك وأصبح الجيش على مقربةٍ من عاصمة دولة جو الشرقية أمكن الاستيلاء على ودائع القربان المقدَّس التي تخصُّ أمير الدولة المذكورة على أن يتم تقييد الأمير نفسه تحت الأمر، تمهيدًا للاستيلاء على الخريطة الرسمية وسجلات قيد السكان والخزانة المالية والودائع لتُصبح جميعًا تحت تصرف جلالتكم، وهو ما يعني إرساء القاعدة الأساسية للهيمنة الإمبراطورية الكبرى.»

وعندئذٍ وافق الملك على هذه الخطة فورًا، وأمر بإعداد القوات وتوفير العدة والعتاد اللازمَين (لحملة عسكرية هائلة)، كما أصدر مرسومًا يقضي بإرسال تشانغي إلى دولة وي.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وبالفعل فقد بادرت دولة تشي بالهجوم على وي، فلما استولى الذُّعر على الملك شيانغ حاكم الدولة المُعتدى عليها راح تشانغي يقول له: «على رِسلك يا مولاي، ودعْ لي هذا الأمر وأنا كفيل بأن أُدوِّخ جيش تشي وأرغمه على الانسحاب.» ومن ثم فقد قام تشانغي بإيفاد أحد أقاربه المدعو «فنشي» إلى دولة تشو حيث استخدم أحد الأعوان من أبناء تلك الدولة للذهاب إلى تشي بصفته رسولًا قادمًا من تشو، وبالفعل فقد أنجز الرسول مهمتَه، وقبيل مُغادرته البلاد انتهز فرصة لقائه بحاكم تشي ليقول له: «بالرغم من كراهيتك الشديدة لـ «تشانغي» إلا أنك تركت مسألة تعذيبه وعقابه تحت تصرُّف حاكم تشين الذي بالَغ على عكس ما نظن جميعًا في إكرامه ومساندته.» فردَّ الملك قائلًا: «لا شك أني أبغض ذلك المدعو تشانغي بغضًا لا يتصوَّره أحد، لدرجة أني على استعدادٍ لمهاجمة البلد الذي يُئْويه، لكن بأي سند يزعمون أني أوكلت أمره إلى ملك تشين؟» فأجابه رسول تشو قائلًا: «أنا الذي زعمت ذلك يا مولاي، لأن تشانغي كان قبيل مغادرته تشين قد التقى بملك البلاد واتفق مع جلالته على تنفيذ خطة سرية تقوم على استغلال التغيرات التي تمرُّ بها الدول الست الشرقية، بحيث ينتهز ملك تشين الفرصة للاستيلاء على أجزاء من أراضيها، واستأذن تشانغي في الذهاب إلى وي بصفته وزيرًا مهاجرًا بغير مناصب رسمية، وهو يعلَم تمام العلم أنكم ستضربون وي التي اختارها من دون البلاد جميعًا ليُقيم فيها، وقال ما معناه؛ إن كراهيتكم له لن تمنعكم من ضرب البلد الذي سيحلُّ به أينما كان، ومن ثم وعندما ينشب القتال بين تشين ووي ينتهز ملك تشين الفرصة ويُهاجم هان ويستولي على منطقة «سانشوان» ويعبر مضيق هان بغير قتال، ثم يستولي على الأواني المقدسة عند مشارف دولة جو الشرقية، ويقوم بأسر الأمير ويستولي على الخرائط الرسمية وسجلات السكان ودفاتر الودائع والخزانة العامة، باعتبار ذلك كله نواة (لتحقيق مشروع) الإمبراطورية، وهو ما اقتنع به ملك تشين تمامًا، فأوفد تشانغي إلى وي على رأس سفارة عسكرية هائلة، وهأنتم قد بادرتم إلى الهجوم، وهو ما يعني استهلاك القوة الذاتية وإنهاك النفس إلى الحد الأقصى — داخل الحدود — لأجل تأمين هجوم خارجي على دولٍ متحالفة مما سيؤدي إلى زيادة رقعة العدو المجاور للحدود،

ويرهن مصير البلاد تحت أقدار الغزو المُدمر وهو ما يدعم ثقة ملك تشين في تشانغي أكثر من ذي قبل، فذلك هو مغزى قولي لجلالتكم من أنكم أوكلتم أمر تشانغي إلى ملك تشين حيث سيُغدق عليه من كرمه البالغ.» وهنالك أصدر ملك تشين أمرًا بالعدول عن مهاجمة وي.

لمَّا تحركت قوات وي للاشتباك مع تشي

لما وضعت قوات وي تحت قيادة كونسونيان وتحركت للاشتباك مع جيش دولة تشي في موقعة «تشين كوانغ» (بلدة كانت تتبع سونغ ثم انضمَّت إلى وي) فإنها لم تُحرز النصر المأمول وعندئذٍ ذهب تشانغي إلى الملك شيانغ حاكم وي وحذَّره من مغبَّة تعريض البلاد للخطر إن هو لم يأخذ برأيه ويعتمد خطته لإنقاذ الموقف، وهنالك أصدر أمرًا بتعيينه رئيسًا للوزراء، واستطاع تشانغي في ظلِّ منصبه الجديد أن يعقد تحالفًا وديًّا باسم كلٍّ من وي وتشين مع دولة تشي، إلا أن الوزير الأعظم كونسيان وقف بكل قوته ضد هذه الخطة، وسارع إلى القائم على عرش دولة «ويه» ليقول لجلالته [من بين أشياء كثيرة]: «... ليست عندي أي حساسيات أو ضغائن ضد تشانغي سوى اختلاف وجهات نظرنا حول بعض السياسات الإصلاحية الداخلية، فكِلانا يتمسك بطريقته الخاصة في إدارة هذه السياسات، وكل ما أرجوه من جلالتكم أن توضحوا له موقفي هذا.»

ولم يتوانَ الوَصِيُّ على عرش «ويه» أن ينقل هذا التفسير إلى تشانغي مقرنًا بالنصح لتفهُّم الموقف، وبالفعل فقد وعد تشانغي بالاستجابة الودية للوساطة الكريمة، وحضر الرجال الثلاثة إلى بلاط «ويه» ومثلوا بين يدَي الملك الجديد، فسارع كونسيان إلى الركوع أمام جلالته مُعلنًا قبوله للود والتآخي مع تشانغي ودعواته له بطول البقاء، فلمَّا تجهز تشانغي للمغادرة صباح اليوم التالي، اصطحبه كونسيان مودِّعًا حتى منطقة الحدود المُلاصقة لدولة تشي، فلمَّا وصلت الأنباء بذلك إلى مسامع ملك تشي، احتدَّ هُياجه واشتد غضبه على تشانغي وأخذ يهدر ثائرًا: «إذا كان تشانغي يمشي هكذا مُتأبطًا ذراع كونسيان — ألد أعدائي — فلا بد أنهم جميعًا يتآمَرون ضد بلادي في الخفاء ويُضمرون السوء لنا.» وبعدها فقد تلاشت من أفكار ملك تشي آخر احتمالات الثقة في أقوال وأفعال تشانغي.

لمَّا تحركت دولة تشو تحت قيادة جاويان

ذهب «جاويان» (قائد قوات تشو) على رأس قوات دولة تشو لمهاجمة «ويه»، فنشب القتال بين الجيشَين، واستطاعت قوات تشو أن تهزم جيش «ويه» وتقتل قائدها، وتستولي على مدن كبرى من أراضيها، بل أخذت الفِرَق تتهيأ لضرب دولة تشي، فأوفدت هذه مبعوثها «شنجن» إلى تشو، حيث التقى بالقائد المظفر قائلًا: «قل لي يا سيدي — من فضلك — ما الدرجة الوظيفية والرتبة الاجتماعية اللتان يحصل عليهما القائد الذي انتصر على القوات المُعادية، وكبَّدها خسائر فادحة، وقتل قائدها الأعظم؟» فأجابه جاويان قائلًا: «أما المنصب الذي يترقى إليه فهو (ركن الدولة الأعظم) وأما الرتبة الفخرية فهي «شان جيكوي» (حائز الوسام الأثمن).» وعاد شنجن يسأله: «فما هو أرقى منصب وأرفع رتبه فخرية؟» فأجابه: «إنه منصب ودرجة «القائد الأعلى».» فرد عليه شنجن قائلًا: «من المعلوم أن منصب «القائد الأعلى» هو أرفع المناصب والدرجات الفخرية، لكني لا أظن أن جلالة ملك تشو يوافق على أن يمنحه لرجلَين اثنَين في وقتٍ واحد، واسمح لي أن أضرب لك مثلًا في هذا، ذلك أننا لو تصوَّرنا أن أحد المتقدِّمين بالقرابين المقدسة قد أهدى أحد أقربائه كأسًا من خمر، فرغب باقي الأقارب في الشرب من الكأس نفسها، فتجادلوا وتخاصموا فاقترحوا أن تكون الكأس لواحدٍ منهم فقط على أن يتمكن الفائز من أن يرسم على الأرض تنينًا تامَّ الهيئة كامل المنظر، فوفِّق أحدهم بما طلبوا، وما كاد يرفع الكأس إلى فِمه بيده اليُسرى حتى مدَّ يده اليُمنى قائلًا إنه يستطيع أن يُضيف إلى جسد التنين المرسوم قدمَين كاملتَين، فلما همَّ برسم القدمين، كان قريبه الآخر قد انتهى من رسم صورة تنين ثانية، واختطف الكأس من يده يريد أن يتجرَّعها وهو يقول لصاحبه إن التنِّين أصلًا حيوان زاحف بغير قدمَين، فمن ذا يتصوَّر أن يُرسَم له أقدام يسعى بهما؟» وصبَّ الكأس في فمه فأفرغها كلها في جوفه، فكان الرجل الذي أجهد نفسه بإضافة القدمَين إلى صورة التنين قد خسر الكأس والشراب جميعًا. ومغزى هذا المثل أنك وقد لاقيت العناء كله إلى جوار الملك لمساندته على ضرب دولة «ويه»، حتى حققت له ما تمنَّاه وأجهزت له على القوات المعادية وقائدها في وقتٍ واحد، ثم اقتطعت له من أرض أعدائه ثماني مدنٍ كبرى بأقل تضحيات وأدنى خسائر، بل تجهزت للإغارة على دولة تشي فأوقعتَ الرعب في قلوب أهلها فأصبت من جراء ذلك كله شهرة ومجدًا لا مزيد عليهما، حتى صرتَ جديرًا بما هو أرفع من رتبة «القائد الأعلى» ولمَّا كان هذا اللقب لا يحوزه اثنان في وقت واحد (الملك وأحد رعاياه) فقد اخترت لنفسك أن تكون واحدًا من أولئك القادة الذين لا يوقِف زحفهم هزيمة، ولا يعوق تقدُّمهم عائق، فهم أكبر من

النصر وأعلى من الأقدار، بحيث يتحتم أن يمنعوا أنفسهم من مزاحمة المجد بأيديهم، ولذلك فهم ينتحِرون في آخر المطاف، بينما يفوز بالأوسمة والألقاب الفخرية آخرون غيرهم، فهذا أشبه ما يكون بإضافة قدمَين زائدتَين لجسد التنين المرسوم في الأمثولة السابق ذكرها.»
ولم يجد جاويان ما يقوله، فسكت اقتناعًا بما سمع وأصدر أوامره بالعدول عن الزحف والعودة في أسرع وقت ممكن.

لمَّا قامت دولة تشين بمهاجمة جاو

قامت دولة تشين بمهاجمة جاو، فقامت هذه بإيفاد رئيس وزرائها «لوهوان» إلى دولة تشين يعرض عليها قبول هديةٍ عبارة عن ثماني مدنٍ كبرى لتسوية النزاعات وإقرار السلام وتمهيدًا للتحالف مع تشين لمهاجمة تشي، فلمَّا وصلت هذه الأنباء إلى مسامع ملك تشي أصابه الفزع، وأرسل بدورِه إلى تشين يعرض عليه قبول هدية مُماثلة من جانبه تعبيرًا عن الصداقة وطلبًا للمُصالحة والسلام، وهنالك استولى الرعب على قلب «لوهوان» وقرَّر أن يُهدي إلى تشين أربعًا وعشرين محافظة من ولاية «شاندانغ» وأوفد جاوتسو (أحد مواطني جاو المناصرين للمصالحة مع تشي) إلى دولة تشي ليقول لحاكمها: «إذا كنتَ تفكر في تسوية نزاعاتك مع دولتي تشين وجاو، فالأفضل في كل الأحوال التحالف مع جاو للانضمام إلى محور الحلف الشمالي الجنوبي، وهو ما سيدفع جاو إلى نقض تعهداتها لدولة تشين، فإذا ما تحقق ذلك، زالت على الفور كل مخاوف دولة تشي، وحل محلها الهدوء والطمأنينة.»

لمَّا نشب القتال في منطقة تشواندي

لمَّا نشب القتال في منطقة «تشواندي» بين دولتي تشي، وجاو قامت دولة تشين بإيفاد رئيس وزرائها «رانخو» إلى جاو لحثها على دفع بعض قواتها إلى دولة «يان» للمساعدة في مجهود الإغارة على تشي. وفي تلك الأثناء، كان شوكون رئيس وزراء هذه الأخيرة قد أوفد الوزير الأعظم «ويتشو» إلى جاو، حيث التقى بالوزير الأعظم هناك (اسمه ليدوي)، وقال له: «إذا قمت بمساندة دولة «يان» في ضرب تشي، فستعرِّض هذه الأخيرة لأعظم خطر، مما سيدفعها إلى السعي بكل وسيلةٍ للمصالحة مع يان ولو كلَّفها ذلك التنازل عن بعض أراضيها، ثم تستدير لتواجهكم بحربها، وهو الأمر الذي سيصل بكم في آخر المطاف أن تقوم قواتكم بالحرب نيابة عن دولة «يان» في قتالها الدائر جهة الشرق، فتقوم باحتلال

الأراضي كي تُسلمها إلى دولة «يان»، وهكذا فلا أرى مصلحة حقيقية لكم في الأمر كله، والأفضل حقًّا، هو أن تُجمِّدوا تحركات قواتكم تمامًا في مثل هذه الظروف. ولا بد أن التوتر السائد في أوضاع دولة تشي سيخفُّ لفترة، وبعد أن ينخفض التوتر قليلًا تتجدَّد المعارك مع دولة «يان» فإذا ما انتصرت هذه الأخيرة، فستكون قواتها قد بلغت حدًّا من الإنهاك يسمح لدولة جاو بانتهاز الفرصة للاستيلاء على منطقتي «تاندي»، «وتشوني» (منطقتان تابعتان لدولة «جونشان») أما إذا لم يكن النصر حليفها، فستُصبح أقدارها معلقة بيد دولة جاو، وهكذا وعلى ضوء هذه الأحوال فالموقف الأمثل بالنسبة لكم هو أن تلتزموا بالحياد الصارم الذي سيُمكنكم من الاستفادة بأقصى حدٍّ من دولة تشي، في ظل محنتها العثرة، والاستفادة أيضًا من دولة «يان» تحت ضغط الإنهاك الذي يُهدد أوصال قواتها، وذلك باقتطاع أجزاء مهمة من أراضيهما، وباستلاب سلطاتهما السيادية والهيمنة، من ثم، على قراراتهما المصيرية.»

لمَّا قامت دولة تشين بالهجوم

لمَّا قامت دولة تشين بالهجوم على منطقة «شاندانغ» التابعة لدولة جاو، فقد هبَّت كلٌّ من تشي وتشو لنجدتها، وراح ملك تشين يدبر في ذهنه خطة مناسبة لمواجهة هذا الموقف وهو يقول:

«من الواضح تمامًا أن تشي وتشو تبذلان جهدهما لتقديم المساندة لدولة جاو، فإذا ما ظهر أن العلاقات بين ثلاثتهم تزداد عمقًا واقترابًا مع تطور الحوادث، فسأُبادر إلى سحب القوات المهاجمة، أما إذا لم تكن العلاقات على النحو الذي أتصوَّره، فلن أتوانى عن ضرب «تشانغ بين» والاستيلاء عليها».

الجزء الثاني من الفصل نفسه

لمَّا نقصت كميات الطعام المُخصصة لتموين قوات دولة جاو، فقد تقدمت السلطات إلى دولة تشي بطلب إعارتها كميات زائدة من الحبوب، إلا أن هذه لم تستجِب إلى طلب جارتها، وعندئذٍ ذهب «جوتسي» — أحد خبراء التخطيط السياسي بدولة تشي — إلى جلالة الملك وقال له: «أرى من الأفضل — يا مولاي — الاستجابة إلى طلبهم وإعارتهم الكميات المطلوبة من الحبوب لعلَّ في هذا ما يساعد على التصدي لهجوم تشين وإلا داهمتنا بقواتها

كأسراب الجراد، وهو ما تسعى خطط دولة تشين لتحقيقه، بينما تُغفله وتتشاغل عنه خطط كلٌّ من «يان» و«تشي»، ناهيك عن أن دولة جاو هذه (بموقعها ودورها) تمثل السور الحديدي أو الحاجز الواقي الذي يدرأ الخطر عن «يان» و«تشي» تمامًا كما تحمي الشفة الخارجية مجموعة الأسنان داخل الفم، فإذا انفرجت الشفتان، تسربت إلى الفم كل ألوان المخاطر، فكذلك إذا زالت دولة جاو من الوجود، فسيأتي الدور غدًا على تشي وتشو لتقتلعهما من جذورهما حوادث الأيام، أضف إلى هذا كله أن تقديم المساعدة إلى جاو يجِب أن يكون (محوطًا ببالغ الحذَر والدقة والحساسية فكأنه) بمثابة المشي في طريقٍ وعرٍ بيدَين مرفوعتَين تحملان إناء ثقيلًا مملوءًا بالماء، ولكنه مثقوب، أو بمثابة سكب الماء البارد داخل إناء خارج لتوِّه من فرن التجفيف، ثم إن مساندة دولة جاو (وسط هذه الظروف) يُعد إظهارًا للعزم الأصيل والإرادة الشُّجاعة وتقديرًا لمعنى التآخي وقوة المساندة بوصفها عناصر دافعة تدعم الانتصار على تشين، وهكذا، فالمطلوب حقًّا هو إظهار قوة الإرادة الشجاعة بمساندة جاو، وإبراز عناصر القوة الدافعة للانتصار على تشين بدلًا من الانكفاء على سياسة قاصرة وخاطئة تكتفي بمنع توريد الحبوب.»

لمَّا ذهب أحد المسئولين إلى ملك تشي

ذهب أحد المسئولين إلى ملك تشي وقال له: «إذا تأمَّلنا الخرائط ألفينا دولة تشين الكبرى تقع إلى الغرب من دولتي جو، وهان، بينما إلى الشرق من تلكم الدولتَين تقع كلٌّ من جاو، ووي، فإذا ما قامت دولة تشين بمهاجمة الجانب الغربي لـ «جو» وهان فستبقى وي وجاو في مأمنٍ من الهجوم بينما يمكن لتشين أن تستولي على مساحاتٍ من أرض جو وهان، حتى إذا انسحبت هان من خطوط المواجهة فسينصبُّ الخطر الأكبر على «جو»، فإذا ما تحقَّق انسحاب هان وفقدت جو مساحات من أراضيها، أصبح خطر زحف تشين على وي وجاو وشيكًا، وصار التهديد بالهجوم أمرًا محتومًا، ولنتصوَّر أن تشين وتشي قامتا بمهاجمة وي وجاو، فالأمر إذ ذاك لن يختلف كثيرًا عما حدث إبَّان قيام تشين بالإغارة على جو وهان، ثم إذا اقتحمت دولة تشي الخط الحدودي لدولة تشين وهاجمت كلًّا من جاو، وي، واجتاحتهما تمامًا حتى خسفت بهما الأرض وأزالتهما من الوجود، فسوف تلتفت إليها أنظار تشين التي ستتَّجه على الفور لمهاجمتهما، وعندئذٍ يثور السؤال الحاسم: كيف يمكن لدولة تشي، وسط تلك الظروف، أن تحصل على دعم ومساندة الدويلات والممالك المتناثرة في بقاع الأرض المختلفة؟»

سجل تشين الثالث

لَمَّا مات ملك تشو بعيدًا عن أرض الوطن

لَمَّا مات الملك «هوي» حاكم تشو، أثناء نزوله ضيفًا على دولة تشين، وكان ولده الأمير «هنغ» مقيمًا في دولة تشي رهينة لضمان السلام الدائم بين البلدين، حدث أن ذهب سوتشين إلى شوكون وقال له: «لا أدري ما الذي يمنعك من احتجاز وتحديد إقامة أمير دولة تشو المُقيم بأرضكم وذلك بهدف المساومة على الجانب الشرقي من تشو والملاصق لحدود تشي؟» فأجابه: «ليس هذا برأيٍ سديد، لأني لو احتجزت الأمير، فلن تتوانى إينغ — عاصمة تشو — عن تنصيب أحد أمرائها ملكًا على البلاد، وبذلك نكون قد احتجزنا الأمير بلا طائل، وظهرنا أمام الدويلات والمَمالك بمظهر الجائرين الغاشمين.» فقال سوتشين: «ليس الأمر هكذا، لأنه لو تمَّ تنصيب أحد الأمراء ملكًا في تشو — حسب تصورك — فيمكنك أن تنتهز الفرصة لتُطالب الحاكم الجديد بالتنازُل عن أجزاء من الأراضي الواقعة على الحدود شرق البلاد بين تشو وتشي على أن تقوم من جانبك بالتخلص من الأمير (الرهينة) المُقيم عندكم في تشي، فإذا لم يقبل منك هذه المساومة، فلك أن تُهدِّده بإمكانية لجوئك إلى الاتفاق مع الدول الثلاث: هانكو، وي، تشين على تنصيب الأمير (الرهينة) ملكًا لدولة تشو، بإجماع الأطراف على ذلك، ولا شك أنك ستجد تلك المنطقة الحدودية من أرض تشو قد آلت لسيادتكم بكل سهولة.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

كانت خطة سوتشين في التحفُّظ على أمير دولة تشو (الأمير الرهينة) تقبل العديد من الاحتمالات، أولها المُطالبة بتنفيذها بادئ ذي بدء، أو مطالبة ملك تشو الجديد بسرعة

تسليم دولة تشي مساحاتٍ من الأراضي الواقعة إلى الشرق بمُحاذاة المنطقة الحدودية مع تشي، بالإضافة إلى احتمال المُطالبة بمساحاتٍ أكبر (كلما لاحت بوادر الموافقة المبدئية من جانب تشو)، وكذلك احتمال ممارسة الضغوط على تشو للتنازل عن الأراضي دون المساس بكرامة الأمير الرهينة، بل مع الإبقاء على المستوى الكريم واللائق في التعامل معه، هذا مع احتمال طرد الأمير الرهينة من تشي وإعادته إلى بلاده، حيث يجد نفسه وجهًا لوجهٍ مع الملك الجديد، وكذلك احتمال إكرام الأمير الرهينة، بل المُبالغة في إكرامه على نحوٍ يدفعه هو نفسه للإسراع في العودة إلى وطنه بل المُحتمل أيضًا إفساد العلاقة بين سوتشين وشوكون، مثلما يمكن التقدُّم إلى تشو (باسم سوتشين) بالتفضل والتكرم عليه بمنحه إقطاعًا يليق بمكانته، ويبقى من المُمكن أيضًا إيفاد وسيط إلى شوكون لإقناعه وحثِّه على تعميق عُرى الود والصداقة بينه وبين سوتشين نفسه إلى تصفية الأجواء وتنقية ما شاب علاقته مع شوكون من سوء فهم.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

(ثم التقى) سوتشين بشوكون وقال له: «بلغني فيما يضرب الناس من أمثال أنه لا فلاح لمن أفشى الأسرار، ولا نجاح لمن تقاعس عن تنفيذ خططه بعد إمعان التدبير والتروي، إذا كان هدفك من التحفظ على أمير تشو هو مساومة بلاده على التنازُل عن منطقة الأراضي الواقعة عند الحدود الشرقية، فكيف تقعد عن إتمام هذا المسعى؟ ولشدَّ ما أخشى أن تبدل تشو خططها: إذ إنك — لو حدث هذا — لن يُجديك ما تُخطط شيئًا سوى الخسران والظهور أمام الدويلات بمظهر الرجل المُتجبِّر غليظ القلب الذي ينتهك المواثيق والعهود ولا يراعي حقوق الرهائن المُقيمين ببلاده.»

ورد عليه شوكون قائلًا: «قل لي — إذن — كيف أُعالج هذا الأمر الآن؟» فأجابه: «كل ما أرجوه منك أن تفوضني بالذهاب إلى تشو وللتحدث هناك بموجب هذا التفويض، نيابة عنك، حيث أطلب من ملك تشو سرعة تسليمك الأراضي الواقعة عند الحدود الشرقية والمتاخمة لحدودكم، فإذا ما استطعت تسوية هذه المسألة معهم (في تشو) فسوف يثبت مقامك ويتحصَّن جانبك.» وهنا وافقه شوكون على رأيه وأنفذه إلى تشو بغير إبطاء، فذلك هو ما يشار إليه بأن الخطة المذكورة آنفًا تنطوي على احتمال المطالبة الجادة بسرعة تنفيذها.

الجزء الرابع من الفصل نفسه

قال سوتشين لحاكم تشو: «إن دولة تشي تسعى جديًّا في التعاون مع سمو الأمير الرهينة، بل تبذل جهدًا لتنصيبه ملكًا، وقد أدركت جدية هذه المساعي مما لمسته من إصرار شوكون على بقاء سمو الأمير الغائب لدى بلاده، ويبدو أنه يريد بذلك أن يساوم جلالتك للتنازل عن الأراضي المتاخمة لدولة تشي عند حدودكم الشرقية، وفي حال رفض جلالتكم لهذه التسوية، فإن سمو الأمير المُقيم في تشي سيسارع إلى التنازل عن مزيدٍ من الأراضي للعرش الحاكم هناك رغبة منه في استمالة تشي إلى جانبه وحثها على مساندته.» وعندئذٍ أجابه ملك تشو قائلًا: «إنه ليُشرفني أن أوافق على توصياتكم الجليلة في هذا الشأن. وهكذا، فقد تم التنازل عن المناطق الواقعة شرق دولة تشو المطلوبة لدولة تشي، فذلك هو المقصود بالاحتمال المشار إليه في الخطة المذكورة من دفع دولة تشو للإسراع بتسليم الأراضي المطلوبة.

الجزء الخامس من الفصل نفسه

قال سوتشين لـ «شوكون»: «إن الأوضاع التي اطلعت عليها في تشو تسمح باقتطاع المزيد من الأراضي منها.» فلما سأله شوكون عن كيفية تحقيق ذلك أجابه: «يمكنك أن تبلغ الأمير المُقيم لديك عن السبب الذي دفع تشو إلى سرعة التنازل عن أراضيها الشرقية لكم، واطلب منه تحديد مقابلة عاجلة لتعرب أثناءها عن عظيم تقديركم وإخلاصكم لسموِّه، فإذا بلغ هذا الخبر مسامع ملك تشو، فسينشأ لديه استعداد للتنازل لكم عن مزيد من الأراضي.» فذلك هو المَغزى في الاحتمال الوارد بالخطة الأصلية، ومفاده أنه من المُمكن الحصول على مزيدٍ من أراضي دولة تشو.

الجزء السادس من الفصل نفسه

قال سوتشين للأمير: «إن دولة تشي ترى من دواعي حرصها على التعاون معك أن تقوم بتنصيبك ملكًا على عرش تشو، وخلع الملك الآخر القائم الآن على العرش الذي تنازل طواعية لدولة تشي عن أراضي الحدود الشرقية سعيًا لاكتساب ثقة المسئولين في تشي وحثهم على استبقائك أطول فترةٍ مُمكنة، ولا أدري ما الذي يمنعك من أن تتبرَّع أنت لدولة تشي بمساحاتٍ مضاعفة من الأراضي، فتحظى أنت دون الرجل الآخر بالرضا والمساندة؟» وبالفعل فقد سارع سمو الأمير إلى التبرُّع بمساحات مضاعفة (عما قدمته تشو) من

الأراضي لدولة تشين أملًا في أن تعدل هذه عن الانسياق وراء مطلب تشو باستبقائه وتقييد حُرياته، لكن ملك تشو أصابه الفزع الشديد عندما علم بأمر هذا التنازل من جانب الأمير، وبالتالي فقد عرض التنازل عن مزيدٍ من الأراضي لدولة تشي، خشية أن تتراخى قبضتها أو تتراخى قيودها المضروبة حول الأمير الرهينة، لذلك فقد ورد ضمن الاحتمالات المُمكنة في الخطة سالفة الذكر أنه من الممكن دفع حاكم تشو إلى التنازل عن المزيد من الأراضي.

الجزء السابع من الفصل نفسه

ثم إن سوتشين قابل حاكم تشو وقال له: «إن السبب الأساسي في أن دولة تشي تستطيع أن تقطتع (من بلادكم) المزيد من الأراضي يرجع إلى ما تملكه من سلطة تقييد واستبقاء الأمير الرهينة على أرضها، وبالطبع فإن مطالبها لن تقتصر على أراضي الحدود الشرقية، وستظل تستغل بقاء الأمير عندها وإمكانية تنصيبه ملكًا وسيلة للضغط والتهديد، وإني لقادر على تسهيل خروج الأمير من دولة تشي، مما يفوت الفرصة على كل من يريد أن يستخدمه على هذا النحو المشار إليه، وينزع من يد تشي الأداة التي تُهددكم بها وتمكنها من الغدر بكم، وأرى أن تُبادر جلالتكم فورًا إلى التحالف وعقد أواصر الصداقة مع تشي، وهو الأمر الذي سيفرض عليها فتح أبواب الحوار معك والإصغاء إليك، وهكذا تزول الشحناء بينكما ويحل الود وتتوطد عرى الصداقة والإخاء.» وهنالك تهلل ملك تشو فرحًا، وأجاب: «اسمح لي يا سيدي أن أُعرب لك باسمي، وباسم بلادي عن عظيم سعادتي واستعدادي للأخذ بنصحك ومشورتك.» لذلك، فقد ورد في الخطة احتمال التعاون مع ملك تشو في إعادة الأمير الرهينة من تشي إلى بلاده.

الجزء الثامن من الفصل نفسه

قال سوتشين لأمير دولة تشو المقيم بصفته رهينة سلام في تشي: «إن ملك تشو هو المسيطر الفعلي على الأوضاع في البلاد الآن، أما سموُّك، فلا يزيد دورك عن مجرد القيام بحلقة اتصال واهية وشكلية (بين تشي ومصالحها في تشو) وهو ما يفقدك المصداقية لدى تشي ويعزز — بالمقابل — من فعالية وإيجابية ما هو ملموس وعملي فيما تؤديه تشو، فإذا ما قام التحالف بين البلدين، فسيتهددك الخطر من كل ناحية، فلا بد أن تراجع موقفك، وتحدد قرارك.» وعندئذٍ أجابه الأمير قائلًا: «قل لي، أسمع منك، فأنا على ما تُشير به.» ثم

إنه جهز عربة فاخرة وخرج وسط الليل متسللًا حتى غادر تشي فهذا هو ما أشارت إليه تصورات الخطة الأساسية من احتمال دفع الأمير الرهينة إلى سرعة الخروج من تشي.

الجزء التاسع من الفصل نفسه

أوفد سوتشين إلى شوكون مَن تخابَث عليه قائلًا: لئن كان سوتشين هو الذى نصح لك باحتجاز أمير تشو وتحديد إقامته، فقد أخذت النصح من لئيمٍ وصدقت ما أشار عليك به أسوأ الناس بك ظنًّا وأخبثهم لك طويَّة، فقد كان يهدف بكل ما قاله أو فعله، إلى شيءٍ واحد فقط، ألا وهو مصلحة تشو وما يعود عليها وحدَها بالنفع. ولَمَّا كان يخشى أن يفتضح لديك سره، فقد اتخذ من مطالبة تشو بالتنازل عن المزيد من الأراضي ستارًا يُداري به خباياه الدفينة، وقد كان هو الذي أوعز خفية إلى أمير تشو بالتسلُّل هاربًا تحت جنح الليل من تشي، وهو ما لم تكن تفطن إليه أو يخطر لك على بال، فإنما قد جئتُ إليك لأكشف لك عما حجبَتْه سُتُر الظنون راجيًا أن تحتاط للأمر.» وثارت ثائرة شوكون وتميز غيظًا مما ارتكبه سوتشين وتغيرت نفسه من ناحيته، وهذا بالضبط هو ما ورد في الخطة من إمكانية إفساد العلاقة بين شوكون وسوتشين.

الجزء العاشر من الفصل نفسه

كما أوفد سوتشين إلى ملك تشو، من همس له قائلًا: «اعلم أن سوتشين كان هو الذي أوعز إلى شوكون باحتجاز الأمير وتحديد إقامته في تشي، ولئن كان يبدو أمامك بمظهر الحريص على رفعة شأنك والتعاون معك، فهو يقف — في الوقت نفسه، وللعجب! — موقف المساند والمؤيد لتنصيب الأمير الرهينة ملكًا على تشو، بينما كان هو أيضًا يحث بلادكم على التنازل عن أراضي الحدود الشرقية إلى تشي، ويدفعكم دفعًا للتحالُف معها، هذا وبرغم ولائه لسيده ملك البلاد، فلم يتورَّع أن يُسهل للأمير الهروب ليلًا من تشي، وهناك الآن من يسعى في إفساد العلاقة بين شوكون وسوتشين مُتعللًا بما يُبديه سوتشين من تعظيم الاهتمام بمصالح تشو مقابل التقاعس عن خدمة تشي، فالمرجو من جلالتك النظر بعين الاعتبار لُمجمل هذه الأحوال.» فعندئذٍ أجاب الملك بقوله: «أنا على استعداد للتصرُّف وفق ما تشيرون به.» وكان تكرم جلالته على سوتشين بمنحه اللقب الفخري «أوجن» وكذلك ورد من بين احتمالات الخطة المشار إليها (في بدء هذا الفصل) احتمال الإيعاز إلى ملك تشو بالتفضل على سوتشين بمنحِه أثمن المنح الملكية.

الجزء الحادي عشر من الفصل نفسه

وقام سوتشين بإيفاد «جينلي» — رئيس وزراء تشو — إلى شوكون ليقول له: «لئن كنت قد أصبحت في المكانة التي تحتلها الآن، حيث الكل يرنو إلى تألُّق نجمك وعزيز سلطانك، فقد تم لك الأمر على هذا النحو بفضل تزكية ذوي الفضل والعلم والرياسة لك، فمن ثَم حُزتَ موقع السيادة في دولة تشي وتقلدتَ مقاليد السلطة بموجب ما قد علمت، أما سوتشين فهو أفضل وأمهر الخطباء والمُخططين السياسيين فوق الأرض، وليس له في ذلك المجال نظير، وأرى أن الأجواء المُلبَّدة المُحيطة بالعلاقة بينكما ستخنق كل الفرص المواتية أمام الخطباء والمُخططين الأكفاء، واعلم أن علاقة سوتشين بملك تشو طيبة للغاية على العكس منك؛ لأنك بدلًا من أن تحاول التودُّد إليه وإزالة ما بينكما من جفاء، تزيد الهوة اتساعًا والشحناء بغضًا مقيتًا، فلذلك تفوتك الكثير من الفرص التي تسنح لك، ولا أرى إلا أن تبادر أنت إلى تبجيله والعرفان بمكانته وقدره، فذلك أول الطريق إلى اكتساب مودته وضمان مساندته وتأييده.» فمن ثم صفا ما تكدر بين سوتشين وشوكون، فعادت المياه إلى مجاريها، وتبدَّل الجفاء ودًّا موصولًا، حسبما ورد في الخطة الأولى من إمكانية مد جسور الصداقة بين سوتشين وشوكون.

لَمَّا ماتت قرينة حاكم دولة تشي

ماتت قرينة ملك دولة تشي، وكان لدى جلالته سبع محظيَّات صغيرات السن، وكان هؤلاء هن الأثيرات لدَيه من بين الأخريات، وذلك لحظهنَّ الوافر من الجمال ولشبابهن، وأراد شوكون أن يُميز من بينهن، الأكثر قبولًا لدى الملك والأوفر حظًّا في الترشيح للاقتران بجلالته، فأهدى الملك سبع أزواج من الأقراط الذهبية الثمينة، وجعل من بينها زوجًا واحدًا تميز عن الباقِين ببديع زُخرفِه وبراعة تكوينه ودقيق سبكه وصناعته، وراح يتحيَّن الفرصة في اليوم التالي ليتطلع إلى المحظيات السبع كي يرى أيهنَّ قد تزيَّنت بهذا القرط البديع، فيُشير على جلالة الملك بالاقتران بها رسميًّا.

لَمَّا عزم شوكون على السفر إلى دولة تشين

لَمَّا اعتزم شوكون السفر إلى دولة تشين، تقدَّم إليه الكثيرون ينصحون له بالعدول عن ذلك، دون جدوى، ثم حضر إليه سوتشين ليحاول إقناعه بعدم السفر، فابتدره شوكون قائلًا:

«كل ما صار إلينا من أمور البشر فنحن أدرى به، أما ما خفي عنا من مجاهل الشياطين فلا نملك لمعرفته وسيلة.» فأجابه سوتشين قائلًا: «ما كان لي أن أحضر إليك لأكلمك في مسائل البشر، بل سعيتُ إلى هنا كي أحدثك عن أمر الشياطين.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

قال سوتشين لـ «شوكون» في معرض كلامه: «مررتُ في طريقي وأنا قادم إليك بنهر «تسي» ففي أثناء عبوري النهر، لمحتُ بقرب الشاطئ منظر تمثالين على هيئة البشر، أحدهما مصنوع من الطين والآخر منحوت من جذع شجرة، وبَدَا لي كأنهما يتحادثان، فقال المحفور على جذع الشجرة للآخر الطيني: «أنت مصنوع من الطين الذي على الضفة الغربية للنهر ولستَ إلا مجرد تمثال على هيئة آدميٍّ، قد صنعك البشر بأيديهم، فانظر حتى إذا جاء الشهر الثامن وهطلت السماء مطرًا مدرارًا، وطفا الماء بين ضفتي النهر أسالت المياه صحيح بدنك (فأتلفت أعضاءك وفرقتك بددًا).» وهنالك أجابه التمثال الصلصالي قائلًا: «كلَّا، بل إذا امتلأ النهر وطمرني الموج وبدَّدني السيل، فلستُ إلا من طين الشطآن وإلى الطين أعود، فكيف بك وأنت ابن الغصن النابت عند الضفة الشرقية، فانظر كيف تصنع إذا انسكب السيل وفاض النهر فتقاذفك الموج وسبح بك، تغطس تارة وتطفو تارة أخرى، لا تدري لك مثوًى ولا مصيرًا؟!» فاعلم أنك قاصد إلى بلد [تشين] عالي الأسوار منيع الحصون، الداخل إليه كالمُطأطئ رأسه بين فكَّي النمر الرابض فهو يملك أن يمد عنقه، لكنه لا يدري كيف يخلص من بين أنياب مكشرة، فلئن كنت تعرف طريق الذهاب إلى تشين بكل ثقة فلا أظنك تعرف يقينًا متى وكيف تسلك طريق العودة.» وكان أن تراجع شوكون عن فكرة السفر إلى تشين.

لمَّا كان شوكون مقيمًا بأرض شيودي

كان شوكون مقيمًا بإقطاعية شيودي (الإقطاعية المُهداة إليه)، عندما قامت دولة تشو بمهاجمة هذه الإقطاعية، فأوفد ملك تشي صهره النبيل «تشونيون» إلى دولة تشو (بهذا الخصوص) فلمَّا كان النبيل في طريق عودته من سفارته فقد مر على الإقطاعية المذكورة، وكان شوكون في استقباله بنفسه، فأكرم وفادته بترحابٍ بالغٍ مقيمًا له مراسم التبجيل اللائقة بمكانته الرفيعة، وقال له أثناء اللقاء: «لا تشغل نفسك كثيرًا بمسألة هجوم تشو

على إقطاعية شيودي، إلا أني لن أستطيع في قادم الأيام أن أقوم على خدمتك (كما كان الحال فيما مضى).» فأجابه تشونيون: «لك السمع والطاعة بكل ما وجب عليَّ من تقدير واحترام لشخصكم الكريم.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

لَمَّا عاد تشونيون سالمًا إلى تشي، كتب إلى الملك تقريرًا وافيًا (حول سفارته إلى تشو، فاستدعاه الملك) فسأله: «كيف رأيت الأحوال في تشو؟» فأجابه: «القوم هناك عنيدون جدًّا وعازمون على أمر لا أراهم يتراجعون عنه، بينما الأهالي في إقطاعية شيودي غير عابئين بما يتهددهم من خطر ولا يدركون ضآلة قوتهم مقابل ما أعدته لهم تشو من بأس شديد.» فسأله الملك عما يعنيه بقوله هذا، فأجابه: «الأمر على ما ذكرت لجلالتك، ذلك أني وجدتُ أهالي شيودي لا يأبهون بالزحف الذي يتهدَّدهم برغم قلة عددهم وضعف قوتهم، ولا يشغلون أنفسهم إلا بإقامة المزيد من المعابد الملكية باسمك واسم أجدادك المُعظمين، ولو أن مثل تلك المعابد لن تصمد طويلًا تحت سنابك خيول تشو ورماحها المعاندة العازمة على تهديد قلةٍ مغلوبة على أمرها لا تريد أن تخضع أو تعترف بعدم تكافؤ المواجهه بينها وبين الغزاة الجبارين.»

وعندئذٍ تبسم الملك فاهمًا وهو يُتمتم في خشوع: «فنِعم الأمر إذن، ما دامت المعابد الملكية قائمة هناك على حالها.» وأسرع الملك «مين» حاكم تشين بإرسال حملة عسكرية عاجلة لمساندة إقطاعية شيودي.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

رغم أن شوكون هرع إلى طلب المساندة وراح يستجدي العون مطأطئ الرأس بكل احترام وتبجيل لكل يدٍ تبذل له المساعدة، فلم يحصل إلا على النذر اليسير منها، ذلك لأن رجلًا مثله يملك لسانًا ذربًا وإدراكًا جيدًا وفهمًا عميقًا للخطط والحلول (المُمكنة) كان جديرًا بأن يؤثر في الآخرين بدرجةٍ هائلة تجعلهم يشعرون كما لو كانوا هم أنفسهم أصحاب المحنة وأطراف الأزمة المُستعصية (بحيث يصيرون مطالبين بالدفاع عن أنفسهم بالدرجة الأولى)، وبالتالي فلم يكن هناك داعٍ أن يمنحوه الكثير من المساعدة [ما داموا سيقومون هم بالجانب الأكبر من مهمة الدفاع!]

لمَّا قام شوكون بالإنفاق على أحد أقاربه

أنفق شوكون على أحد أقاربه (والملقب بـ «شياهو جان») ما يوازي مرتب مائة موظف من كبار رجال البلاط، وقرَّر له أربعة خيول مُسرجة، فلما تحقَّق من حُسن معاملته والترفق به على هذا النحو داخله شعور بالطمأنينة والسعادة، إلا أن شياهو جان — وبرغم ذلك — لم يكن يفتأ يقدح في شوكون ويروج عنه الوشايات كلما سنحت لذلك المناسبات والظروف، فذهب البعض وأبلغوا شوكون بذلك الأمر، فقال لهم: «لا عليكم من هذا كله، فقد عزمت على أن أترفق به وأُحسن إليه في كل الأحوال.» ومن ثم فقد ذهب «دونشي فان» — أحد موظفي دولة تشي — إلى شياهو جان وتكلم معه في هذا الشأن، فأجابه قائلًا: «ليس شوكون بالرجل الذي ينظر بعين الإكبار والتبجيل إلى النبلاء والأمراء، ومع ذلك فها هو ذا يتكرم عليَّ بتخصيص راتبٍ رسمي يساوي ما يحصل عليه مائة موظف دفعة واحدة بالإضافة إلى الخيول والركائب المسرجة، وقد حظيتُ بتلك المعاملة الكريمة دون جدارة من ذكاء أو فطنة، أو فمٍ ينطق بقول سديد، فلئن كنتُ أتناوله بلسانٍ قادح فيه بهتانًا وزورًا فإنني بهذا أرفع من قدره وأعظم من شأنه في واقع الأمر، ذلك أن جزءًا كبيرًا مما يحظى به شوكون بين الناس من نُبل أخلاق وعظيم خصال مُستمَد من واقع الحال الذي يشهد بإساءتي إليه وافترائي عليه، ويشهد له بالتغاضي عن ذلك بقلبٍ رحيم وصدر واسع، إلا أني في الحقيقة، أقدم له خدمة جليلة تساوي عمري وسُمعتي وكرامتي كلها بينما لا يكلفه ذلك الشيء الكثير.»

لمَّا كان شوكون جالسًا

كان شوكون جالسًا في بعض ساعات فراغه من العمل، يتحدث إلى ثلاثة شيوخ مُتقدمين في السن، فقال: «ليت كل واحدٍ منكم يدلُّني على طريقة أتدارك بها نقائصي وأصلح بها من شأني.» فأجابه أحدهم: «إني على استعدادٍ أن أدافع عنك ضد من يتَّهمك بأي عيبٍ سواء من النبلاء أو من الأمراء (ذلك أني أراك بغير عيوب) حتى لو اضطررتُ أن أنثر في وجه مُبغضيك دمي.» ثم قال له الشيخ «تيانماو» أحد مواطني دولة «جنغ»: «أما أنا يا سيدي فلن يُعضلني أن أسافر معك إلى أقصى البلاد (إلى أبعد مكان تصله كل عربة مسرعة «هكذا حرفيًّا») كي أواري عنك كل نقيصة وأمتدح فيك كل منقبة، حتى يسعى إليك كل

ذي سلطان عريض، (يطلبك لمنصب ذي شأن) ويحث الخُطى إليك كل ذي سلطة (من رؤساء الوزارات) يرجو تشريفك له بالعمل معه.»

وأخيرًا تحدث إليه الشيخ العجوز «شنغ» فقال: «تمنيت لو كانت لي مفاتيح خزائنك، كي أغترف منها (المال) وأُغدق على كل ذي علمٍ وأجمع إليك صفوة الحكماء ليُعينوك على حل كل المعضلات والتدبر لكل حادث، مثلما كان للملك «ونهو» — حاكم وي — (حكيمان يُرشدانه ويُجنبانه مواضع الزلل) هما: «تيان زيفان»، «توانكان مو»، فتلك هي الوسيلة التي أرتئِيها من أجل صلاحك.»

لمَّا كان أحد أقارب شوكون على علاقة

لمَّا كان أحد أقارب شوكون قد أقام علاقةً سرية مع زوجته الحسناء، وجاء أحدهم يُبلغ شوكون بهذا الأمر قائلًا له: «إن الرجل الذي هو قريبك، المُقيم في بيتك شوهد في وضعٍ مُخِلٍّ مع امرأتك، فهو انتهك بذلك حرمة البيت والحق والكرامة، ووجب عليك قتله.» فأجابه: «إن للجمال سلطانًا على القلوب، والعشق طبع وفطرة، فلا عليك من ذلك، لا تشغل نفسك بهذا الأمر ولا تعاود مُحادثتي فيه.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

فلمَّا مر عام، استدعى شوكون ذلك الرجل ذا العلاقة السرية مع الزوجة، وقال له: «دامت صحبتك معنا سنين كثيرة، ولا أراك أفلحتَ في الحصول على منصبٍ ذي شأن، ولا رضيتَ حتى بالمناصب البسيطة (المتواضعة) التي عرضتُها عليك، فدعني أُهيئ لك سفارة فخمة وأُعد لك الركائب وجلود الأيائل والمنسوجات الحريرية (الهدايا التقليدية للوزراء والملوك قديمًا) تحملها إلى حاكم دولة «ويه» ودًّا وكرامة، وسأوصيه بك خيرًا، وأعرف أنه سيكرم ضيافتك لأجل خاطري، فالودُّ ما بيننا قديم.» وبالفعل فقد لقي الرجل الذاهب إلى دولة «ويه» كل حفاوة وتقدير.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

لمَّا ساءت العلاقات بين دولتي «تشي» و«ويه» وتعرض التحالف القائم بينهما للانهيار، دعا حاكم «ويه» «قوات الدويلات والإمارات إلى القيام بهجوم موحَّد على دولة تشي، وعندئذٍ

ذهب الرجل المبعوث من قبل شوكون (صاحب الزوجة الخائنة) للقاء حاكم «ويه» وقال له: «الآن تحققت يا مولاي أن شوكون لم يكن يُدرك طوال الوقت أن مواهبي محدودة للغاية وأني أكاد لا أصلح لشيء، فأرسل بي إلى جلالتك على سبيل الخديعة والدهاء، إلا أني كنتُ قد سمعت أن الملوك السابقين لدولتي ويه، وتشي قد عقدوا ميثاق الحلف [ذبحوا الشياه والخيل وشربوا دماءها على سبيل التحالف الأبدي] فيما بينهم وتعاهدوا على ميثاق الدم إذ أقسموا على ألا تقع حرب بين الأبناء والأحفاد في الدولتَين المُتعاهدتَين، وأن يُراق دم الآثم المخالف للعهد كما تذبح الشاة الذليلة. فلئن كنت تدعو قوات الدويلات الآن يا جلالة الملك لمحاربة تشي، فإنك تبرهن على مخالفتك للعهد التليد، وتخون ميثاق الصداقة مع شوكون، لذلك فإني أرجو أن تصرف النظر عن فكرة مهاجمة تشي، فإذا أخذتَ بنصيحتي ووثقت بي فما ظلمت، أما إذا عدلت عن ذلك فما تظن أن ينالك من أحمق مثلي إلا أن أنثر دمائي فوق قميصك.» فمن ثمَّ تراجع حاكم «ويه» عن فكرة الهجوم على تشي.

الجزء الرابع من الفصل نفسه

فما إن بلغ ذلك الخبر دولة تشي، حتى أشاد الناس بدهاء وألمعية شوكون؛ ذلك أنه استطاع تصريف الأمور على نحوٍ بارع فتمكن من تحويل البذرة الفاسدة إلى ثمرة طيبة واعدة بالخير.

لمَّا وقعت الكراهية في قلب شوكون

وقعت الكراهية في قلب شوكون تجاه أحد أقاربه، فصار ساخطًا عليه وأراد إبعاده ونفية خارج البلاد، فجاء «لوليان» (أحد مواطني تشي، أراد القيام بالوساطة سعيًا للمصالحة) إلى شوكون وقال له: «ما ظنك بقطيع من القردة ترك أغصان الشجر ليعيش في الماء، أما تراه عاجزًا عن مجاراة أدنى سلحفاة برمائية في الغوص والطفو والسباحة، أما تجده قد فزع إلى المنحدرات الصخرية فتسلق النتوءات وحواف الصخور؟ وكذلك لن تفلح الجياد الأصيلة أن تحيا حياة الثعالب، ولئن كان المُقاتل المظفَّر «تصاومو» قد ضرب بسيفه البتار فهزم وأسر الأمراء والنبلاء بقبضة يدٍ ودرع واحد، إلا أنه ما كان ليصلح أن يتناول فأسًا ليزرع الأرض ويجني الحصاد كأي فلَّاح بسيط، لذلك فإن الاهتمام بالجانب السلبي للأمور دون الوجه الإيجابي فيها لا يليق بمن أراد انتهاج الحكمة والسبيل القويم، فتكليفك الناس

بما لا يقدرون عليه إجحاف يُبرز لك تقصيرهم وعجزهم، ونُصحك لهم بما لا يفقهون، تحامل بغيض يُصور لك جهلهم وغباءهم، ثم إنك من بعد ذلك تُبادر إلى طرد المقصِّر وإقصاء الجاهل، فإذا قام كل واحد من الناس بنفي وإبعاد من لا يحسن صحبته، أصبح الناس فريقَين مُتباغضَين تنهشهم الكراهية وتُبيدهم الثارات. أفلا يجدُر بنا أن نتواصى بالموعظة ونقرَّ المبادئ التي يستقيم بها شأن الناس جميعًا؟!»

وهنالك أقرَّه شوكون على رأيه وتراجع عن قراره باستبعاد الشخص المشار اليه.

لمَّا خرج شوكون يجوب البلدان

خرج شوكون يجوب البلدان، فلمَّا دخل دولة تشو، أهدوه سريرًا من العاج، وكان «دنتو» وهو أحد المُكلفين بحمل الهدية إلى شوكون مقيمًا بمدينة «إينغ» (عاصمة تشو) فلما تقرر إرساله ضمن الأفراد الموفدين لحمل الهدية إلى شوكون انزعج وتردَّد وأراد الاعتذار عن القيام بهذه المهمة، فقصد إلى واحد من أتباع شوكون (اسمه «كونسون شو») وقال له: «أنا مُقيم بالعاصمة إينغ، واسمي دنتو، وقد تقرر تكليفي مع آخرين بحمل السرير العاج وهو من أغلى الهدايا كما تعرف، وأخشى إذا مسَّه سوء أن أعجز عن دفع قيمة التعويض المطلوبة حتى لو أنفقت في ذلك كل ما أملك، فإذا أعفيتني من هذا الأمر، فسوف أهبُ لك سيفًا من السيوف الأثرية النادرة التي خلفها لي أجدادي.» ووافقه كونسون شو على هذا الاقتراح.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وذهب كونسون شو للقاء شوكون، ثم قال له: «أيمكن أن تقبل حقًّا ذاك السرير العاجي هديةً من تشو إليك؟» فلما ردَّ عليه بالإيجاب عاد يقول له: «لكني أرجو منك ألا تقبل تلك الهدية.» فلمَّا استفسر منه شوكون عن السبب في ذلك، أجابه قائلًا: «ما كان لدولةٍ صغيرة مثل هذه أن تهديك هدية ثمينة على هذا النحو إلا لأنها تعرف جيدًا مدى تفانيك في دفع أسباب البلاء عن المنكوبين، وتعرف استقامتك وحرصك على وصْل ما انقطع من طقوس القرابين إلى المعابد، وإقامة ما تداعى من أركان الدولة المُهددة بالتآكل والانهيار، وإذا كان النبلاء والأماجد في الدولة الصغيرة ينزلون على رأيك فيما يمسُّ أخطر قضايا دويلاتهم؛ فلأنهم يُكبرون فيك نزاهتك وشرفك وصِدق إخلاصك، وعندما تنزل اليوم ضيفًا على تشو

وتقبل إهداءها السرير العاجي إليك، فإنك تُربك وتُحيِّر باقي الدول التي في طريق زيارتك عما ينبغي أن تُهديك هي الأخرى، وأرى أن تريح نفسك وتريح الآخرين وترفض قبول الهدية.» وعندئذٍ وافقه شوكون على رأيه.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

ومشى كونسون شو خارجًا، فما كاد يصل إلى بوابة القصر حتى ناداه شوكون ليُكلمه، فرجع إليه، فقال له: «كنت نصحت لي منذ قليل بعدم قبول الهدية، فهذا أمر مفهوم ولا بأس به، لكن غير المفهوم عندي هو أسلوب مشيتك وأنت ذاهب منذ لحظة؛ إذ بدت قامتك أكثر شموخًا، وبدت هيئتك أشدَّ ثقة، فما السبب يا تُرى؟» فأجابه: «هي ثلاثة أشياء أسعدتني للغاية، بالإضافة إلى شيءٍ ثمين اقتنيتُه وهو عبارة عن سيفٍ قديم أُهدي لي.» فلما أمره شوكون أن يُفصح عما يريد قوله، أجاب: «هناك أكثر من مائة رجل وراء بابك كلهم حكمة ونجابة ومع ذلك فلم يجسُر على الدخول عليك والنصح لك غيري هذا هو أول ما أسعدني، أما الشيء الثاني فهو أنك قد أخذت بنصيحتي، وثالثًا، فإن شعوري بأني قد جنَّبتك الوقوع في خطأ، كان أكثر شيءٍ أدخل الفرحة على قلبي، (وأريد أن أخبرك بأمر آخر هو أن) أحد مواطني العاصمة ويدعى دنتو، كان راغبًا عن الاشتراك في قافلة إرسال السرير العاجي إلى جنابكم الكريم، وقد بلغ الأمر أن وعد بإهدائي أحد السيوف النادرة من مُقتنياته القديمة.» فسأله شوكون: «وهل قبلتَ تلك الهدية؟» فأجابه بأنه لم يجسُر على القبول، فعاد شوكون يقول له: «لكني أقترح عليك سرعة القبول دون تردُّد!» وتناول شوكون فرشاة وكتب لوحة كبيرة علَّقها عند مدخل الباب، نصها كالتالي: [من أحبَّ أن يعظِّم شأني بين الناس، فليُخلص لي النصح، ويُقيل عثرتي، وليكن أسرع الناس إلى انتقادي هم الذين وعَدُوني في الخفاء بأثمن الهدايا.]

لمَّا قام النبيل تشونيون بترشيح سبعة موظفين

قام صهر الملك شيوان (حاكم تشي) النبيل تشونيون بترشيح سبعة أشخاص (للعمل بالقصر الملكي) وقد جاءت هذه التزكية للأشخاص السبعة في يومٍ واحد، فقال له الملك: لو كنتَ جئتَ وأبلغتني أن أحد العلماء المُبرزين يُقيم على مبعدة ألف لي لما ظننتُ مسافةً بعيدة نظرًا لندرة أعداد العلماء بشكلٍ عام، ثم إن ظهور واحد فقط من أمثال أولئك الحكماء

العباقرة كل قرن من الزمان، لا يُعَد بالشيء القليل (إنه نادرًا ما يتعاقب مثل هؤلاء الناس إلا بعد قرون، ولكنك تأتي اليوم وترفع لي طلب استخدام سبعة منهم دفعة واحدة!) أوَلَا تظن أن في الأمر شيئًا من المبالغة؟! فأجابه: ليس هناك أدنى قدْر من المبالغة، فمن منَّا يُنكر حقيقة أن الطيور ذات الأجنحة المُتشابهة تجتمع في أسرابٍ متجانسة كل واحد منها يُشبه الآخر ويتكامل معه، (وكذلك) السباع والوحوش التي تتماثل مخالبها وحوافرها تتكتل في قطعانٍ كبيرة تقيم وترتحل مع بعضها بعضًا؟ هذا من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى فأنت إذا ذهبت لتجمع جذور نباتات (تشايخو)، (جية قنغ) [نباتات طبية قديمة] من المُستنقعات، فلن تعثر على أثر منها، بينما إذا بحثت عنها في تلال «شوشان»، و«ليانفو» فستجد منها ما تنوء به الأحمال، فالعالم مليء بأعداد لا حصر لها من الأنواع المُتماثلة فما من شيء إلا له عشرة آلاف نظير، ولئن كنت أنا واحدًا من المتعلِّمين النابهين فلا بد أن هناك آلافًا من النظراء، وعندما طلبت جلالتك إليَّ ترشيح من أراه مناسبًا من الأكفاء، كنتَ كأنك أمرتني بجلب المياه من البحر الزاخر، أو البحث عن قبس من نار في جوف التنور، فلا تعدنَّ أولئك السبعة كل ما في الجعبة، بل هناك المزيد وسأوافيك بالمزيد إذا شئت.»

لمَّا استعدت دولة تشي لمهاجمة وي

كانت دولة تشي قد أعدت العدة لمهاجمة وي، وذهب النبيل «تشونيون» إلى ملك تشي وقال له: «بلغني يا مولاي أن هناك نوعًا من الثيران في دولة هان يُطلق عليه الثور الأسود، ويتميز بسرعته الشديدة في الجري مسافاتٍ طويلة على نحوٍ غير مسبوق، وقيل أيضًا إن أسرع الأيائل في الجري هو ذلك النوع الذي يعيش في جبال «دونقو»، وتحكي الحكايات أن أحد الثيران من الفصيلة المذكورة راح يعدو خلف أيلٍ بجبل دونقو، وبلغ من سرعة عدْوِهما أنهما دارا حول الجبل ثلاث دورات ثم انطلق الأيل صوب الجبال الخمس فعبرَها جميعًا والثور وراءه، الأول يتقافز دون كلل، والآخر يتبعه بغير عناء، وظلَّا كذلك حتى أدركهما الإعياء وانحلَّت قوتهما وماتا في بعض الطريق، فرآهما أحد المُزارعين فكانت له الغنيمة كاملة دون أدنى مشقَّة؛ وأرى اليوم دولتي تشي ووي تتنازعان وقد ركبهما العناد حتى انحلَّت عزيمة الجُند وخارت قوى الناس، فلشد ما أخشى أن تنتهز دولتا تشين وتشو القويتان هذه الفرصة فتنقضَّان بهجوم لا يُبقي ولا يذر، فتغنمان غنم المُزارع المذكور آنفًا.» ووقع الفزع بقلب حاكم تشي، [فعدل عن الهجوم] فعزل القائد العام، وأمر بالترفيه عن الجنود لتخفيف حالة التوتر.

لَمَّا قال الحكيم كوزي

قال الحكيم كوزي (من مواطني دولة تشي): «إن دولة تشين استطاعت أن تهزم قوات القائد جاوكو(دولة جاو) وحاصرت العاصمة هاندان، ثم إن دولتي تشي ووي قدَّمتا المساعدة لدولة تشين في محاولة الهجوم على العاصمة وقامت تشي بمهاجمة منطقة «زيشو» (التابعة لدولة جاو) وأغارت على مدينة «إيشي»، وسارع أحد النبلاء بدولة وي، وهو المدعو «شين لينغ جون» بوضع خطة سياسية بارعة (جرى بمُقتضاها) قتل القائد العسكري «جين بي» (قائد قوات وي) ثم قاد بنفسه القوات لفك الحصار المفروض حول العاصمة «هاندان»، مما أعاق محاولة تشين للهجوم على العاصمة، وأحبط التأييد الشعبي الجارف الذي كان يؤيدها في تحركاتها الهجومية، وكان الأمر كله نتيجة غير مباشرة لما قامت به تشي من احتلالٍ لأراضي وي، لأن الذي حدث هو أن الاحتلال كان الباعث على ظهور المُخطِّط السياسي الداهية «شين لينغ جون» وهو الرجل الذي تمكن من حماية ومساندة العاصمة «هاندان» [وفي ذلك الوقت كان التقسيم الإداري للأقاليم يُسجل المدن الثلاث الرئيسية كالتالي:] مدينة «آن» عاصمة دولة وي، ومدينة «جين يانغ» عاصمة دولة جاو، أما مدينة «يانينغ» فقد كانت عاصمة دولة تشو، وكانت الدول الثلاث تشترك في حدودها جميعًا مع دولة تشين،[كان معنى ذلك أنه] إذا أغارت هذه الأخيرة على وي، فسوف تستولي على العاصمة «آن»، فإذا هاجمت جاو، احتلَّت عاصمتها جين يانغ، وكذلك إذا ضربت تشو، انتزعت منها العاصمة يانينغ، ومن ثم تفرض نفوذها وتُملي إرادتها على ملوك الدول الثلاث، وتستولي على أراضي دولتي جو الشرقية والغربية، ثم تُهاجم دولة هان وتحتل أرضها، وبهذه الطريقة تتمكن تشين من الهيمنة على نصف الممالك التي تحت السماء [ولا أظنها تكتفي بذلك فهي] اليوم تمارس ضغوطًا على وي وجاو للخروج على ميثاق التحالف مع مجموعة دول السهول الوسطى، وقد سبق لها أن اقتطعت مساحاتٍ هائلة من الحدود الشرقية لأرض ويه، واستولت على منطقة «خينان» وعزلت إقليم «دونيانغ» عن دولة جاو، وهو ما يُعرِّض كلًّا من وي وجاو لخطرٍ بالِغ، وهو الخطر الذي يضرُّ بمصالح دولة تشي أيضًا، ومن ثم فالمَغزى الذي تقصد إليه كلٌّ من: هان، وي، وجاو، تشو يتمثل في إحباط مسعى قوات تشين في الاستيلاء على الدول كلها وتخفيض مرتبة ملوكها إلى مجرد وزراء عاديين تحت سلطانها، ذلك أن الخطر الذي تتعرض له الدول الثلاث المتاخِمة لدولة تشين من جراء اشتراكها مع هذه الدول العاتية في خطوط حدودية، أشد وطأة وأقرب احتمالًا مما يمكن أن يُصيب دولة تشي البعيدة عن

مناطق التماس الحدودي معها، فلذلك وعلى ضوء هذا الوضع فإنه ينبغي على كل الإمارات والدويلات أن تهتمَّ بمصالحها مع تشي وإذا تمكنت تشين من أن تحصل على مساندة وتأييد تشي فسوف يتعاظم نفوذها وسُلطانها في منطقة السهول الوسطى. أما إذا سارعت كل من جاو، وي، وتشو بكسب تشي إلى صفوفها، فسوف تقدر جميعها على صد محاولات الهيمنة من قبل تشين (سواء في ذلك أكانت تشين أم جاو أم وي) ستكون هي السباقة إلى نيل الحظوة والمكانة والنفوذ بين الإمارات والدويلات، بينما يتوارى الآخَرون في ظلال الإهمال، فتسقط هيبتهم ويتقلَّص نفوذهم. والسؤال إذن هو: كيف تعجز تشي عن أن تحصل على ما تستحقُّه من اهتمامٍ وإكبار ما دامت تملك هذه المزايا؟ والإجابة هي أنها (فيما يبدو) تتبع خططًا سياسية خاطئة.»

سجل تشي الرابع

لمَّا كان في دولة تشي رجل فقير

كان في دولة تشي رجل يُدعى «فنغ شوان» وكان فقيرًا، عاجزًا عن اكتساب الرزق، فطلب من الناس أن يدلُّوه على بيت شوكون عساه أن يجد عند بابه ما يتقوَّت به، (فكان له ما أراد) فلمَّا سأله شوكون عما يطيب له من هوايات مُسلية، أجابه بأن ليس له شيء من ذلك، فسأله عما يُجيد من مهارات أو حِرف وقُدرات، فأجابه بالرد نفسه، فضحك شوكون ووافق على استضافته، ووقع في ظن الحاضرين [التابعين والعاملين في منزل شوكون] أن سيدهم قد أبدى الموافقة استصغارًا لشأن ذلك المُعدم، فألقوا إليه بأردأ الطعام.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وما كاد «فنغ شوان» يستقر بصحبة أتباع شوكون، حتى صار يقف مستندًا إلى الأعمدة الضخمة في فناء المنزل مُتقلدًا سيفًا قديمًا، يهزُّه عاليًا ويرفع صوته بالغناء الصادح: (... عودي بنا أيتها الأيام، عُد بي أيها السيف السقيم نفرش الطرقات، ونطعم طعامًا أزكى فلا خير في وليمةٍ لا تسد رمقًا!) وراح الخدم إلى سيدهم شوكون يقصون عليه ما حدث من أمر الغناء المذكور، فأمرهم بأن يُقدموا له أطيب الطعام على نحو ما يفعلون مع كل النازلين في دار ضيافته العامرة، وما هي إلا أيام قليلة حتى أصبح فنغ شوان ذات صباح مُمسكًا بسيفه مرددًا صوته بأغنية يقول فيها: (إيه يا سيفي القديم، أما آن لنا أن نعود، لكن كيف نعود راجلين حفاة وليس ما يحملنا من عربات مطهمة وجياد؟!) فسخر منه السامعون، وعجبوا من أمره وأبلغوا سيدهم شوكون بما تغنَّى به «فنغ شوان» فأمرهم أن يُجهزوا له عربة فخمة تُقله إلى أي مكان يشاء شأنه في ذلك شأن كل ضيف كريم.

فلما ركب الضيف العربة رفع سيفه عاليًا وساق إلى منزل أحد أصدقائه القدامى حيث التقى به وقال له: «قد نزلت على شوكون فأكرمني وأحسن إليَّ كما يصنع مع أكرم ضيوفه.» وما هي إلا بضعة أيام حتى وقف ثانية وسط الدار ورفع سيفه يتغنَّى بصوت مسموع: (أما قلت لك عد بي أيها السيف … فما النفع إذا شبعتُ وجاعت عيالي؟!) فلما سمعه الحاضرون ضجروا وقاموا عنه استياء ونفورًا مما بدا من جحوده وجشعه، وسألهم شوكون عما إذا كانوا يعرفون له أقارب أو ذوي صلة فأجابوا بأن ليس له سوى أمٍّ أقعدها العجز والكبر، فأرسل إليها شوكون طعامًا وكسوةً وأجزل لها العطاء فلم يدع لها حاجة إلا قضاها، وهنالك أمسك فنغ شوان عن الغناء وهجره بالكلية.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

فلمَّا كان صبيحة ذات يوم علَّق شوكون إعلانًا كبيرًا على جدار دار الضيافة، يطلب فيه إلى النزلاء الكرام أن: «يتقدم من له معرفة بالحسابات التجارية وذلك لعمل تصفيات للديون بمنطقة «شودي» فذهب فنغ شوان ووقَّع باسمه أسفل الإعلان موضحًا مقدرته على القيام بهذا العمل، فلما اطلع شوكون على التوقيع أخذته الدهشة وسأل عمن يكون صاحب هذا الاسم؟» فأجابه خاصته قائلين بأنه ذلك الرجل صاحب «السيف القديم» المُقيم عندك المُتغني بأغنيات (عد بنا أيها السيف، عودي أيتها الأيام …) فضحك شوكون قائلًا: «فالرجل صاحب علمٍ ومهارة إذن، وقد أسأت إليه دون حتى أن أعرف له وجهًا [لم أقابله مرة واحدة!].» ثم استدعاه، فلمَّا مثل بين يدَيه قام إليه شوكون مُعتذرًا، قائلًا: «قد شغلتني عنك المشاغل، أرهقتني لواعج القلق وألوان الهموم، فقد انغمست في شئون العمل حتى تغافلت عمَّن يقتضي الواجب صلتهم، والحفاوة بهم، فلا تحملنَّ عليَّ إصرًا لِما بدر من إساءة، ولا تحجبنَّ عني أمرًا لسابق جفوة بيننا، واصدُقني القول إن كنت راضيًا بالقيام على جباية الضرائب المُقررة على منطقة شودي.» فلما أقر فنغ شوان أمامه برغبته المُخلصة في القيام بهذه المهمة أوكل إليه شوكون إتمام الأمر وهيَّأ له عربة وجهزه بما يلزم من كسوة وأغطية وفرش، ودفع إليه مستندات الديون، فلمَّا حانت ساعة توديعه وقد خرج إلى السفر، سأله فنغ شوان قائلًا: «فماذا تريد أن أشتري لك بعد تصفية الديون؟» فأجابه: «أترك لك تقدير هذا الأمر، فتدبَّر وانظر ما الذي ينقصني من متاع فابتعه لي.»

الجزء الرابع من الفصل نفسه

وانطلقت العربة براكبها فنغ شوان إلى منطقة شودي، فما إن بلغت الرحلة نهايتها حتى أوفد فنغ شوان إلى الأهالي بعض الكتبة والموظفين ليبلغ المُطالبين بسداد الديون بالحضور إليه، فلمَّا اجتمعوا لدَيه أمر بمراجعة سندات الديون وصكوك القروض، فانشغلوا بذلك وقتًا غير قليل، حتى إذا فرغوا من المُراجعة [وأبلغوه بالحصر الشامل لجميع المُستندات] نهض واقفًا وأعلن باسم شوكون التنازل عن جميع المُستحقَّات المالية من ديون وقروض وخلاف ذلك [باعتبارها] منحة لا تُرد، ويسقط عن الأهالي — بموجب ذلك — واجب السداد، ثم إنه جمع الصكوك والسندات وأشعل فيها النار حتى احترقت عن آخرها، وانطلقت أفواه الناس بالهتاف والدعاء بطول البقاء.

الجزء الخامس من الفصل نفسه

ركب فنغ شوان عربته، وأسرع عائدًا إلى عاصمة تشي، فبلغها مع انبلاج الصبح، وذهب من فوره لمقابلة شوكون الذي أخذته الدهشة من سرعة إنجازه للمهمة الشاقة الموكولة إليه، وأسرع ليرتدي أبهى حلله، وتناول قبعته وخرج إليه، فسأله عن سر ذهابه وعودته بهذه السرعة الفائقة، وعما إذا كان قد حصَّل الديون المُستحقة، فردَّ عليه بالإيجاب، فعاد شوكون يسأله عما اشتراه لأجله بقيمة ما تم تحصيله، فأجابه فنغ شوان قائلًا: «كنت قد تركت تقدير ما ينبغي شراؤه من متاع ضروري لبيتك، فلما تأملتُ الأحوال جيدًا، نظرت فوجدتُ لديك أكداس الذهب والفضة، وفي حظائرك ما لا يُحصى من الخيل والجياد، بينما قد ملكت يمينك صفوفًا متراصَّة من السرائر والمَحظيات والجواري الحِسان، ولم يعُد ينقص بيتك من المتاع شيئًا سوى البر والعدل والإحسان، فاشتريتُ لك منه الشيء الكثير.» فسأله شوكون: «ماذا يعود عليَّ من ذلك؟» فأجابه: «قد نظرتُ فوجدتُ إقطاعك بمنطقة شودي ضئيلًا للغاية [كأنه بيت عائلة قليل المساحة متواضع الأركان ومع ذلك] فأنت لا تبذل للمُقيمين هناك ما يليق من الرأفة والعناية الواجبة بوصفك الأب الحاني والسيد الحامي حِمى قومه، بل تتعامل معهم بمنطق التاجر الساعي وراء الربح، [ولكي أُصحح مفهوم العلاقة] قررتُ أمرًا من تلقاء نفسي، لكنني تحدثتُ باسمك فأمرت بحرق المُستندات والصكوك، وتنازلتُ عن الديون المطلوبة، وجعلتها منحة للأهالي، فتهللوا وهتفوا لكم بدوام العز والبقاء، فكانت تلك أحسن وسيلة للفوز بخير متاعٍ وهو العدل.» فابتأس شوكون، وقال ساخطًا: «فالأمر إذن، ما قد حصل!»

الجزء السادس من الفصل نفسه

فلمَّا دارت دورة الأيام، وانقضى من الزمان عام، حدث أن التقى شوكون بملك تشي، فقال له جلالته أثناء اللقاء إنه لم يعد من المقبول أو اللائق [حسب الأصول] بالنسبة له وهو الرجل الجالس على عرش تشي بأن يستبقي إلى جواره الرجل نفسه الذي عمل رئيسًا للوزراء إبَّان حكم والده الملك الراحل [وكان المقصود من ذلك تنحية شوكون عن منصبه] فلم يكن أمام شوكون إلا أن يذهب إلى إقطاعيته الكائنة بمنطقة شودي، فبينا هو على الطريق وقبل أن يبلغها بحوالي مائة لي تقريبًا، خرج الأهالي واصطفُّوا على جانبي الطريق يحملون صغيرهم ويسندون كبيرهم في انتظار وصوله، فمال شوكون على فنغ شوان وقال له: «ها قد رأيت بعيني رأسي اليوم ما اشتريتَه لي بالأمس من الرحمة والعدل.» فأجابه قائلًا: «الأرنب الماكر يحفر لنفسه ثلاثة جحور لينجوَ من خطر الموت مرة واحدة، وليس لك إلا جُحر واحد، فلا أظنُّك تهنأ بالأمان يقظانًا أو تحلم بالهناءة نائمًا، فائذن لي أن أُهيئ لسيادتك الجُحرَين الباقيَيْن.» وهكذا أعطاه شوكون خمسين عربة وخمسمائة (جين) [مائتي جنيه] من الذهب والفضة وأوفده إلى دولة وي [الواقعة غرب البلاد] ليقوم بالمناظرات والدعايات السياسية اللازمة لإتمام خطته، فلمَّا التقى فنغ شوان بجلالة الملك هوي — حاكم وي — قال له: «قد بلغك أن دولة تشي قامت بإبعاد رئيس وزرائها شوكون ونفيه في البلاد، فأول من تستضيفه من الدول ستتمكن من تحقيق موارد مالية وفيرة وتأسيس جيش قوي.» وبالفعل فقد استجاب ملك وي لهذا التصوُّر وقام بإخلاء أرفع منصب قيادي في حكومته وذلك بنقل رئيس الحكومة من مكانه ليتولَّى منصب قائد عام القوات المسلحة وأوفد بعثة تحمل مائة عربة فخمة وهدايا ثمينة إلى شوكون، بالإضافة إلى خطاب تكليف رسمي له من قبل الملك، وأسرع فنغ شوان بالسفر إلى شودي ليقول لـ «شوكون»: «إن ألف جين من الذهب [خمسمائة وزنة] هدية لها قيمتها بمناسبة تكليفك لدى البلاط الملكي وكذلك فإن مائة عربة تجرها جياد مُطهمة تعد صلة كريمة وسفارة راقية، ولا بد أن دولة تشي قد بلغتها أنباء ذلك [الكرم ذائع الصيت].» وتردد الرسل ذهابًا وإيابًا بين ملك وي والسيد شوكون دون أن يبدي هذا الأخير أية موافقة على التكليف الموجَّه إليه، أما ملك تشي فقد أحس بالارتباك هو ورجال دولته عندما بلغتهم هذه الأخبار، وأسرع جلالته بإيفاد «تايفو» [أحد كبار الموظفين] إلى شوكون مُحمَّلًا بأكثر من ألف جين ذهبًا، وعربتَين مزخرفتَين على نحو بديع، وسيفًا بحمَّالة وخطاب اعتذار من جلالته

شخصيًّا، موقِّعًا عليه بإمضائه، ونص الخطاب جاء فيه: [اعلم أنه قد جانبنا الصواب فيما قرَّرناه بشأنك، ولئن كنتُ قد أسأت إليك فقد حلَّ عليَّ سخط الأسلاف، ووقعت في شَرك الضلال بما دبَّره حسَّادك ومُبغضوك، وبعد، فحاضِرُ صفحك أنبلُ من سابق إساءتي إليك، وأرجو أن تحضرك ذكرى من تقدَّسَت أضرحتهم من سادتنا الملوك الأقدمين (وأستحلفك بتلك الذكرى) أن ترجع إلى بلدك، لتقوم على شأن الآلاف المؤلَّفة من بني وطنك] هنالك أسرع فنغ شوان إلى شوكون لينصح له بأن يبادر إلى تقديم طلب عاجل للملك يرجوه فيه أن يُرسل إليه بأواني القرابين المقدَّسة الخاصة بأضرحة أجداده من الملوك السابقين؛ كي يُلحقها بما ينوي أن يُشيده من معابد ملكية في شودي، فلما تم بناء المعابد ذهب فنغ شوان إلى شوكون ليقول له: «قد صارت لك الآن ثلاثة جحور، فطِب نفسًا واهدأ بالًا ونم قرير العين.»

الجزء السابع من الفصل نفسه

وبقي شوكون في منصبه رئيسًا لوزراء البلاد فوق العشر سنوات، مرت بغير أدنى قدْر من القلاقل أو الاضطرابات فكان الفضل في ذلك لما سار عليه من انتهاج السياسات والخطط التي وضعها فنغ شوان.

لمَّا شرع شوكون في تنفيذ سياسة التحالف

لمَّا شرع شوكون في تنفيذ سياسة التحالف مع المحور الشمالي الجنوبي، حضر إليه «كونسون هونغ» (أحد مواطني دولة تشي) وقال له: «أرى يا سيدي أن من الأحسن أن توفد أحد رجالك إلى دولة تشي ليقف على طبيعة [سمات شخصية] حاكم البلاد هناك (الملك جاو) فإذا ما أشارت الاستنتاجات إلى ميوله الإمبراطورية التوسُّعية، فلعلك تُدرك من الآن استحالة قبولك للعمل تحت إمرته وزيرًا في دولة التحالف، وبالتالي يتضح لك عدم جدوى السعي لتنفيذ السياسات الرامية إلى عقد التحالف، أما إذا كشفت الاستطلاعات عن ضعفه وسقوط همَّته، فلا بأس من أن تواصل لتنفيذ سياسات التحالُف حتى وإن أعضل بك الأمر معه، ولن يكون قد فاتك من الوقت الكثير.» فرد عليه شوكون قائلًا: «لا مانع عندي، وأرجو أن تبادر فورًا بالسفر لتقوم أنت بمُراقبة الأمور عن كثب.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

فلمَّا أذعن «كونسون هونغ» وتهيأ للرحيل، قام وأشرف على قيادة عشر عربات فسافر بها إلى تشين، وما إن بلغ نبأ ذلك إلى حاكمها جلالة الملك جاو، حتى فكر في أن ينتهز فرصة اللقاء به ليوجِّه إليه إهانات لفظية، وعندما مثل «كونسون هونغ» بين يدَيه، سأله الملك قائلًا: «ما مساحة إقطاعية شودي؟» فأجابه بأن مُحيطها يبلغ مائة لي، فقال له الملك بتهكم: «إن مُحيط الأراضي التابعة لي تبلغ ما يزيد على الألف لي، ومع ذلك فلا أجسر على أن أعادي أحدًا، فما بال شوكون يريد أن يُعاديني ولَّما تزد أرضه عن بضعة الأميال التي ذكرتها لي؟» فرد عليه «كونسون هونغ» قائلًا: «من المعروف عن شوكون أنه يُصادق الحكماء والنابهين، أما جلالتكم فلا يؤثر عنكم شيء من ذلك.» فسأله الملك عما يقصد بميل شوكون إلى الحكماء، وما هي صفاتهم فأجابه: «إنهم أولئك النفر الذين يتمسكون بما هو حق وصدق وعدل، دون خضوع لصاحب نفوذ، ولا يتملَّقون ذوي السلطان، والذين إذا علت أقدارهم صاروا السادة والملوك عن جدارة، فإذا تردَّت مكانتهم، استنكفوا أن يذلوا أعناقهم للناس، وعمومًا، فليس بين الناس جميعًا من تتحقق فيهم هذه الخصال سوى ثلاثة فقط، [هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن] النابهين القادرين على إدارة شئون الممالك على أساس من العدل، حسب وصايا وتعاليم (الحكيمين) «كوانجون» و«شانيانغ» فهم الذين يُخططون للسياسات التي ترفع من قدْر أمرائهم إلى مرتبة الملوك، وترقى بمكانة ملوكهم إلى مصاف الأباطرة العظماء، وليس هناك من هذا النوع من النابهين سوى خمسة فقط، وعندما يلجأ سادة الممالك من ذوي الهيبة والسلطان والملك الواسع إلى إهانة الرسل، فلن يملك هؤلاء إلا أن يقتلوا أنفسهم بأيديهم ويلوثوا بدمائهم القمصان الملكية الناصعة، فأنا واحد من أولئك الذين يبلغ عددهم عشرة أفراد.» فضحك حاكم تشين وقال لكونسون هونغ — فيما يُشبه الاعتذار: «لا أدري ما الذي يُثيرك إلى هذا الحد، فإنما قد أردت أن أتجاذب أطراف الحديث معك، وليس بيني وبين شوكون سوى الإخاء والمودة الصادقة، وكل ما أرجوه منك هو أن تنقل إليه أصدق مشاعري وأخلص تحياتي.» وهنالك أومأ كونسون هونغ برأسه علامة الطاعة والإيجاب.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

ويستحق كونسون هونغ أن يُعرف بين الناس بصفته كريمًا، عفيفًا، عزيز النفس، مثلما يستحق ملك تشين أن يُوصف بأنه الرجل القوي الذي يحكم دولة قوية أما شوكون فلم

يزد عن كونه واحدًا من كبار الموظفين [من ذوي الأملاك والثروات الطائلة] أما ما يؤثر عنه من إقرار لأصول المعاملات ومراعاة للعدل والكرامة والإباء، فقد كان الفضل فيه لما قام به كونسون هونغ من دور نشيط، وهذا بالضبط هو ما يؤهل هذا الأخير للقيام بدور المبعوث الذكي بكل جدارة وتفانٍ.

لمَّا تكلم لوجون ليان مع شوكون

تحدث «لوجون ليان» إلى شوكون، فقال له: «هل تحب الحكماء حقًّا؟ قد كان في قديم الزمان واحد من الوجهاء يُدعى يونمن [تحدثت عنه سير التاريخ بأنه ...] كان يتكفل بأمر النابهين [فمن ذلك أنه] قام برعاية «جياوتش» [أحد التابعين له]، وكذلك فعل الشيء نفسه الوجيه الأمثل «يانغ ديتس» الذي أخذ على عاتقه رعاية الأكفاء والموهوبين، حتى إنه كان يُطعمهم ويكسوهم مما يأكل ويلبس، فحفظوا له جميل صنيعه معهم. وكادوا يبذلون له أرواحهم لرد الجميل، ها أنت أوفر مالًا وأعزُّ جاهًا من «يونمن» و«يانغ ديتس» ومع ذلك فليس هناك من يبذل لأجل خاطرك أدنى جهد.» فأجابه: «هذا لأني لم أجد بعدُ مثل أولئك النابهين، فلو كنت قد عثرت عليهم، لفزت بولائهم وتفانيهم من أجلي.» فرد عليه لوجون ليان قائلًا: «في حظائرك مائة جواد من أفضل السلالات لكل جواد كسوة من الكتان وقد امتلأت الآنية بالذرة والأعلاف [فهل أغدقت على أحد مثلما فعلت مع جيادك؟] ولئن كان في قصرك عشر محظيات، لكل واحدة منهن ثوب مُطرز بأبهى زينة، وخادمات يطُفنَ عليهن بأطباقٍ شهية وأكواب أصفى شرابٍ [فهل أنعمت على أحد بمثل هذا الكرم؟] ثم إنك — في كل ذلك — ابن زمانك الحاضر الذي تقتني فيه الجياد وتعشق فيه المحظيَّات، ففيمَ انتظارك لحكماء مضى زمانهم؟ فمن ثم أقول لك: إن ما تُبديه من حُب وإكبار لأهل الحكمة محض كلمات جوفاء.»

لمَّا كان شوكون في طريق عودته

لما كان شوكون عائدًا إلى تشي التي سبق لها أن لفظته، فقد وجد في استقباله رجلًا يُدعى «تان شيتس» تقدم منه وحيَّاه قائلًا: «لعلك تجد في نفسك شيئًا من الضغينة تجاه الحكماء والنابهين بدولة تشي!» فأجابه: «هذا صحيح تمامًا.» فقال له «تان شيتس»: «وهل يَشفي غليلك أن تثأر لنفسك بقتلهم جميعًا؟» فلما رد عليه شوكون بالإيجاب قال له: «[يقال

في الأمثال ...] للأمور عواقب لا رادَّ لها، وللطبائع مبادئ لا مَحيد عنها، أتفْهَم معنى هذا القول؟» فلما أجابه شوكون بالنفي، راح يوضح له المَغزى قائلًا: «إن العاقبة التي لا رادَّ لها هي الموت، وأما الأساس الذي لا يتبدل في جوهر الطبائع فهو محاباة الناس للغني القادر ومجافاتهم للفقير المعدم [ذلك هو مغزى ما ذكرته لك آنفًا!] فإن شئت أن أضرب لك مثلًا بما يجري في الأسواق والمتاجر فانظر كيف يكون السوق مزدحمًا في أول النهار ثم يصير بلقعًا خاليًا من الباعة الجائلين في آخر الليل، أترى السبب في ذلك أن الناس تُقبل على الشراء نهارًا وتمقُته ليلًا؟ كلَّا، بل إنهم إذا رغبوا في الشراء قصدوا المتاجر صباحًا، حتى إذا مر الوقت بين بيع وشراء وجاء الليل، نفدت السلع، وخلت الحواصل من البضائع، وهجر الناس الأسواق زرافاتٍ ووحدانًا، [فتأمل ذلك ... وتبصر] وانزع ما في قلبك من ضغائن.» وبالفعل فقد تناول شوكون قصاصات الأوراق التي سطر عليها أسماء مُبغضيه والمُتحامِلين عليه، فمحا الأسماء كلها، ولم يعُد يطرق باب الحديث حول هذا الموضوع بعد ذلك أبدًا.

لمَّا التقى الملك شيوان بالزاهد الحكيم

لمَّا التقى الملك شيوان، حاكم تشي، بالزاهد الحكيم «يانشو»، قال له: «تعال ها هنا أمامي يا «يانشو»!» ورد عليه يانشو باللهجة نفسها آمرًا: «بل أقبل أنت يا جلالة الملك وقف أمامي!» فتغيَّر وجه الملك من الغضب، وضجَّ الحاضرون جميعًا وصار المُتحلقون حول جلالته يقولون للرجل: «ما الذي دهاك حتى ترد على الملك الذي أمرك أن تمثُل أمامه بأن يذهب هو إليك ويقف قبالتك؟! أما عرفتَ أنه الملك سيد الناس جميعًا، وما أنت إلا مجرد واحد من الرعية؟!» فأجابهم يانشو قائلًا: «إن ذهابي إليه (لو ذهبت) تملُّق وطمع في جاه، بينما امتثاله بالوقوف بين يديَّ تواضُع ومودة للحكماء.» فزاد غضب الملك واشتدَّ هياجه وهو يجيب قائلًا: «مَن الأكثر استحقاقًا للتوقير والإكبار؛ الملوك أم الحكماء؟» فلما ردَّ عليه يانشو بأن الحكماء هم الأجدر بذلك، سأله الملك عن السبب في هذا وعلى أي أساسٍ يبني ذلك التقدير؟ فانطلق «يانشو» يقول له: «هناك بالطبع منطق يحكم مثل هذه التقديرات [لكن دعني أقص عليك حكاية قصيرة، فقد] قامت دولة تشين، فيما مضى بمهاجمة تشي، وأثناء القتال، أصدر حاكم تشين أوامر تقضي بإعدام كل من يحاول أو يشرع في قطع الأشجار المُحيطة بمدفن المُفكر والفيلسوف الراحل «ليو شياوي» بحيث يُعَد الحكم بذلك نهائيًّا غير قابل للطعن أو النقض على أي نحوٍ كان، وفي الوقت نفسه أصدر حاكم تشين

أيضًا قرارًا آخر متزامنًا مع الأمر السابق ذكره وينص على «مكافأة من يأتيه برأس ملك تشي بمنحه عشرين ألف أوقية ذهبًا خالصًا، وإلحاقه بمركز وظيفي مرموق في الدوائر الحكومية العُليا؛ ففي ذلك ما يدل على مدى التبجيل والتقديس والاحترام الذي حظِيَ به رفات رجل حكيم مما لم يتوافر لرأس ملك على قيد الحياة.» وهنا أطرق الملك بوجهٍ عابس ولم ينطق بشيء.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وتحدث المُجتمعون حول الملك إلى الزاهد الحكيم يانشو قائلين له: «تريَّث في أحكامك أيها الزاهد (الفيلسوف)، أما قد علمتَ أن جلالة الملك يمدُّ سلطانه فوق أراضٍ شاسعة [تحوطها ألوية وكتائب وتحرسها آلاف مؤلفة من العربات العسكرية] وأن له المعابد المشيدة [وله تدق النواقيس بأجرامها الهائلة المُعلقة] وأن كل من تحت السماء من أهل الحكمة [بما في ذلك أشهر المجادلين والمتناظرين] والداعين بين الناس بالحق والعدل، جميعهم بغير استثناء قد قصدوا أعتابه الملَكية ولم يستنكفوا أن يهتدوا بنُصحه وإرشاده، كما لم تأبَ دولة من الدول التي فوق الأرض أن تخضع لنفوذه وتأتمر بأمره [وتأتيه طوعًا بما يحتاج أن يفرضه عليها قسرًا]، فالكل مُستجير به ملتجئ إلى عونه ومساندته، أما الحكماء [الذين تتحدث عنهم] فإن أعلاهم قدرًا يمشي بين آحاد الناس على قدمَيه ويُقيم بأطراف الحقول والمزارع، أما أدناهم مكانة، فيسكن الأحراش ويهيم في البرية، أو يقبع عند مداخل الأزقة والحواري الضيقة [وضيع الشأن، حقير المنزلة]، فليس الحكماء، والزهاد على شيء مما يستوجب التوقير والإكبار!»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وردَّ يانشو قائلًا: «مال بكم الرأي وجانبكم الصواب؛ أما عرفتم أن الأمراء والحكام في زمن الإمبراطور الأكبر «يو» [مؤسس عرش أسرة «شيا» الحاكمة] كانوا يقومون على شئون إماراتهم ودويلاتهم مُهتدين في ذلك بمبدأ «مراعاة التقاليد الأخلاقية النبيلة» ومُستندِين إلى ما شاع بين الجميع من تبجيلهم لرجال الحكمة والأماجد والنبهاء، وهكذا [فقد كان ذلك هو المبدأ الذي بواسطته] جرت ترقية الملك شون من مجرد عامل زراعي يجوب المزارع والمحلات البعيدة إلى مرتبة الإمارة، وقد بلغ عدد الحكماء [من هذا النمط [في زمن الملك

تانغ] أسرة شانغ الملكية] ثلاثة آلاف فرد، أما في زماننا هذا فلم يعد هناك من الملوك الجنوبيين الذين تسبق أسماءهم ألقاب: «المتواضع»، «المسكين»، «الخادم الفقير» سوى أربعة وعشرين حاكمًا فقط، وهذا في حدِّ ذاته دليل واضح على أن التسويات والمُساومات السياسية قد جاءت بأوخم العواقب، حتى صار الملوك والأمراء يتقاتلون ويزاحِمون بعضهم بعضًا في الاستئثار بحُكم الدويلات أو الاستيلاء على عروش الأباطرة، فأبادوا الديار وشتَّتوا الناس وأفنوا القبائل والعشائر، ولم يعد هناك — من الأمراء — من يفكر في أن يذهب ويقبع بجوار بوابات الأزقة والشوارع [كالحكماء والزهاد، فيما مضى] وهو المعنى الذي نُطالع شيئًا منه في «كتاب التغيرات» حيث يرد النص التالي: «إذا ما تولَّى المرء منصبًا مرموقًا دون جدارة أو استحقاق بموجب مزايا أو مواهب أصيلة ثم راح يتباهى بين الناس فخورًا بما أوتي من جاهٍ وشرفٍ ومكانة، فسوف يتطبع بطابع الصلف والغرور، وهي صفات قريبة من معاني النفاق والنذالة والكبر والهمجية، ومن ثم فالساعي إلى المجد بغير امتلاك لأسباب المجد قمين بالانكسار والمذلة، وكالباحث عن لذيذ العيش دون سندٍ من خصال أو أخلاق، فدرْبُه وعر، ومسالكه عسر، ومصيره محتوم، بعد اللِّين، بالضيق والشدَّة، ومن كسب مالًا أو جاهًا بغير جهدٍ أو فضل، فالهوان قدره المقدور؛ ونكبته النكباء لا تزول ...» [فمن ثَم كان] المُتشدِّق بالفضل ليس له أي فضل، والراجي من دون سند للرجاء لا يُنال له رجاء.» وكان الحكماء قديمًا حريصين على أن ينالوا المجد بما يبذلون من جهد، حتى إن الملك «ياو» اضطر [لكثرة ما تراكم عليه من مشاغل] أن يستعين بتسعة من المساعدين، أما الملك شون الحكيم، فقد كان له سبعة من المعاونين، وكان للإمبراطور العظيم «يو» خمسة من المعاونين، بينما تضاءل العدد إلى ثلاثة فقط في عهد الملك تانغ ولم يحدث على مرِّ الزمان أن ترقى إلى أوج المجد من لم يتزوَّد بزاد الحكمة، فمن ثم لم يرَ الملوك عيبًا في طلب العِلم والنصح والمشورة، ولم يتحرَّجوا عن استصواب آراء العامة والدهماء أن نطق فيهم ناطق الحكمة؛ فكان سلوكهم هذا هو سبب ذيوع شهرتهم وبلوغهم آفاق المجد بما وطَّدوا أنفسهم عليه من مبادئ سامية وما اكتسبوه من أخلاقٍ وفضائل، ومن بين الملوك والأباطرة الذين ساروا على هذا النحو: ياو، شون، يو، تانغ، أون.

ولقد كان يُقال دائمًا [في مأثور الأمثال]: «إن الخفي الباطني من الأمور هو الذي يُحدد ويسود على الظاهر الملموس منها، وكل ما لا يُعلم له بداية يصبح هو الأساس لكل بداية.» إن كل من يسبر غور الأشياء ويعي منطلقاتها، هو وحده الذي يفهم مسار تطورها،

ويبلغ في ذلك ما بلَغه القديسون والعلماء، من تمكن وفهم أسرار العلم وبواطنه، [... وإن كنت أعجب لشيء] فإني أعجب لمن يُنكر الخير والصواب لمن يسلك ذلك السبيل! ومما يذكر عن [الفيلسوف الحكيم] لاوتسي في هذا الصدد، قوله: «لا [بلوغ لـ ...] رفعة وتوقير بغير [سابق عهد ومقام في] مذلة وتحقير، ولا مجد لمن لم يسقط في قاع الحضيض.» وهكذا يُطلق الملك «خو» على نفسه لقب «الضعيف»، «المسكين»، «الحقير»، انطلاقًا من مبدأ التوسُّل بالضعة والمذلة، بلوغًا لأرفع مقام شريف؛ ذلك أن جلالته يختار لنفسه لقبًا لا يُطلَق إلا على من تدنَّت مكانته من العامة والبسطاء، أوَليس ذلك دليلًا على استعداده للنزول الى أدنى موقع اجتماعي يُمكِّنه من التطلع بعين التبجيل إلى مرتبة الحكماء الزهاد؟ إن ذلك هو ميراث العلم والحكمة والزهد من «ياو» إلى «شون» ومن بعدهما إلى «يو» والملك تشنغ حاكم «جو» وأخيه الأصغر الذي خلفه على عرش البلاد والملك «كندان»، فأولئك هم الملوك الحكماء، الذين أشاد الناس على مر الأجيال بسيرتهم وفضلهم، وفي هذا ما يكفي لتبيان مدى ما يناله الحكماء الزاهدون من احترام وتقديس.»

الجزء الرابع من الفصل نفسه

تنهد الملك شيوان عميقًا وهو يقول: «كيف يمكن لملك أن يقف هذا الموقف غير اللائق؟ لكني أنا الذي جلبتُ على نفسي كل ذلك، وكنت جديرًا بالذم والتوبيخ، وقد سمعت منك اليوم يا «يانشو» ما بصَّرني بحقائق الأشياء، وأرجو أن تقبلني منذ اللحظة واحدًا من تلاميذك وحوارييك، وسيطعم كِلانا، أنا وأنت، طعامًا واحدًا، وتركب في تجوالك عربة تجرُّها الجياد، وتلبس زوجتك وبناتك أفخر الثياب.»

الجزء الخامس من الفصل نفسه

اعتذر يانشو بأدب قائلًا: «إذا كانت تصفية الشوائب عن حجر الماس تستوجب تغيير ملامحه وإعادة تشكيل حالته الخام الطبيعية فهي لا تعني فقدانه لقيمته، بل تعني تغيير شكله الظاهري، وإذا قُدر للحكيم الزاهد المقيم في القفار الوحشية أن [يلتحق بوظيفة مرموقة] ويحظى بدخل هائل وثروة وافرة فسيسعد بذلك كثيرًا لأنه لا يكره الشهرة والثروة والنفوذ — أصلًا — لكنه سيخسر روحه ويبدِّل جوهره، [وكل ما أرجوه يا مولاي

أن ...] أعود إلى بلدتي، وأمضغ طعامي على مهل، كأني أتلذَّذ بالْتهام أصناف من اللحوم، وأمشي على الطرقات هانئًا سعيدًا كأني أركب عربة فارهة، وتمتلئ روحي بالثقة والرضا كأني صاحب ثروة وجاه عريض، أعيش حياة سعيدة هادئة، لا يُراجعني أحد في آرائي سوى جلالة الملك، الذي لن أتوانى عن أن أبذل له كل الإخلاص والصدق. (والآن) وقد فرغت من ذكر أهم ما في جعبتي من الكلام، فأرجو أن يأذن لي الملك في العودة إلى مسقط رأسي حيث أرجع إلى بيتي وحجرتي الصغيرة.» ثم انحنى بجسده راكعًا، واستأذن الملك في الانصراف.

الجزء السادس من الفصل نفسه

كان يانشو صادقًا في رضاه، مخلصًا في قناعته، وقد آب أوبًا حسنًا إلى نقي طبعه وأصيل جوهره، فسلِم من الخزي طوال حياته.

لمَّا وقف السيد واندو أمام القصر الملكي

وقف السيد «واندو» أمام القصر الملكي يريد مقابلة جلالة الملك شيوان حاكم تشي، فأرسل إليه جلالته من اصطحبه إلى داخل القصر[فلما سُئل الرجل عما يريده من المقابلة] قال: «أريد أن أسأل أولًا إن كان جلالة الملك يُفضل أن يلقاني وأنا أسرع إليه الخُطى كأني طالب منفعة أو ساعٍ لمآرب ذاتية، أم يتكرَّم جلالته بالإسراع نحوي (بوصفه) تكريمًا لي كأني واحد من الحكماء والنابهين؟» فراح الحاجب يسأل الملك في هذا الشأن فأجابه: «دع الرجل يتقدم إليَّ على مهل وسأستمع إليه [مثلما أستمع إلى العلماء] وآخُذ بمشورته ورأيه.» وأسرع جلالته بنفسه للقاء السيد واندو عند بوابة القصر، فاستقبله وأدخله معه وهو يقول له: «إن شخصي المسكين لن يتوانى عن التفاني في خدمة الأحياء والأموات جميعًا، فأنا أتقدم بالقرابين والنذور لأجدادي [عسى أرواحهم ترضى عني] مثلما أدافع عن وطني وأحمي عرضي، وقد بلغني أنك آتٍ بصادق الرأي وخالص النصيحة فقل ما شئت ولا تثريب عليك.» فردَّ الرجل، وقال: «لا تصدق يا مولاي ما يصل إلى أسماعك لأنه لا يذاع عندك إلا أكاذيب مُلفقة، ولئن كنت أنا واحدًا من الأحياء في زمنك، فإنما قد شهدت أيامًا مضطربة وفوضى عارمة، وخدمت تحت إمرة الحمقى والخبالى، فكيف أصدُقك القول وأخلص لك النصح؟!» وعند هذا الحد تغير وجه الملك من الغضب وتكدَّرت نفسه للغاية.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وسكت «واندو» قليلًا ثم قال: «كانت أحب الأشياء إلى قلب جلالة الملك الأسبق «هوانكون» الاجتماع إلى الأمراء وكثرة التودُّد إليهم، فاستطاع [بهذه الطريقة] أن يضبط أمور الممالك، فأقطعه الأمراء الكثير من الأراضي، ونصَّبوه ملكًا عظيمًا وسيدًا حاميًا للدويلات كلها، وللحق يا مولاي، فإن جلالتك تتشابه مع الإمبراطور «هوانكون» في أربع خصال.» فسُر الملك شيوان كثيرًا وقال: «وأين أنا من ذلك الإمبراطور العظيم وأنَّى لي أن أشترك معه في أربع خصال وأنا قليل العلم، بليد الذهن، خامل الفطنة والذكاء، أحاول قدر جهدي أن أصون بلادي وأحميها من المخاطر وأشعر أني مُقصر حتى في القيام بحق هذا الواجب الأساسي.» فرد عليه واندو قائلًا: «على رِسلك يا مولاي، بل إنك تجتمع مع جلالة الإمبراطور في أربع خصال حقًّا، ذلك أنك تُحب تربية الخيول، وتقتني الكلاب، وتُعاقر الخمر، وتهوى النساء مثلما كان يفعل تمامًا، لكن الفرق الوحيد بينكما أنه كان يُجالس الحكماء ويُقربهم إليه، وليس هذا من جملة عاداتك.» فأجابه: «وماذا أصنع إذا كان زماننا خلوًا من الحكماء؟» فقال واندو: «وزماننا أيضًا لم يعُد فيه ذلك الصنف الجيد من الخيول التي كان يُربيها الإمبراطور المذكور ومع ذلك فحظائرك تمتلئ بالجياد التي تجرُّ عربتك الملكية، ولديك العديد من الكلاب برغم أن السلالات الجيدة التي اشتهر الإمبراطور بتربيتها لم تعُد موجودة اليوم، وفي قصرك السرائر والمحظيات أشكالًا وألوانًا وليس من بينهن ربَّات الحُسن أو صاحبات الصون والعفاف مثل أولئك اللائي كنَّ يقمن في الخدور في سالف الزمان، وكل ما في الأمر يا مولاي أنك لا تُحب الحكماء، فلماذا تشغل نفسك بأمرهم؟» فرد عليه بقوله: «إن «شخصي الضعيف» يحب بلده وشعبه ويهتم بكل شئونه، ويرى من ثم أن الحكماء هم خير سند لسياسة أمر البلاد.» فقال له محدثه: «لكن اهتمامك يا مولاي بشئون بلدك وحبك لشعبك يكاد لا يرقى إلى درجة اهتمامك وحبك لقطعة من الحرير طولها ذراع واحدة.» فدُهش الملك وسأله عما يقصد بذلك فأجابه: «أريد أن أقول لجلالتك إنك إذا أردت أن تصنع لرأسك عمامةً قصدت الحائك ليصنعها لك، وأعرضت عن كل أوفيائك وأصدقائك المُتحلقين حولك، وذلك لأنك تعلم أن الحائك هو الوحيد الذي يُقدر على إتمام ما كلفته به بحكم تخصُّصه وتجربته ومهارته، فإذا ما عرض أمر من أمور الحكم ومسئولياته، قصدت إلى حاشيتك وأصفيائك، فاتخذت منهم الوزراء دون غيرهم من الناس، فلهذا قلت إن ذراعًا من الحرير [تصنع به عمامة ...] أهم عندك من الدولة والأهالي.» وهنا خفض الملك رأسه، وقال معتذرًا: «قد جانبني الصواب، إذن!» ثم إنه تخير

خمسة من الحكماء وولَّاهم مناصب رسمية (كبرى)، فاستقرت أحوال دولة تشي وسارت الأمور فيها سيرًا حسنًا.

لمَّا أوفد ملك تشي رسولًا

أوفد الملك شيانغ رسولًا من طرفه إلى سيدة القصر الحاكم بدولة جاو [زوجة الملك هوي حاكم جاو ووالدة الملك شياوتشين الذي تسلم العرش صغيرًا فصارت الأم وصيةً على العرش وحكمت البلاد] ليُبلِغها التحية وأطيب الأمنيات، فلمَّا مثل الرسول بين يدَيها بادرته قبل أن يفضَّ الرسالة بوابلٍ من الأسئلة: «كيف أحوال موسم الحصاد هذا العام؟ وهل أضرت الفيضانات الموسمية بالمحاصيل أو الأهالي؟ وكيف صحة جلالة الملك؟» فاستاء المبعوث وتكدَّر خاطره للغاية وقال لها: «قد تم إيفادي إلى جلالتك تنفيذًا لتكليف رسمي من قبل ملك تشي ومع ذلك فلم يكن السؤال عن أحوال الملك هو أول مشاغلك واهتمامك، بل بدأت بالاستفسار عن أحوال الحصاد والمزارعين، فهل من المقبول أن يفتتح السؤال بذكر السفلة والدهماء، ويتذيَّل بالإشارة (العابرة) إلى الأماثل والعظماء؟» فأجابته: «ليس الأمر على ذلك النحو، بل ما أقصد إليه أن كمية المحصول السنوي إذا تعرضت للنقصان، فلن يجد القصر الحاكم وسيلةً لإعاشة الأهالي، وإذا أُصيب الأهالي بنكبةٍ هائلة من جراء ذلك، فكيف تثبت أركان العرش الحاكم؟ لذلك فمن المعقول أن نبدأ شجرة الاستفسار بما رسخ من جذورها وليس بما تشعَّب من فروعها.» ثم إنها استدركت تسأل المبعوث: «كيف أخبار العالم الزاهد «جون ليتز» المُقيم لديكم بدولة تشي؛ أهو بخير؟ وإنه واحد من ذوي السلوك المُتفرد بين الناس؛ فهو يطعم الجائع الذي يعدم القوت، ثم إنه يطعم الشبعان أيضًا، ويمد رداءه فوق العاري المسكين مثلما يكسو المتأنق في رداء من حرير، وإني لأعجب كيف يقصى مثل هذا الرجل عن الموقع الجدير به؛ حيث يستطيع أن يكون خير عون لجلالة الملك في إعاشة الأهالي وسياسة شئون حياتهم.

وأسألك أيضًا عن الزاهد الحكيم بأرضكم، ذلك المدعو «إيانزي» ما أخباره؟ وما كان لي أن أستفسر عن مثل هذا الرجل لولا ما عرف عنه من خصالٍ مثالية، إذ إنه يؤنس وحشة البائسين، ويواسي المنكوب، ويعين المكروب، ويجدد الثوب الخلَق لمن تهرأت أسماله، ويمد الأسمطة، وينصب الموائد لكل ذي مسغبة، فلماذا لا يُقرِّبه البلاط الحاكم ويجعله ضمن خاصته؟ لعله يعين الملك على تنفيذ خططه الرامية إلى الارتقاء بالأحوال العامة [وزيادة الحرث والنسل] وماذا عن ابنة بلادكم البارة الزاهدة «بايكون إينر» التي نزعت

أقراط أُذنَيها وأضربت عن الزواج حتى بلغت من العمر عتيًّا لتبقى خادمة وفيَّةً لأبويها العجوزين، ولا أدري ما الذي يمنع القصر الحاكم عندكم من أن يتكرم عليها بالإنعام اللائق ويمنحها لقب ومكانة «السيدة الملكية الجليلة» عساها تدعم سياسة الحكم التي تستهدف إشاعة روح البر والطاعة بين الأهالي. ولئن كان اثنان من الحكماء يُستبعَدان من شغل المناصب الرسمية، وواحدة من أشهر الفتيات برًّا ووفاءً، تُحرَم من شرف الدخول في معية الصفوة المُقربة من البلاط الملكي، فما الذي تستندون إليه في إدارة سياسة البلاد، وما الذي يضمن لكم القيام بواجب القيادة والرعاية لمصالح شعبكم؟ [قل لي بهذه المناسبة …]: أما زال العالم الزاهد «زيكون» على قيد الحياة، ويعيش أيامه في مقر إقامته ببلدة «أولينغ»، أما زال كعهده زاهدًا في الجاه والسلطة والنفوذ [مما لدى الملك]، مترفعًا عن الدعوة إلى الإصلاح وضبط الأحوال [بين الناس]، مُتجافيًا عن مواثيق التحالُف مع أمراء الدويلات، [ذاهلًا عن الدنيا بأسرها] مما يجعله مثالًا [فاسدًا] للامبالاة وسقوط الهمة والاستخذاء، ثم إنكم تتركونه حيًّا إلى الآن ولا تزهقون روحه؟!»

لمَّا ذهب رجل من تشي وقابل أحد الدعاة

ذهب رجل من تشي وقابل أحد دعاة المذاهب الفكرية، الملقب ب «تيان بيان»، ثم قال له: «بلغني يا سيدي أنك رجل فاضل ذو خلق وعلم ومكانة وضمير حي لا يقبل الضيم، فإن كنت قد قررت [كما أشيع، وحسب ما تروج له من أفكار …] أن تهجر الوظائف العامة، فمرحى! وإني ليُشرفني أن أقوم على خدمتك [تعظيمًا وإكبارًا].» فسأله تيان بيان: «من أين لك بهذه الأقاويل؟» فأجابه: «ابنة جاري هي التي أبلغتني بذلك.» فلما استفسر منه الداعية عما يقصد أجابه الرجل قائلًا: «إن أحد جيراني له ابنة جميلة، كانت قد أشاعت بيننا أنها نذرت ألا تتزوَّج أبدًا، ثم لما بلغت الثلاثين من عمرها فوجئنا بأن لدَيها سبعة أبناء، [فلما نظرنا في الأمر وجدنا أنها] وبرغم عدم ثبوت قيام العلاقة الزوجية، إلا أنها فاقت المتزوِّجين أنفسهم في الإنجاب، حتى صار لديها أكثر مما يصير للمرأة المتزوِّجة من أبناء، وها أنت اليوم تدعو الناس إلى عدم الالتحاق بالوظائف [زهدًا وتقشفًا] برغم ما في خزائنك من أجولة الطعام المكدَّسة، والمئات من الأتباع والأشياع الذين يأتِمرون بأمرك، ويذهبون أينما أطلقتهم ليأتوك بما تريد، فأنت في ظاهر القول قد هجرت الوظائف الرسمية [مجاهدة وتعففًا]، لكنك — في واقع الحال — قد استغنَيت عن العمل الوظيفي بما حزتَ من ثروةٍ ونفوذ.» ولم يلبث تيان بيان أن حنق على الرجل وطرده شر طردة.

لمَّا جمع كوانيان أتباعه

جمع «كوانيان» [أحد الدعاة للمذاهب الفكرية] أتباعه وتلامذته إليه، بعد أن أصدر الملك حُكمه عليه بالإعدام، وقال لهم: «أيُّكم يُحب أن يرافقني في مسعى طلب اللجوء إلى كنف أحد أمراء الدويلات المجاورة، طلبًا للنجدة؟» فصمتوا جميعًا، ولم ينطق لهم ناطق، فانكسر قلب كوانيان من الأسى، وبكى بكاءً مُرًّا حتى تحدَّرت الدموع على وجنتَيه، وصار يقول لهم: «وا أسفا على العلماء ذوي الفضل والحكمة! كيف يسهل العثور عليهم بينما يتعذَّر الاحتفاظ بهم وتوليتهم أرفع المناصب الرسمية؟» وهنالك رد عليه «تيانشو» [رئيس وزراء دولة وي، فيما بعد] قائلًا: «إن العلماء ذوي الفضل والحكمة لا يجدون من الطعام ما يُشبعهم؛ وفي حظائرك أصناف وألوان من الداجن الذي سمن وزاد عما مُدَّت به الأسمطة لك، وقد ملكت يمينك ما لا يُعد من أجمل السرائر والمحظيات؛ يخطرن في قمصان حريرية ويأتزرن بأشرطة من قصب موشًّى ساهمات الطرف، ينسجن الدمقس بأصابع مخملية، غير أن العلماء الزهَّاد يربئون بأنفسهم عن الانغماس في تلك الملذات، ثم إن المال فيض من غيضك، حتى زاد عن حاجتك، في حين أن الموت، عند العالم الحكيم، أمر ذو خطر وشأن؛ فأنت تأنف أن تمنح الزاهد بعض ما يتيسر لك، ويرخص لديك لأنه زاد عن حاجتك، بينما تطلب منه أن يبذل لك ما لا يهون عنده — فالأمر إذن — ليس على النحو الذي ذكرت، والمسألة لا تُقاس بدرجة السهولة التي تعثر فيها على العالم [المثقف] الحكيم دون أن تحتفظ به أو توليه منصبًا رفيعًا.»

لمَّا حضر سوتشين إلى دولة تشي

حضر سوتشين إلى دولة تشي قادمًا من دولة يان، والتقى عند الباب الجنوبي لمدينة «هواجان» بجلالة الملك «مين»، حاكم البلاد، وقال له جلالته: «ما دمت قد حضرت إلينا، فأُحب أن أطلعك على ما قام به حاكم تشين من إرساله المبعوث «ويرانغ» إليَّ، حاملًا قراره الرسمي بمنحنا اللقب الإمبراطوري، وأريد أن أعرف رأيك في هذا الموضوع؟» فأجابه سوتشين قائلًا: «أراك تتعجل الأمور بسؤالك هذا؛ لأنه من السابق لأوانه التكهُّن بما سينجم عن هذا الأمر من مزايا أو مساوئ، ذلك أن جلالتك لو أقدمت على رفض الإذعان لما تُمليه دولة تشين، فسوف تجلب علينا وعلى نفسك المتاعب بما ستصبُّه فوق رأسنا من سوْرات الغضب؛ أما إذا أبديتَ استجابتك لتصوراتها، فستُثير استنكار باقي الدول واستياءها،

وأرى أنه من الأفضل لجلالتكم أن تقبلوا ما تعرِضه عليكم تشين [فيما يتعلَّق بالتحالُف معها لشن هجوم مشترك ضد دولة جاو] وكي يتسنَّى لها تسوية الإجراءات المُتعلقة بإعلان نفسها إمبراطورية عظمى؛ وذلك دون أن تشرع في استخدام اللقب الإمبراطوري الذي تعرضه عليك؛ حتى تستميل إلى صفك تأييد الناس في الممالك المختلفة، فإذا ما نادى ملك تشين بنفسه إمبراطورًا ووافقَتْه على ذلك كل الدويلات التي تحت السماء، فلن يبقى أمامك إلا أن تعلن موافقتك وارتياحك؛ لأن الأمر سيكون — عندئذٍ — في حكم تحصيل الحاصل، باعتبار أنك إنما وافقت بعد إجماع الكل وأنك لم تكن تريد الخروج عن قرار الأغلبية، وهكذا، يصير القبول باللقب الإمبراطوري أمرًا سائغًا دون أية عقبات أو أضرار؛ أما إذا قوبل إعلان ملك تشين نفسه إمبراطورًا من جانب الإمارات والدويلات الأخرى بالرفض والاستنكار، فلك حينئذٍ أن تعدل عن موافقتك لقبول اللقب الإمبراطوري؛ فتكسب تأييد الناس لك [والتفاف] أفئدتهم حولك، وهذا أعظم وأكبر عماد لدوام الملك.»

لمَّا تحدث سوتشين إلى الملك مين

تحدث سوتشين إلى جلالة الملك «مين» حاكم تشي، فقال له: «إذا افترضنا — جدلًا — أن صارت الدولتان تشي وتشين جناحي الإمبراطورية الغربية، فأي البلدين كفيل بأن يُثير في الناس المهابة والاحترام؟» فأجابه الملك: «لا بد أن الناس ستنظر نحو تشين بكثيرٍ من الاحترام طبعًا.» فعاد شوتشين يسأله: «فإذا نحَّينا مسألة اللقب الإمبراطوري جانبًا، فأي البلدين يحظى بين الممالك بالحب والتأييد؟» فأجابه: «لن يحظى بالحب والتأييد سوى تشي، ذلك أن الناس لن تشعر نحو تشين إلا ببالغ الكراهية!» وسأله سوتشين قائلًا: «وعندما تتلقَّب كل من تشي وتشين باللقب الإمبراطوري وتتحالفان للإغارة على أطراف أخرى، فهل تظن أن هدف الهجوم في هذه الحالة سيكون دولة جاو أم سونغ، وأي هاتين الدولتَين يمكن أن يكون هدفًا أسهل منالًا وأكثر نفعًا للأطراف المغيرة؟» فأجابه: «من الأفضل — في هذه النقطة — أن نُهاجم سونغ!» فقال له سوتشين: «هذا طبعًا هو ما يتم النظر إليه حسب ما تنصُّ به معاهدة التحالف بين الأطراف المهاجمة [لكن الواقع ستكون له أحكام مغايرة؛ ذلك أن قيام جناحي الإمبراطورية في تشي وتشين، لن يضمن لكِلا الطرفين أنصبة مُتعادلة في نقاط كثيرة، فمثلًا، ستظل تشين [في ظل التسمية الإمبراطورية] هي التي تحظى بالهيبة والاحترام والتقدير بينما يهمل شأن تشي تمامًا، أما إذا أسقطت التسمية الإمبراطورية، فستنال تشي كل الحب والتأييد من جانب الدويلات والممالك بينما

تبوء تشين بالازدراء والكراهية، فإذا أضفنا إلى ذلك أنكم ترون غزو سونغ أنفع لكم من مهاجمة جاو، فإننا نكون بإزاء مواقف دقيقة تتطلَّب حُسن التقدير، وإني [بناء على ذلك] أرجو من جلالتكم التنازل — لو ظاهريًّا — عن التسمية الإمبراطورية وما يرتبط بها من سلوكيات مما قد يُقرب ما بينك وبين الدويلات والممالك حتى لو تطلَّب ذلك خرق معاهدة التحالف وما يستتبِعه من إقصاء وإزاحة لنفوذ تشين دون الصدام معها تجنبًا لأي منافسةٍ أو ضغط تُمارسه هذه ضدنا لانتزاع الهيمنة، بل تستطيع جلالتك أن تستغلَّ الظروف الناشئة عن ذلك لمهاجمة سونغ، فإذا تسنى لك احتلالها، أصبحت دولة «ويه» في وضع ضعيف بما يتهددها من مخاطر قريبة من منطقة «ياندي» التابعة لها، فإذا تقدمت بقواتك لتحتل شمال نهر «هواي» تعرضت منطقة شرق دولة تشو لخطرٍ مُحدق، ثم إذا تيسر لك التمركز في غرب نهر «جي»، أصبحت قاب قوسين أو أدنى من منطقة «بياني» التابعة لدولة جاو، فإذا تقدَّمت بخفة وسرعة نحو «إيندي» و«بنجي» فستكون قد أغلقت أبواب عاصمة دولة وي على نفسها من كل ناحية وكتمت أنفاسها، وبالطبع فإن تنازلك عن التسمية الإمبراطورية وهجومك على سونغ [كل ذلك] سيكون بمثابة إشارة واضحة لما يعتمل في صدرك من تردد وتهافت نحو تشين، وهو ما سيسلط عليك الأهمية ويمنحك الاحترام والتقدير والشهرة الذائعة.

أما من ناحية دولتي يان ووتشو فلك أن تطمئن لأن أوضاعهما تفرض عليهما الولاء والخضوع، وهو ما سيُخضِع لك رقاب الإمارات والدويلات التي تحت السماء [وقد كان ذلك التصرف الذي قام به الملكان الحكيمان «تانغ» (مؤسس أسرة شانغ الملكية) والملك «أو» حاكم جو ...] فاجعل لدولة تشين الاحترام — ظاهريًّا — على أن تدفع الدويلات والممالك إلى إزدرائها وكراهيتها، فذلك هو ما يطلق عليه «استخدام طرق التحقير المرذولة لخلخلة بنيان الاحترام الجليل[هدم الاحترام بمعول التحقير»] فلتنظر جلالتك في هذا الأمر جيدًا وتأمل!»

سجل تشي الخامس

لمَّا ذهب سوتشين إلى الملك مين

ذهب سوتشين إلى الملك «مين» حاكم تشي وقال له وهو يُحاوره في بعض المسائل الفكرية:

«بلغني يا مولاي أن من بادر إلى تهييج الفتن وإشعال نار الحرب، كان مآله في آخر المطاف إلى البؤس والانكسار، وأن من اجتهد في إحاطة الملوك بسياجٍ من الجفاء والعزلة، سينتهي حتمًا إلى الانكفاء داخل إسار العزلة المقيتة. [علمت أيضًا] أن من تمجَّد شأنه وتألق نجمُه فهو الذي يستند دائمًا إلى قاعدة من التأييد، وأن من تباعد عن مُبغضيه هو [ذلك الذي] عرف كيف ينتهز الفرصة المواتية، ولذلك فإن القديسين الحكماء لا ينجزون أمرًا إلا بالاستناد إلى مرونة في الفكر والسلوك، وهو ما يفي بالنهوض بهمَمِهم دون إبطاء. [هكذا فإن] مرونة الفكر [التكتيك … حرفيًّا] والاستناد إلى أساس من الدعم والتأييد هما — معًا — المقودان اللذان يُوجهان مسعى البشر على طريق الحياة، أما:

(١) انتهاز الفرصة المواتية، (٢) وإدراك طبيعة الأوضاع القائمة، فهما طريقتان ناجعتان لتصريف الأمور، فإذا قيل إن هناك من يقدرون على إنجاز المآثر الكبرى دون حاجة إلى مرونة في التفكير أو سند من التأييد، وبغير مُراعاة للأوضاع القائمة أو تقدير للفرص واللحظات الملائمة، فإن أمثال أولئك النفر من الناس قليلون جدًّا.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

«إننا لو تأمَّلنا الأحوال جيدًا لوجدنا أن أمضى السيوف لن تكون حادة بتارة بغير الاستناد إلى اليد التي تضرب بها [حرفيًّا = إن أمضى سيفين في دنيا الشفرات القاطعة وهما «كانجين» و«مويا» لن يقطعا شيئًا إلا بإدارة اليد الضاربة. وتقول الأسطورة إن هذين السيفَين

كانا في الأصل رجلًا وامرأة تحوَّلا إلى سبيكة معدنية شقت نصفين فخرج منها السيفان الشهيران وقد صارا نصلَين قاطعَين كأمضى ما تكون النصال] وكذلك فإن أشدَّ السهام صلابةً وأحدَّ شفراتها مضاءً لن تُطلق في صدور العدو بغير وترٍ وقوس، فلماذا لم تُغنِ عن السيف حدةُ نصله؟ ولماذا لم يعتد برأس السهم وحدَه نافذًا مُسددًا؟ والجواب عندي أنهما وبرغم كل ذلك فلا يمكن أن تكون لهما قيمة بغَير المرونة [= التكتيك] والعون [ربما: الاستراتيجية؟!] لكن كيف لنا أن نجزم بصحة ما ذهبنا إليه ودقة معرفتنا به؟ والرد عندي جاهز، وسأستند في ذلك إلى رواية التاريخ نفسه الذي يحكي ما وقع في سالف الزمان من أن دولة جاو لما قامت بغزو دولة «ويه» وحدث أن توقفت العربات العسكرية عن التقدُّم في بعض الطريق، فواصل الجنود المشاةُ تقدُّمهم، فلما ترامت الأنباء بذلك إلى عاصمة «ويه» ضجَّ الأهالي وطالبوا دولتهم بالسعي في وقف القتال وطلب السلام ولو بالتنازل عن بعض الأراضي، وكانت أبواب العاصمة قد حوصرت بالقوات المُهاجمة التي استولت على اثنَين من الأبواب المؤدية إلى وسط المدينة، وصارت الأوضاع الماثلة تُشير إلى حالة احتلال وقيل وقتذاك إن حاكم «ويه» شوهد وهو يهرول من أبواب القصر حافي القدمَين وهُرع إلى دولة وي يقص على الناس هناك مأساته ويطلب النصرة. فأسرع الملك «أوهو» — حاكم وي — إلى درعه فتدرَّعها وإلى سيفه فشحذه وسار إلى دولة جاو يستثيرها لمقاتلته [فلمَّا ثارت الحرب بينهما] صارت العاصمة هاندان — عاصمة وي — تعج بالخيل وعربات القتال، وصارت الأرض من النهر الأصفر حتى جبال «تايشين» تتلظَّى بنار الحرب وتتقلَّب في مراجل الفوضى العارمة، لكن دولة «ويه» حصلت على العون الذي تريده، فجمعت ما تبقى لديها من قوات وقصدت إلى منطقة «كانبين» فخربتها، ثم اقتحمت أسوار مدينة «جونمو» ومهما قيل فلا يمكن أبدًا الزعم بأن دولة «ويه» كانت أقدر وأقوى من «جاو»، لكنا نستطيع إذا توسَّلنا بالتشبيه والمجاز أن نُصور دولة «ويه» بالسهم ونُشبه وي بالقوس الذي لولاه لما اندفعت «ويه» صوب منطقة «هدونغ» [جزء من أرضها الأصلية] فتطهرها من القوات المعادية وتعيد سيطرتها عليها، فلما استولى الفزع على دولة جاو استجارت بدولة تشو التي أعانتها في الحال حتى مكَّنتها من مهاجمة وي واشتبكت معها في القتال عند منطقة «جوشي» ثم اخترقتها وبلغت مدينة ليانغمن ثم واصلت القوات زحفها حتى تمركزت في إقليم «لينجون» [من أراضي وي] واستطاعت هنالك أن تسقي خيلها وفرسانها من مياه النهر الأصفر [فما كان يمكن أن تستطيع] دولة جاو مهاجمة وي وأن تشعل الحرائق في منطقة «تسيغو» ثم تستولي على مدينة «هوانشين» بغير الاستعانة [بدولة تشو]

حتى يمكن أن يُقال بأن تخريب «كانسبين» واقتحام «جونمو» والاستيلاء على «هوانشن» وإحراق «تسيغو» لم يكن يخطر على بال أيٍّ من «جاو» أو «وي» إلا أن كل ما حدث كان من دواعي سعادتها على أية حال، ولئن سألت عن السبب في ذلك فسأرد عليك بأن كل هذا يرجع إلى حسن تقدير دولة ويه للفرصة والأوضاع القائمة، ثم سلوكها المرن واعتمادها على العون المضمون، أما القائمون على دفة توجيه سياسات الدول في زماننا هذا فليسوا كذلك، [على سبيل المثال فهناك الدولة ذات ...] القوات المحدودة [تسليحًا وكفاءة] التي تصر على مناوأة عدو بالغ القوة. [وهناك أيضًا الدولة ذات] الوضع العام الذي يتسم بالتفكك والضعف، وبرغم ذلك تتَّخذ من السياسات ما يُثير سخط الناس وتذمُّرهم، [ثم هناك الدولة ذات] القوات المنهزمة التي تستميت في قتال لا طائل وراءه. وهكذا فإن [-١-] استثارة سخط الناس مع ضعف التسليح وندرة القوة الضاربة [-٢-] ومناوأة دولة قوية دون الاستناد إلى مساحة عريضة من الأرض، [-٣-] التخطيط القتالي لمواصلة العمليات برغم هزيمة القوات ... كل تلك الطرق الستة لن تمكن الدول من تحقيق مطلب الترقي إلى النفوذ والهيمنة، بل يباعد بينها وبين كل احتمال ممكن للوصول إلى هذا الهدف.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

«وقد بلغني أن رجل الدولة المحنك، والسياسي الداهية، هو من يستمد إرادته من إرادة وأماني شعبِه، وهو ذلك الرجل القادر على التنبُّؤ بالحرب قبل قيامها، وهو أيضًا المُدرك لضرورة التكيف والمواءمة مع اتجاه تطور الأحداث، في الدنيا كلها؛ ولذلك [فمن مقتضيات التزود بهذه المقدرة] ولا بد [لرجل الدولة] ألا تنطوي نواياه على أية ضغائن تجاه الملوك والأباطرة عند عقد المعاهدات والتسويات المُتبادلة بين الأطراف، وألا يسعى إلى إلحاق الهزيمة الشاملة بأعدائه عند الظهور عليهم وإخضاعهم؛ فتلك هي الطريقة التي يحمي بها نفسه من التعرُّض لحرب استنزاف قاسية، ومن استصغار لشأن ونفوذ بلاده، فتتَّسع مساحة مملكته وتزداد طاقة الأمل في تحقيق أحلامه. [ويحكي التاريخ أنه] عندما قامت فيما مضى من الزمان كلٌّ من تشي، هان، وي بمهاجمة دولتي: تشين وتشو فلم يكن القتال بينهم حامي الوطيس، ولا بلغ حجم الأراضي التي تم الاستيلاء عليها [وتم توزيعها بالتساوي بين المُنتصرين كغنيمة حرب] يضارع مساحة كلٍّ من هان، ووي مُجتمعتَين. ومع ذلك، فقد أنحى الجميع باللائمة على دولة تشي؛ لأنها كانت السبب فيما حلَّ بكلٍّ من وي وهان من مصائب وأهوال، هذا بالإضافة إلى أنه عندما اشتعل أوار الحرب بين

الدويلات والإمارات، واشتبكت كلٌّ من تشي و«يان» في قتال مرير، قامت جاو بضم منطقة «جونشان» بينما اشتدَّ القتال دون هوادة بين تشين وحليفتها تشو من ناحية، وبين هان ووي من ناحية أخرى، في حين استعرت حُمى الحرب بين كلٍّ من دولتي سونغ ويوي، وفي الوقت الذي اشتبكت فيه تلك الدول العشر الكبرى في قتالٍ مرير مع بعضها البعض، وصار العدوان المتبادل شغلها الشاغل، فقد ظلت كلها ترقُب أحوال وتصرفات دولة تشي بكل انتباهٍ واهتمام؛ وذلك لأن هذه الأخيرة كانت تحرص أثناء توقيع الاتفاقيات والمعاهدات مع باقي الدول على استنبات ودعم أسباب التشاحن والكراهية والفتنة [هذا في وقت السلم، أما في زمن الحرب فقد] كانت تعمل بكل جهدٍ ممكن على إيقاع الهزيمة المهينة بأشد أعدائها قوة وبأسًا.»

الجزء الرابع من الفصل نفسه

«ثم إن السبب الأساسي فيما يحل بالدول الكبرى من أزمات يكمُن فيما تنطوي عليه نواياها من طموح إلى آفاق النفوذ الإمبراطوري، أما السبب فيما ينزل بالدول الصغرى [الضعيفة] من نكبات فيرجع إلى ما يُساورها من هواجس تُصوِّر لها طمع الآخرين في ثرواتها وتآمُرها للنَّيل منها؛ فلذلك يحيق الخطر بالدول الكبرى، بينما تهلك الدول الصغرى فلا تقوم لها قائمة. وخليق بالدول الكبرى [ألا تكون هي البادئة بالعدوان بل] أن تبني خُططها على أساس دفاعي [يتلقى الهجوم أولًا ثم يقوم بالرد] فتصد الهجوم ثم تتقدَّم بثبات وإصرار نحو التخطيط لغزو الدول الجائرة [التي خرقت قواعد الحق والعدل] وهكذا يتَّضح أن سياسة تلقِّي الهجوم أولًا ثم الرد عليه ثانيًا «هي المقدمة التي تبرر القيام بالغزو اللاحق، حيث يتزايد عدد الأنصار وتتعزَّز القدرات القتالية، وهكذا، فإن زيادة عدد القوات المعاونة [من الخارج] وتعزيز عناصر القوة ومغالبة قوات دول صغرى أنهكها القتال [كل ذلك] جدير بأن يخلق قدرة قتالية فعالة وقادرة [عندما تسير الأمور وفق إدارة كل الأطراف المتحالفة] تستطيع الأكف أن تقبض على زمام مصالحها، فتلك — إذن — هي الطريقة التي تبلغ بها الدول العظمى مشارف المجد الإمبراطوري، دون أن ينازعها أحد في ذلك فتتحقق لها الهيبة والنفوذ فوق الممالك. أما بالنسبة للدول الصغرى، فإن أفضل ما تسلكه من سبل هو أن تلتزم جانب الحرص والثبات والهدوء على أن تقتصد كثيرًا فيما تُوليه من ثقة للإمارات والممالك، وأن تحافظ على رباطة جأشها واتزان موقفها نحو جيرانها الملاصِقين لحدودها فتأمن معارضتهم ومناوأتهم لسياستها، ثم إن قدرًا من الحيطة والحذَر تجاه

الدويلات والإمارات، يمكن أن يحميها من مفاجآت الغدر والخيانة، وهكذا فإذا ما أتيح [للدول الصغرى] أن تأمن الخيانة من خارج حدودها، وتطمئن إلى عدم معارضة جيرانها الأقربين فقد أفلحت في أن تتجنَّب ما لا تحمد عقباه.

إن سوء الظن بالقوى الفاسدة يصون ودائع الخزائن الرسمية من الضياع [من أن تقرضه العثة] حتى لو ذبلت الأرصدة وتآكلت أطرافها، فإذا استطاعت الدول الصغرى أن تلتزم هذا النهج طاوعتها المقادير ومصادفات البشائر السعيدة مقرونة بالخير العميم، دون — حتى — أن تقرب القرابين أو تسبح بحمد الآلهة، أو أن تقترض أكداسًا مكدسة من القروض الضخمة، ولذلك فيقال دائمًا: «إن من جعل البر والتراحم هداية للسائرين، استحق أن يصير ملكًا فوق عرش الممالك، ومن سلك سبيل الحق والعدل اخلولق أن يرتقي مدارج المجد الإمبراطوري [فيصير إمبراطورًا]، أما من أراق كل نقطة دم وعرق حتى استهلك مقدرة قواته على القتال فقد هلك.

وقد يسأل سائل عن الأساس الذي بنينا عليه علمنا في هذا الأمر واستندنا إليه في أحكامنا، [وعندئذٍ نُجيب بقولنا إنه قد ...] كان الملك فوتشاي حاكم دولة «أو» فيما مضى مغترًّا بقوته وشديد بأسه فشمر عن ساعد الحرب وراح يُثير الفتن والاضطرابات ولم يُبالِ أن يهاجم مدينة «إينغ» — عاصمة دولة تشو — ويأسر ملك «يوي»، وبالطبع فلم يكن ليسير وحده في طريق القتال دون أن يسحب وراءه رتلًا من الأمراء وحكام الدويلات، ومع ذلك بلغ به الأمر آخر المطاف، أن شهد نهاية مفجعة، حيث [وقع الجسد وضاع البلد] وصار هُزأة بين الممالك وعبرة لمن يعتبر وكان السبب في كل ذلك سعيه الدائم لإثارة الفتن والأزمات مُعتمدًا على بعض عناصر القوة التي تميَّز بها، وذلك كله رغبة منه في الفوز باللقب الملكي الأفخم.

وقد كانت دولتا «لآي» [دويلة صغيرة في عصر «الربيع والخريف» أطاحت بها دولة تشي] و«إينغ» — قديمًا — تدبران الدسائس والمؤامرات، بينما اشتهرت دولتا «تشن» و«تساي» بالبراعة في فنون الخداع والتمويه ومع ذلك فقد بادت دولة إينغ دون أن تشفع لها علاقات التحالُف مع «يوي»، وكذلك تضعضعت أركان دولة «تساي» وهي التي اتخذت من «جين» حليفة قوية. هذا وقد ضربت كلٌّ من تلك الدول المثل في البراعة في استخدام الدسائس والمؤامرات والخداع على المستوى الداخلي. في حين أنها أصاخت آذان الصدق لأقاويل وترهات الإمارات على المستوى الخارجي.

ومن كل ما سبق يتضح بجلاء لا لبس فيه أن كل ما أصاب الدول — صغرى كانت أو عظمى، ضعيفة أو قوية — من نكبات ورزايا ومحن، كان من الممكن جدًّا استخلاص البراهين والشواهد والمُقدمات الدالة عليها والمؤدية حتمًا إليها.»

الجزء الخامس من الفصل نفسه

«يقول المثل السائر: إن حمارًا أعرج يمكن أن يسبق حصانًا أصيلًا شاخ وكبر ونالت منه السنون، وإن فتاة ناهدًا يمكنها أن تصرع الملاكم الجبار «منغ بن» إذا ما وهن منه الجسد وأثخنته الآلام.» وبالطبع فإن مقدرة الحمير لا يمكن أن تفوق الخيل، ولا طاقة أي فتاة صغيرة أو بُنيانها الجسدي يمكن أن يؤهلها للتغلب على مصارع قوي البِنية، لكن المغزى هنا يكمُن في التدليل على أن [خطة] الانتظار والتريُّث حتى تخمد قوى الطرف الأقوى في الصراع هي التي تفوز دائمًا [وإذا نظرنا إلى ساحة الصراع الماثلة وجدنا أن ...] قوة الأمراء الآن متكافئة تمامًا، وليس هناك مَن يريد أن يتنازل أو يتراجع، وليس هناك أيضًا من يملك أن يُدمر خصمه، أو أن ينتزع أي مكاسب منه [يستولي على أرضه]، ولا هناك كذلك من يفكر في التريث وتجميد حركة قواته ريثما تتبدد طاقة خصمه، وتصريف مشاعر الكراهية لتحلَّ محلها إرادة المقاومة والعدوان ضد كل من حاد عن جادة الصواب، وليس هناك من ينزع قناع الحرب ويُعلي راية العدل والحق بما يُعجِّل من فرص مغالبة الأمراء وقادة الدويلات والإطاحة بعروشهم. وعندما تنجلي للبصائر ملامح الكارثة التي ستكون قد حلَّت بالأمراء، وتنكشف [لكم] تفاصيل الأوضاع، فتنأون بأنفسكم عن التعهد بالانضمام للتحالُفات وتمتنعون عن مبادلة الأسرى، وعن أى تصرفات مُتهورة أو طائشة ويظل بإمكانكم دفع عجلة تطور الأمور إلى الأمام، فإذا توثقت العلاقات المتبادلة بين الدويلات والإمارات، فليس لنا أن نبدي أدنى اعتراض، حتى لو بلغ الأمر حد التنازل عن الأراضى وإزالة أسباب المشاحنات والكراهية بين الإمارات بعضها وبعض بما قد ينجم عنه من زيادة قوتها، فسيلزم عندئذٍ أن نفكر في طريقة للاقتراب منهم، لماذا؟ لأنه وإن كانت أوضاع كل الأطراف تحتوي على ملامح قلق وقروح مشتركة [فإن ذلك يقارب بينها على نحو خفي وينفي شبهة التفوق لأحدها دون الآخر، إذ ...] إن الحرب، أساسًا [وعلى العكس تمامًا] وسيلة لاقتناص المنافع والمغانم. وبالطبع فإنه لم يتيسر لنا أن نُدرك تلك الحقائق إلا بما حدث من وقائع في الماضي، بحيث كانت رحى الحرب قد دارت بين دولتي «تشي» و«يان» في موقعة «هوانشيو» وكانت الدائرة على «يان» التي خرجت مهزومةً تلعق

جراحها بعد أن فقدت مائة ألف [...] من قواتها، وهنالك انتهزت القبائل الشمالية هذه الفرصة لتشنَّ هجومًا غادرًا على «يان» المُنهكة المفككة الأوصال إثر هزيمتها المُبالغة وامتدَّ الهجوم إلى إقليم «لوفان» حيث نهبت الحواصل والحظائر واستولت القبائل على قطعان البقر والجياد بأعدادٍ هائلة، هذا وكان من المعلوم أنه لم يسبق أن قامت — على مر التاريخ — أية علاقات بين تشي والقبائل الشمالية، ولا حدث بين قواتهما أي نوعٍ من التحالُف أثناء العمليات القتالية [ضد دولة «يان»]، ولا حدث بينهما تبادل للأسرى كنوع من التنسيق ضد «يان»، ومع ذلك فقد تطابقت مواقفهما وتماثلت في طبيعتها مع ما يقوم في تلك الظروف من تنسيقٍ وتحالف بين طرفَين ضد ثالث، لماذا؟ لأن الاتفاق الحاصل بين طرفَين في ملامح أزمةٍ ذات سماتٍ متقاربة يُوحِّد بين أغراضهما القتالية ضد هدف مشترك سعيًا لتحقيق مآرب واستلاب مغانم. وهكذا يتَّضح مما سبق أن التحالف مع دول تتماثل معنا في ظروفها وأوضاعها كفيل بضمان تحقيق مصالح طويلة الأمد، ولا بد أن [سياسة] «الانتظار ريثما تتبدَّد طاقة الخصم الهجومية» خليقة بحثِّ الإمارات والدويلات على الانضمام إلى صفوفنا والوقوف معنا في وجه أعدائنا.»

الجزء السادس من الفصل نفسه

«لذلك فإنه لا ينبغي للملك الحكيم أو الوزير النابِه إذا ما أراد [أحدهما] أن يجعل من السؤدد والشرف والنفوذ الأعظم فوق الممالك هدفًا أو غاية مرجوة، ألا يُبادر إلى إشعال فتيل الحرب أو يُسارع إلى المبادأة بالهجوم [ذلك أن] الحرب هلاك للبلاد وإتلاف وتبديد لموارد المدن والبلديات.

فإذا جمعت الظروف على دويلة أو إقليم هاتين الكارثتَين [... هما: خراب البلاد وتبديد الموارد] فمن الصعب جدًّا يا مولاي أن تطلب إلى الأمير القائم على شئونها أن يأتمر بأمرك ويتبع مشورتك [فمن النادر جدًّا أن يستمع لما تقول] برغم ما هو معلوم من أن الحرب هلاك وإتلاف وتبديد، فإنك تجد الحكماء والمُثقفين والنابهين — إذا ما سمعوا أن حربًا قد قامت — حملوا ما جادت به خزائنهم من أمتعة وهرعوا بها إلى ثكنات الجنود ويتبرعون ... [للمجهود الحربي] بكل ما تجود به طاقاتهم، وتراهم يحملون آنية الشراب والطعام ويقيمون الولائم العامرة للجنود البواسِل الذاهبين «للقاء الموت» بجسارةٍ في ساحات القتال، بل قد تغلي دماء الشهامة والكرم في عروقهم، فيعمدون إلى عريش الأسواق والعربات فيحرقونها جميعًا في بطون الأفران [لعمل الولائم الساخنة الشهية للجنود] هذا

بخلاف ما يذبحون من العجول والأبقار [المخصصة أصلًا للعمل في الزرع والحصاد] على شرف المقاتلين الشجعان [وهم يُدركون] أن كل ذلك ليس في مصلحة الجنود، بل هو إضعاف وانتقاص من طاقتهم وقدراتهم.

ثم إن الأهالي يقومون قبيل الحرب [أثناء الإعداد لها] بالصلوات والابتهالات في خشوع لأجل الذاهبين للقتال [وبعد انتهاء العمليات] يُرسِل جلالة الملك وفودًا خاصة من جانبه للقيام بتكفين الموتى وعمل الطقوس اللازمة لدفنهم، وعندئذٍ يصير واجبًا على كل المدن والقرى التي تمر بها المواكب الجنائزية أن تقوم بما يلزم من إعداد لأواني القرابين والأضحيات لآلهة الأراضي، حتى الأسواق والمحال يصبح لزامًا عليها جميعًا أن تغلق أبوابها؛ كي يتفرغ عُمالها لما يُناط بهم من خدمات للجيش الملكي، فهذه كلها أمور من شأنها أن تعمل على تبديد مدخرات الخزائن العامة للبلاد وما يأتي اليوم الثاني من أيام القتال، حتى ترى الأنحاء كلها تغصُّ بتوابيت الموتى وتجد العِصي والدعامات، وحتى لو كان النصر من نصيب القوات فهو النصر الذي كلف ثمنًا غاليًا، الذي أخذ من الشقاء والعذاب والدموع ما يكفي أن يُدمي قلب الإله نفسه. وتذهب الناس لوداع أمواتهم وقد أنفقوا في طقوس القرابين والدفن آخِر ما تبقى في حوزتهم من مال، بينما تجد أهالي الجرحى قد استندوا لمداواة قروح أبنائهم، أما الأصحاء العائدين من جبهات القتال بكل صحة وعافية، فيمرحون ويرقصون طربًا ويجتمعون إلى موائد اللهو والشراب قد صُفت عليها الأواني والأطباق العامرة التي أنفقت لأجلها الأموال الطائلة، هكذا يتكلف أهالي الأحياء مثلما يتعلَّق برقبة أهل الموتى من الأنفاق، ويصير جملة ما يصرفه الناس جميعًا في مثل تلك الظروف، مبالغ طائلة من المدخرات والأموال التي لا تكفي لتعويضها عشرات السنين من دخل المحاصيل والحصاد، هذا بالإضافة إلى خسائر العمليات القتالية نفسها من أموال وأدوات قتال؛ إذ تكون النصال قد ثلمت والرماح تكسرت والأقواس فقدت أوتارها والعربات انقلبت والجياد أنهكت والأسهم تفرقت بِددًا في الساحات والأركان، أما الدروع والمغافر [فحدِّث ولاحرج إذ تكون قد] تهشمت برغم ما أنفق لشرائها وصنعها من أموال عامة، هذا بالإضافة إلى ما يكون السادة المُثقفون والمتعلمون وكبار الموظفين قد أخفَوه واحتفظوا به في خزائنهم الشخصية من أمتعة وأشياء ولا يفوتك أيضًا ما يستولي عليه قاطعو الأخشاب وحرَّاس الحظائر من مغانم متفرقة يَجدونها مُتناثرة في الساحات. [أرى أنه] من الصعب أن تطلب إلى أمراء دويلتَين، تخرَّبتا على هذا النحو أن يصيخا السمع إلى أية نصائح أو توجيهات.

وأرجو أن تلاحظ يا مولاي، أن تكاليف مهاجمة المدن الحصينة تزيد أضعافًا مضاعفة عما ذكرت لك، ذلك لأنه يصير من الواجب على الناس — في هذه الحالة — أن ينهمكوا في إعداد أدوات إخفاء الأسهم والأحجار المُعدة للقتال، وأن يُقيموا الأبراج ذات المزاغل فوق العربات الحربية [المُعدَّة لمهمات الاستطلاع]، وبالطبع فإنه يُصبح من المطلوب أن ينخرط الناس جميعًا في صفوف الخدمة العسكرية، وأن يُقيم معظمهم إقامةً دائمة داخل الخنادق أو تحت الأنفاق، هذا دون أن تكلَّ يد الصناع عن إعداد ما يلزم من الأسلحة ومعدَّات القتال، بينما ينهمك الجنود في عمل التحصينات والدُّشم والإنشاءات العسكرية المطلوبة، ويظل القادة ساهِرين وقد أثقلت أجسادهم الدروع والخوذ الحديدية يرتدونها ليل نهار بحيث يقدرون على القيام بعملية اقتحام المدينة الحصينة في أسرع وقت مُمكن بعد إصدار الأوامر إليهم بذلك، ثم إذا صدرت الأوامر، رأيت القادة والضباط مُنهكين لكثرة ما بذلوا من جهدٍ في التدريب والإعداد، وألفيت الجنود قد تساقطوا بين قتيلٍ وجريح، ومن ثم، فقلَّما نجحت عملية اقتحام لأسوار وخنادق المدن الحصينة عند أول محاولة، بل يتطلَّب الأمر عدة محاولات مُتتالية.

فلكل ذلك، أقول لجلالتك إنه لا ينبغي لعاقل أن يُبادر بالهجوم، ولا أجد ما أستند عليه من دليلٍ سوى شاهد التاريخ، ذلك أنه لمَّا ترأَّس القائد المظفر «جيبو» — فيما مضى من الزمان القديم — حملةً هجومية [مشتركة بين الدول الثلاث: هان، جاو، وي] ضد كلٍّ من «فان» «جونشين» [دويلات قديمة] وذبح قادتَها وأمراءها ثم خربهما حتى لم تعُد تقوم لهما قائمة فلمَّا تم له ما أراد، سار بقواته تجاه منطقة «شيوي» حيث انطلق من هناك ليُهاجم إقليم «جين يانغ» [التابع لدولة جاو] واستطاع أن يَستولي على المنطقة والإقليم معًا مما أثار فزع حاكم جاو — الملك شيانغ وقتئذ — حتى قيل إنه قد ضرب في هذه الحملة مثالًا رائعًا على القيادة العسكرية الناجحة، ومع ذلك فقد انتهى به المطاف إلى الخزي والعار، إذ لقي حتفه وانهزمت بلاده شرَّ هزيمة [سقط الجسد وضاع البلد = حرفيًّا] وإذا سألت عن السبب، فسأُجيبك قائلًا: إنه [جيبو] كان البادئ بالحرب والعدوان، فأباد «فان» و«جونشين» بعد أن خربهما تخريبًا وحشيًّا. [هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن] دولة «جونشان» كانت — قديمًا — حشدت كل قواتها لمُلاقاة جيش التحالف بين دولتي «يان» و«جاو» والتقى الجمعان في موقعة تشانزي، من أرض جاو، حيث هزمت قوات دولة جاو، ثم التقت قوات جونشان جهة الشمال، بقوات دولة يان حيث دارت الدائرة على هذه الأخيرة فانهزمت وذبح قائد جيشها. ومع أن حصيلة دولة جونشان من

العربات العسكرية لم تكن تزيد عن الألف عربة، إلا أنها تمكَّنت من صد دولتَين تملكان عشرة آلاف عربة، وانتصرت عليهما في معركتين متتاليتين، وهو ما يعد أداءً رائعًا من الناحية العسكرية، إلا أن ما حدث بعد ذلك هو أن البلد انهارت تمامًا، وفر حاكمها إلى دولة تشي ورضي، في ذل وهوان، أن يعمل وزيرًا لدى بلاطها الحاكم، ذلك لأنه لم يستطع أن يُجنِّب نفسه آثار الحرب التي تتجاوز عواقبها التدميرية كل حدود المنطق وتستعصي على الضبط أو التحكم في تبعاتها. وهكذا يتضح لجلالتك على ضوء ما ذكرت لك من وقائع فشل الحرب الهجومية.»

الجزء السابع من الفصل نفسه

«ولنتناول بعض الجوانب المهمة مما يطلَق عليه في زماننا فن الحرب [فن قيادة القوات] وأحدثك (في بعض من هذه الجوانب) عن الهجوم، وهو يعني تحقيق الانتصار على نحوٍ مُستمر أثناء العمليات قبل انتهاء الحرب، أما «الصمود» فمعناه الحفاظ على أسوار المدينة الحصينة بحيث تبقى صلبة ومنيعة [فإذا ما تحقق هذان الجانبان] صارت الحرب جديرة بأن يُقال عنها — وسط الممالك — إنها نموذج للحرب الجيدة، [ومع ذلك، فـ ...] إن بلدًا تعتمد اعتمادًا كاملًا على قُدرتها الفائقة في تطبيق شروط الحرب الجيدة وفي الطريقة المُثلى لاستخدام القوات العسكرية، ستجني من ذلك أسوأ النتائج. وقد بلغَني أن أكثر الدول قوةً وتحقيقًا للنصر في ساحات القتال، لا تلبث أن تتعرَّض لسقوطِ أكبر عددٍ من جنودها في براثن الموت، وبالتالي تُصبح قريبة إلى بلوغ المرحلة القصوى من الإنهاك وضعف القدرة القتالية بين الممالك كلها؛ كما أن أشد الدول صمودًا وراء الأسوار الحصينة، هي التي يتفاقم الجزع والقلق بين سكانها، مما يكشف ثغرات جدرانها ويفضح نقاطها الضعيفة، فيسقُط جنودها المحاربون على خطوط النار ويهلك مواطنوها المُقيمون داخل الأسوار، وتتعرَّى ثغرات حصونها، [فكل ذلك] مما لا يرضى به أو يتمنَّاه أي حاكم لبلاده.

واسمح لي أن أقول لك، يا سيدي إن كل رامٍ بسهمٍ وقوس يُصوِّب بدقةٍ وإحكامٍ وبراعةِ قناص نحو قلب الهدف المُعلَّم بدائرة حمراء في وسطه ورغم أن دائرة مُنتصف الهدف هذه لم تعادِ أحدًا ولم تمسَّ إنسانًا بسوء، إلا أن المُسدِّد رمية في قلبها يُعد من خير الرماة، والمُخطئ تصويبه يتوارى في خجل، فالكل من صغيرٍ إلى كبير، غني وفقير، يريد قلب الهدف بدقة وإجادة، لماذا؟ لأن تلك الدائرة الحمراء ترمز لصعوبة التصويب، وتتحدَّى مقدرة الرماة على الدقة والإحكام.

إن البلاد التي تحدُّها أسوار صامدة منيعة وتملك القدرة على أن تخوض غمار مائة حربٍ وتنتصر مائة مرة، هي البلاد التي تبدو للناس كقلاعٍ يصعب اقتحامها، بل تُمثل أيضًا أكبر مكمن للخطر، ومن ثم يتولَّد في نفوس الناس جميعًا مشاعر الحقد والكراهية والعداوة تجاهها [مما يُعرضها لمواجهات دامية نتيجتها أن ...] تنكشف ثغرات أسوارها، وتنثلم عزيمة جنودها، وتحتشد سحابات القلق والتوتر في أجواء علاقاتها بباقي الدويلات، وهكذا فإنه ينبغي للسيد العاقل أن يتنكَّب عن ذاك السبيل؛ ذلك أن الإفراط في استخدام القوات وتركيز الاعتماد الكلي عليها، سينتهي آخر المطاف إلى الضعف والهوان وإن بدأ في بواكيره الأولى بالقوة والعنفوان، وهو ما لا ينبغي أن يقع في محظوره رجل الدولة الفطن.

إن الملك الحكيم ورجل الدولة العاقل يستطيعان أن يفرضا سُلطانهما فوق الدويلات والإمارات والممالك جميعًا دون حاجةٍ إلى تحريك أية قوات من ثكناتها؛ ذلك أن كبح جماح القوة العاتية، وردِّ النفس عن الاغترار والتبجُّح والتكبُّر كفيل باجتلاب أسباب الرخاء والحصول على أثمن المغانم، والظهور على الخصم في النزاعات المسلحة [إذا ما اضطر الملك الحكيم لخوض القتال] دون حتى أن يأمُر بتحريك صفٍّ واحد من قواته إلى ساحات المعارك، [ويستطيع الملك الحكيم أن] يُجبر المدن الحصينة على الاستسلام دون حاجة إلى دفع عربات الاقتحام والعربات ذات الأبراج ومزاغل المُراقبة، ومن ثم تسري فوق البلاد شروط الطاعة لسياسته ويتحقَّق له النفوذ والسيادة فوق الممالك في وقتٍ وجيز جدًّا [... ولقد جاء حينٌ من الدهر كانوا فيه] يسوسون شئون بلادهم بأكبر قدْر من السؤدد [مُستخدمين في ذلك] أقل ما يمكن من الوقت والتكاليف؛ سعيًا لتحقيق أفضل وأبقى المصالح، ومن ثم فيُمكن الخلوص إلى نتيجةٍ مفادها أن [التخطيط القتالي القائم على] تلقِّي الهجوم أولًا، ثم ردِّ الضربة ثانيًا، هو الذي يضمن تجنيد وتطويع أمراء وحكام الدويلات والإمارات [تحت سلطانك].»

الجزء الثامن من الفصل نفسه

«... وقد تناهى إلى سمعي رأيٌ حكيم مفاده أنه لا يشترط في الطرق الهجومية أن تعتمد على استخدام القوة العسكرية؛ ذلك أنه مهما بلغ حجم القوات المُقاتلة، فإن [الطرق التي يفكر بها] القصر الحاكم يمكن أن تتمكَّن من صدها وهزيمتها، حتى لو كانت — تلك القوات — تحت إمرة أكفأ القادة (من أمثال «هيلو»، «أوتشي») فمن المُمكن النيل منها والإيقاع بقيادتها.

إن سورًا عاليًا يبلغ ارتفاعه ألف «جانغ» [أربعة آلاف متر] تستطيع بكل سهولة أن تقوم (بالتخطيط) باختراقه وأنت في مأدبة ملكية عامرة داخل أروقة القصر [وليس في ساحة المعارك]، وكذلك فإن عربة حربية استطلاعية ارتفاعها مائة «تشي» [ثلاثون مترًا] يُمكن تحطيمها — بخطط تُعقد في حجرة نوم جلالة الملك [وليس على خطوط النار].

ولن يكون من العسير — بعد اليوم — أن تصدح الموسيقى بأعذب الألحان، وتنتثر الدفوف والعيدان، وتشخشخ المصلصلة، وينطلق صفير الناي، وينداح النغم في أذن كل سامع، ويتردد الرنين في أعماق النفس [حتى بعد انتهاء العزف الموسيقي بزمن طويل] وتتسع الأراضي، وتمتد السيادة الوطنية فوق كل شبر من تراب الوطن، ويُظلل النجاح كل مسعًى، فيتهادى الأمل غضًّا فتيًّا، كما تتثنَّى أعطاف فتيات راقصات وهن يتبعن إيقاع النغم برشاقةٍ وجمال، ويعبق الجو بعبير المرح وتنتشي النسمات بعرف من رائق الهناء والسرور، ويأتيك من كل فج أمراء وشيوخ يسجدون عند أعتابك ويُقسمون لك يمين الولاء.

إنه ليس من الشرف في شيءٍ أن يوزع القصر ألقابًا جليلة ودرجات فخرية على [كل من هبَّ ودبَّ من] الناس في كل أرجاء المملكة، وليس من قبيل الكرم أن يكون المال أو النفوذ هو وسيلة ضبط الأمور وتدبير الأحوال الداخلية في البلاد، ولذلك لا تثبت دعائم الحكم الملكي الجليل إلا في الممالك التى يشقى فيها الناس ويكدَحون كي يهنأ ملوكهم بالراحة، وتضطرب أحوال الدهماء كي يلتذَّ الأباطرة بالاستقرار وتُحبط فيها مؤمرات الأمراء والوزراء، فتنعم البلاد بعهودٍ مديدة من الأمان. فإذا سألتني — جلالتك — عن الأساس الذي بَنيت عليه تقديري هذا، فإني مُجيبك بأن القاعدة التي يستند إليها قيام وازدهار الحكم الملكي، هي أن استقرار المجتمع ورفاهية الإنسان (في الحياة) يتوقَّفان على ما ينعم به جلالة الملك من استقرار وسعة عيش ورخاء بال، أما الكد والمشقَّة والقلق والاضطراب، فتلك كلها من نصيب العامة وأهل الممالك كافة، فإذا ما تعرَّضت البلاد لغزوة عاتية، أمكن صدُّها ودحرها، وإذا حلت بالمملكة نازلات الدواهي والنوائب، صار من المُستطاع تفاديها واجتناب شرورها، وإذا اندلعت دسائس الأمراء ومكائدهم، وأُتيح إجهاضها في مهدها، فطال بقاء الملك، ودامت أيام رخائه على طول المدى، فإن سألتني عن حجتي التي أستند إليها في هذا الزعم، فجوابي عليك [فيما سأقص من] أحداث تاريخ مضى ودروس زمان قد انقضى [نُطالعها] فيما أقدم عليه الملك «هوي» حاكم وي، من محاولة هجومية ضد «هاندان» — عاصمة جاو — معتمدًا على ما توفر له من أسباب القوة حيث قد امتدَّ نفوذه وسلطانه فيما حاز من أراضٍ شاسعة المساحة وما اصطفَّ تحت إمرته من قوات متدرعة بالخوذات

والمغافر بلغت ثلاثمائة وستين ألفًا من المُقاتلين، فلمَّا تمكن من احتلالها تقدم غربًا حتى حاصر «دينيانغ» [مدينة على الحدود بين دولتي «وي» و«تشين»]، ثم تحالف مع اثني عشر أميرًا واتفق معهم على أن يذهبوا بصحبته إلى أمير دولة جو للتآمُر ضد دولة تشين الواقعة جهة الغرب ثم إن حاكم تشين «الملك شياكون» تولاه الفزع وأصابه الأرق لياليَ طويلة، عافت نفسه الطعام (خشية تعرُّض بلاده لهجوم مضاد) وأصدر أمرًا بإنشاء وسائل عسكرية هجومية فوق كل الأسوار، ورفع درجة الاستعداد الدفاعي عند الخطوط الحدودية، بل إنه أوفد إلى تلك المناطق عددًا وافرًا من الفدائيين والقادة والجنود استعدادًا للهجوم المتوقع من جانب دولة وي. وفي تلك الأثناء ذهب «شانيانغ» إلى الملك شياكون وقال له: «إن دولة وي من الدول ذات الإنجازات الكبرى والمآثر العظيمة، وها هي قد مدَّت شبكة اتصالها بكل البلاد التي تحت السماء، وعقدت تحالفًا مع اثنَي عشر أميرًا واتفقت معهم على لقاء أمير دولة «جو»، وترتيبًا على ذلك فلن يكون في وُسع تشين أن تقاوم دولة كبرى في حجم وي فما المانع أن تُرسلني إلى ملك وي فلعلِّي أقدر على إيقاع الهزيمة به وببلاده [دون قتال]» فلما أجابه الملك شياكون إلى ذلك، قام وسافر إلى وي حيث التقى هناك بالملك هوي، وقال له: «إن لك من المآثر والإنجازات يا جلالة الملك المعظم ما لا يخفى على أحد، وقد مدت أمامك كل الطرقات في كلِّ البلاد تمشي في كل الأنحاء كيف شئت، لكنك آثرت أن تعقد التحالف مع اثنتي عشرة إمارة تقع في عدة دويلات معروفة للجميع من بينها مثلًا: «سونغ» و«ويه» و«تسو» و«لوقو» و«تشن» و«تساي»؛ وهذه كلها وكثير غيرها، يسوقها الملك الأعظم أمامه كما يسوق الراعي أغنامه بعصاه، ومن ثم فليست هذه هي الدول التي يُعتمد عليها أو يُعتدُّ بها لتأسيس إمبراطورية كبرى تحت سلطانكم الأعلى، وأرى أن الأوفق والأنسب لجلالتكم هو أن تبادروا إلى عقد تحالف مع جارتكم الشمالية دولة يان، ثم تقوموا بمهاجمة دولة تشي الواقعة إلى الشرق منكم، وهو ما سينتج عنه إذعان دولة جاو لنفوذكم، فإذا تم لكم ذلك التحالف مع دولة تشين، جارتكم الغربية، ثم أرسلتم حملة تأديبية إلى الجنوب ضد دولة تشو، هو ما سينجم عنه خضوع دولة هان لسلطانكم. وعندما تعقدون العزم وتُبيتون النية على غزو دولتي «تشي» و«تشو» فإنكم تتفقون في ذلك — للصدفة الطيبة — مع مطالب وأماني الناس جميعًا، وهو ما يعني رجحان كفة اعتلائكم عرش الحكم الإمبراطوري. هكذا يُمكنكم من الآن الاستعداد لهذا الأمر، وأنصح لجلالتكم، بناءً على ذلك، أن تقوموا بإعداد ما يلزم من الملابس الرسمية المُميزة بشعار الإمبراطورية، ثم تدبروا الحِيَل والمؤامرات للإيقاع بدولتي «تشي» و«تشو»» ووقع الكلام

موقعًا طيبًا في نفس جلالة الملك «هوي» حاكم وي، بل إنه راح يجتهد في إعادة بناء القصر الملكي وتوسيع منشآته بحيث تتلاءم مع أبهة وفخامة القصور الإمبراطورية وأمر الملك أيضًا بإعداد وتفصيل القمصان الإمبراطورية ذات الشارة الحمراء المُميزة برسم التنين، ورفع الرايات والأعلام التي تحمل الشارة نفسها، وإعداد ما يلزم الجنود في المعارك من بيارق وألوية ذات الرمز الإمبراطوري، وبرغم أن مثل تلك البيارق والألوية كانت مُخصصة — أصلًا — للأمراء وحكام الدويلات، إلا أن جلالته أمر بضمها تحت قيادته، وهو الأمر الذي أثار غضب كلٍّ من تشي وتشو، وترتب على ذلك أن هرع كل الأمراء إلى دولة تشي وانضموا إلى صفوفها، وتحركوا تحت قيادتها في حملة تأديبية ضد دولة وي، فاقتحموها، وقتلوا أميرها وأهلكوا جيشها الذي كان يُضرب به المثل في القوة والضخامة، وأسقط في يد الملك «هوي» فهرع إلى قصره حافي القدمين وأصدر قرارًا عاجلًا بإيقاف القتال وتجميد تحركات القوات، ثم أسرع بنفسه صوب الشرق طالبًا التفاوض السِّلمي مع «تشي»، وهو ما أسفر عن التزام الأمراء أماكنهم وتجميد تحركاتهم ضد وي، وهنالك، حصل ملك تشين بكل يسر وبساطة [وهو مُسترخٍ، عاقد الكفَّين (حرفيًّا)] على الأراضي الواقعة وراء نهر «شي» دون أن يقدم الشكر على ذلك، لما تفضل به ملك وي من خدمة جليلة قدَّمها له بكرمٍ بالغ؛ وهكذا يُمكننا القول إن «شانيانغ» عندما شرع في ترتيب وشرح خططه وأفكاره التآمُرية مع ملك تشين فإن فصول المؤامرة كانت قد أعدَّت فوق المقاعد داخل ردهات القصر ونضجت بالحوار لدى المأدبة الملكية العامرة، ثم تشكَّلت ملامحها الكاملة والنهائية في أروقة القصر الحاكم، ومع ذلك، وقبل أن تتحدَّد تلك الملامح بصورة قاطعة، فقد كان قائد قوات وي موثوق اليدَين تحت الأسر في دولة تشي، دون أن يتمكن حتى من استخدام العربات المُهاجمة والعربات ذات الأبراج الاستطلاعية، بينما كانت الأراضي المُترامية وراء نهر شي، قد وقعت بالكامل في حوزة دولة تشين وصارت تحت سيادتها التامة، فذلك هو ما أشرت إليه فيما سبق من أن هزيمة الأعداء يمكن أن تتمَّ تحت قباب القصور الملكية، وأن القادة يُمكن القبض عليهم وأسرهم حتى وهم بين صفوف قواتهم، وكذلك يسهل اقتحام الأسوار العالية من فوق موائد المآدب الملكية، هذا بالإضافة إلى ما يمكن أن يقوم به المرء من تدمير للعربات العسكرية المُعادية دون حتى أن يُضطر إلى القيام من مجلسه أو مُغادرة مكانه.»

الجزء الثاني

تقديم

بين يدي القارئ الآن، ترجمة الجزء الثاني والأخير من كتاب «سياسات الدول المتحاربة»، وهو واحد من أهم وثائق التاريخ الصيني القديم، بالإضافة إلى كونه سجلًّا تراثيًّا ذو مكانة وشهرة في تاريخ الكتابة بالصينية، حتى قيل إن الأباطرة ورجال الحكم والمُثقفين كانوا يحرصون على اقتنائه ومطالعته على الرغم من اقتصار نصوصه على محتوى يتعلَّق مباشرةً بتلك الطائفة من المُخططين السياسيين وآرائهم وتصوراتهم لإدارة الصراع بين الدويلات الصينية المُتحاربة في الفترة المُمتدة من القرن الرابع إلى الثاني قبل الميلاد، دون أن تتطرَّق موضوعات هذا السجل القديم إلى أي مضامين فكرية أو فلسفية، سوى ما هو مشهور عنه من أنه المدونة التي سجَّلت الخطوط العريضة للجهود النظرية التي أسَّست لما يقال إنه مذهب في الفكر السياسي يُطلق عليه «مدرسة الصراع بين التحالف الأفقي والرأسي»، وهو في ذلك يختلف عن باقي كتب التراث القديم التي لا تخلو من أصداء واضحة لمختلف مدارس الفكر في الصين القديمة: من الكونفوشية إلى الطاوية، مرورًا بالموهبة والتشريعية، بل الريفية والثنائية (الين/يانغ) ... وغيرها، فهذا الكتاب — في معظمة — مجرد سردٍ لأحوال العلاقات السياسية والدبلوماسية، والمعارك العسكرية والمناوشات السياسية بين دويلات الصين على مدى مائتي سنة تقريبًا.

هو كتاب غريب بحق، يتفرد وحده بين كتب التراث بخصائص تضعه في سياقٍ مختلف عما هو معهود في الوثائق القديمة، غير أنه لم يحظ باهتمام الكثير من الدارِسين للتراث الصيني في بلادنا العربية، ولا كان موضع احتفاء من قبل الدارسين الأجانب، والغربيين منهم بخاصة، وقد حاولت كثيرًا البحث عن ترجمة كاملة له في الإنجليزية، فلم أجد سوى مُختارات قليلة (غير منشورة، وإن كانت متاحة للاطلاع عبر شبكة الإنترنت).

في فترة ما يُسمى، في ثبت العصور الصينية، بـ «الدول المُتحاربة (٤٧٥-٢٢١ق.م.) كان يستطيع كل صاحب موهبةٍ سياسية في التخطيط أو ترتيب شئون الاتصال والعلاقات الدبلوماسية بين الدويلات القديمة أن يَمثُل بين يدي الملوك وأن يعرض لآرائه ويبلُغ أرقى المناصب (وفي أمثلة كثيرة ... كان يمكن أن يفقد حياته، إذا ما ثبت فشله أو خيانته). كانت الموهبة والقدرة على إفحام المُتناظرين واقتحام ساحات الجدل والنقاش، والذكاء في إقناع الملوك والأمراء بوجهات النظر والخطط المناسبة هي العنصر الرئيس في نجاح رجال التخطيط ووصولهم إلى مصاف النفوذ؛ ومن ثم كان الطموح الشخصي يدفع هؤلاء الرجال كان هناك غير قليل من النساء، أيضًا ...) ليشقوا طريقهم نحو الغايات الفردية بكل الوسائل المُمكنة، دون مراعاة أحيانًا، لأية مبادئ، بل إن واحدًا مثل «تشانغي»، ذلك السياسي الداهية، تحوَّل إلى النقيض تمامًا؛ إذ تحول من رجلٍ يدعو إلى التحالف مع دولة «تشين»، فيما سُمِّي بالمحور الأفقي، (حيث تملك هذه الدولة القوية وحدها حق تقرير شئون الممالك وتسيُّدها جميعًا) إلى الدعوة لمجموعة التحالف المناهضة، فيما كان يشار إليه باسم التحالف الرأسي (مجموعة الدول التي تقع على محور رأسي يمتدُّ من الشمال إلى الجنوب، بزعامة دولة تشو).

ولست أوافق كثيرًا من وجهات نظر بعض الدارسين الصينيين في وصفهم لهؤلاء المُخططين بالطموح الزائد والوصولية ... إلخ، (حيث تتم إدانة هؤلاء الرجال، من وجهة نظر كونفوشية صارمة، تجعل من قواعد الأخلاق كهنوتًا مقدسًا)، وإنما الصحيح أن نعتبرهم رجال دولة (بالمعنى الحرفي، أو المهني الفني) من طراز فريد، وقد أُتيح لهم أن يشاركوا في إدارة الصراع السياسي بين المَمالك القديمة في زمن الدول المُتحاربة، وعلى جبهة عريضة ضمت كل أصحاب الرأي في الصراع القائم، وقتئذٍ، بين العروش الحاكمة. وستجد في فصول الكتاب أدوارًا يقوم بها رجال ونساء، لا تربطهم أدنى علاقة بالتخطيط السياسي (بعضها يبدو أقرب إلى طبيعة الحكي الأسطوري!). مما يمكن معه القول إن رجال التخطيط، في ذلك الوقت، كانوا طليعة مجتمعٍ كبير يستكشف سبلًا مؤدية إلى اتفاق كبير، يلم شتَاتَه ويدعو الأطراف المتصارعة في أمة كبيرة إلى مائدة مفاوضات لحسم قضايا مصيرية بعيدًا عن ساحات القتال، في محاولة أشبه ما تكون بالمقابل النظري لمقولة «كلاوزفيتز» الشهيرة: (إن «الحرب هي بوسائل أخرى»؛ في حين كان المُخططون الصينيون، إبان عصر الدول المتحاربة يزعمون بأن السياسة هي المجال الذي يُتيح للخطط والتسويات السياسية أن تلعب دورًا أكثر حسمًا وجدوى مما تقوم به المعارك الحربية)، وهكذا؛ فقد

راحوا يُقنعون الجميع بأن النصر النهائي — أو حتى الهزيمة المروعة — لا يتقرران بالقوة العسكرية وحدها، إلا على نحو نسبي، (فالكلمة الأخيرة في المسألة كلها، معقودة بمدى النجاح الذي تبلغه الخُطط السياسية في تقديرها لعناصر وحجم وتوازن القوة بين الطرفَين المتصارعَين: دولة «تشين»، في المحور الأفقي؛ ودولة تشو، في كتلة المحور الرأسي) تلك تحديدًا، وبإيجاز شديد هي الفكرة الأساسية في كتاب سياسات الدول المتحاربة.»

ولا ينبغي أن ننسى أن المُرتكز الذي تقوم عليه الفلسفة الكونفوشية هو ضبط العلاقة بين الجماعة البشرية بمختلِف انتماءاتها وطبقاتها ووظائفها الاجتماعية؛ فهي فلسفة الحشود الإنسانية بالدرجة الأولى، وتتجلى بأبرز معانيها في مجال ترتيب الشأن السياسي، بل إن عميدها الأكبر (كونفوشيوس) نفسه كان واحدًا من الساعين إلى العمل في منصبٍ وزاري، وكان يعد تلاميذه ليتبوءوا «وظائف سياسية ذات شأن»؛ وبالتالي، فقد كان رجال التخطيط — بمعنًى ما — جزءًا من بناء كونفوشي كبير، يتحركون فيه وبه ومن خلاله في مساعيهم المُتواترة بين العروش الحاكمة، إبَّان زمن الحرب. ومن هذه الزاوية نستطيع أن نلحظ أهمية دورهم تاريخيًّا (حيث أفضت جهودهم، جنبًا إلى جنب ظروف التطور التاريخية، إلى توحيد الصين، لأول مرة في تاريخها، كله في عام ٢٢١ق.م.) أما السبب في عدم ذيوع شهرة هذا الكتاب، فيرجع أساسًا، إلى خلوِّه من أية انتماءات فكرية واضحة للأفكار التقليدية التي شكلت الفلسفة الصينية (الكونفوشية، الطاوية)؛ فلا هو جزء من صرح كونفوشي، ولا هو تابع للطاوية، أو لِغيرها من المذاهب التقليدية.

وإنما هو مجرد سجل تاريخي حافل بالحكايات والأحداث والأساطير، وهذا وحده كفيل بأن يُخرجه من دائرة الاعتبار الكونفوشي الذي لم يكن يعتدُّ في مجال الإبداع إلا بالشعر وحده، بموسيقاه التي تنتظم قواعد النغم والإبداع (حيث الموازين مُحددة، والمقامات محفوظة)، ولم يُعرف عن الكونفوشية أنها نظرت بعين الاحترام إلى الحكايا والأقاصيص أو الرواية والأساطير.

طريقة تدوين الكتاب تلتزم بنسقٍ واحد يعتمد على إيراد النصوص المُتعلقة بسجلَّات الدول الرئيسة في عصر الدول المتحاربة — كما لاحظت، سيدي القارئ في الجزء الأول من هذا الكتاب — دون مراعاة للترتيب المنطقي في سرد الأحداث؛ ممَّا يُربك القارئ ويخلُّ بتطور السرد في معظم الأحوال، وكثيرًا ما ستُصادف تكرار فصول وأحداث مُحددة، دون داعٍ أو مناسبة أو حتى ضرورة إبداعية بلاغية، والأغرب من هذا كله أننا قد نُصادف ما يتَّصل بذكر أحوال شخصيةٍ ما، من نشاط وحركة وشئون حياة، بعد أن تكون قد ماتت

وشبعت موتًا في فصولٍ سابقة، ثم إذا بها تنهض من تحت الأرض، فجأة لتتنسَّم الحياة من جديد، وعلى نحوٍ يتحدى منطق التتابُع السردي، ويغرق النص في فوضى هائلة هي أشبَه شيء بما كان يذكره المؤرخ الأندلسي الشهير، ابن حيان القرطبي، وهو يحكي طرفًا من سيرة ملوك الطوائف الذين ظلُّوا، على مدى أجيال يُوقظون الموتى بعد أن قُبروا ليقوموا إلى سدة العرش ثانية، في ثنايا فصول صراعهم على السلطة؛ لدرجة أنهم أماتوا وأحيوا أحد الأمراء (... الأمير هشام المؤيد)، ثلاث مرات! افتراءً على الحق وسخرية من التاريخ، وجريًا وراء مطامع السلطة.

وليس من الغريب أن نرى فوق ذلك ملامح شبه كبيرة، بين سيرة الأمم المتحاربة في الصين وتاريخ الدول العربية الإسلامية في الأندلس، فالصراعات تكاد تنطبق حرفًا بحرف؛ فالولايات الأندلسية تكاد تُكرر في مسار تحالفاتها واضطرابها وتحلُّلها حكاية النزاع بين الدويلات الصينية المُتحاربة؛ فهنا: فصول من معارك دولة «تشين» مع «تشو» و«هان» وغيرها من الدول الصينية القديمة، لتنتهي بانتصار «تشين».

وهناك صراعات الطوائف، فالمرابطين والموحدين؛ لتخلُص إلى علو شأن الدولة الحفصية في شمال إفريقيا، فقط مع فارقٍ أساسي هو أن تطاحُن الدويلات الصينية تمخَّض عن وحدتها تحت راية «تشين»، بينما انتهت صراعات الأندلس بالسقوط المروع.

ويبقى أنه لا مجال لمقارنةٍ هنا، ولا أقصد إلى ذلك سبيلًا؛ فالصين مارست صراعها على أرضها بحثًا عن صيغة للوحدة في ظروفٍ معينة من التطور التاريخي، بينما كانت الدولة العربية في الأندلس مجرد تجربةٍ لها شروطها في ظل جهود الفتح خارج إقليم الحضارة العربية قريبًا من تخومه مُشارفه.

وليس ابن حيان القرطبي كزميله الصيني (ليو شيانغ)، فالأول عاش التجربة وعاصر فصولها شاهدَ عيان، بينما الثاني نقل عن ستِّ مدونات مختلفة، وقد حاول جهده أن يضبط ويُصحح، لكن الأديب الكامن في أعماقه كان أقوى من المؤرخ، فعالج سيرة شخصياته بمزاجٍ أسطوري.

وختامًا، فلست أريد أن أكرر ما سبق أن ذكرته في مقدمة الجزء الأول، لكني أود القول إني أردت بهذه الترجمة أن أضع بين يدي القارئ نصًّا جديدًا من التراث الصيني، ربما لا يجد السبيل إليه على الأقل فيما هو متاح من الترجمات في اللغات الأوروبية وأن أضيف إلى المكتبة العربية واحدة من أهم مدونات مذهب الخطط السياسية المعروف في

الاصطلاح الصيني باسم «تسون هنغ»، وأن أقدم أيضًا للباحث المُتخصص، نصًّا تاريخيًّا من لغته الأصلية، مزودًا بحواشٍ وشروح.

وسيجد القارئ بعضًا من تعليق المُحققين واردًا بين قوسين هلاليين، أما الإضافات التي تتعلق بموضوع النص، عرضًا، فقد حصرتها بين قوسين مربعَين، علمًا بأن النص، بالإضافة إلى كونه مصدرًا تاريخيًّا أصيلًا، فهو قطعة من الأدب الصيني القديم، رائدها التذوُّق الحر، مفتاحها في كنزها الأخفى، بيد أن النص لا يخلو من شروح وأسانيد.

ليست هذه سوى محاولة لترجمة كتابٍ آخر من التراث الصيني، ومثل كل محاولة، فهي تنطوي، لا بد، على مجازفاتٍ وأخطاء وتقديرات غير دقيقة؛ فمن المكابرة الادعاء بأن هذه الترجمة على درجة تامة من الدقة، لكنني أؤكد للقارئ أني بذلتُ كل ما أستطيعه من جهد لكي تكون الترجمة أقرب ما يمكن لأجواء النص الأصلي كاملًا ووافيًا وصحيحًا، عن لغته الأصلية.

محسن فرجاني

سجل تشي السادس

لمَّا كان المدعو هونشوان

كان المدعو هونشوان يقيم بإحدى ضواحي عاصمة دولة تشي، وقد اشتهر بالصراحة والتعبير عن الرأي والنصيحة لذوي الشأن دون مواربة، إلا أن جلالة الملك «مين» حاكم «تشي» أصدر ضده قرارًا بالإعدام، وجرى تنفيذ الحكم بمدينة «تانشو»، ومن ثم فقد ارتاب الناس في أمره، وتوجسوا منه شرًّا. ثم ظهر رجل آخر من آل تسونغ (قومية تسونغ) — أحد بطون دولة تشي — وأخذ يتحدث بالآراء الصريحة والنصائح الجريئة فأعدمه الملك مين عند البوابة الشرقية للعاصمة، فتغيرت قلوب آل تسونغ وقلبوا للملك ظهر المجن، ولم يكتفِ جلالته بذلك، بل إنه أعدم أيضًا أحد كبار مستشاريه السياسيين ويُدعى «يانغ جو»، مما باعد بينه وبين وزرائه جميعًا. وكان ذلك هو السبب الذي شجع دولة «يان» على شن حملة عسكرية ضده؛ إذ أرسلت جيشًا بقيادة «شانغ كوجن» للهجوم على «تشي» [تنطق كما في — الدوتشي] وردَّت هذه على ذلك التحرك بإرسال قوات بقيادة كبير الوزراء «شيانزي» لُملاقاة جيش يان، إلا أنها لاقت الهزيمة على يدَيه، وفر شيانزي هاربًا فوق أحد المركبات ناجيًا بنفسه، فقام «طازي» [الوزير الأعظم بدولة تشي] بتجميع فلول قواته المُشتتة وأعاد تنظيم الصفوف واستعاد للقوات ما تبدَّد منها ماديًّا ومعنويًّا، واستعد للالتحام بقوات «يان» المعتدية، وطلب من جلالة الملك أن يُرسل إليه بمدد من المقاتلين وأن يمنحه لقبًا شرفيًّا بوصفه جنديًّا مقاتلًا في الميدان، فرفض الملك تلبية طلبه، ومنيت قواته بهزيمة نكراء وتفرقت صفوفها بِددًا.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

فرَّ الملك «مين»، حاكم «تشي»، إلى دولة «جيو»: فاستقبله هناك أحد كبار رجال الدولة، ويدعى «ناوتشي»، فلما التقى به راح يحصي عليه جرائمه، قائلًا: «هل بلغك، يا مولاي، ما حدث بأرضك فيما بين منطقتي «تشيان شن» و«بوشان» — وهي بقعة تبلغ مساحتها تسعمائة لي مربع — من سقوط المطر الغزير من السماء مختلطًا بالدماء، حتى فزع الأهالي وقد تلوثت ثيابهم بالدماء؟» فرد عليه الملك بالنفي. فعاد «ناوتشي» يسأله: «وهل بلغك ما حدث بين مدينتي «إينغ»، و«بوا» من تصدُّع الأرض في خط مستقيم بلغ مشارف (هوانشيوان)؟ فأجابه بقوله: «لا أعرف شيئًا من ذلك؟»، وسأله السائل: «وهل علمت بما حدث من تردُّد صوت بكاء الناس أمام قصرك، فلما حاول المسئولون تتبع آثار الصوت اكتشفوا أنه صوت ينطلق من حناجر غير مرئية؛ إذ إنهم لما عادوا إلى مكاتبهم، تردَّد الصوت ثانية، بغير صائت.» فأجابه الملك بأنه لم يبلغه شيء من هذا، فأفصح له ناوتشي بما وراء تلك الموضوعات من دلالات قائلًا له: «أما المطر المختلط بالدماء التي تخضبت به ثياب الناس، فقد كان نذيرًا إليك من السماء والصدع الذي انشقَّت به الأرض، فقد كان صوت غضب الأرض بلاغًا لك، فلم تنصِت إليه، فأما الصوت الباكي أمام قصرك، والذي لم يُرَ صاحبه، فقد كان شكوى الناس إليك، لكنك لم تسمع شيئًا، قد أنذرتك السماء والأرض ورفع الإنسان إليك شكايته، فلم تأخذ الحذر، فما الذي يعفيك من حكم السماء؟»، ثم إنه أخذه إلى منطقة بوسط العاصمة، يقال لها «كولي» وقتله هناك؛ فذلك ما كان من أمر إعدام الملك «مين» حاكم تشي.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

(وعلى إثر ما سبق من الأحداث) فقد آثر الأمير «فاجان» — أمير تشي — الفرار إلى بيت «هوجياو»، كبير مؤرخي القصر، وذلك بعد خلع ملابس الإمارة وألقى عنه شارة الحكم، وصار مقيمًا بمنزل الرجل، بوصفه بستانيًّا يزرع الورود ويشذب الأوراق. وأعجبت به ابنة المؤرخ الرسمي — وهي التي ستصبح فيما بعد — ملكة تشي؛ لِما عُرف من كريم أخلاقه، صارت هي التي تقوم بخدمته ورعاية شئونه.

وفي تلك الأثناء تمكَّن «تيان دان» من تحويل منطقة «جيمو» إلى حصن منيع ومركز لتجميع القوات الشاردة، مما ساعد على إعادة بناء القوة الضاربة من جديد فتمكنت من

إنزال الهزيمة بجيش دولة يان بعد أن نجح تيان دان في مُخادعة وتضليل القائد «تشي جيه»، ثم عادت لـ (تشي) أراضيها المسلوبة، وعمل تيان دان على عودة الأمير من دولة «جيو» إلى بلاده، وتنصيبه ملكًا، فكانت تلك هي بداية ولاية من سُمي فيما بعد بالملك شيانغ على عرش تشي، ونصبت ابنة المؤرخ ملكة على البلاد — بعد اقترانها بجلالته وكانت هي التي أنجبت — من أصبح فيما بعد — الملك «وانجيان».

لَمَّا كان وزير شئون القصر الملكي

لَمَّا بلغ «وان سونجيا» (وزير شئون القصر بدولة تشي، فيما بعد) عامه الخامس عشر صار موكلًا بخدمة الملك «مين»، فلما هرب جلالته، على إثر الأحداث سالفة الذكر، فكر سونجيا فيما يمكن أن يكون الملك قد حل به من المواطن، دون أن يهتدي إلى شيءٍ منها، فقالت له أمه: «اخرج في الصباح الباكر، فابحث عن جلالته، ولا تعد إلا في المساء، وسأبقى في انتظارك متكئة على مصراع الباب، ثم اخرج تحت ظلمة الليل باحثًا عنه وسأظل مكاني لا أغادره، فأنت المنوط بك خدمة مولانا، ففيمَ بقاؤك وقد غاب عنا؟ اذهب وراءه، فإن لم تجِدْه فلا تعُد أبدًا.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

ومشى «وان سونجيا» حتى دخل السوق، ثم صرخ في الناس: «هلمُّوا إليَّ، أما دريتُم بما أوقع «ناوتشي» من الاضطراب في بلادنا، وما اقترفه من اغتيال مولانا الملك الأعظم، فمن أراد منكم الذهاب معي للثأر من القاتل فليكشف عن ذراعه اليُمنى.»، فمضى معه زهاء أربعمائة فرد، بغية الثأر للملك المقتول، ثم إنهم ساروا حتى أنفذوا غايتهم وقتلوا ناوتشي بأيديهم.

لَمَّا أغارت دولة يان على تشي

لَمَّا أغار يان على تشي وغلبتها واستولت على أكثر من سبعين مدينة وإقليمًا، سوى إقليمي «جيميو»، «جيو» فلم تستطع السيطرة عليهما وهو ما أتاح لـ «تيان دان» أن يجعل من جيمو معقلًا حصينًا في وجه يان، ثم كان هذا المعقل هو الخطوة الأولى في توجيه الضربة القاضية إلى قوات دولة «يان» وقتل القائد العسكري «تشي جيه».

الجزء الثاني من الفصل نفسه

لمَّا كان القائد العسكري لقوات دولة «يان» على وشك إسقاط دفاعات مدنية «لياو» بدولة (تشي) فقد وصل إلى سمعه أن أحدهم قد وشى به لدى جلالة الملك — قائده الأعلى — مما أوغر صدر جلالته ضده، فخشي على نفسه أن تناله يد الغدر فلزم مواقعه بمدينة «لياو»، محاذرًا من العودة إلى الوطن، مما جعله عرضة لهجوم قوات «تيان وان» التي ظلت تحاصره وتضربه مدة تزيد على العام، حتى هلك الكثير من جنوده وتفرق عنه مقاتلوه دون أن يستسلم وبقيت مدينة «لياو» صامدة برغم كل ذلك.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وهنالك تناول «لوجون ليان» ورقة وقلمًا، وكتب رسالة ثم ربطها إلى سهم وأطلقه إلى داخل المدينة، وكان نص ما كتبه إلى القائد المتحصن بالمدينة على النحو التالي: «قد بلغني أن العاقل الذكي لا يضيع حظه مما ينفعه ولا يدع الفرصة السانحة تسقط من بين يديه. إن الرجل الشجاع لا يلطخ سمعته خشية موت وشيك أو خطر محدق، والمخلص الشريف لا يهمل حق مليكه ليتدارك ما يشغله من أمر نفسه، وأنت قد أهدرت أمر سيدك جلالة الملك المعظم، وتغاضيت عن الآلاف المؤلفة من أرواح الجند التي زهقت بسبب غضبة جاش بها صدرك، فلا أراك وفيت الإخلاص والشرف حقهما. كما لا أرى من الشجاعة أن تبقى مكانك حتى تموت كمدًا، فلا أنت نفعت نفسك، ولا أفدت دولة «تشي» شيئًا مما تراه عنصرًا فاعلًا في الاحتفاظ بقوةٍ أو ميزة أو نفوذٍ ما، وليس من الحكمة أن تضيع ما سبق لك في سالف الأيام من فضل، فتخسر كل ما اختزنته لك الأيام من صيت ذائع وشهرة طيبة، فلا يبقى لك الثناء في فم الأجيال اللاحقة، فالحكيم لا يتردد، والجريء لا يجزع من الموت، فهذا وقت الحسم بين أقدار الموت والحياة، والشرف والعار، والرفعة، والذلة، والإجلال والاستصغار. فأرجو أن تتأمل الأمر جيدًا وتنظر فيه بالعقل الراجح وتنأى بفكرك عن خواطر الدهماء وظنون العامة التي لا تستبطن في قلوبها مراجع الحكمة.

ثم إن ما قامت به كل من دولة «تشو» من مهاجمتها لمدينة «نانيانغ» ودولة «وي» باعتدائها على مدينة «بينلو»، لم يحرك لدى «تشي» ساكنًا؛ إذ لم تتحرك صوب الجنوب لمهاجمة «تشو» أو «وي»؛ لأننا في دولة «تشي» قد رأينا أن خسارتنا في مدينة «نانيانغ» لا تساوي شيئًا بالمقارنة بما نكسبه في الشمال (حيث نضع أيدينا على مدينة «لياو») ومن ثم

فقد صممنا على التشبث بتلك المدينة، وإذا كانت دولة «تشين» قد سارعت بدعم «تشي»، فسيكون من نتيجة ذلك شل ذراع «وي» الممتدة للهجوم من ناحية الشرق وهكذا يتحقق التحالف الأفقي بين جهتي «تشي»، و«تشين»، مما يضع دولة «تشو» في خطر بالغ. أضف إلى ذلك تجاهل بلادنا للقلق الذي تُثيره «تشو» بمحاولاتها الهجومية في «نانيانغ». وذلك لأننا في تشي نعلق أهمية كبرى على إحباط الهجوم ضد بينلو وحماية مدينة لياو وسوف نحسم خطتنا على هذا الأساس.

وقد اتضح أن دولة «تشو»، و«وي» قد سحبتا قواتهما تمامًا قبل أن يصل المدد الكافي لإنقاذ دولة «يان»، في الوقت الذي لم تشهد فيه أية محاولة من قبل الدويلات أو الإمارات الصغيرة للغدر بدولة «تشي»، وأستطيع أن أؤكد لك بما توصلت إليه من تقدير للموقف وحساب الخسائر التي مُنيتم بها نتيجة إصراركم على الاحتفاظ بمدينة «لياو» طوال عام كامل أؤكد لك أن النصر لن يكون حليفك؛ ولا بد من أن «تشي» سوف تدخل معك في معركة حاسمة في مدينة «لياو» ولن تجد في جعبتك الكثير من الحيل أو الخطط الجيدة، إن بلادك — يان — أصبحت ساحة فوضى عارمة بعد أن فشلت كل تدابير الملك والوزراء والسياسيين وخططهم وصار الجميع أسرى الاضطراب والحيرة من كبيركم إلى صغيركم، حتى قائد جيشكم المظفر «ليفو» أمسى يلعق جراحه بعد أن تبددت قواته ذات المليون كتيبة؛ خصوصًا بعد أن أصيب بضربات قاصمة في خمس جولات حربية خارج الوطن، وبالنسبة لبلد — مثل بلدكم — كان لديه في يوم من الأيام عشرة آلاف مركبة عسكرية، يستيقظ فجأة فيجد على أبوابه حصارًا شديدًا من دولة «جاو»، وتقع أطنان من الهموم في قلب قائده وهو يرى بعينيه انتهاك سيادته الوطنية فوق أرض بلاده، حتى انسحقت كرامته أمام الدويلات والإمارات الصغيرة، ولا أدري إن كان لديك طرف من هذه الأنباء أم لا، لكن الأمر المؤكد هو أن الملك «شي» — حاكم «يان» — في الوقت الراهن قد فترت عزيمته وخارت همته وقد جلس مهمومًا بغير سند أو معتمد؛ فلا وزراؤه يهبون لنجدته، ولا المصائب تتحول عن بلاده، ولا شعبه يُذعن بالخضوع والانقياد له، ولئن كنت تتقوى الآن بأهل مدينة لياو الذين أرهقهم الحصار ونالت منهم تحديات المقاومة في مواجهة جيش تشي المترصد لك طوال عام كامل فلا أظن هذه إلا حيلة حربية في تحصين المدن قد تعلمتها من فن الحرب عند «موتسي» (فيلسوف الموهية)، أما بقاؤك وصمودك داخل المدينة، وأنت تأكل الجيفة وعظام الموتى وتتحالف مع جنودك على البقاء معًا حتى الموت بغير خيانة؛ فتلك طريقة «سون بين» (مفكر عسكري) في التحصن بالمدن وهكذا، فإن أفكارك معلومة لنا وطرائقك الحربية مكشوفة لكل الناس.»

الجزء الرابع من الفصل نفسه

لذلك فقد تدبرت أمرك ورأيت أن من الأفضل لك أن تحقن الدماء وتغمد سيف الحرب، وأن ترجع إلى بلادك بكامل جيشك وعدتك وعتادك وأن ترعى حق مليكك عليك. لعله يرضى عنك ويبتهج قلبه بعودتك، ويستقبلك الأهالي بكل ودٍّ واحترام كأنهم يلقون عزيزًا عليهم، ويشمر أصدقاؤك ورفاقك عن أكمامهم ويشيرون نحوك بأيديهم زهوًا وافتخارًا بك أمام العامة فتذيع مآثرك ويعلو قدرك، فيجد فيك الملك ناصحًا ومشيرًا (حرفيًّا: بعد أن عزَّ وجود الناصح الأمين) وتصير الأعلى سطوة فوق الولاة والوزراء ويجد فيك الرعية أبًا وراعيًا ونصيرًا وتصبح سيرتك البطولية نموذجًا يقتدى به، ويتناقله الرواة والخطباء، ويشرق نجم صعُودك؛ إذ تمتدُّ بك يد الصلاح إلى أحوال البلاد السياسية وأعرافها الاجتماعية، ومن ناحية أخرى، دعني أسألك بصراحة ... ألا يمكنك أن تدفع بأمور دولة يان كلها وراء ظهرك، ألا يمكنك أن تتجاهل تخرصات السوقة والدهماء وآراءهم فيك وتضرب صفحًا عن ذلك، وتسرع الخطو باتجاه الشرق دولة تشي، ألا يمكنك أن تأتي إلينا؟ باستطاعتي أن أتقدم إلى جلالة ملك تشي بطلب يمنحك بموجبه إقطاعًا سخيًّا، فتحوز من الثروة والجاه ما لم يبلغه قط كل من القائد العسكري الأشهر «يرانغ»، و«شان بانغ» على الرغم مما يحظيان به من المكانة والشرف، ويطير صيتك في الآفاق ويبقى ذكرك مخلدًا جيلًا بعد جيل، ما بقيت الدولة (دولة تشي) قائمة، فتلك حيلة بارعة تستطيع أن تتدبر بها مخرجًا مما أنت فيه، فدونك طريقتان تبلغ بهما آفاق المجد وتنال غاية الشهرة والفوز العظيم، فتدبر أمرك جيدًا بمنتهى الحرص والحذر، واختر لنفسك طريقًا!»

الجزء الخامس من الفصل نفسه

«وبالإضافة إلى ذلك، فقد بلغني أن من اتخذ من صغائر الأمور معلمًا ومرشدًا، فلن يبلغ الرفعة والعلا، ومن كانت تتأذى نفسه بالِغ الأذى من مجرد أحقر الصغائر، فلن يكون ذا شأن عظيم وصيت ذائع.

وقد قام كوانجون فيما سلف من الزمان بإطلاق سهامه على مشهد إزار الحاكم تسي هوانكون وكانت تلك محاولة لاغتصاب العرش؛ وكان من قبل قد تخلى عن كون تسي جيو، ولم يبذل له حياته دفاعًا عنه، وكانت تلك خسة ونذالة، ثم إنه ألقى القبض عليه وتعرض للعقاب فوضعت يداه في القيود وقدماه في الأصفاد، وتجرع كأس المذلة وعرف طعم الهوان، إن امرأً جرت عليه تلك الأحوال الثلاثة لن يلقى من مواطنيه إلا التجاهل وستوصد أمامه

أبواب الصعود إلى مرتقى الشرف، وهكذا، فلو كان صدر قرار باعتقال «كوانجون» وذاق في سجنه — مرارة الهوان وضيق الحال حتى وافاه الموت — وهو بعد، في محبسه — لكان قد أصبح مكروهًا من الناس، ونموذجًا ماثلًا على الضعة والصَّغار. وبرغم ارتكابه للوقائع الثلاث المخجلة، فقد اعتلى العرش وصارت إليه السلطة النافذة في البلاد، فقام بإصلاحات واسعة في أرجاء الممالك، وعقد ثمانية تحالفات مع أمراء الدويلات، وجعل من دولة تشي واحدة من خمس إمبراطوريات عظمى فارتفعت رايات مجده في سماء الدنيا بأسرها، وانتشرت ظلال أنواره فوق أرض الولايات المجاورة، وعندما تولى «تساوكوي» منصب قائد الجيش في دولة «لو» قام بثلاث جولات حربية خسرها جميعًا وعاد مهزومًا مدحورًا وقد خسر أرضًا هائلة المساحة ثلاث آلاف لي (مربع)، (ومع ذلك، فقد آثر أن يفكر بطريقة عملية؛ بحيث يتجنب الوقوع في مزيد من الخسائر، وهكذا فإنه ...) لو كان قد بقي في ساحة القتال، يواصل محاولاته الهجومية اليائسة — دون أن يعمل حسابًا للمستقبل — لوقع في الأسر، وصار أكبر الأسرى رتبة وسط جيش مهزوم، لكنه لم يكن يريد لنفسه ملاقاة ذلك المصير الذي رأى فيه إذلالًا لكرامته، وتضييعًا لمآثره، وإخمادًا لسيرته فلا تبقى له مع الأيام بقية من الذكرى لدى الأجيال اللاحقة، ولا يلهج فم بالثناء عليه، ولا يرد له في سجل التاريخ وارد من ذكرى حكمته وعبقريته، فنحى عن نفسه خزي هزائمه وغض الطرف عما يمكن أن يكون لحقه من شعور بالعار، وتراجع عما كان ماضيًا إليه، وراح يناقش الأمور مع حاكم «لو» معتبرًا أن ما حدث له كان مجرد فرصة ضاعت على الرغم منه.

ولَمَّا ذهب الأمراء في زيارة رسمية لجلالة الإمبراطور هوانكون — حاكم تشي — (وقد أصبح ملكًا متوجًا فوق الممالك)، قام تساوكوي (المشار إليه آنفًا) وصعد إلى المنصة الكبرى وقام باختطاف جلالته، مشهرًا سيفه في وجهه، ومهددًا باغتياله، وهكذا، قدر للأرض التي خسرها في هزائمه الثلاث أن تعود إليه دفعة واحدة، وفي ساعة واحدة أيضًا، مما كان له وقع الصاعقة على البلاد من أقصى الأرض إلى أقصاها، ومنذ يومئذٍ انعقد النفوذ والهيبة للدولتين: «أو» و«تشو» وطار صيتهما في الآفاق وكتب لهما المجد الذي تناقلت سيرته أجيالًا وراء أجيال.

إن الرجال من أمثال «هوانكون»، و«تساوكوي» ليسوا ممن يغمضون عيونهم على قذى المهانة، حتى لو كان بالقدر الضئيل (هم في ذلك مثل كل الناس، لا فرق بينهم وبين من يتألم بسبب أدنى شعور بالخزي)، لكنهم رأوا أن من خطل الرأي وسوء التدبير أن يضحوا بأرواحهم، فيموتوا وتندثر، على المدى، آثارهم؛ لذلك لا يظفر المرء بشهرة ذائعة ومجدٍ باقٍ على الدهر إلا من استطاع أن ينزع من جوفه جذور السخط والغضب؛ ولا يُقيم

من المآثر ما تخلد به ذكراه إلا إذا نحَّى عن نفسه ما تذل به الجباه من العار، فمثل هذا الشخص هو الذي يحوز من الإجلال والرفعة ما يترقَّى به إلى مكانة لصيقة بالملوك الثلاثة (الحكماء القديسين)، وينعقد له من الصيت وخلود الذكر ما يدوم بدوام الأرض والسماء، فانظر فيما قلت لك وتدبَّر.»

الجزء السادس من الفصل نفسه

وهنالك أجاب القائد العسكري لدولة «يان»، قائلًا: «وإني لأنزل على رأى سيادتك بكل احترام وتقدير، وآخُذ بما تأمرون به!» ثم راحت قوات دولة يان تغمد سيوفها وتنزع أقواسها وتُخلي مواقعها استعدادًا للجلاء عنها؛ فلهذا قيل إن الفضل في فك الحصار عن دولة تشي وتخليص أهلها من براثن الموت ومهالك القتال، يرجع إلى براعة اللفظ وحسن العبارة (فيما صدر عن «جونليان» من منطق وبيان).

لمَّا قامت يان بمهاجمة دولة تشي

قامت يان بمهاجمة دولة تشي واقتحمت عاصمتها فهرب الملك «مين» إلى دولة «جيو»، حيث لقي حتفه على يد «ناوتشي» وكان «تيان دان» — في تلك الأثناء — يتولى حماية مدينة «جيمو» وقد أبلى بلاء حسنًا في مقاومة دولة يان، بل إنه استطاع أن ينازل قواتها ويردَّها على أعقابها ويهزمها شر هزيمة، ثم راح بعد ذلك، يُجدد عمارة العاصمة ويبني بدل ما تهدَّم من مبانيها، وجرى إقرار الملك شيانغ وليًّا على العرش بوصفه الأمير الوريث، فلمَّا كانت تشي قد ردَّت يان على أعقابها وأنزلت بها هزيمة مُنكرة، فإن كثيرًا من الشكوك ثارت حول مدى جدية «تيان دان» في تنصيب خليفة للملك المقتول ووقع في ظن أهالي دولة تشي أن الرجل يتحيَّن الفرصة ويُهيئ لنفسه الظروف ليقوم بنفسه مقام الملك، فإذا به يؤازر الأمير شيانغ ويقوم إلى جواره مساعدًا له حتى تولَّى العرش، ملكًا على البلاد، ولم يقصر في خدمته.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

كان تيان دان مارًّا ذات يوم في طريقه بجوار شاطئ نهر «زيشوي»، فرأى رجلًا متقدمًا في السن يجلس قرب حافة الماء وقد أخذ يرتجف من شدة البرد بعد أن عبر النهر سيرًا على

الأقدام، وفكر تيان دان في أن يأمر رجاله بأن يُلقوا إلى الكهل الذي أقعده البرد والإنهاك عن المشي برداء يُدفئه، لكنه لم يجد عند أحدٍ منهم فضلة من الثياب، فخلع رداءه وأعطاه للمسكين.

فلمَّا وصلت أخبار تلك الواقعة إلى الملك شيانغ، تكدَّرت نفسه للغاية، وحدَّث نفسه قائلًا:

«هو ذا «تيان دان» ينثُر على الناس من عطفه الشيء الكثير فما أراه إلا ظافرًا بما يؤهِّله للوثوب إلى العرش فيُقصيني ويقوم مكاني، فلأعجِّل باتخاذ الحيطة الواجبة قبل أن تنقضي الأمور وينفلت الزمام.» ونظر الملك حواليه فلم يجد أحدًا بالقُرب منه، فتطلَّع في المدى، فشاهد بالقُرب من القصر واحدًا من رجال البلاط ... يُدعى «كوان شو» فأدناه الملك إليه بإشارة منه، وسأله: «أسمعت ما كنتُ أحادث به نفسي بصوتٍ عالٍ منذ قليل؟» فلما رد عليه بالإيجاب سأله الملك: «فكيف تراني أصنع معه؟ وبماذا تُشير عليَّ في هذا الأمر؟» فأجابه كوان شو، قائلًا: «أرى من الأفضل أن تجعله من رجال حاشيتك المُحسنين، فتمتدِح سيرته وتُثني على أفعاله، وتُصدر أمرًا تقول فيه، بالنص «لمَّا نما إلى علمنا أن أفرادًا من الشعب يُقاسون الجوع، فقد أصابنا ذلك بمزيد القلق والضيق، فدفعنا إلى «تيان دان» بما يسدُّ أبواب المجاعة من الحبوب والغذاء، وإذ جزعتُ لمصاب الناس من البرد وقلة الكساء؛ فقد أراد «تيان دان» أن يُدخل على قلبي السرور بما أقدم عليه من خلع ردائه كي يستدفئ به من يُقاسون الزمهرير، وكم يُحزنني أن يشقى الناس ويرهقهم ضيق العيش، وهو الأمر الذي انتقل تأثيره إلى قلب تيان دان ومشاعره، فصار هو الآخر يَنزعج لما يُضايقني؛ مما جعله يترفَّق بالناس، لما يعلمه من إشفاقي عليهم.»

وهكذا، فكلما سلك «تيان دان» بين الناس بالعطف والرفق والرحمة، ونال منك الثناء والتقدير، بَدَا الأمر (للناس كلهم) وكأنك أنت العطوف، والبَر الرحيم.»

وهنالك استحسن الملك رأيه، وقرر مكافأة سخية لـ «تيان دان» وأهداه من الخمر واللحم ما لا مزيد عليه وأثنى على أفعاله كثير الثناء.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وما هي إلا أيام قليلة حتى عاد «كوان» لزيارة الملك «شيانغ» فلمَّا التقى بجلالته، قال له: «أرى أنه من اللائق — يا مولاي — أن تنتهِز فرصة وجود الأمراء في قصرك بعد أيامٍ

قلائل، لتقدم التحية على رءوس الأشهاد، لـ «تيان دان»، وتتكرم عليه بالهدية المناسبة والمكافأة السخية، ثم تُصدر أمرًا ملكيًّا في الحال بالبحث عن المحرومين والجائعين، لاتخاذ الإجراءات العاجلة لإيوائهم والعناية بأحوالهم، ثم تُرسل بعيونك إلى الضواحي البعيدة [هكذا] لُمراقبة ردود أفعال عامة الناس، والإنصات لما يقولونه في أحاديثهم، حيث ستجدهم جميعًا يُردِّدون، قائلين: «لئن كان تيان دان يعطف على الناس ويترفَّق بهم من الرحمة والود والشفقة، فالفضل في ذلك يرجع إلى جلالة الملك نفسه»!»

لمَّا كان «دياو بو» يقدح في أخلاق تيان دان

كان «دياو بو» [من أهالي تشي] يقدح في أخلاق وسمعة «تيان دان»، قائلًا عنه: «إن ذلك المدعو آن بنجون [لقب تيان دان] رجل حقير دنيء، لا قدْر له.» فلما بلغ ذلك القول سمع تيان دان أسرع بعمل وليمة فخمة دعا إليها «دياو بو»، وقال له وهو حاضر: «لئن كنت قد أسأت إليك في بعض المواطن، فقد امتدحتني لدى البلاط الحاكم، وأثنيت عليَّ داخل أروقة القصر الملكي» فأجابه: «إن الكلب الذي كان يُربيه السيد «طاوجي» كثيرًا ما جعل ينبح على السيد «باو»؛ وبالتأكيد فهذا لا يعني أن الكلب يبجل السيد طاوجي، أو ينقص من قدر السيد «باو»، فالكلب، عادةً ينبح على الرجل الغريب، ثم إننا لو افترضنا أن السيد كونسون رجل حكيم ذو فضل وعقل راجح، بينما السيد شيوتسي رجل خائب لا يُرجى منه خير ولا نفع، ثم قام كلاهما وتعاركا، فلا بد من أن كلب السيد شيوتسي سيُهاجم خصم سيده ويعض ساقه، فإذا باعدْنا بين الكلب وسيده الأول الخائب قليل المروءة (كونسون) ثم أعطَيناه للرجل ذي الفضل ليقوم على تربيته، حتى صار كلبه الوفي، فهل يظل — مثل حاله الأول، مع سيده الخائب — يُهاجم الناس ويعقرهم كلما واتته الفرصة؟ فهنالك قال له تيان دان: «قل ما شئت إذن، وسأُصغي لك بكل احترام وإجلال.» وفي اليوم التالي قدَّم توصيته إلى جلالة الملك يُزكيه ويوصي بتوليته وظيفة مرموقة.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

ثم إن الملك شيانغ — حاكم تشي — جمع إليه الوزراء التسعة الذين كانوا محل ثقته التامة؛ وذلك بغرض التآمُر على تيان دان فما كان من الوزراء التسعة إلا أن أشاروا على

الملك بقولهم: «عندما هاجمت يان دولة تشي، أسرع حاكم تشو بإرسال القائد العسكري «ناوتشي» على رأس عشرة آلاف مقاتل لمساندة تشي في مقاومة عدوان يان عليها، أما وقد تم ردع العدوان و... بناء ما تهدم، وإعادة تعمير عاصمة البلاد وانتشار الأمن والاستقرار في الأنحاء كلها، فما الذي يمنع جلالتك من إرسال مبعوث إلى حاكم تشو تعبيرًا عن تقديرك وشكرك لما قام به نحوك من جميل؟» فسألهم الملك عما يَرونه مناسبًا للقيام بهذه المهمة من مساعِديه، فأجابوه بأن أنسب من يختاره لذلك الغرض هو «دياو بو».

وبالفعل فقد ذهب الرجل مبعوثًا إلى بلاط «تشو» الحاكم وتقبل جلالة الملك مشاعر الودِّ والشكر من طرف دولة تشي وامتنانها لما قام به نحوها، واستبقى «دياو بو» لديه وقدم له المآدب العامرة، يأكل ويعبُّ كئوس الخمر على هواه، وظلَّت الحال على ذلك عدة أيام دون أن يعود المبعوث إلى بلاده، وحدث أن اجتمع الوزراء التسعة مرةً أخرى وتحدثوا إلى الملك، قائلين: «من الغريب أن يتم استبقاء رجل عادي ذي سلطة ومكانة مُتواضعة في بلد يحوز عددًا هائلًا من السلاح والجنود والمعدات، ويبقى طوال هذا الوقت في كنف حاكم تلك البلاد، ويدور بخلدنا أنه ما كان يمكن للرجل أن يبقى هناك دون أن يكون مُستندًا في ذلك إلى قوة ونفوذ تيان دان، ومن ناحية أخرى فإنا نلاحظ أن تيان دان هذا كثيرًا ما يتجاوز حدود اللياقة والأدب مع جلالتكم دون مراعاة للفرق بين الأسياد والأوغاد، هذا فضلًا عما يجيش به صدره من نوايا الغدر والتآمُر، إذ يسوس أمور الناس — داخل البلاد — ويُهدئ خاطرهم، ويمد يد الإحسان للناس ويعين المكروب، أما في الخارج، فهو يُهادن البرابرة المسلحين ويشمل بعنايته ذوي العلم والحكمة، ويتحالف سرًّا مع المبرَّزين من المُقاتلين والأبطال في الدويلات والممالك، وقد انطوت جوانحه على اغتصاب العرش؛ فلعل جلالة الملك يفتح عينَيه ويرقب الأحوال بمنتهى الحرص والدقة.»

ثم إن الملك شيانغ نادى بالأمر، ذات صباح طلب استدعاء وزيره الأكبر تيان دان، فصدع هذا بالأمر، وجاءه عاري الرأس (دون أن يرتدى القبعة الرسمية) حافيَ القدمين مكشوف الصدر (بغير إزار أو قميص فوق جذعه) فلمَّا مثل بين يديه، تأخر للخلف قليلًا طالبًا من جلالته إصدار الحكم بإعدامه والإطاحة برأسه، وبعد خمسة أيام تكلم معه الملك، قائلًا: «لا أراك ارتكبت ما يوجب إعدامك، فلم أعهد منك خيانة لي». فلتبذل غاية جهدك في الوفاء بحقي عليك، وستجد مني كل الوفاء بحقوق معاملتك كوزير رفيع القدر تحت سلطاني، وليقُم الأمر على ذلك ما بيني وبينك».

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وحدث أن رجع دياو بو من بعثته في دولة تشو، فأكرمه الملك غاية الإكرام وخلع عليه، وأقام له مأدبة، وملأ له بنفسه كئوس المُدام، ولمَّا شرب الملك الخمر، بلغت به النشوة مداها وانبسطت أساريره فأمر باستدعاء تيان دان إلى الحفل قائلًا: «أحضروا «تيان دان» إلى هنا.» وهنالك قام «دياو بو» من مقعده وتوجَّه إلى الملك وركع أمامه مؤديًا التحية أكثر من مرة، وتحدث بكل احترام قائلًا لجلالته: «عفوك يا سيدي، كيف يصدر عن فمك مثل هذا القول الذي يمكن أن يعرض البلاد للخطر؟ ولتنظر فيما مضى من سيرة الملوك العظماء، مثل الملك أون حاكم جو، ولتتأمَّل، وتسأل نفسك أيكما أوفر حكمة واقتدارًا أنت أم الملك أون؟» فأجابه: «بل الملك أون أكثر نجابة وأعظم نجاحًا.» فسأله دياو بو ثانية: «نعم يا مولاي، قد علمت أنك ستجيب بذلك، فدعني أسألك عمن وراءك من الملوك، مثل الملك هوانكون حاكم تشي؟ أترى، إذا قارنت بينك وبينه، أيكما أكثر سدادًا في الرأي ورجاحة العقل؟» فأجابه: «بل هوانكون الأكثر رجاحة وحكمة.» فقال له دياويو: «قد عرفت ذلك قبل أن أسألك يا سيدي، لكنك ما دمتَ قد قلت ذلك بنفسك، فدعني أُذكِّرك بما فعله الملك أون — حاكم جو. عندما اتخذ لوشانغ وزيرًا في بلاطه الحاكم، إذ منحه اللقب الفخري «تايكون»، ولما اتخذ الملك هوانكون وزيره كوانجون رئيسًا لحكومته، فقد لقَّبه باللقب الرسمي الفخم جونفو؛ فانظر يا مولاي وقد اتخذتَ آن بنجون وزيرًا أعظم في بلاطك، فإنك تُناديه باسمه المجرد «دان»، هذا بالإضافة إلى أنه لم يُوجَد على ظهر الأرض منذ بدء الخليقة من يُنازع آن بنجون في مآثره الجليلة وحسن قيامه على شئون البلاد، ومع ذلك فلا تُناديه جلالتكم إلا بالاسم المجرد دان [يعني، في الصينية: ضحل خفيف معزول …] فكيف يَصدُر عنك مثل هذا اللفظ المجرد الذي يمكن أن يودي بالأوطان إلى المهالك؟ ولمَّا كنت جلالتك غير قادر على تقديم الدعم والحماية لِما تبقى من عرش الملك «مين»، فقد استغلَّت دولة يان الفرصة وقامت بحشد الحشود وشن الغارة على عاصمة تشي، فولى جلالته الأدبار واختفى في تلال «تشنغ يان». أما «آن بنجون» (… تيان دان) فقد وضع يده بيد أهالي مدينة جيمو (… على الرغم مما أحاط بالأجواء من الخوف والقلق …) وحشد وراءه أهالي المدينة الداخلية ذات الأميال الثلاثة، بالإضافة إلى الضواحي الخارجية ذات الأميال الخمسة، وعلى الرغم من فلول الجيش المنهكة، فقد استطاع أن يجهز قواتٍ قوامها

سبعة آلاف مقاتل، وتمكن بكل تلك العوامل أن يوقع بقائد القوات العادية في كمين (يقصد «تشي جيه») وأعاد إلى تشي آلاف الأميال من الأراضي المسلوبة، وكانت تلك، وغيرها، بعضًا من مآثره الجليلة، ولو كان قد فكر في مثل تلك الظروف أن يغلق أبواب المدينة، ويُنصِّب نفسه ملكًا على عرش البلاد لما منعه أحد في طول البلاد وعرضها، سواء في الممالك كلها أو مدينة «تشنغ يان» لكن «تيان دان» لم يكن بالرجل الذي يمكن أن يصدُر عنه مثل هذا التصرف؛ انطلاقًا من إيمانه بالمبادئ وعملًا بالأصول الأخلاقية في كل ما يُدبره من خطط؛ لذلك فقد سارع بإقامة الدروب الخشبية المعلقة وذهب من فوره إلى منطقة التلال الكائنة بمدينة «تشنغ يان» ليستقبل جلالة الملك والسيدة حرمه، ويقودهما في طريق العودة إلى الوطن ليجمع شمل الملك وشعبه مرة ثانية وهكذا فقد كان للرجل الفضل في أن ينتشر الاستقرار والأمن في ربوع البلاد، فيهنأ الناس بسعادة أيامهم ... ثم يأتي جلالة الملك، اليوم، ويناديه باسمه مجردًا من دون ألقاب ... «دان» ... ولا أظن أن صبيًّا عابثًا يمكن أن يدور بخلده مُناداة الرجل بهذه الطريقة، ولا أرى إلا أن يُسرع مولاي الملك بالتخلُّص من أولئك التسعة ثم يُبادر بعد ذلك إلى تقديم الاعتذار إلى «آن بنجوان» وإلا تعرضت البلاد لمخاطر جمة واضطربت الأحوال. وبالفعل، فقد أقام الملك السيف على رءوس المُستشارين التسعة وطرد ذويهم خارج البلاد، ثم تكرم بمنح «آن بنجوان» إقطاع بلدة «إيه».

لمَّا أعدَّ تيان دان العدة لمهاجمة أرض دي

لمَّا كان تيان دان على وشك الإغارة على «دايدي»، فقد توجَّه للقاء «لوجون ليان».

(... وذلك ضمن ترتيبات الإعداد للهجوم ...) ودار بين الرجلين حوار بدأه «لوجون ليان»، بقوله: «لا أظنك تستطيع احتلال دايدي»، فقال له تيان دان: «إنني أعتمد في خطتي على مجموعة من العناصر القوية؛ إذ قمت بتهيئة الأجواء في المواقع الداخلية للمدينة البالِغة مساحتها خمسة «لي» وعلى الضواحي التي بأطراف المدينة بمساحتها البالِغة سبعة «لي» وبرغم الحالة المُتردية للقوات فقد استطعت الإغارة على دولة يان — ذات القوات العسكرية الهائلة — وألحقت بجيشها الهزيمة، وتمكنت من استعادة الأراضي المُحتلة، فلماذا أعجز عن ضرب واحتلال منطقة دايدي؟» وما إن فرغ تيان دان من قوله، حتى ركب العربة العسكرية وانطلق عائدًا دون استئذان مُحدِّثه؛ ثم إنه قاد الجيش وهاجم أرض «دايدي»، لكنه لم يستطع التغلُّب عليها مدة ثلاثة أشهر كاملة.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وكان مما تردَّد في الأهازيج التي تغنَّى بها الأطفال في دولة «تشي» أغنية تقول كلماتها:

«يا للقبعة التي تبدو مثل مذراة القمح،
والرمح الذي مثل عصا يستند إليها الرأس المائل،
قد ضربنا أرض دايدي،
فطاشت الضربات،
وانتثرت فوق الأرض المقابر.»

وهنالك وقع الخوف بقلب «تيان دان»، وذهب إلى لوجون ليان يستفسر منه عن حقائق الأمور، قائلًا: «كنت قد كلمتني يا سيدي بشأن منطقة «دايدي»، وذكرت لي صعوبة مهاجمتها، فهل لي أن أعرف وجهة نظرك في ذلك الموضوع؟» فقال له: «قد لاحظت أنك كنت قائدًا للجيش في إقليم «جيمو»، تتصرف بكثير من التواضع والعزم، فكنت تغزل السلال بنفسك، وتحفر الخنادق بالمعول والجاروف، وتحث جنودك على القتال بقولك: «فلنحمل على أعدائنا! ففيمَ قعودنا وقد تهدَّمت المعابد، وطارت أرواح أهلنا شعاعًا، وتهدمت البيوت!» ولَمَّا كنتَ قد نذرت حياتك فداءً لوطنك، فقد استهان جنودك بالحياة وسلكوا على دربك، عازمِين على خوض المعارك الحاسمة وهم يلوِّحون بأيديهم ويمسحون عار الجبن عن جباههم، وكانت لهم الغلبة آخر المطاف على دولة «يان».»

أما اليوم، وقد صارت لك بالمنطقة الشرقية الإقطاعات التي تُغل عليك المال الوفير (… الضرائب والإيجارات)، وانشغل قلبك بمباهج منظر الأنهار الجارية، وقد تدلَّى فوق ردائك علائق من الحلي والزينة، وتركب الجياد الرامحة في السهول بين الأنهار الجارية [نهري زيشوي، ميان شوي] تبتهج بلذَّة العيش، وتتناسى عن ملاقاة الموت في ساحات القتال، وهو ما لن يمنحك أوسمة النصر بأي حال من الأحوال.»، فقال «تيان دان»: «لكني، منذ اللحظة، عازم على أن يكون النصر حليفي … فاذكر قولي هذا، ولسوف تنبئك الأيام بما قد عزمت عليه!»

وفي اليوم التالي، ذهب في جولة تفقد فيها حشود القوات على الجبهة، وراح يستحثهم على القتال، ويستنهض معنوياتهم، بل قام واقفًا عند حافة خطوط المواجهة مع العدو [حرفيًّا حيث تسقط السهام ويقع النبل!] يضرب طبول الحرب، ولم يمضِ من الزمان الكثير حتى استسلم أهالي داي.

لما قُتل قائد قوات دولة تشي

لما قُتل «شن تشي»، قائد قوات تشي في معركة نهر «بو» [تنطق كما في «البوصيري»]، لم يلبث نائبه «جانغ تسي» أن هرب من الميدان، ولم يبقَ من القادة الكبار سوى «تيان بان»، الذي ذهب إلى الملك شيوان — حاكم تشي — وقال له: «أرى من الأفضل [للخروج من الأزمة] أن نُرسل بفائض الحبوب إلى دولة سونغ، وهو ما ستتلقاه ببالغ السرور ومن ثم يتعذَّر على دولة «وي» عبور أراضي سونغ لمهاجمتنا، واعلم يا مولاي أني ما كنت لأقترح على جلالتكم مثل هذا الرأي في استرضاء دولة سونغ [حرفيًّا: رشوتها] إلا لما هو معلوم من تردِّي أحوالنا في دولة تشي حتى إذا ما بدلتنا الأيام من بعد ضعف قوة، فلَنا أن نُطالب دولة سونغ — حينئذٍ — بتسديد ما عليها من ديْن لنا، فإذا تقاعست عن ذلك صار من الوارد أن نتخذ من موقفها هذا تُكَأة للهجوم عليها.»

لمَّا قُتل الملك مين على يد ناوتشي

لمَّا لقي الملك «مين» — حاكم دولة تشي — حتفه على يد «ناوتشي»، فقد سارع ولده الأمير «فاجان» بتغيير لقبه ونزل في بيت السيد «جياو» كبير مؤرخي الدولة الكائن بمنطقة «إيندي» أجيرًا، وذلك دون أن يتعرف أحد على شخصيته إلا ابنة المؤرخ التي راقبت سلوك وتصرفات هذا الخادم الجديد، وخالجها شعور بأنه ليس كعامة الناس، ثم إنه شغفها حبًّا، فهامت به عشقًا، وانفطر قلبها عليه حنانًا وشفقة، وصارت تُحضر إليه أحسن المأكل والمشرب في الخفاء، وأمسى كلاهما يختليان خلوة الرجل بامرأته.

وكان الوزراء الهاربون من دولة «تشي» قد اختلطوا بأهالي منطقة «إيندي» وأخذوا يبحثون في كل مكان عن الأمير «فاجان»، ولد الملك المقتول «مين»؛ إذ اجتمعت إرادتهم على تنصيبه حاكمًا على دولة «تشي»، خلفًا لأبيه، وحدث أن الأمير «فاجان»، حكى حكايته وكشف عن شخصيته وسيرة حياته لأهالي إيندي، فتعرفوا عليه، واجتمع لديه الوزراء وقاموا بتنصيبه ملكًا على البلاد [فذلك هو الملك المُلقب ب «شيانغ»] فما استقر فوق العرش، حتى أصدر قرارًا بتنصيب ابنة المؤرخ الرسمي ملكة على تشي بوصفها (زوجة الحاكم)، وكانت قد وضعت له مولوده الذي أسماه ب «طاي تشيجيان»، وهنالك تكلم المؤرخ الرسمي السيد جياو، وقد بلغ به الغضب مبلغه قائلًا: «إن الفتاة التي أنا أبوها، قد ارتبطت برجل، دون إقامة مراسيم الزواج على النحو المعهود، فهي ليست ابنتي منذ الآن، ما دامت قد جلبت عليَّ

العار، وداست على كرامة عائلتي ولوَّثت شرف الأسرة الكريمة.» وهكذا، فقد امتنع الرجل عن زيارة ابنته طيلة ما بقِيَ من عمره، أما هي فقد حرصت — وهي زوج الملك الحاكم — على التحلِّي بالخلق الكريم والفضائل الجمَّة؛ إذ بقيت حريصة على التزام قواعد الأخلاق نحو أبيها، على الرغم من مجافاته لها.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

فلمَّا توفي الملك شيانغ، خلَفَه ولده طاي تسيجيان على العرش وكانت جلالة الملكة [زوجة الملك الراحل شيانغ ووالدة الملك القائم] حريصة على القيام بما يراعي مصالح دولة تشين، وتتوخى الحذر في ذلك، حتى عُرفت بين أمراء الدويلات بحفظ العهود، والتمسُّك بالمواثيق، فكان ذلك من بين الأسباب التي ساعدت على بقاء الملك طاي تسيجيان في الحكم مدةً تزيد على الأربعين عامًا، دون أن تتعرَّض بلاده لأهوال الحرب والمعارك. وكان الملك «جاو» — حاكم تشين — قد أوفد الرسل إلى جلالة الملكة الأم بهدية عبارة عن مجموعةٍ من الحلقات المتداخلة في سلسلة مترابطة من الأحجار الكريمة مرفقة برسالة من ملك «تشين» يقول فيها: «أما وقد عرفت أن دولة تشي تُئوي بين جنباتها الكثير من الأذكياء، فهلَّا استطاع أحدهم فك عقدة الحلقات المُتداخلة ليحرز هذا اللغز؟» فعرضت الملكة أمر تلك الحلقات المُلغزة إلى الوزراء علَّهم يهتدون إلى تبيان طلاسمها، فعجزوا عن ذلك. فما كان من الملكة إلا أن تناولت مطرقةً وانهالت بها على الحلقات المتداخلة فتكسَّرت، فقدمت اعتذارها لمبعوثي دولة تشين، قائلة: «لم أجد سوى تلك المطرقة لفكِّ الحلقات بعضها عن بعض.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

لَمَّا اشتدت وطأة المرض على جلالة الملكة، وأوشكت على الموت؛ نصحت للملك جيان بقولها: «احفظ عني أسماء الثقات المُخلِصين من وزرائك، فهم قليل.» وعندما طلب إليها التصريح بأسمائهم وافقته على ذلك، فطلب قلمًا ولوحًا من البامبو ليكتب ما يُملى عليه من وصايا الملكة المُحتضرة، ثم لَمَّا سألها عمَّن تراه موضع ثقةٍ من الوزراء والمسئولين ردت قائلة: «إنها نسيت أسماءهم وما عادت تذكر شيئًا.»

ولَمَّا وافاها الأجل المحتوم، تم تنصيب الوزير «هوشنغ» رئيسًا للوزراء، ثم إنه لم يجد غضاضةً في أن يقبل ما أغدقه عليه جواسيس دولة تشين من الأموال والهدايا الثمينة، وقام

من فوره، بإيفاد الوفود إلى تشين، فلمَّا عادوا تحدَّثوا بلسان التضليل والكذب؛ بعد إذ دبَّروا تدبيرهم وأوقعوا في روع الملك بأن من مصلحته التوجُّه إلى «تشين» لتقديم التحية للعرش الحاكم، وكان الإهمال قد امتد ليشمل أحوال وأدوات الاستعدادات الدفاعية والهجومية للبلاد بأسرها.

لمَّا كان جيان في طريقه إلى دولة «تشين»

لمَّا كان الملك «جيان» — حاكم تشي — في طريقه قاصدًا التوجُّه إلى دولة «تشين» لتقديم دلائل الطاعة والاحترام، فقد أقبل عليه «يونغمن صما»، وقال لجلالته: «أتظنُّ جلالتك أن الناس يُنصِّبون الملوك فوق عروش بلادهم لأجل حماية الأوطان أم لمجرد الرغبة في إقامة التيجان الملكية؟» فأجابه الملك: «بل لحماية الأوطان.» فقال له القائد: «فما دام الأمر كذلك، فما الذي يدعوك يا مولاي لمُغادرة الوطن والذهاب إلى تشين»؟ وهنالك استدار الملك عائدًا إلى القصر.

وظن مدير إقليم «جيمو» أن نزول الملك على وجهة نظر يونغمن، والعمل بنصيحته، علامة طيبة على استعداده لأن يسمع المزيد من الخطط والآراء، فتشجع وذهب لمقابلة جلالته، فلمَّا الْتقى به، قال له: «تعرف يا مولاي أن مُحيط دولة تشي يزيد على بضعة آلاف «لي» وأن عدد المقاتلين من لابسي الدروع يتجاوز المليون مقاتل، وتعرف أيضًا أن مديري المناطق المُسماة بـ «سان جين» قد تركوا المناطق المخصصة لنفوذهم وجاءوا للإقامة في مناطق متاخمة لدولة «تشين»، فما رأيك في أن تجمعهم إلى صفك وتضع في أيديهم العدة والعتاد الكافِيَين لاستعادة مناطق نفوذهم السليبة، وهو الأمر الذي لا تقف دونه الكثير من العقبات، ثم إن عددًا هائلًا من مديري ولايتَي «يان»، و«إينغ» يُبدون السخط والتبرُّم من نفوذ تشين فوق ولاياتهم، ويُعلنون رفضهم الإذعان لسلطة تشين، وهو السبب في مغادرتهم المناطق التي كانوا يرأسونها وتفضيلهم الإقامة في «تشنغ نان شيا» فلماذا لا تُسارع إلى حشد صفوفهم، وشد أزرهم بالقوات اللازمة لاسترداد هيبتهم ونفوذهم، والأرض التي تم اقتطاعها من دولة تشو؟ وهو الأمر الذي لن تجد القوات أي مشقةٍ في تحقيقه، حتى لو كانت المناطق المطلوب استردادها تقع في مضيق «أكوان» فإذا ما تحقَّق هذا كله، فسوف تنعقِد لدولة تشي — تحت سلطانكم — الثقة والهيبة النافذة بين الممالك، وتنخسف الأرض بمملكة تشين الكبرى، فلا تقوم لها بعد ذلك قائمة، ولا أريد لجلالتكم إغفال أهمية هذا الاقتراح، لِما فيه من تقديرٍ عظيم لدوركم ومكانتكم ونفوذكم فليس هناك

أسوأ من الخضوع لإرادة «تشين».» ومع ذلك، فقد أغفل حاكم تشي أهمية الاقتراح وصرف عنه النظر تمامًا.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

أرسلت دولة تشين من طرفها السيدة «تشن تشي» [... يقال إنها إحدى مَحظيات القصر الحاكم لدولة تشي] لإقناع الملك جيان حاكم تشي بضرورة السفر إلى تشين، بزعم أن البلاط الحاكم هناك لدَيه استعداد لعقد اتفاقية يمنح بمُقتضاها دولة «تشي» أرضًا تبلغ مساحتها خمسمائة لي مربع، ولمَّا كان جلالة الملك قد أغفل نصيحة مدير إقليم جيمو، وآثر التصرُّف وفق ما أغرته به السيدة تشن تشي، فقد سافر إلى دولة تشين التي ما إن نزل بأرضها حتى ألقي القبض عليه، وأجبر على الإقامة بإحدى غابات الصنوبر حيث تم تحديد إقامته، فبقِي هناك رهن الاعتقال حتى مات جوعًا. وقيل في الحوادث إنه قُبيل وفاة الملك المحبوس، ذاعت في دولة تشي إحدى الأغنيات التي تقول كلماتها:

«آه منك ... يا شُجيرات الصنوبر ...
قد نزل عندك الملك جيان ... ضيفًا ذات يوم ...
وكان الذين أشاروا عليك باستضافته
هم الضيوف الوافدون إليك من تشي
ذات يوم ...»

لمَّا وقعت المشاحنة بيد دولتي تشي وتشين

صارت دولة «تشي» تشعر ببالِغ الكراهية نحو دولة «تشين» بسبب ما اقترفه «ناوتشي» من التهوُّر والحماقة وعلى إثر ذلك فقد انتهزت دولة «تشين» ذلك الوضع وراحت تجري محاولات لإقامة الوحدة مع دولة تشي؛ فأرسلت «صواجون» إلى تشو، وأوفدت — أيضًا وفي نفس الوقت — مبعوثها «رانقو» إلى دولة تشي. وهنالك اجتمع «تشيمنع» — كبير وزراء تشو — إلى الملك، وقال له: «يبدو لي أن الملك تشاو — حاكم تشين — متلهِّف على إقامة الوحدة مع تشي، أكثر من لهفته على إقامتها مع تشو، وهو إذ يُرسل مبعوثه صواجون إلى جلالتك (في دولة تشو)، فإنما يقصد من ذلك أن يبلغ دولة تشي رسالة فحواها أنه ينظر إلى مصلحته في تقوية العلاقة معكم، بحكم الجوار وهو المعنى الذي يدعم محاولات رسوله

رانقو إلى تشي، في استمالة مُضيفه إلى صفه، ثم إن حاكم تشي سيُسارع، على الفور بتلقُّف ما يَعرضه رانقو عليه من وجهات نظر، خشية أن تسبقه تشو إلى التحالُف مع «تشين» لما تتميَّز به من أنها تقع إلى جوارها مباشرة.

فإذا ما انطلى كلام صواجون على جلالتك، كنت كمن يُقدم خدمة جليلة لمهمَّة رانقو في تشي، حيث ستسارع هذه إلى عقد اتفاق الوحدة مع تشين؛ وهو الأمر الذي إذا ما قَدِّر له أن يتم فسوف يمثل خطورة هائلة لدولة، تشو، أضف إلى ذلك أن ما سيقوله صواجون إلى جلالتك، سيختلف ويتناقض، بالتأكيد، مع ما سيبلغه رانقو إلى تشي؛ ولذلك فالأفضل أن تبلغ دولة تشي بكل ما قيل لك على لسان صواجون، كي تفتح عينَي أهل تشي على مقدار الغش والتضليل الذي جاءهم به رانقو، وهو ما سيعوق قيام الوحدة بين تشين وتشي، وبذلك تتحقق لك مكانة بارزة ويُصبح دورك أكثر أهمية وتتاح لك مجالات اختيارات عديدة ... فإذا أردتَ التحالُف مع تشي ضد تشين، أُتيح لك مهاجمة هذه الأخيرة، لاستعادة منطقة السهول عند مُنخفض نهر «خان»، وإذا ما فكرت في الاستفادة من علاقة الجوار مع تشين لُمحاربة تشي صار من المُمكن استعادة وادي نهر «هواي»، ونهر «سيشوي»،.»

سجل تشو الأول

لَمَّا وقعت العداوة والبغضاء بين دولتي تشي وتشين

لَمَّا وقعت العداوة والبغضاء بين دولتَي تشي وتشين، حاولت دولة سونغ التزام الحياد بينهما، إلا أن تشي أجبرتها على الانحياز إلى صفِّها، فما كان منها إلا الإذعان لإرادة تشي.

فذهب زيشيانغ [أحد مسئولي دولة تشو] للقاء حاكم سونغ، في محاولة لاستنقاذ مصالح بلاده، وقال لجلالته: «كنتم بالنسبة لدولة تشوي فرصة فوز ساحق خسرناه بسبب حرصنا على الاستقامة والنزاهة والخلق الكريم، لكننا تعلَّمنا الدرس من دولة تشي وأدركنا ما لسياسة الضغوط والإجبار من قيمة، وهو ما سوف نلجأ إليه مع دولة سونغ منذ الآن.

ثم إن الانحياز إلى دولة تشي في حربها ضد تشين لن يكون بالضرورة ذا فائدة لدولة سونغ التي ستجد نفسها في مواجهة أكيدة مع الخطر، إذا ما انتصرت تشي على تشين — جدلًا — فأما إذا لم يتحقق لها ذلك الانتصار، فسيكون موقف سونغ مُخزيًا جدًّا؛ لأنها ستبدو — وهي الدولة الصغيرة الضعيفة — مجرد لعبة في يد تشي، لمواجهة دولة كبرى قوية مثل تشين، وعندما تقع دولة صغيرة تحت تأثير الضغط الذي تُمارسه دولتان قويتان (حرفيًّا: تملكان العدة الهائلة والعتاد الوفير) وذلك لتحقيق أغراضهما، يُصبح أمن تلك الدولة في خطر بالِغ.»

عندما قامت الدول الخمس بمهاجمة «تشين»

قام التحالُف بين الدول الخمس: تشو، هان، وي، يان، جاو، وقامت بشن هجوم جماعي ضد تشين فذهب جاويان [قائد جيش تشو إلى جلالة الملك]، وقال له: «إذا تحقَّق النصر

للدول الخمس واستولت على أراضي تشين، فسوف تتَّجِه أنظارها جميعًا صوب الجنوب، ويتطلَّعون إلى اقتسام بلادنا — تشو — فيما بينهم.» فسأله الملك: «فما العمل، إذن، ما دام الأمر كذلك؟» فأجابه: «أرى أن مصير دولة هان مرتبط بما يئول إليه حال دولتنا، وكل منهما يتعلق بمصير الآخر [حرفيًّا: كما بين الأسنان والشفتين] وقد لاحظت أن سياسة هان تقوم على السعي إلى ما فيه مصلحتها، في الوقت الذي تتجنَّب فيه أن تزجَّ بنفسها إلى الكوارث والنكبات.

(وهكذا) فنحن نستطيع أن ننفُذ إلى الثغرة التي تطمح فيها، إلى السعي نحو تأمين مصالحها، فنوقِعها في الزيغ والأوهام، [هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ...] فنأخذ بناصيتها فيما تتجنَّب أن تزج بنفسها إليه من الأزمات فنُدخل في قلبِها الرعب والهلع.

(وتفصيل ذلك ... أننا ...) يمكن أن نغريها بالمال الطائل فنبذل لها الأموال على سبيل الرشوة التي تُحقق لنا نحن أغراضنا، فيبدو الأمر وكأنهم قد حقَّقوا لأنفسهم ما يسعون إليه من المصالح والمنافع الذاتية، فتتخبط قلوبهم في مهاوي الزيغ وترتبك تصوُّراتهم وقد اختلطت بالأوهام، ثم نحرك قواتنا لمهاجمتهم فتتزلزل أعماقهم من الخوف، ومن ثم يجدون أنفسهم أسرى موقف دقيق لا خلاص منه، فهم — من ناحية — ترتعِد أوصالهم هلعًا بسبب ما يَرونه من أسنَّة رماحنا المشرعة، ومن ناحيةٍ أخرى، لا يجدون دفعًا لمصير الخوف بسبب حاجتهم لما نبذله إليهم من الأموال، وبناء على ذلك، فإن أي محاولة تجريها الدول الخمس لمهاجمتنا سوف يكون مصيرها الفشل، وهو ما سيؤدي آخر المطاف إلى انهيار التحالف، مما سيُمكننا من الاحتفاظ بأراضينا دون التفريط في شبر منها لأي جهة، مهما كانت.»

وهنالك وافقه ملك «تشو» على رأيه، وأوفد رئيس وزرائه «طاكون شي» إلى دولة «هان». حيث التقى برئيس وزرائها «كونجون»، وقال له: «لا بد من أن جلالة الملك قد شهد بعيني رأسه ما حدث من وقائع في جبل «نيولان»، وما حلَّ بمنطقة «مالينغ» من نكبات [... لا نجد أية تفاصيل أو إرشادات توضح المقصود بهذه العبارة] ومن ثم فنحن نعرض على جلالته أن نهديه خمس مدنٍ كبرى مقابل أن ينسحب من التحالف المناوئ لدولة «تشين». وسوف تمتثِل قواتنا العسكرية بكامل قيادتها إلى توجيهاتكم وأوامركم، وتضع نفسها تحت تصرفكم، ذلك بهدف الاستيلاء على دولة تشي.»

وحدث في الحوادث أن دولة تشي امتنعت عن مهاجمة «تشين»، دون أن تُبلغ ذلك علانية لحليفتيها: دولة جاو، ودولة وي. ولم تنجز تشو وعدَها بإعطاء ما وعدت به من مدن إلى دولة هان، وهكذا وقع تحالُف الدول الخمس المهاجمة لـ «تشين في مأزق كبير».

لمَّا اجتمع ملك تشو مع الوزراء

التقى الملك «شيوان» حاكم تشو مع وزرائه، وسألهم: «بلغَني أن كل دول الشمال صارت ترتعِد خوفًا من رئيس وزرائنا (الصدر الأعظم: جاو شيشو) فهل هذا الأمر صحيح؟ فسكت الوزراء جميعًا وتكلَّم «جيانغي» [من مواطني دولة وي، انتقل ليعمل في بلاط تشو واحدًا من كبار المسئولين]، فقال: «(مما يُذكر في الحكايات ...) أن نمرًا أراد افتراس الوحوش فهجم عليهم فوقع في قبضتِه أحد الثعالِب، فوقف النمر وقال له: لا أظنك تجرؤ على افتراسي أيها السيد الكريم، فقد رفعتني السماء ملكًا فوق الوحوش جميعًا، فإذا دار بخلدك الوثوب عليَّ كنت كمن يجترئ على إرادة السماء، ولا أخالك تُكذبني وإلا فها أنا ذا أسير أمامك وأنت تتبعني، نمرق وسط صفوف الوحش والطير، وسوف تشهد بنفسك أنهم سيفرُّون من أمامي لهيبتي وعظيم مكانتي فيهم ... فوثق النمر في كلامه وسار خلفه، ودخل الغابة، فكانت الوحوش تهرب من الطرقات وتفزع في كل اتجاهٍ وقد ولَّت أدبارها رعبًا وهلعًا، ولم يدْرِ النمر أن الوحوش فرَّت خوفًا منه، لا من الثعلب، فانظر، وتأمَّل الأمر جيدًا — يا مولاي — واعلم أنك تبسط سلطانك فوق أرضٍ يبلغ مُحيطها خمسة آلاف لي، وقد بلغ عدد المقاتلين في جيشك من لابسي الدروع خمسة ملايين جندي، جعلت سلطة الأمر والنهي فيهم صادرة عن جاوشيشو، فلذلك وقعت هيبته في نفوس أهل الشمال جميعًا. ولئن صار له من عظيم المكانة على نحو ما ترى فإنما الهيبة لجلالتك ولجيشك وقواتك الضاربة، تمامًا مثلما كان الرعب والفزع الذي قصصتُ عليك قصته آنفًا، راجعًا لشدة بأس النمر وعظيم مهابته.»

لمَّا تناظر «جاو شيشو» مع «بن شن جون»

قامت مناظرة بين «جاوشيشو» «وبن شن جون» [أحد مواطني تشو] في حضور ملك تشو، كان موضوعها يتناول الأمور الكبرى ذات الأهمية المُتعلقة بسياسات البلاد، ومال الملك على «جيانغي»، وسأله عن رأيه فيما دار بين الرجلَين من جدل، فأجابه: «قد تكلَّما بأحسن ما يكون من فنون الكلام، لدرجة أني أستطيع الجزم — بعد إذنك يا مولاي — بأنه لا مزيد على قولهما [... يقصد أنه لا يجد عنده ما يمكن أن يُضيفه من آراء، وهي صياغة تهكُّمية مغلفة بالتواضع والتوسُّل بأدب الحديث ...] فذلك ما يُقال له تنقية صدر الملك من أسباب الشك في كلام الحُكماء.»

لمَّا وقعت معركة هاندان

لمَّا وقعت معركة «هاندان»، ذهب «جاوشيشو» إلى الملك «شيوان» حاكم «تشو»، وقال له: «أرى أنه من الأفضل ألا نمدَّ يد العون إلى دولة جاو، بل نُعطي الفرصة لدولة وي كي تحشد كل قواتها (لضرب جاو)؛ باعتبار أن تعاظُم قوة هذه الأخيرة سيُمكنها من اقتطاع الكثير من أراضي غريمتها جاو، فإذا بدا أنها لن تستسلِم للأمور بكل سهولة، فسوف نُثابر على سياستنا تجاهها بغَير أدنى تبديل، وهو ما سيؤدِّي إلى استنزافهما معًا.»

وتكلَّم «جينشه» [وزير عظيم بدولة تشي] قائلًا: «هذا التصوُّر غير صحيح مُطلقًا، وليس فيما قاله جاوشيشو أي قدْر من النجابة أو الحكمة؛ ذلك أنه بينما تقوم دولة وي بمهاجمة جاو، فسيداخلها القلق من أن نستغل نحن ذلك الموقف في تشو ونُباغتها بالهجوم من حيث لا تدري، هذا من جانب، أما من جانبٍ آخر، فإذا لم نُبادر إلى مساعدة دولة جاو، فسوف تعتريها أعراض الضعف وتوشِك على الانهيار، فإذا أضفْنا إلى ذلك إقدام دولة وي على ضرب جاو دون أن تنتابها الهواجس بأن تشو سوف تنتهز الفرصة، وتنقض عليها من الخلف فمعنى ذلك أن تشو هي الأخرى، تدعم الهجوم ضد جاو، فكأنها تضع يدَها بيد وي لمحاربة جاو، وهو ما يُعرِّض هذه الأخيرة لخطرٍ داهم لا قبل لها به. فما الذي يدعو سيادته إلى القول إننا سننتظر لنرى كلتا الدولتَين تستنزفان طاقتَيهما معًا؟ ناهيك عن أن وي قد أصدرت الأمر إلى قواتها باقتطاع أكبر قدرٍ ممكن من أراضي جاو التي إذا ما استشعرت نُذر الهلاك والانهيار التام، وقد أيقنت في أعماقها بامتناع تشو عن مساعدتها، في هذه الأزمة المُستحكمة، فلا بد أنها، حينئذٍ ستُسارع إلى التحالُف مع وي للتآمُر ضدنا (ضد تشو) لهذا كله، أرى أنه من الأفضل يا مولاي، أن تتفضَّل جلالتك بتقديم قدْرٍ محدود من القوات لمساعدة جاو، ومن المُتوقَّع أنها عندما تشعر بأن تشو، بكل قواتها وعتادها، يمكن أن تساندها في مِحنتها، فسوف تستميت في القتال مع وي، وبالتالي فإن هذه الأخيرة عندما تلمس روح التحدِّي والعناد من جانب تشو فسوف تثور غضبتها، لكنها إذ تُدرك أن حجم المساعدة الذي تتفضل به تشو على جاو ضئيل جدًّا، ولا يُشكل أي عقبة في طريقها، فسوف تمضي في محاولة القضاء على وي.

عندئذٍ فقط، سيلتحِم الطرفان: دولة جاو، ودولة وي في صراع، يستنزف آخر قطرة من دمائهما، ولا بد أن كُلًّا من دولتي تشين وتشي وقد علِمنا بما تُقدمه تشو من مساعدة إلى جاو، سوف تنتهزان الفرصة وتهجمان على دولة وي فينشبان أظفارهما في جسدها حتى تلقى هزيمة نكراء على يديهما.»

وهكذا، فقد أوفد حاكم تشو، وزيره الأعظم جينشه؛ لقيادة القوات التي أرسلها لمساندة دولة جاو، فلمَّا سقطت عاصمتها هاندان في يد دولة وي، سارعت قوات تشو بالاستيلاء على الأرض الواقعة في أرض جاو بين نهري «صوي»، و«ويشوي» وهي أرض كبيرة المساحة جدًّا.

لمَّا حاول جيانغي أن يُوغر صدر الملك

أراد جيانغي أن يوغِر صدر الملك على جاوشيشو، إلا أنه لو قام بمحاولته منفردًا، لما استجاب له الملك، ولقصرت همَّته دون ما يسعى إليه، فذهب للقاء جلالته وقدَّم طلبًا باسم الماجد «شان يانجون» [أحد مواطني دولة وي]، يرجو فيه الإنعام عليه بمنحة ملكية [أن يقطعه الملك الإقطاعات الكبرى، ويمنحه ألقاب الشرف]، فلم يُبدِ جلالته أدنى اعتراضٍ (من حيث المبدأ)، لكن جاوشيشو احتج على هذا الأمر، بقوله ... «إن شان يانجون لم يُقدم لدولة تشو من الخدمات الجليلة أو المآثر العظيمة ما يُوجِب له التمتع، أو الحصول على شيء مما يزمع الملك منحه إياه.» وهكذا عثر جيانغي على ضالته؛ إذ كسب إلى صفه شان يانجون بما أثار في نفسه من شعور بالامتنان، وأصبح كلاهما يبغض جاوشيشو أشد البغض والكراهية».

لمَّا تكلم الضيف القادم من دولة وي

وتكلم الضيف القادم من دولة وي، أمام الملك شيوان حاكم تشو، بما احتشد في صدره من ضغائن ضد جاوشيشو، ثم لم يلبث الملك نفسه حين التقى به، فيما بعد، أن حكى له ما حدث، فعلق بقوله: «ها أنت ترى جلالتك بأني أسمع وأطيع ما تأمُرني به وأقوم على خدمتك — ليل نهار (دون أن تُجرب عليَّ ما يُغضبك مني) — ثم يأتي ذلك الرجل القادم من دولة وي ليُثير البلبلة والفتنة، وقد داخلني شعور بالخوف، لا أدري كُنهه، ولست أخاف ذلك القادم من وي، ذلك الذي يبذُر الشقاق بيننا، وينشر الأكاذيب في أرجاء الممالك، فمثل ذلك الصنف من الناس هم المفسدون الساعون إلى الشر دائمًا، وإذا كان واحد — كهذا من الغرباء — لم يجد أدنى صعوبة في السعي بالشر بيننا، فما بال جلالتك بذوي النوايا السيئة والأغراض الدنيئة من مواطني بلدنا! أتظن أنهم يقصرون عن السير على ذات المنهاج؟ وما أرى إلا أنهم سيسلكون على منوال الضيف في أقرب وقت.» فقال له الملك: «قد وعيتُ كل ما ذكرتَ وأدركتُ حقيقة الأمور، ولا أدري ما الذي يدعوك إلى كل هذا القلق؟»

لَمَّا كان جيانغي يبغض جاوشيشو

كان جيانغي يمقُت جاوشيشو غاية المقت، فلما تكلَّم مع الملك شيوان، قال: «بلغني يا مولاي، أن رجلًا كان يقتني كلبًا يُقعي عند باب بيته، وكان يدلِّله ويُحبه لأنه يحرس منزله، وحدث أن الكلب نزل إلى بئر فتبول فيها، ورآه أحد الجيران، فراح ليُخبر صاحبه بما وقع منه، فوقف له الكلب عند باب البيت بالمرصاد يُريد أن يفتك به، فخاف الرجل على نفسه ضراوة الكلب فتراجع عما كان ينوي من إبلاغ سيد البيت حقيقة ما خفي عنه.

ما أودُّ أن أقوله لك يا سيدي هو أنه أثناء موقعة هاندان قامت قواتنا بشن الغارة على تلك العاصمة الكبرى، وتمكنت من احتلالها، وانتهز جاوشيشو الفرصة، فاستولى على الكثير من الكنوز والمجوهرات الثمينة بدولة وي، ولأني كنت مُقيمًا، وقتئذٍ بالعاصمة المنكوبة، فقد أُتيح لي أن أعرف دقائق الأمور بوضوح كافٍ؛ وهو الأمر الذي أثار سخط جاوشيشو عليَّ، فأضمر لي الحقد، وحال بيني وبين لقائي بجلالتك.»

لَمَّا قرر جيانغي أن يشوِّه سمعة جاوشيشو

راح جيانغي يتدبَّر الحِيل لتشويه سمعة جاوشيشو في كل أنحاء دولة تشو، ثم إنه قصد إلى الملك شيوان، وقال له: «اعلم يا مولاي أنه إذا أقامت الدهماء لنفسها زمرة تستعين بها على قضاء مصالحها، صار عِلية القوم في خطر ماحق، لكن عندما يتورَّط أسافل الناس في صراعاتهم المُتبادلة، وتطحنهم الأطماع والمنافسات، يحلُّ الهدوء والسلام على الوجهاء وأماثل الناس، وأرجو من جلالتك ألا تغفل عن هذه الحقيقة ما حييت. واسمح لي أن أسأل جلالتك: ما ظنُّك بمن يُحب أن يذيع على الملأ فضائل الناس ويشيد بمناقبهم وخصالهم الحسنة؟ فأجابه الملك: «ذلك هو الماجد الكريم، ولا بد من أن نسعى إلى صحبته.» فسأله: «فما قولك فيمن يجتهد في إنشاء مثالب الناس والجهر بقبائحهم؟» فأجابه: «فذلك هو الدنيء الحقير الذي نتناءى عن مجالسته.» فقال جيانغي: «ومع ذلك، فهناك — من بين الناس — الابن القاتل أباه وأمَّه، وهناك أيضًا الوزير السافك دم سيدِه الملك، ثم إنك لا تعلم شيئًا من ذلك كله يا جلالة الملك، أتعرف السبب في احتِجاب معرفة ذلك عنك؟ السبب هو أن جلالتك لا تُريد إلا سماع الأخبار الطيبة، وتبغض الاطلاع على شرِّ الأنباء والحوادث الدائرة بين الناس.» وهنا، قال له الملك:

«فلا مانع إذن، من أن أنصت إلى كل طيب وخبيث من أخبار الناس.»

لمَّا كان جيانغي يشرح وجهات نظره السياسية

راح جيانغي يشرح بعض وجهات نظره السياسية للوزير المُقرب من البلاط الحاكم، في تشو [الوزير آن ليجون] قائلًا له: «أراك تحصل على راتبٍ كبير، وتشغل منصبًا رفيعًا، وذلك دون أن يكون لك في سجل المآثر والخدمات الجليلة شيءٌ يذكر، ودون أن تربطك بجلالة الملك وشائج القربى أو صلة الدم، وهو الأمر الذي يدهش له الناس في أرجاء البلاد، خصوصًا أنك لا تجيد القيام بطقوس الاحترام اللائق بين يدي الملك، مما يدفعهم للتساؤل عن السبب في المزايا التي تَحظى بها على الرغم من كل ذلك.» فأجابه آن لينجون: «الأمر كله لا يزيد عن أن جلالته قد تكرم عليَّ بمنصب يفوق ما أستحقُّه بعض الشيء، وليس هناك أية أسباب أخرى غير ذلك.» وهنالك قال له جيانغي: «إن من يعتمدون على المال في إقامة علاقاتهم الاجتماعية مع الناس والتودُّد إليهم يأتي عليهم زمان تُبدَّد فيه الأموال، فينقطع ما أقاموه من ودٍّ جميل، وإذا كان الجمال وسيلة لأَسْر القلوب، فإن الجمال يذوي وينقشِع، فتتبدل القلوب؛ ولطالما تناءى قلب المُحب عن عشق امرأة جميلة قبيل انتهاء مأدبة ساهرة، وكثيرًا ما تبدَّدت الثقة في أحد رجال الحكم قبل أن يجفَّ المداد فوق أوراق تعيينه، وإني لأنظر إلى حالك فأجدك قد تقلدتَ زمام السلطة في أكثر المواقع أهمية بالبلاط الحاكم، ومع ذلك فأنت تتقاعس عن توطيد العلاقة مع جلالة الملك، مما يُمثل تهديدًا محتملًا لموقعك في المستقبل. فسأله آن لينجون قائلًا: فما العمل إذن ما دام الأمر على ما ذكرت؟» فأجابه: «ليتك تتقدَّم إلى جلالته راجيًا أن تبقى في خدمته حتى الموت، بل حتى بعد الموت؛ إذ تطلب منه أن يسمح بدفن رفاتك في مقبرته، أملًا في البقاء إلى جواره على طول المدى، فتلك هي الطريقة التي تضمن لك البقاء في منصبك داخل بلاط آل تشو الحاكم، لفترةٍ طويلة.» وهنا قال الرجل: و«إني لأقبل توجيهاتك بكل احترام وتبجيل.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

ومرَّت ثلاث سنوات دون أن يتصرف «آن لينجون» حسب ما أوصاه به جيانغي، فلما التقى هذا به، قال له «ما لي أراك قد أغضيتَ الطرف عن العمل بمُقتضى ما نصحتُ لك، وكأن كل ما دبرتُ لك من الحيل كان مجرد كلام بغَير طائل؟! فاعلم أني لن أحضر إليك هنا البتة، ما لم تعمل بما خططتُ لك.» فقال له آن لينجون: «إن نسيت فلن أنسى فضلك عليَّ، ونُصحك لي، فأنا لم أغفل عما دبرتَ لي من حِيَل، لكني لم أجد الفُرصة السانحة حتى الآن.»

ثم لم يلبث الملك شيوان حاكم تشو، أن خرج في رحلة صيدٍ في بحيرة «يونمن» وفي إثره سارت مواكب العربات والخيول المُطهمة، بينما ارتفعت الأعلام والرايات من كل صنفٍ حتى كادت تحجب نور الشمس، فلمَّا جن الليل، صارت ألسنة النار فوق المشاعل تُضيء الآفاق بألوانٍ بديعة كأنها قوس قزح، وفي كل الأنحاء، تردَّدت صيحات النمور، وعواء الوحوش، كأنها الرعد يُزلزل أركان البرية، ثم طلع من جوف الليل سبعٌ ضارٍ وهجم على موكب الملك، فنزع جلالته السهم وضرب عن قوسه فأصاب الوحش برميةٍ قاتلة، فخلع الملك قصبة إحدى الرايات القريبة منه وراح يضرب بكعبها رأس السبع المُحتضر وهو يضحك، ويقول في شيء من السخرية: «ما أسعد حظنا إذ ظفرنا الليلة بصيدٍ هانئ وأجمل ما في هذه الرحلة هو تلك الصحبة الطيبة! تُرى، هل يجد المرء مثل تلك السعادة بعد الموت؟» فلما سمع آن لينجون قول الملك، بكى وتحدَّرت دموعه على وجنتَيه، واقترب من الملك وهو يقول: «… قد دخلت قصرك يا مولاي وجلست قرب مجلسك فكنتُ في صحبتك في السراء والضراء، داخل القصر وخارجه، فلم أفارقك لحظة، وليتني إذا ما نقضي من زمان الملك العمر الطويل [… إذا ما توفي الملك (حرفيًّا) بعد عشرة آلاف سنة …] أموت وأدفن معك، ليت رفاتي بعد مماتي تنتثر تحت جسدك النبيل تقيك شرَّ الهوام والنمل والزواحف، وليس أهنأ لقلوبنا إلا أن تسعد بنا في الحياة وبعد الحياة.» وقد ابتهج الملك للغاية، وأنعم على «آن لينجون» باللقب النبيل.

فلمَّا علم الناس بذلك، قالوا: «هذا دليل على أن جيانغي هو أبرع مُخطط سياسي، بينما «آن لينجون» هو أحسن من يُجيد انتهاز الفرصة السانحة».

لمَّا حضر جيانغي إلى دولة تشو مبعوثًا

قبل أن يستقر الحال بـ «جيانغي» مسئولًا رسميًّا في دولة تشو، كان قد حضر إليها، فيما مضى، مبعوثًا رسميًّا من دولة وي، وكان قد تحدَّث إلى الملك شيوان، فقال له: «لمَّا وطئت قدماي أرض بلادكم، سمعتُ أن عندكم تقليدًا عجيبًا وهو أنكم لا تحجبون ما تعلمونه في الناس من مزايا وحسنات، ولا تذيعون — فيما بينكم — مساوئهم، فهل الأمر على ما سمعت؟» فلمَّا رد عليه الملك بالإيجاب قال له: «فما دام الأمر هكذا، فلعلَّ الأمير بايكون قد أفلت بما جلبه من نكبات [… والأمير بايكون هو ولد أحد أمراء تشو السابقين وكان قد هرب إثر مقتل أبيه إلى دولة أو، فأعاده أحد حكام تشو إلى البلاد وخلع عليه وأكرم وفادته] ولعل الوزراء إذا وقعوا في أوجه التقصير وجدوا لديكم العفو والتسامح.» فسأله

الملك عن السبب في قوله هذا، فأجابه: «كان «جوهو» [أحد الوزراء المُقربين من البلاط الحاكم في تشو] يتفانى في العمل لمصلحة دولة تشو، حتى بلغ درجةً عالية من الرفعة، ثم إنه كلما ترقَّى في درجات الشرف، زادت سطوته وسلطاته، فصار له القول الفصل دون غيره فطغى وتجبَّر، ومع ذلك، فقد أخذ الناس من حوله يقولون عنه إنه «... ليس على الأرض كلها من يُدانيه مكانة وشرفًا» وهو القول الذي اتفق الجميع عليه، حتى كأن الأفواه كلها نطقت بلسان واحد.»

لمَّا أقيمت دعوى قضائية ضد أحد مواطني مدينة إينغ

أقيمت دعوى قضائية ضد أحد سكان مدينة إينغ، ولم يُبت فيها لمدة ثلاث سنوات، فاتفق مع واحدٍ من الناس أن يدَّعي أنه يريد شراء منزل الرجل المُتحفظ عليه رهن المحاكمة [وكان القانون الصيني القديم يُخول للسلطات حق مصادرة منازل المحكوم عليهم والتصرُّف فيها بالبيع، فإذا لم يصدر ضد المُتهم حكم إدانة امتنع التصرُّف في أملاكه ليتبيَّن له إن كان مُذنبًا من عدمه (... ففي حالة رفض طلب الشراء، كان ذلك دليلًا على أن الرجل قد تُبرأ ساحته ويُخلى سبيله)، فذهب الرجل الذي يزعم شراء المنزل، إلى جاوشيشو، وقال له: «أريد شراء منزل الرجل المدعو (فلان) المقيم بمدينة إينغ». فأجابه: «إن الرجل المشار إليه ليس محل إدانة، وبالتالي فهو غير مُستحق لأي عقاب ضدَّه، ولذلك فلن يُمكنك شراء منزلة.» فقام الرجل المُتظاهر بالشراء مُعتذرًا وأراد الانصراف. وفي الحال أدرك جاوشيشو أنه تسرع فيما صرَّح به من القول، فعضَّ على أصابعه من الندم، وقال للرجل «... إنني، في كل الأحوال، أريد أن أساعدك، حتى دون أن تأتي إليَّ متعللًا بحجة شراء منزل. سعيًا للكشف عن نواياي». فأجابه: «كلَّا، لم أتعلَّل بأية حجة للكشف عن أي شيء». فقال له شيشو: «قل لي — من فضلك — ما معنى أن يأتيك سائل يسألك شيئًا، ثم إذا رفضت طلبه، انفرجت أساريره وتهلل وجهه ... إن لم يكن ذلك ادعاء مكشوفًا وتصنعًا ظاهرًا، فماذا يكون إذن؟»‌.

لمَّا خرج تشين هوي من دولة جو ليجوب البلاد

لمَّا خرج تشن هوي من دولة جو ليجوب الأقطار المختلفة داعيًا إلى أفكاره وخططه السياسية، الْتقى في طريقه باثنين من رفاق السفر، فسار ثلاثتهم نحو الجنوب حتى بلغوا دولة تشو، فدخلوها وشقُّوا طريقهم صوب مدينة «شين تشنغ».

والتقى «تشن هوي» برئيس المدينة، فانتهز الفرصة وراح يعرض عليه ما في جعبته من التصورات والخطط السياسية، قائلًا: «إن دولتي، جنغ، ووي، يُنظر إليهما، من جانب بلادكم، بوصفهما دونكم في القوة والتسلح، وليس هناك سوى دولة تشين هي الوحيدة التي تمثل أكبر عدوٍّ لكم، ولئن قلت لك إن دولتي جنغ ووي، ضعيفتان، فلأنكم في تشو تستطيعون مواجهتهما بقواتكم المرابطة في شانليان، ثم إنكم تقدرون أيضًا على مواجهة قوات إيانغ القوية التابعة لدولة تشين بدفاعات منطقة «شين تشنغ» على تواضع قدراتها، وتستطيع تشين في ليلة واحدة، أن تشن هجومًا مباغتًا ضد مدينتي «بوبان»، و«بين يان» [في دولة وي] على الرغم مما بينهما من مسافة تبلغ مائة لي، وذلك دون أن تشعر عاصمة وي [آني] بما حدث من اعتداء على أراضي البلاد، كما تقدر تشين أيضًا على مباغتة مدينتي شين تشنغ، وشانليان بالهجوم الساحق، على الرغم مما ما يفصل بين هاتين المدينتَين من مسافة قدرُها خمسمائة لي [... خطأ في الأصل والصحيح أن المسافة تبلغ مائة لي فقط]؛ وذلك قبل أن تفيق شانليان من دهشتها، ثم إني نظرت فرأيتُ أن المدن الحدودية لديكم ليس لها ظهير قوي تستند إليه، ولا يمكن اعتبار منطقة «جيانان» ولا نهر سيشوي سندًا يعتدُّ به، فما الذي يمنع حاكم تشو من أن يجعل من مدينة «شين تشنغ» ولاية مركزية، بحيث تصبح ذات قيمة دفاعية للمدن الواقعة على الحدود؟»

فلمَّا علم رئيس مدينة شين تشنغ بذلك فرح للغاية، وجهز عربةً عسكرية تجرها أربعة جياد ليركبها تشن هوي في تنقُّلاته وأنعم عليه وأعطاه خمسمائة ليوانغ وزنة من الذهب ليستعين بها على نفقات السفر والترحال. وكان من نتيجة ذلك أن توثقت عُرى الصداقة بين تشن هوي ودولة تشو، ثم إن حاكم البلاد أخذ بنصيحته وجعل من مدينة شين تشنغ واحدة من أهم الولايات المركزية في طول المملكة وعرضها.»

لمَّا كان كونشو يتمتع بتأييدِ دولتي تشي ووي

كان كونشو [أحد الوزراء العظام بدولة هان] يتمتع بتأييد دولتي تشي، وي، بينما كان أمير البلاد نفسه يحظى بمساندة دولتي تشين، تشو، (وعلى خلفية تلك الاعتبارات) راح كلاهما يتنافسان لشغل منصب رئيس الوزراء. فلما ذهب وزير دولة تشو الأعظم، جنشن موفدًا — في مهمة رسمية — إلى دولة هان، زعم كذبًا في تصريح له، بأن جلالة الملك هواي حاكم تشو قد أمر بمنح إقطاعات مدينتي «شين تشنغ» و«يانغ رن» لسمو الأمير، فلمَّا علم جلالته بذلك غضب بشدة وشرع في اتخاذ إجراءٍ عقابي صارم ضد الوزير الأعظم،

الذي ما إن عرف ذلك حتى ذهب إلى الملك، وقال له: «اعلم يا مولاي أني ما ادعيتُ كذبًا أن جلالتك قد منحت إقطاع تَيْنِكَ المدينتَين لسمو الأمير إلا لما فيه مصلحة البلاد، قلت إن ولي عهد دولتنا قد حصل على إقطاع شين تشنغ ويانغ رن، لأنه يَتنازع مع كونشو حول اختصاصات رئيس الوزراء، ومثل هذا التصريح الذي صدر عنى كفيل بأن يدفع دولتي «تشي» و«وي» لمهاجمة بلادنا (هان)، فتقع في مأزق شديد التعقيد، مما سيدفعنا إلى تعليق مصائرنا بيد دولة تشو، فهل نجسر إذا ما وجدنا أنفسنا نستنجِد بتشو لحمايتنا أن نُطالبها بردِّ مدينتي «شين تشنغ» و«يانغ رن» إلى أراضينا فهما، أساسًا، تتبعان دولة هان ... فإذا لم يستطع سمو الأمير الفوز برئاسة مجلس الوزراء والتفوُّق على غريمه كونشو، ثم حالفه الحظ وأفلت من براثن الموت [هكذا] فلا بد أننا سنقلب القبعة رأسًا على عقب [... يعني سنسرع في لهفة] ونطلب تأييد ونصرة «تشو» لنا، وهو ما يعني استحالة أن نطالبها برد أراضينا التي استولت عليها.» ... وهنالك استصوب الملك رأيه وأعفاه مما كان مقررًا من العقاب.

لمَّا نصح «دوها» لحاكم تشو بسرعة التقدم

كان المدعو «دوها» [من مواطني تشو] قد نصح للملك بالسعي للحصول على مساندة وتأييد دولة جاو، وأراد جلالته أن يُهديه اللقب الفخري (أوطافو) [... رتبة الشرف الخامسة] ويفوِّضه سلطة التصرُّف في الأمور دون الرجوع إليه.

وهنالك ذهب «تشين جن» إلى الملك، وقال له: «اعلم أنه إذا عجز «دوها» عن أن يحصل على مساندة دولة جاو، فلن يُمكنك أن تسترد ما منحته إيَّاه من مراتب الشرف، وتصبح كمن أنعم بأثمن الجوائز على من لم يُقدم للبلاد أية خدمة جليلة، أو مأثرة خالدة؛ أما إذا استطاع أن ينال تأييد جاو لجلالتك فسوف تكون مُطالبًا بأن تقدِّم له ما هو أعظم من مجرد منح الألقاب الفخرية، فإن لم تفعل، فستبدو وكأنك لم تُكافئه بشيء، وأرى أن أفضل ما يمكن أن تفعله هو أن تُعطيه عشر عربات عسكرية وتكلِّفه بعمل اللازم للحصول على مساندة دولة جاو، فإذا نجح في مسعاه منحته لقب الشرف.» ووافقه الملك على رأيه، وأعطى الرجل عشر عربات عسكرية مُطالِبًا إيَّاه باتخاذ اللازم لضمان تأييد جاو، لكن دوها لم يُعجبه ما بلغه من الملك، فغضب وتراجع عن فكرة الذهاب إلى جاو. وذهب تشن جن إلى الملك، وقال له: «ها قد لمستَ بنفسك مدى عجز صاحبنا عن الحصول على تأييد دولة جاو».

لمَّا ألقى تشو سؤالًا

ألقى الملك هواي — حاكم تشو — سؤالًا على المدعو فانهوان، قائلًا: «أريد أن أُعد ترتيبات لتنصيب رئيس وزراء تابع لنا في البلاط الحاكم بدولة تشين، فمن تراه الأنسب لشغل هذا الموقع؟» فأجابه، قائلًا: «لا أستطيع أن أُحدد فردًا بعينِه.» فقال الملك: «فما رأيك في أن أُكلف كانماو بهذه المهمة؟» فردَّ عليه فانهوان بالنفي، فلما سأله الملك عن السبب في اعتراضه هذا، قال له: «قد علمت أن «شيجوي» [أستاذ كانماو ومُعلمه الأول] كان يعمل بوابًا في منطقة «شان تساي»، فهو لا يدري شيئًا عن أصول العمل في خدمة الملوك ولا علم له — في أقل القليل — عن الأمور المعيشية البسيطة لعامة الناس (ومع ذلك) فقد اشتهر بالنزاهة والأمانة في أنحاء البلاد، وقد تطبع كانماو بطبعه على مدى السنوات التي عمل فيها مساعدًا له، ولربما كان أنسب أن يعمل في خدمة رجل فاضل حكيم مثل الملك هوي، ورجل ذكي البصيرة مثل الملك أو، ومسئول حكومي بارز شغوف بذكر مثالب الناس هو كانماو نفسه، ومهما تعدَّدت الوظائف التي يُمارسها فلن يجرب عليه أحد تجاوزًا أو خروجًا عن القوانين والأصول المتَّبعة، فقد عهدت فيه كفاية الفضل وتمام الخلق، ومع هذا فلا يصح أن تبعث به ليتولَّى منصب رئيس الوزراء، إن وجود رئيس وزراء يتحلى بالكفاءة وحُسن الخلق في دولة تشين، لن يكون بالضرورة مفيدًا لنا في دولة تشو. وقد سبق أن أرسلت «جاوهوا» مبعوثًا إلى دولة يوي ليتولى منصب رئيس الوزراء هناك وحدث ما حدث من تطورات أوصلت إلى قبولنا بضمِّ أراضي جيوجان؛ مما أدى في آخر الأمر إلى زجِّ قائد الجيش «تان مى» في أزمات ومصاعب لا حصر لها. (واعلم يا مولاي) أن وقوع دولة يوى في مُستنقع الاضطرابات الداخلية، يُمكِّن تشو من التقدُّم نحو الجنوب للحصول على أرض «لاي خو» وتحويل منطقة شرق النهر إلى ولاية كبرى. ولتحسب الأمر — يا مولاي — من هذه الزاوية؛ لأن ما بلغتموه جلالتكم من النفوذ والسطوة إنما كان بفضل ما وقعت فيه يوي من اضطراباتٍ داخلية، وها أنت اليوم تضرب صفحًا عن تعامل «تشين» بما سبق أن عاملت به دولة يوي، أو ربما أنك قد نسيت ما اتخذته من سياسات سابقة، لما أصاب جلالتك من داء النسيان [هكذا]. فلئن كنت تريد حقًّا أن تُعِد العدة لتنصيب رئيس وزراء لدولة تشين، فالأنسب لهذا الغرَض هو ذلك المدعو «كونسون هاو» [رئيس وزراء تشو]؛ ذلك أن علاقته بملك تشين على خير ما يُرام، فقد كان صاحب سِني صباه الأولى؛ (إذ عاش بصحبته …) يرتدي مثل ملابسه، فلمَّا بلغا سِن النضج، صارا يركبان العربة الملكية جنبًا إلى جنب، بل كان كونسون هاو يرتدي الزي الملكي ويباشر إدارة الشئون العامة، دون أن

يخلع شارة الملك، فذلك هو الرجل الذي أرى أن يقع عليه اختيارك لإيفاده بغرض تولِّي منصب رئاسة الوزراء، وهو الأمر الذي إذا تحقق، على النحو الذي تُريده، فسوف يعود ببالِغ النفع على دولة تشو.»

لمَّا راح سوتشين يعمل على نشر سياسة التحالف

أخذ سوتشين يُعِد العدة لتوسيع نطاق سياسة دولة جاو القائمة على التحالف الرأسي [وذلك في عام ٣٣٣ق.م، حيث ائتلفت الدول الضعيفة في كتلةٍ مناوئة للدول القوية، وهي الدول الست التي اتَّحدت في جبهةٍ واحدة ضد تشين]، فذهب للقاء حاكم دولة «وي»، داعيًّا إلى الدخول في صف التحالُف، وقال له: «إن دولة «تشو» أقوى مملكة تحت السماء (… بين الممالك)، وأنت سيدي الحاكم، أوفر الملوك حكمةً وأعظمهم حلمًا (وإذا تأمَّلنا أحوال دولة تشو، وجدنا أنها …) ذات أراضٍ شاسعة، تمتد غربًا فتشمل مناطق «تشيان جون»، و«أوجون» وفي شرقها توجَد مناطق «شياتشو»، و«خايانغ»، وفي الجنوب تشمل «دون تين»، و«تصانغو» وإلى الشمال من أراضيها تمتد حصون «فن تشيو» و«جيتشان»، و«شون يانغ». ويبلغ محيطها خمسة آلاف لي، وفي جيشها مليون مقاتل من لابسي الدروع، بالإضافة إلى ألف عربة حربية وعشرة آلاف من الجياد المدربة على خوض القتال، وفي خزائنها ما يكفي عشر سنوات من الحبوب فتلك كلها عناصر أساسية تؤهلها لمكانة الدولة العظمى، وأرى أن ما لدَيك من الحكمة والحلم إذا ما انضمَّ إلى قوة ورهبة دولة تشو، فسينتج ائتلافًا لا تجرؤ أعتى الممالك على مواجهته، لكنك إذ تُفكر الآن في الذهاب غربًا إلى دولة تشين لخدمة أغراضها وتلبية مطالبها، فسيحذو حذوك كل الأمراء، ولن يتأخَّر أحد منهم عن التوجُّه إلى عتبات القصر الملكي في تشين لتقديم أسمى آيات العرفان. إن دولة تشين لا تحسد بلدًا على ظهر الأرض قدر حسدها لـ «تشو»، واعلم أن قوة «تشين» في ضعف غريمتها المذكورة والعكس صحيح، فلا غرو أن تشتد العداوة بينهما؛ ولهذا كله فليس أفضل (لجلالتكم) من سرعة الانضمام إلى التحالف الرأسي [تحالف الدول الست التي تقع على محور رأسي] بغية عزل دولة «تشين»؛ فإذا لم ترق لجلالتكم فكرة الانضمام إلى التحالف، فستسارع تشين إلى إرسال فرقتَين عسكريتَين لمهاجمة «تشو»، بحيث تندفع الفرقة الأولى من مضيق «أوكوان» [داخل أرض تشين]، بينما تتقدم الفرقة الأخرى من منطقة «تشيان جون» وهو ما يمكن أن يعرِّض إقليمي «يان»، و«إينغ» للخطر الداهم. وقد بلغني، يا مولاي، أن الإدارة الناجحة لشئون الممالك لا ينبغي لها أن تتلكَّأ في دروب التواني

وإلا فالفوضى تضيع فرص الإصلاح السديد، والتخطيط الجيد يسبق تطور الأحداث، وإلا فلا نفع ولا جدوى من تدارُك العاقبة إذا ما وقعت النكبات. وهكذا فإني أرجو من جلالتكم انتهاز الفرصة ودرء المخاطر بسرعة التبصُّر والتدبر في هذا الأمر.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

فإذا أصغيت إلى قولي جعلت لك الولاية فوق الإمارات، حتى قدت إليك مواكب الأمراء من شرقي جبل «هواشان»، يأتونك بالهدايا ويصلونك بالصلات ويدفعون إليك جزية الفصول الأربعة، ويخضعون لأوامرك ومنهاجك المرسوم، وصار في إمكانك التكفُّل بشئون المعابد التابعة للدولة وتدريب الجنود وصقل الأسلحة، وستجد الجميع طوع أمرك، قائمين على خدمتك بما يشرح صدرك، فاعلم أنك إذا أخذت بما وضعتُ لك من الخطط والسياسات وجدتَ صفوف المُغنين والمطربين وذوات الحسن والجمال من نساء الدول المختلفة: هان، ووي، وتشي، ويان، وجاو، ويه؛ يخطرن في أفنية قصورك الخلفية ليدخلن في زمرة حريمك ومَحظياتك، ثم إن حظائرك ستمتلئ بأحسن الجياد والنوق التي ترعرعت في دولة «جاو» ومنطقة «دايدي»، فلذلك أقول لجلالتك: إن نجاح خطة التحالف الرأسي يضمن لدولة تشو السطوة والنفوذ فوق الممالك. أما إذا قُدِّر لخطة الحلف الأفقي أن تنتصر، فسوف يعني هذا استتباب السيادة لدولة تشين.

وما أشهده ماثلًا أمام عيني، اليوم، من إهمالكم شأن السطوة والسيادة، وقبولكم لما يذاع عنكم من خضوعكم للغير، فهو ما أعتبره — في قرارة نفسي — غير جدير بكم ولا ينبغي لكم انتهاجه بأي حال.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

إن دولة «تشين» أشبه ما تكون بالسبع الضاري أو الذئب الجائع، فهي لا تنفك تسعى لالتهام الممالك التي فوق الأرض جميعًا؛ ولذلك فقد صارت أبغض الأعداء إلى الناس كلهم. واعلم أن أولئك الذين يدعون إلى الارتباط بالتحالف الأفقي [… مع تشين وفي ظل رئاستها وقيادتها للكتلة الأفقية (مجموعة الدول التي تقع إلى الجوار مع «تشين» على خط

عرضي واحد)] — أولئك القوم — إنما يقدمون على التضحية بأجزاء من أراضي الممالك والدويلات بغية تقديمها إلى دولة «تشين»، على سبيل الخضوع والإذعان؛ فذلك ما يُقال له ... «زرع بذور الشر تمهيدًا لاستنباتها.» إن وزراء الدويلات والإمارات لا يتورَّعون عن اقتطاع مساحات من أراضي بلادهم وأملاك أسيادهم الملوك لتقديمها عن طيب خاطر لذلك الذئب النهم المدعو «دولة تشين»، كي تفتح شهيته لابتلاع وضم المزيد من الأراضي ثم يجد أولئك المسئولون أنفسهم، فجأة، أمام كارثة اسمها «أطماع دولة تشين»، وعندئذٍ يتركون أوطانهم في قلب الخطر ويرحلون بعيدًا حيث يجدون من «تشين» كل ما يحتاجون إليه من العون، فوق أنها تُظلُّهم بنفوذها بعد إذ تمكنوا من إجبار الملوك على تسليم أراضي الأوطان إلى تشين الكبرى، وتلك جريمة كبرى، لا تُوجَد على ظهر الأرض أشنع منها. فمِن ثم كان الانضمام إلى التحالف الرأسي يعني أن تقوم الممالك بتسليم أجزاء من أراضيها لدولة تشو، فإذا انتصر التحالف الأفقي، فستقوم تشو بتسليم الأراضي إلى «تشين»، هناك فرق شاسع بين السياستين فرق هائل جدًّا فشتان ما بين تَينك الخطتَين، فأين موقع جلالتكم منهما؟ ذلك ما نود أن نعرفه، وقد أوفدني حاكم «جاو» إلى بلدكم لإطلاعكم على خطتنا المُتواضعة فها هي ذي بين يديكم، ولجلالتكم القول الفصل في الاختيار.»

الجزء الرابع من الفصل نفسه

ورد عليه حاكم تشو، قائلًا: «إن حدود بلادي تُتاخم دولة «تشين» في الجهة الغربية، وأعرف أنها تطمع في مهاجمة منطقتي «باتشو»، «هانجون» لتضمَّهما إلى حدودها؛ فيما عرفت من نهمها، كالسبع الضاري، إلى الاستيلاء على كل ما تطوله يدها، قررتُ أن أبتعد عن خُططها وأتناءى عنها قدْر الإمكان. ولَمَّا كانت دولتا «هان» و«وي» قد أجبرتا على الانضمام إلى تشين لما فرضته عليهما من أسباب قاهرة لموقفهما هذا، فلن أجازف بالاشتراك معهما في وضع أية خططٍ أو تصورات بعيدة المدى خشية أن يسارع الخونة بإفشاء أسرار التخطيط أو إبلاغها إلى تشين، فتدور علينا الدائرة قبل أن نشرع في تنفيذ أي ممَّا تصوَّرناه بالفكر المجرد، وأظن، من وجهة نظر شخصية جدًّا، أن اللجوء إلى دولة تشو باعتبارها الجبهة القادرة على صد ومقاومة تشين لا يعد بالكثير من فرص النجاح والنصر، كما أن الخطط التي يتم التوصل إليها، داخليًّا بالمناقشة مع الوزراء ورجال الدولة لا يمكن أن تكون بالضرورة، محل ثقةٍ كبرى، ولهذه الأسباب مجتمعه فلم أعُد أهنأ بنوم ولا أستسيغ طعامًا، ولا يهدأ لي بال، كأني راية معلقة في الهواء، لا تستند إلى دعامة مُثبتة راسخة الجذر في الأرض،

وما دمت قد جئتنا بهدف توحيد الممالك ونشر الاستقرار في ربوع الدويلات، وإزالة أسباب الخطر المحدق بالبلاد، فها أنا ذا أحمل بلدي بيدي هاتَين وأتبعك خطوة بخطوة.»

لمَّا حاول تشانغي ضرب التحالف

حاول «تشانغي» ضرب التحالف الرأسي والدعوة للتحالُف الأفقي، ومن ذلك فإنه ذهب لمقابلة الملك «هواي»، حاكم تشو، في محاولة لإقناعه بآرائه، وقال له أثناء لقائه «إن نصف أراضي الممالك تقع في حوزة تشين، هذا بالإضافة إلى ما تملِكه من قوة عسكرية قادرة على مواجهة الدويلات؛ فوق ما تتميز به من ظروف وأحوال طبيعية تحميها من الخطر الداهم إذ تُحيط بها الجبال وتدور بها الأنهار وتترامى على حدودها، من الجهات الأربع، طبيعية ثابتة، ويزيد عدد مقاتليها على المليون جندي، وتبلغ حصيلة عرباتها العسكرية ألف مركبة مقاتلة، بجانب عشرة آلاف فارس، ثم إن الحبوب في مخازنها مكدسة في أكوام تكاد تُغالب قِمم الجبال طولًا، وقد سادت هيبة القانون في أرجائها، واستعد جنودها للخطر، غير هائبين ملاقاة الردى، ومليكها يلحظ بعين الحرص مكانتها وشدة بأسها بين الأمم، ووراءه قادة ورجال النجابة والشجاعة والعزم من أبرز خصالهم، يُغيرون على أعاديهم، ويقذفون في قلوبهم الرُّعب حتى قبل أن يرفعوا لواء الحرب، فإذا ما أقدموا على الزحف، انطوت تحتهم الجبال وانهارت الحصون وانقصم ظهر الممالك [هكذا حرفيًّا] وكان آخِر من أذعن لهم بالغلبة من الأمراء هو أول الهالكين.

ثم إني أرى أولئك الداعين إلى تأليف حلف رأسي لمحاربة التحالف الأفقي وكأنهم يسوقون النعاج الضالة للنزال مع سبعٍ شديد الافتراس، فتأمل كيف يكون القتال بين نمِر ضارٍ ونعاج مُضطربة، وإلامَ تنتهي نتيجة مثل تلك المواجهة؟ ألا ترى أن النصر والهزيمة، في مثل تلك الحال مسألة بديهية لا تحتاج إلى كثير جدل، وإني إذ أرى جلالتكم تنأَون بأنفسكم عن الدخول في صف النمور الضارية وتذهبون إلى صفوف النعاج والخراف، وأقرر بأن خطتكم، في هذا الشأن، من وجهة نظري الشخصية، يشوبها الخطأ البالغ.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

ليس على الأرض من الدول القوية إلا واحدة من اثنتَين: إما دولة «تشين» أو دولة «تشو»، فإن لم تكن هذه هي القوية، فلا بد أنها تلك الأخرى، فإذا ما قام صراع مسلح بينهما، وهما

على هذا النحو من التكافؤ في ميزان القوة، فستتعاظم حدَّة التناقض بينهما بطريقةٍ تهدد بقاء كليهما وهكذا فإنك إذا لم تبادر إلى إقامة الصلات مع تشين، فسوف تدفع بقواتها للنزول شرقًا حيث ستتقدم للاستيلاء على مدينة إيانغ، وهو ما سيؤدي بالتالي إلى إغلاق طريق «شان طانغ» المار بدولة «هان»، وباطِّراد تقدُّم قوات «تشين» نحو منطقة «خدونغ» تصبح قادرة على احتلال منطقة «تشين قاو»؛ مما سيفرض على دولة هان الخضوع تحت سطوة «تشين»، وعندئذٍ تُطأطئ دولة وي رأسها للعاصفة وتسير مع ركب الخاضِعين تحت جناح «تشين»: وهكذا يتيسر لهذه أن تُهاجم دولتكم من جهة الغرب، بينما تقوم حليفتاها «وي»، و«هان» بشن الغارة عليكم من الجهة الشمالية، ولا أدري، كيف لبلادكم أن تتخلَّص من ذلك المأزق الداهم والخطر الوشيك؟»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

«هذا من ناحية، أما من جهة أخرى، فإن تلك الدول المقبلة على توقيع ميثاق التحالف الرأسي، لا تُمثل إلا حفنة من الكيانات المتهافتة الضعيفة التي تدبر لمهاجمة أكبر وأقوى دولة على وجه الأرض. ومن المعلوم أن تحدي أطراف ضعيفة لدولة قوية، والتسرُّع في الإقدام على اشتباك عسكري معها دون تقدير كافٍ لحجم قواتها، بالإضافة إلى اضطلاع دول فقيرة بمجهود قتالي كبير يتجاوز طاقة احتمالها كل ذلك يُعد طريقًا محفوفًا بالمخاطر، ومنذرًا بالتهلكة، وقد بلغني أنه لا ينبغي لبلدٍ يتضاءل حجم قواته عما يملِكه عدوه أن يُقدِم على استفزازه، وليس لدولة يقلُّ مخزونها من الحبوب عما يتوافر لدى أعدائها أن تشرع في حربٍ طويلة الأمد.

إن أولئك الداعين إلى التحالف الرأسي يُزيفون الأدلة والبراهين، ويزينون القول لملوكهم بما يمتدحون من حكمتهم وشرفِهم وهيبتِهم، ولا يذكرون لقادتهم إلا النواحي الإيجابية في مشروع التحالُف، دون أن يعرِّجوا على جوانبه السلبية المُنذرة بالويل؛ مما يُعرض الجميع لنكبةٍ مروعة تتمثل في تعرُّض دولة «تشو» لهجوم «تشين» المُدمر، الذي لن يُبقي ولن يذَر، ولن يمكن تفاديه إذا ما تفاقمت الأوضاع ووصلت إلى نقطة يتعذَّر معها الابتعاد عن حافة الانزلاق إلى كارثة؛ لذلك كله، فإني أرجو من جلالتكم مراجعة تلك الأمور بتأنٍّ ودقة شديدة.»

الجزء الرابع من الفصل نفسه

«وإذا ما قُدر لدولة «تشين» أن تستولي على إقليم «باجو» فستُبادر على الفور إلى تسيير سفينتَين محملتَين بالحبوب من منطقة جبل «مين» حيث تُطلَقان بين شاطئي نهر «اليانغتسي» وتنحدران مع مياهه صوب الشرق، فتصلان بعد مسافة ثلاثة آلاف لي إلى العاصمة «إينغ دو» وعلى ظهر كلٍّ منها عدد هائل من الجنود حيث تتَّسع السفينة الواحدة لما مقداره خمسون مقاتلًا، بالإضافة إلى شحنات من الحبوب تكفي لمدة ثلاثة أشهر، وتقطع السفينة الواحدة منهما ما يبلُغ ثلاثمائة «لي» في اليوم الواحد، وبرغم تلك السرعة الهائلة، إلا أنها لن تؤثر على أو تستنزف المجهود القتالي للقوات، فما هي إلا عشرة أيام حتى تكون الرحلة قد بلغت مضيق «هانكون» الذي ستتملَّكه الدهشة والفزع، مما ستسري آثاره صوب الشرق، فتهب مدن وقرى المنطقة الواقعة شرقي مدينة «جين لين». فتصف الجنود وتتأهَّب للدفاع، إلا أن منطقتي «تشيان جون» و«أوجون» ستقعان تحت سيطرة الغزاة وتخرجان من دائرة أملاك جلالة الملك إلى الأبد؛ وحينئذ، ستدفع «تشين» بقواتها من إقليم «أوكوان» وتقوم بمهاجمة تشو من الجنوب وهو ما سيؤدي إلى قطع الطريق المار بمُحاذاة الحدود الشمالية، وهنالك تقوم قوات دولة «تشين» بمهاجمة «تشو»، التي ستجد نفسها تحت ظلال الخطر مدة لا تقلُّ عن ثلاثة أشهر كاملة، في حين أن ما يمكن أن يصل إليها من الإمداد والعون لن يأتي قبل ستة أشهر في أحسن تقدير، فمن ثم تجد «تشو» نفسها في موقف أسوأ مما تواجهه «تشين» وأقول لك يا مولاي: «إن أكثر ما يُثير القلق عليكم والإشفاق بكم، هو ما يبدو في ظاهر أحوالكم من الارتكان إلى مساعدة الدول الضعيفة، بينما تتغافلون عما تحمِله لكم «تشين» في أنيابها من السمِّ الناقع، هذا بالإضافة إلى ما تحملتموه من أعباء شديدة في تدبير شئون الدفاع عن المدن والقرى التي اجتاحتها قواتكم إبَّان حربها المُظفرة ضد دولة «أو»، حيث قمتم بإبادة قواتها بالكامل، فأنيط بكم أمر حماية المعاقل والأقاليم، فزادت مسئولياتكم في الوقت الذي تفاقمت فيه الأحوال المعيشية السيئة التي تمرُّ بها الأهالي في ذلك البلد المنكوب. وقد بلغني أنه من المُحتمل لمن يهاجم بلدًا قويًّا أن يصادف أصعب المخاطر. وهو ما يضيق به صدر الأهالي، فتضطرب صدورهم بالغضب، وتمتلئ جوانحهم بالكراهية ضد سلطات الاحتلال. وهكذا فإن احتمال وقوع أزمات شديدة إثر قيام قواتكم بمهمة الدفاع [في دولة أو] بالإضافة إلى عصيانكم وتحديكم لإرادة «تشين» في المنطقة، كل ذلك يُثير لديَّ — وعلى نحوٍ شخصي جدًّا — مشاعر القلق لما يُحيط بكم من الخطر.»

الجزء الخامس من الفصل نفسه

«ولئن كانت دولة «تشين» قد أحجمت، طوال خمس عشرة سنة عن تحريك قواتها لضرب الدويلات، فقد كان السبب في ذلك يكمن فيما تدبره من خططٍ سرية تهدف إلى تحقيق طموحها في ضم كل الدول والإمارات التي تحت السماء.

وقد جاء حينٌ من الدهر، وقع فيه الجفاء بين «تشو» و«تشين»، واشتبكت قواتهما في موقعة «هانجون» حيث كانت الهزيمة من نصيب «تشو» التي فقدت من خيرة نبلائها الحامِلين الألقاب الاجتماعية العُليا ما يزيد على سبعين فردًا، وانتهى الأمر بسقوط منطقة «هانجوان» في أيدي قوات العدو. وهنالك حمي غضب ملك «تشو». فأرسل جيشًا لمهاجمة «تشين»، ودارت بين الطرفَين معارك في منطقة «لانتيان»، ومُنيت «تشو»، في هذه المرة أيضًا، بهزيمة ساحقة.

ولطالما دارت بين الدولتَين معارك طاحنة، فكأنهما فهدان يتعاركان لا يكاد يهدأ أحدهما حتى يثب عليه الآخر يدعوه للنزال، ومع ذلك فهم الخاسران الوحيدان؛ إذ تبذل كلٌّ من «هان»، و«وي» كل جهدهما في تقوية حشودهما الخلفية، لذا كانت خطط «تشين» و«تشو» خرقاء، ينبغي تصويبها، وإني لأرجو من جلالتكم مراجعة تلك الأمور بدقة متناهية.»

الجزء السادس من الفصل نفسه

«وإذا ما انطلقت قوات «تشين» صوب الشرق، وهاجمت دولة «وي» وإقليم «يانجين»، فسيكون ذلك بمثابة عملية خنق أو كتم أنفاس للدويلات والإمارات المنتشرة تحت السماء، وإذا قمت جلالتك بتحريك قواتك لمهاجمة دولة «سونغ»، فسوف تتمكن من احتلالها، ثم تشرع بعد ذلك في التقدم شرقًا، حتى تخضع لك الاثنتا عشرة دويلة الواقعة بمحاذاة نهر «سيشوي».»

الجزء السابع من الفصل نفسه

«وقد كان سوتشين أكثر من عمل جاهدًا بثقة وعزم راسخ لإقامة التحالف الرأسي وتقريب وجهات النظر والعلاقات بين البلاد، وهو الأمر الذي وضعه موضع التبجيل البالغ، حتى أنعم عليه الملك «سو» حاكم «جاو» بأحد ألقاب التشريف وأقامه رئيسًا لوزراء دولة «يان»،

فراح يُخطط سرًّا لمهاجمة دولة تشي؛ وذلك بالاتفاق الودي مع حاكم دولة «يان». على أن يفوز «سوتشين» بنصيبه المُقرر من أراضي «تشي» بعد احتلالها، وهكذا فقد تظاهر «سوتشين» [ذات يوم] بأنه ارتكب جرمًا شنيعًا، وهرب من فوره إلى دولة تشي حيث استقبله الحاكم بكل ترحاب، وأكرم وفادته وشمله برعايته، وعيَّنه رئيسًا لوزراء بلاده، فما كاد ينقضي من الزمن عامان، حتى اكتشفت تفاصيل المؤامرة السرية فاشتاط الملك (حاكم تشي) غضبًا وأصدر حكمه بالإعدام ضد سوتشين؛ حيث جرى تقطيع جسده بواسطة جنازير حادة موصولة بين جسده وعربات ضخمة تجرها الجياد القوية.

(ولذلك فإني أخلص إلى القول إن) الاعتماد على رجل ماكر ومخادع ومتقلب مثل «سوتشين»، بهدف التخطيط لإدارة وقيادة وتوحيد الممالك والدويلات التي تحت السماء، يعد أمرًا مستحيلًا وقد قام الدليل الواضح على ذلك.»

الجزء الثامن من الفصل نفسه

«إننا إذا تأمَّلنا أحوال كل من تشين وتشو، وجدنا أنهما بلدان متجاوران، وحدودهما مشتركة، وطبيعة أرضهما متناظرة، ولا غروَ في ذلك فهما أختان متجاورتان وإذا قبلتَ ما أعرض عليك، فسوف أُبادر إلى إرسال أمير دولة «تشين» ليأتيك فيبقى في كنفك رهينة سلام، بحيث تُرسِل دولتكم إلى «تشين» بالمقابل ولدكم الأمير [الملك شيانغ فيما بعد] ضمانًا للسلام بين البلدَين، كما أرجو أن توافق جلالتكم على مجيء ابنة ملك «تشين» لتُقيم في القصر عندكم، مجرد محظية تقوم بأعمال الخدمة المنزلية البسيطة، كما أن تشين سوف تمنحكم حق الانتفاع بما تجلبه مدينة كبرى (ذات عشرة آلاف أسرة مُقيمة) من ضرائب؛ وذلك ليقوم التآخي الدائم بين بلدَينا، ونضع نهاية للحرب بيننا، فهذا أفضل ما يمكن أن نتوصَّل إليه من الخطط المشتركة. وعلى ذلك، فسوف يقوم جلالة الملك حاكم «تشين»، بإيفاد رسل يقومون بتسليم رجال الحاشية لديكم الوثائق والرسائل ذات الصلة، حتى يصدُر قراركم النهائي في هذا الأمر.»

الجزء التاسع من الفصل نفسه

ثم تكلم ملك «تشو» قائلًا: «إن دولة «تشو» ذات موقع ناءٍ وموارد محدودة، وتعتمد في بقائها على نهر «دونهاي». وقد كنت في شبابي أجهل الكثير من ضرورات التخطيط بعيد

المدى، وكم أسعدني أن أتعلم منك اليوم — أيها الضيف الكريم — الكثير مما يتصل بالقرارات المهمة، وأود أن أبلغك بكل تقدير، بعد ما سمعت من قولك، موافقة دولتنا ونزولها على رأيك». ثم إن الملك أرسل (إلى تشين) وفودًا تحمل الهدايا وهي عبارة عن: مائة عربة عسكرية، ومجوهرات ثمينة وتحف نادرة ونوع من اليشب [المستخدم في إقامة الطقوس الدينية] يضاء ليلًا عندما يشتد الظلام.

لمَّا كان تشانغي يشغل منصب رئيس الوزراء

لمَّا كان «تشانغي» يشغل منصب رئيس وزراء دولة «تشين»، فقد تحدث، ذات مرة إلى «جاوجي» [وزير عظيم في «تشو»]، قائلًا: «هب أن دولة تشو فقدت إقليم «ياندي»، والعاصمة «إينغ»، ومنطقة «هانجون»، فهل يتبقى لديها شيء مما يُمكنها الاحتفاظ به؟» فرد عليه «جاوجي» بالنفي، فقال له «تشانغي»: «وهب أنكم في دولة «تشو»، لم يعد لديكم رجال دولة أكفاء مثل «جاوكو»، و«تشن جن»، فهل يبقى هناك أحد من المؤهَّلين للقيام بمسئولياتهم وتولي الوظائف العامة؟»، فلما ردَّ عليه الرجل بالنفي، قال له: «فأرجو منك، إذن، أن تبلغ ملك «تشو»، عن لساني إصدار قرار بإبعاد «جاوكو» و«تشن جن» من وظيفتهما، وسنرد على ذلك بإعادة «ياندي»، والعاصمة «إينغ»، و«هانجون» إلى بلادكم.» فلما عاد «جاوجي» وأبلغ الملك بذلك الطلب، فرح جلالته جدًّا بما سمعه وسُر بالغ السرور.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وقد ذهب إلى «جاوكو» من قال له: «قد تجاوزت الأمور الحد المعقول، فهذا ملك «تشو» قد غشي على بصيرته، فلم يعد قادرًا على التمييز بين النابِهين الحكماء، والطامِعين إلى السطوة والشهرة. و(يذكر التاريخ) أن دولة «هان» كانت فيما مضي من الزمان، قد طالبت دولة «آل جو» بترقية «كون شن جيه» إلى منصب رئيس الوزراء، فلم يلتفت إلى طلبه، ثم حاولت دولة «وي» إقناع «آل جو» بتولية «تشيمو هوي» منصب وزير عظيم في دولتهم، وللمرة الثانية قوبلت تلك المحاولة بالرفض، أتعرف السبب في ذلك؟ السبب يا سيدي هو ما جاء على لسان حاكم «آل جو» بنفسه، إذ قال: «إنهم بطلبهم هذا، يُعاملوننا كما لو كنا مجرد ولاية تابعة لسلطانهم.»

والحال أن دولة «تشو» واحدة من الكيانات القوية بما تملِكه من عتادٍ يبلغ عشرة آلاف عربة حربية، وملك البلاد واحد من أكثر الحكام رجاحةً وبصيرة، ومع ذلك فقد صدق

ما قاله له «تشانغي» من وجوب إبعادكم و«تشن جن»، وهو ما لم يُقدم عليه «آل جو»، في ماضي الزمان، بل أصبح «تشانغي» بذلك، أكثر مهابةً من حكام دولتي «وي» و«هان»، في سالف الأيام، أضف إلى ذلك أنه، فيما يسلك من تصرفات وينصح من كلمات، إنما يهدف إلى ترسيخ مآثره وأفضاله في صفحة مجده بدولة تشين، هذا بالإضافة إلى ما يسعى بكل جهده، إلى تحصيله من مال وجاه في دولة «وي»، التي إن كان سينصح لها بشيء، فلا بد أنه ناصح لها بالتقدم نحو الجنوب لمهاجمة «تشو».»

لذلك كان من الأنماط المعهودة في شن الغارات على الممالك، والبدء — كضرورة حتمية — بقطع العلاقات الدبلوماسية — للدولة المستهدفة — مع باقي الدول، وذلك فيما يتعلق بالشئون الخارجية، أما بالنسبة للداخل، فتجري محاولة طرد واستبعاد وزرائها المُحنَّكين.

ومن المعلوم أن الوزير «تشن جن»، واحد من أبناء مناطق السهول الوسطى، ولذلك فهو أكثر درايةً بأحوال «سانجين»؛ فمن ثم كان إصرار «تشانغي» على إبعاده عن منصبه، وهو ما يضمن تفريغ دولة «تشو» من رجال السياسة الأكفاء؛ ولأنك — أنت نفسك — واحد من أكثر رجال الدولة قدرةً على إدارة وضبط وتوجيه شئون الناس في «تشو» فها هو «تشانغي» يُطالب باستبعادك، فلا تجد البلاد من يقوم على إدارة شئونها؛ فهذا ما يُقال له مهاجمة الأوطان من الداخل، وهو الأمر الذي يغفل الملك عن فهم خباياه والتحقق بدقة من ملابساته. فلماذا تمنعني من محاولة الالتقاء بجلالته، لأرجوه إيفادي إلى دولة «تشي» كي أحول دون قطع العلاقات بين البلدين (تشي، وتشو)، فإذا بلغ مسامع تشانغي بقاء عُرَى الصداقة على حالها، فسوف يعمل على تأجيل تنفيذ خطة إعادة «ياندي» و«إينغ» و«هانجون» إلى السيادة الوطنية لتشو، مما يُضعف الثقة في آراء جاوجي ويسخط عليه قلب الملك فيُقصيه عن حاشيته.»

لمَّا استفسر حاكم تشو من مستشاره الخاص

توجَّه الملك «وي»، حاكم «تشو» إلى مستشاره «تسي هوا» (الخاص بالأوامر والاستعلامات) بسؤاله: «أتعرف أحدًا من المسئولين ممن تولَّوا منصبًا رسميًّا منذ إرساء دولة «تشو» حتى وقتنا هذا، تفانى في العمل والسهر على مصلحة البلاد دون مطمع في منصب عالٍ أو مالٍ وفير أو مكافأة جزيلة؟» فرد عليه مستشاره، قائلًا: «تلك مسألة ليس لِمثلي علم بها.» فقال الملك: «ألم يبلغك خبر واحد من الناس على هذه الشاكلة قط، سواء سألت أحدًا من كبار رجال الدولة عنه أم عرفته من مصادرك الشخصية؟» فأجابه مستشاره: «فأي صنف من

الناس تريد أن تستفسر عنهم؟ فهناك من تشغله شئون البلاد على الرغم في ضيق ذات يده وبساطة عيشه، وهو مع ذلك شريف، نزيه، عفيف اليد واللسان، وهناك من يعمل على الارتقاء بنفسه في سُلَّم الوظائف بُغية زيادة راتبه، وهو في الوقت نفسه مشغول بأمر بلده، مهموم بشئونه، وهناك من لدَيه الاستعداد بأن يقطع له الناس رأسه، ويبقروا بطنه، أو يفتح عينيه فلا يرى شيئًا في العالم سوى وطنه، فلا يشغله شيء من أمر نفسه ولا جسده سوى السهر على مصلحة بلده؛ ثم هناك كذلك من يكدُّ ويسعى لتحقيق طموحه وآماله، لكنه مشغول أيضًا بما فيه صالح الوطن، وهناك من يهتم لأمر بلاده دون طمع في مال أو مكافأة أو منصب.» فسأله الملك: «فمن تقصد تحديدًا بقولك هذا؟».

الجزء الثاني من الفصل نفسه

رد المستشار «تسي هوا» على الملك قائلًا: «كان أحد رؤساء الوزارات في الزمن القديم، ويدعى «تشيون»، يذهب إلى القصر مُرتديًا قميصًا حريريًّا أسود اللون، فإذا انتهى عمله، وعاد إلى بيتِه خلع القميص الحريري وارتدى حلةً خشنة من جلود الأيائل، ولم يحدث مرة أن تأخَّر عن عمله، كان يذهب في الصباح الباكر ويظل واقفًا عند باب القصر في انتظار الإذن له بالدخول (قبل أن يستيقظ أحد من الناس)، ولا ينتهي من عمله إلا عندما تشتد ظلمة المساء، فيرجع إلى منزله، ولم يكن ميسور الحال، وإنما كانت عيشته الكفاف، حتى لم يكن يدري في الصباح كيف يُقيم أوده إذا حلَّ المساء وهو، مع ذلك لا يكاد يختزن ما يكفيه مدة شهر من الحبوب؛ لذلك فقد اشتُهر بالنزاهة والشرف وعفة اليد، وهو بسيط الحال أقرب للضيق منه إلى اليسار، ثم إنه، بجانب هذا كله حريص على ما فيه مصلحة بلاده، مُهتم برفعة شأنها؛ فهذا الرجل (المدعو تسيون) خير نموذج في هذا الباب.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

ومن أخبار ما سلف من الزمان أيضًا أن الوالي «تسيكاو» كان واحدًا من رجال الدولة الذين تم اختيارهم للترقي في صفوف النبلاء وهم أصلًا ممن عاشوا حياتهم في الأوساط الشعبية البسيطة، ويذكر له من المآثر المجيدة قيامه بالقضاء على الاضطرابات الداخلية الناجمة عن تمرُّد «بايكون» [ولد الأمير الذي ثار على ملك تشو وطرده خارج القصر]، بل قام بتوسيع نطاق الأراضي التابعة لسلطان «آل تشو»، وبسط الاستقرار في ربوعها، ثم

أعاد للسيادة الوطنية الأرض السليبة الواقعة شمالي جبل «فان تشنغ» فأمنت البلاد على حدودها الأربعة مخاطر الغزو والاحتلال، وأذعنت الدويلات لسلطان «آل تشو»، وخضعت الجباه [التي كانت تسخر من العرش الحاكم بالأمس] لنفوذ وهيبة القصر الحاكم، ولم يعُد يدور بخلد أحدٍ من أمراء الممالك الصغيرة تحريك قواته صوب الجنوب لاقتحام حدود «تشو»، وهكذا أنعم جلالة الملك بإقطاع من الأرض تبلغ مساحته ستمائة ألف مو [وحدة مساحة قديمة للأراضي = ٠٦٦٧، من الهكتار] مكافأة له على خدماته الجليلة، وهكذا، فإن «تسيكاو» خير مثال لأولئك الذين يرتقون الدرجات الشريفة ويفوزون بنصيب وافر من الثروة، وهم يبذلون كل جهد وطاقة.»

الجزء الرابع من الفصل نفسه

«من وقائع الماضي البعيد، أن الحرب لما قامت بين دولتَي «أو» [تنطق كما في «أوبرا»] و«تشو» والتحمت القوات في موقعة «بايجو» وبخاصة قوات المشاة — التي وقع بينها القتال فيما بين صفوف العربات العسكرية، وراح «موهاوداشين» [أحد نبلاء دولة تشو] يشد على أيدي سائقي العربات العسكرية، ويقول لهم: «ها إن مصير الهلاك يكاد يحلُّ ببلادنا، فاثبتوا ساعة ريثما أتخلل صفوف قوات العدو، فإما أن أثخن فيهم أو أن أقبض على الأسرى، ليت الجميع يقاتل معي، حتى تنجو البلاد من الدمار الوشيك ...» فلهذا قلت لك إن هناك من يستهينون بالموت نفسه، ويعدونه مجرد إغماضة عين عابرة، ولديهم الاستعداد التام للتضحية بأنفسهم في سبيل مجد بلادهم، فتأمل سيرة «موهاوداشين» تجد مصداق قولي.»

الجزء الخامس من الفصل نفسه

«وكانت الحرب قد وقعت قديمًا بين دولتي «أو» و«تشو» في موقعة تدعى «بايجيو»، وكان أن تمكنت قوات دولة «أو»، بعد خمس معارك من احتلال العاصمة «إينغ»، فهرب الملك «جاو» حاكم تشو، خارج البلاد وتبعه كبار رجال الدولة، وتفرق الناس شذر مذر، وتقطع ما بين الوالد وولده والأم وأبنائها، وهنالك تحدث «فن ماوبوصو» [أحد أبناء نبلاء تشو] قائلًا: «ماذا لو أني تدرَّعت بدرعي وانتضيت سلاحي، وقمت إلى صفوف العدو غير هياب ولا مُتردد، غير أني لست إلا مجرد واحد من المُقاتلين، ولعلِّي إذا طرقت باب الدويلات

المجاورة وجدت لديهم العون والنجدة.» ثم حمل كمية وافرة من الحبوب وتسلل خفية بين شعاب الجبال ودروب التلال الوعرة، وعبر الوديان والبحار، يمشي تارة ويسبح تارة أخرى ويتسلق القمم الشاهقة بعض الأحيان، وتسلَّخت منه الأيدي وتورَّمت الأرجل، حتى وصل بعد أيامٍ سبعة إلى بوابة القصر الملكي. فقام واقفًا هناك دون أن يتحرك أو ينطق بشيء، كأنه طائر الكركي، ومرَّت عليه الساعات الطوال وهو ينشج ببكاء مرير ويرفع صوته بالاستغاثة، ومرت عليه سبعة أيام وهو على هذه الحال، دون أن يُجيبه أحد بشيء، فلما انقضت عليه تلك المدة دون أن ينزل جوفه شيء من طعام أو شراب، تبدَّدت قواه وخر مغشيًّا عليه، فلمَّا علم الملك بأمره، أسرع إليه في الحال دون أن يرتدي قُبعته أو يلفَّ حزامه حول قميصه، فأقعى عنده وتناول رأسه بيدَيه وراح يصب الماء في فمه حتى استرد «فن ماوبوصو» وعيه، فسأله الملك: «من أنت، وما حكايتك؟» ... فأجابه: «ما أنا إلا مبعوث دولة «تشو» بأرضكم، فأنا (الذي لم تنصفه الأيام ...) المدعو «فن ماوبوصو». قد شهدت بعيني موقعة «بايجيو» حيث قامت الحرب بين «أو» و«تشو» التي وقعت فيها العاصمة «إينغ» في يد أعدائنا بعد خمس معارك، وإذا بالملك قد هرب مع رجال الحاشية وكبار المسئولين، وتفرق شمل الناس جميعًا، وتشتت الأهالي، فقمت ساعيًا إليكم لأخبركم بهروب سادتنا خارج البلاد، راجيًا منكم الغوث والنجدة.» فتطلع إليه حاكم «تشين» وأشار إليه بالنهوض، قائلًا: «قد بلغني أنه لا يصح لحاكم يملك عشرة آلاف عربة عسكرية أن يحقر من شأن فارس من أرومة الكرم والشجاعة، وإلا انتفض أساس حُكمه، وقد رأيت اليوم بعيني وقائع تشهد بصحة ذلك ...» ثم إن جلالته أمر بسرعة إرسال ألف عربة عسكرية وعشرة آلاف مقاتل تحت قيادة القائدين المظفَّرين «تسي بو»، و«تسيخو»، وقد مرت القوات في طريقها بمنطقة الحصون الشرقية فعبرتها، وتقدمت إلى الشرق حتى اشتبكت مع قوات دولة «أو» عند نهر «جوشوي» وهزمتها شر هزيمة، وقيل إن تلك الوقائع حدثت في إقليم «صوبو»؛ فلذلك قلت لكم: إن هناك من يكدحون ويبذلون غاية ما يملكون من جهد، حدبًا على أوطانهم ورعايةً لما فيه مصلحتها، وخير مثال على ذلك ما ذكرت لك من أمر «فن ماوبوصو».»

الجزء السادس من الفصل نفسه

«كان القتال قد نشب بين دولتي «أو»، و«تشو» في موقعة بايجيو، وبعد خمس جولات سقطت العاصمة «إينغ»، ثم هرب حاكم «تشو» مع كبار رجال القصر، (وكان الدمار

والتخريب قد نال من البلد كله ... حتى) فرَّ الناس بأرواحهم في كل اتجاهٍ فتشتت شمل الأهالي وتفرَّق المذعورون أَيْدي سَبَأ، بينما ظل «منكو» [القائد الأعلى لقوات دولة تشو المدحورة] يقاتل أعداءه من دولة «أو»، وذلك بالقرب من منطقة «كونطان»، ثم بدا له أن يغادر أرض المعارك عائدًا إلى العاصمة إينغ، وهو يقول: «لو استطعنا أن نُنصب وريثًا للعرش في القصر، فستظل آلهة الزراعة تحمي دولتنا وتحفظ بقاءها.» وما هو إلا أن دخل القصر وجمع سجلات الدساتير والقوانين والوثائق الرسمية فحملها فوق ظهره وخرج يجوب القفار، ويخوض الأنهار حتى بلغ منطقة «يونمن». ثم بلغه أن ملك «تشو» قد عاد إلى العاصمة دون أن يستطيع السيطرة التامة على زمام الإدارة الحكومية؛ وذلك لغياب رجال الحُكم والمسئولين، وتغلغُل روح الفوضى والارتباك بين الأهالي، فذهب إليه «منكو» وسلَّمه الوثائق وسجلات القوانين الخاصة بالدولة؛ مما ساهم في إعادة الانضباط إلى نظام الإدارة وموظفيها (الذين وجدوا في اللوائح مادة جاهزة لإعادة تشغيل دولاب العمل)، فعاد الضبط والربط والنظام يسود الأجواء، وانصلحت أحوال الناس، وعندما أخذت مآثر «منكو» وأفضاله في الاعتبار، فقد جرى النظر بوصفها جزءًا لا يتجزأ من شرف كيان الدولة وأساس بقائها، فأنعم عليه الملك بأعظم ألقاب التشريف، وأقطعه أرضًا مساحتها ستمائة ألف «مو»؛ فلما علم «منكو» بذلك تملكه الغضب وصاح مُحتدًّا: «لست فقط مجرد وزير لدى جلالته، لكني أيضًا رجل دولة ومسئول عن وطن، ولقد ظننتُ أني عندما أقدم القرابين لآلهة الأرض حامية الدولة، فسوف يبقى العرش الملكي في بلادنا محوطًا بالعناية الإلهية، وينزاح عن صدري الخوف الذي أرَّقني على مصير الوطن.» ثم إنه قام وغادر إلى جبل موشان، حيث اعتزل الناس والعمل العام، وما زال أحفاده إلى اليوم يتجنَّبون الانخراط في الوظائف العامة أو العمل في المواقع المُتنفذة؛ وهكذا، فلئن قلت إن من الناس من يهتم لصالح الوطن دون مطمع في جاه أو مال، فقد كان «منكو» واحدًا ممن يصدُق عليه ذلك القول.»

الجزء السابع من الفصل نفسه

وهنالك تنهَّد ملك «تشين». ثم قال: «كان كل هؤلاء من الغابرين الذين انقضى زمانهم منذ وقتٍ بعيد، فهلا ذكرتَ لي أحدًا ممن يعيشون في زماننا، أليس منهم أحد بين ظهرانينا الآن؟» فأجابه المستشار «تسي هوا»، بقوله: «كان دهاة الملوك ونجباء القادة، فيما مضي من العهود القديمة، يتخذون عمَّالهم ممن استدق خصرهم ونحفت أجسادهم، وكان المتعلِّمون

من بني دولة «تشو» يميلون إلى الاقتصاد في الطعام والشراب. (حتى تذوي أجسادهم ...) فلا يتكاسلون عن القيام والقعود؛ فتنشط حركة أبدانهم. وإذا كان الطعام اشتهاءً غريزيًّا في الإنسان، (فليس له أن ينساق وراء غريزته ... بل) يجب أن يصبر على الصوم كثيرًا؛ ولئن كان الموت أمرًا بغيضًا إلى النفس، إلا أنه قدر لا مفرَّ منه.

وقد بلغني أن الملوك إذا ارتادوا ساحات الرماية وأقبلوا على التدرُّب عليها، سار وزراؤهم على دربهم فشغفت قلوبهم بحُب الرمي والقنص. (وكان يمكن لجلالتكم أن تحضوا الوزراء على النزاهة والحكمة ...) لولا أني أراكم تنأون عن الحكماء وتضيق صدوركم بهم، ولو كنتم تُحبون ذوي الحكمة والعلم حقًّا، لكان في مقدوركم الآن أن تدعوهم فيسعون إلى جلالتكم من فورهم.»

سجل تشو الثاني

لَمَّا توفي رئيس وزراء دولة «وي»

لَمَّا توفي «جاي تشيانغ» رئيس وزراء دولة «وي»، ذهب إلى الملك «هواي»، حاكم «تشو»، من نصح له باختيار «كانماو» رئيسًا للوزراء، خلفًا للراحل الكريم قائلًا: «ربما كان في نية دولة وي تعيين الوالي «كونزجين» رئيسًا لوزرائها، وهو الأمر الذي من شأنه أن يعمق العلاقات الودية بينها وبين دولة تشين، وعندما تشتدُّ عُرى الصداقة مع تشين فسوف تشعر دولة تشو بأنها لا تلقى من جانبك ما تستحقُّه من أهمية، ولهذا أرى من الأفضل أن تجري مناقشات مع دولة تشي بهدف الاتفاق على ترشيح كانماو لمنصب رئيس الوزراء، ولا بدَّ من أن الملك شيوان — حاكم تشي — سيسعد جدًّا عندما يعلو قدره، ويرتفع اسمه عاليًا فوق أي حاكم آخر، وعندما نُبلغ سفراء تشي بضرورة مشاركة دولتهم معنا في تنصيب رئيس الحكومة الجديد، فلا بد أن بلادهم ستفرح كثيرًا (لما أدركت من مكانتها عندك). أما إذا أصرت وي على عدم الالتفات إلى هذه النصيحة وضربت صفحًا عن ذلك، فسوف تسوء علاقاتها مع تشي، وتقع العداوة والبغضاء بينهما، فإذا ما تدهورت العلاقات بينكم وبين تشي، فلا بد أن هذه سوف تُسارع إلى كسب ودِّ دولة تشو، أما إذا استمعت وي إلى نصيحتي، فسوف تشتدُّ العداوة والكراهية بين كلٍّ من «كانماو» و«تشو ليز»، وتتَّقد في قلبها نار البغضاء حتى يتمنَّى أحدهما أن يسحق رأس الآخر، مما ينجم عنه تدهور العلاقات مع دولة تشين، وسيكون من جرَّاء ذلك أن الجميع سيسعى إلى تأكيد روابطه الودِّية مع دولة تشو.»

لمَّا تم الاتفاق بين تشي وتشين

تم الاتفاق بين «تشي» و«تشين» على مهاجمة دولة «تشو»، فبادر حاكم هذه الأخيرة بإيفاد قائد قواته «جين تسوي» ليعرض على دولة تشي (التراجُع عن خططها الهجومية مقابل ...) أن يُهديها ستة محلات من أرض بلاده، بالإضافة إلى إرسال ولده الأمير ليُقيم في تشي رهينة لضمان السلام بين البلدَين، وهنالك التقى جاوجي بالقائد جين تسوي، وقال له: «ربما كانت دولة «تشين» تفكر في الضغط على دولة تشو للتنازل لها عن أجزاء من أرضها، وهي تمارس هذا الضغط بواسطة كل من «جين لي» [رئيس وزراء تشو] و«سولي» [أخو سوتشين، المُقيم وقتئذٍ في تشو]؛ فإذا تنازلت عن أجزاء من أرضك على سبيل التودُّد والتقرب من دولة تشي، فسوف يُطالب كل من سولي وجين لي دولة تشو بالتنازل لدولة تشين عن أقاليم وأجزاء هائلة من أرض بلادكم إرضاءً لخاطرها، وهو ما سوف يُحبط مهمتك ويصيبك بالعجز عن أداء دورك وأرى من الأفضل أن يسارع حاكم تشو إلى إغداق الرشوة على كلٍّ من سولي، وجين لي، على أن يتم إيفادهم إلى تشين، وعندئذٍ فإن دولة تشي سوف تساورها الشكوك والمخاوف، مما سيحول بينها وبين المطالبة بالتنازل لها عن الأراضي، بل ستسارع إلى عقد الوحدة مع تشو، وعندئذٍ فقط، تواتيك الفرصة الذهبية لعقد ميثاق الصداقة بين البلدين.»

لمَّا تقدم القائد شوشي على رأس القوات

لمَّا تقدم القائد شوشي على رأس قوات تشين لمهاجمة دولة تشو، فقد أمر حاكم هذه الأخيرة قائده العسكري جاوشو بقيادة جحافل الجيش لدخول منطقة هانجون والمرابطة فيها، هذا وقد تمكن جاوجي من هزيمة قوات تشين في موقعة جونشيو، وهنالك التقى سولي مع جاوشو [القائد العسكري العام]، وقال له: «إن ملك تشو يفكر في أن يأمر جاوجي بانتهاز فرصة انتصاره على قوات تشين والوثوب على دولة تشين نفسها لمهاجمتها، وبهذا فسوف يصدر إليك الأمر بدفع جزءٍ من قواتك مددًا لقوات جاوجي، فإذا علمت دولة تشين بهذه التجزئة للقوات، فسوف تقوم باحتلال هانجون، فاسمح لي (أن أُساعدك في هذا الأمر؛ وذلك بـ ...) أن أبعث «شين رونغ» [أحد مواطني تشو ممن تربطهم علاقة حميمة بدولة تشين] إلى ملك تشو ليقول له: «إن قوات دولة تشين توشك على مهاجمة هانجون» ... وهو الأمر الذي سيحول دون تجزئة القوات ويُعفيك من معاناة نقص عدد الجنود.»

لمَّا تحالفت الدول الأربع لمهاجمة تشو

لمَّا تحالفت الدول الأربع: تشين، وتشي، وهان، ووي، وحشدت قواتها لمهاجمة تشو، أصدر حاكمها أمرًا إلى جاوجي بقيادة القوات لصد هجوم دولة تشين، وكان ملك تشو (في تلك الأثناء) يُبيِّت النية على مهاجمة تشين في عقر دارها، وهو الأمر الذي لم يكن يرُوق كثيرًا للقائد جاوجي، وهكذا فقد ذهب «هوان صان» [ربما كان أحد المُقربين إلى جاوجي!] إلى حاكم تشو، ليقول له [على لسان جاوجي]: «اعلم يا مولاي أنه إذا كان النصر حليف قائد قواتك، جاوجي، فسوف تشتدُّ كراهية الدول الثلاث الأخرى وسخطهم عليك وعلى بلادك، وربما بدا لهم تردُّد «تشين» وميلها إلى مُسالمتك والخضوع لشروطك أمرًا وشيك الحدوث مما قد يدفعهم إلى الصمود وتعزيز قوتهم لُمحاربتك دعمًا لحليفتهم الكبرى تشين هذا من ناحية، ومن جانب آخر فإن ملك «تشين» إذا ذاق مرارة الهزيمة أمامك، فسوف يستجمع كل طاقته لقتالك بكل ما أوتي من قوة، وهو ما يعني دخولك في معارك مطولة مع تشين تستنزف فيها جهدك وطاقتك، وبالطبع فإن المُستفيد الوحيد من ذلك الموقف هم الدول الثلاث الأخرى؛ ثم إننا إذا عجزنا عن الانتصار على تشين، فلا بد أنها ستتقدَّم لضربنا؛ لذلك كله فإني أرى من الأوفق أن نُعزز قوات جاوجي ونترك له حسم الموقف بالشكل الذي يراه مناسبًا (لتحقيق النصر دون النيل من كرامة تشين). ومن المعلوم أن ملك تشين لا يبغض شيئًا قدر بغضه لدخوله معارك طويلة مع تشو يُبدد فيها طاقته على النحو الذي لا ينال به إلا الضرر بينما تستفيد باقي الدويلات. وهكذا فقد تكتفي تشين باقتطاع جزءٍ من أراضيك لتنهي حربها معك. فإذا ما قامت الوحدة بين تشين وتشو، فلن تملك الدول الثلاث يان، وجاو، ووي إلا الإذعان لهما، مما يُشيع فوق الجميع أجواء الهدوء والاستقرار.»

لمَّا قام حاكم دولة تشو بتحديد إقامة تشانغي

قام الملك هواي بتحديد إقامة تشانغي تمهيدًا لإعدامه، فذهب الوزير «جين شان» [أحد المُقربين لجلالته] إلى الملك، وقال له دفاعًا عن تشانغي: «إن قيامك بحبس تشانغي سيثير ضدك شعور البلاط الحاكم في تشين، فإذا ما تبين لباقي الدويلات تدهور العلاقات بين البلدين؛ فلن ينالك إلا الاستهانة بقدْرك، وضياع مهابتك وسط الجميع». ومن ناحية أخرى فقد تحدث تشانغي، نفسه، إلى السيدة جنغ شيو [إحدى زوجات الملك القريبات إلى قلبه]، قائلًا: «لا بد أنك تعرفين تمامًا، يا سيدتي، ما سوف يحل بك من استصغار الملك لشأنك

وابتعاده عنك في قادم الأيام، وتعلمين السبب في ذلك أيضًا!» فلما دُهشت وسألته عن مغزى كلامه هذا، فرد عليها الوزير جين شان بقوله: «إن تشانغي من أخلص الوزراء وأقربهم وأكثرهم ثقةً عند حاكم تشين، ولا بد أن جلالته سيسعى بكل جهده لتخليصه من الحبس بعد أن عَلِم بتقييد إقامته، ومن المعلوم أن لحاكم تشين ابنة رائعة الجمال، يسهر على إرضائها وتدليلها بشتَّى الوسائل، حتى إنه اختار لها، من بين فتيات القصر، أملحهن وجهًا، وأبرعهن مسامرة وعزفًا للموسيقى، للترويح عنها، وإدخال البهجة على قلبها، بحيث تبقى معها تتبعها كظلها، وتذهب بها لتقيم في بيتها كقطعةٍ من أثاث منزلها بعد الزواج، وقد أهدى الملك إلى ابنته أروع الجواهر والحُلِي، ثم أقطعها ست مناطق بولاية «شاتيون» هدية لعقد قرانها، وهو يُرتب لتزويجها من ملك تشو وذلك عبر رسوله تشانغي ولا بد أن حاكم تشو سيهيم بها حبًّا، ثم إنها ستأتي إلى دولة تشو موفورة الحظ من شرف مكانة قومها وبلدها بين الأمم، وفي شوارها ما تتيه به فخرًا من الأراضي والأقاليم والمال الذي ليس له حصر، ولا بد أنها ستطرق أبواب القصر الحاكم في تشو بوصفها زوجة جلالة الملك، الذي سيجد من فرحته بها ومتعته بصحبتها ما تدور له رأسه من النشوة، وعندئذٍ فلن يسعه إلا المقام بين يدَيها والتقرُّب إليها بما يرضيها، ومن ثم يهجرك ويحقر قدْرك يومًا بعد يوم.» فقالت له: «فليكن لك التصرُّف في هذا الأمر، على الوجه الذي تريد، لكن قل لي: ما الذي ينبغي عمله، وما السلوك الواجب اتباعه؟» فأجابها: «لا أرى إلا أن تُسارعي إلى إقناع الملك بالإفراج عن تشانغي. الذي — إذا ما عادت إليه حريته — فلن ينسى لك الجميل، وسيعمل على إفساد مشروع تزويج ابنة ملك تشين لحاكم تشو، ويُعظم قدرك لدى دولة تشين بأسرها، وتخلص لك ساحة الشرف والجاه في تشو، لا ينافسك فيها منافس، وتُصبح لك اليد الطولى في إقامة صلات الود مع تشين ويصير لك تشانغ مثل ربيبك الذي يتصرف رهن مشيئتك، ويصبح أبناؤك أمراء تشو، فيما بعد، وهو مطمح لا مزيدَ عليه وشرف ليس أعظم منه.» وهرعت جنغ شيو إلى الملك فأقنعته، بالإفراج عن تشانغي، فأخلى سبيله.

لمَّا أقدم ملك تشو على الإفراج عن تشانغي

اتخذ ملك تشو كل الإجراءات التي تقضي بالإفراج عن تشانغي غير أنه كان يخشى، في قرارة قلبه أن يُسيء الرجل إلى سُمعته، وسط الممالك، وتحدث بهواجسه إلى خُلصائه … فقال له وزيره المُقرب إليه جين شان: «دعني أتبع خطاه أينما ذهب، فإذا ما بدرت منه بادرة سوء في حق جلالتك، فلتأذن لي بقتله.» وكان في قصر حاكم تشو أحد أفراد الحاشية

ممن يبغضون جين شان، فتكلم سرًّا مع جانماو [وزير عظيم بدولة وي] قائلًا: «يبدو أن ما يحظى به تشانغي من ذكاء وحصافة رأيٍ يؤهلانه للترقي في بلاط كلٍّ من دولتي تشين وتشو، ما يعنى المزيد من المتاعب لك في المستقبل، وأرى من الأفضل لك أن ترصد له من يقوم باختطافه وقتله، وبالطبع فسوف تثور ثائرة ملك تشو، وقد ينجم عن ذلك أن يتحرَّج موقف تشانغي، وبالتالي يعلو نجمك، وتحظى بما كان وقف عليه من تقدير وتكريم، فإذا ما اندلعت الحرب بين تشين وتشو، تجنبت دولة وي الويلات وانزاحت من طريقها العقبات.»

وبالفعل فقد أوصى: «جانماو» بالرجل من اختطفه ودق عنقه، فهاج ملك تشو وماج، واشتعل أوار المعارك بين تشو وتشين، وتأجج نطاها بمرور الأيام، وراحت كلتاهما تتقرب من دولة وي وتخطب ودَّها، ثم إن جانماو تَرَقَّى في مراقي التقدير وبلغ غاية التكريم.

لمَّا أغارت تشين على هانجون

أغارت تشين على هانجون وكبَّدت قوات دولة تشو خسائر فادحة، وهزمتها شر هزيمة، واقتيد ملك تشو، بالخديعة، إلى دولة تشين، حيث جرى اعتقاله والتحفُّظ عليه، وذهب أحد المُناظرين السياسيين لينافح عنه لدى ملك تشين، حيث قال لجلالته: «لو كان في نية جلالتكم تكبيل يدي ملك تشو، وإلقاؤه في الحبس كي يخلو لكم طريق مهاجمة بلاده بالتحالف مع باقي الممالك والدويلات، فهذا تدبير غير أخلاقي، يُسيء إلى هيبتكم، أصلًا، ولا يجدُر بكم اللجوء إليه؛ فإذا رأيتم مهاجمة تشو وحدكم دون التحالف مع باقي الدويلات، فذلك أمر يضر أبلغ الضرر بمصالح بلادكم، والأصوب من ذلك كله، أن تقوم بعقد حلفٍ مع ملك تشو وتدعه يعود إلى بلاده، إذ قد لمستم مدى خشيته من قوة بلادكم بالدرجة التي تحُول بينه وبين خيانة مواثيقه معكم، وحتى لو حدث أن خرج على اتفاقه معكم فستستطيعون وقتئذٍ تنسيق هجوم مشترك مع الدول الثلاث: تشي، وهان، ووي؛ ولن يُماري أحد في أنها ستكون حربًا عادلة بحق.»

لمَّا كان ملك تشو مُقيمًا، وهو أمير صغير بدولة

عندما كان الملك شيانغ، حاكم تشو، مقيمًا بدولة تشي، رهينة لضمان استقرار السلام، وهو بعدُ أمير صغير، بلغَه في تلك الآونة خبر وفاة الملك هواي، فذهب إلى الملك «مين» —

حاكم تشي — ليستأذنه في العودة إلى الوطن، فرفض جلالته، قائلًا: «لن أسمح بعودتك إلا إذا تنازلتَ لي عن منطقة «هوايبي» الملاصقة لحدودنا مع بلادكم والتي تبلغ مساحتها خمسمائة لي.» فقال الأمير: «دعني أتكلم في هذا الأمر مع أستاذي الذي تلقيتُ العلم على يدَيه.» ثم قصد إلى أستاذه «جنزي»، وكان مما أجابه به هذا المعلم: «أرى أن تجيب الملك طلبه، وتُهديه الأرض التي اشترط الحصول عليها، صونًا لحياتك، ثم إنه ليس من البر أن تجعل من حرصك على الأرض سببًا يحول بينك وبين حضور جنازة أبيك؛ لذلك فمن الصواب أن تُذعن بالموافقة.» وهكذا فقد طلب الأمير الإذن بالمثول بين يدي الملك ليُنهي إليه قراره، قائلًا: «بمزيد الاحترام نهدي إلى جلالتكم الأرض التي مساحتها خمسمائة لي». وعندئذٍ، أشار الملك بالسماح للأمير بالعودة إلى وطنه.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وبعد أن عاد الأمير إلى الوطن اعتلى سُدة العرش، وقد تمَّ تنصيبه ملكًا على البلاد، وحدث أن دولة تشي أرسلت خمسين عربةً عسكرية مع وفدٍ رسمي إلى القصر الحاكم في تشو؛ وذلك لاستلام منطقة «هوايبي» الملاصقة للحدود بين البلدَين، فتكلم الملك مع مُعلمه جنزي، قائلًا: «ها قد وصلت وفود من تشي لاستلام أرض هوايبي، فما العمل؟ وكيف نتصرف إزاء ذلك الأمر؟» فأجابه: «أقترح عليك أن تطلب من الوزراء عندما يحضرون غدًا للقائك، تقديم وجهات نظرهم في هذا الشأن.»

فلما حضر إلى القصر كبير الموظفين الرسميين المدعو «تسي ليان» لحضور الاجتماع، ابتدره الملك قائلًا: «ما كنت أستطيع العودة إلى البلاد، والمشاركة في تشييع جنازة الملك الراحل، والالتقاء بالسادة الوزراء والمسئولين في بلادنا، واعتلاء العرش الملكي إلا لِما وعدت به دولة تشي من أن أتنازل لها عن أرض هوايبي، التي تقدر مساحتها بخمسمائة لي، وها قد وصلت الوفود من تشي تريد استلام الأرض وإنجاز الوعد، فما القول في ذلك الأمر، وكيف نتصرف لمعالجة تلك المسألة؟» فأجابه الرجل بقوله: «ليس لجلالتك أن تمتنع عن تسليم الأرض لهم؛ فكلامك له وزنه وأهميته، وما دمت قد وعدت المسئولين في بلد كبير، مثل تشي، ذي قوة ومهابة (وعتاد عسكري يبلغ عشرة آلاف عربة عسكرية) فليس لك أن تخلف الوعد، وإلا فقدت مصداقيتك، وتزعزعت ثقة القوم فيك، وتعذر عليك منذ اليوم، أن تعقد المواثيق والمعاهدات مع أيٍّ من الدويلات والممالك، فالمطلوب منك أن تُنجز وعدك، ولك بعد ذلك أن تسترد الأرض بالقتال. فإنجازك الوعد يدعم الثقة فيك، واستردادك الأرض

بالقتال تصرُّف يليق بالشجعان؛ ولذلك كله فإني أرى من المناسب أن تعطيهم الأرض التي وعدتهم بها.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

فلمَّا انصرف «تسي ليان»، دخل الوزير الأعظم «تشاو شانغ» لمقابلة الملك، الذي قال له: «قد أرسلت دولة تشي في طلب الأرض ذات المساحة البالغة خمسمائة لي، فماذا ترى للخروج من ذلك المأزق؟» فأجابه: «لا تسلمهم شيئًا، ولا يهولنَّك ما يُقال من امتلاكهم عشرة آلاف عربة مقاتلة، فإنما هذا مجرد زعم يناسب بلدًا هائل المساحة مُمتد الأطراف، ثم إذا سمحت لهم باقتطاع منطقة هوايبي بمساحتها الخمسمائة لي، فإنما تقتطع ما مقداره نصف أراضي بلادك كلها، ولئن كنا نزعم (من باب التهويل) أننا نملك عشرة آلاف عربة مقاتلة، فإن مبلغ مقدرتنا الحقيقية لا يتجاوز ألف عربة، كلَّا، لست أوافق على إعطاء الأرض لهم، بل أرجو أن تسمح لي جلالتك بالذهاب إلى تلك المنطقة تأهبًا للدفاع عنها.»

ولَمَّا خرج تشاو شانغ من عند الملك، دخل جين لي ليمثُل بين يدي جلالته، حيث كلَّمه، قائلًا: «تُرى ما الذي تشير عليَّ به إذ أرسلت تشي تريد ضم أرض هوايبي بمساحتها التي لا تقل عن خمسمائة لي؟» فأجابه: «مُستحيل أن توافق على ذلك، غير أني أرى من الأوفق ألا نركن إلى قوتنا المحدودة في الدفاع عن أرضنا، وقد تكلمت كرجل دولة مسئول، فإذا تقاعست عن تحقيق ما وعدت به ذاع الأمر في الممالك والتصقت بك سمعة رديئة مفادها أنك غير ذي ثقة، لكننا يجب أن ننتبِه إلى أن دولة تشو لن تتمكن وحدها، من الوقوف في وجه محاولات اقتطاع أرضها؛ لذلك أرجو منك التوجه غربًا لطلب العون من دولة تشين».

الجزء الرابع من الفصل نفسه

لَمَّا انتهت مقابلة «جين لي» مع الملك وخرج من عنده، دخل جنزي إلى جلالته، فأخبره بأمر الخطط الثلاث التي ارتآها المسئولون البارزون الذين التقوا به، قائلًا: قابلت «تسي ليان» فقال: «لا بد من أن تُعطيهم الأرض ولك أن تستردها بالقتال بعد ذلك.» ثم لَمَّا قابلت تشاو شانغ، قال لي: «لا تفرط في الأرض بل أرجو أن تأذن لي بالتحصُّن فيها والدفاع عنها.» فلما سألت جين لي عن رأيه، أجابني بقوله: «لا تسلمهم الأرض غير أنك لن تقدر بالاعتماد على قوتك فقط أن تحمي موقفك، فاسمح لي بالذهاب إلى تشين طلبًا للعون.» ... فما هي

الخطة الأنسب من بين تلك الثلاث؟» فأجابه أستاذه: «كلها معًا، في وقتٍ واحد يا مولاي!»، فتغير وجه الملك من الغضب، قائلًا: «ماذا تقصد بقولك هذا؟» فأجابه: «ائذن لي بتوضيح ما ذكرت لك حتى ترى الأمر على النحو الذي أبينه لجلالتك، وبادئ ذي بدء فإنك ستقوم بإيفاد تسي ليان (أكبر الموظفين الرسميين) لقيادة خمسين عربة عسكرية تتجه شمالًا نحو دولة تشي لتسليم الأرض ذات الخمسمائة لي، وفي اليوم التالي مباشرةً، توفد تشاو شانغ بوصفه قائدًا للفرسان وتأمره بالدفاع عن أرض هوايبي، ثم تقوم في اليوم التالي بإرسال جين لي على رأس بعثة قوامها خمسين عربة عسكرية ليتجه إلى دولة تشين طلبًا للتدخل والعون.» وهنالك أقره الملك على رأيه معلنًا موافقته التامة، ثم إنه أرسل تسي ليان شمالًا تجاه دولة تشي لتسليم الأرض، وفي اليوم التالي قام بتعيين تشاو شانغ قائدًا للفرسان وأمره بالتوجُّه إلى هوايبي لحمايتها والدفاع عنها، ثم أوفد جين لي إلى تشين طالبًا تدخلها العاجل لإنقاذه.

الجزء الخامس من الفصل نفسه

ما إن وصل تسي ليان إلى دولة تشي، حتى أسرع حاكمها بإرسال الجنود (من لابسي الخوذات والدروع) تحت قيادة موفدِه بغرض استلام أرض هوايبي، فلمَّا وصلت القوات إلى هناك وجدت تشاو شانغ وقد قام معترضًا طريق الوافدين قائلًا: «أنا المسئول الأول عن حماية منطقة أرض هوايبي، ولن يقترب منها أحد إلا على جثتي [حرفيًّا: أنا والأرض سواء، بقائي ببقائها وهلاكي في استلابها!] وقد حشدتُ لكم الحشود من الشيوخ والشباب حتى اجتمع لديَّ جيش قوامه ثلاثمائة ألف مقاتل وسنصبر على حربكم، ولو كانت الدروع صدئة، وسنثخن فيكم وإن كانت النصال كليلة.» ثم إن حاكم تشي تكلم مع تسي ليان قائلًا: «ما دمت قد جئت يا سيدي لتُنهي إليَّ مسألة استلام الأراضي، ففيمَ مرابطة تشاو شانغ للدفاع عن الإقليم المزمع التنازل عنه؟» فأجابه: «لكني قد تلقيتُ الأمر الذي أنهيته إلى جلالتك عن حاكم تشو شخصيًّا، ولا بد من أن تشاو شانغ يتصرف على مسئوليته الشخصية متعللًا بحجةٍ واهية ينسبها إلى مليكه، سيد البلاد، دون سند أو دليل، فاضربه حيث وجدته.» فجهز ملك تشي الجيوش وأغار بحملة كثيفة الرجال والأسلحة على هوايبي، يريد الظهور على تشاو شانغ، فلمَّا اقتربت القوات من المنطقة المطلوبة، فوجئت في طريقها بجيشٍ قادم من دولة تشين قوامه خمسمائة ألف مقاتل، يزحف تجاه حدود تشي في المنطقة الغربية، واقترب منها قائد قوات تشين ليقول: «إن الحيلولة دون عودة الأمير إلى

وطنه للمشاركة في تشييع جثمان أبيه الملك المتوفَّى، يعد سلوكًا مُجانبًا للإنسانية، هذا بالإضافة إلى أن استغلال الأوضاع لاقتطاع ما مساحته خمسمائة لي من منطقة هوايبي، يُعد مسلكًا ظالمًا لا عدل فيه ولا رحمة، فإذا رجعتم من حيث أتيتم فنعم الأمر إذن، وإلا (إذا استمرأتم المُضي قدمًا) فانتظروا الحرب …» فلمَّا كان حاكم تشي يرهب جانب تشين للغاية، فقد استدعى تسي ليان، وطلب إليه سرعة العودة إلى تشو، اجتهادًا في إظهار نوايا المصالحة، كما أرسل جلالته وفدًا إلى الغرب لزيارة دولة تشين بهدف توضيح ملابسات الأمور، وسعيًا لإزالة التوتر وسوء الفهم بين البلدَين، وهكذا استطاعت دولة تشو أن تحتفظ بإقليم هوايبي دون أن تدفع بقواتها إلى ميدان القتال.

لمَّا تكلمت مربية أمير تشو مع سوتشين

تحدثت خادمة الأمير [المرأة التي تولت تربية أمير تشو] إلى سوتشين، فقالت له: «كنت أنت السبب في اعتقال ملك تشو بدولة تشين، وتحديد إقامته بها، مثلما كنت السبب في المصائب التي حلت بأمير البلاد؛ وذلك لأنك ترى في عودة الملك من محبسه، والأمير من القيود المفروضة عليه، خطرًا عليك، وأيَّما خطر، وأرى من الأفضل لك أن تبعث من يقول للأمير: «لو نما إلى علم سوتشين أنك تبغضه، فسوف يفكر في شتى الطرق التي لن تجلب عليك إلا المزيد من المصائب، فلا مَعدى لك من التودُّد إليه، وعقد أواصر الصداقة معه؛ مما سيدفعه إلى مساعدتك في العودة إلى الوطن».» وبالفعل، فقد أرسل سوتشين إليه من أقنعه بتلك الأفكار، وهكذا أخذ الأمير يسعى من جديد، في إقامة جسور الثقة والمودة مع سوتشين.

سجل تشو الثالث

لمَّا تحدث سوتشين مع الملك هواي

تحدث سوتشين إلى الملك هواي، حاكم تشو، فقال له: «(اعلم) أن الرجل الفاضل الكريم يُحب الناس ويعطف على رعيته بكل صدق وإخلاص، ويتحدث إليهم بأطيب الكلمات، (كما أن) الأبناء البررة يبذلون كل مادي ومعنوي شفقة ورفقًا بأبويهم، كذلك فإن الوزير المخلص هو من يرشح ذوي الحكمة والرشاد ليكونوا أعوانًا لمليكهم (في إدارة شئون الحكم).

غير أن رجال الملك ووزراءه لم يعودوا يسلكون هذا النحو، بل أصبحوا مولَعين بالإساءة إلى الحكماء، تزكية لأنفسهم، وطمعًا في ترقي مراتب الشرف وحدهم، وأثقلوا على الناس وعلى الشرفاء والنابهين بما فرضوا عليهم من الضرائب الباهظة، حتى أوقعوا في قلوب الأهالي السخط على سيد البلاد، فلا يمكن أن يكون مثل هؤلاء الوزراء مخلصين لمليكهم. ثم إنهم، بعد إذ رموا وجه الملك بكل نقيصة أمام شعبه، قاموا باستغلال أرضه في رشوة من يروق لهم من أمراء الدويلات والأقاليم، فأزاحوا من طريقهم كل الوزراء الذين وجدوا حظوة لدى جلالته (كي يفوزوا وحدهم بأقرب المواقع إلى قلبه واهتمامه) فهؤلاء، أيضًا ارتدوا قناعًا زائفًا من الإخلاص، فأوقعوا بالبلاد في أدهى الكوارث، وكل ما أرجوه من جلالتك هو ألا تُصدق ما يشاع على أفواههم من الوشايات والافتراءات والأكاذيب، وأن تتوخَّى بالغ الحذر والفطنة عند تعيين رجال الدولة والولاة؛ وذلك بأن يقع اختيارك على أكثر الناس قبولًا من الشعب، كما أرجو منك أن تضبط مُيولك وأهواء نفسك، كي تبسط

فوق الجميع مظلة الأمن والاستقرار. إن أصعب ما يمكن أن يُواجهه رجل الدولة المسئول، هو أن يتولى بنفسه ترشيح ذوي الحكمة للترقي في المناصب العُليا دون أدنى شعور بالغيرة أو الحسد. وقد يكون من السهل على الكثير أن يضحُّوا بأنفسهم فداء لجلالة الملك، بل قد حدث بالفعل أن عددًا غفيرًا من الناس قتلوا في المعارك الدامية دفاعًا عن التاج الملكي، وقد يسهل على المرء أن يُوصَم بالمخازي وأن يتلقى كل ألوان المهانة ليسلم الشرف الملكي من النقائص، ثم إن الجميع، بما في ذلك أكبر موظفي القصر إلى أدنى عامل بسيط، لن يتوانَوا عن مقاساة التجريح والإهانة لأجل العاهل الكريم. (كل ذلك ممكن ووارد بكل تأكيد ...) أما أن يقوم المرء بترشيح ذوي الكفاءة والخلق الكريم (في المواقع الوظيفية المرموقة) دون إحساس بالغيرة أو الحسد؛ فهذا ما لم أسمع أن أحدًا قام به (على هذا الوجه من السهولة ...) من قبل؛ لذلك فإنه ينبغي على الحاكم ذي البصيرة الثاقبة أن يختبر وزراءه، ليقف على مدى ما يعتمل في قلوبهم من مشاعر الغيرة، ودرجة ما يتمتعون به من القدرة على (النزاهة والموضوعية التي تُمكنهم من ...) ترشيح الأكْفاء من الناس، فإن أولئك الموسومين بالاقتدار والحكمة، هم بدورهم القادرون على التفاني في العمل مع الملك، وفي ترشيح نظرائهم للعمل في البلاط الحاكم دون تباغُض أو تحاسد؛ حيث إن مكمن الصعوبة في هذا، هو أن الوزير الذي يقوم بترشيح أكفأ الناس لخدمة جلالته، يخاطر بأن يأتي بمن يتفوقون عليه، فيرذل في عين مولاه؛ ذلك أن صعود الآخرين على سلم المجد يعني سقوطه وضياع قدره، وهو ما يشق على المرء احتماله.»

لمَّا وصل سوتشين إلى دولة تشو

لمَّا وصل سوتشين إلى دولة تشو، فقد بقي ثلاثة أيام جالسًا في انتظار أن تُتاح له فرصة مقابلة جلالة الملك، (وعندما التقى بجلالته و...) انتهت المباحثات بينهما، استأذن سوتشين في الانصراف عائدًا إلى بلاده، فقال له الملك: «قد سمعت الكثير عنك، وبلغني ما يُشنِّف الآذان من شهرتك ومجدك وعلو قدرك، فأكبرتك بما يليق بك، بل بذلت من الاحترام مثلما أبذل ما في قلبي للحكماء والقديسين، من الأقدَمِين والحاضرين، وإني لأعجب إذ أراك تقطع كل تلك المسافة الطويلة مسافرًا إلينا، ثم تبادر (إثر انتهاء اللقاء معنا) إلى السفر حالًا، دون أن تبقى للمقام قليلًا، فما الذي يمنعك من البقاء ها هنا (... أخبرني بالسبب)، إذا سمحت لي بهذا السؤال، من فضلك [هكذا حرفيًّا].» فأجابه سوتشين، بقوله: «قد لبثتُ في بلادكم قليلًا، فإذا بي أفاجأ بأن ثمن الطعام أغلى من سعر المجوهرات الثمينة، وأن

الحطب (الذي توقد به النار) أعز من النباتات والأعشاب الطبية، واكتشفت أن السعاة والُموظفين المكلَّفين بترتيب الإجراءات الإدارية والعمل على تسهيل مهمتي، يمرقون من أمامي كالأشباح الهاربة، فلم أجد منهم من أستعين به في قضاء المهام الضرورية، وبَدَا لي أن اللقاء مع جلالتك أعز طلبًا من مقابلة رب السماء، وعلى أية حال، فها قد أُتيح لي — أخيرًا — أن أطعم الجواهر الثمينة وأن أستعمل الأعشاب الطبية في إشعال الوقود بدلًا من الحطب، وأن ألتقي بمقامك الأشرف كما لو كنت ألتقي بإله السماوات.» فقال له الملك: «أرى أيها السيد الكريم أن تذهب إلى دار الضيافة لتريح جسدك فقد فهمت ما ترمي إليه.»

لَمَّا طلب الملك الحاكم من دولة وي

طلب الملك هواي حاكم تشو، من دولة وي القيام بطرد تشانغي من البلاد، فلما سأله تشين جين عن السبب في طلبه هذا، أجابه الملك بقوله: «لم أعهد فيه، كرجل دولة مسئول، أي قدر من الإخلاص ولا أية دلائل من الثقة.» فقال له تشين جين: «إن كان غير مخلص، فلا تتَّخذه وزيرًا، وما دمتَ قد وجدته غير جدير بثقتك، فلا تعقد معه ميثاقًا أبدًا، وفوق ذلك كله، فما الذي يضيرك إذا كان الرجل الذي تراه غير أهلٍ للثقة والإخلاص أحد وزراء دولة وي وليس أحد رجالك الُمقربين؟! وما النفع الذي كان يعود عليك لو كان تشانغي على القدر التام من الإخلاص والثقة؟ والآن، وبعد أن رأيت أنه من المناسب أن يتم طرد تشانغي من منصبه الوزاري، فيمكنك أن تُعبر عن رغبتك هذه لملك وي، وربما يستجيب جلالته لطلبك، ولو سار الأمر على هذا النحو لما كانت هناك أية مشكلة، لكن افترض أنه رفض طلبك، فكيف بك وأمراء الأقاليم والدويلات يرَون طلباتك تلقى الرفض، وتوسلاتك تقابل بالاستهانة، أما تصير في مأزق شديد، وأزمة على درجة بالغة من الحرج؟ ثم انظر إلى الأمر من الجهة المقابلة، وتأمل الوضع الذي يمكن أن تجد دولة وي نفسها فيه، خصوصًا أن دولة وي بعتادها العسكري البالغ عشرة آلاف عربة مقاتلة، هي التي يراد منها أن تسحب الثقة من وزيرها الأعظم ... وأقل ما يمكن أن يقال عنها أو أن توصف به عندما توافق على طلبك هذا، أنها تذعن لإملاءات تُفرَض عليها تحت التهديد والضغط، وكفى بهذا إهانة بالغة.» [وكانت مشكلة تشانغي، أنه، وهو الوزير الأعظم لدولة وي، يُخطط لعقد تحالف بين وي وتشين وهان لضرب كلٍّ من تشي وتشو؛ فلذلك أراد حاكم تشو عزلَه من منصبه وطرده].

لمَّا ذهب تشانغي في زيارة إلى دولة تشو

ما كادت تنقضي فترة من الوقت بعد وصول تشانغي إلى دولة تشو، حتى نفدت الأموال التي كان يحملها معه في سفارته، فضج العاملون الذين كانوا يقومون بخدمته ورعاية شئونه، وفكروا في العودة إلى بلادهم فقال لهم تشانغي: «لا بد أنكم تريدون العودة، لأن ملابسكم قد تهرأت، فانتظروا حتى ألتقي بملك تشو (وأتدبر أمر توفير بعض المال!).» وكان ملك تشو في تلك الأثناء يقرب إليه امرأتَيه: السيدة نانهو، والسيدة جنشيو، ويميل إليهما بكل قلبه، فلما ذهب تشانغي لمُقابلة جلالته، بَدَا عليه الضيق والتبرُّم بهذه المقابلة، فابتدره تشانغي قائلًا: «أريد أن أعرف طلبات جلالتك من دولة سان جين [... أي دولة «وي»، وهي تسمية اشتهرت بها تلك الدولة أثناء فترة الدول المُتحاربة].» فأجابه: «لدينا في تشو كل ما تشتهيه الأنفس من الذهب، والعاج، وقرن الكركدن [هكذا] فليس هناك ما يمكن أن نطلبه من دولة وي.» فقال له تشانغي: «ألا تُحب النساء يا مولاي؟» فأجابه: «ماذا تقصد بقولك هذا؟» فقال: «ألا ما أجمل وأشهى وأحلى نساء «الهان» و«جاو» ببشرتهن البيضاء وشعرهن الأسود الفاحم، إنهن يخطرن في الطرقات فيتهيأ لمن لا يعرفهن أنهن الحور أو بنات الآلهة قد نزلن من الجنان أو هبطن من علياء السماء.» وهنالك قال له الملك: «ها قد أدركت أن دولة تشو شديدة البعد (عن لمسات التحضر والجمال) بموقعها المتطرف وحدودها النائية؛ إذ لم يسبق لي أن رأيت في حياتي، مثلما وصفتَ من تلك الروعة والحسن والجمال، فلماذا أنأى بنفسي (أنا الآخر) عن الاستمتاع بالجمال الأنثوي الفتان؟» وهكذا فقد سارع ملك تشو إلى الإغداق على تشانغي بالكثير من المجوهرات والأحجار الكريمة واللآلئ الثمينة.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

فلمَّا علمت المرأتان: نانهو، وجنيشو بما عزم عليه تشانغي من إدخال السرور على قلب الملك باللهو مع الحسناوات، تكدر حالهما وبلغتا من الخوف مبلغًا عظيمًا، وأرسلتا إلى تشانغي من همس له: «إنه قد بلغنا أن فخامة القائد ذاهب إلى دولة وي (في مهمة عاجلة) ولما كنا نجد بحوزتنا ما يكفي من المال والجواهر، فقد رأينا أن نُهديك منه ما تسخو به على عمالك وتتجهز به في حملتك [حرفيًّا: تشتري به علفًا لجيادك!]» ثم إنهما أرسلتا له ما مِقداره خمسمائة مثقال من الذهب.

ولَمَّا أوشك تشانغي على الرحيل، تكلَّم مع الملك قائلًا: «قد صارت كل الطرق مغلقةً بسبب ما أقدمت عليه الممالك من سدٍّ كل الممرات المؤدية إلى مواقعها الحصينة، ولا أدري [إذا خرجت في سفري هذا] متى أعود إليك، فكم أتوق إلى شراب معك نخب الوداع». وأبدى الملك كل الترحيب وقدم له أقداح الخمر، ولعبت النشوة بالرءوس وأصاب تشانغي قدرًا من الثمالة، وتكلم مع ملك «تشو» بكلام مشوب بسكرة الشراب وراح يشكره ثانية ويرجوه قائلًا: «ليتك يا مولاي، تدعو إلى جلستنا هذه من تطيب لك صحبته، فنشرب جميعًا ويصفو لنا الوقت.» وهكذا فقد وافق الملك على هذا الاقتراح، ودعا برفيقتيه جنشيو ونانهو لمشاركته تلك الجلسة الرائقة، وهنالك أثنى تشانغي على الملك وقال له فيما يُشبه الاعتذار: «أريد أن تغفر لي ما اقترفته في حق جلالتك من إساءة بالغة.» وعندما استفسر منه جلالته عن سبب قوله هذا، أجابه: «قد طفت بأرجاء البلاد والممالك كلها، فلم أرَ مثيلًا لهاتَين السيدتَين في حسنهما ورقتهما وظرفهما، فكم كنت ضالًّا ومخادعًا وكاذبًا عندما طالعتك بموضوع النساء الفاتنات وما إلى ذلك.» فقال الملك: «لا عليك من هذا الأمر، فلطالما ظننتُ أن ليس على الأرض كلها نساء في مثل جمال وفتنة هاتين المرأتين.»

لَمَّا قام الملك هواي بإيفاد جاوجي

قام الملك هواي حاكم تشو بإيفاد جاوجي إلى دولة تشين، وذلك للقيام بحملة دعاية سياسية تهدف إلى إقناع المسئولين هناك بتعيين تشانغي (في منصب بارز)، لكن القدر لم يمهل حاكم تشين (جلالة الملك هواي) الذي توفي في تلك الأثناء، فما كان من خليفته على العرش (الملك أو) إلا أن قام بطرد تشانغي من البلاد، ومن ثم فقد تحرك ملك تشو على الفور وقام من جانبه بإلقاء القبض على جاوجي في محاولة منه للتودُّد إلى دولة تشي، وقد حاول «هوان سان» أن يخرج جاوجي من تلك الأزمة بأن ذهب مباشرةً إلى ملك تشو، وقال له: «تعرف جلالتك أن التحالف بين الدول الثلاث: تشين، وهان، ووي، لم ينجح بعد، ويرجع ذلك إلى حجم السلطة التي يملكها تشانغي في تصريف الأمور بدولة تشين ثم إن علاقته وثيقة جدًّا بذلك المدعو جاوجي، فلئن كان الملك هواي قد تُوفِّي وقام مكانه الملك أو، وتم طرد تشانغي؛ فلا بد أن نفوذ كلٍّ من كانماو، وكونسون هاو سيبلغ شأوًا كبيرًا، ولك أن تعرف أن علاقة كانماو بدولة «وي» قوية جدًّا، وكذلك فإن صلة كونسون هاو بدولة هان متينة للغاية، وإذا عرفنا أيضًا أن علاقة هذين الرجلين ب «جاوجي» بالغة

السوء، فلا بدَّ أنهما سيقترحان على دولة تشين التحالف مع كلٍّ من وي وهان، وإذا كانت هاتان الدولتان تُعظمان شأن تشانغي (في وقتٍ ما من الأوقات)؛ فلأنه كان الرجل الذي يقبض على زمام السلطة الفعلية في تشين، بل كان جاوجي يُعظم شأنه أيضًا، ويُبجِّله كل التبجيل معتمدًا على قوة دولة تشو؛ وبالنظر إلى ذلك كله وإلى ما نراه اليوم ماثلًا أمامنا؛ إذ نجد تشانغي مطرودًا من تشين وجاوجي تحت الاعتقال، فلا بد أن كلًّا من هان ووي ستسعيان إلى توثيق علاقتهما بـ كانماو وكونسون هاو، إذا ما بَدَا لهما أن تستميلا «تشين» لمؤازرتهما، ولا بد أن هذين الرجلَين سيحثان هان ووي على مهاجمة دولة تشو، تحقيرًا واستصغارًا لشأن تشانغي، وهو ما يعرض مصير مدينة «فان» للخطر الشديد، وأرى يا مولاي أن من الأفضل إعادة الاعتبار إلى جاوجي وتمكينه من سلطاته السابقة، مما سيدفع بدولتي وي، وهان إلى تنصيب تشانغي في أهم المواقع الوظيفية، وهكذا يتمكن، في موقعه الجديد، من مهاجمة تشين، معتمدًا على قوة تشو وقوة منصبه ونفوذه في وي. وعندما تقلع دولة وي عن أي نشاط للتحالف مع تشين، فلا بد من أن دولة هان (هي الأخرى) ستمتنع عن أن تكون مجرد ذيل تابع لـ «تشين» وهنالك تزول سحابات الخطر المنعقدة فوق مدينة «فان».»

لمَّا قام تشانغي بطرد هويشي

قام تشانغي بطرد هويشي [أحد مواطني سونغ، عمل رئيسًا لوزراء وي، ويقال إنه كان فيلسوفًا مشهورًا في زمانه] من دولة وي، فقصد إلى دولة تشو، حيث استقبله حاكمها وشمله برعايته مما دفع بواحدٍ من المسئولين (ويدعى فنغهاو) إلى أن يقصد جلالته، ليقول له: «(اعلم) يا مولاي أن الرجل الذي قام بطرد هويشي هو تشانغي، ومع ذلك فها أنت تستقبل الرجل لاجئًا في أرضك وتكرم وفادته؛ وهو ما يمكن أن يوصف باعتباره خداعًا وغدرًا بما بينك وبين تشانغي من المواثيق؛ لذلك فإني أستطيع الحكم على تصرفك هذا بأنه سلوك غير صائب؛ ذلك بأن لجوء هويشي إلى تشو مطرودًا بيد تشانغي يمكن أن يفسد أجواء علاقتك مع تشانغي، وهو أمر لن يرضاه اللاجئ المسكين، هذا بالإضافة إلى ما يعلمه الجميع من قيمة هذا الرجل والاحترام البالغ الذي يشغله في قلب ومشاعر ملك سونغ.

وتقديري أن الإقدام على تصرف من شأنه أن ينقل أحد أخلص وأنبل أصدقائك من صف الموالين المُبجلين إلى صفوف الأعداء الناقمين؛ يُعد قرارًا بالِغ التسرُّع والتخبط، (فمن

ذا يمكن أن يقتنع بأن قرارك يهدف إلى تحقيق مصالح البلاد العليا؟) وهكذا، فالأفضل أن ترسله إلى دولة سونغ، حيث ينخرط في صفوف مواطنيها (بكل ترحيب وقبول) ثم تبلغ تشانغي بما نصه: «أرجو الإحاطة بأني سوف أقوم بإبعاد «هويشي» عن بلادنا، لأجلك أنت، رعاية لحقك علينا!» ولا بد أن تشانغي سيشعر ببالِغ الامتنان لجميلك هذا، (هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى) فإن جلالتك ستبدو أمام اللاجئ الكريم وكأنك لم تشأ أن توقعه في مزيدٍ من التعقيدات والمِحَن التي يمكن أن تواجهه (إذا ما أقام بأرضك) ومن ثم فقد رأيت من الأوفق أن تصحبه إلى طريق سفره نحو دولة سونغ، وهو ما سيحمده لك ببالِغ الشكر والاحترام، وبهذه الطريقة تكون قد ساندت موقف تشانغي على نحوٍ ملموس، وأثرت في قلب هويشي مشاعر الامتنان لك.» وعندئذٍ فقد أبدى الملك موافقته التامَّة على هذا الرأي، وبالفعل فقد بادر إلى إرسال هويشي إلى دولة سونغ حيث يتم استقباله بكل سرور.

لمَّا قامت الدول الخمس بمهاجمة تشين

قام تحالف الدول الخمس: تشو، وجاو، ووي، وهان، ويان بمهاجمة دولة تشين، ورأت دولة وي أن تسعى في إقرار المصالحة مع تشين، ومن ثم، فقد أرسلت هويشي إلى دولة تشو، حيث تم الإعداد لإيفاد هويشي إلى تشين ليرأس مباحثات الصلح معها.

وهنالك، ذهب دوها إلى تشاويانغ [وزير عظيم بدولة تشو] وقال له: «من الملاحظ أن الدول الخمس المهاجمة لدولة تشين قد تحركت تحت قيادة دولة تشو، التي تستقبل اليوم هويشي قادمًا إليها باسم دولة وي، ثم إنكم ستوفدونه إلى تشين لعقد المصالحة، والمعنى المبطن في الأمر كله، والذي ستفهمه تشين بوضوح هو أن الحرب إذا قامت فإن «تشو» لها اليد الطولى والزعامة في إشعال فتيل النار، أما إذا تعلق الأمر بالسلام فإن وي هي التي تتزعم الجميع، وأرى من الأفضل أن تضرب صفحًا عما يقوله لكم هويشي، على أن ترسلوا، من قبلكم، وفدًا يُطالب بالمصالحة والإذعان لمطالب «تشين» …» وبالفعل فقد وافق تشاويانغ على هذا الرأي، وقال لـ «هويشي»: «(كما تعرف) فإن كل الدول المهاجمة لدولة تشين كانت تتحرك ضمن فريق بزعامة دولة وي، فإذا ذهبتَ معي الآن إلى تشين لعقد مباحثات الصلح، فسوف تكون الفوائد الطيبة من نصيب دولة تشو، أما بلادكم (وي) فلن تجني سوى الحسرة والمرارة، فارجع الآن إلى بلدك، وسوف أوفد من طرفي رسولًا إلى وي ليرتب معها اتفاق السلام مع تشين بحيث تتم الوساطة في ذلك عن طريقها.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

ثم عاد هويشي إلى دولته، وقد صار قلب الملك مشغولًا، ودارت برأسه الأفكار وركِبته الهموم، وحدث أن ذهب دوها إلى تشاويانغ، وقال له: «تعرف أن دولة وي لم تبادر إلى إشعال فتيل الحرب إلا لأجلكم، وتعرف أيضًا أنها خسرت نصف قواتها في هذه الحرب وعندما أبلغتكم بما تعرضت لها قواتها من أزمات ومشاكل، تغافلتُم عنها، بل عجزتم عن إقرار السلم عندما طالبت الجميع بالنهوض إليه، ولا أظنكم تستطيعون الخروج من المأزق الحرج الذي يمكن أن تضعكم فيه إذا ما عنَّ لها أن ترجع القهقرى؛ لتطلب المدد والعون من دولتي تشي، وتشين، فهل حقًّا تملكون الخروج من تلك الورطة لو وقعتم فيها؟ (من الوارد جدًّا) أن تجد دولة تشو نفسها داخل إطارٍ كبير من العزلة تُحيط بها من كل جانب، حيث تكمن لها جهة الشرق، دولة «يوي» بما يمكن أن تخلفه لها من عقبات (ومضايقات) وإلى الشمال تقبع دولة وي، التي لن تتحمَّس لتقديم أي عون يذكر، هذا بالإضافة إلى أن تشو لم تبادر حتى الآن إلى إقامة علاقات دبلوماسية مع كل من دولتي تشين، وتشي. وهكذا فليس أفضل من الإسراع إلى طلب الصلح مع دولة تشين، وهنالك أقره تشاو على وجهة نظره، وأرسل مبعوثًا إلى كل من وي وتشين لإبلاغهما برغبة تشو في الصلح معهما.

عندما طلب تشن جن من ملك تشين الإذن بالسفر

طلب تشن جن من حاكم تشين الإذن بالسفر إلى دولة وي، وكان تشانغي قد التقى بحاكم وي وتحدث إليه بما يسيء إلي تشن جن أشد إساءة، قائلًا: «(ولتعلم جلالتك) أن المدعو تشن جن ما فتئ يعمل لما فيه مصلحة دولة تشو، ويبذل كل جهد ممكن للحصول على مساحات من الأرض كي يضعها تحت سيادة تشو.» وهنالك تحدث تسو شوان [أحد مواطني دولة وي] إلي تشن جن، قائلًا: «إن العلاقة بين تشانغي وجلالة ملك وي لا تنفصم عراها، وهو موضع ثقة جلالته للغاية، ومهما حاولت أن تقنع القصر بوجهة نظرك فلن تجد أذنًا صاغية، وهكذا، فإني أرى من الأفضل لك أن تتَّخذ من مقالة تشانغي ضدك تُكَأة (للاحتجاج) والعودة إلى تشو.»

فاقتنع تشن جن بكلام مُحدِّثه، وأرسل من قبله من قام بنشر افتراءات وأكاذيب تشانغي وسط الممالك، كي تصل الأخبار بذلك إلى مسامع ملك تشو، وبالفعل فقد علم جلالته بما قيل وسُر بالِغ السرور وعزم على سَحب مبعوثه تشن جن من دولة وي.

لمَّا قامت قوات «تشين» بغزو عاصمة دولة هان

قامت قوات تشين بمهاجمة «إيانغ» عاصمة دولة هان، وحدث أن تكلم الملك هواي حاكم تشو، مع تشن جن، فقال له: «بلغني أن «هانشي» [رئيس وزراء دولة هان] يتمتع بذكاء خارق، وأنه يعرف تفاصيل ودقائق الأمور والأحداث في مختلف الولايات والدويلات، وأكبر الظن أنه سيجد وسيلةً ما يحفظ بها العاصمة إيانغ من السقوط في براثن الاحتلال؛ ولذلك فقد واتتني الفكرة بأن ندفع بقواتنا كي تقوم بالتحصُّن في العاصمة لحراستها، على سبيل المؤازرة له في ذلك الوقت العصيب، وهو ما سيظل يذكره لنا بوافر الامتنان.» فأجابه تشن جن: «دعك من هذه الفكرة، يا مولاي، فلست في حاجة للدفاع عن العاصمة إيانغ، ثم إن ذكاء وعبقرية ودهاء هانشي، لن ينفعه بشيءٍ عندما يتعلق الأمر بالعاصمة، بل أظن أنه سيقع في مأزق كبير هناك ... (وقد قيل في الحكايات ...) إن الأيائل البرية الكائنة بجبال «شانزي» هي أكثر الدواب دهاءً ومكرًا (وعلى الرغم من ذلك ...) فإنها عندما تشعر بالصياد وقد أعد شباكه وأقبل نحوَها يريد أن يوقع بها في أحابيله، تلتفِت نحوه وتثِب عليه تريد أن تنطحه بقرونها، مما يُمكِّنه من صيدها بسهولة، وقد أدرك عاداتها، بتكرار محاولات اصطيادها والوقوف على طبائعها وألاعيبها، وها هي ذي الدويلات قد عرفت أن الأمور تنطوي على الكثير من الألاعيب والمؤامرات الخفية، ولا بد أنها قد نثرت شباكها وأعدت أحابيلها وتقدمت بخطواتٍ حريصة ومحسوبة، فالأسلم لنا ولك يا مولاي، أن تصرف النظر عن فكرتك تلك، ولا شأن لك بالدفاع عن إيانغ، خصوصًا بعدما صار ذكاء الرجل الداهية هانشي محل اختبار صعب.» وهكذا، فقد أخذ الملك بنصيحة الرجل وحدث فيما بعد أن سقطت العاصمة إيانغ، بالفعل، في أيدي قوات «تشين»، وهو ما كان قد توقَّعه تشن جن وعمل له ألف حساب.

لمَّا ذهبت تانجيو لزيارة رئيس وزراء دولة تشو

ذهب تانجيو لزيارة شونشن جوين [رئيس وزراء دولة تشو، في عهد الملك كاولي] وقال له: «يتظاهر أهل دولة تشي بامتلاك ناصية القول وفنون الكلام ومهارات العلوم أملًا في الحصول على المناصب والثروات، وهو ما أراه سلوكًا معيبًا ومشينًا للغاية ويحسن بالمرء ألا يُحاول تحصيله والسير على منواله.

وقد عزمت على أن أخوض غمار البحار وأن أجوب الطرق والمسافات الطويلة كي ألقاك؛ لأني أحترمك وأُعظِّم قدرك النبيل، وألمس صدق مشاعرك الكريمة، وأرى أنك بالِغ

في مسعاك غاية النجاح والتوفيق. ثم إنه قد بلغني أن الممالك تنظر إلى السيدَين «منغ بن» و«جوانجو» بوصفهما بطلَين من أشجع الرجال، مع أنهما، في الواقع، لا يحملان في قلبيهما إلا العداوة ونوايا الغدر [حرفيًّا: يُخبئان داخل صدريهما المِدى والمخارز المُدببة القاتلة] وعلى هذا النحو فإن الناس جميعًا يتطلَّعون بعين الإعجاب إلى «شيس» ويَعدُّونها أجمل امرأةٍ في الدنيا، برغم أنها لا ترتدي إلا الخشن (الرديء) من الثياب.»

ولئن كنت تجد نفسك غير قادرٍ على بلوغ ما تؤمِّل من النجاح وما تصبو إلى تحقيقه من الأهداف على الرغم من موقعك الوظيفي كرئيس لوزراء دولة تشو ذات القدرات العسكرية الجبارة [حرفيًّا: دولة تملك عشرة آلاف مركبة عسكرية] على الرغم ممَّا نعقد لك من السيادة التامة فوق الحشود العسكرية المتمركزة في دويلات السهول الوسطى؛ فإنما السبب في هذا يرجع إلى قلة مُساعديك من الوزراء، وكذلك فإن الرُّخ [قطعة رئيسية في لعبة الشطرنج الصيني القديم] يمتلك قدرة هائلة على التصرُّف والتحرك بفضل ما تمدُّه إياه القطع الخمس من السانزي التي تُحيط به، فإذا ضاعت تلك القطع وصار الرُّخ وحده، عجز عن الظفر بأنداده على الشطر المقابل، وهذا أمر مفهوم بالبداهة، فما الذي يمنعك من أن تُصبح الرُّخ فوق رقعة الممالك ويصير الوزراء أعوانك الخمسة المُحتشدين حولك لنصرتك؟»

سجل تشو الرابع

لمَّا تحدث أحدهم إلى جلالة الملك كاولي

ذهب إلى الملك كاولي، حاكم دولة تشو، من قال له: «قد بلغني أن أولئك الذين يدعون إلى خطة التحالُف الرأسي بين الأمم، إنما يبغون من ذلك أن يجمعوا إليك أمراء الدويلات وقد ائتلف حشدهم تحت رايتك ليُعظموا أمرك ويخضعوا لسلطانك وسطوتك، فانظر فيما أقول لك من كلمات لا أريد بها إلا النصح لك ... ألا إنه لا مناص من أن تبادر إلى العدل؛ فتصلح به ما جار عليه الظلم، وأن تُسدِّد خلل المِحَن بما مددتَ من يد العون، فذلك ما لا تقصر دونه همَّة ذوي المروءة. واعلم أن مِن الطرق الحكيمة في تصريف الأمور أن تعمد إلى النحوس فتُحيلها إلى طوالع السعد والتفاؤل، وأن تجعل مع القليل الكثير (واذكر) أن الكريم من لانت له مقاليد الأمور، وأدرك مغزى تقلب الأشياء، وتبدل الأحوال من كسب وخسارة أو شقاء وسعادة؛ فالكرب قرين الفرج، والموت رفيق الحياة، فلا ذكر لمن طغت به كفة الموت، ولا حكمة لمن استبدت به مطالب الحياة ... وغفل عن الموت، واعلم أنه لن يسلم من يد أعدائه، من لم تقع بلاده تحت نير الاحتلال الغاشم، ولطالما طعنت دولة تشين فوق الأرض وعاثت فسادًا دون أن ترعى للخلق الكريم ذمةً أو تُقيم لمنهاج السماء اعتبارًا، وأهل الممالك، عن ذلك غافلون. إن من يسيرون بين الأمم، اليوم، يدعون بلسان معسول وقول فصيح إلى خطة التحالُف الأفقية (مع دولة تشين)، لا يريدون بذلك إلا مرضاة الولاة وسلب الناس أقواتهم أكثر من ذي قبل، ويتظاهرون بالعمل لما فيه مصلحة الدولة، غير أن قلوبهم تتستر على المطامع والأهواء الذاتية، وقد هانت عليهم هيبة السلطة الحاكمة،

فاستصغروا شأنها، حتى غدت مقاليد الحكم في البلاد أهون من ريشة في جناح طائر، بينما تراكمت الفتن والمصائب حتى أمست أرسخ وأطول من الجبال والتلال.»

لمَّا أهدى ملك دولة وي إلى حاكم تشو جارية حسناء

أهدى الملك «آي» حاكم دولة وي امرأة بارعة الجمال إلى الملك هواي حاكم تشو، فأعجب بها جدًّا، وعلمت امرأته جنشيو بذلك الخبر، ولمست بنفسها مدى افتتان الملك بعروسه الجديدة، فأحبَّتها وبذلت لها العطف والحنان، وصارت تأتي لها بما تُحب من الثياب وأدوات الترويح عن النفس، ومنحتها من الأثاث والحجرات ما حسُن في عينها أن يكون في حوزتها، حتى فاق حُبها للمرأة الجديدة حُب الملك، (مما أثار دهشته ...) حتى قال: «إن السيدة، حرمنا الغالية [المقصودة هنا هي جنشيو] لم تقصر في خدمتنا بأغلى ما لديها، حتى لقد بذلت في ذلك ما لا تبذله عامة النساء؛ إذ الغيرة طبع فطري فيهن؛ ولئن كنت ما ألحظه من الحُب الذي تشعر به السيدة جنشيو نحو الزوجة الجديدة (صادقًا وغامرًا) زائدًا عما أُكِنُّه لتلك العروس من مشاعر، فإنما هو البر الذي يبذله المرء لوالدَيه، والإخلاص الذي تفيض به جوانح أكثر المُعاونين (الوزراء) بمنتهى التفاني.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وعرفت السيدة جنشيو أن الملك يدهش لعدم شعورها بالغيرة مثل باقي النساء (وساءها ذلك كثيرًا) فذهبت إلى العروس الجديدة وأسرت لها قائلة: «إن جلالة الملك مُعجب بملامحك الجميلة ووجهك الفاتن، لكنه، للأسف الشديد، يبدو ناقمًا على شكل أنفك، ولذلك فقد رأيتُ أن أنصح لك بأن تداري هذا الأنف التعس، كلما التقيتِ بسيدك الملك.» ولاحظ جلالته أن العروس الجميلة تحجب أنفها بيدِها إذا ما التقت به فاستغرب جدًّا وراح يسأل السيدة جنشيو عن سر هذه الظاهرة، قائلًا: «إني أدهش لأمر تلك المرأة التي كلما صادفتني غطَّت أنفها بيدها، أتعرفين السبب وراء ذلك؟» فأجابته: «نعم، أعرف السبب يا مولاي ... لكنني لا أدري كيف أقول لك؟» فاستحثها بقوله: «أخبريني بما تعرفين مهما كان السبب.» فتكلمت قائلة: «الحقيقة أنها لا تحتمِل رائحة جسدك، وتزعم أنها لا تُطيق ما تشمُّه من رائحة كريهة.» فصاح جلالته غاضبًا: «يا للوقاحة!» ثم أصدر أمرًا ملكيًّا بجدع أنف تلك المرأة الجميلة مع التنويه بسرعة التنفيذ دون قبول أي نقضٍ أو إبطاء مهما كانت الأسباب.

لمَّا توفيت امرأة حاكم تشو

توفيت امرأة حاكم تشو، (ومضى وقت طويل) دون أن يختار جلالته من تخلُفها لتصير زوجة له، فذهب إلى تشاويو [وزير عظيم بدولة تشو] من قال له: «لماذا لا تطلب من جلالة الملك الإسراع في اختيار امرأةٍ أخرى لتصير زوجة ملكية لترث موقع المرأة المتوفاة؟» فأجابه: «أخشى إذا لم يكترث الملك بكلامي ألا تلقى وجهات نظري أي قبول عنده، مما يعني الوقوع في الكثير من الأزمات والمشاكل، بل قد يصل الأمر إلى حدوث القطيعة بيني وبين الزوجة الملكية الجديدة، فيحل الجفاء معها محل الود والتفاهم.» فاقترح عليه مُحدثه أمرًا؛ إذ قال له: «فإذا كان الأمر على هذا النحو حقًّا، فلماذا لا تُبادر إلى شراء خمسة أقراط، مما تتزين به النساء في آذانهن، على أن تجعل بينها قرطًا واحدًا يتميز دون الباقي، بروعة تصميمه وحُسن منظره وجودة سبكه، ثم تُهديها جميعًا إلى جلالته، ثم تتطلَّع في اليوم التالي إلى آذان نساء القصر فمن رأيتها ترتدي القرط المُميز، كانت هي موضع ترشيحك إذ تخاطب الملك بشأنها فتقترح عليه اتخاذها زوجة ملكية.»

لمَّا تحدث الوزير جوانشين إلى الملك

تحدث الوزير جوانشين [وزير عظيم بدولة تشو] إلى جلالة الملك شيانغ حاكم البلاد، وقال: «أراك يا مولاي قد قربت إلى مجلسك، عن يمينك وشمالك، كلًّا من (الوزيرين) جوهو، وشياهو؛ وجعلت من خاصة أتباعك (الذين يسيرون خلف موكب عربتك) الوزيرَين «يان لينجون»، و«شولينجون» (وفي أجواء تلك الصحبة) صرتَ تتقلَّب في مراتع اللهو والاستهتار والخلاعة والتبذير والإسراف، دون أن تُعطي الانتباه الكافي لأخطر قضايا البلاد، مما سيُعرض مصير العاصمة «إينغ» للخطر الشديد.» ورد عليه الملك. قائلًا: «هل جُننت أيها الرجل؟ هل فقدت صوابك؟ أم أنك تراني نذير شؤمٍ على الوطن؟» فأجابه: «بل أستطيع أن أتصوَّر النتائج المؤكدة، المترتبة على تصرفات جلالتك وليس لي أن أجرؤ على القول إنك نذير شؤم على البلاد، لكني أرى أنك ما دمت قد عزمت على أن تقرب إليك أولئك الأربعة المشار إليهم، فسوف تنهار البلاد وينتهي مصيرها إلى الزوال. ولي رجاء عند جلالتك بأن تذهب إلى دولة «جاو» سرًّا، دون أن تفصح عن شخصيتك على أن تقيم هناك بعيدًا عن الأنظار، وتراقب تطور الأحوال.» وغادر جوانشين دولة تشو ذاهبًا إلى جاو وأقام

هناك مدة خمسة أشهر، وبالفعل فقد قامت دولة «تشين» بالإغارة على عدة مناطق في تشو منها: يان، وإينغ، وأو، وشان تساي، وتشن. وكان الملك شيانغ مختبئًا في مدينة «تشن يانغ»، حيث طلب سرعة إرسال مبعوث خاص لاستعادة الوزير جوانشين من دولة جاو، وقد لبَّى الرجل أمر الملك، فلما عاد إلى تشو ومثل بين يدي جلالته ابتدره قائلًا: «لم أكن أستطيع أن آخُذ بنصيحتك فكيف العمل الآن وقد وصلت الأمور إلى هذا الحد؟ ما الذي تقترحه علينا للخروج مما نحن فيه؟»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

ورد عليه الوزير جوانشين، قائلًا: «قيل في المثل الشعبي السائر: «قد تنصلح الأحوال، حتى بعد فوات الفرصة وضياع الغنيمة [حرفيًّا: قد يمكنك أن تستحث كلبك على مطاردة الأرنب البري، حتى بعد فراره، وربما أفلح من أصلح باب حظيرته حتى بعد ضياع ماشيته!]» وقد بلغني أن الإمبراطورَين (الحكيمَين) «طانغ» (من آل شانغ) و«أو» (آل جو) استطاعا في قديم الزمان أن يُقيما عروش حُكم إمبراطوري وطيد الأركان، بما تمكنًّا من استغلاله من أراضٍ لا تتجاوز مساحتها مائة «لي» مربع، (ومن ناحية أخرى) فقد كان الملكان الطاغيتان: تشو (آل تشانغ)، وجيه (آل شيا) يحشدان وراءهما شعوبًا ويتسيَّدان فوق الممالك، ومع ذلك فقد تبدَّد ملكهما وعفَّت الأيام آثارهما.

ولقد يُقال الآن إن دولة تشو صغيرة المساحة، لكنها ما زالت تحوز عدة آلاف «لي» مربع (أي أكثر من مساحة تلك الدويلات التي لم تزد عن مجرد مائة لي مربع).

الجزء الثالث من الفصل نفسه

«ألم يسبق يا جلالة الملك أن تأمَّلت أحوال حشرة اليعسوب الطائر؟ هو يا سيدي مجرد مخلوق ضئيل الجسم له ستة أقدام وأربعة أجنحة، ويطير في الهواء، ويصطاد البعوض والذباب، وعندما يعطش يرفع رأسه ويلعق قطرات الندى، يمرح في أجواء الفضاء دون أن تُهدده الأخطار، وبما أنه لا يؤذي أحدًا من الناس، فلا يتوقَّع أن تمتدَّ إليه يد العدوان، ومع ذلك فهو لا ينجو من أحبولة يصنعها له صبي، يكاد لا يتجاوز طوله ثلاثة «تشي» [حوالي المتر]؛ إذ يرفع في الهواء قصبة رفيعة قد طُليت بالغراء والمواد اللاصقة، فيقع عليها

اليعسوب ويلتصق بها جسده، ثم يموت ويصير حطامًا تأكله دواب الأرض والنمل؛ بل ربما كان ما يلقاه العصفور الأصفر أسوأ مآلًا من مصير اليعسوب؛ ذلك أن مثل هذا النوع من العصافير قد اعتاد أن يهبط من عليائه فيلتقط حبوب الأرض، حتى إذا شبع، وطار، وجثم فوق الأغصان النضرة، وهو إذ يمد جناحَيه ويُرفرف مزهوًا في أجواز الفضاء، ويمرح آمنًا مُطمئنًا دون أن ينغص عليه مكروه؛ فهو لا يضمر أية نوايا سيئة لأي إنسان، ولذلك فقد أمن جانب البشر، وعلى الرغم من ذلك، فإن كثيرًا من أبناء الأمراء وذوي الجاه يعمدون إلى اصطياده، وقد جهزوا (لاصطياده) المقاليع والحجارة [حرفيًّا: في اليد اليسرى المقلاع، وفي اليمنى أمسكوا بالحجارة] ثم رموها وهي تحلق في قلب الفضاء، وجعلوا أعناقها هدفًا لوابل من الحصى والحجارة (وهكذا ...) فإذا الطيور اللاهية بين الأغصان الزاهية في الصباح، تتحول إلى شرائح من اللحم المطهي في أطباق الموائد العامرة وقت المساء؛ ذلك أنها بين طرفة عين وانتباهتها، قد وقعت في الشرك الذي نصبه لها الأطفال الأشقياء.» [يقول المُحققون: إن في النص تقديمًا وتأخيرًا، فكان يجب أن تتقدم هذه العبارة الأخيرة على سابقتها].

الجزء الرابع من الفصل نفسه

«ولا أبالغ إذا قلت لك إن أمر العصفور الأصفر يهون كثيرًا، إذا ما قورن بحال الإوز البري الذي لا تراه إلا سابحًا في مياه البحار، أو قابعًا في جنبات الأنهار، يلتقِط بمنقاره أسماك الشبوط، أو طحالب الماء، وبين الحين والآخر يشرع جناحَيه ويضرب بهما في الهواء ثم يطير مُحلقًا في الأعالي، ولا يصدُّه عن الطيران شيء، ولا يُفزعه تقلُّب الأحوال والأقدار، وقد انعقدت بينه وبين بني البشر معاقد الأمن والسكينة؛ لأنه لا يؤذي أحدًا منهم، ومع ذلك فلم يكن يدري ما يُخبئه له القدر على يد الرماة الذين أصلحوا سهامهم، فركبوا عليها الأوتار وتنكَّبوا السهام (السوداء)، بعد أن ربطوها بالأشرطة الحريرية الرفيعة، ورموا بها الإوز الطائر في الأجواء العالية المُمتدة في السماء لمسافةٍ تزيد على سبعمائة تشي [حوالي مائتين وثلاثين مترًا] حيث تنغرس في الأجساد السابحة في الهواء، وقد تدلَّت منها الخيوط الحريرية، فيجذبها بها الرماة بأيديهم فتهوي بالطيور الدامية إلى الأرض؛ وهكذا فإن الطيور التي كانت تلهو في الصباح بين شطآن الأنهار والخلجان، لا يأتي عليها المساء إلا وقد صارت لحمًا سائغًا للآكلين على مآدب العشاء.»

الجزء الخامس من الفصل نفسه

«ثم إن حكاية الإوز البري تُعد هينة إذا ما قابلناها بموضوع النبيل «تساي شنهو»؛ الذي دأب على السفر إلى الجنوب للَّهو والمتعة في إقليم «قاوبي» (ثم إذا قضى وطره من الرحلة هُرع ...) إلى الشمال ليواصل المجون والعربدة فوق تلال «أوشان»، وينزل إلى سفح التلال ليشرب هنيئًا من مياه نهر شيانغ، ويأكل مريئًا من أسماكه، وإذ تغمره نشوة الترف الماجن، يُحيط عنق محظيته بيده اليسرى، ويُمناه تضم إليه صدر فتاته الحبيبة، ويدور معهما في دائرة الأيام على هواه، وقد أطلق لجواد القصف الماجن كل العنان، يرمح أينما رمحت به الليالي، فلا يدَع موطنًا للمجون إلا حلَّ به، حتى لم يعُد يكترث لشئون البلاد ومصالح الوطن، وهكذا فلم يكن له أن يُدرك ما يُدبر له من قبل القصر الحاكم، حيث أصدر جلالة الملك شيوان، حاكم تشو، أمرًا بسرعة القبض عليه وإحضاره إليه مقيدًا بحبال حمراء اللون، وهو الأمر الذي أصدره جلالته إلى رئيس وزرائه «تسي فا» بينما صاحبنا غارق حتى أذنَيه في تهتُّكه وعربدته.»

الجزء السادس من الفصل نفسه

«ولربما كان موضوع تساي شنهو أقل فداحةً مما يمكن أن يعتري أحوالك أنت يا سيدي؛ إذ تُصر على أن تجعل من «جوهو» نصيرًا لك، كساعدك الأيسر، وتنصب «شياهو» سندًا لك كذراعك الأيمن، وترضى بأن يكون «يان لينجون» و«شولينجون» من أتباعك الذين يسيرون إثر خطواتك، فينزلون حيث نزلت، ويُقيمون حيثما تُقيم، بل قد رضيت لنفسك بأن تأكل مما جنته الإقطاعيات، وأن تغترف مما عمرت به خزائن المال، فركضت مع الراكضين، تمرح ملء أيامك كيفما بدا لك أن تمرح، حيثما عنَّ لك هواك تلهو مع اللاهين، وقد ضربت صفحًا عن الاهتمام بشئون العرش ومصلحة البلاد. ولا بدَّ أنه غاب عنك علم ما حدث من أن «رانخو» [رئيس وزراء تشين] إذ تلقى الأمر من حاكم البلاد [الملك تشاو حاكم تشين] بأن يقتحم عليك حدود وطنك، فقد صدع بالأمر وتوجَّه إليك على رأس قواته حتى نزل بمضيق «منغساي»، وسدَّ عليك الطريق إلى الجنوب، عازمًا على مطاردتك حتى الحدود الشمالية.»

نزلت هذه الكلمات على الملك شيانغ، [حاكم تشو] كالصاعقة، فاربدَّ وجهه، وارتعدت أوصاله، وأسرع إلى اتخاذ الوزير جوانشين مستشارًا له فمنحه أذكى لقب نبيل [لقب

«جيجوي»، أي حامل اليشم الكريم] وأقطعه أرضًا بناحية «يان لين». ولم يمضِ من الزمان الكثير حتى كان ذلك الوزير النابه «جوانشين» قد استطاع أن يُعيد إلى السيادة الملكية في تشو أرض «هوايبى».

لمَّا حاول تشي مين أن يقنع تشوهوا

حاول «تشي مين» [وزير عظيم بدولة جو الشرقية أن يستميل «تشوهوا» [أحد مستشاري التخطيط السياسي بدولة تشو] إلى جانبه بُغية إقناعه بضرورة مهاجمة دولة تشين، فلم يُوافقه تشوهوا على رأيه، فقال له تشي مين: «ما جئت هذه المرة، إلى بلدكم، إلا لكي أنوب عن «تشوليز» في محاولة الوقوف على أحوال الصداقة بين تشو وتشين، وقد دعوت كبار رجال الدولة عندكم إلى الإقرار بخطةٍ مشتركة لمهاجمة تشين، فوافقَني الجميع ولم يُعارضني سواك، وسأبلغ هذا الرأي إلى تشوليز بطبيعة الحال. وهنالك أخذ «تشوهوا» يهتم بأمر تشي مين بمزيدٍ من الجدية.

لمَّا تحدث المتحدث إلى «هوان تشي»

ذهب إلى «هوان تشي» [وزير عظيم بدولة تشو] من قال له: «يرى الناس كلهم أن علاقتك بالوزير الأعظم «فوجي» ليست على ما يرام ولست أدري إن كنت قد علمت شيئًا مما قاله «لاو ليتسي» [أحد مواطني دولة تشو في زمن الربيع والخريف] لـ «كونفوشيوس» وهو يُعلمه مبادئ العمل في البلاط الإمبراطوري [أصول اللياقة في خدمة جلالة الإمبراطور]؟ وقد قيل إن الرجل كشف أسنانه كي يتأمَّلها كونفوشيوس جيدًا، فإذا هي قد تآكلت بفعل الزمن بعد أن تجاوز عمر صاحبها ستين عامًا، ولم تعُد قوية سليمة كما كانت في سني الشباب الأولى؛ ذلك أن طول الاحتكاك بين الفكَّين قد نال كثيرًا من بِنية العظام ومتانتها. (فإذا انتقلنا للحديث عن موضوعنا الذي نحن بصدده ...) فأنت رجل موهوب، ذو جدارة واقتدار، لكن الجفاء بينكما مُستحكم، والتطاحُن على أشدِّه، والأمر أشبه ما يكون بما بين صفَّين متقاتلَين من الأسنان في الفم الواحد يتطاحنان فيتآكلان ويهلكان معًا، والمَثل السائر يقول: «ينبغي على المرء إذا ما صادف شيخًا نبيلًا راكبًا ركوبته، أن ينزل عن جواده، وكذلك لا بد للكريم إذا ما مرَّ به عجوز يتوكأ على عصاه أن يقف له إكبارًا وتبجيلًا».

وها أنت ترى جلالة الملك نفسه يحب فوجي، ويُجله ويعظِّم قدره، بينما تمقتُه أنت وتزدريه، وهو ما لا يليق برجل يشغل منصبًا وزاريًّا مثلك.»

لمَّا وقعت الكارثة بأرض تشانغشا

لمَّا وقعت الكارثة بإقليم تشانغشا [تفاصيل الحدث غير معلومة] تم إيفاد «طاي تسيخوان»، أمير دولة تشو إلى دولة تشي ليبقى هناك رهينة سلام، وحدث أن توفي الملك، هواي حاكم تشو، فقام شوكون بإعادة الأمير طاي تسيخوان إلى بلاده، وأعلن، في تلك الأثناء عن قيام التحالف بين قوات دولتي وي، و«هان» وبدء الهجوم على منطقة هوايبي بدولة تشو، وهي المنطقة المتاخمة لحدود تشي، وهنالك أحس الأمير طاي تسيخوان برهبة الموقف (الذي يواجِه بلاده) فتكلم معه تشاوكاي [وزير عظيم بدولة تشو] قائلًا: «أرى من الأفضل أن تأمر قائد قواتك، «تشيوشو» بأن يسارع إلى التفاوض للمصالحة مع دولة تشي (وذلك بأن يهديها إقليم هوايبي) وهو الأمر الذي سيكون له بالِغ التأثير في موقف دولة تشين، التي ستنظر بعين الحذر والخوف إلى ما يمكن أن يتحقق لدولة تشي من سطوة هائلة فوق الممالك إذا ما تم لها الحصول على ذلك الإقليم من دولة تشو، مما يدفعها إلى تقديم العون لنا.» فوافقه الأمير على رأيه وأصدر أوامره الفورية إلى «تشيو شو» بأن يعرض على دولة تشي التفاوض بشأن إقليم هوايبي سعيًا للمصالحة معها، فلما بلغت أنباء ذلك مسامع الملك تشاو، حاكم تشين اعتراه القلق، وأصدر أوامره إلى «تشين رونغ» بأن يبلغ دولة تشو بما نصه: «لا حاجة لكم بأن تسلموا أرض هوايبي إلى دولة تشي أعرضوا عن ذلك، وسنبادر إلى تنسيق العمليات الحربية بين قواتنا.»

لمَّا ذهب إلى ملك تشو من أهدى له

ذهب إلى بلاط تشو الحاكم من أهدى إلى القصر الملكي إكسير الحياة [دواء يطيل العمر] واستلم الحاجب الهدية ودخل بها إلى المقصورة الملكية، فسأله الموظف المسئول عن الأمن، قائلًا: «هل يؤخَذ هذا الدواء عن طريق الفم؟» فلمَّا رد عليه الحاجب بالإيجاب انتزع منه الدواء وابتلعه كله، فلما عرف الملك بذلك ثار غاضبًا وكلف أحد رجاله بإعدام الموظف المسئول عن أمن جلالته، إلا أن موظف الأمن قام من جانبه، بتوكيل أحدِهم كي يذهب إلى جلالة الملك ويشرح باسمه، حقيقة الموقف، قائلًا: «ليتك يا مولاي تستجوب في هذا الشأن، حاجب قصرك، فهو الذي زعم بأن الدواء يؤخَذ عن طريق الفم، فلم أزد على أن صدقتُ زعمه ووضعت الدواء في فمي وابتلعته، فلم يكن الذنب ذنبي وإنما يسأل في ذلك الحاجب الذي يتحمَّل مسئولية ما حدث بنفسه، ثم إن الهدية التي أرسل بها إلينا الضيف عبارة

عن دواء يُطيل العمر، وإذ يصدر الأمر بإعدامي من قبل جلالته، فكأن الدواء لا قيمةَ له، أو قل إن الدواء كان سببًا في التعجيل بموتي، ثم إن صدور الأمر بإعدام بريء معناه أن أحدهم قد استطاع أن ينجو بفعلته الآثمة ما دام رجل آخر بريء يموت بدلًا منه، وأنه قد نجح بذلك في خداع جلالة الملك.» وهنالك ألغى الملك الحكم الصادر ضده وعفا عنه.

لمَّا تكلم أحد الضيوف مع «تشون شن»

تحدث أحد ضيوف (البلاط الملكي) إلى الأمير تشون شن [أحد أشهر أربعة نبلاء في زمن الدول المُتحاربة، تولَّى رئاسة وزراء دولة تشو] في محاولة لإقناعه بأحد الخُطط السياسية، قائلًا: «اعلم أنه ما كان للإمبراطور طانغ (آل تشانغ) أن يؤسس عرشه الإمبراطوري إلا مُستندًا إلى حاضرة الدولة «بوجين»، وما كان للملك أو (حاكم جو) أن ينجح في تأسيس قواعد حكم راسخ ومزدهر إلا بحُسن استغلاله لمزايا عاصمة البلاد «هاوجين»، وعلى الرغم من أن مساحة كلٍّ من المدينتَين لم تزد عن مائة «لي» مربع، إلا أنهما صارتا حاضرتَين لعروشٍ بسطت نفوذها فوق الممالك بأسرها، وإني لأنظر اليوم في الحوادث فأراك قد أنعمت على «شيون تسي» بإقطاع ذي شأن، تبلغ مساحته مائة لي مربع، وهو ما يمكن أن يُضفي المزيد من النفوذ والمهابة على رجلٍ يتميز أصلًا بالنبوغ والنجابة، ولئن سألتني الرأي؛ فسأُجيبك بأن مثل هذا التصرُّف ليس في مصلحتك، فأنت وذاك، والرأي رأيك.» واستحسن الأمير كلامه وأرسل إلى شيون تسي من صرفه عن منصبه في أدبٍ وهدوء، فغادر الرجل دولة تشو ولجأ إلى دولة جاو حيث جرى تعيينه في منصب وزير عظيم بالبلاط الحاكم. وهنالك أسرع الضيف النازل على بلاط تشو إلى مقابلة الأمير تشون شون، وقال له: «يذكر في الحوادث الماضية أن «آبين» [أحد حكماء العصر القديم تولَّى رئاسة وزراء الملك طانغ في أسرة شانغ] كان قد ترك دولة شيا مغادرًا إلى دولة يين، حيث تمكن حاكم هذه الأخيرة (بفضل مساعدة وذكاء ضيفه الجديد) أن يؤسس إمبراطوريةً كبرى حازت السيادة فوق الممالك، بل قد أخضعت تحت سيطرتها دولة شيا، التي تضعضعت أركانها وسقط ذكرها آخر المطاف، (وكذلك رحل كوانجون عن دولة «لو» ذاهبًا إلى دولة تشي، حيث عظمت مكانة هذه الأخيرة.) وتدهورت أحوال «لو» حتى زالت هيبتها وضاع كيانها؛ ذلك أنه ما من بلدة يحل بها رجل حكيم إلا أحرزت الازدهار والرفعة، ونال حاكمها السيادة والنفوذ، وقد كان لك في «شيون تسي» خير مثال للرجل النجيب الذكي ذي الحكمة والعقل الراجح،

فما الذي دعاك إلى التخلي عنه؟» واستصوب الأمير تشون شن رأي محدثه، وأرسل إلى شيون تسي، وهو في دولة جاو، من يُبلغه بدعوة الملك إياه للعودة إلى البلاد.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وتناول شيون تسي ورقة وكتب خطاب اعتذار جاء فيه: «... «هناك مقولة مفادها ... أن أعجب العجب هو أن تجد الرجل المُصاب بالجذام والبرص يبكي حر البكاء على الملك الذي غدر به أعوانه.» وعلى الرغم مما في هذا القول من إساءة للأدب والذوق السليم إلا أنه لا ينبغي أن تغفل عن تأمُّل دلالاته العميقة؛ لأنه يستهدف الإشارة إلى حال الملك، الذي تتربص به حبائل الغدر والخيانة، خصوصًا عندما يكون صغير السن، حديث العهد بالملك، شديد الثقة بنفسه مع قلة التمرُّس بفنون الحكم ودقائق السياسة، غير قادر على إدراك بوادر الفتن والمؤامرات وهي بعدُ في منبت جذورها، فحينئذٍ يعمد كبار الوزراء إلى التخلُّص من الملك العجوز، وتنصيب الأمير الصغير مكانه، بل قد يزيحون من طريقه أكبر أبناء الملك (من زيجاته الملكية) ليثبتوا أقدام أبعد الناس عن الرحمة والعدل؛ بغية تحقيق أطماعهم والاستبداد بما في أيديهم من المناصب، خلاصًا لرقابهم من الفتك والتنكيل.

وقد ورد في كتاب «الربيع والخريف» [مدونات تاريخية] تحذيرًا في هذا الشأن، جاء فيه ...«إن رجال الدولة في بلاط تشو الحاكم، قد أوفدوا الأمير في زيارة إلى دولة «جنغ» وقبيل مغادرة الأمير حدود البلاد في مستهل تلك الزيارة الرسمية، بلغه نبأ اشتداد المرض على أبيه جلالة الملك، حاكم البلاد، فألغى إجراءات السفر وعاد على الفور للاطمئنان على صحة الملك المريض، ثم إنه مال عليه وهو راقد وخنقه بشراريب قُبعته حتى أزهق روحه، وجلس مكانه على العرش. (وفي نموذج آخر يُثبت مصداق قولي لك. فإن ...) الوزير المشهور تسويجو [الوزير المقرب من الملك هواي حاكم تشي، كانت له كلمة نافذة في شئون الحكم] كانت له زوجة بارعة الجمال ونشأت علاقة سرية بينها وبين النبيل جوانكون مما استدعى من الوزير تشويجو أن يجمع أنصاره لمحاربته، فعرض عليه جوانكون أن يقتسم معه ما يملكه من أراضٍ فرفض، فأبدى الرجل رغبته في الانتحار داخل جدران المعبد (خلاصًا مما يُعانيه من مطاردته له) فرفض أيضًا، فعزم على الفرار خارج البلاد، وبينما هو يقفز فوق أسوار الحدود رماه تشويجو بسهمٍ اخترق ساقه، ثم وثب على عرش البلاد. ثم إننا إذا تأملنا الأحداث القريبة طالعتنا الوقائع التالية: في دولة جاو — مثلًا — نجد أن «لي توي» القائم على مسئوليات الحكم، هو نفسه الذي قام بنفي الملك السابق إلى منطقة «شان تشيو»

[التلال الجبلية] وتركه هناك حتى هلك جوعًا بعد مائة يوم؛ (وكذلك فعل) ناوتشي، قام بانتزاع (الخيوط العصبية من جسد) الملك «مين» ثم علَّقه في العوارض الخشبية المُتقاطعة في سقف المعبد، وتركه حتى مات قبل طلوع فجر اليوم التالي. ولقد ظننتُ أننا إذا قارنَّا بين المعاناة التي يجدها المريض بالجذام (المريض الذي يولد مصابًا بتلك العاهة) طوال حياته وبين مقاساة الملوك الأقدمين المقتولين غدرًا وغيلة، لما وصلت إلى حدِّ الألم الناتج عن «خنق الرقاب بالأشرطة أو رمي السيقان بالسهام»، وإذا عقدنا المقارنة بين مبلغ معاناة مرضى البرص الجلدي وبين ما تعرض له ملوك الزمن القريب من فظائع، لما وصلت في بشاعتها إلى درجة … «انتزاع خيوط الأعصاب أو التجويع حتى الموت»، بل إني لعلَى اقتناع بأن ما كان يلقاه الملوك من ضحايا الغدر والخيانة عند موتهم، من ألوان البؤس والألم النفسي والبدني ليكاد يبلغ درجة المأساة التي يُعانيها مرضى الجذام طول عمرهم، فمن ثم، نستطيع أن نفهم ونصدق ما قد يُقال من تعاطف هؤلاء مع الملوك المُعذبين حتى الموت.»

ثم إن شيون تسي كتب «رباعية» شعرية، نصها كما يلي:

«من لي بمن يعرف قيمة الجواهر،
أو يعرف كيف يزين صدره بالنياشين؟
من لي بمن يُدرك جمال الألوان المُطرزة،
والملابس الحريرية؟
من لي بمن يعرف التمييز والتقدير والتثمين؟
دارت الفتاة الحلوة في الطرقات،
ولم تجد زوجًا يطلب يدَها؛
والمرأة الدميمة «موامو» عرفت كيف
توقع في غرامها الملك هواندي،
تربَّعت في قلبه وارتسمت حلوةً في عينيه.
الأعمى يُقال له ذو العيون النواظر،
والأصم يُدعى رهيف الأذنَين،
والخير هو الشر الداهم،
والخطأ هو الصواب الذي تراه رأي العين.
رُحماكِ أيتها السماء،

متى تتجلى الحقائق للبصائر؟»
وقد جاء في كتاب الشعر القديم، ما نصه:
«إن يدَ القدرة السماوية،
أقدر (أعظم) من أن تستثير مكامن
الشر الداهم في خفاء القضاء والقدر.»

لمَّا تحالفت الممالك لمقاومة دولة تشين

تحالفت الدويلات والممالك للوقوف في وجه دولة تشين؛ فأرسلت دولة جاو الوزير الأعظم «ويجيا» لمقابلة تشون شن، المسئول البارز بدولة تشو، فلما التقى به سأله: «هل قُمتم بتحديد القائد العسكري العام؟» فأجابه: «نعم، ولقد قمنا بتكليف «لينوجون» [أحد أكبر القادة العسكريين بدولة تشو] ليكون القائد العام للقوات.» فرد عليه ويجيا، قائلًا: «أريد أن أقول لك إني عندما كنتُ صبيًّا حدثًا، أحببت الرماية جدًّا (حتى صرت أهيم بفنونها والحديث عنها دائمًا) فهلَّا سمحت لي بأن أجيبك مستخدمًا رموز وإشارات فنون الصيد والرماية؟» فلمَّا أذن له مُحدثه في أن يتكلم كيفما يريد، قال له ويجيا: «يُقال إن ملك دولة وي كان يجلس، ذات مرةٍ فيما مضي من الزمان مع رجل يُدعى «كنلي»، وكانت جلستهما أسفل إحدى المنصَّات العالية، والطيور تُحلِّق فوقهما في الأعالي فتطلع إليها كنلي وهو يقول لجلالته: «أستطيع أن أعرض عليك يا مولاي مشهدًا سحريًّا بارعًا لاصطياد الطيور، بحيث أرفع القوس وأجذب الوتر، دون أن أطلق السهم، وسيسقط الطائر المستهدف أمامك بغير أن أرمِيه بسهم حقيقي.» فاستغرب الملك، قائلًا له: «أمعقول أن تكون قد بلغت مثل هذا الحد من البراعة في الرمي، بحيث تسقط الطائر بدون إطلاق السهم؟!» فرد عليه مُحدثه بالإيجاب، وبعد هنيهة، ظهر فوقهما أحد طيور الإوز البري محلقًا جهة الغرب، فقام كنلي وجذب سِيَةَ قوسه ورمى رميةً شكلية بغير سهمٍ رائش، وإذا بالطائر يسقط من عليائه، ودُهش ملك وي للغاية وقال: «أيمكن أن يبلغ المرء في فن الرماية هذه الدرجة من البراعة؟!» فأجابه الرجل قائلًا: «بل هو طائر قد أصابه سهم قاتل، حتى قبل أن أُصوِّب قوسي نحوه.» فسأله الملك مُستغربًا: «وكيف عرفت ذلك؟» فأجابه: «لاحظت بطء طيرانه، ورنة الأسى في صوته؛ فأما طيرانه البطيء فبسبب جرحِه المؤلِم، وأما صوته الأسيان؛ فلطول افتراقه عن إخوانه، ولما كان الجرح داميًا لحداثة إصابته، فلم يبلُغ حدَّ البُرء التام، وبالتالي فقد كان تحت تأثير بقايا الفزع الذي ألمَّ به وقت الرمية القاتلة؛ قد سمع صكة القوس فقد شرَّع

جناحَيه يُريد التحليق عاليًا وسريعًا وهكذا فقد اتسع الجرح وتجدَّد النزيف وتضاعف الألم، فسقط في الحال، كما رأيت ...» (فتأمل ذلك) وتذكر أن «لينو» — ذلك الذي من المقترح أن يكون قائدًا عامًّا لقوات التحالُف ضد تشين — قد سبق أن لقِيَ هزيمةً نكراء على يد قوات تشين نفسها؛ فهو أشبه ما يكون «بالطائر الجريح الذي أسقطته رمية قوس وهمية» مما يستحيل معه تكليفه بمهمة القيادة الرئيسية لحشود التصدي لدولة تشين.»

لمَّا ذهب خانمين للقاء تشون شن

نزل خانمين ضيفًا على الأمير الأعظم تشون شن، فلما طلب مقابلته، قيل له أن ينتظر ثلاثة أشهر، وبالفعل فبعد انقضاء تلك المدة، تم اللقاء بين الرجُلَين، وبعد أن انتهت المناقشات بينهما، كان تشون شن قد انبهر بمحدثه، ومال إليه بمشاعر الود والإعجاب، وكذلك شعر «خانمين» بأن الحوار والمناقشة مع سمو الأمير تدور في أجواء ودية للغاية، حتى إنه تمنى لو أمكن مواصلة اللقاء واستمرار المناقشات بغير نهاية، وهنالك قال له تشون شن: «قد وعيت وأدركت تمامًا فحوى كلامك يا سيدي، وحان وقت الراحة، فاذهب لتسترح قليلًا.» وشعر خانمين بشيءٍ من الحرج، وهو يقول له: «بل أتمنَّى الآن أن أستزيد من عِلمك ومشورتك، وعندي سؤال أرجو ألا يبدو لك ساذجًا ... «تُرى، من الأكثر حكمةً والأوفر عقلًا وكياسة، أنت أم (الإمبراطور المقدس) ياو»؟» فأجابه: «ما كان يصح، يا سيدي، أن تتصوَّر عقد مقارنة على هذا النحو (بين رجل بسيط مثلي، وقديس حكيم خلدته الدهور مثل ياو)!» فقال خانمين: «فمن إذن تراه الأكثر اقتدارًا ونجابة؛ أنا أم القديس شون؟» فأجابه سموه: «بل أراك تُشبه القديس الحكيم في خصاله كلها يا سيدي.» فقال خانمين: «على رِسلك يا سمو الأمير، واسمح لي بأن أقول لك كل ما عندي بصراحة؛ ذلك أنك بكل ما تتميز به من حكمة فلا يمكن أن تكون موضع مقارنة مع القديس الملك ياو، ومهما كان حظِّي من النجابة فلا يمكن أن أبلغ مرتبة القديس الحكيم شون، بل إن القديس ياو، ببصيرته الرشيدة وحكمته الفذة لم يستطع أن يسبر غور مساعده الأمين (القديس الملك، فيما بعد ...) الشيخ الحكيم ياو، إلا بعد انقضاء ثلاث سنوات، ولئن كنت قد استطعت، بجلاء بصيرتك، أن تُدرك خصالي في وقت وجيز، فقد كنتَ جديرًا بأن تفوق القديس «ياو» فهمًا وإدراكًا، وكنت أنا أزكى من القديس شون موهبةً وبراعة.» وهنالك استحسن الأمير منطقه وأثنى على تقديره قائلًا: «قد أحسنت القول.» ثم إنه استدعى الضابط المُكلف بحراسة البوابات، وأمره بتدوين اسم خانمين في سجل الزائرين على أن يتجدَّد له التصريح بلقاء الأمير كل خمسة أيام بصفةٍ دائمة.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وقال خانمين: «أظنك تعرف يا سيدي، حكاية الجواد الأصيل؛ فهو ذلك الجواد الذي إذا بلغ سنَّ القوة واكتمال النمو البدني، استطاع أن يجر العربات المُحمَّلة بالملح [هكذا في المتن] متجهًا نحو مرتفعات جبل «طايهان»؛ حوافره الأربعة مفرودة بينما ركبتاه مثنيتان، (يرفع قوائمه) لكن ذيلَه منسول إلى أسفل، قد تآكلت بواطن أقدامه، وسال الزبد من فمه، ونضح جسده عرقًا غزيرًا حتى إذا بلغ أول طريق المنحدر الطالع إلى تلال «طايهان» لبث مكانه وقد تعذَّر عليه التقدم بالعربة ذات العريش المنبسط فوق الأحمال الثقيلة، وهو منظر لم يتمالك أمامه الفارس الشهير «بولا» إلا أن ينزل من مركبته، ويتقدم إلى الجواد فيمسك عنانه، وقد غامت عيناه في سحابة من الدموع، ثم إنه ما لبث أن خلع رداءه الكتاني، وأسدله على جسد الجواد النبيل الذي طأطأ له رأسه، ونفث بقوة من منخاره، ثم رفع رأسه بصهيلٍ ارتجَّت له الأجواء، وكأنه صوت طبول من نحاس.

أتعرف حقًّا دلالة ذلك؟! (أقول لك): إن المغزى وراء تلك الظواهر الغريبة التي بدت على الجواد، إنما تدل على أن المسكين أدرك، بحاسَّته، أن الفارس «بولا» كان خير من يفهم أحواله، ويُقيل عثرته.

وها أنا ذا اليوم أمامك، لا يُرجى مني نفع، ولست أفقه شيئًا، وقد صرتُ مكدودًا بأشقى وأحقر الوظائف في أدنى درجات السلم الوظيفي بالإدارة الرسمية، ولا يُئْويني إلا بيت من الطين يقع في زقاق متواضع الحال، وإن طال بي المدى في أتعس حال وأشأم ظروف يمكن أن يمرَّ بها إنسان، فهلَّا انتشلتني من الضعة، وطهرتني من دنس الظروف المُزرية، فلعلِّي صائح لك في الوديان (بآيات الثناء العطر)، صادحًا بمدحك في كل الأجواء؟»

لمَّا كان الملك كاولي رجلًا عاقرًا لا ذرية له

كان الملك كاولي، حاكم تشو [ولد الملك تشينغ شيانغ، تولى العرش من ٢٦٢ إلى ٢٣٨ق.م.] رجلًا عاقرًا، لا ذرية له، وفكر الأمير (النبيل) تشون شن في أن يزوج الملك بامرأة ولود، وكان جلالته قد تزوَّج أكثر من مرة، بغير طائل.

وجاء رجل من مواطني تشو [يدعى ليوان] إلى القصر بأخته، يريد تزويجها الملك، لكنه عندما سمع أن جلالته ربما كان غير قادر على الإنجاب أصلًا، فقد خشي أن يردَّه دون أن ينال حظوةً لدَيه، وهكذا فقد حاول الرجل أن يتقرَّب إلى الأمير تشون شن، بل إنه تقدم

إليه راجيًا أن يتَّخذه تابعًا أو حتى خادمًا يعمل عنده في بيته، فلما وافق الأمير وأبقاه معه بقي يعمل في خدمته فترة من الوقت، ثم استأذن في العودة إلى بلدته، ليعود بعد أجل معلوم، لكنه تعمد أن يتأخر عن الموعد المُقرر، وعندما ذهب إلى الأمير ليُسلِّم عليه، استفسر منه عن سبب تأخُّره، فأجابه: «كان ملك تشي قد أرسل رسولًا ليخطب أختي زوجةً له، فسهرتُ مع رسول جلالته أسامره وأشرب الخمر، فثملت وفاتني الوقت وتأخرت عن العودة حسب الميعاد.» فسأله تشون شن: «وهل تمَّت إجراءات الزواج؟» ولما رد عليه بالنفي، عاد الأمير يسأله: «وهل لي أن أقابل أختك؟» فأجابه الرجل بأن هذا ممكن جدًّا وبكل سرور، وهكذا سارع ليوان إلى تقديم أخته إلى الأمير تشون شن ليتم التعارف بينهما، وتوثقت الصلة بين ليوان والأمير، ووجد حظوةً لديه، وكان أن عرف ليوان (فيما بعد) بأن أخته قد صارت حُبلى، فذهب إليها واتفق وإيَّاها على تدبير خطة ماكرة.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وانتهزت المرأة التي هي أخت «ليوان»، فرصة القرب من تشون شن وراحت تنصح له قائلة: «أرى أن جلالة الملك يحترمك ويُحبك كثيرًا، ويضعك في مكانة يكاد لا يبلغها أي واحدٍ من إخوتك، وها أنت قد بقيت في منصب رئيس وزراء جلالته مدة تزيد عن عشرين عامًا، لكنك عندما تدقق النظر في بعض الأمور المهمة، تجد أن المشكلة تكمن حقًّا، في أن هذا العرش العظيم ليس له وريث من صلب الملك، فإذا ما توفي جلالته، فسيتولى الحكم أحد إخوته، ومعنى هذا أن إخوة الملك باعتلائهم منصة الحكم الملكي سيعملون على اتخاذ أقاربهم وتابعيهم في المناصب الكبرى، فمن يضمن حينئذٍ أن تبقى موضع حُب واحترام الجميع، في ظل تلك الظروف المُستجدة، ولأطول فترة ممكنة؟ هذا من جانب، أما من جانب آخر، فلربما يتذكر لك أولئك الإخوة وقد اعتلوا سدة العرش، ما كنت قد أغضبتهم به من تصرُّف غير لائق أثناء وجودك في المنصب طوال المدة الماضية، التي كنتَ فيها مسئولًا حكوميًّا بارزًا عظيم المكانة، بل من المؤكد تمامًا أنه إذا آل الحكم الملكي إلى أحد إخوة جلالته، فلن تلقى إلا المصائب تترى عليك من كل ناحية، فكيف ستتمكن، وقتئذٍ، من الحفاظ على مكانتك، أو حتى الاحتفاظ بإقطاعاتك الكثيرة بأرض جيانتون [منطقة جنوب نهر اليانغتسي حيث بلغت بها جملة إقطاعات الأمير المذكورة نحو اثنتي عشرة محلة]؟ وقد تأكدت الآن من أني أحمل جنينًا في أحشائي، وهو أمر لا يعرفه أحد غيرنا أنا وأنت، ولمَّا يمضِ وقتٌ طويل على ما خصصتني به من حُب واهتمام، وأرى أنك إذا قدَّمتني إلى جلالة الملك، أو ذكرتني

عنده، فلا بد أني سأحظى بتفضيله لي عمن سواي، وذلك طبعًا بفضل مكانتك الأثيرة لديه وكلمتك المسموعة عنده، وإذا تفضلت عليَّ السماء وقدَّرت لي أن أُنجب مولودًا ذكرًا، فسيكون ولدك هو الذي يصير فيما بعد حاكم دولة تشين (بجلال قدره وقدرها)، ويُصبح البلد كله خاضعًا لهيبتك ونفوذك أنت وأولادك، ألستَ ترى معي بأن مثل هذا المصير أفضل كثيرًا مما قد يجرُّه عليك تربُّص إخوة الملك بك وبُغضهم إياك لو صار الأمر بأيديهم؟»

واقتنع تشون شن بكلامها واعتقد أن قولها هو الرأي الصائب بكل تأكيد، وهكذا فقد أمر بأن يتم إعداد مسكنٍ ملائم لإقامة المرأة أخت ليوان بحيث تنتقل للسُّكنى به على وجه السرعة، وقام من جانبه بالتحدث مع الملك (بشأن الزواج منها) فاستدعاها جلالته إلى قصره، ودخل بها مخدعه، فبات وإياها على فراشٍ واحد، وكان أن وضعت مولودًا ذكرًا تم إعداده ليكون وريثًا للعرش، وأصدر الملك قرارًا يقضي بأن تكون أخت ليوان زوجة ملكية (جلالة الملكة) كما تفضل جلالته على ليوان بتعيينه في أرقى منصبٍ رسمي، فصار متنفذًا ذا شأن في أروقة البلاط الإمبراطوري.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وهكذا، فقد تحقق للمدعو ليوان الكثير مما أراد؛ إذ صارت أخته ملكة على البلاد، وبذلك فقد ضمن أن يكون وليدها وريث العرش الملكي؛ وعلى الرغم من هذا، ظلت الهموم تساوره خشية أن يفتح الأمير تشون شن فمه، ويفشي كل الأسرار، فيتوطَّد مركزه وتنعقد له المهابة فيتيه فخرًا، أو يستبد طغيانًا واقتدارًا، ومن ثم فقد راح يفكر في قتله، تصفية لوجوده، فينغلق فمه إلى الأبد. وتسرب شيء من هذا الخاطر إلى أجواء العلن وذاعت النوايا بين كثيرين (وأصبح معلومًا أن ليوان يدبر مكيدة ما للتخلُّص من تشون شن!).

واشتد المرض على الملك، وبات طريح الفراش، وقام تشون شن بإدارة شئون القصر وكان قد ظل يعمل رئيسًا لوزراء جلالته مدة خمسة وعشرين عامًا، وهنالك تحدث إليه تابعه الأمين «جويين» [من مواطني جاو، وهو من أخلص أتباع الأمير تشون شن] قائلًا: «إن المصادفات تحمل في طياتها الحظ السعيد مثلما تحمل الكثير من نُذُر الشؤم بل الأنكد من ذلك أنك تعيش وسط أناس يتحركون كيفما سارت بهم الأهواء التي يصعب التكهُّن باتجاهاتها، وتبذل جهدك في خدمة ملك مريض لا تعرف ما تُخبئه له المقادير، ولئن كنت أعجب لشيء، فإنما أعجب لك إذ تُواجِه كل تلك الأحوال الغريبة وحدك، دون أن تُكلف نفسك عناء البحث عن رجلٍ تدخره لك الأقدار!» فسأله تشون شن دهشًا: «فماذا تقصد

أولًا بمصادفات الحظ السعيد؟» فأجابه جويين قائلًا: «قد مضى عليك خمسٌ وعشرون سنة وأنت رئيس لوزراء تشو، وعلى الرغم من قيامك على شئون منصبك الرفيع كمسئول حكومي عالي المستوى إلا أنك كنت في الواقع تدير شئون البلاد باعتبارك الملك الحقيقي، وكان أبناؤك الخمسة يعملون كمعاونين لأمراء الدويلات، ويبدو الآن أن الملك، وقد اشتد عليه المرض، لن يُعمِّر طويلًا، فلا بد أنه سيقضي نحبَه في غضون أيام قليلة، والأمير وريث العرش ما زال صغيرًا وستتولَّى أنت الوصاية عليه، ومن ثم فستئول إليك مقاليد الحكم باسم الأمير الناشئ ونيابة عنه، تمامًا مثلما حدث في حالة كلٍّ من «أيين»، والملك «جوكون»، حيث يظل الصغير تحت وصايتك، ولا تُعيد إليه مقاليد السلطة إلا بعد وصوله سن البلوغ، ويبقى هناك احتمال آخر وهو أن تستأثر وحدك بالسلطة وتعلن نفسك ملكًا على البلاد، وتبسط نفوذك بالكامل فوق دولة تشو … ذلك هو ما قصدت إليه من قولي لك بأن المصادفات تأتي أحيانًا بمفاجآت الحظ السعيد.» فسأله الأمير: «فما هي إذن المصادفات التي تحمل نُذُر الشؤم؟» فأجابه جويين: «أنت تعرف أن ليوان ليست له أية صلة بشئون الإدارة السياسية للبلاد في مجلس الوزراء، وإنما هو فقط مجرد خال السيد الصغير (الأمير الوريث) فهو شقيق والدة ذلك الطفل الملكي، ليس أكثر من ذلك، فهو مثلًا لا يملك القدرة على قيادة الجيش وتوجيه القادة الكبار، ثم إنه متورط في تدبير خطط سرية بالاتفاق مع عدد من الانتحاريين، ولا بد أنه سيسارع إلى التمركز داخل القصر، إذا ما توفي الملك ليشرع في تنفيذ خُططه متذرعًا بأنه يتصرف طبقًا لأوامر شفوية من الملك، مستهدفًا القضاء عليك بتصفيتك جسديًّا (حرفيًّا: بإغلاق فمك وإبادة لسانك) فذلك هو ما أشرتُ إليه باعتباره نذير الشؤم الذي تومئ إليه المقادير.» فسأله الأمير: «فمن الرجل الذي تُخبئه الأقدار؟» فأجابه: «عليك أولًا أن تأمر بتعييني في منصب «لانجون» [رئيس الشئون الداخلية (بالقصر الملكي)] حتى إذا مات الملك فجأة، وحاول ليوان أن يسارع بدخول القصر (لتنفيذ تدابيره السرية) قمتُ إليه وطعنته في قلبه ودققت عنقه؛ فهو ذا أنا الرجل الذي تُخبئه لك المقادير.» فزجره الأمير تشون شن، قائلًا: «دع عنك هذه الأفكار، ولا تعُد إلى الحديث في تلك الأمور نهائيًّا، فإنما ليوان رجل ضعيف، لا حول له ولا قوة، ثم إنني أُعامله بكل الخير، ولي عليه أيادٍ كثيرة، فكيف يمكن للأمور بيننا أن تصل إلى هذا الحد؟»

واستشعر جويين الخوف، وداخَلَه إحساس بعدم الأمان، فقام وهرب خفية خارج دولة تشو.

الجزء الرابع من الفصل نفسه

ولم تكد تمر سبعة عشر يومًا بالتمام، حتى مات الملك «كاولي»، وكان أن هرع ليوان إلى القصر الملكي (لما بلغه الخبر) واتصل بأفراد الفرقة الانتحارية وأعد لهم مخابئ يكمنون بها داخل القصر، وما إن دخل الأمير الأعظم تشون شن من الباب الكبير، حتى وقع في قبضة المتآمرين عليه، فاعتقلوه، ثم وثبوا عليه وفتكوا به فقطعوا رأسه وألقوا بجثته خارج القصر وهي بغير رأس، وفي تلك الأثناء كان ليوان قد أمر المسئولين بإبادة عائلة تشون شن من الوجود، فأنزلوا في كل أفرادها القتل وأثخنوا فيهم الجراح حتى فنوا عن آخرهم.

وكان مبتدأ الأمر كله أن أخت ليوان قد حملت من الأمير تشون شن، ثم دخلت القصر الملكي (زوجة للملك الحاكم) ووضعت طفلها، وصارت ملكة [تتصرف في الواقع باعتبارها ملكة] من وراء ستار.

وفي تلك السنة نفسها، كان قد مضى على حكم الإمبراطور (الأشهر) تشين شيهوان [أول إمبراطور حكم الصين كلها تحت عرش واحد] تسع سنوات، (وللغرابة) فقد كان الخصيُّ المدعو «لاواي» [أشهر خصيان القصر بدولة تشين، كان «ليوبوي» قد أهداه للملكة الأم، فراح يحيك الدسائس مع الزوجة الملكية ويقود العصيان، فلمَّا اكتشفت مؤامراته أُعدِم، وأُبيدت أسرته عن آخرها [يشار لذلك في الصينية بـ «الأفرع العائلية الثلاثة»: أقارب الأم، الأب الأصهار [وتم إقصاء ليوبوي عن منصبه الرسمي نهائيًّا].

لمَّا تحدث الوالي يوشين إلى الأمير الأعظم

تحدث الوالي يوشين [أحد دعاة الخطط السياسية، أنعم عليه ملك جاو بإقطاعات هائلة وعيَّنه في منصب «شانغ تشين» (الوالي)] إلى الأمير الأعظم تشون شن [نلاحظ أن المتن يشير إلى الأمير هنا وهو بعدُ على قيد الحياة، بينما في الجزء السابق يذكر تفاصيل الفتك به، مما يدلُّ على أن «ليو شيانغ — مُحقق الكتاب الأصلي — لم يكن يُعنى بدقة تتابع الأحداث!] فقال له: «قد بلغني شيء مما ورد في كتاب «تشون شيو» الربيع والخريف: (مدونة تاريخية) [مفاده أنه ينبغي على المرء، في وقت السِّلم، أن يعمل ألف حساب للخطر، مثلما يجب عليه، وسط أهوال الخطر أن يتدبر وسيلة لإعادة الهدوء والسلم. أقول لك ذلك وأنا ألاحظ أن الملك قد بلغ من العمر أرذله، ولَمَّا تحصل منه على تحديدٍ نهائي فيما يتعلق بالإقطاع الممنوح لك وهو أمر لا يمكن التسويف فيه وإذا سألتني حول ما ينبغي لك في

هذا الموضوع، فإني أرى أن تحرص على أن تختار إقطاعك من أقصى الأرض، أبعد المناطق عن الإدارة المركزية في تشوو هناك سوابق لمثل ذلك التفكير، فهناك مثلًا الوالي شياو — من دولة تشين — لَمَّا أراد أن يقطع «سون إينغ» أرضًا فقد اختار أن يقطعه من أرض شانغ، فلما مات الوالي شياو، لم ينجُ «سوان إينغ» من غدر الملك به، ولما أراد الملك تشاو، حاكم تشين أن يُقطع «ران تسي» أرضًا في إقليم «رانغ» فقد ظل الأمر معلقًا في الهواء حتى إذا تولى الحكم من بعده حاكم آخر، استولى على الإقطاع المخصص للرجل، وغلبه على حقه (هذا على الرغم من أن ...) الوالي «سون إينغ» كان واحدًا من أعظم رجال الدولة فضلًا وعطاء مثلما كان «ران تسي» يرتبط مع ملك تشين بصلة المصاهرة والنسب ومع ذلك فلم ينجُ أحدهما من استلاب الحاكم أرضه، والآخر من إزهاق الملك روحه، وكان السبب في كلتا الحالتين يرجع إلى قرب منطقة الإقطاع من تخوم العاصمة.

(ومن الجدير بالذكر أن) «تايكون وان» قد حصل على إقطاعه في أرض تشي [وهو مكان بعيد جدًّا عن الدولة التي ينتمي إليها] بينما تقرر أن يكون إقطاع «شاوكون شي» على أرض دولة يان، وهي أماكن تبعد كثيرًا عن مركز دولة الحكم؛ فهذا هو السبب في أنهما عاشا حياة هانئة وماتا على فراشهما في سلام.

وقد وردت الحوادث، اليوم، بما مفاده أن دولة يان قد ارتكبت أسوأ جرائمها، على الإطلاق بالهجوم على جاو، مما فجَّر الغليان المكتوم في صدر هذه الأخيرة ومن ثم فإني أقترح عليك أن تدفع بقواتك صوب الشمال؛ مما سيحقق ميزتين: أولاهما: امتنان دولة جاو لك، والثانية: سحق رأس دولة يان، المنسحقة في التراب أصلًا، وبذلك تحصل على حقك كاملًا في الإقطاع الممنوح لك، حيث تتاح لك الفرصة لتحقيق ذلك وهي فرصة نادرًا ما تتكرر.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وردَّ عليه تشون شن قائلًا: «إن طريق الهجوم على دولة يان، سيمر بأرض دولة تشي أو دولة وي، وهما دولتان تبغضان تشو وتكنان لها أسوأ النوايا، فقل لي، إذن، من أي طريق تتقدَّم قوات دولة تشو، إذا ما أرادت الهجوم على يان؟ فأجابه يوتشين، بقوله: «تستطيع أن تتفضل بطلب وعد رسمي من دولة وي بأن تُعيرك طريقًا عبر أراضيها». فسأله تشون شن عن الوسيلة المُمكنة للحصول على هذا الوعد، فأجابه: «ائذن لي بالسفر إلى وي كي أشرح للمسئولين هناك المغزى المهم في طلب استخدام طريق للمرور عبر أرضهم، عسى أن أقنعهم بالحجة والبرهان.»

وسافر يوتشين إلى وي، حيث التقى هناك بجلالة الملك، وقال له: «ليس لدولة تشو أي أعداء على وجه الأرض، وذلك لما يعرف الجميع من قوتها ومنعتها، وكل ما في الأمر، أنها تدبر للهجوم على دولة يان.» فسأله الملك قائلًا: «ذكرت لي في أول كلامك أن دولة تشو ليس لها أعداء، ثم ما لبثتَ أن قلت إنها تدبر لمهاجمة يان، فما الداعي لذلك (ما دامت على ثقة بأن في قوتها ومهابتها ما يُغني عن طلب الصراع مع الآخرين؟)» فأجابه يوتشين: «إذا قلت لجلالتك الآن، إن الجواد ذو قوة وجلد، (من بين الدواب جميعًا) فهذا قول يحتمل الصحة والصواب؛ أما إذا زعمت أمامك بأن للحصان القدرة على حمل ما مقداره ألف جوين [ما يقرب من خمسة عشر ألف كيلو جرام من الأحمال] فهذا زعم باطل وغير صحيح على الإطلاق، لماذا؟ لأن أي حصان لا يقدر بتاتًا على احتمال مثل هذا الثقل فوق جسده.

أما ذكرت لك أن دولة تشو ذات قوة عظيمة، فهذا صحيح، فإذا كان الموضوع هو مدى احتمال تشو لتكاليف الاشتباك مع دولة يان عبر أراضي أيٍّ من جاو، أو وي، فهذا أمر يفوق قدرة تشو، ومعنى ذلك أنها لو أصرت على المضي قدمًا في هذا الطريق فستعرِّض قوتها للتدمير، وتستحيل إلى الضعف، وتعرف جلالتك أن الخصم من قوة تشو معناه الزيادة في طاقة بلادكم (دولة وي) والعكس صحيح أيضًا فانظر في الأمر وتأمَّله جيدًا، وأمامك أحد خيارين، فاختر لنفسك الأنفع لك.»

سجل جاو الأول

لمَّا قام جيبو بحشد قوات وي وهان

جمع جيبو قوات دولتي وي وهان وتقدم لمهاجمة جاو، وقام بحصار «جين يانغ» وحوَّل إليها مجرى النهر فأغرقها تحت طوفانه، حتى بلغ منسوب المياه نحو اثني جانغ وأربعة تشي [نحو سبعة أمتار] وهنالك تحدث شيتشي [من مواطني جاو، ومستشار جيبو للتخطيط السياسي] إلى جيبو، قائلًا: «إني لعلى يقينٍ من أن حاكمي البلدَين وي، وهان يخدعانك.» فسأله جيبو عن السبب في اقتناعه هذا، فأجابه: السبب هو ما ظهر من تصرفاتهما، فقد تقدَّمت معك قوات البلدين لمهاجمة جاو فإذا اندحرت هذه الدولة تحت القتال فلا بد من أن شيئًا من الآثار السيئة لهذا الاندحار سيجد طريقَه إلى كل من الدولتَين المذكورتَين. ولذلك فعندما يحين الوقت للاتفاق معهما فيجب أن تبذل لهما الوعد بأنك ستقتسِم معهما أراضي جاو، في حالة الظهور عليها، باعتبار أن أرضها ستوزع بالتساوي بينكم كأطرافٍ ثلاثة متحالِفين معًا في القتال، وإذا تأمَّلنا حال المدينة الكبرى جين يانغ الآن، وجدنا أنها صارت أنقاضًا تغمرها المياه، وما بقي من أثاث المنازل فيها، كمدقَّات الأرز والمواقد، باتت كهوفًا تسكنها الضفادع ورواسب النهر، والأحياء من أهلها لا يجدون ما يقتاتونه، حتى إنهم اضطروا إلى أكل الجياد الهزيلة والجيفة، وعلى الرغم من أنه كان يحقُّ للدول التي شاركت في تحطيم المدينة المنيعة أن تفرح بما أوقعته بها من تنكيل، إلا أنك تجد حكام وي و«هان» ينظرون بعينٍ ملؤها القلق والحذر والهموم، ولمَّا يمضِ على انتصارهم في موقعة جين يانغ الوقت الطويل، أفلا تجد فيما ذكرت لك نُذُر الخيانة ودلائلها المبكرة؟

وما كاد يطلع نهار اليوم التالي، حتى كان جيبو قد التقى بحكام الدولتَين وي وهان وذكر لهما ما أثاره (مستشاره) شيتسي من موضوعات قائلًا: «قال لي شيتسي إنكما ستتآمران عليَّ بالخيانة.» فتكلم العاهلان الكبيران، قائلَيْن: «قد قام الاتفاق بيننا على أن نقوم ثلاثتنا باقتسام أرض جاو فيما بيننا، عندما يتم لنا الانتصار التام عليها. وها هي ذي المدينة الحصينة (... جين يانغ) توشك على السقوط في أيدينا، ولا يمكن بأي حال، مهما بلغت درجة غبائنا وجهلنا أن نضيع المكاسب التي صارت قطوفها دانية، أو أن نخالف العهد الذي بيننا، ونهدر مواثيقنا سعيًا وراء مطمع لا سبيل لنواله وأمور لا يرجى منها نفع، وتلك مسألة واضحة وبديهية، لا ينبغي أن تفوتك ملاحظتها وأنت الألمعي النجيب، فصاحبك شيتسي إنما يعمل لمصلحة دولة جاو، ويخطط لما يعود عليها بالنفع؛ ولذلك فهو يريد إقناعك بضرورة الشك في إخلاصنا لك، فيفتر حماسك للهجوم على جاو، لكن يبدو أنك أصغيتَ طويلًا لحديث مستشاريك الذين يطعنون في مصداقية حلفائك، فأنكرت ما بيننا من التفاهم والود، وإننا لنأسف على تلك الحال ونأسف أيضًا على حالك، ويُحزننا ما أنت صائر إليه!» فلما انتهوا من كلامهم معه خرجوا من عنده بخُطًى سريعة، فهرع شيتسي إلى جيبو وقال له: «لماذا أخبرتَ قادة وي وهان بالقول الذي ذكرته لك؟» فسأله جيبو بدهشة: «وكيف عرفت أنت بأني قلتُ ما قلته؟» فأجابه: «لما رآني حاكما البلدَين أرقبهما مُتفحصًا حركاتهما، ابتعدا عني سريعًا واختفَيا عن ناظري.» وأدرك شيتسي أن كلامه لم يؤخَذ بعين الاعتبار، بل لم يوثَق بصدق وإخلاص وجهة نظره، فتقدم بطلب إيفاده إلى دولة تشي، فوافق جيبو على طلبه. وحدث أن كلًّا من قادة وي وهان قد نكثا ميثاقهما مع جيبو، وغدرا به.

لمَّا تولى جيبو قيادة قوات الدول الثلاث

تولى جيبو قيادة قوات جاو، ووي، ووهان لمهاجمة قبيلتي فان «وجون هانغ» فأثخن فيهما حتى استأصل شأفتهما. ثم ركن إلى الراحة بضع سنوات، وبعدها أرسل إلى دولة هان يُطالبها بنصيبه في الأرض (التي حرَّرها من سيطرة القبائل المذكورة) إلا أن «كانزي» — حاكم دولة هان — لم يستجب إلى طلبه فنصح له توانكوي [مستشاره لشئون الخطط السياسية] قائلًا: «ليس من الصواب أن ترفض ذلك الطلب الذي تقدم به إليك جيبو؛ فهو بطبيعته شديد الجشع، قوي البطش، إذ طمع في الحصول على شيء فلن يتورَّع عن ارتكاب الفظائع في سبيل الحصول عليه، وما دُمت قد رفضت أن تُعطيه نصيبه من الأرض

التي طلبها، فلا بد أنه مُتوجه إليك بقواته، عازم على التنكيل والبطش، والأفضل أن تُجيبه طلبه، فمثل هذا التصرُّف من جانب جلالتك كفيل بأن يُوسع صدره للجرأة على طلب المزيد من الأراضي التابعة لباقي الدويلات والممالك، التي ستجد نفسها مضطرة إلى أن تُذعن له، تجنبًا لما قد تُلاقيه من ويلات القتال معه، ومعنى ذلك أن دولة هان ستُصبح في موقف تأمن فيه شرور النزال مع ذلك الجامح الجشع، ومن ناحيةٍ أخرى فستتمكن من أن تُراقب تطور الأحداث دون انزعاج.

وعندئذٍ وافقه كانزي على رأيه، وأوفد من قِبله مبعوثًا إلى جيبو لإهدائه بلدة آهلة بالسكان [هكذا حرفيًّا: بمعنى أنها بلدة عامرة بأسباب الحياة، تُغل الحصاد والضرائب] مما أدخل السعادة إلى قلب جيبو، ودفعه إلى مُطالبة دولة وي بأن تُعطيه نصيبه من الأرض المُستحقة له، فلما أراد الملك شيوانزي — حاكم وي — الامتناع عن إجابته إلى طلبه أسرع إليه مستشاره للتخطيط السياسي، جاوجيو، قائلًا له: «تذكر يا مولاي أن دولة هان أذعنت لمطلبه عندما تقدم إليها يُريد تسليمه الأرض التي أشار إلى حقه في الحصول عليها، وعندما يتقدم بطلب مُماثل إلى دولة وي، ثم يفاجأ بالرفض، فسوف يُستدل من ذلك على أنها قد بلغت من الإحساس بالقوة المُتزايدة ما يدفعها إلى استفزاز الآخرين وإثارة غضبهم، وأول هؤلاء الآخرين هو جيبو نفسه، وهو ما سيدفعه إلى استخدام القوة العسكرية ضد وي! ولذلك فالتصرف الأمثل في هذه الأحوال هو أن توافقه إلى الطلب الذي تقدم به إليك.» وبالفعل فقد أخذ شيوازي بنصيحته، وأرسل إلى جيبو برسول يحمل إليه هدية تتمثل في بلدة عامرة بالأهالي، وهو الأمر الذي انشرح له صدر جيبو وملأ قلبه بالابتهاج. ثم إنه أوفد إلى دولة جاو سفارة تطلب منها تسليم بلدتي «لين»، و«كاولن» إليها، فلم يذعن الملك شيانزي — حاكم جاو — إلى هذا الطلب، فتدبر جيبو خطة سرية، بالاتفاق مع دولتي وي وهان للهجوم على جاو في غفلة من أهلها.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

استدعى الملك شيانزي، حاكم جاو، مستشاره للتخطيط السياسي «جان منتان». وقال له: «إن الظاهر من سلوك وتصرفات جيبو يشير إلى أنه قريب من أفكارك وتصوراتك، لكنه في واقع الأمر أبعد من أن يتفق معك في شيء، لاحظ مثلًا أنه أرسل بوفوده ثلاث مرات متتالية إلى دولتي وي، وهان دون أن يتصرَّف على هذا النحو معي، وبالتالي فلا بد من

أن أستنتج أنه عازم على تحريك قواته ضدي، فانظر أي المواقع أنسب للتحصُّن فيها — استعدادًا لملاقاته؟» فأجابه الرجل: «كان المدعو جيان تسي من أكفأ رجال الدولة الذين عملوا في خدمة الأمير «تون آنيو»، وقد بذل وقته كله للعمل على إصلاح أحوال «جين يانغ» وقد بلغت تلك الإصلاحات حدًّا من البراعة لدرجة أن رجل دولة آخر، مثل الوزير آيطو [أحد وزراء جاو] سار على دربه الذي بدأه في إصلاحاته، متخذًا نفس الوسائل، ومن ثم فقد خلف لنا كِلا الرجُلين تراثًا باقيًا في الفكر السياسي ما زال قائمًا حتى اليوم وسيظلُّ هذا التراث باقيًا ما دمت تؤثر البقاء في جين يانغ، وهذا هو ما أراه لك: أن تبقى في تلك البقعة من الأرض، ولا تبرحها.» فوافقه شيانزي على رأيه وأرسل من طرفه «يان لينشن» [وزير عظيم بدولة جاو] كي يبدأ في تحريك المركبات والخيَّالة تجاه جين يانغ على أن يلحق به فيما بعد.

فلما وصل شيانزي إليها، راح يتفقد أحوال تحصيناتها ومتانة أسوارها ومخازن وحواصل الحبوب والخزائن الكبرى الكائنة فيها، ثم إنه استدعى إليه «جان منتان»، ليقول له: «قد رأيت الأسوار في أحسن حال، والحواصل مليئة، والمخازن عامرة بما يكفي، بل لدينا من الحبوب ما يزيد عن الحاجة، ولكن المشكلة الوحيدة تكمن في أننا لا نجد ما يكفي من السهام فما العمل إذن؟» فأجابه: «مبلغ علمي أن الأمير تون آينو كان قد بذل عناية فائقة في بناء جدران القصر الملكي الكائن بمدينة جين يانغ، وذلك إبان إصلاحاته الشهيرة التي قام بها في تلك المدينة، وقد بلغني أنه استخدم في بناء حوائط المباني أجود أنواع الأخشاب حتى بلغت الجدران غاية الصلابة بأحجامها الضخمة وارتفاعاتها التي تصِل إلى أكثر من «جانغ» [أربعة أمتار] وهكذا، فيمكنك أن تستخدم تلك الأخشاب (لتعويض ما ينقصك من مواد صناعة السهام).»

وبالتالي فقد شقوا الجدران واستخرجوا مادتها على سبيل التجربة، فوجدوا في صلابتها ما لا يزيد عليه، بيد أنها كانت أجود من أخشاب البامبو، وهنالك تحدث شيانزي، قائلًا: «قد وجدنا من الأخشاب ما يكفي، لكننا ما زلنا بحاجةٍ إلى المزيد من النحاس [هكذا حرفيًّا: وإن كان المقصود، حقيقة، هو معدن الحديد] فما العمل؟» فقال له: «كنت قد سمعت أن الأمير تون آنيو، إبان إصلاحاته المعروفة وإنشاءاته العديدة في جين يانغ. قد استخدم النحاس المصهور في أعمدة القصر الملكي، فتستطيع أن تجد فيها مادة وفيرة لما تحتاج إليها، وستجد ما يمكن أن يسد الحاجة.» واستصوب شيانزي رأيه، فلما صدر الأمر بتمام الاستعداد واتخاذ كل الاحتياطات، صارت كل المواد المطلوبة للدفاع جاهزة على أتم وجه».

الجزء الثالث من الفصل نفسه

فلمَّا وصلت قوات الدول الثلاث إلى جين يانغ، دار القتال بين الطرفَين واستمر الحال على ذلك مدة ثلاثة أشهر، دون أن تسقط المدينة، فقامت القوات المهاجمة بعملية انتشار وتطويق، وتم تسريب المياه من سد نهر جين، عندما أحدثت القوات شرخًا في جدار السد، فسالت المياه وأغرقت المدينة المحاصرة، التي ظلَّت تحت الحصار لفترة امتدت إلى ثلاث سنوات، حتى لجأ بعض السكان إلى المناطق العالية (البعيدة عن المياه) فابتنوا بها الكهوف للسُّكنى وطهي الطعام، وهنالك أوشك المال والغذاء على النفاد، وفتك المرض بالجنود وأورثهم الضعف والهزال، وعندئذٍ تحدث شيانزي إلى جان منتان قائلًا له: «قد نقص الطعام، وشح المال، وفترت حماسة الجنود بعدما صرعهم المرض، وما عدت أستطيع الصمود بعد اليوم، وأفكر، جادًّا، في أن أتقدَّم على رأس القوات مذعنًا بالخضوع رافعًا راية التسليم، فهل ترى ثمة أمل في شيء؟» فأجابه: «قد سمعت يا سيدي قولًا أجد صداه في مسمعي، مفاده ... «أن من عجز عن استنهاض إرادة بلاده، واستعادة طاقة وجودها بعد تعرضها للانهيار، فقد ضيع الحكمة واستهان بالعقلاء، ومن تقاعس عن استرداد الأمن لبلده الذي استبد به الخطر، فقد أساء إلى أولي العزم والقوة والنجابة.» فالزم الفطنة، ودع عنك تلك الأفكار، وأرجو ألا تعد إلى مثل القول الذي سمعت منك توًّا، وليتك تسمح لي بالذهاب لمقابلة قادة دولتي وي وهان!» وأجابه شيانزي إلى هذا الطلب.

وحدث أن «جان منتان» استطاع أن يلتقي سرًّا بقادة البلدين المذكورين، وقال لهما: «أما سمعتما القول المشهور الذي يفيد ما معناه أن ... «الشفتين للأسنان خير حجاب وحماية؛ فإذا تقلصت الشفتان (في جو عاصف) تعرضت الأسنان إلى تيارات من البرودة القارسة!» ... ها أنتم تشهدون جيبو وهو يقود قوات بلدَين كبيرَين لضرب جاو التي ستنهار بالتأكيد تحت ضرباته، لكن الأمر الذي يجب أن تعلَماه جيدًا هو أن سقوط جاو سيستتبع على الفور سقوطكما معًا.» فأجابه الرجلان بقولهما: «قد عرفنا وتأكدنا أيضًا من صدق استنتاجك في هذه الناحية (ونثق أن ذلك هو ما سوف يحدث، إذا ضاعت دولة جاو.) فقد عهدنا في جيبو الجشع والقسوة والغلظة، وسرعة الغدر بأقرب المُقربين إليه، فإذا اتفقنا على خطة ثم ذاع أمرها ووصلت أنباؤها إلى مسامعه، فسوف تكون العواقب جد وخيمة، فقل لنا كيف العمل، ما الطريقة المُثلى التي نتجنَّب بها حدوث أية تعقيدات؟ فأنبأهما جان منتان عن نفسه قائلًا بصراحة: «إذا خرج الكلام من فمكم إلى مسامعي أنا فقط، فلن ينتقل من عندي إلى أي طرفٍ آخر».» وهكذا فقد أسرَّ الرجلان إلى جان مونتان

بالاتفاق حول تحركات الجيوش الثلاثة وحددوا فيما بين ثلاثتهم موعدًا وليلة للتنفيذ، ثم سارا برفقته حتى أوصلاه إلى مشارف مدينة جين يانغ، ولم يكد يبلغها الرجل حتى قدم تقريره إلى شيانزي، فلم يسعه إلا أن يُعبر له عن شكره واحترامه وعميق امتنانه.

الجزء الرابع من الفصل نفسه

وفكر جان منتان في زيارة جيبو دفعًا لأي شكٍّ يمكن أن يسيطر على ذهنه وهكذا فقد ذهب إليه، والتقى عند البوابة الخارجية للمقر الرسمي بمُستشاره الخاص لشئون التخطيط السياسي، وهو المدعو جيكاو، فلمَّا انتهى اللقاء ذهب مستشار التخطيط إلى جيبو، وقال له: «أخشى أن يكون قادة وي وهان يدبرون للقيام بتمرُّد عسكري.» فلمَّا سأله جيبو عن السبب الذي دعاه إلى مثل هذا القول، أجابه: «كنت قد التقيت عند البوابة الخارجية بجان منتان، ورأيت الثقة المشوبة بالغرور تكتسي ملامح وجهه، وخطوات أقدامه تدق الأرض في زهو وخيلاء.» فقال له جيبو: «لا أظن أن تصل الأمور إلى حدِّ تدبير عصيان عسكري؛ فهناك اتفاق ومعاهدة موثقة مع كل من وي وهان، ولقد قطعت عهدًا على نفسي أمام الجميع بأن يتم اقتسام أراضي جاو، بعد هزيمتها، بالتساوي بين الأطراف الثلاثة المهاجمة، فلا أظنهم يُخادعونني، دع عنك تلك الفكرة، كما أرجو منك ألا تردد ذلك القول فيما بعد. ثم قام جيكاو بزيارة إلى حاكمي وي وهان، وعاد أدراجه إلى جيبو ليقول له: «تأملت الرجلَين، فوجدت أمارات الخيانة بادية على الوجوه، فسيماهم تنطق بالغدر ونواياهم تنضح بالمخادعة، فاضرب الأعناق، تسلم مما يمكرون بك.» فقال له جيبو: «منذ ثلاث سنوات والقوات تحاصر جين يانغ حتى أنهكتها ولا بد من أن النصر قريب، وأيًّا ما كان فستكون لنا الغلبة في النهاية. ونقتسم الغنيمة، ومن غير المعقول أن تنقلب النوايا في مثل هذا الوقت بالذات خصوصًا وأننا أوشكنا على الظفر بأرض جاو.» فقال جيكاو: «فإن لم تكن ضاربًا أعناقهم، فعلى الأقل لا تدعهم يبتعدون عن ناظريك، بل اقترب منهم، وراقب أحوالهم عن كثب.» فسأله جيبو عن كيفية ملاحظة أحوالهم على النحو الذي يقترحه، فأجابه بقوله: «الملك شيوان حاكم وي يستعين بمستشار سياسي، اسمه «جاوشيا»، وبالمثل فالملك كانزي — حاكم هان — يستشير أحد خبراء التخطيط السياسي، ويُدعى «توان كوي»؛ وهذان الخبيران يستطيعان تغيير خطط سادتهما وتحويلها من النقيض إلى النقيض، وأرى أن تجري مع هذَين المُستشارين اتفاقًا ينصُّ على أن ينال كل منهما جائزته، وهي عبارة عن محلة آهلة بالسكان والعمران في حال التغلُّب التام على دولة

جاو واقتحام أراضيها. فمثل هذا الاتفاق يضمن لك ثبات حكام وي وهان على بنود الاتفاق ومثابرتهما على الالتزام والإخلاص للمواثيق المُبرمة معك، (ومن ناحية أخرى) يحقق لك السيطرة الكاملة على الأرض التي كنت تسعى للحصول عليها.» فرد عليه جيبو، قائلًا: «معنى هذا أني سأضطر إلى التخلِّي عن قطعتَين من الأرض لأعطيهما لهذين السيدَين، بالإضافة إلى خطة تقسيم الأرض التي تقوم على توزيع حصص مساوية للأطراف الثلاثة الرئيسية، مما يعني تقلص المساحة النهائية التي ستخصُّني في المحصلة الأخيرة، وهو ما لا يُمكنني القبول به أبدًا.» ولَمَّا أدرك جيكاو أن جيبو لم يعد يقيم لآرائه وزنًا أو يعتد بكلامه، فقد خرج من المقر الرسمي، وقام بتغيير اسمه ولقبه إلى فوشي، وغادر البلاد نهائيًّا، ولم يعُد للعمل عند جيبو من يومئذٍ.

الجزء الخامس من الفصل نفسه

فلمَّا وصلت أنباء تلك الأحداث إلى مسامع جان منتان، توجه على الفور، لمقابلة الملك شيانزي، وقال له: كنت قد التقيت بجيكاو، عند البوابة الكبرى، ولاحظت أنه طوال الوقت يتطلع إليَّ في ريبة، ثم إنه دخل ليتحدث إلى جيبو، ولَمَّا خرج، قام بتغيير اسمه ولقبه، وأرى أنك إذا بادرت الليلة إلى مهاجمة جيبو، فسوف تنال منه وتُلقنه درسًا لا ينساه، ولتسرع لئلَّا تضيع منك الفرصة، ويفوتك الوقت. وأومأ الملك برأسه علامة الإيجاب، وأوفده لمقابلة قادة دولتي وي وهان حيث اتفق معهم على قتل حراس سد النهر، وفتح ثغرة في جنب ذلك السد ليقتحمها الماء، ويهدر منها بغزارة فيغرق قوات جيبو، التي إذا ما أوقعها فيضان الماء في الارتباك والفوضى، انقضت عليها قوات دولتي وي وهان المتربصتَين بها عن اليمين والشمال، وانطبقتا عليها انطباق الجناحَين على جانبي فرخ الطائر، بينما قام الملك شيانزي حاكم جاو على رأس قواته وضرب في الصميم فأصاب من قوات جيبو مقتلة عظيمة، وأثخن فيهم، وقبض على جيبو حيًّا.

وكان أن انتُهبت البلاد وهلك الرجال (حرفيًّا: قتل جيبو) وصار هزأة بين الأمم، وذلك كله بسبب استيلاء عقدة الجشع عليه، وعدم إصغائه إلى خطط جيكاو، مما عُدَّ أحد أهم أسباب انكساره، وضياع بلاده، (بل لقد قيل إن ذلك كان سببًا في) القضاء على كل من تلقب باللقب جي (جيبو، جيكاو، وأمثالهما) وانقطاع المُتسمِّي بهذا الاسم من الوجود، ولم ينجُ من تلك العائلة إلا رجل واحد غيَّر اسمه إلى فوشي.

لمَّا قام جان منتان بتثبيت أركان دولة جاو

لمَّا فرغ جان منتان من تثبيت أركان دولة جاو، وتقوية قبضتها فوق أرضها وتوسيع حدودها، فقد راح يُغذي الروح الطامحة إلى السلطة والسيادة فوق الممالك (حرفيًّا: على طريقة الأباطرة الخمسة [أولئك الذين حكموا إبان زمن الربيع والخريف وكانت لهم الغلبة فوق الأمم]) فكان كلما اجتمع إلى مولاه الملك شيانزي، أخذ يثني على وصايا الملك القاهر جيانزي حاكم جاو الأسبق، قائلًا: «يؤثَر عن الإمبراطور جيانزي، إبَّان حكمه لدولة جاو فيما مضى، قوله: «إن السبب الأساسي فيما أبداه الأمراء من دعم للملوك الخمسة (الذين ملكوا القلوب والأفئدة حتى انصاعت لهم الأمراء والدويلات) يكمن في عدة نقاط بسيطة للغاية، خلاصتها، أنه ينبغي العمل على أن يكون للملوك اليد العليا فوق الوزراء، لا أن تكون للوزراء السطوة النافذة فوق ملوكهم؛ لذلك لم يكن يسمح مثلًا لمن نال رتبة الشرف (النبالة) من الدرجة العليا الثانية، أن يتولى رئاسة الوزراء، ولا كان مسموحًا للضباط الذين تتفوق رتبتهم على رتبة القائد العام للجيش أن يعملوا في منصب «دافو» [مسئول عظيم في الدولة].»

أما اليوم، فإن أي وزير ينال قدرًا من الصيت والشهرة، ينظر إليه بوصفه واحدًا من النبلاء الجديرين بالتعظيم والإجلال ويتعاظم نفوذه، وتصير له الكلمة المسموعة فوق الناس؛ لذلك فقد نويت جادًّا، التخلي عن الألقاب، والتنحي عن كل سلطاتي، والانعزال عن الدنيا بأسرها.» فتأثر شيانزي وتهدج صوته بالحزن وهو يقول له: «لا أرى سببًا يدعوك إلى ذلك، ثم إنه ليقال أحيانًا، (وبعض القول صحيح!) إن أكثر من يساندون ويدعمون سلطة ملوكهم هم الأكثر شهرة، وكذلك فإن أصحاب المآثر والإنجازات الكبرى يُصيبون حظًّا من المجد والتقدير الذي يرفع بهم إلى مراتب النبالة، كما أن أصحاب المناصب والسلطات المرموقة مثل رؤساء الوزارات، يتمتعون بنفوذ عظيم، لكنهم إذا ما أضافوا إلى سلطتهم قيمة الإخلاص والصدق، نالوا ثقة الناس وطاعتهم. (وليس ذلك شيئًا أقوله من عندى بل ...) هو من ميراث الحكماء والقديسين الأقدَمين فيما درجوا عليه من التنسيق مع ذويهم وأقاربهم في تولِّي شئون البلاد وقيادتها بغية استقرار الأوضاع فيها، فلماذا تخرج عن مثل هذا المنهاج؟» فأجابه: «إن جلالتكم بهذا الكلام، تشيرون إلى روعة العمل الدءوب والفخر بإنجاز المآثر العظيمة وهذا صحيح تمامًا في نطاق ذلك المعنى، ولكن ما أقصد الحديث عنه، يدخل في إطار الأساليب والقواعد التي تحكم العمل السياسي فتحمي الأوطان، وقد درست الكثير من قضايا الإنجازات الكبرى، وسمعت ما تتناقله

الحكايات من سيرة الأقدمين، فوجدت أن معاني المجد ودلالات الإنجاز والروعة، تتصف جميعًا بخصائص واحدة ومشتركة في كل مكان تحت السماء، لكني لم أهتدِ إلى ما يُفيد الإقرار بكمال وروعة الفكرة القائلة بإن الملوك والوزراء يتقاسمون النفوذ والمسئوليات على نحو متكافئ ومتساوٍ، دون أدنى فرق.

إن في خبرات ودروس الماضى ما يصلح لأن يؤخَذ به أو أن يكون موضع اعتبار في قادم الأيام، فإذا لم يستطع الأباطرة أو الملوك تأمُّل تلك الأمور بدقةٍ ووعي، فإن الوزراء أعجز من أن يقدروا على ذلك.» ولاحت على وجه «جان منتان» نظرة وداع مشحونة بالأسى والشجن، فأذن الملك شيانزي له بالإنصراف، فذهب إلى بيته وبقي مدة ثلاثة أيام وهو راقد على الفراش، وأخيرًا فقد أرسل إلى الملك «شيانزي» رسولًا من عنده يسأله: «ما هو رد الفعل المتوقَّع من جانب جلالتكم، لو أني تقاعست أو امتنعت عن تنفيذ الأوامر الرسمية؟» فأجابه الملك برسالة موجزة كتبها معاونوه، تقول في كلمتَين اثنتَين: «رد الفعل هو الحكم بالإعدام.» ورد عليه «جان منتان»، قائلًا: «لقد عمل الحصان العجوز في خدمتكم وخدمة البلاد، وبذل جهده من أجل استقرارها، ولكي يثبت لجلالتكم حسن إخلاصه وتفانيه، فهو لن يهرب من قدر الموت على أيديكم، فاعجل بما صح عليه العزم!» وأجاب شيانزي (بدوره) قائلًا: «فاذهب وافعل ما بَدَا لك فقد عفوت عنك.»

وهكذا فقد أقره الملك على اختياره، ومضى جان منتان — بكل شجاعة وثقة — يسلك فيما اقتنع به، وتنحى عن سلطاته ومناصبه وألقابه (فإذا به يرسِّخ لنفسه اسمًا أشهر ولقبًا أكثر ذيوعًا وسلم للحكومة إقطاعاته والأراضي الممنوحة له، فلما ألقى عن كاهله مسئوليات العمل الرسمي وأبهة المناصب العُليا وألقابها الفخمة، ذهب ليزرع قطعة أرض صغيرة كان يملكها في منطقة تلال «فوتشين»، لذلك يقال إن مسلك جان منتان يشهد بأنه أحد أولئك الحكماء القديسين (الذين يرِد ذكرهم في كتب الأقدمين) كما إن السياسة التي اتبعها شيانزي، حاكم جاو، هي بحق نموذج للسياسة الرشيدة التي انتهجها واحد من أكثر الحكام رجاحة ووعيًا.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وبقي جان منتان يزرع أرضه، فلما انقضت ثلاث سنوات، حدث أن الدول الأربع: هان، ووي، وتشي، وتشو، جميعًا قد نقضت ميثاقها الذي عقدته في الماضي، وأخذت أُهبتها لمهاجمة جاو، التي هرع حاكمها شيانزي إلى لقائه (أي: جان منتان) ليقول له: «عندما

جرى تقسيم أراضي آل «جي» فيما مضى من الزمان، فقد اقتطعت عائلة جاو لنفسها، عشر مدن إضافية، (وها قد عادت الأيام سيرتها الأولى … وعاد أولئك الطامعون مرة أخرى …) فاليوم أرى أمراء الدويلات قد أعدوا العدة لمهاجمتنا، فما العمل، وكيف التصرف؟» فأجابه جان منتان: «احملني إلى العاصمة في إحدى المركبات، وائذن لي في الإقامة هناك، بأحد المعابد قريبًا من القصر وامنحني بعضًا من السلطات المُقررة لرجال الدولة، وسأضع لك خطة مناسبة لمواجهة تلك الأزمة.» فأجابه الملك إلى ما طلب، وهكذا فقد خرج معه جان منتان وقصد إلى طريق السفر، ثم إنه أرسل زوجته إلى دولة تشو، وبعث أكبر أبنائه إلى دولة هان، وثاني الأبناء إلى دولة وي، ثم أمر الأصغر بالذهاب إلى تشي وهو التصرف الذي أثار دهشة وحيرة الدول الأربع، وألقى بظلال من الشك حول التقديرات المختلفة بشأن مهاجمة جاو، وكان من جراء ذلك أن فشلت خُطط الهجوم وتقطعت خيوط المؤامرة.

لمَّا كان المدعو «ويرانغ» يعمل في خدمة

كان المدعو ويرانغ — أحد الفرسان المشهود لهم بالوفاء والإخلاص [وهو أيضًا حفيد بيانغ، أحد الفرسان المشهورين بالشجاعة في دولة جين] — يعمل في أول الأمر، لدى كل من «آل فان»، و«تشون هان»؛ وإذ لم يشعر بالارتياح، فقد سئم العمل لديهما، وترك خدمتهما وذهب ليعمل لدى جيبو الذي أحبه وأغدق عليه من الفضل الشيء الكثير، وحدث أن تفرق آل جيبو أيدي سبأ، لما أصابهم من المحنة على يد الدول الثلاث: هان، ووي، وجاو، التي سلبت أرض تلك العائلة واجتزأت كل دولة منها قسمًا لتضمَّه إلى رقعة أملاكها، وكان الملك شيانزي أشد الجميع بُغضًا وتحاملًا على جيبو، حتى إنه (لم يكتفِ بقتله، بل قطع رأسه وأفرغ جمجمته وجعل منها قنينة يشرب فيها الخمر، فلما رأى ويرانغ ما حدث لسيده … فقد أسلم ساقَيه للريح) وفر هاربًا إلى منطقة شانجون، وكان إذ ذاك يُناجي نفسه قائلًا: «الويل لي؛ إذ تركت دم سيدي يضيع هدرًا، ألا إن الشجاع الكريم لا يتوانى عن أن يبذل روحه فداءً لمن أحسن إليه، وأغدق عليه إحسانًا وعرفانًا، بل إن الفتاة الحسناء تتزين وتتجمَّل لمن أثرها بحبه [هكذا حرفيًّا] … (إن الشيء الذي يُحسِّن صورتي لدى جيبو، هو أن …) أنتقم له!»

ثم إنه انتحل اسمًا ولقبًا آخرين، وتظاهر بأنه أحد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، ودلف إلى القصر الملكي، بحجة أنه مكلف بتنفيذ العقوبة لدى القصر، وأمسك بالفرشاة والطلاء وذهب ليطلي جدران الحمام الملكي، لينتهز فرصة وجوده بالداخل فيثب على الملك

ويقتله، فلمَّا همَّ الملك بدخول الحمام لقضاء حاجته أخذته رعدة مفاجئة وانتبه إلى الرجل المتربص له فقبض عليه، واستجوب العاملين في الحمام عنه، فتكشَّف له أنه ويرانغ بلحمه ودمه وأقر المذكور بحقيقة حاله وأشهر في وجه جلالته المدية التي خبَّأها في أدوات الطلاء، صارخًا في وجهه: «لا بد أن أنتقم لسيدي جيبو!» فأحاط به الحراس يريدون أن يفتكوا به، فنهرهم الملك قائلًا: «هو ذا فارس نبيل وشجاع دعوه، ولا تؤذوه بشيء ويكفيني أن أحترس منه وأتقي شره ... هذا الرجل ذو مروءة حقًّا» ... فعلى الرغم من أن جيبو قد مات دون أن ينجب أنجالًا، فإن مساعده المخلص، آثر أن ينتقم له بنفسه، وتلك خصلة من خصال الشرف العظيم.»

وهكذا فقد أُطلق سراح يوارنغ، لكنه ما فتئ يتحيل كل ما في وسعه للثأر، فدهن جسده بدهانٍ يوهِم الناس بأنه مُصاب بالبرص، وأزال لحيته وحاجبَيه وشوَّه قسمات وجهه، واتخذ هيئة شحاذ، وعاد إلى بلدته يتسوَّل في الطرقات، فلما رأته زوجته أنكرته، قائلة: «إن صوته كصوت زوجي، لكن وجهه ليس الوجه الذي ألفته.» فلم يلبث يوارنغ أن وضع الفحم في حلقومه فصار أجش الصوت وتغيَّرت نبرة نطقه المعهود، وقال له صديقه وهو يحاوره: «أراك تتوسَّل بأصعب الحيل لتنفيذ مأربك، ومع ذلك فلا أظنك تنال بغيتك [حرفيًّا: الوسائل صعبة ومُعقدة، لكن النجاح بعيد ومستحيل] فقد أصبت من العزم والإرادة أكثر مما أتقنت من الدهاء والمكر، فماذا لو استعملت عقلك ومهارتك وأظهرت الطاعة للملك شيانزي وقمتَ على خدمته بكل تفانٍ، حتى إذا ما غمرك بعطفه وشملك بإحسانه، كنت أقرب إليه وأدل عليه من الآخرين وأصبحت — من ثم — أقرب إلى تنفيذ ما عقدت عليه عزمك فنلت منه أقرب طريق، وتحقق لخطتك النجاح على النحو الذي تريد.» وإذا بـ «يوارنغ» يُجيبه ساخرًا: فهكذا، إذن، أنتقم للرجل الكريم الذي غمرني بعطفه وإحسانه من رجلٍ آخر أكثر كرمًا وشرفًا وإحسانًا، تلك إذن هي الطريقة المثلى كي أثأر للسيد الأول من السيد الثاني، إن ما تقترحه عليَّ لا يختلف كثيرًا عما يلجأ إليه المُنتهكون لمواثيق سادتهم، والمخربون والمجرمون في حق أولياء النعمة عليهم، واعلم أن السبب الذي يدفعني ويدفع أمثالي فيما انتويته هو تبيان للمسلك القويم الذي يتأسس على الحق والعدل في العلاقة مع الملوك والوزراء، وربما كنت متخذًا في تحقيق ذلك أصعب الطرق والأساليب، لكن المسألة، هنا، لا تتعلق بالصعوبة أو السهولة وإنما بمشروعية المبدأ وأصالته هذا، وليس من المقبول أن أرفع لسيدي الهدايا وأقسم له على الطاعة وأنذر روحي فداءً لحياته، بينما أحمل له بين جوانحي نية الغدر به، فذلك وفاء يستبطن نفاقًا وغشًّا،

وإذا كنت أسلك في طريق وعر، وأتحيَّل حيلة أعسر من العسر فإنما أردت من وراء ذلك أن أُلقن درسًا لكل الخونة والمنافقين والمُرائين لأسيادهم على مرِّ الأيام والدهور، لعلَّهم يستشعرون العار والخجل.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

فما هي إلا أيام حتى قام الملك شيانزي وخرج في بعض شئونه، فكمن له ويرانغ تحت أحد الجسور التي طالما عبر عليها في طريقه، فما درى به شيانزي وهو يقترب من الجسر إلا عندما أجفل جواده واضطرب بشدة، فصاح الملك من فوره قائلًا: «قلبي يُحدثني أن ويرانغ مختبئ ها هنا.» وأرسل أحد رجاله يتحسَّس له الخبر، فإذا هو قد قبض على ويرانغ وأحضره إليه، فلما مثل بين يدَيه، عاتبه الملك عتابًا شديدًا، قائلًا له: «أما كنت قد قمت على خدمة أسيادك من بني فان وآل تشونهان؟ فماذا فعلت إذ نكَّل بهما مولاك جيبو وقضى عليهما بعد أن أعمل فيهما السيف وأنزل بهما الدمار، فلماذا لم تنتقِم لأسيادك حينئذ؟ بل الأدهى من ذلك أنك جنَّدت نفسك لخدمة جيبو، قاتل ولاة أمرك من قبل، ففيمَ إيثارك للرجل بكل هذا التذكار والعرفان، وهو قد مات وشبع موتًا، مثل الباقين؟» فأجابه ويرانغ قائلًا: «صحيح أني خدمت آل فان وتشونهان من قبل، لكني لم أكن عندهما سوى عامل كباقي العاملين عندهم، وبالتالي فقد تصرفت حيالهما مثل الآخرين، وما كانوا قد آثروني بشيء لأرده لهم على نحو خاص، فلم يختصوني بجميل ولا عاهدوني بفضل أو مأثرة كي أنتقم لهم دون غيرهم، لكن جيبو عرف لي قدري واتخذني لديه وزيرًا كما يتخذ السادة العظماء أمراءهم ورجال دولتهم؛ ولذلك فقد كان لزامًا عليَّ أن أقتص لموته، كما يقتص الوزراء لسادتهم وذوي الفضل عليهم.» فتنهَّد شيانزي طويلًا ثم كلم ويرانغ بصوتٍ تخنقه العبرات: «وا آسفا عليك أيها الرجل! قد قضيت على نفسك بعد أن خلدت اسمك في الخالدين فما عدت لأعفو عنك ثانية بعد أن سامحتك آنفًا، فانظر ما أنت صائر إليه وتأمَّل أحوالك؛ إذ لن يعود بإمكاني إطلاق سراحك.»

وأمر الملك رجال الحرس فأحاطوا به، فقال له ويرانغ: «كنت قد سمعت أن العاقل الحكيم لا يحول بين المرء وبين أن تذاع على الناس مآثره، ويُذكر له على الدوام محاسن عمله، هذا على الرغم مما هو معروف من أنه «لا يجتمع في امرئ الإخلاص والحرص على الشهرة.» وقد امتدحك الناس لسابق فضلٍ منك إذ عفوت عني في المرة الفائتة، ولا أذكر أنه كان من المتوقع أن يخترط جسدي بسيوف جنودك إثر ما وقع اليوم من وقائع، وأن ألقى

في الحال جزاء فعلتي؛ ومع كل ذلك، فلكم تمنَّيت أن تأذن لي بقطعةٍ من ثيابك فأغمد فيها السكين، فأموت هانئًا وقد وفيتُ بعهدي فأفرغ قلبي من البغض لك والتحامُل عليك، وما كان ذلك هو مُبتغى جهدي في أول الأمر، لكنني لا أملك الآن، إلا تلك الرغبة وقد صارحتك بما يعتمل في صدري.»

وتأمل الملك برهة، وعرف أن للرجل ذمة وشرفًا، فأرسل إليه بقطعة من ملابسه مع أحد العاملين، فأخذها ويرانغ، واستل مديته ووثب صائحًا بأعلى صوته وهو يقطع الثوب بحد السكين: «ألا هل وفيت بجميلك وأفضالك عليَّ يا سيدي جيبو؟» ثم طعن نفسه ومات منتحرًا، فلمَّا انتشر خبر موته، في ذلك اليوم، بين العاملين في القصر فقد غلبهم التأثر وترقرق الدمع في العيون.

لمَّا طلب الملك أونهو من دولة جاو السماح له

تقدم الملك أونهو — حاكم دولة «وي» — إلى دولة جاو بطلب السماح له بعبور أراضيها؛ وذلك لمهاجمة (دولة) جونشان، وكان الملك ليهو — حاكم جاو — قد اعتزم الرد عليه برفض طلبه، فتقدَّم إليه جاولي [أحد المخططين السياسيين من آل جاو] وكلَّمه قائلًا: «قد جانبك الصواب يا مولاي، فتأمَّل إذا قامت دولة «وي» بمهاجمة جونشان، ثم عجزت عن هزيمتها واحتلالها، ألا تكون وي، حينئذ، قد نالها من الإرهاق ما يميل بكفَّتها في حساب القوة ويرفع سهم جاو ويُعزز من نفوذها ووزنها؟ وهب أن دولة وي انتصرت على جونشان، فهي لن تقدر على تجاوز تلك المسافة لتبسط نفوذها فوق جونشان عبر أرض جاو، وهذا معناه أنه إذا كان الجيش جيش «وي» والحرب حربها، إلا أن الفائز بالغنيمة هو «جاو» نفسها: فالأفضل أن تجيب «وي» إلى طلبها، لكن حذارِ من أن يبدو الاغتباط عليك وأنت تُوقع على الموافقة فإذا بدت عليك السعادة، فسوف يتضح للناس غرضك ونواياك المُبيتة لاستغلال قواتهم لما فيه مصلحتك، فيحجمون عن الهجوم وتضيع عليك ثمار الفوز، ومن ثم فإني أقترح عليك أن تُوافق على طلبهم؛ بحيث تبدو أمامهم كمن ألجأته الظروف القاهرة إلى الموافقة رغم أنفه.»

لمَّا قامت تشين وهان بتطويق دولة ليانغ

قامت كل من دولتي تشين وهان بتطويق ومهاجمة دولة ليانغ، فهبَّت لنجدتها كل من يان وجاو، فذهب إلى الوالي «شان يانجون» من قال له: «(اعلم) أنه إذا انتصرت تشين

على الدول الثلاث، فسوف تخترق أرض جو وهان للاستيلاء على أرض ليانغ؛ أما إذا كانت الغلبة للدول الثلاث على تشين، فإنها جميعًا وعلى الرغم من عجزها أن توقع بـ تشين هزيمة ساحقة فسوف تتمكن من مهاجمة واحتلال أرض «جنغ» وأرى، من الأفضل لما فيه مصلحة هان، سرعة التحالف. مع الدول الثلاث لمهاجمة دولة تشين.»

لمَّا شيد الوزير لنفسه قصرًا عظيمًا

أمر الوزير «فوجي» [أحد الوزراء العظام بدولة جاو] بتشييد قصر عظيم ليقيم فيه، فأسرع الوزير «شينغ كان» بإبلاغ هذا الأمر إلى جلالة الملك، (فاستدعى جلالته فوجي إليه) فقال له: «ما السبب الذي دعاك إلى بناء القصر الشامخ؟» فأجابه فوجي، قائلًا: «إني، يا مولاي، وبرغم مكانتي ومرتبتي الاجتماعية الفائقة، أقيم في مكان بعيد (في مسكن مؤجر!) وذلك لتواضع المُخصصات المالية الممنوحة لي، وكان الناس ينظرون إليَّ وأنا أقيم في بيتٍ ضئيل، وليس معي من الأهل والأقارب سوى عددٍ محدود جدًّا، فكان البعض يتهامسون قائلين: «ليس فوجي بالرجل الذي يؤْبَهُ له ولمكانته، ولا وزن له في الأحداث والشئون الجارية مع أني موضع ثقة جلالتك، وواحد من رجالك المسئولين؛ فلهذا شيدتُ دارًا عظيمة، لعلي أحوز بها ثقة الناس وتقديرهم.» فاستحسن الملك إجابته.

لمَّا ذهب سوتشين إلى «لي توي»

ذهب سوتشين إلى «لي توي» (ليعرض عليه «بضاعته» من الخطط السياسية)، وقال له: «أنا سوتشين، المولود في «شوانلي»، من أعمال لويانغ، ابن أسرة فقيرة، قاست شظف العيش والحرمان، وقد طعن الآباء في السن، فلم نجد من نلتجئ إليه أو نلتمس عنده ما يسد الرمق وقد جئتك أجرُّ عربة ذات عجلات خشبية متهالكة، إذ لم أجد فرسًا ولا فارسًا، وفى يدي حقيبة من القش، وحول ساقي رباط، (ليشتد الخطو عبر مراحل السفر والطريق) وقد انحنيتُ سائرًا وكتبي على ظهري. وفوق كتفي جُوالِق أودعته أمتعتي، وظللتُ ماشيًا تنهال عليَّ عواصف التراب، ويلفحني البرد والريح، حتى عبرت النهرين: «جانغ» و«خه»، ولم أتوقف خلال الرحلة إليك، فتشققَتْ مني الأقدام، وبعد مسيرة أيام طوال وجدت نفسي أمام بوابة قصرك، فمنَّيْت النفس بلقائك، كي أحدثك حديثًا عن أحوال الممالك.» فقال لي توي: «فأهلًا بك إذا كنت ستحدثني بأمر من أمور الجن والشياطين، أما إذا أردت أن تكلمني

عما يتصل بدنيا الإنس وشئون البشر، فهذا أمر أعرف عنه ما يكفي ويزيد.» فرد سوتشين بقوله: «ما جئتُ أزورك إلا لأفاتحك بالكلام في شئون الجن والعفاريت، وليس في جعبتي شيء يختص بأحوال البشر.» فرحَّب به لي توي وأدخله عنده، فقال له سوتشين: «ما كدت أصل باب المدينة حتى كانت السماء قد أظلمت ظلمة الليل، فأغلقت الأسوار أبوابها، فأردتُ أن أبيت على بساطٍ من الحصير فما وجدت شيئًا منه، فما وسعني إلا أن أبيت في أرض يملكها أحد معارفي، وكان إلى جوار الأرض بستان أشجار كثيفة، فلما انتصف الليل، تراءى لي تمثال من الطين يتحدث مع تمثال من الخشب وكان يقول له: «على رِسلك ... لست في شيء مما تظنُّه بنفسك، وأين أنت مني، فأنا من طين، لا أعبأ بعواصف الريح والمطر، فإذا اجتاحتني السيول فما عليَّ من شيءٍ سوى أني إذا جرفَني التيار وحطم جسمي، فسأعود ثانية إلى الأصل الذي منه التأم كياني؛ أما أنت فلستُ إلا مجرد غصن جاف (بل إنك لم تكد حتى أن تبلغ مكانة الجذر العريق المُمتد في باطن الأرض) فإذا عصفت بك العواصف، فسوف تلقي بك في مجرى تيار نهر جانغ السابح جهة الشرق، نحو البحر الأعظم، حيث تتشرَّد في الآفاق بغير مأوى تصير إليه.» وأظن، يا سيدي أن التمثال الطيني على حق، بل هو (الفائز في تلك المناظرة). فلئن كنت تريد القضاء على الملك الوالد وقطع دابر حاشيته، لكي تخلفه على العرش، فأنت كمن يجعل البيض في كومة كبيرة متراكمة تكاد تتداعى فتتحطم كلها معًا، (وإني قائل لك نصيحة) فإن أخذت بقولي نجوت، وإلا فأنت وشأنك.» فعندئذٍ قاطعه لي توي قائلًا: «(أراك قد تعبت ونال منك الجهد) فاذهب الآن إلى مبيتك واسترح، وموعدنا في الغد.» فقام سوتشين وخرج.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وجاء إلى «لي توي» أحد مستشاريه، وقال له: «قد علمت ما دار بينك وبين سوتشين من حوار؛ إذ تابعت لقاءكما من وراء حجاب وأرى أن الرجل ذا علم ومعرفة واسعة، وعلى دراية تامة بفنون الإقناع والجدل والمناظرة، فهل اقتنعت بشيءٍ مما قال، أو هل فهمت شيئًا مما تحدَّث به إليك؟ فلما رد عليه لي توي بالنفي، قال له مستشاره: فإذا جاء ليتكلم معك في المرة القادمة فانتبه جيدًا إلى مقالته، فإن لم تفهم منه شيئًا، فأرجوك أن تضع أصابعك في أذنيك وتحكم غلقها جيدًا لئلَّا يبلغ مسامعك شيء من حديثة.»

فلما حضر إليه «سوتشين» في اليوم التالي وتحدث إليه طويلًا وظل سحابة النهار يتكلم إليه في مسائل شتَّى حتى آذن اللقاء على الانتهاء، وحان موعد الانصراف، جاء

المستشار ليصحب سوتشين مودعًا إلى باب الخروج، فقال له سوتشين: «أعجب لهذا الأمير الذي حدثته بالأمس حديثًا مبهمًا مليئًا بالألغاز وجدته مدركًا فاهمًا مغزى كلامي، فإذا كلمته اليوم في موضوعات أيسر فهمًا وأكثر وضوحًا، وجدته متبلدًا ساكنًا كأنه لم يسمع مني كلمة واحدة، ولا أدري السبب في هذا التبدل الغريب!» فأجابه المستشار، قائلًا: «قد عرضت عليه خطة صعبة، يتعذر عليه الأخذ بها؛ ولهذا فقد كنت أنا الذي رجوته أن يسد أذنَيه عند لقائه بك، ورغم هذا فسوف أطلب إليه أن يبذل لك نفقةً سخية إذ تأتيه في الغد.»

وفي اليوم التالي، التقى سوتشين بالأمير وتحدثا في جوٍّ مفعم بالود، وأهداه لي توي الحجر الكريم (المُسمى بـ «القمر الوضَّاء») وياقوتة (تُسمى «الجدار العائلي الكريم») وجُبَّة من فراء السمور وألفَي ليانغ من الذهب [نحو مائة كيلوجرام]، فأخذها سوتشين ليُنفق منها على شئونه، ثم إنه توجَّه غربًا نحو دولة تشين.

لمَّا تحالفت جاو مع باقي الممالك استعداد لمهاجمة

تحالفت جاو مع باقي الممالك استعدادًا لمهاجمة دولة تشي بتلك القوة الكثيفة؛ وأرسل سوتشين إلي هوين، ملك جاو، كتابًا [يدافع فيه عن موقف تشي] يقول له فيه: «قد بلغني يا مولاي أن الخصال الكريمة للملوك الحكماء، فيما مضى من العصور القديمة، لم تكن تنتشِر من خلالهم لتعم الديار كلها، وتفيض على رعاياهم، ولا كانت مواعظ الرحمة وتعاليم العدل تسري في نفوس الناس جميعًا، ولا حدث، ولو مرة واحدة، أن كانت القرابين والأضاحي المهداة إلى المعابد سببًا في استجلاب رضا الأرواح من عالم الغيب، بل لم يهبط على الناس من علياء السماء سوى ندى شهي المذاق، ولا جاءت من لدن الغيب إلا الريح والمطر في أوقات معلومة (فعمرت الأرض بالخيرات)، وحصد الزراع حصادًا وفيرًا؛ فامتلأت الحواصل بالحبوب والغلال، وانشرحت صدور الناس عندئذٍ، فكان ذلك كله سببًا في عموم الرخاء والسعادة والرضا، إلا الملوك؛ إذ تكدرت خواطرهم لعجزهم عن أن يعطوا الناس كعطاء السماء، وجلالتك أيضًا مثل أولئك الملوك؛ لأنك إذ تعجز عن أن تقدم نفعًا ماديًّا ملموسًا، فإنك بدلًا من ذلك تقعد حزينًا، وتمتلئ نفسك بالقلق والتوتر والكراهية.

وإذا كان صحيحًا أن المراقب لقدراتك وطاقاتك، يلاحظ أنك لم تشتبك في قتال مع دولة تشين ولا حتى حاولت مهاجمتها، إلا أن الملاحظ أيضًا أن ما تحمله لـ تشين من ضغائن، وما تراكم في نفسك من الغضب والحنق عليها؛ يفوق كثيرًا ما تشعر به دولة تشي نحوها من كراهية ونفور. وقد أُتيح لي يا مولاي أن أنصت كثيرًا إلى ما يُردِّده الوزراء،

بل العامة والدهماء، في كل مكان، فوجدتهم مُتفقين على أنك كنت تتشبث دائمًا بوجهة نظرك القائلة إن تشين لا تحمل إليك سوى الحُب والتفاهم، على عكس ما تُضمره لـ تشي من النفور والكراهية. واسمح لي بأن أصارحك بأني تأملت تلك المسألة على ضوء الحقائق، وعلى نحو سِري مضمر [هكذا في المتن] واستغربت جدًّا وأخذت أتساءل: متى كانت تشين تشعر نحوكم بأي صورة من صور الحب والتفاهم، ومتى كانت تبغض دولة تشي وتنفر منها؟! فإنما الحقيقة هنا هي أن تشين تتَّخذ من تشي تُكَأة أو طُعمًا لاصطياد أرض دولتي جو الشرقية والغربية وابتلاع دولة هان؛ إلا إنها تشيع في الأسماع (حكاية) كراهيتها لدولة تشي، رغبة منها في إقناع دول الجوار بذلك، وهي تخشى ألا تُكلل جهودها، في هذا الشأن، بالنجاح، ثم إنها تتظاهر أمام دولتي وي، وجاو بالإغارة على دولة هان، وتفزع من أن تفيق الممالك والدويلات وهو الأمر الذي دعاها إلى الاقتراب من (موضوع) الهجوم على هان (بشيء من الحذر) بغية إزالة الشكوك التي رانت على قلب باقي الممالك؛ فمثل هذه الشكوك تعد أسوأ ما يمكن أن تواجهه من عقبات، فمن ثم أفرجت عن كل من كانت تحتجزهم في أرضها من الرهائن التابِعين لمختلف الممالك والدويلات إظهارًا للثقة، ولا تفتأ دولة تشين تُطلق بين الحين والآخر التصريحات الودِّية فيما يتعلق بكتلة الدول المتحالفة، على الرغم من أنها في واقع الأمر قد أقدمت على مهاجمة دولتي هان وجنغ، وحسب ما توفر لي من ملاحظات عميقة لخُطط دولة تشين، فإني أتوقع أن يكون كل ما تُدبره من حِيل (ودسائس) نابعًا وظاهرًا من تلك النقطة تحديدًا.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

«وبالإضافة إلى كل ما تقدم، فقد انتهت تقديرات وتصورات المُخططين (السياسيين) إلى (مجموعة من الأفكار) خلاصتها أن ... «بعد أن قامت دولة هان بإبادة منطقة سانسوان وكذلك بعد أن أقدمت دولة وي على تخريب منطقة جيانغ — الكائنة بدولة جين — فقد أصبحت دولة جاو بين براثن الخطر، وذلك حتى قبل أن تسقط منها مدينة «تساو».

هذا مع العلم بأن طابع مثل تلك الأمور كان ينطوي دائمًا أبدًا على حقيقةٍ مفادها أنه ... «قد تتباين وتختلف أنماط المخاطر وراء واجهة واحدة من المواقف ذات الطبيعة المشتركة، وقد يحدث العكس ... إذ تتشابه أو تتماثل صور الخطر بينما تختلف المواقف والظروف.

وقد تعرضت دولة تشو في قديم الزمان لغزوات مُتكررة، على مرِّ السنين والأيام من جانب الدويلات المُختلفة (فلم تنل منها كل تلك الغزوات شيئًا ... سوى أن دولة جاو انتهزت الفرصة وانقضَّت على منطقة تشون شان فأنزلت بها دمارًا ساحقًا فكان ذلك نموذجًا واحدًا للخطر بين مواقف مُتعددة من التهديدات المُتعاقبة وها هي ذي دولة وي قد استطاعت اليوم الاستيلاء على الجانب الشمالي من دولة تشي، فيما يقدر بثلاثمائة لي تمتدُّ من منطقة شاتشيو إلى بلدة جيولو عند الحدود الشمالية، (بالإضافة إلى جزء آخر من الأرض) يمتدُّ بمحاذاة المنطقة الحدودية في الشمال مسافة ألف وخمسمائة لي من منطقة هانكوان إلى يوتشون (هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى) فقد قامت دولة تشين باحتلال كامل أراضي دولة هان، ومنطقة «شانتانغ» بدولة «وي» مما مكنها أيضًا من أن تبسط نفوذها على جزء ملاصق لحدودها مع دولة جاو، وهو جزء تبلغ مساحته سبعمائة لي، واستطاعت تشين أن تحشد عددًا هائلًا من فرسان ومقاتلي الدول الثلاث لتحصن بهم منطقةً لا تكاد تبعد كثيرًا عن هاندان [إحدى أهم عواصم الدويلات] إذ كانت تبعد عنها مسافة مائة وعشرين لي تمامًا.

ولم تكتفِ تشين بذلك، بل قادت جيوش الدول الثلاث لمهاجمة منطقة شانتانغ مما جعل تخومها الشمالية عرضة للخطر، بل نتج عن هذا الهجوم أيضًا أن صارت الأراضي الواقعة غرب جبل «جيوجو» خارج سيطرة حاكم البلاد، وهكذا (فقد أصبح بإمكان تشي) إغلاق طرق المواصلات عبر ممرات جبل «تشانغ شان»، وهي أرض تمتدُّ حتى منطقتي «تشيوني»، و«تاندي» — داخل حدود دولة يان — بمسافة تبلغ ثلاثمائة لي — وهو ما يعني أن جياد كل من «دايدي» و«هودي» لن يمكنها التوجه شرقًا لجلب الجواهر من تلال كونشان، ويعني أيضًا أن جلالة الملك (في ذلك البلد) لن يعود بإمكانه الحصول على ما يشتهي من الأحجار الكريمة ولا أن يمد سيطرته فوق تلك المنطقة الغنية بمواردها.

وكل ما أخشاه، يا سيدي، هو أن يكون اتِّباعك لدولة تشين، وسيرك على إثرها في معركتها الطويلة مع دولة تشي، سببًا في جر الويلات عليك.

كان حكام الدول الخمس الكبرى — فيما مضى — [الدول الخمس المشار إليها هي: تشين - تشي - وي - هان - يان] قد عقدوا النية على مهاجمة دولة جاو، بموجب ميثاق التحالف القائم بينهم، واتفقوا على تقسيم أرضها فيما بينهم إلى ثلاثة أجزاء، وعقدوا اتفاقًا رسميًّا لتوثيق ذلك التقسيم، وكتبوه على أوعية من النحاس والبرونز، وأقاموا على شرف الاتفاق وليمة كبرى، امتلأت فيها الكئوس وعمرت الأقداح للشاربين، فلما حان خروج

قوات التحالف للقتال، سارعت قوات دولة تشي بالتقدم جهة الغرب فأوقفت تحركات دولة تشين ومنعتها من التقدم ونزعت عنها قلادة السيادة فوق الممالك وأجبرتها على إصدار قرار ينفي عن حاكمها التلقُّب «بالإمبراطور» وأن يرتدي جنودها الثياب البيضاء (علامة التكفير عن الأخطاء) وعلامة الخضوع والإذعان وأرغمتها على إعادة الأقاليم الثلاثة: «أوندي» و«جيدي» و«كاوبين» إلى دولة وي، وإعادة إقليمي «سانقون»، «شي تشين» إلى دولة جاو، وهو أمر تعرفه جلالتك تمام المعرفة.

ولا أتجاوز الحق إذا قلت إنه يجب على دولة تشي أن تبذل لدولة جاو ما تستحقه من الإجلال والاحترام والتقدير على النحو الذي ينبغي أن تقوم عليه العلاقات مع الدول ذات الشأن، ومع ذلك فإن الطرفين يستبدلان ذلك بتوجيه الاتهامات وإنذارات القتال، وأخشى يا مولاي، أن يكون مثل هذا الحال سببًا في إحجام المزيد من الدول عن توطيد العلاقات معك في المستقبل، أما إذا بادرت الآن إلى التحالف مع تشي، فسوف تقدر لك الدويلات هذا الصنيع وترى فيك سمات العدل والرحمة مما يسهل على تشي أن تدعو باقي الممالك إلى الوقوف وراءك صفًّا واحدًا والعمل على رفعة شأنك بمزيد الاحترام والتقدير والإكبار؛ وإذ يتأكد لدى تشي صدق وأصالة تَمسُّككم بالرحمة والعدل، فسيكون من دواعي فخرها أن تُقلدكم قيادة عرشها المجيد، (أما أن تتوقع في الوقت الحالي) أن يصدر عن تشي — وهي دونكم ودون مرتبتكم المعروفة بين الأمم — أية أعمال تنمُّ عن البطش والصلف والهمجية فهذا غير وارد بالمرة، إذ إنكم تستطيعون إيقافها عند حدودها بقوتكم وقوة التحالف القائم بين الدويلات.

فهذه، إذن، مقادير هذه الحقبة من التاريخ، وأقدار عهد من العهود قد صارت بأيديكم وتحت سلطانكم، فأرجو تاج عرشكم العظيم التشاور مع مساعديكم بمزيد الدقة والاهتمام فيما أعرضه عليكم من خطط ومراجعة ما تنطوي عليه من صحة المنطق أو فساده كدأب كل مراجعة مُستفيضة لكل عمل من الأعمال والإنجازات الناجحة.»

لمَّا قامت دولة تشي بالهجوم على دولة سونغ

قامت دولة تشي بالهجوم على سونغ، (فلما دُعي الملك فن يانغ [لقب آخر لـ «لي توي»] للمشاركة في الهجوم) فقد تراجع وأعلن رفضه للزج بنفسه في هذا المعترك، فذهب إليه أحد أصحاب الخطط والمشروعات (السياسية) قائلًا له: «قد بلغت سن المشيب، ولمَّا تحصل على

إقطاعك المقسوم لك، فلا بد، إذن، من أن تتروى في التفكير، وتتأمل الأمور باستفاضة:) فانظر إلى أحوال الدول الماثلة تجد ما يلي: إن دولة تشين قد أعماها الطمع والجشع فلا يشغلها سوى السلب والنهب، ودولتي وي، وهان، تقعان على حافة الخطر، أما يان، وتشو، فمنعزلتان عن باقي الممالك، وبالنسبة لدولة جونشان، فهي لا تملك إلا أرضًا قاحلة مُجدبة، فإذا تأمَّلنا أحوال دولة سونغ، وجدناها مثقلة بمشاعر الإثم والذنب (في حق الجميع) أما دولة تشي، فغاضبة وحانقة، يتطاير من عينها شرَر العدوان.

ومن ثم فإن الهجوم على دولة سونغ — خصوصًا وهي تُعاني الارتباك والاضطراب في الوقت الراهن — خليق بأن يضمن لك الحصول على إقطاعك المأمول، هذا بالإضافة إلى ما سيغدقه عليك من شعور دولة تشي [القوية، ذات النفوذ]، فهذه فرصة لا يجود بها الزمان كثيرًا.»

لمَّا تحدث الملك تشاو إلى قون تسيتا

تحدث الملك تشاو — حاكم تشين — إلى [أخيه الشقيق] قون تسيتا، فقال له: «كانت دولة هان، إبان معركة شياوشيا، في العام الماضى تترأس قلب الهجوم، ثم إنها تحالفت مع باقي الدويلات وجاءت لتضرب بلادنا [تشين]، وكانت هناك منطقة مشتركة بيننا على الحدود تبلغ مساحتها (في الجانب الخاص بدولة هان) نحو ألف لي، (ولم يكن ذلك سببًا كافيًا لإقناعها) بالالتزام ببنود التحالف، إذ إنها كانت دائمة التقلُّب والتردُّد.

وتذكُر أنه ... لمَّا نشب القتال، في الماضي بيننا وبين دولة تشو، في موقعة «لانتيان»، فقد سارعت دولة هان بإرسال نخبة مختارة من أفضل قواتها العسكرية لمساعدتنا، إلا أن نتيجة المعركة لم تكن في صالح تشين؛ فمن هنا تحولت عنا دولة هان وراحت تعقد تحالفها مع دولة تشو، مما يوضح أنها ليست بالبلد الذي يتمسَّك بوعوده، بل يلهث وراء مصلحته الذاتية دائمًا؛ لذلك فهي تمثل الخطر الدفين على بلادنا، وهو الأمر الذي يدعوني إلى الاستعداد لمنازلتها، فما رأيك في هذا؟» ورد عليه قون تسيتا، قائلًا: «إذا دفعت بقواتك تجاه دولة هان، فهذا كفيل بأن يُثير في قلبها الرعب، فإذا استطعتَ أن تُثير لديها تلك المشاعر حقًّا، فلن تحتاج إلى النزال معها، بل ستتمكَّن — بمنتهى السهولة — من اقتطاع ما تُريده من أراضيها.» فاستصوب الملك تشاو رأيه، وقام بتحريك قواته، فدفع أحد جيوشه للاقتراب من منطقة «شين يانغ» بينما أمر الجيش الآخر بالتقدم نحو إقليم «تايهانغ».

الجزء الثاني من الفصل نفسه

استولى الفزع على دولة هان وأرسلت «يان تشن» [وزيرها الأعظم] إلى دولة تشين، لتقديم الاعتذار اللائق، ومحاولة عقد مصالحة معها، بل عرضت عليها التنازل لها عن أرض شانتانغ، ولم يكتف الملك «هوان هوي» حاكم هان بذلك، بل أرسل أيضًا يان تشنغ إلى «جين هوانغ» محافظ إقليم شانتانغ ليبلغه بما مفاده «إن دولة تشين قد دفعت بجيشين من جيوشها لمهاجمة بلادنا وهو ما يمكن أن يعني إزالة هان من الوجود، وبناءً على ذلك فقد أمرنا، نحن ملك هان، بإرسال حملة عسكرية (إلى ساحة المعارك) [على أن تقوم، من ناحية أخرى وبالتزامن مع تعبئة القوات] بإهداء منطقة شانتانغ إلى دولة تشين، سعيًا للسلم وعقد التصالُح معها، وقد تم إيفاد رسولنا إليكم بهذا الغرض لعمل اللازم [حرفيًّا: لتقوموا — بصفتكم محافظ الإقليم — بإتمام عملية التسليم]، فأجاب جين هوانغ بقوله: «هناك مثلٌ سائر يُردِّده الناس، مفاده ... «مهما بلغت سذاجة المرء، فليس له أن يُعِير الناس الأطباق التي يأكل فيها طعامه.» وللملك بالطبع أن يصدر أوامره بتعبئة ودفع القوات، ولكن من حقي أن أمارس سلطتي بوصفي محافظًا للإقليم، أقول هذا ولا أُبالي بما قد يثور في نفسك، أو في نفس جلالته من الشكوك بشأن قراري وموقفي هذا، فقط لي رجاء واحد، وهو أن يتم دفع كامل القوات للتصدي لهجوم تشين، فإذا لم تتمكَّن من الثبات في وجه تلك الهجمة الشرسة، فلن أتوانى عن أن أبذل روحي دفاعًا عن الوطن.»

وقام «يانغ» بإبلاغ جلالته بكل ما دار بينه وبين محافظ الإقليم، فردَّ عليه الملك قائلًا: «كنت قد عقدت اتفاقًا (بشأن هذا الموضوع) مع النبيل «إينخو»، فإذا نكصت عن اتفاقي الآن، فسيُعَد ذلك خيانة وخداعًا له.» وهكذا فقد أوفد الملك، من جهته، المدعو «فينغ تين» ليحل محل «جين هوانغ».

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وقام «فينغ تين» على حماية الإقليم مدة ثلاثين يومًا، (إلا أنه راح يراسل ملك جاو سرًّا) وأرسل إليه يقول له: «لم يعُد في مقدور دولة هان الاحتفاظ بإقليم شانتانغ، بل إنها ستضطر إلى التنازل عنه لدولة تشين، غير أن أهالي الإقليم لا يرغبون أن يُصبحوا ذات يومٍ يجدون أنفسهم فيه من رعايا تشين، بل إنهم يتمنَّون أن يصيروا من رعاياكم المُخلصين، ومن الجدير بالذكر أن إقليم شانتانغ، بوصفه واحدًا من الولايات الكبرى، فهو يتكون من

سبع عشرة محافظة، وإننا لنرجو أن نهديكم هذه المنطقة، وكلنا أمل في أن تسارع جلالتكم بإصدار قراركم بهذا الشأن، وكاد الملك يطير من شدة سعادته لِما بلغه في تلك الرسالة، واستدعى [أخاه الشقيق] «بين يانغ» وقال له: «بلغني أن دولة هان لم تعُد تستطيع الدفاع عن ولاية شانتانغ، ولذلك فسوف تُهديها إلى دولة تشين، لكن المشكلة تكمُن في أن أهالي الإقليم لا يريدون أن يصبحوا من رعايا هذه الدولة، بل يرغبون في أن يكونوا من رعايانا نحن، وها قد أرسل إليَّ «فينغ تين» مبعوثًا يعرض عليَّ قبول الحصول على الإقليم، فما رأيك؟» فأجابه أخوه جاوباو [لقب آخر للمدعو «بين يانغ»] قائلًا: «قد بلغني أن الحكماء القديسين يعدون «الجائزة التي ترد على المرء بغير سبب مفهوم» إيذانًا بحلول المصائب.» فقال له ملك جاو: «من قال لك إنها جائزة بغير سبب، أما قد علمت أن الناس يرغبون في أن يكونوا رعاياي، امتنانًا وشوقًا نبيلًا (لمن يجدون عنده النعمة السابغة)؟» فأجابه جاوبار بقوله: «إن تشين الآن بصدد الاحتلال التدريجي لأرض دولة هان، ولا بد أنها ستقطع خطوط المواصلات التي تربط بين شانتانغ وباقي أراضي هان، على النحو الذي يعوق وصول العون والإمداد إليها، ولذلك فإن تشين تثِق في أنها ستحصل على الإقليم (إن عاجلًا أو آجلًا) دون أن تحرك ساكنًا (هذا من ناحية، وأما من ناحية أخرى …) فإن السبب الذي يدعو دولة هان لكي تتنازل لك عن إقليم شانتانغ، يكمُن في أنها تسعى بكل وسيلةٍ لتفادي ما يمكن أن تلقاه من مخاطر تتعلق بهذا الإقليم وذلك بإلقاء تبعة ما يجلبه من مشاكل عليك وحدك؛ فتكون دولة تشين هي التي ذاقت مرارة الهجوم على الإقليم، في حين تجني دولة جاو أشهى ما يجلبه عليها من ثمرات ومنافع من دولة صغرى، فكيف نصدق أن دولة ضعيفة يمكن أن تستحوذ على كل المنافع لنفسها من بين براثن دولة كبرى على درجة بالغة من القوة؟ وهل تقتنع جلالتك، حقًّا، بأن هناك أسبابًا مفهومة لحصولك على منطقة شانتانغ؟ وهل تستطيع (في سبيل الحصول على تلك المنطقة) أن تُحارب تشين لتحصل منها على شانتانغ، بعد إذ حرثت أرضها وبذرت فيها الزرع وجعلت من مياهها مئونة لجيوشها المقاتلة، وأقامت لجنودها في كل شبر منها المتاريس والحصون وصفوف الجنود المتراصَّة، وأدارت شئونها الحكومية بنظام قانوني صارم ولوائح منضبطة سيرت بها أمور الحياة على نحو أكثر سلاسة ومرونةً ونظامًا؟ كلَّا، بل يحتاج الأمر منك يا مولاي المزيد من التأمُّل والمراجعة.» وهنالك استشاط جلالته غضبًا، ورد عليه بقوله: «إنني بعد كل تلك السنوات الطويلة التي خضتُ فيها معارك وحروبًا بقواتٍ يزيد عددها عن المليون مقاتل، لم أكسب مدينة كبرى ولا إقليمًا بمثل هذه الضخامة، وها أنا اليوم، أحصل على

سبع عشرة مدينة دفعة واحدة، بغير حرب ولا قتال، فكيف أرفض هذا العرض؟» وعندئذٍ قام جاوباو، وتنحَّى عن مجلسه وخرج.

الجزء الرابع من الفصل نفسه

وأرسل ملك جاو في استدعاء جاوشن [لقب آخر للمدعو «بين يوان»] و«جاويو» [وزير عظيم بدولة جاو] وقال لهما: «بلغني أن دولة هان لم تعُد تقدر على حماية منطقة شانتانغ، حتى إن محافظها أرسل إليَّ يعرض تسليمها لنا على سبيل الهدية، (وللعلم) فإن تلك المنطقة تتكوَّن من سبع عشرة مدينة.» فأجابه كلاهما بقولهما: «قد طالما قمتَ على رأس قواتك وحاربتَ الحروب الكثيرة، لكنك لم تفُز بمدينة واحدة (من بين ما حاربت من المدن) ثم إذا بك تجد ذلك المُلك العريض والعدد الهائل من المدن ينتظِر إشارةً منك، وأنت جالس مكانك، لكي تتولَّى زمام السيطرة عليه، فذلك إذن، من علامات الخير الطائل والحظ السعيد.» وهكذا، أوفد الملك جاوشين لاستلام الإقليم المذكور.

فلمَّا انتهى جاوشين في رحلته إلى ذلك الإقليم، تحدث (إلى المسئولين هناك) قائلًا: «جئتُكم موفدًا من قبل حاكم جاو، فأنا وزير جلالته إليكم، وأُدعى «جاوشين»، وقد بلغتنا دعوة الوالي الكريم وإذ أوفدني الملك لمقابلة حضرتكم، فائذن لي أن أقول لكم ما يلي: «إننا نعرض عليك التكرُّم بقبول (إنعامنا عليك) بإهدائك مدينةً ذات ثلاثين ألف نسمة، كما نرجو تسليم وكيل الإقليم مدينة يبلغ تعدادها (ألف عائلة) على أن يجري ترقية كل الموظفين ثلاث درجات اجتماعية دفعة واحدة، والتكرم على العائلات (التي تقدر على حشد أفرادها في مجموعات كبرى) [هكذا في المتن] بدفع ما مقداره مائة وعشرين وزنة من الذهب لكل عائلة.» وهنالك أطرق «فينغ تين» برأسه وسالت دموعه على وجنتَيه وأخذ يقول: «قد أوقعت نفسي في ثلاث مثالب مُزرية وشائنة ... أُولاها: أني عجزت عن أن أبذل كل جهدي (حتى الموت) دفاعًا عن الإقليم الذي أُنيطت بي مهمة الحفاظ عليه، وتخاذلي عن واجبي حين قررتُ التنازل عنه للآخرين، وثانيتُها: أني أهديت أرض الإقليم إلى دولة جاو مخالفًا بذلك الملك حيث طلب تسليمه إلى دولة تشين، وثالثتُها: التفريط في أملاك جلالة الملك والاستيلاء على خراجها.»

ثم إنه رفض، بأدبٍ جم، العرض السخي الذي تقدمت به إليه دولة جاو، وأرسل إلى ملك هان، يقول له: «لمَّا بلغ دولة جاو عجز هان عن الاحتفاظ بإقليم شانتانغ بين أيديها،

فقد حركت قواتها واحتلَّت أرض الإقليم.» وأرسلت دولة هان إلى تشين كتابًا تقول فيه: «قامت دولة جاو بدفع قواتها واحتلت إقليم شانتانغ.»

فاستشاط ملك تشين غضبًا ووجَّه أمره إلى «بايتشي» [قائد الجيش] و«وانخي»: بسرعة إعداد القوات والتوجُّه بها للاشتباك مع جيش جاو في عقر داره [حرفيًّا: في قرية تشان بين داخل حدود جاو].

لمَّا ذهب سوتشين موفدًا من قبل ملك جاو

ذهب سوتشين إلى دولة تشين، موفدًا من قبل ملك جاو، فلما عاد أدراجه إلى جاو. بقي ثلاثة أيام في انتظار مقابلة جلالة الملك بغير طائل، فلما التقى بجلالته قال له: «كنت قد مررت في طريقي، منذ زمان بعيد، بجبل «تشو» فشد انتباهي منظر شجرتين هناك، وكانت إحداهما تنادي على صاحبتها، بينما كانت هذه تبكي بصوت أسيان يثير الشجن، فسألتهما عن أحوالهما وسبب تلك الظواهر التي اعترتهما [... الأولى تبث رفيقتها لواعِجها، والثانية تبكي حَر البكاء ...]، فأجابت إحداهما قائلة: قد تقدمت بي السن ووهن العظم مني، ودبَّت الشيخوخة في أوصالي، واشتدَّ بي الذُّعر لمَّا رأيت النجارين يرفعون الخيط والأوتاد وهم يقيسون جسدي بالأمتار والأشبار، ويضعون علامات في أجزاء متفرقة من لحاء جسدي.» وصرَّحت الثانية بدفين مشاعرها، قائلة: «(لست خائفة مما تخاف منه رفيقتي) بل هو أكثر إيلامًا إذ يتَّخذ النجارون من جسدي مقابض وعُدَدًا وآلاتٍ يقطعون بها الأشجار ولشدَّ ما أبغض أن أجد نفسي جزءًا من يد مِثقاب، ينخر أجساد الشجر ويُفتت أكبادهم [حرفيًّا: إذ تثقب أجساد الشجر فيخرج منها نثار قلبها: نشارة خشبها] وها أنا ذا قد ذهبت موفدًا من قبلكم إلى دولة تشين، فلمَّا عدت ظللت أنتظر لقاءكم ثلاثة أيام بلياليها، فلربما كان هناك من يظنُّ أني مثل المثقاب الذي ينخر الأجساد ويُفتت كبدها.»

لمَّا قام كانماو بمهاجمة مدينة

قام كانماو بمهاجمة مدينة «إيانغ» التابعة لدولة هان، وذلك لمساعدة أهداف التحالف بين تشين ودولة وي، ثم توغل جهة الشمال، صوب دولة جاو، وهنالك تحدث «لن شيان مع تشيانقو [وزير عظيم بدولة جاو]، قائلًا له: «أرى أن أفضل ما يمكن أن تفعله دولة جاو الآن هو أن تقوم باعتقال كانماو، وتُحدِّد إقامته، تمهيدًا لعمل صفقةٍ بشأنه، مع كلٍّ من

تشي وتشين، وهان؛ بحيث يطلب من تشي تقديم تنازُل عن الإقليم الذي تقطنه قبائل «هو» [تنطق كما في «الجمهور»] إذا كانت تريد أن يتم الضغط على دولة هان لكي تتنازل عن محافظتي «لو»، و«تشي» وقبائل توان، مقابل الحصول على مَوطئ قدم في مدينة إيانغ؛ وفيما يتعلق بالمساومات مع تشين فيمكن الاتفاق مع الملك «أو» حاكم تشين، على أن يتم تلبية طلبه في الحصول على مدينة إيانغ، بشرط أن يتخلَّى عن تمسُّكه الزائد بالمجوهرات والأحجار الكريمة [أي مقابل هدية سخية يُقدمها طواعية، من نفيس الدر والجواهر].»

وبالفعل، فقد أخذت دولة جاو بهذا الرأي و... قامت باعتقال «كانماو»، فأسرعت دولة تشين بتعيين كل من «كون صونهو»، و«تشوليجي» (في مناصب عُليا).

لمَّا ذهب إلى «بيشان كو» من قال له

ذهب إلى «بيشان كو» من قال له: «ما السبب في تعيين رجال من أمثال «جيان شينجوان» و«شيمن» [في مناصب حكومية عُليا] في وقتٍ يشهد ضعف وتهافت الأحوال داخل دولة جاو؟ (ولربما قيل) إن السبب في إسناد وظائف مهمة إليهم، يعود إلى براعتهم في إقامة خطة التحالف الرأسي [تحالف الدول الواقعة على محور رأسي ضد دولة تشين] (هذا مع العلم بأن دولة تشي ترفض قيام هذا التحالف، ثم إن جيان شينجوان يُدرك أن التحالُف الرأسي لن يُكتب له النجاح، فكيف يمكن إذن لرجل يعرف مقدمًا ما ينطوي عليه هذا التحالف من أسباب للفشل، أن يستخدمه في إيذاء أو تهديد دولة تشين؟ (وما دام ...) يتعذَّر استخدام خطة تحالف متهافتة لتهديد تشين فلن يبقى أمام الرجل إلا أن يدفع بجيشه لمساعدتها (هي ودولة تشو) في هجومها ضد وي، لكي يقتسما معًا أراضي دولة تشي.

ذلك هو ما تفتق عنه ذهن جيان شينجوان، وآخر ما تبقى من عصارة أفكاره في تصور الحِيَل (السياسة). إن فشل كلٍّ من جيان شينجوان وتشون شن في إقامة التحالف الرأسي، يُمثل تهديدًا، أيضًا، لدولة تشين، كما أن النجاح في تقسيم أراضي دولة تشي، وتدمير دولة وي عن آخرها، يمكن أن يؤدي إلى عقد أواصر الصداقة والمودة مع تشين (فإذا كان الأمر على هذا النحو من الارتباك) فكيف يمكن القول إن جيان شينجوان وشيمن؛ يُجيدان تقدير ما هو ناجح أو فاشل من الوسائل، عند وضع خططهما [... فأين النبوغ والدهاء الذي يحلو نسبته إليهما!]»

لمَّا ذهب البعض إلى «بيشان كو»

ذهب البعض إلى بيشان كو، وقالوا له: «قد قامت دولة وي بإعدام قائد جيوشها (المدعو) «لولياو» ووقعت دولة ويه في براثن دولة تشين التي سلبتها منطقة «بيانغ» وبوقوع هذه المنطقة فقد تعرضت دولة وي لخطر شديد صار يجثم على أنفاسها، أما بالنسبة لدولة جاو، فسينالها خطر أشد هولًا وجسامة إذا لم يتم تحديد المنطقة الحدودية لإقليم «خيجان» التابع لها.

ومن جملة تكدُّر الأحوال أن الأمنيات التي ظل (رجل دولة عظيم مثل) ليوبوي، يحلم بتحقيقها، قد تبددت، وهو الأمر الذي أثار قلق الدول الثلاث: هان وجاو ووي، مما زاد شعور ليوبوي بالتوتر، وضاعف من هواجسه، إن الخزي الذي أصاب دولة وي (أمام الدول والممالك قاطبة) لم يتبدَّد، والهموم التي غاصت في قلب دولة جاو لم تزايلها.

كما أن إحجام دولة تشي عن الانضمام إلى دول التحالف الرأسي، أوجد إحساسًا عامًّا في الدول الثلاث، هان، ووي، وجاو، بالشك في إمكان قيام التحالف أصلًا. وكانت بعض من الدول التي أرَّقها الشعور بالقلق قد هرعت إلى الدخول في صفِّ دولة تشين دون سابق تخطيط جيد، بالإضافة إلى أن عددًا آخر من الدول التي انتابتها الشكوك في قيام التحالف الرأسي سارعت إلى العمل على التقرب إلى تشين.

وقد تم الاستقطاب بين دولتي «وي» وتشين قبل أن يجري توزيع حصص الأرض بينهما، وبادرت كلتاهما، بالإضافة إلى دولة تشو، بمهاجمة دولة تشي. ثم أقدمت تشين وحدها — ودون إشراك الآخرين معها — على ابتلاع دولة جاو، مما يعني أن دولتي تشي وجاو، لن تقوم لهما قائمة.»

لمَّا أهدى ملك جاو إقطاع المدينة

أهدى الملك «هوي أون» حاكم جاو. إقطاع مدينة «أوتشن» إلى منغ شان، فاستدعى هذا الأخير مُستشاريه وانتخب منهم عددًا ممن أوكل إليهم مهمة الإشراف على المدينة، فلمَّا حان وقت سفرهم لاستلام مهام العمل اجتمع معهم، وقال لهم: «أما سمعتم المثل السائر الذي يقول: «إن استأجرت عربة، فأسرع في قيادتها، وإن استعرت ملابس الناس، فاتخذها رداء فوق جسمك»؟» فردوا عليه بالإيجاب، فقال لهم «ومع ذلك فلست أوافق على الأخذ بنص هذا المثل؛ لأن الذين يستعيرون الملابس والعربات ليسوا سوى الأصدقاء والأقارب.

وأرى أنه لا يصح أن يسرع المرء وهو يقود سيارة استعارها من إخوته أو أقاربه، ولا يليق أن يستعير قميصًا من أحد أصدقائه، ثم يستبقيه لديه ولا يعيده له.»

وأظن أن ملك جاو قد غاب عنه أني لستُ بالرجل المعروف بالفضل والحكمة، لكنه — مع ذلك — أهدى إليَّ مدينة «أوتشن»، فأرجو من الوكلاء الأفاضل الذين اخترتُهم للذهاب إلى المدينة أن يبذلوا كل جهدهم للحفاظ على الأمانة التي ستئول إلى أيديهم ... فلا يقطعوا شجرة قائمة ولايهدموا منزلًا (وأن يتصرفوا على النحو الذي) يجذب انتباه الملك إلى تقدير خصالنا بطريقةٍ متوازنة وبوعي جديد يفطن إلى مزايانا وجدية إخلاصنا وحُسن نوايانا. وعلى الجميع أن يسلكوا، في أداء الأعمال بالحرص والتزام الحذَر البالِغ؛ بحيث نتمكن من إعادة الإقطاع إلى صاحبه، سليمًا صحيحًا، دون أن تمسُّه يد العبث والفساد (كأننا استعرناه منذ قليل).

لمَّا ذهب إلى حاكم جاو بعض الناس

ذهب واحد من الناس إلى الملك «أولينغ» [حاكم جاو، تولى العرش مدة سبعٍ وعشرين سنة من ٣٢٥ إلى ٢٧٨ق.م] وقال له: «(اعلم) أن في اتحاد الدول الثلاث، ضررًا بالغًا لـ (تشين)، مثلما أن تفرُّق كلمتهم يعود على تشين بالنفع، ويقوي مركزها، وهو أمر مفهوم وواضح لكل أهل الممالك، ثم إن تشين تستطيع — إذا تقاربت مع دولة يان — أن تغزو جاو، (أو ...) أن تتقارب مع جاو فتهجم على يان، ثم يمكن لـ «تشين» أن تتحالف مع دولة ليانغ فتهاجم جاو، ثم تتحالف مع هذه الأخيرة لضرب دولة وي؛ وكذلك تقدر تشين أن تصادق دولة تشو ثم تهاجم دولة هان (أو ...) أن تتقارب مع هان لضرب تشو. وتلك كلها موضوعات يفهمها الناس في شتَّى الدويلات والممالك بكل سهولة، وإذا كانت الدول الست الواقعة شرقي «هواشان» عاجزة عن عرقلة دولة تشين عن المضي قدمًا في طريق (ضم الدويلات إلى) التحالف الأفقي [التحالف القائم على محور أفقي ويضم الدول المجاورة المتاخمة لـ تشين، مقابل الدول الأخرى على الخط الرأسي]، فلأنها ضعيفة التسليح، ضئيلة القوة العسكرية، أضف إلى ذلك تفسخ علاقاتها البينية، وتفكك الروابط بينها، وهو أمر يبرز ذكاء وبراعة دولة تشين (في التخطيط السياسي) مقابل ما يصم الدول الست من غباءٍ شديد، هذه هي النقطة التي تُثير قلقي ومخاوفي بشأن موقف تلك الدول.

قد يقترب النمر من الفريسة، دون أن تشعر بخطورة تربصُّه بها، وقد يرقب النمر فريستَين تتقاتلان معًا حتى تتبدَّد طاقاتهما ويسقطان بعد أن يأخذ منهما التعب مأخذه،

فتصيران غنيمةً للنمر الرابض؛ وهو الأمر الذي إذا عرف مغبته أي من المتعاركين، أدرك سوء العاقبة، فأمسك عن العراك، وقد أوشك قادة الدول الست أن يهلكوا جميعًا بعد أن طحنتهم المعارك، وكادت بلادهم تسقط في براثن تشين، فلا أظنهم قد بلغوا من الوعي والذكاء والبصيرة مثلما بلغت الفرائس من الوحش والبهائم، (فنصيبهم من الحكمة أدنى مما لدى الدواب السائمة)، وكل ما أرجوه من جلالتكم النظر في هذه الأمور ومعاينة دقائقها ومراميها.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

«وهناك الآن أمر على درجة بالغة من الخطورة، ألا وهو محاولة دولة تشين شن الهجوم على كل من هان، ووي، هذا بالإضافة إلى تطلُّعها الدائم جهة الشرق وتربصها بعرش آل جو [تنطق كما في «المانجو»] فهي لا تكاد تغفل عما تُدبره في تلك الناحية طرفة عين، ثم إن السبب فيما تقوم به دولة تشين في توجيه دفة الهجوم الآن صوب دولة تشو، في الجنوب، يعود إلى كراهيتها لقيام الوحدة بين الدول الثلاث، (ولنلاحظ) أن تشين قد احتلت مساحاتٍ شاسعة من الأراضى في السنوات الخمس الماضية، وهي الفترة التي أوقفت فيها هجومها ضد دولة تشي وأعفتها من الضرائب المُقررة عليها، بل قد أرسل ملك تشين لحاكم تشو، يقول له: سنرد على زيارتكم الكريمة لنا، بتوطيد أواصر الصداقة والأخوة بين بلدينا، وسنرد عنكم كيد دولتي هان، ووي؛ وذلك بمهاجمتهما، ودك حصونهما، واستعادة أراضيكم المسلوبة من بين براثنها.» مما أوقع في روع ملك تشو أن تشين قد رفعت له لواء الصداقة، وراح يتأمل ذلك وهو غاضب من دولتي وي وهان، لموقفهما المتخاذل منه، وعزم على زيارة البلاط الحاكم في تشين، بينما كانت الأخيرة تُعد العدة لإرسال مبعوثها إلى دولة جاو في محاولة منها لاستخدام خططهما المشتركة التي تهدف لضرب يان، طمعًا لإغواء دولة جاو، بحيث تتفكك عرى الوحدة بين الدول الثلاث.

ولربما ظن الملك محاولات تشين لعقد الصلات الأخوية مع تشو والشروع، من ثَم، في مهاجمة دولة يان هو الأمر الذي يبدو في ظاهره مؤمِّلًا واعدًا بأطيب النتائج، لكنه في الحقيقة، ينطوي على الكثير من أفدح العواقب.

وإذا ما ذهب ملك تشو إلى بلاط تشين، فسوف يقوم التحالف بين بلديهما، ثم يتجهان كلاهما لمهاجمة دولة هان في الشرق، وإذ تتلفت هان حولها، فلا تجد يد العون التي كان يمكن أن تقدمها لها دولة تشو في الجنوب، وتجد جاو قد تخلت عن نصرتها في الشمال،

فلن تلبث حتى تهرع إلى أبواب تشين، تعرض عليها التنازل لها عن مزيدٍ من الأراضي فإذا ما صفت أجواء العلاقات بين تشين وهان، وتحوَّلت نُذر الحرب نحو دولة وي، ثم تجد نفسها، هذه الأخيرة في مواجهة تشين التي تعاظمت قوتها بإضافة طاقات كل من دولتي تشو وهان إليها، فلن تقعد حائرةً ملتاعة في انتظار كارثة الدمار الداهمة، بل ستهرول [حرفيًّا: تقفز أسرع من الخيل وتثب أفزع من أرنب مذعور] إلى عتبات تشين تعرض عليها أجزاء من أراضيها مقابل كف العدوان عنها، فإذا تحسنت العلاقات بين وي وتشين وحل الوئام محل العدوان، تبدلت نظرة تشين إلى جاو، فراحت تنظر إليها كأنها «النقطة المحاصرة داخل الدائرة» ثم إن دولة جاو ستجد نفسها، أمام قوة تشين الجبارة، المدعومة بكل من هان، ووي، وتشو، ويان (المشحونة، أساسًا، بالغضب ضد جاو) ستجد نفسها مضطرة إلى التنازل عن الكثير من الأراضي. وإذا وصلت أحوال البلاد هذه الدرجة، (فلا بد من التحرك لعمل شيء) فلهذا جئت اليوم إليكم، وها أنا ذا أقول لكم إنه يجب الإسراع في عمل أشياء كثيرة.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

«ولتنتهز الدول الثلاث فرصة تلكؤ ملك تشو في الذهاب إلى بلاط تشين لتوقع ميثاق الوحدة فيما بينها تدعيمًا للروابط القائمة، ولتُرسل جيشًا كثيفًا لحماية الحدود الغربية لكلٍّ من وي وهان، وهو النبأ الذي إذا بلغ مسامع ملك تشو، فلن يُقدم على زيارة حاكم دولة تشين، التي ستغضب ويَحمَى وطيس ثورتها فتقوم بمهاجمة تشو، وهذا يعني أن تشين ستظل تطارد تشو بتهديداتها العسكرية، مما يعود بالنفع على الدول الثلاث.

أما إذا كان ملك تشو، قد حلَّ ضيفًا على بلاط تشين، بالفعل، فلا أظن أن البلاط الحاكم هناك — وقد بلغته أنباء الوحدة بين الدول الثلاث — سيدع ملك تشو يعود إلى دياره دون التنازل عن المزيد من أراضيه لتشين، وهو ما يعني كذلك أن سيف التهديد العسكري سيظل يُلاحق تشو، مما ستعود نتيجته بالنفع على الدول الثلاث، فأرجو من جلالتكم سرعة اتخاذ اللازم بشأن وضع الخطط المناسبة في هذا الاتجاه.»

ومن ثم فقد أسرع ملك جاو بإرسال حملة عسكرية نحو الجنوب للدفاع عن مناطقه الحدودية الغربية لكل من وي وهان، فلما عرفت تشين ما حدث من قيام الوحدة بين الدول الثلاث وتوثيق التضامُن بينها، فقد ضغطت على ملك تشو حتى تنازل لها عن مساحات هائلة من الأراضي.

سجل جاو الثاني

لمَّا انتقل سوتشين من دولة يان

انتقل سوتشين من دولة يان فذهب إلى جاو، وراح يدعو لآرائه وخططه السياسية الموالية لفكرة إقامة تحالف رأسي، ومن ذلك أنه التقى بالملك «شياوهو» — حاكم جاو — وأخذ يناظره ويحاوره، في سياق دعوته السالفة، قائلًا: «ما من أحد وسط رعاياك جميعًا إلا وهو يُثني على سياستك الرامية إلى استتباب أسس العدل والاستقامة، يستوي في ذلك النبلاء والوزراء مع العامة والدهماء، ولو شاءت الظروف لأظهرت لك مدى إخلاصهم ورغبتهم في إبداء الولاء لك والمولاة لسياستك الرشيدة بينهم منذ زمان بعيد، بيد أن «فن يانغ» وقف بينك وبينهم حائلًا دون ذلك، لشدة ما ران على قلبه من الحسد والغيرة والعداء لكل ذي براعة وحكمة واقتدار، بل أظن أن جلالتك قد وجدتَ العقبات دون تصريف شئون الحكم والقيام على أمر البلاد، أضف إلى ذلك تهيُّب الضيوف والدعاة للخطط (السياسية) من إبداء النصح والإخلاص لجلالتك في حضوره [يقصد الأمير فن يانغ]، أما وقد تُوفِّي سمو الأمير، فقد سنحت الفرصة، منذ اليوم لاستتباب الثقة بينك وبين وزرائك وأهل مملكتك، وهو ما يشجعني على تقديم أسمى دلائل الإخلاص والتفاني لشخصك الكريم، يا مولاي.

وإذا كان لي أن أتصور خطة (ناجحة) لجلالتك، فلا بد أن أضع في الحسبان أنه لا شيء يعدل — عند العامة — استقرار دعائم الهدوء والأمن والسكينة فيما يتعلق بأحوال البلاد، وهو الأمر الذي يحدُوني إلى النصح لجلالتك بألا تحرص على تغيير الأوضاع القائمة والتأكيد على بقاء الأحوال على ما هي عليه دون أدنى تغيير [مبدأ «اللافعل» (دعه يعمل!) الذي تدعو إليه الطاوية!]

(واعلم) أن أساس الاستقرار الذي تُريده الناس، يكمن في براعة اختيار العلاقات الدبلوماسية الصحيحة مع باقي الممالك، ذلك أن التحديد الصحيح لاتجاه هذه العلاقات هو الذي يشكل عناصر الاستقرار وأسس الحياة لكل الناس، أما الفشل في اختيار العلاقات الخارجية المناسبة فيترتب عليه ارتباك الأحوال.

وائذن لي بأن أتناول موضوع المخاطر الماثلة في الشئون الخارجية: وأتصور بداية أنه إذا صارت كل من دولتي تشين وتشي عدوتَين لبلادك، فلن يذوق شعبك طعم الاستقرار نهائيًّا، وإذا رأيت الاستناد إلى قوة تشين لضرب تشي، فلن ينعم الناس بأرضك بشيءٍ اسمه الأمن والسلام؛ وكذلك إذا قررتَ اللجوء إلى تشي لمهاجمة تشين، فستكون النتيجة واحدة.

وأرجوك أن تلاحظ أن هناك الكثير ممن يُخططون للسادة الملوك ويصوِّرون لهم ضرورة مهاجمة الدول الأخرى، فأولئك النفر من رجال التخطيط يسعون بكل وسيلة ويتحدثون بكل لسانٍ بليغ ومنطق عذْب؛ بهدف الإيقاع بين الدويلات لقطع علاقاتها الخارجية بعضها ببعض، فالزم الحذر يا مولاي واحفظ قولي لك سرًّا مَطويًّا في صدرك، ولا تُصرح به لأحد من الناس كائنًا من كان.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

«وأرجو من جلالتك أن تأمر مستشاريك (القائمين عن يمينك وشمالك) بالتنحِّي عن مجلسنا هذا، حتَّى يتسنَّى لي أن أشرح لك أسباب النجاح والفشل، أو منافع ومضار أساليب الاختيار المختلفة فيما يتصل بالعلاقات الخارجية، واعلم أن هناك وجهَين متناقضَين لكل اختيار، مثلما أن هناك محورَين للتحالُف بين الدول؛ المحور الرأسي والأفقي. وإذا شئتَ أن تعمل بما أقول لك، فستجد دولة، مثل يان، تقصد إلى أعتاب قصرك وتمثُل بين يدَيك؛ لتهديك أوفر أراضيها إنتاجًا للجياد والدواب والفراء؛ فما إن يصير لك ما تُريد منها، حتى تأتيك وفود دولة تشي تعرض عليك قبول أفضل الأجزاء المُطلة على البحر من أراضيها الساحلية المشهورة بثروتها السمكية والملحية. ثم لا تلبث دولة تشو أن تُرسِل إليك الوفود لكي تهديك أرض «يونمن» العامرة بأحسن ثمار البرتقال والليمون، بل ستجد أيضًا دولتي وي وهان تخطبان ودَّك بما تعرضان عليك من قبول الأموال الطائلة من رسوم إيجارات وضرائب أراضيها الكثيرة (فيعم الخير وتشملك الدنيا بالثروة والجاه والسلطان) فتتكرم بالإقطاعات الهائلة والألقاب الشريفة ودرجات النبالة على أقاربك وأصهارك؛ وقد طالما

كانت الأراضي الممنوحة للعروش الحاكمة وأموال الجباية هما الهدف الذي من أجلِه بذلت الإمبراطوريات دماء جنودها حتى أهلكت الجيوش الجرَّارة (في سبيل تحقيقه)، بل كثيرًا ما اقتتل القادة وأُلقي في غياهب السجون بالأبطال (من أجل الحصول عليه). بل كان ذلك الهدف هو الذي أهلك عروش (طانغ) آل شانغ والطاغية (المخلوع عن الحكم) شياجيه، اللذَين تهالكا عليه رغبة في الإنعام على الأمراء والأصهار بألقاب الشرف والإقطاعات العامرة.

وتستطيع، اليوم، إن أردت يا مولاي أن تجني ثمار كِلا الجانبَين، وهو ما أرجوه لك وأتمنى ألا يغيب عن ناظريك.

ذلك أنك إذا انضممت إلى دولة تشين، فلا بد أن هذه الدولة الكبرى ستعمل على إضعاف طاقات كلٍّ من وي وهان؛ أما إذا تحالفت مع تشي، فلا بد أن هذه ستنال من قوة كلٍّ من تشو ووي، فإذا تناقصت قوة هذه الأخيرة، فلا بد أنها ستقدم الكثير من التنازلات من أرضها الواقعة وراء منطقة «خواي»، وكذلك إذا تبددت طاقة دولة هان فلا أظنها تتأخر عن التنازل عن أرض (العاصمة) إيانغ، فإذا ما حدث ذلك انقطعت خطوط الاتصال مع ولاية «شانجون»، وكذلك إذا تم التنازل عن أرض ما وراء «خواي» فستنقطع طرق المواصلات، وعندما تتبدَّد طاقة دولة تشو، فإن بلدكم يخسر أهم مورد من موارد المساعدة وقت الحاجة، ويفقد أهم سند؛ فهذه الخطط الثلاث التي عرضتها عليك، تحتاج التنقيح والتأمل المُستفيض.

ومن ناحية أخرى، (فإذا تصوَّرنا إمكان أن) تقوم دولة تشين بالهجوم عبر طريق «جيداو»، فسوف تترامى تأثيرات ذلك الحدث إلى منطقة نانيان، وربما أصيبت بالذعر والهلع، نتيجة ذلك، ثم إذا تم الاستيلاء على دولة هان ومحاصرة دولة آل جو، فستكون بلادكم قد آذت نفسها بيدَيها وجلبت حتفها بظلفها.

(واعلم أنه) إذا تم لدولة تشين احتلال «وايدي»، وأخذ نهر «تشي»، صار لزامًا على دولة تشي أن تهرع إلى بلاط تشين الحاكم إذعانًا لما يُملى عليها، ولَمَّا كان الموقف شرقي منطقة هواشان مواتيًا لدولة تشين لأن تشرع في تنفيذ خططها، فسوف تسارع إلى تعبئة قواتها والهجوم على بلادكم، ذلك أن جيش تشين لن يتوقَّف عن التحرك مهما كانت العوائق أمامه وسيتخطَّى النهر الأصفر ونهر جانغ، ثم يقوم باحتلال منطقة «بوهو» التابعة لبلادكم مما سيفرض على قواتكما الالتحام في منطقة «هاندان»، وهو ما يُثير قلقي على موقفكم، ويبعث على الإشفاق عليكم.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وإذا تأمَّلنا الأحوال في الوقت الراهن، فليس هناك دولة أقوى من بلادكم (جاو) خصوصًا في المنطقة الواقعة شرقي هواشان، إذ تبلغ مساحتها ألفي لي مربع، ويتجاوز عدد مقاتليها مئات الآلاف من الجنود، وتملك من المركبات العسكرية ألف عربة، ومن الجياد عشرة آلاف رأس، ولديكم من الحبوب ما يكفي استهلاك عشر سنوات قادمة، وإلى الغرب منكم يقوم جبل «تشانغ شان» ويحاذيكم من الجنوب النهر الأصفر ونهر جانغ، وإلى الشرق يمتد شريط نهر «تشينغ»، وعند الشمال تقع دولة يان التي لا يمكن أن تدخل في عداد الدول القوية؛ بمعنى أنها ليست مبعث خوفٍ على أمن بلادكم وتظل جاو (موطئ عرشكم الكريم) من أكثر البلاد التي تعمل لها دولة تشين ألف حساب، فهل سألتَ نفسك عن السبب في عدم إقدام تشين على مهاجمة جاو حتى الآن؛ [وتشين — كما تعرف — تريد أن تبسط نفوذها على أعتى وأقوى الممالك، لو اقتضى الأمر ذلك!]؟ السبب، يا مولاي يكمن في خشية تشين مما يمكن أن تدبره لها كل من وي وهان اللتَين تساندان جاو في طي الخفاء، من خطط ماكرة، فهاتان الدولتان بمثابة حاجز وقائي يحمي بلدكم من جهة الجنوب، ومع ذلك فسيختلف الأمر كثيرًا إذا أقدمت تشين على مهاجمتها، خصوصًا أن البلدين لا تحدُّهما موانع طبيعية من جبال أو أنهار كبرى، مما يسهل على تشين التقدم لابتلاعهما واحدة بعد الأخرى، ولن يوقف مسيرة تشين إلا حدود العاصمة، وبالطبع، فليس لكلتا البلدين طاقة بمدافعة هجوم تشين، ومن ثم فسوف تذعنان لها بالولاء والطاعة، وإذ تشرع تشين أسنة رماحها، فلن يوقف تقدمها بعد ذلك أي عائق ولن تمنعها موانع، مما ينذر بوقوع الكارثة على رأس جاو، وهو الأمر الثاني الذي يُثير خوفي وقلقي على بلدكم.»

الجزء الرابع من الفصل نفسه

«قد بلغني (من أخبار الملوك الحكماء الأقدمين) أن الإمبراطور الحكيم ياو لم يكن يملك أرضًا تتسع للحرث والزرع، ولا كان (الملك القديس) «شون» يحوز أدنى مساحة من الأراضي ومع ذلك فقد كانا كلاهما يبسطان نفوذهما فوق الممالك المُترامية، ولم يكن (الملك الحكيم) «يو» يملك قرية آهِلة بالسكان، ومع هذا فقد امتدَّت رقعة سلطانه لتشمل العديد من الدويلات والإمارات التابعة له، كما لم يكن جند أعتى الإمبراطوريات [طانغ (من أسرة شانغ الملكية) والملك أو حاكم جو] يزيدون عن ثلاثة آلاف فرد، ولا كانت المركبات الحربية

تزيد، بأي حالٍ عن ثلاثمائة عربة، وعلى الرغم من ذلك فقد استتبَّت في أيديهم مقاليد الحكم ودانت لهم العروش بالطاعة، ولا أظن أنه كان مُمكنًا أن تسهل الأمور على هذا النحو، إلا بما اتخذوا من وسائل قويمة ومناهج سديدة في الحكم الرشيد؛ ولهذا فقد تمكَّن أولئك الملوك الحكماء من تقدير قوة أعدائهم من عدمها (فيما يتعلق بأحوال وعلاقات البلاد الخارجية) بالإضافة إلى ما مهروا فيه من الوقوف على التصوير الصحيح لحجم قوة جيوشهم (في الداخل) وما أدركوا عين الصواب فيه باعتبار مقاييس الحكمة، الطيش لا تتَّحد بمقارنة (حجم تسليح) القوات مقابل بعضها البعض، بل تكمن أساسًا، في القدرة على تحقيق النصر مقابل الهزيمة أو المُثابرة على البقاء مقابل التفكك والارتباك.

(وإذ رسخت تلك المفاهيم في عقل الملوك الحكماء) فقد كان من المُستحيل أن تنطلي عليهم الكلمات المُخادعة، بله التهور والطيش في اتخاذ القرار.»

الجزء الخامس من الفصل نفسه

«وقد تسنى لي أن أطالع خريطة الممالك — فيما كنت أتأمل الأمور بمفردي — (فوجدت أن) أرض الممالك كلها تكاد تبلغ خمسة أضعاف مساحة دولة تشين، ثم قدرت أن حجم قوات الدويلات مجتمعة، يبلغ عشرة أضعاف قوة تشين، فإذا ما اتحدت ست دول واتجهت صوب الغرب لمهاجمة تشين، فستكون الهزيمة الساحقة هي قدَر تشين الذي لا مفرَّ منه، ومع ذلك فالحاصل الآن هو أن تشين هي التي تعتدي على الدول مما يضطرها، جميعها، إلى الرضوخ لها والانضواء تحت نفوذها والسعي إلى خدمة مصالحها، (حتى صارت تُذعن بالكامل لإرادة تشين).

(والسؤال الآن هو:) هل يمكن أن يستوي طرح الأمور على صعيد واحد، بحيث يتساوى — مثلًا — أن تهاجم أعداءك أو أن يُبادروا هم إلى مهاجمتك، وهل يستوي أن تُذعن لمشيئة عدوك مع خضوعه لمشيئتك أنت؟

إن أولئك المُخططين والدعاة السياسيين المنافِحين عن خطة التحالف الأفقي، يطرحون فكرة مضمونها أن تقوم الممالك بتسليم أجزاء من أراضيها إلى دولة تشين، سعيًا للمصالحة وتوطيدًا لعلاقات السلم، ذلك أنه عندما يقوم السلام مع تشين، سيستمتع أولئك المخططون بالمقصورات العالية فوق التلال تجري من تحتها الأنهار وينمقون المباني ويشيدون الجدران العالية، تشنف آذانهم الموسيقى، وتلتذُّ أفواههم بأشهى المذاق، تقودهم المركبات

إلى حيث يريدون بصحبة أجمل النساء والفتيات حيث تصدح الضحكات الرنانة في أحلى الأفواه، وفجأة تنعقد في الأجواء سحابات الكوارث الداهمة وقد أطلقتها تشين من عقالها، وعندئذٍ تطلب أولئك الداعِين إلى التحالُف مع تشين فلا تجدهم؛ لأنهم لن يكونوا مُستعدِّين لتحمُّل نصيبهم فيما حل من المصائب. (بزعم العجز عن مواجهة تشين) ومن ثم، لا يفتأ الدعاة إلى التحالُف مع تشين (التحالف على المحور الأفقي) يتخذون من قوة تشين ونفوذهما وسيلة لتهديد الممالك وإلقاء الرعب في نفوسها، سعيًا لاقتطاع المزيد من أراضيها. فهذه مسألة تتطلب التخطيط الواعي والدقيق من جانبكم.»

الجزء السادس من الفصل نفسه

«وقد علمت أن العاقل الحكيم لا يطأ موطئ الشك، ولا ينزل بساحة الوشاية (بصرف نفسه عن الاستماع للوشايات الكاذبة) وينبذ القيل والقال، ويترفع عن أن يمضي في طريق التواطؤ والتحزُّب مع الغير، فمثل تلك القِيَم هي الأساس في التخطيط لتوسيع رقعة الأراضي الإمبراطورية ودعم القوة القتالية، وذلك هو السبيل الذي يشد رجالك إلى ساحتك ويوردهم مورد الإخلاص لك والثقة بك.

وبناء على ذلك كله أستطيع أن أعرض عليك، وفي سرية تامة، خطتي التي أراها مناسبة لك، ومفادها أنه ليس هناك أفضل من قيام تحالف الدول الست التي يتشكَّل منها المحور الرأسي، وهي: هان – وي – تشي- تشو- يان – جاو؛ التي تتمكَّن بتقاربها وتكتُّلها من مناوأة دولة تشين.

فليجتمع رؤساء وزارات الدول المعنية في لقاءٍ عام بمنطقة نهر «خوان» ولتتبادل الدول رهائن السلام، ثم تُوقع جميعها مواثيق الصداقة بأيدٍ غمست في دماء جواد أبيض [هكذا، حرفيًّا]، ويقسم الجميع على القسم المنصوص عليه، كالتالي: نقسم نحن المُتحالفين على أنه ...) إذا قامت تشين بمهاجمة دولة تشو، تقوم دولتا وي وهان بإرسال قواتها المسلحة بأقوى وأمضى الأسلحة لمساعدة تشو، وأن تقوم هان بقطع طرق الإمداد والتموين (تموين الحبوب ...) على جيش تشين، وأن تدفع جاو بقواتها فتعبر النهر الأصفر ونهر جانغ حتى تتماس مع قوات تشين (وتبقى هناك إلى حين صدور أوامر أخرى) بينما تتشبث قوات بالدفاع عن منطقة «يونجون»؛ فإذا قامت تشين بمهاجمة دولة تشي، بادرت تشو إلى قطع الطريق على مؤخرة قوات تشين، بينما استماتت قوات هان في الدفاع عن

المنطقة العسكرية الحصينة في «تشن قاو» في حين تسارع دولة «وي» إلى قطع طرق المواصلات في منطقة «أوطاو»، بينما تعبر قوات جاو النهر الأصفر ونهر جانغ، ثم تتمركز في منطقة «مضيق بوكوان»، أما دولة يان فترسل بأمضى الأسلحة وأقوى العدة والرجال والعتاد لمساندة دولة تشي.

فإذا ما كان هجوم تشين مبتدئًا بدولة يان، تقوم جاو بالدفاع عن منطقة «تشانغ شان» بينما ترابط قوات تشو في «أوكوان»، على أن تعبر قوات تشي نهر بوهاي، مرورًا بالنهر الأصفر، حتى تتمركز بالقُرب من قوات تشين وتكمن هناك انتظارًا للأوامر وفي الوقت نفسه، تُرسِل كل من وي، وهان بقوات كثيفة لمساعدة دولة يان.

وبافتراض أن تبدأ تشين بمهاجمة جاو، تُهرع قوات هان؛ لكي ترابط في العاصمة إيانغ، بينما تتمركز قوات تشو في منطقة «أوكوان»، وتنزل قوات وي بمنطقة خواي، وتمكث هناك (حتى صدور أوامر أخرى)، ثم تعبر قوات تشي فوق نهر تشينغ، في حين تُرسِل دولة يان بأمضى أسلحتها وأفضل قواتها لمساعدة جاو؛ فإذا صدرت عن إحدى الممالك أية مخالفة لهذا الميثاق بادرت الدول الخمس الباقية، إلى شن الغارة عليها، في تكتُّل جماعي.

ويصير لزامًا على دول التحالف الست التكاتف حول محور التحالف الرأسي ونبذ دولة تشين، ولا بد أنه سيتعذَّر على هذه الأخيرة محاولة العبور بقواتها من مضيق هانكو لتهديد التحالف السُّداسي بمنطقة شاندونغ.

فإذا تحققت أهداف التحالف على النحو المذكور، صار في حكم المُقرر اعتبار الائتلاف السداسي «قوة ذات هيمنة عظمى» [إمبراطورية عظمى].»

وهنالك قال له شياوهو، حاكم جاو: «(أنت ترى يا سيدي) أني ما زلت بعد، حدثًا صغير السن، ولم تمضِ عليَّ في الحكم سوى أيام قليلة، ولا عهد لي بتلك الأمور ذات الصلة بـ «خطط الإدارة السياسية طويلة المدى» وقد استمعت إليك وفهمت ما ترمي إليه أيها الضيف القدير، من التخطيط بهدف استقرار أحوال الممالك، وحماية أمنها، وسوف تعمل بلادي بما تُشير عليَّ من إرشادات وتوجيهات.» ثم أنعم على سوتشين بلقب «أوانجون» وأهداه مائة مركبة، وألفي مثقال من الذهب، ومائة زوج من اليشب (حجر كريم) وألف قطعة من القماش المُطرز، وطلب إليه البدء في محاولة ضم باقي الممالك إلى خطة التحالف الرأسي.

لمَّا قامت دولة تشين بمهاجمة دولة جاو

قامت تشين بمهاجمة دولة جاو، وراح سوتشين يقول لحاكم تشين: «قد بلغني أن الملك الحكيم يثابر على مد جسور العلاقة بينه وبين وزرائه، ولا يمل من توجيههم والعمل على تزويدهم بكل المهارات والقدرات المناسبة، مما يُساهم في إنجاز المسئوليات الجسام بغير إبطاء، وتخفيف الأعباء عن الناس، وينبغي على القائد الفطِن أن يحسن الاستماع والإصغاء إلى معاونيه وأن يأخذ بما يراه ملائمًا من مشورتهم، فذلك يضمن السداد والتوفيق في القيام على شئون الممالك، فتزدهر الأحوال، وتتراجع المساوئ والسلبيات، وأرجو من جلالتك أن تراجع ما أعرضه عليك من اقتراحات بمُنتهى الدقة، بحيث تتمكن من استخلاص ثمرة نتائجه الطيبة وتحقيق فاعليته على الوجه الأكمل وفي الوقت الأنسب.

وقد سمعت يا سيدي أن الناس لا تحمل النفائس والمجوهرات وتسير بها في الطرقات المظلمة، وسمعت أيضًا أن من يتولون أمور البلاد وشئونها الكبرى لا ينبغي لهم أن يستصغروا شأن أعداء بلادهم؛ لذلك فالعاقل الحكيم من يتصرف بالاحترام الواجب، وهو يحمل على كتفَيه المسئوليات الجِسام، وكذلك فالذكي من عظُمت إنجازاته وتواضعت كلماته، بحيث يعرف له الناس قدره بغير مقت ولا ضغينة، وتبجله العامة وتذكر فضله بغير حقد ولا حسد.

وبلغني أيضًا أن الناس تتسابق في الخضوع والإذعان لإرادة بلدٍ فسيح الأرجاء.

وعرفت أن العاقل الكفء ذا المهارة والاقتدار المنقطع النظير، لا يكون موضع اهتمام كبير لدى سيد البلاد والممالك. [حرفيًّا: لا يُعلي شأنه ولا يُعينه في منصب عظيم] كما أن فاقدي العزم وخائري القوى لا يجدون قبولًا، حتى لدى أطيب الناس قلبًا وأشدهم رحمة وعدلًا [حرفيًّا: لن يجدوا من يُوليهم الوظائف، ويضمن لهم لقمة العيش].

إن من يتعفَّف عن الإلحاح في الرجاء، مع شدة الحاجة والتلهُّف على الطلب فهو القديس الحكيم، وهذا دأبه على طول المدى.

إن العمل على توفير أسباب الحياة التي يسعد فيها الناس بأوقاتهم، ويُجددون بها طاقتهم ونشاطهم، بعد تمام الوفاء بالمهام الكبرى لهو من صميم مبادئ الجندية والتعبئة العسكرية.

ومع ذلك، فقد مضى زمان طويل، والحرب دائرة والقتال لا ينتهي، وقد كلَّت سواعد الناس، واستنزفت دماؤهم وما زالوا، على الرغم من ذلك، يجدون من يسند إليهم الأعمال دون توقف.

(واعلم) أنك إذا أثرت غضب جاو، فستستطيع (في آخر المطاف) أن تغلبها، وتضمها إلى أرضك كأنها مدينة من مدائنك، وتصير أرضها كلها لك! ومع ذلك، فليكن الحذر رائدك؛ لأن دولة جاو قد جربت الكثير من المحن والهزائم، فلا يكن كل همك وقصارى جهدك وكل خططك المستقبلية منحصرة في ذلك الاتجاه، حتى لو وقعت في يدك (المدينة الحصينة) هاندان.

وأظن يا مولاي أن أرضًا فسيحة الأرجاء بغير زرع ولا ثمر، وشعبًا مسوقًا إلى السخرة (يلهث من الكد ولا يرتاح) مقهورًا بسيف العقاب، مقيدًا بسلاسل الخوف والذل، لن يطول بقاؤه لديك، مهما أبدى من الخضوع والإذعان، وقد جاء في المثل: «إن النصر الذي يجلب على الوطن أجواء الخطر، يطيل أمد الحرب والكرب، وكذلك الهمم، العالية بغير سلطة نافذة، لا تضيف إلى مساحة الأرض شبرًا واحدًا ... [... الهمة بغير ذمة جهد ضائع!]

ولذلك، فالوالد لا يستطيع أن يحصل من أبنائه على أكثر مما تتحمَّله طاقتهم، ولا يمكن للأمير أن يجد وزراء مُثابرين مخلصين ما دام يطلب منهم الوفاء بمتطلبات لا تنتهي إلى حدٍّ معلوم.

ومن ثم، فمن عرف كيف يحيل الذر الضئيل إلى أشياء بارزة ملموسة [من عرف كيف يستنبت الثمار من أضأل البذور ...] هو وحده الذي يملك أعظم الطاقات الخلَّاقة، ومن أدرك أهمية توفير أسباب الحياة لشعبه من أجل إنعاش طاقاتهم، ودفع عزائمهم وهممهم، وبلغ قمة السيادة فوق الممالك، ومن استوعب كيفية تحويل مقاليد النفوذ البسيطة المتواضعة إلى مراتب النفوذ العظمى؛ فهو الملك الأعظم الذي وجبت له السيادة والسطوة الغالبة.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وهنا، تحدث ملك تشين قائلًا له: «فماذا لو أوقفت تحركات الجيش، وتركت الناس يخلدون إلى الراحة، ألا تُبادر الممالك إلى إقامة التحالف الرأسي فيما بينها لمناوأة تشين؟» فرد عليه سوتشين بقوله: «إني لعلى يقينٍ من عجز الممالك عن تحقيق التحالف الرأسي في وجه تشين، وأرى أنَّ تصرُّف كل من السيدين: تيان دان، وروآر [من كبار رجال الدولة في وي] بعيدٌ عن الصواب تمامًا، فهل يمكن أن نستنتج أن ليس هناك مُخطئ آخر غيرهما؟ كلَّا، بل قد أخطأ الجميع، بما في ذلك حكام الدويلات والممالك كلها!

صحيح أنهم قد جمعوا شتات الدول، فضموا إلى حلفهم دولة تشي، المنهدمة الخربة؛ وتشو، المنهكة عن آخرها؛ ودولة وي، المنهارة على عروشها؛ وجاو التي لا تنظر إلى أبعد

من قدمَيها [حرفيًّا: التي لا تعرف ما يُخبئه لها القدر من بقاء أو فناء] وذلك كله بهدف حشد قوتهم والترصد لـ تشين بغية وضع العراقيل في طريقها وخلق المتاعب لها، وإخضاع دوله هان، وهو ما يبدو لي تحركًا شديد الغباوة والغفلة.

وقد قام على عرش دولة تشي، اثنان من أعظم الحكام. هما: الملك «وي» والملك «شيوان» اللذان حازا من الخلق أكرمه ومن النفوذ أعظمه، حتى بلغت بلادهما من المجد والثروة ما لا مزيد عليه، وانقادت لهما جموع الناس إذعانًا وتسليمًا ورضًا بحكمهما الرشيد، وفاضت قلوب قادتهما العسكريين بالشجاعة والعزم، وانعقد لجيوشهما لواء العزة والقوة، حتى سيرهم الملك شيوان واقترب بهم من دولة هان وراح يُهدد دولة وي ثم انطلق جنوبًا لضرب تشو، واتجه غربًا للإغارة على تشين، بل قام بحصار قوات تشين في منطقة جبال «شياو» وفي مضيق «هانكو»، وظل طوال عشر سنوات يغتصب أجزاء متفرقة من أرض تشين قطعة بعد أخرى، حتى فر الأهالي من الذعر وهاجروا إلى مناطق نائية، لكنهم لم يستسلموا، وظلت تشي ترفع رماح الحرب حتى هجرها الناس وصارت أرضها خالية من السكان؛ أما السبب فيما حاق بجيش تشي من الهزيمة، وفي تدهور أحوال دولتي وي وهان؛ فيكمن في أن عدوانهما على تشين وتشو قد كبدهما أفدح الخسائر وأصابهما بأسوأ الكوارث.

(لكنا إذا تأمَّلنا ما هو قائم ...) اليوم، وجدنا أن الممالك لم يعُد يتولى عروشها رجال أمثال الملك «شيوان»، أو الملك وي، (حاكم دولة تشي) لم يعد هناك، الآن، من يضارع هذين الرجلَين جاهًا وثروة، ولا عاد في الممالك جيش في مثل قوة جيش تشي وجرأته (عند حصاره وتهديده لدولتي وي وهان) كما أنه ليست هناك الآن خطط (عبقرية) يُبدعها تصور رجال مُحنكين، من أمثال تيان دان، وصمارانجو.

فلذلك أزعم أن محاولة ضم شتات دولة تشي المتهدمة الخاوية على عروشها و«تشو» المنهكة، «ووي» التي تخربت وتهدمت مبانيها، و«جاو» التي لا يُعرف لها بقاء من فناء [هكذا] وذلك بظن إمكان استخدام مجموع قوتهم في إثارة الأزمات أمام دولة تشين وإخضاع دولة هان؛ أزعم بأن هذا هو أفدح وأبشع الأخطاء جميعًا، وأرى استحالة نجاح التحالف الرأسي (في أداء مهامه وتوحيد كلمته)، بيد أن الكثير يقدحون في صحة آرائي ويلقون عليَّ باللوم، وهو أمر يثير لديَّ الكثير من القلق والتوتر.

[وهناك الآن اتجاه فلسفي من أصحاب مدرسة الجوهر والصفات] وهؤلاء يستشهدون على صحة مذهبهم بعبارة بسيطة و(مشهورة) مفادها: «إن الحصان الأبيض

ليس حصانًا» [باعتبار أن الصفة اللونية أخرجت جوهر الاسم من كيانه ومنحته وجودًا آخر وآفاق تعريف أخرى] وكان الأجدر بهم أن يؤكدوا أن الحصان الأبيض لا يختلف عن باقي الأحصنة، أما انتشار المقولة المشهورة المذكورة آنفًا «... الجواد الأبيض ليس جوادًا» فهي من أكثر الأشياء الداعية للإحساس بالقلق والترقب.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

«كانت دولة تشين — فيما مضى من الزمان — قد أغارت بقواتها على منطقة هوايدي.» [أرض تابعة لدولة وي] وقامت بإخضاع أهلها، وكان الأمر يحتم على جاو، وتشي، وتشو أن يسارعوا بالهجوم على قوات تشين، إلا أنه — لمَّا كان قادة الجيوش آنذاك (رجالًا من أمثال) «جاوشي»، و«باونين» فإن دولة، تشو لم يخرج منها سوى أربعة رجال فقط، وقفوا في وجه اعتداءات تشين، وعلى الرغم من انهيار منطقة «هوايدي» فإن جيش تشين اضطر إلى الانسحاب لافتقاره إلى الدعم المطلوب (لمواصلة الهجوم).

ولا أعرف ما إذا كانت الدول الثلاث تبغض تشين وتشفق على هوايدي (مما تتعرض له)، أو إذا كانت تكره هوايدي نصرة لدولة تشين؟

صحيح أن القوات المعادية في تلك الحالة قد هاجمت بغير سندٍ أو دعم (من آخرين) وأن الجيش المهاجم اضطر إلى الانسحاب دون أن يواصل القتال، مما أوقع بقوات الدول الثلاث في أزمة حرجة، إلا أنه قد قام الدليل (بما لا يدعو للشك) على براعة كل من «باويين»، «جاوش» في القدرة على تقدير موقف العدو.

كانت الدول الخمس قد اتحدت، فيما سلف من التاريخ لضرب دولة تشي واقتسام أراضيها، وقام تيان دان على رأس خيرة قوات تشي، لكنه لمَّا كان (قبل حدوث تلك الواقعة) ينتهج في الداخل سياسة قائمة على العسف والاستبداد، بالإضافة إلى السنوات الطويلة التي قضاها بعيدًا عن ساحات القتال، فقد عجز آخر المطاف عن الإغارة على تشين، ودحر دولة هان، وهكذا فقد راح يرمح داخل حدود بلاده على ظهر حصانه، وقد اختلطت عليه الأمور، فلم يعُد يدري ما إذا كان هناك أمل في إمكان قيام التحالف الرأسي من عدمه».

وهكذا ففي ظل هذه الظروف، اتخذ الملك قراره بإيقاف القتال وعدم تحرك القوات إلى خارج الحدود، ونزع فتيل الحرب بين الدويلات والممالك، فهدأت الأحوال وحل الاستقرار تحت السماء وظل السلام منتشرًا في ربوع الممالك طيلة تسع وعشرين سنة.

لمَّا التقى تشانغي بالملك هوي

التقى تشانغي بالملك هوي، حاكم جاو، في إطار مساعيه لإقامة التحالف الأفقي الموالي لدولة تشين، وحاول سوتشين استمالة جلالته، قائلًا له: «إنه لِمَّا يُشرف أرضنا ومليكنا ملك تشين أن يُوفدني إليكم كي أستأذن جلالتكم في السماح لي بأن أسلم لكم رسالة من طرفه، (هذا، ولا بد من الإشارة إلى ...) أن جلالتك تقود الممالك والدويلات في حملة ترمي إلى إقصاء ونبذ دولة تشين، لدرجة أن جيشها ظل لمدة عشر سنوات غير قادر على الخروج من مضيق «هانكو» (ومن المعلوم جيدًا) أن لكم وسط الممالك هيبة، ولصوتكم صدًى مسموعًا في كل الأرجاء وقد تجاوز ما وراء جبال هواشان من جهة الشرق.

إن بلادنا تعيش في خوف وهلع؛ وهي تحاول أن تستفيد من الوقت فهي تُصلح أسلحتها وترمم ما انكسر من دروعها، وتشحذ إرادتها وقد أخذت في إعادة تنظيم فرق الفرسان والمركبات، وتدرب القوات على الفروسية والرماية، بجانب الاهتمام بزراعة الأرض وجني المحاصيل وحماية الحدود والثغور، وعلى الرغم من ذلك فهي تشعر بأن يدَها مغلولة؛ لِما أحاط بها من أجواء القلق؛ وذلك بسبب خشيتها من أن تؤاخذها جلالتك بأخطائها، وإذا كانت تشين قد تحركت صوب الغرب، فلم يكن يتم لها ذلك، لولا الاحتماء في ظل سلطانك وهيبتك، وحيث استطاعت أن تحتل منطقة «باجو» وأن تضم أرض «هانجون»؛ هذا بالإضافة إلى ما استولت عليه في الشرق من أراضي كل من جو الشرقية والغربية، حيث تمكَّنت (بعد احتلال البلدَين) من نقل «الجيودنغ» [الأواني التسع ... الرمز المقدس القديم، الذي تسعى الدول للحصول عليه] إلى أرضها وأحكمت قبضتها فوق معبر «بايما» النهري.

وعلى الرغم من أن تشين بلد بعيد يقع في أقصى الأرض، فإنه قد اختزن في أعماقه غضب السنين وغيظ الأيام والدهور. (وعلى الرغم مما في أيدينا من) دروع قديمة محطمة ورماح صدئة، فقد قرَّر مليكنا أن ينزل بالقوات في منطقة «ميان تشي» أملًا في أن يعبر النهر الأصفر ونهر جانغ، للاستيلاء على «بوآو» [بلدة في دولة جاو] حيث يتسنى التصدي لقواتكم بالقُرب من مدينة هاندان، والأمل قائم في أن تدور رحى القتال، مثلما كانت تدور في ساحات حروب «جياتسي» [حرب قامت في قديم الزمان ضد الملك الطاغية «تشو» سليل آل «يين» والخطاب هنا يستعير دلالة الحرب ضد الطغاة في تهديد واضح لدولة جو وحاكمها!] حيث تدور دائمًا الحروب العادلة تأديبًا للطغاة من أمثال الملك تشو.

وإذ يشرفنا أن نلتقي بجلالتكم في هذه الزيارة الرسمية التي جرى تكليفنا بها فقد حرصنا على إطلاعكم وإبلاغ مساعديكم بما ذكرته لكم منذ قليل.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وواصل تشانغي كلامه، قائلًا: «لا أكاد أشك لحظة، في أن كل ما قمتم به في هذا الشأن [تأسيس قواعد التحالف الرأسي] عن اقتناع وحماس، وإنما هو من تخطيط ووضع سوتشين، وهو رجل مُضلل، يصور الحق كأنه باطل، ويزين الباطل في إطار الحق واليقين، وقد حاول كثيرًا أن يُطيح بنظام الحكم القائم في تشي، لكن محاولاته باءت بالفشل، بل دفع حياته ثمنًا لذلك الفشل إذ حكم عليه بالإعدام بأن قُطِعَتْ أوصاله وربطت إلى عربات رامحة في الطرقات.

إن استحالة قيام الوحدة بين الممالك أمر مفهوم وواضح لكل ذي عينَين.

ثم إننا نُطالع الأحوال اليوم، فنجد أن دولة تشين وتشو قد عقدتا من المودة ما صارتا به كأنهما أختان شقيقتان بينما تحرص كل من وي وهان على أن تتصرفا بوصفهما تابعتَين مخلصتين لدولة تشين تحرسان حدودهما الشرقية. وإذ تسعى دولة تشي لإهداء تشين أفضل وأشهر أراضيها في إنتاج الملح وتربية الأسماك، فهي بذلك تقصم ذراع جاو اليمنى، فما ظنك بدولة فقدت ذراعها اليمنى وما زالت تسعى إلى الحرب مع الآخرين، هذا بالإضافة إلى فقدانها لرفاقها وانعزالها عن الدنيا بأسرها، على الرغم من العيش الآمن والسعي إلى الاستقرار، أتظن أن دولة تتصرف على هذا النحو يمكن أن تحصل على الأمن والاستقرار حقًّا؟»

قد أوفد ملك تشين ثلاثة من كبار القادة العسكريين كلًّا في وجهة محددة ولغرض معلوم؛ إذ أرسل أول القادة إلى منطقة «أوطاو» لإغلاق طرق المواصلات بها، والاتفاق مع دولة تشي على أن تدفع بقواتها لعبور نهر تشينغ والتمركز شرقي مدينة «هاندان». وأوفد القائد الثاني لقيادة القوات إلى منطقة «تشنكاو» بهدف حث دولتي وي وهان على الدفع بقواتهما للتمركز جنوبي النهر الأصفر، أما القائد الثالث فقد تلقى الأوامر بالتوجه إلى منطقة ميان تشي، والمرابطة فيها؛ حيث تم الاتفاق بين الجميع على ... أن تتحالف الدول الأربع في الهجوم المشترك ضد جاو، والإغارة عليها من الجهات الأربع بهدف اقتسام أراضيها وهو موضوع يصعب إخفاؤه والتستر على مقاصده الحقيقية (ولذلك)، فقد آثرت أن أفاتح مساعديك بشأنه، وسوف أضع لك خطة سرية، أرى من الأفضل لكم أن تلتقوا فيها بملك تشين، لعلكم تدخلون معًا في ميثاق تحالف مشترك، (ومن ناحيتي) فسوف أتقدم لملك تشين برجائي في تجميد تحركات القوات، وأتمنى أن تتدبروا أمركم بعد التأمُّل العميق.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وتحدث الملك هوي، قائلًا: «عندما كان «فنغ يانجون» يعمل رئيسًا للوزراء في عهد الملك الأسبق، فقد استبد وسار بالعسف وعمل على تضليل الملك، وفرض نفوذه على الحكم، وكنت — وقتئذٍ — أقيم بالقصر الملكي، وأتلقى العلم على يد أساتذتي، وأعمل تحت إشرافهم، ولم يكن لي حق المشاركة في التخطيط لشئون الحكم ولا القيام بأعباء الإدارة والاضطلاع بمسئولياتها الكبرى، حتى إني لم أكن قد كبرتُ وخرجت عن الطوق عندما أعلنت وفاة الملك الأسبق، ولا كنت قد قدمت الكثير من القرابين في المعابد (وبالتالي، فلم يُتح لي أن أبلغ مبلغ الكبار في التبصُّر بالأمور ومع ذلك ...) فقد كنت، في قرارة نفسي متشككًا في جدوى ومغزى قيام التحالف الرأسي؛ ولطالما اعتقدتُ بأن أي تحالف بين الدول الست لن يأخذ مصالح تشين بعين الاعتبار، سيتغافل عن العمل بما يُناسب تطلعاتها ويخدم مصالحها على المدى الطويل؛ ومن ثم، فقد رأيت (أن من الأوفق والأجدى) أن يتم تغيير الفكرة الأساسية التي انطلق منها مشروع التحالف بحيث يقوم الجميع بالتنازل عن أجزاء من أراضيهم إرضاء لـ تشين وعرفانًا بدورها ومكانتها، وتصحيحًا لجملة أخطاء قديمة وقعنا فيها جميعًا دون استثناء وما كدت أنتهي من عمل الترتيبات اللازمة لإيفاد مبعوثنا الخاص إليكم بخصوص التنازل عن الأراضي لكم حتى فوجئنا بزيارتكم ومشاوراتكم معنا.»

ثم إن الملك — حاكم جاو — قام على رأس ثلاثمائة عربة عسكرية حتى بلغ منطقة «ميان تشي» حيث التقى هناك بملك تشين، وتنازل له عن أراضي منطقة «هيجيان» على سبيل إبداء النوايا الحسنة تجاه دولة تشين».

لمَّا كان حاكم جاو جالسًا إلى الوزير

كان الملك «أولينغ»، حاكم جاو، جالسًا في إحدى ساعات النهار، يتجاذب أطراف الحديث مع كبير وزرائه «فاي» الذي اقترب منه وقال له: «هل تأملت جلالتك تقلبات الأحوال الجارية، وتدبرت حالة القوات العسكرية، وتذكرت مآثر جيانزي، وشيانزي، مُسترشدًا بسيرتهم في وضع خطط لمجابهة أطماع قبائل الشمال ومنها قبيلتي «خو»، «وداي؟».» فأجابه الملك، قائلًا: «لا يحق لمن ورث عرش الملوك أن يتغافل عن ذكر مآثر الحكماء الأقدمين، فذلك أساس استحقاق الملك وشرط الشرف والسيادة، باعتبار أن الاهتداء بسبيل الملوك الأقدمين ومعرفة مناقبهم الحسنة، هو القاعدة المُثلى لمن وقف نفسه على إدارة شئون الممالك وانغمس في شئون السياسة وحكم الممالك، ومن ثم كان العاقل الرشيد هو من أدرك

حكمة العمل على هداية الناس إلى السبل الملائمة لإنجاز الأعمال في يسر وسهولة، إذا ما كان الوقت رخاء والأجواء في الممالك مستقرة أما إذا كان الزمان داعيًا لتكبد المشاق، فالواجب على (الملك) الحكيم، الاعتبار بمآثر الأقدمين فيما سلكوه من منهاج، استطاعوا به الإتيان بأمجادٍ تجاوزت آثارها العظيمة حدود زمانهم (الماثل في تجربة حياتهم).»

وعلى الوزراء أن يلتزِموا السلوك الكريم القائم على الاحترام والإجلال للكبار، والتواضع، وذلك في وقت عسر الأحوال [هكذا] أما في أوان الشهرة والمجد فينبغي عليهم إقالة عثرة العاثر من الناس وتوسيع دائرة نفوذ أمرائهم.

تلكما هما القاعدتان الأساسيتان اللتان يجب على الأمراء والوزراء (كلٌّ على حدة) الالتزام بهما والعمل بمقتضاهما. وها أنا ذا، اليوم، أفكر في الاعتبار بمآثر سيدي الملك (السابق) شيانزي؛ حيث أنوي استصلاح أرض قبيلتي «خو»، و«داي»، وهو أمر لم يُنبه إلى أهميته كثير من الناس [في زماننا هذا].

إن اتخاذ الضعفاء أعداء يمكن أن يجعل المرء صاحب إنجاز رائع بأقل جهد مُمكن، وقد يستطيع المرء أن يُحقق الكثير من المآثر على غرار ما حقَّقه كل من «جيانزي» و«شيانزي»، وذلك دون أن يكلف الناس ما لا يطيقون من الأعمال.

إن من يحققون إنجازات تتجاوز طاقة مُعاصريهم فسيلقون أشد اللوم والتأنيب بوصفهم مُخالفين للأعراف والتقاليد السائدة، وكل صاحب رأي مُبدع خلاق، سيكون محطَّ بُغض وكراهية العامة والدهماء. وقد قررت اليوم، أن أرتدي زي أهل قبيلة «خو» [تنطق كما في «خوفو»] وأنزل إليهم كي أُعلمهم فنون الطعن والرماية، بيد أني أعرف تمامًا أن الناس [الآن] سيتناولونني بألسنتهم في أحاديث القيل والقال.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

فرد عليه «فاي»، قائلًا: «قد بلغني يا سيدي، ما مفاده أن التردُّد في الأمور لا يُثمر نجاحًا، وأن التلكؤ في أداء الأعمال لا يرفع الناس إلى مصاف الشهرة، فمهما كانت قراراتك مخالفة للمعهود بين الناس، فامضِ في سبيلك ولا تلتفِت إلى ما يمكن أن يثار حولك من أقاويل.

إن من يتناولون مآثر الحكماء (بالتقييم والبحث) لا يلتفتون إلى معايير الأعراف والتقاليد القديمة، كما أن ذوي الإنجازات العظمى لا يناقشون خطط أعمالهم مع العامة من الناس.

وقد حدث في قديم الزمان أن الملك الحكيم شون وقف وسط حلبة رقص وأمسك بفأس في يدٍ وحربة في اليد الأخرى وراح يرقُص وسط قبائل «يومياو» [قبائل صينية قديمة] (وكانت تلك هي وسيلته في إخضاعهم لنفوذه)، مثلما أن الملك (القديس) «يو» خلع ملابسه، ودخل وسط العراة [القبائل القديمة في المناطق النائية] (يرقص ويُغني بينهم) عاريًا كما ولدته أمه ليس رغبةً منه في اللهو والمجون أو إرضاء رغبة جامحة، وإنما استجابة لمظاهر طقوسية يجري بمُقتضاها توزيع الألقاب والوظائف على رعاياهم من أهل المناطق البدائية.

إن الأغبياء لا يفهمون ما تجلت به المعاني أمام أبصارهم، أما النجباء، فيُحيطون ببواطن الأمور قبل أن تتبدَّى لهم الإيماءات وظواهر الإشارات، فامضِ، يا مولاي، إلى ما عزمت عليه من ارتداء زي أهل خو في محاولةٍ لتدريبهم على فنون الرماية.» فقال الملك: «لا يُخالجني أدنى شعور بالتردد إزاء الذهاب إلى أهالي منطقة خو والتزيي بلباسهم وتعليمهم فنون الرماية، لكني أخشى أن يهزأ مني أهل الممالك، فيفرح الجهلاء المَغرورون، ويحزن النجباء، بينما يمتلئ قلب الأغبياء سرورًا، ويحزن الحكماء وتقطر قلوبهم أسًى ولوعة، لكني لو استطعت أن أفرض نفوذي فوق أهل الممالك [القبائل النائية] فسوف ينقاد الجميع، ويصير ما فعلته من التزيُّن بردائهم، وتدريبهم على مهارات الرماية إنجازًا رائعًا لا مثيل له تحت السماء وعندئذٍ لن أعبأ بالمُستهزئين والساخرين ما دمتُ قد أحكمت قبضتي فوق منطقتي «خو»، و«جونشان».»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وبالفعل، فقد قام الملك أولينغ، حاكم جان بارتداء الزي التقليدي لأهل «خو» وأرسل «وانصون شي» [أحد النبلاء إلى «كون زيش» [عم الملك] ليبلغه ما مفاده: «قد قررتُ بصفتي حاكم جاو ارتداء زي أهل خو، طوال فترة وجودي بالقصر الملكي، وأريد — جديًّا — أن يقوم العم الكريم [عمي — شقيق والدي] — بارتداء ذلك الزي أيضًا، إن طاعة الآباء والأمهات واجب على أفراد أي عائلة، مثلما أن الإذعان للأوامر الملكية أمر مُقرر على أهل الممالك، فهذا قرين بذلك، وتلك كلها وصايا ورثناها من قديم، بشأن السلوك القويم؛ فليس للابن أن يعصي والدَيه، ولا للوزير أن يخالف أمر سيد البلاد، ولطالما كان ذلك هو المبدأ المتوارث على مرِّ الزمان منذ العهود الملكية الفائتة. وبما أني قد أرسيتُ قاعدة تغيير الزي، بارتداء ملابس أهل خو، فلا بد للجميع أن يسيروا على هذا المنوال، وإلا … فإذا عصاني

أقرب الناس لي (يقصد عمه) فسيتحدث أهل الممالك بهذا الأمر فيما بينهم. ثم هناك قواعد مُقررة تحكم شئون الإدارة الحكومية، وعلى رأسها جميعًا مراعاة المصلحة العامة، أي: مصلحة الناس، عامة الشعب، التي تتخذ بشأنها إجراءات أساسية محددة، وينتخب لذلك أقدر الناس على وضع تلك المبادئ والإجراءات موضع التنفيذ، لذلك فقد كان تدعيم قواعد الحكم الرشيد، وتوسيع آفاق الاستنارة والوعي والعدل لدى السلطة الحاكمة، يكمن في مراجعة أحوال البسطاء من الناس [من ذوي المواقع الاجتماعية المتدنية (هكذا حرفيًّا)]، كما أن مناط الأمر في الإدارة الحكومية مرهون بإسناد شئون الإدارة العليا إلى النبلاء.

إن ما قررناه بشأن تغيير الزي الرسمي، لا يهدف إلى إشباع رغبة طارئة، أو تلبية حاجة من حاجات الترف والتسلية، ولكل أمر عظيم فاتحته ومبتدأ مادته، كما أن لكل إنجاز كبير عاقبته ومُجتنى ثمرته.

فإذا ما ارتفع شاهد المجد على منصة الإنجاز، بدت بشائر الحكم الرشيد جلية للناظرين، ولشد ما يُثير قلقي أن أسمع بمخالفة العم الكريم لأُسس وقواعد الإدارة الحكومية في البلاد، موالاة لآراء النبلاء المناهضين لتغيير الزي.

وقد قيل إنه لا ينبغي للماجد أن يُضمر نوايا سيئة لما فيه مصلحة البلاد، وقيل أيضًا ... إن من يتخذ أقرباءه — من النبلاء — أعوانًا له، يتمجد اسمه وتتنقى سمعته من أي سوء؛ لذلك أتمنى أن تكون — أيها العم الجليل — عونًا لنا، بالقول والفعل في إنجاز موضوع تغيير الزي، على الوجه الأكمل، ورسولنا إليكم هو النبيل «وانصون شي»، الموفد لمقابلتكم وإبلاغكم بطلبنا الخاص بتغيير الزي، ونرجو إجابة الطلب.»

الجزء الرابع من الفصل نفسه

فما كان من (العم) «كون زيشن» إلا أن أثنى على جلالته، بعد أن بدأ كلامه بتوجيه الشكر إليه، ثم قال: «عندما بلغني قرار جلالة الملك بتغيير الزي كنت ملازمًا الفراش لما أصابني من المرض، وبالتالي فلم أتمكن من الحضور لمقابلتكم، وبالتالي لم تُتَح لي الفرصة لتقديم آرائي إليكم، لكني إذ عرفت بقراركم الكريم الذي أصدرتموه بشأن موضوع الزي الرسمي فسأبذل كل جهدي في سبيل تنفيذ ما نص عليه القرار بكل إخلاص وتفانٍ.

وقد بلغني أن المنطقة الوسطى (من الممالك)، موطن الموعظة والحكمة والقداسة، وموئل العدل والرحمة، ومغرس الأدب والشعر والفن والموسيقى، ومنبت كل إبداع أصيل

ونادرة عبقرية، ومقصد البلدان للعلم والمعرفة، ومحط آمال الشعوب والقوميات المُمتدة في آفاق الأرض في اقتباس التجارب والعلوم والمعارف، لكنك آثرت تنحية كل تلك الثوابت [حرفيًّا] جانبًا، وفضَّلت استخدام الزي الشائع في (البلاد النائية) أقصى الأرض، فبدَّلت تعاليم الأقدَمِين، ونهلت من غير معينهم، فخرجت عما استقر في الأذهان. وما درج عليه الدارسون والعلماء من أفكار ومناهج وما ترسَّخ في طول البلاد وعرضها من العادات والتقاليد، ومن ثم فإني أرجو من جلالتكم تأمُّل ومراجعة هذه الأمور بمزيدٍ من العمق والرويَّة.»

الجزء الخامس من الفصل نفسه

وعاد الرسول إلى الملك فأبلغه بما كان من «قون زيش»، فقال الملك «أولينغ»: «نعم، كنت قد سمعت آنفًا، بما أصاب العم من المرض الذي أقعده الفراش.» فقام في الحال قاصدًا بيت عمه، حتى إذا التقى به، تحدث إليه مباشرة، قائلًا: «ليست الملابس إلا أشياء نستعملها بقصد التيسير على أنفسنا فيما يتعلق بالمظهر اللائق، ولم تقم قواعد الأدب والأخلاق إلا لتيسير سبل التعامل (بين الناس) بمقتضى المعايير المهذبة؛ وهو الأمر الذي دفع الحكماء إلى التدقيق في ملاحظة الأعراف السائدة (والأذواق المعهودة) لاتخاذ الأزياء والملابس التي تتناسب مع الظروف المحيطة بكل بلد ومنطقة على حدة. مثلما وضعت قواعد السلوك والآداب وفق ما يتلاءم مع تسهيل المعاملات (والسلوكيات) المُعتادة، وهو التصرف الذي يستهدف العمل على دعم وتقوية كيان الأوطان.

ومثلًا فإن إسدال الشَّعر مسترسلًا على الكتفَين، مع نقش الوشم فوق الأجساد، والوقوف مع تقاطع الذراعَين أفقيًّا وحجب الجزء الأيسر من القمصان، هو مجموع المظاهر التقليدية المتبعة في (عادات وتقاليد) قومية «أويو»؛ بينما استخدام المساحيق العشبية في دهان الأسنان باللون الأسود، وتزيين العنق برسوم الأزهار والنباتات باللون الأحمر الفاقع، مع استخدام قبعات للرأس مصنوعة من جلود الأسماك وارتداء الخشن من الثياب (كل ذلك) من عادات وأعراف أهالي دولة «أو».

(وهكذا) وعلى الرغم مما يوجد من فروق واختلافات هائلة بين أزياء تلك الشعوب والقبائل وما تعارف عليه أهلوها من الآداب وقواعد السلوك والأخلاق، فإنها تتفق جميعًا في أنها تقوم على مبدأ تيسير القيام بأمور الحياة المختلفة.

ومن هنا فقد تنوَّعت الآلات، في مختلف البلدان، بتنوُّع الملابس والأزياء، مثلما تعددت قواعد وأصول المعاملات، بتعدُّد أساليب الحياة وشئون الناس في كل مكان.

وبناء على ذلك، فقد كانت سياسة القديسين والحكماء فيما يتَّصل بأمور الممالك وهي تتطلع إلى ما فيه مصلحة الناس تتجنَّب أي محاولة لفرض أسلوبٍ موحد في الأزياء، أو في نمط استخدام الآلات، بل إنها وهي تهدف إلى تيسير سبل التواصل السلوكي والأخلاقي، فقد كان طبيعيًّا أن تتحاشى إخضاع الجميع لنمط (قالب) واحد من آداب المعاملات.

أما رأيت إلى أتباع المذهب «الروجي» (الكلاسيكي) الذين يتخذون من كونفوشيوس أستاذًا وشيخًا ومعلمًا، ويتفقون جميعًا حول ريادته لهم، ومع ذلك فلهم طرائق شتى في تقدير أصول المعاملات وآداب السلوك. هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى فهناك المنطقة الوسطى من الممالك، التي تتشابه فيها العادات والتقاليد وتتقارب أوجه الحياة فيها بدرجة هائلة، بينما تختلف في كل بلدٍ منها اللوائح والقوانين، وطرائق السياسة المحلية والعبادات والمعتقدات الدينية — وإذا كان الأمر على هذا النحو في المناطق الوسطى — فما بالك بالأقاليم الجبلية النائية، أليست — هي الأخرى — جديرة بما يناسب طبيعة الحياة فيها من أساليب ووسائل متباينة؟

فبما أن قواعد وأصول المعاملات تختلف فيما بينها حول ما ينبغي اتباعه، وما يتوجَّب اجتنابه، فليس للعاقل أن يتَّخذ نمطًا واحدًا منها باعتباره قالبًا واحدًا يفرضه على الجميع (دون مراعاة للفوارق القائمة)؛ فلا حاجة للقديس الحكيم أن يُوحِّد أسلوب الزي والكساء في المناطق الوسطى والنائية على حدٍ سواء.

إنَّ الفارق بين القاصي والداني من الأقاليم، يولِّد الاختلاف في الأعراف والتقاليد، مثلما أن التبايُن بين الآراء والمذاهب (صحيحها وسقيمها) يقود إلى الجدل والمناظرة. فمن ثم كان النظر بعين الحياد فيما يجهله المرء منقبةً كريمة، وكان التأمل فيما يناقض الرأي السائد دون التعجل بالدحض والنفي دليلًا على اعتدال النفس المُتطلعة إلى الحُسن التام.

وبعد، فإن ما يشغلك هو العادات والتقاليد (في المطلق وبأسلوب مجرد تمامًا) وإنما أحدثك عن السيطرة على التقاليد وإخضاعها تحت زمام سلطتك. (وإذ أتطلع إلى الخواص الطبيعية لبلادنا) أجد أن النهر الأصفر يحدُّ دولتنا من جهة الشرق، ويرفده في ذلك نهر «بولو»، حيث تقع منطقة نهرية كبرى بين حدودنا مع دولتي جونشان وتشي، ومع هذا، المنهاج القويم، وكل وكيفية استخدام القوارب، وعلى خط مُمتد من سلسلة جبال تشانغ

حتى منطقتي «شاندانغ» و«داي» تترامى جهة الشرق المنطقة الحدودية مع كل من «خو» الشرقية ودولة يان، بينما تمتد حدودنا ناحية الغرب مع «لوفان» ودولتي تشين، وهان؛ وعلى طول تلك الحدود، لم نقم بعد، بإنشاء تحصينات دفاعية من الرماة والفرسان؛ وعلى ذلك فقد قمت بإعداد المواد اللازمة لاستخدام القوارب، وحشدت عددًا هائلًا من الأهالي المُقيمين عند المسطحات المائية، وأقمت معهم قوات للدفاع عن منطقة النهر الأصفر ونهر «بولو»، كما قمتُ بتغيير الزيِّ للمتدربين على الفروسية والرماية ضمن جهود التجهيزات الدفاعية ضد محاولات الهجوم أو الاختراق من جانب دولة يان أو منطقة سانجو [عبارة عن تجمُّع يضم ثلاث قبائل من الأقليات القومية وهي: لينجو — دونخو — لوفان] أو دولة تشين أوهان.

وكان الوالي «جيان» — فيما مضى من الزمان — قد فتح ما بين منطقة «جين يانغ» وبين باقي الأقاليم — مثل شاندانغ — من طرق مواصلات [مما مكَّنه من الانطلاق في المواجهة التي أرادها بغير عوائق!] أما النبيل «شيانغ» فقد احتل منطقة «رونغ الغربية» واستولى بالكامل على منطقة «دايداي» وذلك لكي يتمكن من مواجهة قبائل خو بأكملها؛ فهذا مبلغ ما عندي من معلومات مؤكدة، أعرفها عن ظهر قلب.

وكانت دولة «جونشان»، منذ وقت قريب، قد احتلت أرضنا بفضل ما قدمته دولة تشي لها من مساعدات عسكرية، فأثخنت في بلادنا، وأوقعت الأهالي في أصفاد الأسر، وحوَّلت مجاري الأنهار باتجاه بلدة «خاو» [في دولة جاو] فحاصرتها بالمياه، ولولا أن تداركت آلهة الأوطان «شيجون» هذه البلاد برحمتها وأسدلت عليها ستر حمايتها، لما كتب لبلدة «خاو» البقاء، وهو الأمر الذي أثار غضب السيد الجليل (جلالة الملك السابق) وقد مات دون أن يثأر لكرامته ويشفي غليله.

ثم إن قرار إلزام الفرسان والرماة بارتداء زي أهل «خو» (يُمكِّننا) من التنبُّه للمخاطر المحدقة بمنطقة شاندانغ ذات الأهمية الكبرى (وذلك في المدى القريب، أما في حسابات المدى البعيد فهذا تصرف يمكِّننا من أن) نثأر من دولة جونشان. ومع ذلك فإن العم الكريم (سيادتك) يأبى إلا أن يساير عادات وتقاليد البلاد — مهما كان في ذلك من خروج — عما أقره كل من المِلكين «جيان» و«شيانغ»؛ ذلك بأن سيادتك تمقُت كل ما له صلة بالزي الجديد، وتنسى ما يُجلل البلاد من العار والمهانة، ولا أحب لك، كما لا أتمنَّى، أن تقف مثل هذا الموقف!»

الجزء السادس من الفصل نفسه

ثم إن «قون زيشن» انبطح على الأرض وسجد للملك طويلًا [على سبيل التحية والإجلال] وقال له: «ما كنت — لشدة غبائي — لأُدرك حكمة جلالتك وتخطيطك للأمور على هذا النمط، مما حداني إلى الجهر بآرائي (السقيمة) بشأن الأزياء التقليدية، فامضِ لما تطلعتَ إليه من السير على منهاج الأباطرة السابقين، وأكمل مسيرة سلفيك الراحلين «شيانزي»، و«جيان»، وأنا لك مُطيع فيما تراه وتأمر به.» وهنالك تقدم الملك أولينغ بأسمى آيات الشكر — للمرة الثانية — إلى (عمه) القون زيشن وأهداه أردية من الزي التقليدي لشعب خو.

الجزء السابع من الفصل نفسه

وأقبل «جاوين» ورفع نصائحه قائلًا: «من الأعراف التي لا تتبدَّل في مفاهيم السياسة الحكومية أن يشقى المزارع لكي يشبع السيد (الملك)، ومن القواعد المُقررة في التقويم الأخلاقي أن يتحدث السفيه بكل ما يعتمل في صدره؛ كي يصحح له الأريب الفطن ما غمض عنه فهمه فتتجلى له حقائق الأمور وتكمن أسباب الخير والسعادة للأوطان فيما إذا عاهد الوزير نفسه بالإخلاص التام لسيده ومليكه، وألزم الملك نفسه بمصارحة وزيره فلا يُحجَب دونه شيء مما يعرض له من الموضوعات. وإذ أعترف بما يشوب فطنتي من الغفلة والغباء، فقد عاهدت نفسي على بذل الإخلاص التام (لجلالة الملك).» وقال له الملك أولينغ: «من أراد أن يتأمَّل الأمور بدقة واستفاضة، فلا ينبغي له أن يضيق بالرأي المُعارض له، وليس مع الإخلاص لوم ولا انتقاد فقل ما شئتَ، وأنا مُصغٍ لك.» فرد عليه جاوين، قائلًا: «إن مسايرة الأحوال الراهنة واتباع التقاليد السائدة أمر مُقرر من قديم الزمان، كما أن نمط الزي الشائع، مسألة تحكمها قواعد الأخلاق والسلوك القويم، (وكذلك فإن) اتباع المعايير الأخلاقية درءًا لما قد يقع فيه المرء من أخطاء وهفوات، واجب على الجميع [أساس الواجبات العامة] فتلك هى القواعد الثلاث التي أوصى بها القديسون القدماء خلفاءهم من الملوك بالسير على نهجها، فإذا بك تضرب بكل هذا عرض الحائط، وتوصي (بدلًا من الالتزام بالنهج المعهود) باستعمال الزي الذي لم نألفه في بلادنا وإنما قد اقتبسته من بلاد بعيدة عنا كلَّ البُعد، فبدلت وصايا القدماء، وغيرت المنهاج القويم، وكل ما أرجوه من

جلالتك أن تُعيد النظر في الموضوع كله من شتَّى جوانبه.» وهنالك قال له الملك أولينغ: «إن ما ذكرته الآن جزء مما تُحيط به علمًا بشأن التقاليد السائدة، أما صاحب العلم والمعرفة، فيحصر اهتمامه بالعلوم والدلائل المعرفية التي تكوَّنت لديه بالسماع، وكلاهما (... الفرد العادي من الدهماء، والمتعلم الدارس) وسيلة جيدة لتنفيذ المهام والوظائف الحكومية يقومان في المجال الوظيفي الحكومي، بدورهما خير قيام، بمعنى أنهما قادران على الاستجابة البارعة لنصوص وبنود اللوائح الحكومية والعمل بمُقتضى ما تفرضه من التزامات، لكنهما يدخلان في عِداد العباقرة بعيدي النظر، القادرين على تناول المبادئ السياسية لسياسة الممالك وإدارة شئونها (بحكمة واقتدار).

أضف إلى ذلك أن الأسر الملكية الثلاث (الأشهر في التاريخ: شيا - شانغ - تشو) استطاعت أن تفرض سيادتها فوق الممالك، وذلك على الرغم مما بين ثلاثتها من تباين واختلافات، وكذلك كان يُوجد بين (الإمبراطوريات) الخمس العُظمى فروق هائلة فيما سارت على نهجه من المبادئ الأخلاقية، ومع ذلك فقد تمكَّنت جميعها من تنفيذ مآربها وإدارة سياستها وسط الممالك على خير وجه.

إن النُّجباء هم الذين يصوغون الوصايا والمواعظ، أما الأغبياء فيَعُدونها مناهج ثابتة الأركان. وإذا كان الحكماء يقدرون على التفكير في تعديل العادات والتقاليد السائدة، فإن الآخرين (من غير الحكماء) يحرصون باستمرار على التقيد بالسبل المعهودة. إن أولئك الذين انطبعت عقولهم بطابع الزيِّ الشائع ليسوا جديرين بأن نفتح معهم حوارًا صريحًا، ولا كان المُتزمتون المتبعون النمط السائد مُستحقِّين للتفاهُم الودي أو للإفضاء إليهم بمكنون القلب.

بيد أن العادات والعصور عُرضة للتقلب والتغير اللذَيْن يفرضان أحكامهما على القوانين والنظم (فيتطرق إليها التبدُّل أيضًا). تلك هي الحكمة التي ورثناها، حقًّا، عن القديسين والحكماء.

ولم يكن للعامة والدهماء سوى العمل وفق الأوامر الحكومية، واتباع اللوائح والقوانين دون إبداء أية آراء شخصية، وأما النجباء والمرموقون (العباقرة) فهم القادرين على التأقلُم مع مشاهداتهم وحصيلة معارفهم (التي تمدهم بآفاق المعرفة الداعية إلى الاستجابة للمتغيرات.) إن الفاهمين لضرورات تغيير وتبديل قواعد السلوك، هم الذين يسيرون إزاء الزمان المُتغير، ويحذون حذوه. (واعلم) أن الطامِحين إلى تهذيب النفس ونقاء الخلق الأسمى، لا تدفعهم دوافع الثناء والمديح، وأن إصلاح شئون الناس في زمانهم الراهن

وعصرهم القائم لا يقوم أبدًا على تقليد الأقدمين وترسُّم خُطى الغابرين فاهدأ بالًا، ودع عنك أثقال الهموم.

الجزء الثامن من الفصل نفسه

ودخل «جاوتساو» على الملك، وقال له: «إن التنحي عن الإخلاص والتخلي عن العمل بعزم وجد، لون من ألوان النفاق والغدر، كما أن تضليل الأوطان (المصالح العامة) لتحقيق مآرب شخصية، يدخل في عِداد الأعمال التخريبية التي تمس مصالح البلاد العُليا.

ويجب أن يعاقب المسئول الحكومي المتهم بخرق القوانين (الإهمال وعدم توافر الإخلاص الكافي للعمل) بالإعدام (الذي يطال رقبته وحده) أما المسئول الحكومي الذي يضلل البلاد بأسرها بأساليب الغش والخداع، (فلا يكتفي بإعدامه وحده، بل) ينبغي إبادة قبيلته عن آخرها.

فتلك هي العقوبات التي أقرها القديسون الحكماء، من قديم بوصفها أقسى عقوبات واجبة على هذين النمطَين من رجال الحكم وعلى الرغم من أني لستُ ممن حباهم الحظ بحدة الذهن ووقدة الذكاء، فإني طالما وددتُ أن أبذل غاية الإخلاص والتشمير عن ساعد الجد. وهنا قال الملك أولينغ: «إن الصراحة والصدق دون التستر على خطأ أو إخفاء عيب هو دليل الإخلاص الحقيقي، وقد رأيت من دواعي الحكمة والجد ألا أصد أحدًا عن الحديث بحضرتي (عما يعنُّ له من الأمور) ثقة مني بأن المُخلصين لا يهربون من الخطر، وبأن رجل الدولة الحكيم لا يُكمم الأفواه، ولا يمنع من أتى إليه بنصيحةٍ أو رأي سديد، من التحدث إليه، فقل ما عندك.»

الجزء التاسع من الفصل نفسه

وواصل «جاوتساو» كلامه قائلًا: «كنت قد سمعت قولًا مأثورًا، مفاده أن القديس الحكيم مهما ألقى من مواعظ، فلن يغير الناس أو يبدل من طباعهم، وأن الذكي الأريب مهما سلك بالفطنة والنجابة، فلن يقدر على أن يقنع الناس بتغيير عاداتهم وتقاليدهم؛ بل إن الوصايا (التعاليم) الأخلاقية التي تستند إلى واقع حال الجماعة من الناس، هي التي تبلغ مبتغاها بأيسر جهد، والتخطيط الواعي المخلص (لتبديل السلوكيات) القائم على أسس من الأعراف الراسخة، يؤتي ثماره في سهولة وسرعة، وأرى أن ما أتيته يا مولاي من

تغيير للعادات والقوانين والآداب، دونما مراعاة للتقاليد السائدة في (طول البلاد وعرضها) [حرفيًّا: المنطقة الوسطى ... المركز الأوسط!] وإحلال الزي المُتبع بين شعب «خو» محل (الأزياء التقليدية السائدة) متجاهلًا رفض الناس ومعارضتهم — وهم السواد الأعظم من أهالي الممالك — (أرى أن ذلك كله) لا يمكن أن يكون الوسيلة (المُثلى) لحث الناس على اتباع القواعد الأخلاقية وآداب السلوك. ثم إن الذين بدلوا أزياءهم لا يلتزمون بمظهر الجد والوقار، بل يتصرفون على نحو غريب يُثير حيرة الناس وارتباكهم.

وبناء على ذلك، فليس لمن قام على الناس سيدًا وفوق البلاد ملكًا أن يرتدي أغرب الملابس وأعجب الأردية، ولا يجب — أيضًا — لأهل الممالك الوسطى، أهل البلد، أن يسلكوا على نحو ما يسلك به الهمج والمتوحشون من أهل القبائل النائية؛ ذلك أنه لا ضرر في التمسك بقواعد الأخلاق ولا ضير من التأدب بآداب المعاملات، فأرجو من سيدي الملك أن يتدبر تلك الأشياء جيدًا.»

الجزء العاشر من الفصل نفسه

وأجاب عليه الملك قال: «قد اختلفت كثيرًا عادات الأمس عن اليوم، فأي ماضٍ هذا الذي ينبغي علينا أن نتعلم منه؟! إن يد التبديل والتغيير مسَّت كل القوانين والنظم والعادات التي ورثها الملوك الأقدمون عن الأباطرة (الخمسة المشهورين) السابقين عليهم فأي من هذه القوانين أحق بالاتباع وأي الأنظمة أولى بالالتزام؟! وقد قيل إن زعماء وشيوخ العشائر والقبائل القديمة، مثل: «فوشي»، و«شن نون» لم يدَّخِروا وسعًا في تعليم الناس طرائق الصيد والزراعة، دون أن يُصدروا أحكامًا بالتغريم أو الإعدام على أحدٍ من الناس، (أما الملوك الثلاثة) الإمبراطور «هوانداي» والملكين: ياو، وشون؛ فقد أصدروا لوائح تفرض على الناس دفع الغرامات وتعاقب بالإعدام، لكن هؤلاء الملوك حرصوا تمامًا على روح الحياد في تطبيق القوانين (بحيث تصدر الأحكام بنزاهة وعدل). فلما كان زمن الإمبراطور يو (آل شيا)، والملك طانغ (آل شانغ)، والملك أون (آل تشو) فقد وضعت القوانين بما يلائم ظروف الزمان القائم وقتذاك، وتأسست قواعد الأخلاق على حقائق الأوضاع السائدة في حينها؛ ذلك أن مختلف الأحكام والأوامر والنواهي كانت تساير الظروف والأحوال الماثلة، في ذلك الزمان البعيد، بيد أن ما تفتق عنه إبداع الإنسان في الأزياء والملابس وأدوات الحياة، يتوخى، جميعًا اليسر والبساطة؛ ومن ثم، فليس من الحكمة، الآن، محاولة فرض نمط

واحد من القوانين والنظم (الأخلاقية والتشريعية) إذا ما أردنا إصلاح أحوال البلاد، كما أن أي محاولة، من جانبنا، للتيسير (على الناس) واتباع قواعد السهولة والبساطة لن تلجأ أبدًا للتعلم من القدماء، بل إن روعة الإنجاز الذي قام به القديسون الحكماء (فيما مضى من العصور)سجلجاو الرابع تتمثل في أن أحدًا منهم لم يلجأ قط، وهو بصدد تأسيس عروش حاكمة وسياسات لإدارة شئون الممالك إلى استعارة عادات وتقاليد أقدم وأبعد عهدًا، (وقد علِمنا من أحداث الزمان) أن سقوط عرش الأسرتين الكبيرتين «شيا»، و«شانغ» لم يكن بسبب تغيير قواعد الآداب وأصول التقاليد. وبناء على هذا، فلا ضير من الاستغناء عن التعلُّم من القدماء بل أظن أن اتباع منهاجهم لن يكون محل تقدير عظيم. أما من جهة القول بأن ارتداء الأزياء الجديدة قد يُثير الشعور بالغرابة والاستهجان، ويودي بالجد والعزم، ويوهن الإرادة، (لو كان هذا صحيحًا، إذن) لما استطاعت دولتا «تسو» و«لو» [تنطق كما في «وادي الملوك»] أن تحوزا قواعد معاملات تفوق المعهود في بابها، وتجاوز السائد في مادتها؛ أما لو كانت غرابة العادات والتقاليد سببًا لنزوع الناس إلى السلوك الطائش والتصرفات المتهورة، لما حازت دولتا «أو»، و«يوي» أعظم الشخصيات وأنبل المرموقين من الناس بين الممالك كافة.

ومن ثم، أطلق القديسون على ما يستر البدن، الملبس والرداء، (واتخذ الحكماء) من كل ما تتيسر به سبل التفاهم والحياة بين الناس، قواعد الآداب والأخلاق. على هذا الأساس، فقد صارت أصول المعاملات التي تندرج في باب السلوك المهذب، وأشكال الملابس والأردية المختلفة مجرد وسائل لضبط المظهر الشكلي للناس، دون أن تكون — أبدًا — معايير لتقييم الأخلاق والفضائل، وهنا يكمن السبب في أن القديسين كانوا يبحرون وراء العادات المتغيرة (في كل تيار يهيمون!)، بينما كان الحكماء يسيرون حسب خُطى الزمان المتنقل في أطوار متباينة، وهنا أذكر ما يقوله المثل السائر (من أن:) «من أراد أن يقود المركبات، حسب ما تنص عليه قواعد السير، فلن يفهم طبائع الجياد والأفراس (التي تجر العربات)، ومن أقدم على استعارة قوانين الماضي لضبط تشريعات الحاضر، فلن يفقه سر تطور الزمان».

فلهذا نجد أن كل إنجاز كبير قام على قاعدة اتباع آثار الماضي القديم، لا يفوق قامة الحاضر ارتفاعًا، وكانت استعارة علوم الغابرين أسلوبًا ناجحًا في ضبط شئون الوقت الراهن وتنظيم مصالحه وأحواله، فأنا الذي أرجو من سيادتك عدم الاعتراض على اتخاذ ملابس شعب «خو» زيًّا رسميًّا!».

لمَّا قام الملك أولينغ بتعيين جوشاو

أصدر الملك أولينغ قرارًا بتعيين «جوشاو» في منصب «المعلم المستشار للأمير» وقال: «كنت ذات مرة، أتفقد الأقاليم، فلما مررت في طريقى ببلدة «فانو» (رأيتك) وكنت وقتئذٍ صبيًّا حدثًا، أما ما شد انتباهي، فهو أن كل البالِغين في البلدة، أثنوا على طاعتك وبِرِّك بوالديك مما حَدَا بي أن أحمل إليك حجر اليشب [حجر كريم] والخبز والنبيذ، هدية لك، بل أرسلت إليك لألقاك، لكنك اعتذرتَ عن المقابلة بسبب مرضك، وجاءني من يعرفك جيدًا، وتحدث عنك، قائلًا: «إن البار بوالده هو المخلص الوفي لسيده.» وإني لمقتنع بأن ذكاءك وحلمك وحسن منطقك كفيل بالتأثير في الناس أيما تأثير كما أن إخلاصك وخلقك الكريم ونقاء معدنك خير مُعين في مواجهة المِحن والعقبات، وميزة الإخلاص أنك ستُصارحني بكلِّ ما يعتمل في ذهنك، وفضيلة البر والوفاء بالعهد أنك ستبقى على مرِّ السنين، مخلصًا لا تتبدل مع الأيام، وقد جاء في أحد أبيات الشعر (مجهولة المؤلف) ما نصُّه:

«استعن بالشجاعة على المحنة،
ولتضبط الحكمة ما بددته الفوضى
وما تركه العبث مهملًا سائبًا.
تلك هى عدتك للأيام،
وليكن مستشارك هو ساعدك الأيمن،
وقد تجلى لك أصيل معدنه،
وليكن العلم عمادك في
تهذيب الأجيال الناشئة،
فذلك منهاج العدل والحق،
وليس مع استقصاء المعرفة
خوف ولا محنة!»

فلذلك، وددت لو ارتديت رداء أهل «خو» وشمَّرت عن ساعد العون لأميرك، ملك البلاد».

الجزء الثاني من الفصل نفسه

ورد عليه جوشاو قائلًا: «جانَبك الصواب، يا مولاي إذ وقع عليَّ اختيارك، فلستُ بالرجل الذي يقدر على تحمل ما أسندت إليَّ من مسئولية.» فقال له الملك أولينغ: «ليس أخبر من الأب بولده، إذا ما وقع عليه اختيار (لمهمة ما) ولا أفقه من الملك بوزرائه، إذا عنَّ له أن يفاضل ويختار، وأنا، عندئذٍ، الملك، سيد البلاد.» وهنالك قال له جوشاو: «إن تنصيب المعلم المستشار يقوم على معيارٍ أساسي ذي ستة بنود.» فسأله الملك عن تلك البنود، فأجابه: «أن يدرك تقلبات الأمور بعين الحصيف الذكي غير المراوغ الداهية، وأن يكون مُلمًّا بقواعد الأخلاق، ذا حلم وقلب رحيم؛ وأن يكون ذا عزم وجد، في غاية الانضباط فيما يتعلق بواجباته الوظيفية دون تراخٍ أو تهاون وألا يفسد باطنه أمام المصلحة الأنانية مهما عظمت؛ وألا يتهاون فيما يتعلق بالهيبة والاحترام وأصول المعاملات (الأخلاقية)؛ وأن يكون ليِّن الجانب لطيف المعاملة مع مرءوسيه بغير تبذُّل أو رياء.

فمن حاز تلك الصفات الست، كان جديرًا بمنصب المستشار المؤدب لولد جلالته، بيد أني لا أجد في نفسي واحدةً منها، إذ إن أسوأ ما يَعيبني هو أني فاتر الهمة خامل الإرادة، لا أقول الحق في صراحة ووضوح وهو ما يعني أني إذ أُضطر إلى ... الإذعان للأمر الملكي فسوف ينجم عن ذلك ... انتهاك قدسية الوظيفة الرسمية مما يُعرِّض المسئول نفسه للمتاعب، ويلحق به الذل والمهانة؛ فلذلك أرجو من جلالتكم العدول عن اختياري لهذا المنصب.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وتكلم الملك أولينغ، فقال: «فبعد أن أحطتني علمًا بالبنود الستة، فإني أكلفك بتولي مسئولية هذه الوظيفة.» فرد عليه جوشاو، قائلًا: «إن الناس في كل أرجاء البلاد، الآن، ما زالت في حيرة وبلبلة، ولا تفهم بعدُ ما يقصد إليه الملك بشأن استعمال الزي المنسوب إلى شعب «خو»؛ وإذ أصبح وزيرك بعد أن تُكلفني بموقع وظيفي مُهم جدًّا ومرموق، فهل يصير من حقي الاعتراض على تنفيذ الأوامر خصوصًا في مثل هذه الظروف المُحيطة بنا؟» ولم يسع جوشاو إلا أن يشكر جلالة الملك على ثقته الغالية به، فتكرم عليه الملك بإهدائه كسوة من رداء «خو».

الجزء الرابع من الفصل نفسه

وقال الملك أولينغ: «إني إذ أسند إليك مهمة المعلم المؤدب للأمير، فإنما أريدك أن تبذل له الحُب والرعاية الواجبة، وأن تُبين له كيف يكبح جِماح نفسه، وأن يصد عن ذاته غوائل النفس وخبث الطويَّة؛ وذلك بأن تُرشده إلى سُبل الحق والعدل، ولا تدعنَّه يشقى بالدرس والمطالعة، ولتقُم على شئون البيت الملكي بما يوافق إرادة سيد البلاد، فلا تخالف له إرادة ولا تعصِ له أمرًا. ويجب على من يتولَّى للملك شأنًا أن يكشف عن أحسن الخصال وأن يرد النفس عما يعرض لها من المزالق.

إن بلدًا يقوم بين جنباتها مثل هذا الوزير لهي أسعد البلاد حظًّا، فإن سرت على هذا النحو، ووفيت حق الوظيفة وواجب المسئولية، فنعم إذن.

وقد ورد في كتاب «شانغ شو» [السجلات التاريخية] ما نصه: «إن عزمت على استئصال شأفة السوء، فلا تتردَّد، وإن اتخذت عاملًا حكيمًا فاضلًا، فلا تقهر.» وقد اخترتك وفضلتك على الجميع وقُضي الأمر على ذلك!».

ثم إنه خلع على جوشاو خلعة سنية؛ إذ أهداه رداء أهل خو وغطاء رأس مما يلبسونه، وزنارًا جلديًّا مطرزًا بأبهى زينة، مزودًا بقفل ذهبي بديع، تكريمًا له إثر تكليفه بالعمل مؤدِّبًا لولده الأمير.

لمَّا ارتدى الوزير الأكبر الزي الجديد

تناول جاويان [الوزير الأكبر بدولة جاو] الزي الجديد بيد مُترددة وارتداه على مضض، فلمَّا علم الملك أولينغ بذلك، أرسل إليه يُعاتبه بقوله: «إن من آداب العمل في خدمة الأمير (الملك، سيد البلاد) أن تدخر وسعًا في القيام بواجبات عملك؛ فإذا عنَّ لك أن تنصح بشيءٍ فقدِّم مشورتك بلغة المجاز والرمز في غير ضجة أو غلظة طبع، فإذا استفسر الملك عما بَدَا له من الأمور فلتكن إجابتك في صبرٍ وأناة؛ فلا تتبرَّم بما يوجه إليك من أسئلة واستفسارات ولا تعصِ أمر ولاتك، وتشمخ بأنفك صلفًا واختيالًا بما قدَّمَت يداك من الفضل أو جميل الصنيع. وحذارِ ثم حذارِ أن يكون منصبك الذي تشغله بقُرب الأمير تُكَأة لأن تتخذ لنفسك المقام الرفيع، ليزهو قدرك فوق قامته ومجده وسلطانه.

ليس على الولد تجاه أبيه إلا الإذعان للنصح والاسترشاد بالوصايا والمواعظ، دون عصيان أو مخالفة؛ وليس على الوزير تجاه الأمير إلا التواضُع له، والترفع عن معاندته أو التعصب ضده.

ذلك أنه إذا سلك الولد تجاه أبيه سلوكًا نابيًّا (عن جادة الحق) اختل نظام الأسرة ودبَّت الفوضى في أنحاء البيت، وإذا حاد الوزير عن مَحجة الصواب (مع جلالته) أحدق الخطر بالأوطان.

إنه ما من ولدٍ عقَّ والدَيه إلا نبذوه من وسطِهم، مهما بلغا من العطف والرحمة؛ وما من وزيرٍ اتخذ منصبه وسيلةً لتحقيق مآربه وتأسيس قواعد مجدِه (دون سيده مليك البلاد) إلا استغنى عنه، مهما اتسع صدر سيدِه بوافر الرحمة والتسامح. وبعد، فقد بلغَني امتناعك عن ارتداء ما قررناه زيًّا رسميًّا (مقتبسًا من ملابس شعب خو) وليس — لدينا — أسوأ من عصيان أوامر الملك جرأة وجناية.

إنك إذ تصرفت بهذه الطريقة فقد أقحمت آراءك الذاتية واعتبرت تغيير الزي الرسمي — وهو مسألة سياسية بحته — عبئًا شخصيًّا يثقل كاهلك، وجعلت من عصيانك لأميرك مجالًا للفخر والسؤدد، وإعلانًا للشرف الشخصي ورفعة القدر؛ فليس أفدح من هذا انصياعًا للهوى الشخصي وإقحامًا له في الشأن العام.

وأخشى أن ما اقترفته من اجتراء وجرم يوجِب تقرير عقوبة الإعدام [حرفيًّا: قطع الرقاب] لذا لزم التنويه على الجهات الرسمية والقانونية باتخاذ اللازم دون أدنى تهاون.»

وهنالك سجد جاويان فوضع جبهته على الأرض، وقال: «قد أبلغني المسئولون في هذه الآونة بالأمر الملكي النافذ بشأن ارتداء الزي الجديد، أما وقد غمرني جلالته، آنفًا بفضله وإحسانه، فإني أستشعر فداحة ما ارتكبته بمخالفتي الإذعان للأمر الملكي الصادر بالمعنى المذكور، لكني أعرف أيضًا أن جلالته لن يرضى بأن يضع العقاب والعذاب موضع النصح والإرشاد؛ فذلك ما علمته من جميل إحسانه وكريم أخلاقه، [لكني لَمَّا كنتُ قد أُبلغت بالأمر شفويًّا، بواسطة الآخرين، فأرجو] مع عظيم الاحترام، أن أتشرف بالاطلاع على الأمر الملكي مُحرَّرًا بحيث يتسنَّى لي اتخاذ اللازم بشأن الشروع في ارتداء الزي الرسمي المُقرر، وأنا في خدمة مولاي ترقُّبًا لاستلام تلك الإحاطة.»

لَمَّا أصدر الملك قرارًا بإلغاء الحامية

أصدر الملك أولينغ، قرارًا بإلغاء الحامية العسكرية المرابطة في «يوانيان» [مدينة في دولو جاو] وأقام مكانها القوات (الخيَّالة) الراكبة، فصارت يوانيان مركزًا لتدريب الخيَّالة، وهنالك تقدم «نيو سان» [وزير عظيم بدولة جاو] إلى البلاط الحاكم، بآرائه التي ضمَّنها تقديراته ونصائحه، وجاء فيها ... «إن للبلاد قوانين أساسية وللجيش مبادئه العسكرية

التي لا تتبدل على مر الزمن، وإذا كان المساس بالقوانين الأساسية حقيق بنشر الفوضى والاضطراب، فإن انتهاك المبادئ العسكرية يُعرض القوات للضعف والتفكك. وقد أصدر جلالته، اليوم، أمرًا يقضي بإلغاء الحامية العسكرية القديمة، التي ترابط في يوانيان، تمهيدًا لإقامة قوة جديدة من الخيَّالة، وتحويل يوانيان إلى مركز لتدريب الفرسان، هو أمر مُخالف للقوانين الأساسية، بل الأدهى من ذلك أنه يتجاهل المبادئ العسكرية. إن القادة والضباط الذين تمرَّسوا على استخدام أسلحتهم واتخاذ الإعداد اللازم (للقتال) هم وحدهم القادرون على ملاقاة العدو والاشتباك معه بغير تردُّد أو إبطاء. إن الذين تذلَّلت لهم مصاعب استخدام السلاح، ستتيسر لهم كل الصعاب.

(وفي بلادك الآن) الكثير من الذين تذللت لهم صعاب استعمال الأسلحة وإذ تفاجئهم، اليوم، باستبدال كل ما مهروا فيه وأجادوا استخدامه بأسلحةٍ أخرى ونظم مختلفة فهذا تصرف ينال من سمعة الملك ويضعف من قوة البلاد؛ ولذلك فلا يستحسن المساس بالعادات والتقاليد السائدة، ما لم تبلغ المزايا التي تعود على الناس من جراء ذلك مائة ضعف ما هو قائم ولا داعيَ لتغيير نظام التسليح، إلا إذا كانت الفائدة المرجوة تتجاوز عشرة أضعاف ما يتميز به النظام الحالي.

وعلى أية حال، فما دمت (يا مولاي) قد اتخذت قرارك النهائي في ذلك الشأن (إلغاء الهيئة العسكرية القائمة في يوانيان، سعيًا لإنشاء مركز إعداد الرماة والخيَّالة) فأخشى أن المكاسب التي يمكن أن يحققها في ميدان القتال ستتراجع كثيرًا وراء ما سوف يتحمله من تكاليف الخسارة.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وتكلم الملك أولينغ، فقال: إن المزايا والمساوئ تختلف كثيرًا اليوم عنها بالأمس. من مظاهر هذا الاختلاف أنه يمكن استبدال المعدات والأسلحة فيما بين المناطق النائية والأقاليم الوسطى، إن لكل طرف بين حدَّين متناقضَين معياره ووزنه [حرفيًّا: لكل تغيُّر بين كفَّتَي الـ ين والـ يانغ (الأرض والسماء، الليل والنهار، الذكر والأنثى ... إلخ) نظامه وميزانه] ولكل تبدُّل بين الفصول الأربعة طبيعته التي تُناسبه. ولهذا، فالعاقل من ارتفع بالتأمُّل والملاحظة والتعديل فوق العادات والتقاليد وليس من وقع في إسارها، وتقيد بسيرورتها.

إن الإنسان هو الذي يصنع السلاح وأدوات القتال، فلا يمكن أن يكون السلاح مقيِّدًا للإنسان.

أنت تهتم كثيرًا بلوائح وتدابير واختصاصات الإدارات الحكومية، لكنك لا تنظر إلى الفائدة المرجوة والممكنة المترتبة على استبدال نظم الأسلحة. ولا شك أنك تفقه الكثير عن استخدام الأسلحة والدروع، لكنك تكاد لا تعرف شيئًا عن الإجراءات المناسبة للتلاؤم مع مُتغيرات حياة الناس وأحوال الدنيا بأسرها.

وبناء على ذلك فإني أتساءل عما إذا كان هناك ما يمنع من استبدال سلاحٍ ما إذا ما اتضح أنه غير مُلائم للاستخدام الأمثل؟ (وأتساءل) ما الذي يحول دون استبدال العادات والتقاليد طالما باتت عصيةً على مسايرة الأحوال في يُسرٍ ومرونة؟

كان سلفنا، الملك الراحل شيانزي قد ذهب ذات مرة إلى المنطقة الحدودية المُشتركة بين بلادنا وحدود دولة «داي»، وتأمل المنطقة طويلًا، ثم أقام جدارًا كبيرًا لتحديد معالم الخط الحدودي الفاصل بين البلدين وأسماه بباب «أوتشيون» [بمعنى بوابة «طريق الأبد»] وكانت هذه التسمية إشارة رمزية تحمل رسالة إلى الأجيال القادمة، يرجو منها الملك أبناء الزمن القادم بالسعي الدءوب لفتح الطرق عبر الحدود نحو الآفاق البعيدة.

إن الدروع الثقيلة والخوذات المصفحة (التي كانت ذات يوم، ذخيرة قتال ذات شأن) والرماح الطويلة، لم تعُد تصلح اليوم لعبور المناطق ذات الأهمية الحاسمة في القتال، وبالقدر نفسه فإن إطلاق شعار المبادئ الأخلاقية والرحمة والإنسانية، لن يُخضع لنا رقاب أهل (شعب، قومية) خو بالإذعان. وقد علمت أن قيمة الثقة لا تتعارض مع مفهوم «استجلاب النفع». والذكي لا يدع الفرصة السانحة تُفلت من بين يديه.

لكنك تأتي اليوم بحديثك عن اللوائح الرسمية والإدارات الحكومية لتفسد عليَّ محاولاتي في تعديل الزي الرسمي وإنشاء قوات الخيَّالة والرماة، وتلقي بكل العراقيل في طريق دعم بناء الجيش والتطلُّع نحو الآفاق البعيدة وتلك أمور عليك سبر أغوارها وفهم حقائقها.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وهنالك سجد نيوسان عند قدمي الملك، وضرب الأرض برأسه عدة مرات، قائلًا: «وكيف لي أن أجرؤ على عصيان أوامرك يا مولاي؟» ثم إن الملك خلع عليه أردية أهل خو، وقام على رأس قواته من الخيَّالة فاقتحم بها أرض شعب «خو»، متقدمًا من جهة ممر «تينكوان» مارًّا في طريقه بمنطقة «جيوان» [في أرض جاو] الحصينة، فعبر مضيق «جين شين» حتى وصل إلى منطقة «يوتشون»، حيث شق طريقًا عبر ما مساحته ألف لي في المنطقة الحدودية.

سجل جاو الثالث

لمَّا كان العام الثلاثون من حكم الملك

في العام الثلاثين من حكم «هوي آون» — حاكم جاو — تقلَّد «تيان دان» منصب رئيس وزراء جاو (ولُقِّب فخريًّا بـ «آن بنجون») [العام الثلاثون من حكم هوي آون، أي سنة ٢٦٩ق.م، والثابت تاريخيًّا أن تيان دان لم يكن قد تولَّى بعدُ رئاسة الوزراء في ذلك العام، وكان قبل التاريخ بزمان يتولَّى قيادة قوات تشي وأبلى بلاءً حسنًا في الحرب ضد دولة يان، وفي ٢٦٥ق.م. قامت دولة جاو بإهدائه إقطاعًا لا بأس به، وعينته قائدًا عامًّا للجيش، وفي العام التالي مباشرة شغل منصب رئيس الوزراء فيها]، وتصادف أنه التقى بالقائد العسكري الشهير «جاوشي»، وقال له: «لا أستطيع القول إني مستاء من طريقة توزيعك وقيادتك للقوات، وإنما أقول: إني لا أجد ما يحملني على الإعجاب بأسلوب القيادة نفسها، والسبب (الوحيد) في ذلك يرجع لطريقة استخدامك حشودًا هائلة من الأفراد في الاشتباكات فهذه الطريقة تعني أولًا: أن عدد المزارعين من الأهالي سيتناقص، بل لن يتمكن الناس من زراعة الأراضي، أصلًا، وثانيًا: فإن عملية نقل الحبوب إلى العتاد الحربي (لتموين القوات) ستعجز عن تلبية الطلبات المعتادة.

وإذن، فهي طريقة القعود جانبًا وتبديد الطاقة والجهد قبل بدء القتال، وهو ما يختلف تمامًا عما يمكن أن أفعله (في مثل هذه المواقف) وقد بلغني أن مجموع ما كان يحشده الملوك والأباطرة (العظام) في القتال لم يكن يزيد، بأي حال، عن ثلاثين ألف مقاتل، وهو عدد كان يكفي لإخضاع الممالك التي تحت السماء، لكنك تعتمد اليوم على حشود تبلغ المائة ألف أو المائتي ألف مقاتل للدخول في الاشتباكات، وهو الأمر الذي يضطرني إلى التحفُّظ على إبداء إعجابي.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وتحدث مافو [لقب شرف للمدعو جاوشي] فقال: «لا يبدو أنك تفقه الكثير عن فنون الحرب والقتال، بل إنك لا تعرف أيضًا الصورة الكاملة عن الموقف الحالي على جبهات القتال، إن دولتي «أو»، و«قان» تملكان من السيوف القاطعة ما لو ضربت به أعناق الخيل وأجساد البقر، لقطعتها أشلاء مبعثرة، وإذا سلَّطتها على صفائح المعادن لمرقت فيها كما تمرق في أوهن المواد، وقسمتها قطعًا صغيرة تصنع منها الأطباق النحاسية والملاعق، أما إذا ضربت بها الأعمدة الحجرية المنتصبة لانكسرت السيوف شظايا متفرقة [حرفيًّا: تحطمت إلى ثلاث قطع متفرقة]، وإذا هوَيت بها على المقاعد الرخامية تحطمت السيوف شظايا ضئيلة متناثرة [حرفيًّا: تفرقت إلى مائة شظية].

وإذ نقوم الآن بدفع قوات تعدادها ثلاثون ألف مقاتل، فكأننا نضع السيف الضارب أمام كتلة عمود حجري بالغ الضخامة، ثم إن أحدًا منا لا قبل له بالمادة التي تُصنع منها سيوف دولتي «أو» و«قان»، فهي سيوف ذات مَضاء؛ حتى إن السيف الواحد منها لا يقطع الأشياء إلا بما زاد في سُمكه من الثخانة وفي نصله من الحِدة، ولا يكاد يبتر بِحَدِّه الأشياء، إلا بدقة جسده المعدني الرقيق [هكذا]. وحتى إذا توافرت للسيوف هاتان الصفتان دون أن تكون مزودةً بحمالة وقبضة ذات عوارض، ونصل رهيف الحد وعلائق مناسبة، فلن تصلح للضرب والطعان، وإلا أصابت الضارب قبل المضروب، فكيف يمكن للمرء أن يُحرز النصر، دون حشد قوات بهذه الكثافة (مائة، أو مائتي ألف مقاتل) وهو الحشد الذي يصعب في غيابه، تحقيق أي شيء؛ لأننا عندئذٍ نكون كمن نزل ساحة الحرب بين الممالك بقواتٍ قوامها ثلاثون ألف مقاتل وسيوف ثلمة النصال كليلة، بغير علائق ولا حمائل أو مقابض.

وإذا تأملنا أحوال البلاد في العصر القديم، ولاحظنا أن الأرض كانت موزعة — فيما بين البحار الأربعة (بطول الممالك وعرضها) — بين ما يزيد عن عشرة آلاف دويلة، وبرغم ما كانت عليه الأسوار المحيطة بتلك الدويلات من متانةٍ وقوة، فلم تكن تزيد — في أكثرها منعةً وضخامة — عن ثلاثين جانغ (تسعين مترًا تقريبًا)، وعلى الرغم مما قيل عن كثرة الأهالي واحتشاد الناس في الممالك، فلم يكن يزيد نصيب البلد الواحد من السكان عن ثلاثة آلاف عائلة؛ أي إنه لم تكن هناك أية مشكلة في حشد ثلاثين ألف مقاتل لمناوأة الواحد منها.

وإذا حاولنا اليوم — على سبيل المثال — تقسيم تلك الدول القديمة التي تجاوز عددها عشرة آلاف وقسمناها إلى سبع دولٍ كبرى ذات قدرات قتالية عالية، بحيث يصير في

مقدور الدولة الواحدة منها تجهيز قوات ذات عدد وافر من المُقاتلين (مائة ألف مقاتل)، فإن أية قوة مكونة من ثلاثين ألف جندي، مهما ثابرت على القتال مع أي دولة من هذه السبع، فلن تجني سوى الهزيمة النكراء، مهما طالت بها السنون، تمامًا كما حدث لدولة تشي، وقد شهدت أنت بنفسك تلك التجربة، حيث كانت قد دفعت بجيش قوامه مائتا ألف جندي لمهاجمة تشو، وظل القتال دائرًا خمس سنواتٍ حتى أفرغ كل ما في جعبته وتوقف نهائيًّا بعد تلك المدة. وكذلك أيضًا حاولت دولة جاو مهاجمة دولة جونشان بقواتٍ تفوق المائتي ألف مقاتل، لكنها بعد خمس سنوات، ارتدَّت على أعقابها. وانظر الآن إلى دولتي «تشي»، و«هان» وهما تحشدان كل قواتهما في مواجهة بعضهما البعض في محاولة للتطويق المتبادل، فهل يعقل أن يأتي الآن من يزعم بأنه قادر على نجدة إحداهما بدفع ثلاثين ألف محارب؟ إن البلاد الآن تحوطها أسوار مرتفعة تبلغ ألف جانغ ويترقب الحرب على الجبهتين سكان كل واحدة منها، الذين لا يقل تعدادهم عن عشرة آلاف عائلة، إذ تدفع الآن بقوات تبلغ ثلاثين ألف مقاتل لحصار مدن حصينة عالية الأسوار [يبلغ ارتفاع أسوارها عشرة آلاف جانغ]، فإن ذلك العدد الضئيل من القوات لن يكفي لإحكام حصاره حول ضلع واحد من أضلاع المدن المسوَّرة، بل إنك لن تجد ما يتبقى (من القوات) لخوض المعارك الميدانية، (وهنا يبرز السؤال الأساسي) فما قيمة المُقاتلين الذين أرسلت بهم مددًا وعونًا للمُتحاربين؟ وفيم دفعهم إلى جبهات القتال، إذن؟».

وهنالك تنهد «آتنجون» عميقًا، قال: «أعترف بأني لم أبلغ ما أصبته بثاقب رأيك وسديد فكرك».

لمَّا أرسلت دولة جاو وزيرها الأعظم

أوفدت دولة جاو وزيرها الأعظم «تشوها» إلى دولة تشين، وذلك في محاولةٍ منها لحث هذه على تعيين «وايرانغ» في منصب رئيس الوزراء، وتكلم «سونتو» [أحد كبار الوزراء في جاو] إلى تشوها، فقال له: (اعلم) أنه إن لم تستجب تشين إلى طلبك، فسوف يضمرها لك «لواهوان» [من مواطني جاو — أصلًا — لكنه وقتئذٍ رئيس وزراء تشين] والأفضل أن تتجاذب أطراف الحديث سرًّا مع «لوهوان»، فتقول له: «إن دولة جاو أوفدتني في محاولة منها لإقناع تشين بعدم التسرُّع في تكليف ويرانغ برئاسة الوزراء.» وإذ يلاحظ الملك تشاو، حاكم تشين — عدم إلحاح جاو في حثه على تعيين ويرانغ رئيسًا للوزراء، فلن يأخذ كلامك على محمل الجد — هذا طبعًا في حالة عدم نجاح مسعاك — وهو ما سيجعل لوهوان مُمتنًّا لك، حافظًا جميلك في أعماق قلبه.»

لمَّا هاجمت تشي دولة يان

قامت دولة تشي بالإغارة على دولة يان، وكانت دولة جاو ترمي في سياستها، إلى الحفاظ على يان والدفاع عن أي تهديد لوجودها، (وبخصوص هذا الموضوع …) فقد تحدث «يؤي» [ينطق المقطع الأول كما في «فيديو»، والثاني كما في «إسرائيل»] إلى الملك أولينغ حاكم جاو، وقال له: «إن هجومك على تشي دون أن تدخل في حلف مع الممالك المتحاربة، يجعلك هدفًا لعدائها وتصرفاتها العدوانية ضدك، والأفضل أن تتقدَّم إليها بطلب استبدال منطقة «خدونغ» (شرقي النهر) بمنطقة أخرى من أراضي دولة يان التي سلبتها من جاو (في نزاعات سابقة)، ولما كانت لكم في «شرقي النهر» مناطق سيادة ونفوذ، مثلما لدولة تشي أيضًا الكثير من المناطق التي تقع تحت سيطرتها هناك، فلا أظن أنه من المُمكن أن ينشأ نزاع بينكم وبين دولة يان (حول إدارة تلك الأراضي). فتلك هي الطريقة التي يمكن أن تتقارب بها دولتان (في سياستهما). ثم إن استخدام أراضي شرقي النهر لتقوية ودعم مركز دولة تشي — بين الدول — وكذلك ما يمكن أن تقدمه دولة يان للمساهمة في دعم بناء قوة تشي، كل ذلك سيدفع باقي الممالك والدويلات على التبرم بما تُحققه تشين من درجات قوة متصاعدة، ولا بد من أن الممالك جميعها، سوف تُهرع إليك وترجوك الإسراع في الإغارة على تشي، ومن ثم تُواتيك الفرصة الحاسمة لضرب تشي مُستعينًا برصيدٍ من القوة الهائلة الذي توفره لك باقي الممالك.» وهنالك استحسن الملك أولينغ الفكرة، وشرع في استبدال الأرض الواقعة شرقي النهر (على النحو الذي أخبر به) مع أراضي دولة تشي، وهو ما دفع دولتي وي وتشو إلى الإعراب عن استيائهما البالغ من هذا التصرف، فبعثتا رجليهما تشوهاو [وزير عظيم بدولة تشو] وهويشي [وزير عظيم بدولة وي] إلى دولة جاو وقدمتا إليها طلبهما بالإغارة على تشي حفاظًا على قوة وكيان دولة يان.

لمَّا قامت تشين بمهاجمة جاو واحتلال المناطق

قامت دولة تشين بمهاجمة دولة جاو وأغارت على المناطق التابعة لها في «ليندي»، و«ليشي»، و«تشيدي»، وأوفدت دولة جاو أحد نبلائها، (القون «تسيهو») [القون هنا تعريب للكلمة الصينية التي تعني «النبيل»؛ لجأت إلى التعريب — أي كتابة صوت الكلمة بحروف عربية لكثرة ورود هذا اللقب الشرفي فيما يلي من نصوص الكتاب، ولأنه لقب، ذو دلالة خاصة تختلف عما يشار إليه «النبيل» — المترجم] إلى دولة تشين ليُقيم هناك، بوصفه «رهينة

لضمان السلام»، ثم عرضت عليها تسليمها مناطق «جياو» [كانت تابعة أصلًا، لدولة تشين، فيما مضى [«ولي»، و«نيوخو» مقابل إعادة أقاليم ليندي، وليشي، وتشيدي، إليها، فلما أذعنت دولة تشين لذلك الطلب وأعادت إليها الأقاليم الثلاثة المذكورة، نكثت دولة جاو بعهدها ورفضت تسليم مناطق جياو، ولي، ونيوخو؛ بالمقابل، فحمِيَ غضب الملك تشاو، حاكم تشين، وأوفد القون «تسيزن» [أحد أشراف دولة تشين] إلى جاو مُطالبًا بالتنازل عن أجزاء من أراضيها. فأرسل له الملك «هوي أون» حاكم جاو، وزيره الأكبر «جنجو»، ليقول له: «إن المناطق الثلاث المذكورة، وهي ليندي، وليشي، وتشيدي، تقع في أقصى أطراف بلادنا، وما استطعنا أن نُبقيها تحت سيادتنا إلا بفضل ما بذله الملوك الأقدمون ورجال الدولة السابقون من جهدٍ نذكره لهم على مرِّ الأيام، وأعترف بأني لا أحوز مثل ما للقدماء من مجد وشرف فإذا بقيت، هكذا غير قادر على استلهام مجد القدماء، فستضيع البلاد كلها، بما في ذلك الأقاليم الثلاثة المشار إليها. وأعترف أن حولي، الآن كثير من الوزراء الفاسدين وأنهم هم الذين أفسدوا كل شيء، وهذا أمر مُحتمل جدًّا.» وتجاهلت جاو ذلك الموضوع الذي أثارته دولة تشين برمته.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

واشتد غضب الملك تشاو، حاكم تشين، وأصدر أمره إلى كبير القادة العسكريين «هوشان» بالهجوم على جاو، فتقدمت القوات واحتلت منطقة «يوي»، فسارعت قوات جاو بقيادة جاوشي بالتقدم لتخليص المنطقة من يد الغاصبين، وأرسلت دولة وي قائدها القون «تسيجو» على رأس قوات مدججة بالسلاح، فرابط في منطقة «أني» [تابعة لدولة وي]. وذلك في محاولة لعرقلة تقدم قوات تشين، وبالفعل فقد لاقت هذه هزيمةً منكرة في منطقة «يوي»، فعادت أدراجها، فعرجت في طريق عودتها على منطقة «جيدي» التابعة لدولة وي فأغارت عليها، ودافع «القائد المشهور ليانبو» عن هذه المنطقة، وأنزل بقوات تشين الفتك والتدمير فهزمها شر هزيمة.

لمَّا أراد «فودين» التحالف مع الدولتين

أراد «فودين» [أحد كبار الوزراء ورجال الدولة في جاو] أن يدخل، باسم دولة جاو، في التحالف مع دولتي وي، وتشي؛ بينما كان لوهوان يفكر في تحالف، باسم جاو، مع دولتي

تشين وتشو، وكان أكثر ما يخشاه فودين، أن يقتنع الملك أولينغ — حاكم جاو — بكلام لوهوان، فينضم — من ثم — إلى تشو وتشين، وذهب «سيما شيان» [أحد وزراء جاو] إلى الملك، ليتحدَّث معه على لسان فودين ودفاعًا عن موقفه، قائلًا: «أرى من الأفضل — يا مولاي — أن تنضم بلادنا إلى صف دولة تشي؛ ذلك أننا إذا شرعنا، اليوم، في مهاجمة تشين دون التحالف المُسبق مع تشي، فسوف تتحالف تشو مع تشين ويقومان بمهاجمة كل من هان، ووي، فتلجأ كلتاهما إلى دولة تشي طلبًا للنجدة والعون، فإذا لم تسارع هذه بالإغارة على تشين، فستتعلل بضرورة البدء بضرب جاو، وهكذا فإنها إذ تعجز عن ضرب تشين، فلن تواتيها الجرأة إلا على ضرب جاو، وما دامت قوات تشي ستُمنَع عن توجيه ضرباتها صوب الغرب، فسوف تنصت دولة هان إلى صوت تشين، فتتمرد على تشي وتقلب لها ظهر المِجن، وإذ تنقلب على صاحبتها تقربًا إلى تشين، فستحيق الهزيمة النكراء بدولة جاو.

وأتصور أننا إذا تقاربنا الآن، مع تشي، وامتنعت هذه عن توجيه دفة هجومها جهة الغرب، فلا بد من أن دولتي وي وهان ستقطعان علاقاتهما مع تشي، وهو ما يعني أنهما بعد انهيار علاقاتهما مع تشي سوف يخطبان وُدَّنا ويتقربان إلينا، هذا طبعًا بالإضافة إلى ما قلته آنفًا من أننا إذ نتقارب مع تشي، فلن تسلط هجومها على الجبهة الغربية.

ومن المعلوم أن لوهوان كان قد سبقت له الإقامة مدة ثلاثة أشهر في دولة وي، (وعلى الرغم من مسعاه الدائب) فإنه لم يستطع فسخ العلاقة القائمة بين «وي» وتشي.

وإذ تصورنا أننا بعد التقارب مع تشي، أنها قامت بالاشتراك مع دولة وي في التقدم بهجوم مشترك جهة الغرب، فسيكون ذلك وبالًا على تشي نفسها التي ستنهكها الحرب وتنال من طاقتها وتنال أيضًا من قوة تشين، وتُصبح دولة جاو محطَّ اهتمام الممالك والدويلات.» ورد عليه الملك أولينغ، قال: «لكنني إذا تحالفت مع الدول الثلاث وتقدمت معهم لمهاجمة تشين، فسينزل بي معهم الدمار والتخريب من جراء ما سيطولنا من أيدي تشين العدوانية.» فأجابه سماشيان، قائلًا: «كلَّا ... لن يحدث شيء من ذلك، ولن يمسَّك أيُّ قدْر من السوء؛ لأننا نتحالف مع الدول الثلاث، فسنتعلل بغياب شرط المصالحة بيننا وبين دولة جونشان للتحلل من مهمة الاشتراك معهم في الهجوم على تشين، فإذا ثبت لدينا صدق عزم الدول الثلاث على مهاجمة تشين، فلا بد أن ينتظروا قرارنا النهائي في هذا الشأن إذا ما بدا لهم إجراء مصالحة بيننا وبين دولة جونشان وإذا أذعنت هذه لشروط الصلح معنا، فستكون تلك فرصتنا الذهبية لمنع جونشان من إجبارنا على التنازل لها عن الأراضي كشرط للمصالحة معتمدين في ذلك على ضغوط الدول الثلاث عليها؛ فإذا رفضت شروطنا،

فستقطع الدول علاقتها بها، وهو ما يعني وقوعها في إسار العزلة وهو أمر مرغوب فيه تمامًا.

وإذ تعجز الدول الثلاث عن توقيع المصالحة بيننا وبين جونشان فلا مانع من أن نساهم في المجهود القتالي بعددٍ قليل جدًّا من القوات، وبذلك نكون قد أنجزنا هدفين أولهما: عزل دولة جونشان، وثانيهما: القدرة على توزيع قواتنا المقاتلة (على نحو مرن)، وإذا انعزلت جونشان فستضعف وتسقط من تلقاء نفسها، وهو يُعطينا الفرصة للمشاركة ببقية القوات في ضرب تشين. ونكون بذلك قد اكتسبنا حق اقتطاع نصيب وافر من أراضي كل من تشين وجونشان بضربة واحدة فقط.»

لمَّا أقدمت دولة وي على التحالف مع

أعدت دولة وي العدة للتحالف مع تشين، وذلك بسبب (سياسات) «فودين». وهو ما أثار موجة من القلق والخوف في أجواء دولة جاو، فوجهت إليها طلبًا تُعرب فيه عن استعدادها للتنازل لها عن أجزاء من الأراضي، وذلك استجابة لتوجيهات شوكون [كان وزيرًا — وقتئذٍ — في دولة وي].

وتحدث «ليكي» [وزير عظيم بدولة جاو] إلى «لي توي»، وقال له: «إن جاو تخشى أن تنجح سياسة التحالف الأفقي وهو ما دفعها إلى التفكير في التنازل لدولة «وي» عن أجزاء من الأراضي تلبية لنداء وتوجيهات شوكون [وزير دولة وي] وأرى من الأفضل — في هذه الظروف — أن تقنع جلالة الملك بإقطاع تلك الأراضي (المزمع تسليمها إلى وي) للوزير «جوسوي» [صاحب سياسة «الاهتمام بدولة تشي وتجاهل أمر تشين»] دعمًا له في جهوده ومهماته التي يمكن أن يكلف بأدائها في دولة وي، حيث ينصح له بالسفر إليها واعتلاء كرسي رئاسة الحكومة فيها وكلنا نعرف أن جوسوي هو الرجل الذي يقود الممالك كلها في حملة شديدة ضد تشين، بإعلان السخط عليها والتحريض على كراهيتها وازدرائها، وإذ يتولى الآن رئاسة وزراء وي، فلا أظن التحالف قائمًا بينها وبين تشين، (وهذا من ناحية أخرى ...) فلن يمكن لكل من وي وتشي — مهما بلغتا من القوة — أن تقدرا على إيذاء دولة جاو، خصوصًا بعد أن فقدتا دعم تشين لهما، ثم إن وي ستتعالى وتشمخ بأنفها فوق تشي ولن تأخذ بتوجيهاتها انطلاقًا من احتقارها لها واستصغارًا لشأنها.

وبنفس القدر، يمكن القول إنه ... مهما بلغت كل من تشين ووي من درجات القوة ومعدلات التفوق، فلن تستطيعا الإغارة على جاو من دون مساعدة دولة تشي لهما، وهكذا،

فالظروف تخدم دولة جاو وتيسر مهمة جوسوي على نحو غير مسبوق، فاغتنم الفرصة فورًا.»

لمَّا أوفدت دولة وي إلى دولة جاو

أوفدت دولة وي إلى جاو مبعوثًا يعرض عليها الانضمام إلى التحالف الرأسي — وكان وسيطها في ذلك «بينيوان» [رئيس وزراء جاو، وقتئذ] (وتحدث المبعوث طويلًا) إلى ملك جاو، دون أن يستجيب لدعوته، وخرج من عنده بينيوان والتقى ب «يوتشين» [أحد كبار رجال دولة جاو] وقال له: «إذا كنت داخلًا للقاء جلالته، فحدثه في موضوع التحالف الرأسي.» فلمَّا أقبل يوتشين على الملك، ابتدره جلالته بحديثه قائلًا: «كان بينيوان عندي منذ لحظات، وكان يعرض عليَّ اقتراح دولة وي في الانضمام إلى تحالف المحور الرأسي، لكني لم أوافق، فما رأيك أنت في هذا الموضوع؟» فأجابه يوتشين بأن دولة وي مخطئة في هذا الاقتراح، فلما استفسر منه الملك عن السبب، أجابه قائلًا: «إن أي شأن يدور بين دولتين إحداهما أعظم وأقوى من الأخرى سيتم مُعالجته بحيث تجني الدولة العظمى الفائدة منه ولا يعود للدولة الأضعف إلا تحمل الخسائر والتبعات، ولئن كانت دولة وي ترجو منك الانضمام إلى التحالف الرأسي، وأنت ترفض الانصياع لهذا الاقتراح، فإن ذلك سيجر على وي الويلات والمصائب، غير أن جلالتك ترفض أن تجني الفوائد الماثلة، وهكذا فإن رأيي هو أن دولة وي مخطئة، وجلالتك — إن أذنت لي — مخطئ تمامًا (مخطئ بدرجة أكبر!).

لمَّا تحدث بينيوان مع أحد الدعاة

تحدث بينيوان مع فنجي [أحد دعاة الخطط الأساسية] وقال له: «أفكر في التقدم صوب الشمال للإغارة على منطقة «شان طانغ، ثم أرسل حامية لضرب دولة يان، فما رأيك في هذه الخطة؟» فأجابه، قائلًا: «لا أوافقك على هذه الخطة، وقد كان فيما مضى أن ... «بايتشي» أعظم القادة العسكريين في دولة تشين قد دخل واحدةً من أخطر المعارك في منطقة «تشان بين» وذلك بصحبة «جاوكو» (ولد مافو — رجل الدولة الشهير) معتمدًا على سيرته التي تشهد له بانتصاره الساحق سبع مراتٍ متتالية، على دولة جاو، وحدث أنه في تلك الموقعة ألحق الهزيمة النكراء بقوات جاو، وانتهز فرصة انتصاره الرائع، وقام بحصار مدينة «هاندان» بما تبقى لديه من العدة والعتاد، غير أن دولة جاو (كانت دائمًا تفعل الشيء نفسه في المرات السبع المتوالية) جمعت فلول الجند الشاردة وبقايا المؤن

والذخائر، وحشدتها للدفاع عن هاندان واستماتت في الدفاع حتى لحق النصَب والإعياء بجنود تشين. وكان السبب في ثبات دولة جاو في الدفاع واستبسالها في الصمود الذي يحول دون انهيارها يكمن في صعوبة مهاجمتها مع سهولة الصمود في الدفاع عنها، ومن ثم فلا تملك دولة جاو فخر الانتصار المدوِّي في سبع معارك متتالية وعلى الجانب الآخر فإن دولة يان لم تتعرَّض لمحنة الهزيمة في معركة (مثل معركة «تشان بين») بل إن الدولة المهزومة [مشيرًا بذلك إلى جاو] ما زالت حتى اللحظة لم تثأر بعد لخسارتها الفادحة، والأغرب من ذلك أنها تفكر في حشد قواتها المُنهكة لضرب دولة يان القوية الجبَّارة، حيث تتصرَّف الدولة الضعيفة المُفككة الأوصال (جاو) على غرار ما قامت به العملاقة القوية تشين إبَّان هجومها على هاندان، على أمل أن تسلك الجبارة العظيمة يان مثلما سلكت به المهزومة المنهارة جاو في دفاعها المُستميت عن هاندان، وهذا معناه أن تشين القوية حقًّا تنتهز الفرصة وتضرب بجيشها الذي أُعيد تنظيمه وتسليحه بعد أن نال قسطًا كافيًا من الراحة — تضرب به جاو المنهكة المعزولة، على حين غرة … على نحو ما حدث مثلًا لدولة «أو» القوية الجبارة وكان سببًا في انهيارها، بينما اشتد ساعد الضعيفة المتهافتة «يوي» وكان هجومها المباغت حينئذٍ سببًا في وصولها إلى ذرى القوة والإمبراطورية والمجد، ولذلك لا أرى داعيًا لمهاجمة دولة يان.» فاستحسن بينيوان رأيه، قائلًا: «الرأي ما قلت.»

لمَّا تحدث بينيوان إلى أخي الملك

تحدث بينيوان إلى بين يانغ [أخو الملك هوين، حاكم جاو من الأم وقال له: كان «قونزيمو» [أحد نبلاء دولة وي] عاقدًا العزم على الترحال إلى دولة تشين، فمر في بعض الطريق وعرج شرقًا صوب دولة وي يريد توديع «إينخو»، فكلَّمه هذا، قائلًا: «ما دمتَ قد عقدت العزم على السفر، سيدي القون، أفلا تعظني بشيء (من الحكمة)؟» فأجابه «قونزيمو» قال: «بل كنت نويت أن أهديك كلماتٍ من عندي، حتى قبل أن تطلب مني ذلك فاسمع ما أقول لك، واعلم أن العاقل الكريم لا يرنو إلى المال، وإنما يأتيه المال (من تلقائه)، (واعلم أيضًا …) أن المال، وإن لم يعقد وعدًا مع الجمال واللذَّة [ملاحة الوجه، ولذيذ الطعام … حرفيًّا] فإنهما يُجتلبان معه، كما أن ملاحة الوجه ومستساغ لذَّة الطعام وإن لم يقترنا بالجاه والثراء العريض، يلحق في إثرهما؛ ثم إن الجاه والعز لا يطلبان مع الموت لقاء، لكنه يأتيهما حتمًا وبغير سابق دعوة. فهي غفلة تنتاب الناس، وخطأ يُعالجونه بالتكرار على مر الأعوام والدهور [حرفيًّا: كلما مرت السنون، كثر المُخطئون».]

فقال له إينخو: «إن ما تعظني به حكمة عميقة المَغزى [حرفيًّا: تكاد تنطبع فوق جسدي كأثر النحت في الصخر!] … وإذ يهتف بي هاتف تلك الكلمات، تترسخ في قلبي ويثبت بها رشدي، فأتمنى أن تطوي عليها صدرك وتظل تذكرها ما حييت.» فوافقه «بين يانغ» وأقره على صواب ما قاله.

لمَّا قامت قوات تشين بمهاجمة جاو

قامت قوات تشين بمهاجمة جيش جاو في منطقة «تشان بين» وألحقت به شرَّ هزيمة، ثم صدر الأمر للقوات بالعودة [حدثت موقعة تشان بين في عام ٢٦٠ق.م. وكان بايتشي قائد قوات تشين، فلما انتصر على جيش جاو أعمل القتل والفتك بأفراده حتى أنه قتل من الأسرى والمُستسلمين أربعمائة ألف جندي، فنقم عليه رئيس وزراء «تشين» «فانجيو» ذيوع شأنه وأنكر عليه شهرته وشجاعته ووقف له بالمرصاد … ونجمت الأحداث عن انسحاب الجيش المُظفر إلى قواعده!] ثم أوفدت تشين إلى جاو تطلب التنازل لها عن ستِّ مدن بسكانها مقابل إجراء الصلح معها، ولم تكن جاو قد استقرَّت على رأي. وتصادف أن كان لوهوان عائدًا من دولة تشين، فالتقى به الملك «شياوتشن» — حاكم جاو — وراح يفكر معه في تصور خطة مناسبة، قائلًا له: «قد احترت وأعيتني الحِيل، هل أوافق على التنازل الذي طلبته تشين، أم أرفض؟ وما نتيجة القبول أو الرفض؟» فأجابه لواهوان، «تلك أمور من الصعب عليَّ أن أجزم فيها برأي قاطع.» فقال له الملك: «وحتى لو لم تكن الأمور تُبين عن رأيٍ جازم، فلتجرب الخوض فيها بتصورات وأفكار.» فرد عليه لوهوان، قال: «هل سمعت يا مولاي، حكاية الوالي «كنفو وينبو» وأمه العجوز؟ الحكاية باختصار هي أن كنفو هذا، كان يعمل موظفًا في البلاط الحكومي بدولة «لو» [تنطق كما في «الملوك»] فأصيب بمرض عُضال وتوفي على إثر ذلك، وكانت له ست عشرة زوجة يُقِمنَ معه في بيته [تعدد الزوجات أمر شائع في الصين القديمة]، فلما عرفن بخبر وفاته، صدمتهن الفجيعة فقمن وقتلنَ أنفسهن في آنٍ واحد، فلما بلغ ذلك الحادث مسامع والدته كفَّت عن البكاء ومسحت دموعها، ولاحظت الخادمة تحجُّر مشاعرها، فعلقت بقولها: «كيف يطيع الأم قلبها أن يموت ولدها فلا تبكي عليه؟» فردت الأم، قائلة: «كان كونفوشيوس رجلًا بارًّا فاضلًا، ومع ذلك فقد طردته السلطات من بلده، مسقط رأسه — دولة لو — (فتبعه الناس جميعًا) إلا ولدي، تركه يذهب إلى منفاه دون أن يتبعه أو يكون في وداعه، ثم إن زوجاته انتحرنَ فور علمهن بخبر وفاته، مما يدل — بكل وضوح — أن ابني لم يكن بالرجل

الذي يُوقِّر الكبير ويُبجل الفاضل الكريم، وإنما كان يصرف كل انتباهه وحُبه واحترامه لزوجاته.»

وهكذا، فإذا أخذنا بكلام الأم الذي قالته بلسانها، فسنحكم بأنها أم كريمة النفس، فاضلة الخلق، أما لو كان قائل هذه الكلمات زوجاته أنفسهن، لاستنتج السامع، بالبداهة، أنه كلام نساء استولت على قلوبهن الغيرة.

ولذلك، فقد تكون العبارات والألفاظ والكلمات نفسها، يختلف قائلها، فتختلف مراميها ودلالاتها، (وقد سألتني جلالتك سؤالك الذي ابتدرتني به) وأنا قادم من دولة تشين فإذا قلت: إن من الأفضل الامتناع عن تلبية طلب تشين، وعدم تسليمها الأراضي، فقد تكون تلك خطة غير صائبة، وإذا قلت عكس ذلك، فلربما وقع في ظنك أني إنما قلت هذا منحازًا لجانب تشين، وبالتالي فقد عييت عن الإجابة. (وعلى أية حال) فإن كنت تراني أهلًا لتدبير تلك الخطط لك، فالأجدر بك أن تُكلفني بذلك تكليفًا.» فرد عليه الملك بالموافقة (على أن يسند إليه مشروع التخطيط لهذا الشأن).

الجزء الثاني من الفصل نفسه

فلمَّا اتصل خبر ذلك إلى يوتشين، أسرع إلى القصر، وقابل الملك، فقصَّ عليه ما سمعه من لوهوان، فقال له يوتشين: «بل هو محض زيف وكلام فارغ!» فلما سأله الملك عن السبب في حكمه هذا، أجابه بقوله: «السؤال هو: هل انسحبت قوات تشين بعد شروعها في مهاجمتك بسبب الإنهاك؟ ولنقل إن جلالتك تظن بأنها تدخر المزيد من طاقة القتال، فهل كان إحجامها عن التقدم في القتال بسبب افتتانها بجمال عينيك وعطف قلبها الرحيم عليك؟» فقال له الملك (حاكم جاو): «مما لا شك فيه أن تشين؛ إذ قررت الهجوم على بلادي، فلم تكن لتدخر جهدًا في مواصلة تقدمها بشتى الطرق ولا بد — إذن — أن انسحاب القوات كان سببه ما أصابها من تعب وإرهاق.» وهنالك، قال له يوتشين: «لمَّا كانت تشين قد استخدمت كل قوتها وطاقتها في الهجوم على ما لا طاقة لها باستلابه والاستيلاء عليه من الأقاليم والمدن والمناطق المختلفة، فقد لقي جيشها الإعياء والإرهاق واضطر إلى العودة من حيث جاء، ثم إن جلالتك تفكر بجدية — وهو الأدهى والأعجب — في أن تتنازل لها عن المناطق التي لم تستطع هي نفسها الاستيلاء عليها بهجومها الكاسح، وكأنك تُعطيها المزيد من المدد والدعم مكافأةً لها على مهاجمتك (وهي، بالطبع، لن تدخر وسعًا في إعادة

الكرَّة فيما بعد ...) وهكذا، فلن تجد ما تُخلِّص به نفسك من براثنها عندما تعاود تشين الهجوم عليك مرةً أخرى، في العام القادم.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

ولم يلبث ملك جاو أن نقل ما سمعه من يوتشين إلى لوهوان، الذي رد عليه بقوله: «وهل يدرك يوتشين هذا، كل أحوال وتفاصيل القدرات العسكرية لدى دولة تشين بما في ذلك أقصى ما يمكن أن تبلغ إليه طاقتها القتالية؟ وعمومًا، فإذا كنا نعرف حقًّا أن قدرات تشين العسكرية لا تؤهِّلها للوصول إلى ما ترمي إليه، فلنا ألا نُفرط في حبَّة رمل من أرضنا، لكن إذا أقدمت تشين في العام القادم، على مهاجمة جاو فلربما تطلَّب الأمر أن تتنازل لها جلالتك عن أراضٍ — من قلب بلدك — من الأقاليم الداخلية، للتفاوض من أجل المصالحة.

وراح الملك يسأله ... «فإذا أخذت بكلامك وتنازلت لـ تشين عن بعض الأراضي، فهل تضمن لي ألا تقدم تشين على مهاجمتنا في العام المقبل؟» فأجابه محدِّثه: «هذه مسألة لا أملك لها أية ضمانات، إننا إذا طالعنا التاريخ القريب، وجدنا أن الدول الثلاث: هان، ووي، وجاو كانت قد أقامت علاقات ودية للغاية مع دولة تشين، وإذ تُقدِم تشين على الهجوم اليوم، فقد تغاضت عن كلٍّ من وي، وهان بينما صبَّت جام غضبها عليك أنت ربما، لأن هديتك إلى تشين لم تكن في روعة وفخامة ما أهدتها إيَّاه كل من وي وهان. وبإمكانك — على أية حال — أن تدع لي مهمة تصفية الأجواء بعد ما لحق بك من هجوم تشين إثر التوتر الذي أصاب العلاقات بينكما بالجفاء والعداوة الشديدة، بحيث تتبادلون معًا الوفود الدبلوماسية، وتقيمون مراكز اتصال على الحدود بين بلديكما، على غرار ما هو قائم بين تشين وهان، ووي.

أما إذا ظللت، يا مولاي، حتى العام القادم دون أن تستطيع تدبير وسيلة لإزالة ما كدر الصفو بينكما، وتحوز مودة ملك تشين ورضاه، فسيكون كل ما بذلته وما قدمته من جهدٍ وهدايا إلى ملك تشين، قد تضاءل بالقياس إلى ما تقوم به كل من وي وهان في هذا الشأن، وإذا وصلت الأمور إلى هذا الحد، فلن يُمكنني أن أعدكم بشيء.»

الجزء الرابع من الفصل نفسه

وأسرع الملك ليُخبر يوتشين بما دار بينه وبين لوهوان، فقال له: «حسب ما ذكره لوهوان فإنك إذا تقاعست عن المصالحة مع تشين الآن، فسوف تهاجمك في السنة القادمة مرةً

أخرى، وربما اضطررت، عندئذٍ إلى التنازل عن أجزاء من الأراضي الواقعة في قلب البلاد طلبًا للسِّلم معها، بل حتى لو قامت العلاقات الودية بينك وبين تشين الآن، فإن لوهوان لن يضمن لك عدم إقدام تشين على مناوشتك مرة ثانية في العام المقبل، فما الفائدة من أن تتنازل لها عن أجزاء من أرضك إذن؟! وإذا صح التقدير بأن تشين لن تقلع عن محاولة ضربك بعد أن يحول الحول، فإن تنازلك لها عن أراضٍ، لا تقدر على الحصول عليها بقوتها العسكرية نوع من السعي لإلقاء النفس في التهلكة، وبناءً على هذا كله، فلن يكون هناك داعٍ للمصالحة من البداية.

واعلم جيدًا أن دولة تشين لن تقدر على أخذ المناطق الست، مهما مهرت في القتال، وبرعت في الهجوم. (ومن ناحية أخرى)، فإن دولة جاو لن تخسر المناطق الست المشار إليها مهما عجزت وتخاذلت عن الدفاع.

وبما أن قوات تشين انسحبت نتيجة لما أصابها من الإرهاق، فلا بد أن حالة الإنهاك ستأخذ منها مأخذًا عظيمًا، فلننتهز هذه الفرصة ونحاول ضم الدويلات إلى جانبنا، ولو اضطُررنا إلى شراء وقوفهن معنا مقابل التنازل عن خمس مدنٍ كبرى من مُدننا الآهلة بالسكان، ثم نهجم على تشين المرهقة المكدودة التي لم تعُد تقدر على مواصلة القتال، فلعلَّنا نستطيع تعويض ما قد خسرناه. ومهما يكن من شيء، فسنكون قد حصلنا ولو على قدر ضئيل من المكسب، بدلًا من التنازل عن أجزاء متوالية من الأرض (بغير طائل) مما قد يخصم من قوة البلاد لصالح الإضافة إلى قوة تشين (فأي الموقفين أحظى وأنفع؟!)

ألم يقُل لك لوهوان ما نصُّه إن ... «السبب في محاباة تشين لكل من وي وهان؛ مقابل هجومها على جاو، يكمن في عجزكم عن خدمة مصالح تشين بالقدر الذي تقوم به وي وهان؟!

فما أظنه إلا ساعيًا إلى دفعك للتنازل كل عام، عن ستِّ مدن إلى دولة تشين، خدمة لمطامعها؛ أي باختصار شديد، تسليم أرضك لها على نحو مُتدرج ومن دون أي سندٍ أو مُبرر أو تفسير.

ومثلًا فعندما تأتيك تشين في السنة المُقبلة لتُطالبك بالتنازل لها عن أجزاء من أراضيك، هل تُذعن لها وقتئذٍ؟ إنك حتى لو لم تُذعن لها، فستكون قد بددتَ ثمن ما أعطيتها إياه من قبل، وجلبت على نفسك كارثة لا مخرج منها، أما إذا أردت أن تُجاريها وتعطيها أرضك، لا أظنك تجد المزيد مما يمكن أن تتنازل لها عنه.

إن المثل السائر يقول ... «لا يملك البطش إلا القوي الجبار، أما الصغار، فلا يملكون حتى ما يصدُّون به الأذى عن أنفسهم.» إن الإذعان المُطلق لمطالب تشين يدفع بقواتها إلى

المزيد من احتلال الأراضي دون أن تجازف بخسارة أي شيء، وهذا بعينه هو ما يضيف إلى قوة تشين طاقة جبارة متجددة، ويضعف في الوقت نفسه من قدرة جاو، وهكذا فإن هذه الطريقة التي تزيد القوي (تشين) قوة، والضعيف (جاو) هزالًا واندحارًا، ستطيل من أمد الخطة التي تسير عليها تشين لاستلاب جاو قطعة إثر قطعة.

أضف إلى هذا أن المعهود في سلوك تشين أنها أشبه ما تكون بالذئب الضاري الذي لا يُقيم وزنًا للآداب والأخلاق، على أي نحو، حيث لا تتوقَّف الأطماع عند حد، بينما هي تُريد منك أن تعطي بلا حدود، وعندما تعطي من أرضك المحدودة لمن لا تقف أطماعه عند أية حدود، تكون النتيجة التي تصل إليها الأمور هي ضياع أرضك بالكامل؛ لذلك كله أقول: تلك كلمات يقولها مُخطط (سياسي)، تنطوي على زيفٍ وخداع، وتتوارى تحت قناع (ومساحيق ملونة) وحذارِ، يا مولاي ثم حذارِ أن تتنازل عن قطعة من أرضك لدولة تشين.» ووافقه الملك على رأيه، وقال: «فنعم الرأي إذن».

الجزء الخامس من الفصل من نفسه

فلمَّا بلغ لوهوان من الأنباء ما بلغَه، دخل القصر الملكي والتقى بملك جاو الذي أخبره بما كان من حديث يوتشين، فقال له لوهوان: «ليس الموضوع على ذلك النحو، وما يقوله يوتشين محدود بوجهة نظره الضيقة التي تتركَّز على جانبٍ واحد فقط من الموقف كله، دون مُراعاة لباقي الجوانب التي كان يجب عليه أن يأخذها في الحسبان؛ ذلك أن قيام العداوة بين تشين وجاو سيتحول إلى نكبة حقيقية (فوق رأس جاو) وهو ما سيُثير موجة من الفرح والسعادة الغامرة بين الدويلات، لماذا؟ لأنهم سيقولون ... «ها قد وجدنا من نلجأ إليه لإذلال دولة جاو، ها قد عثرنا على تشين القوية التي ننتصر بها على تلك الحمقاء الوضيعة!» فما بالك وقد لاقت قوات جاو الصعاب على أيدي تشين، مما دفع الجميع لتهنئة المُنتصر، والوقوف إلى جانبه صفًّا واحدًا؟ لذلك فالأسلم أن يُسارع مولاي بالتنازل عن الأرض طلبًا للمصالحة، وهو ما سيُثير الحيرة والارتباك في نفوس الممالك ويشيع في قلب تشين الاطمئنان والثقة، وإلا فستنتهز الدويلات فرصة غضب تشين وما أصاب جاو من الضعف لتنهال عليها فتمزقها شر ممزق، ولا أدري ما الذي يمكن أن تخطط له جاو للتعامل مع تشين، إذا كانت ستتبدد على أيدي الممالك، وتزول عن الوجود نهائيًّا، فانظر لنفسك الرأي السديد واحزم أمرك واتخذ قرارك على ضوء ما قد علمت ولا تجعلن الأفكار تتقاذفك في كل اتجاه.»

الجزء السادس من الفصل نفسه

فلمَّا انتهى إلى يوتشين ما دار بين الملك ومُحدِّثه قام فأسرع بدخول القصر وقابل الملك، وقال له: «قد بلغ الأمر ذروة الخطورة، يا مولاي، فالزم الحذر، لأنه من الواضح تمامًا أن لوهوان يعمل لصالح تشين! فهذا جيش جاو قد لقي الأهوال على يد قوات تشين، وصاحبنا (يقصد لوهوان) يقترح عليك التنازل عن أرضك طلبًا للمصالحة معها، وهو الأمر الذي — لو تحقق — فسيُثير الشك في قلوب الدويلات بدرجةٍ تفوق التصور، ولا أدري كيف يمكن أن يعرف الهدوء طريقه إلى قلب ملك دولة تشين، وسط أطنان الشكوك في كل مكان؟ بل إننا لو تصرَّفنا على هذا النحو لكان ذلك تشهيرًا صارخًا وتبيانًا لمدى الضعف الذي وصلت إليه جاو، أضف إلى هذا كله أن اقتراحي بخصوص عدم تسليم الأرض لا يعني اتخاذ قرار قاطع ومُطلق بعدم التنازل عنها في ظروفٍ مُحددة، فعندما تطالبك تشين بتسليمها المدن الست، يمكن لجلالتك بأن تهدي خمسًا منها إلى دولة تشي (لشراء صوتها المؤيد لموقفك) — ومن المعلوم — أن ما بين تشي وتشين من الكراهية والبغضاء يضرب بجذوره في أعماق سحيقة؛ بحصول تشي على المدن الخمس فستضم قوتها إلى صفك وتهاجم تشين من جهة الغرب بالتنسيق معك، وستكون على استعداد لفهم مراميك وأهدافك، حتى قبل أن تُصرح بشيءٍ منها على لسانك [هكذا] ومن ثم، تكسب من تشين ما خسرته مع تشي، وبهذه الطريقة نستطيع أن نُقيم علاقات ودية مع الدول الثلاث: وي، وهان، وتشي، ونتبادل المواقع مع تشين [بحيث نكون نحن الأقوى وهي الأضعف].» وهنالك أجابه ملك جاو، قائلًا: «هكذا، إذن، فلنمضِ على هذا النحو!» وعلى ذلك فقد أصدر جلالته الأمر إلى يوتشين بالتوجه شرقًا لمقابلة ملك تشي والتنسيق معه على مهاجمة تشين، فما كاد يرجع يوتشين من رحلته إلى تشي، حتى كانت تشين قد أوفدت مبعوثها إلى جاو لإجراء المصالحة السلمية، وهذا هو الخبر الذي ما إن سمعه لوهوان حتى قام وفرَّ هاربًا من دولة جاو.

لمَّا قامت تشين بمهاجمة جاو

قامت دولة تشين بمهاجمة دولة جاو، فأسرع بينيوان بمخاطبة دولة وي يرجوها التدخُّل لإنقاذ جاو، فأرسل (الأمير) «شين لينغ» على الفور بقوات رابطت عند أدنى موقع من مدينة هاندان، وهنالك أوقفت تشين الهجوم، وفي تلك الأثناء تقدم يوتشين بطلبٍ إلى جلالته يرجوه فيه بالتكرم على بينيوان بمنحه إقطاعًا من الأراضي، وقال لملك جاو: «هو ذا بينيوان، قد

استطاع أن يميط الأذى عن بلدَين، دون أن يُجنِّد جنديًّا في معركة، أو يكسر قصبة رمح في ساحة قتال، ولا يصح أبدًا (في عُرف الملوك) أن نحث الناس على بذل أقصى جهودهم، ثم نغمطهم حقهم في المكافأة، إذا ما اجتنبوا لنا أطيب الثمر.» فوافقه الملك شياوشين — حاكم جاو على رأيه، وشرع في الإجراءات اللازمة لزيادة الإقطاع الممنوح لـ بينيوان، فلمَّا بلغ هذا الخبر مسامع «كونصون لونغ» [رجل من جاو، وهو أحد أتباع بينيوان] أسرع إلى سيده بينيوان، وقال له: «أما ترى أنك نلت حظوة عند الملك، فأهداك الأراضي والضياع وأقطعك مدينة «طونو» [محلة بدولة جاو] لما قمت به من مآثر طيبة، وعلى الرغم من أن تلك المآثر لم تتجاوز مجرد أداء الواجب في ساحات القتال؛ فلا أنت قتلت قائدًا ولا أبدْتَ جيشًا ولا سحقتَ عدوًّا، وقد شهد تاريخ هذا البلد (جاو) الكثيرين من الأبطال الذين كانوا يفوقونك اقتدارًا وموهبة — ومع ذلك فلم يفوزوا بما فزت به — فلم تبلغ تلك المكانة إلا بفضل قرابتك لجلالة الملك؛ هو الذي أنعم عليك بكل تلك الأفضال حتى أقامك رئيسًا للوزراء في بلاطه، فاعلم أن قبولك الهدية دون كبير مأثرة، يوجب عليك التواضع والترفُّع، وكان أولى بك أن تعتذِر عن قبول المنصب الذي تشغله، بدلًا من التباهي بما تحمله من أختام تحمل شعار الدولة في حافظة رئاسة الوزراء. إن لهاثك وراء فضل زائد ومغنم إضافي فوق ما لدَيك من الأراضي والإقطاعات الكثيرة، دليل على شرفٍ لم تكن جديرًا به إلا بفضل صلة القرابة، أوصلتك إلى أن تكون موضع حظوة وتقدير، ولو كنت مكانك، لتصرفت على أنسب نحوٍ ممكن؛ وذلك بأن أرفض كل ألوان التكريم.» فقال له بينيوان: «سأعد كلامك هذا أمرًا واجب التنفيذ في الحال، وسأصدع بما رأيت وقدرت.» وكان أن رفض رفضًا باتًّا القبول بالإقطاع والإنعام الملكي عليه.

لمَّا قامت الحرب بين تشين وجاو في موقعة

وقعت الحرب بين دولتي تشين وجاو في منطقة «تشان بين»، ولم يكن النصر حليف جاو، بل فقدت قواتها ضابطًا عظيمًا من قادة الكتائب، فأمر الملك شياوتشن — حاكم جاو — باستدعاء لوتشان — رئيس الوزراء — ويوتشين، وقال لهما: «ساءت الأحوال جدًّا حتى إن الجيش لم يُحرز النصر المأمول، بل مات أحد القادة الكبار في ساحة المعركة فما رأيكما في تعبئة القوات بكامل أفرادها وعتادها ثم الهجوم بها على تشين دفعة واحدة؟» فأجابه لوتشان، قائلًا: «هذا لن يُجديك نفعًا، والأفضل منه أن ترسل ثقاتك إلى دولة تشين للتفاوض بشأن السلام.» بينما قال له يوتشين: «إن المتفاوضين بشأن السلام يتصوَّرون أنه

ما لم يباشروا محادثات السلام فسوف تهلك القوات المحاربة، لكن الحقيقة هي أن القوة التي تمسك بزمام المصالحة الفعلية تكمن بيد دولة تشين (وهنا تكمن النقطة الحاسمة) فما ظنك — يا مولاي — بما تريده دولة تشين بجيشنا، أتراها تبغي تحطيمه أم الحفاظ عليه؟» فأجابه الملك، وقال: «إن تشين لن تدَّخر وسعًا في دحر جيشنا.» فقال له يوتشين: «فاعمل بما أقترحه عليك (ولو على سبيل الخروج من المأزق الحالي.) بأن تُرسل مبعوثًا إلى دولتي وي وتشو يحملان إليهما أثمن الهدايا دليلًا على المودة والثقة، وهما إذ تستقبلان مبعوثك، تعربان عن رغبتهما في مد جسور الودِّ بقبول هداياك الثمينة؛ مما سيُثير الشك لدى تشين إزاء جدية الدويلات في الانضمام إلى التحالف الأفقي، بل سيُصيبها الرعب من جراء ذلك، فتلكم هي الطريقة المُمكنة والمناسبة للشروع في مفاوضات سلمية.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

ولم يأخذ ملك جاو بنصيحة الرجل، بل راح يُعِد لترتيبات مفاوضات السلام بمساعدة (الأمير) «بين يانغ»، وأرسل «جنجو» [أحد نبلاء دولة جاو] إلى دولة تشين التي استقبلته على الفور، وعندئذٍ، استدعى الملك يوتشين للقائه، وقال له: «كنت قد أرسلت بين يانغ إلى دولة تشين لعمل مباحثات السلام، فاستقبله ملك تشين (مما يدل على رغبته في إقامة علاقات سلمية) فما رأيك في هذه الخطوة؟» فأجابه يوتشين: «من المؤكد تمامًا أنك لن تقدر على إقامة السلام مع دولة تشين، وهو ما سيُعرِّض جيشك للدمار المروع على يد تشين. وقد علمت أن وفود الدويلات والممالك تتقاطر على تشين للتهنئة بانتصارها الباهر، ولا يعدو جنجو كونه مجرد رجل فاضل كريم، من أهل دولة جاو، وسوف يستغل ملك تشين، بمساعدة «إينخو»، زيارة الرجل إليهم ليطلع على كل وفود الدول المُهنئة عليه، ويجعلهم جميعًا يرَونه رأي العين، وسترد دولتا وي وتشو على إعلانك المصالحة مع تشين بحجب مساعداتهما لك؛ وإذ تدرك تشين امتناع الدويلات عن مساعدتك، فلن تواصل السير على طريق المصالحة معك، مما يعرض محاولة السلام بينكما للفشل.» وهكذا لم يتسنَّ لدولة جاو إتمام مشروعها للسلام مع تشين، بل مُني جيشها بهزيمة نكراء، وكان أن ذهب ملك جاو (صاغرًا) إلى بلاط تشين، فلمَّا قصد إلى الجناح الملكي لزيارة حاكم تشين تم اعتقاله، وهنالك بذلت تشين وعدها لدولة جاو بتحقيق المصالحة السلمية بين البلدين.

لَّما قامت دولة تشين بحصار العاصمة

قامت قوات دولة تشين بحصار «هاندان» عاصمة دولة جاو، فأرسل الملك «آنشي» (حاكم دولة وي)، قائد الجيش «جين بي» على رأس قوة عسكرية لإنقاذ دولة جاو، إلا أن القائد المذكور لم يكد يصل إلى منطقة «طانين» [على الحدود بين وي، وجاو] حتى رابط هناك بقواته وقد أحجم عن التقدُّم قيد أنملة، لما كان يخشاه من قوة وصوْلة قوات تشين، فأسرع حاكم وي بإيفاد أحد القادة الأجانب المُقيمين في بلده، ويدعى «شين يوانيان» الذي انتهز فرصة تهاون القوات القائمة على حصار المدينة، وتسلل من إحدى الثغرات إلى داخل هاندان واستطاع أن يلتقي بالملك شياوشين حاكم جاو، عن طريق الترتيبات التي وضعها له بينيوان، فلما قابل ملك جاو، قال له: إن السبب في محاولة ملك تشين القيام بحصار بلادكم بهذه السرعة يكمن في أن ملوك كلٍّ من تشين وتشي [تحديدًا: الملك تشاو حاكم تشي والملك «مين» حاكم تشي] كانوا يتنافسون على الفوز باللقب الإمبراطوري، فلما صرف ملك تشي النظر عن هذا الموضوع حذا ملك تشين حذوه وأسقط من اعتباره مسألة اللقب بالاسم الإمبراطوري هو الآخر، غير أن دولة تشي راحت تضعف مع الأيام حتى وصلت الآن، إلى أضعف حالاتها، ولم يعد يحتفظ بالقوة سوى دولة تشين التي تسعى الآن لفرض سيادتها فوق الممالك. والجدير بالملاحظة الآن، أن تحركات تشين لا تهدف — في حقيقتها — إلى ضرب هاندان بحد ذاتها وإنما تتطلع إلى تحقيق السيادة المطلقة بصفتها إمبراطورية عظمى، فإذا أوفدت دولة جاو مبعوثًا إلى تشين لتُعرب له عن عظيم تقديرها واحترامها لجلالته، فسيقع هذا التصرُّف موقعًا طيبًا من نفسه، وسيبادر على الفور، إلى فك الحصار المضروب حول العاصمة هاندان.» غير أن بينيوان، بعد أن سمع هذا الكلام، تردَّدت الحيرة في قلبه ولم يتَّخذ أي قرار حاسم (بشأن هذا الموضوع).

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وتصادف أن كان العالم المشهور «لوجونليان» [أحد كبار علماء دولة تشي، ممن اشتهروا بنشاطهم في الأعمال الخيرية والإنسانية] يجوب دولة جاو في رحلة يطوف فيها بأرجاء البلاد فإذا به يشهد بنفسه قوات تشين وهي تضرب الحصار حول العاصمة هاندان، وبلغه مسعى دولة تشي في حث دولة جاو على إظهار دلالات التعظيم لدولة تشين والتصرف إزاءها بوصفها إمبراطورية كبرى، فذهب من فوره للقاء بينيوان، وقال له: «كيف ستتصرف في

هذا الشأن وما هي ترتيباتك التي أعددتها لتنفيذ ما عزمتم عليه (من تضخيم دور ومكانة تشين)؟» فأجابه بينيوان: «لا أدري كيف ستواتيني الشجاعة على مناقشة هذا الموضوع وقد حضر ما ترى من المقتلة العظيمة التي أطاحت بالقوات المحاربة في ساحات القتال، بل قد ولغ ملك تشين في أرضنا وعاث فيها وحاصر مدينة هاندان، دون أن نملك القدرة على رد اعتدائه وإجباره على سحب قواته، فمن ثم أرسلت دولة وي إلينا القائد العسكري شين يوانيان يحثنا على التسليم بسيادة ونفوذ تشين، ومخاطبة حاكمها باللقب الإمبراطوري، وما زال المبعوث مقيمًا عندنا حتى اللحظة، لكني أؤكد لك بأني لا أدري كيف أفتح النقاش في هذا الأمر؟» وقال لوجونليان: «كنت أعتبرك أحكم رجل في الممالك وأنبل كريم فوق الأرض، لكني أدركت اليوم أنك لست كذلك، وكم أود أن تُخبرني بالمكان الذي يقيم فيه ضيف «ليانغ» [يقصد القائد المرسل من طرف «ليانغ» أي: دولة وي وكانت سميت بهذا الاسم إذ اتخذت عاصمتها «ليانغ» حاضرة الدولة القديمة، عاصمة كبرى لبلاطها الحاكم، وحيثما يرد اسم «ليانغ» فيقصد به دولة وي دائمًا!] فأريد، بعد إذنك، أن ألتقي به لأُلقنه درسًا لا ينساه، ثم آمُره بالعودة من حيث أتى.» فقال له بينيوان: «دعني، إذن، آتيك به ها هنا.» فلما ذهب بينيوان وقابل شين يوانيان، ابتدره بقوله: «قد حل علينا الآن ضيف من دولة تشي، يُدعى لوجنليان، فاسمح لي بدعوته للقاء سيادتك.» فقال شين يوانيان: «أعرف أن لوجونليان هذا من أعظم الناس خلقًا وسجايا في دولة تشي قاطبة، أما بالنسبة لي، فلست إلا ضيفًا لدى سيدي حاكم البلاد، ولم أحضر إليكم إلا مبعوثًا من قبله في مهمة عُهد إليَّ بأدائها، ولا أريد أن ألتقي بهذا الـ «لوجونليان».» فرد عليه بينيوان قائلًا: «لكني حدثته بما كان من أمر مُهمتك وأطلعته على التفاصيل.» وعندئذٍ وافق شين يوانيان على عقد اللقاء.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

فلمَّا التقى لوجونليان مع شين يوانيان، ظل صامتًا دون أن يفتح فمه بكلمة، فبادره شين يوانيان، بقوله: «لاحظت أن المُحاصرين داخل المدينة يرفعون طلباتهم وتوسُّلاتهم إلى الأمير بينيوان، لكني إذ أتطلع إليك وأتفحَّص ملامح وجهك جيدًا، يبدو لي أنك عازف عن أن ترجوه أو أن تطلب منه إنجاز وعدٍ ما، أو قضاء أمر يشغلك، ففيمَ بقاؤك طوال هذه المدة داخل العاصمة المحاصرة دون أن ترحل عنها (كما فعل الكثيرون)؟» فأجابه لوجونليان: «قد أخطأ الذين ظنوا أن النُّسَّاك والزُّهَّاد الذين تركوا العيش ولجئوا إلى الحياة

المُتقشفة مجرد مجموعة من المُنتحرين، فالواقع أن الكثيرين لا يفهمون تمامًا سِر مسلك أولئك الزُّهَّاد؛ إذ يظنون بأنهم يقتلون أنفسهم لأسبابٍ شخصية تتعلق بظروفهم الذاتية. وانظر إلى دولة تشين، مثلًا فهي قد تخلَّت عن قواعد الأخلاق والآداب داعية إلى القتل وسفك الدماء، بين الدويلات، وتجند الجنود وتُعبئ الجيوش بأساليب أقرب إلى الغش والخداع، بل تحكم شعبها وتسوس أمره بوصفه كتلة من الأسرى والعبيد، وهي إذ تبغي التسلط فوق الأمم بدعوى الحلم الإمبراطوري وتأسيس دولة كبرى، بكل وحشية، دون أدنى وازع من أخلاق أو ضمير، في محاولة لفرض أحكامها الجائرة فوق كل الدول، فلست أملك — أنا نفسي — إلا أن أُلقي بنفسي في البحر منتحرًا؛ وذلك لأني لن أتحمل أن أكون واحدًا من رعايا تلك الدولة، أما الهدف الأساسي من لقائي بك اليوم فهو انتهاز الفرصة للعمل على مساندة دولة جاو.» فقال له مُحدِّثه: «لكن، قل لي، كيف يمكن أن تساندها؟» فأجابه: «أفكر في أن أحث دولتي وي ويان على تقديم العون لها، أما تشو، وتشي فقد سبق أن قدَّمتا لها المساعدة فيما سبق.» فقال له شين يوانيان: «أما دولة يان فقد استجابت لدعوة دولة وي إيَّاها تعظيم دور دولة تشين والإقرار لها بمكانة الدولة الإمبراطورية، وبالنسبة لدولة وي، فأنا واحد من أهلها، فقل لي كيف يمكن لدولة وي أن تساعد جاو؟» فأجابه لوجونليان قائلًا: «ربما كان الواقع يشهد بأن دولة وي نفسها ما زالت لم تنتبه بالقدر الكافي لخطورة تعاظم دور ومكانة دولة تشين، فإذا استطعنا أن نُبرز له وجه الخطر في ذلك، فستقدم بالتأكيد على مساندة جاو.» فجادله شين يوانيان قائلًا: «لكن هلَّا أخبرتني بالخطورة الكامنة في تلقُّب ملك تشين باللقب الإمبراطوري؟» فأجابه: «حدث فيما مضى (من وقائع التاريخ القديم) أن سار الملك وي حاكم تشي، في بلاده بالعدل والرحمة، بل قاد أمراء الممالك والدويلات جميعًا، وذهب بهم لمقابلة ملك جو، وكانت بلاده، وقتذاك ضعيفة الشأن، تُعاني الفقر والحرمان فلم يعبأ أحد من الأمراء بزيارة الحاكم فيها، سوى حاكم تشي، هو الوحيد الذي وصل متأخرًا، مما أحنق عليه الأمير «شيان» حاكم جو الجديد، الذي راح ينعي الملك للضيف القادم متأخرًا، بقوله … «قد كانت وفاة جلالته حدثًا وفجيعة ومصيبة نكباء، دونها زلزلة الأرض وانهيار السماء، حتى إننا، ونحن الحاكم الجديد فوق البلاد قد عز علينا (النهوض إلى أعباء العمل) فظللنا إلى جوار جثمان الفقيد المُسجَّى في تابوته فوق حشيش الأرض، بينما يتهادى بطيئًا ركب أمير دويلتنا التابعة في الشرق حتى وصلنا متأخرًا عن موعده ومخالفًا ميعاده، فليس أقل من الإطاحة برأس المتأخِّر عن جمع الناس.» فغضب ملك تشي وأخذته العزة، وصاح فيه مزمجرًا: «خسئتَ … فإنما أنت عبد

من نسل العبيد!» وانتهى أمر ملك تشي إلى أن صار هزأة بين القوم فسخروا منه بعد أن عابوا عليه سبه وقذفه للملك الراحل، بعد أن كان أول وأكبر الحافظين لمكانته إبان حياته، هذا على الرغم من أنه ما كان ليقدم على تلك الإساءة لولا ما أبداه له الأمير شيان من الغلظة والشطط. وبعد، فلا عجب أن يسلك الأمراء على نمط ومثال الأمير شيان.»

وهنالك قال له شين يونانيان: «أرأيت ما كان من أمر ابن العبيد إذن؟ أرأيت وهم يتخذونه زعيمًا لهم وهم فوق العشرة من الأمراء يقبضون على مصاير الحكم ومراكز القوة التي لم يكن لدَيه، وقتئذٍ ما يُدانيها، أرأيت هل كانوا يعجزون عن معاداته؟ أو هل كانوا أقل منه دهاءً وحكمة؟ كلَّا، بل كانوا يرهبونه ويخشون بأسه.» فقال له لوجونليان: «فهل توافقني، إذا جاريتك في هذا الطرح، بأن نعتبر دولة تشين تُشبه دولة وي فيما صار سمةً وعلامة عليها من أخلاق وطابع العبيد؟» فرد عليه شين يونانيان بالإيجاب والموافقة على هذا الاستنتاج. فعاد لوجونليان يقول له: «فما دام الأمر كذلك، فسوف أجعل ملك تشين يدق عظام ملك تشي ويقطع أشلاءه إربًا، ويطرحها في القِدر فيطبخ منها وليمةً هنيئة للطاعِمين.» فغضب شين يونانيان، واكفهر وجهه وهو يقول في دهشة مُمتزجة بالغضب «أحقًا هكذا ... قد بلغت الأمور شأوًا بعيدًا ... فقل لي، إذن، أيها السيد ... ما الطريقة التي سيستخدمها ملك تشين في تقطيع أوصال حاكم وي حتى ينضج لحمه وعظامه للآكلين؟»

الجزء الرابع من الفصل نفسه

فأجابه لوجونليان بقوله: «أما الطريقة فسأخبرك بها، فانتظر حتى أخبرك بهذا لاحقًا، لكن دعني أقص عليك شيئًا مهمًّا أولًا، فقد كان لإمبراطور تشو (آل شانغ) فيما مضى من الزمان ثلاثة من أعظم النبلاء (أعظم الرجال!) وهم: قويهو، وإيهو، والملك أون. وكان للقون قويهو ابنة رائعة الجمال، فأهداها إلى الإمبراطور تشو آل شانغ [آخر الحُكام في أسرة شانغ الملكية وكان ظالمًا غشومًا] فلم ير جلالته أية لمحةٍ من الجمال واعتبرها دميمة، وقبيحة المنظر (وغضب على أبيها) قويهو فغافلَه وقتله وقطع أشلاءه وطبخها في قدرٍ كبير للطعام، فسارع إيهو إلى التنديد به، وحمِيَ بينهما وطيس الجدال واللجاجة، فظلَّ به (الطاغية الغشوم تشو) حتى قتلَه هو الآخر، واتَّخذ من لحم جسده شرائح مُجففة [طريقة إعدام قديمة]، فلما سمع الملك أون بما وقع للرجُلَين، تنهَّد عميقًا وأطرق آسفًا (وهو التصرُّف الذي أغضب منه الإمبراطور) فأمر به فأُودع في أحد سجون منطقة «يوالي» مدة مائة يوم كاملة، وخطر للإمبراطور أن يتخلَّص منه بالقتل كسابقَيه.

وثارت الدهشة في النفوس، كيف يبدأ الأمر بأن يعترف لجلالته بالمكانة وفخامة العرش وأبهة الملك بوصفه إمبراطورًا متوجًا، ثم تأتي النهاية مأساوية مفجعة حيث ساحات الإعدام وتقطيع الأوصال؟ وقام الملك «مين» حاكم تشي وقصد الذهاب إلى دولة «لو» فتبعه رجل من أرض «هيويه» يقود عربة، تجرها الخيل وهو يحثها بالسوط اللاهب، وراح يتحدث إلى الرجل الذي من دولة لو، قائلًا: «على أي نحوٍ من الآداب وقواعد الأخلاق واللياقة ستُكرم وفادة حضرة مولانا الملك حاكم البلاد؟»، فأجابه: «نكرم وفادة جلالته بعشر بقراتٍ ومثلهن من الضأن والخنزير.» وعاد السائل يسأل: «من أي موطن انتقيتَ تلك الآداب في الحفاوة بمقدم مليكنا؟ إن مولانا الملك هو الإمبراطور الأعظم ابن السماء، فانظر إذا جاء ابن السماء [الإمبراطور] ليتفقَّد أحوال الممالك والدويلات، فإن الواجب يقضي حينئذٍ بأن يخرج الأمراء من قصورهم، ويسلموا إليه مفاتيح أبوابهم، ويلتزموا بإبداء مظاهر الاحترام والتبجيل، ثم يبسطوا له ولائم الطعام، ويبقوا إلى جواره، حتى إذا فرغ من الأكل عادوا إلى مزاولة مهام وظائفهم.»

وكان أن أغلق أهل دولة لو باب بلدهم دونه وأحكموا قفل الرتاج، فلم يتيسَّر للملك «مين» العبور إلى عاصمة دولة لو، فأراد الذهاب إلى دولة «شيوي» ومنها إلى دولة «تسو»، فيسلك عبر أراضيها إلى غاية رحلته، وفي تلك الأثناء، تردَّدت الأنباء، فجأة، بموت ملك تسو، وطرأت للملك مين فكرة أن يدخل البلاد للتعزية في وفاة الراحل الكريم، وذهب أيهو إلى أمير البلاد، وقال له: «قد جاءكم ملك (عظيم المهابة) يُريد أن يقدم مواساته وتعازيه، وأرى أنه من اللائق أن تقوموا بوضع تابوت المتوفَّى في اتجاهٍ معاكس لمنصة التعازي؛ بحيث تنقلون التابوت إلى الجهة الشمالية من القصر، حتى يتمكن الزائر العظيم من إلقاء خطبة التعازي وهو مُتجه بوجهه صوب الجنوب [كما يليق بالأباطرة العظام، الذين يتَّخذون من الجنوب وجهةً مقدسة دائمًا]، وأجابه وزراء دولة تسو، في وقتٍ واحد قائلين: «بل لو حدث شيء من ذلك، فسيكون لزامًا علينا أن نقتل أنفسنا بسيوفنا (إذ إن ما تطلبه أمر تأباه نفوسنا).»

وهكذا عدل الملك مين عن فكرة دخول دولة تسو. والمُلفت في الأمر كله أن أولئك الوزراء لم يكونوا خير مُعين لسادتهم، وهم أحياء يتسنمون عرش الحكم، ولا كانوا مُقيمين للشعائر الجنائزية (التقليدية) على روح أمرائهم، بعد إذ أدركهم الموت [حرفيًّا: ولا كانوا ممن يضعون في أفواه المتوفِّين من الملوك حفنةً من الأرز وقطعة من الذهب … كما جرت بذلك عادات دفن الموتى قديمًا]، بل إنهم لم يتحمَّلوا أن يُرغمهم الملك مين على اتِّباع قواعد الآداب المُقررة في خدمة الملوك.

وإذ نتأمَّل الوضع اليوم، نجد أن … دولة تشين واحدة من الممالك الكبرى التي تملك العدد الوافر من العدة والعتاد [حرفيًّا: عشرة آلاف عربة عسكرية]. كما أن دولة وي هي الأخرى، لا تقلُّ عنها قوة؛ فهي تملك عشرة آلاف عربة مقاتلة، فكلاهما يملك نفس المقدار والمكانة ويقوم فوق عرشيهما ملوك ذوو ألقاب جليلة ومكانة معلومة، فإذا وقع في ظنك أن تدعو الدويلات إلى الخضوع لسلطان ونفوذ تشين، لمجرد أنها انتصرت في حرب، فاعلم أنك بذلك تطلُب إلى وزراء ومسئولي الدول الثلاث (سانجين) أن يمرِّغوا أنوفهم في حضيض المذلَّة، في دركات لا يتدنَّى إليها عبيد وجواري وبغايا دولتي تسو ولو. ليس هذا فقط، بل إنه إذا لم تؤخَذ تدابير سريعة للحيلولة دون بلوغ ملك تشين مرتبة القوة التي تُمكِّنه من التسمِّي باللقب الإمبراطوري، فسوف يعمل على استبدال الوزراء المُتنفذين، وسوف ينتزع السلطة ممن يرى أنهم غير جديرين بمناصبهم، فيمنحها لمن يعتبرهم أحق وأولى، بحكم ما امتازوا به من الجدارة، وسيغتصِب النفوذ ممَّن يُبغضهم، ويتكرَّم به على من يُحبهم أو يميل إلى تفضيلهم، وسيجعل من بناته ووصيفات قصره عبيدًا ومحظياتٍ (لرجال الحكم في بلاط) دولة وي، وسيبثُّهم داخل القصر الحاكم هناك، عيونًا تستطلع، وألسنة تُثرثر بالنمائم، فكيف لملك وي أن ينعم بالهدوء والاستقرار والسعادة؟ وأنَّى لك، سيدي القائد المغوار، أن تنعم بما كنتَ ترفل فيه بالأمس من رفيع الدرجة وبالِغ التكريم؟»

الجزء الخامس من الفصل نفسه

ثم إن شين يوانيان قام واقفًا وانحنى مُعتذرًا لـ لوجونليان قائلًا له: «كنت أظنك، في أول الأمر مجرد شخصٍ عادي مثل باقي الناس، لكنني أدركتُ الساعة، بأنك ذو كياسة وحكمة، وأرجو السماح لي بالرحيل؛ فما عدتُ قادرًا على أن أواصل الحديث عن ضرورة تمجيد حاكم تشين ورفعِه إلى مصاف الأباطرة.» فلما بلغت أنباء ما دار بين الرجُلين من الحوار المذكور إلى مسامع قائد قوات تشين على جبهة القتال، بادر إلى الانسحاب بقواته مسافة خمسين «لي».

وتصادف، في تلك الأثناء، أن تقدم شين لينجوان على رأس قوات (من منطقة «جين بي») لمساندة جاو، حيث قام بالإغارة على قوات تشين التي اضطرَّت إلى الانسحاب والتراجُع عن حصار «هاندان»، وأراد بينيوان أن يضاعف المكافأة لـ «لوجونليان» بزيادة أراضي الإقطاع الممنوحة له، فاعتذر الرجل عن القبول، وانتهى الأمر دون أن يحصل لنفسه على أي لونٍ من المكافأة، فأقام له بينيوان مأدبة ودعاه إلى تناول أقداح الخمر معه، فلمَّا لعبت

النشوة بالرءوس، قام بينيوان يتهادى حتى وقف قبالة لوجونليان، فأهدى له ما مثقاله ألف وزنةٍ من الذهب تحيةً وإكرامًا له، ورمزًا إلى أطيب الأمنيات له بطول البقاء، فضحك لوجونليان وقال له: «إن أثمن ما يُقدمه رجل الفكر لأهل الممالك هو أن يُجنبهم الضيق والعُسر، ويزيل عنهم كدر الأحوال، ويُخلِّصهم من العناء والمعاناة، بما يَلُم به شعثهم ويسدُّ به خللهم دون مطمع في هدية أو مكافأة فإذا تاقت نفسه إلى شيءٍ من هذا صار كالتاجر الباحث عن الربح، وهو ما لا أرضاه لنفسي ولا أستطيع احتماله.» ثم إنه قام فودع بينيوان ومضى في طريقه، ولم يلتقِ به، بعد ذلك أبدًا.

لمَّا ذهب إلى جانشيان من قال له

ذهب إلى جانشيان [أحد مواطني دولة وي، من الوطنيين المُتعصبين لبلدهم وكان كارهًا لدولة جاو]، من راح يشرح له الأهداف والخطط (السياسية) قائلًا: «كيف لك أن تنتظر من أهل دولة جاو الاحترام والتوقير لشخصك في حين أنك تحتقِر بلادهم، وكيف تنتظر منهم أن يبذلوا لك الحُب والمودة، بينما تُصر على أن تصبَّ كل مشاعر الكراهية والبغضاء فوق وطنهم؟! أما علمتَ بأنه مهما كان الصمغ دبقًا فلن يمكن أن يلصق شيئَين متباعِدَين كل البُعد، وبأن الريشة وهي أخف الأشياء وزنًا لا يُمكنها أن ترفع نفسها في الهواء فتطير بإرادتها ملء الفضاء؟ ومن ثم، فلم يكن للأشياء أن تصل إلى التحقق التام بوسائل بسيطة وسهلة إلا بالاعتماد على مُتَّكأ وسند يكفل لها الوصول إلى غاياتها. وها هي ذي دولة جاو تملك من العدة والعتاد [حرفيًّا: عشرة آلاف عربة عسكرية] ما لا يزيد عليه، ويحوط بها أخدود طبيعي يتمثَّل في نهر جانغ، وترعة «فو» (من ناحية الجنوب)، وعلى يَمينها يقع جبل تشان العالي ذو المُنحدرات الوعرة، وإلى يسارها تُوجَد مخازن الحبوب الكبرى بين الأنهار، وصوب الشمال تمتدُّ المنطقة العامرة بمحاصيلها ووفرة منتجاتها (الزراعية) وكتائب الجُند الهائلة العدد الشاكية السلاح، التي سبق لها أن ردت غارات دولة تشي القوية الجامحة، ووقفت في وجه محاولات دولة تشين الرامية إلى تحقيق أهدافها، فلهذا لا يوجَد ما يُبرر التحقير من شأن دولة جاو. لكنك بموقفك الذي تلزم فيه جانب التهوين من شأن تلك الدولة القوية ذات العدة والعتاد الحربي الجبار، وتعظيم شأن وي الدولة الضئيلة المساحة (الضعيفة المكانة) تدعوني إلى الحُكم على رأيك هذا بالضعف ومجافاة الصواب.» فوافقه جانشان على وجهة نظره واعتبر بكلامه، وصار كلما حلَّ بمكانٍ عام،

أو تحدث على رءوس الأشهاد، ذكر الوجه الإيجابي لدولة جاو، بما في ذلك مزاياها الطيبة وعاداتها ومحاسنها الذائعة، وتقاليدها العظيمة.

لمَّا ذهب أحد رجال التخطيط لمقابلة

ذهب جنتون [أحد المُخططين (السياسيين) التابعين لدولة «جنغ»] لمقابلة ملك جاو، فقال له جلالته (أثناء اللقاء): «بما أنك واحد من رجال الجنوب المتضلعين في الآداب القديمة والحديثة، ومن ذوي المعرفة الواسعة والعلم المُحيط، فهل لديك شيء مما تنصحني به وتُعلمني إياه؟» فأجابه الرجل قائلًا: «إنما أنا رجل ساذج بسيط، نشأت وسط البراري الجنوبية، في بيئة جاهلة خشنة، أنأى ما تكون عن التحضُّر والتهذيب، فكيف لي أن أصير إلى مرتبةٍ تسمح لي بالنصح لجلالتك؟ لكنك ما دمتَ قد سألتني، فليس لي ألَّا أجيب (وأبدأ فأقول لك): إن والدي كان قد علَّمني فنون الحرب وأنا، بعدُ صبيٌّ صغير.» فقال له الملك: «لستُ أحب شيئًا من فنون الحرب.» فضحك جنتون، وقال للملك: «إنما الحرب لعبة يُحبها الدهاة والماكرون وقد لمست فيكم النفور منها، وكنت لمَّا تحدثت في الخطط الحربية ذات مرةٍ مع الملك شاو، حاكم وي، فوجئت به يقول لي: «لا أظنك تسلك مثل ما سلكه شيوي!» وهو الرجل الزاهد الذي لا يشغل نفسه بأمور العالم ومشاكله لدرجة أنه رفض الحصول على أراضٍ شاسعة تنازل له عنها (الملك المقدس) ياو، منذ زمان بعيد، أما جلالتك فقد قبلتَ ما ورثته عن الملوك الأقدمين من مكانةٍ وسطوة ومسئولية ولا بدَّ من أن جلالتك تريد للسلام أن يطوف بأرجاء المعابد، وأن تسلَم أرض بلادك من الاعتداء والضياع، وأن تُقام الصلاة وتُرفع القرابين لآلهة الأوطان والزرع والحصاد.» فردَّ عليه الملك بالإيجاب والتأكيد.

[فقال له الرجل]: (اعلم) أنه قد يكون هناك، من بين الناس، واحد ممن أغدق عليه الحظ ثروةً هائلة فصارت بيده الأحجار الكريمة، والمال الطائل، والثراء الوفير، ثم حكمت له الأقدار أن يبيت في العراء، دون أن تنطوي نفسه على شجاعةٍ ومهابة (مثل تلك التي اشتُهر بها البطل «منغ بن») ولا اشتملت خصاله على قوة وعزم وإرادة حديدية مثل تلك التي اتَّسم بها كل من «تشن شينغ» و«شينجي»، دون أن يتدرَّع بسلاح يَقيه صولة المُعتدي؛ فمثل هذا الرجل يُعرِّض نفسه للخطر الأكيد بطول بقائه على تلك الحال.

فهبْ أن دولة قوية ذات مطامع اقتحمت عليك بلادك بجُندها، تريد الاستيلاء على أرضك ووطنك، فإذا تفاهمت معها بالمنطق والحجة لم ترتدع ولم يكبحها زمام العقل، وإذا حاورتها بالجدل وأساليب الإقناع، تصامَمَتْ عن الانصياع لصوت العقل والحكمة،

وهبْ أيضًا أنك (فوق كل ذلك) لست ممن يخوضون ساحات القتال ولا ممَّن تستطيع أن تصد أعداءك؟ (وأقول لك إنك في مثل هذا الموقف …) إن لم يكن لديك جيش يحميك، فسيتمكن عدوك [حرفيًّا: جارك الذي في الجوار] من تحقيق أهدافه ومراميه.» وهنالك قال له الملك: «فأرجو منك أن تتكرم عليَّ بنصائحك كي أفيد من علمك.»

لمَّا بلغ الوزير مكانة مرموقة في دولة جاو

بلغ الوزير جياشين [أحد الوزراء المقربين إلى القصر الحاكم في دولة جاو] مكانة مرموقة في دولة جاو، وكان [المفكر والفيلسوف السياسي الشهير، في عهد الدول المتحاربة، المدعو …] «قون تسيمو» مارًّا في طريق سفره بدولة جاو، فالتقى بالملك شياوتشن، حاكم البلاد، فلمَّا عاد (الملك) إلى القصر وجلس في مقعده المُعتاد، نظر فوجد أمامه قطعةً من الحرير كان ينوي تسليمها إلى الحائك ليصنع له منها قُبعة، (وكان الحائك حاضرًا …) فلما نظر ورأى الضيف قادمًا، قام وانتحى جانبًا.

وتحدَّث الملك إلى الضيف القادم فقال له: «يا لها من مفاجأة سارة أن تُشرفنا بزيارتك، هذه المرة، حيث كنت تقود موكب العامِلين في خدمة الملك! وكم أتمنَّى أن أستمع إلى آرائك بشأن إصلاح أحوال الممالك.»

وتكلم الضيف القادم من وي (الوزير قون تسيمو)، قائلًا: «أحسب أنك لو بذلت لشئون الحكم مثل ما بذلت لهذه القطعة الحريرية من الاهتمام، فستنصلح أحوال الحكم في البلاد». فتكدَّرت نفس ملك جاو، من هذه الإجابة، وتبدَّت على ملامحه مشاعر الحرج والضيق، وقال: «إن الملوك السابقين قد وضعوا ثقتهم فيَّ، إذ لم يجربوا عليَّ تقصيرًا يحول بيني وبين إتمام ما بدءوه من المجد، فمن ثم مهدوا لي سبيل القيام على عرش البلاد بعدهم، فكيف لي أن أهمل شئون الحكم على النحو الذي تشير إليه بكلامك؟» فرد عليه قون تسيمو بقوله: «أولًا: فأرجو ألا تغضب، يا مولاي، من كلامي، وثانيًا: فاسمح لي بأن أشرح لك الأمر بوضوح.» ثم واصل كلامه قائلًا: «ما أريد أن أقوله هو أنه ما دامت قطعة الحرير هذه صغيرة للغاية، فلماذا لا تدع طبيب القصر يصنع لك منها قبعةً تضعها على رأسك؟» فأجابه الملك: إن الطبيب لا يُجيد صناعة أغطية الرأس.» فقال له: «وما يضير البلاد إذا فسدت قبعة الملك؟»

«وبالطبع فلن يضر البلاد شيءٌ إذا ساءت صناعة القبعة، ومع ذلك فقد بلغ اهتمام جلالتك بهذا الأمر أنك لن تدع أحدًا غير الصانع المُتخصص، ليعمل لك قبعة. وربما كان

الأمر يختلف كثيرًا إزاء الحاجة إلى صانع مُتخصص في إصلاح أحوال الممالك، فها هي ذي البلاد تكاد تتحوَّل إلى خرائب يهجرها البشر ويُجافيها العمران، (وتتحطَّم المعابد) فلا يجد الملوك الأقدمون من يقوم عند مقابرهم بالشعائر والطقوس المُقدسة ومع ذلك يُصر جلالة الملك على القعود عن طلب الرجال المُكلفين بإصلاح الأحوال [حرفيًّا: الصناع المَهَرة لرأب صدع البلدان]، بل يتركون مصائر الأمم في أيدي الفاتنات من النساء والصبايا الحِسان.

أما الملوك السابقون فقد كان من بينهم — مثلًا — جلالة الملك الحاكم الأسبق الذي كان يُولي كونسونيان مسئولية قيادة فرق الفرسان، ويُنصِّب مافوجون قائد الميمنة للعربات الحربية في ساحات القتال، وينطلق بهم على رأس قواته في صراع مع دولة تشين (أحرز فيه النصر الحاسم) بحيث كانت تلك الدولة الجبارة تخشى صولته وتتجنب قوة بأسه.

وقد أصاب الملوك من بعدهم ما أصابهم من التردُّد والتخاذل وإذ وصلت الحال إلى أن صار جيانشين (أحد وزرائك يا مولاي) يركب عربة تزدان بمظاهر الأبهة والفخامة، ذاهبًا إلى ساحة الصراع الحاسم مع دولة تشين؛ وهو الأمر الذي يُثير مخاوفي وهواجسي من أن تقوم دولة تشين بالقضاء التام على الراكب الذي نظنُّه عمادك وسندك ودرعك الذي تتدرع به.»

لمَّا كان أحد أمراء دولة ويه

كان لينقون (أحد أمراء دولة ويه) يؤثر كلًّا من «يونجيو» و«ميتسي شيا» بمحبته دون الآخرين، إلا أنهما استغلا ما اختصَّهما به الأمير من ودٍّ، وإيثار أسوأ استغلال فاستبدَّا برأيهما وقاما بين الأمير ووزرائه مثل ستار حائل، فأوقعا رجال الدولة في التخبُّط بعد أن انطلى خداعهما على الجميع، فتكلَّم «فوطوتشن» [أحد مسئولي دولة ويه] في ذلك مع النبيل لينقون، إذ قال له: «كنت قد حلمت في منامي بسمو الأمير وذلك منذ أيام قلائل.» فسأله لينقون: «كيف رأيتني في الحلم؟ فأجابه: «تمثَّلت لي في الحلم كأنك إله المواقد وأفران الخبز.» فثار لينقون غاضبًا حتى تغيَّر وجهه، وقال: «قد بلغني أن من يحلم بالملك أو الأمير فهو يتجلى له على هيئة الشمس في جوف السماء، لكنك تزعم لي اليوم بأن الأمير قد تمثَّل لك على هيئة إله المواقد، فلا بد أن تفسر لي الغموض في هذا الحلم وإلا أزهقتُ روحك.» فقال له مُحدِّثه: «إن الشمس، يا مولاي، تسطع في كبد السماء فوق الجميع، فلا يَحجبها، دون الناس، شيء. أما إله المواقد فيختلف كثيرًا عن ذلك؛ لأنه يستقبل القادِمين في أول الصف، ليستدفئوا بحرارة ودفء عطائه. وقد بدا لي أن هناك من يتصدَّرون الصف

أمامك فيفوزون بدفء نعمتك؛ فتمثلت لي في الحلم على تلك الهيئة التي أخبرتك بها.» ففهم الأمير كلامه وقال: «لا بأس إذن!» ثم سارع في أول فرصة إلى إبعاد يونجيو وميتسي شيا، ثم قام بتعيين «صيكون قو» بدلًا منهما.

لمَّا ذهب إلى جيانشين من قال له

ذهب إلى جيانشين من قال له: «ما كان لك أن تجد موقعًا قريبًا من جلالة الملك فتقوم على خدمته إلا بما تميَّزت به من وسامة، وملاحة وجه رائع الحُسن؛ بينما أن ما فاز به (المدعو) «رونغ» من مكانةٍ قريبة من جلالته يعود الفضل فيه إلى ما يتميز به من ذكاء ودهاء.

(واعلم أن) الوسامة تتراجَع مع الأيام، في حين أن العقل الذكي يزداد حدةً ونبوغًا على مرِّ الزمان، فلا بد أنك ملاقٍ العُسر والشدة (في مُستقبل حياتك) «وهنالك سأله جيانشين عما يراه من مخرج له، فأجابه الرجل قائلًا: «إن فرسَين يتسابقان في حلبة رهان، سيُدركهما الإعياء بعد بضعة «لي» [كيلو مترات] بينما أن من يقود فرسًا واحدًا ويقبض بيده على لجامه لا يُصيبه الإعياء مطلقًا؛ فذلك لأنه يستطيع اختيار أقصر الطرق [حرفيًّا: لأن لدَيه متسعًا من الاختيار] وأقترح عليك أن تدع «رونغ» يمتطي حصانه بمُطلق اختياره الذي يقرُّ عليه قراره، وأن يقبض على زمام من النفوذ والسطوة وإذ يتولى مهام منصبه في العاصمة، هاندان، فدعه يمارس سلطاته في القيام على شئون الإدارة (في الداخل) بينما تقوم أنت بالتجسُّس على أحوال باقي الدويلات والأمراء (في الخارج)، وستُطالع عندئذٍ بعض الأمور التي لن يجد رونغ متسعًا لإبلاغها إلى جلالته بالتفصيل، فتسارع أنت لتملأ تلك الثغرة (بما عندك من معلومات) فيشتد الملك في مطالبته بالدقة وينهال عليه لومًا وتقريعًا، وهنالك تنهزم قوائم حصانه، وتتبدَّد قوته.» فتقدَّم جيانشين إلى مُحدثه بأخلص الشكر، داعيًا إياه إلى النصح له وتوجيهه، ثم دخل إلى ملك جاو وقدَّم له توصياته، فأوكل إلى رونغ وظيفة مرموقة، وولَّاه أدق المهام، لكنه (بمرور الوقت) أخذ يكيل له اللوم والتأنيب، فما كاد يمر على ذلك عامٌ واحد حتى هرب رونغ من القصر فارًّا بجلده.

لمَّا تحدث أحد رجال الحكم إلى الأمير

تحدث «كوشن شان» [أحد كبار رجال الحكم، في زمن الدول المتحاربة] إلى جيانشين، فقال له: «الغريب في الأمر أنه على الرغم من قيام جميع الدول بالانضمام إلى التحالف الرأسي

[المناوئ لدولة تشين] فإن الناس لا ترى عدوًّا على الأرض، لدولة تشين سوى دولة جاو، فما السبب في ذلك؟

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ... فقد سخرت الممالك من دولة وي عندما قامت بقتل «لولياو» مع أن هذه الممالك نفسها لزمت الصمت، ولم تُعلق بشيءٍ عندما استعادت (دولة وي) منطقة ما بين الأنهار، فما الفرق بين هذين الحدثَين؟

وأرى أنك إذا تخليت عن مطالبك في منطقة ما بين الأنهار، وصانعتَ دولة تشين فأبديت لها التواضُع، وتظاهرت بالمرض، وبأنك قد تخليتَ تمامًا عن فكرة استعادة أراضيك منها فسيفهم «أون شينهو» ويُدرك تمامًا أن التحالف الرأسي لن يُحالفه التوفيق، بل لن يتحقق أصلًا. ثم دعني أقول لك بأنه حتى لو كان مقدَّرًا للتحالف الرأسي أن ينجح وتلتئم حوله الممالك، فما الذي يمكن أن يقلقك ويثير هواجسك إزاء عجزك عن استعادة منطقة ما بين الأنهار؟ أما إذا لم تنجح فكرة التحالف الرأسي، فما النفع الذي يعود عليك من استعادة تلك المنطقة؟»

لمَّا التقى المدعو هيشا بسمو الأمير

التقى هيشيا [أحد مواطني دولة جاو] بالأمير جيانشين فقال له سموه: «لم يعد أوشينهو يسلك معي حسب الأصول وقواعد الآداب المُقررة؛ وكان قد حدث أن أرسلت دولة تشين إلينا (في دولة جاو) بأحد مبعوثيها للعمل في البلاط الملكي، فتدخلت وولَّيته وظيفة حكومية في مكتب مساعد رئيس الوزراء، ومنحته رتبةً اجتماعية شريفة (ضمن الألقاب الرسمية الخمسة)، لكن أوشينهو تجاوز حدود الأدب واللياقة في معاملتي.» فقال له هيشيا: «قد نظرت فرأيت التجار أحسن حالًا وأفضل كثيرًا من الرجال القائمين على شئون الحكم في أيامنا هذه.» فغضب جيانشين وثارت ثائرته ورد عليه بقوله: «أليس في قولك هذا ازدراء سافر لرجال الإدارة الحكومية وتمجيد واضح للتجار؟ [الذين لم يكونوا موضع احترام وتقدير في المجتمع الصيني القديم!]» فأجابه: «لم أقصد شيئًا من ذلك، وإنما أردتُ القول إن التاجر الذكي لا يجادل الناس كثيرًا في أثمان السلع، ولكن ينتظر الفرصة المناسبة في يقظةٍ واهتمام، فيشتري بالسعر الرخيص عندما تنخفِض الأسعار، فلا يأبه لأي زيادة في أثمان السلع؛ ثم يبيع وقت الغلاء، فيربح مما اشتراه رخيصًا. وقد أُودِع الملك أون، حاكم جو، فيما مضى من الزمان داخل سجن ذي كوة صغيرة (ينفُذ منها الضوء بالكاد)، بينما اعتقل الملك أو [تنطق كما في «المسئولية»] لدى الباب الشمالي بمدينة «تشنغاو» ثم استطاع

آخر المطاف أن يطيح برأس الملك [الطاغية] تشو [آخر ملوك آل شانغ] وعلق رأسه على صارية إحدى الرايات وكان ذلك — بحد ذاته — أهم إنجازات الملك أو.

وهكذا، فلست أوافقك على أن تناطح أوشينهو بما في قبضتك من السطوة والنفوذ، ثم تأخذ عليه قلة مراعاته للأصول والآداب واللياقة. فمن ثم أختلف معك كثيرًا ولا أوافقك فيما ذهبت إليه من آراء بهذا الصدد.»

لَمَّا تحدث المدعو «ويجيا» إلى الأمير

تحدث «ويجيا» [أحد الأشخاص ممن ليست لهم ترجمة ذاتية] إلى جيانشين، فقال له: «حدث أن رجلًا نصب فخًّا لاصطياد الوحوش، فوقع في الفخ أحد النمور وصار يضرب بمخالبه ويجذب الحبال للفكاك من الشَّرك الذي وقع فيه، (وإذ أصابته من جراء ذلك، الجروح في يديه وقدميه) فلم يكن يبغي لنفسه حصول تلك الإصابات الدامية، ولا كان يعنيه ما قد تتعرض له مخالبه الضئيلة من الكدمات ما دام يريد أن يُحرر جسده الكبير من الأَسْر؛ فعلى هذا المثال تأتي نتائج المُوازنات فيما هو نسبي بين المزايا والمساوئ.

وها أنت في بلدٍ هائل الحجم كبير المساحة، وليس مجرد جسدٍ لحيوان وحشي أو مخلوق عادي طوله «تشي أو بضعة تشي» [بضع بوصات] واعلم أن جسدك نفسه لا يزيد — في تقدير جلالة الملك — عن مجرد مخلب نمر (طوله بضعة سنتيمترات). فتأمل جيدًا وتدبر أمرك على هذا الأساس.»

لَمَّا قامت دولة تشين بالإغارة على جاو

قامت دولة تشين بالإغارة على جاو، وكانت أصوات الأجراس الرنانة تُسمع في جنبات القاعة الشمالية [محل إقامة رجال الدولة]، وهنالك تحدث «شيبي» [أحد مواطني دولة جاو] فقال: «ما كان لدولة تشين أن تقوم بهذه الغارة على هذا النحو من الاستعجال؛ فها هم الأذناب والعناصر الموالية لها يُعطون الإشارة السرية المُتفق عليها (لدعوة جنودها للتقدُّم داخل البلاد بواسطة صوت الأجراس المسموع بوضوح) وأكبر الظن أن هناك واحدًا من بين الوزراء، يُحبذ الانضمام إلى التحالف الأفقي، وإذا أراد جلالة الملك أن يعرف من هو ذلك الوزير، فليطلُب الاجتماع مع الوزراء في الغد، وسيكون أول من يقترح على جلالته الانضمام إلى التحالف الأفقي، هو ذلك «العنصر المدسوس» الذي قام بدق الأجراس.» فلمَّا

عُقد الاجتماع في صباح اليوم التالي، ظهر أن «جيانشين» كان هو المسئول الذي اقترح الدخول في التحالف المشار إليه.

لمَّا قصد المدعو شيابو إلى زيارة

قصد المدعو شياوبو، المواطن من دولة تشي إلى زيارة الملك شياوشين، حاكم جاو، الذي كان يؤثره جلالته ببالغ الود والمحبة، حتى إنه أقطعه أرض «طاي جونتاي»، فما كاد يقوم على ولاية هذه المنطقة بعضًا من الوقت، حتى ذهب إلى الملك من أبلغه بأن شياوبو يتآمر ضد البلاد، وكان الملك، وقت إبلاغه بهذا النبأ يجلس إلى مائدة الطعام، ثم إنه بعد أن أنصت جيدًا للخبر، وراح يواصل الأكل بنفس النهم، دون أن يبدو عليه أي أثر للانزعاج، وبعد هنيهة عاد الرجل المُبلِّغ ثانية واقترب من جلالته، فلم يُعِره أدنى اهتمام، وكان أن أرسل شياوبو، بعد ذلك، رسولًا إلى الملك، يقول له: «قد أرسلت دولة تشي قواتها لضرب يان وأخشى أن يكون ذلك الهجوم ستارًا لإخفاء الغرض الحقيقي المُتمثل في شن الغارة المفاجئة ضد دولة جاو؛ لذلك أقترح تجهيز حملة عسكرية وإعداد العدة للاشتباك في عمليات مضادة، هذا من جانب، أما من جانب آخر فما دامت الدولتان تشي ويان قد اشتبكتا في عدوان مُتبادل، فأرجو أن ننتهز الفرصة لإعداد قوات أقوم أنا بقيادتها، ثم أكمن في انتظار الطرف الذي أنهكه القتال (فأُقاتله) وأحصل على مزيد من الأراضي.»

ومنذ ذلك الحين صارت كل «العناصر الخارجية» المجندة في خدمة الملك شياوتشن (خارج حدود البلاد) لا يساورها أدنى شك في ثقة الملك بها.

سجل جاو الرابع

لمَّا جاء إلى ملك جاو من رفع إليه مذكرة

قدِم على الملك «هوين»، حاكم جاو، من رفع إليه مذكرة رسمية باسم دولة تشي، وقال لجلالته: «كم تمنَّيت أن ألتقي بجلالتك ولو مرة واحدة كي أعرض عليكم خطة تستطيعون بها أن تُخضعوا لنفوذكم كل الممالك التي تحت السماء، وأنتم جالسون مكانكم حيث يبذل لكم الجميع الاحترام والتبجيل، ويأتونكم بأسمى دلائل العرفان وأفخم مواكب الولاء والإكبار، لكني أندهش إذ أقف ببابك دون أن تمنحني فرصة اللقاء بك فتدعني في أرذل وأسوأ حال. ولربما وقع في ظن السادة الوزراء أني لستُ بالرجل الذي يقدِر على الإتيان بإنجازٍ ذي شأن؛ مما قد يضع العراقيل في طريق لقائي بك وقد يكون السبب فيما ظنُّوه بي من عجز عن القيام بالمهام الجِسام راجعًا إلى رغبتهم في (الاستئثار بجلالتك دون أي مُساعدين آخرين قد تدفعهم الظروف إلى جانبك ...) لما قد عقدوا عليه العزم من استخدام نفوذك وهيبتك وقدراتك العسكرية لتنفيذ مآربهم، فإن لم يكن هذا هو السبب، فلربما كان هناك ما يُعوِّلون على اللجوء إليه من الأطراف الخارجية (في قضاء مصالحهم) فإن لم يكن هذا هو السبب الحقيقي، فقد يكون حظهم من الذكاء والنجابة دون المطلوب. أما إن لم يكن ذلك هو المُبرر المعقول، فربما وطَّدوا نفوسهم على تصوير أحوال الممالك وشئون الدنيا من حولك في هيئة تملأ جوانحك رُعبًا، وتُثير في قلبك القلق والهواجس والمخاوف، بما من رؤاهم ووجهات نظرهم الملجأ الحصين والسياسة الأجدر بالتنفيذ. وأُقدِّم نفسي لسيادتكم كمواطن من دولة تشي، وباسمِها، أعلن لكم ولائي وطاعتي لجلالتكم، وإذ أضع خدماتي

تحت تصرُّفكم بما يُمكِّنكم من دحر دولة يان، ثم التغلُّب على دولتي هان، ووي، والهجوم، بعد ذلك، على دولة تشين بحيث يتم محاصرتها وعزلها عن باقي الممالك. واسمح لي أن أُعبر لجلالتكم، باسم دولة تشي، عن أسمى آيات الاحترام والتعظيم لشخصكم الكريم، تقديرًا وإكبارًا واجبًا على شخصي، وعلى الممالك كافة، ولا أبالغ إذا قلت إن طاعتكم والخضوع لكم واجب يليق بكل إنسانٍ كائنًا من كان، وأنتهز هذه المناسبة، كي أهديكم قطعةً من الأرض باسم دولة تشي، ولا أدري إن كان هناك فوق الأرض من يبخل بما يملِكه من إقطاع على جلالتكم، بل لا أتصور البتة أن يبخل عليكم ملك بما ملك! وباسم دولة تشي آتيك من دولة يان وهان ووي بأمارات التمجيد العالي الشريف لمقامك الكريم فمن ذا يجسر على الرفض أو الإعراض؟

وإذ أذكر طرفًا مما أقدر عليه، فهذه لحظة مناسبة أتشرف فيها بتبيان وجه الاقتدار، ومجال الاستطاعة والمقدرة.

واذكر أن دولة تشي، إذ تبدأ الأمر كله بإبراز الاحترام لشخصك؛ فلا بد من أن باقي الممالك ستحذو حذوها في هذا السبيل، واعلم يا مولاي أن دولة تشي إذا أشاحت بوجه التبجيل عنك، فلن تجد من باقي الممالك إلا الإهمال والازدراء الشائن.

ولئن كانت دولة تشين، مع ما تملكه من القوة وما تتمتع به من النفوذ، تبذل لجلالتك الاحترام التقليدي، فهي تصدر في ذلك عن تقدير من لا يجد الدعم والمؤازرة من دولة تشي. وكذلك فإن دولتي وي، ويان تنظران نحوك بعين الاهتمام؛ لأنهما تعتبران نفسيهما محرومتَين من دعم ومساندة دولة تشي. وأظن أنك أنت أيضًا، يا مولاي، ستجد نفسك مضطرًّا إلى التودُّد إلى الممالك والدويلات إذا لم تجد المساندة التامَّة من دولة تشي. ولهذا فإن الذين ينصحون لك بالاستغناء عن طلب العون من دولة تشي ليسوا من الحمقى أو الأغبياء وإنما هم الذين لا يحملون لك أدنى قدرٍ من الإخلاص، فإن لم يكونوا كذلك، فربما كانوا يُخططون لاستخدام نفوذك وجيشك القوي لتحقيق مآربهم، فإذا لم يكن الأمر على هذا النحو، فعساهم دبَّروا أمرهم بحيث تسير الأحداث العامة في مسارٍ يؤدي مع الوقت إلى استهانة الناس بقدرك، والتقليل من شأنك، وهو ما يفرض عليك الأخذ بوجهة نظرهم وتطبيق أفكارهم وإذا لم يكن هذا صحيحًا، فربما كان السبب الأصلي أن مكانتهم ليست على المستوى المطلوب، ومن ثم، فأرجو — جلالة الملك — تأمُّل الأمور بدقة، وتقدير الوزن المهم للعون الذي يمكن أن يحصل عليه من دولة تشي باستقامة تامة.»

لَمَّا استعدت دولة تشي لضرب سونغ

لَمَّا أخذت دولة تشي أهبة الاستعداد لضرب دولة سونغ، أسرعت تشين فأوفدت «تشيجيا» [مراقب عام السجلات، وظيفة مُستحدثة في عهد الدول المتحاربة، القائم بها يمتُّ غالبًا بصِلة قرابة للملك] لمنع تفاقم الموقف، فقامت تشي بالتحالف مع دولة جاو للتنسيق معًا في الهجوم على سونغ، فثار الملك تشاو، حاكم تشين وحمِيَ غضبه، وانعقدت بينَه وبين جاو سحابات الكراهية. ثم إن «لي توي» قام بالانضمام إلى الدول الخمس، للاشتراك معها في ضرب دولة تشين، لكنه لم يُفلح في إنجاز غرضه، وحث قوات الدول المُتحالفة على البقاء في منطقة تشنقاو، بينما تواطأ، سرًّا مع دولة تشين (على أمرٍ في طي الخفاء) وكان يفكر في ضرب دولة وي، بالاشتراك مع دولة تشين، وهي الطريقة التي رآها مناسبة (من وجهة نظره) لإزاحة الكراهية المُترسِّبة في أعماق تشين، ولتحقيق نواياه في الحصول على إقطاع وافر من أراضي دولة تشي.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وهنالك اشتعل أوار الغضب في قلب ملك وي، وتملَّك منه الغيظ للغاية، وتصادف في تلك الآونة أن ذهب سوتشين إلى دولة تشي، والتقى بحاكمها، وقال له: «كنت قد تحدثت مع ملك وي بشأنك يا مولاي، فقلت له: «إن الدول الثلاث وي، وجاو، وهان، قد كابدت الشقاء والمِحَن على يد دولة تشين، ومن ثم، فإن الهجوم على هذه الدولة الآن بمثابة طوق نجاة لدولة جاو، التي لن يعود لها، على ظهر الأرض، بقاء إذا ما هاجمتها الدول الخمس، ثم إن رجلًا (غير عادي) مثل «لي توي» لن يجد على الطرقات إلا الموت إذا ما طردته تشين من أراضيها، ولذلك فإن ضرب تشين الآن، يُعَد إنقاذًا لذلك المسكين من السير في دروب المهالك. وها هي ذي جاو، الآن تستحث قوات التحالف على البقاء في تشنقاو، بينما تتواطأ في السرِّ لتوقِع بها في براثن دولة تشين، بل إنها أنجزت كل الترتيبات المُتعلقة بهذا الشأن، وقد دفع لي توي بدولة تشين إلى معترك الحرب مع وي لتحقيق مآربه الذاتية في الاستيلاء على أراضي الإقطاع بها، فما الذي جنيتَه أنت يا مولاي بعد طول خدمتك لدولة جاو؟

وفوق ذلك كله، فقد كنتَ يا مولاي الذي عبر نهر جانغ، ثم ذهبت بنفسك إلى هاندان والتقيتَ هناك بحاكم جاو، وبسطتَ شراع حمايتك فوق منطقتي «إيين»، و«تشن» من أراضي «وي»، وحملت فوق عاتقك مسئولية الدفاع عن دولة «ڤا» [تنطق كما في «ڤارون»]

ومنطقة شيوي، وكنت تقوم كالطود الذي يدفع عن دولة جاو غائلة العدوان، فما الذي فعلته جاو من أجلك؟ ليس هذا فقط، بل إنك تفضلت فتكرمت على ولد «ليتوي» فأقطعته أرض «خيانغ» و«كومي»، وها هو ذا «ليتوي» نفسه يرد لك الجميل إذ يستحث دولة تشين على مهاجمتك للاستيلاء على منطقة «إيندي.»

والرجال تُمتحن بالتجربة، ولا يعرف ما للمرء من فضلٍ وكياسة إلا بمقارنته بأقرانه. وما ظنك لو أنفقتَ نصف ما تساعد به جاو في التحالف مع تشي، أليس هذا أفضل كثيرًا، بل يُجنبك مخاطر التآمُر ضدك؟! وأؤكد لك بأنه لن يضيرك شيء من العمل لمصلحة تشي وعلى الأقل لن تلقى مثل ما تجد مع الآخرين من العقوق والمهانة، ولن يُهدَر مالك أو تضيع أرضك سُدى. ولن تتأخر تشي عن أن تُعبئ قواتها بكامل عتادها في وجه كل من جاو، ويان (من أجل التحالف معك) وتنشر قواتها على نطاق يتجاوز ألفي لي مع مراعاة أن العمليات التي تستهدف الإغارة على المدن، ينجم عنها تعريض بلادك لمخاطر وصول بعض السهام المُتناثرة والحجارة المتطايرة إليها وسوف تتنازل لك (دولة تشي) عن إحدى المدينتَين اللتَين تستولي عليهما، وهي مدينة «خدونغ». بحيث لو فكرت دولة تشين، منذ تلك اللحظة، في ضرب دولة وي، فستكون قوات تشي قريبةً من حدودك باستمرار. وبالمناسبة، فهل لي أن أسألك يا مولاي عما ستُكافئ به تشي عن خدماتها لك؟

(أما علمت) بأن «هانون» [رئيس وزراء تشي السابق. وأحد الداعِين إلى التقارب مع تشين] يُقيم الآن في جاو، وهي تبعد بمسافة ثلاثة آلاف «لي» عن دولة تشي؟ (فإذا كنت تظن أن ثمة) ما يُثير الشك في موقف تشي، أو (ربما ما قد يقوم في ظنِّك من احتمال وجود تآمُر بين تشي ودولة تشين) فلا تدعنَّ مثل هذا الظن يتطرَّق إلى وجدانك.

وإني إذ أتطلع إلى أحوالك اليوم، أجدك قد اتخذت شوكون رئيسًا للوزراء وأقمت علاقات ودِّية حميمة مع هانشيو [قائد عسكري بدولة جاو، وكان قد عقد خطة سرية مع شوكون المذكور آنفًا، لضرب تشي] وعاملت «يوشانغ» بكل الود والاحترام والتبجيل، وجعلت منه ضيفًا مُقيمًا من الدرجة الأولى، فهل من المعقول أن يثور لدى جلالتك الشك في موقف دولة تشي؟»

فلمَّا سمع ملك وي ما قصصته عليه وحدثته به بَدَا عليه أنه أُفحِم، فلم ينطق بشيء، وإني لعلى ثقةٍ بأني لو طلبت إليه أن يبذل لجلالتك الطاعة والاحترام لما تردَّد لحظة واحدة، ولا يخفى تمامًا أن ملك وي حانق على دولة جاو، وكل ما أرجوه من جلالتك أن تضبط نفسك، وتكظم غيظك، كلما ترامى إلى سمعك شيء عن تصرفات دولة وي غير

الودية نحوك، كما أرجو أن تأذن لي أن أعمل على تحويل ضغائن دولة وي لترتد إلى نحر دولة جاو، على أن تبدي جلالتك الاحترام والتقدير إلى دولة جاو على نحوٍ خفي غير مُعلن فيتعذَّر على دولة تشين اكتشاف تقديرك البالغ لـ جاو؛ لأنها لو اكتشفت ذلك فستعمل من جانبها أيضًا على تقدير واحترام مكانة ودور جاو.

(ومن المُقرر) أن دولتي تشي وتشين كلتيهما تبذلان الاحترام والتقدير لدولة جاو، مما أعرف مقدمًا، أنه سيفرض على كل من: يان، ووي، وهان، إبراز أسمى علامات التقدير والاحترام لها بل سيردها جميعًا عن محاولة منازلتها وإذ تتبع الدول الخمس إرادة جاو، وتعمل على التودُّد إليها، فلا بد أن هذه الدولة ستقود حليفاتها (من دول المحور الرأسي) للتحالُف مع دولة تشين، وهو ما سيمنحها مكانةً أسمى وأسبق لمكانة تشي؛ لذلك فقد فكرتُ في أن أدعوك إلى استخدام قوة الدويلات في تهديد الأمراء والإمارات المختلفة، على أن تلجأ إلى إقناع قيادات الدويلات واستمالتهم بالدهاء والحيلة وسحر الكلمات وفنون الأقاويل بحيث تتمكن من استخدام قوات جاو لتهديد كلٍّ من: وي، وهان ولك — حينئذٍ — أن تبعث بي إليهم لأقنعهم بالمنطق والحجة والبلاغة الساحرة، كما تستطيع أن تعمل على استخدام قوات جاو، وهان، ووي لتهديد تشين، ثم ترسل رئيس وزرائك «شوين تسي» إلى تشين لتعمل على إقناعها بما تُخطط له، في حين تقوم بتعبئة قوات الإمارات والدويلات المُختلفة لتهديد دولة تشو؛ لكن على أن تبعث إليها فورًا «هانون» ليحاول استمالتها بفنون القول والدعاية؛ وهكذا تعمل الدويلات جميعًا على كبح جماح دولة تشين، بينما تقوم كلها على خدمة أهدافك ومصالحك وهى تدين بالخضوع والطاعة لك، دون أن تجرؤ على التآمُر مع بعضها البعض في طيِّ الخفاء وبعد أن تتوطَّد العلاقات البينية مع الجميع تستطيع جلالتك أن تختار أو أن تنبذ (من بين البدائل المطروحة) كما يروق لك.»

لمَّا أعدت العدة لغزو سونغ

أعدت دولة تشي العدة لضرب سونغ، غير أن دولة تشين تدخلت، سرًّا، فحالت دون وقوع هذا الهجوم؛ وهو الأمر الذي دفع تشي إلى التحالف مع جاو التي رفضت الإذعان إلى طلبها، فسارعت تشي بإرسال سوتشين ليعمل على إقناع «لي توي» بالقيام، معًا، بمهاجمة سونغ على أن يتم البت في الإقطاع الذي سيُهدَى إلى ليتوي، بعد الانتهاء من المشروع المشترك بين الدولتَين.

وتكلم سوتشين مع الملك «مين» حاكم تشي، فقال له: «إن السبب الذي يجعلني متمسكًا باستخدام قوات الدول الثلاث لمهاجمة تشين لا يرتبط بمصلحة تشي في تدمير تشين وإنما يتعلق — أساسًا — بما يُراد به تسهيل الهجوم على سونغ.

ثم إن القصر الحاكم في سونغ قام بتسليم السلطة إلى الأمير الجديد خلفًا على العرش، وكنت لَّما اقتربت من القيادة الجديدة (لاحظتُ ما اضطرَّني إلى الدعوة إلى) تقوية الدفاع؛ ومن ثم فإني أرجو منك سرعة سحب القوات داخل البلاد لتخفيف العبء عن الجنود والأهالي، والعمل على إراحتهم والتقاط أنفاسهم.

ثم فوجئنا الآن، بخبر وفاة أمير دولة سونغ، ويبدو أن كل من كانوا يُصادفونه، مُستعدون لملاقاة الموت في ساحة القتال، فإذا ما قُمنا بمهاجمتهم مرة ثانية، فسوف تدبُّ الفوضى في أنحاء دولة سونغ، خصوصًا أن أمير البلاد موجود بالخارج في اللحظة الراهنة، فهذه فرصة مواتية لاحتلال أرض سونغ.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

«وقد ذهبت في محاولة لدعوة «فن يانجون» (للعمل بما أعرضه عليه من خطط) بما يعود بالنفع على البلاد. وقد قلت له: «قد طال بك العمر، وبلغت من السن عتيًّا، وقد حان الوقت لكي تحصل على مكافأتك من إقطاع الأرض، وبهذه المناسبة، فليس على الأرض جميعًا أفضل من أن يكون إقطاعك في أرض سونغ.

إن أرض تشين ليست لك؛ لأن أهل تشين مشهورون بالجشع والطمع لما في أيدي الغير، أما أراضي وي، وهان فتكاد تتلاصق مع أرض تشين، وهو ما يجعلها غير آمنة لإقامتك؛ فإذا تأمَّلنا أرض كل من يان وتشو، وجدناهما بعيدتَين جدًّا، نائيتَين عن العمران، وأسوأ منها جميعًا أرض دولة جونشان المُجدبة القاحلة؛ وهكذا فليس هناك أفضل ولا أنسب من أرض «طاو» فهي فرصتك التي إذا خسرتها، فلن يعوضك عنها شيء.

إن دولة سونغ مثقلة بالآثام، بالدرجة التي تجعل مشاعر تشي ضدها مشحونة بالبغضاء والاستفزاز، ومن ثم فإن هجومك على سونغ وأن تعيث فيها تحطيمًا وتدميرًا، سيجعل تشي مُمتنَّة لك عظيم الامتنان، وبالتالي فإن فرصة قيامك بتحديد ما تُريده من إقطاع لنفسك على النحو الذي تُقرره بمُطلق إرادتك، فرصة لا تتكرَّر في العمر كثيرًا».»

ولأن «فن يانجون» يتَّسم بالجشع المُفرط، فلم يكن يتوانى عن التنسيق مع دولة تشي لضرب سونغ، على الرغم مما تحت يدَيه من إقطاعات هائلة. وأرجو منك أن تُبادر

بشجاعة إلى مهاجمة سونغ، دون انتظار بدء تحركات قواتها، لعلك تُلاحظ الطريقة التي سيتصرف بها «فن يانجون» تجاهك، ولك أن تلجأ في ذلك إلى أسلوب التلويح له بإقطاعه أرض «طاودي» بحيث تجعل القوات تسير بمحاذاة حدود دولة يان، ثم تقوم بإجبار دولة جاو (على التحرك معك) وسأتظاهر من ناحيتي، بالاستعداد التام لتسليمه الإقطاع المُتفق عليه بكل نزاهة وإخلاص، وهكذا تسير الأمور في طريق النجاح والسداد بكل تأكيد، وفي تلك الأثناء، فإني أرجو منك أيضًا أن تتفضل بالتكرُّم على «رانغان جون» [أحد مواطني جاو ممن لا تتوافر لهم سيرة شخصية] بإقطاع من الأراضي، للعمل على دعم فرص نجاح الخطة الموضوعة، وبالطبع فسيتيسر لك ضرب سونغ، (مقابل دفع قطعتَين اثنتَين من الأرض فقط!) فهل يمكن أن تبخل بذلك؟ أما إذا لم تفلح في احتلال سونغ فهل تجسر كل من دولتي يان وجاو على التطلُّع إلى آمال خيالية فضفاضة أنك بهاتَين القطعتَين من الأرض تدعم رصيدي في التحرك بمحاذاة دولة يان على رأس القوات، بحيث أراقب عن كثب، تطورات الأحوال في جاو، بينما تقوم أنت بهدم دولة سونغ على عروشها الخاوية أصلًا، وتُقرر بإرادتك مصير الممالك التي تحت السماء؟»

لمَّا قامت الدول الخمس بمهاجمة تشين

لم تستطع الدول الخمس إحراز النجاح المأمول في مهاجمة ودحر دولة تشين، ومن ثم فقد أوقفت عملياتها القتالية في منطقة تشنقاو. وأرادت جاو عقد المصالحة مع تشين، وبَدَا على كلٍّ من وي، وتشو، وهان الاستجابة لتحرُّكات جاو. لم تشذ عنهم جميعًا سوى دولة تشي التي رأت لنفسها رأيًا آخر. وكان أن تحدث سوتشين في هذا الموضوع مع الملك مين، حاكم تشي، فقال له: «قمتُ بمقابلة فن يانجون، وكلَّمته فيما يعود عليك بالنفع قائلًا: «قد تشعَّث أمر الدويلات ودبَّت الفرقة بينهم فخضعوا بالإذعان لدولة تشين التي لن تتوانى عن احتلال سونغ ولا بد أن ويرانغ سينقم عليك حصولك على أرض «طاو»، وهكذا فسيصعب الحصول على «طاو» وسط أجواء مفعمة بجشع تشين وأحقاد ويرانغ. وإذا لم تقم بالمصالحة مع تشين، فسوف تقوم تشي بمهاجمة سونغ، وعندئذٍ، فلا بد أن دولة تشو ستشارك في الهجوم على سونغ أيضًا. بينما تقوم يان وجاو بتقديم الدعم المطلوب للهجوم. وإذ تقترب قوات الدول الخمس من سونغ وتوشك على احتلالها، فسيُصبح من المؤكد الحصول على منطقة «طاوي» في غضون شهر أو اثنَين. فإذا ما تمت المصالحة مع تشين بعد الحصول على أرض «طاو»، فلن يكون هناك ما يُثير قلقك مهما تبدَّل موقف

تشين، أما إذا تيسر لك الحصول عليها وقت التصالُح مع تشين، فلا بد أن تحرص الدول الخمس على توثيق تحالُفها وتوطيد علاقاتها، فإذا أرادت هذه الخمس التحالُف مع جاو، فسيتحتم عليك أن تبذل كل جهد، وتُبدي كل عزم في العمل على الاتجاه شرقًا — بصحبة دولة هان — لإقناع ملك تشي بالتنسيق معكم لإقامة التحالُف الرأسي وهو ما سيفرض على تشي التغاضي عن استعادة «هانون» وإهمال شأنه تمامًا، وإذا ظهرت أي محاولة للتآمُر على التحالف القائم بين الدول، فستقوم قيادة قوات الدول الأربع بالقبض على المتآمِرين وضرب ومهاجمة الطرف المتآمر (على الميثاق المنعقِد بين الأطراف) فإذا حاولت تشين ضرب هذا التحالُف دون وجود أي محاولةٍ للخيانة، من داخله، فسينبغي على الدول الخمس العمل على إقصاء تلك الدولة وتوطيد علاقتها بالتحالف.

ثم إن مشاعر الشك تنتاب الدول الثلاث: هان ووي وتشي، وتعتمل في صدورها جميعًا إزاء بعضها البعض؛ فإذا ما عُقدت المصالحة مع تشين دون تحديد التزاماتها وثقتها في التحالف القائم بينها، فأخشى أن ينهار التحالف دفعة واحدة.

وساعتئذٍ، فلن يصعب قيام التحالف بين تشين وتشي، ولن يخلو الأمر من بعض الخلل في ميزان الأهمية والقوة بينهما، ومع ذلك ومهما كان مقدار ذلك الميل في كفة إحداهما دون الأخرى، فلن يختلف حجم الضرر الذي يمكن أن يصيب دولة جاو من جراء عودة التحالف بينهما، أضف إلى هذا أن الانقسام الذي سيتخلَّل صفوف الدول وسعيها جميعًا لإرضاء تشين، سيُطلق يد هذه الأخيرة في التحكم والسيطرة على الممالك كافة، فأي سياسة تُجدي في حكم الممالك، إذا ما وقع هذا الأمر؟ وبناء على ذلك كله، فأرجو أن تتَّخذ الاحتياطات اللازمة قبل فوات الأوان».

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وإذا ما تسابقت الدويلات إلى أرضاء تشين والعمل على خدمتها، فسيكون لدى تشين ست طرق مختلفة للتصرُّف حيال ذلك الأمر وكلها ليست في صالح جاو.

ذلك أنه إذا ما جاهدت الدول للعمل على إرضاء تشين، فسوف يقبل حاكمها (بعودة) تشي المطلَّة على شواطئ البحار الكبرى، وسيعيد علاقاته بالدول المارقة عن تشين في الماضي، ليقترب بقواته من المنطقة الوسطى، مُتطلعًا إلى ما يمكن أن يعود عليه من مزايا اقترابه من دولة وي (... سانجين) فهذه طريقة من بين الطرق.

فإذا كانت خطة تشين على هذا النحو، ضارة بدولة جاو، دون أن تتمكن أنت، في نهاية المطاف من الحصول على منطقة «طاودي»، فستكون تلك إحدى نتائج واحدٍ من التحركات التي يمكن أن تسلكها تشين.

وإذ تسعى الدول لإرضاء عرش تشين، فقد يقبل ملكها أن يعود إليه هانون من محل إقامته بدولة تشي، ويقبل بعودة يانجون من دولة هان، ثم يعمل على تنصيب «ويهواي» رئيسًا لوزراء دولة وي، ويعمل على استعادة أقطاب العلاقة بمحور التحالف الأفقي (مثل «وانغ بن»، و«هانطا»، حيث يعودون ليباشروا مسئولياتهم وأدوارهم في سياسات التحالف الأفقي، فتلك طريقة أخرى يستطيع الملك أن يلجأ إليها متى أراد.

هذا، وقد يبادر الملك إلى تلك الخطة التي تمثل ضررًا مُحتملًا ومخاطر فادحة على مصالح جاو، في حين تعجز أنت عن الحصول على أرض طاودي، فتكون تلك إحدى النتائج الناجمة عن لجوء تشين للطريقة الثانية كما حدثتك آنفًا.

أقول لك إذا تسابقت الدويلات إلى إرضاء تشين، فربما لجأ ملكها إلى القبول بالتحالف مع كلٍّ من تشي وجاو، فإذا تشكلت من الدول الثلاث كتلة متقاربة استطاعت أن تقود جيشًا إلى «وي» سعيًا للسيطرة على عاصمتها «آني»، فستكون تلك طريقة أخرى يمكن أن تلجأ إليها تشين وهي الخطوة التي قد ينجم عنها إذعان تشي وجاو (لإرادة تشين) وربما تُسارع وي إلى التنازل عن العاصمة آني قبل بدء الهجوم مما يزيد قدرة وطاقة تشين؛ وإذ تحصل تشين على أرض آني وتجني من خصبها ووفرة غلَّتها الشيء الكبير، وتتوطَّد عُرى الصداقة بينها وبين وي، فلا بد أن دولة هان ستسعى إلى بلاط تشين إذعانًا وتسليمًا، ومن ثم تعمد تشين إلى استغلال آني في تجهيز جيوشها لتدفعها صوب دولة جاو، فهذا أيضًا واحد من احتمالات التحرك المُمكنة في يد تشين، فإذا ما سارت على هدى هذه الخطة، وأحاطت المخاطر بدولة جاو، وفي هذه الحالة، فلن تستطيع أيضًا الحصول على منطقة طاودي، وبالطبع، فهنا تكمن إحدى النتائج المترتبة على الطريقة الثالثة التي يمكن أن تلجأ تشين إلى التخطيط لها.

إن تشين، وقد قصدت بابها الدول سعيًا لإرضائها وخدمة مصالحها تستطيع أن تقوم بتوطيد علاقاتها مع دولتي يان، وجاو، فتقوم على رأس الجيوش لمهاجمة تشي ثم تتحالف مع تشو، ومن ناحيةٍ ثانية، فيمكن أن تتحالف مع هان لغزو دولة وي، وهذه خطة مُحتملة كذلك، يمكن لـ تشين بمُقتضاها أن تُخضِع لنفوذها دولتي يان وجاو. وإذ تقوم هاتان الدولتان معًا بمهاجمة تشي، تسارع تشين بضرب وي، بناءً على تحالُفها مع

تشو ثم لا يكاد ينقضي شهر أو اثنان حتى تصير دولة وي إلى العدم تحت جحافل الهجوم الذي تشنُّه عليها تشين، حيث ستبادر إلى احتلال العاصمة آني، ثم تقوم بإغلاق منطقة نيوجي [على الحدود بين هان، ووي، وطريق مُهم بين هان وجيرانها] وهو ما سيؤدي إلى إغلاق الطريق الذي يصِل بين هان وإقليم «تايشين» ويمكن لجيش تشين أن يواصل تقدُّمه بحذاء منطقتي «جيطاو» و«نانيان» فيهاجم دولة وي، ويقطع على هان طرق الاتصال مع الدنيا بأسرِها ويُحاصر جو الشرقية والغربية مما يعني حدوث انهيار داخلي لدولة جاو، وإذ تتصدَّع أركان دولة جاو تحت حصار تشين، فستسارع دولة تشي إلى الاستيلاء على جيشها وتمزيقه شر مُمزَّق، وهو ما يعني الخراب الهائل لدولة جاو، ووسط هذه الظروف، فلن يمكنك أبدًا الحصول على أرض طاودي وهذه هي الخطة الرابعة التي يمكن أن تُفكر فيها تشين.

عندما تسعى الدول بين يدي تشين إرضاءً لسياساتها وخدمة لمصالحها، فستسارع هي إلى تقوية علاقاتها مع «سانجين» [الاسم القديم لدولة وي] ثم القيام بعد ذلك، بمهاجمة تشي، وعندئذٍ تتهالك دولة جاو وتشرف على الضياع، إذ تكون خزائنها قد فنِيَت عن آخرها، بينما يكون جيشها قد تفتَّت على يد تشي، وهنالك تدخل تشين ظافرة إلى وي فتستولي على عاصمتها آني؛ فهذه أيضًا طريقة من بين الطرق التي يمكن أن تسلك بها دولة تشين، فتضطرُّك الظروف إلى مساندة دولة وي وهذا معناه أنك ستكون مُضطرًّا إلى استخدام قواتك التي أنهكها القتال ضد تشي، أقول: إنك ستُضطر إلى استخدام قواتك المُتهالكة؛ لأنك ما لم تؤازِر دولة وي في مِحنتها، فكيف تضمن عدم لجوء كلٍّ من وي وهان صوب الغرب للتحالُف مع تشين؟ وعندما تفرض تشين خُططها ووسائلها، فلن يمكنك، مدى حياتك، الحصول على أرض «طاودي»، وستكون هذه هي النتيجة المُترتبة على الخطة الخامسة التي قد تنتجها تشين.

وبعد، فما إن تجد تشين كل الدويلات التي تحت السماء تحتشد جميعًا للعمل على إرضائها وخدمة مصالحها، فلربما تنهج سياسة قائمة على البر والعدل والحكم الرشيد، فتمنح الدول التي أوشكت على الانهيار فرصة مُجددة للبقاء والازدهار، وتعطي الدويلات المُتهافتة المُتردِّية الأحوال، ما تحتاجه من الدعم والمساندة، وتشيع أجواء من الاستقرار والاطمئنان لدى الملوك والقادة الذين لم يرتكبوا خطأً ولاجناية، ولا بد وقتئذٍ، أنها ستعمل على إحياء دولة جونشان وتنغ، وهو ما يعني ارتباط دولتي سونغ وجاو بمصيرٍ مشترك وقدر متكافئ من التلاحم في القضايا كافة، فأين، ومتى، تجد الوقت والمناسبة للحديث ساعتئذٍ، عن مطالبك في أرض طاودي؟!

هذه هي النتيجة التي ستتمخَّض عنها الظروف عقب اختيار تشين للعمل بالطريقة السادسة المُمكنة والمُحتملة؛ لذلك كله، فلا ينبغي لك عقد مصالحة مع دولة تشين فتلك هي الطريقة التي تُمكنك من الحصول على إقليم طاودي بكل تأكيد.»

وهنالك استحسن فن يانجون منطقه وكلامه ووافقه على رأيه، وتراجع عن فكرة التصالح مع دولة تشين ثم إنه قام بالتحالف مع وي وتشي، وقام معهما على رأس جيش مُهاجم فاستولى على أرض طاودى.»

لَمَّا قام لوهوان ليودِّع الملك قبل السفر

لَمَّا أوشك لوهوان على السفر في بعثته الخارجية، تكلم مع الملك هوين، حاكم جاو، مودِّعًا إياه قبيل سفره قائلًا: «على الرغم من كل ما بذلتُه من جهد مضنٍ، وما أرهقتُ به ذهني من الأفكار، فلن يتسنَّى لي مقابلة جلالتك، حتى لو هلك عمرى فلن ترى جثتى، حتى بعد مماتي.» فاندهش الملك هوين، وسأله: «ما معنى كلامك هذا، إن الأمر لا يزيد عن مجرد كتابة بضع مُراسلات مع تكليفك بتأدية الأمر المنوط بك مصحوبًا بالثقة والآمال المعقودة بنجاحك.» فرد عليه لوهوان قائلًا: «ألم تعرف بما حلَّ بالنبيل «تسيموي» في دولة سونغ؟ لقد قيل إنه رفض أن يتناول طعامًا يخلو من اللحم [كعادة النبلاء والأثرياء، قديمًا] مما استثار بعض أهالي دولة سونغ ضده، حتى نبذه ملك سونغ (وأهمل شأنه بالكلية) وقد علمت أن موقف ملك سونغ، هذا، من القون المذكور، يُعد أفضل كثيرًا مما بيني وبين جلالتك، بل إن من يكرهونني وينبذونني من الناس أكثر ممن استثارهم تصرف القون فهجروه، فلذلك لا أظن أن تجمعني الظروف بك مرة ثانية، ولا حتى بعد الموت نفسه.» فقال له الملك هوين: «فامض إذن إلى عملك بجدٍّ وعزم، واعلم أن بيني وبينك العهد والميثاق والقسم.» ثم انطلق لواهوان في مهمته الموفد لأجلها، وحدث أنه لما بلغ منطقة «جونمو» [من أرض دولة جاو] امتنع بها وأعلن العصيان على الملك، ثم سار حتى دخل دولة وي، وأسرع رجال الاستخبارات فأبلغوا ملك جاو بتقارير ذات صلة بذلك المسئول، إلا أن جلالته لم يُنصت إليهم، قائلًا: إنما عقدت مع الرجل عهدًا وميثاقًا.

لَمَّا تكلم يوتشين إلى ملك جاو

تحدث يوتشين إلى ملك جاو، فقال له: «هل الطبع الإنساني الذي جُبل عليه البشر يدفع الناس للسعي إليك، أم يدفعك أنت للسعي إلى لقائهم؟» فأجابه الملك: «جرت العادة بأن

يتوقع المرء أن يأتي الناس لزيارته، فما الذي يدعوك للسعي إليهم؟» فردَّ عليه يوتشين بقوله: «هذه دولة وي تتزعم التحالف الرأسي، بينما يعمل «فان تزو» [رئيس وزراء وي السابق] على إنجاح هذه السياسة بكل ما لديه من جهد، وتستطيع، يا مولاي، أن تقوم بإهداء دولة وي قطعة أرض مساحتها مائة لي مربع أو مدينة عامرة بالسكان (مقابل) أن تقوم بالتخلص من «فان تزو»، بتصفيته جسديًّا، بحيث ينفسح الطريق أمام دولة جاو لتتزعم حركة التحالف الأفقي.» وهكذا اقتنع الملك بكلامه وصدَّق عليه، ثم أرسل بالفعل من يتولَّى تسليم دولة وي ما مساحته مائة لي مربع من الأراضي (بشرط) أن تقوم باغتيال «فان تزو»، (فلما علم ملك وي) وافق على ذلك الشرط، وأرسل من يقوم بالقبض عليه، لكنه لم يقتُله.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

فلمَّا مثل فان تزو أمام ملك وي، قدم له وثيقة رسمية مكتوبة، قائلًا له: «قد بلغني، يا مولاي، أن ملك جاو أراد أن يهديك أرضًا تبلغ مائة لي مربع مقابل التخلص مني، وأحسب أن التخلُّص من امرئ بريء مسألة بسيطة، تهون كثيرًا عندما يتعلق الأمر بالحصول على أرضٍ هائلة المساحة، حيث المَغنم كبير، والفائدة أعظم قدرًا، اسمح لي بأن أهمس في أذنَيك، فيما بيني وبينك بامتداح هذا المسلك، وعلى الرغم من ذلك، فهناك مسألة مهمة، وهي أن الأرض التي مساحتها مائة لي مربع، لن يتيسر لجلالتك الحصول عليها بأي حال من الأحوال، بينما أن الميت الذي فارق الدنيا لن يُبعث حيًّا مرة أخرى، وهو ما سيجعلك، يا سيدي، عرضة للاستهزاء والسخرية بين الممالك، وإذا كان لي أن أعرض عليك رأيًّا آخر فيما بيني وبينك، فإن الصفقة التي تعقدها مقابل رأس رجل حي أفضل كثيرًا من صفقة ثمنها رأس رجل ميت.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

ثم إن فان تزو حرر خطابًا إلى الوزير الذي خلفه في رئاسة الوزراء المدعو شين لينجون قال له فيه: «إن دولتي جاو، ووي متعاديتان تتناطحان دائمًا وتشمِّران عن ساعد الحرب والقتال، وبينهما من سوء الفهم ما لا يزيد عليه، إذ يكفي أن يرسل ملك جاو برسالةٍ قصيرة للغاية إلى ملك وي، حتى يسرع هذا، بكل سهولة (وطيش) إلى قتل رجل بريء،

مثلي، وعلى الرغم من أني لستُ بالرجل المعقود بناصيته مصائر الأمم، لكني — على أية حال — كنتُ رئيس وزراء وي قبل إعفائي من منصبي، ولئن كنت قد مسستُ دولة جاو بضرٍّ، فقد كان في سبيل مصلحة دولة وي، وهناك جوانب ينبغي النظر إليها، فمن ناحيتي، لست بالرجل الذي يمكن أن يتولى، الآن، أية مناصب داخل البلاد، وبالنسبة لدولة وي فهي لن تستطيع — خارج حدودها — حماية الأرض المشار إليها، لكنها في الداخل لن تجد خيرًا منك في حماية أمنها وسلامتها، وإذا قتلني ملك وي، مصداقًا لطلب دولة «جاو» ورجائها، فسوف تبادر تشين القوية الجبارة إلى الإغارة على جاو وسارت على نهجها وطالبت بأضعاف ما أعطت وتنازلت عن الأراضي ووقع عبء ذلك كله عليك فكيف يكون موقفك حينئذٍ، وكيف تستطيع أن تمنع تشين من التمادي في غيها؟» تلك هي مُعضلتك الكبرى التي لا أدري كيف ستجد مخرجًا منها.»

وهكذا فقد اقتنع شين لينجون بمنطقه، وأرسل على الفور تقريرًا إلى الملك. فأفرج عن فان تزو وأطلق سراحه.

لمَّا أهدت دولة يان لقبًا من ألقاب الشرف

أهدت دولة يان إلى «رونغ فن»، وهو من مواطني دولة سونغ اللقب النبيل «قاويان جون» [قاويان: اسم مدينة] وأرسلته على رأس جيش كثيف لمهاجمة دولة جاو، وهنالك قرر ملك جاو إهداء المدن الثلاث: لو، وقاوطان، وبينيوان الكائنة في ولاية «جيطون»، بالإضافة إلى سبع عشرة محلة آهلة بالسكان إلى دولة تشي. وكان الطلب الذي تقدمت به؛ هو أن يتولَّى الأمير «آن بنجون» قيادة جيوشها لمقاومة عدوان دولة يان عليها، وفي هذه الأثناء التقى «جاوشي» بـ «بينيوان»، وقال له: «هل خلت البلاد من ذوي الموهبة والكفاءة، هل وصلت البشاعة والخطر إلى هذا الحد [... حتى نطلب أمراء الجيش من الدول الأخرى]؟ فها أنت تطلب الأمير آن بنجوان لكي يتولى قيادة الجيش، ثم تتنازل عن ثلاث مدن بإقليم جيطون وبضع قرى آهلة بالسكان، وتسلم كل ذلك ليد تشي، فتلك الأماكن كانت في الأصل غنيمة معارك حصلنا عليها بعد أن دارت رحى الحرب سجالًا بيننا وبين أعدائنا، ثم إذا بك تُهديها إلى دولة تشي من أجل مبادلتها بالمدعو آن بنجوان الذي تطلب مجيئه ليصير قائدًا عامًّا للقوات، فهل أقفرت ساحات الموهبة والكفاءة ووصلت الأمور إلى هذا الحد المُزري؟ يا للغرابة! لماذا لا تتَّخذني أنا قائدًا عامًّا للقوات؟ كم قضيت أيامًا من عمري في دولة يان

تكفيرًا عن ذنبٍ جنيته، وتهمة ارتكبتها، وحدث أن أوكلت إلى تلك الدولة مسئولية القيام بوظيفة مدير إقليم «شانكو» حتى صرت خبيرًا بالمواقع ذات الأهمية في البلاد بما تسلكه دولة يان من ممرات مُهمة وحيوية بذلك الإقليم، حتى إنني أستطيع في خلال مائة يوم فقط، أي في فترة يستحيل على الممالك مجتمعة أن تقوم فيها بتعبئة شاملة للقوات، أن أمدَّ بساط الاحتلال فوق دولة يان، بطولها وعرضها، فما الذي يدعوك لكي ترجو دولة تشي وتلحَّ في الرجاء بأن تبعث لك آن بنجوان لتجعله قائدًا للجيش؟» فأجابه بينيوان، بقوله: «دع عنك هذه الأفكار؛ فقد تكلمت في هذا الشأن مع جلالة الملك، ولحسن الحظ، فقد أنصت لما قلتُه جيدًا، فلا تشغل نفسك بالتفكير، ولا تعُد إلى الحديث في هذا الموضوع.» فأجابه جاوشي: «لستُ أتفق معك في هذا، وما أظنك قد طلبت حضور آن بنجوان، إلا لأنك تعتقد بأن ما بين دولة تشي ودولة يان عداء مستحكم ودم مسفوك والأمر يبدو لي على غير ما قد قررت، وإذا افترضنا أن آن بنجوان رجل أحمق ساذج، فلن يصمد أمام رونغ فن، أما إذا كان حصيف الرأي نابه الذهن، فلن يُقدِم على اشتباكٍ مع دولة يان ولن يخرج آن بنجوان عن أحد هذين الموقفَين.

وحتى إذا قُلنا إنه لا بد، آخذٌ بواحد من هذين الاتجاهين، فنتأمَّل الاتجاه الذي يتصرف فيه آن بنجوان بذكاء ومهارة، ولنتساءل، على أي عنصر من عناصر القوة الكامنة في موارد دولة جاو يستند آن بنجوان في مهاجمته لدولة يان؟ وإذا اتفقنا على أن جاو دولة قوية ذات ثقل ومهابة، فمعنى ذلك أن تشي لن تقدر أبدًا على أن تصير دولة (إمبراطورية) كبرى.

وإذ يقوم آن ينجوان على رأس قوات دولة جاو القوية الجبارة، ليرد كيد قائد جيش يان فلا بد أن المواجهة ستطول زمنًا طويلًا، يبلغ عدة سنوات، مما يعني استنفاد طاقة المسئولين والموظفين ورجال الحكم وسط الثكنات العسكرية وتحت الخنادق حتى تتهرأ الرايات [حرفيًّا: تبلى قوة البلدين، بسبب طول المواجهات والاشتباكات بينهما، وعندئذٍ ينسحب آن بنجوان بقواته عائدًا إلى البلاد بعد أن يكون قد استهلك قوات البلدين معًا إلى الحد الأقصى، وهو أمر بالغ الوضوح].»

ولم يكد ينقضي زمان طويل، حتى هاجم آن بنجوان ثلاث مدن لا تتجاوز مساحة إحداها ثلاثمائة جانغ مربع، وهكذا فقد صدق حدس جاوشي، وسارت الأمور على نحو ما توقع تمامًا.

لمَّا قامت الدول الثلاث بغزو تشين

قامت الدول الثلاث: هان، وتشي، ووي بغزو دولة تشين وقامت دولة جاو بمهاجمة جونشان واستولت على منطقة «فوليو» وبعد خمس سنوات استطاعت أن تفرض سيطرتها بالكامل على قطاع نهر «خوطو».

وهنالك تحدث «رونكو»، و«صونتو» من دولة تشي إلى «شوهاو» [رئيس وزراء جاو] قائلين له: «من الأفضل في هذه الظروف أن تبادر إلى تسليم الأراضي المحتلة حديثًا إلى دولة جونشان. وهو ما سيدعو هذه إلى مخاطبة دولة تشي قائلة إن الدول الأربع ستُطالب «ويه» بالسماح لها بالمرور عبر أراضيها لمنع (القائد) «جانزي» من التقدُّم لمهاجمة الطريق الذي ستسلكه قوات دولة يان، وعندئذٍ (وإذ تترامى تلك الكلمات إلى أسماع دولة تشي) فلن تتوانى عن أن تقدم لها أرض «قودي» [بلدة صغيرة في تشي] هدية مقرونة بالتحية.

لمَّا أوفدت دولة جاو رئيس وزرائها

أوفدت دولة جاو رئيس وزرائها «جاوتشوان» لقيادة قوات التحالف الرأسي في هجومهم المزمع على دولة تشي، فبادرت هذه إلى التنازل عن أجزاء من أراضيها، بيد أن دولة جاو كانت قد أغضت طرفها عن رئيس وزرائها «جاوتشوان» وأظهرت له الازدراء والتحقير، وعندئذٍ تحدث «تشيمنغ» [وزير عظيم بدولة جو الشرقية] إلى ملك جاو (مدافعًا عن جاوتشوان) قائلًا: «لم تبادر دولة تشي إلى التنازل عن أجزاء من أراضيها، إلا لأنها تخشى انضمام الدول إلى التحالف الرأسي، وقد بلغني أن جاوتشوان قد أصبح الآن عرضةً للهوان والاحتقار — بينما قد لمع نجم جانشين [أحد القائمين على هدم وتخريب محاولات تشكيل تحالف رأسي] ونال شرفًا ومكانة مرموقة، وهو ما سيدفع تشي إلى عدم التنازل عن أراضيها (فتأمل ذلك، وانظر ماذا تفعل!)

واقتنع ملك جاو بوجهة نظره، وقام على الفور باستدعاء جاوتشوان، وبالَغ في تكريمه وتمجيد مقامه حتى رفعه مرتبة شريفة.»

لمَّا قدم تشانجان من دولة وي

(وعلى الرغم من أن) «تشانجان» يُعد في الأصل، أحد مواطني دولة وي، إلا أنه نال حظوةً عند الملك «دياوشيان» حاكم دولة جاو، حتى أنه عرض عليه، ثلاث مرات، أن يشغل منصب

رئيس الوزراء وهو يرفض بإصرار، وعندئذ، تحدث تيانسي [كبير وزراء جاو] إلى هانشيان قائلًا: «أرجو أن تسمح لي بأن أذبحه وأحطم لك عنقه. [يقصد تشانجان] حتى إذا مات وزهقت روحه، فلا بد أن جلالة الملك سيقوم بإعدام جياشين، وهو في سَورة غضبه [كان جياشين محل حظوة لدى الملك، حاكم جاو، وكان ينافسه في مكانته، المدعو تشانجان، فإذا اغتيل هذا، فسيظن الملك أن قاتله هو جيانشين وذلك لما بينهما من المنافسة على التقرب من جلالته!].

وإذ يموت جيانشين؛ فلا بد أنك ستترقى إلى منصب رئيس الوزراء. أما إذا لم يمت صاحبنا، فستتعمق بينكما الصداقة، وتدوم بينكما مدى الحياة، وهو ما سيوجب عليك الامتنان له.»

لمَّا قام «فنجي» بتزكية صاحبه لدى البلاط الحاكم

قام فنجي لدى الملك شياوشين حاكم جاو، بتزكية صاحبه الأمير «لولينغ» [أخو الملك من أمه]، فقال له: (اعلم) يا مولاي أنك بطردك الأمير «لولينغ»، خارج البلاد تبدو كمن يحاول أن يرضي دولة يان.» فأجابه الملك: «لست أهتم ولا أضع نصب عيني سوى الأحداث والمبادئ، أما بالنسبة لدولتي يان وتشين، فكيف تظن أني أخشاهما، بينما أتصرف حيالهما دون أدنى اعتبار لأي شيء من هذا القبيل؟!» فردَّ عليه فنجي، قائلًا: «أما دولة يان فقد جندت يوتشين للدفاع عن موقفها ثلاث مرات، دون أن تطرده خارج بلادك، فكيف وقد قمت بطرد «لولينغ» لمجرد أنه تكلم منافحًا عن تشين مرة واحدة فقط. أليس هذا تحقيرًا من شأن دولة تشين القوية العظمى، وتعظيمًا لمكانة دولة يان الضعيفة المتهافتة!» فأجابه الملك شياوشين، بقوله: «بل إني أفكر حقًّا، في طرده، دون اعتبار لدولة يان.» فقال له مُحدِّثه «وعلى هذا النحو فإن الأمر سيبدو، إذن، كأن طرد لولينغ لا علاقة له بدولة يان، بل سيبدو أسوأ بكثير من هذا؛ لأنه سيتضمن معنى احتقار شأن دولة يان، وسيرى الناس فيه غلظةً ومجافاة لصلة الرحم، حيث سيقال بأنك طردت أخاك (من الأم) [فتسوء سمعتك وتفقد حماس يان] وأصارحك، فيما بيني وبينك، بأن مثل هذا المسلك غير صائب.»

لمَّا تقدم فنجي بطلب مقابلة

تقدم فنجي بطلب مقابلة ملك جاو، فرتب له الموظف المسئول عن شئون العلاقات الخارجية لقاء مع جلالته فلما مثل بين يديه ركع عنده بالتحية [بأن ضم قبضة يده اليسرى والذراع

مبسوطة على امتدادها أمامه، ثم قبض عليها بكف يده اليمنى، وهو مطاطئ رأسه، وليس بوضع الكفين متقابلين ومتلاصقين أسفل الذقن، كما قد يظن كثير ممن لا يعرفون أحوال المجتمع الصيني القديم] وضم قبضة يده رافعًا إياها بالتحية، وأراد أن يتكلم، فارتاع وأُرتج عليه، فلما سأله الملك عما به، أجابه، قائلًا: «(يُحكى في الروايات المأثورة) أن أحد الضيوف قد زار (المدعو) «فوتزو» واقترح عليه ترقية أحد العمال وزكَّاه عنده، وبعد أيام التقى الضيف بالمضيف وسأله عما إذا كان العامل الموصى عليه قد قصَّر في شيء مما كلفه بأدائه، فأجابه فوتزو، قائلًا: «قد وقع العامل (الذي زكيته) في ثلاثة أخطاء: (أولها): أنه كان يفغر فمه ضاحكًا كلما لقيني، مما يعنى أنه يسخر مني ويهزأ بي (وثانيها): أنه ما كان يلقبني أثناء حديثي معه، «بالأستاذ» أو «المعلم»، وهو ما يعنى أنه جاحد، منكر فضل معلمه (وثالثها): أنه ثرثار مولع بالهذر من القول، قليل المروءة في غير مراعاة للآداب والأخلاق، مما أوقعني في الحيرة والدهشة من سلوكه الشائن المعيب.» فأجابه الضيف، بقوله: «... ليس الأمر كذلك، (دعني أفسر لك الأمر على الوجه الصحيح ...) فهو إذ يضحك في وجهك كلما رآك يبشُّ بك من قبيل التودُّد والتلطُّف، أما عدم مناداتك بلقب «المعلم» فلأنه يرى أنك أحق بلقبٍ أسمى وأعظم من تلك التسمية العادية المُبتذلة التي جرت على كل فم دون تمييز؛ أما ثرثرته وإقباله عليك دون تكليف أو تقيُّد بحدود المعاملات الصارمة، فهذا من قبيل السذاجة التي تنطوي على الشفافية والإخلاص، وتحكي مأثورات التاريخ القديم أن الملك الحكيم «ياو» كان قد التقى بـ (الملك القديس فيما بعد ...) شون في كوخ خشبي (حقير). فبسط له حشية من القش فوق الأرض ليجلس تحت ظلال شجرة توت وارفة، وفى هذه البقعة التي تبدلت فوقها الظلال جرى انتقال العرش الإمبراطوري من «ياو» إلى «شون» وكان «آيين» قد التقى بالإمبراطور طانغ (آل أسرة شانغ الملكية) وهو يحمل على ظهره الإناء المُخصص لتقديم القربان المقدس، وتكرم عليه جلالة الإمبراطور بألقاب الشرف والمرتبة الاجتماعية المرموقة (الانضمام إلى طبقة نبلاء البلاط الملكي الحاكم).

ولولا العلاقة الحميمة (التي نشأت بين الضيف ومُضيفه في تلك الأمثلة المذكورة) لما أمكن قيام التفاهم الودي والصلات القوية، ولما تمَّت عملية انتقال مقاليد الحكم إلى أولئك النبلاء.» فاستحسن الملك كلامه واقتنع بمنطقه، فقال له فنجي: «هناك الآن بعض من الوزراء القادمين إليك من وراء حدودك، يودُّون تعميق التفاهم معك وتوطيد أواصر الصداقة، دون سابق معرفة أو ودٍّ مقيم، فهل تأذن في ذلك؟» فأجابه الملك: «فلنتكلم، وسأصغي لك بكل احترام وتقدير.» وهنالك أفاض فنجي في الحديث عن آرائه إلى الملك.

لمَّا التقى أحد الضيوف بملك جاو

نزل أحد الناس ضيفًا على البلاط الحاكم لدولة جاو، والتقى بجلالة الملك وقال له: «بلغني أن جلالتك تفكر في شراء بعض الجياد، فهل هذا صحيح؟» فلما رد عليه الملك بالإيجاب، قال الضيف: «فلماذا تأخرت طوال هذا الوقت دون أن ترسل أحدًا؟» فأجابه الملك: «لم أعثر بعدُ على رجل خبير بالجياد.» فسأله الضيف: «فلماذا لا ترسل جيانشين في هذا المهمة؟» فأجابه جلالته: «لأن جيانشين مشغول بإدارة شئون البلاد العُليا، هذا بالإضافة إلى أنه ليس خبيرًا في هذا الميدان.» فقال الرجل: «فما الذي يعوقك عن إرسال محظيتك (الأثيرة لديك) السيدة «جي»؟ [تنطق كما في «الجيزة»]» فأجابه: «إنما هي امرأة تسكن في القصر، ولا معرفة لها بمثل هذه الأمور.» فعلَّق الرجل، قائلًا: «وما الذي يعود على بلادك من الفائدة إذا اشتريتَ جوادًا أصيلًا؟ فقال الملك: «ليس ثمة فائدة تذكر!» فقال الرجل: «وما الضرر الذي يحيق بالبلاد إذا جاء الجواد على غير ما تشتهي؟» فقال: «لا يطال البلاد أدنى ضرر من ذلك.» فسأل الضيف: «إذا كان الأمر هكذا، بحيث إن شراء جواد أصيل أو عليل لا يمس مصالح البلاد بسوء ولا يعود عليها بأي نفع. بينما تنتظر جلالتك طوال هذا الوقت مجيء خبير عارف بأحوال الجياد، فلا غرو أن تصير إدارة شئون البلاد، والنظر في أولوياتها، محلًّا للعبث والاستهتار، حتى صارت البلاد خرابًا؛ ففسد الزرع واضمحل شأن الوطن [حرفيًّا: تزلزلت أركان عبادة آلهة الأوطان والمزارع] وعدمت معابد الأسلاف النذور والقرابين، ومع ذلك فلست تسعى ترقبًا لخبير يجيد إصلاح شئون البلاد (بدلًا من ذلك المدعو جياشين) ولا أدري ما الذي يدعوك إلى التصرف على هذا النحو؟» وهنالك صمت الملك ولم ينطق بشيء، وواصل الضيف كلامه، قائلًا: «إن الطريقة المأثورة عن «قويان» في إدارة شئون الممالك (تحظى بشهرة طيبة) حتى إن البعض يطلق عليها مُسمَّى «الشجرة القرحاء» (المُصابة في سوقها بالتقرُّح) فهل تعرف شيئًا من ذلك أو بلغك نبأ عنه؟» فلما رد عليه الملك بالنفي، واصل كلامه بقوله: «إن معنى التسمية بـ «الشجرة القرحاء» يشير إلى أولئك الملتفين حول الملك، يكيلون له المديح والإعجاب، وهم كثير؛ منهم الوزراء والمتنفذون والغيد الحِسان والمحظيات ونساء القصور، وكلهم يجيدون انتهاز فرصة وقوع الملك في براثن النشوة العارمة إثر سماعه لنفاقهم، خصوصًا أنهم يبدون أمامه متفانين من أجل سعادته، وعلى استعداد لجلب الدنيا كلها طوع بنانه إذا شاء، وإذا قدر لهم أن يرتقوا في مراتب السلطة وجعلوا لهم شركاء من المسئولين في دوائر الحكم المختلفة، بطانة سوء، يعيثون فسادًا بلا رادع، ولذلك، فعلى الرغم مما يسطع في الأجواء من نور الشمس وضيائها تظل

مخابئ الفساد والعطب منزوية تحت الظلال، ومهما ترامت أصوات التحذير من جلالته إلى المغضوب عليهم والمارقين والملعونين، إلا أن الكارثة وأُسَّ البلاء كله يبقى لصيقًا به مستظلًّا بجناح حمايته.»

لمَّا قامت تشين بمهاجمة دولة وي

قامت تشين بمهاجمة دولة وي، واستولت على مدينة «نينغ»، فذهب أمراء الممالك والدويلات لتهنئة تشين بما حققته، وكذلك أرسل الملك «هوين»، وحاكم جاو وفدًا للتهنئة إلا أن الوفد لم يتمكن من مقابلة الملك، رغم محاولته المُتكررة للقائه ثلاث مرات؛ مما أثار غضب الملك هوين، فالتفت وقال لمن حوله: «ستلجأ دولة تشين بعد استيلائها على مدينة نينغ، وإظهار مدى ما تتمتع به من القوة، أن تقوم بمعاقبة كلٍّ من: تشي وجاو. وعلى الرغم من أن الفرصة أُتيحت لكل الدويلات والممالك أن تذهب للتهنئة فإن وفدنا لم يتمكن من ذلك رغم محاولاته المُتكررة (لترتيب لقاء مع الملك) وهو ما يعني أن تشين تُدبر لغزو جاو، فأشيروا عليَّ بما ترون.» فأجابوه، قائلين: «إن محاولة الوفد ترتيب لقاء، عدة مرات، دون النجاح في ذلك، يعني أن أعضاء الوفد نفسه ليسوا على المستوى اللائق، ولا هم مناسبون للذهاب أصلًا في هذه المهمة وليس هناك أفضل لإتمام اللقاء من ذلك المدعو «ليانغي» بما اشتهر به من فصاحة وبلاغة وقدرة على الخطابة والإقناع فليجرب الملك إيفاد المذكور لإنجاز تلك السفارة.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

صدع ليانغى بأمر الملك الذي قام باستلامه منه شخصيًّا، وانطلق مسافرًا إلى مهمته، فما إن بلغ دولة تشين حتى رفع إلى الملك خطابًا رسميًّا جاء فيه ما يلي: «قد جاءك الأمراء من شتى أنحاء الدويلات يهنئونك بما قمتَ به من مدٍّ رقعة الأراضي حتى بلغتَ بها تخوم منطقة «آني»، بل إن واحدًا مثل حاكم بلادنا لا يُخفي إعجابه بمسلكك فيما بينه وبين نفسه، وقد اعتراه القلق فلم يعُد يجلس آمنًا مطمئنًّا كسابق حاله خصوصًا أنه كان قد أوفد الوفود بالهدايا لمقابلتك، ثلاث مرات، وفي كل مرة يعجزون عن ترتيب لقاء بجلالتك؛ وإذ لم يتسنَّ لهم الحصول على قراركم باستدعائهم للمثول بين يدَيك، وما لم يكونوا قد ارتكبوا جرمًا أو تقصيرًا، فأرجو من جلالتك ألا تحول بينهم وبين سعادتهم وسرورهم

بلقائك، أما إذا كان ثمة ما يشينهم من عيبٍ أو خروج على القواعد والآداب الشريفة، فأنزل بهم ما يستحقونه من عقاب.» وأرسل إليه الملك من أبلغه القول إن ... «كل ما أطلبه من دولة جاو هو السمع والطاعة في كل كبيرةٍ وصغيرة فإذا ما أقرت لي بذلك صار من المُمكن استقبال الوفود والمراسلات والوثائق المرفوعة إلينا، وإلا فالأولى برُسلكم ووفودكم أن يعودوا إلى بلادهم.» فرد عليه ليانغي بقوله: «ما جئت بلادكم اليوم، يا مولاي، ولا قصدت أعتابك الجليلة إلا أملًا في الفوز بتحقيق أمنية غالية بقبول توجيهاتكم الكريمة وإشارتكم الحكيمة، فكيف يخطر ببالي أن أكون سببًا في الوقوف بين أيديكم موقفًا تتأزَّم به الأمور أو تتفاقم به الشدة وتعظم البلية والمحنة؟ ويسرني بالغ السرور أن أقف على ما تأمرونني به فأصدع بتنفيذه، على الفور، دون أدنى تردُّد وبغير مراجعة مبعثها الشك أو الحيرة.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وهنالك وافق الملك «شاو» حاكم تشين على اللقاء بالبعثة الوافدة من دولة جاو، قائلًا: «(إن أنسَ فلا أنسى ما حييت) ما قام به كل من «الفهد الجاوي» (نسبة إلى دولة جاو، ويقصد به النبيل «بين يانغ») وبينيوان من خداعي والاستهزاء بي، وكم أتمنى أن تعمد دولة جاو إلى هذين الرجُلين فتذبحهما ذبحًا، وهو ما لا معجز دونه، فإذا ظهر أن قتلهما أمر غير يسير، فأرجو السماح لي بقيادة أمراء الدويلات صوب هاندان حيث أقف عند أسوارها في انتظار ما تأمرون به.» فقال له: ليانغي: «إن الرجُلين اللذَين ذكرتهما يمُتَّان بِصِلة أخوية لملك البلاد؛ فهما أخواه الشقيقان تمامًا، كما هو قائم بين جلالتك وأخويك الصغيرَين «إيانغ»، و«جين إيانغ» ولا يجدر بالأخ أن يقتل أشقاءه ... لا سيما أن سياستك القائمة على البر والتراحم ذائعة ومعروفة في أنحاء البلاد والممالك، وهكذا فقد عرف عنك البذل الكريم لأخويك في أمور الحياة المختلفة من ملبس ومأكل، فهما لا يرتديان إلا أفخم الثياب ولا يأكلان إلا أشهى طعام، لا يتميز أحدهما عن أخيه في شيء من ذلك، بل إنك لا تخص نفسك دونهما بأفخر رداء أو ألذ طعام، وقد قيل في المأثورات الذائعة من قديم إن ... «العنقاء لن تحوم فوق عش امتدَّت إليه يد عابثة فأتلفت بيضها، ووحوش البراري لن تقرب أرضًا بُقِرت فيها بطون إناثها وذُبحت هنالك، بيد العدوان، صغارها.» ولنقل إن أعضاء الوفد سيأخذون أوامرك مأخذ الجد، ثم يعودون إلى بلادهم فينقلونها إلى قادتهم الذين سيتملَّكهم الخوف من العجز عن وضعها موضع التنفيذ، أفليس من المحتمل أن

تتمخض الأحداث عن توليد انطباعات سيئة (وحزينة) في نفس أخويك «إيانغ» و«جين يانغ»؟»

الجزء الرابع من الفصل نفسه

فقال له الملك شاو، حاكم تشين ما نصه: «فما دام الأمر كذلك، فليصدر قرار باستبعادهم عن ممارسة أي سلطة عليا في البلاد.» فرد عليه ليانغ، قائلًا: «دعني أصارحك القول إن ... إخوة مليكنا [من الأم] يكلفونه ما لا يطيق من الأمر، وكم بذل لهم النصح والإرشاد دون فائدة، حتى ثارت ضدهم النفوس في كل مكان، وإذا شئت أن تقوم بتخفيض رتبتهم ونزع بعض سلطاتهم بحيث يبقون بعيدًا عن الاشتراك في إدارة شئون البلاد تحقيقًا لرغباتك ما أمكن فعلى الرحب والسعة.» فسُرَّ ملك تشين بما سمع وابتهج أيَّما ابتهاج، وأقدم على الرجل فقبل هديته، وأكرمه بهدايا أثمن وأفخم، ووصله وأكرم وفادته.

لمَّا قامت دولة جاو بإيفاد ياوجيا

قامت دولة جاو بإيفاد «ياوجيا» للتفاهم بشأن التحالف مع كلٍّ من دولتي وي، وهان؛ إلا أنهما خانتا جاو بعد زمنٍ قصير ونكثتا عهدهما معها، وذهب «جيماو» إلى ملك جاو وتكلم معه (مدافعًا عن «ياوجيا») قائلًا: «إن ياوجيا هو وزيرك الأمين وأكثر معاونيك إخلاصًا، كثيرًا ما حاولَت كل من وي وهان الاستئثار به دونك، ولذلك أقدمتا على خيانة عهدهما مع جاو، بهدف إثارة غضبك ضده مما يدفعك إلى طرده خارج البلاد. فيتلقفانه ويحتفظان به لأنفسهما، فإذا ما أقدمت على نفيه الآن، يا مولاي، فكأنك تدفع الأمور باتجاه ما تنتظره الدولتان وتخططان للحصول عليه، بينما تكون قد وصمت بالعار والتهمة النكراء واحدًا من أخلص رجالك؛ ومن ثم فإني أرى من الأفضل، في هذه الظروف، العدول عن التفكير في طرده تعبيرًا عن كرم أخلاقك وسعة حلمك، فتكون بذلك قد عملت على إفساد خطة الدولتَين في اصطياد ياوجيا».

لمَّا كانت النصرة لقوات تشين على دولة تشو

أوقعت قوات تشين الهزيمة بدولة تشو في منطقة جبال «شينغ» وألحقت بجيشها وقائده «طان مين» الهزيمة والدمار التام، ووقع الرُّعب في قلب حاكم تشو، فأمر «شاوين» [رئيس

وزراء تشو] بأن يصطحب معه الأمير، ولي العهد ويُحيطه بعنايته ورعايته الفائقة حتى يوصِّله إلى تشين حيث يصير رهينةً لإقرار وحفظ السلام (بين البلدَين)، وأراد الملك «أولينغ» حاكم جاو أن يفسد عليه هذه الخطة، فسارع إلى التحالُف مع دولة تشين، وأقام علاقات ودِّية مع دولة سونغ، ولم يتوانَ عن أن يرسل «تشوهاو» مُستشارًا في خدمة البلاط الحاكم هناك، كما أرسل «لوهوان» مستشارًا لدى دولة تشين.

وتمخَّض الموقف كله عن ... فشل الملك «هواي» حاكم تشو، في زرع بذور الشقاق بين دولتَي جاو، وسونغ، بالإضافة إلى ذلك، فإن محاولات تصفية الأجواء بين تشي وتشو، لم تصادف النجاح، وانتهت إلى طريق مسدود.

لمَّا أرسلت دولة تشين في استدعاء الأمير

أرسلت دولة تشين في استدعاء «تشون بينهو» [أحد أمراء دولة جاو] (فما إن عبر من الحدود ...) حتى قُبض عليه، وأمسى رهن الاعتقال، وتكلم في شأنه واحد من أهل تشين، يدعى «شيجوين»، وذلك بأن قصد إلى [النبيل الأعظم] «أوشينهو»، وقال له: «إن الأمير تشون بينهو، يُعَد أحبَّ الناس وأقربهم إلى قلب ملك جاو، إلا أن الموكل إليهم أمر خدمته [المُرافقين له] يحقدون عليه، وقد امتلأت نفوسهم حسدًا ومرارة، ومن ثم فقد تواعدوا بينهم بالتآمر ضده، قائلين: «إذا سِرنا بسمو الأمير إلى دولة تشين، فلا بد أن يُلقى به في غياهب السجن هناك.» وهكذا وضعوا خطتهم بحيث تقوده قدماه للوقوع في أسر دولة تشين.

وباعتقالك له، تُصبح ضالعًا في حَبْك أهم فصل في المؤامرة التي دبرها مرافقوه بالإضافة إلى إحداث القطيعة مع دولة جاو، والأفضل (من وجهة نظري) أن تدع الأمير تشون بينهو يعود إلى بلاده، بينما يمكنك أن تعتقل، بدلًا منه، كبير وزراء جاو (المدعو «بيندوهو»)، وإذ يعود الأمير إلى وطنه فستغدو له كلمة مسموعة لدى البلاط الحاكم، ولربما تكلَّم مع المسئولين هناك بشأن إهدائك مساحةً من الأرض تعبيرًا عن امتنانه لك، من ناحية، ومن ناحية أخرى راجيًا منك إطلاق سراح الوزير المعتقل لديك (بيندوهو).» فأجابه أوشينهو، بما يفيد اقتناعه بوجهة نظره.

وانتهز الملك فرصة عقد إحدى المآدب الرسمية، فدعا إليها تشون بينهو، وأغدق عليه الكثير من كرم الضيافة واحتفى به للغاية، ثم أطلق له حرية العودة إلى بلاده.

لمَّا تسلمت الملكة الأم زمام السلطة

ما كادت الملكة الأم تتسلم مقاليد السلطة في دولة جاو، حتى أسرعت دولة تشين بالإغارة على البلاد، فطلبت جاو من دولة تشي المساندة والدعم، فردَّت هذه بقولها: «لن نصدر أمرًا لأي فردٍ من قواتنا بالتحرك لمساعدتكم، إلا إذا أرسلتم لنا ولدكم الأمير «تشانغآن» رهينة لحُسن الجوار.» ولم تستجب جاو لهذا الشرط، إلا أن السادة الوزراء حاولوا إثناء الملكة عن موقِفها وأشاروا عليها بالتراجُع وبذلوا في ذلك غاية جهدهم، حتى تكلمت جلالتها إلى أقرب الوزراء منها مجلسًا، وقالت (في نبرة الواثق الجريء الذي يُدرك تمامًا ما يقوله ...) «اعلموا جيدًا ... أن من سيجرؤ، ثانية، على النصح لي بإرسال الأمير إليهم رهينة لضمان حسن الجوار ... فسأبصق في وجهه، على رءوس الأشهاد.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

أعرب الوزير الأعظم، المعلم الأكبر [حرفيًّا: المؤدب الأيسر أي المؤدب الجالس إلى يسار جلالته، وهو لقب شرفي يُمنح لأعظم الوزراء رتبة] «تشولون» عن أمله في لقاء الملكة الأم، فأجابت — في ترفع وإباء وغرور شديد — بأنها مستعدة لذلك، ولبثت تنتظر حضوره (فترة ليست بالقصيرة) فلمَّا دخل من بوابة القصر، هُرع إلى حيث كانت جالسة فلمَّا مثل أمامها، اعتذر طويلًا عن تأخيره قائلًا لجلالتها: «ما كنت لأقدر على الهرولة كي أصل في الموعد المُحدد، بعد أن أُصيبت قدمي بالداء الذي أبطأ عليَّ فرصة اللقاء بجلالتك؛ فلذلك أجد العُذر لنفسي فيما بدر مني، وما اضطرَّني إلى الإلحاح في مقابلتك إلا خشيتي على صحتك، ولشدَّ ما يُقلقني أن تَبَادر إلى علمي أن مكروهًا قد نال من صحتك الغالية.» فردت عليه بقولها: «لكني على ما يرام؛ لأني أستخدم العربة في كل تنقُّلاتي!» فسألها تشولون: «أما كان أجدر بجلالتك الإقلال من طعامك وشرابك؟» فأجابته، قالت: «ما عدت أقرب من الطعام سوى الحساء أتبلَّغ به ما يسد رمقي.» فقال لها: «ما عاد المرء في هذه الأيام، يجد شهيةً للأكل أو الشرب، لكني أرغم نفسي على التجوال يوميًّا مسافة لا تقل عن ثلاثة أو أربعة «لي»؛ وهو ما يفتح شهيتي للطعام مجددًا ويُذهب عني آثار الداء شيئًا فشيئًا.» وهنا قالت له الملكة: «فهذا ما لا أقدر عليه البتة.» وعندئذٍ سكن غضب الملكة وزال عنها ما كان يُظلل قسمات وجهها من آثار التبرم والضيق.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وهنالك قال لها «المؤدب الأيسر» الوزير الأكبر: «لي ولد يدعى شوتشي، وهو حدث صغير السن، ولا تبدو عليه مخايل النجابة، لكنه يملك عليَّ شغاف قلبي، حتى بلغت محبته عندي ما لا يزيد عليه، ولا سيما وقد صرت في سن الكهولة والضعف، ولطالما تمنَّيت أن أُلحقه بسلك الجندية ليصير ضابطًا ضمن فرقة الحرس الملكي، فلذلك تجاسرت وتجشمت كل عناء لألتقي بجلالتك وأبلغك بهذا الطلب.» فردت عليه قائلة: «فما دام الأمر هكذا، فلتُخبرني كم عمره إذن؟» فأجابها: «خمسة عشر عامًا، فما زال لم يشبَّ عن الطوق بعد، لكني أرجو أن أعهد به إلى رعايتكم قبل أن يُدركني الموت.» فقالت له: «أوَيبلغ حب الرجال لأبنائهم هذه الدرجة؟» أجابها: «بل يبلغ أضعاف ما يشعر به النساء في هذا المجال.» فضحكت الملكة وقالت له: «قد ظننت أن النساء يتفوقن على الرجال في محبتهن لأولادهن!» فقال المؤدب الأكبر: «كنت أحسب فيما تراءى لي من الظنون أن حُب جلالتك لابنتك «يانهو» [زوجة حاكم دولة يان فيما سلف] أشد من حُبك لولدك الأمير «تشانغان»!» فردت عليه، قالت: «غير صحيح بالمرة، بل إن حبي لسمو الأمير يفوق كل من سواه.» فقال لها: «أيًّا كانت درجة الحب التي يستشعرها الآباء نحو أبنائهم فمبعثها، في كل الأحوال، الأمل في مستقبلٍ آمن وحياة مستقرة، وأحسب أنك، وأنت تودِّعين ابنتك «يانهو» في يوم عقد قرانها، كنت تقبضين بكِلتا يدَيك على كعوب قدمَيها وتبكين، لما تتوقَّعين من طول الفراق بينكما، فهنالك يمتلئ القلب همومًا وأحزانًا، لكنها بعد أن سافرت بعيدًا، وبعد أن ظللت تفكرين فيها وفي مستقبل أيامها، كنت تقدمين النذور والقرابين في أن أمنياتك لها قائلة: «... لتهنأ في بيتها البعيد، فلا ترجع إليَّ أبدًا!» ألم يكن مبعث شعورك هذا الحرص على سعادتها في قادم الأيام، ألم تكوني في أعماقك، تأمُلين في أن تسعد بمستقبلها حيث يصير لها الأولاد والأحفاد الذين يكبرون مع الأيام ويعتلون سُدة الحكم أجيالًا بعد أجيال؟» فأجابته: «بلى، هو ذاك!» فواصل كلامه، قائلًا: «فلنعُد إلى صفحات التاريخ القديمة لنرجع إلى ما مضى من سيرة آل جاو، منذ ثلاثة أجيال مضت عندما أسسوا أسرة جاو الملكية التي اعتلت عرش البلاد وأورثت أولادها وأحفادها ألقاب التشريف ورُتب النبالة، فهل بقي أحد من ورثة تلك العصور يحمل رتبة النبالة حتى اليوم؟» فردت الملكة بالنفي القاطع، فعاد يقول لها: «ولندع آل جاو جانبًا ونتأمل حال الأسر الملكية الأخرى، التي أسست عروشًا حاكمة، وأقامت دويلات وأورثتها لأولادها وأحفادها، فهل بقي أحد منهم إلى اليوم في رتبة النبالة؟» فردَّت عليه الملكة قائلة: «كلَّا، لم أسمع بشيء من ذلك قط.» فقال لها: «وهل سمعتِ بأن

أحدًا من ورثة العروش الحاكمة القديمة — فيما سوى آل جاو — قد ظل يحتفظ برتبة النبالة حتى اليوم؟» فأجابته: «لم يبلُغني خبر ذلك حتى الساعة.» فقال لها: «فمردُّ ذلك، فيما أظن، إلى ما لاقاه النبلاء القدامى من محن وكوارث عاجلة أطاحت بهم سراعًا أو عقبات كأْدَاء بقيت تؤرق أيامهم سنواتٍ طويلة حتى بلغت آثارها إلى أولادهم وأحفادهم من بعدهم، لكن السؤال الذي يطرح نفسه بشدة هو: هل كان الأبناء والأحفاد جميعًا على الدرجة نفسها من الفساد والضعف حتى يُلاقوا المصير نفسه؟

كلَّا، ولكن الأمر ببساطة هو أنهم نالوا من رفيع المكانة والقدْر ما لا جدارة معه ولا مآثر جليلة، وجرى عليهم من الحظوظ والأموال الوافرة ما لم يبذلوا من أجله غاية الجهد، فحصَّلوا معه جلائل الأعمال، بل اكتسبوا فاخر المنال وعظيم القدْر دونما استحقاق من البذل والسعي والجهد الذي تتأتى معه الإنجازات الجديرة.

وها أنتِ اليوم تسعَين لتعظيم مكانة ولدك تشانغان، فتمنحين له موفور العطاء من الأراضي الواسعة والأموال الطائلة، دون أن تُعطيه الفرصة لينال فخر عطائه لوطنه، فيمد إلى بلاده يدَ البناء والإنجاز، لكن ما الأساس الذي يستطيع أن يستند إليه تشانغان في الزعم بمجد مؤثَّل حينما تطلُع الدنيا على نهار يومٍ يأتي بعدك بمائة عام؟

واسمحي لي، يا مولاتي بالقول بأنه ليس من الحكمة أن يكون تدبيرك لأمور ولدِك على هذا النحو من قصر النظر؛ فلذلك قلت إنك تكترثين لابنتك الأميرة «يانهو» أكثر مما تنظُرين به لشئون الأمير تشانغان.» وهنالك قالت الملكة: «إذن، فسأجعل الأمر لك في إرساله إلى الجهة التي تراها خيرًا له.» فما عتَّم الرجل أن جهز مائة عربة عسكرية وجعل على رأسها الأمير تشانغان، حيث أمره بالتوجُّه إلى دولة تشي ليبقى هناك رهينة لضمان حُسن النوايا. ثم ما لبثت قوات تشي أن بادرت إلى التحرك وفاءً بالتزاماتها.

الجزء الرابع من الفصل نفسه

أرسلت دولة تشين القائد «وانجيان» على رأس حملة عسكرية لمهاجمة دولة جاو التي بادرت إلى تعيين كل من «ليمو»، و«صماشان» لقيادة الجيش في عمليات الصمود ومجابهة الاعتداء. وقد استطاع القائد «ليمو» أن يصد جيش تشين ويثخن فيه، بل يبدِّد شمله ويرده على أعقابه، أكثر من مرة، حتى لقد تجاسر على قتل أحد القادة الكبار في جيش تشين ويدعى «هواني».

ووقعت الكراهية في قلب وانجيان تجاه ليمو، فراح يكيد له عند ملك جاو، مُستغلًّا في ذلك علاقته بالوزير المُقرب من ملك البلاد (ويدعى فوكاي) حيث أغدق عليه المال الوفير، وأقنعه بأن يذهب إلى الملك، ليقول له ... «إن القائدَين الكبيرَين ليمو، وصماشان، يُدبران للتآمر مع دولة تشين ضد جاو، مقابل إقطاعاتٍ هائلة من الأراضي سيحصلون عليها لقاء تعاونهما معها.» فثار الشكُّ في قلب ملك جاو نحو قائدَيه ليمو وصماشان، فما كان منه إلا أن أرسل قائدَين كبيرَين ليحلَّا محلهما (وهما المدعوان «يان تسوي» و«جاوسون»)، ثم ما لبث أن أطاح برأس ليمو، ونفى صماشان بعيدًا عن البلاد، فما كادت تنقضي ثلاثة أشهر على ذلك حتى تمكن وانجيان من انتهاز الفرصة لتشديد قبضة هجومه على جاو، بل استطاع أن يغتال قائد الجيش جاوسون، وأن يأسر ملك جاو وقائد جيشه «يان تسوي»؛ مما كان له أكبر الأثر في القضاء على دولة جاو نهائيًّا (فلم تقم لها من بعد ذلك، قائمة).

سجل وي الأول

لمَّا تقدم جيبو بطلبٍ إلى أحد كبار رجال الدولة

تقدم جيبو إلى «ويهوان تسي» طالبًا منه تسليمه مساحاتٍ شاسعة من الأراضي [«ويهوان تسي» أحد رجال أربعة، الآخرون هم عظيم دولة جين، وملك جاو، وملك هان، قاموا بالقضاء التام على جيبو، ثم قسَّموا دولة جين فيما بينهم، واعتلى «ويهوان تسي» عرش دولة وي فيما بعد].

فلم يُجبه «ويهوان» إلى طلبه، فتكلم معه «رنجانغ» [رئيس وزراء ويهوان] قائلًا: «فما الذي يمنعك من أن تُجيبه إلى طلبه؟» فرد عليه قائلًا: «ليس هناك ما يُبرر هذا الطلب بأي حال، فمن ثم رفضتُ إعطاءه الأرض التي كان يطلبها.» فقال له رنجانغ: «إذا كان صحيحًا أنه يطلب منك أرضًا دون أية مبررات أو أسبابٍ مفهومة، فهذا كفيل — بحد ذاته — أن يُثير خوف وهلع جيرانه، وإذ يشتد نهمه للحصول على الأرض دون أن يقنع بما لدَيه، فستنطلق دواعي الرعب من مكامنها، حتى يعم الفزع أرجاء الممالك كلها. وهكذا، فلو منحته الأرض التي يرجو الحصول عليها فستمد له في طغيانه وصلفه مما سيجعله أكثر ميلًا للطيش والتهوُّر والاستهانة بأعدائه، أما جيرانه الخائفون فسيجتمع شملهم تحت مظلة الرعب الذي يتهدَّدُهم جميعًا بالانقضاض عليهم، وعندما يتشكل جيش واحد من قوات أولئك الذين اجتمع شملهم وتألفت مشاعرهم تحت رعبٍ واحد، ثم يتَّجه هذا الجيش الاتحادي لمواجهة ذلك البلد الذي يستهين بأعدائه، فلن يكون في عمر «جيبو» بقية!

وقد ورد في كتاب «تاريخ آل تشو» ما نصه: «مُدَّ يد العون لمن نويتَ أن تهزمه؛ وإذا أردت أن تحصل من امرئ على شيءٍ غالٍ فلا بد أن تُبادر أولًا إلى أن تغدق عليه بالكثير».

وأرى من الأفضل أن تُعطيه الأرض التي طالب بها لكي تزيد في غروره وطيشه وإن كنت أعجب لك إذ تحول بينه وبين كيد الممالك له والتآمُر ضده، فيجعلنا مطيته لتحقيق أغراضه في اقتطاع المزيد من الأراضي!» فوافقه ويهوان تسي على رأيه واقتنع بمقالته وتنازل لـ «جيبو» عن محلة كبيرة آهلة بالسكان، ففرح للغاية (واتجه نحو دولة جاو) ليُطالبها بتسليم أرض «تصاي» ومنطقة قاويليان، فلمَّا لم تستجب إلى طلبه، قام بتطويق منطقة «جين يانغ» وهنالك أظهر له («ويهوان تسي» «وقانزي»، ملك هان)، وجه التآمُر والغدر، بينما سلَّطت عليه دولة جاو — داخل أراضيه — الكثير من العناصر المُندسَّة، فكان في ذلك هلاكه فمات مقتولًا.

لمَّا تفاقمت العداوة بين هان وجاو

تفاقمت العداوة بين كلٍّ من هان وجاو، فتقدمت هان إلى دولة وي تطلب إمدادها بقوات عسكرية، قائلة: «نرجو إمدادنا ببعض القوات للإغارة على جاو.» فرد الملك أونهو [حاكم دولة وي ومؤسسها الأول]، بقوله: «أرجو أن تقبلوا اعتذاري عن تلبية هذا الطلب؛ لما يربطني بملك جاو من صلة رحم؛ فهو أخي الشقيق الذي لا يسوغ مُطلقًا أن أساعد على مهاجمته.»

ثم تقدمت جاو، هي الأخرى، إلى دولة وي تطلب مساندتها ببعض القوات لضرب دولة هان، فأجاب الملك أونهو، قائلًا: «إن بيني وبين ملك هان علاقة الأخ بأخيه ويؤسِفني عدم إجابتك إلى ما طلبت!» فلمَّا لم يتيسر لوفود الدولتَين الحصول على الإمداد اللازم من القوات رجَعا إلى بلديهما، ثم علم الجميع، فيما بعد، أن الغرض الأساسي من التصرف الذي اتخذه ملك وي كان يتمثل في رغبته في قيام علاقات سلمية بين بلاده وباقي الأطراف، فمن ثم قصد الجميع إلى قصره وجاءته الوفود وراء الوفود تترى بعضها في إثر بعض.

لمَّا قام «يويان» على رأس قوات وي لمهاجمة

قام يويان قائدًا على رأس حملة عسكرية انطلقت من دولة وي لمهاجمة دولة جونشان التي كانت تعتقل ولده، وفي تلك الأثناء بلغه أن ملك جونشان ألقى بولده المسجون في ماء شديد الغليان حتى مات، بل إنه أرسل إلى يويان نفسه ببقايا من الماء الذي تهرأ فيه جسم ابنه، فشرب من الماء، بل جلس تحت خيمة كبيرة وراح يعب الماء عبًّا (دون أن تطرف له عين!)

فتحدث في ذلك الملك أونهو — حاكم وي — إلى أحد رجاله (ويُدعى توستزان) قائلًا: «قد شرب يويان من الماء الذي غمر جسد ولده المقتول وأكل من بقايا لحمه، وما أظنه أقدم على هذا إلا لأجلي!» فأجابه الرجل، قال: «فإذا كان قد أكل لحم ابنه أتراه يعجز عن أن يلتهِم لحم الناس أجمعين؟» وحدث أن يويان قد تغلَّب على قوات جونشان، فأوقع بها الهزيمة، فأثنى عليه الملك أونهو، وأغدق عليه الصلات والمكافآت، إلا أنه صار يتوجس منه، ويتشكك كثيرًا في مدى إخلاصه.

لمَّا تم تعيين «شيمن باو» محافظًا لإقليم «هي»

تم تعيين «شيمن باو» محافظًا لإقليم «هي» [تنطق كما في «المقاهي»] لكنه اعتذر إلى الملك أونهو عن قبول المنصب، فقال له جلالته: «فلتذهب دون إبطاء وإني لعلى ثقة من أنك ستقوم بأداء واجبك على خير وجه، فيصير لك الاسم الشريف والشهرة الذائعة.» فرد عليه «شيمن باو»، قال: «فاسمح لي أن أسألك يا مولاي، هل هناك وسيلة مُمكنة لإنجاز المهمة الموكولة إليَّ؟» فأجابه الملك، قال: «نعم، فهذا أمر في منتهى السهولة، فما عليك إلا أن تدعو كبار القوم إليك فتنتقي من بينهم أعظمهم فضلًا وخلقًا، فتبذل لهم الاحترام والتبجيل، ثم ابحث عن أولئك الذين يُغضون عن محاسن الناس بينما يحرصون على فضح مساوئهم وتجريسهم، فتأمل أحوالهم جميعًا؛ فالأمور إذا طمَّت وتجاوزت أقصى مداها صارت ظواهرها لا تُنبئ عن باطنها، وتتناقض خفاياها عن المعلن الصريح منها، حتى إن المرء لينظر إلى العشب الكثيف فيحسبه شتلات النبات في أرجاء الحقول، بل قد يبدو الثور ذو اللون الأصفر الداكن، كأنه نمر وحشي. ويتراءى العظم الأبيض، كما لو كان صنوًا لعاج الفيل أو ما شابه، ويظهر الحجر الطَّفْل للناظر كأنه نوع من حجر اليشب الثمين … مما يدل بجلاء، على أن المَخبر قد يختلف في كثيرٍ من الأحوال عن المظهر.»

لمَّا خرج الملك أونهو في رحلة صيد

تواعد الملك أونهو مع أحد مسئولي المناطق الجبلية للخروج إلى رحلة صيد، وكان جلالته قد شرب حتى ثمل، وانتابته نوبة من الابتهاج، بينما هطلت السماء مطرًا مدرارًا، فلما همَّ الملك بالخروج من القصر، تحدث إليه وزراؤه (المرافقون له عن يمينه وشماله) قائلين: «ها أنت قد أسرفت على نفسك في الشرب، وقد اشتد سقوط المطر، في الخارج، فأين تريد

المسير؟» فأجابهم: «قد تواعدتُ مع كبير مسئولي المناطق الجبلية على الخروج إلى الصيد، ما دمتُ قد انتشيت من الخمر، فما المانع من الذهاب إلى الموعد المُتَّفق عليه؟!» وبالفعل فقد خرج إلى الميعاد المضروب سلفًا، لكنه أصيب أثناء الطريق بالإعياء الشديد (لكن، وعلى النقيض مما أصاب الملك من الإجهاد والفتور، كانت ...) دولة وي تسير نحو الازدهار بعزيمةٍ متجددة وقوة واعدة.

لَمَّا جلس الملك مع مؤدبه يتحادثان

جلس الملك أونهو، حاكم دولة وي، مع مؤدبه «تيان تسي» يشربان كئوس الخمر ويتحدثان عن الموسيقى والغناء، فقال الملك: «أرى أن موسيقى الأجراس لا تُصدر أصواتًا متآلفة وذلك لما يبدو من أن مجموعة الأجراس التي إلى اليمين تصدر درجاتٍ عالية من النغم.» وهنالك تردَّدت الضحكات في فم المعلم «تيان تسي»، فسأله الملك مندهشًا عن سِر ضحكاته، فأجابه: «قد بلغني، يا مولاي، أن الملك الحكيم مُرهف الحس، يُجيد الإنصات إلى صوت المسئولين ورجال الدولة، أما الملك (ثقيل السمع) الذي أصيبت أُذناه بالوقر، فهو الأكثر ولعًا بالموسيقى والغناء، وأخشى أن تكون رهافة حسِّك فيما يتصل بشئون الطرب والأغاني دليلًا على ما أصاب أذنَيك من وقر بخصوص الإدارة والحكم الرشيد.» وعندئذٍ قال الملك: «فأنا، إذن، إلى علمك ونصحك أشد إصغاءً وتبجيلًا!»

لَمَّا ذهب ملك دولة وي مع رجال الدولة إلى

خرج الملك «أوهو» حاكم وي، مع كبار رجال الدولة، للسباحة في بحر «شي»، فتحدث جلالته (مزهوًّا بما يراه من معالم طبيعية) قائلًا: «ألا ترون إلى منعة منطقة هيشان وأهمية موقعها، لقد ظننتُ أنها أشبه ما تكون بمنطقة حدودية ذات أهمية [استراتيجية] في التخطيط!» فرد عليه «وانصو» (موافقًا إياه في رأيه) قائلًا: «فذلك سبب قوة دولة جين، ولا بد أن محاولة ترميم واستغلال مزايا هذا الموقع ستعد بمثابة توفير الشروط الملائمة لبناء صرح إمبراطورية عظيمة.» وهنا، تدخل في الحوار «أوتشي» قائلًا: «إن كلام جلالة الملك على جانب كبير من الخطورة ولو وصل الأمر إلى التخطيط على أساس هذه الأفكار، لكانت تلك هي الطامة الكبرى ومع ذلك فأنت تساير جلالته في مقولاته وأفكاره، مما يزيد في احتمالات الخطر ووقوع الكارثة.»، فاحتدَّ غضب الملك وثارت ثائرته وهو يرد عليه

بقوله: «ماذا تقصد بكلامك هذا؟ أفصح بسرعة عما تريد قوله!» فأجاب: «أقول لك الحق إن مناعة منطقة هيشان لا يمكن الاعتماد عليها في تقدير أية نواحٍ من الأهمية، فأين هذا من الادعاء بتوفير شروط قيام إمبراطورية كبرى.

كانت قومية «سان مياو» تقيم، فيما مضى من الزمان البعيد، بأرض تحدُّها من الغرب مياه بحار كبرى ومن الشرق بحيرة «طون تينغ» بمساحتها الشاسعة، وقد ترامت عند حدودها الجنوبية، وعلى الرغم من هذا كله، فلم يتيسر لها أن تضبط شئونها السيادية؛ إذ تغلب عليها (الإمبراطور الحكيم) «يو» وطردها خارج ذلك الموقع، فنزحت إلى إقليم بعيد.

وفي مثال آخر نجد أن دولة (الطاغية) جيه آل شيا كان يحدُّها من الغرب مضيق «تيان جينغ»، ومن الشرق ضفاف مجرى «تيانشي»، وقد امتدَّت سلال جبلَي «لو» و«قاو» عند حدِّها الشمالي، وقد تدفَّقت مياه نهرَي «إي» [تنطق كما في إيران]، و«لو» عند حدودها الجنوبية، وعلى الرغم من كل هذه المزايا (التي توفرها ظروف المكان) فلم تنجح في إقامة حكم رشيد، فغزاها «شانغ طان».

وبالمثل، فقد تميَّزت دولة — الطاغية — تشوآل يين — بظروف جغرافية ممتازة، بحيث كان يحدها من الغرب أحد الممرات المنيعة، ومن الشرق نهرا «جانغ»، و«فو» ويدور حولها — من جهة الجنوب — النهر الأصفر، ويمتدُّ جبل «تايشين» ظهيرًا قويًّا وحاجزًا منيعًا يصد عنها المخاطر، وعلى الرغم من تلك الشروط (الجغرافية) الرائعة، والمَواقع المنيعة، فلم تستطع أن تسوس رعاياها وفق مبادئ سياسية رشيدة مما مهَّد للملك «أو» حاكم دولة جو أن يغزوها.

(وفوق ذلك كله، وقبله) فقد كنت، يا مولاي، نموذجًا للحاكم الذي يقترب من أحاسيس شعبه وينصت إلى آراء وزرائه حتى تحقق لك النصر فوق المدائن الكثيرة التي كانت حصينة الأسوار، مأهولة السكان، ومع ذلك فقد أخضعتها تحت نفوذك وهيبتك، وما كان ذلك مُمكنًا، إلا) بسبب ما تفشَّى في جنباتها من الفساد والسياسة الغاشمة.

وهكذا يتضح، بجلاء، استحالة قيام إمبراطورية عظمى لمجرد توفر مزايا المناعة (الجغرافية) وأفضلية المكان!»

وهنا تكلم الملك أوهو قائلًا: «صدقت في كل ما ذكرت، ولا يسعني، اليوم، بعد أن سمعت مقالتك، إلا أن أعهد إليك بالقيام على أمر إقليم (حوض نهر) شي وإدارة شئونه الداخلية.»

لمَّا كان «قون شوصو» قائدًا عامًّا

كان «قون شوصو» قائدًا عامًّا لقوات دولة وي، وحدث أنه كان على رأس القوات في معركتها مع دولتي هان، وجاو لدى الضفة الشمالية لنهر كواي، واستطاع أن يأسر القائد العام لقوات جاو، (ويُدعى يوتزو) وهو الحدث الذي ابتهج له الملك هوي حاكم وي، حتى إنه خرج بنفسه إلى ظاهر المدينة لاستقبال «قون شوصو» وكافأه بجزيل العطاء؛ إذ أهداه ما مساحته مليون «مو» من الأراضي، عطاءً خالصًا له، يجني أرباحه ويستصفي غلته الدائمة لنفسه، وهنالك استدار قون شوصو وتراجع قليلًا ثم انحنى لجلالته مرتَين واعتذر له بقوله: «لم يكن لي من الفضل ما أستحق نيْل المكافاة عليه؛ ذلك أن الحفاظ على القوات متماسكة، وتامَّة دون تشتُّت أو فوضى، والتقدم بها للأمام في شجاعة وجرأة وملاقاة العدو ببسالة، كل ذلك، هو ما تعلَّمناه من آثار ودروس «أوتشي»؛ أما التقدم أمام القوات لاستطلاع خصائص الأرض [الطبوغرافيا] ورصد الموانع والعقبات، وتقدير الأحوال بمختلف جوانبها السلبية والإيجابية لعمل الاستعداد الدفاعي المطلوب بما يضمن تزويد الجيوش الثلاثة بالثقة ورباطة الجأش، كل ذلك كان مما يذكر الفضل فيه لكل من «بانين»، و«صوانشيان».

وبالنسبة لما تقرر من تأجيل البَت في كل ما يتصل بالثواب والعقاب (قُبيل الحرب) والعمل على نشر أجواء الثقة والصدق بين الناس (بعد انتهاء الحرب) فهذا مما يُنسَب إلى براعة أحكامك وخططك السديدة، ولا أرى لي فضلًا في شيءٍ سوى أنه بَدَا لي أن الهجوم على العدو مواتٍ، فتقدمت أدق طبول الحرب وأسير بالجُند بغير إبطاء. فما الداعي أن تتكرم عليَّ بتلك المكافأة الجزيلة؟ ألأني لم أتوانَ في أداء واجبي؟! أم لأني قدمتُ مأثرة عظيمة تستحقُّ مثل هذا التكريم؟ ثم أين تلك المأثرة إذا صح التقدير؟» وهنا رد عليه الملك بما يُفيد استحسانه لمقالته.

وبادر جلالته إلى مكافأة أتباع «أوتشي» فأوصى لهم بمائتي ألف «مو» من الأراضي، كما أهدى «بانين»، و«صوانشيان» مائة ألف مو من الأرض (لكلٍّ منهما) وتكلم جلالته، قال: «ألا يجدُر بنا أن نعد «قونشوصو» واحدًا من أكرم الناس خلقًا وأعظم الرجال فضلًا؟! كيف لا، وقد هزم أكبر أعدائي، ولم ينس فضل الحكماء ولا خلفائهم، ولم يغضَّ الطرف عن مآثر الرجال والأبطال، ولا أنكر مواهبهم وشجاعتهم، فكيف نُهمل نصيبه في الفوز بالمكافأة؟» وهكذا فقد أهداه أربعمائة ألف «مو» من الأراضي، بالإضافة إلى ما كان عرضه

عليه في بادئ الأمر من الأراضي البالِغ مساحتها مليون «مو» فأصبح إجمالي ما أُهديَ له مليونًا وأربعمائة ألف مو. وهو الأمر الذي دعا «لاوتسي» إلى القول إنه:

«لا غِنى إلا لمن استغنى،
(فقد يُعطي الحكيم بسخاء،
دون أن يمنَّ بالعطاء)
ولا ينال النصيب الأوفى
إلا ذو سابق فضل.»
فذلك هو القون شوصو!

لمَّا أصيب القون شوصو بمرض عضال

أصيب القون شوصو بمرض عضال، فذهب إليه الملك هوي حاكم وي ليعوده في مرضه وقال له: «قد ألمَّ بك مرض شديد، لا سبيل إلى تجنُّبه أو الشفاء منه [كناية عن الموت بلفظ لطيف]، فكيف نصنع بشئون البلاد (وأنت على هذه الحال)؟» فأجابه: «لي ولد يُدعى «قون صونيان» قد حسنت مشورته وآراؤه فأرجو من جلالتك أن تأخذ بما ينصح لك به، فإذا لم يُقدَّر لآرائه أن تكون ذات قبول لديك، فلا تدعنَّه يُغادر دولة وي، مهما كانت الأسباب.» لكن ملك وي لم يكن لدَيه استعداد للوفاء بتلك الوصية؛ إذ ما إن خرج من عنده حتى قال لمن حوله: «انظروا كيف يتحدث رجل عهِدنا فيه الحكمة والنجابة (مثل قون شوصو) بمثل هذا الرأي الفطير والنصيحة السخيفة، فكيف نقبل بأن نُصغي لآراء ولده في أمور تتَّصل بإدارة شئون الدولة؟!» ثم مات قون شوصو، وأسرع ولده قوصونيان بدفنه، وما إن انتهى من مراسم الدفن حتى سافر غربًا تجاه دولة تشين حيث استقبله هناك شياوكون وولَّاه منصبًا مرموقًا، وراحت أحوال تشين تزدهر يومًا بعد يوم، بينما تدهورت أوجه الحياة المختلفة في دولة وي، ولم يكن مدار الأمر في ذلك على سخافة إحدى بنات أفكار (الراحل) قون شوصو، بل كان أصل تلك السخافة ومَنبتها متعلقًا (بآراء) الملك هوي، حاكم وي. والحق أن مبعث الخطورة وأصل الداهية والنكبة السوداء في موضوع السخافة وتهافت الآراء هذا؛ هو ما يعرض للمرء أحيانًا من التسرُّع في الحكم على الأمور بالتفاهة والفجاجة، مع أنها أبعد ما تكون عن ذلك.

لمَّا حاول سوتشين الانضمام إلى التحالف

بادر سوتشين إلى الانضمام إلى التحالف الرأسي، باسم دولة جاو، وكان أن حاول الدعوة (لموقفه) لدى ملك دولة وي قائلًا له: «إذ نظرنا إلى المعالم الطبيعية التي تتميز بها حدود بلادك، وجدنا أن أرضك يحدُّها من الجنوب عدد من المجاري المائية، والأقاليم، مثل: ترعة هونغ، وإقليم تشن، ورونان، وبلدة شيو، ويان وكونيان، وشاولين، وأويان، وشين تشي، وفي الشرق يحيط بها نهر «هواي» وسلسة أنهار: إينغ، ونهر «إي» وإيهوان، وجيتزاو، وهايان، وأوليو وفي الغرب يحيط بحدودها السور العظيم، وإلى الشمال تمتد أنهار: خاواي، وجيوان، يان وصوائزاو؛ كما تبلغ مساحة أرضك ما مقداره ألف لي مربع، وهكذا فعلى الرغم من أنها (نظريًّا) تبدو مساحة ضئيلة بعض الشيء فإنه قلَّما وجدت مساحات لزرع الحشائش أو للرعي بين المنازل والمزارع. بالإضافة إلى العدد الهائل من السكان والدواب والأدوات والعربات، والحركة الدائبة التي لا تهدأ نهار مساء، (والمنظر كله يبدو كأنه الجيش العرمرم؛ بكتائب جنوده المتعددة، ومُشاته وركبانه.) حتى إني توصلت، فيما بيني وبين نفسي إلى تقدير عام لمبلغ ما تتَّسم به بلادك من مزايا، ووجدتها لا تقل عما تملكه دولة تشو من خصائص ومع ذلك فها هم المخططون السياسيون الداعون إلى التحالف الأفقي [المحور الموالي لدولة تشين] يضعون التصورات أمام جلالتك لإقناعك بالدخول في علاقات دبلوماسية مع تشين (تلك الدولة التي تُشبه الذئب في نهمها والنمر في وحشيته) وذلك لكي تفرض تشين سطوتها على العالم كله [حرفيًّا: على الممالك التي تحت السماء] مما أودى بأوطانهم هم أنفسهم وجلبوا على بلادهم المحن والكوارث التي بقوا هم بعيدًا عنها، بمأمن من تبعاتها ونتائجها الوخيمة. ولطالما أوقعوا الرعب والتهديد بقلوب ملوكهم، استنادًا إلى ما تتمتع به تشين من قوة ومهابة مرتكبين — بذلك — أشنع الجرائم وأقبح الآثام (في حق أوطانهم).

فما بالك والأمر الآن يتعلق بدولة وي، وهي واحدة من أقوى الممالك التي تحت السماء، وعلى رأسها حاكم من أعظم الملوك قاطبةً وأكثر الزعماء حكمة وعبقرية. وعلى الرغم من هذا فالرغبة تحدوك إلى أن تضع نفسك تحت إمرة دولة تشين، وتصبح مجرد «دولة تابعة لـ تشين عند حدودها الشرقية» وتقتصر جهودك على بناء المقاصير والاستراحات الإمبراطورية الفخمة لملك دولة تشين. وأن تقبل سلطة ونظام التاج الملكي لهذا البلد وتبذل له مراسم وطقوس الفصول الأربعة المقدسة وترفع عند معابده التقدمة والقرابين. وهو ما يجعلني أشعر بالعار والخجل من أجلك.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

«قد قيل، يا مولاي، إن الملك قوجيان — حاكم دولة يوي — [حاكم يوي في أواخر عصر الدول المتحاربة، وهو ابن الملك يونشان (٤٩٧–٤٦٥ق.م) وكان قد لقي هزيمة شنعاء على يد دولة «أو»، فخضع لشروطها وجنح للسلم، وبعد سنوات استجمعت دولة يوي قوتها وتغلبت على دولة أو فدحرتها، وصارت في عِداد الدول ذات الشأن] استطاع بقوة من أراذل الجند البالغ عددهم ثلاثة آلاف فرد أن يقبض على الملك «فوشاي» حاكم دولة أو، وذلك في موقعة «قانصوي».

كما بلغني أيضًا أن الملك أو حاكم دولة جو كان قد تقدم على رأس جيش قوامه ثلاثة آلاف رجل وثلاثمائة عربة عسكرية وتمكن من أسر الملك (الطاغية) تشو آل شانغ وقتله في الأحراش. والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن هو: هل كان نجاح أولئك الأبطال في غاراتهم راجعًا إلى وفرة أعداد جنودهم؟ إن الأمر المؤكد هو أنهم بذلوا أقصى طاقاتهم فاشتعلت إرادتهم حماسة غامرة فاقتحموا الويلات.

وقد علمت (بطريقةٍ ما) أن لديك ما يزيد على مائتي ألف فارس، ومائتي ألف مقاتل (من ذوي العصابات السوداء فوق رءوسهم) ومائتي ألف آخرين من الجنود الشجعان [الاقتحاميين – قُل الصاعقة!] بالإضافة إلى مائة ألف من الجنود المأجورين، وستمائة عربة عسكرية، ومن الخيل خمسة آلاف رأس وهو ما يفوق، في مجموعه، قوة كلٍّ من الملك أو حاكم جو، والملك فوجيان حاكم يوي.

ومع ذلك فأنت تسير على نهج وزرائك في العمل على خدمة مصالح دولة تشين تحت إلحاح تلك الفئة الفاسدة من رجال الدولة وما يروِّجونه من أفكار. علمًا بأن العمل على خدمة تشين والاعتراف لها بالطاعة سيئول بك إلى التنازل عن مساحاتٍ من أرضك لتُهديها لها، بجانب الهدايا الثمينة والعطايا الكثيرة، وهو ما يعني تبديد مواردك من دون الدخول في حربٍ معها، واعلم أنه ما من وزير يطلب منك الاعتراف بطاعة تشين، إلا كانت نواياه منطوية على الغدر.

واعلم أيضًا أن أولئك النفر من الوزراء الذين يتنازلون عن أراضي بلادهم سعيًا وراء مصالحهم الخاصة مع الدول الأخرى إنما يتبعون أهواءهم الوقتية دون النظر إلى العواقب البعيدة المدى. إن الإضرار بمصالح الوطن سعيًا وراء مصلحة ذاتية والاستناد إلى قوة دولة ذات شأن لدفع الملك الحاكم (في اتجاه اتخاذ سياسات معينة) بحيث يتم التخلي عن أراضي البلاد لقاء توفير مناخ من الأمان العارض، لهو القضية الكبرى التي أرجو من جلالتك مزيد التأمل والتروي في النظر إليها بمنتهى الدقة.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وجاء في «كتاب تشو» ما نصه:

«حتى أوهن سيقان الخيزران،
تمتدُّ بطيئًا جدًّا،
تتسحَّب خفيةً فتمتد وتطول،
ولن تملك أن تفعل إزاءها أي شيء
إذا ما تجاوزت المدى.
قل ماذا تفعل حينئذ؟
(واعلم أنه) ما لم تنزع عن حقلك
شجيرة فاسدة الجذور،
فستطول وتشتد،
ويتصلَّب منها عود يتحول
إلى فأس ذي رأس قاطع!
لأن الأمور التي
تَتَقلَّب في سراديب الشك والحيرة،
تنتفض، يومًا، لتنقض على الرءوس،
كارثة داهمة فادحة الخطر.»

فماذا تفعل إذ تطل الكوارث برءوسها؟ لو كنت حقًّا يا مولاي تريد أن تصيخ السمع لنصح خادمك الأمين [المتكلم بصيغة حرفية!] فاعلم أن التحالف لو قام بين الدول الست التي على المحور الرأسي، واجتمعت كلمتهم جميعًا على إرادة رجل واحد، فلن يبقى للكارثة المحتملة (في بزوغ نجم تشين) أي وجود؛ وهذا هو الموضوع الذي أوفدَتْني إليك من أجله دولتنا [الضئيلة ... حرفيًّا] دولة جاو؛ لأعرض عليك الخطة المتواضعة، مقرونة بميثاق التحالف، دون لَبْسٍ أو غموض، والأمر كله مُعلَّق بما تصدرونه جلالتكم من قرارات لجعل مادة التحالف سارية المفعول.» وعندئذٍ تكلم ملك وي، فقال له: «أعترف بأني قد غابت عني الحكمة في هذه المسألة؛ نظرًا لعدم اتصالي بالإرشادات الذكية والنصائح الحكيمة،

وبما أنك قد أثرت عندي الوعي بما يطرحه ملك جاو من آراء وقرارات (تنير الطريق وتهدي السبيل) فإني أعلن الآن، أنه مما يشرفني بوصفي قائدًا لبلادي، أن أنضم إلى التحالف الرأسي.»

لمَّا ذهب تشانغي إلى بلاط وي

ذهب تشانغي إلى بلاط دولة وي داعيًا حاكم البلاد إلى الدخول في مجموعة التحالف الأفقي، قائلًا له: «تأمَّل الأحوال العامة لبلادك، فستجد أن مساحة الأرض تكاد لا تبلغ ألف لي مربع، ولا يتجاوز عدد جنودك ثلاثمائة ألف مقاتل، أضف إلى ذلك أن خطوط اتصالك مع جيرانك ممهدة، نظرًا لطبيعة الأرض السهلية التي تُحيط ببلدك من الجهات الأربع، وتبدو الدويلات والإمارات الصغيرة وهي تكتنف حدودك، كأنها أغصان تلتفُّ حول جذع شجرة، أو قضبان تدور حول عجلة دائرية، يتركز اتجاهها نحو نقطة محصورة في مركز الدوران، هذا في الوقت الذي تخلو فيه تضاريس الحدود من المناطق الجبلية أو الخطوط النهرية التي تُعد بمثابة موانع طبيعية (في وجه الخطر).

والمسافة بين دولة جنغ وبلادكم لا تزيد على مائة لي، ومن دولة تشن إليها لا تتجاوز المسافة مائتي لي، ولا يكاد الماشي أو الراكب يبدأ طريق السفر نحوها، حتى يبلغها قبل أن يدركه التعب، وفي جنوبيها تتجاوز حدودها مع دولة تشو، بينما تكاد تتلاصق من جهة الغرب مع دولة هان، وفي الشمال يقترب الجوار بشدة مع دولة جاو، أما في الشرق فلا شيء يفصلها عن دولة تشي. وإذ يصطف الجنود بمحاذاة خطوط الحدود، في المواقع الدفاعية لحراسة القلاع والحصون القائمة في تلك المناطق، فسوف يحتاجون إلى ما لا يقلُّ عن مائة ألف «طان» من المياه [طان، مكيال صيني قديم يساوي مائة لتر] تصلهم عبر الأنهار بالإضافة إلى ما سينتقل إليهم من الحبوب والمؤن. (وإجمالًا) فإن أرض وي كلها تعتبر ميدان قتال فسيحًا.

ذلك أنكم إذا أردتم التحالف مع تشو في الجنوب، دون أن يستتبع ذلك إقامة تحالف آخر مع دولة تشي، فسوف تبادر هذه إلى مهاجمتكم من الجانب الشرقي؛ وكذلك إذا كان تحالفكم مع تشي، جهة الشرق، قد حال بينكم وبين التحالف مع جاو، فسوف تعمد هذه إلى الإغارة عليكم من الشمال، أما إذا لم يقُم التحالف بينكم وبين دولة هان، فسوف تعاجلكم بالحرب من الجهة الغربية. ثم إن عدم التقارب مع تشو يجعلكم عرضة لهجوم

وشيك من الجنوب. وتلك الحال هي التي يمكن أن تؤدي بكم إلى ما يطلق عليه التفكك والانهيار الشامل.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وفوق ذلك كله وبالإضافة إليه، فإن الهدف العام الذي يحرك أمراء الدويلات باتجاه الانضمام إلى التحالف الرأسي يتمثل في السعي إلى تحقيق الاستقرار في الممالك، وإعلاء سلطة ونفوذ ومهابة القادة والحكام، وتقوية الدفاعات العسكرية وتحقيق المجد والرفعة.

وقيام التحالف الرأسي يتطلب توحيد خُطى الدويلات كافة، وترسيخ المشاعر الأخوية والودية بين الأمراء والملوك المؤسسين لاتفاقية الوحدة، والتزامهم بالميثاق الذي يجري توقيعه عند ضفاف نهر «هوان» بعد أن يذبحوا فرسًا أبيض بالقُرب من مجرى النهر تعبيرًا عن إخلاصهم، وصدق وفائهم لبنود المعاهدة الموقَّع عليها بين الأطراف جميعًا، هذا مع العلم بأنه لا يمكن أن يكون النجاح والاستقرار من نصيب المتنازعين حول اقتسام الثروة الساعِين فيما بينهم وبين إخوانهم (أهل البيت الواحد) بالغش والمكر والخديعة، أولئك الذين يتبعون حيلة سوتشين ويتخذون أساليبه نبراسًا هاديًا.

إن عدم اعترافك بالطاعة، يا مولاي الملك العظيم، نحو دولة تشين، معناه أنها ستبادر إلى الهجوم عليك وضربك في إقليم «خاواي» والاستيلاء على «جيوان»، و«يان»، و«ين» و«صوانزاو»، وقيامها بتهديد دولة «ويه» والاستيلاء على منطقة «جين يانغ»، وهو ما يعني عجز دولة جاو عن تقديم المساعدة تجاه (المناطق الواقعة في الجنوب) فإذا لم يتيسر لدولة جاو مساعدة وي الكائنة ناحية الجنوب، فسيتعذَّر على وي التحالف مع الدولة القائمة في الشمال، وهنالك ينغلق الطريق أمام قيام التحالف الرأسي، وإذا حدث هذا فسيستحيل على بلادك أن تسلك طريقًا تتجنَّب به منزلقات الوقوع في الخطر. وستضغط تشين على دولة هان لمهاجمتكم، وهو ما لا تملك هان إزاءه أن تعصي أوامر تشين؛ وإذ تتحد إرادة البلدين معًا (هان، وتشين) تصبح كارثة ضياع وطنكم قد صارت قاب قوسين أو أدنى، وهو ما يثير خوفي وقلقي (لو كنت مكانك).

ولا أجد مَخرجًا لك من هذا القلق سوى أن تعترف بالطاعة لدولة تشين، وهو ما سيصرف عنك أية محاولات طائشة قد تستهدفك من جانب دولتي تشو، وهان. وإذ ينزاح عنك الخطر الذي تتهددك به هاتان الدولتان، تصفو لك الأيام، وتعيش في كنف السلام هادئًا رخيَّ البال.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

ليست هناك على وجه الأرض دولة تود تشين لو خربتها ودمَّرت كيانها كدولة تشو، وليس بين الممالك، كلها، دولة تملك أن توقع بـ «تشو» الخسارة الفادحة وتضعف بنيانها مثل دولة وي، وعلى الرغم مما تحظى به تشو من سمعة عالية، فإن طاقاتها الحقيقية مجرد خواء فارغ من أي مضمون للقوة؛ فهي، وإن كانت تجند في جيشها العدد الهائل من الأفراد والمقاتلين، فإنها الكثرة الكاذبة، التي تفر من ميدان القتال ساعة الجد، وتقع في إسار الهزيمة بأسرع من لمح البرق؛ لأنها لا تملك جرأة الاقتحام والظفر. أما قوات دولة وي فلا شك في قدرتها على الإقدام والزحف صوب الجنوب واستئصال شأفة دولة تشو فتجني النصر بعد أن تفتك بـ تشو أشد الفتك وهو ما ستلقاه دولة تشين بالابتهاج باعتبار أن إزاحة أسباب الخطر وإحلال الاستقرار أمر طيب العاقبة. واعلم أن أية خطة أخرى — غير التي أقترحها عليك الساعة — لن تجلب عليك إلا تحركات دولة تشين لمنازلتك، عندئذٍ، فلن يمكنك، حتى أن تبدي كل الاعتراف والطاعة والإذعان لها.»

الجزء الرابع من الفصل نفسه

ثم إن معظم أولئك الداعِين إلى الانضمام إلى محور التحالف الرأسي، يُجيدون التشدق بالألفاظ الرنانة والخطب البليغة، لكنهم أبعد الناس موضعًا للثقة. وتأمَّل أحوالهم جيدًا، وسترى أنهم يدخلون إلى الأمراء والملوك فيبذلون كل الجهد لإقناعهم بآرائهم وما إن يخرجون من عندهم حتى يُقبلوا على ألوان من الترَف مما عند الملوك ... فيركبون عرباتهم. وينغمسون في التنعم والترف وما إن يعقدون ميثاقًا مع دولة من الدويلات، حتى ينقلبون عائدين إلى أوطانهم وديارهم، فتصير لهم الإقطاعات الهائلة والثروة العظيمة. ولذلك فأينما ولَّيت وجهك وسط الممالك فستجد أولئك الدعاة والخطباء [أصحاب الخطط والنظريات السياسية] مشغولين بإقناع الممالك للانضمام إلى التحالف الرأسي (وهم يبذلون في ذلك جل سعيهم، وتراهم يرفعون أيديهم ويقبضون على الأكف والأيدي ويحدقون بأعينهم تارة، ويعضون على شفاههم تارة أخرى ويفعلون كل ما يمكنهم ...) لإقناع الناس بمزايا التحالف الرأسي. (وفي الحقيقة) فقد استطاعوا أن يأسروا الأمراء بكلماتهم المعسولة فتراهم يسيرون وراء مشوراتهم كأنهم مغمضوا الأعين وهل كان يملك الأمراء إلا أن يستسلموا لأقوالهم وينخدعوا بآرائهم؟

وقد قيل إن أعظم الخطر من أهون الشرر إذا تراكم واستفحل [حرفيًّا: إن التراكم المتواصل، حتى لو كان بكميات من ريش العصافير كفيل بأن يُغرق السفينة] ثم إن الحمولة الزائدة حتى لو كانت من أهون الأشياء كفيلة بأن تحطم عجلات العربة. وكلمة تتردَّد طويلًا في كل فم يمكن أن تذيب الحديد، وأقول لك ذلك وأتمنى أن تتأمل الأمر جيدًا وتتفحصه مليًّا.»

الجزء الخامس من الفصل نفسه

وهنالك تحدث ملك وي، فقال: «أقر بحماقتي وسوء تدبيري فيما سلف من الخطط، واسمح لي بأن نُلقِّب أنفسنا بالدولة التابعة لمملكة تشين، ولن نتقاعس عن أن نشيِّد لـ «تشين» القصور والأعتاب الملكية، ويشرفنا أن يتكرم علينا حاكم تشين بالقبعة والزي (المعلم بالشارة الرسمية) كي ندخل البلد العظيم ونقدِّم في معابده قرابين الربيع والخريف، (كذلك يُسعدنا) أن نهديكم أرض خاواي.»

لمَّا قررت تشي ووي الإغارة على

اتفقت تشي، ووي على الإغارة على دولة تشو، وقامتا بالتنسيق بينهما على ذلك، وكان المُقرر في هذا التنسيق المتبادل أن تبعث وي رهينة سلام يدعى طونشين ليُقيم في دولة تشي. وحدث أن كانت دولة تشو، هي المُتغلبة على تشي، وتقاعست دولة وي عن نجدتها، فثارت هنالك، ثائرة «تيان بي» [رئيس وزراء تشي] وأوشك، في غضبه، أن يقتل رهينة السلام طونشين. فهب أحد رجال دولة وي (ويدعى«كاني») دفاعًا عن الرهينة طونشين قائلًا: لـ «تيان بي»: «إن السبب الرئيسي في إحجام دولة تشو عن التوغل في أرض تشي، حتى بعد أن هزمتها شر هزيمة؛ هو أنها تخشى أن تكون دولة وي في حال الترصد لها عن كثب، وتنتظر حتى يتوغَّل جيش تشو إلى أعمق نقطةٍ في أراضي تشي، ثم تنقض عليه من الخلف، وهكذا، فإن إقدامك على قتل رهينة السلام يُعد بمثابة تصريح واضح لدولة تشو المُعتدية مفاده أن تشي لم تعُد تؤمِّل في تعاون وي معها. هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى، فيجب أن نتقي غضبة وي لأنها إذا ثارت ثائرة غضبها وتعاونت مع تشو، فسوف تلقى تشي أسوأ العواقب، والأفضل أن تكرم وفادة (الرهينة) طونشين وتُجل قدره وتعظم مكانته فلعلك ترجو خيرًا، بذلك، من موقف وي تجاهك وتُثير حيرة وظنون دولة تشو.»

لمَّا تم اعتقال سوتشين في دولة

جرى اعتقال سوتشين في دولة وي، وأراد، وهو في الحبس أن يهرب إلى دولة هان، لكنه لم يستطع ذلك بسبب إغلاق وي أبواب المدينة، فأسرعت دولة تشي بإيفاد «سولي» [أخو سوتشين الأصغر] إلى قصر وي (ليتكلم مع جلالة الملك بشأن أخيه المعتقل) وكان أن قال للملك: «أرادت دولة تشي اقتسام أراضي دولة سونغ على أن تُقطِعها إلى (القون) «جين يانغ» إلا أن دولة تشين لم تقبل هذه الخطة، ومن المعلوم أن حصول تشين على أراضي دولة سونغ بالإضافة إلى ما تلقاه من عون دولة تشي لها، يعد مفيدًا لمصالح تشين (في المقام الأول) ومع ذلك فقد رفضت تشين خطة تشي المعروضة عليها؛ والسبب في ذلك هو أنها لا تثق في تشي ولا في سوتشين وإذ تلحظ تشين ما بين كل من تشي ووي من عدم التفاهم الذي وصل إلى أسوأ درجاته فقد قدرت أن تشي لا يمكن أن تخدعها، ومن ثم فقد وثقت تشين بها؛ وإذ تتَّحد الدولتان تشي وتشين ويحصل «جين يانغ» على أراضي سونغ، فسينشأ وضع تفقد فيه دولة وي أي نفع يعود عليها ومن ثم فالأفضل لكم أن تدَعوا سوتشين يعود إلى دولة تشي، مما سيثير حفيظة تشين ضد تشي، فتتعنت معها، وتتعمد إعاقة التفاهم معها، فإذا حل الشقاق بينهما، زالت أسباب القلق العلِقة في كل الأجواء، وأمكن غزو تشي بكل نجاح وتتسع أرضك ويمتد ظل نفوذك.»

لمَّا سافر تشنجن موفدًا من قِبَل

سافر تشنجن [أحد أمهر الموظفين، عمل ببلاط تشي حينًا وحينًا آخر بدولة تشين] موفدًا من قبل دولة تشين إلى دولة تشي، ومر في طريقه، وهو مسافر بدولة وي. وفي أثناء ذلك طلب لقاء كونسونيان، فاعتذر الرجل عن مقابلته، فقال تشنجن: «ما جئت إلا لأمورٍ تستحق (اللقاء وتبادل وجهات النظر) فإذا قوبلت بالاعتذار فسأرحل على الفور، ولن أبقى ليوم آخر.» فقابله كونسونيان، فقال له تشنجن: «هل تمقت المسائل السياسية؟ لماذا أراك تمرح وتتلذَّذ بطعامك وشرابك دون أن تتطرق إلى الموضوعات السياسية؟» فأجابه: «اعلم أنه ما كان لي أن أقف على تصريف الأمور إلا لما عُهِد فيَّ من فضل وحكمة، فكيف يمكن أن أمقت شأنًا من صميم عملي؟» فقال له تشنجن: «فلتأذن لي ما دام الأمر كذلك، أن أضع على كاهلك أعباء تصريف الشئون المتعلقة بسياسات الممالك التي تحت السماء.» فلمَّا سأله محدثه عن كيفية السبيل إلى ما يقترحه عليه، أجابه بقوله: «قد قام ملك دولة

وي بإرسال «ليسونغ» [رئيس وزراء وي فيما بعد] على رأس مائة عربة عسكرية، مبعوثًا إلى دولة تشو، وأظنك تستطيع أن تدلف إلى تلك العربات فتركبها وتمضي في طريقك، فتبعث الشكوك في قلب ملك وي (ثم إذا التقيت بجلالته) فعليك أن تقول له: «أنا رجل تربطني صداقة قديمة بكلٍّ من ملك يان وحاكم جاو، وكثيرًا ما وجَّها لي الدعوة لزيارتهما، فوعدتهما بتلبية دعوتهما إذا ما انتهيت من مشاغلي، وها أنا ذا قد وجدت الوقت المناسب فائذن لي بالسفر للزيارة، ولن أبقى هناك طويلًا ولا أظنني أمكث أكثر من بضعة أيام.» ... ولا بد أن جلالته سيوافق على سفرك، وهكذا تتمكن من الانطلاق في رحلتك الخارجية، بعد أن تذيع على كل الأسماع (بين رجال القصر) أنك ذاهب إلى دولتي يان، وجاو في مهام عاجلة وأنك تطلب سرعة تجهيز العربات ولوازم السفر.»

فوافقه كونسونيان على وجهة نظره، وانطلق إلى ملك وي الذي أجابه إلى طلبه، فسارع على الفور إلى التصريح عن سفره (في مهام عاجلة) إلى كل من جاو، ويان.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

فلما سمع الأمراء النازلون ضيوفًا على دولة وي بهذا الأمر، أرسلوا إلى سادتهم الرسل ليبلغوهم بما نصه: «قد خرج «ليوسونغ» موفدًا إلى دولة تشو، على رأس مائة عربة عسكرية، وكذلك سافر كونسونيان إلى يان وجاو، وهو يقود ثلاثين عربة.» فلما بلغت تلك الأخبار مسامع ملك تشي، ساوره القلق من أن يسبقه الجميع إلى توطيد علاقاتهم بدولة وي، فأوكل إدارة الشئون السيادية في بلاده إلى كونسونيان الذي وافق على تولي أعباء الإدارة السياسية لدولة تشي، وهنالك قام ملك وي بإلغاء التفويض الممنوح له بوصفه مبعوثًا خارج البلاد (ليعود إلى منصبه السيادي الأصلي، داخل الوطن) كما بادرت كل من دولتي يان وجاو إلى تسليم مسئولية إدارة شئونهما السياسية إلى يد كونسونيان فلما علم ملك تشو، قال: «لقد سبق أن قام كونسونيان بتوقيع اتفاقية رسمية معي، وها هي ذي يان وجاو تريدان تكليفه بإدارة شئونهما السياسية وأعتقد أنه سيرحب بالتعاون معي، فلا معنى إذن، من تكليفه بالعمل في خدمتنا.» وهكذا فقد أسند إلى كونسونيان مسئولية القيام بأعباء الإدارة السياسية للبلاد، مخالفًا بذلك (نصائح) ليوسونغ.

وقال ملك وي: «كنت أهملت شأن كونسونيان لما بَدَا لي من قصوره عن القيام بمسئولية إدارة المهام السياسية العليا، أما وقد أوكلت إليه أربع دول مهمة القيام على شئونها السياسية، فلسوف أدفع إليه بذات التكليف أيضًا.» وصار كونسونيان قائمًا على

ضبط شئون الممالك كافة، بل كوفئ، فوق ذلك كله، بالترقي إلى منصب رئيس وزراء دولة وي.

لمَّا فكر تشانغي في تلويث سمعة

أراد تشانغي الإساءة إلى تشنجن وتشويه صورته أمام ملك وي، قائلًا: «ما زال تشنجن يبذل كل جهده في خدمة دولة تشو، ويريد زيادة ممتلكاتها من الأراضي، دون أن يبخل في ذلك بكل غالٍ ونفيس.» [وذهب تسوهوا ...] إلى تشنجن وقال له: «إن العلاقة بين تشانغي وملك وي في أحسن حال، والملك يغدق عليه من حُبه وعطفه الكثير، ولا أظنك تستطيع أن تبث في أذن الملك أي شيء يتعلق به مهما حاولت، فلن ينصت جلالته إليك، وأرى أن تتَّخذ من أقواله تُكأة تستند إليها في حديثك مع ملك تشو، وراقت الفكرة كثيرًا لـ «تشنجن»، وأسرع فأوفد إلى ملك تشو من نقل إليه حكاية ما جرى.

لمَّا دبَّر تشانغي مكيدة للإيقاع بالمدعو

أراد تشانغي أن يوقِع بالمدعو تشنجن في مأزق، فأوعز إلى ملك وي باستدعائه لتولي منصب رئيس الوزراء، بحيث يتم القبض عليه وإيداعه السجن فور قدومه، ولمَّا هم تشنجن بالسفر (تلبية لدعوة الملك له) وقف ولده تشنين في طريقه يحول بينه وبين الرحيل، قائلًا له: «إن الأمور كلها تبدو مُسربلة بالغموض، فلا بد من الحذر والفطنة واستقصاء المعمَّى منها، وقد بلغني ما قاله «جنشيان» وهو يغادر دولة تشين. إن دولة وي — وقد أزمعت قطع علاقاتها مع كل من تشو — وتشي، فسوف تستقبلك بحفاوة وإكبار. ثم إن أولئك الذين يُضمرون لك البغضاء من أهل العاصمة «إينغ» سوف يعملون على إبعادك ودفعك للرحيل عن البلاد، وسينصحون لملك تشو أن يزيد عدد العربات المرافقة لك، فإذا ما بلغتَ مشارف دولة سونغ، فتوقف على الطريق دون أن تتقدم خطوةً واحدة، ثم أرسل إلى ملك تشي من يُبلغه عنك بما نصه: «إن سبب دعوة دولة وي لزيارتها هو رغبتها في العمل من أجل إفساد التحالف بين تشي وتشو.»

(وقد سارت الحوادث على هذا النحو، تمامًا، ثم ...) إن ملك تشي أجابه قائلًا: «ما دمت لم تذهب إلى دولة وي فمرحبًا بك عندنا؛ فنحن نتطلع إلى لقائك، بل إن الواجب يُحتم علينا التكرم بالإنعام عليك.» ثم إن جلالته ركب عربة «لوخو» وأسرع لاستقبال تشنجن بنفسه.

لَمَّا غادر تشانغي دولة تشين ذاهبًا إلى

غادر تشانغي دولة تشين، ووصل إلى دولة وي وخفَّ حاكمها لاستقباله، إلا أن كبير الوزراء «تشانشو» تلقَّاه ونصح له بعدم استقبال تشانغي، فلمَّا لم يستجب الملك لرأيه، نكص عن طريقه، وراح يحاول تقديم النصح له ثانية، بقوله: «أظنك قد سمعت يا سيدي، بحكاية المحظية التي كانت خادمة للزوجة سيدة البيت، (فكما هو معروف في الحكاية) كانت المرأة لَمَّا تقدمت بها السن، وكبر أبناؤها وذبل جمالها، أقدمت على الزواج من سيدٍ آخر، وهو ما يعني نهاية الشوط (وانقضاء سني العطاء والخدمة بالنسبة) للخادمة، وها أنا ذا أعمل في خدمتك مثل محظية عجوز في بيت السيد الكبير، الذي هو جلالتك يا سيدي (وبقية المعنى معروف وواضح).»

وهنالك أحجم الملك عن استقبال تشانغي.

لَمَّا فكر تشانغي في إقامة التحالف بين

فكر تشانغي في إقامة تحالف بين دولة وي وتشين وهان لمهاجمة كل من تشي وتشو. (وبالمقابل) فقد أزمع هويشي [أحد مواطني سونغ، تولى في تلك الفترة رئاسة وزراء دولة وي] عقْد تحالف بين وي، وتشي، وتشو (في مواجهة التحالف المناوئ) مع الالتزام التام بالهدوء دون دفع أي قوات عسكرية (للمواجهة)، وذهب كثيرون إلى بلاط دولة وي في محاولة للدفاع عن موقف تشانغي، فبادر هويشي إلى لقاء ملك وي، وقال له: «إذا كان الناس ينقسمون إلى فريقَين فيما يتصل بالمسائل البسيطة؛ فيقف نصفهم موقف الرفض، بينما النصف الآخر يؤيد القرار بالموافقة، فما بالك بالأمور الصعبة والقضايا الكبرى؟

إن عقد التحالف بين وي وتشين وهان لمهاجمة تشي وتشو، واحدة من أهم وأخطر القضايا، ومع ذلك فكل وزرائك يرون أن الأمر برمته ممكن، وأن وسائله متاحة بلا عوائق.

مع أنه من الواضح والمنطقي جدًّا ألا يستطيع المرء، في مثل تلك الأحوال الجزم بما إذا كان الأمر كذلك، أفليس من الممكن أن يكون مستوى الوزراء ونصيبهم من فنون الحكم والسياسة متماثلًا عند درجة واحدة، ثم إنه إذا كانت المشكلة التي تواجهنا تقبل أحد وجهين إما الحل أو عدمه، في حين أن مستوى الوزراء وتمكنهم من فنون السياسة عند درجة متماثلة ومتكافئة، فمعنى ذلك أن هناك النصف — تقريبًا — من بينهم على درجة من سوء الفهم والوعي المرتبك، ومن ثم يمكنني الاستنتاج بأن أكثر ما أخشاه من تهديدٍ

لقرار جلالتكم إنما ينبثق من خطأ التقدير القائم على وجهة النظر [حرفيًّا: الموعظة] التي يراها ذلك الفريق المرتبك الوعي من الوزراء.»

لمَّا تولى تشانغي منصب رئيس الوزراء في

تولى تشانغي وظيفة رئيس وزراء دولة وي، وذلك بوصفه واحدًا من رجال الدولة (السابقين) في دولة تشين، فاحتدم غضب تشي وتشو وأرادتا مهاجمة وي، وتكلم «يونجيو» [أحد مواطني دولة وي] مع تشانغي، فقال له: «ما كانت دولة وي توليك منصب رئيس الوزراء إلا لما تعتقده من تحقيق الاستقرار على يديك، ينعم فيه الناس بالأمان أما وقد أطلت مخاطر الحرب حتى بعد أن صارت لك السطوة النافذة وحللتَ في المنصب السيادي الذي كان من المأمول أن تعود به الفائدة على الأحوال العامة للبلاد، فهذا معناه الفشل الذريع للخطة التي وضعتها دولة وي بهذا الشأن ولا بد أنك ستواجه المخاطر ويحيق بك المكروه إذا ما قُدِّر لدولتي تشي وتشو أن تغزوَا دولة وي.» ورد عليه تشانغي، قال: «فما العمل، إذن؟» فأجابه يونجيو قائلًا: «دعني أفكر في طريقه تسمح لدولة وي بتجنُّب خطر غزو الدولتَين المذكورتَين لأراضيها.» ثم تحدث يونجيو إلى حاكمي البلدين تشي وتشو، قائلًا: «هل بلغكما ما اتفق عليه تشانغي مع حاكم تشين؟» (لقد تحدث تشانغي مع جلالته) قائلًا له: «لو أذنت لي، جلالتك بأن أصبح رئيسًا لوزراء وي، فسوف تثور ثائرة الدولتين تشي وتشو وتقدمان — بالتأكيد — على مهاجمة وي، فإذا ما كان النصر حليف وي، فسوف تتعاظم خسارة الدولتَين العسكرية، وعندئذٍ فسوف أحوز ثقة وي وأصبح محل تقديرها البالغ، أما إذا كان العكس، وعجزت وي عن تحقيق النصر فسوف ترتمي عند أقدام دولة تشين وتعترف لها بالطاعة المُطلقة وتطلب إليها مساعدتها في حماية كيانها، بل قد تتنازل لها — على سبيل الترضية والتقرب إليها — عن أجزاء من الأرض، وحينئذٍ، فقد تفكر دولتا تشي وتشو في معاودة الهجوم على وي، لكن قوتهما العسكرية ستكون قد تراجعت كثيرًا بما لا يكفي لمقاومة دولة تشين.»

وتلك هي الخطة المتفق عليها سرًّا بين تشانغي وملك تشين، وبما أن تشانغي قد صار الآن رئيسًا لوزراء وي التي تريدون مهاجمتها فإنكم بذلك، تدعمون خطة تشانغي (من حيث لا تدرون) وتجعلونها أكثر ملاءمة بدلًا من أن تعملوا على إثبات فشلها وتضعون تشانغي في مأزق جسيم.» واقتنع حاكما البلدين بالفكرة التي عرضها عليهم الرجل وتراجعا عن الاستعداد الهجومي ضد وي.

لمَّا أراد تشانغي أن يعمل رئيسًا لوزراء

أراد تشانغي أن يعمل رئيسًا لوزراء البلدين تشين ووي في وقتٍ واحد، وهكذا فقد ذهب إلى ملك وي، وقال له: «إنني أتقدم بطلب استخدام قوات تشين لضرب إقليم «سانشوان»، وتستطيع جلالتك أن تنتهز هذه الفرصة لمطالبة دولة هان بتسليمك أرض «نانيان» فتكون تلك هي الضربة القاصمة لدولة هان، التي لا تقوم لها بعد ذلك قائمة أبدًا.» وعندئذٍ تحدث «شيان» إلى «جاوشيان» قائلًا له: «فيمَ اعتمادك على دولة تشو في مساعدة تشانغي على تولي منصب رئيس وزراء دولة وي والذي يمكن أن يحدث الآن، هو أن دولة هان، وقد تولاها الفزع خشية التفتت والانهيار التام، فسوف تهرع إلى الجنوب تريد مساعدة دولة تشو، وما دام تشانغي يشغل منصب رئيس وزراء البلدين وي وتشين؛ فأنت بالمثل يا سيدي تستطيع أن تجمع إلى رئاسة وزراء دولة تشو، منصب رئيس الوزراء في دولة هان.»

لمَّا أوشك ملك وي على إسناد منصب

أوشك ملك وي على إسناد منصب رئيس الوزراء إلى تشانغي، وهو ما لم يكن في مصلحة كونسونيان، مما دعا، هذا الأخير، إلى إيفاد شخص من قِبله إلى [أحد كبار موظفي الديوان بدولة هان (ويدعى القون شو)] ليقول له: «قد استطاع تشانغي أن يقيم التحالف بين تشين ودولة وي، وقد صرح بما نصه: «عندما تقوم دولة وي بمهاجمة نانيان، وتُقدم تشين على غزو سانشوان، تكون دولة هان قد أوشكت على السقوط.» ولا غرو أن السبب فيما يجتهد فيه ملك وي من تعظيم مكانة تشانغي، انتزاع المزيد من الأراضي، مما يعني أن منطقة نانيان بدولة هان مستهدفة بالهجوم.

ولا أدري ما الذي يمنعك من أن تسند إليَّ المهمة الرسمية التي يشرفني أن تكون فرصة لإثبات جدارتي، بحيث يمكنني — بموجب ما يمنحني المنصب من حق — أن أقوم بفسخ التحالف بين وي وتشين، وهكذا تشرع دولة وي في الكيد والتآمر ضد تشين، بل تسارع إلى طرد تشانغي بعيدًا عن أراضيها، وتحاول في الوقت نفسه أن تعود إلى دولة هان وتستميلها لكي تقوم بتعييني رئيسًا لوزرائها.» وفكر «القون شو» في هذا الكلام ورآه مفيدًا لدولة هان، ومن ثم فقد أوفد بعضًا من المسئولين إلى كونسونيان الذي اعتبر هذا الحدث مبعثًا لشعوره بالفخر والاعتزاز، وتحققت خطته إذ أصبح رئيسًا لوزراء دولة وي.

لمَّا وعدت دولة تشو بتسليم

قدمت دولة تشو وعدًا بتسليم ست مدن من ممتلكاتها إلى دولة وي، ثم اشتركت معها في الهجوم على دولة تشي، في محاولة لحماية دولة يان. وأرد تشانغي أن يفسد هذا التدبير، فذهب إلى ملك وي، وقال له: «إن دولة تشي تخشى بأس التحالف الثلاثي، ولا بد أنها ستحاول أن تُعيد إلى دولة هان ما سبق أن استولت عليه من أراضيها، وتذعن لدولة تشي بالسمع والطاعة، وهو ما قد يترتب عليه ألا تفي بوعدها الذي قطعته على نفسها لدولة وي بأن تسلمها المدن الست (المتفق عليها)، مما يعد إخفاقًا جسيمًا فيما أعددتَه من خطة بشأن دولة تشو، بل يُعدُّ أيضًا استعداءً لكل من تشي وتشو، واستجلابًا لكراهيتها نحوك، وقد تقوم دولة تشي، بعد ذلك، بمهاجمة جاو والاستيلاء على تشوانيو، واستعادة أراضيها المسلوبة، مما يُعرِّض للخطر منطقتي شيو، وطونشيو بل تتمكن تشو من الاستيلاء على «نانيان جيوي»، ثم تتقدم إلى «بيدي» و«شيو»، و«يانلين» مما يزيد الوضع سوءًا. بينما لا تزيد حصيلتك (من ذلك كله) سوى الفوز بمنطقة «شينقوان»، غير أنه يلزمك، للعبور إلى هذه المنطقة أن تخضع — على كرهٍ منك — لإملاءات كلٍّ من دولتي ويه وسونغ، أما إذا فشلت محاولة غزو تشي، فسوف تجد نفسك مُضطرًا إلى الرحيل إذ ترغمك عليه دولة جاو؛ على عكس الأمر فيما لو نجحت في عملية اقتحام تشي؛ إذ يصير الحصول على منطقة شينقوان رهنًا بما تُقرره إرادة كل من دولتي ويه وسونغ.»

غير أن ملك وي لم يعمل بهذه النصيحة.

لمَّا أرسل تشانغي إلى رئيس وزراء

أرسل تشانغي إلى «القون تشوبن» [رئيس وزراء هان] يبلغه بأن ينتهز فرصة انتشار المجاعة في أرجاء دولة الهان لينصح للملك بضرورة إمداد منطقة خاواي بشحنات عاجلة من الحبوب. ويبدو أن أنباء ذلك وصلت إلى ملك وي فأوقعت الخوف في قلبه، وراح يستفسر من تشانغي عن فحوى الأمر فأجابه: «إن دولة تشين تريد أن تقوم بإنقاذ دولة تشي، أما دولة هان فتتطلَّع إلى الاستيلاء على منطقة نانيانغ، وأرى أن الأمر لن يختلف كثيرًا إذا ما اشتركت تشين مع هان في الاستيلاء على نانيانغ.

هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى فإن هان تراقب تصرفاتك وتقوم بتقدير مواقفك على ضوء ما يمكن أن يقوم بينك وبين تشين من علاقات ودية، فإذا لم تقم تلك العلاقات

الودية، فسوف تبادر دولة هان إلى حسم الأمر من جانبها.» وعندئذٍ تأكدت لدى ملك وي الرغبة في إقامة جسور الود مع دولة تشين، ثم إنه وضع ثقته في دولة هان سعيًا لتقوية وتوسيع نطاق نفوذ دولة وي بين الممالك، وإنقاذ دولة جاو مما تتعرض له، بل إنه أنحى باللائمة على أولئك القادمين من تشو الذين التقى بهم في منطقة «بيشيا»، وكانوا قد جاءوا إليه راكبين عربات البريد ليقصُّوا عليه طرفًا من وقائع «شيودي.»

وبهذه الطريقة، فقد زال خطر العدوان على دولة تشي وتقلصت عنها أيدي الدمار والتخريب.

لمَّا دقت طبول الحرب

دقت طبول الحرب لتعلن قرب اندلاع القتال في «شيوجو»، فذهب كونسونيان إلى ملك وي وقال له: «ما الذي يمنعك من أن تمد يد العون، جهارًا إلى دولة تشي، حتى تحرص على أن تتحالف سرًّا مع دولة تشو؟ اعلم أنه إذا ما قُدِّر لهذين البلدين أن يعتمدَا على مساندتك فسوف ينشب القتال بينهما.

وإذ يكون النصر حليف دولة تشي، فسوف تنال وي نصيبًا منه؛ لأنها (أي دولة وي) ستتمكن من الحصول على الأراضي الواقعة على مشارف منطقة «فانغ تشين». أما إذا كانت تشو هي المنتصرة على تشي، فسوف تجني وي معها ثمار النصر أيضًا، بمعنى أنها ستكون قد شفت غليلها مما وقع للأمير زيش من القتل غدرًا وغيلة.»

لمَّا ألحقت تشين الهزيمة بـ «جو» الشرقية

تمكنت دولة تشين من إلحاق الهزيمة بدولة جو الشرقية، كما دار القتال، كذلك، بينها وبين دولة وي، واستطاعت قوات تشين أن تجهِز على قائد جيش وي (المدعو شيهو) وأن تتقدم بخُطى منتشية بالانتصار، لتتمركز في مناطق داخل حدود دولة وي التي أسرعت بإيفاد كونسونيان إلى تشين سعيًا للمصالحة، مستخدمًا — في ذلك — وسيلة التنازل عن الأراضي، لكنه عبَّر عن هذه الرغبة بأسلوب رديء مُبتذل.

فذهب أحدهم إلى ملك وي ليتكلم معه عن لسان «طولو» [أحد مواطني وي] قائلًا لجلالته: «لا أعلم، على وجه اليقين مدى ما يمكن أن تأخذ به تشين من كلمات كونسونيان، وإلى أي حدٍّ يمكن أن تمضي في التعديل على ما يعرضه عليها، لكن يمكنني أن أقنع ملك

تشين بقبول المصالحة مقابل التنازل له عن نصف ما وعد أن يُقدمه له كونسونيان من الأراضي.» [وكان أن سأله ملك تشين — فيما بعد ...]: «ما العمل إذن؟» فأجابه، قائلًا: أرى أن توليه أحد المناصب الرفيعة ثم توفده في بعثة رسمية إلى دولة جاو، على أن تبذل له المكافأة الجزيلة والمال الوفير، وترصد تحركاته وتنقُّلاته خارج البلاد، ثم تبث في الأسماع قولًا مفاده أنه ... «قد بلغنا أن جو الشرقية ودولة وي طلبتا من «طولو» التنازل عن (عدد من) أراضي وي للأمير «فن يانجون» [في دولة جاو]، وذلك إذعانًا وتسليمًا بمشيئة دولة تشين».»

وكان ما بين أمير جو الشرقية، وطولو، وفن يانجون، ورانخو ثارات وإحن وصراعات مشحونة بالعداوة والبغضاء وقد أصبح طولو، هو الذي يسعى الآن في إقرار المصالحة بينما وقف فن يانجون في وجه كل محاولة للتنازل عن الأراضي لدولة تشين [وكان القصر الحاكم في تشين يريد للجميع أن ينضوي تحت لواء رانخو ...] وإذ تخشى جلالة الملكة (زوجة حاكم تشين) ألا يتبع الجميع خُطى رانخو، فستفكر في طريقة لتخريب الفكرة كلها من أولها إلى آخرها، وذلك بأن تتساهل كثيرًا في مطالبة دولة وي بالتنازل عن الأراضي؛ إذ تطلب منها تسليم مساحات محدودة سعيًا لإقرار المصالحة مع جلالة الملك، فيتمهد الطريق للتصالح بين تشين وكل من وي وجو الشرقية.

لمَّا استعد ملك تشي لمقابلة رؤساء الوزارات

استعد ملك تشي للقاء رؤساء وزراء تشو جاو ويان؛ وذلك في دولة ويه؛ للاتفاق معهم على نبذ واستبعاد دولة وي (من دائرة تحالفهم) مما أثار فزع الأخيرة خشية أن يتدبروا خطة لمهاجمتها، وأفضى ملك وي بمخاوفه إلى كونسونيان الذي أجابه بقوله: «كل ما أطلبه من جلالتك هو أن تدفع إلى يدي مائة وزنة من الذهب، وسترى بنفسك كيف أفض جمعهم وأخرب اتفاقهم.»

وبالفعل فقد أعد الملك ما طلب ووضع تحت تصرفه عربة محملة بالذهب، وضرب موعدًا للقائه بملك تشي في دولة ويه، وأبلغه بذلك الموعد، وقاد خمسين عربة تجاه دولة ويه والتقى هناك سرًّا، ببعض من رجال دولة تشي وأعطى مسئولي السفارة المائة مثقال من الذهب، راجيًا منهم أن يُرتبوا له لقاء ملك تشي، ثم إنه تحدَّد له الموعد وقابل جلالته. وتحدث إليه طويلًا وقد امتدَّ لقاؤه به فترة من الوقت حتى حقد عليه رؤساء وزراء الدول الثلاث الآخرين، وقالوا لجلالة الملك: «قد تم الاتفاق مع ثلاثتنا على نبذ دولة وي، فلما

جاءك كونسونيان موفدًا من قبلها جلست تتجاذب أطراف الحديث معه طويلًا، ولا نرى إلا أنك تتآمر بنا أو تدبر لنا مكيدة ما.» فأجابهم ملك تشي، قال: «ليس في الأمر شيء سوى أن ملك وي لما عرف أني مُقيم الآن بدولة ويه، فقد أرسل النبيل كونسونيان لتحيتي، ولم يدُر بيني وبينه أية أحاديث سرية.»

وثار الشك في قلوب رجال الدول الثلاث، واهتزت ثقتهم بشأن التحالف معه، فلم تقم لهذا التحالف قائمة.

لمَّا أوفد ملك وي رسوله إلى دولة

كان ملك وي قد أوفد كونسونيان إلى دولة تشين سعيًا للمصالحة والسلام، فالتقى به «تشيمو هوي» [كبير وزراء جو الشرقية] وشرح له مسألة إقرار المصالحة والسلام ونصح له قائلًا: «أنصحك مشددًا بألَّا تقدم عروضًا بالتنازل عن كثيرٍ من الأراضي بمعنى أنه إذا نجحت مساعيكم في إقرار السلام فسوف تلقى بلادكم (وي) عظيم الاهتمام من جانب تشين (حتى يتشرف المرء بتمثيلها في حضرة الملوك) أما إذا تعثرت محاولات السلام، فلن يستطيع أي فردٍ كائنًا من كان أن يُقيم جسور العلاقة بين وي وتشين.»

لمَّا تولَّى كونسونيان قيادة جيش

تولى كونسونيان قيادة قوات دولة وي، إلا أن العلاقة بينه وبين «تيان شيو» ورئيس وزراء وي، لم تكن ودية بأي حال، وذهب «جيتس» ليتكلم مع ملك وي (منافحًا عن كونسونيان) قائلًا: «هل رأيت قطُّ يا مولاي عربة يجرها ثور وحصان؟ إن عربة مثل هذه لن تتحرك بضع خطواتٍ حتى تتوقف تمامًا، أقول هذا لما رأيت من تقديرك لكفاءة كونسونيان بما يؤهله للعمل قائدًا للجيش، لكنك تميل بأُذنك، في الوقت نفسه إلى آراء رئيس وزرائك وخططه العسكرية؛ فهذا أمر لا يختلف كثيرًا عما نفعله إذا أردنا العربة أن يجرها ثور (متثاقل الخطو) وحصان (يعدو ركضًا) فكلاهما قد تتحطَّم عظامهما دون أن يُفلحا في إتمام عملهما؛ والمعنى هنا أن بلادك هي الخاسرة بالتأكيد في ظل ذلك الوضع المشار إليه فأرجو من جلالتك مراجعة هذا الأمر جيدًا.»

سجل وي الثاني

لمَّا أراد كونسونيان وتيان بان تعبئة القوات

أراد «كونسونيان»، و«تيان بان» أن يقوما على رأس قوات دولتي تشي ووي لمهاجمة دولة جاو، إلا أن حاكمي الدولتَين المشار إليهما لم يوافقا على تحريك القوات، مما حَدا بـ كونسونيان إلى توجيه الطلَب إلى الملك بقوله: «أرجو الموافقة على دفع قوات قوامها خمسون ألف مقاتل، وسنتمكن من غزو جاو فيما لا يزيد عن خمسة أشهر.» ومن جانبه، فقد علَّق تيان بان على هذا بقوله: «إن من يقود جيشه إلى مغامرات طائشة دون تقدير للعواقب يعرِّض بلاده للخطر العاجل، ومَن لا يُحسن تدبر الخطط، يوقع بنفسه في غمار المهالك، إن قولك يا سيدي بسهولة احتلال جاو ينطوي على مخاطر آجلة.» فأجابه كونسونيان قائلًا: «غاب عنك ذكاؤك أيها السيد، فهذان الحاكمان لا يريدان أساسًا، دفع قواتهما (نحو أي معترك) فإذا أُضيف إلى ذلك كلامك عن المخاطر، فسوف يشتد خوفهما، مما يُعرِّض خُططنا لعقباتٍ جمة، حتى قبل أن نشرع في مهاجمة جاو ولا أرى داعيًا الآن لأية انتقادات لنا بالتسرُّع والاستعجال ما دُمنا قد مضَينا في الشوط أمدًا لا رجوع بعده، فما دامت حالة الحرب قد انعقدت في كل الأجواء، وقامت المواجهة بين الجيوش، وبرز حجم الخطر أمام عيني حاكمَي وي وتشي، فلن يجسرا على أن يدَعا مقاليد قيادة الجيوش لأحد غيرنا.» فأقر تيان بان بصحة منطقه ونصح لقادة البلدَين بالامتثال لوجهة نظر كونسونيان، وهكذا انعقدت لهما مقاليد السيطرة على جيشي البلدَين، وانطلقا على رأس قواتهما (صوب جبهة القتال)، وقبل أن يُغادرا بجيشهما المناطق الحدودية، لحق بهما حاكما وي وتشي على رأس قوات إضافية، قرَّرا إرسالها لدعم الجيشين تَوقِّيًا لما قد يقع بالقوات من الهزيمة ثم كان النصر حليف الدولتَين في حربهما ضد جاو.

لمَّا تكلم كونسونيان مع الملك

تكلم كونسونيان مع ملك وي، فقال له: «قد بذلت غاية الجهد وقدحت زناد الفكر لتوسيع رقعة البلاد التي تستظل بسلطانك، لتوطيد مركزك وإنفاذ رئاستك ونفوذك، ومع ذلك فهذا «تيانشيو» يستغل محاولاتي تلك لتشويه سمعتي والنيل مني وأنت تنصت له وتصدقه؛ مما يفتُّ في عضدي ويحرمني ثمرة الإنجاز والنجاح، فإما أن تصرفه فأقوم أنا بواجب طاعتك وخدمتك، أو تستبقِيَه فأذهب أنا، ولن ترى وجهي ثانية.» فرد عليه الملك، قال: «أما عرفت أن تيانشيو من أقرب وزرائي وأعزهم إليَّ! أفإن وجدت منه ضغينة أو مساسًا بمصلحتك، قمت إليه، فأخذت بعنقه وقتلته أو طردته ونفيته بعيدًا؟ ثم إني لا أجد في إقصائه خدمة لأي غرضٍ من أغراضي مع باقي الممالك، ولا أرى في وجوده (أي مشكلة يمكن أن تنال من قيمة) وزرائي! وعلى أية حال، فلأجل خاطرك سأطلب إليه أن ينأى بنفسه عن شئونك وألا يتدخل في أمرٍ من أمورك. فإذا بَدَا منه عكس ذلك فسأقتله أو أنفيه بعيدًا، فهل هذا يُرضيك؟» فأومأ كونسونيان برأسه راضيًا موافقًا وتوجَّه إلى الشرق والتقى بـ «تيان بي» [لقب آخر لـ «شوكون» وكان قائمًا بأعمال دولة تشي وقتئذٍ] وعقد معه اتفاقًا كان من نتائجه أن قام باستدعاء «أونزي» وولاه منصب رئيس وزراء وي، أما (كونسونيان، هو نفسه) فقد اختار أن يعمل رئيسًا لوزراء دولة هان.

لمَّا ذهب سوادي إلى ملك وي

ذهب سوادي لمقابلة ملك وي ليحدثه باسم تيانشيو، قائلًا: «أرجو أن تأذن لي جلالة الملك بسؤالك عمن ترى «تيانون» قائمًا على خدمته بهمة وعزم أكبر، أهي دولة وي أم دولة تشي؟» فأجابه الملك: «أرى أن عمله في خدمة تشي أجلُّ وأعظم مما يؤديه لـ «دولة وي» من خدمات.» وعاد الرجل يسأل الملك، قائلًا: «وأي البلدين يستأثر بعزم كونسونيان، وهمته، دولة وي أم دولة هان؟» فأجابه: «إنها دولة هان، هي التي تستأثر بجده أكثر من غيرها.»، وهنالك قال له سوداي: «سيقترب كونسونيان كثيرًا من دولة هان مبتعدًا عن وي، أما تيانون فسيقترب من تشي وينأى بنفسه عن أي علاقة، مع دولة وي.»

واسمح لي بأن أقول لك: «إن هذين الرجلين سيستفيدان من مكانة بلادك في مشروعاتهما السياسية وسط الممالك، وسيغنمان من ذلك كبير النفع، ولن يمكنهما اتخاذ موقف الحياد، وهو أمر لا أظنك قد سمعت به أو جاءك به خبر من الأخبار، وإذ أتأمل

أحوال بلادك، فأستطيع القول إنك تستطيع، وعلى الرغم مما يعتري أحوال بلدك من ضعف عام، أن تنضم إلى محور التحالف الرأسي، والأفضل لكم (في هذه الحال) أن تستبقي إلى جوارك تيانشيو، ولك أن تتأمل حال هذين الرجلين وتراقب تصرفاتهما بدقة، وسيقولان لك (أحدهما بعد الآخر): «إن تيانشيو ليس شريكي ولا تربطني به علاقة، وإذا ما أتيت أمرًا حائدًا عن جادة الصواب، بعيدًا عما فيه مصلحة الوطن، فلن يتوانى تيانشيو عن انتقادي والتشهير بي أمام جلالتك!»

ومع ذلك فالأمر المؤكد هو أن الرجلَين كليهما لن يجسرا على اقتراف أي عملٍ أو سلوك خائن، وأيًّا ما كان من تصرفاتهما — وسواء عاد بالخير أم بالشر على دولة وي — فالأفضل لمصلحة البلاد، في كل الأحوال، إبقاء تيانشيو إلى جانبك ومُراقبة تصرفات كِلا الرجلَين.» ووافق ملك وي على هذا الرأي، (واستدعى) تيانشيو وأبقاه جانبه.

لمَّا ذُكر كونسونيان بسوء أمام الملك

كان (المدعو) «شيجيو» قد انتقد كونسونيان بشدة وعابه في حضرة ملك وي، فأراد كونسونيان أن يدبر له مكيدة توقِع به في داهية، فتحدث إلى تشانغي، قائلًا: ائذن لي أن أطلب إلى ملك وي أن يقوم بإسناد شئون الدولة إليك، فإذا ما تحدث معك بالطريقة التي تحدث بها الأباطرة القديسون القدماء «ياو»، و«شون»، فليس عليك إلا أن تتصرف بالطريقة التي تصرف بها «شويو» [ذلك الحكيم الفاضل في الأساطير القديمة، الذي رفض المناصب الحكومية المرموقة، ليعيش زاهدًا متفرغًا للعلم والتنسك في أحد الجبال] وهكذا، فسوف أرجوه أن يهديك محلة آهلة بالسكان بدلا من المنصب]. ففرح تشانغي، وأوعز إلى شيجيو بالتردد على كونسونيان، فلما عرف الملك بذلك، تبدَّدت ثقته بكلامه، وأسرع شيجيو بمغادرة دولة وي على الفور، دون حتى أن يقوم بواجب التوديع (المعهود).

لمَّا قام ملك تشو بمهاجمة إقليم

قام ملك تشو بمهاجمة جنوب إقليم «طاليان»، فانتهزت دولة هان الفرصة وقامت بحصار منطقة تشاينغ [من أرض دولة وي] وعندئذٍ ذهب «تشنهوي» [أحد مواطني وي] لمقابلة ملك هان، وكلَّمه (عن لسان) كونسونيان، قائلًا: «إن اشتدادك في مهاجمة منطقة تشيانغ سيدفع دولة تشو لتوسيع مدى هجومها بالدرجة التي تعجز معها دولة وي عن الصمود،

مما يضطرها إلى الانحناء [حرفيًّا] أمام شروط تشو، فيتعاظم خطر هذه الأخيرة؛ لذلك فالأفضل أن تدع منطقة تشيانغ وشأنها (على الأقل في الأمد المنظور)، وعندما يلوح لدولة وي انتهاء الخطر المُحدق بها من جانب وي، فلا بد أنها ستحسم الحرب بينها وبين تشو، فإذا لم يكن النصر حليفها فلن يمكنها الاحتفاظ ب «تشيانغ» (لا أظنها تقدر على صد هجومك، ثانية، ضد تشيانغ إذا ما بدا لك ذلك) أما إذا كانت هي المنتصرة على تشو، فلا بد أن قواتها ستكون قد بلغت من الإنهاك مبلغًا يحول دون صد هجومك على أرض تشيانغ فتغزوها بكل يسر.»

لمَّا تُوفي الملك هوي حاكم وي

تُوفي الملك هوي حاكم وي، وتم تحديد ميعاد الجنازة، غير أن الثلوج تساقطت بغزارة وتراكمت حتى بلغت مستوى «عيون الثيران التي تجر العربات» [هكذا حرفيًّا، ويقول المُحقق: إن بالنص الأصلي خطأ أو تحريفًا، وصحته، حتى بلغت مدة سقوط الثلج «نصف شهر»] فتهدمت أجزاء من سور المدينة، وصدر الأمر ببناء دربٍ خشبي معلَّق؛ لتُشيَّع جنازة الملك فوقه وانهالت على الأمير النصائح من كل صوب، تقول له: «أما وقد بلغ سقوط الجليد هذه الدرجة، فسينظر العامة إلى تشييع الجنازة بعين السخط والتذمر، بل ربما قصرت التكاليف الرسمية دون توفير المصاريف اللازمة، فالمرجو تغيير الميعاد المضروب أو تأجيله.» ورد الأمير [الملك شيانغ فيما بعد] بقوله: «ليس من المقبول أبدًا، بوصفي ولد الملك الراحل أن أحول دون إتمام الجنازة سواء بسبب ما قد يصيب الناس من إرهاق أم لما يتعلق بالنفقات المطلوبة، ولستُ أريد أن يُكلمني أحد في هذا الموضوع مرة ثانية.

فأحجم عامة الوزراء عن مفاتحة سموه في هذا الشأن، وتحدثوا في ذلك مع كونسونيان، الذي رد عليهم قائلًا: «ليس عندي شيء مما يجدر النصح به في هذا الموقف، ولا أجد أفضل من هويشي، هو وحده الذي يستطيع أن ينجز هذه المهمة، فعليكم به.» فلما ذهبوا وكلموه أبدى موافقته واستعداده.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

ثم إنه ركب عربة وأسرع إلى سمو الأمير، وقال له: «لا بد أنك حددت ميعاد الجنازة، هذا أمر مفروغ منه بالطبع!» فلما رد عليه الأمير بالإيجاب، قال له: «كانت رفات الملك جيلي،

فيما مضى من الزمان [الملك «جيلي» هو والد الملك أون أشهر حكام دولة جو] قد دفنت في طرف ناءٍ من جبل تشو، وحدث أن المياه تسربت إلى تابوت الدفن، فتعرى جزء من قائم التابوت، وهنالك قال الملك أون ... «هو ذا جلالة الملك الراحل يريد أن يخرج إلى وزرائه وشعبه، والعلامة الصادقة على هذا هي أنه ترك سيل المياه ينفذ إلى تابوته المدفون.» ومن ثم فقد أخرج الصندوق الذي به الرفات وأعاده إلى القصر ونصب فوقه خيمة كبيرة، فوفدت إليه الناس زرافات ووحدانًا، وبعد ثلاثة أيام أقام له مراسم دفن (للمرة الثانية) أخرى، وكان ذلك من جملة ما اتصف به الملك أون من الفضائل العظيمة». ولئن كنت قد حددت موعد الجنازة، فقد انهمرت الثلوج بكثافة لا مثيل لها، حتى بلغت درجة كبيرة وأمدًا طويلًا، يتعذر معه خروج الناس من بيوتهم، ولا بد أن السبب القوي الذي يدفعك إلى التعجيل بالدفن هو الأجل المضروب للجنازة أليس كذلك؟ إن ما أرجوه منك يا سمو الأمير أن تضرب موعدًا آخر للدفن، بل إني واثق من أن جلالة الملك الراحل تحدوه الرغبة في البقاء بيننا عدة أيام يتمكن خلالها من «تقديم الولاء المقدس» لآلهة الزرع والأوطان؛ ويسكن جزَع شعبه الذي فُجع بوفاته؛ ولهذه الأسباب مجتمعة، فقد تعمد أن يرسل علينا كل تلك الثلوج، فلعلك تأمر بتأجيل موعد الدفن متعللًا بهذا السبب، ولتكن هذه واحدة من فضائلك الكبرى، ولا بد أن امتناعك عن تأجيل الدفن، هو في حدِّ ذاته إشارة واضحة إلى رفضك أن تأتي بتقليد في الفضائل الكريمة سبقك إليه الملك أون!» وهنا أبدى الأمير موافقته التامة، نزولًا على رأي كونسونيان، طالبًا منه تأجيل موعد الجنازة، واختيار يوم آخر غير مشئوم الطالع، ولم يكتف هويشي بإلقاء الموعظة وحض الأمير على هذا السلوك بالقول فقط، بل إنه قام وسط الناس، أثناء مراسم الدفن، وتكلم على رءوس الأشهاد مشيرًا إلى تلك الأخلاق الكريمة التي تحلى بها الملك أون (في وقت محنة) فهل يمكن أن تكون مثل هذه الإشارة إلى خصال وفضائل الملك أون، على مرأى ومسمع من أهل الممالك كافة ... مسألة بسيطة، هل تمر مرور الكرام دون أن تسجل في قيد المآثر العظيمة؟

لمَّا قامت الدول الخمس بمهاجمة تشين

قامت الدول الخمس بالإغارة على تشين [كانت خمس دول هي: يان وتشي ووي وجاو — هان، قد قامت مجتمعة عام ٢٨٧ق.م. بالهجوم ضد تشين، وارتدت خائبة] فلمَّا لم تحرز نصرًا، عادت أدراجها، ثم حاولت دولة تشي، فيما بعد، الهجوم على سونغ، فأوقفتها تشين وصدتها عن ذلك، فأرسلت دولة تشي، من جانبها المبعوث سونقو «في زيارة إلى تشين طالبًا

منها التحالف معها لمهاجمة دولة سونغ، وأبدى ملك تشين موافقته، وهنا وقع الفزع في قلب دولة وي، لما رأته من تحالف تشين وتشي وأرادت إجراء مصالحة سلمية مع تشين. (وبهذا الخصوص، فقد تكلم سوتشين مع ملك وي، قائلًا له:) «بلغني أن ملك تشين قال لـ سونقو: «إن من يقوم بضرب وتحطيم القوة الجبارة لدولة سونغ واقتسام أراضيها هي الدول الست مجتمعة، بينما أن دولتَين اثنتَين ستستغلان فرصة ضعف دولة سونغ وتقتسمان مع جلالة الملك مصالحه فيها، وهما وي وتشو. فائذن لنا بألا نقف في وجه تشو إذا أرادت مهاجمة وي، وساعتئذٍ فيمكن لجلالة الملك أن يفوز وحده بدولة سونغ، غنيمة سائغة له وإذ يقوم جلالته بمهاجمة سونغ، فلا بد له من أن يضع اليد القاسية مع اليد الرحيمة [هكذا حرفيًّا، بمعنى أن يستخدم كل والوسائل المتاحة له، سواء كانت عنيفة أم لينة]. إن الظهور على سونغ (وكسر شوكتها) يستحق توظيف كل الوسائل بما في ذلك تحقيرها والنيْل من كرامتها، وهو ما يُعد مشروعًا تمامًا، ولا يدخل في باب «الجرم أو الإثم الذي لا يُغتفر»، بل إن القضاء على تلك الدولة قضاءً مبرمًا وإزالتها من الوجود، لا يعد من قبيل البغض أو الشحناء. هذا ولا ينبغي لجلالة الملك المعظم أن يدخل في محاولات تصالح سلمي مع سونغ بهدف اقتطاع المزيد من أراضيها، فقد تم الحصول على ما يكفي، ولم يعُد يبقى سوى تعبئة الجيش لمهاجمتها؛ فالأمل في إفنائها معقود بدولة تشي …»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

فلمَّا سمعت هذه الكلمات أحسستُ بين جوانحي بالحزن والأسى، لأجل الملك، ثم إن من المؤكد أن دولة تشين سوف تلجأ إلى نفس الوسيلة في معاملاتها مع جلالته، ولا بد أنها ستوقع به في مآزق لا خروج منها إلا بالتنازل لها عن بعض أراضيه، حتى بعد أن تحصُل منه على ما يكفيها من الأرض، فلن تتوانى عن اللجوء إلى القوة لمهاجمته. ثم إنها يمكن — بالتأكيد — أن تميل إلى السلم والمصالحة مع جلالة الملك، بحيث تقنعه باستصغار شأن دولة تشي حتى إذا فسد التحالف بين وي وتشي، راحت تتودَّد إلى هذه الأخيرة لكي تساعدها في ابتزاز جلالته.

وقد سبق لدولة تشين أن جربت هذه الخطة السياسية مع دولة تشو، بل جربتها أيضًا مع دولة هان، ومن ثم فأرجو جلالته أن ينظر إلى هذه المسألة بعين التَّأمل والاعتبار ذلك أن ما تُبديه تشين نحو دولة وي من نوايا ودية ما زال أمرًا يحوطه الغموض والترقُّب، وهو ما يحدوني إلى القلق والظنون خشية ما يمكن أن يصيب جلالته من مكروه، وأرى

أن أنجح سياسة، هي الهجوم على تشين — هذا في المقام الأول — أما في المقام الثاني، فتأتي سياسة القطيعة مع تشين، وفي البند الثالث تقع سياسة توثيق الارتباط مع مجموعة دول التحالف مع التظاهر الشكلي بالحرص على علاقات السلام والمصالحة مع تشين، دون الدخول في عداوات مع باقي الدول. واعلم أنه لا يمكن الحفاظ على البلاد بمنأى عن الخطر ما دام التحالف قائمًا بين تشي وتشين، فأصغِ جيدًا لما أنصحك به وحذارِ من أن تقوم بالمصالحة مع تشين.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

مما لا شك فيه أن دولة تشين ذات قوة وسطوة جبارة وهو ما يفهمه جيدًا واحد مثل ويرانغ، تمامًا مثلما يفهم أيضًا باقي أحوال الممالك، وهكذا فهو — وعلى الرغم مما يحاوله من إلحاق الضرر بدولة تشين (خدمة لكم) — فإنه لا يستطيع ولا حتى يجرؤ على أن يجاهر بسياسته تلك. وأنت قد تسمع صوتًا يصدر عن الممالك ينطلق بالدعوة إلى مهاجمة دولة تشين، ثم يترامى إلى سمعك أيضًا، وفي الوقت ذاته، أن آخرين اجتمعوا سرًّا (بأطرافٍ من الممالك) ونصحوا بالتريث مُعلنين خشيتهم من التآمر ضد تشين، وإذا لاح لهم أن الممالك توشك أن تنقض على تشين لتفتك بها، بادروا إلى نكث عهدهم وميثاقهم مع دول التحالف ولينأوا بأنفسهم عن الانخراط مع الآخرين فيما هم مقدمون عليه، واعلم كذلك أنه إذا ما تداعت الممالك إلى مقاطعة تشين، فسيقولون، [أولئك الذين أحدثك عنهم] إنهم مُضطرون إلى الانصياع رغم أنفِهم. وإذا ما بَدَا لهم أنه لم يعُد بيد الممالك أية حيلة، وبادروا إلى خيانة عهدهم معها، ونظروا إلى تشين بوصفها الحليف الأول الذي يمكن أن يحفظ عليهم كيانهم أو يحتموا هم بظلاله، فكيف يمكن لجلالته أن يستعين بهؤلاء على دفع الخطر عن نفسه، وهم الذين يستثمرون خيانتهم له أفضل استثمار [يعدون خيانتهم له هي رأس مالهم الوافر].

اعلم أنه لا بد لمن يدفعون الخطر عنك من أن يعتمدوا ثلاث خطط سياسية، على أن تكون الخطة الأولى منها هي الواجبة والمفروضة قبل أي اعتبار، فإذا لم يتسنَّ لهم ذلك، لجئوا إلى الخطة الوسطى، وإلا اضطروا إلى الأخذ بالأدنى، فإذا لم تكن أدنى خطة ممكنة التنفيذ؛ فسيفعلون ما بوسعهم لتوضيح موقفهم من أن مصيرهم غير مرتبط بمصير تشين، وبالتالي فسيُقدِمون على الإضرار بها مهما كانت النتائج، ويدركون تمام الإدراك أن استقرار أحوالهم منوط بدرء الخطر عن دولة وي [حرفيًّا: دون الوقوف موقف المتفرج عليها].

ولا يُمكنني، بأي حال، أن أدعوك إلى نبذ ميثاق التحالف سعيًا للتصالح مع تشين درءًا للمخاطر وتجنبًا للويلات؛ وذلك لأني لا أعرف على وجه اليقين مدى ملاءمة هذه السياسة، فهل يُمكنني ذلك حقًّا؟ فما دام الأمر على هذا النحو الذي شرحت لك، فلست أرجو إلا مزيد النظر والاعتبار والتأمل.

الجزء الرابع من الفصل نفسه

إن يان وتشي دولتان متعاديتان؛ وتربطهما مع تشين علاقات ودية وأخوية، فاذهب وحاول أن تدعوهما إلى التحالف معًا — على الرغم مما بينهما من البغضاء والعداوة — لضرب تشين (التي تربطها بدولة يان علاقة مصاهرة — حيث تزوج أمير يان ابنة ملك تشين — أكثر مما هي علاقة) أخوية وستجد أن الأمر أصعب مما تظن.

لقد قام (فيما مضى من الزمان البعيد) الإمبراطور الأعظم بشن حملة عسكرية ضد منطقة الأحراش في «جوالو» ومع ذلك فلم تنتفض قوات «رونغ الغربية» لمقاومته؛ وكذلك قام الإمبراطور الحكيم «يو» [كما تنطق في الفيوم] بمهاجمة قبائل «مياو» الثلاث، دون أن يثور ضده أهالي «إي» [كما تنطق في «إيلات»]. (وهكذا ف) محاولة تأليب يان ضد دولة تشين، مسألة في غاية الصعوبة، بالدرجة التي يتعذَّر، حتى على إمبراطور الزمان نفسه أن يجد إليها وسيلة، وكل ما أستطيعه هو أن أحض جيش يان على الخروج للقتال، ثم أقوم من جانبٍ آخر بدعوة قوات تشي على الخروج لملاقاته، كما أني أعمل ما في وسعي للاعتراف بطاعة المسئولين في سانجين، وأعمل بإخلاص في خدمة كل من «فنغ يانجون»، «منغ شانجون»، «هانمين»، و«جوتسوي» و«هانشيو» وأعرف لنفسي مكاني خلفهما. وقد بادرت إلى قطع كل علاقة تربطني بدولة تشين لئلَّا تساور المسئولين أية هواجس بشأن الوقوف في وجه تلك الدولة. بل كنتُ أنا أول من دعا أمراء الدويلات إلى حرق وثائق معاهداتهم واتفاقاتهم مع تشين، وكنت أنا أيضًا الذي جدد تلك الدعوة بين الجميع، ثم إني دعوتهم، كذلك، إلى دولة تشين. يومئذٍ لم يتفق معي في الرأي سوى فنغ يانجون، وهانشيو؛ أما «صوشيو» و«جوبي» [مبعوثا دولة تشو] فقد بقيا، سرًّا، في هاندان، ولم أكتفِ بذلك، بل حاولت أن أحث ملك تشي على المضي قدمًا في طريق مناهضة نفوذ تشين، وذلك بمحاولة تخريب الاتفاق القائم بين سونقو ودولة تشين.

إلا أن كلمة الأمراء اتفقت حول مصالحة تشين ثم أرسلوا «صوشيو» ليذيع ما توصلوا إليه من رأي موحد، واعتبروا أن دولة تشي أفضل حليف لهم، وطالبوا بدفع قوات لمهاجمة

دولة وي، واحتدَّ الاختلاف بيننا، وصار الصراع معهم داميًا. ثم ترامت إلينا من الغرب، أنباء بواسطة صوشيو، تفيد بعدم إقدام تشي على مهاجمة وي. (وفي كل تلك الحلقات والفصول من الصراع الكبير) فلم أكن — بالطبع — أجهل قوة ونفوذ تشين، لكنني لم أذهب إلى ذلك المدى إلا لأجلك أنت.»

لمَّا كانت العلاقة ودية جدًّا بين ثلاثة

جرى الود مجراه بين كل من «تيانون»، «تيانشيو»، «جوشياو»، وأرادوا أن يحملوا كونسونيان أوزار كل شيء، وهو ما أثار خشيته وقلقه، فذهب إلى ملك وي وقال له: «إن مبعث القلق كلِّه ينصبُّ على دولة تشي، وأعرف أن حاكمها يميل بأذنه إلى كل كلمة يقولها له «تيانبي»، ولئن كنت تريد حقًّا، يا مولاي، أن تستحوذ على دولة تشي، فلماذا لا تعجل في استدعاء تيانون لتسند إليه منصب رئيس الوزراء؟ فهو الرجل الوحيد القادر على أن يجعل تشي كلها تقوم على خدمتك وتصبح كالخاتم بين أصابعك؟» فرد عليه الملك، قائلًا: «أوافقك تمامًا على ذلك.» وأرسل في استدعاء تيانون وكلَّفه بالعمل رئيسًا لوزرائه، ومن ثم استطاع كونسونيان أن يفرض سيطرته التامة على تيانون، بل باعد بينه وبين كل من تيانشيو وجوشياو.

لمَّا أوفد ملك وي رئيس وزرائه

أمر ملك وي رئيس وزرائه هويشي [من مواطني دولة سونغ، كان وقتذاك رئيسًا لوزراء وي] بالتوجُّه إلى دولة تشو، وأوفد كونسونيان إلى دولة تشي، وكان عدد العربات المرافقة للرجُلَين في بعثتيهما متساويًا تمامًا، وكان الغرض الأساسي من ذلك هو قياس مدى صدق ما تُبديه الدولتان من روح ودِّية نحو دولة وي، وهكذا فقد أرسل هويشي (من طرفه) مبعوثًا إلى دولة تشو، ليُصرِّح للجميع، هنالك، قائلًا: «قد أمر ملك وي كونسونيان بالتوجه إلى تشي مثلما أصدر أمره إلى هويشي بالمجيء إليكم في تشو، وأعطى كل واحد منهما عددًا متساويًا من العربات رغبة من جلالته في استجلاء موقف البلدَين الودي واتجه إلى مشارف العاصمة ليكون بنفسه، في استقبال هويشي.»

لما قام ملك وي بتعبئة الجيش

قام الملك هوي، حاكم دولة وي بتجنيد الأهالي في جيش كثيف، وجعل على رأس القوات ولده الأمير «شن»، قائدًا عامًّا وأمره بالتوجُّه لقتال دولة تشي. وكان أن أحد الغرباء القادمين من خارج البلاد ذهب إلى الأستاذ «القون تسيلي»، وقال له: «ما الذي منعك من أن تنصح لسيدك «القون» بأن يهرع إلى زوجة الملك ويرفع صوته عاليًا بالبكاء (حتى يؤجِّج مشاعر اللوعة عندها، لعلَّها تمنع ولدها الأمير من السفر في تلك المهمة؟ فإذا تكللت المهمة بالنجاح وحيل بين الأمير والذهاب إلى القتال، كان ذلك منه صنيعًا ومعروفًا يذكر بالخير، أما إذا كانت الأخرى، فربما تقلد زمام الحكم وصار ملكًا فوق البلاد؛ فالأمير ما زال شابًّا حَدثًا، لا عهد له بالحرب والقتال بينما كان «تيانيان» — أمير جيش دولة تشي — قائدًا محنكًا ذا بأس وتجربة طويلة في ساحات الوغى، (هذا، في الوقت الذي كانت دولة تشي تستفيد من خبرة رجل بارز في فن الحرب؛ فقد كان سون تسي، خبيرًا أيضًا في أمور المعارك وفنونها [الإشارة الحقيقية، هنا — إلى سون بين — تلميذ سون تسي — وثاني أشهر رواد فن الحرب قديما!] ولا أظن أن النصر حليف سموه لو خرج إلى القتال، بل قد يسقط في الأسر إذا ما حلت به الهزيمة. فليسرع القون إلى جلالة الملك الأعظم وليتشبث برأيه عنده. فإذا ما أخذ جلالته بوجهة نظره، فسيصله الملك بكثير من سخائه وأفضاله، أما إذا مضى الشوط إلى آخره (ودخل الأمير بقواته ساحة الحرب ... فهو خاسر لا محالة، وعندئذٍ، فلا بد أن القون سيحل محله أميرًا شرعيًّا [يخلف الملك على العرش وقت وفاته] ومعنى هذا أنه سيرتقي عرش البلاد ملكًا بكل صولجانه وهيبته في الغد القريب.»

لمَّا اشتبكت دولة تشي مع وي في موقعة

وقع الاشتباك بين دولتي وي وتشي في موقعة «مالينغ»، وأنزلت تشي بغريمتها هزيمة نكراء، قتل فيها سمو الأمير «شن» أمير دولة وي، وهلك فيها مائة ألف فرد من جيشها، وعندئذٍ قام ملك وي باستدعاء هويشي، وأبلغه قائلًا: «إن تشي هي عدوتي اللدود، والبغضاء — كالحياة والموت — لا تُنسى مع الأيام، مهما طالت، وعلى الرغم مما عليه بلادنا من صغر المساحة (وقلة الموارد) فلطالما حلمت بأن أعبِّئ جيشًا مهولًا وأنطلق به نحو تشي فأدكُّها دكًّا، فما رأيك في هذه الفكرة؟» فأجابه هويشي، قال: «هذا ليس من الصواب في شيء وقد بلغَني أنه قيل: «لا يؤتى الرياسة إلا ذو التقدير الصائب والمنطق السديد، كما أنه لا يؤتى

الملك إلا ذو فهم بالخطط المحكمة والتخطيط الواعي السليم.» وما قد سمعته منك الآن، يخلو من أي تقديرٍ صائب أو تخطيط بصير. وقد كنت وقعت في اللدد والخصومة مع دولة جاو، بادئ ذي بدء، ثم أشعلت فتيل الحرب مع تشي، بعد ذلك، دون أن تترك خلفك قوات دفاعية تحمي المقدمة التي سارت إلى جبهات القتال، ها أنت تريد أن تهجم بكامل قواتك على تشي، وهي خطة لا أنصح بها؛ فإذا كنت تريد أن تثأر لنفسك من تشي حقًّا، فالأفضل أن تبادر على الفور بتغيير ملابسك الملكية ثم ترتدي زيًّا بسيطًا، (وتطأطئ بعض الشيء لحكم الظروف) وتتجه نحو دولة تشي لزيارة بلاطها الحاكم، وهو ما سيشعل الغضب في قلب حاكم تشو. ثم ابعث إلى تشي وتشو من يسعى بكل وسيلة لإثارة الشحناء بينهما، فتقدم تشو على غزو تشي، وإذ تتكالب دولة قوية جبارة مثل تشو على تشي الضعيفة المتهافتة، فالنصر حليفها بكل تأكيد، بينما يعود الفضل في تحطيم تشي، أساسًا، إلى تدبيرك أنت وتخطيطك السديد.»

فوافق ملك وي على هذا الاقتراح وأرسل إلى دولة تشي يبلغها برغبته في الاعتراف لها بالطاعة والاحترام، فرد عليه «تيانبي»، بالموافقة والترحيب، وهنالك تكلم جانشو، قائلًا: «هذا لا يصح أبدًا؛ إذ لو كان ملك وي جاء إلينا اعترافًا بالطاعة لنا، قبل أن يقوم القتال بيننا وبينه، (لكان الأمر قد اختلف كثيرًا، لأنه كان من الممكن حينئذٍ أن نتحالف معه ونقوم بإخضاع تشو تحت سيطرتنا، مما يمكن أن يُعد انتصارًا عظيمًا ونجاحًا باهرًا لنا. أما الآن وقد ألحقنا الهزيمة بدولة وي وكبدناها خسائر فادحة في القوات (مائة ألف قتيل) وأوقعنا في الأسر بأمير البلاد، [هكذا، حرفيًّا، برغم ما ذكر في أول النص من أنه جرى قتل الأمير أثناء المعارك!] وكسرنا شوكة ذلك البلد الذي كان يباهي بامتلاكه عشرة آلاف عربة عسكرية، واستصغرنا شأن دولتي تشين وتشو، فلا يمكن أن يسير الأمر على النحو المقترح ... وإلا فسيتعاظم إحساسه بالغطرسة ويزيد في جبروته، هذا بالإضافة إلى ما يتسم به سلوك ملك تشو من الجري وراء الشهرة والولع بالدخول في المناوشات القتالية، وهكذا فلا بد أن نعمل على أن تكون دولة تشو هذه هي التي تحطم صلف وغرور وغطرسة تشي وتصبح نكبتها النكباء».

لمَّا أراد هويشي إرساء العلاقات بين

أراد هويشي أن يوطد العلاقات بين دولتي هان ووي، فأرسل الأمير «مينغ» [ولد الملك هوي حاكم وي] رهينة سلام إلى دولة تشي، ولمَّا أبدى الملك رغبته في مقابلة ولده قبل مغادرته،

تكلم «جوتسان» [كبير وزراء وي] مع جلالته قائلًا: «لا أدري لماذا لا تدَّعي أنك مريض، ثم ترسلني إلى تيانبي في محاولة للتأثير عليه، حيث أقول له ... «بلغ ملك وي من السن عتيًّا، واعتلَّت صحته للغاية، فدع الأمير يرجع إليه، فيشكر لك هذا الفضل بكل امتنان وإلا فربما اضطرت دولة تشو أن تعيد إلى جلالته «القون» [النبيل]: «قاو» المقيم لديها فيحل محل الأمير الغائب؛ مما يعني أن تحتفظ تشي لديها بأمير رهينة (ليس له أدنى اعتبار أو قيمة) تمسكًا بأسباب غير إنسانية».»

لمَّا نال تيانشيو حظوة لدى الملك

نال تيانشيو حظوة لدى ملك وي، فكلَّمه هويشي، قائلًا: «لا بد أن تعامل حاشية الملك بأحسن وجوه المعاملة، انظر إلى شجرة الحور تلك القائمة هناك، وتأمل كيف أنك إذا غرست سيقانها أفقيًّا فسوف تنمو وإذا قلبت ساقها وغرسته رأسًا على عقب فسوف ينمو ويزدهر، وإذا نزعت عن الساق بعض الأغصان، فسيصلح للزرع والإنبات أيضًا، إن شجرة حور يزرعها عشرة أفراد، يستطيع فرد واحد أن يقتلعها، فلا يعود ثمة شيء يصلح للإنبات.

وهكذا يصير من السهل جدًّا أن تفسد شجرة قابلة للنماء على يد رجل واحد، حتى لو قام على تعهدها بالغرس عشرة رجال. أما دريت لماذا؟ هذا أمر واضح جدًّا، باعتبار أن الاقتلاع أيسر من الغرس فتأمل ذلك واعلم أن ما نلته من حظوة وثقة لدى الملك شبيه بما حدثتك عنه؛ إذ تجد غرسًا صالحًا لدى رجل واحد، بينما يترصد بك كثيرون لاقتلاعك، فاحذر فإنما قد بلغت مشارف الخطر.»

لمَّا قضى تيانشيو نحبه

مات تيانشيو وحدث أنه لما التقى جاويو [رئيس وزراء دولة تشو] مع سوادي، قال له: «قد مات تيانشيو، وأخشى أن يتولى أحد الرجال الثلاثة (تشانغي أو شوكون، أو كونسونيان) رئاسة وزراء دولة «وي».» فأجابه: «فمن، إذن، تراه الأنسب لهذا المنصب [بالأحرى: من تراه الأكثر نفعًا والأجدى لك؟!]» فقال: «أرى أن يقوم أمير دولة وي بمهام رئيس الوزراء.» فقال له سوادي: «فائذن لي أن أقابل ملك وي وسأبذل جهدي كي يتولى سمو الأمير هذا المنصب.» فسأله جاويو عن الوسيلة التي سيتمكن بها من تحقيق هذا الغرض، فأجابه

سوادي قائلًا: «أرى أنك تتقدم بالاقتراح الذي تنطلق فيه مما تراه مفيدًا لجلالة ملك وي، فاسمح لي بأن أنقل لجلالته هذا المعنى (عن لسانك)» فرد عليه جاويو قال: «لكن أخبرني كيف ستفعل هذا؟!» فأجابه: «سأقول له إني قادم من دولة تشو حيث التقيت بـ «جاويو» الذي بَدَا عليه القلق الشديد، فلما سألته عن السبب في إحساسه هذا، أجابني بقوله ... «قد مات تيانشيو، وأخشى أن يتولى رئاسة الوزارة واحد من بين ثلاثة؛ تشانغي، أو شوكون أو كونسونيان.» فقلت له: «لا داعي للقلق، فجلالة الملك قد بلغ من الحكمة والتجربة مبلغًا يحول بينه وبين تعيين تشانغي في هذا المنصب؛ لأنه لو صار رئيسًا لوزراء دولة وي؛ فسوف ينحاز إلى جانب تشين، مبتعدًا عما في صالح دولة وي؛ أما إذا تولى هذا الموقع شوكون، فسوف يقترب من تشي أكثر مما ينبغي مما يُباعد بينه وبين وي؛ فإذا حدث أن قام كونسونيان على رئاسة الوزراء فسوف يعمل على محاباة دولة هان مغضيًا النظر عما في مصلحة وي.» ولا بد أن جلالتك بما عجمت السنون من عودك، ولقَّنتك الأيام من الحكمة لن تُقدِم على تعيين أي واحد منهم رئيسًا للوزراء.» ... ثم أُردِف هذا بأن أقول له ... «والأفضل أن تسند هذا المنصب لسمو الأمير، ولا يخفى عن جلالتكم أن ثلاثة الرجال الذين ذكرت لك يرون أن سموه يجب أن يبقى بعيدًا عن رئاسة الوزراء، بل إنهم مُستعدون لعمل أي شيء في طاقاتهم، متوسِّلين في سبيل خدمتك والوقوع منك موقع الرضا بما تُبديه بلادهم نحوهم من اعتراف بالطاعة والإكبار لمكانتك (وسط الممالك) وكل ما يطمحون إليه هو الحصول على خاتم السلطة الوزارية العليا.

ولا شك أنه مما يبعث على الارتياح والشعور بالاستقرار أن تبلغ مكانة دولة وي هذه الدرجة من المهابة والنفوذ بحيث تخطب ودها وتعترف لها بالطاعة ثلاث دول تملك الواحدة منها ما مقداره عشرة آلاف عربة عسكرية؛ لهذا كله أرى أن التصرف الأمثل هو أن يسند منصب رئيس الوزراء إلى سمو الأمير.»

ثم إن سوداي قام وسافر صوب الشمال لمقابلة ملك وي، وقال لجلالته كل ما كان قد أعده من الكلمات آنفة الذكر، وبالفعل فقد تولى أمير وي منصب رئيس الوزراء.

لمَّا أرسل ملك تشين في استدعاء رئيس وزراء

أرسل ملك تشين في استدعاء «شينان جون» رئيس وزراء دولة وي، فتردد في الاستجابة إلى طلبه والذهاب إليه، فسارع سوداي إلى لقاء ملك تشين منافحًا عن الرجل، قائلًا لجلالته: «قد بلغني، يا سيدي، أنه ليس شرطًا أن ينضوي المخلصون لك في حزبك وشيعتك، كما

أنه ليس من المؤكد تمامًا أن يكون الموالون لك هم أصدق المخلصين، وسأحاول فيما يلي أن أوضح لجلالتكم وجهة نظري المتواضعة وإن كنت أخشى ألا أكون مخلصًا لموظفي القصر وعُمَّال جلالتك الذين يأتمرون بأمرك، فأجلب على نفسي عقوبة الإعدام فيطاح بعنقي وتزهق روحي؛ ولذلك أرجو أن تتثبت من هذا الأمر وتسبر غوره جيدًا. ولنعد الآن إلى النقطة الجوهرية في موضوعنا فأنت قد أرسلت إلى دولة وي من يتولى شئون تصريف المهام الحكومية بها، حرصًا على توطيد العلاقات بين بلديكما، ومع ذلك فلا أجد ثمة أمل في تقوية جسور هذه العلاقة أصلًا، وهو ما يُثير قلقي الشديد. هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى فإذا كنت ترمي من وراء توطيد علاقاتك الخارجية مع باقي الدويلات إلى كبح جماح دولة جاو، فأخشى ألا تُصيب غرضك في هذا، بل ستتقوى دولة جاو، وتبلغ أقصى درجات الصلابة والغطرسة.

إن ما يوليه ملك وي لرئيس الوزراء «شينان جون» من حُب وعطف قد بلغ ما لا يزيد عليه، وقد اعتاد جلالته أن يختار ذوي الكفاءة والموهبة للمناصب الرفيعة ويغدق عليهم الصلات الكريمة، ومن الواضح أن فخامته يخشى بل يفزع مما يمكن أن تحظى به بلادكم من الاحترام والتبجيل، ثم إنك إذا أرسلت إلى دولة وي من لن يحظى بأي اعتبار أو لا يؤبَه بما يحوزه من كفاءة واقتدار، فأنت تسعى فيما لا طائل وراءه؛ أما إذا حظي مبعوثك هناك بالاهتمام اللائق، وتم تعيينه في المنصب الجديد به، فسيكون منطلق دولة وي في ذلك، قائمًا على أساس الخشية من مكانتكم وليس الحب أو الود الصادق، وهذا كله سيصبُّ في المحصلة النهائية في جملة الأسباب الداعية إلى شعور ملك وي بمزيد القلق. ولا أتصور أن من السهل على «شينان جون» أن يتحول عن مهمة الإشراف على سياسة بلدٍ يملك عشرة آلاف عربة عسكرية (مهما كانت الأسباب) مثلما أتصور أيضًا أنه من المُستحيل أن تستمر طويلًا سياسة مؤدَّاها أن تتسبَّب في قلق مقيم لدى قادة وملوك البلدين، أو أن تضع قيودًا على حركة وعمل وتصرف رجال الدولة في أي مكان؛ ولهذا كله أشعر بالقلق المُتزايد على مستقبل العلاقات مع دولة وي (ويبدو لي أنه من المستحيل أن تقوم تلك العلاقة أصلًا!).

وبالإضافة إلى هذا كله، فإذا حدث أن انصرف شينان جون عن تسيير دفة السياسة في دولة وي، فلا بد أن خبراء التخطيط في جاو سيقولون (فيما بينهم) ... «ها هي ذي دولة تشين تمسك بزمام الموقف كله، فتنحي شينان جون عن منصبه (في وي) ولا بد أنها ستعمل في المستقبل، على أن ترسل إلينا المقربين من حاشية الملك ليتولوا شئون الحكم في بلادنا، وهذا معناه القضاء علينا جميعًا (باسم الإبقاء على مصالح جاو) فيكون استقرار الأحوال مرهون بزلزلة كياننا.»

وهو أمر من شأنه أن يوقظ في رجال الحكم والمتنفذين روح الصراع والقتال في ساحة اشتباك. مع أعداء أجانب، ويزكي في نفوس الشعب [حرفيًّا: الناس في المرتبة الأدنى] حماس الدفاع عن أرض الوطن، فمن ثم انتابني الإحساس بالقلق، لأن تلك الحال كفيلة بأن تعمل على إعلاء كوامن القوة في دولة جاو، فتتعاظم طاقاتها للغاية.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

ولئن كنت تريد الحفاظ على علاقات (دبلوماسية) مع دولة وي، دون أن تُثير كوامن النزوات الطائشة في نفس دولة جاو، فليس أفضل من أن تجعل شينان جون عاملًا من عمَّالك الذين يبذلون جهدهم في خدمتك، مستفيدًا من الشهرة التي أصابها (بموقعه كرئيس للوزراء) ومن سامق مكانته، أما إذا بَدَا أنه يعصي جلالة الملك، فسوف يطل الخطر برأسه من داخل دولة وي مما يُقلل من سلطاته التي يقبض عليها بيدَيه، أما إذا أبقيتَ له سلطاته ونفوذه فسيمكنك أن تجعله خادمك الذي لا يستعصي عليه أمر. وما كان المتنفذون [حرفيًّا: الذين في المرتبة العليا] يُثابرون على خدمة ملوكهم إلا لتبيان آيات الإخلاص، وما سعى العامة [حرفيًّا: الذين في المرتبة السفلى] سعيًا إلا كسبًا لمغنم وفير ومكافأة جزيلة. وما أظن شينان جون إلا باذلًا جهد طاقته في خدمة جلالته، وهو ما سيدفع رجال دولة جاو إلى القول بما نصه ... «قد تحاذينا في المكانة وتساوينا في الجلال مع أهالي دولة وي، فما زادت ثمار أراضيهم عما تغله أراضينا.» ثم ها هو ذا شينان جون يسعى في خدمة ملك تشين، حتى أغدق عليه الصلات وأنعم عليه بالمودة والقربى فاستمتعت وي برغد العيش والاستقرار، وبلغ شينان جون المكانة العالية الشريفة. فما لنا قد عقدنا عقدة البغضاء والعداوة مع تشين، حتى صارت جنودنا أهدافًا حية لمرماها، وتردت أحوال بلادنا في حالٍ مُزرية من الضعف والخطر، فما نظن تلك إلا سياسة حمقاء من جانبنا؛ حيث القتال والشحناء على الحدود، والكوارث المُدلهمة في الداخل، حتى أوقعنا بأنفسنا في المأزق، فلا يمكن أن تكون تلك طريقة حكيمة في معالجة الشئون السياسية. ومن ثم يشعرون ببالغ الأسف لما بدر منهم فيما سلف من الزمان، ويطمحون لنيل فرصة أفضل ومغنم أمثل، وعندئذٍ فلا بد أنهم سيعرضون التنازل عن أجزاء من أراضيهم ترضية لجلالتك، حيث تأتيك الوفود تترى لتتنازل عن المزيد فالمزيد وأنت قاعد مكانك تنظر: [حرفيًّا: وأنت عاقد كفيك، مسبل إزارك] فيما لم يكن ممكنًا للإمبراطورَين الحكيمَين [حرفيًّا: الصالحين] «ياو»، «شون» أن ينعما به من السطوة والنفوذ والجلال، وكل ما أرجوه من جلالتك التأمل والتثبت بدقة وإمعان فيما قلت.»

لمَّا قامت تشين وتشو بمهاجمة

قامت تشين وتشو بمهاجمة دولة وي، وحاصرتا محلة بيشي [من أعمال دولة وي]، فذهب من يُكلِّم ملك تشو (عن لسان ملك وي) قائلًا له: «ستتغلب كل من تشين وتشو على دولة وي، وهذا حاكمها قد تولاه الفزع من اندحار بلاده، ولا بد أنه سيذعن بالطاعة لدولة تشين، فلماذا لا تغادر معسكر تشين (وتخرج عن حلفها) لتسارع إلى مصالحة مع وي؟ ولا بد أن حاكمها سيبادر — في غمرة سعادته — إلى تسليمك ولده الأمير؛ رهينة سلام بأرضك، فإذا خشيت دولة تشين من فقدانها التحالف معك، فلا بد أن تتنازل عن المحلات والأراضي، فلو اضطرت حينئذٍ إلى معاودة ضرب دولة وي بالاشتراك مع تشين فسيمكنك ذلك بكل سهولة.» وهنالك اقتنع ملك تشو بتلك الخطة، وخرق اتفاقه مع تشين ليجري مصالحة سلمية مع وي، وقامت هذه — بالفعل — بإرسال أميرها ليبقى رهينة سلام في أرضه، وعندئذٍ استولى الفزع على قلب تشين، ووعدت بإعطاء تشو الكثير من الأراضي والقرى (على سبيل الترضية) على أمل أن تعاود الكرَّة مع صاحبتها في ضرب وي. وثار غضب «تشوليجي» وأراد أن يتحالف مع وي لضرب تشو، إلا أنه قدر أن وي ربما خافت عاقبة ما يمكن أن يصيب أميرها المقيم هناك، فأحجمت عن المشاركة في القتال، وهنا فقد ذهب إلى ملك تشو من خاطبه (بالنيابة عن تشوليجي) قائلًا: «إن تشوليجي خادمك المُطيع وراء الحدود، قد أرسلني لمقابلة جلالتك لكي أبلغك بما نصه ... «إن مليكنا يود لو كان بإمكانه أن يهديكم الأراضي والبلاد [المدن الصغيرة] إلا أن الشيء الوحيد الذي يعوقه عن هذا هو بقاء أمير البلاد رهينة سلام بيد دولة تشو، فإذا أطلقتم أمير دولة وي من عندكم، فائذن لي بأن أعرض عليكم قبول تنازلنا لكم عن أجزاء من الأراضي والمحلات الكثيرة، تمهيدًا لاستعادة سابق العلاقات الودية بين تشين وتشو، عسى أن نُشدد قبضتنا معًا في الهجوم على وي.» ... فوافق ملك تشو على هذا الرأي وأعاد أمير وي إلى بلاده، وعندئذٍ قام التحالف الفوري بين تشين ودولة وي لمهاجمة تشو.

لمَّا تقرر إرسال أمير البلاد ومرافقه إلى

تقرر إرسال «بان تسون» مع أمير دولة وي إلى دولة جاو ليبقيا هناك رهينتي سلام، فالتقى بملك وي، قال له: «ماذا لو جاءك رجل وقال لك، يا مولاي، إن بالمدينة نمرًا يجوب أسواقها، هل كنت تصدقه؟» فلمَّا رد عليه الملك بالنفي، قال له: «فماذا لو كان اثنان من

الناس قالا لك إن النمر يجوب السوق؟ أكنت تصدقهما؟» فأجابه: «كنت أميل إلى الشك قليلًا» ... «فماذا لو كان الذي أبلغك بذلك ثلاثة أفراد؟» وهنالك أجابه ملك وي بقوله: «نعم كنت سأصدق بالتأكيد!» فقال له بان تسون: «مع أن أسواق المدينة كانت خالية تمامًا من آثار أي نمر عابر في الطرقات، إلا أن مقولة ثلاثة أفراد، مؤكدة لوجود النمر، أوحت بما يُشبه الحقيقة. والآن، فقد آن لنا أن نعرف أن ما بين هاندان وطاليان أبعد كثيرًا (عن التصديق) مما هو مأثور عن حكاية السوق هذه، ومع ذلك فإن الذين يُجادلونني في هذا الموضوع يزيدون كثيرًا عن ثلاثة أشخاص، فأرجو من جلالتك تأمُّل هذه المسألة بعمق!» فرد عليه الملك، قال: «(على رسلك ...) فأنا أستطيع أن أميز بين الحق والباطل (وأهتدي إلى الحقيقة في هذا الشأن).»

وهكذا فقد ودَّعه بان تسون وانطلق في طريق السفر، ثم ما لبثت الوشايات أن ترامت من كل صوبٍ إلى أسماع ملك وي، مما عرقل إرسال أمير البلاد ليبقى في الخارج رهينة سلام، وهكذا فلم يقدَّر لـ بان تسون أن يحظى باستدعاء الملك لمشاورته.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

أقام ملك وي لأصحاب الفخامة أمراء وملوك الدويلات حفل أنخاب كبير في «فانطاي»، فلما دارت الكئوس ولعبت الخمر بالرءوس طلب جلالته إلى القون [النبيل] أمير دولة لو أن يمزج الخمر ويرفع الكأس، فصدع الرجل بالأمر وقام واقفًا وانتحى بعيدًا عن مكانه وتخير مما جاءت به قريحته كلمات مناسبة، حيث قال: «كانت ابنة الأباطرة القديسين [إشارة إلى «ياو»، «شون»] قد أرسلت «آيدي» ليصنع خمرًا، فلما جاءها بشيء منه وجدته أحلى الخمر وأشهى الشراب. فقدمت منه إلى الملك «يو» الذي وجده سائغًا، عذب المنهل، فآثر الابتعاد عن (الصانع) «آيدي»، وأقسم ألا يقرب خمرًا صافي الشراب (مثل ما قُدم له آنفًا)، قائلًا: «سيأتي بعدنا من يضيعون بلادهم لقاء كئوس مترعة».

وكان الملك هوان، حاكم تشي قد اشتكى ألمًا أصاب معدته فأيقظه في منتصف الليل، فقام إليه «إيا» [وزيره المقرب إليه] وأعد له أطباقًا شهية المذاق، فأكل حتى شبع (وزالت عنه الأوجاع) فنام حتى وقت متأخر من اليوم التالي، فلما انتبه، قال ... «سيأتي من بعدي (ملوك) يُبددون ملكهم مقابل أكلة شهية».

وحدث أن أُهدي للملك «أونقون»، حاكم جين، فتاة رائعة الحسن، تدعى «نانوي»، فشغلته ثلاثة أيام كاملة عن النظر في شئون البلاد، فأمر بها أن ترسَل إلى مكانٍ قصي

حتى ينأى عن مشاهدة جمالها، وقال: «سيأتي في قادم الأيام من يلهون عن ملكهم اشتهاء لذَوات الخدور وربَّات الحجال.»

ومما يؤثر عن ملك تشو أنه صعد ذات مرة إلى قمة «تشيان» الصخرية العالية متطلعًا إلى جبل «بنع» وإلى يساره نهر «اليانغتسي» بينما امتدت إلى يمينه رقعة بحيرة «طونتين». وإذ وجد نفسه قد اعتلى قمة سامقة، ذاهبة في الارتفاع، أخذ منه التيه والكبر مأخذًا عظيمًا، وعزَّ عليه أن يكر راجعًا إلى أسفل القمة، وامتلأت نفسه من السعادة ونشوة الفرح ما ملك عليه كيانه فشُغل باللذة عن حياته، واستغنى بالتأمل عن ذاهل الموت. فلما انقضى من الزمان ما انقضى وفات رجع فأقسم ألا يصعد إلى ربوة «تشيان» مرة ثانية، قائلًا: «سيخلفنا من تُذهله لذة النظر إلى التلال السامقة والأنهار الجارية عن شئون الوطن» ... والآن، وقد انعقد لعرشك معقد العزة والبهاء، فقد صرت تنعم بكل ألوان النعيم كيف شئت، وترفل في أثواب الترف كسوة بعد كسوة، فهذه الكأس بيدك مترعة الشراب (قد صبها لك «آيدي» — أعظم نادل)، وهذه صحفتك عامرة بطعام ذكي النكهة أعده لك أفضل طاه [ويدعى «إيا»] وإلى يمينك ويسارك تثنت في دلالٍ فتاتان رائعتا الحسن (هما: «باطاي» و«لوشو»)، وقد بلغتا من الملاحة ما فاق «نانوي» من بديع الجمال، وإذا نظرت أمامك تطلعت إلى غابة «شيا» بمناظرها الخلابة، وأروع منها ما ترامى خلفك من مشاهد الروعة بمنطقة «لانطاي»، مما لا تدانيه قمة تشيان سحرًا وجاذبية؛ فقد نلت من كل متعة نصيبًا، وهو ما يكفي إبادة (ليس بلدٍ واحدٍ فقط، وإنما ...) دنيا بأسرها أو كتل متراصَّة من الأوطان والممالك.

وإذا كان لي أن أقول لجلالتك شيئًا، فاعلم أنه ما دمت قد مزجت المتع مزيجًا واحدًا، فالزم الحذر البالغ (أترى ثمة رأيًا آخر؟!)» وقد ظل الملك يُطاطئ رأسه موافقًا على رأيه، ولسانه لا يفتر عن القول ... «نعم ... هو ذاك تمامًا، صدقت!»

سجل وي الثالث

لَّما اتفقت كلمة تشين وجاو على مهاجمة

تم الاتفاق بين تشين وجاو على مهاجمة دولة وي، مما أوقع بالفزع الشديد في قلب حاكمها [الملك شاو حينئذٍ]، فتكلم معه «مانماو» [أحد مواطني وي] قائلًا: «دع عنك القلق، يا مولاي، وربما أمكنك أن توفد «تشانهي» إلى ملك جاو، فيبلغه عن لسانك ما نصه: «أرى أنه لا ينبغي لي — حسب الأحوال الْمُقررة سلفًا — أن أقوم باحتلال أرض «هيدي»، ولذلك فأنا أقدمها إليك اعترافًا بهيبتك وسلطانك، وقد هالني وأدهشني ما تقوم به من تودُّد ومحاباة إلى دولة تشين مقابل العداوة والحرب ضد بلادنا (وي)».» وتهلل ملك جاو فرحًا، واستدعى إليه رئيس وزراء جاو وأصدر إليه أوامره قائلًا: «إن ملك وي يعرض عليَّ إهدائي أرض هيدى في محاولة للتقرب إليَّ والاعتراف بنفوذي، ثم إنه يهدف من هذا أيضًا أن أقطع علاقتي بدولة تشين.» فرد عليه رئيس الوزراء بقوله: «إن المزايا التي كان يمكن أن تعود عليك من التودد إلى تشين والهجوم على وي، لم تكن لتزيد بأي حال عن الحصول على أرض هيدي، فلم يعد بك حاجة الآن لدفع قواتك (التي كان الغرض الأساسي من تحركاتها، الاستيلاء على أرض هيدي) فلعلك تسارع إلى قبول عرض دولة وي.» وقال تشانهي لملك جاو: «إن المسئولين الْمُكلفين بتسليمك المدينة مقيمون بها الآن في انتظار تشريفك لهم (بالذهاب إليها) فما الذي ستكرم به دولة وي مقابل هذه الهدية؟» وفي الحال أصدر جلالته أمرًا ملكيًّا بقطع منافذ وطرق الاتصال مع دولة تشين، كما قطع علاقاته بها.

وكان مانماو (المسئول العظيم بدولة وي) لَّما استقبل مبعوث دولة جاو، قال له: «ما كان لبلادنا أن تعلن اعترافها بالطاعة والاحترام لبلدكم ومليككم إلا دعمًا لأمن منطقة هيدي، وحفاظًا على سيادتنا الوطنية عليها، ودرءًا لما يمكن أن يُحيط بها من الخطر، أما

مسألة التنازل عنها لكم فلم تخطر ببال المسئولين عندنا قط، ولا أعرف عنها شيئًا، والأمر كله أخطأ فيه موفدنا إليكم.» واستولى الخوف على قلب ملك جاو؛ إذ خشي أن تستغل وي فرصة المشاعر الغاضبة التي اجتاحت البلاط الحاكم في تشين لتتحد معها ضد بلاده، فأسرع إلى التنازل عن خمسة مدن فأهداها إلى وي على سبيل التحالف معها ضد (طغيان) تشين.

لمَّا تكلم مانماو مع ملك تشين

تحدث مانماو إلى ملك تشين، فقال له: «لم يستطع وزراؤك ورجال دولتك أن يجنِّدوا عناصر تابعة لهم في الدويلات المختلفة، وقد بلغني أن جلالتك قد قررت أن تمضي في تدبير سياستك دون اللجوء إلى هذه العناصر أو انتظار (ما يمكن أن تمدك به من معلومات). إن كل ما تريده من دولة وي هو أن تسلم إليك أراضي الأقاليم الثلاثة: «تشانيانغ» و«أوانو» و«لولين»، وقد علمت ذلك، وأتمنى أن تُتيح لي الفرصة لخدمتك، وهذا ممكن لو أذنت لي أن أذهب إلى دولة وي وأتولى منصب (رئيس شئون السكان والأراضي) هناك، حيث أعمل على أن يتنازل لكم البلاط الحاكم فيها عن هذه الأقاليم.

وهكذا فقد وافق الملك على هذه الفكرة، وراح يفكر في طريقة مناسبة لتوليته المنصب المشار إليه في دولة وي.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

قال مانماو لملك وي: «إن أكثر ما يشغل بال جلالتكم هو موضوع الأراضي الشمالية [التي كانت تضم كل المنطقة الواقعة إلى غرب المناطق المشار إليها آنفًا: تشانيانغ — أوانوا — لولين] (ومن المعلوم) أن دولة تشين تريد الاستيلاء على أرض (الأقاليم الثلاثة) وأرى أن تبادر جلالتك بإهداء تلك الأرض إليها، فترفع عبئها عن كاهلك وتريح نفسك من همومها، ثم تطلب من تشين أن تعبئ جيوشها وتنطلق شرقًا لمهاجمة تشي فتتسع رقعة احتلالها (ويمتد نطاق سطوتها إلى الآفاق البعيدة).» فوافق ملك وي على هذه الخطة، وتنازل عن المناطق الثلاث إلى تشين، ثم إن قوات تشين لم تخرج لخطة الغزو في الجهة الشرقية (حسبما قام التصور بذلك) على الرغم من انقضاء عدة شهور منذ تسلمها المناطق الثلاث من دولة وي.

فقال ملك وي لـ «مانماو»: «ها قد انصرم زمان طويل منذ أن صارت أراضي الأقاليم الثلاثة في حوزة تشين، ومع ذلك فلم تحرك قواتها صوب الشرق، فما السبب في هذا؟» فأجابه مُحدِّثه قائلًا: «(في الحقيقة) لقد ارتكبتُ خطأً قاتلًا أستحقُ عليه حكمًا بالإعدام، ومع ذلك فلا أظن أن موتي يفيد في شيء، (ولن تستطيع أن تكسب من ورائه شيئًا، إذا ما أردت التفاوض مع تشين)؛ لأنك ستكون مثل الذي بدد صك الدَّيْن الوحيد الذي بيده، قبل أن يطالب الناس بتسديد مديونياتهم، ولن يصير معك حينئذٍ ما تحتج به ضد تشين، فاعفُ عني وأَقِلْ عثرتي، (فقد تستطيع أن تستخدمني في شيء نافع؛) إذ أذهب إلى قادة تشين — فأتكلم عن لسانك — منددًا بنكثهم الوعد ومخالفة الاتفاق المبرم معهم.» وبالفعل، فقد سافر مانماو إلى تشين وقال لحاكمها: «ما كانت دولة وي لتُهديك أراضي الأقاليم الثلاثة، إلا لما تطلعت إليه من تحرك جيشكم شرقًا لمهاجمة تشي، أما وقد حصلتم على الأرض دون أن تتهيئوا للقتال، فقد عرضتموني للموت.»

(فاعلم أنه ما دامت الأمور تسير على هذا النحو ...) فلن تجد من بين رجال «شانتونغ» من يُزاحم أقرانه ويسعى بكل وسيلة للعمل في خدمتك والتقرب إليك (إذ لن يجد حظوةً لديك بعد اليوم!).» فنزل هذا الكلام على الملك كالصاعقة، وأخذ القلق بمجامع نفسه لما تصور من ضياع مهابته ونفوذه، وأجاب مُحدِّثه، قائلًا: «لم تكن تسعفنا الأحوال على الخروج إلى القتال (فيما سلف) أما الآن، فستخرج القوات في إثرك، وتتوجه حيث تريد لها وستتحرك حسب توجيهاتك.» فما انقضت عشرة أيام بعدها حتى كانت قوات تشين قد اجتاحت الشرق وراء مانماو، الذي كان يرأس قيادة قوات البلدين تشين ووي في حملتهما المتجهة شرقًا لغزو دولة تشي، وكانت أثناء زحفها قد وطئت أرضًا تشمل اثنتَين وعشرين منطقة إدارية، وصارت جزءًا من التوسع الذي بلغ أقصى المدى.

لمَّا انتصرت تشين على دولة وي في موقعة

انتصرت تشين على دولة وي في منطقة «هوايانغ». واضطرت مانماو إلى الفرار والتنحي عن طريقها، فمضت في زحفها حتى حاصرت «طاليان». وذهب شيوجيا [أحد كبار رجال دولة وي] إلى رانخو ليكلمه نيابة عن ملك وي قائلًا: «قد بلغني أن الوزراء ورجال الدولة في وي، بالإضافة إلى إخوة الملك وأعمامه وأقاربه جميعًا قد تحدثوا إليه قائلين له ... «كان الملك هوي قد بادر في أول أمره إلى غزو دولة جاو، وتمكن من أن يحرز النصر عليها في موقعة «سانليان» واقتحم بقواته البالغ تقديرها مائة ألف مقاتل (العاصمة) هاندان، ولم

تحاول جاو (افتداء عاصمتها) بالتنازل عن أجزاء من الأراضي، بل تمكنت من أن تستعيد هاندان إلى نفوذها مرة أخرى (في آخر المطاف).

كما حدث أن تغلبت دولة تشي على يان وعاثت فيها؛ فقتلت «زيجي» ومرَّغت أنف يان في التراب، ومع ذلك فلم تحاول دولة يان أن تتنازل عن أية أجزاء من أرض الوطن، وكان أن استطاعت — فيما بعد — أن تستعيد السيادة والنفوذ، وما كان لِكِلا البلدين: يان وجاو، أن تحفظا عليهما أوطانهما وأن تملكا (بعد الهزيمة) جيوشًا قوية وأرضًا ذات سيادة، (لا تتبع أيًّا من الممالك أو الدويلات الأخرى) إلا بمثابرتهما واحتمالهما الصعاب ودأبهما على حماية أرض الوطن، وعدم التفريط فيها بتسليمها للأطراف الخارجية، أما بالنسبة لدولتي سونغ وجونشان، فقد دأبتا على التنازل عن أراضيهما في كل مرة تعرضتا فيها للغزو، مما أسفر عن تبدُّد كيانهما ثم فنائهما في النهاية. ونرى أن تجربة دولتي يان وجاو جديرتان بالاعتبار، أما صنيع دولتي سونغ وجونشان فيلزم اجتنابه. إن تشين دولة ذات أطماع ورغبة في الاستبداد والطغيان، وليس لها دولة صديقة بين الممالك وها هي ذي في طريقها لالتهام دولة وي، بل تطمع في الاستيلاء على جملة الأراضي التي كانت من نصيب وي في أرض جين، وسوف تزداد تشين عتوًّا وافتراسًا إذا ما تغلبت على دولة هان؛ وإذ تتنازل لها وي عن أراضي ثماني مديريات إقليمية، فسوف تُجهِّز تشين آلة الحرب الجبارة وتدفع قواتها للقتال، حتى قبل أن تنهي إجراءات استلام المناطق المتنازل عنها من قبلكم، فمتى كانت تشين تبلغ حد القناعة؟! ومتي فقدت شهيتها في الافتراس والابتلاع؟

أما الآن وقد أجبرت مانماو على الانسحاب أمام جحافلها التي شنَّت غاراتها على أراضينا الشمالية (في منطقة تشانيانغ فمعنى هذا أنها لن تكتفي بمهاجمة طاليان، بل إنها ستلجأ إلى تهديد جلالتك وابتزازك لتضطرك إلى التنازل لها عن قطاعاتٍ من أراضيك وهو ما لا يجب أن تقترفه أبدًا. وإذا ما بَدَا لك أن تبتعد عن دولتي تشو وجاو في طريقك إلى المصالحة، (فاعلم) أنهما سيثوران ضدك وربما يبذلان لدولة تشي أضعاف ما توليه لها من الطاعة والاحترام وسينجحان في مساعيهما الودودة تجاهها علمًا بأنها ستشجعهم وتفتح لهم ذراعَيها.

ثم تفاجئك دولة تشين ذات يوم وقد جاءت لمهاجمتك مصطحبة معها قوات دولتي جاو وتشو، مما يتعذَّر معه على وي أن تنأى عما يتربص بها من الضياع المحتوم.

لذا نرجو من جلالتكم عدم التصالح مع تشين، فإذا رأيت من الضروري إجراء الصلح معها، فلا يجب أن يكون ذلك على حساب مساحات كبيرة من الأراضي المتنازل

عنها، واحرص على أن تشترط عليها أن تُسلمك رهينة لضمان السلام من أهلها، وإلا وقعت في براثن الغدر والخديعة.»

فهذا ما قد بلغَني وأنا في وي وكل ما أرجوه أن تتأمَّل فحوى ما قصصته عليك جيدًا.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وقد جاء في «كتاب تشو» ما نصه: «ليس للأقدار أعراف معهودة ولا قواعد معلومة!» وهي عبارة موجزة تعني أن أفضال السماء ليست محل تكرار (في أوقات كثيرة وبنمط متوالٍ!) ذلك أن الانتصار على قوة طاغية واقتطاع ثمانية أقاليم من أراضيها، لا يمكن أن يُعزى إلى شدة البأس وبطولة القوات ولا دقة الخطط وبراعة التخطيط، بل هو حظ غامر تنزَّل من السماء.

وإذ فر «مانماو» هاربًا أمام الزحف، ودخلت القوات منطقة «جايانغ» وحاصرت منطقة طاليان فقد وقع في الظن أن الحظوظ السعيدة يمكن أن تتوالى من السماء بلا انقطاع، وهو ما لا ينبغي أن يخطر في بال الفَطِن ذي العقل الراجح.

وقد بلغني أن دولة وي قد حشدت أفضل المقاتلين الذين اجتمعوا لديها من مختلف المدن والأقاليم لحراسة منطقة طاليان، وقد بلغوا من الكثرة بحيث إن عددهم لا يقلُّ في تقديري عن ثلاثمائة ألف جندي، يقومون على حراسة سور مدينة لا يقل ارتفاعه عن عشرة «رن» [الرن الواحد مقياس قديم يساوي سبعة أو ثمانية أذرع صينية أي حوالي مترَين ونصف] الأمر الذي يجعل من الصعب، بل من المُستحيل اختراق تلك المنطقة، حتى لو بُعِثَ من الموت الإمبراطوران [القاهران] طانغ [آل شانغ] و«أو» [آل جو].

إن التصرف على نحوٍ منفرد دون التنسيق مع الحليفتين تشو، وجاو؛ ومحاولة اقتحام سور منطقة يتجاوز ارتفاعه عشرة رن؛ ومواجهة جيش تعداده ثلاثمائة ألف مقاتل بجانب التصميم على الانتصار التام وإيقاع الهزيمة الساحقة بالطرف المقابل، كل ذلك لم يسبق أن قدَّرته السماء أو شهده شاهد الوقائع منذ أن تنزَّلت على الأرض الأقدار. فاعلم أنه إذا قُدِّر لشين أن تتقدَّم وتُهاجم دون أن تقوم بإخضاع غريمتها، فسوف ينال الإرهاق من قواتها، وتخسر بلدة «طاو»، ثم ينهدم صرح مجدك بعد كل ما بذلته فيه من دأبٍ وجهدٍ ومثابرة. وأرى أن تستغل فرصة ما أصاب دولة وي من الارتباك فتتفاوض معها على التنازل لك عن عددٍ محدود من الأراضي (تمهيدًا لتصفية الأجواء بينكما ...) بل إن محاولة استمالة دولة وي إلى جانبك تأتي في موعدها المناسب تمامًا؛ بحيث لم

تصل حتى الآن قوات دولتي تشو وجاو إلى منطقة طاليان. ولا بد أن وي، وقد انتابتها الهواجس والظنون (فيما يمكن أن يصل إليه سير الحوادث) سترى في المصالحة معك — مقابل تنازلها عن القليل جدًّا من الأراضي فرصةً طيبة وتصرفًا يدعو للارتياح، هذا بالإضافة إلى أنك ستكون قد حققت كل ما تصبو إليه، بهذه الخطوة؛ وإذ تغضب تشو وجاو؛ لأن وي سبقتهما إلى المصالحة مع تشين، فلا شك أنهما ستتنافسان على خدمتك والتفاني في الاعتراف بطاعتك. وهكذا ينهار التحالف الرأسي، فستستطيع بكل سهولة أن تشكل مجموعة تحالف من الدول وي، وجاو، وتشو.

ثم إنه لا حاجة بك إلى استخدام القوات في اقتطاع الأراضي ما دمت قد فرضت سيطرتك التامة على أرض دولة «جين». فقد تنازلت لك وي على مدينتي شانجيان [الإشارة إلى «شينتيان» عاصمة دولة جين] ومدينة آني، وقامت بتعبيد طريقَين للركبان، بدلًا من تسليم محلة آني، وسيمكنك الحصول على أراضي دولة سونغ البائدة، وتتنازل لك دولة ويه عن «طانفو» [اسم مدينة] فتأمل ما يمكن أن تُحرزه تشين من السطوة والنفوذ فوق كل تلك الأماكن دون أن تفقد أيًّا من عدتها وعتادها العسكري. فتحوز كل ما تطلعت إليه، وتعمل كل ما يروق لنفسك أن تعمله، فلعلك تتأمل الأمر وتتدبره بدقة واهتمام دون تسرع أو طيش!» فوافقه رانخو على رأيه، وفك الحصار المضروب حول طاليان.

لمَّا انتصرت تشين على وي في موقعة

كانت لدولة تشين النصرة على وي في موقعة «هوايانغ»، فلما أخذ ملك وي أُهبته لزيارة ملك تشين، قصد إليه جوصو [الوزير الأكبر بدولة وي] قائلًا: «كان في دولة سونغ طالب علم، سافر بعيدًا عن الوطن في الدراسة وطلب العلم، مدة ثلاث سنوات، فلما عاد، صار كلما طلب شيئًا من والدته، نادى عليها هاتفًا باسمها (مجردًا، مباشرة دون أية ألقاب) فقالت له أمه: «ها أنت قد سافرت في طلب العلم السنوات الطوال، ثم إذا بك، عندما عدت، تُناديني باسمي، فما الذي حدث لك؟ وما السبب (في هذه العادة الجديدة)؟» فأجابها: «لم يكن فيمن علمتُ من الحكماء والقديسين أحد يفوق «ياو» و«شون» حكمة ورجاحة وقداسة، (ومع ذلك، فقد جرت العادة …) بأن تذكر أسماؤهما مباشرةً بغير ألقاب ولم يكن في الدنيا بأسرها أعظم من الأرض والسماء (وعلى الرغم من ذلك …) فالناس تشير إليهما دون ألقاب. فمن ثم ناديتُ أمي باسمها وهي ليست بأوفر حكمةً من القديسَين الجليلَين ياو وشون ولا أعظم من الأرض والسماء.» … فقالت له أمه: «إذا كان لا بد لك أن تستفيد

مما درست شيئًا فأنت وذاك، إلا أني أتمنى أن تنهج نهجًا آخر فيما يتعلق بمخاطبتي باسمي مجردًا (بغير ألقاب ... حتى لو كان في ذلك خروج عما درست) وإذا كان هناك شيء يمكن أن تُهمله من جملة ما تعلمت، فأرجو أن تهمل النداء عليَّ بغير لقب».

(وعلى ضوء هذا) فهل يمكن لجلالتك — حتى على الرغم مما قد نويته من الاعتراف بطاعة دولة تشين — أن تلجأ إلى طريقة أخرى غير زيارة الملك في قصره؟ وذلك أني أتمنى أن تستبدل بهذه الطريقة أخرى، بحيث تأتي زيارتك للقصر الملكي في خاتمة المطاف.» فقال الملك: «هل تخشى من أن يكون ذهابي بلا عودة، أو أن يكون دخولي القصر، هناك بلا خروج؟ قد أقسم لي «شيوان» قائلًا: «لئن دخلت القصر، فمُنعت من الخروج، فسأجعل رأسي فداءً لك.» ... فرد عليه جوصو، قال: أظن أنه لو جاء شخص وقال لي: «ادخل إلى كهفٍ سحيق وألقِ نفسك في هاوية لم يسبر أحد أغوارها، وسوف تخرج سالمًا، وإلا فسأفديك برأس فأرٍ ميت.» ... فلن أتبع قوله ولن أذهب إلى حيث أشار. (فانظر، وتأمَّل ...) أحوال تشين بغموضها ودروبها المُلتوية ومتاهاتها التي لم يقف أحد على كُنهها، أما رأس ذلك المدعو شيوان، فلا يساوي — عندي — إلا رأس جرذ عجوز حقير. إن الذهاب إلى بلد مُسربل بالغموض والأسرار مثل تشين، بضمان رأس فأر عجوز يدعوني إلى العدول فورًا عن هذه الفكرة، لو كنت مكانك يا مولاي — هذا من ناحية — أما من ناحية أخرى، فاسمح لي بأن أسألك عن أي الموقفَين إثارة للقلق والخطر: فقدان أرض طاليان، أم أرض «هونى؟» فأجابه ملك وي: «فقدان طاليان هو الأكثر مدعاة للخطر.»

فأي الأمرَين أشد مدعاة للقلق: خسارة طاليان أم خسارة حياتك؟

خسارة الحياة أفدح.

فالحياة — إذن — وكما يتبدَّى من بين هذه الخيارات الثلاثة هي الأهم على الإطلاق، وفقدان هوني يأتي في الدرجة الثانية من الأهمية، (ومع ذلك) فإن جلالتك تعرض على تشين حياتك (وهي الأغلى والأهم) قبل أن تُطالبك هي بالأدنى، فهل هذا أمر معقول، وهل يمكن للأمور أن تسير على هذا النحو؟!»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

إلا أن ملك وي عاند وركب رأسه وأصر على خطته، فذهب إليه «جيتشي» [أحد مواطني وي] وقال له: «عليك بمراقبة حال ملك دولة تشو، فإذا لاحظت أنه مقدِم على السفر إلى تشين، فقم إليه واصدُده وحُلْ بينه وبين المُضي في مسيره، فإذا استجاب لك، تحالفت معه،

بل أقمت معه وحدة تامة وأصبحتما معًا كبلدٍ واحد، بما يكفي لمقاومة تشين.» وهناك تراجع ملك تشو عن خطة سفره، وتكلم مع جيتشي، قائلًا له: «كنت في أول الأمر، قد وعدت دولة تشين — عن طريق إينهو [رئيس وزراء وي الأكثر قربًا إلى تشين] — وأخشى أن يفسر تراجعي عن الذهاب بأنه خيانة للوعد وخداع للناس.» فأجابه جيتشي، قائلًا: «لا يهولنك من الأمر شيء، يا سيدي، سوف أطلب من رئيس الوزراء مخاطبة تشين (بهذا الشأن) استباقًا لدعوتهم لجلالتك، بحيث يتم إلغاء الزيارة، فدع هذا الموضوع لي وأمهلني قليلًا ريثما أُدبر الأمور بطريقتي!» وكان أن ذهب جيتشي إلى رئيس الوزراء إينهو، وقال له: «أصدر جلالة الملك أمرًا باستدعاء رئيس الوزراء.» فقال إينهو: «ففيمَ يستدعيني جلالته؟» فأجابه: «لا أعرف، لكنه يأمرك بسرعة التوجه إليه.» فقال إينهو: «أوَتظن أن ترتيب زيارة الملك إلى دولة تشين يتم خدمةً لمصالح هذه الأخيرة؟ أبدًا، بالعكس تمامًا، فما كنت لأقوم بذلك إلا لمصلحة وي.» فرد عليه جيتشي قال: «لا تشغل نفسك بأمور دولة وي، بل اهتم بشأنك الذاتي (فلطالما كنت) تنشغل بتفاصيل شئونك الشخصية، وما يقوم عليه أمر حياتك أو موتك، أو غناك وفقرك، فانتبه لنفسك أولًا (كما كنت تفعل دائمًا!) ثم انظر بعد ذلك فيما يعود على البلاد بالخير والنفع.» فقال إينهو: «سيأتي لوهوان [من دولة جاو] لزيارتنا، فاسمح لي بأن أكون مرافقًا له أثناء الزيارة.» فقال إينهو: «الملك يستدعيك على نحوٍ عاجل، فإن لم تصدع بالأمر، فسيسيل الدم أنهارًا فوق قميصك [سوف يُقطع رأسك].» فمشي إينهو وجيتشي يتبعه قاصدين إلى مقصورة الملك، وتقدم جيتشي مسرعًا إلى جلالته، ليقول له: «ها هو ذا قد أقبل فتظَاهَرْ بأنك مريض تُعاني آلامًا مبرحة؛ فقد حدثته بما أوقع الرعب في قلبه.» ودخل إينهو على الملك الذي ابتدره بقوله: «قد ثقُل عليَّ المرض وأحاطت بي الأوجاع، ولا أدري كيف أتصرف وقد أعطيت الوعد الصادق (لدولة تشين). إن نفسي تحدثني بضرورة السفر، وفاء بالوعد، مهما كانت النتائج، حتى لو أدى ذلك إلى وفاتي في بعض الطريق.» فقال له إينهو: «لا داعي للسفر، يا مولاي، ولعلِّي أحادث المسئولين في تشين في إعفائك من الذهاب إلى هنالك، فلا تشغل قلبك بهذه الهموم.»

لمَّا قامت المعارك بين الجيشَين في موقعة

نشبت المعارك بين الجيشين في موقعة «هوايانغ»، ولم تتغلَّب دولة وي على تشين. وفي العام التالي أوفد ملك وي [أحد المسئولين] إلى ملك تشين للتنازل عن (أجزاء من) الأراضي في محاولة للصلح معها. فتكلم «صونشين» [من دولة وي] إلى جلالة الملك، قائلًا له:

«ليس هناك ما يُلزم بلادكم (دولة وي) بالتنازل الفوري عن الأراضي ما دامت قد مُنيت بالهزيمة، بل العكس تمامًا، فيمكن تصوير عدم تنازلكم عن الأراضي بأنه تصرف ذكي وبارع بمحاولة استغلال الهزيمة في تحقيق مواقف إيجابية. ولا كان ينبغي على تشين فور انتصارها أن تُطالبكم بالتنازل عن الأراضي؛ لأن تصرفها كان سيُفسَّر باعتباره سوء استغلال لما حققته من انتصار. أما التنازل عن الأراضي الآن وبعد أن مرَّ عام من الزمان، فينطوي على أهواء شخصية تعتمل في صدور وزرائك دون أن تفطن إلى ذلك.

وعلى كلٍّ، فهناك (من رجالك) من يريد أن يحظى بتوقيع ملك تشين مصحوبًا بالختم الملكي الأفخم، مثل المدعو «طوانقوا نسو» وهو ما لا تفطن جلالتك إليه، فتبعثه في موضوع التنازل عن الأراضي إلى تشين أما من يريد أن يحظى بالحصول على أرضك فهي دولة تشين، ومع ذلك فأنت تُعطيها الفرصة كاملة، مقابل أن تمنح «طوانقوا نسو» الختم الملكي الأفخم.

وهكذا ينشأ وضع فريد في موضوعه، وهو أنَّ من يريد الختم الملكي هو من يملك النفوذ والسيطرة على الأراضي [المطلوب التنازل عنها] أما من يطلب الأرض فهو من يملك الختم الملكي بكل نفوذه وشرعيته. وهو وضع، لو تركناه لتطوُّراته، فسيؤدي في النهاية إلى ضياع دولة وي.

أضف إلى هذا كله، أن وزراءك (الخونة) كانوا يفكرون — منذ مدة طويلة — في استرضاء تشين والتقرُّب إليها على حساب أرض بلادك. إن التنازل عن أرض الوطن (للغير) على سبيل الاعتراف بطاعة هذا الغير يُعد تصرفًا غير مسئول، يزيد الأمور تعقيدًا، وهو أشبه ما يكون بإلقاء حزمة من الحطب على كتلة من النار في محاولة لإطفاء الحريق؛ فلا أظن أن النار تخمد تمامًا حتى بعد أن يفنى آخر عود من الحطب.

والمشكلة أنك ستكون قد تنازلتَ عن كل ما يمكن تقديمه من الأراضي قبل أن تصل تشين إلى حدِّ القناعة، فهذا أمر يشبه ما حدثتك به من قصة النار والحطب.»

ثم إن الملك أجابه، بقوله: «قد أحسنت قولًا، لكن على الرغم من كل ما قلت، فلا يمكنني أن أنكث ما قطعته من عهد تجاه دولة تشين.» فرد عليه «صونشن»، قال: «أما رأيت لاعبي الشطرنج وهم يُحركون القطعة الرئيسية على اللوحة؟ إنهم يُحركونها إذا أرادوا وفي أي اتجاه، وقد يُجمِّدون حركتها حسبما يشاءون.

فلئن كنت قد اضطررت تحت ضغط وزرائك، أن تقدم وعدًا ما لدولة تشين، وترى أنك لا تستطيع أن تتراجع عنه، فلماذا لا تتصرف على نحو ما يسلك لاعبو الشطرنج بالقطعة الرئيسية على اللوحة؟» وهنا وافقه الملك على رأيه، وقرَّر إلغاء سفر «طوانقوا نسو» إلى دولة تشين.

لمَّا أرادت تشي مهاجمة دولة وي

عقدت دولة تشي العزم على مهاجمة دولة وي، فأوفدت هذه الأخيرة أحد مسئوليها إلى (المدعو «شون إيكون») ليقول له: «ليس في الدنيا كلها أحد غيرك، يا سيدي، يملك أن يرفع عن دولة وي ما تجده من أهوال وما تتعرض له من اعتداء تشي عليها. وإذ يشرفنا أن نرسِل لك قطعتَين من اليشب الثمين [حجر كريم]، وعربتَين تجرهما أربعة من الخيول المطهمة، فنرجو قبولها على سبيل التحية، علمًا بأنَّا نرسِل لك أثمن ما في أيدينا.» فلمَّا علم شون إيكون بفحوى الرسالة أومأ برأسه، موافقًا، ومجيبًا ثم دخل إلى ملك تشي، وقال له: إن دولة تشو من ألد أعداء تشي، أما دولة وي فهي حليفتنا، ومهاجمة دولة حليفة يمكن أن يُصيبنا بقدر من الإرهاق يغري العدو اللدود بالبطش بنا، وهو وضع شائن، فضلًا عن أنه مشحون بالخطر، ومن ثم فإني أرى، إذا سمحت لي بأن التراجُع في مثل هذه الظروف أفضل كثيرًا.

واقتنع ملك تشي بكلامه وعدل عن مهاجمة دولة وي فجاء إليه أحد الضيوف العابرين ببلاده، وقال له: «ما كان يمكن لـ شون إيكون أن ينصح لك بالتراجع عن مهاجمة وي، إلا لأنه قبض من وي الثمن؛ إذ قَبِل ما أهدته إياه من اليشب الكريم والجياد المطهمة.» فتكلم الملك في هذا الشأن مع شون إيكون، قائلًا له: بلغني أنك تسلمت من دولة وي ما أهدته لك من الجياد الأصيلة والأحجار الكريمة، فهل هذا صحيح؟» فلما أقرَّ بما نُسب إليه، قال له الملك: «فماذا تراني فاعلًا بك إذن؟» فأجابه: «لو كان الهجوم على وي جالبًا أي نفع، فما الذي يعود على جلالتك من مزايا إذا قُتلت حتى لو بيد دولة وي نفسها؟ أما إذا كان الأمر، (على العكس) راجعًا بالضرر عليك، فماذا يضيرك حتى لو كافأتْني دولة وي أعظم مكافأة.

ثم إنه وعلى المستوى العام والتقدير (الإجمالي) ما دمت لم تتعرض لأية منغِّصات من جراء هجومك (الخاطئ) على وي، وما دامت دولة وي لم تتعرض لخطر الهلاك، ولا عانى شعبها أهوال الحرب والقتال، فما مبلغ الضرر الذي يقع على جلالتكم إذا كنتُ قد قبلت الأحجار الكريمة والجياد المسرجة؟»

لمَّا أوشكت تشين على مهاجمة وي

كانت تشين قد أوشكت على مهاجمة وي، ووصلت الأنباء بذلك إلى ملك وي، فلم ينتظر حتى يطلع النهار، بل أسرع ليلًا لمقابلة تيانون [رئيس الوزراء، آنذاك] وقال له: «ها قد

عقدت تشين العزم على مهاجمتنا، فبماذا تُشير عليَّ وما العمل؟» فأجابه: «تستطيع أن تأمن شر هذا الهجوم بفضل ما ستجده من دعم الدويلات ومساندتها لك.» فقال له الملك: «ليتك تسافر الآن (إلى الدويلات المختلفة) في محاولة لاستمالتهم إلى جانبنا.» ثم إنه رتَّب له موكبًا مهيبًا من العربات العسكرية التي تجرها الخيول المطهمة، وبلغ عددها المائة، وكان تيانون لَمَّا وصل إلى دولة جاو، التقى بحاكمها، وقال له: «أرجو من جلالتك أن تُعيرنا بعض القوات لنجدة وي.» فلما اعتذر له الملك عن عدم استطاعته تلبية هذا الرجاء، أجابه تيانون بقوله: «ما كنت لأجرؤ على مفاتحة جلالتك في هذا الطلب إلا لأننا قد قرَّرنا أن نتَّخذ من هذه المساندة بداية جديدة لعهدٍ من الولاء والإذعان لعظيم مكانتكم بين الأمم.» وعندئذٍ طلب إليه الملك أن يُفصح عما يقصده، فرد عليه قائلًا: «إن جيش دولة جاو ليس أشد بسالة ولا أمضى قوة من جيش وي، وبالمقابل فلا يمكن القول إن قوات وي أوهن عزمًا أو أضال شأنًا من قوات بلادكم، لكن أرضكم ليست عرضةً للتهديد الدائم (من قبل الغير) على مر الأعوام، ولا شعبكم يُعاني مخاطر الإبادة على كر الأيام، أما السبب في هذا الوضع الذي يجعل أرضنا وشعبنا معرَّضين لأسوأ المحن، هو أن بلادنا تقع على حدودكم الغربية بمثابة حاجزٍ طبيعي أو ساتر وقائي (مما يجعلنا نتحمل عنكم مسئولية مواجهة المخاطر التي تستهدفكم).

فإذا ما امتنعتم عن مساندة وي فستُضطر إلى التحالف مع تشين، وتُقسم معها على يمين الولاء والإخلاص [أن تتجرعا معًا كأس دماء أعدائهما كما جرت العادة في مواثيق التحالف ضد عدو مشترك] وهو وضع سينشأ عنه اعتبار جديد يجعل حدودكم أقرب إلى أن تكون ملاصقة أو مجاورة لدولة تشين [أو كأن قد ...] مما يعني أن جاو ستجد نفسها عرضة للتهديد، عامًا بعد آخر، ويعيش شعبها تحت ظل مخاطر الفناء يومًا بعد يوم. فهذه خلاصة ما يمكن أن أعرضه وأُبيِّنه لجلالتكم بكل وضوح وإخلاص.» وهنالك وافق ملك جاو على الطلب المُقدم إليه، وأرسل إلى دولة وي قوة مقدارها مائة ألف مقاتل وثلاثمائة عربة حربية.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

ثم توجه تيانون شمالًا، وقابل ملك دولة يان، وقال لجلالته: «كثيرًا ما اجتهد والِدُنا الراحل [الملقب بـ «القونزو» وهو والد تيانون] في استتباب العلاقات بين وي ويان وعقد مواثيق

الصداقة بينهما، وقد صارت وي الآن، في مواجهة خطر غزو دولة تشين لأراضيها، فهي في أشد الحاجة لسرعة مساندتكم لها.» فأجابه الملك، قائلًا: «قد مرت بنا سنتان من السنوات العجاف حتى عدمنا القوت والغلال، فكيف السبيل (والحال هكذا) إلى استنفار القوات والانطلاق على طريق طويل يتجاوز عدة آلاف من الأميال لمساعدة وي؟» فقال له تيانون: «إن تجشُّمك مشقة السفر عبر كل تلك الأميال لنجدة بلد يستصرخك أن تُغيثه، سيعود على بلادك، أيضًا، بالنفع العميم، أما قد علمت أن ملك وي مُقيم الآن عند مشارف العاصمة يتطلع إلى قدوم قوات يان لمساندته! هذا في الوقت الذي تتابع فيه باقي الدويلات أحوالنا (وتعلم ما نحن بصدده ...) ومع ذلك فلا أظنُّها تستطيع أن تفعل شيئًا لأجلنا حتى لو بذلت في ذلك أقصى الجهد!»

ثم إن ملك يان، وعلى الرغم مما قيل له لم يُغير رأيه، وظل على موقفه من التقاعس عن إغاثة وي.» فقال له: تيانون: «أراك ترفض الأخذ بما رأيته لك مخلصًا من خطة سديدة، وبناءً على ذلك فألتمس الإذن من جلالتك بالسفر، ولربما تغيَّرت أحوال الممالك (بما يستدعي تغييرًا في موقفكم).» فقال له ملك يان: «وما هي التغييرات التي يمكن أن تلحق بأحوال الممالك؟» فأجابه: «ستهاجم تشين دولة وي، لكنها لن تغلبها، ولن تزيد الخسائر عن إتلاف منصات المقاصير المنشأة فوق البنايات المرتفعة [التي تُمكِّن المشاهد من مطالعة المناظر البعيدة ...] (وفى العبارة تورية واضحة ... باعتبار أن الخسارة الفادحة هي التي تلحق بامكانات الرؤية المستقبلية!) وهو ما سيحول دون التمتع بمشاهدة المناظر الطبيعية البعيدة. وإذ تتخاذل دولة يان عن نصرة وي، فسيضطر الملك أن يتنازل عن أراضيه صاغرًا لما تمليه الشروط على المهزوم، وبعد أن يسلم نصف أراضيه إلى دولة تشين، فستكف عن قتاله وتسحب جيوشها، وهنالك يُحاول ملك وي أن يستجمع طاقته ويحشد إليه قوات وي وهان مجتمعة، ثم يتَّجه غربًا فيطلب الإمداد من دولة تشين، ثم يضيف إلى هذه القوى الثلاث قوة رابعة من جيش جاو، ويقوم على رأس الجيوش الأربعة فيهاجم دولة يان، وقتئذٍ لا أدري كيف ستتصرفون أمام ذلك المأزق. ولعمري، فأية فائدة تعود عليك، يومئذ، (من جراء امتناعك عن مساندة وي ...)؟ وأي نفع يمكن أن تجنيه عندما تُصبح قوات الدول الأربع قريبةً من حدودكم (دون أن تتجشم مشقة السفر إليها) وتصير خطوط التموين والإمداد وراء جيشكم قصيرة للغاية، وأتظن هذا قد يُغنيك شيئًا؟» وأجابه ملك يان بقوله: «فاسلُك كيف شئت فإني متَّبعك ومهتدٍ برأيك.» وهكذا فقد قرر دفع قوات

مقدارها ثمانون ألف مقاتل، ومائتا عربة حربية ووضعها جميعًا تحت تصرف تيانون، مما اهتز له طربًا ملك وي، وغمره البِشر والسرور، وهو يقول لـ (تيانون): «أراك قد نجحت في إمدادنا بأعداد وفيرة من القوات المساندة من دولتي جاو ويان، دون أن تضيع في ذلك، وقتًا كثيرًا!»

وارتعدت فرائص ملك تشين، وأقبل على ملك، وي فأوفد له الرسل وعقد معه المصالحة وتنازل له عن الكثير من الأراضي، ثم ما لبثت دولة وي أن أعادت قوات دولتي يان وجاو إلى بلادهما، ووصلت تيانون بمكافأة سخية.

لمَّا قامت وي بالتنسيق مع تشين لغزو

قامت دولة وي بالتنسيق مع تشين لمهاجمة دولة هان. فذهب أوجى [لقب آخر للمدعو «شين لينجون»] إلى ملك وي، وقال له: ليس ثَمَّ فرق كبير بين طبيعة دولة تشين والقبائل الهمجية [حرفيًّا: قبائل «رونغ»، و«طاي»] فكلاهما ينزع منزع السباع والوحوش، لا تُحركه إلا دوافع الافتراس والنهب لا خلاق له؛ (فمثل هذا الصنف من الوحوش) لن يتورع أن يفتك بأقرب أقربائه، إذا ما بَدَا له في ذلك مغنمٌ ما؛ (وهذا أمر ذائع ومعلوم للكافة) ذلك أن دولة تشين ليست بالبلد الذي يمد يد العطف والبر للآخرين، ولا الدولة التي تشيع في سياستها معاني الفضائل والأخلاق الكريمة.

فمن ذلك ما هو ذائع ومعروف من أن الملكة الأم نفسها، وهي والدة الملك شاو، وبكل ما لها من المكانة والنفوذ لم تسلم من الوحشية التي طبعت خصال تشين؛ فاغتمَّت وماتت كمدًا، بل إن رانخو، وهو خال الملك، وصاحب الأفضال والمآثر الجليلة عليه، كان مصيره النفي من البلاد، وعلى الرغم من أن شقيقَي الملك الصغيرَين: «قاولينجون» و«جين لينجون» لم يقترفا ذنبًا ولا جناية، فإن إقطاعاتهما سُلبت منهما مرَّتَين (ظلمًا وعدوانًا)، فلئن كان ذلك مسلك جلالته مع أقاربه وأفراد عائلته، فما بالك بدولة مُعادية! وبما أن جلالتك قد تحالفت مع تشين لمهاجمة هان، فستُضطر إلى الاقتراب كثيرًا من أسلوب ونهج تشين في التعامل مع الدنيا بأسرها وهو ما لا أفهمه. (وأظن) أنه غاب عن جلالتك ذلك النمط الذي يدمغ تشين بطابعه، فهذا إهدار للحكمة والصواب.

إن الوزراء ورجال الدولة، جميعًا يدركون الأمر على وجهه الصحيح. أما تقاعسهم عن النصح لك، فيطعن في صدقهم وإخلاصهم من الأساس.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

«إن دفة الأمور في هان بيد امرأة تقف بجانب الملك الطفل [(الصغير) ... حيث صارت الملكة الأم تتولى الوصاية على ابنها الملك «هوان هوي»]، فلا غرو أن الفوضى ضربت بأطنابها في أرجاء البلاد، ولا أدري كيف يمكن لبلدٍ في مثل هذه الحال أن يقاوم جيوش دولتَين قويتَين هما تشين ووي.

فهل بعد هذا كله ما زلت تظن أن دولة هان تستعصي على الغزو؟ إنه إذا قُدِّر لدولة هان أن تهلك وتزول من صفحة الوجود، فسوف تقوم تشين ببسط سيطرتها على كل الأراضي التي كانت تخص دولة «جنغ» وبهذا تصبح في جوار منطقة «طاليان»، فهل يمكن لجلالتك (إذا ما تحقق مثل هذا الوضع ...) أن تشعر بالأمان؟ وماذا إذا بَدَا لجلالتك أن تستعيد أرضك المفقودة، ثم تعرضت بسبب ذلك إلى ما لا تُحمد عقباه من دولة تشين، أتظن أن مثل هذا الحال لو نزل بك يمكن أن يكون مفيدًا على أي نحو؟

من المعهود في شأن دولة تشين أنها تبغض الدول المثيرة للقلاقل والاضطرابات، وهكذا، فلا بد أنها بعد القضاء على دولة هان ستعمل على افتعال ما من شأنه أن يُهيئ لها الأجواء لتسعى إلى بسط نفوذها فوق أرض أخرى تجني من ورائها المزيد من المكاسب، (وهي في كل ذلك، وبالتأكيد ...) فلن تقدِّم علة مهاجمة دولة تشو أو دولة جاو؛ وذلك لأن عبورها الجبال العالية ومجاري الأنهار المُمتدة، واختراق منطقة «شاندانغ» — مرورًا بقلب دولة هان — بهدف مهاجمة القوية الجبارة جاو، سيكون بمثابة تكرار لفصول الهزيمة التي عانت ويلاتها قديمًا في موقعة يوي [... وكانت تشين قد أرسلت في ٢٧٠ ق.م. قوات لمهاجمة جاو في منطقة يوي، فلقيت على يدي قائد قوات جاو هزيمة نكراء] وهو ما لن تقدم عليه تشين، بأي حال؛ فإذا اتخذت طريقًا عبر «هونيه»، وخلَّفت وراءها قرية «هيا»، ومنطقة «تشاوكي» ثم عبرت نهر «جانغ» وبحر «فو»، والتقت بقوات جاو عند أطراف العاصمة هاندان، مُحتكمة إلى السلاح ليحسم الصراع بينهما، فلسوف تلقى نفس الكارثة التي وقع في أحابيلها، من قبل، جيبو، [حيث كان جيبو على رأس قوات دولتي وي، وهان في حصار ملك جاو، عام ٤٥٥ق.م. واضطر بعد ثلاث سنوات إلى فك الحصار لفشله في مهاجمة منطقة «جين يانغ» مما أحنق عليه الدول الثلاث هان ووي وجاو، فاتفقت ثلاثتها على التخلُّص منه، فقتل صبرًا] وبالتالي، فإن تشين لن تفكر، على الإطلاق، في أن تُكرر مأساة سابقة.

فإذا أرادت أن تهاجم دولة تشو، وتجشمت — في سبيل ذلك — كل الصعاب، وقطعت الأميال الطوال لضرب مضيق «ميناناي»، فستكون عليها أن تطوي المسافات البعيدة، وأن

تُعد نفسها لأهداف تكاد تكون مُستحيلة التحقيق، ومن ثم، فلن تطرق هذا السبيل أبدًا. كما أنها لن تفكر — ولو مرة واحدة — في أن تسلك عبر «هواي» مُتجهة نحو طاليان، بحذاء منطقتي شان تصاي، وجاولين، لتشتبك مع قوات تشو عند أطراف منطقة تشندي.

وهكذا، فلا يمكن أن تقوم تشين بمهاجمة تشو وجاو أو حتى مجرد التفكير في الإغارة على يان وتشي؛ ولذلك فما إن تفرغ من أمر دولة هان، حتى تتَّجه بقواتها صوب دولة وي؛ إذ ليس لها وجهة أخرى إلا هذه.

ومن المعلوم أن تشين لها السيادة، أساسًا على مناطق هواي، وماو، وشين تشيو، وعلى الرغم من ذلك، فها هي توالي إنشاء المحلات والمدن وتقوم بتعمير منطقة «قويجين»؛ وذلك في محاولة للاقتراب من منطقتي «قون»، و«تشي» الكائنتَين بإقليم «هوني»، «وهواي» (وهو اقتراب محفوف بالمخاطر).

وليكن معلومًا أنها إذا استولت على أرض جنغ، وبسطت سيطرتها على منطقة «يوانيون»، وأزالت جسور بحيرة «إينغ» فسوف تغرق «طاليان» تحت طوفان المياه الجارية، فلا تقوم لها بعد ذلك قائمة أبدًا.

قد أخطأ سفراؤك لدى تشين خطأً شنيعًا إذ قدحوا في إمارة «آيلنينغ» [إحدى الإمارت التابعة لدولة وي] وتكلموا عنها بسوء، في الوقت الذي كانت تشين تتطلع فيه إلى احتلال أرض «شيودي»، فإذا أضفنا إلى ذلك أن بعض أقاليم تشين (مثل: «إيانغ» و«كونيان») تكاد تتجاور مع محلات تابعة لدولة وي (مثل: «أويانغ» و«قاولين») فسنفهم السبب في محاولة تشين الإسراع في القضاء على منطقة «أنلينغ» المشار إليها، لا سيما وقد بلغها (على لسان سفرائك ومبعوثيك لديها) من الطعن والذم لهذه المنطقة ما شجَّعها على المضي في عدوانها. وهكذا، فإذا قامت قوات تشين بتطويق الجهة الشمالية لمنطقة «أويانغ» في اتجاهها نحو شيودي في الشرق، فسوف تتعرض الحدود الجنوبية لدولة وي إلى خطرٍ داهم وحتى لو تصورنا أن حجم الخطر الذي يمكن أن يهدد جنوب البلاد (ليس بالدرجة التي يؤبَه لها) فهل يمكن لدولة وي — بعد ذلك — أن تستشعر الأمان حقًّا؟

وفي كل الأحوال، فمن الممكن القول إن حق دولة وي أن تبغض دولة هان، وأن تشعر بالجفاء نحو إمارة «آنلينغ»، لكن ليس من حقها أبدًا (ولا هو من الصواب، قطعًا ...) ألا تنظر بعين الارتياب والقلق نحو ما قد تقوم به تشين من استيلاء على أراضيها الجنوبية.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

كانت تشين فيما مضى، وقبل أن تتسع حدودها إلى ما بعد غرب النهر [حرفيًّا: منطقة «هويشي»] فقد حاولت — منذ موقعة «لين شيان» وحتى الآن — مهاجمة دولة وي عشر مرات، هذا على الرغم مما كان يفصل بين مدينتي «آني»، وجيانغ [عاصمة دولة جين القديمة] وعلى الرغم أيضًا مما بين البلدين من (الفواصل الطبيعية …) الجبال والأنهار وفواصل التقسيم الإداري والسياسي … مثل وجود دولتي جو، وجونشان في منتصف المسافة بينهما، وقد استطاعت تشين، في خمس محاولات منها، أن تقتحم البلاد وتدخلها عنوة، وأن تعيث فسادًا في المدن والقرى الواقعة بالمنطقة الحدودية؛ حتى تهدمت مدينة «أونطاي» واحترقت «تشويدو»، وتقطعت أشجار الغاب، فقُضِي على الأيائل والغزلان البرية، ووقعت العاصمة تحت الحصار. ثم تقدمت قوات تشين في طريقها نحو شمال البلاد فدارت دورة كاملة حتى بلغت مشارف مدينتي وي، وطاو في الشرق وكانت قد استولت، في الشمال، على مناطق: «خوكان»، وجنوبي وشمالي جبل «تشوتياو»، بما في ذلك جنوبِي النهر الأصفر وشمالِيه حتى كان مجموع ما احتلته من مراكز المدن يزيد عن المائة، بينما بلغت حصيلة ما استولت عليه من المدن الكبرى ما يفوق العشرات.

فإذا كانت دولة تشين قد استطاعت أن تسلط سيف العدوان على هذه المناطق برغم طول المسافة بين طاليان وبين «جيانغ» عاصمة جين والمناطق الواقعة غربي النهر، فما بالك بما يمكن أن يقع، هذه المرة، لدولة وي لا سيما أن المسافة بين قوات تشين ومنطقة طاليان، سوف تقل كثيرًا، بحيث لا تكاد تبلغ المائة لي؟!» بينما تكون ميزة ما تمثله دولة هان من حاجز وقائي بين تشين ووي قد فُقدت تمامًا مثلما تسقط مزايا الفواصل الطبيعية من الجبال والأنهار البينية. ولا يعود وجود دولتي جو وهان مانعًا دون تقدم تشين فلا بد من أن خطر تشين، حينئذ، سيكون أعظم، وما يلحق بنا على أيديها من كوارث سيكون أفدح.

فإذا كنت تنتظر يومًا يُمكنك فيه الانضمام إلى التحالف الرأسي، فلا أظنك بالغًا هدفك بنجاح؛ إذ سيقع الشك في أفئدة دولتي وي وتشو؛ أما دولة هان فلن تستطيع الحضور إليك لتوقيع معاهدة سلام وصداقة معك. ثم إنه قد مرَّ عليها الآن ثلاث سنوات منذ أن مُنيت بأهوال القتال الذي لا تُريد له دولة تشين أن يهدأ إلا بإخضاعها تحت نفوذها، وإجبارها على المصالحة معها بأي وسيلة، بينما ما زالت هان تثابر على المقاومة والعناد، مهما كلَّفها ذلك من جهد، بل قد أرسلت إلى دولة جاو رهينة لضمان السلام معها، وتطلب الانضمام

إلى الدويلات لتندمج وسطها كما يأتلف الطير مع سربه، ويطير معه حيثما يطير، ماضيةً في قتالها حتى النهاية [حرفيًّا حتى تنثلم نصال رماحها].

ويبدو لي أن دولتي تشو وجاو ستتحالفان بكل تأكيد، مع دولة هان في الهجوم على تشين؛ والسبب في ذلك يتمثل في وقوفها على مطامع، تشين، وجشعها الذي لا ينتهي عند حد معلوم، حتى لو تبدَّدت أمامها الجيوش وخضعت لها رقاب الناس بالطاعة والإذعان. فمن ثم أردتُ أن أؤيدك وأعينك عارفًا بحقك عليَّ معترفًا بالطاعة لك، وناصحًا لك للانضمام إلى التحالف الرأسي، وسرعة قبول عقد معاهدة مع كل من تشو وجاو. بالإضافة إلى تشديد قبضتك على رهائن دولة هان لديك، جاعلًا من الحفاظ عليهم أمرًا ذا أهمية قصوى، وانطلاقًا من هذه النقطة، تستطيع أن تُطالب هان بأن ترد إليك أراضيك (التي سبق أن سلبتْها منك) وستجدها طوع بنانك.

وهكذا تعيد إلى جيشك وشعبك أرضه المسلوبة دون أدنى جهد، وهو إنجاز يفوق كثيرًا (ما كنتَ تنويه من ...) التحالف مع تشين في مهاجمة هان، هذا طبعًا، بالإضافة إلى ما تُجنب به نفسك وبلادك من ويلات التماس الحدودي مع دولة تشين.»

الجزء الرابع من الفصل نفسه

وفوق ذلك كله، فإن العمل على استتباب أحوال وي، والدفاع عن مصالح الدويلات وما يعود عليها بالنفع، يعد فرصة هائلة لدعم طموحاتك الجبارة.

إن مد خطوط المواصلات بين «شانتانغ» (في دولة هان) وكل من منطقتي «قونغ»، «نينغ» بما يساعد على رواج الاتصال بينهما، وما يستتبع ذلك من إقامة نقاط للتفتيش بحيث يتم تحصيل رسوم المرور من العابرين في الاتجاهَين، يُعد من قبيل التصرف السديد يزيد في قيمة «شانتانغ» بوصفها منطقة يمكن أن تخضع للمساومات المستقبلية. وباقتسام حصيلة الرسوم بين بلادكم ودولة هان، فسيكون هناك ما يكفي من الدخل الذي يُعزز الازدهار المادي في وي، ويجعل دولة هان في غاية الامتنان لكم؛ وإذ تلقون من دولة هان التأييد والودَّ والاحترام المقترن بالإكبار والتهيُّب، فستجدونها سائرة في فلككم لا تُخالف لكم أمرًا، بل تُصبح في الواقع، كإحدى الولايات التابعة لبلادك، وهو ما سيضمن السلام والاستقرار في ربوع «ويدي»، و«طاليان»، و«خواي» ... أما إذا لم تعملوا على الحفاظ على هان، فسوف يحل القلق والتوتر في أنحاء دولتي جو الشرقية والغربية بل تتعرَّض منطقة «آنلينغ» لغارات قوات تشين، وإذا ما حاقت الهزيمة مرة ثانية بكل من تشو وجاو على

يد جيش تشين، فسوف ينزل الرعب بساحة دولتي يان وتشي. وهو ما سينجم عنه هرولة الدويلات كافة باتجاه دولة تشين، وتقترب ساعة الاعتراف لها بالطاعة والإذعان والتسليم.»

لمَّا قام لي توي بعقد معاهدة تحالف مع وي

قام لي توي (باسم دولة جاو) بعقد معاهدة تحالف مع دولة وي، وأراد حاكم البلاد أن يصل ولده بمكافأة جزيلة، فذهب إلى جلالته من قال له: «لقد قمتَ جلالتك بنفسك، وعبرت نهر جانغ، وذهبت لمقابلة ملك جاو في (العاصمة) هاندان، وتفضلت بتسليمه المناطق الأربع «قا» و«شوي» و«يين»، و«تشنغ»، وهو ما لم يرُد عليك بمثله ملك جاو. فهل تجد داعيًا (بعد ذلك) لكي تتفضل بإهداء ولد لي توي (مناطق:) «هيانغ»، «كومي»؟ لست أرى ما يوجب مثل هذا التصرف.» وهنالك أمسك ملك وي عما كان قد اعتزمه من تقديم المكافأة.

لمَّا طلبت تشين إلى دولة جاو مهاجمة وي

طلبت دولة تشين إلى دولة جاو مهاجمة وي فأرسلت هذه إلى ملك جاو من قال له: «إن مهاجمة دولة وي، تُعد نقطة البداية الأولى للقضاء على دولة جاو. وكان أهل جين، فيما سلف من الزمان الغابر، قد عقدوا العزم على إبادة دولة «يو»، فشنوا غارات الهجوم على دولة «قوا» باعتبار أن البدء بمهاجمة هذه الدولة سيؤدي إلى القضاء على تلك.

وقصد «شونشي» إلى ملك يو وبذل له الصلات الوفيرة من الجياد الأصيلة واليشب والجواهر الكريمة، راجيًا إياه أن يُسهل له استخدام الطرق العامة لمرور قواته، وأسرع «قونجي تشي» [كبير رجال دولة يو] إلى الملك ونصح له (بعدم الموافقة، مُحذرًا إياه من عواقبها) إلا أنه لم يجد آذانًا صاغية؛ إذ وافق الملك على الطلب وسمح لدولة جين بالتسهيلات المطلوبة. مما مكَّنها من الإغارة على دولة قوا، لكنها بعد الانتهاء من حملتها العسكرية، وإبان عودتها ... هاجمت دولة يو في عقر دارها.

لذلك، فإننا عند مطالعة حوليات التاريخ القديم المدونة في الكتاب الشهير بعنوان «الربيع والخريف» فيما سجله من أحداث تلك الواقعة، نجده ينحي باللائمة (فيما حدث) على ملك يو.

ومن يتأمل أحوال الممالك اليوم يجد أن دولة جاو الأقوى، لا يكاد يوازيها فيما بلغت إليه من مقدرات التفوق سوى دولتي تشين، وتشي.

وإنك إذ تتخذ رئيسًا للوزراء متسمًا بالنفوذ والسمعة الطيبة، بجانب ما هو معروف عنك من الحكمة والفطنة، فسوف تُثير قلق تشين، الدفين فلا ترى في الوجود بلدًا يُهدد مكانتها وهيبتها غيرك، وتصير دولة وي، كأنها تستعيد دور دولة «قاو» بالنسبة لـ جاو، بينما تصبح جاو (بالمقابل) كأنها تمثل قيمة يوم بالنسبة لـ «وي» ومن ثم فإن الأخذ بنصيحة تشين التي تحثك على مهاجمة وي، يُعتبر أقرب شيءٍ لما حدث في الماضي، مما قامت به يو؛ إذ استعارت طرق جارتها لاستخدامها في القتال. فأرجو من جلالتك مراجعة الأمر بمزيدٍ من التأمل والتحقُّق من دخائله وجوانبه المختلفة.

لمَّا أقام أمير دولة وي في تشو باعتباره رهينة

أقام أمير دولة وي، في تشو، بوصفه رهينة (لإقرار السلام) وكان أن أرسل إلى «لوبي» [كبير وزراء وي) وهو (في بلدة) يانلينغ، من قال له: «كان من المُقرر أن سيادتكم ستنتظرون ريثما يقوم التحالف بين دولتي تشي وتشين، لكي تقوموا بنجدة «بيشي» لكن يبدو من مظاهر أحوال البلدَين أنهما لن يتحالفا أبدًا، بالإضافة إلى ذلك، فمن الواضح أن السيد «تيشيان» [رئيس وزراء وي] لا يمقت أحدًا في الدولة كلها سواك، وكل رجاله يفكرون في التحالف مع تشي وتشين، ومجافاة دولة تشو، لا لشيء إلا تقليلًا من شأنك، ومن ثم فليس عليك إلا أن تقصد ملك تشي، فتقول له ... «ما كان لدولة وي أن تُعاني مما هي بصدده من الهزيمة العسكرية بسبب ما قامت به تشين من الهجوم عليها (هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى ...) فما كانت تشو تتفانى في الاعتراف بطاعتك والعمل على خدمتك، إلا لأنها تبغض وي بُغضًا لا مزيد عليه؛ ولذلك فإني اقترح عليك أن تنصح لدولة تشين بمهاجمة وي.» ... وهكذا تنعقد نية ملك تشي على مهاجمة تشو، وإذ يمتلئ صدره غيظًا وغضبًا من تشو لعدم مصافاتها وموالاتها، فسيطلب من دولة وي أن تتصالح مع تشين والتقرب إليها بالتنازل لها عن الأراضي والاعتراف بطاعتها.

وكم سيشعر ملك تشي نحو تشانغي بالمقت والكراهية لما يُمثله من قوةٍ وما حازه من إمكانات هائلة تحت تصرفه، تتمثل في الطاقة التي أمدته بها كل من دولتي تشين وهان، كما أن ملك وي لن يستطيع أن يعتمد على تشانغي في أي شيءٍ بعد ذلك، أما الآن وقد لجأ «تيشيان» إلى مجافاة دولة تشو استنادًا إلى ما تمدُّه به تشين وتشي من قوة وافرة، في محاولة للنَّيْل من هيبتك وقدرك، فإني أشعر ببالغ القلق عليك.

وإذ تقوم دولتا تشي وتشو بالتصالُح مع تشين مقابل التنازل لها عن بعض أراضيها، فهل من الممكن أن يقود ذلك إلى موافقة تشين على إطلاق يد تشو لتتصرَّف على هواها؟

إذا قامت تشين بهجوم مباغت على تشو، فسوف تنسحب هذه بقواتها، ويقع الرعب في قلب ملك وي، عندئذٍ تستطيع أن تتنازل لدولة تشين عن الأراضي الواقعة شمالي نهر «فن» سعيًا للتصالح معها والتودُّد إليها عسى أن تستطيعا معًا عزل دولة تشي. وإذ تلقى عظيم الاهتمام لدى تشين وتشو فسوف تترقى إلى منصب رئيس الوزراء، وهو ما أظن أن ملك تشين وتشولنجي يتطلعان إليه، كما أرجو من سيادتك السماح لي بأن أقوم بحملة دعائية لأجلك.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

ثم إن المبعوث التقى بـ «تشوليجي»، وقال له: «إن جلالة ملك تشين يَعُد مهاجمة «بيشي» أول واجباته ذات الأهمية القصوى باعتبار أن أي تقصيرٍ في هذا الشأن قد يفقده العزة والمهابة أمام الدويلات والأمراء. فما بالك إذا كان الهجوم على بيشي يفتح الطريق أمام مهاجمة دولة هان ووي بكل سهولة؟!» فرد عليه تشوليجي قائلًا: «قد تفاوضت مع ملك وي وقمت بتسوية كل الأمور بعد التصالُح مع جلالته، ولم تعُد هناك ضرورة لاستئذانه في إعارتنا منطقة بيشي.» فقال الرسول: «أستطيع بتفكيري البسيط وعقلي الساذج الأحمق أن أقوم بتقدير الأحوال القائمة، فائذن لي بذلك ولا تسخر مني أو تهزأ بي لأن الحصول على منطقة بيشي مسألة مهمة جدًّا وذات نفع كبير للبلاد، وبالتالي فإن التنازل عنها أو إهداءها إلى دولة وي يقوم على افتراض أنكم ستعجزون إن آجلًا أو عاجلًا عن الاحتفاظ بها والدفاع عنها، وبالتالي فمن الأسلم إعطاؤها إلى دولة وي؛ لكنكم الآن، تملكون من القوة ما يفي باستردادها وحمايتها، فما الذي يمنعكم من أخذها عنوة (لو لزم الأمر)؟» فأجابه تشوليجى وقال: «وكيف السبيل إلى ذلك فيما ترى؟» فرد عليه المبعوث، بقوله: «إن أهم دولتَين تعتمد عليهما وي الآن، هما: تشي وتشو، وأهم رجلَين من رجال دولتهما، هما «لوبي»، و«تيشيان»، وأكاد أسمع ملك تشي وهو يُحادث ملك وي الآن، ويقول له: «إن جنودك يردِّدون كلامًا مفاده أن بلادكم تبغي شن الحرب علينا.» ومن ثم تمتنع دولة تشي عن دعم ومساندة وي. (وهنالك) تحنق دولة تشو على دولة وي وتحمل عليها أنها لم تقم بتولية لوبي أي منصب كبير، بل إنها أوفدت (بدلًا منه) تيشيان لإجراء المصالحة مع تشين، ومعنى ذلك أن دولة تشين (وقد بلغ بها الغضب هذا المبلغ …) سوف تقطع علاقاتها مع وي، وهو أمر لا مِراء فيه.

وإذ يخشى تيشيان ما قد تتعرض له دولة وي من خطر التفكك والانهيار فسيسارع إلى التحالف مع تشي وتشين، في استبعاد واضح لدولة تشو، مما يعني التقليل من شأن «لوبي» الذي سيعمل (من جانبه) على التحالف مع تشو وتشين مُستبعدًا من حساباته دولة تشي ومتجاهلًا دور ومكانة «لوبي».

وأرى أنه من الأفضل لسيادتكم الوقف الفوري لكل مفاوضات التصالح مع وي، على أن توفد إلى لوبي من يقول له ... «هل لديك استعداد أن تُعطينا المنطقة الواقعة شمالي «فن»؟

فإذا كنت مُستعدًّا حقًّا، لهذا، فعليك بالتحالف مع تشو، وأن تتجاهل تمامًا دولة تشي لا سيما أنه مما يُهمنا كثيرًا اضطلاعك بدور قيادي بارز وتوليك المكانة والمنصب الرفيع.» ... وعندئذٍ، لن يتوانى لوبي ودولة تشو عن الإسراع باتخاذ اللازم في إطار هذا التوجيه. ومن ناحية أخرى، فعليك أن تُرسل إلى «تيشيان» من يُبلغه قائلًا: «أتستطيع أن تتنازل لنا عن المنطقة التي تقع شمالي نهر «فن»؟ إذا كان ردك بالإيجاب، فلا بد من التحالف مع تشي، والتباعد عن تشو، فيكون لك النصيب الأوفى من الترقي (وسنعمل على تزكيتك في هذا الاتجاه)»، ومن المؤكد أن تيشيان لن يدخر وسعًا في السعي لإنجاز هذه الخطة، وبهذه الطريقة تستطيع أن تفرض نفوذك (فيما يتعلق بالشئون الخارجية) على دولتي تشي وتشو؛ كما تفوز (في المسائل الداخلية) باثنَين من التابِعين السائرين في فلكك، فما الذي يمنعك من الحصول على الأرض التي حدثتك عنها إذن؟»

سجل وي الرابع

لمَّا رفع الملك كتابًا

... [ثمة كلمات سقطت من المدونة الأصلية (القديمة)] ... ذهب إلى ملك تشين من رفع إليه كتابًا جاء فيه ما نصه: «بلغني — فيما يبلغ الناس سرًّا وهمسًا من أنباء — أن جلالتكم تخطط للهجوم على دولة وي؛ فهي خطة غير ملائمة ولا سديدة، وأرجو إعادة النظر فيها بالدقة الواجبة. وتبدو لي دولة وي، أشبه شيءٍ بحزام تتمنطق به الدويلات الست في إقليم «شانتون»، أو هي أقرب ما تكون شبهًا بثعبان كبير مُلتف في دائرة إذا ضربت ذيله، دافع عنه برأسه، فإذا هويت على رأسه، تلقَّى الضربة بذيلِه، فإذا أردت أن تركُله في بطنه، حامت عنه الرأس والذَّنَب. وهكذا، يبدو لي ملك وي الآن، كأنه الخصر في جسد الدويلات. فإذا أقدمت دولة تشين على ضرب وي، فسيبدو أمام الممالك والدويلات التي تحت السماء، وكأنها تريد أن تقصم ظهر الدويلات الست في «شانتون» وسيتلو ذلك شيء أشبه بالرأس والذيل يصدان عن البطن.» وإذ تجد الدويلات الست نفسها على وشك أن تلقى الإبادة التامة فسوف ينتابها الرعب، وبالتالي تقوم بينهم التحالفات، مما يعني تفوق قوتهم المجتمعة، وأتوقع على ضوء ذلك، أن تتجسد أمام العيان المحنة التي ستعترض طريق تشين، وهو ما يجعلني أستشعر حرج موقفكم، ويدعوني — من ثم — إلى التأمل وتقليب الأمر على مختلف أصعدة الاحتمالات، ثم لا أجد مَخرجًا أفضل من دفع القوات صوب الجنوب للاشتباك مع دولة تشو، حيث تُعاني بشكلٍ عامٍّ من ضعف القوة العسكرية، كما أن أحدًا لن يُبادر إلى نجدتها أو مساندتها، وستكون النتيجة في صالح تشين؛ إذ تزيد في مساحتها أراضٍ جديدة تضاف إليها، فتتَّسع رُقعتها، وتعزز مواردها ويقوى جيشها، ويلقى عرشها التمجيد والمهابة والتعظيم. ألم تسمع يا مولاي بقصة

هجوم الملك طانغ (آل شانغ) على [الطاغية] «جيه» «(آل شيا)؟ حيث جرى البدء بمهاجمة دويلة «ميشيو» [دويلة صغيرة في زمن أسرة شانغ الملكية القديمة] الضعيفة المتهافتة على سبيل اختبار القوة والتدريب القتالي، فلما تم اقتحام ميشيو، استطاع الملك طانغ أن يتقدم لإخضاع الطاغية «جيه» [أسرة شيا الملكية القديمة].

وبما أن دولة تشين تعلم تمام العلم ما تُضمره لها باقي الدويلات من الكراهية والعداوة، فلا بد لها أن تبدأ نشاطها القتالي مع دولة ضعيفة، وإلا كانت الهزيمة من نصيب قواتها، والمحنة أو النكبة النكراء مصير البلد كله.»

وبالفعل فقد تحركت قوات تشين إلى الجنوب، فاقتحمت «لانتيان» بالإضافة إلى منطقتي يان وإينغ.

لَمَّا كان العام السادس من حكم الإمبراطور

لَمَّا كان العام السادس من حكم الإمبراطور «تشين شيهوان» [عام ٢٤١ق.م.] (... ثمة بياض في المتن حيث سقطت كلمات من النص القديم) ... ذهب إلى ملك وي، وقال له: «كانت دويلة، تصاو، فيما مضى تنظر إلى دولة تشي بوصفها (أهم سند لها بين الممالك) وعلى هذا الأساس راحت تُقلل من شأن دولة جين، وعندما انشغلت دولة تشي بالإغارة على دولتي «لاي» و«إينغ»، انتهزت دولة جين الفرصة وباغتت دويلة تصاو بالهجوم.

ثم إن دويلة «سنغ» تمكنت من صد هجوم دويلة «يوي» عليها بفضل استنادها إلى قوة تشي. فلما وقع في هذه الأخيرة العصيان المسلح (الذي قاده من داخل القصر، «تيان شي») انتهزت دويلة يوي هذه الفرصة وهاجمت مدن سنغ، ومن جانب آخر فقد كانت دويلة جنغ تستند إلى قوة دولة وي، وتنظر بعين الازدراء إلى دولة هان، فلمَّا قامت وي بمهاجمة منطقة «إيو» [تنطق كما في «إيوان»] استغلت هان وقوع تلك الأحداث، وهجمت على دويلة جنغ.

وكان إقليم «يوانكو» يُدين في وجوده بقوة كل من دولة تشين وقبائل «دي» [تنطق كما في «الوادي»] بينما يَعُد دولة جين غير جديرة بأدنى تقدير. فما إن دهمت السيول الجارفة دولتي تشين وقبائل «دي» حتى سارعت جين إلى شن الهجوم على يوانكو.

وكذلك كانت دولة جونشان تعتمد على مساندة كل من تشي ووي لها بينما لم تكن تنظر بعين التقدير إلى دولة جاو. فلما انهمكت وي وتشي في القتال مع تشو، هرعت جاو إلى مهاجمة جونشان، فدحرتها. وهكذا نجد أن السبب فيما أصاب تلك البلاد من ضياع

وانهيار يكمن في تصوراتها بأنها ذات سندٍ تتَّكئ عليه يتمثل في دولة قوية تمدُّها بالدعم) ثم إن هذا الحال لا يقتصر فقط على تلك الدويلات الخمس، بل يُشاركها فيه الكثير من الدويلات والممالك، في كل مكان، خصوصًا تلك التي كان مصيرها الفناء.

إن الأسباب الداعية إلى عدم الاتكاء أو التعويل كثيرًا على ما تُقدمه الدول الأخرى من مساندة كثيرة ومُتباينة، كما أن ما ينجم عن ذلك من كوارث لا يحصرها عد. فمن هذه الدول — مثلًا — ما لا يصلح لأن يكون موضع مساندةٍ بسبب ما يعتوِر تعاليمها وأفكارها السياسية من خللٍ يحتاج إلى إصلاح وضبط وتقويم، أو أن يكون تفسُّخ إقليمها وانعدام الوحدة بين أجزائها حائلًا دون جدارتها كسندٍ لبقية الدول، ومنها ما يكون موقعه إلى جوار دول ذات أساليب خادعة وملتوية، هو السبب في عدم تمتُّعه بمكانة «حامي الحِمى»؛ ومنها ما تكون ندرة موارده الزراعية والحيوانية وقلة محاصيله مانعًا لمصالحه ووجوه النفع العائدة عليه. وهناك بعض الدول التي لا يمكن الاستناد إلى قوتها ومكانتها ... لأنها اقتربت من حافة كارثة.

فلكل ذلك عرفنا أنه لا يمكن الاتكاء على قوة بلدٍ آخر، لكن جلالتك تعتد كثيرًا بمساندة تشين لك، وتعتمد عليها (في كل كبيرة وصغيرة) وتصدق كل ما يقوله لك الملك «شنجون»، ومن ثم فإن أي محاولة لمقاومة أو صد أو مواجهة تشين، لأي سبب كان، ستكون لها عواقب يصعب تقديرها. أما إذا تعرضت تشين لأية نكبات أو كوارث فلن يتحمل نتائجها سواك وحدك. فأنت — وعلى الرغم مما في حوزتك من بلدٍ ذي مقدرات عالية — تعتمد اعتمادًا كليًّا على أفكار رجل واحد وتُصغي له بأذن السمع والطاعة. وهذه — فيما أرى — طريقة غير سديدة، فأرجو مراجعة هذا الأمر مليًّا والتأمُّل في جوانبه بعُمق.»

لمَّا توجه ملك وي بسؤال إلى مُحدِّثه

توجه ملك وي بسؤال إلى «تشانغماو»، قائلًا: «ما رأيك فيما إذا اشتركنا مع دولة تشين في ضرب هان؟» فأجابه الرجل بقوله: «فلنتساءل هل ستقعد هان، حينئذٍ تنتظر نهايتها، أم تسارع إلى التنازل عن بعض أراضيها ترضيةً للدويلات واعترافًا بطاعتها؟» فرد عليه الملك، قال: «لا بد أن هان سوف تتنازل عن الأراضي إذعانًا وخضوعًا.» فقال له تشانغماو: «أي البلدين تمقته دولة هان بشدة، أهي دولة وي أم تشين؟» فأجاب الملك بأنها لا تكره بلدًا في الدنيا كراهيتها لدولة وي. فقال له محدثه: «وأي البلدَين تظنه هان الأكبر (والأقوى)، دولة تشين أو دولة وي؟» فأجابه الملك بأنها ترى تشين الأقوى والأعظم. فعاد تشانغماو يقول

له: «إذا ما تنازلت دولة هان عن بعض الأراضي، أتظنها تُذعن للبلد الأقوى، وتتَّحد مع البلد الذي لا تبغضه؟ أم تراها عندما تتنازل عن أجزاء من أراضيها، تخضع للدولة الأضعف، وتتحد مع الدولة المكروهة؟» فأجاب ملك وي بقوله: «إن دولة هان؛ إذ تتنازل عن الأراضي فستخضع لمن تراه الأقوى وتتَّحد مع مَن لا تبغضه.» وهنالك قال له تشانغماو: «فامضِ، إذن لما أنت بصدده من مهاجمة هان، فأنت أدرى الناس بهذا الأمر وأملكهم لزمام التدبير فيه.»

لمَّا تحدث أحد الضيوف إلى كبير رجال دولة

تحدث أحد الضيوف إلى «سيما هي» [أحد كبار رجال دولة وي] قائلًا له: «لا يتحدث عن توحيد الممالك إلا رجل لا يفقه في أحوال الدول شيئًا، ولا يتكلَّم رجل عن وجوب قيام دولة وي، بمفردها بمناوأة ومقاومة دولة تشين إلا كان جاهلًا بأحوال وي تمامًا، ومن يزعم أن الرجل [المشار إليه هنا قد يكون أمير دولة لو] الداعي إلى التحالف الرأسي لا يدرك شيئًا عن تلكم الحقيقة، فإنما يدل بقوله هذا على عدم معرفته بذلك الرجل.

فكيف نحكم، إذن، على ذلك الرجل الذي يدعو إلى التحالف الرأسي؟ [والإجابة في رأيي هي أنه …] إذا ما قام التحالف الرأسي، فسوف يثبت أنه الرجل الأعظم أهمية، أما إذا تعثر مشروع هذا التحالف، فسوف تتوارى كثيرًا أهمية دور الرجل وتتضاءل مكانته إلى أدنى مستوًى، لكن حتى أولئك الذين تزداد أهميتهم رسوخًا وهم يدعون إلى التحالف الرأسي، سيجدون أنفسهم عاجزين عن اتخاذ قراراتٍ عملية وواقعية وجادة (بشأن هذا التحالف الرأسي) فما الذي يمنعك عن انتهاز فرصة انغماس الدول الثلاث في مهاجمة تشين، وتفوز منها بمزايا جيدة، ولا بد أنها سترحب بك وبموقفك وإلا فليكن معلومًا لديك أن مجموعة دول التحالف الأفقي ستدبر المكايد والمؤامرات ضدك لتُرغمك على الانضمام إلى جبهتها، فذلك هو السبيل إلى نقل رصيدك القوي (من التحالف الرأسي) إلى الجهة الأخرى.»

لمَّا قامت وي مع تشين بمهاجمة دولة

قامت وي مع تشين بمهاجمة دولة تشو، لم يكن ملك وي (في أول الأمر) راغبًا في الاشتراك في هذه المعركة [وقعت أحداثها عام ٣٠١ق.م.] فذهب إليه «لوهوان» وقال لجلالته: «إذا لم تشترك مع تشين في مهاجمة تشو، فلن تتوانى هذه عن التنسيق مع ملك تشين لضربك،

وأرى أنه من الأفضل أن تقوم بما يساعد على اندلاع الاشتباك بين تشين وتشو، على أن تسعى (من جانب آخر) إلى حثهما على ضبط النفس وعدم التمادي في القتال.»

لمَّا قام رانخو بمهاجمة منطقة طاليان

قام «رانخو» بمهاجمة منطقة طاليان، واقتحم إقليم «بيجاي» وكان أن ملك وي أصبح يأتمر بأمر رانخو، ويسير في ركابه، فذهب إليه (ذات مرة) وقال له: «قد هاجمت دولة تشو وحصلت على أرض «وان» و«رانغ» فأضفتهما إلى مساحة إقليم «طاو»، ثم لم تكتفِ بذلك، فخرجتَ لقتال دولة تشي وأخذت منها — عنوة — أرض «قان»، «تشو» وأضفتهما إلى مساحة «طاو» أيضًا؛ وواصلت المناوشات مع دولة وي حتى سلبتها أرض «شيو»، و«يانلينغ» ثم لم تلبث أن ضممتها إلى إقليم «طاو» كذلك، وعلى الرغم من كل ذلك لم يكترث ملك تشين بكل (ما فعلت من ...) هذه الأمور، فما السبب في ذلك؟ أيكون السبب راجعًا إلى عدم القضاء نهائيًّا على طاليان؟ (لكن) لو تم الآن القضاء نهائيًّا عليها، فإن احتلال منطقتي شيو، ويانلينغ، سوف يجعلك موضع لوم وتأنيب وهو ما سوف يوقع بك في مأزق بالغ الدقة والحرج. ولذلك فإني أُفضِّل — لو كنت مكانك — ألا أُهاجم طاليان إيثارًا للسلامة وطلبًا للفائدة.»

لمَّا تحدث بايقوي إلى الشريف الأجلِّ

تحدث بايقوي، [يقال تارة، إنه من وي، وتارة أخرى من دولة جو، لكنه إبان تلك الفترة كان يعمل بوظيفة مرموقة في بلاط تشين] إلى الشريف الماجد «شين تشينجون» [خال ملك تشين]، فقال له: «إن السائر ليلًا يملك أن يصد نفسه عن إيذاء الآخرين، لكنه لا يستطيع أن يمنع كلاب الليل من النباح واللهاث وراءه؛ وكذلك بوسعي أن أُمسك لساني عن القدح فيك أمام جلالة الملك، لكني لن أقدر على أن أمنع الآخرين من القدح فيَّ لدَيك، أو ذكر مثالبي عندك.»

لمَّا قامت دولة تشين باقتحام محلة

قامت دولة تشين باقتحام قرية «قوان» (من أعمال دولة هان) فسارع ملك وي بدفع قوات لنجدة هان، فذهب إليه شاوجي [أحد مواطني دولة تشو، يعمل في بلاط وي] وقال

له: «إن دولة تشين، كما علمت، من القوة بمكان؛ أما دولتا وي وهان، فهما مجرد بلدَين يتقاسمان معها حدود الجوار، فإذا سلِما من هجومها كان ذلك خيرًا، على أية حال، أما إذا خرجت تشين للحرب والقتال، فهي لن تُهاجم هان، بل ستتَّجه رأسًا إلى دولة وي، لكنها الآن ولحُسن حظ دولة وي، اختارت دولة هان هدفًا لهجومها، لكنك عندما تُحاول الآن أن ترسل نجدة إلى هان، فربما استطعت بذلك أن تفك الحصار المضروب حول محلة «قوان»، وهو ما سيستدعي (من جانب تشين) محاولة أخرى لحصار طاليان (الواقعة في أرضك).» لكن ملك وي مضى مُصممًا على رأيه، قائلًا: «إن التقاعس عن مساندة هان في هذا الوقت سيحملها على البغضاء لنا، مما قد يدفعها إلى الذهاب غربًا للارتماء في أحضان تشين التي سترحب بها، ويصيران معًا وحدة بلدٍ واحد، فيحيق بنا الخطر.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

ثم إن دولة تشين تجاهلت (بالفعل) منطقة «قوان»، وشرعت رماح هجومها صوب دولة وي، فأُسقط في يد ملكها، وركبه الرعب، وكان أن تحدث إلى شاوجي قائلًا: «لم أهتدِ بنصحك فنزلت بي الكارثة، فقل لي كيف أصنع الآن؟» وهنالك اهتم شاوجي للأمر وقصد إلى ملك تشين فقابله، وقال له: «بلغني، يا مولاي، أن الملك الحكيم لا يحكم بهوى نفسه ولا يُعالج الأمور حسب نوايا قلبه، وإنما يعقد للرأي، ديوان المشورة، فلا يُقرر أمرًا إلا بعد مراجعة جمهور الآراء [هكذا] وبعد، فأرجو من جلالتك التراجُع عن مهاجمة وي، كما أرجو أن يعمل بنصيحتي في هذا الشأن.» فلمَّا سأله الملك عن السبب فيما يقوله، أجابه: «(دعني أسألك أولًا ...) ما السبب — في رأيك — فيما عليه الدول الست الواقعة شرقي جبل شياو، والمنضمة إلى التحالف الرأسي، مما ينشأ بينها دائمًا من مصافاة وودٍّ وتحالف تارة، ونفور وتباعد وانفصال تارة أخرى؟» فلمَّا أجابه الملك بعدم وضوح السبب في تلك الحال لديه، رد عليه شاوجي، بقوله: «ما توحدت الدويلات إلا بسبب عدم تحديدك للهدف من هجومك، وما دبَّ بينهم الشقاق إلا عندما وضح لديهم، بشكلٍ قاطع هدف ضرباتك القتالية، ثم إنك لمَّا كنت بصدد مهاجمة محلة قوان، بدولة هان، فقد حلَّ الخطر عليها وأحاط بها من كل صوب، وإذ لم تصل جلالتك إلى نتيجة محددة في هذا الهجوم، فقد حولت قواتك لمهاجمة دولة وي، مما دعا الدويلات إلى الانضمام إلى التحالف الرأسي بعد أن بَدَا لهم أنها الفرصة السانحة والتوقيت الأكثر ملاءمة (لمثل هذا الانضمام).

إنه ما من بلد تحت السماء [هكذا حرفيًّا: بمعنى فوق الأرض، في إطار الممالك الصينية القديمة!] إلا يعرف جيدًا أنه لا طاقة له بمقاومة أطماع وطموحات تشين، ولذلك فلو كنت مكان جلالتك لسارعت إلى تأديب دولة جاو، كبحًا لجماحها، وهو ما سيرغم دولة يان على الاعتراف بطاعتكم والمثول بين يديكم صاغرة ترفع لواء التأييد والخضوع. أما تشي وتشو فلن يمكنهما تكوين تحالف رأسي بمفردهما.(واعلم) أنه إذا تكالبت عليك الممالك بسبب عداوتك وعدوانك، فسوف يضمحل شأنك وتذهب قوتك.» وعندئذٍ أصدر الملك قراره بوقف العمليات الهجومية ضد وي على الفور.

لمَّا نشبت المعارك بين تشين وجاو

لما انعقدت أجواء الكراهية فوق تشين وجاو فقد نشِب القتال بينهما، وذهب إلى ملك وي من قال له: «من الأفضل (في هذه الظروف) أن تسارع دولة وي بالاتحاد مع دولة جاو في مواجهة تشين بوصفها عدوًّا مشتركًا، فإذا لم تتَّحِد معها في جبهةٍ واحدة ضد ذلك العدو الواحد، فلن تستطيع جاو أن تثبت في القتال مع تشين بجيشٍ تكبد خسائر فادحة، أما إذا دخلت وي ساحة الحرب مع تشين فلا بد أن جاو ستقدر على معاودة العمليات القتالية، وتنظر بعين الاهتمام لدولة وي؛ (فهذه فرصة ...) لتحجيم قدرة تشين (الجامحة) وطاقة جاو (الكامنة).

وإذا كنت تفكر يا مولاي — حقًّا — في استمالة كل من تشي؛ أو كنت تبغي السيادة فوق الممالك؛ أو كنت تحلم بزعامة لواء التحالف الرأسي مع تشي وتشو، فكل ذلك مرهون بإرادتك، ينتظر إشارة منك ببدء التحرك.»

لمَّا ذهب بيندو لمقابلة ملك وي

لمَّا اندلعت معركة «تشانغ بين»، ذهب «بيندو» لمقابلة ملك وي، وقال لجلالته: «ما الذي يمنعك عن الانضمام إلى التحالف الرأسي؟» فأجابه الملك، وقال: «لأن دولة تشين أعطتني وعدًا بإعادة إقليم «يوان يونغ» إلينا.» فرد عليه بيندو، وقال: «اسمح لي، يا مولاي، بالقول إني أرى أن التنازل عن ذلك الإقليم لم يكن أصلًا ذا جدوى.» فلما سأله الملك عن السبب في قوله هذا، أجابه بقوله: «إن كلا الطرفَين، سواء تشين أم جاو، متمسكان بموقفهما في موقعة «تشانغ بين» فالموقف باقٍ بينهما دون نصر أو هزيمة، أما إذا قررت باقي

الممالك أن تنحاز إلى جانب تشين، فسوف يكون في ذلك الضربة القاصمة لدولة جاو، وإذا كان وقوفهم إلى جانب هذه، فلن تقوم لدولة تشين قائمة، ولمَّا كانت هذه تخشى أن تبدل مواقفك، فقد جربت استمالتك [إغواءك، حرفيًّا] بالتلويح لك بمنطقة «يوان يونغ» فماذا إذا كانت النصرة من نصيب تشين، فهل ستُرسل جلالتك، حقًّا، إلى تشين تسألها بخصوص تسليمك «يوان يونغ» من عدمه؟» سترد جلالتك على هذا السؤال بأنك تستطيع، وقتئذٍ، أن تتصرف على هذا النحو، ثم ماذا لو عجزت تشين عن دحر دولة جاو؟ هل تملك جلالتك أن تُلزم دولة جاو بتسليمك «يوان يونغ»؟ ستقول — جلالتك — طبعًا إنك لن تستطيع ذلك؛ فلكل ذلك قلت لك إن التنازل عنها كان فارغًا بلا قيمة!» فأقر الملك له بصحة استنتاجه.

لمَّا قام كبير وزراء وي بترتيب اجتماع

قام لوهو [كبير وزراء وي] بترتيب اجتماع يعقد بين حاكمي البلدين تشين، ووي عند المنطقة الحدودية، وتحدث إلى ملك وي، قائلًا: «لن يكون مع جلالتك أثناء الاجتماع رئيس وزرائك، ولذلك فسوف يقوم ملك تشين بتسمية رئيس الوزراء، فإذا لم تأخذ بما يُزكيه لهذا المنصب، فسوف تسوء العلاقات كثيرًا مع تشين، أما إذا عملت بمشورته فسوف يصبح في مقدور وزرائك أن يُصرِّفوا شئون الدويلات والممالك، فتنعقد لك السطوة فوق الجميع. هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى، فإن ذهابك للاجتماع إلى الملك، وبصحبتك وزراء لم يبلغوا سُدة الحكم إلا بتزكية تشين لهم، بناءً على ثقتها فيهم يفقدك مصداقية التحالف مع تشي (واعلم) أن تشين سوف تنظر إلى زعامتك وسمو مكانتك (بين الممالك) بعين الازدراء والتحقير، (ومن ثم فلن تعمل صعود نجمك وسط الدويلات).

والأفضل أن تقوم بتولية المنصب الوزاري الرفيع لمن هو موضع ثقة دولة تشي، فتصيب حظًّا من استرضائها بهذا التصرف؛ وهكذا فإذ تذهب إلى اجتماع كبير مع ملك تشين وبصحبتك رئيس للوزراء محل ثقة دولة تشي، فسوف تكون موضع تقدير واهتمام تشين.»

لمَّا أراد كبير وزراء وي قطع العلاقات

كان «رويسون» [كبير وزراء وي] قد اتخذ التدابير لقطع العلاقات بين تشين وجاو، فأوحى إلى دولة وي بفكرة استرداد الأرض التي خصصتها لاستخدام الملكة الأم في دولة تشين مما

أثار جلالة الملك، فتحدث إليه رويسون قائلًا: «قد عهدت إليكم وي بالقيام على تصريف شئونها ووضعت مصيرها رهن إشارتكم، لكنكم أبيتم أن تقبلوا بما عرضت، فما كان منها إلا أن تحولت عنكم إلى دولة جاو، وقد قال لي «ليهاو» [كبير وزراء دولة جاو] ما نصه: «تذكُر لي أنه لا تربطكم أية علاقة بدولة تشين، ومع ذلك فها أنتم تهدونهم الأراضي [التي تقفونها على خدمة الملكة الأم] فلا أظنكم إلا هازئين بي» … فلمَّا سمع ملك تشين هذا القول انتابته نوبة غضب، وعلى إثر ذلك قامت القطيعة بين البلدين تشين وجاو.

لمَّا ذهب مبعوث إلى دولة تشو

ذهب إلى دولة تشو من التقى بجلالة الملك وكلَّمه، بالإنابة عن حاكم وي، قائلًا له: «إن محاولتك ابتزاز دولة تشين بالتهديد بغزو دولة وي لن يُقنع دولة تشين بشيء؛ ولن يدعها تصغي إليك، أو تسير وراءك، وهو ما يعني عجزك عن تدبير المكائد والخطط (التي يمكن أن تنطلي على تشين)، ويعني أيضًا ازدياد الجفاء بيننا؛ وإذ تتفاقم الكراهية بين تشو ووي، تزداد أهمية ومكانة دولة تشين، ولذلك فالأفضل بالنسبة لك هو أن تساير رغبة الدويلات وأن تشن الهجوم على دولة تشي.

واعلم أنك إذا قمتَ بتبادل الأراضي مع وي (وسويت هذه المسألة تمامًا) فسوف تُجنب جيشك الخسائر الفادحة، وسيظل مستوى العلاقات الخارجية بيننا على ما هو عليه دون أي تغيير، (وساعتئذٍ) فيمكنك أن تحصل على كل ما تصبو إليه.»

لمَّا قام لوبي بتكليف تيشيان بالسفر إلى

قام كوان بي [يُعتقد بأنه لقب آخر للمدعو «لوبي»] بتكليف تيشيان بالسفر إلى تشين للتباحث معها في الشئون الرسمية، ثم إنه أرسل إلى ملك وي ليبلغه بما نصه: «إن ما بين «لوبي» وتيشيان، يُشبه كثيرًا ما بين أهل دولة جين وأهل دولة تشو؛ ذلك أن أهل جين إذا ما رأوا أهل تشو قد هرعوا إلى قتالهم، تقلدوا السيوف في تؤدة وتعمَّدوا التأني قبل بدء القتال، وهو ما يُثير لدى أهل جين الاشمئزاز والضيق، فيحملون عليهم دون إبطاء. وهذا «لوبي» قد رحل إلى تشين وأقام في المسكن المُخصص له (من قِبل الحكومة) فوجده مكانًا سيئًا للغاية، يكاد لا يصلح للسكنى أصلًا، وكان تيشيان قد دخل تشين أيضًا، فلم يجد (وهو المبعوث من جهة رسمية ذات شأن) أحدًا يتولى مهمة حراسته، وهو الوزير ذو

المكانة والمهابة، الذي يتبع البلاط الملكي الحاكم باسم جلالة الملك، فإذا به يلقى، في تشين، هذه المعاملة (التي لا تليق بأي حال) فهل يصح ذلك؟»

لمَّا أراد أحد نبلاء دولة هان أن ينصح

أراد تيشنيان [أحد نبلاء دولة هان] أن يدعو دولتي هان ووي للاعتراف بطاعة تشين، والسير في فلكها، مما اعتبره ملك وي الأمر الذي لا نفع فيه، فذهب «باقوي» إلى جلالته، وقال له: «أرى يا مولاي أن ترسل، سرًّا، إلى تيشنيان من يقول له ما نصه: «جرب أن تدخل دولة تشين، وسوف ترى أنها ستسارع إلى اعتقالك حتى ترغم دولة هان على التنازل لها عن أجزاء من الأراضي، فإذا لم تستجب فسوف يستمر اعتقالك بأرضها حتى تشن الهجوم على هان؛ ولذلك فإنه من الأفضل لك أن تلتمس طريق الحذر وأنت ذاهب إلى تشين، فما إن تحل بها … حتى تطلب اللجوء إليها بوصفك رهينة (سلام)، هذا، ومن المؤكد أن تيشنيان لن يقدم على الدخول إلى تشين، وإذ تتعثر الوحدة بين هان وتشين، تزداد مكانة جلالتك أهمية (وسط الممالك).»

لمَّا قامت تشين بالاستيلاء على بلدة

تمكنت تشين من احتلال بلدة «نينغ» وأرسل ملك وي إلى ملك تشين، يقول له: «إذا تفضل جلالة الملك بإعادة بلدة نينغ إلينا، فسوف نكون على رأس الدويلات (قبل كل الممالك) في طلب التصالح والمصافاة معكم.» فتكلم (معه) «ويران»، وقال له: «لا تصدق ما أتاك به ملك وي؛ فهو إذ أدرك أنه لا توجَد دولة واحدة وسط الممالك يمكن الاعتماد عليها، تدبر الأمر جيدًا وبادر إلى الصلح معك، وهكذا فهو مطالب (بالإضافة إلى ما فقده من أرض …) بأن يتنازل عن المزيد من الأراضي سعيًا للتصالح؛ فكيف يصح (والأمر كذلك) أن نعيد إليه بلدة «نينغ» وقد صارت في حوزتنا؟»

لمَّا أوقفت تشين عملياتها الهجومية

أوقفت تشين عملياتها الهجومية ضد هاندان، لتُركز هجومها كله ضد دولة وي، احتلت بلدة «نينغ»، وخاف «أوتشين» [كبير وزراء دولة وي] أن يسعى ملك وي إلى طلب التصالح مع دولة تشين، فتحدث إلى جلالته، قائلًا: «أتعرف السبب فيما أقدمت عليه تشين من

مهاجمتك؟ إن الممالك كافة، تُردِّد فيما بينها بأن جلالتك تسعى للتقارُب مع تشين، مع أنك في الواقع لا تصبو إلى هذا، بل لا تحدونا إلا الرغبة والأمل في إبادة تشين، لكن الممالك تُردد أن بلادك ليست على درجة من القوة، والحق أن بلادك ليست أضعف من جو الشرقية والغربية، إن السبب في تراجع تشين عن مهاجمة هاندان وتخطِّي كلٍّ من جو الشرقية والغربية لمهاجمتك، يكمن في تصوراتها بأنه من السهل إخضاعك والسيطرة عليك، فلا بد أن تُدرك أن مثل هذه [الطراوة] والتخاذل والضعف كفيلة باستجلاب محاولات الهجوم عليك (أما آن لجلالتك أن تفهم ذلك بعد؟)»

لمَّا عقد ملك وي العزم على مهاجمة

عقد ملك وي العزم على مهاجمة هاندان، فلمَّا علم بذلك «جيليان» [أحد مواطني وي] وكان في الطريق لقضاء بعض شئونه، استدار عائدًا، وقصد إلى ملك وي لمقابلته، (حتى قبل أن يغسل رأسه مما علق به من غبار الطريق أو أن يُنظف ثيابه، ويتهيأ للقاء بما يليق) ثم إنه قال لجلالته: «كنت، يا مولاي، وأنا عائد إلى بيتي، لقيتُ رجلًا على الطريق يسوق دابَّته متجهًا ناحية الشمال، وحدث أنه تكلم معي، قائلًا لي: «أنا قاصد الذهاب إلى دولة تشو.» ... فقلت له: «فما الذي يدعوك إلى الاتجاه شمالًا، ما دمت ذاهبًا إلى تشو؟» فأجابني: «لأن عندي حصانًا قويًّا وأصيلًا.» فقلت له: «حتى لو كان جوادك قويًّا، فليس هذا بالطريق المؤدي إلى تشو.» ... فأجابني: «قد حملت القدر الوافر من مصاريف السفر.» فقلت: «مهما كانت مصاريفك وافرة، فهذا في الأساس، ليس هو طريقك إلى تشو!» فأضاف، قائلًا ... «معي حوذي، ابن طريق وسفر، يقودني خلال الطريق.» ... «كل هذا رائع وجميل ... لكن الملاحظ أنك كلَّما أحسنت الإعداد، تباعدت كثيرًا عن دولة تشو.»

إن كل تصرفاتك، يا سيدي، تومئ إلى أنك تريد تأسيس إمبراطورية كبرى، وتريد الفوز بثقة الممالك والدويلات جميعها، إلا أن الاستناد إلى قوة الدولة، وشدة بأس الجيش، في مشروع الهجوم على هاندان بهدف توسيع رقعة الأراضي وتسنُّم ذروة المجد، يبعث على الظن بأنه كلما استزدت من تلك الوسائل وتوسعت في التفاني والتفوق في توفيرها، تباعدت كثيرًا عن تحقيق غرضك الذي تسعى إليه. تمامًا مثل المسافر إلى تشو الذي (أعد عُدته بكل دقة، لكنه ...) كلما صعد شمالًا، تناءى عن الغاية.»

لمَّا تحدث جوشياو إلى كبير وزراء

تحدث «جوشياو» [كبير وزراء وي] إلى «قونطا» [كبير وزراء جو] فقال له: «أبلغ ملك تشي عني بأني أرغب في أن يتم تعييني وزيرًا (من الخارج) لدى بلاط «تشي» [كما تنطق في (كراتشي)] عسى أن تُزكيني دولة تشي في الترقي إلى سلطة مرموقة في دولة وي.» فقال له «قونطا»: «ليس هذا بالقول السديد، ولا يكون الأمر هكذا أبدًا؛ لأنك بهذه الطريقة تكشف لدولة تشي تدني مكانتك في وين، وتُبرز مدى انحطاط شأنك. ولا يمكن لبلاط تشي أن يُوصي بترشيح رجلٍ تنقصه الثقة لتفسد حظ رجلٍ آخر هو محل تقدير واعتبار، والأفضل من ذلك أن تعطي انطباعًا بأنك أهل لثقة دولة وي ومحل اعترافها بما لك من مزايا ومواهب، ومن ثم تقول للطرف الذي يُهمك ما نصه: «وأحيط جلالتكم علمًا بأني على استعداد وثقة بأن استخدام نفوذي لدى البلاط الحاكم في وي للاستجابة الفورية لما تنشدون من ملك وي تحقيقه أو النظر فيه، من طلبات.» وهنالك فسيحاول ملك تشي مساعدتك بكل تأكيد، ويُصبح لك في البلاط الحاكم هناك خير عون على إنجاز آمالك، وهو ما سيدعو دولة وي — بالتالي — إلى تعظيم قدرك فتمنحك الثقة والاعتبار.»

لمَّا كان جوتسوي منحازًا إلى جانب دولة

كان جوتسوي منحازًا إلى جانب تشي، في حين كان تيشنيان مواليًا لدولة تشو، ثم إنهما أرادا أن يُلطخا سمعة تشانغي لدى ملك وي وأن يقدحا فيه بذمِّه وذِكر معايبه، فلما عرف تشانغي بذلك، أرسل أحد تابعيه ليقف (حاجبًا) دون باب الملك على أن يُراقب الداخلين والخارجين من عند جلالته، وهكذا تخاذل مُبغضو تشانغي عن التشنيع عليه لدى القصر.

لمَّا قصد جوتسوي إلى بلاط تشي

ذهب جوتسوي إلى بلاط تشي، فاستشاط ملك تشين غضبًا، وأوفد «ياوجيا» إلى ملك وي يُؤاخذه بما جرى، فكان جواب ملك وي على حاكم تشي، كالتالي: «إن الوسيلة الوحيدة لإبلاغ الدويلات والممالك بمجريات الأمور والأحداث (بالإنابة عن جلالتكم) كانت عبر جوتسوي نفسه، أما وقد غادر أرضنا وذهب إلى دولة تشي، فلن يتَّصل نبأ أو خبر، بواسطتها، إلى الممالك. ونودُّ أن نُحيطكم علما بأنه لم يكن لدولة تشي أن تعوقنا، بأي حال، عما نحن

بصدده من الخدمة لكم والاعتراف بطاعتكم. وإذا بَدَا لدولة تشين أن تدفع قواتها لمهاجمة تشي، فليس عليها إلا أن تحث جاو على الامتثال لهذه الخطة [لا أكثر ولا أقل].»

لما قام التحالف بين تشين، ودولة وي

قام التحالف بين تشين ودولة وي، فاتفقت دولة تشي مع تشو على ضرب وي، فأسرعت هذه بطلب النجدة من تشين، وعلى الرغم من أن وفود المراسلات بين وي وتشين (لأجل هذا الغرض) ظلت تروح وتجيء بلا انقطاع [حرفيًّا: برغم أن الرايات والأعلام الرسمية فوق عربات السفراء كانت بادية للعَيان على طول الطريق بين البلدين ...] فإن تشين لم تُحرك ساكنًا، ولا وجهت تشكيلًا واحدًا من قواتها.

وكان في دولة وي رجل يدعى «طان تشي» قد تجاوز عمره تسعين عامًا، فجاء هذا الشيخ إلى ملك وي، وقال لجلالته: «إن خادمك الأمين يقصد الإشارة إلى نفسه بضمير المتكلم] يرجو السماح بالسفر جهة الغرب؛ لأحاول إقناع ملك تشين (بالتحرك لأجلك) بدفع قوات الإنقاذ السريع، أفتأذن لي في ذلك؟» فوافق الملك على طلبه وجهز عربة أقلَّته في سفره، وخرج مودعًا له على الطريق، وما كاد طان تشي يلتقي بملك تشين حتى بادره جلالته بقوله: «قد تحملت عناء السفر ووعثاء الطريق، ومُنتهى الجهد حتى وصلت إلينا، فلا بد أن الإرهاق قد بلغ منك مبلغه. (كل ذلك لحثنا على التحرك للإنقاذ، والحقيقة ...) إن دولة وي قد أرسلت لنا كثيرين طلبًا للتدخُّل (إنقاذًا لها). ولا أنكر مدى دقة وحرج الموقف في بلادكم.» فرد عليه طان تشي قائلًا: «إذا كنتَ تدرك مدى دقة الموقف دون أن تتحرك للإنقاذ؛ فهذا دليل على ضعف رجال التخطيط في بلادك، ثم إن دولة وي تملك أكثر من عشرة آلاف عربة عسكرية، فهي ليست بالبلد الهين، وهي تعد نفسها دولة تابعة لكم في الشرق، تفخر بهذه الرابطة وتتعلم الكثير من أساليبكم الراقية، وتحرص على الحضور في كل عام، كلما حانت مناسبة «الربيع والخريف» لإرسال التقادم والقرابين، وتعتبر أن الاستناد إلى قوة ومكانة وهيبة تشين يكفي — بحد ذاته — لتقرير معنى التحالف معكم وإرساء بنيانه، وها قد أوشكت قوات الدولتَين المعتدِيتَين تشي وتشو على الدخول إلى مشارف العاصمة، دون أن تصلنا قوات الإنقاذ من طرفكم. فإذا انعقدت الأحوال وتأزم الموقف بالنسبة لنا فسوف نتنازل عن أجزاء من الأراضي للدولتَين المذكورتَين (لتسوية الأمور معهما) وساعتئذٍ، سيكون الوقت قد أفلت دون اللحاق بالكثير، ولن يجدي نفعًا أن تتحرك وقتها لإنقاذنا. وسيكون معنى ذلك أنك خسرتَ حليفًا ذا تسليحٍ وافر [عشرة آلاف

عربة عسكرية] بل دعمت قوة دولتَين عدوتَين هما تشي وتشو، وكم أشعر، شخصيًّا بضيق أفق وقلة خبراء التخطيط عندك.»

أما ملك تشين فقد عبَّر عن أسفه العميق، ثم إنه أمر بدفع القوات على الفور، على أن تُرسَل في أرتال متلاحقة (لا يخلو منها الطريق، لا تنقطع دونها دورة الليل والنهار.)

وما كادت تبلغ أنباء ما حدث إلى أسماع تشي وتشو حتى سحبتا جيوشهما وعادتا من حيث جاءتا، وما كان لدولة وي أن تنجو من الخطر المُحدق بها يومئذٍ، إلا بفضل ما تكلم به طان تشي.

لمَّا قام سمو الأمير باغتيال جين بي

قام «شين أولينغ» بقتل «جين بي» فأنقذ مدينة هاندان، ورد دولة وي على أعقابها وحامَى عن دولة جاو، فأقبل على جلالة الملك (ملك جاو) وكان قد أتى إليه، على وجه الخصوص، من ظاهر البلد، فتكلم طان تشي إلى شين أولينغ، قائلًا له: «قد بلغني أن من الأمور ما لا يمكن إدراكه، ومنها ما لا يمكن إلا الوقوف على كنهه؛ وبلغني أيضًا أن من الأشياء ما لا يمكن نسيانه ومنها ما لا بد من نسيانه.» فسأله شين لينغ: «وماذا تقصد بذلك؟» فأجابه: «أن يبغضني الناس ويمقتوني، فهذا أمر لا سبيل إلى تجاهله وعدم إدراك كنهه، أما كراهيتي للآخرين، فهذه مسألة ربما لا يعرفها أحد، فلا سبيل إلى إدراكها. بالطبع؛ أما ما لا يمكن نسيانه، فهو ما تفضل به الآخرون عليَّ من الإحسان والفضل العميم؛ وما لا بد من نسيانه فهو ما تفضلتُ به على الآخرين.

أما وقد قتلت «جين بي»، وأنقذت مدينة هاندان من الاحتلال، وهزمت دولة وي ودفعت عن دولة جاو شر المخاطر فهذا هو أعظم الفضل والعطاء، وإذ يُقبل عليك ملك جاو بنفسه من ساحة المواجهة على مشارف البلاد، دون أن يخطر ببالك أن تحظى بمثل هذا التشريف، فهذا أمر ينبغي عليك أن تنسى ما لك فيه من أيادٍ بيضاء وبذل كريم.» فأجابه شين لينغ، قائلًا: «بل مما يشرفني أن أتلقى عنك النصح والإرشاد.»

لمَّا قامت دولة وي بمهاجمة دولة

قامت دولة وي بمهاجمة دويلة «قوان» [إحدى الدويلات التي كانت مجرد تابعة لدولة تشين، قديمًا] لكنها لم تستطع التغلُّب عليها، وكان بإمارة آنلينغ [أحد الأقاليم التابعة

لدولة وي] رجل يدعى «صوقاو»، وكان ولده يتولَّى الحراسة في دويلة قوان، ثم إن (الأمير) شين لينغ أرسل الوالي على إقليم أنلينغ وقال له: «أرسل لنا «صوقاو» وسوف أُعينه في منصب مرموق، وأكفل له الترقي في سلك الضباط العظام [من حاملي الدرجات والأنواط]: فرد عليه الوالي قال: «إن إقليمنا مجرد بلد صغير، لا يقوى على إرغام مواطنيه تجاه قبول أو رفض أي شأن من الشئون، ولا نستطيع أن نُجبر الناس على سلوك ما، فليمضِ رسولك ما شاء له أن يمضي، وليذهب بنفسه إلى صاحب الشأن، وكل ما أستطيعه هو أن أبعث معه من يدلُّه على مسكن صوقاو، كي يتسنَّى لي الرد بالإفادة على ما ورد إلينا منكم في هذا الخصوص.» وقال صوقاو في رده: «(أرى أيها الأمير) أنك تُجل شأني وتُعظِّم مكانتي وتثق بي، إذ تكلفني بمهاجمة إقليم «قوان»، إلا أنه من المثير للفكاهة والطرافة أن يقوم الأب بمهاجمة الإقليم الذي يتولى ابنه حراسته؛ ثم إنه لو قُدر لابني أن يتنازل عن الإقليم الذي يحرسه فستعد تلك خيانة لسيده الحاكم الأعلى، كما أن محاولة الأب في حث ولده على خيانة سيده لن تكون محل تقدير سموكم، فاسمح لي بالاعتذار مع جزيل الشكر.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

فلمَّا نقل الرسول وقائع ما حدث إلى سمو الأمير شين لينغ ثار غاضبًا وأرسل مبعوثًا خاصًّا إلى آنلينغ، بما مفاده: «إن أرض آنلينغ مثل أرض دولة وي تمامًا (وما يصح على هذه يتوجب على تلك …) وقد حاولت مهاجمة منطقة قوان، لكنها استعصت عليَّ مما يوقع بي تحت تهديد دولة تشين، فيتعاظم الخطر المُحدق بالبلاد، فأرجو إرسال صوقو إليَّ (حيًّا وموثقًا بالحبال، إذا أمكن) فإذا لم تفعل فسوف أسلط عليك مائة ألف مقاتل ينزلون حول أسوارك.» فرد عليه الوالي وقال له: «قد تسلَّم سمو الأمير الذي أعمل تحت إدارته مرسومًا ملكيًّا صادرًا عن جلالة الملك «شيانغ» (حاكم وي) بشأن الحراسة على هذه القطعة من الأرض [هكذا] وقد استلمت نسخة من المرسوم الإداري الذي تنص أول فقرة منه على أنه «يُعاقب بمواد يحدِّدها القانون على نحو قاطع، كل ابن يقتل أباه، وكل وزير أو مسئول يغتال مليكه، ولا يمكن صدور أحكام بالعفو في هذه الجرائم، مهما صدرت أحكام عامة بالعفو العام في هذا البلد، علمًا بأنه لا يجوز أبدًا أن يشمل العفو الحالات التي تقع تحت طائلة هذا المرسوم، حتى في الأحوال التي تُصاب فيها البلاد باضطراب ناجم عن الغزو أو الاحتلال وما قد يصيب الأهالي من جراء ذلك من انتقال أو هجرة أو تشريد.»

ثم إن صوقاو قد تنحَّى عن وظيفته حرصًا على قيمة ما يربطه بولده من معانٍ ومبادئ أخلاقية كبرى، ومع ذلك فقد أرسلت لي تقول: «لا بد من مجيئه إليَّ حيًّا، سليمًا يتنسم الحياة.»... وهو ما يضعني أمام مسئولية مخالفة المرسوم الملكي مما يُخل بمهمتي في الحفاظ على فاعلية وسريان القانون، وهو ما لن أقترفه أبدًا حتى لو أزهقت روحي.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

فلمَّا علم صوقاو بهذا الأمر، فيما بعد، قال «من الواضح جدًّا أن شين لينغ يتسم بالعناد والقسوة، فإذا بلغه مثل هذا الرد فقد تنجم عن ذلك مخاطر جمة تمس استقرار البلاد، ولئن كنت قد تصرفت بأمانة وعدل فيما يختص بولدي، فليس أقل من أن أراعي حق الأمير أيضًا؛ إذ لا يصح أن أكون سببًا فيما يمكن أن أجلبه على مليكنا من أزمات ومخاطر.» ثم إنه قام وذهب إلى مقر المبعوث، فما كاد يصل إليه حتى انتحر (بقر بطنه بخنجره)، فلما عرف الأمير شين لينغ بوفاة صوقاو (على هذا النحو) ارتدى ثياب الحداد [حرفيًّا: ارتدى الثياب البيضاء وغادر مقر العمل الرسمي، ثم أوفد إلى الوالي في أنلينغ خطاب اعتذار، نصه كالتالي: «لا تؤاخِذني على ما بدر مني، لئن كنت قد أخطأت في حقك أو أفلتت مني كلمة مُستهجنة، فإني أعترف بأني تجاوزت حدود الشهامة والأدب، على أني انغمستُ في الشأن السياسي بما أربكني وأفقدني صوابي، فتقبل ما أُبديه لك من الاعتذار مُجددًا.»

لمَّا كان ملك وي بصحبة وزيره المُقرب

كان ملك وي يركب القارب مع وزيره المقرب إليه «لونيانغ» يتنزَّهان في رحلة صيد، ثم لمَّا بلغت حصيلة صيد لونيانغ بضع عشرة سمكة، إذا به ينخرط في البكاء، فسأله الملك: «هل ثمَّ أمر يُنغص عليك حياتك؟ إذا كان ثمَّ ما يُشقيك، فلماذا لا تبوح إليَّ بما في طوايا صدرك؟» فأجابه الوزير: «معذرة لما أثقلت عليك به من اكتئابي.»

فقال له الملك: «فلماذا تبكي إذن؟» فقال: «بكيت لأجل السمك الذي اصطدته.» فسأله الملك: «عجبًا لما تقول، كيف يكون الأمر بسبب ذلك؟» فأجابه: «كنت في بدء الصيد فرحًا منشرح الصدر، لكني وقد تضاعف عدد السمك لديَّ وكبر حجمه، أُفكر جديًّا في أن أُلقي في الماء ما كنتُ قد اصطدته في أول الأمر.

وعندما أتأمل الأحوال أجدني قد استطعت أن أكون خادمًا مفيدًا لجلالتك في أول الأمر، وبرغم ما اعتراني من جهل وسذاجة وقُبح [هكذا] فقد كنتَ تعتمد عليَّ في أدق شئونك حتى

إني كنت أهيئ لك فراشك ووسادتك وأنفض ما ران عليها من الغبار والأتربة، أما الآن، فقد بلغت من الجاه والرقي ما لا مزيد عليه، حتى إني إذا مشيت وسط ردهات القصر هرع الناس من أمامي فابتعد الماشي سريعًا وتنحى الراجل عن الطريق، لكن البلاد ملأى بمن هم أجمل شكلًا وأكثر وسامة بين البحور الأربعة [هكذا، حرفيًّا: بمعنى: بين الممالك كافة] ولا بد أنهم عندما يعرفون أني صرت الوزير المقرب من جلالة الملك، فسيأتون إلى جلالتك يركعون عند أعتابك ويرفعون لك أيدي التعظيم والتأييد والإكبار، (وساعتئذٍ، ستجد من بينهم من يفوقني في المزايا ...) فتفعل بي كما فعلت في السمك الذي اصطدته أول الرحلة، حيث تُلقي به خارج القصر، فكيف يصير حالي وقتئذٍ، وكيف أسكت ولا أغتمُّ؟» فقال له الملك: «بل جانبك الصواب، وكان أولى بك أن تُخبرني بهذا الأمر، فلماذا لم تقل لي (منذ البداية)؟»

فمن ثم أصدر ملك وي قرارًا ملكيًّا جاء فيه ... «كل من يجسر على أن يُفاتح جلالته في موضوعات تتعلق بالجمال أو (تتطرق إلى الحسن والملاحة والوسامة) فسوف يهلك وتقتل عشيرته عن آخرها.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وهكذا نلاحظ أن الذين توطَّدت مكانتهم لدى الملك قد توطنت أيضًا، في آذان جلالته كلماتهم المعسولة ورسخت رسوخ الحجر الصوَّان، لكنهم استطاعوا أن يغلفوا تزلُّفهم وتملقهم ببراعة شديدة، فكيف يمكن بعد اليوم، لأولئك القادمين من أقصى الأرض أن يحظَوا بمكانة قريبة من جلالته، مهما تفوقوا في حُسن السمت والهيئة ووسامة القسمات، وحتى لو افترضنا أن الذين امتازوا بهذه الصفات قد وجدوا مكانةً قريبة من الملك، فكيف يمكن استغلال مواهبهم أو الاستفادة منها؟ خصوصًا إذا أضفنا إلى ذلك أن «الراسخين في التقرُّب» إلى جلالته، من ذوي الموقع المكين لديه، كثيرًا ما يتباغضون ويتصارعون فيما بينهم، فلستُ أرى ذلك كله إلا نذير الشر، لا بُشرى الخير، ولست ألاحظ إلا المرارة والشكوى، لا الخلق الأسمى والسمت النبيل. وبعد، فلا يمكن أن تكون تلك هي الطريقة المُثلى في تطبيق ما تعلَّمه المرء من الحكمة وما اكتسبه من البصيرة.

لَمَّا قامت تشين بتكثيف الهجوم ضد دولة

قامت تشين بتكثيف حملتها الهجومية ضد دولة وي، فذهب إلى ملك — هذه الأخيرة — من قال له: «إن المساومة بالتنازل عن أجزاء من الأرض أسهل كثيرًا من فقدانها بسبب الهزيمة، والتنازل عن الأرض، يُعد أيضًا، أيسر كثيرًا من أن تُصبح مقبرة للأحياء على إثر حصار لا فكاك منه.

أما أن يدع المرء أرضه تضيع منه دون أن يملك المساومة عليها (تقديمها كرشوة [هكذا حرفيًّا)]، أو أن يجعلها مقبرة للأحياء (المُحاصرين) دون أن يتمكن من التخلي عنها (بإرادته) فهذا خطأ جسيم.

وقد فقدت، يا مولاي مئات الأميال [الـ «لي» حرفيًّا] من أرضك، بالإضافة إلى عشرات المدن والمحلات من بلدك، ولما تزل الكارثة التي حاقت بك جاثمة على الصدور لا مخرج منها، والسبب في هذا أن جلالتك تركت الأرض تضيع دون أن تحاول استخدامها والاستفادة منها.

إن دولة تشين قوية جبارة، ليس لها على الأرض من يقدر على مواجهتها؛ ولم يعُد لها أعداء أو منافسون، أما دولة وي، فضعيفة للغاية، (فبسبب سوء تقدير الموقف) كنت أنت الذي جلبت على بلدك هجوم تشين، ثم إنك لم تزد سوى أن جعلت أرض بلادك مقبرة للأحياء فوقها، دون أن تفكر في التنازل عنها، فكان ذلك من أفدح الأخطاء على الإطلاق، فإذا رأيت أنه من الممكن تطبيق ما أقترحه عليك من خطط، فاعلم أن فقدان أجزاء محدودة من الأرض لا يعني ضياع الوطن كله، كما أن التواضع، وتقليل المرء من شأن نفسه ليس مساويًا، بأي حالٍ لتعذيب الجسم وإيذاء البدن. ثم إن تصفية أجواء الخطر نوع من ردِّ الصاع بصاعٍ وإزالة أسباب المرارة والألم.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

إن كل فرد في دولة تشين، سواء من أماجد القوم من الوزراء، أم من العامة والدهماء [الحوذيين وسائسي الخيل] يتساءل: «هل جلالة الملك يفضل آل «لاودو»، أم أنه يميل أكثر إلى آل «ليوبوي»؟» ذلك هو ما يفكر فيه الناس ويتساءلون عنه فيما بينهم وبين أنفسهم، سواء كانوا من المارة في الأزقة والحواري، أم من المُتجولين في فناء القصر الملكي.

(وأرى) أن تتنازل عن أجزاء من الأرض مرضاة لدولة تشين وسعيًا لمساومتها، بحيث تمنح هذه الأرض لـ «لاودو» إكرامًا لخاطره وإعزازًا لشأنه، وإذ تتواضع إلى هذه الدرجة

(وتُقلل من قدر شأنك) اعترفًا بمكانة وطاعة دولة تشين، فإنك تضع رهانك على لاودو، الذي يستمد منك الدعم والتأييد بما تمنحه إياه من أرضك، وحينئذٍ فلا بد أن سهمه (في المنافسة) سيرجح على غيره، هذا بالإضافة إلى أن جلالة الملكة (الأم) سوف تذكر لك صنيعك — مع لاودو — بكل الامتنان والتقدير والعرفان، عرفانًا [يرسخ في عظام الآدمي (هكذا حرفيًّا)] ويعود عليك بالود والمُصافاة وجزيل الصلة، بالدرجة التي لم يبلغها أحد غيرك في الممالك كافة.

ولئن كانت العلاقة بين وي وتشين قديمة، والصلات بينهما معتادة ودائبة، فإنها صلة الغش والخديعة، وعلاقة الخداع والمكر والريبة.

لكنك بما تصنعه مع لاودو، وما تكسبه من الود والصداقة مع تشين، تفوز بأفضل مستوى للعلاقة معها، وسط الأمم، لدرجة أن الكل سوف ينبذ «ليوبوي» ويتحزب لـ «آل لاودو»!

وإذ ينحاز الجميع إلى لاودو، وينبذون الآخر المذكور آنفًا، تكون جلالتك قد أخذت بثأرك وشفيت غليلك.»

لمَّا أرسل ملك تشين إلى سمو الأمير

أرسل ملك تشين إلى أمير آنلينغ، يقول له: «نحن على استعدادٍ لأن نتنازل لكم عن خمسمائة ميل (لي) من الأرض مقابل استرداد آنلينغ، فهل تعِدني — من حيث المبدأ وبشكل عام — على الوفاء بهذه المساومة؟» فأجابه الأمير، قائلًا: «إنه لأمر طيب جدًّا وكرم بالغ من جلالتكم أن تمنحونا تلك المساحة الهائلة من الأراضي مقابل إقليمٍ ذي مساحة محدودة، وعلى الرغم من ذلك فإن الأرض التي في حوزتنا أمانة تسلَّمناها ... من سادتنا الملوك المُعظمين، وسوف نقوم على حمايتها أبد الآبدين، ولن نُسلمها بشيء على الإطلاق.» ولم يكن الرد على ما يرغب ملك تشين، فاغتمَّ له. ثم إن أمير آنلينغ أوفد «طان تشي» إلى دولة تشين، فلما وصل إليها، قابل جلالة الملك الذي ابتدره قائلًا: «ما الذي يجعل أمير آنلينغ يرفض ما عرضته عليه من مبادلة إقليم آنلينغ بخمسمائة ميل من الأراضي؟ إننا ما أبقَينا على سمو الأمير فوق أرضٍ لا تزيد مساحتها عن خمسين ميلًا، على الرغم من أننا دمرنا دولة هان وأهلكنا دولة وي، إلا لأننا نعد سموه شيخًا وقورًا مهيبًا وافر الشهامة والإخلاص، فلذلك أغضَينا عنه الطرف، والآن فإني أعرض عليه عشرة أضعاف (ما لدَيه) لكي أوسع منطقة النفوذ، إلا أن سموه يأبى إلا أن يُعارض خُطتي ويعرقل محاولاتي، فهل

يقصد بذلك إهانتي والنيْل من شأني احتقارًا لي وجرأة عليَّ؟» وهنالك أجابه «طان تشي»، قائلًا: «لا، أبدًا، لا أظنه ينطلق في موقفه من هذا الاعتبار عنها ولا يستطيع مبادلتها حتى بأرض تفوقها عشرات الأضعاف مساحة.» فثار الملك غاضبًا، وقال لُمحدثه: «هل سبق لك أن سمعتَ عما يفعله الملك، ابن السماء، إذا استولى عليه الغضب؟» فأجاب طان تشي: «لم أسمع بشيءٍ عن ذلك من قبل.»، فقال الملك: «إذا غضب ابن السماء، تناثرت أشلاء الجثث في كلِّ مكان، وسالت الدماء أنهارًا.» فقال له طان تشي: «وهل سمعتَ جلالتك عما يحدث إذا غضب الناس، وحمِيَت سورة العامة والدهماء؟» فأجابه الملك: «إذا غضب الدهماء لا يفعلون شيئًا سوى أن يخلع الواحد منهم قُبعته ونعلَيه ويضرب الأرض برأسه.» فقال طان تشي: «ذلك غضب الجبناء وليس الشجعان، عندما قام جوانشو باغتيال الملك «لياو» [ملك دولة «أو» قديمًا] شاهد الناس شهابًا لامعًا يشقُّ كبد السماء ويظل بضوئه نور القمر. وعندما قام «نيجين» باغتيال «هانكوي» [رئيس وزراء دولة هان]، شُوهد قوس قزح وقد اخترق دائرة الشمس. ولَّما عمد «ياو لي» إلى «تشنجي» وقتله، شاهد المارة النسور والعقبان تتقاتل، لأول مرة، فوق القصر الملكي، فهؤلاء الثلاثة، من الشجعان الذين خرجوا من بين صفوف الناس البسطاء العاديين الذين كانت صدورهم تغلي بالغضب وهم لائذون بالصمت، حتى نزل نذير السماء، وإذا عددتني، رابعهم، فأنا لها، لو أردتَ حقًّا أن تُثير غضبتي؛ لأني سأنثر على هذه الأرض تحت قدميك أشلاء جثتَين، تقطر منهما الدماء فتسيل أمتارًا، فيرتدي الناس ثوب حداد، هم الآن جاهزون له بل الساعة، وليكن ما يكون.» وقام واقفًا طان تشي، فنزع سيفه، فامتقع وجه ملك تشين، فنهض واقفًا وهو يعتذِر اعتذارًا جميلًا، قائلًا: «على رسلك يا سيدي هلَّا جلست وهدَّأت من روعك ما الذي يدعوك إلى مثل هذا الانفعال، قد فهمت قصدك، وقد فات ما فات من ضياع دولة هان وهلاك دولة وي، وهذا أمير آنلينغ يبغي الحفاظ على ما في حوزته من الأرض التي مساحتها خمسين لي، وله ذلك، لأجل خاطرك على كل حال.»

سجل هان الأول

لمَّا قامت الدول الثلاث بالقضاء على

قامت الدول الثلاث، هان، ووي، وجاو بالقضاء التام على «جيبو» [أحد رجال الحكم] وقسموا أرضه فيما بينهم، وتكلم «طوان قوي» [أحد رجال التخطيط السياسي بدولة هان] إلى ملك هان، فقال له: «عند اقتسام الأراضي، حاول جهدك أن تنتزع لنفسك أرض تشنغ هاو» فقال له الملك: «بل هي أرض صخرية لا تجري فيها الأنهار، فما فائدتها بالنسبة لي؟» فقال مُحدثه: «ليس الأمر على هذا النحو يا سيدي؛ فقد بلغني أن أرضًا مساحتها لي واحد من الممكن أن تفوق أرضًا أخرى مساحتها ألف لي لمجرد أن مزاياها الطبيعية أفضل وأوفر، وإن من الأمثلة على ذلك من واقع الصراعات بين البشر أمثلة كثيرة، فقد تستطيع جمهرة أو حشد من الناس قوامه عشرة آلاف فرد صد ثلاثة جيوش وهزيمتها، وهذا — بالطبع — مثال خارق للعادة، ولئن أخذت بنصيحتي يا مولاي، فسوف تستطيع، في آخر المطاف، الحصول على أرض دولة «جنغ» بالكامل.»

فوافقه الملك على رأيه، وحصل على أرض تشنغ هاو، وكانت هذه هي نقطة البداية التي سارت في خط مستقيم حتى بلغت الهدف الذي تحقق بالاستيلاء على «جنغ».

لمَّا سافر رئيس وزراء جاو إلى دولة

وصل «طاتشن هو» [رئيس وزراء جاو] إلى دولة هان قادمًا من بلاده، ثم إنه التقى بـ «شن بوهاي» [أحد المسئولين في دولة هان] وقال له: «ليتك تطلُب إلى ملك هان أن يَذكُرني بالإعجاب والتقدير عند دولة جاو، واسمح لي (بالمقابل) أن أكلم ملك جاو ليتحدث عنك

بكل خير أمام ملك هان، وبهذا تكون كمن قبض بيدِه على زمام سلطتَين في دولة هان، وكأني أخذت بعنان منصِبَين في دولة جاو.»

لمَّا قامت دولة وي بحصار هاندان

قامت دولة وي بحصار مدينة هاندان التابعة لدولة جاو، وأراد «شن بوهاي» أن يُقيم تحالفًا بين إحدى هاتين الدولتَين ودولة هان، لكنه لم يكن يعرف تصور ملك هان لهذه المسألة، فلربما لم تكن تتوافق مع أهدافه وخططه، وحدث أن ملك هان توجَّه إلى شن بوهاي بسؤال مباشر، قائلًا: «مع أي البلدين يمكن أن أتحالف؟» فأجابه: «تلك مسألة دقيقة تتعلق بأمن الوطن وسلامته، ومثل هذه الأمور ذات الدرجة القصوى من الخطورة والأهمية تتطلب مني التأمل الدقيق.» ثم إنه تحدث سرًّا، إلى كل من «جاوجو» و«هانشاو» [من كبار وزراء دولة هان قائلًا: «أنتما من أعقل الناس وأحسنهم منطقًا وأفصحهم بيانًا، ثم إنكما من كبار رجال الدولة الذين يؤخَذ بنُصحهم بغير جدال خصوصًا وأنكما أشد الناس إخلاصًا وتفانيًا.» وذهب الرجلان إلى الملك، وتحدث كل منهما وسْعَه حول الموقف من القتال مع جاو ووي — من مختلف جوانبه — وقدَّما إليه النصح المناسب (من وجهتَي نظر مختلفتَين) وكان شن بهواي ينصت سرًّا إلى الحوار بين ثلاثتهم، ولاحظ الجوانب التي لاقت استحسان جلالته، فذهب إليه، وقدم له الرأي (مشتملًا في ثناياه على الجوانب التي يمكن أن تلقى قبول جلالته) وبدت على الملك علامات السعادة والرضا.

لمَّا تقدم شن بوهاي بطلب لتوظيف

تقدم شن بوهاي برجاءٍ لتوظيف أحد أبناء عمومته في إحدى الوظائف الرسمية (بالقصر) إلا أن النبيل هانشاو لم يلتفت إلى طلبه، فحقد عليه وأضمرها له، فقال هانشاو: «ليس هذا ما تعلمته على يدَيك من فنون الإدارة السياسية، أتريد أن أجيبك إلى (طلب التوظيف) وأخالف المبادئ التي علمتني إياها؟ أم تفضل أن ألتزم بالمنهاج الصحيح وأخالف طلبك؟ إن لك الفضل في تلقيني أسرار العمل، فالدرجة الوظيفية تتحدَّد على أساس الجدارة، فكيف تريدني أن أتصرف الآن، وإلى أي جانب أنحاز؟» فقام شن بوهاي وانصرف وهو يعتذِر إليه، قائلًا: «بل إنك مثال رائع للوعي والالتزام كما كان ظنِّي بك دائمًا.»

لمَّا ذهب سوتشين إلى ملك هان

ذهب سوتشين إلى ملك دولة هان في محاولة لإقناعه بمشروع دولة تشو لإقامة التحالف الرأسي، فقال لجلالته: «في شمال بلادكم تقع مجموعة من المدن الحصينة مثل «قون»، و«لوا» و«تشنغ هاو»، وفي الغرب تقع «إيانغ» و«تشانبان»، وهي مناطق ممرات حصينة على الحدود، وإلى الشرق تقع مناطق «يوان»، ورانغ»، و«نهر وي»، ويوجَد في الجنوب جبل «جين» بالإضافة إلى المساحة الهائلة التي تحوزها بلادك، ومقدارها ألف لي مربع، وعدد وافر من المُقاتلين لابسي الدروع مقداره مائة ألف جندي. هذا بالإضافة إلى أن أفضل أسلحة الميدان وأشهرها وأمضاها تُنتجها بلادك، وبخاصة السهام والأقواس ويكفي أنكم تصنعون بأرضكم أشهر أنواع الأقواس على الإطلاق مثل «شي تسي» [نسبة إلى إحدى الولايات الجنوبية القديمة] و«شاوفو» [نسبة إلى وحدة إدارية]، و«شيلي» [تسمية تعنى السهم ذي القوة المُضاعفة]، و«جيوشو» كلها تمتاز بمقدرتها على إطلاق الأسهم إلى مدى يتجاوز ستمائة قدم، بالإضافة إلى أنها تمكن المقاتل من التسديد والرمي بما بلغ مائة سهم على التوالي أثناء الجري مع دقة تسديدٍ في منطقة الصدر، عند الرمي من مسافة بعيدة، أما عند الضرب من مسافة قريبة فيمكن للرامي التسديد في القلب مباشرة، ومن المعلوم أن جُندكم يحملون أمضى السيوف التي أصبتم شهرة ذائعة بصناعتها بين الدول كافة، حيث انتشرت مناطق إنتاجها في أماكن متعددة بأرضكم مثل: «مينشان» و«طانشي» و«موابن» و«خابو»، بل إن ما تُبدعه يد الصناع في مناطق: «دنغ شي» و«يوان فنغ» و«لوانيوان» و«طايو» من السيوف والرماح (قد بلغت من حدة شفرتها ومضاء نصلها أنها يمكن أن ...) تقطع أجساد الجياد والثيران (بضربة واحدة) [هذا بالنسبة لدواب البر، أما بالنسبة لما سبح في الماء، فهي] تستطيع أن تنخرط في أجساد كل ما حط على ظهر الماء وسبح في باطنه من سابحات البحر وطيور السماء، وهي فوق ذلك كله، السيوف القاطعة النافذة في المعافر والدروع في ساحات القتال. ومن المعلوم كذلك، أن دولة هان تملك العتاد الكافي من أقوى الدروع القتالية، والتروس وخوذات الرأس والزرديات، وخمائل السيوف، والسيور والأربطة التي تشد إليها الكمائن والرماح، بما يُمكِّن الجنود الذين انطلقوا بحماسة الشجعان إلى ميادين القتال، وقد ارتدوا الدروع وأطلقوا السهام أثناء عدوهم، وانتضوا السيوف القواطع من ملاقاة أعدائهم، فيغلب الواحد منهم مائة من أنداده. (وتلك مسألة معروفة للجميع والكلام فيها نافلة قول!)

لكن على الرغم مما حازته دولة هان من القوة — وما اشتهر به حاكمها (جلالتكم) من الحكمة والخلق الكريم — فها هي ذي تسعى للاعتراف بطاعة تشين وترضى لنفسها

مكانة الدولة التابعة في الجانب الشرقي، وتمد المساعدة، لتبني المنشآت الملكية وتُرمم القصور الفخمة لبلاط آل تشين وتتبنى سياساتهم ونظمهم وأفكارهم، وترسِل لهم في مناسبات القرابين المقدسة التقادم والهدايا، وتخفض لهم عنق الخضوع وجناح الطاعة، فتجعل من نفسها هزأة الأمم، وهدفًا لسخرية الناس في كل البلاد، فيا للأسف ويا للخسارة!

ومن ثم، فأرجو من جلالتكم إمعان النظر في هذه الأمور، إذ إن تسليمكم لدولة تشين بالتفوق والسيادة سوف يشجعها على أن تُطالبكم بالتنازل عن «إيانغ» و«تشنغ هاو» فإذا أذعنتم لمطالبها اليوم، فستطالبكم غدًا بما هو أكثر حتى يأتي يوم لا تجدون ما تُعطونها إياه من الأرض، فيتبدَّد لديها كل ما بذلتموه لها سابقًا من المآثر والأفضال العميمة، فينالكم من أذاها الشيء الكثير، ولأذكر جلالتك بأن أراضيكم مهما عظمت واتسعت، فلها حدٌّ تنتهي عنده ومدى لا تتجاوزه، لكن أطماع تشين ليس لها حدود معلومة، وهكذا فإن محاولة العمل على إرضاء طرفٍ لا يرضى وتلبية حاجاته التي لن تنتهي سوف تقود، آخر المطاف، إلى ما يُسمى بـ «استجلاب الكوارث والأحقاد والضغائن» لأنك ستجد نفسك (ذات يوم) وقد سُلبت منك أرضك دونما حرب أو قتال.

وقد سمعت قولًا مأثورًا، مفاده: من الأفضل للمرء عند الاقتضاء أن يكون منقار دجاجة من أن يكون إست بقرة، فما الفرق بين أن تذهب جهة الغرب حيث تعترف بطاعة تشين وتزكي سلطانها، وبين أن يتصوَّر ملك فاضل حكيم مثلك أنه قد توفرت له سمات النجابة وأسباب القوة التي تمدُّه بها مكانة تشين وشدة بأس جيوشها، ثم لا يكون له من الشهرة الذائعة وسط الممالك سوى أن يشار إليه بوصفه «إست بقرة»؟» وهنالك تغير وجه ملك هان من الغضب، ثم مدَّ ذراعه وضغط على سيفه ورفع رأسه، فتنهَّد عميقًا، وقال: «لن أكون خادمًا بعد اليوم، لدولة تشين، حتى لو أدى ذلك القرار إلى موتي، فاتْلُ على مسامعي وصايا ملك تشو، فأنا في صفك، سائر على دربك، بكل ما أملك.»

لمَّا ذهب تشانغي إلى دولة

سعى تشانغي لمقابلة ملك دولة هان لإقناعه بسياسة تشين إزاء التحالف الأفقي، فقال له: «إن أرض بلادكم مكشوفة للخطر، وشعبكم من ساكني الجبال، ولا يُغل حصادكم سوى الحبوب، ونادرًا ما تزرعون القمح، ولا يجد الناس ما يقتاتون به سوى القليل من الأرز والحبوب، وقد لا يجدون حتى النخالة، إذا أجدبت الأرض في أحد المواسم، هذا بينما تكاد مساحة البلاد لا تبلغ تسعمائة لي مربع، ولا يكفي مخزون الصوامع أكثر من سنتَين

للاستهلاك العام من الغذاء، ولا أظن عدد المقاتلين — إذا تم تجميعهم بالكامل — يتجاوز ثلاثمائة ألف جندي بما فيهم المجندون من أصحاب الحرف المختلفة، والمتكسِّبون الرزق دون عمل ثابت على أننا إذا خصمنا من ذلك الرقم الإجمالي، المُجندين في حراسة الحدود والثغور والمنافذ الحدودية، لم يزد عدد المقاتلين الفعليين عن مائتي ألف جندي.

(أما على الجانب الآخر ف ...) لدى دولة تشين مليون مقاتل من لابسي الدروع (المتأهِّبين للقتال)، وألف مركبة عسكرية، وعشرة آلاف جواد، ثم إن مقاتلينا تتأجج نفوسهم بالشجاعة وتتواثب خطاهم إلى النصر، بل إن منهم من لم يرتدِ خوذة القتال، (من فرط الشجاعة والإقدام والجرأة أمام الموت ...) ومنهم من غرس السهم في خدَّيه وهو يهز رمحه بيدَيه [هكذا] وهو ماضٍ إلى ساحة الحرب، ومثل هؤلاء من أفراس دولة تشين، ولا أغزر عدة وعتادًا من جيشها، كما أن لديها العدد الهائل من الجياد المدربة على القفز، بحيث تبلغ المسافة بين حوافرها الأمامية وساقها الخلفية، وهي راكضة ما قد يبلغ ثلاثة «شون» [مقياس صيني قديم يساوي ٢٫٧٠متر]

وعندما يزحف نحونا جنود الدويلات الواقعة شرقي جبل «شي»، وهم في تمام عدتهم وكامل استعدادهم وقد ارتدوا الدروع وخوذات الرأس يريدون الحرب، فسيخرج إليهم رجالنا لملاقاتهم على الفور — ولو برءوس حسيرة وأجساد عارية — فيُمعنون فيهم قتلًا وأسرًا [حرفيًّا: ينقضون عليهم فيذبحون الرءوس باليد اليُمنى ويأسرون الأسرى باليد اليسرى!] فيصير حالهم مع جنود الدويلات الست (بإقليم شانتون) كمثل البطل الصمصام أبي الفوارس والساحة والحسام «منغ بن» مع فلول المهزومين الجبناء، فإذا حملنا عليهم بقسط وافر من العزم، أصبنا منهم مقتلة عظيمة، ووقع فيهم الفناء والبوار فكانوا كمثل الغلمان الصرعى على يد البطل المغوار «أواهوا».

وعندما نحمل على دويلات ترفض الاعتراف بسلطة وزعامة تشين مُستخدمين في ذلك أبطالًا على شاكلة أواهوا، ومنغ بن؛ فلن يتبقى من قوات تلك الدويلات إلا ما يمكن أن يبقى في عش الطائر الذي وقعت فوق أفراخه جلاميد الصخر ذات الأثقال (فكيف تفلت من مصيرها المنكود؟)

وكثيرًا ما تنسى الدويلات أن تتأمل أحوال قواتها، وتدرك مدى ضعفها، وقلة مدخراتها من الغلال، فتنخدع بمعسول لسان أولئك المُحرضين الداعِين إلى التحالف الرأسي، فتميل بآذانها إلى التمويهات الفارغة وأحاديث الزيف والأباطيل التي تضلل المتكلم والسامع معًا، بقولهم: «خذ بما أعرضه عليك من خطط واستمع إلى ما أقول لك، تبلغ مقام الملك الأعلى والعرش الأسمى فوق الممالك.» غير عابئة بمصالح البلاد على المدى الطويل ومستقبل

الأجيال المديد، فتكون كلمة ضالة ذات لحظة ضلالًا لعرش أمة وتزييفًا لأفكار مليكها فذلك مكمن الخطورة، وأي خطورة!»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

«(واعلم) أنك بعدم اعترافك بالطاعة والتسليم لدولة تشين، تعرض نفسك لحملتها العسكرية ضدك للاستيلاء على إيانغ وقطع طريق الاتصال مع «شاندانغ» بدولة هان.

وبالتوجه شرقًا لمهاجمة «تشنغ هاو»، والاستيلاء على إيانغ، فلن يعود لجلالتكم الحق في استخدام الحدائق الملكية في «هوانطاي» وغابة «صان»؛ لأنها ستكون قد خرجت من بين أيديكم لتتسلَّمها قوات تشين نهائيًّا. ولربما تمت محاصرة تشنغ هاو، وعزلت منطقة شانيان بما يؤدي إلى تقسيم بلادك وتمزيق ربوعها، فإذا أدركت نفسك وسارعت إلى الإذعان بسلطة تشين، تكون قد نجوت وأمنت الشر وحاميت عن بلادك، وإلا جلبت على نفسك الخطر، وساعتئذ، فلن ينفعك الحظ بشيء إذ تجد نفسك وسط دوامة من الأهوال، لا مخرج منها بأي حال، لأنك كلما أعملت حيلتك وتدبرت الخطط (الفاشلة)، انغرست في حمأة الهزيمة وأحدقت بك كل ألوان البؤس والشقاء؛ ذلك أن الخروج عن طاعة تشين والانحياز إلى تشو لن ينجيك من الضياع والاندحار، ومهما حاولت فتدبر أمرك وتأمل الأحوال جيدًا، فليس أفضل من أن تعمل بمشورة تشين وتبذل لها الإخلاص التام، (واعلم) أن هدف تشين الأول والأهم هو إضعاف دولة تشو، وليس في الممالك كلها من يستطيع القيام بهذه المهمة سوى بلدك باعتبار ما تملكونه من مزايا الموقع والمكان، لا لأنك أقوى منها (فليس هذا واردًا بحال!) فإذا استطعت أن تلتزم هذه الخطة في العمل على خدمة أغراض دولة تشين وشن الهجوم على تشو، فسوف يلقى صنيعك هذا، من مليكنا، الإعجاب والتقدير، وسيمتلئ قلبه بالفرح الغامر، ولن تجد أجدى وأنفع لك من خطة تُتيح لك الاستيلاء على أرض تشو، وتزيح عنك أهوال المخاطر، وتدخل على قلب ملك تشين السرور.

وقد أوفدني جلالته إليكم (لهذا الغرض) وحملني مراسلات أقدمها لجلالتك بكل الاحترام والتقدير لترى فيها رأيك وتصدر قرارك.» وأجابه ملك هان، قائلًا: «إنه لمن حسن الحظ أن أتلقى عنكم، أيها الضيف الكريم، تلك الملاحظات والنصائح الطيبة ولتسمح لي بأن أعتبر دولة هان مجرد ولاية تابعة لدولة تشين [كانت دولة تشين قد وضعت تصنيفًا اعتبرت فيه كل الممالك مجرد ولايات تابعة لها عددها الإجمالي ست وثلاثون ولاية وإقليمًا]

ويسعدنا أن نبني القصور الملكية لبلادكم وأن نقدم قرابين «الربيع والخريف» المقدسة إليكم (في المواسم المعتادة) وبأن نكون دولة تابعة لكم، ولتتفضلوا بقبول منطقة «إيانغ» هدية منا إليكم.»

لمَّا تحدث ملك هان إلى الوزير الأعظم

تحدث الملك «شيوان» حاكم دولة هان إلى «موليو» [الوزير الأكبر في الدولة] قائلًا له: «أريد تعيين كل من «قونجون»، و«قونشو» في مناصب (تنفيذية) عُليا فهل يمكن الجمع بين هذين في إدارة سياسية واحدة؟» فأجاب موليو بقوله: «بل لا يمكن أبدًا. وكانت دولة جين، فيما مضى قد جمعت في إدارة واحدة بين ستة نبلاء دفعة واحدة؛ فكان ذلك سببًا في انهيار وحدة البلاد [كانت جين قد جمعت في الحكم بين (رؤساء، متنفذين للحكومات) من كل من جاو وهان ووي وجيبو وفان وجونشان] بينما كان النبيل جيانقون [بدولة تشي] قد جمع في الحكم بين «تيانشن»، «لانتشي» مما أدى في آخر الأمر إلى اغتياله (ووقوعه ضحية لهذا القرار الخاطئ) وقيل إن دولة وي جمعت في دفة الحكم بين كونسونيان وتشانغي، فخسرت الأرض الواقعة وراء «شيها».

فإذا كنت قد قررت أن تتخذ اثنين من كبار المسئولين لتدبير أمر (الإدارة السياسية) في آنٍ واحد، فاعلم أن أكثرهما قوة سيقيم لنفسه، داخل البلاد، الأتباع والموالين (الذين يعدون أنفسهم من رجاله وحشده)، أما الآخر، فلا بد أنه سيدعم مكانته بسلطته من خارج الوطن مما ينذر بشر العواقب.

وإذا ما حشد بعض الوزراء لأنفسهم داخل الوطن الأنصار والأتباع، كان ذلك بداية استبدادهم بالسلطة وشروعهم في الفساد والطغيان؛ وإذ يقيم البعض الآخر الصلات النافذة (بأطراف وجهات خارج الوطن) تتردى بلادك في هاوية من الأهوال المريعة.»

لمَّا ذهب إلى ملك تشي من تكلم معه

ذهب إلى ملك تشي من قال له: «أرى من الأفضل أن تدعم قونجون [رئيس وزراء هان] لتساعده على أن يقوم بطرد تشانغي من دولة، وي، التي سوف تسارع بتعيين كونسونيان رئيسًا للوزراء، وبدوره، فسوف يتصرف بوحي من إرادتنا، نحن ودولة وي، ويقوم هو

الآخر، بإبعاد قونجون من منصبه الوزاري الرفيع بدولة هان، ويأتي مكانه (بالمدعو) قونشو، وهو الرجل الذي سوف يشن الهجوم على دولة تشين.» (ثم إنه ذهب إلى تشانغي وقال له) [هذه العبارة غير مذكورة في بعض النسخ الأصلية]: «إن قونجون، وقد نما إلى علمه ما قد قيل، فلن يذهب إلى دولة تشي أبدًا، بل سيأتي إلى دولة وي ليكون في كنفك، مستجيرًا بك ومعتمدًا عليك، فتنعم بالأمان ويزول عنك الخطر.»

لمَّا ذهب شاوشيان إلى دولة هان

ذهب شاوشيان إلى هان ليتولى مهام منصبه كرئيس للوزراء [كان قادمًا من دولة تشو، حيث عمل في منصب وزاري رفيع، وكانت هان لمَّا تحالفت مع تشو، أرادت أن تتخذ منها ركيزة وسندًا لمقاومة عدوان تشين، فقامت بتعيين شياوشيان رئيسًا لوزرائها].

فلما أعلنت تشين بدء الهجوم على هان، أسرعت هذه إلى إعفاء شاوشيان من منصبه، فأرسل من جهته رسولًا إلى قونشو بدولة هان، يقول له: «من الأجدر بك أن تقوي مركز شاوشيان وتدعم موقعه ومكانته لتوطيد قاعدة التحالف مع دولة تشو، وهو ما سيدفع ملك تشين إلى الاقتناع بأن كلتا الدولتين (تشو وهان) قد توثقت عُرى الوحدة والتحالف بينهما.»

لمَّا قامت دولة تشين بمهاجمة إقليم

قامت دولة تشين بمهاجمة إقليم «شينغ»، فأمرت دولة هان قواتها بالانسحاب من منطقة «نانيانغ»، التي كانت تشين قد هاجمتها بالفعل، وتقدمت نحو إقليم «شينغ»، ثم إنها تنازلت عن «نانيانغ» (إلى تشين) فلم تقنع هذه به، بل واصلت هجومها ضد «شينغ» وتكلم تشنجن مع ملك تشين، فقال له: «لمَّا رأت دولة هان أن الوضع غير مُجدٍ، سارعت إلى الانسحاب، وأدركت استحالة تحسُّن العلاقات مع تشين، فتنازلت عن الأرض. (ورغم ذلك) فإن قوات تشين، لم تتوقف عن شن الغارة تلو الأخرى، وسط ظروف تشهد عدم تحسُّن العلاقات بين البلدين، وتنازل هان عن أجزاء من أراضيها، بل انسحابها الفعلي من مناطق المواجهة، وأخشى (أن تكون عواقب ذلك على الدويلات الست بالغة التعقيد ...) فلا أظن أن الدويلات يمكن أن تتنازل — فيما بعد — عن أجزاء من أراضيها أو تفكر في التراجُع أمام زحفكم، إذعانًا وتسليمًا، ثم إن جلالتكم كنتم قد طلبتم مائة مثقال من

الذهب من سانشوان، دون أن تحصل على شيء منها، وإذا بك بين عشية وضحاها تحصل على ألف وزنة منه بعد غزوك لدولة هان، لكنك إذا واصلت هجومك ضدها، فسوف تخسر أهم علاقاتك الدبلوماسية (مع الدويلات ... وبالتالي ...) سوف ينضب أهم مَعين تغترف منه لتملأ خزائن دولتك، ولكل ذلك، فإني أرى عدم سداد قراركم (بالاستمرار في مهاجمة هان).»

لمَّا اتفقت الدول الخمس على مهاجمة تشين

اتفقت الدول الخمس على مهاجمة تشين [في ٢٤١ق.م.] وكان ملك تشو هو الذي تزعم مجموعة التحالف الرأسي، ثم إن القوات توقفت عن الهجوم، عندما عجزت عن تكبيد تشين أية خسائر، وتمركزت الجيوش في منطقة «تشنقاوا»، وهنالك تكلم «ويشون» مع أمير إقليم «شي تشو»، فقال له «ما دامت قوات الدول الخمس قد انسحبت على هذا النحو، فلا بد أنها ستُغير على «شي تشو» لتعويض نفقاتها القتالية.

فامنحني بعض المصاريف وابذل لي التكاليف المطلوبة كي أساعدك في صد ذلك الهجوم المحتمل على الإقليم.»

فوافقه الأمير على رأيه وأعطاه ما طلب وأوفده إلى دولة تشو، فما إن بلغها حتى التقى بجلالة الملك، وقال له: «كنت قد أجريت اتفاقك مع الدول الخمس على التوجه غربًا لضرب تشين، أما وقد عجزتم عن إنجاز تلك المهمة على الوجه الأكمل، فسوف تنظر إليكم الممالك بعين الازدراء، وتتطلع إلى تشين بكل إعجابٍ وتبجيل، فكيف فاتك — والأمر كذلك — أن تختبر مشاعر حلفائك وتقدِّر خطواتهم وتصرفاتهم إزاء ما حدث؟» فأجابه: «لقد بات في حكم المؤكد أن الدول الخمس، بعد أن سحبت جيوشها من الميدان سوف تنقض على إقليم «شي تشو» لتعوِّض ما صرفته على الاستعداد لحملتها الهجومية، فمن الأفضل أن تتدارك ما يمكن أن يحدث، وأن تُصدر أوامرك بعدم مهاجمة الإقليم المذكور، فإذا كانت الدول الأربع الأخرى تعرف لك مكانتك وتُعظِّم قدرك، فسوف تذعن لأوامرك، وتقلع عن أي محاولة لمهاجمة «شي تشو»، أمَّا إذا مضت في طريقها دون أن تعبأ بقرارك فهذا دليل على ركود شأنك وقلة الاعتناء بمكانتك بينهم، وعلى أية حال فسيبدو لك بكل وضوح موقف الممالك ودرجة تقديرها لك ومدى ما تشغله من أهمية ووزن لديها.»

وبالفعل، فقد تمكن ملك تشو (بما أجراه من اختبار لمشاعر الدويلات نحوه) أن يصد عن إقليم شي تشو المخاطر المحتملة وأن يحفظ أمنه وسلامته.

لمَّا أرسل جنشيان إلى دولة تشين

أرسل «جنشيان» إلى دولة تشين ما حمولته ثمانمائة مثقال من الذهب، راجيًا منها مهاجمة دولة هان، فتكلم «لنشيانغ» [كبير وزراء تشين] في ذلك مع جنشيان، قائلًا: «إنك إذا تأتي اليوم بتلك المثاقيل الثمانمائة من الذهب طالبًا إلينا مهاجمة دولة حليفة فمن المُستحيل أن نجيبك إلى طلبك. وأرى (إذا كان ضروريًّا بالنسبة لك أن تصل إلى نتيجة أن تعمل على ...) إثارة الشك في قلب ملك تشين تجاه قونشو.» فلما سأله جنشيان عن كيفية إحداث هذا التأثير لدى الملك أجابه بقوله: «إن السبب في قيام قونشو بمهاجمة دولة تشو، هو وجود «جيشا» بأرضها (لكنه الآن تصرف على نحو ...) جعل ملك تشو يعمل على إرسال «جيشا» إلى منطقة «ياندي» [من أعمال دولة هان] وبصحبته مائة عربة عسكرية، بل إنه أمر (المدعو) جاوشيان بأن يرافقه في هذا السفر، ويقيم معه حيثما أقام، فلما اكتشف قونشو هذا الأمر كان الوقت متأخرًا جدًّا للقيام برد فعل مناسب) علمًا بأن جاوشيان (المذكور آنفًا) هو واحد من أعز أصدقاء قونشو [لاحظ أن المذكور ذهب مرافقًا مقيمًا مع «جيشا» الذي يعد ألد أعداء قونشو] وإذ يستمع ملك تشين إلى هذه التفاصيل، فلا بد من أن الشك سيتطرق إلى قلبه حول ما إذا كان قونشو يعمل (سرًّا) لمصلحة دولة تشو.»

لمَّا نجح جنشيان في طرد تشانغي

نجح جنشيان في طرد تشانغي من دولة تشين، وكانت وسيلته في ذلك أنه أرغم سفيره [مساعده، والمتحدث الرسمي باسمه، أو هكذا تقريبًا على الذهاب إلى دولة تشو، ثم تحدث مع «طاتساي» [أحد المسئولين بدولة تشو، قائلًا: «إذا أتاك سفير تشانغي، فاحبسه عندك لا تدعه يفلت من يدك، فقد عزمت على الذهاب غربًا (نحو دولة تشين) للكيد له واتخاذ التدابير ضده.» ثم إنه سافر إلى تشين والتقى بحاكمها، وقال له: «أرسل تشانغي إلى تشو رسولًا من قبله لتسليم أرض «شانيون» [أرض تابعة لدولة تشو — في الأصل — لكنها إبان تلك الفترة كانت في حوزة تشين] وقد أوفدني ملك دولة تشو إليك — أكثر من مرة — لإبلاغك بهذا الشأن.» فاتقد الغضب في قلب ملك تشين، وعلى إثر ذلك خرج تشانغي وفرَّ هاربًا خارج البلاد.

لمَّا كانت موقعة إيانغ

لمَّا كانت دولة تشين منهمكة في مجهود الهجوم على إيانغ [وكانت قد أرسلت كانماو لمهاجمة إيانغ في سنة ٣٠٨ق.م] تكلم «يانطا» [أحد مواطني دولة هان] مع «قونصو نشيان» [وزير عظيم في بلاط هان] قائلًا له: «ائذن لي في قيادة قوات من خمسين ألف مقاتل لمهاجمة جو الغربية، فإذا ما تم لي النصر، أمكن كبح جماح كانماو وإظهار عجزه عن تحقيق المنجزات العظمى؛ وذلك بما سيتحقق على يدي من الاستيلاء على «الأواني التسع المقدسة»، وإلا فستقوم تشين بمهاجمة جو الغربية، وهو ما سيُثير ردود فعل غاضبة وناقمة لدى أهل الممالك والدويلات، وبالتالي فسوف يسارعون إلى دعم دولة هان، مما سيؤدي إلى فشل مهمة كانماو في مهاجمة دولة هان.

لمَّا قامت تشين بتطويق إيانغ

قامت دولة تشين بتطويق إيانغ، فتكلم يوطن [وزير عظيم بأسرة جو الملكية] إلى قونجون [مسئول كبير بدولة هان] فقال له: «ما الذي يمنعك من أن تعيد أراضي لين، وليشي تشي إلى دولة جاون مقابل أن ترسل إليك رهائن لضمان استقرار الأوضاع بينكما فتستغل هذا في بذل الوعود لدولة جاو بالتنازل لها عن الأرض مما سيُحبط مشروع «لوهوان» ويؤدي به إلى الفشل الذريع. كما أن قيام دولتي هان وجاو بعملية هجوم مشترك بقواتهما ضد دولة وي سيؤدي بالتأكيد إلى فشل لوهوان. وإذ تشترك هان مع جاو في هجوم مشترك ضد وي، فستضطر هذه إلى التمرد ضد تشين، وهو ما يعني بالنسبة لواحد مثل كانماو، السقوط المريع، ثم تستغل ما أعطيته لدولة تشي من أراضي تشنيان لدعم تيشيان، وهكذا تضمن تعثر خطى دولة تشو وتردِّيها في الأخطاء. وعندما تعاني دولة تشين من مرارة الفشل، تكون قد خسرت دعم وتأييد دولة وي، وهو ما سيحول دون اقتحام منطقة «إيانغ».»

لمَّا توقَّد صدر قونجون ببغض كانماو

توقَّد صدر قونجون ببغض كانماو بسبب موقعه إيانغ، وحدث فيما بعد أن دولة تشين أعادت أرض «أوسوي» إلى دولة هان، ثم سرعان ما تطرق الشك إلى (البلاط الحاكم في ...) تشين حول ما يمكن أن يكون كانماو قد دبره من تسليم أوسوي إلى هان لتسوية خلافاته وتصفية أجواء الكراهية بينَه وبين قونجون. وهنالك لم يتوانَ «طولياو» عن أن يتكلم مع

ملك تشين (مدافعًا عن قوانجون ...) قائلًا: «ما كان لـ قوانجون أن يقدم على تصرف من هذا القبيل، إلا لأنه كان ينشد التقرُّب إلى جلالتك والفوز برضاك عنه، من خلال استرضاء كانماو.» فأسرَّها الملك ضد كانماو، وتغيَّر قلبه عليه، وهو ما اعتبره تشوليجي تصرفًا ذكيًّا وبارعًا من طولياو يستحق الثناء والإشادة.

لمَّا اندلع القتال بين تشين وهان في موقعة

اندلع القتال بين تشين وهان في موقعة «جوتسي» [من أرض دولة هان] وتأزمت أوضاع هان للغاية، فتحدث «قون جون بنغ» إلى ملك هان، قائلًا: «ما عاد يمكن الاستناد إلى دعم أو قوة التحالف (بعدما بلغت الأمور هذا الحد) وقد ظهر واضحًا للعيان أطماع تشين في الإغارة على دولة تشو، وأرى من الأفضل لجلالتك أن تطلب المصالحة مع تشين عبر وساطة تشانغي، ثم تتنازل لها عن إحدى المحلات الكبرى، استرضاءً لها وبعد ذلك تقوم بالتنسيق معها لضرب تشو، فتلك خطة للظفر بمكسبين من خلال خسارةٍ واحدة.» فنزل الملك على رأيه، وأمر «قون جون بنغ» بالانطلاق العاجل للغرب للمصالحة مع تشي، فلما ترامت أنباء ذلك إلى ملك تشو، أُسقط في يده من شدة الفزع، واستدعى تشنجن على الفور، وأخبره بما وقع، فرد على جلالته بقوله: «لطالما فكرَت دولة تشين في مهاجمتنا (منذ زمان بعيد ...) وها هي قد امتشقت سيف الحرب وأعدت للقتال عدته، لا سيما وقد أمدَّتها دولة هان من الأراضي والمحلات (ما يفي بحشد الاستعداد وتجهيز الجيش) إن ما أشهده الآن هو تحالف مشترك بين تشين وهان للتقدُّم صوب الجنوب (للإغارة علينا ... كما هو واضح) وكم ابتهلت تشين في صلواتها وردَّدت وسط المعابد أدعيتها بأن تتحقق أمانيها في مهاجمتنا، وها قد أجيبت الأدعية وتحقق الرجاء، وأصبحت تشو قاب قوسين أو أدنى من التعرض لاجتياح تشين لأراضيها، (وفي هذه النقطة، فأنا متفق معك في الرأي تمامًا؛ ولا غرو أني أخذت بوجهة نظرك) فرفعت درجة الاستعداد القصوى داخل البلاد، وصففت أفضل الجنود صفوفًا متراصة وأعلنت قراري بالتوجه لإنقاذ دولة هان وأرسلت أرتالًا من العربات، حتى امتلأت بها الطرقات، وأوفدت أخلص المبعوثين وأرسلت معهم المركبات والأحمال والأمتعة والأموال الوفيرة؛ كي تطمئن دولة هان وتثق في وقوفي بجانبها ومُساندتي لها، مما ستظل تذكره لنا ببالغ الامتنان؛ حتى لو لم تمتثل لإرادتنا. (وفي أقل القليل ...) لن تنشر ألوية الهجوم علينا وتزحف إلينا زحف الجراد أو تنقضَّ فوق رءوسنا كأسراب النسور، بهذه الطريقة تقع الوحشة بين تشين وهان، وهو ما يقي

تشو شر الخسائر الفادحة التي تتربص بها، حتى لو أقامت جيوشهما إلى جوارها دون أن تتزحزح قيد أنملة. فإذا أصغت هان إلى نصائحها، وتراجعت عن المصالحة مع تشين، فسوف تثور ثائرة غضب (تلك الدولة الجامحة) فيرغي حاكمها ويُزبد، فتتَّقد نار البغضاء بينه وبين هان التي ستتطلع إلى تشين بعين الاحتقار بعد أن تطمئن إلى مساندة ودعم «تشو» لموقفها، وهو ما سينعكس على معاملاتها، فيما بعد، مع تشين بحيث لن تصطبغ العلاقات بينهما بطابع الاحترام المعهود؛ وهكذا نكون قد نجحنا في إرباك خطط قوات تشين وهان كلتيهما، وتجنبنا الخطر الداهم الذي يتهدد «تشو» ...» وبدت أمارات السعادة الغامرة في وجه ملك تشو، وأسرع إلى اتخاذ التدابير العاجلة بمضاعفة درجة الاستعداد، وانتقاء أفضل عناصر المُقاتلين لإرسالهم إلى هان، حيث يجري إنقاذها، ثم أرسل موفده الشخصي وبصحبته عدد وافر من المركبات، وحملة الصلات المُعتبرة من الأمتعة والأموال بغير حصر، فلمَّا مثل رسوله بين يدي ملك هان قال لجلالته: «على الرغم مما عليه بلادنا من ضآلة الموقع وضيق المساحة (وقلة الموارد ...) فإنها جمعت إليك كل ما تستطيعه من قوة (لنجدتك) وهي إذ تفعل ذلك، تترك لجلالتك تقدير أسلوب وطريقة معاملاتك معها على النحو الذي ترضاه (وعلى أية حال) فإن بلادنا ستقف معك في ساحة القتال، وتحارب إلى جانبك، دون هوادة.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وكانت سعادة ملك هان بما سمعه لا توصف، وفي الحال أمر بإلغاء كل التدابير التي اتخذها «قون ينغ»، فذهب هذا إليه، وقال لجلالته: «على رِسلك يا مولاي، فالأمور لا يمكن أن تسير على هذا النحو أبدًا؛ ذلك أن من يُمثل بالنسبة لنا الأزمة الحقيقية (الملموسة) هي دولة تشين، أما من يُصدِّع رءوسنا بحديث فارغ عن المساندة والمساعدة، فهي دولة تشو، لكننا إذا جاريناها وصدقنا كلامها، وسارعنا (في تهور وطيش بالغ ...) إلى قطع العلاقات مع (الدولة التي تُمثل بالنسبة لنا الند القوي، ألا وهي ...) تشين، فسوف نجلب على أنفسنا سخرية الممالك، ونصبح هزأة الأمم، ثم إن دولتي هان وتشو ليستا على درجة من الود (تجعل منهما شقيقتَين متحالفتَين ...) ولا هما تُدبران خطة تحالف بينهما للتآمُر ضد تشين وإنما كل ما هناك أن هذه أزمعت مهاجمتها، فقد جهزت قوات وسيَّرتْها إلينا (بحجَّة إنقاذنا) فلا بد من أن هذه الخطة من تدبير تشنجن.

ناهيك عن أننا قد أوفدنا رسلنا إلى تشين لتُبلغها بردِّنا وتقرير الأحوال (بصورة حاسمة ونهائية)، فإذا لم نلتزم بما أبلغناها به، فسنكون قد تصرفنا بطريقة مخادعة،

فنجلب على أنفسنا عواقب استصغار شأن تشين، بينما نصغي إلى ما تبثُّه دولة تشو في آذاننا (من أوهام وأكاذيب) وبناء على ذلك فمن المؤكد أنك ستندم كثيرًا يا مولاي.»

إلا أن جلالته لم يأخذ برأيه وقطع علاقته مع تشين، متحللًا من ميثاق التحالف معها، وبالطبع فقد استقبل ملك تشين هذا الخبر بثورة من التنديد والغضب، وجهَّز جيشًا وسار به إلى هان حيث اشتبك معها في موقعة «أنمين». ولم تُدركها أي نجدة من جانب دولة تشو، فكانت الكسرة عليها في تلك الموقعة، ولم يكن السبب فيما حاق بها من الواقعة المهولة ضعف قواتها أو تهافت إعدادها العسكري، ولا كان السبب راجعًا إلى قلة فطنة شعبها وغفلته عن الإدراك [هكذا، حرفيًّا]، مع ذلك فقد تحطم الجيش، وصارت الفطنة (الغائبة) محل سخرية لاذعة، وموطن الخطأ (في هذا كله) يكمن في الإصغاء إلى أوهام تشنجن وتخرُّصاته، وعدم الأخذ بنصيحة «قون جون بنغ».

لمَّا ذهب أحد مواطني جو لمقابلة

ذهب «يان لو» [أحد مواطني دولة جو] لمقابلة «قون جون» إلا أنه لم يلتقِ به، فأبلغه رسالة شفهية غير مباشرة عن طريق «مسئول الاتصال»، قائلًا له: «لا بد أن قون جون ظن أني عديم القيمة، فرفض مقابلتي، ألا إنه ليس بالرجل الفاضل، بل إنه عاشق نساء وصاحب ذوات خِدر، لكني عفيف الخلق، صاحب عِلم وحكمة. ولئن كان هو ممسكًا بخيلًا مقترًا، فإني سخي اليد أنفق ذات اليمين والشمال، ومن المعروف عنه أنه لا يُلزم نفسه بمبدأ أخلاقي يسير على نهجه، أما أنا فأتطلع دائمًا صوب ما هو حق وعدل.

وعلى هذا الأساس، فلن أتوانى بعد اليوم عن انتقاد سلوكه وتصرفاته بصراحة مطلقة، دون أدنى مواربة.» فلما بلغت هذه الكلمات مسامع قون جون بواسطة «مسئول الاتصال» أسرع بالنهوض فاستدعى «يان لو» لمقابلته.

لمَّا أُوفد قون جون مبعوثًا إلى أحد أقارب

أوفد قون جون مبعوثًا إلى «شيانشون» [أحد أقارب الملكة الأم في دولة تشين] قائلًا: «حتى الوحش المحبوس في الأقفاص، يستطيع أحيانًا، أن يقلب عربة الصياد رأسًا على عقب، فلا تظن أن ما صنعته بدولة هان من تدمير وما أنزلته بـ «قون جون» من إهانة، يمكن أن ينتهي هكذا ببساطة؛ فقد يستطيع (قون جون) أن يُلملم شتات ما حدث ويصلح

ما تهدَّم ويعود ثانية إلى تشين معترفًا بطاعتها وسيادتها، مقتنعًا برحابة صدرها، وبما ستتكرم عليه من الصلات الباذخة والإقطاعات الكريمة، وها أنت تحاول إجراء المصالحة بين تشين وتشو، على أن تتنازل هذه الأخيرة عن أرض «طويان» بوصفها إقطاعًا ممنوحا لـ «شياوليني».

وعندما تتحالف تشين وتشو وتُحركان قواتهما نحو دولة هان، فلن تعود لها بعد ذلك قائمة، ولا يبقى فيها حجرٌ قائمًا على حجر، أما قون جون، نفسه، فسوف يقود أتباعه مُستجيرًا بدولة تشين، ورجائي منك أن تتدبر الأمر مليًّا وتستقصي جوانبه بعُمق.» ورد عليه «شيانشو» قال: «لم يدُرْ بخلدي قط، وأنا أقيم التحالف بين تشين وتشو، أن أجعله حربًا على هان، وأرجو منك أن تبلغ قون جون، عني، بأنه من الممكن لدولة هان أن تُقيم هي الأخرى تحالفًا مع دولة تشين.» فأجاب المبعوث، قائلًا: «ما زالت هناك بعض الكلمات التي أتمنى أن أعيد تذكيرك بها مرارًا وتكرارًا، فالمثل السائر يقول: «إن احترامك لما يحترمه الناس يجعلك موضع تقديرهم وإجلالهم.» ولنقل بصراحة، إن إعزاز الملك لك ولمكانتك يفوق كثيرًا جدًّا ما يشعر به جلالته إزاء (واحد مثل ...) «قون صونهاو»؛ كما أن ثقته فيك تعلو كثيرًا ما يوليه كاناماو — مثلًا — من ثقته وتقديره، والدليل على ذلك أن هذين الشخصين لا يجرُآن على تناول شئون البلاد أو البت فيها، أما أنت، فوحدك، تستطيع أن تنافس جلالته فيما يتصل بها من تفاصيل، وتقترح عليه سياسات، وتصدر القرارات القاطعة، ولئن حُرما هذه المزية؛ فلأنهما ارتكبا ما يجلُّ عن الوصف من الأخطاء الفادحة؛ فقد حاول قون صونهاو التقرب من دولة هان، وكذلك جرب كاناماو أن يستجلب رضا دولة وي، فكان ذلك الذي دعا الملك إلى نزع ثقته عنهما، ثم تأمل ما هو قائم اليوم، تجد أنه، على الرغم مما تحاول دولة تشو أن تبلغه من مناطحة تشين ومزاحمتها ساحة الغلبة والقوة والتفوق، فها أنت ذا تسعى إلى التقرب منها واسترضائها بشتَّى الوسائل، تمامًا مثلما سبق لكلٍّ من كاناماو وقون صونهاو، قبلك أن يفعلا (على طريقتهما ...) أي أنك مشيت الطريق نفسه، وخضت ذات المجال، ولم تختلف عنهما في شيء قط، فهل كان ثمة فارق بينكم؟ وكم تردد على الأفواه أن دولة تشو ليست موضع ثقة وأنها كثيرة التقلب في سياستها، ومع ذلك فقد بقيتَ تساعدها وتمدُّها بأسباب العون وتُوطئ لها الأكناف، سعيًا لمرادك وابتغاء التطاول في جاهك، ولا أرى إلا أن تتدبر، مع الملك خطة لمواجهة كثرة تقلبات دولة تشو، ولإقرار حسن المعاملة مع هان، والاقتراب مع الحذر من دولة تشو؛ فتلك هي الوسيلة لتجنب النكبات.

وكانت دولة هان هي التي بادرت إلى تفويض قون صونهاو في إدارة شئونها السياسية العليا، ثم عدلت عن ذلك، ووكلت بها كانماو؛ ومن ثم كان شعورك بالعداوة والبغضاء تجاهها، (وعلى كل حال …) فتستطيع الآن أن تبدي وجه الرضا والتقرب من هان، على أن تلزم الاحتراس من تشو، بمعنى أن تبدي منك وجه الفضل والحكمة والتعقل دون أن تحجب عنك الوجه الآخر من التحفز والكراهية والبغضاء.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وتكلم شيانشو فقال: «بل إني أتوق إلى المصافاة والمصالحة مع دولة هان.» فأجابه مع الرسول قائلًا: «كان كانماو قد وعد قون جون بإعادة أوسوي (من أعمال هان) وتمهيد الطريق أمام أهالي إيانغ للعودة إلى الوطن، وها أنت تستشعر صعوبة بالغة في استعادة أوسوي والمصالحة مع هان.» فرد عليه شيانشو قائلًا: «فما العمل إذن (وماذا تقترح عليَّ؟» فأجابه: «فلماذا لا تحاول أن تطلب من تشو — باسم دولة هان — استعادة منطقة «إينغ شوان» وأنت تعلم أن لك كلمة مسموعة في الممالك، بحكم ما تحتله تشين من مكانة ومهابة وقوة؟ وهذه المنطقة في الأصل، تتبع دولة هان، لكنها تقع تحت وصاية تشو، فإذا ما طالبت باستعادتها كان لك الأمر النافذ والسلطة المرعية في دولة تشو، هذا بالإضافة إلى ما ستلقاه عن هان من الامتنان والاعتراف بجميلك؛ إذ تنتزع لها من براثن تشو أرضها المسلوبة، فإذا عجزت عن ذلك، نشبت الكراهية في قلب الدولتين تجاه بعضهما بعضًا وتوقدت في نفوسهما جذوة البغض والعداوة وتنافستا على الارتماء في أحضان تشين؛ ولما كانت تشو، تزاحم تشين وتحسدها على مكانتها وسيادتها بين الأمم، فتستطيع هذه أن تكبح جماحها وتوجه لها اللوم والانتقاد، بينما تستميل إليها هان وتتودد إليها، وهو ما يعود علي تشين بالمنافع الجمة.» فقال له شيانشو: «فما العمل إذن، وماذا ترى من خطة في هذا الشأن؟» فأجابه المبعوث: «هذا أمر بالغ البساطة والسهولة، فهذا كانماو تحدوه رغبة في استلاب تشي أرضها معتمدًا على قوة وي، وهذا قون صونهاو، يفكر في اجتزاء أرض تشي مستندًا إلى مركز هان، وليس عليك إلا أن تستولي على إيانغ، فتكون لك مأثرة مشهودة من مآثر الحرب وغنيمة قتال، ثم تحاول استمالة دولتي تشو وهان، وتعمل على تهدئة خواطرهما، في حين تقوم بشجب وفضح واستنكار تصرفات كل من دولتي تشي ووي، ومن ثم يفقد كل من قون صونهاو وكانماو سلطتيهما ونفوذهما بالكلية.»

لَمَّا ذهب أحدهم إلى قون جون

قصد إلى قون جون من قال له: «إن المسئولين عن الشئون السياسية العليا (في البلاد) ينبغي أن يُصغوا كثيرًا إلى آراء رجال الدولة، وليسوا مُلزمين، على أي نحو، باتباع توجيهات النبلاء والأماثل. (وفي هذا الخصوص ...) فقد سمعت، في الأسواق، مثلًا سائرًا وجدت فيه دروسًا مستفادة، فأرجو أن تنصت لما أبدية لك من آراء.

(وأبدأ، فأقول): إنك كنت ترجو وتلح في الرجاء لدى ملك تشين، أن يجعل دولة هان متزنة في حيادها بين كل من وي وتشي، فلا تميل إحداهما دون الأخرى، إلا أن جلالته لم يوافقك الرأي، فحاولت التقرب من قون صونهاو لإحراج كانماو ووضع العراقيل في طريقه، ثم شجعت قوات تشي على اقتحام دولة وي، وبالتالي تفاقم العداء بينك وبين تشو وجاو، وصارتا من ألد خصومك، وأخشى أن يكون في ذلك خطر مُحدق بدولة هان، ولذلك أرجو أن تطلب من ملك تشين السماح لـ «هان» بالحفاظ على حيادها.» فقال له قون جون: «فما الذي تقترحه بهذا الشأن؟» فأجابه: «يتصور ملك تشين أن قون صونهاو يتقرب إليك، ومن ثم فهو لا يثق فيه كثيرًا، أما كانماو، فليس بينه وبينك من المودة ما يؤهله لأن يتحدث (مدافعًا) عنك، وأرى أن تتَّخذ من «شينيوان» [رئيس وزراء تشين] رسولًا إلى الملك، يتحدث بلسانك ويُبين موقفك، فهو الوزير الأكبر، وله كلمة مسموعة عند جلالته لما عهده فيه من الاستقامة والعدل، وعليك أن تطلب منه أن يقول للملك: «أيهما أنفع لبلادنا؛ تحالف وي وتشي أم انفصالهما؟ وأيهما أكثر مدعاة لتقوية مركز ومكانة تشين، اتحاد وي مع تشي أم تنافرهما؟» ... وسيرد الملك، قائلًا: «انفصال وي عن تشي يدعم مركز وهيبة تشين بالطبع، أما اتحادهما فيضعف كثيرًا من مكانتنا، ومن المعلوم والمؤكد أن نفوذهما وتباعدهما يزيد في قوة وسلطة تشين، أما وحدتهما فتوهن صلابتنا وتفتُّ في عضدنا.» فاطلب من شينيوان أن يرد على جلالته بقوله: «(لكن) جلالتك صدقت كلام قون صونهاو، (وزكيت وجهة نظره) فما كان منه إلا أن استخدم قوات هان وتشين لضرب دولة وي — بناءً على طلب تشي — فلما عجزت وي عن رد العدوان تنازلت لدولة تشي عن الأرض، وعقدت معها الوحدة، فنال دولة تشين من ذلك ما نالها من التردي والهوان بين الأمم؛ ولذلك فإني أرى في ذلك دليلًا واضحًا على تواطؤ وخيانة وفساد نية قون صونهاو. وأرى أنك إذا أصخت السمع إلى كانماو وأوليته مزيدًا من الثقة، وصدقت قوله، ودفعت بقوات من تشين وهان لدعم وي في عدوانها على تشي، فإن هذه الأخيرة لن تقوى على رد العدوان، ولن تملك إلا أن تتنازل عما طالبت به وي من الأراضي مقابل التصالح معها، (فحينئذ تقوم بينهما علاقات

المصافاة والتفاهم) وتلقى تشين من جراء ذلك الضعف والذبول والتردي، وعلى ذلك أرى أن كانماو (بهذه الصفة وذلك الاعتبار) ليس محل ثقة وأمانة، وأرى من الأفضل — يا مولاي — أن تدعم موقف دولة هان في حيادها بين الأطراف وذلك في محاولة لضرب تشي، ثم تزعم وقوفك بجانب وي لدعمها ومساندتها، وتقوية موقفها، وهنالك تنمو بذور الفرقة والنفور بين وي وتشي، وينشب بينهما القتال ويطول مداه، وبهذه الطريقة، تستطيع أن تبث الثقة في قلب قون صونهاو تجاه دولة تشي، فيبادر إلى الحصول على نانيان من وي، باسم دولة هان، ثم يستبدل هذه الأرض بأرضه التي استولت عليها هان (وهي إقليم قوشوان) ليتمكن من الانضواء تحت لوائكم، وهذا هو هدف الملك «هوي» ومنتهى أمله، وعلى كل حال، فهذه هي الطريقة التي إذا عملتم بها فسوف تجعلون كانماو أكثر ثقة وتصديقًا لدولة وي فيسارع إلى استخدام قوات تشين وهان لدعمهما في ضرب تشي وهو ما يصبو إليه جلالة الملك «أو».

وأرى أن دعم حياد دولة هان لضرب تشي هو خطتكم الحاسمة والعاجلة (واعلم) أن صونهاو لن يجرؤ على الحديث فيما يتعلق بمحاولات التقرب إلى دولة تشي، كما أن كانماو لن يجسر على أن يفاتح أحدًا فيما يمكن أن يلقاه من جفاء وعدم اكتراث، وهذان الاثنان هما أساس كل مخاطرك ومنبع كل الشرور التي تكمن لك في منعطفات الطريق، فاحذر الحذر كله، وتأمل مُستقصيًا جوانبه بكل دقة».»

لمَّا شغل قون جون منصب رئيس الوزراء

شغل قون جون (رجل دولة هان) منصب رئيس الوزراء، وكانت العلاقات بين تشي وتشو — في تلك الآونة — في غاية الصفاء والمودة والتقارب. وكانت دولتا تشين ووي تلتقيان فيما بينهما عند الحدود، مصادفة، وتتخذان من التقرب إلى تشي وسيلة لإفساد ما بين تشي وتشو من صداقة وعلاقات حسنة. وتصادف، في تلك الأثناء، أن ملك تشو كان قد أرسل من جهته، كبير وزرائه (المدعو «جينلي») إلى تشين، وكان الرسول أثناء الزيارة، قد شارك في اجتماع عقد بين ملكي وي وتشين، فحقدها ملك تشو على مبعوثه وأسرَّها في نفسه وهو كظيم، وخاف أن تظن دولة تشي الظنون، من جراء تلك المشاركة وربما وقع في خاطرها وجود علاقة خفية بين تشو وكلٍّ من وي وتشين، وقرر أن يجرى على مبعوثه «جينلي» أشد العقاب. فذهب إلى جلالته مَن تشفع فيه، قائلًا له: «أهنئ جلالتكم بهذا النجاح العظيم وتلك البشرى الطيبة التي وافتنا أنباؤها بحضور مبعوثكم «جينلي» الاجتماع بين حاكمي

تشين ووي. وذلك أن الاجتماع المشار إليه إنما كان مُخصصًا لبحث خطة التحالف مع تشي وتشين بهدف قطع العلاقات بين تشي وتشو، فلما حضر مبعوثكم جينلي الاجتماع المنعقد بين الملكين، تشككت دولة تشي في صدق نوايا دولة وي باتحادها المزعوم مع تشين لمهاجمة تشو، وكان من جراء ذلك أيضًا أن تشي ساورتها الظنون في احتمال وجود علاقات خفية بينكم وبين كل من وي وتشين، مما سيعمل على تعظيم مهابتكم في عينها والنظر إليكم بكل إجلال وتوقير؛ فمن ثمَّ كان حضور مُمثلكم جينلي اجتماع الدولتَين وي وتشين أهم ركيزة تدعمون بها موقفكم (وسط الأحداث) وذلك أن غياب جينلي — لو كان حدث — عن الاجتماع، لكان قد اتضح جليًّا اتجاه دولة وي في العمل على قطع العلاقات بين تشو وتشي؛ وإذ تنصت دولة تشي بآذان التصديق إلى دولتي وي وتشين، فلا بد أنها ستحقر من شأن جلالتك، ولذلك فإني لا أرى فقط التراجع عن عقاب جينلي، تأكيدًا للتمتع بمساندة كل من وي وتشين. مما يعظم مكانتك أمام تشي، بل يُثير لدى وي وتشين الشك في وجود علاقات تحالف قوية جدًّا بين تشو وتشي.» فنزل الملك على رأيه، وتراجع عن فكرة معاقبة جينلي، بل رفع رتبته وولاه مكانة أرفع.

لمَّا تحدث ملك وي بحديثه قائلًا

تحدث ملك وي فقال [هذه الفقرة تكرار لما سبق ذكره في الفصل الأخير من «سجل تشو الرابع» وقد أدرجت، سهوًا في «سجل دولة هان» (المُحققون)]: «قلت لي فيما مضى بأنه ليس ثمة «على الأرض أية أعداء.» ثم تأتي إليَّ اليوم، قائلًا ... إن «الظروف الآن على وشك أن تشهد هجومًا ضد يان.» فما السبب (في هذا التناقض في قولك؟)» فأجابه يوتشين قائلًا: «إذا قلت لجلالتك، الآن، إن الجواد ذو قوة وجَلَد، فهذا قول الحق وإقرار الحقيقة؛ أما إذا ذكرت لك بأن للجواد القدرة على حمل ما مقداره ألف «جوين» [نحو خمسة عشر ألف كيلو غرام من الأثقال] فهذا قول باطل، لماذا؟

وكذلك إذا قلت لك إن دولة تشو ذات بأس شديد، فهذا قول الصدق والحق؛ أما إذا زعمت لك بأنها تستطيع المروق عبر أراضي كل من دولتي جاو ووي لتشتبك مع يان، فكيف يستقيم هذا الزعم مع الواقع والحقيقة، ومن أين لدولة تشو بهذه المقدرة الخارقة؟ فماذا لو حاولت تشو المضي قدمًا فيما لا طاقة لها به، ألا يكون ذلك سببًا في هلاكها والانتقاص من شأنها، فانظر في أيهما أنفع وأجدى لجلالتك.»

لمَّا ذهب إلى ملك وي من قال له

ذهب إلى ملك وي، من قال لجلالته: «أرى، يا مولاي، أن ترسل من ينادي في الناس من أقصى البلاد إلى أقصاها بالتحذير والوعيد بأن كل من يثبت في حقه أنه تأخر عن الخروج معك للقتال بأن تقاعس عن الاستعداد وحمل السلاح مدة تتجاوز عشرة أيام، يقطع رأسه ثم تقوم إلى مركبتك العسكرية فترفع عليها الرايات والأعلام، فيطالع الناس إشارتك ويُعاينون صولتك، وائذن لي بأن أذهب في سفارة لك، إلى دولة تشو، فلا تخرج إلى القتال إلا عند عودتي إليك.» فلما علم رئيس وزراء تشو (المدعو «تشن شنجون») بذلك، تكلم مع سفير ملك وي، قائلًا له: «عد إلى البلاد فورًا، حتى تُجهز دولة تشو العدد البالغ من القوات وتزحف به نحو حدود دولة وي.» فلما سمع رسول دولة تشين بذلك الأمر، سارع بإبلاغه إلى ملك تشين الذي تكلم مع ملك وي، قائلًا: «ما دمت قد عزمت على مهاجمتنا، ففي جيشك الكفاية للقيام بهذه المهمة.»

لمَّا تكلم جوين مع رئيس وزراء

تكلم «جوين» [أحد مواطني إقليم «قوانجين»] مع تشن شنجون [رئيس وزراء تشو] فقال له: «يتصور الجميع أن دولة تشو ذات صولة عارمة وبأس وقوة، لكنها ذبلت قوتها وصارت إلى الحضيض بعدما توليت إدارة سياساتها، لكني لا أرى الأمور على هذا النحو، (صحيح) أنه لم تتعرض دولة تشو للهجوم على مدى العشرين عامًا السابقة التي قام فيها على شئون البلاد آخرون غيرك، (لكن إذا استعرضنا الظروف، وجدنا أن …) دولة تشين كانت قد حاولت الهجوم عليكم بالعبور من المنطقة الحصينة في «مياني» لكن الأمر تعذَّر عليها، ففكرت في أن تحصل على موافقة دولتي جو (الشرقية والغربية) لها على العبور من أراضيها، (على أن تحميها دولة هان من الخلف) فتتقدم لمهاجمة تشو، ثم اتضح أن هذه الخطة أصعب كثيرًا وأدق على التنفيذ من سابقتها.

إلا أن الحال تغير جدًّا هذه الأيام؛ فقد أصبحت دولة وي على وشك الانهيار بين عشية وضحاها، وهكذا فلن تتوانى عن التفريط في «شيودي» و«يانلينغ»، و«أودي»، وستتنازل عنها لدولة تشين، وعندئذٍ يقترب خط الحدود كثيرًا من تشو …) إذ لم يعد يتبقى بين تشين وتشو سوى مسافة تقدر بمائة وستين «لي» فقط، ومن ثم أرى أن يوم العراك بين تشين وتشو صار وشيكًا جدًّا.»

لَمَّا كان معروفًا عن قونجون بين الممالك

كان معروفًا عن قون جون — بين الدويلات والممالك — عدم وفائه بالوعد؛ فلم يكن أحد من الأمراء والولاة يصدق له كلمة ولا عهدًا، فكان إذا أراد أن يعهد بشئون البلاد إلى دولة تشو في الأمر، ويجعل زمام الإدارة في أيديها. تشكك ملك تشو في الأمر، وأغضى عن وعوده. فتكلم «سوادي» مع ملك تشو — دفاعًا عنه — قائلًا لجلالته: «أرى من الأفضل أن تنصت إليه بأذن التصديق على أن تحذر تراجُعه وتحترس من نكوصه، ولقد كانت عادته المعروفة عنه وديدنه المعهود، التردد والتقلب والمراوغة، فلطالما كان ينكص عن عهوده مع تشو مستندًا إلى متانة علاقته بدولة جاو؛ ثم يخون مواثيقه مع تشين، مطمئنًّا إلى موقعه المكين لدى دولة تشي، أما اليوم فلم تعد الأطراف الأربعة تصدق له كلمة، ولم يعُد ينفُذ له مِثقاب في ثغرة [هكذا حرفيًّا] وقد حاصرته الهموم وعصفت به الحيرة، فلربما قد آن الأوان الذي تتملكه فيه نزعة الصدق والأمانة [حرفيًّا ... «أو أن يكون فيه أشبه بالشخصية الأسطورية «ويشنغ» ... الذي اشتهر بالكذب، لكنه وقت المحنة صار موضع ثقة ومثالًا للوفاء بالعهد»].»

سجل هان الثاني

لمَّا قامت دولة تشو بحصار يونشي

قامت دولة تشو بحصار منطقة «يونشي» لفترة دامت خمسة أشهر، فأرسلت دولة هان إلى تشين ترجو منها النجدة، وظلت وفود الرسل تتوالى، حتى غصَّت بهم الطرقات، وعلى الرغم من ذلك، فلم تشأ دولة تشين أن تُحرك ساكنًا [حرفيًّا: لم تحرك أي قطعة من جيشها أسفل جبل شياو] فما كان من تشو إلا أن أوفدت مبعوثها «شانجين» إلى تشين، ثم إنه التقى بجلالة الملك هناك، وقال له: «إن دولة هان تنظر إليكم بوصفكم الستار الواقي والدرع الحصين والملاذ الحامي، وهي إذ تحتمي بكم تعرف قوة ومنعة جيوشكم الجرارة ومواكب الزحف التي تمضي كأسراب الشواهين بأجنحتها المشرعة وانقضاض صواعقها. وقد لاقت دولة هان اليوم من أمرها عسرًا، وواجهت شدة لا ارتفاع لها ولا مخرج منها إلا بكم، لكن جيوشكم لم تغادر سفح جبل «شياو» ولا تحركت لإنقاذها، وقد بلغني أنه إذا ما انفرجت الشفتان، تعرضت الأسنان لتيارات الهواء العاصف [إذا ما زالت عنا حمايتكم وقعنا في يد المحن، واستولى علينا الطامعون ...] فأرجو أن تتدبر الأمر مليًا وتستقصي جوانبه بالتأمل اللازم!» وردت عليه الملكة (الأم) قائلة له: «قد وفد علينا الكثير من الرسل، لم أجد فيهم أحسن منطقًا، وأصح عبارة سوى «شانجين» ...» ثم جرى استدعاؤه ليمثل بين يدي جلالتها، فلما أقبل إليها، ابتدرته قائلة: «كنت أقوم إلى جوار مليكنا السابق، وأُرتب له حاجاته وأرعى شئونه، فقد حدث ذات مرة أنه داعبني بأن داس على جسدي برجله، فما استطعت مُغالبته؛ لذهاب قوتي وخمود طاقتي، غير أنه عندما تمدَّد بجرمه كله فوق جسدي وجدتني قادرة على احتماله، ولم تخذلني قوتي، ولم أجد له أي ثقل،

كذلك الذي كاد يفتت عظامي، أتعرف السبب في ذلك؟ إن السبب، وبكل بساطة أنه كان في المرة الثانية محل قبول وموضع احتمال مرغوب لما فيه من عوائد المتعة والنفع واللذة.

والآن، فأنتم تطلبون العون في حين عزت الأقوات، وقلت النصرة، وتضاءل عدد الجند؛ فليس من سبيل لنجدتكم، وحتى لو تصورنا أن ذلك ممكن، فإن تكاليف إنقاذكم من الخطر المحدق، ستكلفنا — يوميًّا — ما مقداره ألف مثقال من الذهب، ولن يعود علينا منها شيء من النفع أو المتعة بأي حال؟!»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وأرسل شانجين خطابًا إلى ملك هان، (يُحيطه فيه علمًا بما جرى) فأوفد جلالته إليه «جان سوي» [«سوي» ... تنطق كما في «التسويق»] وكان رجلًا معتل الصحة، لا يقطع في اليوم سوى بعض الطريق، فلما وصل إلى دولة تشين تكلم معه كانماو قائلًا: «ألم تشهد بنفسك خطورة الأحوال في دولة هان حتى تأتي متثاقلًا ومعتل الصحة؟» فأجابه: «أحوال دولة هان لم تبلغ بعد تلك الدرجة من الخطورة، وإنما صارت على وشك بلوغها الآن.» فقال كانماو: «(اعلم) أن تشين، بلد كبير ذو ثقل ومركز ورجال حكم نجباء، ولن يغيب عن فطنتهم ما إذا كانت دولة هان في مأزق أم لا، فكيف تزعم بأن الأمر لم يبلغ حد الأزمة؟» فأجابه جان سوي بقوله: «لو كانت هان قد بلغت حدود الأزمة وحافة الخطر — كما تقول — لكانت ارتمت راكعةً تحت أقدام دولة تشو وما كنت جئتكم ها هنا، أكنت أجسر على المجيء إليكم حقًّا؟» فقال كانماو: «كفى، لا تعد إلى ترديد هذا القول ثانية!» ثم إنه دخل إلى الملك، ونصح له قائلًا: «ما كان قون جون ليستطيع — وهو يمسك بزمام السلطة في هان — أن يواجه دولة تشو، إلا بالاعتماد على ما يمكن أن يتوافر له من قوات تشين، وإذ تقع «ونشي» تحت الحصار الآن، دون أن تتحرك قواتنا إلى (ما وراء) جبل شياو، فهذا يعني التخلي التام عن دولة هان، وهو ما يمكن أن يؤجِّج الشعور بالمرارة في نفس قون جون، فيهمل شأننا، ولا يكترث بالمجيء إلينا، وعندئذٍ يسارع «قونشو» بالذهاب «جنوبًا»، للتحالف مع دولة تشو وإذا ما تحالفت الدولتان، تشو وهان فلن تلبث أن تلحق بهما دولة وي، وهكذا تضع دولة تشو يدها في يد ثلاث دول فيجتمعون للتآمر ضدنا، وإذا ما سارت الأمور في هذا الاتجاه، تشكلت بالتدريج، ملامح أزمة حقيقية تنتظرنا في منعطفات الطريق، ولا أدري أيهما أجدى لنا ... أننتظر بدء هجوم لا نعرف ميعاده ولا ندرك ميقاته، أم نبادر بالهجوم؟» ووافقه الملك على وجهة نظره، وسيَّر الجيوش من تخوم جبل شياو إلى دولة هان لنجدتها.

لمَّا قامت دولة تشو بحصار منطقة يونشي

قامت دولة تشو بحصار منطقة يونشي، فأرسلت دولة هان مبعوثها «لنشيان» إلى دولة تشين تستنجدها بمدد الجند، فأوفدت إليها «كونصون مي» [كبير وزراء تشين] وقال قون جون: «أتظن أن تشين ستمد لنا يد العون والنجدة حقًّا؟ أم تتخلى عنا وتُغضي عن مساعدتنا؟» فأجابه كونصون مي قائلًا: «قد تحدث ملك تشين بغير لَبس أو غموض، قائلًا: «اذهبوا لمهاجمة تشو، على أن تسلكوا طريق «نايجين» و«لانتيان»»، وسوف ندفع قواتنا ونتمركز في منطقة «سانشوان» ونبقى هناك في انتظاركم، وهو ما سيحول دون التقاء الجيشين (في نقطة مركزية).» فسأله قون جون: «وما العمل إذن؟» فأجابه: من المؤكد أن ملك تشين يحاول الاستفادة من خطة تشانغي — التي وضعها منذ زمان — (ذلك أنه عندما …) قام ملك تشو بمهاجمة دولة وي، تحدث تشانغي إلى ملك تشين قائلًا لجلالته: ستقوم بمهاجمة وي بالاشتراك مع دولة تشو، مما سيرغم وي على الإذعان والرضوخ لدولة تشو، ولما كانت دولة هان حليفة لدولة وي فسوف تتلفت تشين حولها فلا تجد أحدًا معها، وهو ما يعني العزلة التامة، ولذلك فقد رؤي أن من الأفضل التظاهر بدفع القوات لدعم الموقف المعنوي لدى وي، وتعزيز صمودها وصلابتها.» وعندئذٍ، فمن المؤكد أن دولة تشو ستقوم بحصار منطقة بيشى.» وإذ تلمس مدى صمود وصلابة وي، فسيثور غضبها، ويشتعل في قلب ملكها أوار الغيظ والتحفز، وبالتالي تقوم الحرب بين وي وتشو (وتنتهز دولة تشين تلك الفرصة) فتنقض على أرض غرب النهر وتنتزعها لنفسها وتعود من ساحة القتال غانمة راضية.

والآن، فإن دولة تشين ستزعم [من باب التظاهر والادعاء] بأنها تسعى لإنقاذ دولة هان، بينما تتودُّد سرًّا إلى دولة تشو، وتحاول استرضاءها والتقرب إليها، وإذا ركنت إلى الاعتماد على قوة وصلابة تشين، فسوف تستهين بالحرب مع تشو، وقد أدركت تشو، على نحو خفي، بأن تشين لن تساعد هان، فسوف يسهل عليها أن تقف منك موقف الند للند، أما إذا كان لك النصر على تشو، فسوف تشارك دولة تشين في انتهاز فرصة ما حل بدولة تشو من النكبة الداهمة وتقطع لنفسها الأراضي، فتستولي على منطقة سانشوان وتكتفي بعد هذه الغنيمة بالإياب، لكنكم إذا لم تتغلبوا على تشو، فسوف تقوم تشين بسد طرق الوصول إليها وإرسال حامية للدفاع عنها، وساعتئذٍ فلن يمكنك أن تجد غوثًا ولا نجدة، وهو أمر لا أرضى عنه ولا أقبله بل أجده مرذولًا ممقوتًا.

وقد طالما تنقل «صماكان» [من دولة تشين] ذهابًا وإيابًا (بين تشين ومدينة «إينغ» عاصمة دولة تشو)، وكذلك تعددت اللقاءات بين، كانماو، وشاوشيان عند منطقة الحدود، وصدر عن الجميع ما يفيد بأن دولة تشو لن تعود إلى مهاجمة دولة هان أبدًا، وفي الحقيقة فقد كان في خلفية تلك الأحداث اتفاق وتحالف آخر.» ثم تحدث قون جون — وقد تملَّكه الذعر — قائلًا: «فما العمل إذن، ما دام الأمر كذلك؟» فأجابه «قونصون مي» قائلًا: «ينبغي عليك، أولًا، استقصاء الحدود الفعلية والجوانب الواقعية الحقيقية لحجم مقدرة وقوة دولة هان، ثم تقوم — بعد ذلك — بتقدير ومراجعة ما يمكن أن تُقدمه دولة تشين من مساعدة ودعم، على أن تضع خططك وحساباتك الذاتية بعين الاعتبار، ثم تجتهد في تدبر قدر المعونة المُحتملة من جانب تشانغي، والأفضل لك في كل الأحوال أن تعمل على إقامة الوحدة بين هان وتشي وتشو، ويومئذٍ، فإن دولة تشين سوف توكل إليك مسئولية إدارة شئون البلاد، تجنبًا لما يمكن أن تتعرض له من هجوم، وتلافيًا للخطر.

وهكذا، فسيكون تشانغي، هو الوحيد الذي ستزداد الهوة بينك وبينه، فتتباعد المسافات بينكما كثيرًا، دون أن تفقد مودة وصداقة دولة تشين.»

لمَّا قام قون جون بمساعدة الدولتين

قام قون جون (بالتوسط بين الدولتَين وي وهان) للمساعدة في تبادل الأراضي بينهما، ثم إن قونشو انتقده بشدة على هذا المسلك، ومع ذلك فلم ينصت إليه، فلما أوشك قونشو أن يغادر مغضَبًا، (استوقفه) «شيتي» [كبير وزراء أسرة جو الملكية] وقال له: «إذا مضيت في طريقك وغادرت إلى ما أنت ماضٍ إليه، فسوف تتم عملية استبدال الأراضي بنجاح، وساعتئذٍ، فلن تجد مبررًا لعودتك (إذا أردت أن تعود) فتصير هزأة الممالك، وتلقى وبال أمرك، وأرى من الأفضل أن تدع الأمور تسير في مجراها الطبيعي، (وذلك أنه ...) عندما تُعيد دولة هان إلى وي أراضيها فإن الخاسر في هذه المبادلة هو دولة جاو؛ وإذ تقوم دولة وي بإعادة الأراضي المُستحقة إلى دولة هان فلن يقع الضرر في ذلك إلا على دولة تشو.

وليس عليك إلا أن تقص تفاصيل ذلك على دولتي تشو وجاو، وستجدهما في أشد الامتعاض والاستياء من ذلك المسلك المذكور آنفًا، وأتصور أن دولة جاو، ستدفع بقواتها — فور سماعها تلك التفاصيل — نحو منطقة «يانشانغ» أما دولة تشو، فسوف تنزل بقواتها عند مشارف «فان تشن»، وهنالك تفشل عملية تبادل الأراضي (التي يشرف عليها قون جون) فشلًا ذريعًا.»

لمَّا قام تشي شوان بتوضيح كيفية

وقف تشي شوان [من أهل دولة هان] بين يدي ملك هان، وأوضح له كيفية استمالة دولة تشين للتحالف، قائلًا لجلالته: «اجعل قونشو على رأس حملة عسكرية قوامها مائة عربة بزعم ضرورة التوجُّه إلى دولة تشو، لمتابعة إجراءات تبادل أراضي سانشوان معها، ثم اطلب من قون جون [من جانب آخر] أن يقول لملك تشين: «قد سرت الأقاويل في «سانشوان» أن جلالتكم تريدون الاستيلاء عليها، حتى وقعت البلبلة والحيرة، وارتبكت الأحوال ... بل إن ملك هان قد بلغت به الأحوال مبلغًا لا يدري معه كيف يعاين حقيقة الأمر، وعلى أي نحو يتصرف، فما رأيك في أن ترسل «شيانزي» [أحد نبلاء دولة تشين] ليقيم في دولة هان، باعتباره رهينة [لضمان استقرار الأحوال]، فلعل ملك هان يتأكد من أن جلالتك لا تسعى إلى ضم منطقة سانشوان بأي حال.» ... هكذا تتمكن من إقناع ملك تشين بأن يرسل أمير الدولة رهينة مقيمة، وفي الوقت نفسه تجعل أمير تشين يشعر بالامتنان الخالص لنا.»

بعد أن وقعت معركة شيانلين

في أعقاب معركة «يانلين» تكلم «بيشان» [من أهل وي] إلى قونشو [رجل دولة هان] قائلًا: «أرجو ألا تدفعوا بقواتكم للاشتراك في الحرب، وسوف تقدر دولتا وي وتشو لكم هذا الصنيع، وتشعران بمزيد الامتنان، ثم إن دولة تشو تفكر في أن تقوم بتنصيب «قون تسيقاو» أميرًا على دولة وي، ولذلك فسوف تضطر إلى استخدام القوة والتقدم حثيثًا باتجاه وي (للتلويح بإمكانية التدخل المباشر ...) فلماذا لا ترسل مبعوثًا إلى شاويان [قائد قوات تشو] لينصح له قائلًا: «لا يبدو أن الفوز سيكون نصيبك في هذه المعركة، فائذن لي أن أقوم مكانك في قيادة الجيش لمهاجمة دولة وي.» ... ثم إنك لن تعجز عن أن تجد مبررًا للامتناع عن القتال، وهكذا، فسوف يذكر لك هذا الصنيع بكل الامتنان كل من أمير دولة وي، وشاويان، ملك وي.»

لمَّا قام قونشو بإيفاد مبعوث إلى

قام قونشو بإيفاد «فنجون» [من مواطني دولة هان] إلى دولة تشين، ولما كان يُخشى عليه أن يقع في الاعتقال فقد أرسل يوصي «يانشيان» بضرورة النصح لملك تشين، بأن يذهب ويقول لجلالته: «إن اعتقال «فنجون»، بهدف استرضاء «هانشن» [رئيس وزراء هان] لا

يعد تصرفًا حكيمًا، والأفضل من ذلك أن تعمل على التقرب من «فنجون» نفسه، وتدعمه بما في خزائن تشين من المال، فينشر في الخافقين ذكرك ويذيع على الناس أنباء فضلك وكرمك، وعندما تنأى بنفسك عن سيطرة قونشو (ومحاولاته الدائبة على فرض سلطته وهيمنته) فسيمكنك أن تقدم المساعدة للأمير (المدعو: «جيسي» بحيث ترجح كفته في نزاعه على السلطة مع الأمير «جيو»).

ومن ثم تلهج الممالك بذكر مآثرك وتحمد لك فضلك العميم وكرم أخلاقك، وهو ما سيأتي على غير ما تهوى دولة هان فتفسد خطتها وتخسر ما أَمَلت فيه.»

ذهب إلى قونشو من قال له

ذهب إلى قونشو من قال له: «لئن كنتَ تفكر في أن تستعيد «أوسوي» من دولة تشين، فلا يرهبنك ما تحاوله دولة تشو من إثارة القلاقل والاضطرابات في منطقة «خواي»، وأرى من الأفضل لك أن توفد إلى ملك تشو من يهمس في أذنه بالتحذير [ومن ناحية أخرى] ترسل إلى ملك تشين تطالبه بإعادة أوسوي. وإذ ترسل إلى ملك تشو رسولًا، فاطلب إليه أن يبلغ جلالته ما نصه: «قد أرسل قونشو رسولًا ذا مكانة وأهمية إلى دولة تشين يطلب منها باسم دولة هان إعادة أرض «أوسوي»، فإذا استجاب ملك تشين إلى طلبه صارت لدولة هان الكلمة النافذة والأمر المسموع لدى أقوى الممالك وأشدها بأسًا وأوفرها منعة وقوة، وعندما تستعيد دولة هان أرضها (المسلوبة) أوسوي، فسيمكنها أن تحد من نفوذ تشين، وإذ يتلاشى خطر هذه الدولة، سوف تتجه هان نحو دولة تشو بكل معاني الامتنان والعرفان، وتصير كأنها مجرد إقليم أو ولاية تابعة لدولة تشو.

أما إذا لم تستجب تشين إلى الطلب، فسوف تتفاقم العداوة بين تشين وهان، ويتنافسان على التقرب من دولة تشو.»

لمَّا تحدث المتحدث إلى قونشو

تحدث أحدهم إلى قونشو فقال له: «إذا ركبت، قاربًا، فانخرق ونفذ إليه الماء، وتعذَّر عليك إصلاحه، انقلب وغاص بك. فإذا اكتفيتَ بأن أصلحت الخرق، وأغضيت عن خطر الأمواج العاتية [حرفيًّا: «أهملت شأن الأمواج العاتية التي تحركها روح الانتقام» وقد ذكرت أسطورة قديمة أن أحد أمراء الدويلات قد انتحر غرقًا في نهر بسبب وشايات واتهام

بجناية ارتكبها، وقيل إن روحه تلبَّست الأمواج وصارت تضرب بقوة كل قارب وسفين] اضطرب بك البحر وسقطتَ في القاع، فها أنت تظن بنفسك القوة الفائقة بالقدر الذي يتجاوز مقدرة شوكون، حتى أهملت شئون دولة تشين، فكأنك اكتفيت بترميم الثقوب النافذة في هيكل القارب، ونسيتَ أنك في غمرة الموج المتلاطم (الذي قد يجتاحك في أي وقت) فليتك تتأمل الأمر جيدًا، وتتبصر بالعواقب.»

لمَّا أوفدت دولة تشي مبعوثها إلى هان

قامت دولة تشي بإيفاد جوسوي [أمير أسرة جو] إلى هان، لحثها على تنصيب «هانراو» على شئون الحكم، ونبذ قونشو وإقصائه خارج السلطة، لكن جوسوي أحس بالقلق، وقال: «(من المعلوم) أن قونشو تربطه علاقات طيبة مع أمير أسرة جو، فكيف يستقيم أن أذهب الآن في بعثةٍ رسمية إلى هان لتزكية «هانراو» وإقصاء قونشو، (أما سمعتم بالمثَل السائر الذي مفاده ...) «عجبًا لمن يكظمون الغيظ في الخفاء، ثم يُنفِّسون عنه جهارًا وعلى ملأ.» ولئن كان قونشو يضمر الحقد والضغينة لدولة تشي، فهذا ما لا تملك دونه أي رد فعل، لكنها ستقطع الكثير من الروابط الودية — بسبب ذلك — مع أمير أسرة جو الملكية، فتترسخ الكراهية في النفوس.» وتكلم شيشي [أحد أعضاء الوفد المرافق للبعثة إلى هان] قائلًا: «فلتذهب في مهمتك الرسمية، وسأفكر في طريقة تجعل قونشو مبجِّلًا لقدرك عارِفًا بمكانتك.» فما إن وصل جوسوي إلى هان، حتى اضطرم غيظ قونشو، فذهب إليه شيشي وقال له: «لم يكن جوسوي راغبًا — في حقيقة الأمر — في المجيء على رأس هذه البعثة، لكني أنا الذي اضطررته إلى ذلك، أمَّا تردُّده في الحضور، فمبعثه حرصه على مصلحتك واعتبار مكانتك، وما كان لي أن أحثه على المجيء إلا لأجلك، والنظر لما فيه تمام النفع لك.» ورد عليه قونشو، قال: «فاشرح لي القصد من قولك هذا إذن.» فأجابه: بلغني أن أحد رجال دولة تشي لديه كلب نبَّاح، ولطالما زجره ولم ينزجر، حتى ضجَّت الناس منه بل إنه هجم على المارة وأنشب فيهم مخالبه وأسنانه، وجاء أحد الضيوف وطلب أن يزجُره بنفسه، فوقف قريبًا منه وحدَّق فيه طويلًا وصاح فيه بلطف، فلم ينبح عليه، بل انصاع له، فزجره ثانية، فنهاه عن عض المارة ومطاردتهم.

وقد عرفت أن جوسوي كان قد قام على خدمتك زمنًا طويلًا فيما مضى، وها هو قد جاء موفدًا، رغم أنفه، في هذه البعثة، ولذلك فسوف يكتفي بأن يعرض أفكاره والهدف من مجيئه — بكل بساطة وهدوء (... وبغير اكتراث، تقريبًا) — ولا بد من أن ملك هان

سيفهم أن دولة تشي [حرفيًّا: ملك تشي] لا تُعير هذا الشأن اهتمامًا بالغًا، ومن ثم، فلن تكترث بالرد عليها.

واعلم أنه لو لم يأتِ جوسوي في هذه السفارة، لجاءك شخصٌ آخر، ولربما كان هذا الآخر على غير ما ترغب، وعلى غير صلةٍ طيبة بك، ولعله أراد أن يسترضي «هانراو» ويمد يد الفضل مما كان يمكن أن يحثه على النهوض إلى بلادكم في عزم والتحدُّث بين يدي الملك بلغةٍ حاسمة وكلام جادٍّ وإرادة وافرة، بحيث يفرض سرعة الرد والاهتمام من جانب جلالته.» … وعندئذٍ قنع قونشو بما أبداه من الحجة، وأبدى لـ «جوسوي» الاحترام والإجلال، ثم إن ملك هان، لم يكترث — فعلًا — بأن يزكي هانراو، أو أن يرفعه درجة عالية في مراتب الحكم والسلطة.

(١) لمَّا قدَّم قونشو يد العون

قدَّم قونشو [رجل دولة هان] يد العون لكل من الأميرين «جيو»، و«جيسي» للاستيلاء على السلطة، وذهب جنشيان موفدًا — باسم ملك تشو — إلى دولة هان، (وكان أن تصرف فيما هو موكول إليه) فقضى بالتنازل عن «شين تشينغ» و«يانغ رن» لـ «جيسي»، تزكية لموقفه في الصراع على السلطة مع قونشو، (وهو ما كان يختلف عما يريده الملك …) فغضب ملك تشو، وأراد إنزال العقاب بـ جنشيان، فتكلم هذا قائلًا: «ما كنت لأتصرف في مضمون الرسالة المطلوب توصيلها، ولا كان لي أن أهدي الأرض إلى جيسي إلا لَمَا رأيت فيه مصلحة البلاد، فائذن لي جلالتك بأن أفصح عن وجهة نظري في ذلك، فالأمر كله يتَّضح في أن حصول جيسي على منطقة «شين تشينغ» بكل سهولة ودون أية تكاليف، بالإضافة إلى نجاح «يانغ رن» في صراعه على السلطة مع قونشو، كل ذلك كفيل بأن يدفع …) دولة وي للانقضاض على دولة هان، التي ستجد نفسها في مأزق وكارثة، فتسرع بتسليم مصائرها ليد جلالتك، وعندئذٍ تترقَّب من يُطالب بمنطقة شين يانغ أو يطلب تسليم (الأمير) «يانغ رن»! فإذا لم يكن النصر حليف هذا الأمير ليخرج سالمًا مُعافًى فلا بد أنه سيلجأ إليك ويحتمي بك، فانظر يومئذٍ في كيفية التعامل مع مسألة تسليم الأرض (شين تشينغ).» وهنالك وافقه ملك تشو على رأيه وبَدَا منه الصفح الجميل.

(٢) لمَّا قدَّم قونشو يد العون

[يتضح أن الفقرة الأولى في هذا الجزء تتفق مع السابق عليه مباشرة (المترجم).]

قدَّم قونشو يد العون لكل من الأميرين «جيو»، و«جيسي» في نزاعهما على السلطة وتكلم جنشيان [مسئول خاص عن شئون الولاة والأمراء؛ منصب رسمي في فترة الدول المتحاربة فقط] مع جيسي، قائلًا له: «من الأفضل أن تنتهز فرصة عدم هجوم دولة تشي عليكم، فتُنحي قونشو (عن السلطة).» فأجابه: «مستحيل؛ لأن ذلك من شأنه قيام حرب أهلية، وهو ما سيؤدي إلى تقطيع أوصال البلاد.» فرد عليه جنشيان، قائلًا: «هذا أمر، إن لم تفلح في إنجازه على الوجه الأكمل صارت حياتك في خطر، فما لهذا وتقطيع أوصال البلاد (وما شأنك أنت بأحوال البلد بينما الخطر مُحدق بك؟)» إلا أن جيسي لم ينصت إليه، ولم يأخذ برأيه، وكان أن قامت قوات تشي باحتلال دولة هان، فاضطر جيسي إلى الفرار خارج البلاد.

لمَّا تكلم كبير وزراء جو الشرقية مع قونشو

تكلَّم «تشيمين» [رئيس وزراء جو الشرقية] مع قونشو فقال له: «لئن كانت دولة تشي قد طردت «جيسي»»، إلا أن دولة تشو، فتحت له ذراعَيها وأكرمت وفادته، ثم إنها تفكر الآن في تحسين علاقاتها مع تشي، فلا داعي أن تطلب من ملك تشي أن يقول لملك تشو وهو يُحادثه، ما مفاده: «أرجو من جلالتك أن تطرد جيسي فيصير شريدًا بلا مأوًى.» … باعتبار أن من شأن العلاقات بين البلدَين أن تتوطَّد، وتقوم الوحدة بينهما، في حالة ما إذا استجاب ملك تشو لذلك الطلب، ولن يكون أمام جيسي إلا أن يهيم على وجهه في البلاد؛ أما إذا لم يستجب ملك تشو لما يرجوه منه حاكم تشي، فلن تنعدم تمامًا يد العون التي يمكن أن تقدمها دولة تشو لدولة هان، ولو سرًّا ومن وراء ستار.»

(١) لمَّا سعى قونشو في اغتيال جيسي

كان قونشو قد رتَّب مع أحد الأشخاص لاغتيال جيسي، فذهب إلى قونشو من نصح له، قائلًا: «ما كان يمكن لواحد مثل سمو الأمير «جيو» أن ينظر إليك بعين الإكبار والاهتمام إلا لأنه يخشى جيسي. فإذا قضى عليه الآن، فلن يبقى أمام الأمير جيو ما يؤرق أيامه القادمة، فيهمل شأنك ويحط من قدرك، وإذ يتطلَّع رجال دولة هان حولهم، فيرون جلالة الملك قد تقدم كثيرًا في السن، فسوف ينظرون إلى سمو الأمير «جيو» بوصفه الأقدر على تسلُّم زمام السلطة في البلاد، ويعترفون له بالطاعة ويتوجَّهون إليه بالتعظيم والإجلال، حيث سيحاول

بكل جهده أن يستميلهم إليه ليُساندوه ويعضدوا شأنه في الداخل، وسيتزايد اهتمامه بك وتقديره لك، خصوصًا أن جيسي سيظل بالنسبة له، مصدر قلقٍ خارجي، يعمل له ألف حساب. وهكذا، فمن الأفضل ألا تقتل جيسي، بل أن تبقيه حيًّا؛ لتهدد به سمو الأمير الذي سيظل يُعظم شأنك حتى آخر يوم في حياته.»

(٢) لمَّا رتَّب قونشو لاغتيال جيسي

لمَّا رتَّب قونشو لاغتيال جيسي، وأمر به من يقتله، جاء إليه «صونهي» — مدافعًا عن جيسي قائلًا له: «ما كان لـ «جيسي» أن يثير القلاقل والاضطرابات إلا بالاعتماد على دعم «قون جون بن» (من داخل البلاد) ومساندة كل من: تشين وتشو، فإذا هممت بقتله الآن، رفعت عن كاهل سمو الأمير متاعبه المستقبلية، فيزدري شأنك وتسقط هيبتك من عينه، وإذ يلاحظ المسئولون الكبار أن جلالة الملك قد طعن في السن، وقد تقررت الخلافة لسمو الأمير فسوف يعملون، وإن سرًّا، على الاعتراف بطاعة سموه، ثم إن فقْد دولتي تشين وتشو لواحد مثل جيسي تساوي فقدهم لدولة هان، وبالتالي فسوف تعملان (خفية) على مساندة «بوين» الذي سيتحول إلى (نسخة مكررة من …) جيسي آخر؛ والرأي ألا تُقدِم على قتل جيسي، ثم إن «بوين» سيحتمي بك حذَر الموت ويلجأ إليك لائذًا مما يتهدَّده من خطر. وإذ يعجز كبار رجال دولة هان عن أن يَحولوا بين جيسي وبين العودة إلى البلاد، فلا بد أنهم يعجزون أيضًا عن أن يُساندوا «بوين» في إثارة القلاقل.

إن مساندة تشين وتشو لـ «جيسي» هي التي سـتردع بوين وتكبح جماحه، هذا بالإضافة إلى أنه وقد فقد الدعم الخارجي المأمول من تشين وتشو، وخسر المساندة (الداخلية) من جانب قون جون والآخرين، فسيعجز عن إحداث الاضطرابات، وهو ما سيعود عليك بالنفع العميم.»

لمَّا تكلم أحدهم مع أخي الملكة

ذهب إلى «شين تشيجون» [أخو الملكة الأم بدولة تشين] قائلًا: «إن كلًّا من قونشو، وبوين قد بلغ بهما الخوف مبلغه، حذَر أن تقوم دولتا تشين وتشو برعاية جيسي، فما الذي يمنعك من التوجُّه إلى دولة تشو — باسم هان — للعمل على إعادته إلى البلاد بعد أن قضى شطرًا

من الزمن هناك بوصفه رهينة سلام؟ فإذا استجاب ملك تشو لهذا الطلب وأعاد الرهينة إلى بلدها (دولة هان) فسيعلم قونشو وبوين أن دولتي تشين وتشو لا تكترثان بأمر بوين، وبالتالي فمن المؤكد أن تقوم الوحدة بين هان وكلٍّ من تشين وتشو، اللتَين ستدعمان هان بهدف الضغط على دولة وي، ثم إن هذه الأخيرة لن تجسُر على الاتجاه شرقًا للاتحاد مع دولة تشي، فينتهي الأمر بهذه الأخيرة، إلى أن تجد نفسها وسط عزلةٍ تامة. فاطلب مرة ثانية إلى دولة تشين أن تُوجِّه إلى دولة تشو مطالبتها بإعادة رهينة السلام إلى بلدة هان، فإذا لم تستجِب تكون قد عمَّقت من شعور الكراهية المتبادل بينها وبين دولة تشو، وإذ تتساند دولة هان على دولتي وي وتشي وتنظر بعين الكراهية نحو دولة تشو، فلا بد من أنَّ حاكم هذه الأخيرة سينظر لك بمزيد الاهتمام، ويُوليك منصبًا رفيعًا. وما دمت تجعل عمادك على ما تمدُّك به تشين وتشو من قوة وسند، بالإضافة إلى ما تُسديه لدولة هان من الأفضال الكثيرة والخدمات الجليلة، فسوف يبذل لك كل من بوين وقونشو الإجلال والتعظيم باسم دولة هان.»

لمَّا طلب خويان إلى قونجون أن يقول للملك

طلب خويان [من مواطني دولة هان] من قونجون — عند مغادرة جيسي دولة هان ذاهبًا إلى تشو — أن يبلغ ملك وي ما مفاده: اعلم أنه ما دام جيسي مقيمًا لدى تشو، فإن دولة هان لن تستطيع أن تخالف لها أمرًا ولا أن تتمرد عليها، ولماذا لا تحاول أن تساند سمو الأمير «جيو» فتطالب له بمكانة الأمير (ولي العهد) ثم تُرسل إلى ملك تشو من يقول له: «إن دولة هان قد عينت الأمير «جيو» وليًّا للعهد، متجاوزةً بذلك تعيين جيسي؛ بما يعني أن جلالة الملك يحتفظ لديه برهينة لا قيمة لها، والأفضل أن يُسارع جلالته بإعادة جيسي إلى بلاده.» فإذا ما رجع إلى هان، فسوف يُبادر إلى الثأر من دولة وي — معتمدًا على قوة ونفوذ هان — ويشكر لجلالتك صنيعك معه وأفضالك الجمة عليه.»

لمَّا هرب جيسي إلى دولة تشو

هرب جيسي إلى دولة تشو، ولمَّا كانت هذه تستعد للوحدة. مع دولة تشين، فقد أنعمت عليه بمنصب رسمي بارز، فذهب إلى ميرونغ من قال له: «ليس سوى دولة تشو هي وحدها

التي تملك أن تفسد خطة قونشو، بينما تعمل على مساندة جيسي، (لكنه) قد فر هاربًا إليها، حيث ستتكرم عليه بمنصب رفيع المستوى إبان الوحدة مع دولة تشين، ولعله يوم يعود إلى هان تكون هذه الأخيرة قد صارت مجرد إقليم تابع لدولة تشو، والرأي (الذي أراه مناسبًا) هو أن تطلب إلى ملك تشين أن يتقدم بالتهنئة إلى «بوين» لتنصيبه أميرًا «وليًّا للعهد»، وإذا ما قدر لدولة هان أن تقطع علاقاتها الرسمية مع دولة تشو، فلا بد أنها ستسارع إلى الاعتراف بطاعة تشين، حيث ستحاول هذه مساعدتها للتقرب إلى وي، ولا بد أن البلدَين (تشي وتشو) سوف يقومان على خدمة أغراض تشين فيما بعد، وذلك — طبعًا — بعد ما تُلاقيان التدمير الشامل على يد تشين، باعتبار أن هذا هو النهج المعلوم في مشروع إنشاء إمبراطورية كبرى.»

لمَّا تكلم لنشيان مع أمير دولة هان

تحدث لنشيان إلى سمو الأمير «جيو» أمير دولة هان، فقال له: «بعدما هرب جيسي إلى تشو، فقد راح جلالة الحاكم، هناك، يفكر في إعادة تعيينه في وظيفة رسمية مرموقة حيث سيتولى إصدار الأوامر إلى أكثر من مائة ألف مقاتل في جيش تشو بالتمركز على مشارف منطقة «فان تشنغ» وكل ما أرجوه هو أن تدفع دولة تشو إلى الإسراع في إنشاء مدينة تتسع لعشرة آلاف نسمة إلى جوار إقليم «يونشي»، حيث ستخرج إليهم دولة هان بقواتها لتحول بينهم وبين ما يُزمعون عمله، ولا بد أنك ستكون قد تولَّيت أمر قيادة القوات، حينئذٍ، فما عليك إلا أن تساهم بقوات البلدَين هان وتشو في الوقوف إلى جانب إعادة جيسي إلى دولة هان، حيث سيشكر (هو نفسه) لك هذا الصنيع ويحمد لك تصرُّفك على هذا النحو، ولا بد أنه سيجعل لك زمام السلطة النافذة في كل من هان وتشو.»

لمَّا أوفدت دولة تشو مبعوثها إلى دولة

قامت دولة تشو بإيفاد مبعوثها «جينلي» [رئيس وزراء تشو] إلى دولة هان التي كانت قد أوشكت على إرسال «بوين» إلى دولة تشين، وهو ما كان يخشاه «جينلي»، فجاء إليه لنشيان، وقال له: «اعلم أنه بمجرد أن يصل سمو الأمير (بوين) إلى دولة تشين، فلا بد أنها ستقوم بتحديد إقامته، وتشرع في إقامة الوحدة مع دولة تشو، ليعملا معًا على إعادة جيسي إلى مكانته، وهكذا يخسر سموه موقعه (بوصفه «وليًّا للعهد»).»

لمَّا تم إقرار الأمير جيو وليًّا للعهد

تم إقرار الأمير جيو إلا أنه قُبيل التصديق على ذلك، تصادف أن أخاه الأصغر كان، وقتئذٍ، في دولة جو حيث أراد حاكمها أن يُرسل معه موكبًا شرفيًّا، يتكون من مائة عربة عسكرية لمُرافقته أثناء عودته إلى بلاده، لكنه كان يخشى أن يصل الموكب إلى دولة هان قبل أن يتم تنصيب الأمير جيو، ويبدو أنه تحدث في هذا الشأن مع كبير وزرائه «تشيمو هوي»، والذي قال له: «أرى من الأفضل أن ترسل معه مائة مثقال من الذهب وتراقب الأحوال جيدًا، حتى إذا تم تنصيب جيو بالفعل، فما عليك إلا أن تبلِّغه بأن تلك المثاقيل المائة مجرد منحة للقوات على سبيل سد النفقات؛ أما إن لم يكن قد تم تنصيبه، فأبلغه بأنها منحة لمقاومة التمرد.»

لمَّا ذهب مبعوث دولة هان إلى دولة

ذهب «شيجي» موفدًا من قبل دولة هان إلى دولة تشو، فلما مثل بين يدي ملك تشو، بادره الملك بسؤاله قائلًا: «هل تتبع طريقة ما أو مذهبًا من مذاهب السحرة أو المنجمين أو الأطباء؟» فأجابه شيجي، وقال: «نعم، فأنا واحد من مريدي الشيخ «ليتس إيقو» [أحد مواطني دولة جنغ، اشتهر في زمن الدول المتحاربة بأنه أحد حكماء المذهب الطاوي].» فسأله الملك ... «وما الذي تؤمن به (حسب ذلك المذهب)؟» فأجابه: «أومن بالاسم الصادق [«المدرسة الاسمية»، فيما يبدو].» فسأله الملك: «وهل ينفع الاسم الصادق في ضبط شئون الممالك؟» فلما رد عليه المبعوث بالإيجاب، سأله الملك ثانية: «من المعلوم أن دولة تشو تزخر باللصوص، فهل يعين هذا الاسم الصادق على مقاومتهم وتطهير البلاد منهم؟» فرد عليه الرجل بالتأكيد على صحة تلك النتيجة، فسأله الملك: «وكيف يمكن استخدام الاسم الصادق في مقاومة اللصوصية؟» فما هي إلا لحظة حتى سقط أحد طيور العقعق فوق سقف القصر، فقال شيجي: «هل لي أن أسأل جلالتك، ماذا تطلقون على هذا الطائر في بلادكم؟» فأجابه الملك: «نُسميه العقعق.» فسأله الرجل: «فهل يمكن أن نُسمِّيه الغراب؟» فلما رد الملك بالنفي، قال له شيجي: «إن لديك من كبار القادة والمراتب التنفيذية والإدارية العدد الجم [حرفيًّا: لديك من المراتب الاجتماعية: رتبة جوقو (عماد البلاد) ليني — صما (قائد الخيَّالة) ديانلي ...] وكل من يشغلون تلك المناصب من جملة الذين أقسموا على النزاهة والالتزام بالأنظمة والقوانين والمقدرة على القيام بأعباء الوظائف، ثم ها هي اللصوصية

تجتاح البلاد طولًا وعرضًا ولا أحد يستطيع أن يكبح جماحها، فهذا أمر عجاب يكاد يُشبه قولك إن الغراب يستحيل تسميتُه بالعقعق أو إنه من غير الممكن تسمية العقعق بالغراب!»

لمَّا تولى هانكوي منصب رئيس الوزراء

تولى هانكوي منصب رئيس الوزراء في دولة هان، كما تم تعيين «يان سوي» [تنطق كما في «السويد»] في منصب مرموق — حسب أوامر جلالة الملك — وكان كِلا الرجلين متباغضَين ومتحاسدَين. وأما بالنسبة لـ «يان سوي» فقد كان معروفًا بالعدل والاستقامة فيما يتعلق بالشئون الرسمية، فما كان يتردَّد في انتقاد هانكوي، علنًا، والتنديد بمسلكه دون مواربة، ومؤاخذًا إياه على تقصيره وأخطائه، فما كان من هذا إلا أن حنق عليه وزجره، وسبه سبًّا قبيحًا، وعندئذٍ أسرع يان سوي إلى سيفه فانتزعه من غمده، ووثب على غريمه يريد أن يقتله، لولا تدخُّل بعض الحاضرين فحالوا بين الرجلَين وصار يان سوي من وقتئذٍ، يخشى أن يغتاله خصمه، فهرب من دولة هان، وضرب في الآفاق متنقلًا من مكان إلى آخر على غير هدى، لكنه كان — في كل مكان يحل به — يبحث عمن ينتقم له من «هانكوي» فلما بلغ دولة تشي وجد فيها من كان يقول: «يوجد بأرض «جيدي» واحد من المُغامرين الأشقياء، ويدعَى «نيجن»، ولا يفارق جماعة من الأشقياء والسفاحين حيث يُقيم معهم ببطون المغارات لأن عليه دمًا وثأرًا وهناك من يترصد للفتك به.» فتتبع يان سوي أخباره وقصد إليه وتعرف عليه وصارت بينهما وشائج الصداقة والمودة، حتى سأله الشقي ذات مرة، قائلًا: «قل لي — بصراحة — في أي أمرٍ قصدتني، وماذا تريد أن أصنعه لك (بالضبط؟)» فأجابه: «إن الأيام والساعات التي أسعدني الحظ فيها بمرافقتك والقيام على خدمتك ليست بالكثيرة التي تسمح لي بأن أطلب منك شيئًا، خصوصًا أنه لم يعُد أمامي مُتسع من الوقت (كي أنتظر أي جدوى مما قد يعنُّ لي من المصالح!)» ثم إن سوي أعد مائدة الطعام، وصب كئوس الشراب، وناول قدح خمر لوالدة نيجن، وأعطاها كيسًا مقداره عشرة مثاقيل من الذهب [حرفيًّا: أعطاها وزنة «إي» من الذهب، وهو ما يساوي أربعة وعشرين «ليانغ»، أي ألف غرام (كيلو غرام) من الذهب] إكرامًا لها وتحية، فتعجب نيجن من سعة كرمه وسخاء هداياه وعزم على ألا يقبل منه شيئًا مهما زكت قيمته، بينما أصر يان سوي على قبول هديته، فرفضها نيجن، بأدبٍ جم، قائلًا له: «إن أُمي امرأة متقدمة في السن، وأسرتي بسيطة الحال، ولا أجد ما يسد الرمق إلا أن أجوب الطرقات بحثًا عن الكلاب لأقتلها؛ فهي حرفتي التي أقيم بها أودي، وقد أظل أعمل طوال الليل والنهار لأجد ما تتبلَّغ به الوالدة

العجوز، وفي الحق فأنا لا أستطيع أن أقبل عطاياك الكريمة!» وانتحى به جانبًا يان سوي — مبتعدًا عن جمهرة الجالسين — وقال له: «إن لي ثأرًا أسعى وراءه، ولطالما طُفت الممالك وجبت الأراضي والبلاد حتى قدمت إلى دولة تشي وسمعت عنك وعن شجاعتك وشهامتك، فأقبلت عليك بتلك المثاقيل من الذهب لا لشيءٍ إلا للمساهمة في نفقات الطعام والشراب في محاولة للتقرُّب إليك واستمالتك واسترضاء خاطرك، فكيف يمكن (بعد كل ما لاقيت من كرمك) أن أطالبك بالمزيد؟» فقال نيجن: «ما كنت لأتنازل عن الكثير من تطلعاتي (في حياة كريمة) وأُعرِّض نفسي للكثير من الإهانات، وأُضطر إلى العيش طريدًا في أعماق المغارات، إلا لكي أعول أمي، السيدة المُسِنة. وأعرف جيدًا أني لن أجعل حياتي رهينةً لشيء أبدًا ما دامت أمي على قيد الحياة (فقد جندت كل طاقتي لرعايتها).» وكلما ألح يان سوي في عرضه، أصر الطريد نيجن على رفض الهدية، وكان قد حان وقت انتهاء استضافة يان سوي في تلك الآونة.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وانقضى زمان بعد زمان، وماتت أم الشقي نيجن، وانتهت مراسم العزاء، وتوارت ملابس الحداد، وعندئذٍ تحدث نيجن، فقال: «يا ويلتي، لستُ إلا فقيرًا معدمًا يسكن أعماق كهف (للمطاريد)، ولا أجيد حرفة سوى قتل الدواب، أما يان سوي، فهو واحد من النبلاء وشيوخ الدويلات، وقد تكلف مشقة الترحال حتى التقى بي، وجاءني ينشد المودة والتعارف لكنِّي لم أبذل له التقدير الوافي، ولا قابلته بما يستحقه من الكرم والتفاني، ثم إنه عرض عليَّ هدية سخية، دون أن أبذل له المأثرة التي كان جديرًا بها، ثم إذا به يتقدم بمثاقيل الذهب هدية لوالدتي، وعلى الرغم من أني رفضت الهدية، فإنه ظل على حُسن الصلة بي والتفهم لأحوالي.

وما أظن أن رجلًا فاضلًا عفيفًا مثله قد تجشم مشقة السفر عبر المسافات الطوال ليتصل برجل بسيط، فقير مثلي، إلا لأمرٍ انطوى عليه صدره، من مراراتٍ وإحن وشجون (تتقاذف منها العين شرَر الغضب، وتغلي منها مراجل الغيظ في الصدور [هكذا، حرفيًّا)] فكيف لي أن أقعد عن نصرته، وأحجم عن التحرك لتفريج كربه لا سيما أنه قد رجاني كثير الرجاء، فيما مضى أن أُسدي له خدمات؟ فما منعني عن تلبية طلبه إلا ما أصاب أمي من ضعف السن والشيخوخة، أما وقد انقضى أجلها، فسوف أثأر لذلك الرجل الفاضل.»

ثم إنه قام واتجه غربًا صوب «يونانغ» فلما التقى بـ «يان سوي»، قال له: «ما منعني عن الاستجابة لطلبك فيما سلف، إلا القيام على خدمة والدتي المُحتضرة، أما وقد قضت نحبها، فقد جئت إليك مُذعنًا لطلبك ... فمن هو الرجل الذي تبغي أن تثأر منه؟» فحكى له يان سوي الحكاية من أولها إلى آخرها، قائلًا: «إن غريمي هو رئيس وزراء دولة هان (المدعو) هانكوي، وهو في الوقت نفسه، عم جلالة الملك، فهو ذو حسب ونسب وعزة في أهلة وحاشيته، وتُحيطه حراسة وافرة الجند، شديدة الحرص، وقد أوكلت به من ترصد لاغتياله، فلم تفلح المحاولة، ولحُسن حظي، فلم تشأ أنت أن تخذلني، فائذن لي بأن أجهز لك المؤن والعربات التي تحملك إليه، وأبعث معك المُرافقين الأشداء والأبطال الصناديد.»

وهنالك قال له نيجن: «إن المسافة بين دولتي هان، و«ويه» ليست بالبعيدة، وإذ نخرج لقتل رئيس وزراء (هو في الوقت نفسه، عم جلالة الملك) فليس من المقبول ولا من الممكن استصحاب الكثير من المرافِقين، فمع الكثرة تقع الهفوة ويزل اللسان، وإذا زل لسان ذاع السر، عندما تروج مثل هذه الأسرار، مُذاعة على كل لسان، فستخرج دولة هان كلها، صغيرًا وكبيرًا للثأر منك، أليس هذا من موارد التهلكة؟» ومن ثم فقد اعتذر الرجل عن قبول المُرافقين والخيول والعربات، وقام مودعًا فانطلق في طريقه، وقدِم على دولة هان لا يحمل إلا سيفه، حيث تصادف انغماس الناس في أجواء الاحتفالات الكبرى [التي أقيمت بمناسبة تبادل الأنشطة مع دول صديقة، وذلك في منطقة ...] «دونمن» وكان ملك هان ورئيس وزرائه هانكوي على رأس الحضور في تلك الاحتفالات وسط عدد وافر من الحراس القابضين على سيوفهم المشرعة، وإذا بـ «نيجن» ينطلق كأنه حربة مصوبة، فاخترق الصفوف وصعد المنصة وأعمل سيفه في جسد رئيس الوزراء الذي انتفض مذعورًا فاحتمى (بالماجد الكريم) «هاناي»، فتناوله نيجن بالسيف ولم يُخطئه وكان قد أصاب «هاناي» أيضًا، وضجَّ الحاضرون واضطرب الناس، ووقع فيهم الهرج والمرج، وزأر نيجن بصوته صارخًا بصوت كالرعد يشقُّ عنان السماء، وزاد عدد قتلاه تلك الليلة، عن العشرة أفراد، ثم إنه ضرب وجهه بسيفه فشاهت ملامحه، وفقأ عينَيه وبقر بطنه بنصل حسامه، فخرجت أمعاؤه، ومات من ساعته.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وكان أن عرضت جثة نيجن وهي شوهاء في الأسواق، وأعلن — في دولة هان — عن مكافأة قدرها ألف مثقال من الذهب لمن يتعرف على صاحب الجثة أو يذكر اسمه، فلمَّا عرفت أخته

بالأمر قالت: «كان أخي مثالًا للأخلاق الفاضلة وكريم السجايا والطباع الحسنة، ولا ينبغي أن أُخفي شخصيتي، أو أكتم عن الناس اسم بطل شجاع كريم مع إنه لم يكن يريد هذا وهو على قيد الحياة.» فذهبت إلى دولة هان، ونظرت إلى جثة نيجن وهي معلقة في السوق، وصاحت: «يا للروح النبيل! يا للبسالة والإقدام والشجاعة التي فاقت كل ذكر وتفوقت على كل مواريث البطولة منذ أيام «منغ بن» و«شياب» و«تشن جين» [أبطال أسطوريون]! ها قد مات أخي دون أن يخلد اسمه، ومات أبواي دون أن يتركا لي سندًا آخر، ولئن كان أخي قد تعمَّد تشويه جسده قبل موته، فلأنه كان حريصًا على ألا يتطرق لي الأذى بعده أو يمسَّني أحد بسوء، ولن يهدأ لي بال طالما كتمت نبأه عن الناس وأخفيت اسم بطل مجيد مثله.» ثم إنها احتضنت جثة أخيها والدمع يتصبَّب من عينيها وهي تقول: «هو ذا أخي الطريد المُقيم بكهف جيدى.» ثم إنها قتلت نفسها بجوار جثة أخيها.

وصارت الناس في كل من دولة جين، وتشو، وتشي، وويه وغيرها من البلاد يقولون: «لم يكن نيجن وحده هو البطل في هذه السيرة، بل كانت أخته أيضًا، فتاة ذات إرادة فولاذية وشجاعة نادرة!»

وما كان يمكن أن يخلد اسم نيجن وتتناقله الأجيال اللاحقة إلا لِما أبدته أخته من جسارة في مواجهة التهديد بتقطيع أوصالها، فما تردَّدت أن تلقى في سبيل تخليد ذكره أفظع مصير.

سجل هان الثالث

لمَّا ذهب إلى قون جون من قال

ذهب إلى قون جون — بدولة هان — من قال له: «على الرغم مما يميز التوءمين من التشابُه الشديد في الملامح، فليس سوى الأبوَين، وحدهما، يقدران على التمييز بين أولادهما، وعلى الرغم مما يقع من الخلط بين الخير والشر؛ فليس سوى الذكي الفطِن، دون غيره، هو الذي يستطيع أن يدرك الحدود الفاصلة بينهما. وها هي ذي بلادك في مواجهة المغنم والمغرم اللذين يتشابهان كالتوائم فلا تجد سبيلًا إلى التمييز بينهما ... إلا أن ...) تضبط شئون البلاد بسياسة صائبة، فتعرف البلاد قدر مليكك، وتستقر بك الأحوال، فإذا أفلت من يدك زمام السياسة الرشيدة رذلت مكانة أمير البلاد، وتطرق إليك نذير الخطر وقد كادت الوحدة بين وي وتشين أن تتم فصولها بنجاح تام، وهي وحدة تقوم (في غياب دورك ودور بلادك) فلا بد من أن هان ستعاني أسوأ نتائجها وتلقى مغبة ما تدبره لها تلكم الدولتان. فإذا ما اقتفت دولة هان آثار وي في التقرب إلى تشين، فلن تزيد عن أن تتحول إلى بلد تابع لدولة وي فترذل مكانتها وتسقط هيبتها من كل عين، وتتردى مكانة مليكها وسط الأمم، أما إذا كانت تشين هي التي أقامت الوحدة مع هان، فلا بد أنها كانت ستعمل على تعيين من تثق فيهم وتتقرب إليهم من المسئولين، فترتب لهم المواقع التي يتحكمون من خلالها في إدارة شئون دولة هان، ضمانًا لمصالحها الكاملة وهذا — بحد ذاته — هو عين الخطر.

وها أنت، اليوم، مشغول، مع (المدعو) «آنشن» بإنجاز الوحدة بين تشين ووي، وربما كان من المصادفات الغريبة أن تكون هذه الوحدة قد تحققت على يديك، وبفضل مجهودك فتصبح دولة هان بوابة مرور بين وي وتشين فتحظى بقدر هائل من الأهمية، ويلقى

حاكمها كل تقدير واحترام، وهنالك يجد آنشن [أحد نبلاء دولة هان] حظوة لدى ملك هان (من بعض الجوانب، إلا أنه في البعض الآخر منها ...) فسيكون موضع ثقة جلالته، على نحو مطلق، فيسند إليه [مهمة القيام على تحصيل بنود الاتفاق على الجهة اليمنى (هكذا) ... وهي الوثائق التي تُعطيه الحق في تحصيل الديون المستحقَّة على أطراف خارجية حيث كانت الاتفاقات، قديمًا تُحرر على جانبي وثيقة واحدة، ثم تقسم بعد ذلك إلى جانب أيمن وأيسر، فتتم المطالبة بالتسديد بأحد الجانبين بمقابلته بالآخر ...] التوجُّه إلى وي وتشين للمطالبة بالوفاء بالتزاماتها، حتى إذا تم تقسيم الأراضي — في المستقبل — إلى إيالات وإمارات متفرقة كان الإشراف على تلك المهمة من نصيبك.

أما بالنسبة لمحاولة إقرار واستتباب أوضاع السلم والاستقرار بين وي وهان فهذا أمر تملك أنت زمامه بيدك، مثلما تملك أن تضمن لنفسك البقاء رئيسًا للوزراء مدى الحياة (وهو أقل ما تستطيعه) فتضمن لمليكك الإجلال والتعظيم، ولنفسك الهناء والسكينة. ثم إنه من المستحيل أن تدوم الثقة بين وي، وتشين، ولا بد من أن دولة تشي ستشعر بالغضب لعدم اشتراكها في الوحدة مع تشين، وبالتالي فستحاول الاقتراب من دولة هان، بينما تقطع علاقاتها مع وي. مع العلم أن هذه الأخيرة لن تسمح لنفسها بأن تكون تحت السيطرة التامة لدولة تشين، بل ستحاول الاقتراب من هان لمدافعة تسلط تشين. وهكذا فستجد نفسك مطالبًا بمعالجة علاقة هان بباقي الدول على نحو يراعي مختلف الاختيارات والتقديرات، وكأنك حائك يفصِّل أثوابًا رقيقة تتطلب منه الدقة والبراعة، وعندما تقوم الوحدة بين وي، وتشين، فسيتقدمان إليك بآيات الشكر والعرفان، أما إذا تعذر قيام الوحدة بينهما فسيسعيان كلاهما للاقتراب منك والاعتراف بمكانة (بلادك). فذلك هو ما أعنيه بقولي لك إن نجاحك في إتمام هذا الأمر مُبشر بالخير، كما إن إخفاقك فيه واعد بأطيب المُنى، فامض بكل عزم وثقة.»

لمَّا ذهب إلى قون جون من قال له

ذهب إلى قون جون من قال له: «أمامك الآن طريقة تضمن تمام الإخلاص والتفاني لجلالة الملك، وتحقق النفع للبلاد، وتعود عليك بالفائدة، فاهتدِ بها واتخذها خطتك التي تسترشد بها في عملك. وإذا افترضنا أن الدويلات والإمارات هرعت تجاه دولة تشين واحدة تلوَ الأخرى، تركع عند أعتابها معترفة بسلطانها وطاعتها، فلن تلقى دولة هان إلا أحقر منزلة بين الممالك؛ أما إذا اتحدت تلك الإمارات فيما بينها مُتمردة على هيمنة تشين، فستكون هان

هي أضعف الجميع، وإذا تصورنا إمكان قيام التحالف بين الدويلات ودولة تشين بصورة متهافتة، على غير أساس مكين ونظام متين، فستكون دولة هان هي الأكثر تعرضًا لنُذر الخطر، وهو ما يُمثل أفدح العواقب التي يمكن أن تتهدَّد نظامًا في إدارة سياسات البلاد وأسلوبًا في تصريف شئون البشر، فإذا بادرت دولة هان منذ اللحظة، إلى التحالف مع تشين فستتبعها الممالك، حيث ستتزعمهم جميعًا في الاعتراف بسيادة تشين، وهو ما ستذكره لها بكل العرفان، حيث إن تشين ستخصُّ دولة هان وحدها، بأعمق مشاعر الامتنان، بفضل ما ستكون قد اتبعته، في ذلك السبيل من سياسات وخطط، مما يُحسب لك في باب الإخلاص والتفاني في خدمة مولاك الملك.

أما إذا أحجمت باقي الإمارات عن السير على دربك في الاتحاد مع تشين التي لن تجد من يصغي إلى أوامرها، ويسترشد بتوجيهاتها، فلا بد أنها ستشن غاراتها على العصاة والخارجين، وإذ تدور رحى الحرب بين تشين وباقي الممالك، وتتحرك الضغائن والعداوات، فيمكنك أن تنتهز الفرصة لتطوير مستوى قدراتك القتالية وتحسين أحوال جنودك، وما يتطلع إليه شعبك من فُرَصٍ طيبة للترقي، فتسلك من الخطط ما تجني به أطيب ثمرات النفع العميم لبلادك.

وكان جوجياو [الوزير الأعظم لدولة جو الغربية] قد شرع في الاقتراب من دولة تشين — فيما مضى من تواريخ الزمان — فكافأته بإقطاع في إقليم «قنيان» [أرض كانت تتبع دولة جاو، لكنها إبان ذلك العهد صارت تحت تشين] في حين قام جوتشي [وزير أعظم بدولة جو الشرقية] بالتحالف مع تشين، فأقطعته أرضًا في «بينيوان».

فإذا عملت على تقريب الصلة بين دولة هان، وتشين فسوف تتجاوز أهمية موقع بلادك — بكل الحسابات — ما كانت تتمتع به كلتا الدولتَين جو الشرقية والغربية، كما أن رغبة تشين في إقامة علاقات متينة مع هان أقوى مائة ألف مرة مما كانت تتطلع إليه من مصادقة الدولتَين المذكورتَين آنفًا.

ولئن استطعتَ أن تقيم أواصر التحالف — على مرأى ومسمع من كل الدويلات والممالك — بين هان وتشين، فلا بد من أن هذه ستعمل على ترقيتك إلى درجة الأمير (الوالي فوق إمارة) فدونك الخطة، بكل ما وراءها من مغانم، فامض في العمل بها قدمًا، بعزم وجد وتصميم.»

لمَّا قام «هانمين» بالهجوم على دولة يان

قام «هانمين» [في إحدى القراءات — حسب هامش المُحققين — يمكن ترجمتها إلى: «قام أهالي دولة هان»] بالهجوم على دولة «سونغ» (دفاعًا عن دولة تشي) مما أثار غضب ملك تشين، ودفعه إلى القول بما نصه: «إنني أعتز كثيرًا بدولة سونغ وأعدها مثل «شين تشنغ» أو «يانجين»، ولا أدري ما الذي دفع هانمين [أو أهل دولة هان!] — وهم الذين تربطني بهم علاقات رسمية — إلى مهاجمة أرض حبيبة إلى نفسي، عزيزة إلى قلبي؟» وذهب سوتشين إلى لقاء ملك تشين (ليشرح له الموقف — حسب وجهة نظر دولة تشي) وقال لجلالته: «ما كان لـ هانمين أن يضرب دولة سونغ إلا لأنه يضع مصلحة بلادك في الاعتبار، وعندما يتزايد رصيد دولة تشي من القوة، ويضاف إلى هذا الرصيد ما يمكن أن تقدمه دولة سونغ من دعم، فسوف يقع الرعب في قلب دولتي وي وتشو. وهنالك فسوف تضطران إلى التحرك غربًا والمجيء إلى بلاطك والاعتراف بسيادتك وسلطانك دون أن تفقد جنديًّا من قواتك في قتال أو تضرب عنق مقاتل (من جيش أعدائك)، بل تستطيع أن تقتطع أرض «آني» دون أن تخوض أية معركة؛ ذلك هو ما يتمنى هانمين أن يسترضيك به، ويُقدمه لأجل مصلحة بلادك.» فرد عليه ملك تشين بقوله: «إن ما أثار قلقي — في المقام الأول — هو صدور بعض التحركات عن دولة تشي، دون إمكانية التنبؤ باتجاهاتها وحساب تقديراتها مسبقًا فهي أحيانًا تتحالف مع المحور الرأسي، وأحيانًا أخرى تنضم إلى دول التحالف الأفقي، فما قولك في هذا؟» فأجابه سوتشين: «إن موقف الدويلات والممالك — بحد ذاته — يجعل من أمر دولة تشي، مسألة مفهومة للغاية، وبأيسر وسيلة.

قد أصبح احتلال تشي لدولة سونغ في حكم الأمر المقرر، فإذا جاءوا إلى الغرب للاعتراف بسيادة وهيمنة دولة تشين فسوف يجدون السند والدعم الكافي منها وهي البلد الذي يملك عشرة آلاف مركبة عسكرية، فإذا لم يأتِ منهم أحد إلى دولة تشين طلبًا لنصرتها واعترافًا بطاعتها، فلن تعرف دولة سونغ معنى للراحة والهناء والاستقرار.

إن خبراء التخطيط (ودعاة المذاهب السياسية من عجائز الدهاة ذوي الشعر الأشيب) المُقيمين بالمنطقة الوسطى، يبذلون كل جهدهم لبذر الفتنة والبغضاء بين دولتي تشين وتشي لقطع العلاقات بينهما. وكل أولئك الخطباء من أنصار الاتجاهات السياسية المُختلفة، الذين انحنت ظهورهم وهم يجرُّون العربات في طريقهم إلى الغرب، لم يُقرروا ضرورة التقرب إلى دولة تشي، وهناك البعض الآخر من أولئك الدعاة الذاهبين تجاه الشرق، الذين لم يُصرحوا قط بضرورة الانضواء تحت لواء دولة تشين. وكلهم يُعارضون، وبشدة، الوحدة

بين تشي وتشين، لماذا؟ لأن هذا دليل على حدة ذكاء دولتي وي وتشو، أما تشين وتشي، فبلدان على قدرٍ وافر من الحماقة والغباء.

وإذا قامت الوحدة بين وي وتشو، فلا بد أنهما سيعملان على مُراقبة تحركات كلٍّ من تشي وتشين، وإذا تحالفت هاتان الدولتان الأخيرتان فستدبران المكايد ضد وي وتشو؛ ولذلك كله، فإني أرجو من جلالتك أن تحسم أمرك بصدد هجوم هانمين على دولة «سونغ».» فوافقه الملك على مقالته.

لمَّا ذهب إلى ملك هان من تكلم معه

ذهب إلى ملك هان من قال لجلالته: «إن ملك تشين يفكر في تجريد حملة عسكرية ضد دولة وي للاستيلاء على أرض «جيانغ» و«آني» فما هي خطة دولة هان (لمواجهة ذلك الهجوم)؟ ثم إن ملك تشين يتحرق شوقًا لمهاجمة دولة هان واحتلالها حيث يتفرغ لمتابعة ومراقبة تحركات دولة «جو». ولطالما راوده ذلك الأمل طويلًا، فلم يتوقف عن تأمله إلا أثناء النوم تقريبًا، فإذا لم تدرك دولة هان تلك الأحوال، وانشغلت بإقامة علاقات دبلوماسية مع دولة تشين، فستصل بها الأمور إلى أن تفيق ذات يوم على كارثة تدهمها وتباغت الدول الست الواقعة شرق جبال «شياو» ... ولئن كانت تشين تفكر في احتلال وي؛ فلأنها تتطلع إلى أن تتمكن من الاقتراب بقواتها من دولة هان، وإذ تخشى ألا تنصت دولة وي إلى خطتها فهي تتحين الفرص للإيقاع بها في الكثير من المآزق بحيث لا تجد فكاكًا من الالتحام بزمرة تحالفاتها معها، فإذا أهملت يا مولاي النظر بعين التدقيق والتأمل في هذا الأمر، وانشغلت بالحفاظ على موقع الحياد، فسوف تُثير ضدك غضب دولة هان التي ستتأثر بعدم مساعدتك لها، فتضطر إلى أن تذعن لدولة تشين، وهو ما سيؤدي ببلادك (هان) إلى الاندحار تحت هجوم (تشين) فلا بد من أن تراجع موقفك بدقة وحذر. وليس أفضل من أن تسارع إلى إيفاد أهم رسلك إلى دولتي وي وجاو، للاتفاق مجددًا، حول التحالف الأخوي والوقوف معًا صفًّا واحدًا على أن ترسل كل دولة من الدويلات الست الواقعة شرقي جبل شياو قوات جيدة التسليح لحماية أمن وسلامة دولة هان والدفاع عن الحدود الغربية لدولة وي، وإلا فإن المصير الذي ينتظر تلك الدويلات أبشع مما يتوقع أحد، فالكارثة قادمة ولا نجدة، والمصير داهم ولا أمل. فمثل هذا الطراز من الخطط يترك وراءه آثارًا بعيدة المدى، وتطال العدد الجم من أهالي الممالك.

وملك تشين، برغبته في ضم الدويلات، والقيام على رأس الممالك [إعلان الإمبراطورية ... يعني] لا يختلف في شيء عن الجبابرة القدامى ولا حيلة في ذلك، حتى لو وقفت الممالك منه موقف الابن المطيع لرب الأسرة، فلن يشفع لها ذلك من الوقوع في هاوية التهلكة، وحتى لو تذرعت — يا مولاي — بأخلاق ومسلك «بوييى» [بطل من العصور القديمة] فلن تنجو من التهلكة، مثلما سيلقى المصير ذاته أولئك الذين يتصرفون مثل الطغاة القدامى (أمثال الطاغيتين «جيه» (آل شيا) و«تشو» (آل شانغ)، إن محاولة الاعتراف لدولة تشين بالطاعة والسيادة — في هذه الظروف — لا يعود على المرء بأدنى فائدة. حيث إنها لا تدع للحي أن يتنسم الحياة طويلًا، بل تدفعه إلى حافة الفناء بأسرع مما يتوقع. فإذا لم تستطع الدويلات الست الكائنة شرقي جبل شياو التجمع والانضمام تحت لواء التحالف الرأسي والاتحاد والمصافاة قلبًا ويدًا واحدة بروح وإرادة تحفظ الميثاق وترعى العهد، فمصيرها الهلاك.»

لمَّا ذهب إلى ملك جنغ من قال له

ذهب إلى «هانلي» [ملك جنغ] من قال له: «كان النبيل «شاوليهو» عاقلًا فطنًا ذا حلم وحكمة وكذلك كان «شن بوهاي» فاضلًا كريم الخلق.

إن دولتي هان ووي متساويتان في القوة، وعندما حمل «شاوليهو» و«شن بوهاي» بأيديهما الهدايا الثمينة [حرفيًّا: اليشب الكريم] وذهبا لمقابلة ملك وي، لم يكونا من الراغبين في انتهاج مسلك يجلب عليهما الصَّغار والحط من شأنهما، ولا كانا من الجاهلين بشئون التخطيط ولا من الذين أساءوا التقدير والتعرُّف على أحوال الممالك. وقد قال شن بوهاي — في معرض وصفه للوقائع (والخطط الموضوعة لها): «إن سفرنا إلى ملك وي والدخول إليه لمقابلته ونحن نحمل إليه الهدايا الثمينة سيجعله مُمتنًّا لدولة هان واثقًا من حسن اعترافها بسيادته واعتبارها لمكانته، ولا بد أنه سيخرج لقتال الدويلات (يريد منها جميعًا الخضوع والإذعان) فسيستهلك طاقة بلاده ويستنزف قواها، فتذبل وتصير إلى الضعف والانكسار، ثم تتحوَّل الدول بآمالها صوب دولة هان، وتتحول عن تشين مخذولة خائبة الرجاء. وهكذا، فلئن كنت (أنا ومرافقي) سنمثل أمام جلالته ونركع عند أعتابه، ونُطأطئ الرأس لديه، فلسوف نشمخ — فيما بعد — بأنوفنا ونرتفع فوق الجميع. إن استنزاف طاقة دولة «وي» وقوتها، لدعم مهابة دولة «هان» ونفوذها، لن يتحقق بكل فاعليته ولن يؤتي ثماره إلا بتلك الزيارة إلى بلاط دولة وي.»

إن (النبيل) «شاولي» رجل يتسم بالفطنة ورجاحة العقل، فلا تبلغ مسامعه حكمة أو رأي سديد إلا عمل به، فكذلك اقترنت لديه الأفكار بتطبيقاتها؛ أما (الماجد) شن بوهاي فرجل موفور الإخلاص دقيق الملاحظة لا يتكلم برأي أو يقطع بحكم إلا بعد طول تأمل وروية!

إن دولة هان، في هذه الساعة، أضعف كثيرًا مما مضى، أما تشين فأكثر عدة وعتادًا، وأشد بأسًا عن ذي قبل، كما أن ملك تشين تحدوه أطماع وتطلعات (أكثر) مما لدى ملك وي، ومع ذلك فلم يبادر الملك ولا الوزراء إلى أي نوع من مظاهر أو أنشطة الاحتفاء بدولة تشين وتبجيل مكانتها وقدرها. (وذلك — بالطبع — من أجل استقرار الأحوال في هان) وفي رأيي الشخصي، فإن جلالتك لم تظهر من الحكمة والبصيرة مثل ما لدى (الماجد النبيل) شاولي؛ ولا أبدى وزراؤك من الإخلاص والعزم والتفاني مثل ما تحلى به شن بوهاي، وصار له سمة وخصلة بارزة.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

كان (النبيل) تشين مو — فيما مضى من وقائع الزمان — قد عاد ظافرًا منتصرًا في موقعة هانيوان، فانعقد له لواء الهيمنة فوق المنطقة الغربية، كذلك استطاع (الماجد) «جين أونقون»[أحد الأباطرة الخمسة الذين اشتهروا في زمن الربيع والخريف (٧٧٠–٤٧٦ ق.م.)]، أن يحرز نصرًا حاسمًا في موقعة «تشن بو» وأن ينشر السلام في ربوع الممالك، ويبني صرح مجده الباقي منذ ذلك الحين، فتحققت له الشهرة الذائعة في كل مكان.

وفي زماننا الحالي، تحققت لدولة تشين على مر أجيال، مراتب من القوة والمنعة والازدهار، وانتصاراتها المتوالية أكثر من أن تحصى، كما أن معاركها المظفرة تملأ سجلات بالفخَار، (ومع ذلك) فلا هي بلغت ذُرى الإمبراطورية (بانتصاراتها في حروبها) ولا هي سادت بالهيمنة، (بفضل معاركها المجيدة) ولا استطاعت أن تُنشئ لنفسها اسمًا محوطًا بالبهاء والجاه العريض والشرف التليد، بل إن القانون الذي سنَّته واللوائح التي شرَّعتها، لم تلق الاحترام والإجلال والانتشار، ثم إنها انشغلت على مدار سنوات بإشعال فتيل الحروب التي تهدف إلى توطيد ركائز الاحترام لمكانتها، لمد آفاق شهرتها في أقصى أنحاء الممالك.

وطالما دخل الملوك القدامى حومة القتال وانطلقوا إلى الغزو، إما سعيًا للشهرة، أو تحقيقًا للمصالح والمكاسب؛ وكان الساعي إلى الشهرة والنفوذ العريض، يسعى إلى تحطيم إرادة خصومه، والباحث عن المنافع يسلب الأرض وينهب أموال الناس.

وكانت دولة «أو» — قديمًا — قد اشتبكت في قتال مع دولة «يوي» التي لاقت شر هزيمة حتى اضطر أهلها إلى التقهقر لائذين بخطوطهم الدفاعية لدى جبل «كوايجي»، فلما دخلت قوات «أو» أرض «يوي» صارت تمر على بيوت الأهالي في محاولةٍ لطمأنة الناس، وأرسل ملك يوي، أحد كبار رجال الدولة (المُلقب بـ «أونجون») إلى بلاط «أو» طالبًا المصالحة مقابل اتخاذ الذكور عبيدًا والإناث خادمات ومَحظيات، بل إنه سار في معية الوفد حاملًا معه قفص طيور وحشية ليُهديه إلى البلاط الملكي [كما تُقرر الأعراف والأصول الملكية المتبعة] وكان جلالته يمشي خلف المسئولين التنفيذيين والمديرين. وبالطبع فقد صدَّق أهل دولة «أو» مزاعمهم إزاء طلب المصالحة، فبذلوا لهم ما أرادوا، دون أن يوقعوا ميثاقًا ولا معاهدة بهذا المعنى؛ وذلك بهدف تحطيم إرادتهم وكسر شوكتهم. ثم ما لبثت الحرب أن قامت (ثانية) بين «أو» و«يوي» وكانت الكسرة (هذه المرة) على دولة «أو» التي عرضت أن تتخذ ذكورها عبيدًا وإناثها سبايا. بعد أن انقلبت الحال، وصار أهل يوي تحت الأسر خدمًا وعبيدًا لدى أهالي «أو» وبرغم ذلك فلم يُلتفت إلى طلبهم، وصُمَّت الآذان دون قبول توسُّلاتهم، فبادت دولة «أو» وصارت من الهالكين ولم يقُم لها ذِكر، وانطوت صفحتها إلى الأبد. وعندما تم أسر (مسئول كبير مثل ...) «فوتشاي» فقد كان الهدف من ذلك الاستيلاء على الأرض، ونهب الثروات وتبديد ممتلكات الناس.

فهل تفكر حقًّا في أن تفتَّ في عضد دولة تشين، وتحطم إرادتها؟ (إذا كان الأمر كذلك ...) فلا بد من أن تتخذ من مسلك دولة «أو» نموذجًا، ولا أدري إن كنت تريد أن تحتل أرض تشين، وتسلب أموال أهلها؟ ولئن كان ذلك مطلبك، ينبغي إذن أن تقتدي بأسلوب دولة يوي، فإذا كنت في استيلائك على الأرض والأموال أدنى مما فعلته دولة يوى؛ وفي تحطيم العزائم أقل كثيرًا مما استطاعته دولة «أو»، في حين ترتفع صيحات كل الناس في بلدك من الأمراء والنبلاء، والعامة والدهماء والأغنياء والفقراء مُطالبين بأن ترتفع بلادهم إلى مصاف الإمبراطوريات العظمى، ويترقى ملوكهم في مراتب السلاطين العظام والجبابرة، فلست أرى — في رأيي المتواضع — إلا أنه أمر شبيه بحكاية الرجل الذي انزلق في بئرٍ عميقة، فأحاطت به الظلمة وارتبكت أحواله، ومع ذلك فقد ظل يصيح بأعلى صوته قائلًا إنه بخير وعافية وإنه ساعٍ ليخرج بجذوة من النار!»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

«كان «نيجن» و«يانجيان» [كان مساعدًا لـ «نيجن» في هجومه على رئيس وزراء «هان هانكوي» في حادث الاغتيال المذكور سابقًا] قد قاما باغتيال رئيس وزراء دولة هان أثناء

انعقاد مؤتمر التحالُف بين الدويلات.» كما أصابا (النبيل) «آيهو»، وكان «شيوي» [أحد مواطني دولة هان] قد ركله بقدمه، فتظاهر بالموت، وكان أن تم تنصيبه فيما بعد أميرًا على دولة هان، فقامت وراءه صفوف المؤيدين له، وكان الفريق الأعظم من الناس موالين لسياسته راغبين في حُكمه؛ لأنه كان قدوةً يحتذى بها. فصارت له المكانة التي ارتقى إليها فوق عرش البلاد، وظل شيوي [الذي ساعده على التظاهر بالموت] يعمل معه، رئيسًا لوزرائه طوال حياته ودانت له الأعناق بالاحترام مثلما خضعت لمليكهم «آيهو» ببالغ التقدير، ومع ذلك فلم يَرْقَ إلى الدرجة التي يُصبح فيها «ملك دولة هان» (وهو الذي بقي طوال عمره في منصب رئيس الوزراء، وهو أمر جيد على كل حال ثم إننا — نحن أيضًا — لم نبلغ هذه الدرجة ولا المنصب، أفليس هذا راجعًا إلى تهافت خططنا وما شابها من أخطاء؟

كان الوالي «هوان» — القائم على أمر دولة تشي، فيما مضى — قد عقد عدة اجتماعات للأمراء والولاة ملتزمًا في ذلك بأوامر جلالة الملك شيانغ (حاكم دولة جو)، وعلى الرغم من حرصه على اتباع تلك الأوامر الصادرة عن (حاكم دولة أخرى ... وهو) ملك دولة جو، فقد استطاع أن يُرسِّخ مكانته ويوطِّد مهابته بوصفه «إمبراطورًا» فوق الممالك. وكان الجميع حريصين، في كل الاجتماعات التي عقدت مع الولاة والأمراء، على بذْل الاحترام والطاعة لأمير دولة تشي (الوالي «هوا») تمامًا — بنفس الدرجة التي نظروا بها إلى مكانة الملك شيانغ وعظيم قدره وسلطانه. وهو ما يعجز عنه أمراء وملوك هذا الزمان، برغم استطاعتنا التامَّة أن ننهج المسلك نفسه الذي انتهجه «الوالي هوان» إلا إننا نتقاعس عن ذلك، بل نعجز عنه، أفليس العجز نابعًا من خُططنا ودليلًا على ما يعتورها من أخطاء ونقائص، وأننا لا نعي كيفية تقدير تلك النماذج العظيمة واحترامها؟

كان أهالي دولة هان بعددهم البالغ عشرات الألوف قد أيَّدوا «آيهو» ومنحوه مساندتهم وثقتهم ليكون ملكًا عليهم، ومع ذلك فلم يكن سوى «شيوي» وحده، هو الذي وصل إلى منصب رئيس الوزراء، وليس هناك سبب آخر يُفسر ذلك (سوى ما ذكرته لك آنفًا)؛ ثم إن الكثير من الولاة وأمراء الدويلات لم يتوانوا عن التفاني في خدمة ملك جو، ومع ذلك، فليس سوى الوالي «هوان» أمير دولة تشي وحدَه هو الذي وصل إلى مصافِّ الحكم الإمبراطوري، ولا سبب آخر يفسر ما حدث (سوى ما شرحته لك منذ قليل).

وها هي ذي دولة تشين تسعى بكل جهدها في سبيل إنجاز مآثر عظمى تؤسس بها عرش إمبراطورية عظمى، أفليس من حُسن التخطيط أن تتقدَّم خطاك الخُطى، وتسلك

منهج «الوالي هوان»، و«رئيس الوزراء شيوي (في مثل هذه الأحوال)؟ ولا بد — أولًا وقبل كل شيء — أن نحتفظ بمعاملة حسنة وتقدير جيد مع دولة قوية (مثل تشين) لأنها عندما ترفع ملكها فوق مصاف العروش العظمى، فسوف تتمكن (بفضل علاقتنا معها) من أن تبلغ آفاق الإمبراطورية، (والعكس صحيح جزئيًّا ...) فإذا عجزت الدولة القوية عن أن تنهض بمكانة السيادة، (فعلى الأقل ...) يُمكننا أن نتجنَّب صولتها علينا، فتزورُّ عنا نيران هجومها، وعلى الرغم من ذلك، فإذا ما سارت سياسات الدولة القوية نحو أهدافها بنجاح، فسيُمكننا أن نحتلَّ مكانة فائقة ونبلغ ذُرى الهيمنة. أما إذا لم تبلغ الدولة القوية أهدافها، فستظل تذكر لنا مواقفنا بوافر الامتنان. فإذا ما صادقنا دولة تشين القوية الجبارة، فسوف تتحقق المنجزات الكبرى، ويصير لك المُستقبل الواعد، والأيام الهانئة، أما إذا لم يتحقق شيء مما كان مأمولًا، فستأمن شر العاقبة وأذيال المخاطر. وما دام الأمر كذلك، فامض إلى ترسيخ أواصر الصداقة. مع تلك الدولة القوية. فهذه هي خطة الحكماء والقديسين.»

لمَّا قاد هانيان الجيش واشتبك في قتال

قاد هانيان [من دولة هان] الجيش، ودخل «صوتشيان» [من هان] إلى مقابلة ملك هان ليكلِّمه في أمر القائد «هانيان»، مدافعًا عنه وداعمًا لموقفه في العودة للبلاد، وقال لجلالته: «قد خضعت منطقة سانشوان بالكامل، فهل لدى جلالتك علم بذلك؟ (وقد بلغني) أن المُجندين وقادة الفصائل يريدون أن يُنصِّبوا قائدهم المظفر (هانيان) أميرًا على البلاد.» وهنالك قام ملك هان باستدعاء النبلاء والأشراف المُجندين، ومطالبًا إياهم بسرعة العودة إلى الوطن.

لمَّا كانت دولة تشين واحدة من

دولة تشين واحدة من الدول الكبرى، بينما تدخل دولة هان في عِداد الدول الضعيفة الصغرى، وقد تناءت بسياساتها بعيدًا جدًّا عن دولة تشين، غير أنها كانت تجتهد بشتى الوسائل لأن تظهر (عكس ذلك) لدولة تشين، بمعنى أنها كانت تتظاهر بأنها تتقرب إليها وتنضوي تحت لوائها، وهو المسلك ... الذي جعلها تتدبر الوسائل الكثيرة لتأكيد ذلك، فوجدت أنه لا مفر من أن تتوسل لهذا الهدف ببذل الكثير من المال، فما كان منها إلا أن قررت أن تبيع بناتها الحِسان رقيقًا في الأسواق، وكان ثمن الفتيات ذوات الحسن الخلَّاب

أغلى الأثمان، بالدرجة التي يعجز معها، حتى الولاة وأمراء الدويلات عن اقتنائهن؛ لذلك قررت دولة تشين إنفاق ثلاثة آلاف مثقال من الذهب لشرائهن؛ فصارت دولة هان تبذل — في خدمة تشين والاعتراف بطاعتها — ما سبق أن حصلته منها من المال، بينما حصلت تشين على الاثنين معًا «الفتيات الحِسان» و«الذهب والمال» وهنالك قالت الفتيات لملك تشين ما نصه: «إن هان تتناءى كثيرًا عن تشين.» مما يعني أن دولة هان لم تخسر المال والفتيات ربَّات الحسن فقط، بل إن سياستها في الانزواء عن تشين صارت واضحة للعيان، وعندئذٍ ذهب أحد الغرباء إلى ملك هان ونصح له، قائلًا: «أرى أن تتوقف فورًا عن هذا المسلك غير الأخلاقي؛ ذلك أن بيع الفتيات لقاء الحصول على الذهب، ثم التوسُّل لاسترضاء تشين بما حصلته من الأموال، سيؤدي إلى تبديد كل ما لديك من خزائن الذهب، في حين تتضح للجميع سياستك القائمة على التباعُد عن دولة تشين. (واعلم) أن الفاتنات من النساء، هن أكثر من يُدركن الأسرار والخفايا؛ لذلك لا يليق بمن مهروا في شئون التخطيط أن يدعوا الأسرار والخفايا تذاع وتنتشر على هذا النحو [حرفيًّا: لا ينبغي لهم أن يجعلوا بواطن الخفاء تتسرب إلى واجهة العلن].»

لمَّا تحالف كبير وزراء تشي مع دولة

أقام جانشو [كبير وزراء دولة تشي] تحالفًا بين تشي وتشو للتصالح مع دولة وي، وكان أن التقى بـ «قونجون»، وقال له: «إن هجومك المباغت على مدينة «يون» [من أعمال وي] ترك آثاره الفادحة على دولة وي، وهز أحوالها بعنف، ولا بد أنها ستُضطر إلى التنازل عن الأراضي لدولتي تشي وتشو، طلبًا للمصالحة؛ لذلك فالأفضل ألا تُهاجمها عندما تتحسَّن أحوالها، فلا بد أنها ستشعل فتيل الحرب مع تشي وتشو؛ فإذا تحقق لها النصر، انتهزتم فرصة ما أصاب قواتها من إنهاك، فهاجمتم بلدة يون واستوليتم عليها بكل سهولة أما إذا أخفقت وي في الحرب، فلا بد أنها ستسلم منطقة يون إلى دولة هان.»

فوافقه قونجون على رأيه، وهنالك قال جانشو لدولتي تشي وتشو ما نصه: «إن دولة هان قد اتحدت مع دولة وي، فإذا لم تصدقوا، فانظروا هل يهاجم قونجون مدينة يون؟» وإذ لم يحدث مثل هذا الهجوم فقد أصاب الذعر كلًّا من تشي وتشو، وأسرعتا إلى التصالح مع وي، دون أن تُبلغا دولة هان بخبر ما حدث.

لمَّا ذهب إلى رئيس وزراء هان من قال له

ذهب إلى رئيس وزراء دولة هان من قال له: «ما كانت الناس لتذهب إلى الطبيب الأشهر «بيان تشيو» [أحد أشهر الأطباء إبان عصر الدول المتحاربة، ويُعد أول طبيب في التاريخ الصيني ينبذ العلاج بالسحر والتعاويذ والأساليب الخرافية] إلا لمداوة ما نزل بهم من الأوجاع والآلام، فإذا دعوت الناس إلى زيارته — دون أن يُعانوا شيئًا من الأسقام — لما استجاب أحد إليك. (وإذا تأملنا أحوال) علاقتك الطيبة مع «بينيوان»، وجدنا أنك ما كنت تحتفظ بكل هذا الودِّ تجاهه إلا لما يُلاقيه من كراهية وبُغض دولة تشين له. ثم إن تودُّدك إليه هو السبب فيما حاق بك من كراهية تشين لك.»

لمَّا أوفد قونجون إلى دولة تشين

كان قونجون قد أوفد رسولًا من طرفه وهو (المُلقب بـ) «هانمين» إلى دولة تشين للمطالبة بمنطقة أوسوي، لكنه كان يخشى أن يؤدي هذا الأمر إلى إثارة غضب دولة تشو وذهب «طانكي» [أحد مواطني تشو] إلى قونجون، وقال له: «لئن كانت دولة هان تعترف بطاعة وسيادة دولة تشين، فهي تُهيئ الأمور للمطالبة باستعادة منطقة «أوسوي»، وهو أمر لا نعترض عليه ولا نكرهه، وإذ تحصل هان على أوسوي، تصبح الأحوال مهيأة للتقارب مع تشو، وأريد أن أتحدث إليك ببضع كلماتٍ لكن مع ملاحظة أن ما أقوله لك ليس هو الرأي الرسمي الصادر عن دولة هان.

واعلم أنه إذا كان هناك من بين أولياء الأمور في دولة هان، من يلقى تأييدًا شعبيًّا جارفًا، دون أن تتاح له فرصة الترقي إلى منصب رئيس الوزراء، (فستظل دولة هان في حال التبعية) ولن تعرف في حياتها الاستقلال أبدًا (وبالتالي) فلن يمكنها أن تتقارب مع دولة تشو. وقد سبق لمليكنا أن قال: «كم أتمنى أن أحشد شعبي كله لتأييد ومساعدة هانمين في العمل رئيسًا للوزراء.» فهل هذا ممكن حقًّا؟!) وإذ ينظر أهالي دولة هان إلى هانمين بعين الكراهية، فلا بد أنه سيقوم بتعبئة قوى وطاقات دولة هان لحماية تشو.» فلما سمع قونجون هذه الكلمات، فرح جدًّا وتكلم مع الوزراء جميعًا في تزكية «طانكي» وتوليته منصبًا حكوميًّا (إداريًّا) حيث يتمكن من الإشراف (بحكم مهام منصبه) على شئون العلاقات بين البلدَين هان وتشو.

لمَّا أرسل رئيس وزراء هان مبعوثًا إلى

أوفد قونجون — رئيس وزراء دولة هان — هانمين إلى دولة تشين، ليطلب منها مهاجمة دولة وي، ففرح ملك تشين بذلك، وبينما كان هانمين عابرًا بأرض «طاندي» بلغته أخبار وفاة قونجون على نحوٍ مفاجئ، فتكلم مع ملك تشين قائلًا له: «(بلغني) أن مبعوث دولة وي قد التقى برئيس الوزراء الجديد «هانشن»، وقال له: «لا بد من أن تنزل العقاب بـ «هانمين» (لأجل خاطر دولة وي).» … فرد عليه هانشن بقوله: «هذا مستحيل، فهو الرجل الذي يعمل في خدمة الملك، بالإضافة إلى أن هناك الكثير من الاتفاقات ما تزال قائمة بين جلالته وبينه.» فقال المبعوث: «ما قامت تشين بتنصيب هانمين إلا لاهتمامها برجل مثل قونجون، وبما أنه قد مات، فلن يلقى هانمين أي احترام أو تقدير من جانب تشين ولا أظنه إذا ذهب إليها يريد الدخول إلى أراضيها أن تسمح له بذلك، فكيف يمكن أن تتواعد وإياه على كراهية ملك وي؟» … فوقعت الحيرة في قلب هانشن، وأراد أن يعمل بنصيحة رسول دولة وي، فاعلم يا مولاي أنك إذا لم تقم باستدعائي إليك، فليس أمامي إلا أن ألوذ بكهوف الجبال.» فقال له ملك تشين: «كيف تظن بي الظنون هكذا؟ ولماذا تظن بي العجز عن حسم الأمور؟» ثم إنه أرسل في استدعائه [بطريقة رسمية] ومنحه وظيفة (مرموقة).

لمَّا ذهب أحد موظفي دولة هان لمقابلة

ذهب أحد كبار موظفي البلاط في دولة هان لمقابلة ملك تشين ليُكلمه (دفاعًا عن موقف دولة هان ورعاية مصالحها) قائلًا: «عندما يناقش هانمين شأنًا من الشئون الرسمية، فهو لا يتطرق إلا لما يخص مليكه فقط، ولا تهمه مصالح أي ملكٍ آخر أو بلد آخر، وهو — عمومًا — لا يضع نصب عينَيه سوى شئون بلده، دون الممالك الأخرى. (ومن المؤكد) أن قوة دولة تشين تملك من التأثير والضغط ما يمكن أن يرغم قونجون على الخضوع والإذعان.

إن الشيء الوحيد الذي استطاعت أن تفعله دولة هان — وهي تعرف قوة ونفوذ دولة تشين — هو أن تجرؤ على البدء بالهجوم عليها، ومع ذلك فقد كان هانمين، هو الذي جلب على نفسه عار الفشل والهزيمة. وقد سبق لدولة هان أن جعلت قوات دولتي تشي وسونغ تقومان بمهاجمة منطقة «شوايوان» [بدولة وي] وتقترب من مشارف مدينة طاليان، (دون أن تتقدم أبعد من ذلك، ودون — حتى — أن تقوم بمهاجمة دولة وي

في عقر دارها، والسبب في ذلك، هو ...) أنها رأت أن من الأفضل أن تتصالح معها، لكي تتمكن من استخدام الطريق المارِّ بأراضيها — في منطقة نانيان — والاستنجاد بقواتها، (بالإضافة إلى قوات تشي، وسونغ) لضرب دولة تشين.

وقد قيل في تبرير عدم الهجوم: إن الناس كانت تردد ما مفاده أن (الكثير من الدول لم تأخذ بعين الاعتبار — في صراعاتها وحروبها مع بعضها البعض، بعض العناصر المهمة مثل طبيعة الأرض والمواقع الجغرافية لكل منها ومدى أهميتها ...) فدولة يان لاقت المصير ذاته على يد تشين، أما دولتا، تشن، وتساي فقد لقيتا الضربة القاصمة من قوات دولة تشو، (هذا بالإضافة إلى ما شاع من ...) مؤامرات الوزراء وكبار القادة وتحزُّبهم، ودسائسهم الباطنية وتمويهاتهم وغشهم لسادتهم من الملوك والحكام، بل كثيرًا ما كان كبار رجال الدولة يعملون لصالح أطراف خارجية ويعظمون شأنها ومصالحها على حساب أوطانهم، فما جاء الخزي والانكسار إلا نتيجة لكل ذلك.

أما وقد بادرت جلالتك إلى تنظيم وتقويم الألقاب والمراتب الاجتماعية للوجهاء والأماثل ومن دونهم، فإن واحدًا مثل تشانغي — بكل ما يمثله من قيم وما يملكه من جاه عريض ومكانة معروفة — لن يستطيع أن يخوض في مسيرة (نبيل آخر، مثل) «قون صونهاو»، ولن يستطيع مبعوث قادم من الخارج أن يتدخل في اختصاصات الوزراء وصلاحياتهم، كما لن يستطيع النبلاء والوجهاء — من مختلف الدرجات الاجتماعية بأشرفها مكانة وأقلِّها مرتبة — أن يمسُّوا الحدود المسموحة لكل منهم، أو أن يتجاوزوا سلطاتهم، بحيث يلزم كل منهم مكانته، ويدور في دائرته، تمامًا كما تدور القصبات الخشبية المشرعة من مركز دائرة العجلة الدوارة حول محورها؛ فهم أيضًا يدورون في فلك جلالة الملك، يعملون لمصلحته ويقفون أنفسهم لخدمته، فحينئذٍ يُعرَف صاحب الجدارة والفضل والحكمة، ويشار إليه بالبنان، وهو ما يُحسَب لجلالتك من عظيم مراعاتك لأشرف مواطن الحكمة ومواقع الفطنة والآراء السديدة.

وكان «قون صونهاو» قد عقد تحالفًا وثيقًا مع دولتي هان وتشي، ومن ذلك فلم يكافئه جلالة الملك (فكان في ذلك عبرة لأمثاله من الوزراء، حتى لا يتجاوزوا الحد ...) فيعملون لما فيه صالح أمراء الدويلات على حساب أوطانهم. وكثيرًا ما حاولت دولتا هان وتشي أن تستغلا دولة تشين لمصلحتهما، وذلك عبر (رجل دولة بارز، مثل ...) قون صونهاو (وكان أن انتبه ملك تشين للمحاولة ...) فلم يرضخ، فامتنع أمراء الدويلات الأخرى عن انتهاز الفرص ومحاولة تحقيق مصالحهم الذاتية عبر الوزراء وكبار رجال الدولة.

إن قطع دابر التواطؤ مع أطراف خارجية يكشف الزائف من الحقيقي فيما يستبطنه أمراء الدويلات من مشاعر ونوايا. وذلك هو ثاني أعظم إنجاز تتبدى فيه حكمتك ووعيك البصير؛ ولطالما ألحَّ عليك كل من قون صونهاو، وتشوليجي لإثناء عزمك عن مهاجمة دولة هان. (وكان أن حدث — بالصدفة — الانهيار التام لقوات هان) إذ تبددت الحشود وتفرقت أرتال الجند بغير قتال، وجاءت النتيجة مُوفية بالغرض تمامًا — على الرغم من عدم الاشتباك معهم في أي قتال (... إذ انكسرت دولة هان).

وكان كانماو قد اتفق مع دولتي تشو وجاو على مهاجمة دولة وي، ثم إذا به ينقلب راكعًا عند أعتابها مُعظِّمًا لشأنها بأحسن تكريم وأنبل تقدير واحترام بسبب ما أضمره لبلادنا (دولة هان) من حقد وكراهية. ولما أراد كانماو مهاجمة منطقة «إيانغ» عقدتَ جلالتك موازنة بين منافع ومضار السِّلم والقتال، ولم يكن لوزرائك ورجال دولتك مثل ما تميزت به من ضروب الحكمة والفطنة القدسية؛ فلكل ذلك أُقرر أمامكم استعدادي أن يقوم قونجون على إدارة شئون بلادنا على النحو الذي يُبرز اعترافنا لكم بالطاعة والنفوذ والسيادة، مفضلًّا إياه عن كل الآخرين من رجال التخطيط ومشوراتهم.»

لمَّا عمل هانمين رئيسًا لوزراء دولة تشي

كان «هانمين» أثناء توليه رئاسة وزراء دولة تشي، قد أراد أن يكلف أحد كبار الموظفين باتخاذ الإجراءات اللازمة لطرد «قون تشو» خارج البلاد، أما بالنسبة لـ «تشنيان» [أحد مواطني دولة هان، وأهم الدعاة إلى التحالف بين دولتي هان وتشين] (فلم يكن يملك أن يتصرف حياله بأي شيء فقد كان مُقيمًا بدولة جو) وهو ما كان يُثير غضب سيادته وحنقه عليه، فذهب إلى (هانمين) من قال له: «أتظن أن هذين الشخصَين على قدر من الحكمة والأخلاق بحيث توليهما الدولتَين اللتين أوْلَتا كلَّ واحدٍ منهما (على حدة) مناصب مرموقة؟ (ومن جانبي، فإني ...) أرى من الأفضل أن يبقيا في دولة جو، (ولئن سألتني عن السبب في رأيي هذا، فأقول لك): إن تشينان لم يغادر دولة هان إلا لأجل دولة تشين، لكن الأمر يختلف بالنسبة لـ «قون تشو»، حيث إنه يحظى باهتمام وتقدير جلالة ملك تشو. وإذ تفكر في طردهما، فسوف يذهبان إلى دولتي تشين وتشو ويُمسيان قذًى في عينك وعلقمًا في حلقك ومجلبة للكوارث الداهمة، هذا بالإضافة إلى ما سيتكشف من سوء نواياك تجاه الإمارات والممالك، فإذا بادلك أمراء الدويلات بُغضًا بكراهية، فسوف يستميلون إلى جانبهم

فريقًا ممن كانوا يحسنون الظن بك (ويدبرون لك أمورًا تنكشف في حينها ... إذ) تزحف إليك الجيوش الجرارة، وعندئذٍ، فلن يجد ملك تشي مخرجًا سوى أن يستغني عنك.»

لَمَّا ذهب إلى كبير وزراء هان من قال له

ذهب إلى «شانيان» [كبير وزراء دولة هان] من قال له: «إن دولة تشين قد أقطعتك شانيان، وكذلك أهدتك دولة تشي إقطاع «إيندي»، ومن المعلوم أن هاتين الدولتَين لا تكترثان بشئون دولة هان، قدْر اهتمامهما بشخصك الكريم، وتقديرهما لسجاياك الفاضلة.

وقد حدث ما حدث من هجوم دولة تشو على إقطاعيتك (إيندي) واعتدائها على دولة تشي. والآن، فإن أول ما يجب الانتباه له، هو أنه قد صار من المُستحيل استئناف العلاقات مع بلادكم، وثانيًا: فلن يمكن إعادة إقطاعية «إيندي» لك، وما كان لدولة تشو أن تتصرف على هذا النحو إلا لما وقع عليها من تهديد دولتي تشي وتشين، بالإضافة إلى رغبتها في إعلان احتقارها لشأن دولة هان.» وهنالك فقد كلفه «شانيان» بالسفر إلى دولة تشو.

لَمَّا قامت دولتا وي وجاو بمهاجمة

قامت دولتا وي وجاو بمهاجمة «هوايان» [مدينة من أعمال هان]، فاستنجدت هان بدولة تشين، (وتوالت المُراسلات بين البلدين، فكانت مواكب المبعوثين تتدافع على الطريق بين البلدين) ومع ذلك، فلم تُقدم تشين يد المعونة، فتكلم رئيس وزراء هان مع «تنان لين» [أحد مواطني هان] قائلًا له: «قد دهمنا الخطب وعاجَلنا الخطر وتأزمت الأمور للغاية، فنرجوك أن تسافر من ليلتك (إلى تشين) وعلى الرغم مما قد علمناه من مكابدتك المشقة والإرهاق، فنحن نلحُّ عليك في الرجاء ببذل المزيد من الجهد، فامض سريعًا ولا تبيتنَّ إلا بعد وصولك.» وذهب تيان لي لزيارة رانخو، فما إن دخل عليه، حتى سأله مُضيفه: «هل تأزمت الأحوال في هان حقًّا؟ وما الذي دعاهم إلى إيفادك؟» فأجابه: «لم تتأزم الأحوال بعد، في هان.» فرد عليه رانخو غاضبًا: «فما دام الأمر كذلك، ففيمَ قدومك إلينا مبعوثًا من ملك هان؟ وفيمَ كل هذه الوفود من الرسل القادمين إلينا لإبلاغنا باشتداد الخطر المُحدق بكم، دون أن يكون هناك شيء من ذلك، فماذا سلكتم بهذه الطريقة؟ وما الذي دعاكم إلى ذلك؟» فأجابه: «لو كانت دولة هان قد تعرضت للخطر، واشتد بأس الكوارث النازلة بها، لخانت عهدها مع دولة تشين.» فقال له رانخو (على الفور): «أظن أنه لا داعي لمقابلة جلالة الملك،

فقد أمرت بسرعة دفع القوات لنجدة هان.» وفي خلال ثمانية أيام، استطاعت قوات تشين أن تنزل هزيمة مروعة بقوات دولتي وي وجاو، عند أسوار هوايان.

لَمَّا قامت تشين بالاشتراك مع تشو

قامت تشين — بالاشتراك مع قوات دولة تشو، التي دعتها للنهوض معها إلى القتال — بمهاجمة دولة تشي، وتكلم لنشيان مع تشنجن قائلًا: «لا بد أن ملك تشين سيتحالف في المستقبل مع بلدٍ آخر غير دولة تشو. إن الكثير من المُتعاطفين والموالين إلى دولة تشي من أهالي تشو — يعلمون تمامًا استحالة قيام الوحدة مع تشين، في الغرب، ومن ثم فسيبذلون قصارى جهدهم لإقامة التحالف بين تشي وتشو اللتين ما إن تتحدا معًا، فستضطر كلٌّ من دولتي جاو ويان إلى الانصياع إلى أوامرهما، وإذ تقبض دولة تشي بيدها على زمام قوة أربع دول بمواجهة دولة تشين (بمفردها) فلن تُذعن لأحد، ولن تستسلم أبدًا.» وقال لنشيان أيضًا: «هل تفكر دولة تشين في مهاجمة تشي حقًّا؟ (إذا كان الأمر كذلك، فمن الأولى بها أن ...) تقوم بإخضاع أولئك الموالين لدولة تشي — من أبناء تشو — الذين ما إن تنكسر شوكتهم، وتسقط مطالبهم — بالاتحاد مع تشي — (فسيتهيأ الحال لدولة تشين لتجني المكاسب، إذ ...) تعود دولة تشو إلى الاعتماد على تشين. ثم إن رصيد القوة الهائل لدى هذه الأخيرة، مدعومًا بتأييد «تشو» لها، سيضطر دولتي يان وجاو، إلى الرضوخ لمطالبها، والانصياع لأوامرها، فلا تجد تشي ملاذًا سوى العزلة، وبناء على ما تقدم، فأرجو أن تأذن لي في الذهاب إلى ملك تشين لإقناعه بهذه الأفكار (بالإنابة عنك).»

لَمَّا طالبت دولة هان بطرد كبير وزراء

كانت دولة هان قد ألجأت آل «جو» [حاكم أسرة جو الملكية] إلى طرد «شيانجين» [كبير وزراء دولة جاو] فكان أن ذهب تشنهوي [كبير وزراء آل جو] إلى ملك وي — مدافعًا عن «شيانجين» المطرود — وقال لجلالته: «(اعلم) يا مولاي) أن «آل جو» سوف يُقيلون عثرته، ويصفحون عنه — عما قريب — ويفتحون له ما أُغلق دونه من أبواب العودة إلى بلاده، فما الذي يمنعك من أن تُزكيه، وتثني عليه بما تيسر لك من أبسط عبارات المدح والثناء، فيكون لك (إذ يعود إلى بلده) خير تابع وأخلص صديق؟» فوافقه ملك وي على رأيه.

وراح تشنهوي يقول لملك هان (ما نصه): «كانت دولة هان هي التي تسببت في أن تُلجئ دولة جو إلى طرد شيانجين، وصارت — الآن — دولة وي هي التي ساهمت في إعادته إلى بلاده، أليس من الأفضل أن تكون دولة هان هي التي عملت على إعادته (في المقام الأول)؟ بدلًا من أن يكون لدولة وي الفضل العميم عليه فيصير لها تابعًا أمينًا دونكم؟» فنزل ملك هان على رأيه، وبادر إلى المطالبة بإعادة شيانجين إلى بلاده.

لمَّا تكلم أحد مواطني دولة جونشان

تكلم «جانطن» [أحد مواطني دولة جونشان] إلى «فيشيا» [من دولة هان] قائلًا: «أرجو منك أن تنصح لـ «قون نيان» [أحد أمراء دولة هان] بأن يقابل ملك هان، ويقول له: «(اعلم) أن دولة جو الغربية تنظر إلى فيشيا بكل البغض والكراهية، في حين أن دولة جو الشرقية تحترمه وتعظم قدره، وهو ذو حسب ومال [حرفيًّا: سليل أسرة تملك عشرة آلاف مثقال من الذهب] فماذا لو استدعيته، وأسندت إليه إدارة إقليم سانشوان، أما كان يصرِف جُل عنايته في حراسته، والتزام الحيطة في تأمينه والدفاع عنه؛ لا سيما أن لدَيه من المال الوافر ما يُعينه على تقوية بأسه، وسد ما تخلل عزمه من ثغرات، فيُحسن خدمتك، ويلقى لديك أحسن حظوة. ولئن كانت جو الغربية تمقته، فلا بد أنها ستُرسل إلى جلالتك الصلات الجزيلة، ولعلها تبعث لك بأنفس الهدايا (التي كانت في خزانة الملوك العظماء السابقين؛ في محاولة لإثنائك عن ترقيته إلى مرتبة أعلى ووظيفة أرفع).» ولا بد أن ملك هان سيتصرف على هذا المنوال، فما إن يصل الخبر إلى دولة جو الغربية، حتى تُعفيك من التهمة المنسوبة إليك؛ لتحول بينك وبين القيام على إدارة إقليم سانشوان.»

لمَّا تُوفي مراقب عام منطقة آني

تُوفي مراقب عام منطقة «آني»، وأحسَّ مساعده بشيء من القلق؛ إذ ساورته الظنون بأنه لن ينال الترقية المناسبة ليشغل منصبًا أرفع، فذهب أحد أبناء منطقة «شولي» ليتكلم مع محافظ منطقة «آني» بشأن هذه المساعدة، فقال لسيادته: «كان «قونصون تشي» قد طلب من أحد الناس أن يذهب إلى جلالة الملك، ويرجوه في تعيينه في وظيفة مراقب عام، فرد عليه الملك بقوله: «إن هذا الموقع الوظيفي له نائبه الرسمي المقيم (حسب اللوائح) ولست في حلٍّ من أن أنتهك اللوائح التنظيمية المعمول بها لدى المسئولين.» ثم ما لبث النائب الرسمي أن شغل وظيفة المُراقب العام حالما أصبح الموقع شاغرًا.»

لمَّا ترأَّس الملك حِلف الأمراء

ترأَّس ملك دولة وي اجتماع تحالف أمراء الدويلات المُنعقد في «فنغ تسي» [إشارة إلى اجتماع حضره ملك وي مع أمراء الدويلات في ٣٤٤ق.م.] وكان قد اتخذ التدابير اللازمة لاستعادة سلطة الأمراء، وذهب «فانشي» [كبير وزراء دولة هان] إلى ملك هان، وقال له: «لا تنخدع بما يقول هؤلاء، فمن المعلوم أن الدول الكبرى تبغض كل ما يمت بصلةٍ للأمراء ووجودهم من أساسه، وليس سوى الدويلات والإمارات هي التي تلمس الآثار الإيجابية لسلطة الأمراء، وتجني شيئًا من النفع على أيديهم، ولعمري كيف تستطيع دولة وي استعادة سلطة الأمراء، بالتعاون مع حفنة قليلة من الدويلات، إذا كانت الدول الكبرى (وجلالتكم على رأسها جميعًا) ستتجاهلون كل مزاعمهم ومحاولاتهم؟!»

لمَّا كان كبير وزراء دولة جاو ينظر

كان «جيانشين» [كبير وزراء دولة جاو] ينظر بعين الازدراء إلى «هانشي» [كبير وزراء دولة هان] فذهب «جاوا» [من دولة جاو] ليدافع عنه ويفسر موقفه لدى جيانشين، قائلًا له: «(اعلم) أنه بمنظور الحسابات القائمة على الملاحظة الشكلية، فإن الدولة التي تملك مقومات البقاء، إذا تحالفت مع جارتها، وتفقد تلك المقومات وتتعرض للهلاك والضياع إذا لم تتحالف مع الجيران، هي دولة وي؛ أما الدولة التي لا يمكنها التخلي عن جارتها وفي الوقت نفسه تجد نفسها مُضطرة إلى الدخول في الحلف الرأسي فهي دولة هان. وسبب ازدرائك لـ «هانشي»، يرجع — أساسًا — لما قد عزمت عليه من إقامة علاقات قوية وممتازة ووثيقة مع وي وتشو؛ وإذ تلاحظ دولة تشين مدى الود والصلة الوثيقة التي تربطك بدولتي وي، وتشو فسوف تبذل اهتمامها الفائق لاستمالة هان إلى جانبها (ومن ثم يحدث تحول في التقديرات؛ ذلك أن …) هان التي كانت موضع احتقار وهي في التحالف الرأسي، ستُصبح محل اهتمام وتقدير عظيم وهي عضو في المحور الأفقي، بينما ستلقى دولة جاو كل الازدراء إذا لم تشارك في التحالف الرأسي.

وإذ تدفع دولة تشين بقواتها من منطقة سانشوان، فسوف تقوم بمحاصرة «يانلينغ» في الجنوب، وبالتالي تنغلق خطوط المواصلات عبر طرق كل من: «جاولين»، و«شان تساي». وهنالك يتأزم موقف دولة وي، ثم إن تحركات أمراء الدويلات لمساندة دولة جاو سوف تتراخى وتتباطأ كثيرًا، وإذ تقوم تشين بدفع القوات وتهاجم هاندان، فستسقط دولة جاو

سقوطها المروِّع؛ ولذلك فسوف يمكنك أن تتجنَّب المزالق والثغرات، إذا استطعت أن تحصل على دعم ومساندة دولة هان.»

لمَّا تكلم طوانشان مع الأمير

تكلم «طوانشان» [من دولة تشين] مع (الأمير) «ميرونغ»، فقال له: «يستطيع السائرون ليلًا أن يُمسكوا عن إيذاء الناس، لكنهم لن يقدروا على أن يمنعوا الكلاب عن النباح، (وبالنسبة لي ...) فلست أشغل موقعًا وظيفيًّا مرموقًا (لأني مجرد مرافق لسمو الأمير) وهكذا فأستطيع أن أصد نفسي عن الخوض فيما يعيبك أمام الملك الأعظم، لكني لا أستطيع أن أمنع الآخرين من الوشاية بي لديك، فأرجو أن تتأمل هذا وتستجلي معناه.»

لمَّا تحدث طوانكان إلى سمو الأمير

تحدث «طوانكان يورن» [من دولة وي] إلى الأمير «ميرونغ»، فقال لسموه: «كان أحد تلاميذ الحوذي الشهير [بدولة جاو] وانليان يقود مركبة تجرها الخيول ويزعم أن جياده من أمهر الجياد في الركض حتى إنها لتعدو به الألف ميل، وكان أن التقى — ذات يوم — مع أحد تلاميذ الحوذي الأشهر [من دولة جو، قائد المركبات الملكية بها] المدعو: «تساوفو»، فابتدره تلميذ هذا المعلم ذي الصيت الذائع قائلًا: «لا أظن أن جوادك من النوع الأصيل الذي يركض بك الألف ميل.» فأجابه تلميذ وانليان بقوله: «إن الجياد التي تقود المركبة الصغرى (التي يجرها جوادان) وتلك التي تجر المركبة الكبرى (التي تسير بأربعة خيول) كلها من النوع الجيد الذي يسابق الأفراس ويرمح في المواكب رمحًا لا مثيل له، فما الذي دعاك أن تُشكك في ذلك؟» فقال له تلميذ تساوفو: «إن عنان فرسك مُسترسل بيدك، غير مقبوض، ومن المعلوم أن طول العنان هو الذي يحدد مقدار ما يمكن أن يعدوه الفرس ركضًا أو خببًا؛ فلهذا قلت إنه من المُستحيل أن يركض بك حصانك ألف ميل بهذا الرسن الطويل الطليق!» ... وهكذا فعلى الرغم من أني بغير مهارة أو مزايا ذات جدارة، فإني أستطيع أن أكون ذا قيمة في تحديد مصالح دولة تشين [... تمامًا كما يتم تقدير إرخاء العنان الذي يقاد به الفرس وتتحدَّد به طاقة ومدى ركضه] لكنك أيها النبيل الكريم، لا تلبث تعبس بوجهي ولا تيسر لي العسير من أمري، وتغلق الطرقات المفتوحة أمامي والسبب في هذا كله أني مجرد عنان ممطول مُسترسل في يد الفارس.»

سجل يان الأول

لمَّا سعى سوتشين داعيًا إلى التحالف

أراد سوتشين الانضمام إلى مجموعة التحالف الرأسي، فذهب إلى [الممالك الشمالية] حيث التقى بـ «سان أونهو»، وراح يعرض عليه فكرة الانضمام إلى المحور الرأسي، قائلًا له: «إلى الشرق من دولة يان تقع «تشاوتشيان» [الاسم الصيني لـ «شبه الجزيرة الكورية»] و«لياودون»؛ وإلى الشمال «لينخو»، و«لويان» وإلى الغرب: «يونجون»، «جيووان»، وإلى الجنوب يقع نهر «خوطو»، وبحر «إيشوي»، والمساحة الإجمالية تبلغ أكثر من ألفي لي مربع، ولديك من المقاتلين (لابسي الدروع والخوذات) مئات الألوف، ومن المركبات الحربية سبعمائة عربة، ومن الجياد الحربية ستة آلاف فرس، وفي مخازنك ما يكفي استهلاك عشر سنوات من القمح والذرة، وعلى حدود بلادك الجنوبية يوجد جبل «جيشي» ومنطقة «إينمن» بمنتجاتهما الوفيرة، وعلى الحدود الشمالية يمتد مناخ ملائم لزراعة التمر والكستناء، وعلى الرغم من أن العدد الجم من شعبك لا يعمل في الزراعة، فإن محصولكم من التمر والكستناء يسد حاجة الناس، ولديكم منه — كما يقول الناس — مخزن طبيعي، والأجواء العامة يسودها الاستقراء والهناء والرفاه، (داخليًّا وخارجيًّا) وليس هناك أي تهديد بالتمرد أو الانقلاب العسكري، ولم تبدر عن القادة العسكريين بادرة توحي بالتمرد ومن ثم فلم يوقَّع حكم بالإعدام ضد أيٍّ من القادة، وليس في الممالك جميعًا من يفوق دولة يان في مزاياها وجودة أحوالها. فهل يدرك جلالة الملك السبب في تميز البلاد بهذا الهدوء والاستقرار والسلام؟

إن السبب فيما تنعم به يان من نجاتها من ويلات الحرب، وغزو القراصنة وهجوم المعتدين هو قيام دولة جاو على حدودها الجنوبية كالسائر الذي يصد عنها المخاطر

والنازلات. وقد وقع القتال بين تشين وجاو خمس مرات، كان النصر فيها حليف تشين مرتَين، بينما تغلبت عليها جاو ثلاث مرات، ثم إن الحرب أنهكت كِلا الفريقَين المتحاربَين، وهنالك قمت (جلالتك) بمهاجمة مؤخرة قوات جاو، ولذلك فقد أمنت بلادك شر الاحتلال. (هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى …) فإذا قامت تشين بمهاجمة يان، فستُضطر إلى عبور مناطق ينجون و«جيوان»؛ ثم المرور من أرض «دايدي»، «شانكو»، ثم تطأ بأقدام مُشاتها طريقًا طوله عدة آلاف «لي»، وحتى إذا قُدِّر لها أن تستولي على مدن دولة يان، فسوف تضع في اعتبارها استحالة الاحتفاظ بها والدفاع عنها، وهكذا فمن المُسلَّم به تمامًا عجز دولة تشين عن إلحاق الأذى بدولة يان.

وإذا أرادت دولة جاو أن تهاجم يان، فلن تمضي عشرة أيام بعد صدور الأوامر ببدء الهجوم حتى تدخل إلى منطقة «دون يوان» قوات تبلغ مئات الآلاف من المقاتلين، فتتمركز في ذلك الموقع (حينًا) ثم تعبر نهر خوطو وبحر إيشو حتى تصل إلى عاصمة يان خلال أربعة أو خمسة أيام. ولذلك فيمكن القول إنه لو أرادت تشين مهاجمة يان فستضطر إلى الدخول في اشتباكٍ قتالي على بُعد ألف لي من حدودها، أما إذا قررت جاو ذلك فسيكون ميدان القتال قريبًا جدًّا بالنسبة لها.

ولعمري، فليس أسوأ من خطة تتغافل عن الخطر القريب، وتنشغل بالقلاقل البعيدة؛ فلذلك أتمنى يا مولاي أن تدخل مع دولة جاو في حلف المحور الرأسي وأن تعمل على إقامة جسور الود والصداقة معها، واعلم أن يان ستظل في مأمنٍ من كل مكروه ما دامت في حِلف مع الأمم في رباط ووحدة.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

رد ملك يان قائلًا: «إن بلدنا صغير جدًّا، يكاد يتماس غربًا مع تشين القوية الجبارة، ويقترب من حدود جاو وتشي في الجنوب، وهذان الأخيران بلدان على درجة كبيرة من القوة، وإذ جمعتني الظروف الطيبة وإياك، فقد أُتيح لي أن أتعرف — من خلالك — على خطة التحالف الرأسي، فأنا أتفق معك في هذا وأرجو قبول بلدنا عضوًا في التحالف، دعمًا للاستقرار والأمان.» وكان أن أجزل جلالته لـ سوتشين العطاء ووصله بالهدايا الفاخرة، وقام لتوديعه في سفرة إلى دولة جاو.

لمَّا كان «ليدوي» ناقمًا على سوتشين

كان ليدوي ناقمًا للغاية على سوتشين، فلمَّا كان هذا عائدًا إلى دولة يان، فقد أرسل من أراد الدفاع عنه وتوضيح موقفه لأمير «فن يانجون» [لقب ليدوي] قائلًا: «تبدو دولة جاو وقد حازت قدرًا من الأهمية بعدما تفسخت دولتا يان وتشي. فإذا اتحدتا، فلن يبقى لدولة جاو أي قدرٍ من الاعتبار. (وهكذا ...) فإن ذهابك الآن إلى دولة تشي لن ينفع جاو بشيء، وأظن أن خطتك التي تتبعها تكاد تكون مستحيلة التطبيق.» فقال له ليدوي: «من قال لك إني أريد لدولة يان أن تتَّحد مع دولة تشي؟» فأجابه: «إن من يسيطر على الشأن السياسي في دولة يان هو «سوتشين»، إلا أن يان دولة ضعيفة، لا تضارِع قوة تشي عند حدودها الشرقية، ولا توازي دولة جاو قوة ومكانة، في الغرب؛ فكيف لا يكون لها نصيب في الوحدة مع دولة تشي — شرقًا — وتبقى بمعزل عن الصداقة مع جاو — غربًا؟ وكيف تتَّخذ من سوتشين موقفًا غير ودي، ثم تتوقع منه أن يعمل على حماية دولة ضئيلة وضعيفة ومعزولة عن باقي الممالك مثل دولة يان؟ فمثل هذا الأمر يفرض بطبيعته، التحالف بين يان وتشي.

وبالإضافة إلى ذلك [فهناك حقيقة معروفة للجميع، وهي أنها دولة ليست — في الحقيقة — إلا بقايا دولة؛ ذلك أنها بعد اجتياح تشي لأراضيها في ٣١٤ق.م. قتل حاكمها]، وقام «شاو» حاكمًا عليها — بعد هزيمتها المروعة — واستمدَّ العون من الدول الأخرى، بما بذله من المال والكنوز والصلات الوفيرة، وبلغ سُدة الحكم والجاه بما عكف عليه من الإمساك بزمام الأمور وإدارة شئون البلاد؛ ولذلك (وبناء على كل ما تقدم ...) فإني أرى (لو كنت مكانك) وجوب المصافاة مع سوتشين وإقامة الصلات الودية معه، سواء رأيت فيه ما يُقربك إليه أم يُحنقك عليه؛ وبذلك تُثير بذور الشك بين يان وتشي فيعظم قدر دولة جاو.

وإذا ثار في قلب ملك تشي الشك حول سوتشين، فسوف تجني الكثير من الثمار وتربح القدر الوفير من الدعم والمساندة.» ونزل ليدوي على هذا الرأي، وأوفد مبعوثًا إلى سوتشين للعمل على إقامة الصلات الودية.

لمَّا وقعت معركة شواندي

لما اسْتَحرَّ القتال في معركة شواندي، كانت الكسرة على قوات دولة يان في مرتَين متواليتَين. ولم تخرج دولة جاو لدعمها ونصرتها. وهنالك تكلم قورن مع الملك «شاو» — حاكم دولة

يان — قائلًا لجلالته: «أرى أنه من الأفضل التنازل عن أجزاء من الأراضي إلى دولة تشي للمصالحة معها، وعندئذٍ، فستتحرك دولة جاو بكل سرعة لنجدتك. فإذا لم يحدث هذا، صار زمام القوة والنفوذ في يد دولة تشي، إبَّان انتصارها، وهذا سيرغم دولة جاو — في المستقبل — أن تعترف بطاعة وسيادة دولة تشي.» فوافقه ملك يان على وجهة نظره، وأوفد «قورن» للتنازل عن بعض الأراضي لدولة تشي طلبًا للمصالحة والسلام. فما إن بلغ هذا الخبر مسامع دولة جاو، حتى دفعت بقواتها لنجدة دولة يان.

لمَّا كان زمن حكم الأمير

لمَّا كان الأمير «أون» قائمًا على عرش دولة يان، فقد تم زفاف ابنة الملك هوي — حاكم تشين — إلى أحد أمراء دولة يان [صار ملكًا فيما بعد فدخل بها وصارت زوجته من وقتئذٍ]، فلما مات الأمير «أون»، خلفه على عرش البلاد (الأمير الزوج) وتسمَّى بـ (الملك «إي»). وانتهز الملك «شيوان» حاكم دولة تشي ظروف تشييع الجنازة في يان وإعلان الحداد، فهاجم البلاد واستولى على عشر مدن.

وذهب سوتشين لمقابلة ملك تشين ليُكلمه في شأن دولة يان، (فلما مثل بين يدي جلالته) ركع عند أعتابه مرتَين وهتف له بالأمنيات الطيبة، ثم ما لبث أن رفع رأسه إليه (وحدَّثه بكلمات تحمل معنى المواساة والتعزية، على حين لم يكن هناك ما يستدعي أجواء الكآبة والأحزان) فأسرع ملك تشي إلى سيفه فجرده، وصاح فيه آمرًا إيَّاه بالانصراف فورًا، قائلًا: «ما الذي دهاك حتى تلقي علينا كلمات التعزية والرثاء، بعد أمنيات السعادة والهناء؟» فأجابه سوتشين: «إن المرء إذا جاع لا يملأ جوفه بالسم؛ لأنه قد يسد فراغ بطنه إلى حين [هكذا] ثم يودي بالطاعم إلى التهلكة.»

والآن، فقد تبدو لك دولة يان ضئيلة وضعيفة، لكنها على أية حال، تربطها صلة مصاهرة مع دولة تشين القوية، وأراك قد طمعت في عشر مدنٍ من أرض يان، وقد نسيت أنك بذلك تجلب عليك كراهية تشين ومقتها الشديد (الذي لا قِبل لك به). فإذا أقبلت عليك دولة يان الضعيفة الضئيلة، تصُفُّ صفوف جيشها في فصيلٍ واحد مثل أفراخ النسور [هكذا]، ومن ورائها قوات تشين كالدرع الحامي والجناح الواقي، وقد جمعت لك عدة وافرة من آلات الحرب والرجال؛ أما يصير ذلك شبيهًا بما يتجرعه الظمآن من السموم وهو يظن أنه يروي غُلته!» فقال ملك تشي: «فكيف العمل إذن، وكيف يكون التصرف (في رأيك)؟» فأجابه سوتشين: «إن الحكيم إذا تدبر أمرًا، فاحتاط له كل الحيطة، كان كفيلًا

بأن يُحيل الخبيث طيبًا، والنكبة النكباء إلى نفع واعتناء والانكسار المُهين إلى نصرٍ مبين. ولذلك فعلى الرغم مما لاقاه (قديمًا) أمير دولة تشين من هزيمة نكراء في موقعة دولة تساي [إشارة إلى ما حدث قديمًا من نشوب معارك بين دولتي تشي وتساي بسبب ضغائن بين حاكمي البلدين، فأعد أمير تشين الجيوش وهاجم تساي] لكنه كسب اسمًا وشرفًا ومكانة كريمة، فتحولت الهزيمة، على يديه، إلى اقتدار باهر. فإذا أخذت برأيي ونزلت على نصيحتي، فإني أرى أن تبادر فورًا إلى إعادة المحلات العشر إلى دولة يان، وتُقدم اعتذارك إلى دولة تشين، بأسلوب تراعي فيه مكانتها وتحترم سيادتها، ولا بد أنها ستعرف لك فضلك بكل الامتنان إذ تدرك أنك ما أعدتَ الأرض إلى يان إلا إكرامًا وتوقيرًا لسلطانها بين الأمم. ثم إن يان نفسها ستغدو أشد عرفانًا لصنيعك، وهكذا تكون قد تجنَّبت الإحن والعداوة والبغضاء وأقمت — بدلًا منها — المصافاة والود والعلاقة الطيبة. هذا، بالإضافة إلى ما ستبذله تشين ويان من الاعتراف بسيادتك ونفوذك، فيعظم شأنك بين الأمم، وتنهض النفوس بالطاعة لأوامرك في كل البلاد، والأمر كله لا يكلفك شيئًا سوى بضع كلمات من قبيل المجاملة الرقيقة، تخطب بها ود دولة تشين، في حين تكسب دعم ومساندة الممالك جميعًا، مقابل إعادة عشر مدن (إلى يان)، بل إن ذلك لهو السبيل حقًّا لبلوغ قمة السيادة الإمبراطورية تحت السماء، بالإضافة إلى أنه الطريق الذي تجعل به من نذير الكارثة بُشرى واعدة بالخير والسعادة، ومن الفشل المُخزي نجاحًا عظيمًا.» فتهللت أسارير الملك، وأعاد المدن إلى يان مُتبِعًا ذلك بوافر الصلات من الذهب والنفائس، حيث قدَّم شديد اعتذاره عما حدث (لكل من يان وتشين)، ثم إنه نزل على الطريق بين البلدَين وركع هاتفًا بأمله ورغبته في إقامة العلاقات الودية بينهما.

لمَّا وشى أحدهم لدى بلاط دولة يان

لمَّا ذهب إلى ملك يان من سعى في الوشاية بسوتشين لدى جلالته، قائلًا: «إن سوتشين واحد من أكثر الناس غشًّا ورياء تحت السماء (ومع ذلك …) فإن جلالتك تسرف في تدليله والتكرم عليه بالمراتب الرفيعة، وتبذل له الاحترام والتبجيل على نحوٍ مفرط وملحوظ، حتى بَدَا الأمر للناس وكأن جلالتك تتواضع كثيرًا مع من لا يستحقون، وتتنازل كثيرًا لتُصادق (واحدًا) من السفلة والأوغاد.» فلما عاد سوتشين من دولة تشي (أهمل الملك شأنه …) فلم يأمر بالاحتفاء به وإعداد ما يلزم لإقامته [كما قد جرت بذلك العادة!] فتكلم سوتشين إلى جلالته قائلًا: «كنت حين قدمت على بلادك من جو الشرقية، يا مولاي، مجرد زائر حقير

الشأن، وضيع المنزلة، ليس لي ما يستحق الذكر في سجل المآثر، ومع ذلك، فقد خرجتَ جلالتك إلى مشارف العاصمة لاستقبالي، مما كان له أكبر الأثر في تعظيم شأني داخل القصر. ثم إذا عدت إليك اليوم وقد حققتُ إنجازًا طيبًا بما توصلت إليه من إعادة المدن العشر إليك، وتصفية أجواء الخطر التي كانت تحيط بدولة يان، أجدك غير عابئ بما حققتُ من إنجاز، وقد داخلك الشك والارتياب من جهتي، فلا بد من أن أحدهم أوغر صدرك، وألقى في روعك ما يجعلني موضع اتهام، لربما قد طعن فيَّ الطاعن بأني غير ذي ثقة، فلئن كان قد قيل لك شيء من ذلك، فهو أمر يُبشر بالخير على كل حال، واسمح لي أن أسألك إذا كنت توافق أن ألتزم مع جلالتك سلوك الصدق والنزاهة (التي جُبل عليها «ويشنغ» — أشهر من اتسم بالصدق، بين الناس جميعًا) وبمنتهى الأمانة (التي اتصف بها «بوييي») وخالص الطاعة والبر (على نحو ما اشتهر به «تسنغ سن»؟) فأجابه الملك بأنه يوافق بالطبع، وعندئذٍ قال له سوتشين: «(لكني) لو كنت أملك هذه الخصال ما استطعت أن أقوم على خدمتك.» ثم أضاف قائلًا: «(اعلم أني لو كنتُ جُبلت على البر والطاعة — مثل «تسنغ سن» — لما تركت أبي وأمي، بل كنت بقيت إلى جوارهما، أعمل على خدمتهما ...) فكيف كان يمكن أن تُوفدني إلى دولة تشي؟ ولو كنت مثل بوييي في أمانته وزهده، لما أكلتُ وشربت، ولكنت أحجمتُ عن خدمة ملك وي بحجة أن مثل هذا العمل تشوبه الأغراض الذاتية، ورفضت مثل بوييي أن أكون أميرًا في البلاط الحاكم، وأقمت في الوديان والجبال [حرفيًّا: «جبل شويان»] فكيف كنت أملك — مع ذلك الزهد — أن أقصد إلى بلدكم [حرفيًّا: دولة يان الضعيفة، الضئيلة] البعيد، الذي يُحدِق به الخطر من كل الجوانب؟

ولو تصورت أني يمكن أن أكتسب خصال «ويشنغ» في الثقة وحفظ العهود، لكنت تصرفت مثله ... (حيث ظل ينتظر الفتاة التي ضرب لها موعدًا للقاء، فلما تأخرت ولم تحضر في الموعد، ظل مكانه مُمسكًا بأحد الأعمدة أسفل الجسر، حتى فاض النهر فأغرقه وهو واقف مكانه منتظر فتاته) وما كنت أتيت مناصرًا لرفعه شأن دولتَي يان وتشين، وبذلت في كل جهدي، حتى صار بمثابة الإنجاز الأكبر الذي أعتز به كثيرًا!

ثم إن أولئك السالكين بخصال الإخلاص والثقة إنما يصدرون — في ذلك — عن رغبة في امتلاك صفاتٍ طيبة، وليس عن مراعاة حقيقية لمصالح الآخرين، ومن ثم فهو جهدٌ شخصي غايته اجتلاب الرضا عن النفس، وليس محاولة للارتقاء والتعلم والنهوض بإمكانات الترقي والتطور.

(ومن المعلوم ...) أن الملوك الثلاثة الذين تعاقبوا على عرش المجد، والإمبراطوريات الخمس التي أخذ كل منها بنصيب وافر من الرقي والازدهار، لم يكونوا جميعهم يطمحون

إلى إرضاء أنفسهم (... العمل لما فيه تحقيق غاياتهم الذاتية)، ومع ذلك فها أنت تريد أن تسلك ذلك الطريق (فهل يصح هذا، وهل هو مما يجدُر بك؟) وعلى أية حال، فلو كنت تستهدف الشعور بالرضا عن النفس ... فلا أظنك تستطيع أن تدفع بقواتك أبعد من منطقة «إينغ تشو»، بل لا أعتقد بأنك يمكن أن تتجاوز حدود دولة تشو [هكذا] ولن تستطيع أن تمد عينيك وأذنيك [حرفيًّا: تتجسس على ...] خارج أسوار بلادك.

وفوق كل ما تقدم، فقد فارقت والدتي وهي شيخة مُسنة، وحللت عليكم عاملًا في خدمة جلالتكم، وقد خلفت ورائي كل غرض في الرضا عن النفس، لا لشيء إلا (للعمل على النهوض بالأمم، وإيقاظ حافز التقدم والتطور) وهكذا فإن طموحاتنا وأهدافنا تختلف في هذه النقطة باعتبار أن جلالتك تسعى للرضا عن نفسك، أما أنا، فمجرد وزير يجتهد (في الحث على) التطور؛ فهذا هو ما يُطلقون عليه ما صفته: (... الإساءة إلى جلالة الملك بواسطة المزيد من الإخلاص والتفاني في حفظ العهد).»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وتكلم ملك يان فقال: «وكيف يمكن أن يكون في الإخلاص وحفظ العهد ما يوجب الأذى؟» فأجابه سوتشين: «ألا تعرف أن من الإخلاص وحفظ العهد ما يعود بسوء العاقبة؟ إن لي جارًا يعمل في إحدى الوظائف الحكومية ببلد بعيد، وحدث أن نشأت علاقة سرية بين زوجته وأحد الأشخاص، فلما عاد الزوج، وقع القلق والارتباك في نفس الرجل الآخر ذي العلاقة السرية، وقالت له الزوجة: «لا عليك، دعك من القلق، فقد أعددتُ له قدح الدواء (بعد أن أفرغت فيه السم).» فلما عاد الزوج بعد يومين، طلبت الزوجة إلى الجارية أن تذهب بالقدح إلى سيدها، وكانت الجارية تعرف أن الدواء مسموم وأن جرعة واحدة منه ستودي بحياة الرجل، فهي إن أعطته إياه، فهو مقتول من ساعته وإن أفشت إليه أمر زوجته، فسيطردها خارج البيت، فلم تجد إلا أن تتظاهر بأن قدمَيها تعثرتا، فانبطحت على الأرض فانكسر القدح، وصاح بها سيدها وضربها ضربًا مبرحًا، لكنها استطاعت بما فعلته أن تُنقذ الرجل من الموت المحقق، وتحمي الزوجة من الطرد والتشرد والضياع، وعلى الرغم من إخلاصها لأسيادها فلم تنجُ من آلام الضرب الموجع فذلك ما يقال له: «جناية المرء على نفسه باستجلاب حتفه بظلفه (اقرأ ... بإخلاصه).»

فكذلك أجدني، بما قدمت يداي، أقرب شبهًا بما فعلته الخادمة من إلقاء قدح السم (فيما حدثتك به الساعة) وليس هذا بالشيء الغريب، فقد قمتُ على خدمتك واجتهدت في

الإخلاص لك والتفاني في القيام على شئونك وتعظيم مكانتك، راجيًا أن يكون الإخلاص موجبًا لما فيه النفع والخير للبلاد، وها أنا ذا أجد عاقبة أمري قد انتهت إلى الخسران وأخشى أن يمتدَّ أثر ذلك إلى القادمين لزيارتك والعمل في خدمتك من الوزراء والخبراء، فعساهم (وقد عرفوا ما لحق بي) أن يحجموا عن انتهاج سبل الإخلاص والثقة والتفاني في القيام على شئونك وتعظيم قدرك، ثم إني — لَمَّا سافرت إلى تشين (داعيًّا للخطط السياسية)، فقد تحدثت إلى المسئولين هناك بكل صدق وصراحة؛ فلم أخدع أحدًا ولم أتحايل بالغش والخديعة على أي فرد، فإذا تصادف أن ذهب إليها — من طرفك — من تحدثوا إلى المسئولين هناك بغير ما انتهجته معهم من الصدق والإخلاص، فلن أكون ملزمًا باتباع مسلكهم، حتى لو كانوا من الحكماء والقديسين ...(أمثال «ياو»، و«شون»).»

لَمَّا عمل تشانغي على هدم التحالف

عمل تشانغي (مراعاة لمصالح تشين) على هدم التحالف الرأسي والدعوة إلى التحالف الأفقي بدلًا منه، وكان أن تحدَّث إلى ملك يان قائلًا لجلالته: «من بين كل البلاد التي وثَّقت علاقتك بها، فإن جاو هي الأفضل على الإطلاق. وكان الملك شيانغ (حاكم جاو) قد زوج ابنته بأمير أرض «طاي» رغبة منه في ضم تلك المنطقة، وحدث أنه اتفق على لقاء صهره لدى المنطقة المنيعة بجبل «تشيجو». وهنالك فقد أمر العمال وأصحاب المهن بأن يصنعوا له قمعًا من النحاس (لصبِّ الخمر) على أن يكون مقبضه طويلًا للغاية، على درجة شديدة من الصلابة، بحيث يمكن استخدامه (إذا ما دعت الحاجة) للضرب والقتال. وجلس مع أمير طاي يشربان الخمر، وقد همس في أذنَي النادل قائلًا: «إذا ما لعبت الخمر بالرءوس، فهات لنا أقداح الحساء الساخن، ثم ارفع مقبض القمع وانزل به على رأس الأمير فاقتله وأجهز عليه.» فلما راقت الخمر وصفا الشراب واهتزت الرءوس بالنشوة، طلب الملك أطباق الحساء، فدخل الطاهي بأوعيته وأدواته، وما هي إلا لحظة حتى هوى بالمقبض الصلب على رأس الأمير، فصدع يافوخه، ونثر دماغه فوق الأرض، فلمَّا سمعت أخت الملك بخبر موته تناولت دبوسًا مريبًا كانت تشبكه في شعرها، فغرسته في عنقها فماتت منتحرة؛ ولذلك فقد (ظل أحد الجبال — حتى اليوم — يُسمى ب «جبل موجي» [أي جبل الدبوس المدبب]) ولا يخفى سر التسمية عن الجميع، بما فيهم المُقيمين لدى سفح الجبل المذكور.

ما أشبه ملك جاو بالذئب المنهوم (الذي لا يرده عن الافتراس أي اعتبار) حتى تناءت الناس عنه، وتنكب طريقه السائرون، وهو أمر لا يخفى عن جلالتك (مثلما لا تخفى عنك

أسبابه) فكيف بك وأنت تريد مصادقته وتوطيد الثقة معه؟ قد سبق لدولة جاو أن أعلنت الحرب على يان وحاصرت أسوار العاصمة مرتين على سبيل التهديد وإلقاء الرعب في نفس جلالتك، ولم تنسحب إلا بعد تنازلك لها عن عشر مدن، وقد توغل ملك جاو في منطقة «ميناشي» يريد السفر إلى دولة تشين؛ بغية إهداء حاكمها أرض «هجيان» (ما بين الأنهار) استرضاء لها، واعترافًا بطاعتها، فإذا عنَّ لك التغاضي عن خدمة تشين، فسوف تُرسِل جيشًا يقتحم (مناطق) «وينجون» و«جيوان» فيطرد قوات دولة جاو، تمهيدًا لمهاجمة يان. فمن ثم تفقد نفوذك فوق أرض «إيشوي» و«تشان تشنغ» [السور الأعظم] ثم إن ملك جاو، يبدو وكأنه مجرد موظف لدى بلاط تشين، وبالتالي فلا يملك قرار الحرب والهجوم (كيفما شاء، وحسب ما يحلو لجلالته ...) فعليك بالإسراع إلى تشين معترفًا بطاعتها ومكانتها فتسعد بك وتتهلل بذهابك إليها وتصبح أثيرًا لديها، ربما أكثر من ملك جاو، الذي لا يكاد يملك من زمام أمر الحرب شيئًا، وهكذا، تجد دولة يان العون من الجهة الغربية (حيث تقع تشين الزعيمة القوية) أما في الجنوب فيكمن الخطر (حيث تقع الدولتان تشي، جاو)؛ ولهذا فأرجو أن تتأمل الأمر جيدًا.»

ثم ما لبث ملك يان أن قال: «نحن نقيم بأقصى أطراف البلاد (حيث الهمجية والوحشية أكثر انتشارًا) ورجالنا أشبه بالأطفال، (ليست لهم مهابة الرجال ولا أفكار الناضجين الذين تقودهم عقولهم نحو الوعي السليم والرأي الصحيح) وليس لهم من الحكمة ما يحسمون به أمر بلادهم وحياتهم، ولئن أتاح الحظ أن أستنير بحكمتك وأستمع إلى نصائحك القيمة، فاسمح لي بأن أطلب إليك المساعدة بشأن التوجُّه غربًا، لتقديم اعترافنا بسيادة دولة تشين، بالإضافة إلى ما قد نويته من إهدائها المدن الخمس الكائنة بالقرب من جبل هوان.»

لمَّا ذهب «كونتا» موفدًا إلى دولة

ذهب «كونتا» [من دولة جو، لكنه كان — وقتئذٍ — يشغل منصبًا حكوميًّا رفيعًا بدولة يان إلى دولة وي، موفدًا في مهمة خاصة لخدمة دولة يان، وحدث أن ملك وي لم يقبل منه ما جاء بشأنه (لم يأخذ بما عرضه عليه من خطط سياسية) بل إن جلالته حبسه عنده عدة أشهر، فذهب أحد الضيوف (النازلين — رسميًّا — لدى بلاط وي) إلى الملك، وقال له: «لماذا لم تنصت إلى مقالة مبعوث دولة يان؟» فأجابه: «لأن يان ما لبثت أن وقعت بها اضطرابات داخلية.» فرد عليه الضيف: «لمَّا أراد الملك طانغ (آل شانغ) مهاجمة الطاغية «جيه» (آل شيا) فقد كان يرجو وقوع اضطرابات داخلية في دولة شيا، فمن ثم كان وقوع

مثل تلك القلاقل مُشجعًا للدول الأخرى على اقتطاع أجزاء من أراضيها، أما البلاد التي تتعرض لعدة اضطرابات خفيفة، فمن السهل مُساومتها للحصول على كنوزها وثرواتها النفيسة، وها هو ذا «كونتا» لا يفتأ يُردد جملة مفادها: مهما تطلب الأمر، فأنا على استعدادٍ لعمل أي شيء يُطلب مني مقابل إقناع ملك وي بالاستماع إلى آرائي، حتى لو تطلَّب الأمر أن أبذل لجلالته أنفس الجواهر، أو أن أحصل له على أي قدر من الأراضي … فلماذا لا تستدعيه بنفسك (وتستمع إليه؟)» فتهلل وجه ملك وي، وأمر باستدعاء الرجل، ثم سمح له بالعودة إلى يان.

لمَّا سافر سوتشين شمالًا لمقابلة

[في نسخة أخرى ورد ما نصُّه: «مات سوتشين، فأكمل أخوه مسعاه وسافر إلى يان.» … وهو تدوين غير صحيح وسيرة باطلة، والنص الصحيح هو ما نذكره فيما يلي … (المحققون)].

سافر سوتشين شمالًا؛ لمقابلة جلالة الملك «تشاو» حاكم يان، وقال لجلالته: «لست، يا مولاي، سوى رجل بسيط من دولة جو الشرقية، وقد بلغني، على نحو خفي، ما تناقله الناس عن شريف توجهاتك وعظيم أفكارك التي تلائم طبائع البشر، وتنسجم مع فهمهم وأقدار عقولهم، ولمَّا كنت غفلًا ساذجًا لا أكاد أصلح لشيء، فقد ألقيت بالفأس والمنجل جانبًا، وهرعت إلى أعتابك السنية، متجاسرًا على طلب اللقاء بك، فلمَّا بلغت (العاصمة) هاندان، سمعت الأفواه تلهج بالثناء عليك، وبلغني ما أثار بي الشوق للحضور إليك فحزمت أمري، وثنيت عنان العزم إلى أبواب قصرك، فلما طالعت أحوال وزرائك والعامِلين مع جلالتك أيقنت أنك مكين الرأي، صائب الحكمة.» فرد عليه الملك، قال: «فما هي الطريقة التي تؤكد لك أن المرء مكين الرأي، صائب الحكمة (على حد قولك)؟» فأجابه: «قد بلغني أن الرجل السديد الرأي، ذا الحكمة والبصيرة السليمة لا بد من أن يتعلم من أخطائه، لا من شواهد أقداره وحُسن بلائه، ولتأذن لي بأن أذكر طرفًا مما وقعت فيه من أخطاء، فقد كانت دولتا تشي وجاو، من ألد أعدائك، بينما كانت تشو، ووي من أحسن أعوانك، وإذا بك — اليوم — تعترف بسيادة ونفوذ أعدائك وكارهيك، ثم تهاجم مسانديك ورفقاءك، وهو ما لا نفع فيه لبلادك، فتأمَّل قليلًا ذلك المسلك، تكتشف ثغراته وهفواته؛ وإذ لم يسبق لأحد من وزرائك مفاتحتك في ذلك وإبداء النصح السديد لك، لا أظنهم أخلصوا الخدمة والعون كما ينبغي.» فقال الملك: «(اعلم) أني لا أضمر أية نوايا لمهاجمة تشي وجاو.» فقال شوتشين:

«لكن إثارة الشك لدى الآخرين دون سندٍ حقيقي من التخطيط ضدهم يعد مسألة على جانب كبير من الخطورة (وبالمقابل فإن ...) تدبير الخطط ضد الآخرين (وترك الأبواب مفتوحة أمامهم للاطلاع عليها ...) يعد من قبيل الحماقة الشديدة؛ كما أن اطلاع أطراف خارجية على تخطيط لم يدخل حيز التنفيذ، يُعتبر من أخطر المخاطر جميعًا.

وقد عرفت أنك لا تهنأ بأوقاتك، ولا يلذ لك طعام، لما يشغل تفكيرك من الرغبة في الانتقام من دولة تشي، حتى إنك قد أعددت درعك بنفسك [استعدادًا لساعة المواجهة] وأخذت تُخاطب السماء بأن تنتقم لك في الموعد القريب، وأمرت زوجتك أن تساعدك في إعداد الملابس المناسبة للقتال فهل هذا صحيح؟» فأجابه الملك: «ما دمت قد سمعت طرفًا من ذلك الخبر، فلن أخفي عليك شيئًا؛ فقد تعمقت الكراهية بيني وبين دولة تشي، وقد مرت عليَّ سنتان وأنا أفكر في الانتقام؛ وأذكر لك بوضوح وصراحة أنها خصمي اللدود؛ فلذلك أفكر في الانقضاض عليها، ولا يمنعني من ذلك سوى ضعف أحوال البلاد، وتواضع حجم قواتها، فإذا استطعت أن تقدم لنا يد العون في الانتصار على تشي، فسوف أطلق يدك في شئون البلاد (وأجعل بيدك زمام أمورها).»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وأجابه سوتشين، قال: «إن عدد البلاد المحاربة (التي تحت السماء) لا يتجاوز السبعة (الكبار الأشداء) الأكثر قوة — من بين الممالك جميعًا — ودولة يان هي أقلهم قوة ولن تكسب حربًا لو دخلتها منفردة، أما إذا كان لها السند الذي تتقوى به فلن تعدم الغلبة ففي الجنوب دولة تشو ذات الأهمية البالغة، وفي الغرب توجَد تشين بكل ما تنعم به من أنوار القوة والرهبة اللامعة، فلا تُخطئ مكانتها العين، وإذا اتخذت لك نصيرًا من المنطقة الوسطى، فهناك وي وهان، حيث لا تنقصان قدرًا وقوة، وبالإضافة إلى ذلك فلو كانت الدولة التي تنوي الاعتماد عليها تملك — حقًّا — مقومات الفوز بالمكانة الجديرة واللائقة بين الممالك، فسوف يعود عليك ذلك بكثير من التقدير أيضًا (وإذا تأملنا أحوال دولة تشي، الآن، لوجدنا أن ...) حاكمها قد صار شيخًا مسنًّا، أهلكته الحرب — التي خاضها بمفرده — مع دولة تشو، لا سيما بعد قتالٍ دام أكثر من خمس سنوات، تبدَّدت فيها الأموال وحواصل الغلال، هذا بالإضافة إلى محاصرته لدولة تشين — غربًا — لمدة بلغت ثلاث سنوات، حتى نزلت بشعبه أسوأ الأزمات، وعانت قواته الإنهاك وعسر الأحوال، ثم إذا اتجه شمالًا لحرب دولة يان، عاث فيها وفي تخريبها مدة ثلاث سنوات، وقام بأسر اثنَين من أحسن قادتها

العسكريين (ولم يكتفِ بذلك، بل قصد نحو الجنوب حيث …) اتجه بما تبقى من قواته لهزيمة دولة سونغ (القوية التي كانت تملك خمسة آلاف مركبة عسكرية). فاحتل نهر «هواي» وعشرين دولة تقع بين نهري هواي و«سيشوي» وكان ذلك كله من جملة ما طمح ملك تشي إلى تحقيقه، لكنني لا أعرف كيف سيمضي في مشوار هجومه واحتلاله لأراضي الغير بعد أن أصاب الإنهاك شعبه، فتدهورت قواه وانحلت عزائمه! لا سيما وقد قيل إن طول أمد الحرب وكثرة المعارك تورث الناس الضنك والسأم، بالإضافة إلى ما تجنيه على القوات المتحاربة من الفتور والتعب.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وقال ملك يان: «قد بلغني أن دولة تشين تتميز أرضها بوجود موانع طبيعية تتمثل في نهري جيشوى والنهر الأصفر، كما أن لديها المناطق الحدودية الآمنة بما قام بها من حصون دفاعية طبيعية مثل السور العظيم «وجيوفانغ» [الباب الدفاعي] فهل هذا صحيح؟» فأجابه سوشتين: «ما لم تسنح الفرصة الملائمة (ويكون المناخ الطبيعي مواتيًا وعنصرًا فاعلًا في الدفاع عن البلاد) فما فائدة الأنهار والبحار (بوصفها موانع طبيعية)؟ وإذا ضعفت روح المقاومة وانحطت الهمم والعزائم (لدى الناس) فما النفع في الحصون والأسوار والجبال والحدود الدفاعية الآمنة؟ وقد كانت المنطقة الواقعة غرب نهر جيشوي، فيما مضى من الزمان في مأمنٍ من الهجمات المعادية (بما أخذت من أهبة الحذر والحيطة ضد إمكانية الاختراق من جانب دولة جاو) وكذلك كانت المنطقة الكائنة شمال النهر الأصفر بعيدة عن كل نُذر الخطر، بسبب ما اتُّخذ من إجراءات للسيطرة على الفوضى الداخلية.

إن الطغاة والمُستبدِّين من حكام الممالك لن يكترثوا لتدبر الخطط الدقيقة، كما أن رجال الدول المُفككة والمُتداعية سيتكالبون على النهب والسرقة (دون أن يردعهم رادع)، فإذا كنت يا مولاي ستُهمل شأن إخوتك وتفرط في جانب الرحمة والعناية بأولادك وتسلمهم إلى دولة تشي بوصفهم رهائن سلام، وتقدم الهدايا النفيسة رشوة لرجال البلاط في تلك الدولة، فهي لن تنسى جميلك، وستقدر مسلكك بكل امتنانٍ ويسهل عليها — بعدئذٍ — الفتك بدولة سونغ، وهو ما يعني أيضًا، أنه سيُصبح من السهل على دولة يان أن تقوم بتدمير تشي.» وهنالك قال له ملك يان: «قد أدركت أخيرًا أنك تتصرف بإلهام وتقدير سماوي.» فرد عليه تشانغي قال: «إذا ما استفحلت الاضطرابات، في الداخل، واشتد التنازع وعمت الفرقة،

عجز الجميع عن مقاومة العدوان الخارجي وليس عليك يا سيدي، سوى أن تحاول مقاومة دولة تشي، ومن ناحيتي، فسأحاول بشتى الطرق أن أزرع الفتنة والخلاف داخل دولة تشي نفسها، وفي عقر دارها، فتنبت عوامل الاضطراب والفوضى، ومن ثم تتهيأ الظروف لتدميرها، فلا تقوم لها، بعد ذلك، قائمة.»

لمَّا تولَّى الملك «كواي» العرش

بعد أن تولَّى الملك «كواي» عرش الحكم في دولة يان، وردت الأنباء من دولة تشي بأن سوتشين قد قُتل، وكان المذكور — أثناء إقامته بدولة يان — قد دخل في علاقة مصاهرة مع رئيس وزرائها «تسيجي»، وكذلك صار أخوه «سوداي» من أقرب الناس مودة لرئيس الوزراء، فلما مات سوتشين، أسرع الملك شيوان — حاكم تشي — بتعيين سوداي في وظيفة رسمية، وفي العام الثالث من حكم الملك «كواي» قامت دولتا يان وتشو، بالاشتراك مع الدول الثلاث: هان وجاو، ووي بمهاجمة دولة تشين، ثم إنهم لاقوا هزيمة منكرة، وانقلبوا خاسرين، وكان «تسيجي» وقتئذٍ، رئيسًا لوزراء يان، حيث كان مهيمنًا على الأحوال قابضًا على زمام الأمور، سائرًا بالبطش والاستبداد في الرعية (وفي ظل نفوذه ورئاسته) تم إيفاد سوداي إلى دولة يان، ممثلًا لدولة تشي، فلما مثل بين يدي ملك يان سأله جلالته قائلًا: «كيف حال الملك شيوان؟» فأجابه: «لا أظنه قادرًا على ارتقاء ذُرى السلطة النافذة فوق الممالك.» فلما سأله الملك عن السبب في قوله هذا، أجابه: «لأنه لا يثق في وزرائه.» وكان سوداي يقصد بذلك أن يحث ملك يان على الاهتمام بأمر تسيجي وتعظيم قدره، وهو ما انتبه إليه جلالته بالفعل، وأولاه ثقته. فلم ينس تسيجي هذا الفضل وبذل لـ سوداي الصلات والهدايا الثمينة [حرفيًّا: أهداه مائة مثقال من الذهب؛ علمًا بأن دلالة الأرقام في الصينية القديمة — وفي مثل هذا السياق — ليست حسابية وإنما بلاغية؛ فهو هنا لا يقصد مائة مثقال عدًّا، بل يريد معنى الكثرة البالغة] وصار يعمل بنصائحه ويمتثل لتوجيهاته.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وتحدث «لوماوشو» [كبير وزراء يان] إلى ملك يان فقال لجلالته: «أرى أنه من الأفضل أن تجعل لـ «تسيجي» السلطة العُليا في ترتيب شئون الدولة؛ فما استحق (الإمبراطور المقدس) «ياو» أن يوصف على مر التاريخ، بالحكمة والفضل، إلا لأنه أطلق يد «شيو» في شئون الممالك، وعلى الرغم من أن المذكور امتنع عن قبول المنصب، فإنه تنازل له عن الحكم مخلدًا

اسمه بالذكر الجميل (... أي أنه على الرغم من التنازل له عن إدارة شئون البلاد، فإنه بقي محتفظًا بالسيادة على مر التاريخ.) وأرى أن تجعل لـ «تسيجي» السلطة المطلقة فوق البلاد، وهو ما سيرفضه (أدبًا وحياءً) فيشيع لك الذكر بحُسن التصرف والحكمة والكياسة، مثلما شاعت سيرة الحكيم الأول «ياو».» فما كان من ملك يان، إلا أن قام بتسليم زمام السلطة ليد تسيجي، الذي عظمت مكانته وتنامى نفوذه، فذهب إلى ملك يان من قال له: «لمَّا قام الملك الحكيم «يو» بتقليد السلطة لـ «بويي»، فقد أمر له بمن يقوم على خدمته في ترتيب شئون الحكم وعين «تشي» مساعدًا رسميًّا له، فلمَّا شاخ «يو» وتقدمت به السن، اقتنع بأن المذكور (تشي) لا يصلح لشئون الحكم، ولا يملك مؤهلات الترقي ليكون مسئولًا، فيما بعد، عن تسيير دفة السياسة العليا في البلاد، وعلى ذلك فقد أوكل زمام السياسة العليا لـ «بويي»، فذؤب عليه قلب تشي، فجمع إليه أشياعه، فتربصوا بـ «بويي» حتى قتلوه، واستولوا على السلطة (وأما بالنسبة لما أريد قوله لك ...) فإني أرى أنك قد أوكلت شئون الحكم — اسميًّا فقط — إلى تسيجي، لكن النفوذ الحقيقي ما زال بيد سمو الأمير.» وعلى إثر ذلك، فقد قام ملك يان بسحب الخاتم الرسمي الخاص (بالراتب الممنوح للمسئول الرسمي) وسلمه ليد تسيجي، الذي أعلن لنفسه اللقب الملكي، وباشر بنفسه ترتيب شئون الحكم، وكان ملك يان (الرجل العجوز) قد شاخ جدًّا وعجز عن القيام بمهام سلطته، فاكتفى بمنصبٍ وزاري، على حين أسند النظر في شئون البلاد العليا إلى تسيجي.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وقام تسيجي على إدارة السياسة العليا في يان، فما كادت تمر ثلاث سنوات حتى اضطربت الأحوال، وعمَّت الفوضى كل الأرجاء وعانى الأهالي كل ألوان الضنك. وأخذ القائد العسكري البارز «شيبي»، مع سمو الأمير «زيبين» يُعدَّان العدة لمهاجمة تسيجي، فذهب «تشوزي» [رئيس وزراء دولة تشي] لمقابلة الملك شيوان — حاكم تشي — وقال لجلالته: «ما رأيك في أن تنتهز هذه الفرصة، فتهاجم دولة يان، فما أظن إلا أنك مُنتصر.» فأرسل الملك إلى الأمير زيبين مبعوثًا، يقول له: «قد بلغني أن سموك تقوم بمراجعة شئون الحكم في البلاد وأنك على وشك إلغاء نظام «السلطة الخاصة» وإحلال نظام «السلطة العامة» محلها، بالإضافة إلى مراجعة وضبط اختصاصات الوزراء والملك وتصحيح اللوائح المتعلقة بسلطات الملك والأمير، (وأبلغك) بأن بلادي ضئيلة الحجم، محدودة المساحة (ولا تملك مثل ما لديكم من المزايا) ومع ذلك فيسعدني أن أعرب لسموكم عن استعدادنا للعمل وفق مشورتكم والاقتداء برأيكم [حرفيًّا: «بأوامركم].»

وكان الأمير في تلك الأثناء يُعد أتباعه لأمرٍ مُهم، ويحشد الحشود وينظم الأتباع بينما كان القائد العسكري شيبي يحاصر القصر الملكي ويهاجم «تسيجي» الذي لم يستسلم، فحشد القائد العدد الغفير من الأهالي واقتحم بهم القصر وهاجم «تسيجي»، ثم حدث — فيما تلا ذلك من الأحداث — أن القائد شيبي لقي مصرعه، وجرى التنديد به وتكريسه علنًا، واستمرت الفوضى العارمة تجوس أنحاء دولة يان طيلة أشهُر، وزادت حصيلة القتلى عن عشرات الألوف، ولقي الناس الأهوال وكابدوا ما لا مزيد عليه من المحن والشدائد، وتفرقت الأهالي أيدي سبأ.

الجزء الرابع من الفصل نفسه

وذهب «منكا» إلى الملك شيوان — حاكم تشي — وقال لجلالته: «هذه هي الساعة المناسبة لمهاجمة دولة يان، (وما أشبه الليلة بالبارحة) إذ كانت تلك — أيضًا — هي الساعة التي انتهز توقيتها كل من: الملك «أون» والإمبراطور «أو» فهاجما (الطاغية) تشو (فيما مضى من أحداث الزمان البعيد) ولا ينبغي أن تُخطئ الفرصة السانحة.» فأرسل ملك تشي القائد العسكري «جانزي» على رأس قوات تشي، وقام بمهاجمة يان مستندًا، في ذلك إلى مظاهرة حاشدة من تأييد أهالي دولة تشي المقيمين بشمالي البلاد، ولم يُبدِ مقاتلو دولة يان أي حماسة تُذكَر في النهوض لرد العدوان، بل إنهم لم يغلقوا أبواب المدن (الرئيسية) ولقي الملك كواي — حاكم يان — مصرعه خلال الأحداث وتم النصر لدولة تشي (حيث أخضعت البلاد تحت سيطرتها) ومات تسيجي بين من لقوا حتفهم.

لمَّا طلب أخو سوتشين مقابلة ملك تشي

كان المدعو «سولي» (أخو سوتشين الأصغر) قد طلب مقابلة ملك تشي بخصوص المسائل المتعلقة برهائن دولة يان، ولمَّا كان جلالة الملك يبغض سوتشين، فقد أراد أن يعتقل أخاه الأصغر سولي، ويلقي به في غياهب السجن، فما كان من رهائن دولة يان إلا أن قدَّموا الاعتذار لجلالة الملك — باسم سولي — وطلبوا إليه الصفح عن المذكور وانتهى الأمر على ذلك، ثم إن الملك أقرَّه رسولًا لشئون الرهائن (من رعايا دولة يان) ولمَّا كانت هناك علاقة مصاهرة بين تسيجي، رئيس وزراء، يان، وبين سوداي، فقد فكر رئيس الوزراء في أن يستغل هذه العلاقة للاستحواذ على زمام السلطة في البلاد، ومن ثم (كخطوة عملية نحو

تحقيق هذا الهدف ...) فقد أرسل سوداي إلى دولة تشي بصفته مسئولًا عظيمًا عن شئون الرهائن، ثم إنه عاد من تلك المهمة ليرفع تقريره إلى دولة يان، والتقى بجلالة الملك كولي فسأله: «أتظن أن في مقدور ملك تشي أن يظفر بمكانة عظيمة من النفوذ فوق الممالك؟» فلمَّا أجابه بالنفي، سأله الملك عن السبب في ذلك، فأجابه: «لأنه لا يثق في وزرائه وكبار رجال دولته.» ولهذا السبب فقد أوكل الملك شئون الإدارة الحكومية إلى تسيجي، وبعد ذلك بفترة وجيزة تنحى عن العرش، فوقع الاضطراب في البلاد ودبت الفوضى في كل الأنحاء، وقامت تشي بمهاجمة يان وقتلت الملك كواي، وذبحت تسيجي، فساندت الأهالي الملك شاو وأنهضوه إلى عرش الحكم. وهكذا، فلم يجرؤ كل من سوداي وسولي على دخول دولة يان وما لبثا — في آخر المطاف — أن عادا إلى دولة تشي، فأحسنت استقبالهما وأكرمت وفادتهما.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وكان سوداي قد مرَّ في طريقه بدولة وي التي أسرعت إلى اعتقاله — رعايةً لمصالح دولة يان — فأرسلت دولة تشي إلى ملك وي تقول لجلالته: «كانت دولة تشي قد ألحَّت في طلب إقطاع أجزاء من أراضي سونغ للنبيل الماجد «جين يانجون» [أخو الملك تشاو حاكم تشين غير الشقيق] إلا أن دولة تشين رفضت هذه الطلب، ولم تكن تُنكر أن في اتحادها مع دولة تشي وحصولها على أراضٍ من دولة سونغ ما يمكن أن يعود عليها بالفائدة، لكن كل ما في الأمر هو أنها لم تكن تثق في ملك تشي، ولا في سوداي. أما وقد حلَّ الجفاء محل الودِّ بين البلدَين وي وتشي؛ فلم يعد ممكنًا لدولة تشي أن تخدع دولة تشين.

وإذا قُدر لدولة تشين أن تولي ثقتها لدولة تشي، وأن تقوم بينهما الوحدة، وأن يحصل الأمير جين يانجون على أرض دولة سونغ فلن يكون هذا في مصلحة دولة وي، وعلى ذلك؛ فإني أرى أنه من الأفضل أن تُرسل سوداي إلى تشي، وهو ما سوف يُثير الشك في قلب دولة تشين، فتنزع ثقتها من سوداي، وإذ يتعذَّر قيام الوحدة بين تشي وتشين، وتتطور الأحوال على وتيرة هادئة، دون أية أحداث طارئة، بين الممالك، تتهيأ الظروف وتحين الساعة الملائمة لضرب تشي.» وعلى إثر ذلك، فقد أصدر ملك وي توجيهاته إلى سوداي بسرعة الذهاب إلى دولة سونغ التي احتفت بمقدِمه وأكرمت ضيافته.

بعد أن استعاد الملك شاو أرض بلاده

بعد أن استعاد الملك شاو، حاكم دولة يان، أرض بلاده وهي حطام وبقايا دمار وأكوام مبعثرة، فقد باشر مهام منصبه، وكان أول ما أشرف عليه هو أنه (راح يعرض بنفسه ...) الهدايا الثمينة والمكافآت السخية لكل ذي موهبة أو براعة (ليُساعده على) الثأر والانتقام من المُعتدين على بلاده، [بل إنه تنازل عن أبهة الملك، وذهب بنفسه ...] للقاء «قاوي» [وزير التخطيط السياسي]، وقال له: «انتهزت دولة تشي فرصة وقوع الاضطرابات الداخلية ببلادنا فهاجمت العاصمة، وكان واضحًا أمامي مدى ما ينقص بلادنا من عناصر القوة وضعف مقدرتها عن المدافعة والتحدي، غير أني أرجو الآن أن أحشد معي الحكماء، ذوي النجابة لإصلاح أحوال بلادنا، بغية إزالة ما لحق بكرامة مليكنا الراحل من انتقاض لم يكن يليق به، فقل لي، إذن، ما الوسيلة لتعبئة قدراتنا بهدف رد الاعتبار؟» فأجابه «قاوي»: «الوسيلة المُثلى لذلك، أن يجلس الأباطرة مع المُعلمين الحكماء، وأن يلتقي الملوك مع الأصدقاء والرفاق، وأن يحتشد طلاب المجد (من رجال الحكم) مع الوزراء، بينما يجتمع [حرفيًّا: يوضع] أهالي البلد المنكوب بالاحتلال مع (موضع) الخدم والعبيد.

واعلم أنه ينبغي أيضًا التواضع والتفاني في خدمة كل ذي موهبة واقتدار. تطلع نحو الشمال، واطلب العلم الوافر، يأتك من يتفوقون عليك علمًا (مائة ضعف أو يزيد)، اخرج في طلب العلم أول النهار، واخلد إلى الراحة في مقتبل المساء، وليكن أول سعيك طلب النصح، وآخِر أمرك التأمُّل والاعتبار، يقصد إليك من يفوقونك معرفة (بما مقداره عشرة أضعاف ...) وإذا شهدت الناس يطلبون العلم، فاطلبه يأتك من يتساوون معك في النجابة.

فإذا قعدت متمكنًا على مرفقيك [حرفيًّا: إذا اعتمدت بكف يدك على منضدة] وأخذت تُشير بيد الأمر والنهي، مُنتفخ الأوداج مصعرًا خدك، فلن يُقبِل عليك إلا الخدم والأتباع (السوقة من الناس)؛ أما إذا أطلقت لنفسك عنان اللعب والمجون، فلن يقصد مجلسك إلا العبيد والأرقاء، فتلك هي مأثورات شيوخنا الأقدَمين في استقدام النابغين والنجباء، واستجلاب ذوي الكفاءة. فإذا استطعت أن تُحسن اختيار الأكفاء، واستقدامهم من أنحاء البلاد المختلفة، وأن تذهب بنفسك لزيارتهم والوقوف على أحوالهم فيتسامع الناس، في أنحاء الممالك، بصنيعك هذا، ويرددون فيما بينهم أنك تزور الحكماء وأهل العلم من رعاياك، وعندئذٍ يُهرع إليك، من شتى البقاع، كل صاحب موهبة ومقدرة ونبوغ.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وقال ملك يان: «فمن — في رأيك — الأجدر بإنفاذ العزم على زيارته؟» فأجابه «قاوي»، قائلًا: «قد بلغني أن أحد ملوك الزمان الغابر، أراد أن ينفق ألف مثقال من الذهب لشراء ألف جواد، وظل ثلاث سنوات يجتهد في تحقيق غايته، دون جدوى، وتصادف أنه التقى بأحد الموظفين المسئولين عن النظافة العامة بالقصر الملكي، وكان قد تقدم إلى جلالته، وقال له: «أرجو من جلالتك، السماح لي بالذهاب لشراء ألف حصان.» فوافق الملك على طلبه، وبعد ثلاثة أشهر كان الرجل قد استطاع أن يشتري الجياد الألف، إلا أنها نفقت عن آخرها (فما كان من الرجل إلا أن ...) دفع خمسمائة مثقال فقط لشراء رءوس الجياد، ولمَّا عاد، أبلغ الملك بكل التفاصيل، فغضب جلالته بشدة، قائلًا: «ما أردتُ إلا الجياد الحية، فما النفع في رءوس جياد نافقة، ألهذا دفعت كل تلك التكاليف؟» فأجابه الموظف: «إذا كنت قد اشتريت رءوس جياد نافقة بخمسمائة مثقال من الذهب، فسيظن الناس أنك قادر على شراء أحسن الجياد (بأي ثمن) وهنالك فسوف تأتيك أحسن فصائل الجياد.» وما كاد ينقضي عام على تلك الواقعة، حتى بلغ عدد الأفراس الواقفة بباب القصر ثلاثة من أحسن فصيل.

فإذا كنت يا مولاي تريد أن تستقدم أكثر الناس نبوغًا واقتدارًا، فلا بد أنهم سيفدون عليك، مهما بَعدت بهم المسافات وطال السفر!» وحدث أن الملك شاو، حاكم يان، قد أمر ببناء قصر فخم لوزيره «قاوي» وأسكنه في أبهى مقام، وتردَّد عليه؛ لينهل من علمه الغزير، ويستزيد من نصائحه. (وتوافد النابغون على البلاد ... حيث) جاء «يوي» [أحد أعظم وأشهر القادة العسكريين بدولة يان] من دولة وي، كما جاء «تسويان» [أحد أهم الفلاسفة في أواخر عصر الدول المتحاربة] من دولة تشي، وجاء جيوشين [من أشهر الموظفين بالبلاط الملكي لدولة يان] من دولة جاو، وأصبح النجباء والنابغون يتوافدون على البلاد من كل صوب، أما ملك يان (فقد سار في الناس بسياسة حسنة، فـ ...) ما كان يهمل واجب العزاء فيمن توفي من الناس، ولا انقطع عن مواساة الأحياء، وكثيرًا ما تقاسم مع الناس حلو الأيام ومرِّها، فلما كملت له — في الحكم — عشرون عامًا، كان قد توطد عرشه وفاضت لديه ذخائر النعيم، وصار يرفل في اليُسر والرخاء. وترسخت عزيمة جنده، واحتدت نصال بأسِه، وهنالك أصدر الملك قرارًا بتولية يوي قيادة الجيش، ورتب أمره بحيث يشترك مع تشين، وتشو و(دويلات جين الثلاث) في التخطيط لمهاجمة دولة تشي. وحدث أنَّ هذه الأخيرة لقيت على يدَيه أسوأ هزيمة، وفر حاكمها — الملك مين — إلى خارج

البلاد، وطاردت قوات يان فلول دولة تشي الهاربة حتى بلغت منطقة «لين تسي» واستولت على كنوز تلك الدولة ونفائسها، وعاثت في أرضها، حتى أحرقت معابدها وأتلفت مبانيها ومنشآتها الحكومية، ولم تنجُ من الدمار الشامل سوى مدينتَين اثنتَين فقط من مدنها، هما: «أينع»، «جيمو».

لمَّا قامت دولة تشي بمهاجمة سونغ

قامت دولة تشي بمهاجمة سونغ، فأوقعت بها الاضطراب ودفعتها إلى حافة المهالك، فأرسل سوداي خطابًا إلى الملك شاو، حاكم يان يقول له فيه، ما مفاده: «إن دولة يان تدخل في عداد الدول ذات التسلح الكبير بما تحوزه من عشرة آلاف عربة عسكرية، ومع ذلك فهي تسكت على ما تتحفظ عليه دولة تشي من رهائن، ولا شك أن ذلك من علامات التقليل من شأن يان وانتقاص سلطتها، (وهو أمر من شأنه أن يدعم من هجوم تشي على سونغ.) بالإضافة إلى أنه يرهق كاهل الناس ويُبدِّد الكثير من المال بغير طائل، ويؤدي إلى تدمير دولة سونغ، واحتلال منطقة «هوابي» بدولة تشو، ويزيد في الرقعة التي تحتلها تشي وتفرض عليها نفوذها؛ وباختصار، (فستكون النتيجة) تعظيم قوة العدو، وإضعاف طاقة بلادنا. وتلك النتائج الثلاث، تُعد أعظم المخاطر التي تواجهها البلاد، ولا أرى إلا أنك متغافل عن ذلك، بل إنك تتصرف على نحو يساعد على تفاقم الخطر، بما تُقدمه من مساعدة لدولة تشي تتجاوز الأزمة (في محاولة لكسب ثقتها) ولا أظن أن تشي على استعداد لبناء جسور الثقة القوية معك، بل العكس هو الصحيح، بمعنى أن كراهيتها لك ولدولة يان ستتعاظم عن ذي قبل، ولذلك، فإن وقوفك في صف دولة تشي يُعد مسلكًا خاطئًا من كل الوجوه، لا سيما أن إنهاك قوى شعبك وتبديد موارده المالية لا يعود عليك بأي نفع، ولا يُحسَب من بين مآثرك الجليلة، ثم إن تدمير دولة سونغ يوسع جبهة الأعداء ويزيد في مساحة التربص العدواني ويورث الأجيال مخاطر وأعباء (مواجهات متحفزة)، وإذا ما جمعت وزن وقيمة دولة سونغ إلى «هوابي» وجدت أنهما أقوى من دولة تملك العدة والعتاد [حرفيًّا: دولة ذات عشرة آلاف عربة عسكرية] فإذا ما استطاعت دولة تشي ضم هاتَين القوتَين إلى أرضها، فمعنى هذا أنك ستكون أمام دولة تشي مضافة إلى قوتها ومضاعفة بما انضم إليها؛ ذلك أن إضافة (منطقة مثل): «جيوي» بمساحتها البالغة سبعمائة لي مربع، إلى دويلتي «لو»، و«ويه» يساوي ما قلت لك آنفًا، إنه يناظر حصيلة قوة دولة ذات العدة والعتاد الهائل (… بل أكثر من ذلك على وجه التقريب) فإذا ما استولت دولة تشي على كل ذلك، فيمكن أن

نتصوَّر أنها ضمت ما يوازي مساحتها وقوتها الأصلية (بالزيادة المضاعفة) أي أنك ستجد نفسك أمام تشي ضعف نفسها مرتَين تقريبًا. وعندما تصير تشي بهذا القدر، فسيصعب عليك أن تتوازن معها أو تتكافأ مع ميزان قوتها، ثم إن «يان» — وحدها — بمواجهة تشي مضاعفة مرتَين أو ثلاثًا، يجلب معه من المخاطر ما لا قبل لك به.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وعلى الرغم من أي شيء، فمن المعلوم أن الحكيم يستطيع أن يجعل من وجه الخطر واجهة أمان، ومن داهم النذُر بشير حظٍّ طيب، وبشرى واعدة بإقبال الزمان، كما أن العاقل هو وحده الذي يستطيع أن يُحيل الهزيمة إلى نصر، والإخفاق إلى نجاح باهر. وقد ذكر الناس أن أهل تشي يُجيدون تحويل الأشياء القديمة من مقتنياتهم وأدوات الحياة حولهم (مما تقادم به العهد) إلى آلات عملية جديدة (وغالية الثمن) بما برعوا في طلائها باللون الأرجواني [... فهذا مثال بارز لما يمكن تحويله إلى النقيض].

وقيل (في الحوادث) إن الملك قوجيان (حاكم دويلة يوي) كان لفترة من الزمن مقيمًا بكهوف وأغوار جبل «كوايجي» متخذا لنفسه منها حصنًا منيعًا، لكنه تمكن فيما بعد، من (النهوض من عثرته) والقضاء على دولة «أو» وتنصيب نفسه إمبراطورًا فوق الممالك، فهذه كلها أمثلة على ما يستطيعه الناس من تغيير النوازل المُهلكة إلى بشائر للحظ السعيد، ومن تحويل مرارة الهزيمة إلى حلاوة النصر. فهل تريد، يا مولاي، أن تسلك على هذا المنوال؟ وأرى أنك لو كنت تريد أن تحيل الهزيمة إلى نصر، والانكسار إلى صمود، فدع دولة تشي تفرض سلطانها فوق الأراضي البعيدة، وأن تُحرضها على ذلك، وتُثني عليها باستمرار، ثُم ترسل من عندك وفدًا للتحالف مع آل جو، (في محاولة لقطع العلاقات بين تشين وأذنابها) وبناء اتفاق جديد يقوم على «ضرب دولة تشين» باعتباره خطةً أساسية ذات أهمية فائقة، واستبعادها ونبذها من محيط العلاقات بين الممالك. وإذ تجد تشين نفسها خارج دائرة الاهتمام والتأثير، فسوف تُصبح عرضة للاعتداء وهنالك يستولي الرعب على قلب حاكمها.

قد ظلت تشين منذ خمسة عهود، توالي الهجوم والاعتداء على الدويلات، لكنها اليوم أضعف كثيرًا (بحيث تأتي في درجة القوة بعد تشين) ولا بد من أن القصر الحاكم هناك، سوف يعزم على أن يسد كل الطرق المفتوحة أمام دولة تشي، بحيث يوقعها في مأزقٍ لا مخرج لها منه، مهما كلَّفه ذلك من تضحيات.

فما دام الأمر كذلك، فما الذي يمنعك من أن تُرسِل (واحدًا من أفراد الناس العاديين) في محاولة للتأثير على تشين باستخدام فكرة الإيقاع بدولة تشي في ورطة لا مخرج منها، على أن يُقال لملك تشين (ما نصه): «إن دولتي جاو ويان، تريدان اقتحام دولة سونغ لتوسيع مساحة تشي في محاولة لاسترضائها، ولا مانع لديهما من أن يعلو شأنها ويعظم نفوذها وسلطانها أكثر مما يتمتَّعان به من مكانةٍ فلا غرو، إذن، أن يركعا عند أعتابها وتتراجع منزلتهما دونها، وهو ما لا يُجديهما أي نفع، (ولنتساءل ...) عن السبب الذي يدفعهما إلى مثل هذا التصرف ويملي عليهما أن يسلكا في هذا السبيل، وهما تعلمان تمامًا أنه لا فائدة تعود عليهما منه.» وليست هنالك سوى إجابة واحدة، وهي عدم الثقة في دولة تشين وحاكمها. فلماذا لا تبادر الآن، يا مولاي، وترسل إلى دولتي يان وجاو من يحظى بثقتهما بحيث يقنعهما بالتحالف وتنسيق جهودهما معًا، فابعث «جين يانغ» أو «قاولين» إليهما، (وارقب الحوادث عن كثب ...) فإذا دهمت الخطوب دولة تشين، فيمكن أن تطلُب إلى أحد الرجلَين أن يبقى بوصفه رهينةً لضمان السلام، وهي الوسيلة التي يمكن أن تُدخِل بها الطمأنينة على قلب دولتي جاو ويان؛ بحيث تنظران إلى دولة تشين بعين الثقة. وإذ يُصبح ملك تشين، سيدًا على المنطقة الغربية وملك جاو زعيمًا على المنطقة الوسطى، وحاكم يان مهيمنًا على المنطقة الشمالية، فسوف تنعقد للحكام الثلاثة ألوية السيادة المُطلقة فوق الدويلات والأمم؛ فإذا أبدت هان أو وي العصيان، هاجمهما ملك تشين، وإذا تمرَّدت دولة تشي قامت كل من يان وجاو بشن الغارة عليها. فمن ذا يجسر بعد ذلك على شقِّ عصا الطاعة؟

لا شك أن الجميع سيخضع بالإذعان، ثم إن الظروف ستدفع دولتي وي وهان إلى مهاجمة تشي، وتطالبانها بإعادة أرض سونغ وأرض «هوايبي» [التابعة لدولة تشو] وهو ما يمثل مكسبًا عظيمًا لِكلا الدولتين (إذا ما تحقق فعلًا وعادت الأرض المطلوبة!). إن إقامة الزعامات الثلاث هو الأمل الذي تصبو إلى تحقيقه الدولتان يان وجاو. وهو أيضًا الأمل الذي إذا تحقق، فإنهما سوف تتمردان على دولة تشي، وتتخليان عنها كما يتخلى المرء عن الحذاء المُهترئ البالي.

إن عدم إقامة الوحدة بينك وبين يان وجاو، يجعل دولة تشي تنجح في تقلد زمام السلطة العالية ويُصبح ملكها إمبراطورًا ذا شأن. وعندما تخضع له الممالك بالطاعة، وتأبى جلالتك أن تُذعن له، فسوف تتسبب بهذا المسلك في تعريض دولة تشين لخطر الهجوم، لكنك إذا سايرت باقي الدويلات في الخضوع لملك تشي، فإن مثل هذا التصرف خليق بأن يُقلل من شأنك، ويودي بسمعتك.

كما أن امتناعك عن الوحدة مع يان وجاو سيجلب عليك نفس النتيجة، ويُعرض البلاد للخطر، لكن اتحادك معهما يرفع كثيرًا من مكانتك ويُبجل قدرك، ويحمي البلاد بمظلة الأمان والاستقرار، (وبالطبع) فلا يمكن للعاقل الحكيم أن يُضحي بمكانته واحترامه استجلابًا للصَّغار والضعة، واستنفارًا للكوارث والنوائب.»

فما إن تُلقى مثل هذه الكلمات على مسامع ملك تشين، حتى تنغرس أشواك الألم في صدره ويغوص القلق كأسياخ الحديد في قلبه، فلماذا لا تبادر، على الفور، إلى إرسال أحد النجباء إلى دولة تشين ليبلغهم بتلك المقالة؟ ولا أظن أن ملك تشين يمكن أن يقعد عن مهاجمة تشي، بل سيُهرع إلى شن الغارة عليها. إن الاتحاد مع تشين يعد أرفع مستوى من العلاقات الودية والرسمية، ومهاجمة تشي هي الوسيلة إلى اجتناء المنافع الحقيقية. (فاعلم) أن احترام المستويات الفائقة من العلاقات الودية، والسعي لتحصيل المزايا والثمرات النافعة جزء أساسي من منهاج الأباطرة الحكماء.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

واعتبر الملك شاو، حاكم يان، أن خطاب سوداي جيد المعنى، سديد الفكرة رائع الصياغة، فتحدث قائلًا: «كان الملك الراحل [حرفيًّا: والدنا الملك السابق] ذا أيادٍ كريمة على سوداي، الذي ما كان يمكن أن يُغادر البلاد إلا بسبب ما حدث من قلاقل (على يد تسيجي) ولا بد لدولة يان أن تثأر لنفسها من تشي، ولذلك فلا غناء لها عن الاستعانة بما يمكن أن يقدمه سوداي من مساندة.» ومن ثم، فقد استدعى سوداي، وبذل له الصلات الوافرة، وأكرم وفادته. وراح يُعد معه خطط غزو دولة تشي، حتى تم له ذلك وأنزل بها هزيمة مدوية، ففرَّ حاكمها، الملك مين خارج البلاد.

لمَّا تحدث سوداي إلى الملك شاو

تحدث سوداي إلى الملك شاو، حاكم، يان فقال لجلالته: «لو كان بيننا الآن، رجل يقوم على خدمتك بكل البر والإخلاص [على نحو ما اشتهر به «سنغ سن» و«شياوجي»] وبمُنتهى الثقة [مثل «ويشن»] وغاية النزاهة والاستقامة [على غرار ما استقام عليه، كل من «باوجياو»، «شي تشيو] تُرى كيف كان يمكن أن يكون الحال؟» فأجابه الملك: «لو تحقق ذلك التصور لكان فيه الكفاية.» فأسرع سوداي بالرد قائلًا: «لو كان في ذلك الكفاية، لما كانت بي حاجة لخدمتك، وما كنت أستطيع أن أُنجز أمرًا ذا قيمة، سوى أن أذهب إلى

أرض جو فأحرث الأرض وأسقي الزرع وأغزل الثياب وأتناول ما تيسَّر من الطعام.» فلما سأله ملك يان عن السبب في قوله هذا، أجابه: «لأن البارَّ بأبويه، المُخلص لأولياء أمره مثل «سنغ سن»، و«شياوجي»، ليس إلا ابنًا رحيمًا بالوالدين غاية أمره أن يَعولهما (لا أكثر ولا أقل من ذلك)، أمَّا الأمين الحافظ للثقة، الوفي بالعهد، فليس إلا مُخادعًا، بيدَ أن النزيه، طاهر الذمة المُتعفف عن الطمع فيما لا يملك، لا فضل له سوى الزهد والامتناع عن سرقة ممتلكات الآخرين، لكني أتأمل الأحوال جميعًا، وأجدني أكثر ميلًا لروح المبادرة ونوازع الطموح، وأرى أنه لا يمكن للمرء أن يجمع في نفسٍ واحدة بين النزاهة ورفعة الشأن، وبلوغ الحظوة والجاه العظيم، كما أنه يستحيل أن تمضي الثقة مع الحياة في طريق واحد، أما البر والرحمة والطاعة فليست سوى قواعد (أخلاقية) للتهذيب الذاتي، لكنها أبعد ما تكون عن دوافع وغايات المبادرة والطموح.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

فقال له ملك يان: «ألا يكفي الإنسان أن يسعى للتهذيب الذاتي والتجمُّل بأحسن الأخلاق؟» فأجابه سوداي: «إذا اعتبرنا أن التخلق بالفضائل يكفي تمامًا، فلن تخرج دولة تشين بقواتها من الحدود الحصينة القائمة عند جبل شياو، ولن تقدم دولة تشي على تحريك قواتها من منطقة «إينغ تشيو» وكذلك أن تُبادر دولة تشو إلى دفع قواتها عبر نهر «جوجانغ» (وفي الحقيقة، فما كان ...) للملوك الثلاثة [الأعظم شهرة في التاريخ القديم] أن يتلاحقوا على عرش الحكم، خلفًا في إثر سلف، ولا للأباطرة الخمسة أن يتداولوا لواء السطوة النافذة فوق الممالك، لو كانوا جميعًا مدفوعين لتحقيق التهذيب الأخلاقي والتحلي بالفضائل، ولو كان مثل ذلك المسعى للتجمل بالأخلاق مطلوبًا لذاته، وفيه كل غناء وكفاية، لكنتُ قد عدت إلى بلدتي (في دولة جو) أحرث الأرض وأزرع الحقول، دون أن تكون بي حاجة إلى المجيء إليكم وإزعاجكم بوجودي بينكم!

كانت دولة تشو فيما مضى من الزمان قد احتلت منطقة «جانو»، فما كان من أمراء الدويلات إلا أن هُرعوا لتقديم الطاعة لدى البلاط الملكي، ولما احتلت تشين منطقة جبل «شي»، أسرع أمراء الممالك إلى أعتاب القصر الحاكم لتقديم التحية والطاعة. ولولا أن قمت بسحب قواتك من أرض «شاندي» [بدولة جو] لما استدار الأمراء بعرباتهم ومواكبهم مُتجهين صوب بلد آخر (يقدمون له أسمى دلائل الطاعة والخضوع).

وقد بلغني أن القائم على ضبط شئون الحكم يبدأ بتأمل مساحة بلاده، ثم يُراجع مدى ما تملكه من قوة عسكرية، ليسلك بذلك أول طريق النجاح وإنجاز المآثر الباهرة. أمَّا

أولئك الذين تنقصهم الدراية والوعي بترتيب شئون الحكم، فإنهم يعجزون عن تدبر تلك الأمور، ومن ثم لا يستطيعون تقدير قدراتهم القتالية، فلا يتحقق لهم إنجاز يذكر. (ومن الواضح تمامًا) أن جلالتك تفكر جديًّا في الاتجاه شرقًا لمهاجمة دولة تشي، تلك مسألة أدركتها بذكائي المُتواضع وتفكيري الضحل.»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وقال ملك يان «وكيف عرفت ذلك؟» فأجابه سوداي: «لطالما رأيتك تطلع إلى قمم الجبال متقلدًا سيفك، أو مُمسكًا رمحك، وعلى وجهك أمارات الترقُّب والتحفز؛ ففهمتُ مقصدك، واعلم أنه لا غنى للبطل الصنديد، أو حتى لرافع الأثقال والحديد، عمن يُسانده ويشد أزره. ثم إنه من الواضح أن دولة تشي يمكن أن تتلقى الضربة القاضية مما يُعجل بنهايتها المحتومة، لا سيما أن دولة سونغ، الواقعة إلى غربها، قد حشدت الحشود وعبَّأت القوات، هذا بالإضافة إلى أن قوات دولة تشو — الكائنة إلى الجنوب منها — ليست بالقدْر الذي يؤهِّلها لمساندتها بسبب ما أصابها من الإرهاق، بل يمكن كذلك احتلال منطقة «هجيان» — من أراضي تشي — بالكامل، وذلك على الرغم مما يُميز قواتها من التفوق والاقتدار، وما تحوزه من التسلُّح والقوة.» فقال له الملك شاو: «هذا عظيم جدًّا، وما دام الأمر كذلك، فاسمح لي بأن أُعيِّنك في منصب «الوزير الأكبر» وأبعثك على رأس القوات والخيَّالة [حرفيًّا: مائة عربة عسكرية وعدد وافر من راكبي الجياد] صوب دولة تشي — جهة الشرق — لتتكلَّم معها بالإنابة عني، حسبما تكلمت أنت به الآن عسى أن تستطيع زرع بذور الفتنة والخلاف (بين الأطراف المتصارعة) فما رأيك؟» فرد سوداي، قائلًا: «أعرف أنك ما كنت لتتكرم عليَّ بهذا الإنعام إلا لما أغدقت به عليَّ من العطف والود، وكم كنت أودُّ أن ينال قدرًا من هذا التكريم أحد من ذوي قُرباك أو من أولادك وأحفادك (الذين لا يقدرون على المشي)؟ فمن أكون أنا حتى تمنحني هذا التكريم دونهم جميعًا؟ إنني ما أقمت بين ظهرانيكم ولا بقيتُ في خدمة جلالتك إلا اجتهادًا في الإخلاص وحرصًا على الفوز بثقتك، وهو — وإن كان يُسعدني بما ألقاه على يديك من التقدير والتكريم، إلا أنه يُشقيني بما أخشاه من مقت حاشيتك وكراهية أتباعك.»

الجزء الرابع من الفصل نفسه

وأجاب عليه ملك يان، قائلًا: «منذ متى كان التفاني والجد وبذل كل الجهد وتبيان أوجه المهارة والبراعة، جالبًا للمقت والكراهية؟» فأجابه سوداي: «ائذن لي بأن أضرب لجلالتك مثلًا على ذلك؛ فممَّا يُحكى في القصص المأثورة عن وقائع حدثت بدولة تشو منذ زمان، في منطقة اسمها «شاندي»، أن أحد الموظفين الكبار. — من المتزوجين — اضطرته الظروف أن يغيب عن بيته ثلاث سنوات كاملة، وكان يعمل فيها خارج البلاد، فنشأت علاقة سرية بين زوجته وبين أحد الأشخاص، وكان لما انفرد بها ذات يوم قال لها: «قد أوشك زوجك على العودة، فما العمل إذن؟» فأجابته: «لا تخشَ شيئًا فقد أعددتُ السم في الدواء، وسأناوله له بعد أن يجيء.» فلما حضر بعد غيبته، أمرت الزوجة الخادمة أن تخلِط السمَّ بالدواء وتناوله إياه، فلما مشت بالكوب إليه وهي تعلم ما انطوى عليه طيُّ الخفاء، ناجت نفسها قائلة: «إذا أعطيته السمَّ مات، وإذا صارحته بحقيقة الحال، طرد المرأة الزوجة؛ فلا هذا بالرأي ولا ذاك، وإنما الأفضل أن أتظاهر بأني تعثرتُ في بعض الطريق، وأرتمي على الأرض فينكسر القدح وينتهي الأمر.»

وبالفعل فقد مضت الأمور على هذا النحو؛ إذ إنها تظاهرت بالتعثُّر، فوقعت الكأس وانكسرت، وقالت الزوجة (لزوجها وهي تُكلمه): «كنت قد أعددتُ لك قدحًا من خمر مُعتقة احتفاء بقدومك سالمًا بعد مشاقِّ السفر ووعثاء الطريق، لكن الخادمة كسرت الكأس وأراقت الشراب.» فما كان من الزوج الغافل إلا أن قام إلى الخادمة فقيَّدها وضربها. (والعبرة المُستفادة من ذلك ...) أن التفاني في الإخلاص كاد أن يودي بالخادمة وهو السبب فيما لاقته من التعذيب، وها أنا ذا الآن أشق طريقي مسافرًا إلى دولة تشي مبعوثًا من جانبك، وأخشى أن يكون إخلاصي لك محلَّ سوء فهم من حاشيتك.

وقد بلغني (من مأثور القول) أنه: «ليس للأمير — الذي بيده زمام الأمور ومقاليد السلطة — أن يُذعن لنفوذ الوزير، ولا للفارس ذي الخيل والجياد أن يضع عنان فرسه بيد الجمهور، ولا الرجل البسيط — الذي لا يملك فرسًا ولا لجامًا — [هكذا] أن يذل عنقه لزوجة أو محظية.» فما بالك بأكثر الملوك رجاحة عقل وحكمةً ووعيًا وبصيرة؟ فائذن لي في الخروج الآن، وأرجو ألا تنساق وراء حجج أتباعك، وألا تجعل نفسك مطية أهوائهم.»

لمَّا تكلم ملك يان إلى سوداي

تكلم ملك يان مع سوداي فقال له: «ما أبغض مقالة المُخادعين والمنافقين!» فأجابه بقوله: «إن أهل دولة جو يحتقرون الخاطبة؛ لأنها تمدح الطرفَين، الفتى والفتاة كليهما، فتقول لأهله إنها أجمل بنت رأتها في حياتها. وتقول لأهلها: «إنه أوفر الرجال مالًا وثروة.» (لا مفرَّ من ذلك، لأن من المعهود ...) في أعراف دولة جو السائدة، أنه لا يحق للفتى أن يختار لنفسه زوجته، ولا يمكن للفتاة أن تتزوج بغير وسيط، حتى لو أدركتها الشيخوخة، فهي لا تتزوج [حرفيًّا: لا تخرج من البيت] إلا بهذه الطريقة، ومن المُستحيل أن تتم زيجة بغير خاطبة، حتى لو ألقى المرء عن نفسه وعائلته قصائد المدح المطولة، أو ظل يتحدث عن مزاياه وخصاله الحسنة إلى أن تهترئ شفتاه وتتآكل أسنانه [هكذا حرفيًّا] من كثرة الكلام. ولا بأس من مجاراة العرف السائد، فهو على الأقل، يوفر الجهد والكلام بغير جدوى ما دامت الخاطبة ستقوم بالمطلوب على أحسن وجه. (وإذا كان الأمر كذلك في موضوع الزواج ...) فما بالك بشئون الحكم، التي لا مفر فيها من التقيد بفنون القيادة ومهارات إدارة السلطة، وإلا تعقدت الأحوال، وتعثرت كل الدروب، فلا نجاح إلا باللجوء إلى طرائق الحكم وأحوال استخدام القوة والنفوذ. أما أن يَجني الإنسان ثمرات النجاح وهو قاعد مكانه، فهذا ما يُردِّده المُخادعون وحدهم.» فوافقه الملك على رأيه وقد اتضح له وجه السداد والحكمة.

سجل يان الثاني

لمَّا طلبت دولة تشين من جلالة الملك

طلبت دولة تشين إلى الملك شاو، حاكم يان، الذهاب إليها (على عجل) فقرر أمره على الذهاب إلا أن سوداي اختلف معه في ذلك، بل منعه منعًا صريحًا من تلبية طلبها، قائلًا لجلالته: «قد خسرت دولة تشو أرضها، على الرغم مما كانت قد حصلت عليه، (عاد إلى سيادتها) من أراضي منطقة «جيدي» وكذلك هلكت دولة تشي، على الرغم مما سبق أن حازته من أرض سونغ، ثم إن هاتين الدولتين تشي وتشو لم تعتبرا أن حصولهما على تلك الأراضي سبب كافٍ يدعوهما للذهاب إلى دولة تشين لتقديم الاعتراف بالسيادة لها، لماذا؟ لأن كل البلاد المنتصرة تصبح قذًى في عين تشين، فلا تلبث إلا أن تمقُتها وتنظر إليها بكل البُغض والكراهية. إن سياسة تشين التي ترمي إلى السيطرة على الممالك التي فوق الأرض: [حرفيًّا: «التي تحت السماء»] لا تهدف إلى نشر لواء العدل والرحمة، بل إلى تحقيق السيادة المطلقة والطغيان والاستبداد، وفي سبيلها إلى هذه الغاية، فقد صرحت بنواياها إلى تشو، قائلة لها، دون مواربة، ما نصه: «إن قوات «شودي» سوف تمخر عباب الماء وتسرع بحذاء الشاطئ، حتى تدخل نهر اليانغتسي، مستغلة في ذلك ارتفاع المد إبان شهور الصيف، وفي خلال خمسة أيام ستصل إلى «إينغ». أما القوات المتمركزة في «هانجون»، فسوف تنطلق بحرًا من منطقة «طاباشان»، وتنتهز فرصة المد النهري في شهور الصيف، فتسافر عبر نهر «هان» حتى تصل بعد أربعة أيام إلى «أوتشو»، بينما نقوم نحن (ملك تشين) بحشد القوات في منطقة «أودي» [تنطق كما في «أوديب»] ثم ننطلق صوب الشرق لمداهمة أرض «صودي»، فلا يكاد السياسي النجيب يجد وسيلة للتخطيط (السريع لمواجهة الموقف الداهم) ولا الشجاع يجد وقتًا للانفعال والتحمس، فأنطلق إلى أهدافي كوثبةِ الباشق

أو كانقضاض النسر المُتحفز، بينما يبقى جلالة ملك تشو لحين انتهاء الأمراء من ضرب «هانكو»؛ أليس هذا أفضل كثيرًا بالنسبة لكم (وأكثر نأيًا عن مغبة الحوادث؟).» وبسبب ذلك فقد بقي ملك تشو، يقوم على خدمة مصالح تشين مدة سبعة عشر عامًا.

كما قد سبق لملك تشين أن قال بصراحة تامة، ودون مواراة، لدولة هان: «سوف أنطلق بالقوات من منطقة «ساوتشي» حتى أبلغ في مسيرة يومٍ واحد، ما يُمكِّنني من قطع الطريق الرئيسي في «تايشين» ثم أنطلق بالجيش من «إيانغ» حتى أصل إلى «بينيان» فأنزل على الدول الست بعد مسيرة يومَين، (كما تنزل العاصفة) فأزلزل أركانها، ثم أُخلف ورائي دولتي جو كلتيهما مُتجهًا إلى أرض «جنغ» مما يمكنني — بعد خمسة أيام — من مهاجمة بلادكم فلا أدع فيها حجرًا قائمًا على حجر.» ووقع في روع دولة هان أن الأمور يمكن أن تمضي على هذا النحو حقًّا، فذهبوا إلى تشين وقدموا إليها الخضوع والطاعة.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

كما أن ملك تشين تحدث بنفس اللهجة الصريحة إلى ملك وي قائلًا: «سوف أهاجم منطقة «آني» لكي أقطع طرق المواصلات الرئيسية في «نيوجي» ثم أقطع خطوط المواصلات بين هان وتايشين، ثم أتقدَّم من منطقة «جيدي»، فأحاصر دولتي جو (الشرقية والغربية) وأنتهز فرصة ارتفاع المد في النهر في هذا الوقت من السنة، فأنطلق في المراكب أخوض إلى الأمام، تسبقني السهام الطائرة عن قوسي، وتردفني الرماح والنصال المُدببة حتى يتم لي الاستيلاء على مصب نهر «شينزي» وهنالك تكون مدينة طاليان قد وقعت في قبضتي تمامًا، فأشق نهر «بايما» وأتقدم حتى تستسلم لي منطقة جيانغ (من أعمال وي)، ثم إذا بلغتُ مصب نهر «شوشيو» فستكون دولة وي قد خسرت منطقتي «شيودي» و«طونشيو»، وإذا حاربت في البر، فستكون لي الغلبة على «هيني»؛ أما إذا هاجمتكم من البحر فسوف أدك حصون طاليان دكًّا شنيعًا.» ولم تلبث دولة وي، وقد هالها أن تتحقق تلك الخطة، أن هُرعت إلى أعتاب تشين تعلن الخضوع والطاعة. وأرادت تشين مهاجمة «آني»، لكنها قدرت أن دولة تشي سوف تهب لنجدتها، فتنازلت لها عن أرض سونغ، وكان أن تحدث، حينئذٍ، ملك تشين، قائلًا: «إن ملك دولة سونغ يسلك قبيح المسالك والسبل اللاأخلاقية؛ فقد بلغني أنه يصنع دُمى خشبية شبيهة بي، لها نفس ملامحي، ثم يصوب عليها بسهامه متخذًا منها هدفًا للرماية، والمسافة بين أرضنا ودولة سونغ بعيدة جدًّا، فيصعب عليَّ مهاجمتها، فاخرج إليها وارفع عليها سيفك، فإذا بسطتَ فوقها نفوذك، فسوف تُحقق لي رغبتي،

كأنني أنا الذي استوليتُ عليها.» وبعد أن تم لدولة تشين احتلال «آني» وقطع طرق المواصلات بمنطقة «نيوجي» (أخذت تنظر إلى الأمر من زاوية مختلفة ...) وصارت تعتبر ما قامت به تشي من غزو سونغ جريمةً لا تُغتفر[!!]

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وكذلك بَدَا لدولة تشين أن تهاجم «هان»، لكنها — في الوقت نفسه — كانت تتحسب لاحتمال أن تقوم الدويلات بمساندتها، فألقت إليهم بدولة تشي فريسةً يُقطعون أوصالها، قائلة لهم: «سبق لدولة تشي أن وقَّعت معي المواثيق والاتفاقيات أربع مرات ولم تفِ في واحدةٍ منها بعهدها، بل قادت الدويلات الستِّ لمهاجمتي أكثر من مرة؛ لذلك فلن تُظلنا وإياها سماء واحدة؛ فإما تشي ولا تشين، أو العكس، وبالتالي فلا بد من دحرِها، بل لا مفرَّ من إبادتها. فلمَّا تم لها الاستيلاء على مناطق: «إيانغ»، و«شاوتشي»، وقامت باحتلال منطقتي: «لين» و«شي»؛ اعتبرت أن ما قامت به الدول الست من مهاجمة وتدمير تشي عملًا إجراميًّا وجناية عظمى. ولما فكر ملك تشين في شن الغارة على دولة وي ظن أن دولة تشو يمكن أن تقف إلى جانبها (فتحبط مسعاه) فما كان منه إلا أن ألقى إليها (الطُّعم ... المتمثل في ...) «نانيانغ»، قائلًا لها: «أفكر جديًّا في قطع العلاقات مع هان؛ لذلك فقد رأيت أن مهاجمة منطقة «جونلين» وإغلاق ممر «مين»، يعد تصرفًا على قدر كبير من الأهمية، فإذا استطعت أن تبادر إليه، فستنظر إلى الأمر بوصفه أمنية غالية قد تحققت على أيديكم، ولئن رأيتم في هذا نفعًا وغنيمة، فكأننا نحن الذين أصبنا الغنيمة وفزنا بها.» وسارعت وي إلى تنحية تحالفاتها جانبًا، وعقدت الوحدة مع تشين التي عادت بعد قليل، تعُدُّ ما قامت به تشو من إغلاق ممر «مين» خطأً فاحشًا تؤاخَذ عليه.»

الجزء الرابع من الفصل نفسه

لم يحدث أن فكرت تشين في تقدير دور ومكانة باقي الدول، إلا عندما وقعت في أزمة (الحصار) بمنطقة «لينجون» وحينئذٍ فقط، أبدت التقدير والاحترام لدولتي يان وجاو، فأعادت منطقة «جياودون» إلى دولة يان، وسلمت أرض «جيشي» إلى دولة جاو، وقامت بالتصالُح مع دولة وي وأرسلت الأمير «يان» رهينةً لضمان السلام بين البلدَين، ورافقت قوات وي بقيادة «كونسونيان» في حملاتها المتواصِلة ضد دولة جاو، فلمَّا لاقت قواتها

انتكاسةً في منطقتي «ليشي»، و«مالينغ»، أبدت فائق الاهتمام والتقدير لدولة وي، فسلمتها إقليمي «إيا»، «تساي»، وبعد أن عقدت الاتفاقات الودية مع دولة جاو، بدأت تُمارس ألوانًا من الضغط على دولة وي، إلا أنها لم تستسلِم، ولم تتنازل لها عن أية أراضٍ. وهكذا يتضح أن دولة تشين كانت مُستعدة — تحت ضغط الحصار والأزمة الخانقة التي أحاطت بها — أن تسعى للمصالحة (لدرجة أنها أنابت الملكة الأم، و«رانخو» في إجراء مفاوضات التصالح ...) فلما ظفرت بالنصر، خذلت رانخو والملكة الأم وجعلت من احتلال منطقة «جياودون» موضوعًا لانتقاد وفضح وابتزاز دولة يان، ثم استغلت ما قامت به جاو من احتلال «جيشي» لتوجيه اللوم العنيف لها، بل اعتبرت ما قامت به دولة وي من احتلال منطقتي «إيا»، و«تساي» تُكأَة لانتقادها، ثم رأت فيما أقدمت عليه دولة تشو من إغلاق ممر «مين» عملًا يستوجِب المؤاخذة (ولم تكتفِ بكل ذلك، بل ...) وجهت اللوم لدولة تشي على ما أقدمت عليه من احتلال دولة سونغ. (وهكذا، اعتادت تشين أن تدور بكلامها من وجه إلى آخر مناقض له تمام التناقض ...) حتى صارت الحرب أيسر لديها من تطريز منديل بالورود، لم تمنعها الوعود التي بذلتها الملكة الأم ولا المواثيق التي عقدها «رانخو» [أخو الملكة].

قد أراقت تشين دماء الضحايا الذين يُقدر عددهم بالملايين من أهل «سانجين»، وغيرهم في حروبها العديدة: بدءًا من حرب «لونجيان» و«آنمن» و«فنلين» وانتهاء بمعارك؛ «قاوشان» و«جاوشوان»، بل إن الأحياء الآن، من أهالي «سانجين» ليسوا إلا الثكالى واليتامى الباقين بعد الحرب، (والجدير بالذكر، أن ...) نصف أهالي سانجين قد ماتوا في أحداث الاستيلاء على ما وراء نهر «شي»، وأرض «شانلو»، و«سانشوان» و«جيندي». إن أكثر ما يُحزنني ويحزُّ في نفسي، في الأمر كله، ما يحاوله الكثير من أهالي دولتي يان وجاو، من استرضاء دولة تشين، وعلى الرغم من كل تلك الأهوال والفظائع، التي وقعت على يدَيها، أملًا في الاعتراف بالسيادة والطاعة لها واستجلابًا لرضا ملوكهم.»

الجزء الخامس من الفصل نفسه

ولم يذهب ملك يان إلى تشين، وبلغت مكانة سوداي أضعاف ما كان يتصور من التبجيل والاحترام، وراحت دولة يان تجرى الاتفاق مع الدويلات للانضمام إلى التحالف الرأسي، وعلى الرغم من أن بعضها لم يوافق على دخول التحالف، إلا أن الجميع أبدى تقديرًا جليلًا (للدور الذي قام به سوداي في تنشيط كيان ...) التحالف الرأسي. وقد عاش «سوداي»

و(أخوه الأصغر) «سولي» عمرًا مديدًا، وبعد أن انقضى أجلهما، صارت الممالك تذكرهما على الأيام لما حظِيَا به من شهرة ومجد.

لمَّا حاول سوتشين إقناع فن نانجون

حاول سوتشين أن يقنع «فن نانجون» بالوحدة مع دولتي يان، وجاو لمهاجمة تشي، إلا أنه لم يُعمل بنصيحته، وذهب سوتشين إلى تشي ليعمل على تشويه صورة دولة جاو بكل الوسائل المُمكنة، جاهدًا في العمل على قطع العلاقات بينها وبين تشي، فلما تحقق له ذلك الهدف، أوفد مبعوثًا إلى دولة يان ليبلغ حاكمها، ما نصُّه: «قد أبلغني «هانوي» [وزير عظيم بدولة جاو] أن ... أحد الأشخاص قد ذهب إلى «فن نانجون»، وقال له: «إن الوحيد الذي يعمل على إفساد العلاقة بين جاو وتشي، هو «سوتشين»، وهو أيضًا الذي أوعز إلى ملك تشي باستقدام «سوتشين»، وحال بينه وبين مهاجمة دولة سونغ؛ وكان هو أيضًا الذي تدبَّر الخطط مع دولة تشي، وقام بتوسيع نطاق الحملة الداعية إلى التحالف مع تشين والتآمر ضد جاو.

وكان سوتشين هو الذي دعا دولة تشي لتشكيل طاقم حراسة مسلحة لمراقبة الأمير «قون تسي»، رهينة السلام الموفد من دولة جاو؛ وإذا سمحت لي بأن أسدي إليك نصيحة مخلصة، فإني أرجو من دولة تشي ألا تقبل تكليف حراسة مسلحة بمراقبة رهينة السلام؛ لأنه لو حدث فعلًا أن قام على حراسة الأمير عدد من المُسلحين، فسوف أجعل عليك حراسًا مُسلحين يُراقبونك أنت أيضًا.» وكم كانت كلماته وقحة، تقطر ضغينة وسوء أدب. ومع ذلك، فلا عليك من ذلك كله، يا مولاي، ثم إني أعرف — مقدمًا — ومع ما يمكن أن تجلبه زيارة تشي من متاعب وتعقيدات من جانب دولة جاو، لكني خرجت لإنجاز هذا الأمر تحقيقًا لرغبتك. (واعلم) أني لو مت وانقضى أجلي، وانعقدت سحب الكراهية في أجواء العلاقات بين تشي وجاو، فسأبقى — حينئذٍ — على الرغم من موتي، قائمًا بين ظهرانيكم أو أصير كالميت الحي.

إذا تدهورت العلاقات وانقطعت بين تشي، وجاو، فسوف يحل الاضطراب والقلق والفوضى في كل الأنحاء، وكم كنت أتمنَّى أن أكون مثل جان مونتان [وزير التخطيط للملك شيانغ حاكم جاو]، ولو دعيت لأن أكون مثله؛ لاحتاجت دولتا تشي وجاو إلى من يماثل «جيبو» [داهية التخطيط السياسي].»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

قد تكلم فن يانجون مع كل من «جوهوان»، و«جاوسو»، [كلاهما من كبار رجال دولة جاو] فقال لهما: «كان ملك تشي قد وجه لي الأمر — بواسطة (المدعو) «قون يودان» — بعدم السماح لـ «هانمين» بالقدوم إلى دولة تشي، إلا أن الطلب قد أرسل إليه باستدعائه الآن؛ هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى ... فقد صدر لي الأمر أيضًا بعدم إيفاد سوتشين في مهمةٍ رسمية تتصل بالشئون السياسية الكبرى، ثم ها هو ذا يمنحه الصلات الجزيلة والإقطاعات الواسعة، ويتَّخذه رئيسًا للوزراء، (... ليس هذا فقط، بل إن جلالته قام بتوطيد علاقاته مع دولة يان ... وهو الذي سبق أن ...) أمرني — من قبل — بعدم إقرار الوحدة معها؛ ولم يكن لي من بين رجال البلاط جميعهم، من أَعُده الملجأ والسند والملاذ، مثل «شونزي» [أمير دولة تشي كان رهينة لضمان السلام في دولة جاو] ثم إذا به أكثر تقلبًا من أبيه؛ وكان في مبتدأ الأمر يبغض سوتشين، ثم أدرك — مع الوقت — أنه لا يمكن أن يمسَّه بسوء، وصار الآن مُقتنعًا بأنه الحكيم الفاضل ذو الخلق العظيم؛ وإذ تصافيا وقام الود بينهما، قضي الأمر، ولم يعُد لي مَن أستند إليه، وأشد أزري به في دولة تشي!» وهكذا فقد اجتاحته نوبة من الغضب العارم. ولئن كان ملك تشي يُبدي التشكك في نوايا دولة جاو، فإن رجلًا — بمفرده — مثل فن يانجون، يستطيع أن يستثمر هذه المسألة فينقلب على دولة تشي ويكيد لها كل ألوان المكايد، فإذا لم يتم استغلال فرصة القلاقل التي تملأ الأجواء في الوقت الراهن، لبذر الشقاق بين تشي وجاو، فمن المُمكن أن تجد مشاكلها حلولًا، فيصفو الود بينهما وتقوم الوحدة محل الخلافات القديمة، فلا يعود المرء قادرًا على مُمارسة أي تأثير عليهما، ولذلك، فقد طالما ظننتُ — إن تحسنت العلاقات بين البلدين بالدرجة التي تسمح بقيام الوحدة بينهما — فسأكون مُستحقًا لأبشع عقاب، ولن يكفي الموت نفسه عقابًا لي، بل إن هجر ملذات الحياة والانعزال في الكهوف البعيدة لن يمحو عني مرارة الأشجان وحرقة اللوعة، وحتى لو رُقِّيت إلى رتبة الشرف العليا [أمير البلاد] فلن أشعر بالفخر والسعادة، وقد يظن الناس أني لو شعثت شعر رأسي وارتديت الأسمال ولطخت وجهي بالقار، وملابسي بالأقذار، أتشاغل عن ذلك بما أصابني من العار، كلَّا بل إن إحساسي بالخزي سيكون أكبر من كل ذلك وأفدح.

وفوق هذا كله فما زال هناك هاجس يؤرقني، وهو أن يكون العداء بين البلدَين مرهونًا بسني حياتي، فإذا مت، عادت المياه إلى مجاريها، وقامت المُصافاة بينهما، وعاد الود من جديد؛ فذلك أكثر ما يُثير دفائن همومي، ولو كنت أعلم أن في موتي قيام الحرب بينهما لرجوتُ الموت واجتهدت في طلبه بكل وسيلة.

قد هلك، في الغابرين، الملِكان الحكيمان «ياو»، و«شون»، ولم تشفع لهما الحكمة والفضل في أن يُخلَّدا، وقديمًا، مات الملكان المقدسان «يو» و«طانغ»، فلم ينقذهما من إسار الموت ما برعا فيه من رجاحة العقل وسلامة المنطق وسداد الرأي؛ بل ذاق الموت بطل الأبطال وأشجع الشجعان «منغ بن» كما لقي حتفه المصارع الجبار أقوى الأقوياء «أواهوا»، فهل يخلد أحد من الأحياء حقًّا؟ وهل يفلت من قبضة الموت حي؟ وهل لدى جلالة الملك أدنى شك في أنه من الأجدر السعي إلى تحقيق الأمنيات وإنجاز التطلعات في إطار ذلك المنطق الذي يتبع الحقيقة الحتمية؟

الجزء الثالث من الفصل نفسه

ليت المرء يهرب من هاهنا حقًّا. قد أتيت إلى تشي، عبر دروب ومسالك مشيتها بأرض وي وهان، وعملتُ كل ما في وسعى لإقامة الوحدة بين تشي وتشين، ثم حاولت قدر ما أستطيع ربط هذا التحالف بدولة جاو لدعم قوتها؛ بحيث تتهيأ الظروف التي تساعد على نشوب القتال بين تشي وجاو. (وعلى الرغم من هذا، فقد كنتُ أخشى أن أزج بدولة يان في هذا المعترك).

وقد تكلم فن يانجون مع جوهران، فقال له: «إن سوتشين ينقم على ملك يان أنه لم يتخذه رئيسًا للوزراء، ولم يمنحه رتبة أمير الدولة، ولهذا فلا أظنه يسعى لإقامة أي علاقات مع دولة يان.» وهكذا، فقد كانت شكوكه هذه هي التي دفعتني للتصرف على ذلك النحو الذي لن يزج بدولة يان إلى معترك الأزمات، وهكذا فليس جلالة الملك بحاجة إلى دفع القوات.

(وتحكي كتب التاريخ القديم أن ...) «آيين» قد هرب مرتين من دولة شانغ [إبان حكم الملك طانغ] إلى الطاغية «جيه» [إبان حكم أسرة شيا الملكية]، ثم هرب مرتَين آخريَين من الطاغية «جيه» لائذًا بالملك طانغ [آل شانغ] وفي آخر المطاف، اشترك في معارك «منتياو» مساندًا للملك «طانغ» في صعوده إلى عرش الإمبراطورية (وكذلك) كان «أوتزي شيو» قد هرب من دولة تشو، فنزل على دولة «أو» [كان «أوتزي شيو» أحد كبار الموظفين بدولة تشو، إبَّان عصر الدول المتحاربة، وحدث أن الملك حكم بالإعدام على أبيه وأخيه، فاضطر إلى الهرب والتنقُّل بين الممالك، حتى ثأر لأهله، وشفى غليله] ثم إنه تطوع للقتال في حرب «بوجيو»، فشفى نفسه بالثأر لأبيه وأخيه. إن هروبي بين الممالك قد أحدث اضطرابًا شديدًا في العلاقات بين جاو وتشي (وهو حدث فذ من حوادث الأيام سيخلده سجل التاريخ) وفوق

ذلك كله، فإن المرء ليتساءل حقًّا، عما إذا كانت قد خلت سيرة «أصحاب الإنجازات الكبرى» من تجارب الهرب والفرار؟ (ونماذج فرار أولئك العظماء كثيرة منها: ...) كان «قوانجون» قد هرب إلى دولة لو، إبان الأزمة التي اجتاحت البلاد على عهد الأمير هوان (بدولة تشي) وهرب كونفوشيوس إلى دولة «ويه» عندما اندلعت القلاقل وعمَّت الفوضى أرجاء البلاد في فترة حكم «يانهو» [الفترة المتأخرة من زمن الربيع والخريف»، أيام حكم أسرة «جيسون»]، بل قد هرب تشانغي إلى دولة تشو، وفر «بايقوي» إلى دولة تشين؛ ولما كان وانجو رئيسًا لوزراء دولة جونشان، فقد ذهب في بعثته إلى دولة جاو التي مارست عليه ضغوطًا هائلة (لكي يسلمها أجزاء من أراضي جونشان) فما كان منه إلا أن أفلت هاربًا من أحد المعابر الحدودية، واعتبرته دولة سانجين واحدًا من الفرسان العظماء والنبلاء الشجعان، ومن ثم كان الهرب على إثر حدث عظيم بعيدًا كل البعد عن دلالات الجبن أو العار أو المهانة.» وأخيرًا، فقد بذرت دولة تشين الشقاق بين تشي وجاو؛ فاتحدت هذه مع دولة يان لضرب تشي، حتى أوقعت بها شرَّ هزيمة وأثخنت فيها.

لمَّا ذهب سوتشين إلى ملك تشي

سافر سوتشين لمقابلة ملك تشي في محاولة لإقناعه (بشأن مصالح دولة يان) وقبل أن يلتقي جلالته، بادر إلى مقابلة «شون إيكون» لمناظرته ومجادلته وشرح وجهة نظره، قائلًا: «كان أحد الباعة يعرض جوادًا أصيلًا للبيع، وظل يذهب إلى السوق ثلاثة أيامٍ متوالية، ويقف في ساحة البيع من الصباح الباكر، حتى المساء، دون أن يقصده أحد للشراء منه. فذهب لمقابلة «بولا»، وقال له: «لديَّ جواد من فصيلة ممتازة أريد بيعه، وظللت أقصد السوق ثلاثة أيام من أول النهار، دون أن أجد من يسألني، حتى عن الشعر، وكم أتمنَّى أن تأتي وتتطلَّع إليه وتدور حوله قليلًا تتفحصه مليًّا، ثم تغيب عني بعض الوقت، وتعود ثانية، ثم سلني عن السعر الذي أرضاه.»

فذهب إليه «بولا»، وأخذ يدور حول الجواد ويتطلع إليه، ثم ذهب لبعض شئونه، وعاد ثانية يتفحَّصه، وبالطبع فقد ارتفع سعر الجواد صبيحة ذلك اليوم، عدة أضعاف وقد جئت اليوم؛ لكي أدعو ملك تشي إلى مشاهدة وتأمل براعة أحد «الجياد» دون أن يكون معي جياد أخرى (معروضة في السوق)، فهل لديك استعداد أن تقوم بدور «بولا»؟ وبالمناسبة، فاسمح لي بأن أقدم زوجين من اليشب (الأحجار الكريمة) وألف مثقال من الذهب، على سبيل المكافأة.» فرد عليه «شون إيكون»، وقال له: «لك السمع والطاعة بكل الاحترام.» ثم

دخل شون إيكون قاعة العرش، وقدم آراءه لجلالة الملك، شارحًا وجهة نظره، حتى اقتنع ووافق على اللقاء مع سوتشين، ثم ما لبث جلالته أن أعجب ببراعته أيما إعجاب.

لمَّا أُوفد سوتشين إلى ملك يان

قام سوتشين بإيفاد مبعوث من دولة تشي إلى الملك شاو، حاكم يان، ليقول لجلالته: «قمت ببذر الشقاق بين تشي وجاو، حتى صارت كل واحدةٍ معزولة تمام العزلة عن الأخرى، فما الذي يمنعك من الخروج بقواتك لضرب تشي؟ وعلى أية حال فاسمح لي بأن أعمل على بث الضعف والتخاذل في قلب دولة تشي.» وكان أن دفعت يان بقواتها فهاجمت تشي، واحتلت «سانجين». وأرسل سوتشين إلى الملك «مين»، حاكم تشي، من يقول لجلالته: «إن الهدف من مهاجمة كيان لدولة تشي، هو استعادة أراضيه المفقودة، وللعلم فإن قوات يان أصبحت الآن، عاجزة عن الحركة في منطقة «جين» بسبب ما أصاب القوات من تردد وضعف، فلماذا لا ترسل سوتشين على رأس قوات لمقاومة جيش يان؟ إن سوتشين ببراعته وفطنته، قادر على القيادة وهزيمة قوات يان المتهافتة المتردِّدة، بل هو أقدر على مهاجمة، يان في عقر دارها حتى يوقع بها أشنع هزيمة، وهنالك لن يكون أمام جاو إلا السمع والطاعة لجلالتك، وبهذه الطريقة تكون قد دمرت دولة يان وأخضعت دولة جاو، (بضربة واحدة).»

فنزل ملك تشي على رأيه، وقال لـ «سوتشين»: «قد بلغت قوة يان مشارف أرض جين، وسأرسل إليها القوات لشن الغارة عليها، وأريد منك أن تقوم على رأس الحملة نائبًا عني.» فأجابه سوتشين، قائلًا: «لست أُجيد توجيه وقيادة القوات، فكيف لي أن أهزم قوات يان! ليتك تُرشِّح لهذا الأمر قائدًا غيري، فلربما حاقت الهزيمة بجيشك إذا جعلتني قائدًا له، وقد أقع في قوات دولة يان، فيتعذَّر إنقاذ الموقف (إذا ما خسرنا المعركة).»

وقال ملك تشي: «فامضِ في طريقك، فأنت منا ما قد علمت وعلمنا.» وهكذا قام سوتشين على قيادة قوات تشي، ومضى حتى بلغ «جين تشن»، حيث دارت رحى المعارك التي انتهت بهزيمة تشي، وتمكنت قوات يان من الإحاطة برأس عشرين ألف مقاتل من خصومهما، وقام سوتشين بجمع بقايا الأشلاء وجثث القتلى ومخلفات القتال وكتب تقريرًا إلى الملك مين — حاكم تشي — جاء فيه: «قد استعملت يا مولاي من لا يُحسن الأمور، ووليت الأمر من لا يصلح له، ولا تستقيم الأحوال به؛ إذ كلفتني بمواجهة قوات يان فكانت النتيجة (وقوع الهزيمة فينا ... بل) فقدنا عشرين ألف جندي؛ وهكذا فقد حق عليَّ أن

ألقى جزائي بالإعدام، فاسمح لي بأن أعود لكي أقوم بتسليم نفسي إلى المسئول القانوني استعدادًا (وقبولًا) لما يصدر ضدي من عقوبات [تصل إلى حد الإطاحة بالرأس].» وأجاب الملك بقوله: «بل أنا المسئول (المذنب) الأول عما حدث، وليس لك ذنب فيما جرى.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وفي اليوم التالي، تواطأ سوتشين سرًّا مع دولة يان على ضرب «يانغ تشن» و«ليبا»، كما أرسل إلى الملك مين — حاكم تشي — من يقول له: «قد عجزت دولة تشي منذ أيام، عن تحقيق النصر في موقعة «جين تشن»، ولم يكن ذلك بسبب تقصير قوات تشي عن القيام بواجبها، وإنما هو الحظ وقدر السماء الذي شمل دولة يان برداء الحماية وحُسن الجزاء، فأرسل سوتشين لمقاومة يان للمرة الثانية، ولئن كان الجيش قد لقي على يدَيه الهزيمة في المرة الأولى، فلا بد أنه سيبذل قصارى جهده للثأر من أقداره وتعويض ما لاقاه آنفًا من الانكسار، ولعل النصر يأتي على يديه هذه المرة!»

ونزل ملك تشي على هذا الرأي، ودفع إلى سوتشين مسئولية (القيام بقيادة الجيش) مرة أخرى، لكنه اعتذر بشدة، ولم يلتفت الملك إلى اعتذاره ولم يقبل مُبرراته، وهكذا، سار سوتشين بقواته إلى «يانغ تشين» والتحم بجيش يان في أرض المعارك، حيث كان النصر المظفر من نصيب دولة يان التي أعملت السيف في رقبة أعدائها فقتلت (من رجال ومقاتلي تشي) ثلاثين ألف جندي وتردد همس الشك والحيرة والارتياب بين رجال دولة تشي، ووصلت مشاعر الاضطراب والتوجُّس بين الناس، إلى ذروتها. (وفي تلك الأثناء) كانت دولة يان قد أرسلت جيشًا تحت قيادة «يوي» لمهاجمة دولة تشي (في عقر دارها) ثم ما لبث أن أغار عليها فدمرها واحتل أراضيها.

لمَّا أرسل سوتشين رسالة إلى ملك يان

أرسل سوتشين من دولة تشي رسالة إلى ملك يان يقول له فيها: «كنت قبل مغادرة دولة يان قد أدركت أنه يجيء زمان يطل فيه المنافقون برءوسهم، ويبذرون الفتنة والشقاق، ولذلك كتبت تقريرًا إلى العرش، جاء فيه ... لو تحققت لي، في دولة تشي، الرفعة والمكانة المرموقة، فسيظن وزراؤك ورجال دولتك بي الظنون، ويستريبون في أمري! أما إذا تدنى

شأني وتراجعت منزلتي، فسيحتقرونني، وإذا صرت موضع حفاوة وحظوة فسينحون باللوم عليَّ في كل صغيرة وكبيرة، وإذا صدر عن دولة تشي أي تصرف ضار بمصالح يان، فسيجعلونني هدفًا لاتهاماتهم، وكذلك إذا بقيت دولة تشي بمأمنٍ من هجوم الدويلات، فسيقولون إني أضع لها الخطط الدفاعية، أما إن أغارت عليها كل الممالك، فسينضمُّون إلى تشي في التعريض بي، (وإذ أتأمل موقفي ...) أجد أنني تحت رحمة ظروف تتهدَّدني بالخطر من كل جانب وفي كل لحظة، مثل كومة من البيض الهش مُضطربة ومتداعية ... ثم إن جلالتك أجبت عليَّ — وقتئذٍ — قائلًا «لن أُنصت إلى افتراءاتهم ووشاياتهم؛ لأني أثق بك وأصدقك، ولذلك فسوف أستأصل أكاذيبهم، كما يستأصل المنجل أعواد الحشائش الجافة، وسيكون من الأحسن أن تبلغ مكانة مرموقة في دولة تشي، وأن تصير محل تقديرها، كما يجب أن تحرص على ثقة الناس بك. ولئن قُدر لي أن أعيش، فسيكون بمقدورك أن تفعل الكثير هكذا [حرفيًّا].»، ثم قلت لي أيضًا، يا جلالة الملك ... «لا بأس من ذهابك إلى تشي مغادرًا دولة يان، ما دام الأمل منوطًا بك في النجاح وإنجاز الأمور على النحو الأمثل.» وقد قبلت التكليف بأن أعمل جاهدًا على أن أحوز ثقة دولة تشي بما يُمكِّنني من الترقي في الوظائف العُليا بها منذ خمس سنوات خرجت خلالها دولة تشي للقتال أكثر من مرة، لم يحدُث فيها أن هاجمت دولة يان، أما العلاقة بين تشي وجاو، فليست مُستقرة على حال، إذ تصفو حينًا (فتتحالفان معًا) وتتكدر حينًا آخر (فتنفصلان) فإذا لم تُرد دولة يان أن تتآمر مع تشي ضد جاو، فلا بد من أن تتحالف مع جاو ضد تشي التي تثق في يان لدرجة أنها لم تحشد على الجبهة الشمالية (على المنطقة الحدودية بينهما) قوات عسكرية ذات شأن، بل دفعت بمعظم القوات التي كانت متمركزة هناك للإغارة على بلاد أخرى، لكنك اليوم يا مولاي أصبحت تصدق ما يقوله لك «تيان فا» و«تسان» و«تشيجي»، وغيرهم؛ فتحشد الحشود لمهاجمة تشي، فتثير حفيظتها ضدك بحيث تتخذ الاحتياطات اللازمة، وتفقد ثقتها فيك، وفوق ذلك كله فقد أرسلت لي «شنغ تشين» [كبير وزراء يان] لتبلغني بما نصه: «أفكر في أن أسند مناصب عليا لمن يجيدون ويفقهون مهام عملهم.» فإذا كنت تبغي حقًّا، أن تسند المسئوليات الجسام إلى الأكفاء، فاسمح لي بأن أساعدك في ذلك، بحيث إذا كنت تفكر في التخلي عني لتعيين آخر مكاني، أكثر كفاءة واقتدارًا مني، فأرجو السماح لي بالعودة لتقديم تقرير وافٍ عن مهمتي لجلالتكم، وإذا استطعت أن التقي بك، سيدي الملك، فسأكون قد نلت حاجتي وحققت أملي.»

لَمَّا فكر كبير وزراء يان في إقامة الوحدة مع

لَمَّا تدبر «شن سوي» [كبير وزراء دولة يان] إقامة الوحدة بين تشي ويان، فقد اتخذ العدة لإرسال أخي الملك؛ ملك يان الأصغر إلى دولة تشي ليبقى بها رهينة سلام، ووافق ملك يان على هذه الإجراءات، إلا أن الملكة الأم غضبت لَمَّا سمعت بما حدث، وثارت قائلة: «إن شن سوي هذا ليس بالرجل الذي يَقدر على إدارة شئون البلاد وتصريف أمورها، وهذا واضح جدًّا (فيما يتعلق بالشأن السياسي)، لكن ما باله يريد أن يُفرِّق بين الأم وولدها؟ ألا فليعلم أن الأم (التي يظنها قد شاخت وضعفت) سوف تنتقم أشد الانتقام.» وأراد شن سوي أن يزورها، فقال له ملك يان: «على رسلك، فالملكة ما زالت ثائرة، ولا أريد أن تقابلها، وهي في هذه الحال فانتظر بعض الوقت.» إلا أن شن سوى أقنع جلالته بأن الأمر بسيط (ولا بأس من أن يقابلها، في كل الأحوال)، ودخل إلى القصر الملكي وقابلها، وقال لها: «فيمَ نُحول جسدك يا مولاتي؟» فأجابته: «إن ما أطعم منه على مائدة جلالته من لحوم الطير بأنواعها يكفي لمضاعفة وزني واكتناز جسدي بالسمنة المُفرطة، لكنه الهمُّ الذي أصابني مذ عرفت بأمر ذهاب ولدنا الأمير إلى تشي رهينة سلام.» فقال لها: «إن الملوك (أبناء السماء [هكذا]) يُحبون الناس أكثر من حُبهم لأبنائهم، (أما بالنسبة لجلالتك ...) فأنت لا تُبدين من الحب لأولادك القدر الملحوظ، والبنون منهم — خصوصًا — لا ينالون من عطفك الشيء الكثير (هذا فيما يبدو لي على الأقل ...)» فاندهشت الملكة وسألته في استغراب: «وما السبب في قولك هذا؟» فأجابها: «لأنك أهديت ابنتك يوم عرسها ألف مثقال من الذهب وأقطعتها أرضًا مساحتها مائة لي، وبالغتِ في تعظيم أمر زواجها للغاية، وإذا جاء الدور على الملك، اليوم، لكي يقوم بتكريم سمو الأمير، فإن المخلصين من وزرائه والأكفاء من شيعته يقولون لجلالته لا يستحق الأمير أي تكريم؛ ما دام لم يأتِ عملًا جليلًا، أو مأثرة عظيمة فلما همَّ جلالته بإرسال ولده رهينة سلام، أملًا أن يثبت سموه، جدارته بما أعده له من التكريم، تأتين جلالتك فتصدِّينه عن ذلك القصد، وتُعيقين بلوغه مراتب الجدارة والشرف؛ فلذلك أدركتُ أنك لا تُحبين الذكور من أبنائك، ثم إن سمو الأمير لن يلقى الاحترام والتقدير إلا بفضل جهدكما (وبقائكما على قيد الحياة) أما عندما يحين يوم صعوده إلى العرش — بعد جلالتك بأجيال طويلة، وبعد ذهاب مولاي الملك بآماد جليلة — فلن يكون في سجلِّه ما يزيد عن أفضال العامة والدهماء (بل سيكون أدنى منهم مرتبة)؛ لذلك، فإن لم ينتهز سموه الفرصة لينال الرفعة والمكانة المنشودة (بفضل مآثره) في ظل إنعامكم الجليل فلن يلقى تكريمًا بقية حياته.» وهنالك قالت الملكة «ما كنت أعرف أنك تحسب الأمر من هذه

الناحية، وعلى هذا القدر!» وسارعت جلالتها بإصدار الأوامر بتجهيز ما يلزم الأمير في سفره من المواكب والعربات والملابس وسائر ما يلزم من الأدوات.»

لمَّا أراد الملك شاو مهاجمة تشي

أراد الملك شاو، حاكم، يان مهاجمة تشي مع أمراء الدويلات وحدث أن جلالته استدعى أحد الموظفين العاملين في بلاط سان الملكي (من أبناء دولة تشي) وقال له: «أريد مهاجمة تشي مع أمراء الدويلات، وسوف أصدر الأوامر ببدء الهجوم في أي ساعةٍ من ساعات الليل أو النهار، وعندئذٍ فلا بد من أن تتظاهر بمُجادلتي في هذا الشأن ومراجعة المسألة برمَّتها، وسأبدو كمن يرفض كل الاعتبارات التي تحول دون بدء القتال، وهكذا، فستنتهز أنت الفرصة لمغادرة يان إلى تشي، فإذا فشلت محاولة الهجوم، وأردت أن أعقد السلام مع تشي فسيتم ذلك بواسطتك، وعن طريق ما تقوم به من خدمات لدولة يان.» وكان من المتعذر، في ذلك الوقت، توازي القوى بين الدولتَين يان وتشي، ومع ذلك، فقد كان ملك يان يميل إلى معاودة الاتصالات السلمية مع تشي، فوقع في الخلط والارتباك واضطربت تقديراته بدرجة كبيرة.

لمَّا وقعت المجاعة بدولة يان

وقعت المجاعة بدولة يان، فاستغلت دولة جاو الفرصة وقامت بمهاجمتها، فأوفدت دولة تشو أحد قادتها العسكريين إلى يان، على أن يمر في طريقه بدولة وي، وهناك، حانت له فرصة مقابلة «جاوهوي» [أحد أبناء دولة جاو ممن يعملون في بلاط دولة وي] فقال له (وهو يحادثه): «إن أفضل وسيلة لإزالة أسباب الكوارث هو أن تعمل جاهدًا لتفادي وقوعها من الأساس، ففي هذا إنقاذ لأرواح الناس وتجنيبهم ويلات الخطر، إن الآراء التي طرحها — في أيامنا هذه — «أوتسي شيو» و«قونجي تشي» لم تلقَ الاهتمام من جانب جلالة الملك، أما (السيدان الجليلان) «جوتشيو»، «جان منتان» فقد حصلا على أفضل الصلات الجزيلة وأعظم آيات التكريم من جلالته؛ ولذلك فقد ترسَّخت في أذهان المُخططين السياسيين قاعدة تقوم على دراسة وبحث الطرق الكفيلة بإزالة الكوارث والنكبات، بدلًا من العمل على تجنُّبها وتلافي وقوعها أصلًا.

وأرى أن أودِّعك في طريق سفرك ببضع كلمات أقولها لك (لتعقلها وتعمل بها) أفضل من أن أبذل لك الصلات الجزيلة والمال الوفير، فاسمع ما أقول واحفظه، واسع في أن تقنع

به ملك جاو؛ إذ تقول له: «كانت دولة أو، فيما مضى، قد هاجمت تشي بسبب ما وقع بأرضها من المجاعة، هذا مع أن مثل هذا الهجوم على تشي قد لا يكتب له النجاح والظفر، وقد استطاعت دولة ضعيفة (مثل دولة يوي) أن تُحرز السيادة فوق الأمم، بما أحسنت استغلاله من خمود قوة دولة أو، فهاجمتها وعاثت فيها، وكان من أمرِها ما قد صار على النحو الذي ذكرته لك. وإذ تُقدِم على مهاجمة يان بسبب ما أصابها من القحط والمجاعة فليس الأمر بالسهولة التي تظنها … فقد لا تحرز ما تبقى من النصر، بل قد تستغل دولة تشين (القوية) الفرصة فتهاجم دولة جاو فتجعل منها (وهي الضعيفة) نموذجًا مكررًا مما وقع آنفًا لدولة أو (ذات العدة والعتاد) في حين تجني دولة تشين (القوية) ما قد سبق أن حازته دولة يوي (الضعيفة، حينئذٍ …) من تسنم ذُرى السلطة (الإمبراطورية) فوق الأمم والممالك، فتأمل الأمر جيدًا!» وكان ذلك هو ما ذكره مبعوث دولة تشو إلى ملك جاو الذي تقبل الأفكار بصدر رحب وسعادة ظاهرة وأمر بإيقاف حملة الهجوم على يان. فلما سمع ملك هذه الأخيرة بالأنباء أعلن مكافأته لقائد دولة تشو حيث أقطعه مساحة من الأرض.»

لمَّا أراد الأمير «تشانقو» إقامة الوحدة بين

أراد الأمير «تشانقو» إقامة التحالف بين قوات يان وتشين وجاو ووي، وذلك لمهاجمة تشي. وكان أن قامت القوات بالاستيلاء على سبعين محلة، أخضعتها لإدارة دولة يان بوصفها أقاليم إدارية تابعة للحكم المحلي، وظلت ثلاث محلات من أقاليم دولة تشي لم يتم الاستيلاء عليها بعد. وفي تلك الأثناء تُوفي الملك شاو، حاكم يان، فخلفه على العرش الملك «هوي»، ولجأ أهل تشي إلى خطة لنشر الإشاعات وبذر الشك والريبة في صفوف أعدائهم، وصار الملك الجديد (الملك هوي حاكم يان الجديد) يستريب في «يوي» فأحل محله «تشي جيه» (قائدًا عامًّا للقوات) فهرب يوي إلى دولة جاو حيث خلعت عليه، وبذلت له الصلات، وأقطعته أرضًا ونال لقب أمير «وانجو»، لكن تيان دان (المسئول الكبير بدولة تشي) استطاع أن يلقي عليه شِباك خداعه، وهزمت قوات يان شر هزيمة، واستعادت دولة تشي أقاليمها السبعين وأسقط في يد حاكم يان وندم للغاية على ما فرط منه، وصار يخشى ما يمكن أن تقوم به دولة جاو من انتهاز فرصة ما أصاب قواته من الإنهاك، فتُجند «يوي» في صفوفها وتهاجم يان، فأرسل جلالة الملك من طرفه مبعوثًا التقى بـ «يوي» وعاتبه عتابًا خفيفًا ثم قدم له التبرير والاعتذار قائلًا: «إن جلالة الملك يضع البلاد كلها أمانة بين يديك، سيدي القائد،

وجلالته يُقدر لك أن تثأر له وترد له اعتباره وتهزم دولة تشي. فمن ذا — فوق الأرض — يمكن أن يذكر مثل هذه الأفضال والمآثر الجليلة، بل كيف لجلالته أن ينسى مثل هذا العمل المجيد؟! لقد توليتَ العرش خلفًا لحاكمٍ كان قد تخلى عن رجال دولته ووزرائه؛ فلما جئت مكانه ورثت أسوأ ما خلَّفه لي من سوء الفهم الكامن في أعماق رجال الحكم، (ومثلًا ...) فما كان لي أن أُعين تشي جيه (مكانك) قائدًا للجيش، إلا بسبب غياب القائد الأصلي خارج البلاد لمدة طالت أكثر من المعتاد [حرفيًّا: على مدى أيام تعاقبت عليها الشمس، وهبَّت في أنحائها الريح]، فلما بعثت إليك أطلب إليك العودة، لتستريح من العناء، وتشير علينا بالمعهود من سداد رأيك، أسأت الفهم وظننت أن ثمة جفاء بيننا، فأغضيت عن دولة يان، لائذًا بدولة جاو، وبالطبع فأنت تملك — ولك الحق — أن تُقرر شئونك الشخصية كيف شئت؛ لكنني أسألك، أيها القائد العسكري، كيف يمكن أن ترد الجميل للملك الراحل إذ بذل لك التقدير اللائق بك؟»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وكان أن أرسل النبيل «وانجو» رسولًا من عنده بخطابٍ إلى ملك يان قال له فيه ما نصه: «لم أكن بالرجل الذي يستحق أي تكريم؛ فلست ذا موهبة فذة ولا اقتدار باهر، وبالتالي، فلا أستطيع أن أسير على النهج الذي علَّمني إياه الملك الراحل، بحيث أتأقلم مع طريقة تفكير الوزراء ورجال الدولة من حولك، كما أني أخشى أن يطاح برأسي. ولئن كنتُ قد هربت إلى دولة جاو؛ فلأني قد ارتكبتُ أخطاء في حقك، وأسأت إلى فطنتك وإحسانك، ومن ثم فإني أتحمَّل وزر وجريمة خيانة الأمانة والثقة ولا أجد جرأة الدفاع عن نفسي، والْتماس الحق فيما صدر عني، وقد جاءني رسولك الذي حملته عتابًا وتذكيرًا بما اقترفته من أخطاء، وأخشى ألا يفهم القائمون على خدمة البلاط الملكي سبب محاباة الملك الراحل لبعض وزرائه (وأنا واحد منهم ...) كما أخشى أن يغيب عن تقديرهم مدى الإخلاص الذي بذلته لجلالتك؛ فلكل ذلك آثرت الرد بخطاب مخطوط، وقد علمت أن الملوك الحكماء، لا يتكرمون على الثقات والأصفياء بالصلات والإقطاعات حسب أهوائهم وكيفما شاءت أنفسهم؛ فلا ينال التكريم إلا صاحب مأثرة، ولا يحظى بالمنصب الرفيع إلا أكثر الناس جدارة وتفوقًا. وهكذا كان القادر على ملاحظة ذوي الجدارة والكفاءة، وإسناد المسئوليات الجسام إليهم هو الملك الحكيم، وكان من يصادق الناس حسبما عرف وأدرك من خصالهم (الحسنة) هو السيد الذي ذاعت شهرته في الآفاق وتَخلَّد ذكره بين الممالك، وبعد، فعندما

أتأمل الأحوال بما تعلمت، أجد أن الملك الراحل كان — في اختياره وترشيحه العناصر الجديرة بالمناصب العليا — يتسم بصدر رحب، من ذلك أنه طلب الختم الرسمي [المتعلق بي] من ملك دولة وي، واستقدَمَني إلى يان للمثول أمام (لجنة الفحص والاختبار) وأثنى عليَّ وامتدح خصالي للغاية، وذكرني فيمن عنده من الضيوف، وجعل لي مكانة خاصة فوق المسئولين الرسميين واستشارني (دون أبيه وأمِّه وإخوته) وتناقش معي في شئونٍ مهمة، وجعل لي مرتبة (قريبة من درجة النبالة) لذلك فقد نشأت على ما علَّمني إياه، واعتبرت أن الالتزام بالأوامر والتعليمات يمكن أن يُعفي المرء من التعرض للمساءلة والعقاب، فلذلك امتثلت للأوامر (وقتئذٍ) ولم يكن في مقدوري الاعتذار.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

قد صدر لي الأمر من الملك الراحل، بما نصه: «إن العداوة والبغضاء بيني وبين دولة تشي متأصِّلة وعميقة الغور، ولا أبالي بما تُعانيه بلادي من الضعف وتردي أحوال الاستعداد العسكري، ولسوف أجعل من تشي هدفًا (أصبُّ عليه جام غضبي) وأسلط عليه هجومي.» فأجبته، قائلًا: «لكن دولة تشي لديها من مواريث الزعامة ومفاهيم [اقرأ: تعاليم ومبادئ] السيادة والسيطرة الشيء الكثير، وتاريخها حافل بالمنجزات والانتصارات، بالإضافة إلى خبرتها في ميادين القتال ومهاراتها الهجومية. فإذا كنت تريد الإغارة عليها، فلا بد من أن تحشد الدويلات جميعًا في التخطيط لهذا الموضوع، ولو أني أرى أن أفضل ما يمكن أن تفعله الآن، هو أن تقيم جسرًا من العلاقات الودية مع دولة جاو (فهذا أجدى لك ...) ثم إن تشي قد احتلت مناطق: «هوايبي»، و«أرض سونغ» مما تودُّ دولتا وي وتشو الحصول عليها، فإذا ما استجابت جاو لخطتنا وعقدت معنا التحالف والصداقة وتجاوبت معنا كل من وي وتشو؛ وبذلتا كل جهدٍ ممكن من جانبهما، فقامت الدول الأربع دفعة واحدة بمهاجمة تشي، أمكن تدميرها.»

وعندئذٍ، قال الملك الراحل: «هذا هو الرأي السديد!» وكان أن تلقيتُ الأمر شفاهة وأخذت الاستعداد المناسب [حرفيًّا: أعددت الأختام الرسمية] وأوفدني جلالته إلى الجنوب، حيث نزلت مبعوثًا على دولة جاو، ثم عدت إلى الوطن وقدمت تقريرًا عن البعثة، وتلا ذلك دفع القوات ومهاجمة تشي. (وكان من جملة الحوادث) أن عادت إلى السيادة الوطنية، أراضي «خابي»، وذلك بفضل الهداية السماوية وحكمة وبصيرة الملك الراحل، ثم ما لبثنا أن تمكنَّا من الاستيلاء على «جيشان». وكانت قوات دولة يان المرابطة عند نهر «جيشوي»

قد تقدمت — طبقًا للأوامر الصادرة لها — للهجوم على تشي، فهزمتها شر هزيمة، ولَمَّا كانت تلك القوات شديدة البأس موفورة الحمية والحماس، فقد تقدمت، ظافرة، حتى بلغت عاصمة تشي، فهرب الملك إلى منطقة «إيندي» لائذًا بها التماسًا للسلامة والأمان (لا أكثر ولا أقل) واستولت قوات يان على مجوهراته وأمواله وعرباته العسكرية، ومقتنياته الثمينة ودروعه (وكان من أبرز المقتنيات ميقات اسمه «طالوقون»)، ثم نقله إلى القصر الملكي بدولة يان) كما أمكن استعادة الآنية المقدسة [حرفيًّا: «باودينغ»] التي كانت دولة تشي قد استولت عليها من القصر الملكي فيما سلف من الزمان. وجرى عرض الأدوات والمقتنيات الثمينة في معرض خاص بدولة يان. بل إن بعضًا من المحاصيل والنباتات التي ترعرعت في أرض «جيشيو» (عاصمة يان) كانت مجلوبة أصلًا من غابات البامبو بأرض «أون» [هكذا، حرفيًّا:] (وبالجملة) فلم يكن هناك إنجاز بطول الممالك وعرضها يفوق ما قدمه الملك الراحل، منذ عصر الأباطرة الخمسة (في التاريخ القديم) وقد رضي جلالته بما حققه من مآثر وقنع بتحقيق آماله وتطلعاته، بدليل أنه لم ير، فيما قمتُ به من واجبات أدنى تقصير، مما استوجب التكرم عليَّ بإقطاعاتٍ كثيرة من الأراضي، فرفعني إلى القدر الذي أكاد أتساوى فيه بأمراء الدويلات والنبلاء الأمجاد؛ ولأني لم أكن ذا موهبة فريدة ولا مهارة فذة، فقد رأيت أنه ليس من سبيل إلا الامتثال للأوامر والتعليمات، وأن النجاة في الإفلات من ارتكاب الخطأ والوقوع في المحظور، فامتثلت للأوامر دون أدنى بادرة أو مجرد تفكير في الرفض أو الاعتذار.»

الجزء الرابع من الفصل نفسه

قد بلغني أن الملك الحكيم لا تفنى مآثره ولا تنقطع مسالك ودروب مجده، ومن ثم يخلد ذكره في التاريخ، ومن كان ذا بصيرة ارتفع سرادق شهرته وانتشر صيته في الآفاق وبقِيَت سيرته على مر الأجيال. أما ما اجتهد فيه الملك الراحل من إزالة آثار نكبة عارضة نالت من كرامته، ومحاولته القضاء على دولة كبرى (تملك عشرة آلاف مركبة حربية) وحيازته لما كان تحت سلطة تشي من المجوهرات والمقتنيات التي بقيت ثمانمائة سنة في مخازنها، وفترة حكمه كلها حتى يوم انقضائها، فقد ظل على الأيام وصية (رسمية [هكذا]) تُلقِّن الأجيال فصولًا من نصائحها، وتخاطب المسئولين والوزراء (قائلة) إنه في مقدورهم جميعًا الاهتداء بسيرة الملك الراحل والعمل بما نص عليه من بنود لإصلاح كل ما تعلق (بمواريث الأبناء والأمراء [هكذا]) وضبط شئونهم، والسير في شئون الناس بالإحسان ومراعاة العدل

والرحمة معهم (فهي وصايا ملهمة على مر الأجيال) كما قد بلغني أيضًا أن النجاح لم يكن مصير كل اجتهاد بإتقان، ولا الخاتمة الحسنة كانت نهاية كل بداية طيبة.

وقد كانت تعاليم ووصايا «أوتسي شيو» — فيما مضى — موضع اهتمام وتطبيق على يد «هيلو»؛ فلذلك استطاعت جهود ملك دولة «أو» أن تمد سلطانه ونفوذه حتى عاصمة دولة تشو، في حين أن «فوتشاي» لم يسترشد بذلك النمط (ولم يلتفت إلى تلك الوصايا، بل إنه ...) أهدى جلود الدواب إلى «أوتسي شيو»، وانتهى الأمر بأن وجدت جثة هذا الأخير — ذات يوم — طافيةً داخل جلد حمار سميك في مياه النهر. وهكذا، يتضح أن فوتشاي [ملك دولة أو] لم يكن يدرك قيمة آراء ووصايا الملوك الحكماء وما انطوت عليه من دروس مُستفادة تضيء السبيل أمام إنجاز المآثر العظيمة؛ لذلك نجده قد أغرق جثة أوتسي شيو، في النهر دون أن تطرف له عين أو يهتز له جفن، ندمًا أو استبشاعًا لذلك الجرم.

إن «أوتسي شيو» لم يدرك في وقتٍ مبكر، أن الملك لم يكن يملك نفس الرؤية والتسامح والتقدير، مما كان يتمتع به ومن ثم فلم يكن يستطيع أن يُغير من مسيرة القدر الذي أودى به غريقًا في النهر.

إن خطتي الأولى والرئيسية هي: تجنب الويلات والمهالك والحفاظ على سيرتي الحسنة، وما قدمت من سابق الإنجاز، استرشادًا وتأصيلًا لتعاليم ووصايا الملك الراحل، وأسوأ ما يمكن أن أُلاقيه وأبشع ما أخشاه هو أن تُثار ضدي الأراجيف والفتن أو أن تترصَّدني الوشايات الكاذبة، لطمس مآثر والمساس بسمعتي وكرامتي. ولا أظنني قادرًا على تجاوز حدود المنطق والقفز فوق أسوار المعقول وأنا أمام تجريم يُحاك ضدي، طي الخفاء، ومحاولة تجري على عجَل للإيقاع بي في تهمةٍ لا أعرفها، ومن ثم فلا أرى أنه بإمكاني الركون إلى مصادفةٍ عارضة جاءت بيد المقادير.

فمن الخطر الاعتماد على الحظوظ وعوارض القدر. وكنت قد عرفت أيضًا أن الملوك القدامى، كانوا إذا قطعوا علائق الود مع أحد من الناس، أمسكوا عن القدح فيه والتشهير به، وأن الوزير المُخلص إذا طرد من الخدمة التمس تبرئة ساحته، ولئن كنت غرًّا، بليد الذهن، عديم الموهبة والبصيرة، فقد حاولتُ كثيرًا أن أتعلم من الحكماء وأن أُنصت إليهم، ولستُ أخشى أن ينصت خاصة الملك وحاشيته والقائمون على خدمته إلى تمويهات ووشايات أضراب من الناس هنا أو هناك، دون إدراكٍ حقيقي لأسباب استبعادي من القصر، فلذلك كله — وختامًا — تجرأت أن أكتب لجلالتكم، ردًّا على خطابكم بخطابٍ مُحرر على ورق، راجيًا النظر بعين الاهتمام في الأمر كله.»

لمَّا أرسل أحدهم خطابًا إلى ملك يان

أرسل أحدهم خطابًا إلى ملك يان، قال له فيه: «إذا كنت لا تجد وسيلة للاعتماد على أسباب قوتك حماية لوطنك ودعمًا لبقائه ووجوده، فلا سبيل لك إلا العمل على الانضواء تحت حماية بلدٍ قوي دون أن تشغل نفسك كثيرًا بمسألة تدنِّي المكانة وضياع السؤدد وما إلى ذلك، بل إنك إذا استطعت بهذه الوسيلة أن تُمهد للاستقرار والأمن (طويل المدى) لبلدك، فما أحسنها من خطة سديدة ورائعة تُخلد ذكرك على المدى! أما إذا رأيت أن الاعتراف بطاعة دولة قوية لا يضمن الأساس المتين لمشروع بناء أمةٍ مُستقرة، فالأفضل أن تتحالف مع دولة ضعيفة [هكذا] غير أن المشكلة الباقية هنا، هي مع الدول الضعيفة يصعب التزامها بالتحالفات البينية، والتحرك بتنسيق (واحد ومشترك)، وهو مثار شعوري بالأسف لِما آلت إليه أحوال دويلات «شاندونغ».

إن السمكة ذات العينَين المتجاورتَين، لا يمكنها الحركة إلا حسب ما يتراءى لعينيها المتجاورتَين في جانب واحد من الرأس، وقد أطلق عليها القدماء هذه التسمية (ذات العينين المتلاصقتين) لأنها لا يمكن أن ترى الأشياء وتعيش وتتحرك إلا بعينين مُتحدتين ومتجاورتين. (وما يؤسَف له بالنسبة لحال الدويلات المذكورة هو أنها ...) قد عجزت عن توحيد الجهود وتنسيق الخطى؛ بمعنى أنها كانت أقل استبصارًا مما لدى ذلك النوع من الأسماك المشار إليه آنفًا. (ولنضرب مثلا آخر ...) فإننا عندما نتأمل عمل الحوذيِّين وقائدي المركبات، نجد أن ثلاثة من الحوذيِّين المتصارِعين فيما بينهم، لن يقدروا على تحريك المركبة عبر طريق مليء بالعقبات، لكنهم إذا استعانوا باثنين آخرين، تيسرت مشاقُّ الطريق، ودارت العجلات، إن ثلاث دويلات (في شاندونغ) تتَّخذ كل منها وجهةً مغايرة واتجاهًا مستقلًّا عن زميلاتها لن تستطيع الوقوف معًا بمواجهة دولة تشين، لكن الموقف يتغير تمامًا إذا تحالفوا — ثلاثتهم — مع دولتَين أخريَين، وإذ ذاك، يصير بمقدورهم منازلة تشين ودحرها. إن مشكلة دويلات شاندونغ أنها لا تعرف السبيل إلى الوحدة، أي أن تصورها لمواجهة الأزمة، يُعَد أدنى كثيرًا مما يمكن أن يملكه الحوذيون من مضاء عزيمة ونجابة.

إن رجلًا دخيلًا [من الشعوب الهمجية غير الصينية] إذا صادف مواطنًا من أهل دولة «يوي» على ظهر سفينة في عرض البحر، تتلاطمها الأمواج؛ فسيعاونه ويشد من أزره، ويصيران — وقت المحنة — يدًا واحدة على الرغم من تبايُن اللسان واختلاف الأفكار. إلا

أن دويلات شاندونغ (ليست على هذه الشاكلة) وإنما هي أقرب شبهًا إلى ركاب سفينة يتشاجرون معًا، فإذا ما دهمتهم دولة تشين، عجزوا عن حماية أنفسهم ككتلةٍ واحدة وتجمُّع واحد من البشر، وهكذا يصبحون أقل مرونةً وذكاء من الرجُلَين اللذَين أشرت إليهما، فيما سبق.

فهذه الحالات الثلاث التي قصصتها عليك، لا تستعصي على أحدٍ من الناس، ومع ذلك؛ فإن قادة وحكام دويلات شاندونغ لا يدركون بداهتها ووضوحها، وهو أمر يحملني على الأسى والأسف، من أجلهم. فتأمل تلك الأحوال جيدًا وانظر فيها بإمعان وتدقيق.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

إن اتحاد دويلات شاندونغ ينأى بقدرها جميعًا عن أن يتدنى، ويحفظ لها مركزها وهيبتها وبقاءها الدهر الداهر، ثم إن الدفاع عن الحدود الغربية لدولتي هان ووي، يُعد من أهم واجبات دولة يان (بحيث تجعل من هذا التحرك البند الرئيس في خطتها) وإلا تعرضت البلاد للخطر، ولاقى جلالة الملك — من جراء ذلك — أسوأ العواقب.

قد توحدت الآن، الدول الثلاث: هان، ووي، وجاو؛ واتفقت كلمتها وتألفت عزيمتها. وهو الأمر الذي سيُثير حنق دولة تشين، ويدفعها إلى الانطلاق جنوبًا لمهاجمة دولة تشو، وإزاء تلك الأوضاع فستسرع دولة جاو بالاندفاع شمالًا لشن الغارة على دولة يان؛ أي إن ذلك الوضع (برمَّته) سيُصبح بمثابة ساحة تتباين مواقف الأطراف فيها، بينما تتشابه بشاعة النهاية الداهمة لجميع مرتاديها. ولما كانت دولة تشين قد لبثت تُواصل الهجوم دون هوادة على دولة هان (فقد أتيحت الفرصة لدولة ...) جاو لتقوم بتدمير دولة جونشان عن آخرها، فإذا ما أرادت تشين اليوم أن تواصل هجومها ضد تشو، دون توقف، فلا بد من أنَّ يان ستلقى أسوأ مصير على يد دولة جاو. وأرى — في وجهة نظري المتواضعة — أنه من الأفضل لجلالتكم ضم قواتكم إلى جيش الدول الجنوبية الثلاث: هان، ووي، وجاو؛ والتنسيق معهم في الدفاع عن الحدود الغربية لدولتي: وي وهان، وإذا لم تتمكن دولة جونشان من التصرف على هذا النحو، بعزم ثابت وإرادة صلبة، فلن يكتب لها البقاء.» وكان بعد ذلك، أن تحركت دولة يان (في إطار هذه النصيحة) إذ قامت بضم قواتها إلى جيوش الدول الجنوبية الثلاث.

لمَّا تحدث سوتشين إلى ملك يان

تحدث سوتشين إلى ملك يان فقال لجلالته: «قد اتجهت دولة تشي جنوبًا وهاجمت تشو، ثم استدارت غربًا وأذاقت دولة تشين الهوان والمذلة، وساقت أمامها جيوش وي وهان، وألزمت قوات يان وجاو بالإذعان لها، حتى بدت وكأنها تسوق الجميع مثل قُطعان من الدواب وتنهال عليهم بالسياط اللاهبة، وإذا ما عنَّ لها أن تتجه شمالًا لمهاجمة يان، فلن يقدر أحد على مواجهتها (حتى لو كانت هناك خمس دول في حجم وقوة دولة يان) فلماذا لا تُسرع، يا مولاي، بإيفاد مبعوث سِري (ومُناظِر سياسي قوي الحجة) ليتنقل بين الدول (داعيًا لما تبثُّه فيهم من آراء) بحيث تضع العراقيل أمام قوات تشي، وتضع على كاهل أهلها أثقالًا من المصاعب الكفيلة باستنفاد عزمها وإفراغ طاقتها، فتضمن الأمن والسلامة لدولة يان على مر الأجيال.» ورد ملك يان بقوله: «لكنني أحتاج لخمس سنوات لكي أُدبر شئوني وأحقق أهدافي.» فأجابه سوتشين: «بل أمهلك عشر سنوات كاملة!» فسُرَّ بذلك ملك يان، ومنح سوتشين خمسين مركبة، وأوفده سفيرًا لدى تشي، حيث التقى هناك بملكها، وقال لجلالته: «ها هي ذي دولة تشي تهاجم تشو، في الجنوب، وتقوم بمحاولة إخضاع دولة تشين — غربًا — ثم تسوق أمامها قوات دولتي وي وهان، وجنود كل من جاو ويان؛ كأنها تقود قطيعًا من الجياد وهي تلهب ظهره بضربات السياط. وقد بلغني أن الملك الحكيم (فريد عصره وزمانه، [هكذا، حرفيًّا:] ينبغي له أن يُبيد الطغاة والأمراء الجبارين وأن ينشر الاستقرار في ربوع الممالك، ويقمع كل فتنة ويزيل كل أسباب للفوضى وأن يضرب كل مستبد، سادر في غيه، ويرهب كل موطن للظلم والعسف والجور. وها هو ملك سونغ يعيث فسادًا في الأرض ويتحدى ملكوت السماء [حرفيًّا: يرمي بسهامه قلب السماء، ويلهب ظهر الأرض بسوطه] ويصب التماثيل على هيئة الأمراء، ثم يُقيمها في الطرقات والدروب ويضعها بجوار أبواب الحمامات العامة ودورات المياه [تحقيرًا لأصحابها، ومن ترمز إليهم] وينصب بعضًا منها وهي واقفة ممدودة الأذرع فيصوب عليها بوصفها أهدافًا للرماية، ويرميها بالحجارة على رءوسها، (فمثل هذا الرجل) نموذج بارز للعربدة والحماقة والصلف، ومع ذلك فإن جلالتك لا تخرج إليه لمهاجمته وتأديبه مما يعني أن ما اشتهر عنك بين الممالك من الحكمة ورجاحة العقل والشجاعة، وغيرها من الصفات الجليلة لن تُنجز لك المآثر العظيمة، ناهيك عن أن الموقع الذي تشغله دولة سونغ في المنطقة الوسطى من الممالك التي تحت السماء، يتميز بخصوبة أرضه. ثم إن الإقليم كله يجاور أرض بلادكم، وهكذا فإني أرى أن عشرة

«لي» من أرض سونغ (تقتطعونها لكم) أفضل من مائة «لي» (تحصلون عليها من أرض دولة يان).

ومن ثمَّ فإن الهجوم على دولة سونغ، سيستظل بمظلة الحق والعدل (من الناحية الاسمية) لكنه، في حقيقته، يستهدف اغتنام المصالح وأوجه النفع العام، ففيمَ قعودك عن ذلك؟» ووافقه ملك تشي على رأيه، ودفع بجيشه لمهاجمة سونغ، وتمكن، في ثلاث مرات [هكذا] من دحر قوات دولة سونغ، وأخيرًا فقد وقع البلد كله تحت احتلال دولة تشي، ووصلت أنباء ذلك إلى ملك يان الذي بادر على الفور بقطع علاقاته مع دولة تشي، ثم قام على رأس جيش كثيف فهاجم تشي، وما كاد يدخل معها في معركة حامية الوطيس واشتباكين قصيرَين، حتى كان قد أنهك قواها، وأدال عليها وسجل في صفحة المجد سطور إنجاز باهر، طارت أصداؤه في الآفاق؛ ولذلك يقال: «إن منازلة دولة قوية اعتمادًا على ما يحوزه المهاجم من قوة وصلابة، يمكن أن يضعف كثيرًا من مقدار تلك القوة والصلابة، والسعي لتوسيع آفاق الطموح، بأمل مضاعف وتطلعات أكبر، كفيل بأن يضر بكل المطامح ويقوِّض أركان الأمل.»

لمَّا استعدت دولة جاو لمهاجمة

استعدت دولة جاو لمهاجمة دولة يان فتحدث سوداي (مدافعًا عن موقف دولة يان) قائلًا للملك هوي، حاكم جاو: «كنت وأنا قادم إليك، خلال الطريق، قد عبرت نهر «إيشوي»، وحدث أني رأيت عند الشاطئ، محارة البحر تفتح صدفتيها؛ لتتنعم قليلًا بدفء الشمس، فجاء طائر الشنقب بمنقاره الطويل المُدبب فغمز المحارة وأطبق على جوفها المُكتنز باللحم، فضمَّت المحارة أصدافها وأطبقت بدورها على منقار الشنقب (آكل حيوان البحر) فقال لها: «لن تمطر السماء طوال اليوم والغد، فلن تجدي ماء يُرطب جسدك، فتهلكي.» فأجابته المحارة: «وستظل صدفتي مطبقة على منقارك طيلة اليوم والغد فلن تجد ما تقتاته فتموت.» وإذ بقيا كلاهما يتصارعان، دون أن يتنازل أحدهما عن تعنُّته وعناده، فقد مر الصياد بهما، ورآهما على هذه الحال فغنمهما معًا صيدًا سهلًا ووفيرًا.» وها هي ذي دولة جاو تستعد لمهاجمة يان، وعندما يطول أمد النزال بينهما، يبلغ الإنهاك مبلغه من الناس فيهدر من الطاقة ما لا يستعاض عنه، وأسوأ ما أخشاه أن تسلك دولة تشين، حينئذٍ، مسلك الصياد (في الحكاية المذكورة) فأرجو تأمُّل هذا الأمر ومراجعته بعناية فائقة.» فنزل ملك جاو على رأيه، وألغى محاولة الهجوم على يان.

لمَّا تنازعت كل من تشي ووي للفوز بالوحدة مع

تنازعت كل من دولتي وي وتشي للفوز بالوحدة مع دولة يان، وكان أن تحدث ملك تشي إلى ملك يان فقال له: «قد استطعت أن تفوز بيد العون من دولة جاو.» وجاء ملك وي، وتكلم أيضًا مع حاكم يان، قائلًا: «أستطيع أن أقول لك إني قد حزتُ مساندة وتأييد جاو.» وتحير ملك يان في أمره، فلم يقطع بقرار، ولم يدرِ، مع أي الفريقين يميل وإلى أيهما ينحاز! فتكلم معه سوتشين، قائلًا لجلالته: «قد بلغني أن من ثقلت هداياه وعظم مقدارها، في حين خفَّت نبرة كلماته، كان هو الطرف المحروم من دعم الممالك ومساندتها؛ بينما من تعاظمت كلماته وعلا صوته، (في حين ...) تضاءلت هداياه، كان هو الطرف الآخر الحائز على دعم الدول والممالك حقًّا؛ وإني أرى أمامي هدايا دولة ليست بالشيء الكبير، مقابل نبرة صوتها الرنان، وكلماتها («من الوزن الثقيل» [حرفيًّا]).» فكان أن أقدم ملك يان على الوحدة مع دولة وي، واستطاع — في الوقت نفسه — أن يحوز دعم ومساندة دولة جاو. فكانت الكسرة على جيش تشي، فمُني بهزيمة شنيعة.

سجل يان الثالث

لمَّا قامت الدول الثلاث بمهاجمة دولة

قامت الدول الثلاث: تشي، وهان، ووي بمهاجمة دولة يان، فأرسلت هذه أميرها إلى دولة تشو تستصرخها لنجدتها، فأوفد ملك تشو كبير قادته العسكريين (الملقَّب بـ«جينيان») على رأس حملة لإنقاذ البلد المنكوب، فلما حل المساء وحان مبيت المقاتلِين أصدر جينيان أوامره لقادة فيالق الميمنة والميسرة باختيار الأماكن المناسبة لتمركز القوات وإنشاء المُخيمات، فلما توغلوا في الأنحاء المُحيطة ووضعوا علامات على الأرض في الأماكن التي رأوها مناسبة لإقامة المخيمات ذهب إليهم جينيان وتطلع إلى العلامات التي فوق الأرض، وثار غاضبًا، وصاح فيهم، قائلًا: «كيف يقع اختياركم على أماكن قريبة من مجرى السيل؟ إن هذا ليس بموضع مناسب!» وأمرهم بالانتقال إلى مكان آخر. وفي اليوم التالي هطلت أمطار غزيرة، وتدفَّقت أودية الجبل بأنهار السيول، فجرفت في طريقها كل شيء، حتى العلامات التي اختطَّها الرجال لإقامة الخيام، وهنالك اقتنع القادة العسكريون (بصحة تقدير القائد العام)، إلا أن قوات تشو لم تتمكن في ظل تلك الأوضاع من إنقاذ دولة يان، بل بادرت إلى مهاجمة إقليم «يون شيو» التابع لدولة وي، ولمَّا تم لها احتلاله، قامت بإهدائه إلى دولة سونغ، وعندئذٍ، وقع الرعب في قلوب الدول الثلاث (تشي — هان — وي) فتراجعت عن مهاجمة يان، غير أن قوات تشو لم تتمكن من العودة إلى بلادها (وقد أصبحت قوات دولة وي ملاصقة لجناحها الغربي، بينما كادت قوات تشي أن تطبق على الجانب الشرقي للقوات) فما كان من جينيان إلا أن قام بفتح ثغرة في الجناح الغربي وجعل العربات والخيول تقوم بتحركات نشيطة في هذا الجزء، وفي المساء أوقد الشموع الكثيرة والمشاعل التي انتشر ضوءها على المدى، وصار جينيان يرسل مجموعات (استطلاعية) صوب معسكرات جيش

دولة وي، إلا أن دولة تشي استشعرت أن هناك شيئًا مريبًا يجرى في الخفاء، ووقع في ظنها أن دولتي يان وتشو تتآمران مع دولة وي ضدها، فحركت قواتها مبتعدة لتتمركز في أماكن أخرى، فكان هذا التصرف من قوات تشي بمثابة ضربة قاصمة لدولة وي التي وجدت نفسها بغير حليف، من ثم تخاذلت عن مسعاها في مهاجمة دولة تشو فانسحبت هي الأخرى، تحت جنح الليل. وكان أن عادت قوات تشو إلى ديارها سالمة.

لمَّا سافر كبير وزراء تشي إلى دولة

سافر «جانشيو» (كبير وزراء تشي) إلى دولة يان، بخصوص موضوع رهينة السلام، وفكر جلالة ملك يان في أن يطيح برأسه، فتسرب شيء من ذلك إلى نفس جانشيو ففر هاربًا، ولمَّا أوشك على الخروج من الحدود، قبض عليه ضابط الحراسة، فقال له «جانشيو»: «ما كان ملك يان ليقتلني، إلا لأن أحدهم أخبره بأن معي جوهرة ثمينة، وقد طمع جلالته في اقتنائها، لكنها — على أية حال — ضاعت منى ولم أعد أعثر لها على أثر والمشكلة أن جلالة الملك لا يُصدقني؛ فإذا ما بَدَا لك أن تحملني على الذهاب إلى جلالته، فسأقول له إنك استوليت على الجوهرة بالإكراه وابتلعتها، ولا بد من أن جلالته سيقتلك، ويشق بطنك ليستخرج الجوهر الكريم. وبالطبع، فأنت من حقك أن تسعى للحصول على تقدير الملك لجهودك وتنال عظيم المكافأة، لكنك لستَ مطالبًا بدفع ثمن باهظ لذلك، واعلم علم اليقين أني لو متُّ فأنت مقتول في كل الأحوال؛ لأنهم سيقطعون أحشاءك أشلاء متناهية الصغر (بحثًا عن الذهب)» فتوجس الحارس خيفة، وأطلق سراح «جانشيو».

لمَّا أوفد ملك يان رئيس الوزراء إلى دولة

أوفد ملك يان، رئيس وزرائه (ليفو) بهدية فخمة ومائة مثقال من الذهب إلى ملك جاو، وذلك بمناسبة عيد ميلاد جلالته، وبعد ثلاثة أيام من الاحتفالات والأفراح الغامرة وكئوس الخمر المترعة، عاد ليفو إلى ملك يان ليقدم تقريره عن الزيارة، قائلًا لجلالته: «لم يعد في دولة جاو الكثير من الشبان، إذ مات معظمهم في تشانبين، كما أن إخوتهم وأبناءهم لم يبلغوا مبلغ الحلم ولن يقدروا على حماية بلادهم إذا دهمها الخطر …) فهذا هو الوقت المناسب لمهاجمتها.» فاستدعى الملك (أحد النبلاء ويدعى بلقب: أمير شانكو، وكان قد لجأ إلى دولة جاو، فترة من حياته، ولما عاد إلى يان أنعمت عليه بذلك اللقب واسمه الأصلي …)

«يوجيان» وسأله قائلًا: «ما رأيك في موضوع مهاجمة دولة جاو؟» فأجابه: «من المعروف أن دولة جاو ذات دروب ومسالك شتى وطرق اتصال مفتوحة (مع مختلف الممالك) وأهلها ذوو تجربة ودربة في فنون القتال والمعارك، فلا تخض معها الحرب.» فسأله الملك: «فماذا إذا تقدمت إليهم بضعف قواتهم؟» فرد الرجل: «لست أوافقك على ذلك أيضًا!» فسأله جلالته: «فما رأيك إذا استعملت عليهم ثلاثة أضعاف قواتهم من الجنود والعتاد؟» فلبث النبيل يُردِّد الإجابة نفسها، فغضب الملك للغاية، بينما كان باقي الوزراء الذين بجانب الملك يرون أن مهاجمة جاو — على العكس — جديرة بأن تؤتي ثمارها، فما كان من جلالة الملك إلا أن دفع بقوات تعدادها ستمائة ألف مقاتل لمنازلة جاو، ثم أرسل «ليفو» على رأس قوة قوامها أربعمائة ألف مقاتل للإغارة على إقليم «هاو»، كما بعث «تشينغ شين» [كبير وزراء دولة يان] لقيادة قوات قوامها مائتا ألف مقاتل لضرب منطقة «دايدي» ومن جانبها، فقد أرسلت دولة جاو «ليانيو» على رأس جيش من ثمانين ألف جندي للتصدي لقوات «ليفو» في إقليم هاو، كما أوكلت إلى «يوشن» مهمة التصدي لـ «تشينغ شن»، وذلك بعد أن دفعت، تحت قيادته قوات مقدارها خمسون ألف مقاتل فانهزمت دولة يان شر هزيمة، وهرب القائد «يوجيان» إلى دولة جاو.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وعاد ملك يان يسطر خطابًا إلى يوجيان يُعبر له فيه عن اعتذاره، قائلًا: «أعترف بغفلتي وجهلي وتقصيري إذ لم آخُذ برأيك مما دفعك إلى مخافتنا واتخاذ ملاذك لدى الآخرين، وقد اتضح بما لا يدع مجالًا لأي شكٍّ مدى ما يعتور آرائي من غفلةٍ وسطحية وضيق أفق، وقد نويت أن أُصحح ما وقعت فيه من أخطاء، وتمنيتُ أن تُساعدني في هذا الأمر، لكن يبدو أنك لن تُصغي إليَّ لذلك فقد أوفدت إليك رسولًا يشرح وجهة نظري فاستمع إليه وأبلغني برأيك وتقديرك. إن المثل السائر يقول: «إن الرجل الفاضل لا يسهل عليه قطع علاقات الأخوة والصداقة، كما أن الذكي العاقل لا يسارع إلى اجتلاب العداوة والبغضاء.» إن الجميع يدركون مدى ما كنت تتمتع به من عظيم مكانة واحترام لدى جلالة الملك الراحل (فأرجو أن يكون بيني وبينك القدر نفسه من المودة والتبجيل) وكم أتمنى أن تقيل عثرتي وتتغاضى عن هفوتي، فلست أريد أن يكون ذيوع مثالبي على يديك أو أن يعرف الجميع تفاصيل أخطائي من خلالك، بل أرجو أن تكون منك النصيحة وقت التقصير والرأي السديد عند الميْل أو الانحراف عن جادة الصواب، فلا تكن أنت أول من يفضح سوأتي

وينشر على الناس عيوبي ومثالبي، مع أني واثق تمامًا من أن الناس تدرك ما وقعت فيه من الأخطاء وأن الجميع يتهامسون فيما ارتكبت من الزلل، لكن الأخطاء ستصبح جرائم فاضحة إذا فررت إلى دولة يان (كما هو حادث الآن). معلنًا السخط عليَّ مُتبرمًا بي رافضًا البقاء في خدمتي.

وعلى أية حال، فلا بد من أن تعرف أن خروجك عن مقتضى الواجب سينال من إخلاصك وعهد الثقة الذي قطعته على نفسك وهنا، فإن الحكمة السائرة تقول: «إن الرجل ذا القلب المخلص، يتعفَّف عن أن يغنم مغنمًا مقابل الإساءة للناس، كما أن العاقل الحكيم لا يقيم صرح سمعته فوق أنقاض ما هدم من سمعة الآخرين.» ومن ثم كان ستر المخازي وحجب العيوب من صميم علامات الإخلاص، وكانت إقالة عثرات الناس من ألزم واجبات الفاضل الرحيم، أليس من بين أمنياتك الدفينة أن تتحلى الناس بهذه الصفات؟ ألا تكون أنت أول من يراد منه تحقيق تلك الأمنيات والتحلي بهذه الصفات، إذا ما خضتَ في سيرتي وكشفتَ ستر عيوبي طلبًا لمغنم عاجل، أو استجابة لنوازع نفس غير عاقلة، خصوصًا أنك نلت حظوة عندنا وترقَّيت في بلاطنا — منذ أيام الملك الراحل — وصار لك في عهدنا شأن ومكانة!

هنالك نقول: «إننا قد أكرمنا من أساء إلينا، وأننا قد ضربنا صفحًا عمن ارتكب في حقنا أبشع الأخطاء، بل إننا آويناه وولَّيْناه أرفع المناصب والدرجات.» ولئن كنت أتحمل أوزار أخطاء وعثرات، فأنت أيضًا مثقل بتبديد الثقة وعدم الوفاء، ولذلك فلست أراك قد أحسنتَ الاختيار ولا أصبت الوسيلة المثلى، إن حدود الأوطان بعض مما نُقيم حول أنفسنا وأهلينا من الجدران. إنها أشبه ما تكون بتلك الحيطان التي يلتئم وراءها شمل عائلة، وتحيط بالأفراح بقدر ما تواري من السوأة وعورات البيوت، ولا يمكن أن نتصور أفراد عائلة مُتحابين فيما بينهم (ويذيعون فضائحهم وسط الجيران) وليست هذه طريقة مقبولة ولا ناجحة (في حل المشكلات). ثم إنك في الوقت الذي لم تبدر فيه مني أدنى إساءة إليك أو حتى مجرد مشاعر بغيضة ضدك، سارعت إلى الفرار والهروب من البلاد، وهو سلوك خالٍ تمامًا من معنى الالتزام بواجب الإخلاص والثقة والمسئولية.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

«وإذا كنت سيئ التدبير، ثقيل الفهم، فلست غشومًا بليد الذهن، مثل الطاغية تشو (سليل أسرة شانغ الملكية) ولئن كنت قد جربت شيئًا من الإحباط، فأنت لم تمرَّ بتجربة أشقَّ مما

جرى على «شانرون» [أحد نبلاء آل شانغ، قبل الطاغية تشو نزع عنه خاتم الملك] ولم تعرف مرارة ما عاناه «جيه». ومع ذلك، فلم تكتفِ بتعرية أخطائي داخل البلاد، وإنما فررت إلى الخارج، إعلانًا لكل شعور عدائي واستجلابًا للبغضاء، وهو ما سوف يعود وبالُه عليك وحدك، فمثل هذا التصرف سيمسُّ قدرك، وينتقص من شرفك، ويحطُّ من منزلتك أمام الناس، أليس كذلك؟

لو كنت أبديت قدرًا من العدل والحكمة، وحافظتَ على شرف مكانتك ومنزلتك الكريمة فلربما أمكنني الصمود في محنتي، واحتمال ما نزل بي من وصمة العار، وهكذا فقد سعيت إلى اتهامي بنكث العهد في حين أضعت أنت معنى الإخلاص، وأذعت على الناس نقيصتي وجلبتَ لي العار، دون أن تكسب لنفسك الشرف (أي أنك ارتكبت خطأين بفعل واحد) والحكيم لا يتبع هواه في التشهير بالآخرين، فما بالك إذا كان يؤذي نفسه بإيذائه للآخرين أيضًا؟!

وأرجو منك شديد الرجاء، بألا تظلم ما كان فيما مضى من مآثر الفضل والخير (والأيام الطيبة) بسبب ما ذكرته لك من غفلتي وسقطاتي. وقد قيل إن «ليوشياهوي» كان يتولى منصبًا مهمًّا في دولة لو (فيما مضى من أخبار الزمان) وعلى الرغم من أنه خُلع من منصبه ثلاث مرات، فلم يفكر مرة واحدة في مغادرة البلاد، حتى ذهب إليه من قال له: «إن ذهابي إلى بلد لن يغير حقيقة الاستغناء عني، بل ستظل هذه الحقيقة ورائي أينما حللت، وما دام الأمر كذلك فالبقاء في بلادي أفضل كثيرًا من المغادرة.» أي أن طرده من منصبه ثلاث مرات لم يجعله متحاملًا على ما سبق له من أيادي الإنجاز والمآثر الجليلة.

ولم يحرص على ترك بلاده؛ مما حجب عنه الوشايات المغرضة أن أخطائي ما زالت طي الخفاء داخل الوطن، لكنها الآن أصبحت مُذاعة على الملأ خارج الوطن، ويقدح في سيرتي كل قادح، والمثل السائر يقول: «لا ينبغي للثناء أن يُجمِّل الوقائع ولا النقد الجاد أن يتحامل على الهنات وسفاسف الأمور، إن الحليم لا يقطع عُرى المودة بأيسر طريق، والذكي لا يجعل مآثره السالفة وراءه ظهريًّا.»

(ذلك أن ...) تجاهل ما سبق من الإنجازات دليل على سقوط الهمة، كما أن إنكار مواطن الحظوة، علامة على نوايا البغض والكراهية، وتلك كلها من الظواهر التي تشوب سلوك وتصرفات المُبعدين من المسئولين والوزراء، ولا أريد لك أن تنساق إلى إبداء أي وجه منها. وأسألك: هل كنت تبغضني لو كنت تلافيت الوقوع في ذلك الخطأ؟ أرجو أن تغضي عما سلف من الجفاء، وأن تذكُرنا بكل خير، وأن تعود إلينا مشيرًا بالرأي وناصحًا أمينًا.

وقد فكرت في أمرك، ورأيت أن إضمار نية الغدر والانتقام منك ونسيان ما سبق لك من فضل وأيادٍ كريمة، وإشاعة القيل والقال عنك، لن يشيد قاعدة مجد ولن يكون مأثرة تدعو للفخر ولا وسيلة ناجعة لتصحيح ما اختل. فإذا كانت نفسك تنطوي على شيء من تلك النوايا البغيضة فتمعَّن قليلًا واستعمل الفكر والروية، فإنما قصدت أن أطلعك على مكنون أفكاري، واستودعته في خطابي هذا إليك.» ومع ذلك، فقد ظل يوجيان ناقمًا على ملك يان عدم الأخذ بخطته التي وضعها له، وآثر البقاء في دولة جاو، ولم يعد إلى يان.

لمَّا قامت دولة تشين بضم جاو

بعد أن قامت دولة تشين بضم دولة جاو إلى حلفها، أمرت جيش جاو بالاتجاه شمالًا للتصدي إلى قوات دولة يان فلمَّا سمع ملكها بذلك، أوفد مبعوثًا إلى ملك تشين لتقديم التهنئة له [هكذا] وعند مرور هذا المبعوث عبر أراضي جاو، تم إلقاء القبض عليه، فقال الرجل: «قد تم التحالف بين تشين وجاو، وسوف يقوم بمهامه في إخضاع باقي الدول والممالك تحت سيطرته؛ ومن ثم فقد قبلت دولة يان بالعمل طبقًا لما أملته عليها جاو بوصفها حليفة لـ «تشين» (تتلقى منها المساعدة والدعم في الواقع …) فإذا قامت جاو بالقبض عليَّ وأنا ذاهب إلى تشين، فهذا معناه حدوث فجوة وقطيعة هائلة بينها وبين تشين، فإذا تبادر إلى باقي الممالك الإحساس بوجود مثل هذا الصدع بينكما؛ فلن تُسلِّم بالخضوع ولن تُذعن يان لأوامر جاو، بعد اليوم. وعلى أية حال، فقد كنت في طريقي مبعوثًا إلى تشين، أي أنني لم أكن أعرف أو أوثر أية تدبيرات هجومية تقومون بها ضد يان.»

واقتنع ملك جاو بكلامه، فأفرج عنه، فلما التقى المبعوث بملك تشين، قال له: «قد علم ملك يان، على نحو خفي، بأمر انضمام جاو إلى حلفكم، فأوفدني إليكم بألف مثقال من الذهب تعبيرًا عن سعادته وتهنئة لكم بهذه المناسبة.» فرد عليه الملك، قال: «يا له من رجل منافق لا خَلاق له! (يقصد ملك يان) قد أمرتُ دولة جاو بمهاجمة دولة يان، هذا ملكها يُرسل لي بالتهنئة، أليس هذا بأمر عجيب؟!» فقال المبعوث: «قد بلغني أن دولة جاو كانت (قبل دخولها حلفكم) تتجاور في حدودها الجنوبية مع أرضكم، وكانت تشتبك مع جيرانها الشماليين، فكثيرًا ما أغارت هناك، على دولة يان وإقليم «تشي وانغ»، ومعلوم أن مساحة يان ثلاثمائة لي مربع، وقد ظلَّت على مدى عشر سنوات تتمسك بموقفها (المستقل) مع دولة تشين، وإذا كانت قد أحجمت عن مهاجمتكم والظهور عليكم؛ فلأنها ضئيلة الأرض

والمساحة قليلة الإنتاج، وإذ أمرتَها جلالتك بضم أراضي يان، فاعلم أن البلدين سيوحدان جهودهما ويتساندان معًا، وينبذانك وحدك ويخرجان عن طاعتك، وأهمس في أذن جلالتك، بأنك ستجد نفسك في وضع مثير للقلق وقتئذ!»

فلما بَدَا لملك تشين أن الأمر يحتمل الصواب، دفع بقواته لمؤازرة دولة يان.

لمَّا ذهب الأمير إلى دولة تشين رهينة سلام

ذهب الأمير «دان» [أمير دولة يان] إلى دولة تشين ليقيم فيها رهينة سلام، ثم إنه هرب — فيما بعد — عائدًا إلى بلاده، فلما رأى عيث دولة تشين في أراضي الدويلات الست وإنزالها الهلاك بها واقترابها من منطقة إيشوي (وما قد يستتبعه ذلك من نتائج) جاشت نفسه بالقلق، وأفصح عن مكنون صدره لأستاذه «جيو»، قائلًا له: «إن يان وتشين ليستا متكافئتَين في القوة، فليتك تتدبَّر لي خطة ناجعة لمواجهة تشين.» فقال معلمه: «إن أرض تشين شاسعة تضرب في الآفاق، وللدولة من القوة والمنعة ما يحدوها على تهديد وي وهان وجاو، مُجتمِعين، أما بالنسبة لأراضي يان الواقعة شمالي نهر إيشوي. فمن الصعب البتُّ في أمرها (وإلى أي الفريقين تنتمي!) فما الذي يُجبرك على الاحتكاك بدولة وحشية مثل تشين، وهل لمجرد الإحساس بما قد يمسُّك من العار والتخاذل أمامها، تندفع إلى إثارة حفيظتها ضدك؟» فسأله الأمير: «كيف يمكن معالجة هذا الموضوع إذن؟» فأجابه أستاذه: «اذهب أنت الآن، ودعني أتأمَّل الأمر مليًّا.» وبعد فترة من الزمن كان قائد قوات تشين «فان يوتشي» قد هرب من بلاده [على إثر مشادَّة بينه وبين جلالة الملك، وتطاول فيها القائد على مليكه] لاجئًا إلى يان، فاستقبله الأمير دان فنصح له أستاذه «جيو» قائلًا: «ما كان يصح أن تتصرف على هذا النحو؛ فأنت تعلم جيدًا مدى ما يَصِمُ ملك تشين من طغيان واستبداد ووحشية، وهو يضمر لبلادك كل البغض والكراهية مما لا مزيد عليه ولا يملك المرء معه إلا أن ينتفض ذعرًا ويتوجَّس خيفة فكيف في ظل كل تلك الأحوال تتجاسر على استضافة القائد (الهارب) «فان يوتشي» في أرضك؟ لكأنك — بذلك — تلقي اللحم الطازج في طريق النمر الهائج (لفرط ما عانى من الجوع) فإذا وقع الافتراس فلا مفرَّ ولا منقذ! حتى لو كان لديك أمهر رجال السياسة ودهاة التخطيط [مثل «كوان تسي» و«يانين» (أبرع السياسيين القدامى)] فلن تجد مخرجًا من ورطتك، وبناء على ذلك، فأرجو أن تسرع بإخراج القائد المخلوع فان يوتشي إلى أرض «شيونو» [البرابرة والهمج، خارج الحدود] تلافيًا لما يمكن أن تتخذه دولة تشين من ذريعة لمهاجمة يان، وعليك أيضًا بعقد ميثاق مع الدول الثلاث

الواقعة إلى الغرب منك (هان - جاو - وي) كما ينبغي أن تتحالف مع تشي وتشو — في الجنوب — مثلما يتوجَّب عليك عقد صلات المودة والصداقة. مع (قبائل) شيونو (برابرة الشمال). وبعد ذلك تستطيع أن تُقدر مواقفك وتجري حساباتك.» وهنالك قال الأمير دان: «هذه خطة تحتاج — سيدي المعلم — في تنفيذها إلى حقبة طويلة من الدهر، وقد ضاق صدري، جزعًا، وما عدت أطيق الصبر على تلك المعالجات طويلة المدى، هذا بالإضافة إلى أني قد وجدت الطريق مسدودة في وجه القائد «فان يوتشي» ولا أحد يريد استضافته، فلما قدم عليَّ شريدًا بغير مأوًى، وأناخ بساحتي أكرمت وفادته، ووطَّأت له الأكناف؛ وما كنت لأرد صديقًا تربطني به مشاعر الود عن النزول بأرضي، وما كان لي أن أُرسله إلى قبائل الشماليين حتى لو كان سيف التهديد والإجبار مشهرًا في وجهي؛ الموت لي — إذن — إن خذلته، بل أرجو منك أيها المعلم النابه أن تُدبر مخرجًا آخر غير هذا!» فقال له جيو: «يقال: إن بدولة يان رجلًا بارعًا في الخطط السياسية يدعى «تيانكون» وهو واحد من أحذق فقهاء مذهب التخطيط [قل ... «السياسي»] معروف ببُعد نظره ودقة تدبيره وشجاعة شخصيته، فعليك باستشارته!» فقال الأمير دان: «فهل لك أن تساعدني في لقاء ذلك المدعو «تيانكون»؟» فأجابه المعلم بما يفيد السمع والطاعة.

الجزء الثاني من الفصل نفسه

فذهب المعلم «جيو» إلى «تيانكون» وأبلغه بما سمعه عن سمو الأمير دان، قائلًا له: «أرجو أن تجد فسحةً من الوقت لمناقشة مسائل ذات شأن مع سمو الأمير.» فأجاب الرجل بأنه طوع ما ينصح به الأمير ثم قام وذهب إلى مقر سموه، فلمَّا التقى به ركع له الأمير ترحيبًا وتبجيلًا، وانتحى جانبًا ليفسح له الطريق، ثم ركع ثانية وهو يُشير له بالجلوس (بل إن سموه مد يده ومسح له على كرسيه) فجلس تيانكون مع الأمير، وحدَهما ولا ثالث، وكان أن تقدَّم منه سموه، وكلَّمه قائلًا: «إن دولتي تشين ويان ليستا متكافئتَين في القوة، ذلك ما كنت أريد أن أُنبهك إليه لتضعه نصب عينيك وتلتفت إليه في تقديرك للأمور.» فقال له تيانكون: «بلغني أن الجواد الأصيل، يستطيع في سِني صباه أن يركض ألف لي في لمح البصر، فإذا أدركته الشيخوخة، صارت حتى الخيول الهزيلة، تسبقه وتتخطاه. وما بلغك عني من الأنباء إنما يشير إلى ما كنت عليه أيام صباي من عنفوان وقوة، أما اليوم فقد وهن الجسم وذبلت القريحة، وعلى الرغم من ذلك، فالأمر جد ولست أريد أن أضيع وقت سموك ومصالح الوطن عبثًا، وأستطيع أن أدلك على رجلٍ صديق لي اسمه «جينكه»

(وأظنه يُرحب بالعمل في منصب حكومي بارز) فعليك به!» فقال الأمير: «ليتك تُعرِّفني إليه.» فقال له الرجل إنه مطيع له في كل ما يأمر به، ثم قام وغادر مسرعًا، فودَّعه الأمير حتى الباب، وهمس في أذنه: «كل ما حدثتك عنه يعد من شئون الدولة العليا، وأتمنَّى ألا تذيع ما سمعت إلى الناس.» وخفض الرجل نظره وهو يضحك قائلًا: «إن هذا مفهوم بالتأكيد.» ومشى تيانكون إلى «جينكه» [تنطق بمقطعين، الأول كما في الهجين والثاني كما في مليكه] وهو محدوب الظهر وقال له: «إن ما يربطني بك يا سيدي من علاقة طيبة، لا يخفى أمرها على أحد، وهذا معلوم للكافة. وقد بلغ مسامع الأمير دان ما كنت عليه أيام صباي من العقل النابه والذهن المتفتح، لكنه لم يكن يعرف أن الشيخوخة رمتني بدائها [حرفيًّا: الجسد لم يعُد يطاوع الإرادة أو المادة لم تعد تطاوع الطاقة] لكني من حُسن الحظ، عرفت منه أن ... يان وتشين ليستا متكافئتَين في قوَّتهما، وهو أمر يحتاج من العاقل الكريم الحذر والانتباه ولأني أعرفك تمام المعرفة، فقد ذكرتك عنده، وأتمنى لو استطعت أن تذهب إلى القصر لمقابلته!» فقال له جينكه: «سمعًا وطاعة.» فقال تيانكون: «قد بلغني أن الذكي الشريف، لا يُثير الشك في قلوب الناس، وقد حذرني سمو الأمير من إفشاء ما دار بيني وبينه باعتباره من أدق أسرار الدولة، ومعنى هذا أنه يستبطن الشك فيَّ وتساوره الظنون بشأني. فهذا دليل على أني لستُ أتصرف بالطريقة التي توحي بالثقة، أو أني لا أتمتع بالقدر الكافي من مظاهر الإباء والشهامة والفروسية.» وأراد تيانكون أن يُثير مشاعر جينكه، وهو يوعز إليه على نحو خفي بما انتواه من الانتحار، قائلًا: «أرجو أن تسرع إلى لقاء الأمير، وقل له إني متُّ، لعله يطمئن إلى أني لن أفشي السر لأحد!» ثم طعن نفسه ومات منتحرًا.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وذهب جينكه للقاء الأمير، دان، وأخبره بأن السيد تيانكون قد قتل نفسه تأكيدًا للعهد الذي قطعه على نفسه بعدم إفشاء السر، فركع الأمير ذاهلًا، وخفض رأسه وهو يتلو تلاوة الأسى على الفقيد، وتحدَّرت دموعه على وجهه، وظل راكعًا فترة من الوقت وقال بعدها؛ «ما طلبتُ إلى السيد تيانكون أن يحفظ السر، إلا أملًا في نجاح الخطط المتعلقة بشئون الدولة العُليا، وقد قصد بموته أن يضمن عدم إفشاء الأسرار وهو ما لم أكن أريده، ولا قصدت الإشارة إليه.»

فلمَّا استقر جينكه في مجلسه، قام الأمير دان واقفًا وغادر كرسيه، ثم سجد على الأرض، قائلًا: «لم يكن يعلم السيد تيانكون مدى ما أُعانيه من أهوال، ولا ما قاسيته من الشدة حتى طلبته وطلبت كل من أستطيع أن أتحدث أمامهم عن مكنون صدري، فالسماء تتدارك بلادنا برحمتها، ولا تتخلى عنها في ضعفها ووقوفها وحدَها في وجه الصعاب، لا سيما وقد استفحل طمع دولة تشين، واتسعت شهيتها للنهب والسلب بلا حدود، وها هي ذي قد أسرت ملك هان، وفرضت سيطرتها على أراضي الدولة، ولم تكتفِ بذلك، بل دفعت بقواتها صوب الجنوب لمهاجمة واحتلال دولة تشو، ثم ناوشت دولة جاو في الشمال بعددٍ من قواتها. وكان «وانجيان» قد هاجم منطقتي «جانغ» و«بيه» بقوات تَجاوز مقدارها مئات الألوف من المقاتلين وكذلك دفع «ليشين» بقواته نحو تاييوان» و«ويونجون»، وإذا عجزت دولة جاو عن مقاومة عدوان تشين، فسوف تستسلِم لها وتذعن بالخضوع لمشيئتها، وإذا ما حدث ذلك، فسوف تقع الأهوال على رأس دولة يان التي لا تحوز الكثير من المساحة، والتي عانت الكثير من نكبات المعارك، وعندما أفكر في الأمر بعُمق، أجد أن كل ما هو متاح لنا من القوة لن يكفي لصد عدوان تشين، علمًا بأن كل الدويلات خضعت لسيطرة تشين، ولم تجسر واحدة منها على الدخول في حلف المحور الرأسي إلى جانب يان وأحيانًا أتأمل المسألة برمتها من زاوية شخصية بحتة وبتقدير ذاتي جدًّا وأقول لنفسي: «إننا لو تمكنا من اختيار أشجع رجل من بين الممالك كافة وأرسلناه إلى تشين، بحيث أظهرنا لها مدى ما يمكن أن تمنحه إياها دولة يان من الاعتبار وما تحققه لها من المصالح، فلا بد من أن مسعى ملك تشين في اجتناء كل الثمرات والاستيلاء على كل ما تطوله يده سيسير في الطريق الذي نريده له.» وإذا استطعت، فعلًا، أن أمارس نوعًا من الضغط والسيطرة على ملك تشين، بحيث أرغمه على إعادة أراضي الدويلات المسلوبة إلى أصحابها، على النحو الذي استطاع به «تساومو» أن يفرض إرادته على ملك تشي، فسيكون هذا أعظم إنجاز على الإطلاق، فإذا لم تفلح هذه الخطة، انتهزنا الفرصة وقتلنا الرجل.

وبهذه الطريقة، تصبح السلطة العسكرية الكاملة في يد القائد العسكري الموجود خارج البلاد، بينما تسود الفوضى كل الأنحاء في الداخل، وتضطرم نفوس الأمراء والوزراء بالشك المتبادل، وعندئذٍ ننتهز فرصة تلك الفوضى العارمة، ونقوم بدعوة الجميع إلى الدخول في الحلف الرأسي، وهو ما يعني المواجهة الكاملة مع تشين تمهيدًا لتدميرها. تلك هي أمنيتي الكبرى، ومشكلتي أني لا أدري من الذي أستطيع أن أوكل إليه تلك المهمة. وبالطبع فإني أرجو منك — أيها السيد جينكه — التزام الحذر البالغ بشأن سرِّية هذه

الأفكار.» وانقضت فترة طويلة من الوقت حتى تكلم الرجل، فقال: «تلك موضوعات تتصل بمصالح الوطن العُليا وأنا رجل متواضع الملَكات، ولا قِبل لي بتدبير تلك الخطط وتنفيذ السياسة المتعلقة بها.»

فتقدم منه الأمير، دان، وجثا على ركبتَيه، وراح يرجو جينكه (بل أخذ يلح في الرجاء ...) بألا يعتذر عن قبول الاضطلاع بمسئوليتها، وظل به حتى وافق، ثم أنعم عليه بمنصب ودرجة «الوزير الأعظم» وأنزله أحسن مكان للإقامة وأخذ يتردد عليه يوميًّا للاطمئنان عليه، ثم إنه أغدق عليه الصِّلات الوفيرة من الذهب والمال والتقادم الفخمة والجياد والغيد الحِسان، ولم يدع له مطلبًا أو حاجة إلا قضاها له، تسكينًا لخواطره وتطييبًا لنفسه.

الجزء الرابع من الفصل نفسه

فلما انقضي زمان طويل، بَدَا جينكه غير مستعدٍّ للبدء في المهمة المشار إليها، وكان القائد العسكري لدولة تشين (المدعو «وانجيان») في تلك الأثناء قد هاجم دولة جاو، وأسر حاكمها واحتل أرض البلد بالكامل وتوغل شمالًا بقواته فعاث في الأنحاء واستولى على المزيد من الأراضي، وهاجم الحدود الجنوبية لدولة يان، فأُسقط في يد الأمير دان، فذهب إلى جينكه وأخذ يتوسَّل إليه قائلًا: «لا بد أن قوات تشين ستعبر نهر إيشوي إن عاجلًا أو آجلًا، وعلى الرغم من أني كنت أودُّ أن أقوم بخدمتك والتفاني في القيام على راحتك، فإني — بعد اليوم — لا أجد نفسي قادرًا على ذلك.» فأجابه جينكه، قال: «قد أوشكت أن أتحدث إليك حتى قبل أن تبادر أنت إلى الكلام معي، وكنت أودُّ أن أعرب لك عن استعدادي للتحرك، الآن، لكني إذا ذهبت إلى دولة تشين دون أن أقدم لها برهانًا دامغًا على صدق مقالتي، فلن يوليني أحد اهتمامه ولن ينصت لي الملك. وقد بلغني — بخصوص القائد الهارب «فإن يو» — أن ملك تشين قد رصد مكافأة مالية قدرها ألف مثقال من الذهب ومساحة (إقطاعية) هائلة من الأرض لمن يقبض عليه، فإذا استطعت أن أذهب إليهم برأس «فان يو» وخريطة توضح موقع أرض «طوكان» [الغنية الوفيرة المحاصيل (بأرض يان)] فلا بد أن ملك تشين سيلقاني متهللًا، وعندئذٍ تحين الفرصة (التي أردُّ فيها الجميل، شاكرًا فضل الأمير).» فرد عليه الأمير بقوله: «لكن القائد «فان يو» استجار بي بعد أن سدت أمامه الأبواب، ولا تُطاوعني نفسي أن أؤذي رجلًا مخلصًا تحقيقًا لرغبات ذاتية، فلتبحث عن طريقة أخرى، إذن؟» فلمَّا تيقن جينكه أن الأمير لا يقدر على الوفاء بهذه الخطة على هذا النحو. فقد ذهب والتقى سرًّا بالقائد «فان يو»، وقال له: «إن تشين تعاملك — كما هو

واضح — بكل وحشية، حتى إنها نكَّلت بكل عائلتك وأقربائك وأفنتهم عن آخرهم، وقد سمعت أن المسئولين هناك أعلنوا عن مكافأة سخية لمن يأتيهم برأسك، فكيف ستتصرف الآن؟» فرفع القائد رأسه إليه وقد سالت من عينَيه الدموع، وقال: «كم لبثتُ أتذكر كل ذلك وتحاصرني الأفكار، حتى توجعني كل ذرة في كياني، لكني لا أجد وسيلة للانتقام.» فقال له جينكه: «عندي كلمة واحدة أقولها لك، فيها تكمن الفرصة الوحيدة لتخليص دولة يان من المخاطر المحدقة بها، كما تشتمل أيضًا على الطريقة المُثلى لانتقامك الكبير فما رأيك؟ إن كنت تود سماعها، فأعلمني بذلك!» فمال القائد «فان يو» نحوه متسائلًا: «فما هي تلك الطريقة؟» فقال له: «المطلوب (بل المرجو) أن تُقدم رأسك إلى ملك تشين الذي سيبتهج كثيرًا بذلك، ثم يحتفي بي بكل ودٍّ وترحاب، فأثب عليه وأقبض بيدي اليسرى على ذراعه، وباليمنى أغمد الخنجر في صدره، فأنتقم لك، وأمحو العار الذي طال سمعة دولة يان، فهل تراك موافقًا على الخطة؟» فما كان من القائد فان يو إلا أن نزع صداريته حتى بان جانب صدره، واقترب من، محدِّثه، قائلًا: «ذلك بالضبط ما كنت أحاول أن أفعله، ولطالما فكرت فيه ليل نهار، فها قد حان الحين بعد أن قلت كلمتك الآن.» ثم طعن نفسه، فمات من ساعته، فلما بلغ الخبر مسامع الأمير، دان، امتطى فرسه في الحال وهُرع إلى موقع الحادث، ثم انبطح عند جثة القائد وهو يبكي ويكاد ينشق قلبه حزنًا وأسفًا عليه، لكن الحادث قد حدث، وانقضى القضاء والمقدور، وما عادت أي حيلة تغير من الأمر شيئًا، وكان أن اجتُزَّت رأس فان يو، ووضعت في علبة أعدت له بعناية فائقة.

الجزء الخامس من الفصل نفسه

ومنذ ذلك الحين راح الأمير دان يبحث عمن يأتيه بأقطع خنجر في الممالك كلها، فجاءوا إليه به من رجل بدولة جاو، يُدعى «شيوفو»، فعهد بالخنجر إلى الحداد ليسقيه بالسم الناقع، فلمَّا جربوه في جسد بعض الناس [هكذا!] ماتوا جميعًا في لحيظات معدودة، دون أن يُخلف الجرح سوى خيط ضئيل من الدماء. وهنالك تجهز جينكه للسفر، ورتب أمتعته، وذهب الأمير لتوديعه، وكان بدولة يان رجل هجَّام، يدعى «تشينويان» قيل إنه ارتكب أول جريمة قتل وهو بعد، دون الثانية عشرة من عمره، حتى خافه الناس وكانوا يخشون مجرد النظر في عينَيه. فاستدعاه الأمير، دان، وكلفه بأن يكون مساعدًا لـ «جينكه» وقت الحاجة (فلما أزف وقت الرحيل ...) قعد جينكه ينتظر أحد مُرافقيه وكان يقيم بمكان بعيد، وطال الانتظار عدة أيام، دون أن يخرج المسافر إلى الطريق فاستبطأه الأمير دان،

وظن به الظنون وفكر في أنه ربما أحسَّ بالندم، فذهب إليه ورجاه قائلًا: «قد تجاوزت الأجل المضروب للرحيل، فهل معنى ذلك أنك نكصتَ عما وعدت به وتراجعت عن السفر؟ إذا كان الأمر كذلك فاسمح لي بإيفاد (الهجَّام) تشينويان (بدلًا منك).» فثار جينكه غاضبًا واحتدَّ على الأمير، وهو يقول له: «إنما أنا ذاهب في طريقٍ لن أعود منه حيًّا، وأُمسك بيدي خنجرًا كي أدخل به بلدًا مشهورًا بالوحشية والبطش وسفك الدماء، فكأني داخل إلى غور لا تؤمن غائلته؛ فلذلك بقيت عدة أيام أُعد نفسي للسفر، وأردت أن يصحبني صديق لي، فجلست في انتظاره، وتجيء أنت وتظن أني تأخرت عن الموعد، فالوداع إذن، وليكن الفراق الساعة!» ثم قام وانطلق مسافرًا، فما وسِعَ الأمير دان وأتباعه إلا أن قاموا يتبعونه لوداعه وهم يرتدون الملابس والقبعات البيضاء [شارات الحداد] حتى انتهوا إلى ضفاف نهر «إيشوي»، وذهب جينكه وقدم القرابين لآلهة الطريق، وطلب منها الهداية في دروب السفر، ثم تخير لنفسه وجهة الرحيل، وكان صديقه «قاوجيان لي» يعزف على القيثارة، بينما يُنشد جينكه، على الأنغام لحنا من مقام شجي، فامتلأت نفوس السامعين أسًى وهو يغني:

«موكب من الرياح،
ينثر في الأسماع
همس دفقات النسمات،
فوق الطل البارد،
والنهر الحزين،
سيذهب البطل،
ولن يعود.»

وعندئذٍ تحول العزف إلى مقام مُتسارع يثير الحماس والحزم والإقدام، فاتقدت العيون ألقًا، والنفوس استثارة وتصميمًا، وهنالك انطلق جينكه في طريق السفر دون أن يلتفت خلفه.

الجزء السادس من الفصل نفسه

فلما وصل جينكه إلى تشين حمل الهدايا الثمينة وراح يوزع منها على رجال البلاط والوزراء والحاشية، كما أغدق منها على «منجيا» الشيء الكبير [منجيا: أخو القائد العسكري العام

بدولة تشين]، فذهب هذا إلى الملك وحدثه بشأن جينكه، قائلًا: «إن ملك يان يخشى نفوذ وسطوة جلالتكم، ولا يجد في نفسه المقدرة على مواجهتكم عسكريًّا، وهو يتمنَّى أن تعلن كل الدويلات والممالك طاعتها وخضوعها لكم، وكأنهم بضعة من وزرائكم وعمالكم بحيث يفدون عليكم لتقديم آيات الطاعة والولاء مثلهم في ذلك كمثل محافظي الأقاليم والمحلات التابعة لسلطانكم، ولا يُريدون إلا التقرب لكم بالهدايا اللائقة والقيام على خدمة معابد أسلافكم الأجلاء. ولمَّا كان ملك يان مترددًا في المجيء بنفسه للتعبير لكم عن كل تلك الأفكار، فقد تكرَّم بإرسال رأس القائد الهارب فان يو مرفقًا بخريطة لإقليم «طوكان» وذلك كله طي صندوق مُرسل إلى جلالتكم مباشرةً من البلاط الحاكم، تحت إشراف ملك يان شخصيًّا، وقد أوفد إلى جلالتكم، بهذا الشأن، مبعوثًا خاصًّا لمقابلتكم، ليشرح لكم، بالتفصيل فحوى الأمر برمَّته، وهو ينتظر الإذن من جلالتكم.» فلمَّا سمع الملك تلك الأنباء، ابتهج للغاية، وبلغ به السرور أشده، وأسرع بارتداء الملابس الملكية المقدسة، وأمر بتعيين تسعة مُرافقين للضيوف، على أن تتم المقابلة في قاعة القصر الملكي الكبير (بالعاصمة)، وجاء جينكه وهو يحمل بين يدَيه الصندوق الذي يحوي رأس القائد فان يو بينما حمل [الهجَّام المذكور آنفًا، المدعو]: «تشينويان» الصندوق الآخر المشتمل على الخريطة، فتقدَّما كلاهما (حسب المراسم الرسمية) حتى بلغا أدنى موضع من كرسي الملك (الدرجة الثانية من درجات السلم) وعندئذٍ بلغ الذُّعر مبلغه من تشينويان، فتلوَّن وجهه، حتى سرت الهمهمة والدهشة بين جموع الضيوف والوزراء، وعندئذٍ التفت جينكه نحوه ضاحكًا وتقدم إلى الملك معتذرًا إليه قائلًا لجلالته: «معذرة يا مولاي؛ فهذا رفيقي رجل بسيط من بلاد الشمال لا عهد له بالمثول بين يدي الملوك؛ فلذلك ارتاع على النحو الذي ترى فأرجو المغفرة وسعة الصدر وطول الأناة، ولتصبر عليه حتى تنفكَّ عقدة الرهبة أو ائذن له بالاقتراب منك ليؤدي بقية المراسم!» فقال الملك لـ «جينكه»: «أقبل أنت، وخُذ الوثائق والخريطة من يد رفيقك وسلِّمها لي.» فتناول جينكه الخريطة وتقدم بها نحو الملك، ثم فك الأربطة من حولها وفرد طياتها وما كادت تنفرد، صفحتها، حتى كان الخنجر في يد، واليد الأخرى تقبض على ياقة الملك، وقبل أن تصل الطعنة إلى جسده انتفض جلالته مذعورًا فانقطعت ياقة القميص، فأسرع إلى سيفه، لكنه لما كان في حال الاضطراب والارتباك فلم يتمكن إلا من الإمساك بطرف غِمده ولم يتيسر له انتزاعه، إذ كان مغلقًا بإحكام، ولحق به جينكه، فدار الملك حول أحد الأعمدة، وضج الحضور وارتبك الوزراء، وعمَّت الفوضى لورود ذلك الحادث على حين غفلة من الجميع، ولم يتمكن أحد من مقاومة المُعتدي؛ إذ كان من المعمول به في البلاط

الملكي بدولة تشين وحسب اللوائح الرسمية، حظر دخول الأسلحة بكل أنواعها إلى داخل القصر، حتى المُدى القصيرة النصل لم يكن مسموحًا بدخولها لأي سبب من الأسباب، بينما كان أفراد الحراسة المسلحين، يقفون خارج القاعات الكبرى، وليس مسموحًا لهم بالدخول إلا بأوامر شخصية من جلالته، وفي تلك الأثناء، ومع احتدام الفوضى والارتباك، فلم يتيسر للملك استدعاء أي فردٍ من الحراس، ومن ثم فقد لحق به جينكه، والناس ينظرون حيارى، ولا يدرون ماذا يفعلون ولا كيف يُجابهون جينكه ويحُولون بينه وبين الملك سوى مصارعته بالأيدي. وفي تلك الأثناء، تقدم طبيب القصر «شياوجين» ورمى جينكه بعلبة كبيرة كان يحملها للطوارئ وكانت تحتوي على كميات من الأدوية والعقاقير، (فلم تُصبه بشيء)، لكن الملك تمكن من أن يدور وراء العمود الحجري الكبير وهو في غاية الاضطراب، وصار الوزراء وبعض القريبين منه يصيحون عليه: «دونك السيف سيدي الملك، اقلب عروته واضرب!» وهنالك استطاع الملك أن يسحب السيف من غمده، فضرب جينكه فجاءت الضربة على ساقه اليسرى فبترتها في الحال، فاحتمل جينكه الألم ورفع الخنجر تجاه الملك وأراد أن يُصيبه فوقع النصل في العامود، فتمكن الملك من ضربه عدة طعنات متوالية فأدرك جينكه أن قد حبط مسعاه، وعليه دارت الدائرة، فاستند إلى جسم العامود وصرخ صرخةً عظيمة مُختلطة بنوبات من الضحك المجنون المُتقطع ثم وقع على الأرض وهو يهذي قائلًا: «طاشت الضربة، وكنت أريد أن أخرج بك أسيرًا، لينتقم منك الأمير بنفسه ويستولي على أرضك.» وكان الرجال، في تلك اللحظة، قد أحاطوا به وقتلوه. بينما ظل الملك تائه الفكر مشوَّش الذهن فترة من الوقت.

ولما انقضت الفترة العصيبة حان أوان مكافأة من أبلى بلاء حسنًا، ومعاقبة المُقصر والمسئول؛ كلٍّ على قدر تفانيه وإخلاصه أو إهماله وتقصيره، واستقر الأمر على منح طبيب القصر شياوجين مائتي مثقال من الذهب وقال الملك: «إن هذا الرجل أكثر الجميع إخلاصًا لي، بما أقدم عليه وقت الحادث.»

الجزء السابع من الفصل نفسه

وصار قلب ملك تشين ذءوبًا على دولة يان وبات صدره مشحونًا بمقتِها، أكثر من ذي قبل، وأصدر أمره إلى القائد وانجيان بتوجيه ضربةٍ عسكرية ساحقة إلى يان.

(وكان أن تمكنت قوات تشين من دحر دولة يان) في عهد الملك «إينجن» ملك تشين، وذلك في الشهر العاشر من السنة الحادية والعشرين [أكتوبر من عام ٢٢٦ق.م.] واقتحمت

القوات مدينة «جي» عاصمة دولة يان [مدينة بكين عاصمة جمهورية الصين الشعبية، حاليًّا] فاحتلتها، أما الملك شي حاكم يان [كان أميرًا لدولة جاو، التي احتلتها تشين عام ٢٢٨ق.م. فهرب إلى إقليم داي وأعلن نفسه ملكًا عليه ثم تحالف مع دولة يان — في الشرق — وضم الجيشَين معًا في قوة عسكرية واحدة] والأمير دان وبعض رجال الحاشية، فقد انسحبوا جميعًا على رأس قوة عسكرية منتخبة إلى منطقة «لياودون»، إلا أن قائد تشين: (المدعو: ليشين) ظل يطارد ملك يان الذي لجأ إلى مكيدة قديمة (كانت قد استخدمتها دولة جاو في الماضي) إذ قتل الأمير، وأراد أن يُقدم رأسه إلى ملك تشين، استرضاءً له، إلا أن جلالته ظل يُطارده ويُضيق عليه، فما كادت تنقضي خمس سنوات، حتى كانت يان قد وقعت بالكامل وانتهى أمرها، وتم أسر الملك شي. وفيما بعد، فقد قامت تشين بتوحيد الممالك كلها، وكان في الحوادث أن الرجل الملقب بـ «قاوجيان» — صديق جينكه — استخدم حيلة ماكرة لمقابلة ملك تشين؛ وذلك بأن ادعى مقدرته على العزف البارع على القيثارة ليطرب جلالته، وأتيح له بالفعل، أن يمثل بين يدي الإمبراطور الأعظم تشين شيهوانغ [أكثر الأباطرة الصينيين شهرةً عبر التاريخ إذ هو أول من وحَّد الصين الكبرى] وانتهز تلك الفرصة لينتقم لهزيمة بلاده، لكنه فشل في محاولته اغتيال الإمبراطور، فأُعدم وقُضي أمره.

سجل الدولتين: «ويه» و«سونغ»

لمَّا قامت دولة تشي بمهاجمة سونغ

قامت دولة تشي بمهاجمة دولة سونغ، فأرسلت هذه رسولها «تصانزي» إلى تشو، تستصرخها لنجدتها، وبَدَا أن الأمر يروق لملك تشو؛ إذ أبدى استعداده لتقديم المؤازرة التامة والمساندة الكاملة لها؛ للتعجيل بإنقاذها، واستدار «تصانزي» عائدًا إلى دولة سونغ، وقلبه غارق في الهموم، وكان أن قال له الحوذي، سائق مركبته: «على الرغم من أنك فزتَ بما أملته من الوعد بإنقاذ البلاد، فإن ملامحك تنطق بالقلق، فهل لي أن أسألك عن السبب في هذا؟» فأجابه: «دولة سونغ مجرد إقليم ضئيل المساحة على عكس ما تتميز به دولة تشي من الاتساع المُتناهي والمنعة والغلبة. وعندما تقوم مثل هذه الدولة الضعيفة، الضئيلة باستثارة غضب تلك القوة الجبارة، فلا بد من أن الأمر لن يصير سهلًا أمام حاكمها — أو أي حاكم آخر مكانه — ومع ذلك، فقد لاحظت علامات الابتهاج على وجه ملك تشو وأنا أكلمه، وإحساسي يُنبئني بأنه سيدعنا نواجه تشي وحدَنا؛ ومن شأن ذلك أن يستنزف قوى تشي ويُصيبها بالإنهاك، وهو ما ستعود فائدته على دولة تشو بالتأكيد.» وبعد وصول تصانزي إلى سونغ، قامت دولة تشي بالإغارة عليها، فاحتلت خمسًا من مدنها، دون أن يوفِّي ملك تشو بوعده، ولم يتقدَّم لإغاثتها.

لمَّا صنع لوبان آلة حربية لمهاجمة

قام لوبان [أحد أشهر الصنَّاع المهرة في العصور القديمة] بصناعة آلة حربية قتالية لدولة تشو، لكي تستخدِمها في هجومها المزمع على دولة سونغ، فما عرف بذلك «موتزي» [فيلسوف، قديم، عاش في دولة سونغ، إبان عصر الدول المتحاربة] قام وقصد طريق السفر

إليه، مُتجشمًا صعاب الطريق، حتى تهرأت كعوب قدمَيه وانتثرت الثآليل في رجلَيه، فلما التقى مع لوبان، ابتدره بقوله: «بلغني، وأنا في دولة سونغ، ما أصبتَ من شهرة ومجد وصيتٍ ذائع والآن، فقد جئتُ إليك راجيًا أن تمدَّ لي يد العون لاغتيال أحد الأشخاص.» فأجابه: «لكني كنت طوال عمري، امرأً فاضلًا، أنشد الرحمة والحكمة، فكيف أقتل الناس؟» فردَّ عليه موتزي، قائلًا: «بلغني أنك صنعت سُلمًا صاعدًا إلى السماء [هكذا] استعدادًا لمهاجمة دولة سونغ، فما الذنب الذي جنته لتستحقَّ ذلك؟ إن الزعم بأن المرء فاضل رحيم، في حين أنه يُعين على الإعداد لعمليات هجومية ضد دولة أخرى، معناه أنه لن يكتفي بقتل بضعة أشخاصٍ وإنما سيعد العدة لاغتيال الجمِّ الغفير من الناس. وإلا ففيمَ الحكمة والرحمة والفضل في مهاجمة دولة سونغ؟» فأقر لوبان بصحة قوله، فطلب إليه موتزي أن يصحبه ليُرتب له لقاء مع ملك تشو، فلما مثل مع موتزى بين يدي جلالته، قال له: «أريد أن أسأل جلالتك عن رأيك في رجلٍ يُعرض عما يملكه من عربات ذات زينة وبهاء وألوان ومتانة، ثم يطمع فيما لدى جاره من مركباتٍ قديمة مُحطمة، وما رأيك في رجل يخلع ملابسه الحريرية المُطرزة البديعة، فيستولي على ثياب جيرانه الخشنة المهلهلة، ثم ما رأيك فيمن يعاف طعام بيته الشهي، طيب النكهة والمذاق، ليسرق صحاف جاره من حثالة الطبخ ونخالة المائدة؟» فأجابه ملك تشو: «هذا رجل مريض بداء السرقة.» فقال موتزي: «إن مساحة دولة تشو تبلغ خمسة آلاف «لي» مربع، بينما لا تزيد مساحة سونغ عن خمسمائة «لي» مربع؛ فذلك أشبه شيءٍ بما بين العربة المزدانة بالألوان البهية المنظر، والأخرى المحطمة زريَّة الهيئة؛ ثم إن دولة تشو تنعم بما لديها من حدائق غنَّاء، وبحيراتٍ رائعة، مثل بحيرة «يونمن» المشهورة بحيوانات البحيرة والأسماك والأيائل، والجميع يعرف ما تغلُّه بلادكم من الثروة السمكية الهائلة التي يزخر بها نهر اليانغتسي ونهر هان من الأسماك والسلاحف والتماسيح وغيرها؛ فهي أغزر البلاد ثروة وأكثرها موارد طبيعية، ومنتجات بشرية، لكن دولة سونغ تفتقر إلى مثل تلك الثروات كما هو معروف لدى الكافة؛ فذلك أمر قريب مما بين أسمطة الطعام الشهي وفتات المائدة. ودولة تشو تزخر بأنواعٍ من الأشجار العالية والغابات نادرة المثال على حين أن سونغ تخلو من مثل تلك المزايا الطبيعية وهذا قريب الصلة مما ضربت به المثل من العُمق بين الملابس الحريرية المطرزة والأسمال الخشنة البالية، وإنما قصدتُ من ذلك كله أن أشير إلى ما بين مهاجمة تشو لدولة سونغ وبين ذلك المثال من أوجه الشبه الكبير.» فأجاب عليه الملك، قائلًا: «هذا قول صدق، ومنطق لا مراء فيه، فاعلم أنَّا لن نُهاجم سونغ أبدًا.»

لمَّا قام كونسونيان على رأس قوات لمهاجمة

لمَّا قام كونسونيان على رأس حملة عسكرية لمهاجمة دويلة «هوانغ» واضطُر أن يسلك طريقًا مارًّا بأراضي دولة «ويه»، فبعث رسولًا إلى ملكها، يقول له: «هل يصح أن تكون قواتنا في طريقها مارة بأطراف بلادك، دون أن ترسل وفدًا من عندك لتقصِّي الأحوال ومتابعة مجرى الأمور؟ واسمح لي بأن أسأل جلالتك عما إذا كان قد بدرَتْ منِّي إساءة في حقكم؟ إن مدن دويلة هوانغ قد صارت على وشك السقوط في أيدينا، فحالما ننتهي من غزوتنا لها، فسنقصد أسوارك ونقتحم عليك مدنك بجيشٍ جرار يعيث في أنحاء بلادك.» وأسقط في يد حاكم «ويه»، وسارع إلى تجهيز ثلاثمائة غرارة من المال [هكذا]، وثلاثمائة مِثقال من الذهب الخالص، وأرسلها مع مبعوث خاص، فاعترض طريقه «نانونزي» [كبير وزراء دويلة ويه] وقال لجلالته: «لو أحرز كونسونيان النصر على دويلة هوانغ، فلن يهاجم بلادنا، وحتى لو لم ينجح في مسعاه، فلن يفكر في الإغارة على «ويه»؛ ذلك أنه لو انتصر على مدن هوانغ، فسوف يلمع اسمه ويذيع صيته، وهو بطبيعته من ذلك النوع الذي يتيه على رفاقه وزملائه بما أحرز من الظفر على أعدائه، ولذلك فسوف يُهمل شأن باقي رجال الحاشية، مما يؤلِّب عليه صدور القوم، ويُثير كراهيتهم ضده فينشطون في الوشاية به، وبالطبع، فلن يقعد كونسونيان، وهو صاحب الإنجازات الباهرة، في انتظار ما يمكن أن يوجَّه إليه من انتقاد ولوم وتأنيب، ومهما بلغت به درجة الحماقة، فلن يقع فيما يزيد الموقف سوءًا. (هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى ...) فهو إذا لم يستطع تحقيق النصر على دويلة هوانغ، فسوف يفرُّ هاربًا، بقلب واجس إلى دولة وي، وحتى إذا عاد إلى بلاده، فسوف يقبع خائفًا وسط هواجسه المريرة، حذر ما يمكن أن يصيب من اللوم واللعنات فكيف يُجازف بالوقوع فيما يمكن أن يُفاقم من أزمته حينئذ؟» وحدث أن تمكن كونسونيان من النصر على هوانغ، ثم ما لبث أن عاد إلى بلاده، دون أن يتعرض لدولة ويه بشيء، بل حتى دون أن يجازف بالمرور من أراضيها.

لمَّا تمكَّن ملك وي من احتلال

تمكَّن ملك وي من اقتحام مدينة «هاندان» عاصمة دولة جاو، وما كاد يتم له ذلك، حتى استعد بالحشود للإغارة على دولة سونغ، فأرسل ملك سونغ إلى حاكم جاو يستحثه على

سرعة التصرف، قائلًا «إن لقوات وي من البطش وشدة البأس ما قد علمتم، فإذا ما بادرت إلى مهاجمتنا، وصمدنا لها، فسوف نُعرض بلادنا وأهلينا لمخاطر جمة، وإذا تطلب الأمر المساندة في اجتياح أرض دولة جاو، فلا أظننا نوافق على ذلك، ومن ثم فنرجوكم صياغة أفكار معقولة ومناسبة، نستطيع الامتثال لها والعمل بحسب ما ترونه.» فأجابه ملك جاو، قائلًا: «هذا مفهوم تمامًا، فنحن نُدرك أن دولة سونغ لن تقدر على مقاومة قوات وي كما أن العمل على إضعاف جاو لصالح دولة وي، لن يعود على سونغ بأي نفع. وبناءً على ذلك فلست أدري ما هي الوسيلة الناجعة لصياغة قرارٍ مناسب وخطة معقولة للتصرف!» وهنا، قال له رسول دولة سونغ: «إن المرجو من جلالتكم، السماح لدولة سونغ بمهاجمة إحدى المحلات الواقعة على حدودكم الغربية على أن يتواصل الهجوم ببطء، ريثما تنقضي عدة أيام، وتصل بعدها فرق الدفاع والحماية التابعة لكم، فتقوم بتحصينها.» وهنا وافقه الملك على خطته. وعلى ذلك أقدمت دولة سونغ على مهاجمة إحدى القرى الواقعة على أطراف حدود دولة جاو، وحاصرتها؛ فتهلل ملك وي فرحًا، وراح يقول: «ها هي ذي دولة سونغ قد ساندتني أعظم مساندة في مهاجمة جاو.» وفي الوقت نفسه، كان ملك جاو يشعر بالغبطة، وهو يقول (لمن حوله): «أعرف وأثق أن دولة سونغ ستتوقف عند هذا الحد ولن تتقدَّم خطوة واحدة أبعد مما وصلت إليه!» فلما انتهت المعارك، وعاد الجنود إلى ثكناتهم، كانت دولة سونغ تشعر ببالغ الامتنان لدولة وي، كما أنها ما كانت تحمل إصرًا على دولة جاو؛ فلذلك ذاع مجدها وعلا قدرها وسط الممالك، بالإضافة إلى ما نالته من مزايا وما كسبته من مواقع.

لمَّا ذهب إلى كبير وزراء دولة سونغ

ذهب إلى «طايين» [كبير وزراء دولة سونغ] من قال له: «هذا ملك سونغ [الذي لم يبلغ الحلم، ما زال تحت الوصاية] يكبر مع الأيام، فإذا ما بلغ السن التي تؤهله لمباشرة مهام الحكم فلن تعود مسئولًا عن إدارة شئون البلاد، وأرى أن من الأفضل أن تطلب من دولة تشو تقديم تهنئةٍ ذات شأن لجلالته، تمتدح فيها أخلاق ولي العهد، وتشيد بما يتحلَّى به من الوفاء لأهله والبر بوالديه، وهنالك فسيصعب على جلالته أن ينتزع سلطة الإدارة السياسية من يد الملكة الأم، وبالتالي يستمر بقاؤك في منصبك فترة أطول.»

لَمَّا كانت سونغ وتشو دولتَين

كان ما بين دولتي سونغ وتشو رباطًا من العلاقات الأخوية، فلما قامت دولة تشي بمهاجمة سونغ، أعلنت تشو دعمها ومؤازرتها لدولة سونغ، وهو ما شجع هذه على توجيه دعوتها لدولة تشي بالجلوس على مائدة التصالح [بدلًا من التمادي في حربٍ لا تقدر عليها ما دامت تشو تقف إلى جانب سونغ] إلا أن تشي لم تُصغِ لتلك الدعوة. فتكلم سوتشين [بالإنابة عن سونغ] إلى رئيس وزراء تشي، قائلًا له: «أرى أن الأفضل لكم هو التصالح والمصافاة مع دولة سونغ، فمن شأن ذلك أن يُبرز مدى المباهاة والفخر الذي تشعر به سونغ حيال موقف تشو المؤيد لها اعتمادًا على ما تحوزه من قوة، ومن ثَم فسيشعر ملك تشو بشيءٍ من السخط والغضب من سونغ وربما يذهب في ذلك إلى حدِّ قطع علاقاته معها وتوثيق علاقاته بكم، والعمل على تحقيق مصالحكم، وإذا حدث التقارب والوحدة بين تشي وتشو، فسيسهل على تشي ضرب دولة سونغ بأيسر ما يمكن.»

لَمَّا قام أمير دولة وي بقيادة القوات

قام أمير دولة وي [الأمير «شن» ولد الملك هوي، حاكم وي] على رأس حملة عسكرية لمهاجمة دولة سونغ، وكان مارًّا في طريقه بمنطقة «وايهوان» المتاخمة لدولة سونغ فالتقى به «شيوزي» [أحد أبناء هذا البلد] وقال له: «أعرف طريقة ناجعة لتحقيق النصر في مائة معركة، فهل يسمح لي سمو الأمير بأن أُطلعه عليها؟» فأومأ إليه بأن هات ما عندك، فقال شيوزي: «إنما أنا — في كل الأحوال — تابعك الأمين، الذي يتفانى لما يعود عليك بالنفع، سيدي الأمير. وقد رأيتك تقوم بنفسك قائدًا لحملة الهجوم ضد تشي (وأتصور أنك في غِنى عن ذلك ولا داعي لمثل هذا التحرك …) فأنت إذا أحرزت النصر، لم يُضف إلى ما تملكه شيئًا؛ (فلديك بلادك بأرضها الواسعة)، ولم يزد جاهك قيمة؛ (فأنت الملك القادم، مع الأيام …) أما إذا خسرتَ المعركة، فسوف تخسر معها دولة وي طوال حياتك، تلك خُطتي التي تحارب بها مائة معركة وتُحرز فيها مائة انتصار [حرفيًّا].» فنزل الأمير على رأيه، وأراد العودة إلى بلاده. وهنالك تكلم شيوزي فقال: «لا أظنك تستطيع العودة بسهولة، كما جئت؛ لأن الذين انتهزوا فرصة وقوع المعارك بغية تحقيق مصالحهم الخاصة، كثير جدًّا، وأكثر منهم هؤلاء الساعون وراء مآربهم الذاتية باستمرار، فلا أظنك تستطيع العودة بسهولة على النحو الذي يبدو لك.» فركب الأمير مركبته وطلب من القادة العودة إلى البلاد، فتكلم

إليه الحوذي، سائق مركبته قائلًا لسموه: «إن العودة من حملة عسكرية دون سبب مفهوم تتساوى مع الانسحاب المُخزي، فلا مفرَّ من أن تتقدَّم في طريقك المرسوم سلفًا.» فما كان من أمير دولة وي إلا أن تقدم بقواته في طريق الهجوم، واشتبك مع قوات تشي، (بيد أن طعنةً أصابته ...) فقُتل أثناء المعارك، فلم يفز بما كان يؤمِّل به من مُلك عريض في دولة وي.

لَمَّا أفرخ العصفور نسرًا جارحًا في زمن الملك

(جاء في الحوادث ...): أنه لما كان زمن الملك «كانغ» — حاكم سونغ — متوليًا زمام الحكم فوق عرش البلاد، أفرخ أحد الطيور الصغيرة نسرًا جارحًا، في عشه الذي ابتناه فوق أحد أضلاع سور المدينة، فاستدعى الملك أحد مؤرخي البلاط الملكي [الموظف المسئول عن المدونات التاريخية والعرافة والكهانة في الوقت نفسه] وطلب إليه النظر في الطوالع وفنون العرافة للوقوف على ما ينبئ به قدر الأيام المخبوءة طي الغيب، فأخبره المؤرخ بما مفاده «الرمز فيما حدث من أن عصفورًا يفرخ نسرًا جارحًا، يشير مؤكدًا إلى تسنُّم ذُرى الملك والرفعة فوق الأمم، فتلك نبوءة قيام الإمبراطورية الكبرى على يديك.»، فتهلل وجه الملك بالبِشر، وكان أن دفع قواته لمهاجمة دولة «تنغ» فأبادتها، وكُتب له النصر، أيضًا على «هوايبي»، وامتلأت نفسه بالثقة الغامرة، وتطلع إلى تحقيق الحلم الإمبراطوري بأسرع ما يمكن، فأطلق سهامه في قلب السماء وضرب بسوطه بساط الأرض [هكذا حرفيًّا، دلالة على تمرده وثورته على كل المبادئ المستقرة] وحطم آلهة الأراضي الخصبة والمزارع الوفيرة، بل أشعل فيها النيران، قائلًا: «سأُخضع كل الجان والمردة فوق الأرض لإرادتي وسلطاني.» وصب جام غضبه وسيل شتائمه على كل المسئولين والوزراء — صغيرهم وكبيرهم — الذين تجرءُوا على النصح له باتباع سبل الرشاد، وصار يخرج إلى الناس وهو يُغطي رأسه بقبعة غريبة الشكل، ليس لها حاجز يَقيه حر النهار، بدعوى أنها الزي المناسب للشجعان والأبطال، والأغرب من هذا أنه أصدر أحكامًا تقضي بشق ظهر كل ذي حدبة، وبتر ساق كل سابح في النهر ساعات الصباح الباكر (وبالجملة، فقد الْتاثَ عقله وتشوَّش ذهنه للغاية) حتى بات الناس في رهبةٍ منه، فلما ترامت أنباء تلك الأحداث إلى دولة تشي، بادرت إلى مهاجمة سونغ، ففر الناس وولَّوا الأدبار، حتى صارت البلاد بلْقعًا خاليًا ودورًا بلا ديَّار، وكان الملك كانغ قد هرب من القصر، وأقام في منزل أحد كبار الوزراء، ثم ما لبث أن وقع

في قبضة رجال دولة تشي، فقتلوه وانتهى أمره، وكان مثلًا لمن رأى بعينَيه البُشرى الطيبة دون أن يسلك لتحقيقها طريقًا طيبًا، فانقلبت سعود المُنى نحوسًا مريعة.

لمَّا أراد جيبو مهاجمة دولة «ويه»

أراد جيبو أن يغزو دولة «ويه»، فأرسل إلى حاكمها أربعة خيول برية وقطعة من اليشب الأبيض [نوع من الحجر النفيس]، مما أثار البهجة في نفس الملك، فجاءه الوزراء يُهنئونه، إلا نانونزي، إذ كان الوحيد الذي ارتسمت على وجهه علامات القلق، فسأله ملك ويه: «الجميع فرحون وأنت وحدك تبدو مهمومًا حزينًا، فما السبب؟» فأجابه: «أن يتلقى المرء تكريمًا بغير مأثرة ويُعطى هديةً سخية دون إنجاز وجدارة، فهذا أمر يستدعي استقصاء الأسباب والبحث في أغوار التفاصيل، ثم إن الأغرب من ذلك أن ترسِل إليك دولة كبرى أربعة خيول وقطعة من اليشب الكريم، وهذه هدية لا تُقدمها دولة صغيرة، فما بالك بدولة عظمى لها قدرها ومكانتها بين الأمم، فتأمَّل هذا بعمق وانظر ماذا ترى!» فذهب ملك ويه وأخبر قائد حرس الحدود بما سمعه من نانونزي، وأمَّا ما كان من أمر جيبو، فإنه حشد جنوده وانطلق ليُباغِت دولة ويه بالهجوم، لكنه ما إن وصل إلى المنطقة الحدودية حتى تراجع سريعًا وألغى كل خُططه الهجومية، قائلًا لمن حوله: «هو ذا رجل حاذق أريب في هذا البلد، أدرك مسبقًا ما اعتزمناه من خطط هجومية ضدها، فاتخذ أهبة الاستعداد.»

لمَّا أراد جيبو أن يقوم بغارة مفاجئة

أرد جيبو أن يقوم بغارة عسكرية مفاجئة على دولة ويه، فأرسل إليها ولده باعتباره طريدًا، وعهد إليه أن يتظاهر بأنه لائذ بدولة ويه، مُستجير بالمُقام في أرضها، فتكلم نانونزي قائلًا: «إن المدعو «طاتسي يان» هو أكبر أبناء جيبو، وقد حاز القدر الأكبر من محبة أبيه وعطفه عليه، فليس ثمة ما يُتوقَّع من النفور أو التباغُض بينهما بالدرجة التي تؤدي بالولد إلى الهرب من وجه أبيه، فلا بد من أن وراء الموضوع أسبابًا كامنة.» وأرسل نانونزي أحد المسئولين لاستقبال الوافد الطريد عند المنطقة الحدودية، وقبل أن يخرج المسئول لأداء مهمته، انتحى نانونزي به جانبًا، وأوصاه قائلًا: «إذا وجدت «طاتسي يان» قادمًا في موكبٍ يزيد على خمس مركبات، فلا تدعه يدخل إلى البلاد.» فلمَّا وصلت الأنباء إلى جيبو بهذا الأمر، منع ولده من الذهاب إلى ويه.

لمَّا قامت دولة تشين بمهاجمة إقليم

قامت دولة تشين بمهاجمة إقليم «بودي» التابع لدولة ويه، فتكلم خويشان [من أهل ويه] إلى تشوليجي، قائلًا: «فيمَ هجومك على أرض بودي؟ أَلِأجل دولة تشين (تقوم بهذا الهجوم) أم لصالح دولة وي؟ إذا كنت تريد بذاك مراعاة وجه النفع لدولة وي، فهي حقًّا، ستجني ثمرة الفائدة؛ أما إذا كنت تقصد خدمة تشين، فاعلم أنه لن يعود عليها بأدنى نفع؛ فهذه الأرض (أرض بودي) جزء أساسي من كيان دولة ويه، فمن دونها لا تقوم لـ «ويه» قائمة، فإذا وقعت تحت سيطرة دولة وي، فلا مفر من أن تخضع ويه لها. هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى فإن السبب في عجز دولة وي عن استرداد أراضيها المُغتصبة منها فيما وراء إقليم «شيهو» هو ما أصابها من الضعف والانحلال، فإذا تصوَّرنا انضواء دولة ويه تحت نفوذ دولة وي واندماجها في كتلة أراضيها العامة، فلا بد أن يتبع ذلك بلوغ دولة وي درجة فائقة من القوة؛ بسبب ما انضاف إليها من مدد وقوة دولة ويه، لكن يجب ألا نُغفل المصير الذي يمكن أن تئول إليه المناطق الواقعة فيما وراء «شيهو»، قبل أن تملك وي زمام أمرها، ويتقوَّى مركزها من جديد، والمؤكد أن مصير تلك المناطق سيكون مرهونًا باحتمالات الخطر، هذا بالإضافة إلى ما سيقوم به ملك تشين من مراجعة تصرفاتك واستقصاء سيرة عملك، فإذا لاحظت أنك خدمت مصالح دولة وي على حساب دولة تشين (بل ألحقت بها بالِغ الضرر بسبب الحرص على ما فيه منفعة دولة وي …) فسوف ينحي باللائمة عليك ويُذيقك كأس الغضب المرير.» وسأله تشوليجي: «فما العمل، إذن في رأيك؟» فأجابه خويان قائلًا: «أقلِع عن مهاجمة أرض «بودي» ولا تُحاول الإغارة عليها ثانية، وائذن لي بالذهاب إلى الحامية العسكرية المُقيمة هناك لكي أخبرها — بالإنابة عنك — بضرورة التوقُّف عن القتال، وهو ما سيذكره لك ملك ويه ببالِغ الامتنان والتقدير.» فوافقه تشوليجي على رأيه، وقام خويان وذهب إلى محلة «بودي»، وقال للحامية المُتمركزة بها: «قد علم تشوليجي حجم الصعاب التي تكتنف الإغارة على محلة بودي، ومع ذلك فقد صرَّح، قائلًا إنه لا بد مُقتحم أرضها، عائث في نواحيها، غير أني استطعت إقناعه بالعدول عن ذلك، والاقلاع عن الهجوم.» فسجد له رجال الحامية سجدتَين، تحيةً وتقديرًا له، وأهدوه ثلاثمائة مثقال من الذهب، قائلين له: «إذا ما قُدِّر لجيش تشين أن ينسحب حقًّا، فسنعمل على أن يبذل لك الملك مكافأة لائقة.» وبالفعل، فقد حصل خويان على مكافأة

مالية جزيلة (من أرض بودي) وعلا قدره وارتفعت مكانته لدى دولة ويه، كما حصل تشوليجي على مكافأة قدرها ثلاثمائة مثقال ذهبًا، وسحب قواته عائدًا إلى بلاده، بعد أن ترك انطباعًا عميقًا عند ملك ويه بكثير الامتنان والعرفان.

لمَّا أوفدت دولة ويه أحد كبار موظفي القصر

أوفدت دولة ويه أحد كبار موظفي القصر للعمل في خدمة دولة وي، (فذهب الرجل وبقي في انتظار استدعاء الملك له لتوليته مهام منصبه ...) لكنه ظل — في الانتظار — ثلاث سنوات، دون أن يتوجَّه إليه الاستدعاء الملكي، فأصابه القلق، فذهب إلى أحد الشيوخ العجائز الجالسين تحت شجرة السرو [«جالس تحت شجرة السرو» كناية عن رجل فاضل ذي علم وحكمة، مُتقدم كثيرًا في السن] ووعده بإهدائه مائة مثقال من الذهب إذا توسَّط لدى المسئولين في هذا الشأن، فلبَّى الرجل صريخه، وقام والتقى بملك وي، وقال لجلالته «بلغني أن دولة تشين قد خرجت بقواتها تريد القتال، لكن أحدًا لا يعرف وجهتها، ولا أي بلد تقصد الإغارة عليه، وعلى الرغم مما بين وي وتشين من علاقات دبلوماسية فإنهما لم تبلغا حدَّ المصافاة التامة، ولا أصلحتا ذات بينهما منذ وقت بعيد، وأرى أنه من الواجب الاهتمام بتقريب الصلة وتوثيق العلاقة مع تشين دون أية نوايا أخرى.» فنزل الملك على رأيه، مقتنعًا بكلامه، فقام الشيخ الجليل ومشى قليلًا وما كاد يبتعِد حتى عاد أدراجه، ليقول: «لكني أظنُّ يا مولاي، أن الوقت قد تأخر كثيرًا على القيام بتوثيق روابطك مع دولة تشين والعمل على تحقيق مصالحها.» فلما سأله الملك عن السبب في قوله هذا، أجابه شيخ شجرة السرو قائلًا: «إن المرء بحكم العادة، يستعجل مجلبة النفع واستقدام يد العون والخدمة، بينما يقوم متثاقلًا إذا جاء الدور عليه لخدمة مصالح الآخرين؛ وأراك يا مولاي (على العكس ...) تتثاقل عند القيام بما فيه مصلحتك، فكيف تنهض بأعباء العمل لما فيه وجه النفع للناس، (أما كنت أولى بأن تنفع نفسك؟!).» فسأله الملك عما أدراه بذلك، وعلى أي أساسٍ يبني موقفه فيما يقول، فأجابه: «قد التقيت بالموظف الموفد من دولة ويه للعمل في الدوائر الملكية، وقال إنه قد بقي له ثلاث سنوات، منتظرًا أن تستدعِيَه، وهو باقٍ في الانتظار حتى اللحظة فمن ثم أدركتُ أنك لست متلهفًا على خدمة شئونك الداخلية.» وكان أن أسرع جلالته باستدعاء الموظف الكبير الموفد من بلاط دولة ويه.

لمَّا اشتدَّ المرض بالأمير وريث العرش

اشتدَّ المرض على الأمير، وريث عرش دولة ويه، فتكلم «فوشو» مع «إينشون جيو» [كلاهما من كبار وزراء دولة ويه] قائلًا: «أنصت لما أقول جيدًا، ثم اذهب إلى سمو الأمير وانقل له نصائحي وكلِماتي دون أن تنقص أو تزيد حرفًا واحدًا، وهنالك فستجد الأمير أشدَّ الناس إجلالًا لك وأحرصهم على مجالستك وتقريبك منه. إن ما يأتيه المرء من أفعال وتصرفات أثناء حياته يختلف كثيرًا عما يسيطر عليه قُبيل انقضاء أجله.» وقد كان أمير البلاد، في مُقتبل أيام حياته منغمسًا في لهو الأيام، صاحب ليل ونساء، وهكذا فقد أصدر أوامره، حينئذ، بتعيين كل من «شيتزو» و«نوبوا» [اثنان من الوزراء من ذوي الحظوة لدى سموه] في تلك الفترة من عمره، بناء على الانطباع الشخصي والهوى والميل الذي لا يستند إلى أُسس منطقية، حتى وقع في ظنِّ كبار رجال الدولة أنه قد أهمل شئون عمله وتفرغ لنزواته ومجونه (ملذاته وسهراته [حرفيًّا]) وبالتالي، فلم يكن هناك من يناقش معه شئون البلاد وأحوالها، وأريد منك أن تقول لسموِّه: «إن جميع تصرفاتك ليست على مستوى المسئولية، ولا مُبرر لها من منطقٍ أو حكمة، فهذا «شيتزو» يعيث فسادًا، وقد استبد بسلطانه أيَّما استبداد، لا سيما أن وراءه «نوبوا» يُعضده ويمدُّ له حبال البطش والعسف والجور، وهو ما سوف يؤدي إلى حرمان آل «قونصو» [العائلة الحاكمة] من أداء طقوس تقديم القرابين [للأجداد والآباء].» فلمَّا بلغت هذه الكلمات مسامع الأمير، فطن إلى مغزاها واقتنع بجدواها ثم سلَّم الخاتم الرسمي ليد «إينشون جيو» قائلًا له: «إذا قضيتُ نحبي، فلتضبط أنت شئون دولة ويه من بعدي.» فلما مات الأمير، عمل إينشون بوصيته، وقام على ترتيب شئون الحكم، وساند القون «تشي» [ولد الأمير الراحل] في تولي زمام الحكم، وعندئذ، أجبرت أُسَر وقبائل الوزيرين السابقين «شيونزي» و«نوبوا» على الرحيل عن البلاد.

لمَّا هرب شيومي إلى دولة وي

فرَّ أحد المُجرمين (ويدعى «شيومي»)، من أبناء دولة ويه) إلى دولة وي — وذلك إبان حكم الأمير وريث عرش ويه — وكان أن عرضت دولة ويه مائة مثقال من الذهب مقابل إعادته، إلا أن وي رفضت هذا العرض، فعادت تعرض استبداله بإحدى محلاتها (وهي قرية تزوشي) وذهب جمع من الوزراء إلى وريث عرش ويه، ونصحوا له قائلين:

«ليس من المُناسب أن تطلب تسليمك شيومي، مقابل قرية تقدر قيمتها بمائة مثقال من الذهب.» فأجابهم: «إن تحقيق الأمان والاستقرار ليس مرهونًا بحجم البلاد، كما أن الفوضى والانحلال ليس مرتبطًا بوزن بلدٍ مُحدد بين الأمم. وإذا تعلَّق الأمر بقيمة ما يُحدثه التعليم والتربية في بلدٍ من البلدان، فإن قرية تسكنها ثلاثمائة عائلة تنضوي تحت لواء سياسة رشيدة تُحقق الأمن والاستقرار أفضل كثيرًا من عشر مدن لا يردعها وازع من خلق أو استقامة أو حياء.»

لمَّا أُقيم حفل زواج لأحد مواطني دولة

أقيم حفل زواج لأحد مواطني دولة ويه، ولما جاءت العروس وركبت العربة المزينة، سألت الحوذي: «لمن هذه الخيول التي تقود العربة؟» فأجابها: «هي خيول مؤجرة خصوصًا لهذا الحفل.» فقالت له العروس: «فلا تضرب بعصاك الخيل الأمامية، بل اضرب الخيول الخلفية.» فلما وصلت المركبة إلى بيت الزوجية، جاءت الوصيفات ليصطحبنها إلى باب المنزل، فلما سارت معهن قليلًا، سألتهن: «أرجوكن أن تُطفئن وقود الأفران، لئلَّا يشعل الحريق المنزل.» وعندما دخلت البيت ورأت الجرن الحجري المُستخدَم في دق الحبوب، قالت لمن حولها: «ضعوا هذا الجرن تحت الشباك ليحول دون عبور المارة، في الطريق.» وراح الزوج يضحك بشدة، لما لاحظه في كلامها من عدم اتساق منطقي؛ ذلك أن كل ما قالته العروس، وعلى الرغم من أهميته لم يستدعِ الاهتمام اللائق بقدر ما استوجب الضحك والسخرية، لا لشيء إلا لأنه لم يتحرَّ الدقة واللحظة المناسبة والوقت الملائم والظرف اللائق.

سجل دولة جونشان

لمَّا أراد أمير دولة وي إبادة دولة

أراد الأمير «أونهو» — أمير دولة وي — القضاء التام على دولة جونشان، فتكلم «شانجوان تان» [أحد وزراء دولة جاو] مع الملك شيانغ، حاكم جاو، قائلًا لجلالته: «إذا تمكنت دولة وي من ابتلاع دولة جونشان، فلن تقوم لدولة جاو، بعدئذٍ، قائمة؛ فلماذا لا تُحاول أن تتقدم إلى الأمير أونهو طالبًا الاقتران بابنته «كون ويشين» زوجة لك، على أن تفرض عليها الإقامة الدائمة (الإجبارية) بدولة جونشان مما يحفظ على هذا البلد وجودَه وبقاءه دون مخاطر.»

لمَّا قام كونسونيان بتنصيب الملوك الخمسة

قام كونسونيان بتنصيب ملوك الدول الخمس: تشي، وجاو، ووي، وهان، وجونشان وكانت جونشان هي آخر دولة تم تنصيب ملكها على يدَيه، وتكلم ملك تشي إلى حاكمَي وي، وجاو قائلًا: «أشعر أن من دواعي الإحساس بالعار أن يتم تنصيبي ملكًا على المنصة نفسها التي شهدت تولية حاكم جونشان، وكم أتمنَّى أن أشترك معكما في مهاجمة بلاده، ونزع اللقب الملكي عنه.» فلمَّا ترامت أنباء ذلك الحوار إلى أسماع ملك جونشان، تولَّاه الفزع، فاستدعى كبير وزرائه [المدعو «جاندن»] وقال له: «قد تم تنصيبي ملكًا شرعيًّا على البلاد، إلا أن ملك تشي صرَّح أمام حاكمَي جاو، ووي بأنه يشعر بالعار إذ جرى تنصيبه معي في نفس المكان، ويتدبر السُّبل لمهاجمتنا، وكل ما أخشاه هو أن تتعرض البلاد للتدمير الشامل وخطر الإبادة، ولستُ أعبأ باللقب الملكي قدْر انشغالي بمصير الوطن، وليس غيرك ألجأ إليه في هذه المحنة وأطلب إليه الرأي والمشورة (... والنجدة).» فأجابه «جاندن» قائلًا:

«فأطلب من جلالتكم، إذن، أن تُمدني بعدد وافر من المركبات والهدايا السخية، على أن تأذن لي بالذهاب لمقابلة تيانين».

وهنالك قام حاكم جونشان بإيفاد جاندن إلى دولة تشي، حيث التقى بتيانين [رئيس وزراء تشي] وقال له: «بلغني أنكم تريدون نزع اللقب الملكي عن حاكم دولة جونشان، وأنكم تُدبرون مع دولتي وي وجاو الخطط لمهاجمة البلاد، وأرى أنكم جميعًا مُخطئون في ذلك؛ لأنه بمجرد أن تبدأ الدول الثلاث في الإغارة على جونشان الضعيفة الضئيلة، فلن يسعها إلا الخضوع لأوامركم والرضوخ لإملاءاتكم حتى لو كان الأمر يتعلق بما هو أفدح من نزع اللقب الملكي. (هذا من جانب، أما من جانب آخر …) فإن وطأة القلق والخوف إذا اشتدت على دولة جونشان، فلا بد أنها ستفقد لقبها الملكي، وكيانها المستقل لمصلحة دولتي وي وجاو، وتُصبح مجرد دويلة خاضعة لهما، وحينئذٍ، لن يزيد دورك عن أن تكون [دولة تشي] راعي أغنام للدولتَين (هي ترعى وتشقى وهم يحلبون وينعمون) أي أن مثل هذا الوضع لن يُثمر أي نفعٍ لدولة تشي، أفليس الأفضل من هذا كله، أن تتنازل دولة جونشان عن لقبها الملكي لصالح بلادكم وحدَها اعترافًا بطاعتكم وولاء لسيادتكم؟»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وسأله تيانين: «فما العمل إذن، وكيف يمكن التصرف في رأيك؟» فأجابه «جاندن»: «أرى أنه عليك الآن أن تطلب لقاء ملك جونشان، وأثناء اللقاء تقر لجلالته باللقب الملكي الحائز له، مما سيُسعده كثيرًا، وعندئذٍ فسيقطع علاقاته مع وي وجاو، وهو الأمر الذي سيُثير غضبهما، فيهاجمان دولة جونشان التي ستتصاعد موجة الأزمة بها، وتتفاقم حدة المخاطر التي تُحاصرها ويصبح معلومًا للكافة أن الممالك لا تريد الاعتراف لها باللقب الملكي، وبالتالي فستكون عرضةً لكل ألوان المخاوف والظنون، ومن ثم فستُضطر إلى الاعتراف بطاعتكم، وهنالك يمكنها التنازل عن اللقب الملكي نزولًا على مطلب الانضواء تحت نفوذكم؛ لأن جلالة الملك سيجد نفسه مُستعدًّا للتنازل عن اللقب الملكي حفاظًا على مصلحة بلاده، وبالطبع فهذا أفضل لكم كثيرًا من أن تصبحوا مجرد رعاة غنم ترعون مصالح الدولتين وي وجاو.» فقال تيانين: «سمعًا وطاعة، والرأي ما قلت!» وقال جنشو [كبير وزراء تشي]: «ليس هذا بالرأي السليم أبدًا، وقد سمعت أن من تحدُوهم تطلعات متشابهة هم أكثر الناس تنافرًا، كما أن الآلام المُتناظرة توحِّد بين النفوس والمشاعر فانظر إلى الدول الخمس تجدها متفقةً جميعًا حول تبادل اعترافها لبعضها البعض باللقب الملكي، وعندما ترفض

تشي الاعتراف لدولة جونشان بهذا اللقب، فسيكون القاسم المشترك بين الجميع هو قيمة الاعتراف لبعضهم بعضًا بالمكانة الملكية، بينما تُساورهم الظنون والمخاوف حول احتمال تدخُّل تشي في هذا الأمر (على نحوٍ غير مُرضٍ) أما إذا قمتَ بمقابلة ملك جونشان، واعترفت له بهذا اللقب الرسمي فستكون قد انتهكت سلطة وسيادة الدول الأربع الباقية، وتكون أيضًا قد أعطيت دولة تشي ميزة تتفوق بها على الآخرين، وإذ تفوز تشي وحدَها بعلاقات طيبة مع جونشان وتخسر علاقتها بالدول الأربع، فسوف تُصاب تلك الدول بخيبة أمل مروعة.

ومن ثم فلا بد لك، بادئ ذي بدء، للبلدين تشي وجونشان أن تعترفا بلقبيهما الملكيين بين بعضهما البعض، ثم تتعمَّد دولة تشي الاقتراب حثيثًا من جونشان، وهو ما سيؤدي بردود الفعل، إلى فتورٍ ثم انقطاع العلاقات مع باقي الدول الأربع. هذا من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى، فإن قيام جاندن، (وعلى مدار فترة طويلة من الزمن) بتقديم الخطط وإهداء السياسات والأفكار إلى دولة جونشان، يجعل من الصعب تصديق فكرة أنه يمكن أن يُشير علينا بما يعود بأدنى قيمةٍ أو فائدة عملية.»

ومع ذلك، فلم يأخذ تيانين بوجهة نظره، وإنما قام باستدعاء ملك جونشان، واعترف له باللقب الملكي، وتحدَّث جاندن مع الدولتَين وي وجاو، قائلًا: «كيف كان يمكن لي أن أعرف نية دولة تشي في مهاجمة منطقة هدونغ (التابعة لكما)؟ قد كانت تشي — في بادئ الأمر — تشعر بالعار لمجرد أن تعترف لـ «جونشان»، باللقب الملكي، فإذا بها الآن تقوم باستدعاء حاكم جونشان، وتعترف له أثناء اللقاء الرسمي معه باللقب الملكي؛ ذلك — بالطبع — رغبة منها في استخدام قواته العسكرية (لمشروعاتها الخاصة) فأين هذا كله من مسارعتكم إلى الاعتراف لدولة جونشان باللقب الملكي للحيلولة دون التقائهما؟» ونزلت الدولتان وي وجاو على رأيه، وقامتا بالاعتراف لدولة جونشان باللقب الرسمي، بل وثقتا علاقاتهما معها، وكان أن قامت جونشان بالفعل بقطع علاقاتها مع دولة تشي إذعانًا لنفوذ وسيادة كلٍّ من وي وجاو.

لمَّا استعدَّت جونشان للاعتراف الرسمي المتبادل

استعدت الدول الثلاث: جونشان ويان وجاو للاعتراف المُتبادل باللقب الملكي، إلا أن دولة تشي بادرت إلى إغلاق منفذها البري في وجه رسول دولة جونشان، وصرَّحت قائلة: «كيف يمكن لدولةٍ صغيرة مثل جونشان لا يزيد ما تملكه من مركبات عسكرية على ألف مركبة،

أن تتكافأ معنا ونحن دولة كبرى (ذات عشرة آلاف مركبة)؟!» بل اعتزمت تشي أيضًا أن تقوم بالتنازل عن أرض «بينغ» لكل من يان وجاو، استرضاءً واستحثاثًا لهما على مهاجمة جونشان، مما أثار قلق «لانجو» [رئيس وزراء جونشان] وكان أن تحدث «جاندن» إلى رئيس الوزراء المذكور، قائلًا: «ماذا يُقلقك من جانب دولة تشي؟» فأجابه: «لانجو»: «من المعروف أنها دولة كبرى ذات عدة وعتاد ([حرفيًّا]: ذات عشرة آلاف عربة عسكرية) ومن ثم فهي تنظر بعين الازدراء إلى جونشان التي لا تتكافأ معها في قوتها وعتادها، هذا بالإضافة إلى ما أبدته تشي من الكرم البالِغ إذ تنازلت عن أجزاء من أراضيها لاسترضاء دولتَي يان وجاو، ودفعهما لضرب جونشان، ومن المعلوم أن هاتين الدولتَين لا تحفظان عهدًا أو ميثاقًا، ولا تنظران إلا بعين الطمع في أراضي الغير فأخشى أن تنكصا عن مؤازرتنا، بما يعرِّضنا لأفدح المخاطر (من الزاوية العامة للأمور) أو تسلبنا الحق الملكي (في أقل القليل) فكيف يهدأ لنا بال؟» فقال له جاندن: «عليك أن تثق بأني سأبذل جهدي لأحمل الدولتَين يان وجاو على الإقرار بالحق الملكي لدولتكم، فتستقر الأحوال وتهدأ الأمور، فهل يكفي هذا لطمأنتك؟» فأجابه: «بل هذا عين ما أتمنَّى.» فقال له: «فما رأيك بأن تنصت لي وأنا أحدثك كما لو كنت أنت ملك تشي (وأن تُجادلني فيما أقول بلسانه) علَّني أجد الوسيلة (بهذا «الإعداد التمثيلي») لإقناعه.» فقال رانجو: «تفضل، قل ما عندك وأنا مُستمع إليك.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

قال جاندن: «من الواضح أن ما تُبديه، جلالة الملك، من استعدادٍ للتنازل عن أجزاء من أراضيك لكلٍّ من يان وجاو، تحريضًا لهما على المضي قدمًا في حشد قواتهما لضرب جونشان، إنما يهدف (أساسًا) لنزع الحق الملكي عنها، ولا بد أن جلالتك سترد قائلًا: «نعم هو ذاك بالضبط.» ومن ثم فإني أجيبك قائلًا إن تصرفك هذا لن يكون مجرد تبديد للمُمتلكات والأموال، بل استجلابًا للمخاطر، فتنازلك عن أراضي بلادك لتلكم الدولتَين يمثل تقوية لأعدائك، وحض الجيوش على مهاجمة جونشان إشعال لفتيل الحرب وإعداد لساحتها بين متنافِسين كثيرين، ثم إنك تخاطر بشيئَين مقابل لا شيء؛ لأنك لن تجني شيئًا مما تُدبره لدولة جونشان، وأعرض عليك خطة، إذا قبلتها فلن تكون بحاجة إلى التنازل عن أرضك أو تحريضٍ على حشد الحشود، بل يمكنك — بغير داعٍ إلى كل هذا — أن تسلب جونشان اللقب الملكي، بكل سهولة أيضًا، ولا بد أن جلالة ملك تشي سوف يسألني: ما

خُطتك في ذلك وما تفاصيلها؟ وهنالك تكلم لانجو، فقال: «آه، صحيح، ما هي تلك الطريقة (من أولها إلى آخرها)؟» فأجابه جاندن: «فقط، عليك أن تُرسل مبعوثًا من طرفك إلى ملك جونشان، ليقول له: «ما أغلقتُ طريق المرور في وجه مبعوثكم إلا لِما لاحظته من حرصكم على تبادل الاعتراف باللقب الملكي على نحوٍ منفرد بتشجيع من الدولتَين يان وجاو، دون أن تحاولوا الاتصال بي وإطلاعي على شيءٍ من ذلك، فكان الطبيعي أن أُغلق الطريق في وجه الرسُل، أما إذا تفضل جلالة الملك مشكورًا بزيارتنا فسنبذل له المساعدة.» وهكذا فعندما تخاطب جونشان بقولك إنك مُستعد، على الفور، لمؤازرة مطلبها في الاعتراف بالحق الملكي، خصوصًا في وقتٍ تتوجَّس فيه خيفة من جدية مساعدة الدولتين: يان وجاو لها، فلا بد أنها ستتحاشاهما — على نحوٍ جادٍّ وإن بطريقة خفية — وتتلمَّس اللقاء مع جلالتك، وهنالك فستبادر الدولتان المذكورتان فور علمهما بتطورات الأحداث، إلى قطع علاقاتهما مع جونشان، إذ تثور ثائرة غضبهما، وهكذا يتيسر لك أنت أيضًا أن تقطع علاقتك مع جونشان بالمثل، فكيف إذن تستطيع دولة تم عزلها بالكامل عن كل عون ومساعدة ونصرة واعتراف وتأييد، بأن تحتفظ بالحق الملكي؟ فهل إذا سيقت مثل هذه الحجج إلى ملك تشي، تكفي لإقناعه؟» فأجابه لانجو: «بل إني واثق من أنه سيُصدق ويقتنع بكل حرف مما قيل، لكن تلك هي خطة تحقيق عدم الاعتراف باللقب الملكي، فماذا عن خطة الاحتفاظ باللقب؟» فقال له جاندن: «بل تلك هي خطة الاحتفاظ بالحق الملكي، باعتبار أنه سيتم نقل كل ما صدر عن ملك تشي إلى الدولتَين يان وجاو، بحيث يجري العمل على تحريضهما لقطع علاقتهما مع تشي، وتعميق صداقتهما مع جونشان، وعندئذٍ، فإن دولتي يان وجاو سوف تقولان، بضمير الحال، إن تنازل تشي عن أراضيها لنا لم يكن يهدف إلى إلغاء اللقب الملكي لدولة جونشان، بل كان يرمي أساسًا، لبذر الشقاق بيننا وبينها، لتستأثر (تشي) بالاقتراب منها دون الآخرين.

ومن ثم فسترفض الدولتان هذا العرض من جانب تشي — برغم سخائه».» فأبدى لانجو رضاه التام عن هذه الخطة قائلًا: «وإنها بارعة حقًّا.» ثم بادر إلى إيفاد جاندن إلى دولة تشي، حيث تكلَّم هناك بنفس الحجج مستخدمًا المنطق والأسلوب ذاته، فيما بعد فقد قامت جونشان بنقل ما دار من أحاديث إلى يان وجاو، فقطعتا علاقاتهما مع تشي، وبذلَتا وافر الدعم والمساعدة لـ «جونشان» وأقرَّتا لها باللقب الرسمي فانتظمت الأحوال واستقرت الأمور.

لمَّا ذهب كبير وزراء جونشان إلى دولة

سافر «سماشي» [كبير وزراء دولة جونشان] في مهمةٍ رسمية إلى دولة جاو، وقد حاول أثناء الزيارة أن يقنع المسئولين هناك، بأن يعملوا على توليته منصب رئيس الوزراء [لدولة جونشان] بكل حيلةٍ ممكنة، وكان أن أُطلِع أحد كبار المسئولين في دولة جونشان [هو المدعو: «قونصون هونغ»] على ذلك الأمر، بوسائل سرية، فلما كان جلالة الملك خارج القصر، في إحدى الجولات، ذهب برفقته سماشي، وكان ثالثهما — في العربة الملكية — قونصون هونغ الذي ابتدر الملك قائلًا: «ما رأيك فيمن تولَّى منصبًا ذا شأن ([حرفيًّا:] وزير في الحكومة) وراح يستغل منصبه سعيًا لتحقيق مآربه الشخصية في الترقي إلى مواقع وظيفية رفيعة المستوى؟» فأجابه الملك: «كنت دققْتُ عظامه، بل سحقتُها سحقًا، وأكلت لحمه بأسناني، [هكذا، حرفيًّا].» وهنالك، قفز سماشي من العربة وركع عند العارضة الخشبية الأمامية قائلًا: «قد علمت أن الموت آخِذ بناصيتي الساعة.» فلما سأله الملك عن سبب قوله هذا، أجابه: «لأنه قد حق عليَّ العقاب.» فاستحثه الملك على النهوض والقيام معه، قائلًا: «قم، تعال ها هنا، وليس ثمة مشكلة.» وبعد فترة من الزمن جاء رسول من دولة جاو يطلب من دولة جونشان تعيين «سماشي» في منصب رئيس الوزراء، وظن ملك جونشان أن وراء هذا الأمر مكيدةً دبرها «قونصون هونغ» للإيقاع بزميله «سماشي» لإلحاق الأذى به، فما كان من قونصون، إلا أن فرَّ هاربًا خارج البلاد.

لمَّا عمل سماشي رئيسًا لوزراء دولة

عمل سماشي رئيسًا لوزراء دولة جونشان ثلاث مرات مُتعاقبة، غير أن محظية الملك [المشهورة باسم: «إينجيان»] كانت تمقته وتستريب في أمره، فجاء «تيانجيان» [أحد كبار وزراء دولة جونشان] وقال لرئيس الوزراء: «لدينا مبعوث من دولة جاو، وفد علينا ليستطلِع الأحوال، أفلا تُكلمه في أمر تلك المحظية «أينجيان» (لعلَّه يذكرها عند ملك جاو؟) ولا بد من أن جلالة ملك جاو سيطلبها للمثول بين يدَيه، فإذا أرسلها له مليكنا، زال الخطر الجاثم، وانفضَّت الهموم؛ أما إذا لم يوافق جلالته على إهدائها إلى ملك جاو، فيمكنك أن تطلب من جلالته اتخاذها زوجة (رسمية)، ولا بد أنها — عندما تعلم بذلك — ستشكر لك صنيعك بكل الامتنان، وترد لك الجميل مضاعفًا.» وبالفعل فقد عمل سماشي على أن تتقدم دولة جاو بطلب استقدام المحظية «إينجيان» إلا أن ملك جونشان رفض الاستجابة

لهذا الطلب، فقال له سماشي: «إن رفضك إهداء المحظية إلى ملك جاو سيُثير غضبه مما قد ينجم عنه تعقيدات ومخاطر لا حصر لها، ولذلك فأنت تستطيع أن تتدارك الأمر بأن تتزوَّجها رسميًّا، وهو ما لا يُعطي الحق، لأي فرد، بأن يتدخل في شئونك الشخصية، ولا يُعطي لأي إنسانٍ ذريعة للغضب؛ إذ ليس من المنطق أن تثور الحزازات في النفوس، لأن رجلًا يمنع امرأته ويحافظ عليها.»

وكان تيانجيان يرى أنه وحده، هو (رتب الأحداث على هذا النحو. حيث) طلب استقدام المبعوث من دولة جاو إلى جونشان، في محاولة لخدمة رئيس الوزراء «سماشي» (والعمل على خروجه من المأزق الذي وجد نفسه فيه) وخدمة إينجيان نفسها ورفض تدخل جاو في الشئون الداخلية في الوقت نفسه.

لمَّا قام الصراع بين المرأتين حول الفوز بموقع

تنافست المرأتان (المحظيتان) «إينجيان» و«جيانغ» حول الفوز بموقع الملكة الأم، وذهب رئيس الوزراء سماشي وتكلم مع والد إينجيان فقال له: «إذا تم لها الفوز فستكون لك الأراضي والإقطاعات الكثيرة، وستملك زمام السلطة والحكم، أما إذا كان العكس، فستكون حياتك في خطر، فإذا كان النجاح هو المرغوب، فلماذا لا يتم الحضور إلينا والتباحُث معنا؟» فركع الرجل، وقال: «ما دام الأمر هكذا، فأرجو أن تدُلَّني على الطريقة التي تُمكِّنني من التعبير عن أعمق معاني الامتنان والشكر.»

وذهب رئيس الوزراء إلى جلالة الملك، ورفع إليه مذكرة رسمية جاء فيها … «قد بلغنا ما يُفيد بأن هناك خطة جاهزة لإضعاف مركز دولة جاو، مقابل تقوية دور ومكانة دولة جونشان.» فاستدعاه ملك جونشان، وهو في غاية الابتهاج، قائلًا له: «أود الاطلاع على تلك الخطة التي تُوهِن دولة جاو وتُعظم قوتنا.» فأجابه، سماشي، قائلًا: «فائذن لي يا مولاي بالذهاب إلى دولة جاو لمراقبة أحوالها العامة والتعرُّف على طبيعة أرضها ومدى وعورة تضاريسها، ومستوى حياة الناس، ودرجة الثراء مقابل الفقر، والوقوف على كفاءة ووعي المشتغلين بالوظائف الحكومية، سواء من القيادات أم الموظفين، واستقصاء ومقارنة جوانب القوة والضعف بين البلدَين، ولستُ أستطيع أن أتكلم في شيءٍ من هذا الآن، دون تمحيص، فالمسألة جدٌّ ولا مجال لهذا القول.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

والتقى سماشي بملك جاو، وقال لجلالته: «بلغني أن دولة جاو أكثر البِلدان حظًّا من فنون النغم والموسيقى، والنساء الفاتنات، لكني إذ حضرتُ اليوم إلى بلادكم وتجولتُ في أنحائها وتطلَّعت في الوجوه، أَنصتُّ إلى الأغاني الشعبية، لكني لم ألحظ شيئًا من علامات الحُسن أو الفتنة أو الروعة والجمال. لم أترك مكانًا، إلا دُرت في أنحائه، فلم أجد أجمل من المحظية «إينجيان» التي في قصرنا الملكي (بدولة جونشان)، إن الذين رأوها دون أن يتعرفوا إلى شخصيتها ظنوا أنها آلهة الجمال تنزلت على الأرض وليست هناك — من بين كلمات الوصف والبلاغة والتصوير — أساليب تفي بحقيقة صورة الجمال الأكمل، إن رائق بشرتها وبديع حُسن وجهها يفوق ما اشتُهر على طول الأحقاب والدهور من صفاء الحسن، ووسامة القسمات، وقد حبَتْها كنوز الملاحة بملامح أليق ما تكون بزوجة إمبراطور أو ملك عظيم.» وعندئذٍ بَدَا ملك جاو متأثرًا بما سمع، وسأله بصدْر منشرح: «فماذا لو طلبتَ مشاهدتها؟» فأجابه سماشي: «لئن كنت قد ذكرت من فائق جمالها، فلأن العين قد رأت واستملحت وعزَّ على الفم الصمت وحجب الكلام، أما ما تُبديه جلالتك من رغبة في مشاهدتها، فهذا ما لا أملك البتَّ فيه بكلمة وأرجو من جلالتك ألا تُذيع شيئًا مما تكلَّمنا فيه الآن.» وقام سماشي واستأذن في الانصراف، وقدم تقريره إلى ملك جونشان، قائلًا: «إن ملك جاو ليس بالعاقل الحكيم ولا قِبَل له بالسلوك المهذب القويم، بل هو صاحب نساء يميل إلى التهتُّك والخلاعة، قائدُه الهوى وليس آمِرَ العدل والحكمة، وحاديه الطمع والاستبداد، وقد بلغَني أنه مفتون بالمحظية إينجيان، ويطلبها لمسراته.» فتغير وجه الملك وثار غضبه، فقال له سماشي: «إن جاو دولة كبرى، وما يطلبه ملكها، فسيحاول الوصول إليه بشتَّى الطرق؛ فإذا امتنعتَ جلالتك عن تلبية مطلبه، غضبت عليك آلهة الزرع والحصاد [آلهة الأوطان — قديمًا—] وجلبت عليك شر الكوارث. غير أنك لو استجبت لطلبه فسوف تهزأ بك الدويلات والممالك.» فسأله الملك عما يحسُن أن يفعله في مثل هذا الظرف، فأجابه: «أرى أن تجعل من إينجيان زوجة رسمية للعرش الحاكم، حسمًا لأطماع دولة جاو، ولم نسمع في سِيَر الملوك أن أحدَهم طلب زوجة الآخر، وحتى لو ساورته الرغبة في الحصول عليها فهو وشأنه ما دام لن يجد من يُصغي إليه.» وعندئذٍ أصدر ملك جونشان قرارًا باتخاذ المحظية إينجيان زوجة للبلاط الحاكم وانخرس لسانُ ملك جاو ولم يعُد يُكرر مطلبه القديم.

لمَّا أراد ملك جاو مهاجمة جونشان

أراد الملك أولينغ — حاكم جاو — مهاجمة دولة جونشان وأوفد كبير وزرائه «ليتس» لتقصِّي الأحوال (وحدث أنه التقى بالملك أولينغ، وقال له): «تستطيع أن تبادر بالهجوم الآن، وإلا فستسبقك إلى ذلك باقي الممالك، ويأتي دورك في آخر الصفوف.» فسأله الملك عن السبب في قوله هذا، فأجابه: «قد بلغني أن ملك جونشان، يركب عربته الملكية، وينزع عريشها، ويذهب لزيارة الأحياء الفقيرة والدروب البسيطة، وينزل على الطلبة والدارسين وقرَّاء الكتب والوثائق ضيفًا، لساعات طويلة، وقد قيل إنه زار — حتى الآن — سبعين منزلًا يقطن بها أولئك الدارسون.» فقال ملك جاو: «فهذا، إذن، رجل فاضل حكيم لا يجدُر بنا مهاجمته!» فرد عليه ليتس، قال: «كلَّا، فليس الأمر على النحو الذي تظن؛ ذلك أن إعلاء شأن الدارسين وترشيحهم دون غيرهم، لجلائل الأعمال، وتفضيلهم على سائر الناس من شأنه أن يشدَّ طموح الناس إلى التحلي بالرفعة والشهرة والمكانة الكاذبة، ويلهيهم عن التركيز على أساس الحياة والأمور جميعًا، ألا وهي الزراعة، وفلاحة الأرض، فيكون من أثر ذلك أن يُصاب الفلاحون بالتكاسل والإهمال واللامبالاة، ويجبُن المقاتلون. وتفتر الهِمم، ويعظم الخوف على الحياة والحرص الأناني على البقاء بأي ثمن. ولم يحدث، على مرِّ التاريخ أن دام البقاء لدولة على هذه الشاكلة.»

لمَّا أقام ملك جونشان مأدبة لضيوفه

أقام ملك جونشان مأدبة لكبار رجال الدولة والعلماء، وكان بينهم «صما زيشي» [أحد مواطني جونشان، سافر فيما بعد إلى تشو وعمل في دوائر بلاطها الحاكم] وعندما جرى توزيع أطباق الحساء، لم يوضع أمامه نصيب في طبقٍ خاص به، فغضب، وعدَّها سببًا لما أزمع عليه أمره فيما بعدُ بالهرب إلى دولة تشو، حيث راح يُقنع حاكمها بضرورة مهاجمة جونشان التي اضطُر حاكمها إلى الفرار، طلبًا للنجاة، وكان وهو في طريق الهرب والتخفِّي يلاحظ أن اثنَين من رعاياه يتبعانه وفي يدِ كلٍّ منهما حربة ذات نصل لامع، لا يُفارقانه أينما حلَّ أو ارتحل، فالتفت الملك إليهما مندهشًا، وسألهما: «ماذا بكما، وفيمَ تقتفيان أثري هكذا؟» فأخبراه بقصتهما، قائلَين له: «كان لنا أب شيخ كبير، وقد حكى لنا أنه تعرض ذات مرة لمقاساة المجاعة، وكاد الجوع يفتك به لولا أن تداركْتَه بطبقٍ من اللحم، أعطيتَه له فأنقذتَ حياته، فلما أوشك والِدُنا على الموت أوصانا، قائلًا: «إذا ما ألَمَّت المحنة

بدولة جونشان فابذلا أرواحكما حماية وفداء.» فلذلك اجتهدنا في حمايتك والدفاع عنك ما أمكن.» فرفع الملك رأسه ناحية السماء وتنهَّد قائلًا: «ليس البر أو العطاء بما قلَّ أو كثر وإنما بالبذل وقت المحنة، وليست البغضاء بما استقر في سويداء القلب أو بما ارتسم في الوجوه، وإنما بما بلغت به الإساءة مبلغها. قد فقدت عرشًا ووطنًا بسبب طبق حساء، وكسبت فارسَين بطلَين بسبب صحفة طعام.»

لمَّا قام يويانغ بالهجوم على دولة

قام يويانغ (بوصفه القائد العام لقوات دولة وي) على رأس حملةٍ عسكرية لمهاجمة دولة جونشان، وكان ولده، في تلك الأثناء، مُقيمًا بهذه الدولة، فما كان من ملك جونشان إلا أن أخذ الولد وألقى جسده في الإناء الذي فوق المَوقد فطبخه كما يُطبخ اللحم في المرق، فصبَّ منه في الأطباق وأرسل طبقًا إلى يويانغ (الوالد) ليُصيب منه طعامه فأكل حتى شبع. وظلَّت الناس من يومئذٍ يذكرون هذا الحادث (من الوجه الإيجابي) ويشيعون أن الأب التهم لحم ولدِه، دون غضاضة، زيادة في رباطة الجأش والثقة والتجلُّد. ذلك أنه وعلى الرغم مما ينطوي عليه مثل هذا السلوك من اقتحام لما تعافُه النفس من مشاعر أبوية، لكنه — على الرغم من أي شيء — يُبرِز في أروع مثال، صورة نادرة للالتزام بالانضباط العسكري وتقاليد الجندية.

لمَّا بلغت مستويات الحياة درجة من الاستقرار

بلغ مستوى حياة الناس، عهد الملك شاو — حاكم تشين — درجة عالية من النماء والدعة والاستقرار، وتطورت أسلحة القتال وبلغت العربات الحربية جودة فائقة فقد تهيأ الجو لشن غارات الهجوم على دولة جاو.

وتكلم بايتشي، فقال: «إن الهجوم على جاو أمر مُستحيل.» ورد ملك تشين، قائلًا: «ما أغرب دعواك يا هذا، لقد كنتَ أنت نفسك منذ سنتَين تُطالب بزيادة تعيينات الجيش ومضاعفة نسب التموين والإعاشة استعدادًا للهجوم الكاسح ضد جاو، وعلى الرغم مما كان معروفًا وقتها من خلو خزانة الدولة من الأموال وانتشار شبح البؤس والمجاعة والإثقال على كاهل الناس بما لا يطيقون، فما بالك تأتي اليوم، بعد أن نال الناس قسطًا من الدعة والاستجمام والرفاه، وفاضت مخازن الغلال وزاد معدل المُدخرات وتموين

الجند وتضاعفت رواتبهم عن ذي قبل، ثم تقول: من المُستحيل مهاجمة دولة جاو! فما معنى كلامك، وما مغزاه؟» فأجابه بايتشي: «إبان معركة شابين، كانت تشين هي المنتصرة وجاو هي المهزومة، وكان أهل تشين يمرحون مُتهللين بالفرحة، وأهل جاو بائسين خائفين مخذولين. وكان الموتى من أهل تشين يشيعون في جنازاتٍ مهيبة، والجَرحى يلقون كل اهتمام ورعاية، والمكدودون يجلسون إلى موائد الترَف يستجمُّون وينعشون أبدانهم، ويعودون إلى بيوتهم هانئين، وقد شبعت بطونهم وامتلأت جيوبهم بما حصلوا عليه من التعويضات والرواتب السخية، حتى نفدت أموال البلاد عن آخرها (هذا بينما ...) كانت جُثَث الموتى من أهل جاو مطروحة في العراء لا تجد من يُسجِّيها في أكفانها، ولا كان الجرحى يجدون الدواء، والبكاء والعويل يصم الآذان؛ فالمحنة قاسم مشترك والعذاب فوق الجميع، فما كان منهم إلا أن انصرفوا إلى زراعة الأرض والعمل بما فوق طاقتهم لتعويض ما فات وسدِّ الثغرات وإنماء الأموال وادخار الثروات وربما استطعت، فعلًا، أن تدفع إليهم، الآن، جيشًا يفوق ما كان في الماضي ضعفًا أو ضعفَين إلا أني أتوقَّع أنهم الآن قد أعدوا للدفاع عن دولة جاو جيشًا أقوى مما كان عشرة أضعاف.

إن كبار رجال الدولة والوزراء في دولة جاو — ومنذ وقوع معركة «شانبين» حتى اليوم — يعملون في أجواءٍ يغلب عليها طابع التوجُّس والحذر، ومع ذلك فهم يُواظبون على أداء أعمالهم بكل انضباطٍ وجدية؛ يذهبون إلى الديوان الملكي مع إشراق ضوء النهار، ويعودون إلى بيوتهم في آخر المساء يمدحون بالقليل ويجودون بالكثير، ثناؤهم النذر اليسير، وعطاؤهم الفيض الزاخر. وقد أطلقوا الوفود في كل اتجاه وإلى كل الممالك والدويلات يَطلبون المصالحة والسلام (وهكذا فقد ...) عقدوا ميثاق التحالف مع دولتي وي، ويان؛ وأقاموا علاقات الصداقة الحميمة مع دولتي تشو وتشي، ويضعون نصب أعينهم ومركز اهتمامهم ضرورة الاحتراس والحذَر من دولة تشين ويعتبرون تلك أدق مسألة في حياتهم.

إن الملاحظ في أمر دولة جاو هو أنها دولة قادرة وميسورة الحال داخليًّا وناجحة ونشيطة خارجيًّا؛ ففي مثل هذا الوقت بالذات لا يمكن مهاجمة دولة جاو.»

الجزء الثاني من الفصل نفسه

وقال ملك تشين: «قد اتخذت أهبة الاستعداد للهجوم.» ثم إنه أرسل النبيل «وانلين» على رأس قوات لمهاجمة دولة جاو، إلا أنه مُني بفشل ذريع وانتكست حملته، وتبدَّدت عساكره وتشرذمت فلوله، وفكَّر الملك في أن يجعل بايتشي قائدًا للجيش، إلا أنه تعلَّل بعجزه عن

القيام بتلك المهمة لمرضٍ عضال أصابه، فأوفد الملك إليه «إينخو» ليعوده في مرضه ويطمئن على أحواله ويُبلغه عتاب الملك، بقوله: «على الرغم من أن دولة مثل جاو، تبلغ مساحتها خمسة آلاف لي مربع، وعدد مُقاتليها [حاملي الرماح] أكثر من «مائة وان» [أكثر من مليون]، فإنك تمكنت بجيشٍ كثيف قمتَ على قيادته من اقتحامها واستوليت على أهم إقليمَين في أرضها: «يان»، «ينغ»، وأحرقت الدور المقدسة والمعابد التابعة لها، توغَّلت شرقًا حتى بلغت «حين لين»، وأوقعت الرعب والفزع في قلب دولة تشو، حتى فرَّ أهلوها في الأنحاء النائية خشية بأسك ولم يجسر أحد منهم على التوجُّه إليك ومقاومتك، وظلت دولتا وي وهان تدفعان بقواتهما، حتى اجتمعت منهما الحشود الهائلة فقمتَ لهم ثابتًا رابط الجأش، واشتبكتَ معهم في معركة «إيتشيو» فرددتَهم على أعقابهم وأنزلتَ بهم أشنع هزيمة، حتى قيل إن الدروع والرماح صارت تسبح في فيضان من دماءٍ جارية، وأطحت برءوسٍ بلغت جُملتها مائتي ألف رأس، حتى أطلقت الدولتان (وي وهان) على أنفسهما اسم «الدول التابعة لدولة تشين» وهو أثر من آثار ذلك العهد، ومأثرة من أبقى أمجادك، مما خلد ذكرك بين الناس، حتى اللحظة.

وكان من آثار معركة شانبين، الفتك بالكثير من جنود دولة جاو، وقد بلغ من كثرتهم أن أهل الضحايا أصبحوا هم العدد الأعظم من السكان، (وهو ما يؤثر — إجمالًا — في عدد القوات التي يمكن حشدها في جيش جاو)، فلذلك أرجو أن تقبل قيادة القوات، وسيكون لك النصر المُظفر على جاو، التي لا أشكُّ أنك ستُبيدها من الوجود. إنني أذكر لك عبقريتك العسكرية، حيث انتصرت بطائفة قليلة من جندك على جموع غفيرة من أعدائك، وحققت الانتصار، كأنك ساحر جيوش أو عبقري معارك، لم تعرف الدنيا له نظيرًا. وأثق أنك ستظهر عليهم، لا سيما أنك في عدة وافرة وكثرة غالبة على فلولٍ منهزمة وبقايا كسيحة!»

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وقال بايتشي: «كانت دولة، تشو وقتئذٍ، تعتمِد على ضخامتها وسَعة أراضيها دون اكتراث بالشئون السياسية الدقيقة ودون الْتفات إلى تفاصيل السلطة السياسية، وكان الصراع على أشُدِّه بين الوزراء وكبار رجال الدولة للتقرُّب إلى البلاط الحاكم والتزلُّف إليه ومُداهنته، وكثيرًا ما وقع التباغُض والتحاسُد بين رجال الحكم أنفسهم، وكان الأكفاء يُنبذون ويُستبعدون، وقلوب الناس مُتنافرة، وأسوار المدن مُتداعية بغير ترميم ومجاري الأنهار بغير رعاية وإصلاح، فلمَّا كانت دولة تشو بغَير رجال حُكم أكفاء يجيدون الاضطلاع بمهام

السلطة وترتيب شئون الحكم، وبغير قوات ساهرة على الدفاع، وجاهزة بالحشد والتأهُّب طوال الوقت، فقد استطعتُ أن أخترق صفوفهم، وأُخضع الكثير من محلاتهم وأراضيهم، ولطالما أصدرتُ الأوامر بهدم الجسور وإحراق السفن والمعابر، وألهبتُ عزيمة الجنود على المضيِّ في القتال، مما استوجب الاستيلاء على كميات هائلة من الحبوب والمحاصيل من الأحواز ومشارف الحواضر (لإعاشة القوات وتموين حاجاتها) وكان جنود تشين، في تلك الأوقات أفراد أسرة واحدة، وكانوا ينظرون إلى الجيش نظرتهم إلى عائلة كبيرة متآلِفة، لا يعوق حركة أفرادها واتصالهم ومودتهم برباط القُربى أي عائق؛ الكل متفاهم بغير مناقشة، والثقة مُستقرة بين الجميع، والنفوس مُتطلعة إلى هدف النصر، والشجاعة لها معنًى واحد هو الإقدام ببسالة لا الإحجام، (مهما كان الثمن) وكنت حينئذٍ، أرى جنود دولة تشو يقاتلون على أرض المعركة، أرض بلادهم الكبرى ولا يُفكرون إلا في أهليهم وعائلاتهم وذويهم، ولكل واحدٍ منهم مشاغله الذاتية، ومن ثم فقد تمكَّنت من الانتصار عليهم، دون أدنى مقاومة.

قد أثبتت لي معركة إيشيو أن قوات دولة هان، مجرد شرذمة مُتهافتة وتظاهرة بغير سند من القوة الحقيقية؛ إذ لم تكن يفكر البلد كله وقتئذٍ، إلا في كيفية استخدام إمكانات دولة وي لصالحها، واستغلالها إلى الحد الأقصى، دون أدنى اعتدادٍ بقواتها واعتماد على طاقتها الذاتية. بينما كانت دولة وي ترى أنه يمكن الاعتماد على ذلك القدْر من التدريب الذي حصلت عليه قوات هان؛ لتتقدم وحدَها على الجبهة، لكنها — في الواقع — كانت تريد أن تدفع به كطليعة ورأس حربة، لا غير.

ولم تكن طاقة قوات البلدين — فيما يتعلق بالقدرة على تحقيق أفضل النتائج من القتال — متوازنة بأي حال؛ وبالتالي، فقد عوَّلتُ على القيام بمناوشات خداعية مع جيش هان بينما أرسلتُ قوات فائقة التسليح والقدرة القتالية مقتحمًا جيش دولة وي على حين غفلة منه، فأوقعتُ به الهزيمة، ثم ما لبثتْ قوات دولة هان أن انهارت من تلقاء نفسها. وإذا كنتُ قد حققتُ مأثرة من أي نوع، فلأنني انتهزتُ فرصة تحقيق النصر فواصلت القتال ولاحقت الفلول المهزومة فقطعت دابرها، وما كان يمكن أن يتمَّ لي النجاح في أي شيءٍ من ذلك، لولا أني درستُ طبيعة أرض المعركة جيدًا، وتشكيل القوات، وتصرفتُ على نحوٍ منطقي (نتائج مترتبة على مقدمات) فأين هي العبقرية، وفيمَ الحديث عن السحر وما إلى ذلك؟!

وإذ قد تحقق لقوات تشين، النصر، في معركة شانبين على جيش جاو فيجب أن تفكر بسرعة في الخطوة القادمة فتسرع في استغلال فرصة ما أصاب جاو من الذعر، وتقدم

على تدميرها التام، وتُعجِّل بإبادتها وهي خائفة وخاضعة، فلا تُعطيها الفرصة لتستجمع طاقتها؛ فتزرع الأرض وتجني الحصاد، وتعوِّض ما خسرته من خزائنها، وتطعم الجائع وتعول الثكلى واليتيم، وتُعلِّم الصغار، وتحشد الكبار لبناء ما انهار من جيشها، وترميم ما تهدَّم من أسوارها، وتطهير ما انسدَّ من قنواتها ومصارف أنهارها، وتقوية حاميات مدنها وقواعدها.

وعلى الملك أن يتحامل على نفسه ويقترب من رجال دولته ووزرائه، كما يجب على كبار الوزراء ألا يبخلوا بأرواحهم وجهدهم في السير على نمط ومثال جنودهم [هكذا]، ويحضرني هنا، ما قام به «بينيوان جون» من تكليف زوجاته ومَحظياته بالذهاب إلى الوحدات المُقاتلة للمساعدة في رتق الملابس وغسيلها. يجِب أن يقف الجميع يدًا واحدة (حرفيًّا: تجتمع الحكومة والناس على قلب رجلٍ واحد) وأن يوحِّد الجميع جهودهم على نحو ما حدث في الحكاية المعروفة عن الملك قوجيان إبان محاصرته في جبل «كوايجي» [الملك قوجيان (... ٤٦٥ق.م.) حاكم دولة يوي، في زمن الدول المتحاربة، كان قد لقي هزيمة على يد قوات دولة «أو» فحاصرته في جبل «كوايجي»، فاستسلم لها، واستعر في قلبه لهيب الانتقام، فعزم على بناء جيشه وتعويض خسائره، واستطاع بعد عشر سنوات، تحقيق مآربه، فانتهز الفرصة الآن، واضرب جاو، فستلوذ بحصونها وتستميت في الدفاع، وسيبقى جيشها مُتحصنًا وراء مواقعه، ولن يخرج إليك أبدًا، وحتى لو حاصرت العاصمة، فلن تملك أن تقهرها، ولا أيًّا من المدن الأخرى، وإذا فكرت في أن تعيث في مشارف المدن، فلن تظفر بطائل. واعلم أن خروج أي جيش في حملة عسكرية دون تحقيق النصر هو الباعث الأساسي على تهيئة أسباب الغدْر والخيانة بين الممالك والدويلات والأمراء، وحينئذٍ فسوف تُهرع لمواجهتك قوات وجيوش جاءت لنصرة دولة جاو. وقد كنتُ فيما حدثتك به حتى الآن أنظر إلى الوجه السلبي فيما يتعلق بالهجوم على جاو، لكنني لم أتطرق إلى الجانب الإيجابي منه، ولولا أني مريض طريح الفراش لكنت قمت وذهبت إلى القتال.»

الجزء الرابع من الفصل نفسه

وخرج إينخو (من عنده) كسيفًا خائب المسعى، وقصَّ على ملك تشين كل ما دار بينه وبين بايتشي، فقال الملك: «وهل أعجز عن تدمير دولة جاو، إذا لم يكن بايتشي معي يقاتل في صفوفي؟» ثم إنه أرسل مددًا من القوات، وأوفد وانخي، ليحلَّ محل «وانلين» في قيادة الهجوم، حيث تمت محاصرة العاصمة هاندان طيلة ثمانية أو تسعة أشهر، سقط خلالها

الكثير من القتلى والجرحى دون أن تستسلم المدينة، وأرسل ملك جاو (من وراء الحصار) كتيبةً منتخبة، خفيفة التسلح، كثيفة الاتصال، وراحت تُغير على مؤخرة جيش تشين، حتى نالت منها، بينما مُنيت كل غارات جيش تشين بالفشل الذريع، وحينئذٍ، تكلم بايتشي، قائلًا: «هو ذا لم ينصت إلى خُطتي، فكيف كانت العاقبة؟» فلمَّا سمع ملك تشين بهذا التعليق، ثار غاضبًا، وذهب بنفسه إلى بايتشي؛ مما اضطره إلى القيام عن فراشه، وقال له الملك: «حتى لو كنت مريضًا طريح الفراش، فإني أريد منك أن تقود القوات، مهما كانت الظروف، فإذا تحقق النصر على يديك، فهذا قصارى ما أرجوه، وسأُغدق عليك المكافآت الجزيلة، وأبذل لك الصلات الوافرة، إما إذا رفضت مطلبي، فسأذكرها لك وأطوي عليها صدر الكراهية.» فركع له بايتشي وضرب الأرض بجبينِه أمامه وهو يقول له: «قد علمت أني مُبرَّأ من التهمة، حتى لو ذهبت إلى القتال وانهزمت، وأني إذا رفضت الذهاب إلى الجبهة فسوف يُطاح برأسي، ولو من دون تهمة، لكني (في كل الأحوال) أرجو من جلالتك أن تنظر بعين الاهتمام إلى ما اقترحتُه عليك الآن، من خطة (متواضعة) فحواها: ... «أن تدع القتال مع دولة جاو، وتمنح الناس قسطًا من الاستجمام والراحة، وتتدارك الأحداث والفتن التي ظهرت بوادرها بين الدويلات بعضها بعضًا؛ لعلك بذلك تُهدئ من الروع وتُلطف من حدة الأجواء المفعمة بالنُّذر الوبيلة (وأرى أن تبادر إلى ...) مهاجمة الطغيان والغطرسة، وتشرع في إبادة الجور والجهل والميل عن الحق ومجانبة العدل، وأن تكتب بذلك في أوامرك إلى قادة وأمراء الدويلات، فيعم السلام أرجاء الممالك.» لماذا تريد أن تجعل من دولة جاو هدفًا لهجومك؟

قد يكون صحيحًا أني أرفض في عناد ... وأنك غاضب بإصرار، وهب أني رفضتُ حتى النهاية فذلك ما يقال له «الخضوع لأحد الوزراء كان بداية إخضاع الأمم والممالك.» فإذا رفضت جلالتك مراجعة خُطتي بعين الاعتبار، وأصررت على شفاء غليلك من دم دولة جاو، انتقامًا من كل من عاندوك (بما فيهم شخصي الضعيف ...) فهذا ما يمكن تلخيصه في عبارة، مفادها: «الانتصار على وزير واحد، مقابل الهزيمة أمام كل الممالك والتراجع أمام الدنيا كلها» فانظر أيهما أعظم؛ الانتصار على وزيرك الضعيف (المريض) أم الظهور على الأمم التي تحت السماء؟

وقد بلغني، يا سيدي، أن الملك الحكيم يُحب وطنه، وأن رجل الدولة المُخلص، حقًّا، يُفضِّل دائمًا النزاهة والاستقامة. إن بلدًا ممزقًا، مقطع الأوصال، لن تنضبط أحواله وتلتئم شئونه بسهولة، وإن راحلًا قد مات لا يعود أبدًا إلى سابق العهد بالحياة، واعلم تمام

العلم أني أقبل وأرضى أن يُوقَّع عليَّ العقاب بالموت، فهذا أفضل عندي من أن أجعل من نفسي أضحوكة القادة وهزأه الرجال، وبعد، فأرجو من جلالتك النظر في الأمر بكل وجوهه وتفاصيله.»

وقام الملك ومشى من عنده، دون أن يُجيبه بكلمة.

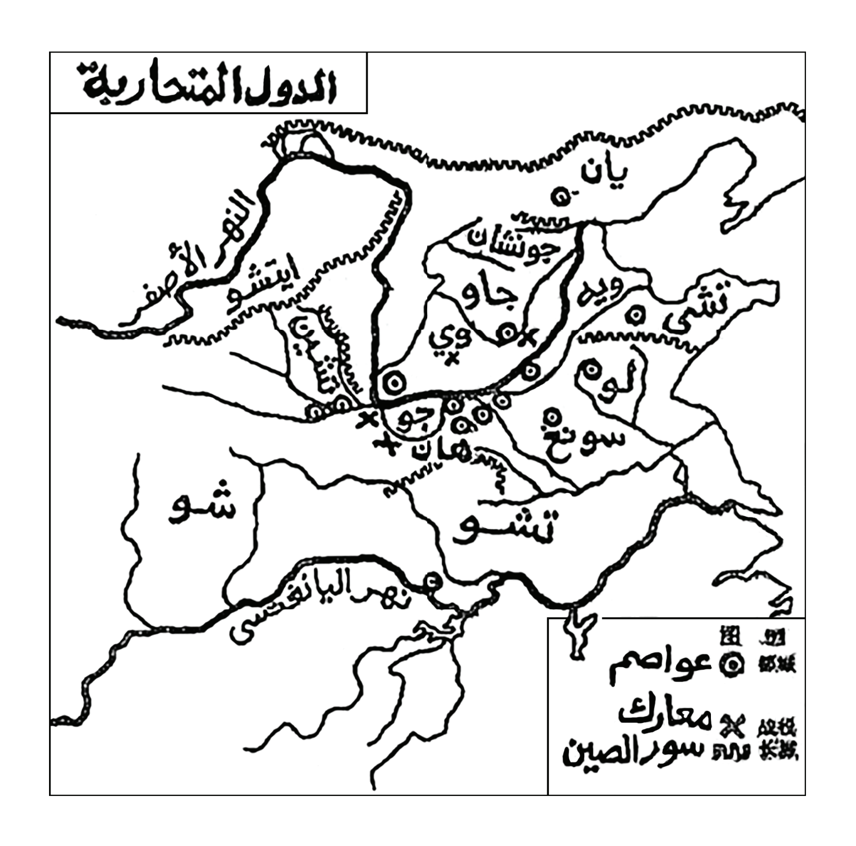
ملحق (١)

تقويم العصور التاريخية الصينية:

أسرة شيا، حوالى القرن ٢١-القرن ١٦ق.م.
أسرة شانغ، ١٦–القرن ١١ق.م.
أسرة جو (جو الغربية ١٠٦٦–٧٧١ق.م.)
(جو الشرقية ٧٧٠–٢٥٦ق.م.)
(عصر الربيع والخريف ٧٧٠–٤٧٦ق.م.)
(عصر الدول المتحاربة ٤٧٥–٢٢١ق.م.)
عصر تشين ٢٢١–٢٠٧ق.م.
عصر خان (خان الغربية ٢٠٦–٢٤ ميلادية).
(خان الشرقية ٢٥–٢٢٠ ميلادية).
عصر الممالك الثلاث (وي ٢٢٠–٢٦٥م.)
(شو ٢٢١–٢٦٣م.)
(وو ٢٢٢–٢٨٠م.)
أسرة جين الغربية ٢٦٥–٣١٦م.
أسرة جين الشرقية ٣١٧–٤٢٠م.
عصر الدول الست عشرة ٣٠٤–٤٣٩م.
عصر الأسرات الجنوبية:
(سونغ ٤٢٠–٤٧٩م.)
(تشي ٤٧٩–٥٠٢م.)

(ليانغ ٥٠٢–٥٥٧م.)
(تشين ٥٥٧–٥٨٩م.)
عصر الأسرات الشمالية
(وي الشمالية ٣٨٦–٥٣٤م.)
(وي الشرقية ٥٣٤–٥٥٦م.)
(تشي الشمالية ٥٥٠–٥٧٧م.)
(وي الغربية ٥٣٥–٥٥٦م.)
(جو الشمالية ٥٧٧–٥٨١م.)
أسرة سوى ٥٨١–٦١٨م.
تانغ ٦١٨–٩٠٧م.
الأسرات الخمس والممالك العشر
(ليانغ الأخيرة ٩٠٧–٩٢٣م.)
(تانغ الأخيرة ٩٢٣–٩٣٦م.)
(جين الأخيرة ٩٣٦–٩٤٦م.)
(خان الأخيرة ٩٤٧–٩٥٠م.)
(جو الأخيرة ٩٥١–٩٦٠م.)
(الممالك العشر ٩٠٢–٩٧٩م.)
أسرة سونغ
(سونغ الشمالية ٩٦٠–١١٢٧م.)
(سونغ الجنوبية ١١٢٧–١٢٧٩م.)
أسرة لياو ٩١٦–١١٢٥م.
أسرة شيا الغربية ١٠٣٢–١٢٢٧م.
أسرة جين ١١١٥–١٢٣٤م.
أسرة يوان ١٢٧١–١٣٦٨م.
أسرة مينغ ١٣٦٨–١٦٤٤م.
أسرة تشينغ ١٦٤٤–١٩١١
جمهورية الصين ١٩١٢–١٩٤٩م.
جمهورية الصين الشعبية تأسست ١٩٤٩م.

ملحق (٢)



الدول المتحاربة
يان
جونشان
النهر الأصفر
ايتشو
جاو
ويه
تشي
وي
جو
هان
لوم
سونغ
شو
تشو
نهر اليانغتسي
عواصم
معارك
سور الصين


هنداوي